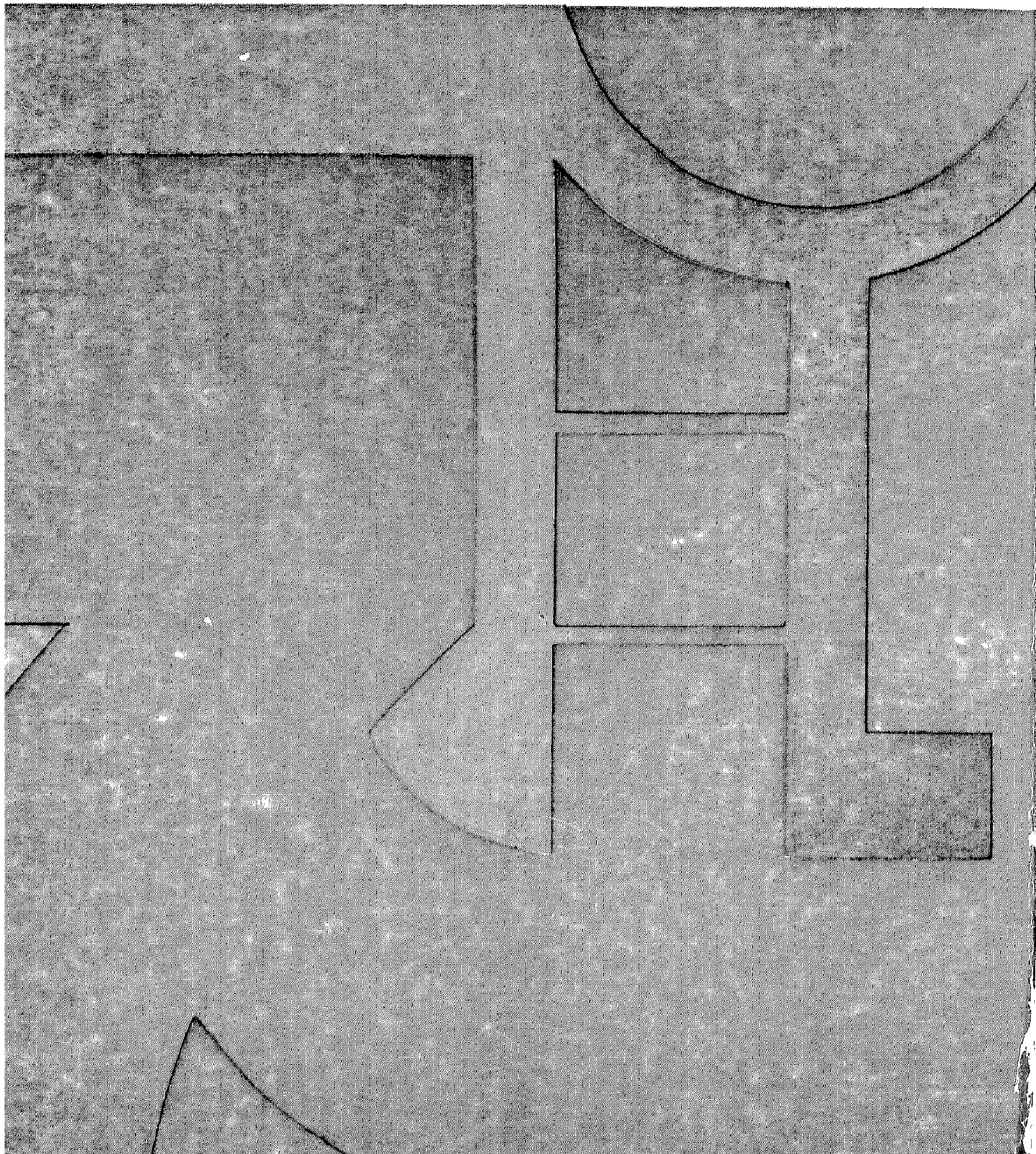
شؤون فلسطينية

٦
كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٦ — كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة . تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر شارع كولباني (متفرع من السادات)، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون ٢٩٤٥١٦ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

(بخصوص الاشتراكات وثمن العدد للسنة ١٩٧٢ ، انظر آخر صفحة من هذا العدد) .

PALESTINE AFFAIRS

Published in Arabic by the Palestine Research Center

Editor : Dr. Anis Sayegh

Address : P. O. B. 1691, Beirut, Lebanon, Tel. 294516, Cables : MARABHATH

Subscriptions : See last page.

المحتويات

[مستشار الدراسات الاسرائيلية في م. أ.] . (٤) السياسة الاسرائيلية ، أحمد خليفة [مستشار الدراسات الاسرائيلية في م. أ.] . (٥) المناطق المحتلة ، ع. م. (٦) الاقتصاد الاسرائيلي في النصف الثاني من العام ١٩٧١ ، د. يوسف شبل [مستشار قسمي الدراسات الاسرائيلية والفلسطينية في م. أ.] .

٢٣٩ **مراجعات** : (١) من فلسطين ريشتي ، فوزي كريم [الاديب والناقد العراقي] . (٢) الحرب غير المقدسة ، هاني فارس [الباحث في م. أ.] . (٣) احاديث مع جنود اسرائيليين ، نبيل بدران [الباحث في الدراسات الفلسطينية في م. أ.] . (٤) تزوير غاضب ، ايرين بيسون [الصحافية البريطانية المراسلة في الشرق الاوسط] . (٥) قصة فتح ، خليل هندي [الدارس في جامعة مانشستر] . (٦) اسرائيل : سنتان مصيريتان ، جودفري جانسن [الصحافي والكاتب الهندي] . (٧) التعاون الاقليمي ، والعلاقات الريفية المدينية في اسرائيل ، ب. س. (٨) المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية : ماتسبن ، هاني العبدالله [الباحث في الدراسات الاسرائيلية في م. أ.] .

٢٦٢ **تقارير ورسائل** : (١) مؤسسات البحث الاميركية والقضية الفلسطينية ، خ. هـ. (٢) تقرير من غزه ، ك. ت. (٣) النشاط الصهيوني في الولايات المتحدة ، د. حاتم الحسيني [الباحث الاعلامي في مكتب جامعة الدول العربية في واشنطون] . (٤) الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والتوثيق والمخطوطات العربية ، ن. ب. (٥) اربعة مؤتمرات طلابية في امريكا ، ح. ح. (٦) الحلقة الدراسية حول العناصر المشتركة في المأثورات الشعبية في الوطن العربي ، ن. ب. (٧) المقاومة والمجلس الكنسي العالمي ، ح. م. (٨) المؤتمر العمالي العالمي للتضامن مع عمال وشعب فلسطين ، ح. م. (٩) رالف بانش كما لم نعرفه ، مايكل جانسن [مستشارة النشر الانجليزي في م. أ.] .

٢٨٣ **حديث مع اربعة متمردين اسرائيليين** ، جميل هلال [الاستاذ في جامعة درم البريطانية] .

٢٩٠ **وثائق بريطانية حول اقتراح يهودي باقامة دولة يهودية في منطقة الخليج العربي اثناء الحرب العالمية الاولى**، خيرية قاسمية [الباحثة الفلسطينية] .

٢٩٢ **جدول بالشكاوي التي قدمها عرب الضفة الغربية المحتلة ضد تعسف الاحتلال الاسرائيلي ١٩٦٧ — ١٩٧١** ، ع. ع.

شؤون فلسطينية

الدكتور انيس صايغ

تختتم شؤون فلسطينية ، بهذا العدد السادس ، سنتها الاولى . ويصادف صدور العدد في اليوم الاول من يناير الذكرى السابعة لانطلاقة فتح . وقد ارتأت اسرة التحرير ان تحتفي بهذه المناسبة عن طريق معالجة عدد من المواضيع ذات العلاقة المباشرة بالثورة الفلسطينية والتي لم تحظ من قبل ، على اهميتها ، بدراسات كثيرة من كتّـاب الثورة ومدوني سيرتها . من هنا كان اهتمامنا بتغطية عدد من الجوانب الخلفية للثورة مما لا بد وان يساعد في اعطاء صورة أوضح للثورة بشكلها العام .

لقد صدرت شؤون فلسطينية ، قبل عام ، لتسهم في دراسة الثورة الفلسطينية وفي معالجة مشاكلها وفي عرض افكارها ومناقشتها وفي تحليل الظروف التي تمر الثورة فيها ، من الجهة الواحدة ، ولتقدم ، من الجهة الاخرى ، المزيد من الدراسات عن الشعب الفلسطيني ، في ماضيه وفي حاضره ، وفي تطلعاته لمستقبل أفضل ، والمزيد من المعلومات عن العدو ، ولكنها كانت (ولا تزال) حريصة كل الحرص ، وهي تتيح المجال امام دارسي الثورة الفلسطينية لنشر افكارهم ومناقشة آراء بعضهم بعضا ، بان لا يتحول منبرها هذا ، المهيأ لان يلعب دورا أساسيا في بناء الفكر العربي المعاصر ، الى اداة قد تستغل للنيل من الثورة أو لتهديد بعض جوانبها او زعزعة الثقة بالمبادىء الرئيسية التي تسعى الثورة نحو تحقيقها . انما بقدر الحذر الذي يجب ان نبديه عند تقرير سياسة المقال وموضوعه وصلاحيته للنشر ليصوننا من الانزلاق نحو ما قد يسيء الى الثورة بدون قصد ، يجب ان نحذر ، من الجهة الاخرى ، من الانجراف في تيار الخوف الزائد من النقد ومن النقاش ومن العرض العلني لفكر الثورة ، لان مثل هذا الخوف اذا ما استفحل واستبد بالكتّاب وبالناشرين يؤدي الى نفس المنزلق الخطر المسيء للثورة الذي يؤدي له الاستهتار بأمن الثورة . ويبقى على اسرة التحرير ، وهي ترسم مستقبل شؤون فلسطينية في عامها الثاني وتخطط لقفزات اخرى تكفل لهذه الدورية المزيد من المجالات لخدمة الثورة ، ان تراعي الدور الخطير الذي يمكن للمقال الواحد ان يلعبه مع الثورة او ضدها .

ويبقى على القارىء ، من ناحية ثانية ، ان يقرر مدى نجاح الدورية في سنتها الاولى ، ويحكم لها او عليها . ومنذ العدد الاول ونحن نطلب من القارىء ان يكون هو المرشد لنا في بحثنا عن المادة التي نشعر ان في نشرها خدمة للثورة . وسينعكس الكثير مما كتبه القراء لنا ، وما اقترحوه علينا ، في الاعداد المقبلة . وستكون الخطوة الرئيسية الاولى في السنة الثانية لدوريتنا نحو التطوير هي أنها ستصبح شهرية . والقصد الاساسي من هذا التحول (الذي يحمّل ويفترض أعباء والتزامات جديدة) هو ان يتاح لشؤون فلسطينية ان تقترب من الاحداث وهي تغطيها وتحللها وان تضاعف لقاءاتها مع القراء وتزيد من مشاركتهم بمناقشة ومحاورة مادتها . ويكون منبرها ، في التالي ، اصلح واعم فائدة .

رأي:

نحو مناقشة بناءة لحركة المقاومة الفلسطينية

تتناول الصحف والاقلام العربية موضوع المقاومة ، منذ ايلول ، تناول الذي يتفرج على كارثة ، الا فيما ندر . ولقد زاد هذا الاتجاه في الصحافة العربية خلال الشهرين الاخيرين . ويرى الذي يتابع ما تكتبه هذه الصحف حقيقتين بارزتين :

اولاهما : أن هنالك نقصا في المعلومات عن المقاومة ، وأن ما ينشر ليس قليلا فحسب ، وضئيلا فحسب ، بل هو مزور حينا ومشوه في حين آخر . ومختلط في كثير من الاحيان. واذا كان هذا حسنا من حيث انه يدل على أن هناك نوعا من السرية ، يحفظ الاخبار والمعلومات الاساسية بالنسبة للاعداء ، فانه يخلق مشكلة للاصدقاء الذين يحكمون على الامور من خلال معلومات ناقصة او مشوهة أو مشوشة . وطبيعي ان يقود هذا الى الوقوع في اخطاء ، والى ايقاع الأذى بالمقاومة بدلا من افادتها .

ثانيهما : أن هنالك قصورا في التحليل ، تحليل الظاهرة نفسها ، وعجزا عن ربط الظواهر بعضها ببعض واستخلاص النتائج الصحيحة من المقدمات الصحيحة . ويعود ذلك في قناعتنا الى ثلاثة عوامل اساسية :

١ ـ نقص المعلومات واختلاطها (البند رقم ١ اعلاه) .

٢ ـ اعتماد اساليب الدراسة العشوائية والانتقائية .

٣ ـ اتخاذ موقف مسبق ، ذاتي وعدائي من المقاومة ، يعبر اما عن التشاؤم واليأس او عن الطفولية والعجز وتقديس الشعارات والجمل الثورية او عن معاداة العمل الشعبي المسلح .

ونتيجة لما ذكرناه اعلاه ، فاننا نجد كثيرا من الاحكام الجائرة او العشوائية ، ونجد كثيرا من الذين ارادوا خدمة المقاومة قد تحولوا الى « قتلة » كالدب الذي اراد أن يطير الذبابة عن وجه صاحبه فقتله .

وبما انه ليس ممكنا مناقشة كل الآراء والافكار المطروحة ، فاننا سنقدم هنا نماذج ذات دلالات . ومن النماذج التي سنقدمها مقالة سمير فرنجية المعنونة : « المقاومة الفلسطينية فشلت في تثوير المخيمات وفي استقطاب الجماهير العربية معها ضد الانظمة »* . وتقوم الفكرة الاساسية لهذه المقالة على « ان اللاجئين ، بصفتهم فئة مجتمعية ، كانوا القوة الاساسية والقائدة للثورة الفلسطينية » ، وهذه الفئة « خارج الزمن » ، وبما أن « المفكرين الفلسطينيين المتطرفين شبهوا اللاجئين ، خطأ ، بالبرولتاريا ، فقد دفعوهم الى صف الطبقة النضالية ، في حين ان هؤلاء كانوا عاجزين عن تحمل مثل هذه المسؤوليات » . « وعلى هذا الاساس فان اللاجئين كانوا عاجزين عن ادراك ضرورة تغيير العلاقات القائمة وعاجزين عن فهم اولوية السياسة

* النهار ، ٢٦/١٠/٧١ .

على الجندية » . ولهذا فهمت الحـــرب الشعبية بأنها حــرب انصار على الطريقـــة الجزائرية، ولهذه الاسباب « عجزت المقاومة عن تعبئة فلاحي الضفة الغربية » وجنوب لبنان .

وكان سمير فرنجية قد تعرض لموضوع المقاومة في مقال سابق بعنوان : « موقف سورية الجديد تجـــاه المقاومة الفلسطينية »* . ولكـــن المقالـــة الثـــانية ليست بأهميـــة الاولى لانها تقوم علـــى معلومات مشوهة ، استهـــدفت النيـــل مـــن ياسر عـــرفات شخصيا،كما استهدفت الدفاع عن مواقع ضد مواقع أخرى بالخلط بين اليمين واليسار.

وتنبع اهمية مقالة سمير الأولى من أنه ، بتجاهله أو جهله لابعاد الصراع العربي ـــ الصهيوني ، وبعجزه عن وضع قضية الشعب الفلسطيني وقضية اللاجئين ضمن اطار الصراع العربي الصهيوني والصراع الوطني ضد الامبريالية العـــالمية ، انحدر الى اقتصادية بدائية وساذجة ومبتذلة . ومثل هـــذه الاقتصادية لا تـــرى الا العلاقـــات الاقتصادية بمعناها البسيط ، العمل في المصنع ، العمل في المزرعة ، أما الاستغلال على صعيد امبريالي ، سحق الامم والشعوب ، سلب الشعوب أرضهـــا وأموالها وأرزاقها وتحويل اقسام منها الى جماهير لا تملك الا قوة سواعدها ، فهو « خـــارج الزمن » ، وخارج علاقات الانتاج . والجماهير المسحوقة هذه لا تستطيع أن تقاتل ، ولا أن تقوم بدور البرولتاريا .

ان هذا لا يعني ان المسيرة السابقة قد فشلـــت فحسب ، بل يعني ان المسيرة المقبلـــة فاشلة حتما ، ما دام ان الذين يخوضونها ويقودونها هم اللاجئون ، الناس الذين حكم عليهم ان يكونوا « خارج الزمن » حسب ما يرى سمير فرنجية .

ويحاول رياض فرحات في مقالته : « المقاومـــة الفلسطينية بين تيارات اليأس وتيارات التصحيح »** ان يحدد المشاكل الاساسية للثورة . وهو يرى ان اهم هذه المشاكل :

١ ـــ ان الثورة فشلت خلال السنوات الاربع الماضية « في تحقيق وحـــدة صفوفها » ذلك ان الثورة لم تستطع « أن تسلك طريق الوحدة الاندماجية للثورة التحريرية ، اي طريق الجبهة الواحدة والبرنامج الواحد والقيادة الواحدة ، وتذويب كل الفصائـــل في تنظيم واحد ، ولا استطاعت بالمقابل أن تسلك الطريق الفياتنامي ، فتشكل من الفصائل المتعددة تنظيما جبهويا متحدا » .

٢ ـــ ان العمل الفدائي عجز عن « استغلال التناقضات العربية ، لمصلحة الثورة » بينما نجحت الانظمة العربية «في استغلال الخلافات الفلسطينية وتوظيفها ضد الثورة».

٣ ـــ ان « اكبر متاعب الثورة في الايام المقبلة ستنبع من ازديـــاد النشاط الديبلوماسي والسياسي لحركة المقاومة على حساب النشاط العسكري والثوري » .

٤ ـــ « استمرار وقوف المقاومة ، على مفترق هذه المتاعب حائـــرة مترددة ، لا هي تقرر الخروج من هذا الطوق » ، « ولا هي قادرة على استمرار المراوحة في المكان الذي وجدت نفسها فيه أو أرادها الآخرون ان تقف على أرضيته » .

٥ ـــ محاولة الهرب من المتاعب . وتزداد خطورة عملية الهروب هذه « عندما تتخذ لها خطوط سير معاكسة ومناقضة للمجرى الاساسي للثورة » . « وهذا ما بدأت بعض التيارات في الثورة الفلسطينية تتجه نحوه باسم الواقعية احيانا وباسم اليأس احيانا أخرى » .

ويرى رياض فرحات ان النقد الذي وجه الى المقاومة « يحمل كثيرا من الظلـــم ، لانه يحجب كل الآفاق التي ما زالت مفتوحة امام حركة المقاومة ... » .

---

* **النهار** ، ٧١/١٠/١٥ .

** **المجاهد** ، ٧١/١١/٦ .

وهو يرى ان : « المقاومة الفلسطينية هي الوحيدة المؤهلة في المشرق العربي ، على اعادة بناء وتوجيه الحركة الشعبية العربية ... » .

واذا كان العجز عن حل مشكلة الوحدة الوطنية والوقوع في براثن التناقضات العربية والتردد والهروب من مشاكل المقاومة الاساسية فانها ليست المشاكل الوحيدة ، ولا يجوز ان تبحث بمعزل عن المشكلة الاساسية : مشكلة الخط السياسي والعسكري ، مشكلة النظرية والممارسة .

وليس صحيحا ، بالاضافة الى ما ذكرنا ، ان اكبر متاعب الثورة ستنبع من ازدياد النشاط السياسي والدبلوماسي على النشاط العسكري . لان هناك تقصيرا في الأثنين من جهة ، ولان ازدياد اي منهما لا يضر بالاخر . ويجب ألا يضر به . ولان ازدياد النشاط السياسي والدبلوماسي ضروري وهام في هذه المرحلة والمرحلة المقبلة، بسبب شراسة الهجمة السياسية المضادة ، ولان الحملة السياسية والدبلوماسية الواسعة النطاق ضرورية للمساهمة في الرد على حملات القمع والتصفية الدموية . ان زيادة العمل السياسي والدبلوماسي ضرورية في كل الحالات شريطة الا تصبح بديلا للعمل العسكري .

وعلى الرغم من هذه الملاحظات فان مقالة الاخ رياض فرحات تبقى من أكثر المقالات جدية وابتعادا عن الخطأ والانحراف .

ولعل أخطر ما نشر في هذا المجال رسالتا جلال السيد الى ياسر عرفات والى الملك حسين* . وتعبر هاتان الرسالتان عن موقف من المقاومة جدير بالكشف لانه موقف خطر ، يحظى بتأييد فئات معينة داخل حركة المقاومة . فماذا يقول جلال السيد ؟

انه يقول :

اولا : « ... ان كل حركة جماعية او جماهيرية ذات أهداف ومثل عليا لا بد وان يندس فيها بعض من لا يؤمن بمراميها » . فاذا توفر الانضباط والحزم والوعي « فان العناصر الخيرة ستحفظ للمنظمة سيرتها المثلى » والا « فان عناصر الشر هي التي سوف تتغلب وتسيطر فتحرف الحركة عن أهدافها وتسيء الى سمعتها ». ويضيف ان قيادة الفدائيين الصالحة لم تكن مسيطرة . ومع ان القيادة لم تكن مطلعة او موافقة على « التصرفات الشاذة والاعمال المستهجنة » فانها كثيرا ما كانت « تتستر عليها وتخفيها جهد المستطاع تجنبا لطعن العمل الفدائي » .

ثانيا : ان تعدد المنظمات الفدائية سيجعل مصيرها مصير الجيوش العربية ، « وستمنى بالهزائم ما دامت مفككة غير متداغمة ، ولا موحدة القيادة ، وما دام هناك تضارب في الاجتهادات والنظريات والخطط » .

ثالثا : ان العمل الفدائي يكاد ان يصبح جيشا نظاميا علنيا « مع ان المفروض ان السرية الكاملة هي الطابع الغالب على العمل الفدائي ، لان العمل العلني اي عمل الجيوش النظامية العربية — قد فشل » .

رابعا : ان تحول العمل الفدائي الى ما يشبه الجيش النظامي « ليس الا استعدادا وتهيئة يجريه بعض الفدائيين عن معرفة وتصميم وتخطيط ليكون نواة الدولة الفلسطينية ... » .

خامسا : ان هدف المنظمات تحرير فلسطين . « ويجب أن يبقى هذا الهدف وحيدا تستغرق فيه المقاومة استغراقا كاملا » . وانه لاضعاف للهدف أن يشرك معه هدف آخر . وهناك « من بين منظمات التحرير من سلك عقيدة جديدة جعلها هدفا آخر لتحركاته ، ان لم يكن الهدف الاول والاهم » . وهذا المسلك مناقض لشعار منظمة

---

* النهار ، ١٠/٢٢ و٧١/١٠/٢٣ .

التحرير وللارادة العربية عامة ، وهو « يضعف الاندفاعين العربي والاسلامي في تأييد قضية فلسطين » . ويلي ذلك هجوم على الماركسية .
سادسا : « ان منظمة التحرير الفلسطينية لم تقف على الحياد في المنازعات التي تقوم بين حكام الاقطار العربية ، خلافا لشعارها ومدعياتها المستمرة ، كذلك لم تقف عند وعودها بألا تتدخل في شؤون الاقطار العربية ، والا تنحاز الى فئة في الداخل ضد الفئات الاخرى » .
سابعا : اهتمت المنظمات بالعمل السياسي اكثر من اهتمامها بالعمل الفدائي نفسه .
ويقدم في النهاية الملاحظات التالية :
أ ــ « ... وجوب الاكتفاء في هذه الايام بالفداء وحده والاستغراق فيه . دون اشراك اي امر آخر معه مهما يكن هذا الامر مهما » .
ب ــ « ... الابتعاد عن الفلسفات العقائدية وتجميد كل النزعات الاخرى ، حتى لا تنطلق تلك النزعات على حساب العمل الفدائي » .
جـ ــ « ... التعايش مع حكومة الاردن ، لان الاردن هو المنطلق الرئيسي للعمل الفدائي . وهذا يقتضي تطمين الحكم واشعاره بصدق ان الفداء لا يستهدفه، ولا يحاول النيل منه والانقلاب عليه » .
د ــ « أن تقوم محاولة جادة لتوحيد العمل الفدائي ووضع ميثاق تبين فيه الخطوط العريضة التي هي الحدود الدنيا من الاتفاق وتحقيق هذا الغرض ولو لزم الامر الاستغناء عن بعض الاشخاص والفئات اذا لم تتقبل مثل هذه الاهداف والعبرة في الكيفية لا في الكمية » .
هـ ــ « فرض النظام والانضباط ومعاقبة الذين يسيئون الى سمعة العمل الفدائي .. »
و ــ « التزام الحياد التام بين الحكام العرب والانصراف الكلي الى المهمة العظمى التي نذر الفداء لها نفسه ، وعدم التورط في منازعات داخلية فرعية مهما تكن الاسباب مثيرة لهذه المنازعات » .
وواضح من الرسالتين ان جلال السيد الذي يتغزل بحسين وبالعائلة الهاشمية ، لا يدعو الى التعايش مع النظام الاردني فحسب ، بل يطالب بأن يتكيف العمل الفدائي مع متطلبات الخطة الاردنية . وتقتضي متطلبات تلك الخطة ما يلي :
١ ــ ان ينتهي الوجود العلني للثورة الفلسطينية ، لانه مركز استقطاب من جهة ، وتعبير عن شرعية مكتسبة من جهة أخرى .
٢ ــ ان تضمر القوة المسلحة والمنظمة للثورة خارج الارض المحتلة ، لان وجودها يعرقل مؤامرات التصفية والاستسلام . ولان الاشتباك معها ، يخلق للانظمة مشاكل كثيرة وكبيرة ، كما حدث للنظام الاردني .
٣ ــ أن تتخلص حركة المقاومة من « التسييس » ، لانه يقود الى خلق حركة شعبية جماهيرية ، منظمة وواعية ، تتصدى للمؤامرات والمتآمرين .
٤ ــ ان تصفي حركة المقاومة نفسها من « المتسيسين » الواعين ، لتبقى حركة العناصر المتخلفة ، والجامدة والعاجزة عن فهم حركة التاريخ ومتطلباتها .
٥ ــ ان تحصر المقاومة هدفها بالعمل داخل الارض المحتلة ، لا لتحقق التحرير ، بل لتكون عامل ضغط في حل استسلامي ، ولتكون قوة غير فعالة في ميدان السياسة العربية . لان الذين يكتفون بأعمال مسلحة محدودة داخل الارض المحتلة ، ويتركون انفسهم تحت رحمة هذا النظام او ذاك ؛ لن يحققوا في النهاية الا اهداف هذا النظام او ذاك .
ومن اجل هذا كله يتحدثون عن الاخطاء ، ويذكرون بعض القضايا الصحيحة، ويهاجمون العلنية لمصلحة السرية ، والتجييش لمصلحة حرب العصابات . ولكن رب كلمة حق اريد

بها باطل . فالسرية لا تكون بالتنازل عن الوجود الشرعي العلني ، وعن المواقع التي تكون قواعد ارتكاز ضرورية لتأمين الحماية والتدريب والاستقطاب والعمل داخل الارض المحتلة . ولقد برر الانسحاب من المدن في الاردن ، بأنه تخلّ عن العلنية لمصلحة السرية . الا ان ما حدث بعد ذلك لم يكن لمصلحة شعبنا . ثم ان وجود قوات كبيرة لا يضر بالثورة ، ولا يلغي اهمية العمل السري ولا ضرورته . ومع هذا فهو يفيد ، ويجب ان يفيد في احباط الحلول الاستسلامية ، وفي تصعيد العمل في الداخل ، وعلى الحدود . اما ان يكون هذا الجيش نواة الدولة ، فهذا يعتمد على خط القيادة لا على طبيعة الجيش . فقد يكون هناك جيش عصابات سري ، وتقبل القيادات بدولة او حل استسلامي . ولا تقتضي مقاومة الدولة الفلسطينية والحلول الاستسلامية ان نحل قوانا المنظمة ونتنازل عن مكتسباتنا ، بل تقتضي الدفاع عن هذه المكتسبات وتطويرها وتطوير كل اساليب العمل اللازمة لتحقيق النصر .

وهناك قضية اخرى تستحق الانتباه وهي قضية الاكتفاء بهدف التحرير وحده والابتعاد عن الفلسفات . وتبدو هذه الدعوة حريصة على القضية الاساسية ، وحريصة على سلامة المسيرة وعدم الانجرار الى معارك جانبية . ولكن الحقيقة هي غير ذلك . صحيح أن التحرير هو القضية الاساسية التي يجب ان تناضل من اجلها كل القوى بلا تردد ولا مواربة ، ولكن التحرير قضية اساسية ، وهو ككل القضايا السياسية لا يمكن عزله عن الصراعات الايديولوجية في المجتمع ، ولا نستطيع ان نجعله فوقها . والذين يطلبون منا وضعه فوق الفلسفات والايديولوجيات يفعلون ذلك خدمة لوجهة نظر ايديولوجية تنكر على الآخرين حقهم في أن يكون لهم رأيهم المعبر عن مصالحهم . والتحرير قضية تعبئة سياسية وثورية وشعبية . وهذه التعبئة تتناقض كليا مع نظام كالنظام الاردني يكرس سلطة مطلقة لعائلة حاكمة ، ويعتبر ان بقاءها أهم من الوطن نفسه . ولذلك لا بد أن يحسم الامر ، فلا تعبئة شعبية ولا فلسفة ولا عقائد لان الفلسفة الوحيدة التي يجب ان تسود هي « الفلسفة الملكية » : استمرار التخلف والخضوع للامبريالية واستمرار العجز والقصور والتخاذل والاستسلام وتكريس سلطة عائلة ضد الشعب كله .

وهكذا تنكشف أبعاد هذه الدعوة واهدافها ، ويظهر واضحا جليا ماذا يريد امثال جلال السيد من دعواتهم المكشوفة ، انهم يريدون تصفية الثورة شعبيا وسياسيا وعسكريا لمصلحة النظام الاردني والاحتلال الصهيوني والمصالح الامبريالية في المنطقة .

وما يقوله الاردن الرسمي لا يزيد عما يقوله جلال السيد ، الا من حيث الصفاقة . فالاردن حريص ، مثل جلال السيد « على نقاء العمل الفدائي من الشوائب المعطلة » وعمليات القمع الدموية في الاردن ليست الا من اجل ازالة الشوائب هذه ! . والاردن حريص على « ضرورة انصراف هذا العمل الى المهمة الوحيدة التي من اجلها يجب ان يوجد حتى اذا لم يكن موجودا » ، وهذه المهمة طبعا هي « التحرير » . ولكن عن اي « تحرير » يتحدث الاردن الرسمي ؟ عن تحرير الاردن من ارادة القتال طبعا . والاردن الرسمي يرى انه من الضروري أن يتم ذلك « بالتنسيق التام مع كافة الاطراف العربية التي تؤمن باستمرار معركتها المصيرية مع العدو الاسرائيلي »(١).

والاردن الرسمي لا يرى ان ما كان في الاردن يمكن ان يسمى مقاومة . « لان المقاومة ليست موجودة الا في المناطق المحتلة » اما « ما كان موجودا في الاردن آنذاك » فيمكن « ان يسمى اي شيء الا مقاومة »(٢).

---

١ ــ **الراي** ، العدد ١١٣ ــ الافتتاحية ١٩٧١/١٠/١١ .
٢ ــ **الراي** ، العدد ١٢٠ ــ الافتتاحية ١٩٧١/١٠/١٩ .

وهكذا يبرر الاردن الرسمي لنفسه أمرين :
الاول : عدم الاعتراف بالمقاومة الموجودة ، وهي مقاومة موجودة ، قدمت آلاف الشهداء شرق النهر وغربه ، ودخلت معارك طاحنة ضد المحتلين الصهيونيين والعملاء الاردنيين، وضد كل المستسلمين والمتآمرين العرب .
الثاني : تبرير مذابح الاردن ، ابتداء من ٦٨/١١/٤ وحتى اليوم ، وتبرير اعمال القمع والاضطهاد التي تمارس ضد شعبنا ومناضلينا .
وطبيعي ان يكون جلال السيد ، وكل الذين يتحدثون عن ضرورة وجود المقاومة في الارض المحتلة فقط ، وعن عدم الحاجة الى وجود قوة سياسية وعسكرية ثورية خارج نطاق الاحتلال ، يعملون ضمن مخطط التصفية . منطق التصفية اذن يقوم على تصفية المقاومة خارج دائرة الاحتلال لتسهل عملية تصفيتها في الداخل . وما حدث في الضفة الغربية وغزة بعد مجازر ايلول خير دليل . ذلك ان الجماهير العربية الرازحة تحت وطأة الاحتلال اخذت تشعر بالخيبة والمرارة والاسى ، وبدأت تحس ان الطريق مسدود، لان المقاومة تضرب وتسحق على الارض العربية . كما ان العدو استغل فرصة المطاردة الماحقة التي قام بها النظام الاردني ضد المقاومة ، فبدأ عملية مطاردة مماثلة في الارض المحتلة . كما أن العدو استغل الفرصة لبناء تحصينات على الحدود ، لانشاء طرق تسهل عمليات المطاردة .
وشهدت غزة عمليات وحشية ، لم ينس العدو فيها أن يذكر مقاتلينا هناك بأحداث الاردن الدامية .
ولقد انخفضت ، بعد هذا وذاك ، عمليات قوات الثورة في الداخل وعلى الحدود ، نتيجة عمليات الملاحقة والسحق . وكان ان عادت الحياة الى مستعمرات الحدود والاغوار، وتلألأت مصابيح النيون الكهربائية في مستعمرات عاشت اكثر من عام ونصف تحت الارض .
ولقد « زاد عدد سكان بيسان منذ استتباب الهدوء في المنطقة ، نحو الف نسمة ، ويبلغ عددهم الان نحو ١٢ الف نسمة ، وكان عدد سكان بيسان قد انخفض في ذروة التوتر الامني الى ١١ الف نسمة . ومصدر الزيادة في الاساس هو العائلات التي نزحت عن المدينة ايام التوتر ، وتعود اليها حاليا ، بمعدل عائلة يوميا »(٣) .
والغيت القيود الامنية التي كانت مفروضة على طول طرق الشمال ، منذ سنة ونصف ، بسبب « تقلص النشاط التخريبي » في المنطقة(٤) .
وبعد عمليات التصفية في الخارج ، وتفرغ العدو الصهيوني للمقاومة في الداخل علت أصوات الانهزاميين والاستسلاميين في الداخل والخارج ، واخذوا يطرحون شعارات التصفية والاستسلام التي تبدأ بالدولة الفلسطينية وتنتهي بالفدرالية مع الاردن .
ولعله من الضروري ان نختم هذا العرض بتقديم وجهة النظر « العربية القومية » في هذا المجال . ونحن نسميها « عربية قومية » لا لانها في الحقيقة كذلك ، بل لان أصحابها يرون انفسهم وحدويين من حيث المنطلق والمرمى . ومن هؤلاء من هم وحدويون فحسب، مثل منح الصلح ، ومنهم من هم وحدويون « ماركسيون » مثل لطف‌الله سليمان وياسين الحافظ والياس مرقص . وسنناقش هنا « الوحدويين الماركسيين » أساسا .
ويمكن تلخيص اطروحاتهم بما يلي :
اولا : هناك نظريتان حول علاقة قضية فلسطين بالوحدة ، وهاتان النظريتان هما

٣ ــ دافار ، ١٩٧١/٨/١ ، **نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية** ، السنة الاولى العدد ١٠ ، آب ١٩٧١ ، ص ١٧٣ .

٤ ــ **معاريف** ، ١٩٧١/٨/٥ ، **المرجع السابق** ، ص ١٧٣ .

١ ـــ الوحدة هي الطريق الى فلسطين ٢ ـــ فلسطين هي طريـــق الوحدة . وليست النظرية الثانية « فلسطين هي طريق الوحدة » . . . « سوى لعبة استعمارية اريد بها ويراد بها القضاء على مصر ، وعلى مصر فقط »(٥). المقاومة هي التي تتبنـــى النظرية الثانية . وهذا ما يسميه ياسين الحافظ المنظور الاقليمي الذي يجعل « منظمـــــات المقاومة تنظر الى قضية الثورة العربية من خلال مشكلة فلسطين ، في حين ان الموقف الصحيح والسليم باعتبار الغزو الصهيوني غزوا موجها ضد الامة العربية كلها . ان تنظر الى القضية الفلسطينية من خلال مصالح الثورة العربية عمومـــا »(٦). ويضيف منح الصلح « ان تبني الاقليمية الفلسطينية يضع الفلسطينيين على مائدة واحدة مـــع الانظمة »(٧).

ثانيا : هناك ايضا المنظور التاريخي للصراع العربي ـــ الصهيوني . المقاومة لم تفهم هذا المنظور . « فالافق العام للصراع العربي ـــ الاسرائيلي يتجه الى التفاقم ، ولا يتجه الى الركود » . وبالتالي فان موقف المقاومة من « الحـــل السلمـــي » او « الحـــل الاستسلامي » خطأ . وهذا الخطأ هو الذي جعل المقاومة « مشغولة فقـــط بمطاردة الحل السلمي حتى أصبح الحل السلمي يطاردها » . القضية في رأي ياسين الحافظ لا تصفى . و« اذا افترضنا انه حدث اتفاق ، او حدث توقيع صك جرى بموجبه الاعتراف باسرائيل . . . فان هذا الصك سوف يمزق ، واذا لم يمزق خلال ايام فخلال أشهر ، فخلال سنين بأسوأ الحالات »(٨).

ثالثا : هناك ، بالاضافة الى ما سبق ، منظور الكفاح المسلح . « والخطأ في موقـــف المقاومة ناجم اولا عن الاصرار على وحدانية الكفاح المسلح » وثانيـــا : « عدم تمييـــز المسائل . كفاح مسلح أين ؟ ومتى ؟ وضد من ؟ لا شك ان حزبا يستبعد العمل الثوري المسلح بصورة مسبقة ومطلقة لا يمكن ان يعتبر ثوريا بل انتهازيا . ولكن جدوى الكفاح المسلح ونجاحه انما يرتبط بظروف موضوعية وذاتية . أما فكرة الكفاح الشعبي المسلح غير النظامي كوسيلة لتحرير فلسطين ، فاني اعتقد اعتقادا جازما أن هـــذه الفكرة بالاساس هي فكرة اسطورية بحتة . اسطورية لسبب بسيط هـــو ان سكان اسرائيل مع دولة اسرائيل . لذلك الوسيلة الوحيدة لضرب اسرائيل هو أن تواجه بقوة نظامية . وسيبني العرب القوة النظامية عندما يبنون ثورتهم »(٩).

ويبدو بوضوح ان افكار لطف‌الله سليمان وياسين الحافظ افكار متكاملة . كما يبـــدو واضحا وجليا ان هذه الافكار هي نسخة طبق الاصل عن أفكار الياس مرقص(١٠).

وتستهدف هذه الافكار التي يطرحها « المنظرون القوميون المتمركسون » ما يلي :

اولا : معارضة المقاومة الفلسطينية بالوحدة العربية واظهارها على أنها عمل «أقليمي» لا ينظر الى الوحدة العربية من خلال فلسطين فحسب ، بل يؤدي بالضرورة الى الاساءة لقضية الوحدة ، والى ايقاع الاذى بالدول التي تحمل لواءها ، مثل مصر . ويقود هذا الى نتيجة واحدة هو أن هنالك « مخرجا واحدا » . وهذا المخرج هو : « الوحدة اولا لنرتب أوضاعنا ، ثم نرى ما نستطيع لفلسطين »(١١).

---

٥ ـــ لطف الله سليمان : « حركة الوحدة العربية ومصر والمقاومة » ، **الثقافة العربية ٧١** ، تشرين ثاني ، العدد ٦ ، السنة الخامسة عشرة ، ص ٣١ـــ٣٢ .

٦ ـــ **المرجع السابق** ، ص ٢٣٤ .

٧ ـــ **المرجع السابق** ، ص ٢٢٨ .

٨ ـــ **المرجع السابق** ، ص ٢٣٤ .

٩ ـــ **المرجع السابق** ، ص ٢٣٥ .

١٠ ـــ الياس مرقص : **المقاومة الفلسطينية والموقف الراهن** ، دار الحقيقة ، نيسان ١٩٧١ .

١١ ـــ **المرجع السابق** ، ص ٣١ .

ثانيا : تبرير اي « حل سلمي » ، « حل استسلامي » بالقول ان المنظور التاريخي للصراع يسير نحو التفاقم ، وبأن اي صك يوقع اليوم يمزق غدا او بعد غد او بعد سنين ، لا تخافوا . فرنسا خسرت الالزاس واللورين سنة ١٨٧١ واستعادتهما سنة ١٩١٨ ، كما يقول الياس مرقص . ويضرب الياس مرقص مثلا آخر وآخر وآخر(١٢). ليثبت ان القبول بمعاهدة والتنازل عن جزء من الوطن لا يعني التصفية ، وان ما نخسره اليوم نستعيده في يوم من الايام . كل هذا من اجل ماذا ؟ تبرير الدعوة الى « حل استسلامي » . وياسين الحافظ يأخذ مصطلح الياس مرقص نفسه : « المنظور التاريخي للصراع » ، ويقدم الافكار عينها والمبررات عينها ، ولكنه يؤكد بشجاعة انه وهو يفعل ذلك انه لا يبرر « اي حل تصفوي ، او اي حل فيه تراجع او مكاسب لاسرائيل . . . »(١٣) فماذا تراه يفعل ؟ وعن اية تصفية يتحدث ؟ اعن التصفية بالمعنى التاريخي المحض ؟ وماذا عن التصفية السياسية ؟ هذا ما سنجيب عليه فيما بعد .

ثالثا : الرفض المطلق للكفاح الشعبي المسلح ، ومعارضة الحرب الشعبية بالحرب النظامية . وذلك من اجل اسقاط فكرة الكفاح الشعبي المسلح . وبينما يرى ياسين الحافظ ان فكرة الكفاح المسلح اسطورية ، وان التحرير لا يكون الا بقوة « نظامية » ، فان الياس مرقص ، مثل ياسين الحافظ لا يرى الحرب الشعبية اسطورة فحسب ، بل يراها خدعة(١٤).

ولنعد الى هذه القضايا الثلاث واحدة فواحدة ، ولنحاول ان نبحث عن الخطأ والصواب في هذا « الحوار العشوائي » الذي لم يخنه المنطق العلمي فحسب ، بل خانه المنطق الشكلي ايضا .

واول هذه القضايا قضية المقاومة والوحدة العربية ، قضية فلسطين وقضية الوحدة العربية . وتحتل هذه القضية المرتبة الاولى من بين القضايا المطروحة ، لانها من صلب قضية الوحدة وتحرير فلسطين . فالوجود الصهيوني في فلسطين قام لمنع الوحدة ، وهو يلعب حاليا هذا الدور . ثم ان قضية التحرير هي قضية الجماهير العربية . واذا كان المنظرون الوحدويون المتمركسون يصرون على هذه الحقيقة ، فان المقاتلين الفلسطينيين اكثر اصرارا . وتنص المبادىء الاساسية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) على « ان الشعب الفلسطيني جزء من الامة العربية وكفاحه جزء من كفاحها » . واذا كانت هنالك افكار اقليمية أو ممارسات خاطئة ، أو استراتيجية غير واضحة في هذا المجال ، فهل يعني ذلك أن المقاومة الفلسطينية ضد الوحدة ، وان التحرير ، التمسك بالتحرير ، النضال من اجله ، مناقضان للوحدة ، ومعاديان لها ؟

هنا تكمن المشكلة .

ذلك أن هناك من يرى بأن الوحدة ، هي طريق التحرير . وهذا يعني أن ينام التحرير حتى نرتب أمر الوحدة أولا كما يقول لطفالله سليمان . وكان هنالك شعار خاطىء في الميدان الفلسطيني يقول : فلسطين طريق الوحدة ، اي أن النضال من اجل الوحدة يجب أن يوضع في درج حتى تتحرر فلسطين . والنظرية الاولى كالثانية سخيفة وتافهة واحادية الى درجة تجعلها لا تستحق الالتفات . ولكن خطر كل من هاتين النظريتين يفرض ضرورة مناقشتهما . ومناقشة الافكار الخطرة التي تقف وراءهما .

واذا كانت النظرية الاولى تسقط مشروع تحرير فلسطين من البرنامج اليومي للثورة العربية ، فان الثانية تسقط مشروع الوحدة من برنامج النضال اليومي . وهكذا تبدو الوحدة شيئا والتحرير شيئا اخر ، وتبدو قضية الوحدة شيئا غير قضية تحرير

---

١٢ — الياس مرقص : **المرجع السابق** ، ص ٦٦—٧٢ .

١٣ — مناقشات حول الوحدة العربية ، ص ٢٣٤ .

١٤ — الياس مرقص : **المرجع السابق** ، ص ٥٠ .

فلسطين .
ولكن الواقع يفند هذا كله . فقضية تحرير فلسطين وقضية الوحدة قضيه واحدء .
والوحدة لا تتحقق بقرار ولا باستفتاء وتحرير فلسطين لا يتحقق بقرار ولا باستفتاء . ان تحقيق الوحدة يحتاج الى كفاح طويل وشاق ، ضد الرجعية والامبريالية والصهيونية .
ولن تتحقق وحدة دون الصراع مع هذه القوى كلها ، ودون حروب صغيرة وكبيرة .
كما أن تحرير فلسطين يحتاج الى كفاح طويل ، كفاح ضد الصهيونية ، وضد الدولة الصهيونية ، كفاح ضد الرجعية العربية وضد الامبريالية العالمية . وهو كفاح من اجل وحدة القوى العربية المقاتلة التي تحاول الرجعية العربية ودولة الاحتلال الصهيوني والامبريالية العالمية منع وحدتها .
ولان هذا الكفاح طويل ومرير وشاق ، ولانه كفاح ضد قوى كبيرة ، وذات امكانيات هائلة ، كان لا بد من أن يصبح قضية الجماهير العربية كلها .
كيف ؟
هذا ما كان يجب ان يبحثه « المنظرون » الثوريون المخلصون ، الحريصون على التحرير وفلسطين والوحدة . وهذا ما لم يبحثه ياسين والياس ولطف الله سليمان الخ .
ولقد اكتفى هؤلاء بأن أخذوا موقفا سلبيا وعدائيا من المقاومة ، وذهبوا الى حد اعتبارها نقيضا للوحدة والنضال الوحدوي .
ومع هذا فانهم لم يناضلوا من أجل الوحدة ، هدفهم العزيز الغالي الذي ابتذلوه ، عندما افرغوه من محتواه النضالي .
وكانت النتيجة الطبيعية ان لا يفعلوا شيئا للوحدة او للتحرير ، وان يعملوا على عزل المقاومة الفلسطينية عربيا . لماذا ؟ لانهم ارادوا المقاومة غير ما كانت . ارادوها من مكان فجاءت من مكان اخر ، وارادوا ان تكون لها قيادة ، فكانت قيادة اخرى ، وارادوها ان تكون حربا نظامية فلم تكن . ولكن الثورات لا تصنعها اهواء المثقفين وأمزجة المنظرين ، ان الواقع هو الذي يصنعها . والثوري الذي لا يستطيع معرفة مكان الانفجار واتجاهه ، ولا يشارك فيه ، وفي توجيهه وتصعيده ، يبقى على رصيف التاريخ يطلق الاحكام ويعيش الاوهام .
ولقد انفجرت المقاومة الفلسطينية سنة ١٩٦٥ ، عندما كانت الحركة العربية في مرحلة جزر شديد ، وعندما فشلت برامج النضال الوحدوي مؤقتا ، ولم تستطع الاحزاب والانظمة وحدوية وغير وحدوية ان تقنع الشعب الفلسطيني بأنها جادة في العمل من اجل معركة التحرير . وجاءت حرب حزيران فزادت المعركة تأججا والجماهير استعدادا للمشاركة ، واصبحت المقاومة الفلسطينية ظاهرة اندفاع عربي واجماع عربي شعبي ، لا يمثل الوحدة فحسب ، ولا يعبر عنها فقط ، بل يمثل الاصرار على التحرير ومحاربة الصهيونية والامبريالية ايضا .
واذا كانت المقاومة قد عجزت عن تثوير هذا المد الزاخر ، وعن تحويله الى وحدة جماهيرية حقيقية ، والى نضال من اجل الوحدة والتحرير معا ، فليس ذلك نتيجة عجزها وحدها . انها نتيجة عجز الحركة الوطنية العربية ، بكل أجنحتها ودولها وانظمتها وفلاسفتها ومنظريها اساسا .
وعن هذا العجز لا يريد أن يتحدث ياسين والياس والآخرون ، لانه عجزهم ، عارهم ، فشلهم ، هروبهم . وما دامت القضية كذلك فلماذا لا يكابرون ولا يهاترون ؟
لقد عجزوا عن وعي ابعاد معركة الوحدة ومعركة التحرير ، فاختاروا مفهوما مبتذلا للوحدة ، واعطوها مضمونا شكليا وضيقا وغير وحدوي بالخلط بين الامكان والواقع ، وبعدم تحليل القوى السياسية ومجالات عملها تحليلا علميا .
كما أنهم عجزوا عن معرفة مكان قضية فلسطين في معركة الوحدة ، فأجلوها بجرة قلم ، وقرروا وضعها باحتقار في درج من ادراجهم المظلمة ، وطالبوا الجماهير ان تعاملها

كذلك ، بينما كانت الجماهير تموت وتقاتل وتتمزق من اجلها .
ووقفوا بعد هذا كله ، يتكلمون بحنق الاساتذة الذين لم تسمع كلمتهم ، بينما ظلت الحركة التاريخية تعيش صراعاتها وانفجاراتها .
واذا كان هؤلاء قد هزموا وسقطوا ، فان طرف المعادلة الاخر : فلسطين طريق الوحدة قد سقط ايضا ، وها هي الوقائع تثبت سقوطه .
القضية الثانية هي قضية المنظور التاريخي للصراع ، ويقوم هذا المنظور في رأي الياس وياسين وغيرهما على ان الصراع بيننا وبين العدو ينفاقم ، ولذلك لا خطر من التصفية.
واذا ما حدثت اتفاقيات فانها ستمزق . ومع ان هذه ليست نقطة الخلاف الرئيسية فاننا سنناقشهـــا .
وأول ما نقوله في هذا المجال هو أن التاريخ لا يحدد اتجاهه بتوقعات غير قائمة علـــى تحليل ، ولا بشواهد مقتطفة من هنا وهناك ، والذي يسمح لنفسه بالحديث عن المنظور التاريخي للصراع لا بد من ان يدرس الظواهر والوقائع دراسة نفاذة وواعية ، وهذا ما لم يحدث .
ولكن الذي يخيفنا الان في الواقع ، ليس « التصفية التاريخية » بمعنى ان تضيع فلسطين نهائيا ، كما ان الذي يشغلنا ليس تحرير فلسطين بعد خمسين او سبعين سنة . ونحن لسنا « قدريين » لنقتنع انفسنا بأن القضية لن تصفـــى وان البلاد ستعود يوما . لان الثوري لا يكون « قدريا » ، وفهم « المنظور التاريخي » وسيلة لتغيير الواقع ، وللاسراع بعملية التغيير ، لا لترك الواقع يسير سيره المتعرج البطيء . واذا كـــانت الحتميـــة التاريخية تؤكد ان الاشتراكية ستخلف الراسمالية ، فلماذا لم يقـــل ماركس للعمال عموما ، ولجماعات من العمال انتفضت هنا وهناك ، رويدكم ، رويدكم ، لا تتعجلوا ، ولا تخافوا ، النصر لكم في النهاية ، بعد سنة ، اثنتين ، عشر ، عشرين ، مائة ؟ ولماذا لم يقل ماركس لمناضلي كومونة باريس ، الذين دخلوا المعركة رغم تحذيره ، لا تقاتلوا ، واقبلوا بتنازلات تيير ، لان الالزاس واللورين ستعود سنة ١٩١٨ ؟ ولماذا اعتبر نضالهم الفاشل بطولة ، واعتبر انتفاضهم على المهانة القومية والاستغلال الطبقـــي درســـا خـــالدا ؟
نريد من الذين يتحدثون باسم ماركس ولينين ان يقراوهما جيدا .
ان مشروع التصفية الذي خافته المقاومة ، وحسبت له الف حساب ، وكانت معها في تخوفها كل القوى الطليعية والمناضلة ، وكل الجماهير العـــربية هو مشروع التصفية الراهن ، مشروع سحق قوى المقاومة والقوى الوطنية واحلال سلام مع دولة الاحتلال.
ولقد طاردت المقاومة مشروع « الحل الاستسلامي » ، لان هدفه الاساسي كان ، كما كشفته الاهرام وغيرها من الصحف العربية والعالمية في حينه ، سحق المقاومة .
ولقد دفعت المقاومة والامة العربية ثمنا غاليا لمشروع الحل الاستسلامي . واهم ما دفعت زعزعة قوى المقاومة وسقوط مواقعها في الاردن ، وبدء بروز اصوات الخنـــوع والاستسلام .
ولعل مصر تعرف الان ، وهي ترى الاردن يتجه بخطى حثيثة نحو الصلح المنفرد ، وترى بعض الوجهاء والعملاء يطرحون حلا فلسطينيا ، اهمية ما خسرته هي بالذات نتيجة مؤامرة سحق المقاومة . وستدرك اذا ما تجددت الاشتباكات مع قوى الاحتلال ماذا خسرت .
وهناك اعتراف رسمي بأن الولايات المتحدة مارست دورا تضليليا . ولعل من الواضح الان ان المقاومة اضطرت الى خوض المعارك الدموية ، لانها رفضت ان تقع في شراك التضليـــل .
ويبدو ان الذين يحاربون المقاومة بأسم مصر ، ودفاعا عنها ، ويشجبـــون الحـــرب الشعبية ، لا يعرفون ان المقاومة أقامت أوثق العلاقات مع مصر ، قبل الموافقة علـــى

مشروع روجرز ، وان عبد الناصر نفسه كان يرى في المقاومة عملا ضروريا ولازما ، وان بعض العمليات كانت تتم بالتنسيق ما بين قيادة المقاومة وقيادة الجمهورية العربية المتحدة .

ولكن روجرز عرف كيف يلعب لعبته ، ولقد نجح مؤقتا ، وبينما نجد مصر الرسمية تكتشف التضليل الذي مارسته الولايات المتحدة ، نجد مهاجمي المقاومة باسم مصر ما زالوا مستمرين في مهاجمة المقاومة .

وهنا يريد دعاة المنظور التاريخي للصراع ان يجرونا بعيدا عن الواقع . هم يقولون لنا اقبلوا التصفية اليوم ، لا تحاربوها ، ولا تقدموا الضحايا ، لان التاريخ سيضمن لكم المستقبل .

ونحن لا نملك الا ان نقول لهؤلاء : لا بد ان نقاتل اليوم وغدا ودائما اذا اردنا ان يكون المنظور التاريخي للصراع في مصلحتنا ، ومثلنا ليس تيير بل مقاتلو باريس الشجعان .

مع أن قضيتنا ليست كالألزاس واللورين والعصر غير العصر ، وقضية اقامة دولة متقدمة ذرية على أرضنا ، ليست كقضية التنازع على مقاطعة حدود بين دولتين كبريين .

القضية الثالثة : قضية حرب الشعب . ويبدو أن هناك التباسا في هذه القضية . وان هناك خلطا بين حرب الشعب وحرب العصابات والذين يقعون في هذا الخلط يحتاجون الى دراسة الفباء الحرب والسياسة والماركسية في القرن العشرين . ومع ان ماو وهوشي منه وجياب لم يتركوا زيادة لمستزيد ، فاننا سنحاول أن نوضح بعض الحقائق الهامة . وهذه الحقائق هي :

اولا : تمر حرب الشعب بمراحل اولها حرب العصابات وآخرها حرب الشعب الشاملة ، ولكن هذه العملية كلها تسمى حرب الشعب ، لانها تنطلق من الشعب وتعتمد عليه لتحقيق الاهداف . ولانها ليست حربا نظامية كلاسيكية في طابعها ، وان كانت تأخذ في آخر مراحلها شكل حرب شبه نظامية ونظامية مع احتفاظها دائما بخصائص حرب العصابات : الاعتماد على الانسان اكثر من الاعتماد على الآلة ، الاعتماد على التعبئة السياسية والمعنوية بدلا من الاعتماد على القرارات والاوامر الفوقية ، الاعتماد على الجماهير الواسعة المنظمة والمشاركة في القتال ، مقابل اعتماد العدو على الاسلحة الحديثة والامكانيات المادية الوفيرة ، استخدام المفاجأة وسرعة الحركة والبسالة الخ .

ثانيا : تبدأ حرب الشعب في اكثر المناطق تفجرا ، وما تلبث ان تمتد وتتسع عبر الوطن كله ، من أقصاه الى أقصاه ، عبر صراع طويل ودام تتكون فيه قوات الشعب المقاتلة . ولقد اثبت التاريخ الحديث ان الجيوش الشعبية الجبارة ، التي كانت قادرة على هزيمة المحتل ، وهزيمة الرجعية الداخلية ، جيوش بدأت عصابات ، ثم تطورت من خلال القتال . ولم تطلب من العدو ان يمهلها حتى تنمو وتتسلح وتستعد . ولعل خير الامثلة على ذلك جيش الشعب الصيني ، وجيش الشعب الفيتنامي وجيش الشعب الكوري . ولم تثبت وقائع التاريخ الحديث ان جيشا شعبيا جبارا نشأ في ظل احتلال ، او بمسالمة عدو خارجي .

ثالثا : تسبب حرب الشعب قيام القوات المضادة بحملات واسعة ، وبتدمير كبير للامكانيات الاقتصادية والقوى البشرية . ولم يكن هذا في يوم من الايام سببا يفرض على المغاورين او الجيش الشعبي أن يؤجلوا المعركة حتى يتفوقوا عدديا وتكنولوجيا . ولم يدع الفيتناميون الى وقف اطلاق النار ولا الى هدنة ، عندما بدأت اسراب الطيران الاميركي تقذف فيتنام الشمالية ، مع ان القوة العسكرية « النظامية » في فيتنام الشمالية ، لا تساوي شيئا امام قوة الولايات المتحدة الامريكية .

رابعا : ان معارضة الحرب الشعبية بالحرب النظامية ، تتضمن ما يلي :

١ ــ تسخيف فكرة الحرب الشعبية ، مع انها الحرب الوحيدة الممكنة بالنسبة للشعوب

المتخلفة في مجابهتها للامبريالية ، والمعركة مع الاحتلال الصهيوني جزء من هذه المعركة الشاملة مع الامبريالية .
ب ـ تقديس الحرب النظامية بالمعنى الكلاسيكي ، وتقديس المفهوم البرجوازي للحرب، المناقض للمفهوم الثوري والماركسي . لان الحرب النظامية من وجهة النظر الماركسية الثورية ، غير الحرب النظامية من وجهة النظر البرجوازية .
جـ ـ عدم ادراك معنى الحرب النظامية والشعبية في النصف الاخير من القرن العشرين، وضمن اطار العلاقات الصدامية مع الامبريالية .
فما الذي يعنيه هذا كله بالنسبة لفلسطين والقضية الفلسطينية والثورة العربية ؟ انه يعني :
اولا : ان « المنطقة الفلسطينية » هي منطقة تفجر ، وقد نمت فيها الان قوى مسلحة ، وتنظيمات شعبية ، تخوض حربا شرسة ضد قوى الاحتلال الصهيوني ، وخاصة في غزة ، وضد قوى القمع العربية ممثلة بالنظام الاردني . وقد لعبت هذه القوى دورا في احياء القضية الفلسطينية ، وفي تنشيط الشعب الفلسطيني ، وزيادة ثقته بنفسه ، وبقدرته على المساهمة في معركة التحرير . ومـــا زالت القوى الفلسطينية تقف حائلا في وجه التسويات والحلول الاستسلامية .
ثانيا : تعاني المقاومة الفلسطينية مجموعة من الصعاب والعقبات . اهمها :
ا ـ المشكلة الديموغرافية ، المتمثلة في نقص عدد الفلسطينيين عن عدد اعدائهم من جهة ، وفي خلو مناطق كاملة من سكانها الاصليين من جهة ثانية .
ب ـ المشكلة الذاتية ، المتمثلة بنوع القيادات وطبيعـــة التركيب الحالي للتنظيمات ، وبنوع الايديولوجيا القائدة .
جـ ـ مشكلة علاقة القضية الفلسطينية بالانظمة العربية .
ولكل مشكلة من هذه المشاكل حلها . وحل المشكلة الديموغرافية يكـــون بتعبئة قوى الشعب الفلسطيني تعبئة ثورية شاملة ، وباشراك الجماهير العربية في المعركة اشراكا فعالا . اما المشكلة الذاتية ، فليس لها حل غير النضال والمزيد من النضـال ، والعمل على تجذير الخط السياسي وتعميق الخط الجماهيري . وبترسيخ الخط الثوري السليم وكشف الخطوط المتخاذلة والفوضوية والعفوية والمنحرفة والانتهازية . وتبقى المشكلة الاخيرة : مشكلة العلاقة مع الانظمة العربية . وحلها واضح . انه الالتجاء الى الجماهير العربية والالتحام معها ضمن خط سياسي واضح ومرن يضمن مساهمـــة كل القوى الوطنية وتحييد اوسع قطاع من الاعداء .
ثالثا : تجابه المقاومة الفلسطينية مشكلة حادة ، في هذه الايام ، هي مشكلة انحسار الحركة الوطنية العربية . وهذا الانحسار يجعل المقاومة الفلسطينيـــة « وحيدة » ، تحظى بعطف الجماهير العربية او قسم منها ، وتنال بعض رضا هذا النظام او ذاك ، ولكنها لا تستطيع أن تجد رفدا لها في حركة جماهيرية منظمة ، تعتبر النضال من اجل تحرير فلسطين قضيتها ، كما ان بناء المجتمع المتحرر والمتقدم قضيتها ايضا . واذا كانت المقاومة الفلسطينية قد اثبتت عجزا حتى الان في مجال تعبئة الجماهير العربية ، فان مشكلة هذا العجز كانت ستحل لو وفرت الحركات الوطنية العربية المناخ الملائم ، ولو استطاعت هي أن تكسر « طوق العزلة » المفروض على المقاومة الفلسطينية .

خاتمـــة :

ما زالت المقاومة تواجه معركتين متداخلتين : معركة التصفية الجسدية ومعركة التصفية السياسية والايديولوجية . وتتخذ التصفية الجسدية مظهرين :
الاول : السحق بالعنف الدموي والقمع الوحشي
الثاني : الاحتواء وتجميد القوى .
اما التصفية الفكرية والسياسية فتتخذ مظهرين ايضا :

الاول : تسحيف المنطلقات الاساسية وتشويهها .
الثاني : اغراق المقاومة بالاضاليل والاشاعات المتناقضة وذلك من اجل شل ارادتها وبلبلة افكارها . ولذلك نجد المقاومة تتهم اليوم ، بأنها انصرفت عن العمل العسكري الى العمل السياسي ، بينما نجدها تنتقد غدا على أنها تعتبر العمل العسكري ، او الكفاح المسلح أسلوب العمل الوحيد . ونجد قيادة المقاومة متهمة اليوم بأنها سلمت للانظمة ، ونجدها غدا متهمة بأنها لم « تحسم » ؛ ولم تصفّ مع الانظمة !
وتبرز من وسط دوامة التصفية الجسدية والسياسية هذه أصوات فلسطينية وعربية نكراء ، تدعو الى الاستسلام ، وتطالب بقول نعم للحلول التصفوية(١٥).
وعلى الرغم من ذلك فما زال هنالك مقاتلون مصممون على مواصلة المسيرة ، وما زال شعبنا يقول لا بملء فيه وبملء قلبه .

ن. ع.

---

١٥ ــ فيصل حوراني : « مشكلة العمل الفلسطيني ، سياسة لا » . **روز اليوسف** ، العدد ٢٢٦٩ ، تاريخ ١٩٧١/١٢/٦ .

اثر الاستنزاف النفسي في قرى الحدود الاسرائيلية

عبد الحفيظ محارب

كانت منطقة وادي بيسان المتاخمة للحدود الاردنية ، والمنطقة الشمالية من فلسطين المحتلة المتاخمة للحدود اللبنانية ، من اكثر المناطق تعرضا للعمل الفدائي الفلسطيني .
ومع ان ساعد الثورة الفلسطينية كان قد امتد في الفترة السابقة الى كافة المناطق في اسرائيل ، الا ان تاثيره كان اقوى واشد في هاتين المنطقتين ، ولذا فقد اقتصرنا الحديث حول مدى الاستنزاف النفسي الذي احدثته المقاومة الفلسطينية في صفوف العدو وما تاتى على هذا الاستنزاف من آثار سلبية ، على مستوطنات وادي بيسان والمنطقة الشمالية .
وقبل التطرق الى الاثار النفسية التي احدثتها المقاومة بين صفوف سكان مستوطنات الحدود ، لا بد من الوقوف قليلا على طبيعة وظروف هؤلاء المستوطنين ، وعلى صورة المقاتل الفلسطيني في نظر الاسرائيليين عامة .
تقسم مستوطنات الحدود الى ثلاثة أنماط رئيسية : (١) مستوطنات الموشاف (٢) مدن التطوير (٣) مستوطنات الكيبوتس . ويقوم النمط الاول من المستوطنات على ادارة المستوطنة تعاونيا ، حيث يمتلك كل عضو فيها قطعة ارض ويقوم بزراعتها والاعتناء بها بمساعدة الجمعية التعاونية التابعة للمستوطنة التي تمده بكل ما يحتاج اليه من بذور وسماد وحراثة كما تقوم بتصدير المنتوجات الزراعية ، وتقدم للمستوطن الارباح الصافية نقدا بعد اجراء حسم على التكاليف التي قدمتها له ، أما النمط الثاني من هذه المستوطنات فهو « مدن التطوير » وتوجد في هاتين المنطقتين اثنتان منها فقط هما بيسان وكريات شموناه (الخالصة) . وتعتبر « مدينة التطوير » اقرب الى القرية الكبيرة منها الى المدينة اذ يبلغ سكان بيسان حوالي ١٢ الف نسمة بينما يصل تعداد سكان كريات شموناه الى ١٧ الف نسمة . ويوجد في اسرائيل عدد من مدن التطوير شيدت في المناطق النائية او بالقرب من الحدود . وتقوم الحكومة الاسرائيلية مع الجهات المسؤولة عن الاستيطان في الوكالة اليهودية بتقديم المعونات الاقتصادية لهذه المدن من أجل توجيه قسم من المهاجرين الجدد اليها الى ان تصبح مدينة تعتمد على نفسها . ولا يعتمد سكان هذا النمط من المستوطنات على العمل التعاوني او الجماعي . اما فيما يتعلق بمستوطنات الكيبوتس فانها تعتمد على الملكية الجماعية ولا يوجد فيها اثر للملكية الخاصة .
تحتل الموشافات مكان الصدارة في قرى الحدود وتليها الكيبوتسات ومن ثم مدن التطوير .
ومن الجدير بالذكر ان الاكثرية الساحقة من سكان قرى الحدود وخاصة الموشافات ومدن التطوير النائية هم من ابناء الطوائف الشرقية ، اما الكيبوتسات فان اكثرية اعضائها من ابناء الطوائف الغربية (الاشكناز) . وهنالك بون شاسع بين معدل دخل الفرد في قرى الحدود (باستثناء سكان الكيبوتسات) وبين المعدل العام لدخل الفرد في اسرائيل ، كما انه يعتبر ادنى من معدل دخل الفرد لابناء الطوائف الشرقية الذين يسكنون داخل البلاد ! ففي هذه القرى لا زالت هنالك ظاهرة « الاولاد الحفاة » وظاهرة اولئك الذين

يكتفون بتناول « الخبز والبصل » في بلد السمن والعسل !! وقد كان للمقاومة الفلسطينية ونشاطها فضل كبير في كشف عيوب المجتمع الاسرائيلي القائم علـى التمييز الطائفي والعرقي بين الطوائف اليهوديـة المختلفة الاجناس . وهذا أمر لا ينكره حتى الكتاب الاسرائيليون الذين أخذوا مع اشتداد ساعد المقاومة يتحدثون عن « اهمال الحكومة لسكان قرى الحدود » وعن « الفقر المتفشي في قرى الحدود » . وليس أبلغ من وصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لهذه القرى ما جاء على لسان وزير الشرطة شلومو هليل على اثر زيارة له لقرى الحدود الشمالية : « ان هذا لعار فـي جبين الدولة »(١) .

ولعله من المفيد هنا أن نقارن بين قرى الحدود في منطقة وادي بيسان وقرى الحدود في المنطقة الشمالية ، ففي المنطقة الشمالية تتسع دائرة ظاهرة الفقر بشكل اكثر من قرى بيسان بسبب قلة الأراضي الزراعية ، ولذا فان تأثر هذه القرى الناجم عن اعمال المقاومة اشد منه في قرى وادي بيسان، أما منطقة وادي بيسان فانها تمتاز عن المنطقة الشمالية بمناخها الحار حيث تصل درجة الحرارة الى ٤٢ درجة مئوية في الظل ، ولذا فان تبرم سكان هذه المنطقة من اوضاع الملاجىء التي اخذوا يقضون معظم وقتهم داخلها بفضل نشاط المقاومة ، كان اشد بسبب الحرارة التي تكاد لا تطاق هناك ، فكثيرا ما كان يغمى على الاطفال في ملاجىء قرى بيسان بسبب الحرارة الشديدة ولافتقار الملاجىء الى مستلزماتها الاساسية .

وفيما يتعلق بصورة المقاتل الفلسطيني في نظر الاسرائيليين ، يمكن القول انه بالرغم من اسهاب وسائل الاعلام الاسرائيلية الى درجة الاسفاف في وصف المقاتل الفلسطيني بنعوت بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، الا أن الصورة الحقيقية يمكن العثور عليها فـي بعض الكتب الاسرائيلية التي تتحدث حول حرب حزيـران وفي اقوال بعض الجنـود الاسرائيليين . فقد ورد في كتاب من « جبل الشيخ حتى قنال السويس » في الفصل الذي يتطرق الى احتلال القطاع « ان قصة احتلال القطاع وتحرير غزة قصة ممزوجة بالدم، قصة شعب معاد يرفض الاستسلام ، قصة جنود فلسطينيين دافعوا وقاتلوا ببطولـة وعناد »(٢) . كما واورد الكتاب اعترافا للمقدم « يهودا » الذي شارك في احتلال القطاع بقوله : « ينبغي عدم الاستخفاف بهم ، لا قبل المعركة ولا بعدها . لقد قاتلت الوحدات الفلسطينية بشكل يثير الاحترام ، فكل جبهة اخترقت كانت تغلق بسرعـة وتبث فيهـا الالغام ، ويقومون بالدفاع عنها بشكل لا يقل عنه قبل عملية الاختراق . هكذا كـان الوضع في المواقع ، وفي المدن ، وفي كل مكان قاتلوا فيه . لم يلقوا سلاحهم ، ولم يتوقفوا عن القتال الى ان ابيدوا تماما »(٣) . ومن الجدير بالذكر ان هذا الكتاب كان قد احتوى في طبعته الاولى على وصف ابلغ لروح المقاومة مثل « لقد قاتل الفلسطينيون في القطاع فوق ما يتصوره العقل » ومثل وصف المواقع التي كانت ترابط بها الوحدات الفلسطينية بـ « قلاع الموت » غير ان هذه الاوصاف قد امتدت اليهـا يد الرقابة العسكرية في الطبعـات التالية على اثر اشتداد ساعد المقاومة الفلسطينية بعد حرب حزيران .

لم تكن صورة المقاوم الفلسطيني بعد حرب حزيران اقل من صورة المقاتل الفلسطيني في معركة احتلال غزة لدى قسم من الجنود الاسرائيليين الذين كانوا يصطدمـون يوميـا بالوحدات الفدائية في غور الاردن وسهل بيسان. ففي اعقاب معركة مواجهة عنيفة وقعت في وضح النهار في النصف الاخير من شهر تموز ١٩٦٨ بين مجموعـة فدائية ووحـدة اسرائيلية أسفرت عن مقتل العقيد (مظلي) « اريه ريجف » والمقدم « جات مانيلا » ذكرت صحيفة معاريف على لسان احد الجنود : « انهم كانوا يقاتلون كالاسود ... انهم مثلنا » .

وقبل خوض موضوع اثر الاستنزاف النفسي في قرى الحدود لا بد من الاشارة الى عامل الخوف الذي زرعته المقاومة الفلسطينية بين صفوف الجنود الاسرائيليين مـن جـراء

اتخاذها اسلوب المبادرة في توجيه الضربات ، وهو اسلوب يكسب من ينتهجه الجرأة فضلا عن أنه يمنحه عنصر المباغتة ، في الوقت الذي يجعل الطرف الاخر يتحسب ويتخوف في كل مكان وزمان من الضربة المحتملة التي ستوجه اليه ويجعله اسير الخوف من تلك الضربة . ومن المعروف ان الجيش الاسرائيلي كان يعتمد قبل ظهور المقاومة الفلسطينية واشتداد ساعدها ، اعتمادا كليا في مواجهته للدول العربية على هذا الاسلوب ، في الوقت الذي وقف فيه الجانب العربي موقف الزاهد تجاه تبنيه او الاخذ به ، الى ان جاءت المقاومة الفلسطينية وسلبت الجيش الاسرائيلي هذا الاسلوب وجعلت كثيرا من الجنود يعيشون لاول مرة ضمن دائرة الخوف . يقول أحد الجنود الاسرائيليين : « بعد الحرب كنت اخدم في الشمال ، انقل الطعام الى المواقع ، خفت من رجال فتح، انني لا اعرف لماذا ، ولكن اعتراني شعور بأن شيئا ما سيحدث هنا ، وسلبني هذا الشعور راحتي . ذات مرة كان هذا التخوف في محله ، ولكنني نجوت . هوجمت بالقنابل اليدوية عندما كنت منطلقا بسيارتي بالقرب من الحمة ، أصيب زميل لي بجراح بليغة واصيب آخر بجراح بليغة ، كما واصيبت فتاتان بجراح . . . بعد ذلك اخذت افكر بأن الاصابة كانت لي وليس لزميلي مما جعلني اعيش باحاسيس سيئة ، لدرجة ان كل زملائي اوضحوا لي بأنني لست مذنبا . . . وقد ذهبت الى الكنيس واشعلت هناك شموعا بمناسبة نجاتي . . لقد كنا مرات عديدة تحت نيران العرب ونجونا منها »(٤).
أما معارك المواجهة التي يبادر الفدائيون القيام بها فانها تحدث عادة خلخلة نفسية عميقة لدى الكثيرين بين صفوف الطرف الاخر بفعل عنصر المباغتة . يصف جندي اسرائيلي جرح في معركة مواجهة الدقائق الرهيبة التي مرت عليه بقوله : « . . نعم تلك الدقائق القليلة من المعركة القصيرة العنيفة غيرتني تماما . كأنني كبرت ثلاثين او اربعين عاما . لقد كان ذلك فظيعا . . انتصب امامي على بعد خمسة امتار وصوب الكلاشنكوف نحوي . رأيت الموت ماثلا أمامي واعتقدت أن هذه هي الثواني الاخيرة من حياتي . . . يا الهي كم خفت ! ان ذلك لامر فظيع ، انك لا تجتاز أمرا كهذا في التدريبات، انك لست على استعداد لذلك ، وعندما يحدث هذا الامر يجر وراءه اضطرابا نفسيا »(٥).
كان تأثير هجمات المقاومة واضحا وملموسا في منطقة وادي بيسان والمنطقة الشمالية، اكثر من المناطق الاخرى ، فقد قلصت هذه الهجمات دائرة تنقل سكان المستوطنات وجعلتها تقتصر فقط على حدود القرية خلال النهار . اما خلال الليل فانها تتقلص بشكل حاد لتقتصر فقط على البيوت والملاجىء ، الامر الذي اثر تأثيرا كبيرا على المحاصيل الزراعية التي تعتبر المصدر الاساسي لمعيشتهم . ففي مستوطنة المطلة مثلا اعترى السكان شعور بأنهم مطوقون من معظم الجهات ووجدوا انفسهم مرغمين على عدم تجاوز حدود قريتهم وقد أوضح يوسف فرنكل رئيس المجلس الملي للمطلة سبب ذلك بقوله : « عندما لا تعلم متى وأين تنفجر القذيفة ، وفي أية ساعة من الليل او النهار يكتشف الحراس عملية توغل ، وتحت اي بيت وضعت مواد متفجرة ، فانك تجد نفسك عازفا عن الخروج من حدود المستوطنة »(٦). ولا يقتصر الحد من حرية التنقل على قرية المطلة بل يشمل سائر مستوطنات الشمال ووادي بيسان وحتى بعض مستوطنات النقب المتاخمة لقطاع غزة ، ففي مستوطنات وادي بيسان عانت الزراعة من تخلف مزمن ولحقت بها اضرار جسيمة ذلك «لانه ليس كل واحد بطلا وعلى استعداد لقطف البندورة على ضفة الاردن ، في الوقت الذي يطلقون فيه النار » كما وغدت ظاهرة « الهروب » من العمل في الحقول ظاهرة طبيعية هناك ، وفي مستوطنة « مبتيحيم » التي تبعد عن غزة حوالي ١٥ كم تعرضت الزراعة ايضا لاضرار على اثر قيام الفدائيين بزرع لغم ادى الى مقتل عدد من الاشخاص ، الامر الذي جعل سكان المستوطنة الذين كانوا يسقون حقولهم خلال الليل بسبب الضغط المنخفض في الانابيب خلال النهار ، لا يتجرأون

على الخروج الى مزارعهم لانهم « أصبحوا اسرى الخوف ويفضلون البقاء في البيوت ».
وبالاضافة الى عامل الحد من حرية الحركة الناجم عن الخوف الذي زرعته المقاومة في نفوس المستوطنين ، هنالك عامل الانهاك الجسماني الذي أثر بدوره على قدرة المستوطنين على العمل في المزارع خلال فترات الهدوء المتقطعة ، الناجم عن القلق الذي اخذ يستبد بهم ، والخوف على ارواحهم ، ذلك انه غدا من الصعب الاستسلام للنوم في الوقت الذي تحوم فيه خلال الليل علامة سؤال كبيرة « هل يسمحون لنا ان ننام أم لا ؟ هل يقصفوننا هذه الليلة ايضا ؟ من أين ستأتي القذائف ؟ في اي مكان ستسقط ؟ دور من هذه الليلة ليدفع ثمن الحرب المستمرة ؟ »(٧). وقد ادت علامة السؤال الكبيرة التي اخذت باستمرار ولمدة طويلة تلف ليالي المستوطنات ، الى « هبوط في طاقة القوى البشرية » ويصف يهودا يتسحاق من مستوطنة « يردينا » هذا الوضع بقوله : « منذ أن اصبحنا في حدود الجبهة هدفا للاردنيين والفدائيين، غدت معيشتنا اصعب بكثير لاسباب عدة ، انني أشعر خلال عام بأنني كبرت عشرين عاما ، انك لا تنام في الليل وهذا ينهكك في النهار ، لقد كان باستطاعتي ذات مرة قبل عام أو عامين ان أحمل على ظهري جهاز المبيدات الحشرية وان اتنقل به في المزرعة طيلة خمس ساعات ، ولكن الان بعد ساعة او ساعة ونصف من حمله أشعر بأن قدمي لا تستطيعان حملي ، وكأنني غدوت نصف رجل »(٨).
هذا بالاضافة الى أن الجهد الحربي قد عمل هو الاخر ، بسبب الاوضاع الامنية المتردية في قرى الحدود على تدهور الاوضاع الزراعية ، فقد امتص الجهد الحربي عددا كبيرا من شباب المستوطنات ورجالها بواسطة تجنيدهم في الجيش او بواسطة أوامر الالتحاق « الكثيرة » من اجل الخدمة في سلك الاحتياط ، مما ترتب على ذلك خلق صعوبات جمة امام الاعتناء بالشؤون الزراعية ، حيث أصبحت مهمة الاعتناء بالمزارع ملقاة على كاهل « الاباء المسنين واولاد القرى » . وبذلك وجدت اسرائيل نفسها أمام تناقض كبير بين متطلبات الجهد الحربي لدولة تعيش في حالة حرب وبين متطلبات المعيشة لقرى الحدود في الوقت الذي يوجد فيه الجيل الشاب وهو العمود الفقري للقوى العاملة ، خارج هذه القرى . بمعنى آخر وجدت نفسها أمام معادلة صعبة : كيف توفق بين الاستمرار في المحافظة على الاعتناء بالشؤون الزراعية لهذه المستوطنات في الوقت الذي تستدعي فيه شباب المستوطنات للانضواء تحت علم الخدمة في الجيش ؟ وقد رات ان خير وسيلة للخروج من هذه المعادلة الصعبة ، اللجوء الى دعوة السكان في اسرائيل للتطوع للعمل في قرى الحدود ، الا أن هذه الدعوة لم تعط الثمار المرجوة منها لسببين (١) ضآلة عدد الذين استجابوا لها من داخل اسرائيل بسبب الاوضاع الامنية المتردية في المستوطنات (٢) عدم دراية قسم كبير من المتطوعين بالشؤون الزراعية ، الامر الذي دفع السلطات الاسرائيلية الى تقديم مساعدات مادية لسكان هذه القرى ، غير ان هؤلاء السكان اخذوا يتذمرون من ضآلة حجم المساعدات ومن ضآلة عدد المتطوعين .
هنالك عامل آخر اثر على دخل قرى الحدود بنفس المقدار الذي اثر فيه على نفسية ومعنويات سكانها ، فالمنطقة الشمالية تعتبر بمثابة مصيف يؤمها الزوار من كافة المناطق في اسرائيل خلال فصل الصيف ، كما وان منطقة وادي بيسان تعتبر بمثابة مشتى يؤمها الزوار خلال فصل الشتاء ، غير ان هذا المصيف وذاك المشتى اصبحا بمثابة منطقة شبه محرمة على الزوار منذ تصاعد نشاط المقاومة في هاتين المنطقتين ، حيث غدت فنادق الاستقبال التي كانت تعج بالزوار والسياح لا تستقبل احدا الا بالصدفة ولوقت قصير ، فقد حدث ان قدم احد المصطافين بسيارته الى فندق المطلة ، وهذا أمر نادر الوقوع كما تقول صاحبة الفندق ، وبعد ساعة من قدومه ، دوت في المنطقة اصوات انفجارات ، فما كان منه الا ان ركب سيارته واختفى بسرعة عن المنطقة ! وقد ادى احجام السكان في اسرائيل عن زيارة مستوطنات الحدود الى انخفاض حاد في دخل المستوطنات من

السياحة ، والى هبوط حاد أيضا في نفسية ومعنوية سكانها ، حيث أخذوا يتذمرون من « لا مبالاة سكان الداخل » تجاههم ، ويحتجون على الاوضاع العامة بقولهم ان مستوطناتهم غدت مكانا لاستقبال الصحفيين بدل ان تكون مكانا لاستقبال الزوار والسياح .

وقد كان من نتيجة مجمل الاوضاع الامنية المتردية ان غدا سكان مستوطنات الحدود متزمتين تجاه الاحتفال بالمناسبات الشخصية والدينية والوطنية ، ففي بلدة كريات شموناه مثلا ، اصبح الاحتفال بمراسيم الزواج أمرا نادر الحدوث ، كما وان سكان البلدة لم يخرجوا كعادتهم الى الشوارع في يوم « استقلال اسرائيل » الثاني والعشرين للاحتفال بهذه المناسبة ، فقد « خلت الشوارع خوفا من الكاتيوشا ولزم السكان بيوتهم، ونزلوا الى الملاجىء ليناموا بداخلها ، ولم يخرج اي واحد الى الشوارع للاحتفال بيوم الاستقلال الثاني والعشرين »(٩).

وتجدر الاشارة هنا الى ان الاوضاع الاقتصادية والامنية المتردية قد انعكست على سكان مستوطنات الموشافات والقرى بشكل اشد واقوى منها على سكان الكيبوتسات ، ففي الكيبوتس تتوفر ملاجىء لائقة مجهزة بكافة المعدات التي يتطلبها الملجأ ، من اجهزة تكييف للهواء ، وكهرباء وآثاث وصور وكتب وماء وطعام واسعافات اولية ، في الوقت الذي تنعدم فيه مثل هذه الامور الاساسية في ملاجىء الموشافات والقرى ، التي تتميز « بالاكتظاظ الشديد والروائح الكريهة » و« الحياة التي لا تطاق » ، مما خلق نوعا من « الغيرة » المزوجة بالتذمر بين سكان الموشافات وسكان الكيبوتسات ، التي اخذت بالاشتداد في اعقاب حرب حزيران مع اشتداد ساعد العمل الفدائي ، حيث بدأ سكان المستوطنات يقارنون بين ظروفهم السيئة وبين ظروف الكيبوتس الحسنة مع ان مصير الطرفين واحد . « نحن وهم نواجه مصيرا مشتركا ، ولكن ظروفهم افضل، فباستطاعتهم انزال اولادهم داخل الملاجىء كل مساء ، حتى دون أن يكون هنالك قصف . ان اولادهم ينامون داخل الملاجىء المجهزة بكافة المستلزمات »(١٠).

لا تقتصر الظروف الحسنة التي يتمتع بها ابناء الكيبوتس على الملاجىء اللائقة فقط ، بل تشمل ايضا القيام برحلات دورية للاطفال والاولاد داخل اسرائيل لتغيير جو الملاجىء ، وتخفيف حدة التوتر النفسي الذي تخلقه الاوضاع الامنية المتردية في الوقت الذي تكاد تنعدم فيه مثل هذه الرحلات لدى ابناء الموشافات والقرى .

هذا فضلا عن تمتع ابناء الكيبوتس في تلقي « المعالجة الخاصة » التي استحدثت في كيبوتسات الحدود مع ظهور المقاومة الفلسطينية ، بغرض دراسة ومعالجة الحالات النفسية الناجمة عن تردي الاوضاع الامنية ، حيث «اصبحت الحاجة ماسة الى المعالجة الخاصة في اعقاب تعرض المستوطنات للقصف » . ويقوم بهذه « المعالجة الخاصة » خبراء في علم النفس ، استقدمتهم حركة الكيبوتسات من المدن لمعالجة المشاكل النفسية لسكان الكيبوتس « بغرض التخفيف عنهم وايجاد حلول لمشاكلهم »(١١).

غير ان العامل الاهم الذي جعل مستوطني الكيبوتسات لا يتعرضون للمشاكل الاقتصادية والامنية المتردية ، بنفس المقدار الذي تعرض له مستوطنو الموشافات والقرى يكمن في طبيعة نظام الكيبوتس المغايرة لطبيعة القرى الزراعية الاخرى ، ففي الكيبوتس ، حيث المعيشة الجماعية والمساعدات من حركة الكيبوتسات في حالة تعرض اي كيبوتس لازمة اقتصادية ، لا يتحمل العضو اعباء التفكير في معيشة عائلته واولاده ، على خلاف المزارعين في الموشافات والقرى الزراعية . يقول يهودا يتسحاق من موشاف « يردينا »:

« ان الارهاق اخذ يلفني اكثر من اي وقت مضى ، حتى اصبحت اخاف منه ، لانني ادرك انه اذا ما قمت هنا للعمل بنفسك كمزارع مستقل فلن يساعدك احد . لا يوجد لدينا صندوق للمساعدة المتبادلة ، اننا لا نعيش في كيبوتس . انني لا استطيع الذهاب الى الموشاف لاقول : انظروا لدي عشرة اولاد اكبرهم ابن خمسة عشر عاما واصغرهم ابن

عامين لا استطيع اعالتهم ، ساعدوني . لا يوجد شيء كهذا . ان كل واحد منا مجبر على أن يكون مسؤولا ، ولا يوجد هناك من يتقاسم المسؤولية »(١٢).

ويمكن تلخيص ما تقدم ان سكان الموشافات والقرى قد تأثروا نتيجة النشاط الفدائي من عاملين ، العامل الاقتصادي والعامل الامني ، بينما كان تأثر سكان الكيبوتسات أقرب الى العامل الامني منه الى العامل الاقتصادي .

تركت هجمات المقاومة الفلسطينية بصماتها على كافة المجالات الحياتية والنفسية في قرى الحدود ، حيث غدا مستوطنو هذه القرى يتواجدون باستمرار وطيلة حوالي ثلاثة اعوام تحت وفوق الارض ، وتزداد نسبة التواجد داخل الملاجىء الارضية ، مع حلول الظلام وتصاعد العمليات الفدائية ، وتقل عادة في النهار وخلال فترات الهدوء ، ولكن هنالك فئة تقضي معظم وقتها ، اكثر من سائر الفئات الاخرى ، داخل الملاجىء الا وهي فئة الاطفال والتلاميذ .

هنالك ظواهر سلبية تكشفت في مستوطنات الحدود مع ظهور المقاومـــة ، مثل التبرم والاعياء والانهاك والتوتر النفسي ، على ان ظاهرة الخوف و « الخوف من الخوف » تفوق كافة الظواهر السلبية التي نجمت اصلا عن ظاهرة الخوف .

تبدو مظاهر الخوف على ملامح السكان ، وخاصة الاطفال وتلاميذ المدارس مع غروب الشمس . « فعندما يأتي المساء » كما يقول يهودا اطلس صبي من سكان بلدة بيسان « يأتي الخوف . اننا لا نخاف في النهار مثل الليل ، عندما نسمع اصوات الانفجارات خلال النهار نفكر قبل كل شيء ، انه ربما تكون ناجمة عن قصف جوي ، واذا كانت اصوات قذائفهم فاننا نهرع الى ملجأ المدرسة ، والضاحية . ذات مرة ركضنا نحو ملجأ المدرسة غير اننا لم نستطع دخوله بسبب امتلائه بالمياه القذرة التي تسربت اليه ، حينذاك هبطت القذائف ولم ندر ماذا نفعل هل نقفز داخل المياه القذرة اولا ؟ وعند ذاك قدمت بعض المعلمات ونقلتنا الى ملجأ آخر . . . ولكن خلال الليل فانني أخاف كثيرا . . في الحقيقة لا استطيع النوم ، فعيناي تبقيان مفتوحتين ، وفي الوقت الذي أحاول فيه أن أغمضهما فانهما تعودان وتفتحان بسبب خوفي من القذائف . في بعض الأحيان نبقى مستلقين حتى منتصف الليل دون ان يغمض لنا طرف عين . اننا نتعب من ذلك ، ولا توجد لدينا القوة للنهوض ولا الرغبة في الذهاب الى المدرسة »(١٣).

ويؤدي مجيء الليل وما يحمله من خوف مشفوع بتساؤلات كثيرة ، الى ترك العائلات التي تعيش في اطراف البلدة او المستوطنة بيوتها والالتجاء عند الاقارب داخل البلدة ، وفي بعض الاحيان يؤدي الى تفكك الاسرة . يقول يهودا أتياس من بلدة بيسان : « انني اخاف من القذائف ، قبل مدة تعرضت ضاحيتنا للقصف . . . ومنذ ذلك التاريخ لا ننام في بيتنا ، فكل مساء تأخذني امي الى بيت خالتي ، بينما يذهب أخي للنوم في بيت صديق له، وتذهب اختي للنوم في بيت اختها المتزوجة . نحن عائلة في النهار فقط ، ولكن خلال الليل ليس الامر كذلك »(١٤).

ولعل ظاهرة الارق بين صفوف سكان المستوطنات الناجمة عن الخوف من اشد الظواهر التي اخذت تستبد بنفسية السكان ومعنوياتهم ، فقد غدت هذه الظاهرة طيلة فترة طويلة من « الامور المسلم بها » وختمت بصماتها على سكان المستوطنات نفسيا وجسديا . وتصف المعلمة « روت ليفي » حالة الارق التي تفرزها ليالي مستوطنات الحدود الطويلة بقولها: « في الحقيقة ان الوضع صعب للغاية ، ولا أعرف أين سيؤدي بنا. . . فمنذ الهجمات المركزة علينا ، انجح في اغماض عيني فقط في الساعة الثانية بعد منتصف الليل بسبب التوتر الشديد والخوف الذي يستبد بي . من الممكن حقا ان يبدأوا باطلاق النار في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ولكن هذا الوقت هو نوع من المدى الامني الذي اخلقه لنفسي : فاذا لم يطلقوا النار حتى الثانية فانهم سيدعوننا لننام ، وحتى بدون ذلك فان المرء يستسلم للنوم في تلك الساعة . . نسقط على السرير خائري القوى وبعد اربع او

اربع ساعات ونصف الساعة تبدأ المشكلة: ينبغي علينا ان ننهض وان نذهب الى المدرسة للتدريس ست ساعات وان نبث بين صفوف التلاميذ الامن والهدوء ... ينبغي علي ان اوضح للتلاميذ بأنه من الواجب علينا ان نتعايش مع هذا الوضع دون ان نتخلى عن جهد التعليم ، وان لا نستسلم . غير ان ذلك يمتص جهداً نفسيا لا بأس به ، وهكذا يوم على اثر آخر ، ان ذلك من شأنه أن ينهكك »(١٦) .

اما المعلمة « نوريت فجنر » فانها تصف الحالة النفسية السيئة التي تجلبها ليالي بيسان الطويلة بقولها : « ان حالة التوتر ليست جديدة بالنسبة لنا ، فنحن نعيش وسطها منذ اشهر عـديدة . ان الليالـي ليست عادية ، ذلك انه مـن الصعب النـوم بسبب الخوف الذي يستبد بنا من قذائف الكاتيوشا . اننا نحاول ان نعزو السبب الى الحرارة ، غير ان ذلك فقط بمثابة نوع من الاطمئنان الشخصي ، ومحاولة للتهرب ، ففي اعماقنا ندرك بأننا نخاف في الليل من القذائف ، الامر الذي يجعلنا في حالة استعداد لمواجهتها وهذه الحالة تحول دون اخذ قسطنا من النوم » .

غير ان وضع التلاميذ وحالتهم النفسية وخاصة تلاميذ الموشافات والقرى ، اصعب بكثير من أوضاع وحالات الفئات الاخرى ، فالتلاميذ يمكثون اكثر من غيرهم داخل « الملاجىء التي لا تطاق » ولا سيما ملاجىء وادي بيسان في فصل الصيف حيث الحرارة الشديدة ، اذ أنه « من غير الممكن ابقاء التلاميذ داخل الملجأ بشكل متواصل اكثر من اربعين دقيقة . فالتنفس صعب ، والشحوب يعتري الوجوه التي اخذت بفعل الحرارة الشديدة تتصبب عرقا . انهم يقومون بمسحه بالمحارم وبأيديهم وبقمصانهم . انهم يتحركون على مقاعدهم وقد عيل صبرهم ، وبعد مدة وخاصة ابتداء من الدرس الثالث نشعر ان لا جدوى من مواصلة الدرس العادي ، فليس هنالك من يصغي لان افكارهم اصبحت مشتتة ... عيونهم تتجه وتتركز برجاء صامت نحو فتحة الملجأ ... بعد ذلك يطلبون الخروج ، الا اننا نحاول تأجيل ذلك مدة خمس او عشر دقائق ، ولكن يتضح لنا ان محاولتنا خاسرة .. نقوم باخراجهم ، وهناك نغسل وجوههم ونرش الماء على رؤوسهم، الا ان ذلك لا يساعد كثيرا ، فبعد ربع ساعة يعودون الى الملجأ ، حيث يبدأون بالتثاؤب ، ويلقون بنظراتهم نحو فتحة الملجأ »(١٧) .

اصبحت الكاتيوشا مع تصاعد نشاط المقاومة في قرى الحدود ، القضية المركزية التي تستحوذ على فكر الاطفال ، وتشغل بال تلاميذ المدارس . ومما زاد الطين بلة بالنسبة لهؤلاء ، الازدحام الشديد واختلاط الحابل بالنابل داخل الملاجىء ، على خلاف مما هو عليه الوضع في ملاجىء الكيبوتسات مما جعل التلاميذ يمرون بمرحلة تخلف دراسي ، شبيهة الى حد كبير بمرحلة التخلف الزراعي لحقول المستوطنات . وتصف المعلمة « افيفا بن شموئيل » الظواهر المتاتية عن الكاتيوشا وتأثيرها على التلاميذ بقولها : « لقد غدت مسألة الكاتيوشا مسألة مركزية في حياتهم ، ان الملجأ وكافة الاحاسيس التي تصطحب المكوث به ، تعزز فقط هذه المركزية . هنالك حوالي ٨٠٪ من تلاميذي ينامون كل ليلة في الملجأ . ان النوم في ملجأ كهذا يكاد يكون امراً مستحيلا ... مـن الصعب وصف الازدحام والاضطراب والصراخ هناك حيث تأتي عائلات تتكون من ثمانية او عشرة افراد مع الاطفال ، في الوقت الذي لا يوجد في الملجأ أسرة كافية ولا حتى مكان يجلسون فيه ، فينامون فوق بعضهم بعضا ... يخلو الملجأ كالكثير من الملاجىء من الكهرباء ولذا فاننا نبدأ باشعال الشموع ... واحد يصرخ بالثاني ، وآخـرون يتسلقون على الاجساد ، ويتنازعون ... وفي الصباح يأتي التلاميذ الى الصف ، وينامون قبل ان احييهم تحية الصباح ويأخذ النعاس يستبد بهم طيلة النهار »(١٨) .

ومن ابرز الظواهر التي خلقتها الكاتيوشا في نفوس التلاميذ بالاضافة الى ظاهرة الخوف، ظاهرة عدم القدرة على التركيز ، وظاهرة الانهاك النفسي ، ويستشف ذلـك من حديث معلمة افضت به بمناسبة انتهاء العام الدراسي : « بعد مضي بضعة ايام قلت انه لا يمكن

الاستمرار في هذا الوضع ، كان تلاميذي خائري القوى ، لم استطع تدريس اي شيء ، لقد كنا نتحدث طيلة اليوم لان التلاميذ لم يملكوا القدرة على تركيز افكارهم ... كنا بحاجة الى فترات استراحة طويلة في الخارج . لقد احسست انا بالذات بأنني منهارة .. كنت أرى التلاميذ عندما يخرجون من الصف مذعورين ، عيونهم تتجـه نحو السماء بانتظار الكاتيوشا . لقد تغير كل شيء ، واصبح الوضع غريبا . لم يسبق لي ان تحرقت شوقا الى انتهاء العام الدراسي مثل هذا العام . لقد انهكت قوانا هذا العام اكثر من اي وقت مضى ، وكان بالنسبة لي بمثابة عامين من ناحية الجهد النفسي والجهد الجسماني ايضا »(١٩) .

لم تكن الحالة النفسية لتلاميذ « كريات شموناه » في المنطقـة الشمالية ، بأفضل من الحالة النفسية لتلاميذ بيسان في وادي الاردن ، بالرغم من انخفاض حدة الحرارة في الملاجىء هناك ، لان ظاهرة الخوف وهي الظاهرة الاساسية التـي تتفرع عنها كافة الظواهر السلبية الاخرى في قرى الحدود ، كانت تستبد بهم في النهار وفي الليل داخل وخارج الملاجىء ، ويكفي الاشارة الى الرسائل التي بعث بها تلاميذ احدى مدارس كريات شموناه الى قوات الجيش الاسرائيلي المتواجدة في الهضبة السورية لندرك مدى مـا يعانيه التلاميذ من خوف . جاء في هذه الرسائل بالحرف : « أيها الجنود الاعزاء ، اننا خائفون ، خائفون للغاية ، في النهار وفي الليل ، الرجاء المحافظـة علينا بقدر مـا تستطيعون ، اننا نتلقى دروسنا في الملجأ ، ولكننا نخاف ايضا داخل الملجأ »(٢٠) .

ومن الجدير بالذكر ان « الكاتيوشا » و« الليالي الطويلة » لقرى الحدود قد شقت طريقها الى الادب العبري ، في قصائد غنائية اخذت تتردد على السنة التلاميذ . وتتسم هذه القصائد الغنائية بطابع الحزن واليأس وسنورد هنا قصيدتين غنائيتين ، الاولى كتبتها معلمة في كريات شموناه تدعى رفكا ميخائيلي بعنوان « تذيفتا كاتيوشا انطلقتا نحونا » . ويقضي لحن القصيدة ان يقسم التلاميذ الى قسمين ، القسـم الاول يقوم بدور الغناء والقسم الثاني يقوم بدور الكورس ، ثم يتبادلان الادوار .

« المغنون : قذيفتا كاتيوشا انطلقتا نحونا
الكورس : بيم ، بام ، بوم
المغنون : سقطت واحدة في المدرسة ، لم تصبها ، ولكنها قريبة منها
المجلس المحلي قال للمدير ، لا ضير ، لا ضير
ثمة مصاعب كبيرة
فانطفأ البريق من العيون الجميلة
الكورس : بيم ، بام ، بوم
المغنون : جاءت الينا كاتيوشا من السماء ، وتبعتها بازوكا
الكورس : بيم بام بوم »(٢١)

اما القصيدة الغنائية الثانية فهي بعنوان « في اعقاب القصف » بقلم انيؤوله منوسفيتش طالبة في الصف الحادي عشر قسم علمي كريات شموناه . ويتضح من القصيدة مدى ما تحدثه « الليالي الطويلة » من اثر في نفسية سكان قرى الحدود الذيـن يتطلعون الى شروق الشمس بفارغ الصبر « قبل أن تذوي النفوس » .

« أمع بزوغ الشمس فقط
يأتي الخلاص
هل الشمس هي وحدها
التي تستطيع ان تأتي بالجواب
ما هو ضباب الفجر الزاحف
رويدا رويدا يتشح بالبياض
من وراء الهضبة أطل شعاع ... وتلاه شعاع آخر فآخر

فأضاء اعشاش الخوف في العيون
وكسا الوجنات بلون الذهب
وازال تجاعيد الانهاك والقلق من الوجوه
واعاد الثقة الى النفس
التي كادت قواها ان تذوي وتتلاشى . . . هكذا بكل بساطة »(٢٢)

وتصف صاحبة القصيدة حالتها النفسية اثناء الليالي الطويلة التي استوحت منها قصيدتها بقولها : « الحياة تمر علينا ونحن نتلقى الدروس ، ونصلي من اجل اشراقة الصباح . اننا ننتظر الصباح فقط ، فالصباح يحمل بين طياته الفرج ، وتمدني شمسه بأسباب القوة . . . ولكن في الليل يستبد بي الخوف ، وتبدأ ضلوعي تتحدث الواحدة للاخرى عن الخوف »(٢٣) .

لم ينج سكان قرى الحدود حتى اثناء نومهم من « شبح فتح والكاتيوشا » فاثناء الخلود الى النوم يتحرك العقل الباطني ، ليعكس في أغلب الاحيان الاحاسيس والمشاعر التي تستحوذ على تفكير المرء في حالة صحوه ، على شكل احلام في قوالب مختلفة . ومن الطبيعي ان تكون الاحلام التي تراود سكان قرى الحدود ، انعكاسا للواقع الذي يعيشونه ويمرون به ، وكثيرا ما يحلم السكان بالقذائف والقصف والشظايا المتطايرة وبالمسلحين الذين يأتون من وراء الحدود . على ان حلم « حنه دهان » من مستوطنة « افيفيم » يفوق في طرافته كل الاحلام ، فقد زارها الفدائيون في الحلم ، وكانوا في نفس الوقت يمرون بالقرب من بيتها بالفعل !! في ليلة عرفت فيما بعد في مستوطنة افيفيم بـ « ليلة الانفجارات » . وتروي حنه قصة حلمها بقولها : «في المدة الأخيرة اخذ الحاخام « شمعون باريوحاي » (من أولياء اليهود يقع قبره قرب صفد) يزورني بالحلم كل ليلة . . . قلت له : ايها الحاخام شمعون منذ ثلاثة ايام وانت تجيء الي وتقول لي انهضي! لماذا ؟ ماذا فعلت لك لتقول لي انهضي . قال لي : انهضي ايتها المرأة ، لا تنامي تطلعي جيدا ، ماذا ترين ، وتطلعت واذ بي ارى عربيين يركضان نحوي . استيقظت ونهضت من السرير وغسلت وجهي ، وجلست لاحرس الاولاد ، وفجأة تناهى اسماعي صوت حركات في باحة المنزل كصوت الاعشاب عندما تحركها الرياح . فتحت الشباك فرأيت شخصا يركض واعتقدت انه حارس يقوم بأعمال الحراسة ، وذهبت الى الاولاد ، وفجأة حدث انفجار . . . كفى انني لا اريد البقاء في افيفيم »(٢٤) .

كان من نتيجة مجمل هذه الأوضاع القاسية ان بدأ سكان مستوطنات الحدود يتساءلون: « ماذا ستكون النهاية ؟ ماذا سنعمل ؟ » واخذ الكثيرون يستسلمون للامر الواقع « لا حل للاوضاع ، ينبغي ان نعيش معها » مما جعل الكثير منهم يستسلمون لليأس لعدم وجود مخرج للمأزق الذي حشروا فيه . الا ان قسما من السكان قد رأى ان المخرج من حالة البؤس واليأس يكمن في الهجرة من قراهم الى داخل اسرائيل وبدأت العائلات تفكر في الهجرة ، وتهاجر بالفعل الى داخل اسرائيل . وهذه هي المرة الاولى في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي التي تتمكن فيها قوة عربية من ارغام قسم من السكان على ترك قراهم ومستوطناتهم . ومع أن اسرائيل قد اسدلت ستارا من الكتمان على عدد الذين هاجروا من القرى الامامية الا ان بعض المعلومات المتناثرة هنا وهناك في المصادر الاسرائيلية تشير بشكل واضح عن مدى الرغبة في الهجرة من قرى الحدود تخلصا من الاوضاع القاسية التي خلقتها المقاومة الفلسطينية ، ففي بلدة بيسان لوحدها ، هاجر اكثر من الف شخص ، ويستدل ذلك من قول صحيفة دافار التي اخذت تتحدث بعد استتباب الهدوء في منطقة وادي بيسان على اثر ضرب المقاومة الفلسطينية في سبتمبر في الاردن « ان عدد السكان قد زاد منذ استتباب الامن في المنطقة نحو الف نسمة ، ويبلغ عددهم الان نحو ١٢ الف نسمة ، وكان عدد سكانها قد انخفض في ذروة التوتر الامني الى ١١ الف نسمة . ومصدر الزيادة هو في الاساس العائلات التي نزحت عنها ايام

التوتر ، وتعود اليها حاليا بمعدل عائلة يوميا .. »(٢٥)
لا يقتصر النزوح عن بلدة بيسان فقط ، بل يشمل ايضا معظم قرى الحدود ، ففي اعقاب كل عملية فدائية تبدأ العائلات بالتفكير في الهجرة على اثر اليأس الذي أخذ يعصر قلوب المستوطنين من جراء الاوضاع الاقتصادية السيئة والاوضاع الامنية المتردية ، مما دفع « حاييم جبرائيل » من سكان مستوطنة « زرعيت » بالقرب من الحدود اللبنانية على القول بأنه بعد انتظار ثلاثة اعوام دون جدوى فانه لن يعتمد بعد على مبرمجي الاستيطان التابعين لقسم الاستيطان في الوكالة اليهودية وانه سيبرمج هو مستقبله : « مغادرة المستوطنة ونحن في سن الشباب ، لكي نعيش كالبشر ، لقد رأينا كيف برمجوا مستقبل المستوطنة . ادخل الى كل موشاف ، وسترى يأسا قاتلا. ليس هنالك من خيار أمام الآباء ، ولكن بالنسبة لنا يوجد خيار »(٢٦).
تخلصا من حياة اليأس والبؤس ، اندفع قسم كبير من شباب قرى الحدود الى ترك مستوطناتهم وقراهم والتجأوا الى داخل اسرائيل ، ففي مستوطنة « شوميره » القريبة من الحدود اللبنانية قام الكثير من الشباب الذين انهوا خدمتهم العسكرية ، بادارة ظهر المجن لقريتهم وذهبوا الى مدن البلاد ليبنوا مستقبلهم هناك ، ولم يبق في المستوطنة الا الآباء والطاعنون في السن الذين لا يستطيعون الانتقال الى مكان آخر، الامر الذي دفع « يعقوب مزراحي » عضو المجلس المحلي الى القول « انه اذا لم يطرأ تغيير جذري فان القرية ستتحول الى مستوطنة للكهول »(٢٧).
وفي مستوطنة « الكوش » الواقعة بالقرب من الحدود اللبنانية ، والتي كانت عرضة لهجمات الفدائيين ، نزح كل قادر على تحمل عبء النزوح وبناء مستقبل جديد في الاماكن الجديدة التي يتوجه اليها « وبقي في المستوطنة » (كما ورد على لسان شلومو ميخائيل من نفس المستوطنة . أب لثلاثة اولاد) « فقط اولئك الذين لا خيار امامهم ، اما الذين يملكون تكاليف السفر فقد نزحوا منذ مدة »(٢٨). لم تقتصر الهجرة على مستوطنات المنطقة الشمالية ووادي بيسان ، بل شملت ايضا بعض المستوطنات في المنطقة المتاخمة للقطاع مثل مستوطنة « مبتيحيم » التي اخذ قسم من سكانها يهجرونها على اثر توتر الوضع الامني هناك .
ولعل ظاهرة الشعور بعدم الارتباط ، لدى قسم كبير من المستوطنين بالمناطق التي يعيشون فيها ، الى جانب مجمل الاوضاع الامنية والاقتصادية المتردية ، كان لها أثر كبير في الهجرة من هذه المناطق ، ففي مستوطنة المطلة التي بدأ قسم من سكانها بالهجرة منها ، هنالك كما يقول « بياليك بلسكي » احد مستوطنيها القدامى اكثر من ٥٠٪ من السكان في المطلة ليس لهم اي ارتباط بها ، « فالبيت الصغير ويوم العمل يمكن الحصول عليهما في أي مكان آخر ، وليس فقط في المطلة ؛ واذا ما تدهورت الاوضاع فانهم سيهاجرون ، لماذا يبقون في مواجهة المشاكل ؟ »(٢٩).
لم يكن الشعور بعدم الانتماء والارتباط في هذه المناطق وليد الساعة عقب قذائف الكاتيوشا ، بل كان في « حالة غفوة » كما يقول « اشر روزنتال » من المركز الاجتماعي لبلدة « كريات شموناه » ، « أيقظته قذائف الكاتيوشا ، وقد نزح من كريات شموناه من كان يملك القدرة على النزوح ، وبقي فيها اولئك الذين لا يستطيعون ذلك »(٣٠).
عند تصاعد العمل الفدائي ، و« ايقاظ » الكاتيوشا للشعور بعدم الارتباط في مناطق قرى الحدود لدى المستوطنين ، ظهر ان قسما كبيرا من هؤلاء المستوطنين يودون النزوح من المناطق المتواجدين فيها ، فقد أظهر استفتاء جرى في كريات شموناه « ان نصف سكان البلدة يودون النزوح وان غالبية هذا النصف تتشكل من الشباب القادر على ايجاد مستقبل له في المناطق الداخلية من اسرائيل »(٣١).
لم تكن السلطات الاسرائيلية غافلة عن ظاهرة « الشعور بعدم الانتماء » الخطيرة ، التي تبدت بشكل واضح على اثر ظهور المقاومة الفلسطينية ، بل تدارستها وعالجتها في

محاولة منها لوضع حد لها ، في اجتماع عقد في كيبوتس « جلعساد » ضم حوالي مئتي شخص من العاملين في الحقل الاجتماعي . وقد أجمع المؤتمرون على « ضرورة تعزيز الشعور بالانتماء لدى سكان القرى في أماكن سكناهم ، وتنظيمهم في نشاطات اجتماعية منظمة . . . لان ذلك ينطوي على تخفيف التوتر الشخصي الذي يستبد بكل مواطن في قرى الحدود ، وتقليص الضغوطات النفسية، هذه هي الطريق للتغلب على الخوف»(٣٢).

لا بد لنا قبل استكمال ما احدثته المقاومة من آثار نفسية سلبية بين صفوف سكان قرى الحدود ، من الوقوف قليلا حول المعتقدات السخيفة التي سادت قطاعا كبيرا من سكان هذه المناطق ، ولا سيما سكان القرى والموشافات ، وليس سكان الكيبوتسات المحصنين بمبادىء لا تقبل الخرافات او الشطحات . ومن بين المعتقدات السخيفة التي اخذ « الكثيرون » يؤمنون بها عدم ذكر او لفظ كلمة « كاتيوشا » أو كلمة « قذائف » لئلا يفتح الباب أمام الشيطان » !! فمثلا عندما تسمع الام كلمة « قصف » او « كاتيوشا » تتردد على لسان ابنتها « اميرة » تغضب وتصيح بها : « اسكتي يا اميرة ، اسكتي ولا تفتحي الباب امام الشيطان » . لا تقتصر المعتقدات السخيفة على ذلك بل تشمل أيضا « عدم مس اغراض معينة » فقد غدا الكثيرون يؤمنون بأنه « لكونهم ذات مرة مسوا هذا الغرض او ذاك ، وقع الانفجار واصابت شظايا القذائف البيت » . وانطلاقا من هذا الايمان السخيف فقد غدا الكثيرون يفرضون على انفسهم مقاطعة الاغراض التي مسوها وتسببت بالقصف او بمجيء الكاتيوشا !! وهنالك ايضا من تطور لديهم « شعور بالذنب » لاعتقادهم بأن القذيفة التي اودت بحياة اعزائهم ، كانت بالاصل موجهة اليهم، ولكن عن طريق الخطأ اصابت اعزاءهم بدل ان تصيبهم !! ويعتقد هؤلاء بأن «قذيفتهم» التي ستودي بحياتهم ستسقط في يوم من الايام ودائما يتوقعون سقوطها في القصف التالي ! واكثر من ذلك واسوأ ظهور حالات ناجمة عن هذه المعتقدات تتمثل في قيام سكان الحي او الضاحية بفرض نوع من المقاطعة على العائلات المنكوبة من جراء القصف « لا يدخلون بيوتهم ، ويتوقعون منهم ان يتصرفوا بتعقل وان لا يدخلوا بيوت الآخرين !»(٣٣).

ومن الجدير بالذكر ان هذه المعتقدات قد طرحت للمداولة في الاجتماع الذي عقده القائمون على الشؤون الاجتماعية في كيبوتس جلعاد ، غير أن معالجتها من الامور الصعبة بسبب رسوخها في اذهان المؤمنين بها . ومما يلفت النظر ونحن بصدد الحديث عن المعتقدات ، ردود الفعل عند كل عملية فدائية لدى قسم من سكان الحدود ، فمن المعروف ان اغلبية السكان تهرع الى الملاجيء او تكون داخلها للاحتماء بها من آثار القصف ، ولكن هنالك فئة من سكان قرى الحدود تصر على البقاء في البيوت وترفض النزول الى الملاجيء لان « كل شيء من الله » . وتعيد هذه الفئة الى الاذهان قصة ذلك الصوفي الذي كاد ان يغرق في نهر دجلة لولا انقاذه على يد احد المارة ، وقول الصوفي له ما معناه كان ينبغي عليك ان لا تتدخل لان « كل شيء من الله » . وتتحدث « روث غروسكا » العاملة في وزارة الثقافة عن هذه الفئة قائلة : « هنالك من يؤمنون بالقدر ، ويستسلمون لمصيرهم . كل شيء من الله — اذا ما كتب علي ان اتعرض للقصف ، فلا يمكن عمل اي شيء — ان هؤلاء يرفضون النزول الى الملجأ ، وهنالك من ينهمكون خلال القصف بقراءة فصول من سفر نشيد الانشاد »(٣٤).

نعود الان الى الظواهر النفسية التي تفشت بين قسم من سكان قرى الحدود ، ويمكن تلخيصها بما يلي :

١ — حاسة السمع: اتضح من اختبار قام به عدد من الخبراء النفسانيين ان حاسة السمع قد « تطورت » لدى اطفال وادي بيسان ، واصبحت ارهف واقوى منها لدى اطفال المدن في الداخل ، فقد اثبت الاختبار ان اطفال قرى الحدود « يتفوقون » على اطفال المدن والمستوطنات الداخلية بمقدرتهم على سماع « اي طرق خفيف ».

٢ — التبول اثناء النوم : لقد غدت ظاهرة التبول اثناء النوم لمدة اطول من الفترة الزمنية

العادية التي يجتازها الطفل ، متفشية لدى قسم من اطفال قرى الحدود ، وكانت هذه الظاهرة من بين الظواهر الاخرى التي استدعت قيام « المعالجة الخاصة » في الكيبوتسات .
٣ — تعاطي الحبوب المنومة : لقد اصبح الكثيرون من سكان قرى الحدود نتيجة الارق والتوتر النفسي من عداد المدمنين على تعاطي الحبوب المنومة والاقراص المهدئة للاعصاب .
٤ — التأهب النفسي الدائم لمواجهة اي طارىء : لقد غدا الاطفال في حالة تأهب دائم لمواجهة اي طارىء « فالباب الذي يطرق في الصف ، او الغرض الذي يسقط ويحدث ضجة ، يجعلهم يقفزون بفزع ، ويركضون نحو الباب وهم يصرخون : كاتيوشا ، قذائف ، انقذينا ايتها المعلمة »(٣٥) .
٥ — الخوف من ظواهر طبيعية : اصبح قسم كبير من اطفال قرى الحدود اسرى الخوف من الرعد لتشابه الاصوات التي يحدثها بأصوات انفجارات الكاتيوشا والمتفجرات . تقول « داليا » من مستوطنة « الكوش » القريبة من الحدود اللبنانية « لقد اعتقدنا ان هذا (الانفجار) صوت رعد ، لانه وقع اثناء هطول الامطار ، لقد خفنا من الرعود وتادينا على امنا »(٣٦) . ومن الطريف ان يصبح اطفال كيبوتس مسادة في غور الاردن يتخوفون من الرعود اكثر من تخوفهم من الانفجارات العادية « فالاولاد اعتادوا على الانفجارات العادية لدرجة انه عندما كانوا يتذهلون في الشتاء من اصوات الرعود ، كان الآباء يسكتونهم بقولهم : لا تخافوا ، هذه ليست رعود ، بل اصوات قذائف ! »(٣٧) .
٦ — عدم القدرة على التركيز : اصبحت ظاهرة عدم القدرة على التركيز خاصة لدى تلاميذ المدارس ظاهرة واضحة في قرى الحدود ، وقد تفشت هذه الظاهرة ايضا بين صفوف البالغين .
٧ — التشاؤم : من بين الظواهر السلبية التي اخذت تظهر بين صفوف السكان ولا سيما التلاميذ ، النظرة التشاؤمية تجاه الحياة ، فقد غدت الالوان الضبابية تحل محل الالوان الزاهية في رسوماتهم ، كما حلت المنازل المهدومة وجثث القتلى في هذه الرسومات محل المناظر الجميلة(٣٨) .
٨ — عدم القدرة على التكيف : من بين الظواهر السلبية التي تفشت بين سكان القرى وخاصة الاطفال والفتية ، ظاهرة عدم القدرة على التكيف مع الظروف والاوضاع الجديدة . فقد اصبح الملجأ مثلا ، المكان الامين الذي ترتاح اليه نفسية الاولاد اثناء النوم ، وقد اصبح البعض لا يطيق النوم الا بداخله ، ويضرب يجآل احد سكان كيبوتس « بيت زيرع » في غور الاردن مثلا على عدم القدرة على التكيف بقوله : « لقد سافر صديقي مع ابنه الى كيبوتس « بيت الفا » وطلب ابنه النوم في الملجأ ، ولكن بما انه لا يوجد هنالك ملجأ ، اضطرا للعودة الى مستوطنتهم لان الابن رفض النوم في غرفة الاولاد »(٣٩) وتضرب احدى معلمات كريات شموناه مثلا على عدم قدرة التلاميذ على التكيف مع الاوضاع الجديدة بقولها : « قبل مدة قصيرة ذهبنا مع تلاميذ الصف الخامس للاستجمام في « نفيه شأنان » ... في الليلة الاولى واجهنا صعوبة في النوم ، لكون المكان غريبا وايضا لكون التلاميذ يتصعبون في التعود على هذا المكان الذي يخلو من الكاتيوشا والملاجىء . واخيرا استسلموا للنوم وبعد مدة قصيرة انهار سرير مكسور واحدث ضجة ، وكان عليك ان ترى اولاد كريات شموناه : قفزوا بفزع من فوق اسرتهم ، وركضوا يفتشون عن مخبأ وهم يصيحون : ايتها المعلمة انهم يهاجموننا ، بينما التجأ قسم منهم على الفور تحت الاسرة ، بالضبط كما علموهم في البيت . وكنت عند منتصف الليل اقف واقنعهم بأننا الان بعيدون عن الحدود ، انهم لا يهاجموننا ولا يطلقون علينا الكاتيوشا . ولكن كان من الصعب اقناعهم للخروج من تحت الاسرة ، ولم

ينامو طيلة تلك الليلة».

امتدت هذه المرحلة من حياة قرى الحدود حوالي ثلاثة اعوام ، وقد اعطت بعض النتائج التي تسعى اليها حرب التحرير الشعبية الطويلة الامد ، ولو قدر لها ان تستمر لاعطت نتائج اضخم بكثير من تلك التي تمت « انني أخجل ان اقول » على حد تعبير المعلمة راحيل شمعتسيون من بيسان « انه لو ارغمنا على الاستمرار في هذه الظروف، لكانت قواي النفسية قد انهارت تماما(٤٠)» . بيد ان هذه المرحلة لم يقدر لها الاستمرار، لانه كان هنالك خارج اسرائيل من يعيش ايضا تحت وطأة استنزاف نفسي اخر ، فوجه ضرباته للمقاومة ، وبالتالي أتاح لهذه القرى ان تتنفس الصعداء وتنعم بالاستقرار الامني والنفسي ولو الى حين .

---

١ — **معاريف** ١٩٧١/٣/٢٧ .
٢ — **من شرم الشيخ حتى قنال السويس** . د. ديان الطبعة السادسة ص ٧٤ .
٣ — **المصدر نفسه** ص ٧٦ .
٤ — **معاريف** ١٩٧١/٥/٢١ .
٥ — **معاريف** ١٩٧٠/٦/٦ .
٦ — ملحق **معاريف** ١٩٧٠/٢/١٣ .
٧ — ملحق **معاريف** ١٩٦٩/٨/١٥ .
٨ — ملحق **معاريف** ١٩٦٩/٨/١٥ .
٩ — ملحق **معاريف** ١٩٧٠/٥/١٥ .
١٠ — ملحق **معاريف** ١٩٦٩/٨/١٥ .
١١ — **معاريف** ١٩٧٠/٨/٢١ .
١٢ — ملحق **معاريف** ١٩٦٩/٨/١٥ .
١٣ — **معاريف** ١٩٧٠/٧/٢٤ .
١٤ — **معاريف** ١٩٧٠/٧/٢٤ .
١٥ — **معاريف** ١٩٧٠/٥/٢٢ .
١٦ — ملحق **معاريف** ١٩٧١/٦/٥ .
١٧ — ملحق **معاريف** ١٩٧٠/٧/٣ .
١٨ — ملحق **معاريف** ١٩٧٠/٧/٣ .
١٩ — ملحق **معاريف** ١٩٧١/٧/٣ .
٢٠ — ملحق **معاريف** ١٩٧١/٧/٣ .
٢١ — ملحق **معاريف** ١٩٧٠/٧/٣ .
٢٢ — **معاريف** ١٩٧١/٥/١٣ .
٢٣ — **معاريف** ١٩٧١/٥/٢٢ .
٢٤ — **معاريف** ١٩٧١/٣/٢٧ .
٢٥ — **دافار** ١٩٧١/٨/١ .
٢٦ — ملحق **معاريف** ١٩٧١/٥/٦ .
٢٧ — ملحق **معاريف** ١٩٧١/٥/٦ .
٢٨ — **معاريف** ١٩٧٠/٢/٢٧ .
٢٩ — ملحق **دافار** ١٩٧٠/١/١٢ .
٣٠ — **معاريف** ١٩٧١/٩/١ .
٣١ — **كول هعام** ١٩٧١/٥/٢١ .
٣٢ — ملحق **معاريف** ١٩٦٩/١١/٢١ .
٣٣ — **معاريف** ١٩٧١/٥/٢٢ .
٣٤ — **معاريف** ١٩٧١/٣/٢٧ .
٣٥ — ملحق **معاريف** ١٩٧٠/٧/٣ .
٣٦ — ملحق **معاريف** ١٩٧٠/٢/٢٧ .
٣٧ — ملحق **يديعوت اهرونوت** ١٩٦٩/٥/١٦ .
٣٨ — ملحق **معاريف** ١٩٧٠/٧/٣ .
٣٩ — ملحق **يديعوت اهرونوت** ١٩٦٩/٥/٦ .
٤٠ — ملحق **معاريف** ١٩٧٠/٧/٣ .

الرد الفلسطيني للتحدى الاسرائيلي :
"الاسطورة" و"الاوتوبيا" و"الاديولوجية" الفلسطينية

اوليفيه كاربيه

اوليفيه كاربيه عالم اجتماع فرنسي شاب في بداية طريق الاستشراق . أمضى مؤخرا عاما في المشرق الذي اتاح له الفرصة لان يستكمل عن كثب بحوثه حول شعر الارض المحتلة ومحمود درويش بشكل خاص . وفي هذه الدراسة التي يقدمها على صفحات شؤون فلسطينية يحاول كاربيه النفاذ الى ما وراء الصورة الشعرية ليحدد موحيات شعر الارض المحتلة من خلال استقـراء الخلفيات الفكرية والسياسية التي احاطت به هناك ، ثم التاثيرات التي واكبته بعد قيام الكفاح الفلسطيني المسلح .

وتثير هذه الدراسة بحكم طبيعتها التحليلية الاستقرائية بعض الجدل وقد تتباين آراؤنا حول اكثر من نقطة في التحليل النقدي الذي تقدمه لبرامج حركة المقاومة الفلسطينية . ونحن اذ ننشر هذه الدراسة ، كما هي ، نامل ان تشكل مدخلا حيا لحوار مفتوح من قبل جميع المعنيين بالادب والفكر المقاوم .

ان الجديد الذي اتت به « الاسطورة » و« الاوتوبيا » و« الايديولوجية » الفلسطينية(١)، بالنسبة للعالم العربي ، يكمن في أصلها الفلسطيني وصبغتهـا الفلسطينية وصوتهـا الفلسطيني . فالصدمة الفلسطينية هي التي ايقظت الاساطير والايديولوجيات **العربية** . خلال قرننا العشرين هذا ، ونحن نرى اليوم ان مكان الصدمة ذاته يثير ردا **فلسطينيا** في قلب العالم العربي ذي الاسـاطير والايديولوجيات الراكدة . وسوف نستعرض باقتضاب نتائج تحليل « بنيوي » لقصائد الرد الفلسطيني داخل الارض المحتلة ، وبالتحديد في الجليل ، ونتائج تحليل «مفهومي» لمضمون خمسة نصوص سياسية صادرة عن جماعات فلسطينية مقاومة ومتنوعة الى حد كبير . ولقد كان من الضروري بالفعل ان ننطلق من اللغة الاساسية لشعب من الشعوب ، الا وهي اسطورة هـذا الشعب . فالشعر الفلسطيني الجميل في الجليل هو الذي يعبر عنهـا ، ويشكل الخلفية التي تنبت فيهـا جذور اللغات « الاوتوبية » اولا ، ومن ثم « الايديولوجية » ، عبر صفحات الوثائق والدراسات السياسية .

---

١ ــ هذه الدراسة هي لمراقب أجنبي . فنظرة المراقب او نظرة الغير هي دائما مفيدة في حالة القيـام « بنقد ذاتي » لاحق . ونود التاكيد بأن كلمات « أسطورة » و « أوتوبيا » و« ايديولوجية » مستعملة هنا في معناها الدقيق وليس لها في قاموسنا اية معان مسيئة اطلاقا .

شعر الرد الفلسطيني في الارض المحتلة : « اسطورة جديدة »

أحبك . كوني صليبي
وكوني ، كما شئت برج حمام
اذا ذوبتني يداك .

(محمود درويش من « اغنية حب على الصليب » .)

من الملاحظ ان هذه الاسطورة مركزة حول تجربة الصليب ، كما يستدل من المراجع العديدة ، الظاهرة او المستترة ، والمأخوذة عن الكتاب المقدس . فقراءة كل قصيدة تقنعنا بهذا الامر . ذلك ان الكتاب المقدس يلعب دورا متميزا في التعبير عن هذه الاسطورة المعمدانية الاساسية وفي الاحتفال بها ، خاصة في « الارض المقدسة » . نحن نعتقد بأن الفلسطينيين المنفيين داخل وطنهم المحتل كانوا قادرين على بث الكلام فيها من جديد . انه الكلام المخيف لانه كلام نبي . على كل حال فان محمود درويش ، الفلسطيني الماركسي المسلم المولد ، قد اختار رمزي الصليب والمصلوب للتعبير عن ايمانه بحياته وبحياة شعبه : نجد هنا عنصرا من العناصر الاساسية المكونة للاسطورة الفاعلة . ان المحتوى النهائي هو عودة فلسطين المستقبل ، فلسطين الجديدة تماما . الاخ الصغير لم يعد معه اذن بالسفر ، فهو يذهب لرمي الاقذار وينقل صناديق السلاح بعربة . لم يكن دخوله السجن سوى حادث عابر . لقد اصبح نبيا اكبر من ابيه المنحط ، بعد ان كان طفلا في مخيمات الصليب الاحمر : انه مغروس في لحم اجداده . انه يخلق وطنا ومستقبلا . واذا بالمغني ينشد مأخوذا :

« انني ابصر في عينيك ميلاد الغد
وجوادا غاص في لحم ابي . »

ان اولاد المغني واولاد جيله هم الذين سيحتفلون بالعيد : سوف يعيشون . ونرى فلسطين التي تنضح شبابا تلتقي بالمغني ، وكانه اللقاء الاول بينهما ، قبل ان يموت هذا الاخير من فرط سعادته :

« عيناك ، يا معبودتي ، عودة
من موتنا الضائع تحت الحصار
كأنني القاك هذا المساء
للمرة الاولى . . . »

ان الاسطورة لا تناقش بل يحتفل بها . انها بنية للعالم يجد فيها كل انسان مصيره ومكانه . انها ليست مزيفة ابدا ، اكثر مما يمكن لانسان ما ان يكون مزيفا . كلاهما موجود . الفارق بينهما هو ان باستطاعتك اعدام شخص ما بسهولة ، لكن القضاء على اسطورة هو أمر شاق ، فالاسطورة تحيا وتتغذى من نواقصها ذاتها ، خاصة اذا كانت هذه النواقص فادحة . ذلك ان المغني قد قال كل شيء منذ اللحظة التي ارتكز فيها على تجربة الصليب ، كما هي الحالة هنا . لقد عرف الشعراء الفلسطينيون في اسرائيل كيف يعبرون عن مأساتهم على هذا المستوى من العمق .

ولكن من اين نشأ هذا السرد الاسطوري ؟

ان الخلق الثقافي العربي في اسرائيل له جذوره العميقة وهو يخضع لتاثيرات اجنبية واضحة . على ان اهم مصدرين خاصين يجب اخذهما بعين الاعتبار هما : الكتاب المقدس وتجربة الصليب . وقد سبق ورأينا انهما الموضوع الاساسي في شعر درويش . لكن سميح القاسم يبرز في ديوانه « دمي على كفي » آيات عديدة مقتبسة من انجيل يوحنا ، تأتي في مواضعها تماما : « ان لم تقع حبة الحنطة في الارض وتمت فهي تبقى وحدها » ، و« ليس لاحد حب اعظم من هذا ان يضع احد نفسه لاجل احبائه » . على انه ليس من المؤكد ان كان هذا التأثر بالكتاب المقدس تأثرا واعيا . لكن التجربتين

المعبر عنهما متشابهتان الى حد بعيد ، مما يحتم على اللغة المستعملة في كليهما ان تكون متشابهة كذلك . ذلك ان تجربة الموت — البعث هي تجربة اساسية واجماعية لدى الادباء الفلسطينيين في اسرائيل . ففي مسرحية توفيق فياض « بيت الجنون » نرى البطل سامي يكتشف انتصاره عندما يعلن انه سيصل الى ذروة قوته في ذلك اليوم الذي لا يتبقى عنده اي شيء على الاطلاق . كما ان اقصوصة اميل حبيبي الاخيرة تنتهي باللقاء الذي يتم بين اختين من نفس الشعب في زنزانة الاعتقال : انهما تشعران وكأنهما في منزلهما اخيرا .

ما الذي ستكون عليه تلك الحياة المأمولة ؟ ان الاسطورة لا تقول ذلك ابدا . فالرسالة السياسية تكمن بشكل خاص ، في الانفلات من الخرافة ، تلـك الخرافة التي تغذي الصهيونية دون شك ، ولكنها تغذي كذلك وبالدرجة الاولى ، أنين القدماء . ستكون هنالك عودة ، لكنها لن تكون لماض نبكيه . انهم لا يتكلمون عن طرد المحتل — ايما شرف سيكون ذلك ! — لكنهم مصممون على ان يتنفسوا وان يكونوا ، وهم يأملون كذلك بأن الثورة سوف تحدث . لكن التعابير تظل عامة جدا . انهم يشجعون الامل اكثـــر مما يرسمون مستقبلا .

« المغنون » الفلسطينيون يستعيدون نفسهم اليوم ، حين يجهرون بكلامهم . « أطفالنا الآتون » هم أصحاب الغد . فالامل يتمثل بجيل المستقبل . « متنا وعشنا ، والطريق واحدة » . أن بيت « رمبو » يبدو هنا معكوسا ، وسبب ذلك هو دون شك ، ان محمود درويش ورفاقه ليسوا افرادا معزولين ، ولكنهم ينطقون بلسان شعب مصلوب بأكمله .

ان اعدام شعب بأكمله هو كلام نبوي ينبىء بقيامة : هذا هو ايمان الشعراء الفلسطينيين في اسرائيل . ان هذا الايمان وهذه الاسطورة جديدان في العالم العربي . فلا الاسطورة الدينية في المدينة المسلمة ، ولا الاسطورة القومية العربية ، ولا اسطورة اليسار المعادي للامبريالية ، ترتكز في جوهرها على هذا الايمان **بالحياة من خلال الموت** . هذا هو ما تعنيه كلمة « فدائي » بحد ذاتها . انه الانسان الذي يدفع الموت كفدية ، من اجل التكفير ومن اجل الخلاص .

ونريد أن نؤكد على **الجديد** الذي حملته هذه الاسطورة ، وهذه الرسالة الشعرية التي تموق بعمقها كل التعابير الاوتوبية والايديولوجية ، التي عرفها العالم العربي . انه جديد لمجرد الظروف التي يأتي في ظلها ، كما سبق وبينا . وهو جديد كذلك لانه اختار بكـل وضوح رفض الحنين الى الماضي ، كما رفض القدماء الذين يعيشون على الخرافات دون ان تتجسد هذه الاخيرة في حياتهم الحاضرة . ان انتصار الكلام الشعري عند درويش على الحنين والدموع والشيوخ ، هو انتصار لا ظلال عليه . فالاسطورة جديدة لان الذين يعلنونها هم **شباب** ولانها غير مشوبة بأية « عقيدة ايديولوجيـــة » على حـــد تعبـــير رودنسون . ان الجديد في الاسطورة الفلسطينية المروجة في اسرائيل يتفجر كذلك عبر **تجلي الكلمة** .

لقد انتهى ذلك الكلام العتيد ، الفارغ والـــذي لا ينضب ، واصبـــح الشباب العرب يؤاخذون عليه اساتذتهم بشدة ، وبشكل خاص في الاوساط الفلسطينية . ان تلك الكلمة المشوهة التي فقدت قيمتها ، وريثة السجع الذي خلفه عصر الانحطاط الطويل ، والذي كانت البلاغة الدينية تحافظ عليه بغرور في المساجد الممتدة من بغداد حتى الدار البيضاء ، ان تلك الكلمة قد تحولت الى كلام صادق لشعب صغير ليس له غير الكلمات الصافية تعطي شكلا لوجوده وتجعله يدرك بأنه موجود . انه يقول : « انا موجود » ويترك جلده للسياط وجسمه للصلب ! لقد أصبح الكلام ثمينا لانه اصبح محفوفا بالمخاطر وخاصة لانه لم يعد بالامكان الاستغناء عنه حتى لا يفقد الانسان هويته ، وحتى يقنع نفسه بأنه هو ذاته . أنه كلام الوجود . كلام جديد فوق الارض العربية في القرن العشرين .

لكن الامر يتعدى هذا الحد الى أبعد بكثير . فالكلام الذي اكتسب المغني حق التبشير به، بفضل انتصاره على القدماء وعلى الخيانة كذلك ، ان هذا الكلام يتفتح على **فعل** يشتمل على الجلد ، والمحاكمة ، والسجن والصلب . عند هذا الحد تتجاوز اللغة مجرد الكلام لتصبح لغة المسامير ، لغة ضحايا كفر قاسم الخمسين ، لغة الصليب الذي يتحول الى منبر وينشد لحنا اسمه : اغنية الدم . يحكم علينا بالاعدام لمجرد اننا تكلمنا ، وكذلك لان كلامنا ينبيء بمأساة الموت على الصليب . ان ذروة التجديد الذي تأتي به الاسطورة يظهر اذن في محتوى الفعل : الصلب في سبيل الحياة الجديدة التي نريدهـا لمعشوقتنا ـ فلسطين . ان الايمان بالموت والاستعداد الفعلي للتقدم اليه (بطريقة او باخرى) ، هما شيئان جديدان في العالم العربي المعاصر . اننا نجد بعض السوابق لدى ابطال حرب الجزائر وفي دعوات مؤسسي حزب البعث .

اننا نجد انفسنا اذن في قلب المعنى العميق لكلمة : فدائي ـ اي الذي يقدم نفسه للموت كفدية . ان محمود درويش لا يتلفظ ابدا بهذه الكلمة لكن الاسطورة العميقة التي تعطي معنى لهذه الكلمة هي كذلك التي تحرك كل شعر درويش وشعر رفاقه في الجليل . من الطبيعي اذن ان تجد الفدائيين ، خارج اسرائيل ، يغذون ايمانهـم بنداء الصليب الذي يبشرهم به اخوهم من « الداخل » .

ان هذه الاسطورة هي اذن جديدة في اعتقادنا . وهي المصدر المباشر للايديولوجيات الفلسطينية بدرجات متفاوتة . انها الصدى والنداء الصادران من داخل فلسطين ذاتها ، فلسطين المسلوبة الضائعة المحكومة بالاعدام . وهذه الاسطورة هي قبل ذلك **سياسية** ايضا .

ان شعر درويش مثلا لا يتنبأ بالطبع بأشياء واضحة بالنسبة لمستقبل فلسطين ، لكن اسطورة الحياة التي تولد من الموت والتي تعاش جماعيا ، بحد ذاتها ، لها مدلول سياسي يقفز الى العيان خاصة في الدور الذي يلعبه **الخصم** (يطلق عليه غالبا ضمير « هم ») وفي كل مرحلة من مراحل الاسطورة الشعرية . ان الخصم هو الذي ينفذ حكم الاعدام بحق المغني يساعده في ذلك القدماء وحنينهم . وفي نهاية الاسطورة نجد ان الخصم هو الذي يغادر فلسطين قرفا من مهمته ، مهمة تنفيذ حكم الاعدام . اما **فلسطين** فانها تظل حية وتتجسد من جديد من اجل حياة جديدة ـ (لا نعرف ما ستكون عليه) ـ يستعد لها « أطفالنا الآتون » .

بين بداية المأساة ونهايتها هنالك الاغنية ، والسجن ، وفعل المقاومة . وهذه الاخيرة تجري الاشارة اليها في بعض القصائد التي تتحدث عن العاصفة وعن الصاعقة . ان فلسطين سوف تعود مطهرة من كل الرواسب القديمة بفضل حكم الاعدام الذي نفذه الخصم ، هذا الخصم الذي انتهى به الامر قرفانـا . ان القصيدة تحث اذن على فعل المقاومة مع **الايمان** بحياة جديدة .

« من عاش بعد الموت

لو آمنت . . . لا يموت »

ان العمق الذي تتميز به الاسطورة الفلسطينية التي تقول بالحياة الجديدة مـن خلال الموت ، والتي انتشرت في الجليل بعد ٢٠ سنة من الاغتراب ، هي التي تعطي القوة للكفاح الفلسطيني ـ بكل اشكاله ـ وهي التي تعطيه كذلك قيمته الشمولية .

التقرير الموجه من مجموعة « الارض » الى الامين العام للامم المتحدة في ٢٣ حزيران ١٩٦٤

نحن ما زلنا في فلسطين المحتلة ، حول الناصرة .

لقد خلفت جماعة « الارض » عام ١٩٥٩ الجبهة الشعبية (العربيـة) . وكانت هذه

الاخيرة قد حاولت ان تسمي نفسها « عربية » ، لكنها منعت من ذلك . وهي قد ولدت على ما يبدو اثر المظاهرة العربية التي شهدتها الناصرة في اول ايار ١٩٥٨ . لقد كانت الجبهة وثيقة الصلة بالحزب الشيوعي (ماكي) ولكنها ما لبثت ان انفصلت عنه بسبب ميولها الناصرية ، المعادية لعبدالكريم قاسم الدائر في فلك موسكو . هكذا ولدت مجلة « الارض » ، وهكذا ظهرت المجموعة التي تحمل نفس الاسم. ولقد وضع جميع افرادها تحت مراقبة الادارة العسكرية : المنع من التنقل ، رفض تسجيل جمعية « الارض » ، رفض الاعتراف بحقوق مجلة « الارض » ، وذهبت الى حد وضع اعضائها في السجون. وفي ٣١ كانون الثاني ١٩٦٠ صرح « شموئيل ديفون » ، مستشار رئيس الوزراء للشؤون العربية ، في مؤتمر صحفي عقده ، بأن هذه المجموعة تشكل خطرا على «وجود الدولة».
وقد طالب افراد المجموعة بتسجيل شركة للنشر تحمل اسم « شركة الارض المحدودة »، وبعد اللجوء الى المحكمة العليا ، تم في نهاية الامر تسجيل هذه التسمية. ولكن المجموعة منعت من اصدار نشرة اسبوعية تحت طائلة « احكام الطوارىء » الموروثة من ايام الانتداب البريطاني ، والتي تخول الادارة العسكرية وحدها حق اعطـاء مثل هـذا التصريح . وبالاضافة الى ذلك ، فعندما حاولت « شركة الارض المحدودة » ان تسجل اسمها كجمعية سياسية تحمل اسم « حركة الارض » في بداية عام ١٩٦٤ ، كان جواب السلطات جوابا سلبيا وقاطعا . كما اعتبر نظام الحركة « مضرا بوجود دولة اسرائيل ووحدة اراضيها » . وجاء الرفض مرة اخرى من المحكمة العليا ايضا ، باسم سلامة الدولة .
في هذا الوقت بالذات ، وبالتحديد في ٢٣ حزيران ١٩٦٤ ، وجهت « الارض » الى الامين العام للامم المتحدة بيانها الذي قمنا بتحليله بالتفصيل . بعد ذلك ، في عام ١٩٦٥ ، منعت اللجنة العليا للانتخابات « اللائحة الاشتراكية العربية » التي كانت تضم قدامى زعماء جماعة الارض ، من خوض معركة الانتخابات . ويبدو ان الاحزاب السياسية اليهودية (بلوائحها العربية) كانت تخشى بجدية قيام مضاربة انتخابية خطيرة من جانب حزب قومي عربي داخل اسرائيل، علما بأن كافة الموظفين المعتمدين في اللجنة العليا للانتخابات كانوا ينتمون الى حزب الماباي . عند ذلك انفصل الحزب الشيوعي العربي (راكاح) عن الحزب الشيوعي اليهودي (ماكي) ونال ٢٢،٦٪ من اصوات العرب ، وهذه نسبة مهمة . ومن المؤكد انه لو وجدت جبهة وطنية عربية اكثر استقلالية من حزب راكاح ، من الناحيتين الايديولوجية والسياسية ، لكان انتصارها اعظم من ذلك .
وفي حزيران ١٩٦٧ اعتقل قادة الحركة ووجهت الى ثلاثة منهم تهمة تنظيم خلية ارهابية بالتعاون مع فتح ، وصدرت الاحكام ضدهم عام ١٩٦٨ . ونلاحظ بهذا الصدد ، ان مدينة الناصرة عرفت من جديد بعد حزيران ١٩٦٧ تجمعا للجبهة الشعبية العربية ، المتحفزة دائما ، والحية دائما . ونشير في النهاية الى ان الشاعرين سميح القاسم ومحمود درويش كانا من اعضاء حركة الارض . ويمكننا ان نستنتج من كل ما سبق ذكره ، وعلى سبيل التقدير الاجمالي ، بأن اتجاهات مجموعة الارض كانت تعبر عـن التوقعات الحقيقية لعدد كبير — يمثل الاغلبية دون شك — من المواطنين العرب في الارض المحتلة . ان هذه الجماهير كانت تنطوي على « ايديولوجية ضمنية » — على حد تعبير رودنسون — وهي مستعدة للترحيب بأي حل « قومي عربي » اذا مـا حدث المستحيل وتحقق مثل هذا الحل . وكان منشور « الارض » يعبر بشكل واضح عن هذه الاوتوبيا رغم ان الجماهير العربية لم تكن تفكر بامكانية تحقيق مثل هذا الحل عـن قريب : لذلك كانت اغلبية العرب تصوت الى جانب « اللوائح العربيـة » للاحزاب الكبيرة التي لا بد من ان « تسيطر على حكومة الغد » .
ان التقرير الذي رفعته جماعة الارض عام ١٩٦٤ يعبر عن شعور عظيم بالقهر . فقد

كانت رموزه الاساسية تتمثل بالحكومـــة وبالسلطة العسكريـــة تضاف اليهما احكام الطوارىء . ويقابل هذه الاشياء كلها مصادرة الاملاك ، والقرى . والشعور السائد هو ان هذا القهر لا مفر منه . فليس من الممكن اخضاع الحكومة ، ولا الحد من المصادرة ، ولا بعث القرى وتحويلها الى بؤر للرد . ان هذه الافكار لا ترد حتى الى ذهن الشباب العربي « المتطرف » من جماعة الارض . ولكنهم ، على العكس من ذلك ، واعون تماما للتناقضات المنطقية التي تقع فيها السلطات الاسرائيلية . ان هذه التناقضات المنسوبة للمعتدين تجعل من القيود اشياء لا مبرر لها قطعا ، ان لم نقل انها غير عقلانية او على اقل تقدير ميكيافيلية . ويمكننا ان نذكر على سبيل المثال ان السلطة العسكرية التي خلقت من اجل تأمين الامن ومن اجل ممارسة الشر كذلك ، ينتهي بها الامر الى خلق اللاطمأنينة . كما ان القمع الذي يستهدف اخضاع العرب في اسرائيل يحثهم ، في نفس الوقت ، على الثورة . كذلك ، فان ازالة قوانين الطوارىء البشعة لم تكن سارية المفعول بالنسبة للعرب المقيمين في اسرائيل .

مع هذا فقد تولدت عناصر الرد الفلسطيني من الشعور بالقهر . وكان هذا الرد يتطلع على المدى القصير الى الوقوف في وجه آلة القمع ، والمطالبة بحقوق العرب في اسرائيل، مهما كان الثمن ، حتى لو اضطر الى اللجوء للمقاومة (السلبية كما يبدو) . كل ذلك باسم النصوص الدستورية للدولة وباسم ضمانات الامم المتحدة . امـــا على المدى الطويل بعد ذلك ، فان الرد الفلسطيني يرتكز على الاوتوبيا القائلة بالتقسيم وبالتعاون العربي ـــ اليهودي من اجل اقامة امة عربية واحدة واشتراكية . ان هذه الاوتوبيا تبدو مع ذلك ، وكأنها اكثر واقعية من مرحلة المقاومة . ذلك ان فرضيـــة التعايش داخل اسرائيل فرضية منبوذة . كما ان فرضية ازالة دولة اسرائيل بشكلها الراهن لم يجر حتى طرحها . تبقى هناك فكرة الاقتسام بين العرب واليهود الذي يؤدي فيما بعد الى تعاون على مستوى المنطقة بأسرها تحت راية الاشتراكية العربية الموحدة . . .

ان هذا المشروع يشتمل على تناقضات كما نذكر ، ولكنها جميعها من النوع «الجدلي» . فالامم المتحدة تحمي قانونيا العرب في اسرائيل ضد مصادرة املاكهم ولكنها ، رغم كل نداءاتهم ، لا تتدخل لمصلحتهم . ان هذا التراخي من جانب الامم المتحدة لا يؤدي الا الى زيادة فشل مرحلة المقاومة والمطالبة . اما باقي التناقضات فانها تتصل بصلب المشروع ذاته : التوافق (الاوتوبي) وعدم التوافق (الراهـــن) بين الامة العربيـــة والدولة الاسرائيلية ـــ التقسيم والتعاون في آن واحد ـــ التقسيم ومع هـــذا اللاشوفينية ـــ اللاشوفينية ومع ذلك القومية العربية (فقط) ـــ التقسيم (الاوتوبي) وفي نهاية الامر المطالبة (الراهنة) بالارض العربية . ان هذه التناقضات تشير الى الاتجاه الذي يسير فيه تطور العلاقات بين الخصمين وصولا حتى النهاية الاوتوبية « الحقيقية » .

انه من الصعوبة بمكان التحدث عن ايديولوجيا سياسية يعني عن نظام للقيم وعن نظرة شاملة للعالم السياسي على كافة مستوياته . من الافضل ان نتحدث عن « اوتوبيا » سياسية يعني عن مشروع سياسي صادق وضارب الجذور الى حد كبير في « الاسطورة الفلسطينية » التي يحتفل بها الشعر العربي في اسرائيل . ان اوتوبيا الارض ليست مستوحاة في الواقع من مثالية او ايديولوجية « فوقية » ، ولكنها مستوحاة من التجربة القاسية امام شبكة من القيود . ان الموت هو مؤكد . ومع ذلك فان بذورا « اوتوبية » للبعث تنمو معه وتتخذ لنفسها شكلا . ويرد الى خاطرنا هنا شعر محمود درويش :

« الموت ، الحياة ، الطريق واحدة »

من المؤكد ان التقرير الذي رفعته «الارض» يبدو اكثر تواضعا من القصيدة في مشروعه، واكثر منها بكثير شكوى من الوضع الراهن . لكن الذي امامنا هو تقرير موجه الى الراي العام العالمي وليس الى الشعب العربي في اسرائيل . انه كذلك دفتر من الشكاوي

الموجهة الى المحكمة الدولية المتمثلة في الامم المتحدة . وهو في نهاية الامر بيان سياسي وليس اسطورة شعرية . لكن الامر الذي لا يمكن انكاره هو هذا التناغم الموجود بين هاتين السلسلتين من النصوص . حتى ان الاستعمال ذاته ــ المتراوح في مدى وعيه ــ للتناقضات « الجدلية » يعكس على طريقته اسطورة البعث في الموت التي يحتفل بهــا شعراء الجليل . ان الدور الذي تلعبه مفاهيم القهر والرفض معا تلتقي مع الاسطورة بكل وضوح .

ونلاحظ اخيرا الى اي مدى كانت اوتوبيا الارض متأثرة بأسطورة الامة العربية التي كان يرفع رايتها عبدالناصر في ذلك الوقت ، وكانت المجموعة لا تمانع في نسبها اليه .

ان هذه الاسطورة هي في الواقع تجسيد لمشروع البعث . وحتى يجري تطبيقه فهو يتطلب عنصرا مزعجا جدا هو عنصر التقسيم . ان الاوتوبية ، وهي اكثر برغماتية من السرد الاسطوري ، تدعو الى الانفلات من سر الموت بواسطة البتر اولا ثم الالتحام بجسم الامة العربية المثالية ثانيا . ان شعر درويش مركز على المقاومة مع الايمان الشديد بحياة جديدة ، ولا شيء اكثر من ذلك . فالشعر يعبر في الواقع عن التجربة المعاشة حاضرا . انه يحلم قليلا ، ويغني الحاضر ويجعله يشع . ان الشاعر هو مغني المقاومة الراهنة .

ان اوتوبيا شباب الارض هي مشروع السلام الممكن بعد المقاومة . ومن الجدير بالذكر هنا ان القصائد قد استفادت من الاخبار الطيبة التي حملتها انبــاء العمليات الاولى للمقاومة التي قامت بها فتح منذ ١٩٦٥ ، ثم بعد ذلك حرب ١٩٦٧ التي جعلت من الممكن قيام نوع من التنسيق بين المقاومة في الخارج وبذور المقاومة في الداخل .

ولنعبر الان الى خارج اسرائيل ، الى المقاومة في الخارج .

اعلان فتح في ١ كانون الثاني ١٩٦٩

انه نص **قليل الايديولوجية** . نرى دائرة الاعداء محصورة جدا باسم برنامج بسيط لا يخلو مع ذلك من التناقضات الكامنة . هذه الوثيقة تنسجم مع التقريــر الذي قدمته مجموعة الارض . وهي تترك الباب مفتوحا للتطرف بنفس المقدار الذي تتيحه للاعتدال ولحل سياسي ما . وسوف نمر بسرعة على مختلف نقاطه واحدة بعد الاخرى .

العناصر الايديولوجية مكونة من ثلاثة مبادىء :

١) **فتح** تمثل الشعب الفلسطيني تمثيلا صادقا . لكل واحد دوره في العمل ولكن فتح وحدها تتمتع باستقلالية كاملة . ان الشعب الفلسطيني وحده معنــي مباشرة بالقمع وبالمقاومة ، لكن اخذ المبادرة لا يرتبط مباشرة به . ان فتح تعتبر نفسها ، دون ان تقول ذلك ، الطليعة الديناميكية للجماهير المقاومة في درجة تأثرها وفعلها . وسوف نرى ان عقيدة فتح متقاربة في هذه النقطة من عقيدة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

٢) **العالم الثالث** يتحرر (بالضرورة) من الامبريالية . والامبريالية هنــا هي بالدرجة الاولى الاستعمار الاسرائيلي . والتحرر هو كالاستقلال بالنسبة لهذا الاستعمـــار . ويلعب العالم الثالث هنا دور البطل الاسطوري ، لكن الامبريالية ليست البطل الشرير المجسد للشر المطلق . كل ما في الامر هو استعادة الاستقلال من براثن المستعمر كما هو الحال مع بقية دول العالم الثالث . نقطة وهذا كل ما في الامر .

٣) **الضرورة التاريخية** تفرض التحرر في وجه الامبريالية .

هذه هي النبرة الماركسية ــ اللينينية الوحيدة لعقيدة فتح ضمن هذا النص . وهذه الضرورة تلعب دور اسطورة . انها تعطي بعدا شموليا للتجربة الفردية الشاقة وتضمن لها النصر مسبقا .

ان **دائرة الاعداء** ، المسؤولين عن القهر ، محصورة تماما . انها تشمل اسرائيل ، الامم المتحدة وقراراتها منذ ١٩٦٧ ، ومن الممكن ان تضاف اليها الدول العربية . ليس هنالك

ذكر للمعسكر الامبريالي العالمي وللولايات المتحدة الاميركية الخ ...
وبالمقابل فان برنامج الرد بسيط : دولة فلسطينية (بدل دولة اسرائيلية) ، المقاومة (بدل حلول الامم المتحدة السياسية) ، **والمجتمع او الامة العربية** التقدمية (بدل الدول العربية الحالية) .
لكن هذا البرنامج يخفي تناقضات كامنة : فاليهود والعـرب والفلسطينيون سيلاقون افضل معاملة ، دون التطرق الى الكيفية التي سيتم فيها ذلك ، فمبدأ الديموقراطية التي يتساوى في ظلها الجميع غير معبر عنه الا بشكل عام . ان هذه التناقضات الكامنة تشكل نقطة ضعف خطيرة في البرنامج . ويتضح من هذا بأن اعلان فتح مختلف قليلا عن اعلان مجموعة « الارض » . هنالك نفس الشعور بالتجريد من ملكية الارض ومن الهوية ، وهنالك نفس الحلم بدولة فلسطينية مندمجة بالامة العربية .
لكن الارض كانت تدعو الى التقسيم كما تصورته الامم المتحدة (١٩٤٧) ، في حين ان فتح ترفض كل قرار للامم المتحدة (١٩٦٧) ، كما انها تمتنع بعناية عن الاشارة الى اية حدود للدولة الفلسطينية المرجوة . ونلمس هنا الاختلاف الكبير في الرأي بين النصين . ففتح تعتقد انه بالامكان تسوية كل القضايا عن طريق التساوي في ظل الديموقراطية ، لكن الارض تعلم من خلال تجربتها ان التعايش مستحيل وان الحل الوحيد المتبقي هو التقسيم . ان عدم الوضوح في الاتجاهات التي يعبر عنها اعلان فتح يجعل هذا الاعلان قابلا لتفسير متطرف ولتفسير معتدل في آن واحد . وفي الواقع ، فان رفض كل حل سياسي ينكر الوجود الفلسطيني يبقي الباب مفتوحا امام حـل سياسي يحترم هـذا الوجود . وهذا الاحترام يجري تقديره من قبل فتح وليس من قبل الشعب ، اعتمادا على المبدأ القائل بأن تمثيل فتح للشعب الفلسطيني هو أمر غير قابل للنقاش ، كما سبق وقلنا . وعلى العكس من ذلك ، فان رفض الحلول السياسية والرجوع الى نضال العالم الثالث ضد الامبريالية استنادا الى الضرورة التاريخية ، يبقى الباب مفتوحا امام اعتماد عقيدة متطرفة مرتكزة على اساس الثورة العالمية .

المنطلقات المشتركة ــ ٦ ايار ١٩٧٠

ان هذه الوثيقة الصادرة عن القيادة الموحدة للمقاومة الفلسطينية تدعي التعبير عن العقيدة وعن البرنامج المشترك لكافة فصائل المقاومة . وقد مهرت هذه الوثيقة بتواقيع المنظمات الاحدى عشر المقاومة والاعضاء في القيادة الموحدة . وهذا النص هو نص مختصر مثله في ذلك مثل اعلان فتح .
ان هذه الوثيقة من خلال تشديدها على **الايمان والاعتقاد الراسخ** تلتقي مع وحي الشعر المقاوم في اسرائيل :

« من عاش بعد الموت
لو آمنت ... لا يموت » (محمود درويش)

ولكن الايديولوجية هنا تأخذ اهمية جديدة . ومن السهل التعرف على بصمات المنظمات المسماة متطرفة : الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية اللتـان تعلنان ايديولوجية ماركسية ــ لينينية والى حد ما ماوية .
اين نضع هذه الايديولوجيات في نصنا ؟
عندما سلسلنا المفاهيم حسب **مواضعها المنطقية** ، امكننا ان نميز تلك التي تلعب دور المصادر الاولية لانها دائما في **موضع الجذور** بالنسبة للتسلسلات المنطقية . انها تشتمل على المفاهيم الثلاثة التالية : ثورة فلسطينية ، شعب فلسطيني ، مقاومة فلسطينية .
هذه هي النواة الاساسية التي لا سابقة لها ، للايديولوجيا الفلسطينية كما ظهرت من خلال « المنطلقات المشتركة » انها فلسطينية بشكل مبدئي ، وليس بصفة عامة . كما انه

ليس هنالك صلة مباشرة بين هذه المفاهيم الثلاثة الاولى . انها ثلاثة مصادر مستقلة ، لكل واحدة منها نطاقه الخاص به . **الثورة الفلسطينية** تتعارض مع دولة اسرائيل ومع الامبريالية . **الشعب الفلسطيني** يعارض السلام السيىء ، والامم المتحدة ، والدولة الفلسطينية المسوخة . **المقاومة الفلسطينية** اخيرا تجابه الدول العربية .
مقابل هذه المصادر الثلاثة ، نجد ثلاث ثمار (الالفاظ موضوعة بتسلسل منطقي استثنائيا) . وهي : **الثورة ، الامة العربية** ، وفي الجانب المظلم ، **الامبريالية** . تلك هي العناصر الاساسية الثلاثة التي تشكل بالنسبة للاوتوبيا الفلسطينية موضع الايمان . لا بد من تجسيد الثورة العالمية والامة العربية ، ضد الامبريالية . لقد كان المصدر فلسطينيا فحسب : اما الثمرة فهي أممية . ان طريقة التفكير ملحوظة . انها تشير الى احدى المؤثرات الايديولوجية الماركسية التي لا يمكن نفيها .
وبين المنبع والثمرة هنالك مفهومان لهما وظيفة متميزة لانهما في آن واحد وبشكل مهم الواحد والآخر . انهما **فلسطين** و **التحرير** : حقيقتان تشدد عليهما الايديولوجية السابقة وهما بدورهما يصبغان كل مجرى الاحداث .
ونلاحظ بأن هذا النص **لا يشتمل على تناقضات** .
ان أهداف الرد التي نادرا ما يجري الشعور بها على اعتبارها هي نفسها اسباب القهر، هي التالية : الامبريالية في المرتبة الاولى تشكل جزءا من النواة الايديولوجية. الصهيونية وترتبط بها الامبريالية دائما ، الدول العربية ، دولة أسرائيل ، الدولة الفلسطينية المسخ ، السلام السيىء ، الامم المتحدة . ان التشديد على التعارض مع الدول العربية هو الذي يشكل خصوصية نصنا هذا . دولة اسرائيل معطاة اهمية اقل والامم المتحدة بالكاد يشار اليها . التقسيم كذلك مرفوض بشكل قاطع . وفي هذه النقطة تتميز « المنطلقات المشتركة » بوضوح عن جماعة **الارض** ، كما انها تكمل بشكل قاطع عموميات اعلان **فتح** . ذلك ان هذه الاخيرة كانت تترك الباب مفتوحا لحل سياسي يحترم الكيان الفلسطيني دون تحديد مسألة الحدود . ان هذه الجذرية ليست صادرة عن شعور وطني اكثر حدة ، ولكن عن ايديولوجية ثورية ذات آفاق أممية . وهذا استنتاج جدير بالاهتمام .
هكذا فان الكفاح يدخل ضمن افق **الثورة** العلمية . المجلس الفلسطيني يتكلم باسم الجماهير الفلسطينية (الطبقات العمالية والطبقات الكادحة وحدها) وليس كما كانت تقول فتح ، باسم الشعب الفلسطيني بشكل عام . النضال موجه ضد **الدول العربية** بنفس مقدار توجيهه ضد اسرائيل . **فلسطين** المستقبل ستكون تجسيدا للثورة وليس فقط دولة مساواة وتسامح ديني .
ان لكل واحد من النصين بعده المختلف عن الآخر . ان الانفتاح على التطرف هو الذي تغلب ، رغم ان كل ما في الامر هو برنامج حد ادنى لعموم المقاومة الفلسطينية . ويبدو من خلال متابعة الاحداث بأنها في الواقع تبحر نحو التطرف . ومن المهم الآن ان نقوم بتحليل بروتوكولين طويلين يعبران عن الايديولوجية الفلسطينية المسماة متطرفة .

« استراتيجية » الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـــ شباط ١٩٦٩

يوجد أمامنا هذه المرة نص طويل جدا يصل الى مئة صفحة مقسومة الى قسمين و١٨ فصلا . القسم الاول يعالج مسألة الاستراتيجية السياسية اللازمة للتحرير ، والثاني يتعلق بالاستراتيجية التنظيمية حول حزب . هنالك ثلاثة مفاهيم فقط لها موقع منطقي تكاد تنفرد به **كجذور** . انها تشكل المفاهيم الاولية . وهي **الامبريالية ، الراسمالية** ، **والثورة الفلسطينية** . انطلاقا من هذه الجذور الثلاثة تتبلور كل ايديولوجية الجبهة الشعبية التي لا تخلو من تعرجات .

الامبريالية مربوطة ربطا وثيقا بدولة اسرائيل التي تعتمد عليها وتشكل قاعدة لها . كما ان هذه الاخيرة بمساندة الصهيونية العالمية تقوم بطرد وسحق الشعب الفلسطيني . لكن ضمن هذا الشعب هنالك طبقة مهمة مسحوقة وسوف نعود الى ذلك . الامبريالية تثير وتجابه الثورة المرتبطة جدليا بالحزب وبالايديولوجيا . انها تفرز الثورة الفلسطينية والحرب الشعبية المرتبطة مباشرة بالقيد الامبريالي .

الثورة هي كذلك ثمرة التناقضات بين الطبقات ومهمة الطبقات المستغلة . لكن هنالك طبقة كبيرة مستغلة داخل اسرائيل بامكانها ان ترحب بفكرة فلسطين المثالية وان تهدد وحدة الدولة الاسرائيلية وتعارض الحركة الصهيونية. ومن ناحية اخرى فان البرجوازية الصغيرة العربية او الفلسطينية يمكن استخدامها من اجل النضال الوطني ولكن ليس من اجل استلام القيادة .

المنبع الثاني يتمثل **بالرأسماليين** الذين يمثلون كتلة متميزة ، معادية على طول الخط ولكنها دون اثر كبير على الايديولوجية .

المنبع الثالث اخيرا هو **المقاومة الفلسطينية** التي ينظر اليها خصوصا على انها مدرسة تجديد اجتماعي لنضال الطبقات الكادحة والشعب . انها من نوع التغيرات الاجتماعية العنيفة في الوقت الذي تزهر فيه الثورة ، من خلال الحرب الشعبية المعادية للامبريالية.

ان النواة المفهومية التي تستعمل كوسيط بين النواة التي تحكمها « الامبريالية » و« الثورة » من جهة وبين النواة التي تحكمها « المقاومة الفلسطينية » من جهة اخرى تتشكل من مجموعة المفاهيم التي تدور حول نظرية الصراع الطبقي .

امامنا اذن وبالدرجة الاولى عقيدة ثورية معادية للامبريالية ذات أفق عالمي من خلال الحرب الشعبية والايديولوجية الصحيحة والحزب ، وامامنا في الدرجة الثانية عقيدة طبقية من خلال المقاومة وتجربة الشعب الذي يرزح تحت اقسى انواع البؤس . ان التعبير عن المقاومة لا يستعمل لفظة الحرب الشعبية ولكنه يستعمل الفاظ الصراع الطبقي والتجديد الثقافي .

ان دائرة المعتدين والقيود تتألف بالتالي من اسرائيل والامبريالية والصهيونية والراسماليين والطبقات العربية المستغلة . كما أن حلقة الاهداف التي يطالها **الرد** الفلسطيني تتألف من اسرائيل والامبريالية والصهيونية . ولكن التركيز يتناول بشكل خاص الطابع الايجابي لعمليات الرد : نقوم بالثورة ونحمل العمال والفلاحين الى مركز السلطة ، مستعينين مرحليا بالبورجوازية الصغيرة .

ظاهريا تبدو فلسطين امرا ثانويا . ولنذكر اخيرا المناطق الايديولوجية الحساسة الثلاث القابلة للتناقضات : التناقض الاول يتعلق بدور **البرجوازية الصغيرة** التي يجب التحالف معها ومحاربتها في آن واحد ، ومرة بعد مرة . والثاني يتعلق **بالطبقة الاسرائيلية المستغلة** التي ينظر اليها على اعتبارها في تناقض مع اسرائيل وينظر اليها كذلك وفي آن واحد على اعتبارها جزءا من وحدة اسرائيل القصوى وتدافع عن حياتها القومية حتى الموت . يبقى من الضروري ان تبرهن على ان نضالا طبقيا يمكنه ان يغلب النضال القومي . ليس هنالك شيء أقل وضوحا من هذا الامر . التناقض المنطقي الثالث يتعلق **بفلسطين المثالية** التي يراد لها في آن واحد ان تكون وطنا يتساوى فيه اليهود والعرب وان تكون مع ذلك مندمجة بالامة العربية الواحدة .

كل واحدة من بين هذه المناطق قد اثارت الاعتراضات المعروفة التالية : فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية تخافان من نظرية الجبهة الشعبية المتعلقة بالصراع الطبقي وبالبورجوازية الصغيرة وطبعا لهذا الخوف مبرراته . كما ان المراقب او المؤرخ البورجوازي الغربي لا يصل به الامر الى حد الاعتقاد بالفعالية القريبة للطبقة الاسرائيلية المستغلة ضد التعصب القومي الاسرائيلي الاعمى . وفي النهاية فان أصحاب

النيات «الطيبة» من الاسرائيليين بما في ذلك اولئك الذين يتحدثون باسم الطبقة المستغلة يجدون صعوبة في تصور فلسطين المثالية حيث المساواة والعروبة في آن واحد.

محاولة نايف حواتمة (تشرين الاول ١٩٦٩)

عنوان هذا الكتاب هو : « حركة المقاومة الفلسطينية في حقيقتها الراهنة ــ دراسة نقدية » . ان هذا الكتاب يجمع التقارير التي رفعها حواتمة باسم الجبهة الشعبية الديموقراطية الى المؤتمر الوطني الفلسطيني السادس الذي انعقد في كانون الاول ١٩٦٩ .

ان دائرة الخصوم والاهداف تشتمل في هذا الكتاب على الكيانات التالية : الدول العربية، اسرائيل ، الامبريالية ، الصهيونية ، الامم المتحدة وختاما وفي داخل المعسكر الفلسطيني المقاوم : منظمة التحرير الفلسطينية وفتح اللتان تقعان بين ايدي الحكومات العربية والبورجوازية واللتان تتحملان مسؤولية الهزائم الماضية والانقسامات الحالية في صفوف المقاومة .

انهما خصما من ؟ فلسطين طبعا بالدرجة الاولى . الشعب الفلسطيني المهمل يستحق استقلاله في بلده . وهذا الواقع يفرز النضال من اجل الاستقلال الوطني الفلسطيني الذي تسنده البورجوازية الفلسطينية الصغيرة ولكن تعارضه البورجوازية الكبيرة .

نمر بعد ذلك بالطبع الى السجل الاهم الا وهو **الصراع الطبقي** . محاولة حواتمة تتركز على تحليل التناقضات الطبقية . فاذا بالجماهير والطبقات المستغلة التي ايقظتها الايديولوجية الصحيحة والنقد ، تخوض غمار ثورة مرورا بالمقاومة والحرب الشعبية ، يسندها في هذا كله برنامج صحيح . هذا هو العطاء الاساسي للشعب : الحرب الشعبية . ضد من ؟ الخصم معروف ، لقد سبق ذكره . لكن واقع الحرب الشعبية بمنظور الثورة (العالمية) يشكل نهاية بحد ذاته . البورجوازية الصغيرة ستكون مفيدة ولكنها سترفضها بشكل جذري . هكذا يدنو الصراع الطبقي من **الثورة** .

ان المقاومة الفلسطينية وبشكل خاص حرب العصابات الفلسطينية (الفدائيين والميليشيا) تدخل كلها ضمن فلك الثورة . اهم العناصر في الثورة بالنسبة للتجربة الحالية وبالنسبة للمستقبل هي الديموقراطية . انها هي التي تبرر تحول الدولة الاسرائيلية . وهي التي عليها ان تحسم الفوارق الايديولوجية وهي التي تقع عليها مهمة تصفية وتبديل القيادة البورجوازية الصغيرة لفتح ولمنظمة التحرير . وهي عليها تأمين نظام حرب العصابات الفلسطينية . هكذا نتعلم ممارسة الديموقراطية .

انها الديموقراطية اذن ــ وها نحن قد حشرنا في قلب **الاوتوبيا** الفلسطينية ــ هي التي ستصبغ الدولة الفلسطينية المستقبلة ضد الشوفينية والطائفية ، ضد التقسيم ، ضد الصهيونية والثقافة العربية الرجعية ، وضد سيطرة طبقة صاحبة امتيازات . ان هذه الدولة الفلسطينية المزينة بكل جمالات الثورة هي الاجابة الكاملة عن كل الخصومات السابقة : انها تعبد فلسطين ، تتغلب على التناقضات الطبقية ، تصلح كأساس للثورة العالمية عبر **امة عربية** موحدة معادية للامبريالية بشكل كامل وغير بورجوازية . ان الحلم جميل وحواتمة يدعو ثوار العالم بأكمله الى تحقيقه ، وبشكل خاص القطاعات الاسرائيلية المعادية للامبريالية .

ان مجمل العقيدة يبدو شديد **الانسجام** . الايماءات الثلاث الكبرى : فلسطين ، صراع الطبقات ، الثورة ، تتداخل منطقيا وترتكز على الاوتوبيا المنسجمة لدولة فلسطينية ديموقراطية . من بين التناقضات الثلاثة التي اشرنا اليها سابقا هنالك واحدة لا تجد حلا لها ، لا منطقيا ولا جدليا . كيف تعطي قيمة كاملة لحقوق الجنسية **اليهودية** في فلسطين المندمجة بالامة **العربية** الواحدة ؟ كيف تتجاوز الشوفينية اليهودية الى ما يمكن

ان يكون شوفينية عربية ؟ ليس هنالك اي جواب معطى مباشرة لانه على الارجح لا وجود لمثل هذا الجواب حتى في الحلم . ان حواتمة يقترح مع ذلك وبطريقة غير مباشرة « دولة لا قومية » اذا صح التعبير . يعني دولة مطهرة من كل قومية سواء كانت عربية ام يهودية . واذا كان الامر كذلك فان مفهوم الدولة اللاقومية يدخل بطبيعة الحال في تناقض مع ما ذكر في نصوص حواتمة حول الكفاح الوطني الفلسطيني الذي يتخذ اهمية كبيرة .

الخاتمة

ان كل ما اردنا فعله هو تقديم وثيقة عمل بسيطة بكل ما تقتضيه من تنوع . ان اية خاتمة حقيقية بحاجة الى فرضية والى نظرة لا يتطلبها الملف الوثائقي . يبدو لنا بأن المقاومة الفلسطينية هي **واحدة** بالنسبة لاختياراتها وحساسياتها الاساسية : اتجاه من اجل العودة الى فلسطين الفلسطينية ، وحساسية حية جـدا بالنسبة لتجربة الموت « طريق الخلاص » (الفداء) . ان التوجيهات الايديولوجية والتكتيكية تتفارق وهذا الامر معروف ومشار اليه . لكن الكفاح من اجل الاستقلال الوطني ، هذا الكفاح الذي تحركه اسطورة البعث من خلال الموت ، هو موقف اجماعي .

ان التحليل البنيوي اولا ثم المفهومي بعد ذلك قد سمح لنا بالتقاط **المحتوى التفصيلي** للنصوص الفلسطينية بكل دقة . هذه النصوص التي تعبر مرة بعد مرة عن الاسطورة ، والاوتوبيا وايديولوجية الرد الفلسطيني داخل الارض المحتلة ، وخارجها . وسوف نعيد هنا ذكر **المحتوى الاجمالي** لهذه النصوص بكلمات قليلة وبواسطة لفظتي القيد والرد ، بكل ما تحويه هذه النصوص من توافق في وجهات النظر ومن تفارق . في اساس كل شيء هنالك **الاسطورة** المحتفل بها شعريا — اسطورة الايمان السياسي **بالبعث مـن خلال الموت** ، وبالمقاومة على شكل انتحار حتى القضاء المبرم على الجيش الاسرائيلي . ان هذه الاسطورة افرزتها تجربة الفلسطينيين داخل اسرائيل .

نفس التجربة خلقت **الاوتوبيا** عنـد مجموعة الارض في اسرائيـل ، هذه الاوتوبيـا المنسجمة تماما مع الاسطورة الشعرية مع انها اكثر تواضعا منها . ان هذه المجموعة تتطلع في المدى البعيد الى **التقسيم** ، والى اندماج القسمين بالامـة العربية الموحدة والتقدمية ، متجاوزة بذلك المطالب المدنية الملحة للعرب في اسرائيل . ذلك ان التجربة قد جعلت من غير الممكن التفكير بتعايش عربي — يهودي داخل اسرائيل او بتغيير جذري يطرأ على الدولة الاسرائيلية اليهودية طالما ان التسلط الذي تمارسه هذه الاخيرة يجري الاحساس به وكأنه امر لا مهرب منه . ان الخصم واحد سواء في الاسطورة الشعرية او في اوتوبيا جماعة الارض : انه الدولة الاسرائيلية يضاف اليهـا الحكومة والسلطة العسكرية . اما العنصر الايديولوجي فهو الامة العربية ولا شيء آخر .

ان **برنامج فتح** يوسع دائرة الخصوم ، فاذا بها تشمل اسرائيل والامم المتحدة ، تلحق بهما الدول العربية كذلك . ان فتح تعلن كفاح التحرير الوطني الفلسطيني ضد قرارات الامم المتحدة الخاصة بالتقسيم — طبعة ١٩٤٧ او طبعة ١٩٦٧ . لكنها تتجنب الاشارة الى الحدود المثالية لفلسطين المستقلة داخل الامة العربية في المستقبل . انها تصر فقط على احترام الوطن الفلسطيني وهذا الامر يمكنه ان يتوافق مع تقسيم يعتبر مناسبا . ان البيان مبهم واشارته الى نضال العالم الثالث ضد الامبريالية قيمة رمزية . ان فتح تقدم برنامجا لا ايديولوجية . وهذا البرنامج ليس له خطوط واضحـة لافتقاره الى ايديولوجية دون شك . وعلى العكس من ذلك ، نرى المؤتمـر الوطني الفلسطيني السادس يعلن ايديولوجية مركزة حول تعبير الثورة الفلسطينية التي تقوم بها الجماهير الفلسطينية بفضل المقاومة الفلسطينية ، ضد الامبريالية العالمية ومن اجل فلسطين

تسودها المساواة داخل امة عربية مستقبلة . اما الجماهير الفلسطينية فتحدد على انها الطبقات الكادحة . ان النضال يبدأ فلسطينيا لكن يريد لنفسه ان يكون عربيا بعد ذلك ، وعالميا في نهاية المطاف . من هنا يطرأ التوسع على دائـــرة الخصوم : اسرائيل ، الصهيونية ، الامم المتحدة — مع التقسيم — وبشكل قاطع الدول العربية التي تشكل الامبريالية خلفيتها الحقيقية . ان النبرة الايديولوجية تأتي من الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية اللتين فرضتا ايديولوجيتهما بين عامـــي ١٩٦٩ و١٩٧٠ ، بخطوطهــا العريضة على الاقل .

ان النصين النظريين الطويلين اللذين سبق وحللناهما يتكاملان والاختلاف الوحيد المهم بينهما يتعلق بوظيفة الحزب . ان كليهما ينظران الى الامـــر على اساس ثورة ضـــد الامبريالية العالمية باسم الصراع الطبقي ، متمثلة محليا بالمقاومة الفلسطينية على شكل حرب شعبية بفضل نظرية صحيحة . ان الجبهة الشعبية تنظر الى الحزب على اساس انه الحكم والقائد فيما يتعلق بمسائل النظرية والممارسة ، في حين ان حواتمة يرى ان الجماهير هي التي تلعب هذا الدور بواسطة ممارسة الديموقراطية في كل التنظيمات وعلى كافة المستويات . ان البورجوازية الصغيرة تلعب دورا ثانويا ومؤقتا في المرحلة الوطنية من النضال ولكنه دور لا غنى عنه . وبهذا الصدد نرى الجبهة الشعبية اكثر الحاحا على هذا الدور مما تفعل الجبهة الديموقراطية . اما فيما يتعلـــق بفلسطين المستقبل فانها سوف تخلق من تحول عنيف للدولة الاسرائيليـــة بمساعدة الجماهير البروليتارية الاسرائيلية وتصبح دولة فلسطينية لا طائفية وديموقراطية — شعبية، ضمن أمة عربية غير بورجوازية ومعادية للامبريالية . ونرى دائرة الاعداء تشتمل هذه المرة على اسرائيل ، الامبريالية ، الصهيونية ، الرأسمالية ، الامم المتحدة ، الدول العربية ، الطبقات المستغلة التي تديرها ، وصولا حتى فتح ومنظمة التحرير .

هذا هو المحتوى الاجمالي للنصوص السياسية الخمسة . ان **وحدة النظرة** فيها تتجلى أولا على المستوى الاوتوبي ، بواسطة **تناقض** مهم معبر عنه في كـــل النصوص وغير محلول ابدا لا منطقيا ولا جدليا . انه يتعلق بالاحترام الكامل للجنسية اليهودية في فلسطين المستقبل ودمجها بالامة العربية في آن واحد . ان القومية او حتى الشوفينية العربية تأخذ مكان القومية والشوفينية اليهودية الاسرائيلية في حين يدعـــوان للاطاحة بكـــل شوفينية داخل فلسطين المثالية .

ان هذا التناقض لا يجري التصدي له ابدا وجها لوجه ولذلك نرى ان الجواب المناسب غير مطروح . هذه الثغرة التي لا يمكن تجاوزها دون شك تظهر انه حتى اوتوبيـــا الدولة « القومية » التي ينادي بها حواتمة ، لا يمكنها أن تتحرر من القومية العربية . وسوف نعود الى هذه النقطة بعد لحظة .

ولكن وحدة وجهات النظر ضرورية بالنسبة للعمل الحاضر . ان امامنا نفس النضال الوطني بمشاركة كل الشعب الفلسطيني بما في ذلك البورجوازيين ، بغية اثارة حرب شعبية — متحمس لها او موافق عليها — ، مما يدفع الى عداوة مشتركة تجاه الامـــم المتحدة والدول العربية في سبيل الاوتوبيا المشتركة لفلسطين تسودها المساواة ضمن أمة عربية موحدة وتقدمية .

ان النصوص الخمسة تقف تقريبا نفس الموقف تجاه المفاهيم التالية : دولة اسرائيلية ، فلسطين ، شعب فلسطيني (يفهمه جماعة الارض علـــى أساس انه العرب داخـــل اسرائيل) ، الامبريالية الصهيونية ، الاستقلال (الكفاح الوطني) ، الامة العربية . ولنتفاهم حول هذه النقاط . ان الجميع موافقون على كل نقطة من نقاط برنامج العمل ولكن الاسباب والتبريرات الايديولوجية والاهداف على المدى المتوسط والبعيد، تتفارق. **والفوارق** مهمة الى حد ان الجبهة الديموقراطية تخطط لمجابهة وازالة منظمة التحرير

وفتح حتى تسحب القيادة من ايدي البورجوازية الصغيرة الفلسطينية ، والى حد ان البعض يتمنون او يتغاضون عن التقسيم بينما لا يقبل الآخرون بأقل من التحول الجذري داخل الدولة الاسرائيلية وتحولها الى دولة فلسطينية طائفية ومتسامحة بالنسبة لفتح ، بينما الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية تريدانها لا طائفية وثورية ، كما تبشران بالنضال ضد الدول العربية الواقعة حاليا بين ايدي البورجوازية في حين ان فتح لا تطالب الا بحرية العمل الفلسطيني .

ان الخصوصية الايديولوجية عند الجبهة الشعبية والديموقراطية تتجلى في أنهما وحدهما ادخلا تعابير ايديولوجيا ، طبقات ، بورجوازية ، جماهير . وبالاتفاق مع المجلس الوطني تستعملان هذه المفاهيم : المقاومة الفلسطينية ، الشعب — الجماهير ، الثورة . وبالاضافة الى ذلك لا بد من ملاحظة الاهمية الخاصة المعطاة للنضال من اجل الاستقلال الوطني وكذلك من اجل الديموقراطية في محاولة حواتمة . كما نلاحظ عنده بشدة الحاحه على **الدولة** الفلسطينية (المثالية) ، وهذا تعبير غائب من نص الجبهة الشعبية التي تكتفي بتعبير فلسطين (الوطن الفلسطيني) المستعمل قليلا على كل حال ، ان حواتمة كما سبق ولاحظنا يستعمل لغة فلسطينية اكثر بكثير من الجبهة الشعبية .

اما فيما يتعلق بمفهوم القومية العربية فان بيان المجلس الوطني ، بالاضافة الى تقرير مجموعة الارض طبعا ، هو الذي يبرزه ، على اختلاف ما تفعله الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية .

وفي النهاية سنعيد هنا ذكر المحتوى المتميز لتقرير الارض عام ١٩٦٤ لانه يشدد على القيود المباشرة واليومية التي تفرضها الحكومة الاسرائيلية وهذه كلها أشياء خارج تجربة الفلسطينيين في الخارج .

الفوارق مهمة اذن . ولكن بالنسبة للعمل الراهن فان وحدة الراي ستتغلب دون شك .

ان هذه الوحدة تضرب جذورها في الاسطورة الفلسطينية الوحيدة المتعلقة بالبعث عبر الموت . وبالفعل فان كل النصوص السياسية تسعى للارتكاز على تحليل **حالة الموت** التي يعيشها الفلسطينيون — موت بالنسبة للماضي القريب ، موت بسبب فشل الامة العربية ، وفشل الدول العربية مع جيوشها ، — موت بسبب سيطرة الطبقة البورجوازية الفلسطينية .

أن اول ما يتبادر للذهن ليس عودة الى الاساطير الكلاسيكية لامجاد الاسلام الاكيدة ولامجاد الامة العربية ، وليس هناك محاولات لقلب الهزائم الى انتصارات — على الاقل في هذه النصوص النظرية او البرمجية — انهم يخططون لنضال فقير ودام عبر الحرب الشعبية التي يخوضها الفدائي .

ان المسألة هي دائما مسألة نهضة في الموت وبواسطته . ان هذا الخيار للموت من اجل حياة جديدة فلسطينية اولا ثم عربية هو خيار يميز الاسطورة الفلسطينية كما يميز الاوتوبيا والايديولوجية . التعابير الثلاثة منسجمة . الاصطدامات مع الدول العربية لا مفر منها لانها تعكس خلافا على مستوى الاسطورة . والاسطورة الفلسطينية تريد ان تجعل من اعدام الشعب الفلسطيني خلاصا للشعب العربي بأسره . بقي ان نقوم بتحليل **للاحداث الفلسطينية** على ضوء تحليل **النصوص** . ان الحادثة ربما تظهر بأن الاسطورة والاوتوبيا والايديولوجية الفلسطينية لم تكن حتى اليوم سوى حلم كبير ولعبة كبيرة . لكن اللعبة بحد ذاتها لها دائما مغزى كبير . انها تحمل في طيها **مستقبلا حقيقيا** دائما .

ثورة ٣٦ ـ ١٩٣٩ في فلسطين : خلفيات وتفاصيل وتحليل

غسان كنفاني

بين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ تلقت الحركة الثورية الفلسطينية ضربة ساحقة في النقاط الثلاث التي تبلورت منذ ذاك بصفتها المعضلة الاساسية التي يواجهها شعب فلسطين: القيادات الرجعية المحلية، والانظمة العربية المحيطة بفلسطين ، والحلف الامبريالي ـ الصهيوني ، وسوف يترك هذا « العدو » المثلث بصماته على تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية منذ ١٩٣٦ بصورة اوضح مما كانت في أي وقت مضى ، وحتى الهزيمة الثالثة التي تلحق الجماهير الفلسطينية والعربية في ١٩٦٧ . وستحاول هذه الدراسة ان تركز بصورة خاصة على هذه النقاط الثلاث وعلى الجدلية المتضمنة في كل منها على حدة والقائمة فيما بينها جميعا .

ان عنف التجربة الوطنية الفلسطينية التي تفجرت منذ ١٩١٨ وكانت تترافق بصورة او باخرى مع الكفاح المسلح ، لم تستطع ان تعكس نفسها على البنية الفوقية للحركة الوطنية ، التي ظلت تحت هيمنة القيادات شبه الاقطاعية ـ شبه الدينية ، ويعود ذلك بالدرجة الاولى الى سببين متداخلين : أ ـ وجود وفاعلية الحركة الصهيونية التي ضاعفت من ثقل وهيمنة التحدي القومي على جميع أشكال التحديات الاخرى ، وعكس هذا التحدي نفسه على الطبقات الكادحة العربية التي كانت تعاني من الغزو الصهيوني المدعوم من الامبريالية البريطانية معاناة يومية مباشرة . ب ـ وجود حد من التناقض بين القيادات العائلية الاقطاعية الدينية العربية وبين الامبريالية البريطانية ، يجعل دفع الثورة الى مدى معين من مصلحة هذه الطبقات التي تجد عادة مصلحتها في ظروف مغايرة مختلفة عن الاستثناء الفلسطيني الخاص بالتحالف شبه الكامل مع الامبريالية . وقد نشأ ذلك الحد غير العادي من التناقض عن وجود « عميل ملائم أكثر » للامبريالية البريطانية هو الحركة الصهيونية ، جرى توظيفه بدل تلك الطبقات .

ان هاتين المسألتين المتشابكتين قد جعلتا لنضال شعب فلسطين خصوصية لم تكن في ذلك الحين تشبه تلك الخصائص التي كانت لنضالات الشعوب العربية المحيطة بفلسطين ، وقد أدت هذه الخصوصية الى نتائج خطيرة ، منها مثلا اندفاع هذا النوع من القيادات الاقطاعية الى ممارسة او قبول ممارسة ارقى اشكال النضال السياسي (الكفاح المسلح) ، ومنها اصرار هذه القيادات ـ من حيث الشكل على الاقل ـ على رفع الشعارات التقدمية ، وكونها ـ رغم كل ما فعلت ـ مثلت مرحلة مهمة من النضال الوطني الفلسطيني . على أن ما هو أكثر اهمية هو تفسير تلك الاستطالة غير العادية التي عاشتها القيادات الاقطاعية الدينية على رأس حركة الجماهير (من ١٩١٨ ـ ١٩٤٨) ، ذلك ان التحول في الهيكل الاقتصادي والاجتماعي في فلسطين ، والذي كان يحدث بسرعة مذهلة ، كان يصيب بالدرجة الاولى القطاع اليهودي على حساب البورجوازية الفلسطينية المتوسطة والصغيرة وخصوصا على حساب الطبقة العاملة العربية ، ان تحول الاقتصاد من اقطاعي الى رأسمالي كان يجري بتمركز متزايد في يد الحركة الصهيونية وبالتالي في يد المجتمع اليهودي في فلسطين .

وقد نتج عن ذلك ظاهرة لافتة للنظر : فاصوات المهادنة العربية التي اخذت تظهر منذ الثلاثينات واوائل الاربعينات لم تكن اصوات اسياد الارض والفلاحين المتوسطين بصورة عامة ، ولكنها كانت اصوات كبار بورجوازيي المدن العرب الذين كانوا مجرد وسطاء للامبريالية والذين بدأت مصالحهم تتعلق المصالح المتسعة للبورجوازية اليهودية الآخذة في شق طرق التصنيع ، خالقة في الوقت ذاته وكلاءها .

في غضون ذلك كانت البلاد العربية المحيطة بفلسطين تلعب دورين متعاكسين ، ففي حين كانت حركة الجماهير العربية تدفع النفس الثوري للجماهير الفلسطينية وتبني مع حركتها علاقة جدلية متبادلة التأثير ، كانت الانظمة المهيمنة في هذه البلدان تبذل كل ما في وسعها لكبح حركة الجماهير الفلسطينية واجهاضها . ان هذه الظاهرة مهمة للغاية ذلك أن طبيعة التناقضات المركبة والحادة التي كانت تعيشها الساحة الفلسطينية كان من شأنها ان تطور بصورة متسارعة اشكال النضال التي كانت تعرفها الساحات العربية الاخرى وترتقي بها الى اشكال أكثر عنفا ، وكان ذلك يشكل درجة أعلى من الاحتمالات الثورية في البلاد العربية لم يكن بمقدور الطبقات الحاكمة انذاك ان لا تكترث به اكتراثا شديدا ، وكان هذا الواقع يدفعها دائما الى الوقوف الى جانب الامبريالية البريطانية ضد شركائها الطبقيين الذين كانوا يقودون الحركة الوطنية الفلسطينية . ومن جهة اخرى كان الحلف الصهيوني — الامبريالي يزداد متانة ، وقد تبلورت في تلك الفترة بالذات (١٩٣٦ — ١٩٣٩) ليس فقط الطبيعة العسكرية العدوانية لمجتمع الغزو الذي ارست الصهيونية جذوره في المجتمع اليهودي بفلسطين ، ولكن ايضا الهيمنة شبه الكاملة على الهيكل التحتي للاقتصاد الفلسطيني الذي سيكون له فيما بعد تأثيرات جذرية على الصراع القائم . ففي تلك الفترة قضت الصهيونية متحالفة مع الانتداب على كل آمال نشوء او تطور حركة عمالية يهودية تقدمية ، وكذلك على آمال اخوة بروليتارية عربية يهودية ، فقد شجب صوت الحزب الشيوعي الفلسطيني على طرفي الصدام ، وهيمن الهستدروت الرجعي كليا على الحركة العمالية اليهودية (التي كانت اصلا مؤهلة للسقوط في شراكه) فيما أخذ النفوذ الذي كان آخذا بالتصاعد بالنسبة للقوى التقدمية العربية في جمعيات العمال العرب في حيفا ويافا بالتراجع ، مفسحا المجال لهيمنة القيادات الرجعية التي كانت تحتكر العمل السياسي آنذاك .

الخلفيات : العمال

لم تكن الهجرة اليهودية الى فلسطين ، والاشكالات المنبثقة عنها ، مسألة اخلاقية او مسألة قومية صرف ، بل كانت لها انعكاسات اقتصادية مباشرة ذات تأثير يومي متعاظم ، ملموس بوضوح شديد ، على الشعب العربي في فلسطين ، وخصوصا على صغار الفلاحين والفلاحين المتوسطين والعمال وقطاعات من البورجوازية الصغيرة والوسطى . ان الانعكاسات الاقتصادية للهجرة اليهودية كانت حادة في حد ذاتها ، ولكنها تضاعفت ايضا بسبب النتائج القومية والدينية التي حملتها معها بالطبيعة. فبين عام ١٩٣٣و١٩٣٥ هاجر ١٥٠ الف يهودي الى فلسطين، واصبح عدد اليهود في فلسطين ٤٤٣،٠٠٠ نسمة يمثلون ٢٩،٦ بالمئة من عدد السكان الاجمالي. واذا أخذنا جانبا آخر من هذه الارقام، كي ندرك معناها ادراكا حقيقيا ، فانه ينبغي لنا أن نلاحظ بأنه بينما كان المعدل السنوي لعدد المهاجرين اليهود الى فلسطين بين عامي ١٩٢٦ — ١٩٣٢ يبلغ ٧٢٠١ يهودي في العام ، اصبح هذا المعدل بين عامي ١٩٣٣ — ١٩٣٦ يبلغ ٤٢،٩٨٥ يهوديا في العام(١). ان العسف الهتلري هو الذي أدى الى تصاعد الهجرة اليهودية في تلك الاعوام على وجه التحديد : في ١٩٣٢ دخل فلسطين ٩ آلاف يهودي الماني ، وفي ١٩٣٣ دخلها ٣٠ الف يهودي الماني ، وفي ١٩٣٤ دخلها ٤٠ الفا ، وفي ١٩٣٥ دخلها ٦١ الفا(٢) ، اتجه حوالي ثلاثة ارباعهم الى المدن .

واذا كانت الهتلرية هي المسؤولة عن ارهاب اليهود الالمان ودفعهم الى الهرب، فان الراسمالية « الديمقراطية » هي التي كانت مسؤولة ، جنبا الى جنب مع الصهيونية ، في توجيه جزء كبير نسبيا من هذه الهجرة الى فلسطين ، ونستطيع التحقق من ذلك من خلال الارقام التالية : فالولايات المتحدة رفضت ان تقبل في بلادها ، من أصل ٢،٥٦٢،٠٠٠ يهودي هربوا من الاضطهاد النازي بين عامي ١٩٣٥ و١٩٤٣ سوى ١٧٠ الفا (اي ٦،٦ بالمئة) وبريطانيا ٥٠ الفا (اي ١،٩ بالمئة) وتعين على فلسطين

أن تستوعب ٨،٥ بالمئة ، بينما وجد ١٦٩٣٠،٠٠٠ من اليهود الالمان (أي ٧٥،٣ بالمئة) ملجأ في الاتحاد السوفياتي(٣). ان الهزة الاقتصادية التي تعنيها ارقام الهجرة اليهودية بالنسبة للمجتمع العربي في فلسطين ، يمكن تبينها من خلال معرفة ان نسبة الرأسماليين اليهود من مجموع المهاجرين في عام ١٩٣٣ كانت ١١ بالمئة اي ٣٢٥٠ رأسماليا يهوديا ، و١٢ بالمئة في ١٩٣٤ اي ٥١٢٤ رأسماليا و١٠ بالمئة في ١٩٣٥ اي ٦٣٠٩ رأسماليين(٤).

بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٦ دخل فلسطين حسب الاحصاءات الرسمية ١٣٨٠ يهوديا يملكون اكثر من الف ليرة فلسطينية و١٧١١٩ يهوديا يعتمدون عليهم، يقابلهم حوالي ١٣٠ الف يهودي وصنفوا رسميا بأنهم قادمون للاستخدام او معتمدون على هؤلاء القادمين او على مهاجرين سبقوهم(٥). ان ذلك يعني ، بكلمات اخرى ، ان الهجرة كانت ، في الوقت الذي تحرص فيه على تأمين تمركز رأسمالي يهودي في فلسطين هيمن على عملية تحول الاقتصاد « الفلسطيني » من اقتصاد زراعي الى اقتصاد صناعي ، فانها كانت تحرص ايضا على تزويد هذا التحول ببروليتاريا يهودية ، وكان لهذا السلوك ، الذي أعطى نفسه شعار « اليد العاملة اليهودية فقط » نتائج خطيرة ، اذ انه ساق بسرعة لا مثيل لها نحو بروز الفاشية في مجتمع المستوطنين اليهود .

لقد نشأ عن ذلك ، بالبداهة ، تناقض تناحري بين البروليتاريا اليهودية والبروليتاريا العربية ، وكذلك بين الفلاحين والمزارعين والعمال الزراعيين اليهود ، ولكن هذا الصدام كان يرتفع أيضا الى الطبقات الاعلى ، اذ ان ملاكي الارض المتوسطين والبورجوازية المدينية الوسطى العربية كانت تشعر بأن الرأسمال اليهودي آخذ في الهيمنة على مصالحها . ففي عام ١٩٣٥ مثلا كان اليهود يسيطرون على ٨٧٢ مؤسسة صناعية في فلسطين من اصل ١٢١٢ ، يستخدمون فيها ١٣،٦٧٨ اجيرا فيما كانت المؤسسات الصناعية العربية الـ ٣٤٠ تستخدم حوالي ٤٠٠٠ اجير فقط ، وكان اليهود يوظفون في مؤسساتهم ٤ ملايين و٣٩١ الف جنيه فلسطيني مقابل ٧٠٤ الاف جنيه يوظفها العرب ، وينتجون بما قيمته ٦ ملايين جنيه تقريبا مقابل مليون و٥٤٥ الف جنيه تنتجها المؤسسات العربية ، وبالاضافة لذلك كان اليهود يسيطرون على ٩٠ بالمئة من الامتيازات التي تمنحها حكومة الانتداب والتي تبلغ توظيفاتها ٥ ملايين و٧٨٩ الف جنيه وتستخدم ٢٦١٩ اجيرا(٦).

ان المعدل العام ، للنسبة المئوية في زيادة اجور العمال اليهود على العمال العرب ، حسب احصاء رسمي جرى في أيلول ١٩٣٧ قد بلغ ١٤٥ بالمئة وفي بعض الاعمال كانت تبلغ ٤٣٣ بالمئة (بين النساء العربيات واليهوديات العاملات في النسيج) و٢٣٣ بالمئة (الفرق بالاجور بين العاملات العربيات والعاملات اليهوديات في فرز التبغ) و٨٤ بالمئة (بين العمال العرب والعمال اليهود في تنضيد الحروف) .. الخ(٧). « ان الاجور الحقيقية للعامل العربي هبطت في ايلول ١٩٣٧ عشرة بالمئة بالمقابلة مع اجور ١٩٣١ بينما ارتفعت الاجور الحقيقية للعامل اليهودي عشرة بالمئة »(٨).

هذه الانعكاسات الاقتصادية لحركة الهجرة اليهودية أضحت اكثر خطورة حين بدا واضحا ان الانتداب البريطاني قد سهل للراسمال اليهودي ومكن له من السيطرة على الهيكل التحتي للاقتصاد الفلسطيني ، بحيث بدا المستقبل — ايضا — دون آمال تذكر (مشاريع الطرق ، معادن البحر الميت — الكهرباء ، الموانىء ... الخ) . لقد ادت هذه الحقائق الى انهيار شبه كلي في الاقتصاد العربي في فلسطين وتحمل العمال العرب العبء الاوفر منه ، ويقول جورج منصور سكرتير جمعية العمال العرب في يافا ، في شهادته امام لجنة بيل الملكية ان ٩٨ بالمئة من العمال العرب يعيشون « في حالة هي دون الوسط بكثير » . ويقول انه بناء على احصاء تناول الف عامل في يافا عام ١٩٣٦ تبين لجمعية العمال العرب أن ٥٧ بالمئة من العمال العرب يبلغ دخلهم أقل من ٢،٧٥٠ جنيه (المعدل الوسطي للحد الادنى الذي تحتاجه العائلة ١١ جنيها) وهناك ٢٤ بالمئة دخلهم اقل من ٤،٢٥٠ جنيهات و١٢ بالمئة اقل من ٦جنيهات و٤ بالمئة اقل من ١٠ جنيهات و ١،٥ بالمئة اقل من ١٢ جنيها و٠،٥ بالمئة اقل من ١٥ جنيها(٩).

وقد رفضت الحكومة البريطانية اعطاء اذن لتظاهرة قرر القيام بها الف عامل عاطل عن العمل في يافا في ١٩٣٥/١٢/٦ ، وقالت مذكرة جمعية العمال العرب للحكومة انه اذا لم تقم هذه الاخيرة بحل المشكلة « فان الايام المقبلة ستضطرها الى اطعام العمال خبزا او رصاصا »(١٠).

كانت الثورة ، عند ذاك ، على الابواب .
ان جورج منصور (الذي كان شيوعيا في السابق ويبدو انه في ذلك الحين ترك الحزب نتيجة خفوت دوره) يقدم للجنة بيل امثلة حسية مذهلة : فقد بلغ عدد العاطلين عن العمل في يافا في اواخر ١٩٣٥ ، ٢٢٧٠ عاملا وعاملة ، وهذا رقم كبير في مدينة كان عدد سكانها آنذاك ٧١ الفا(١١). ويعدد منصور خمسة اسباب لهذه البطالة اربعة منها تتعلق بالهجرة اليهودية اساسا : ١ — الهجرة ٢ — نزوح الفلاحين للمدن ٣ — طرد العمال العرب من الاعمال ٤ — سوء الحالة الاقتصادية ٥ — تحيز الحكومة الشنيع للعمال اليهود(١٢). وعلينا ان نلاحظ انه في غضون ذلك زاد عمال الهستدروت في ٩ شهور فقط ٤١ الف عامل ، ويثبت ذلك مقال الادون فروكمن في العدد ٣٤٦٠ من جريدة دافار ، فقد جاء فيه ان عدد عمال الهستدروت بلغ في اواخر ايلول ١٩٣٦ : ١٥ الف عامل بينما يقول تقرير الحكومة الرسمي لـ ١٩٣٥ (ص ١١٧) ان عددهم كانفي اواخر سنة ١٩٣٥ فقط ٧٤ الفا(١٣). كان ذلك يؤدي ليس فقط الى طرد العمال العرب من المؤسسات او المشاريع التي يهيمن عليها الرأسمالي اليهودي بل الى صدامات دامية : ففي ٤ مستعمرات يهودية فقط ، هي ملبس وديران ووادي حنين والخضيرة كان يعمل ٦٢١٤ عاملا عربيا في شباط ١٩٣٥ وبعد ٦ أشهر فقط نقص العدد الى ٢٢٧٦ وبعد حوالي عام نزل الى ٦٧٧ عاملا عربيا فقط(١٤). وقد وقعت تعديات دامية على العرب ، منها ارغام الحاميات اليهودية لمقاول عربي وعماله على الانسحاب من عملهم في عمارة الادون بروتنسكي في حيفا بالقوة عام ١٩٣٤ ، كان الطرد يتناول عمال البيارات ومعامل السجاير والمحاجر واعمال البناء ومعامل الكلس وغيرها(١٥). ومن ١٩٣٠ الى ١٩٣٥ هبطت قيمة صادرات صناعة الاصداف العربية من ١١،٥٣٢ جنيها الى ٣،٧٧٧ جنيها ، وتناقصت معامل الصابون العربية من ١٢ معملا في يافا وحدها عام ١٩٢٩ الى ٤ في ١٩٣٥ ، وبينما كانت هذه المعامل تصدر في ١٩٣٠ ما قيمته ٢٠٦،٢٥٩ جنيها تدنت القيمة في ١٩٣٥ الى ٧٩،٣١١ جنيها(١٦). ان افضل وصف لهذه الحالة هو ان البروليتاريا العربية كانت « ضحية الاستعمار البريطاني والراسمالية اليهودية، وعلى الاول تقع المسؤولية »(١٧). ويضيف «يهودا بوير» الى ذلك كله (١٨) ان فلسطين « كانت عشية الاضطرابات (١٩٣٦) البلد الوحيد في العالم ، فيما عدا الاتحاد السوفياتي ، التي لم تتأثر بالازمة الاقتصادية (العالمية) ، وعلى العكس فقد تمتعت بازدهار حقيقي نتيجة استيراد رأسمال مالي بلغ اكثر من ٣٠ مليون جنيه استرليني بين ١٩٣٢ — ١٩٣٦ ، بيد ان هذا الراسمال لم يكن كافيا ليغطي كل برامج الاستثمار التي بدأت بتفاؤل مبالغ فيه ». الا ان هذا الازدهار الذي كان قائما على اسس هشة تهاوى فجأة حين توقف تدفق الرأسمال الخاص نتيجة التخوف من انفجار الحرب في المتوسط « وقد تقوض نظام التسليف وظهرت علامات البطالة بصورة جدية وتناقصت اعمال البناء كثيرا . طرد العمال العرب من اماكن عملهم اليهودية او العربية ليعودوا ، على الاقل جزئيا ، الى قراهم .. ووجدت مطرقة الدعاية القومية في الازمةالاقتصادية سندانها»(١٩). ان كلام بوير ، بالطبع ، يحذف العامل الاهم وهو الهجرة اليهودية الى فلسطين وتصاعدها . فاذا تذكرنا قول الخبير السير جون هوب سمبسون في تقريره ، ص ١١٧ « انها سياسة سيئة وربما خطرة ان ترصد اموال كبيرة في صناعات غير متحققة الفائدة في فلسطين لتبرير زيادة عدد المهاجرين»فان كلامبوير السابق يبدو دون سند منطقي: اذ ان تدفقالرأسمال اليهودي— عكس ما يقول — ظل في تصاعد خلالالسنوات التي يتحدث عنها، والواقع انه بلغ ذروته في ١٩٣٥ . وكذلك بالنسبة لعدد المهاجرين الذيتصاعد في هذهالسنوات وارتفعت رؤوس الاموال اليهودية المستثمرة في الصناعات والحرف اليهودية من ٥،٣٧١،٠٠٠ ج.ف في ١٩٣٣ الى ١١،٦٣٧،٣٠٠ ج.ف. في ١٩٣٦ (المصدر ص ٣١٣) ، كما ان عمليات طرد العمال العرب من الاعمال اليهودية قد بدأ قبل ذلك بكثير (٢٠). وكانت قوافل من الفلاحين العرب، في هذه الاثناء ، تطرد وتقتلع من اراضيها وتتدفق الى المدن نتيجة الاستعمار الصهيوني في الارياف (٢١). يقول اسرائيليون يساريون : ان تجربة ٥٠ عاما لا تحتوي على مثال واحد يشير الى تعبئة العمال الاسرائيليين حول قضايا مادية او اتحادات عمال لتحدي النظام الاسرائيلي نفسه ، من المستحيل تعبئة حتىالبروليتاريا بهذه الطريقة»(٢٢).

والواقع ان هذا الوضع لم يكن نشوءا عشوائيا غير محسوب ، نتج عن خطأ غير متوقع في مخطط دقيق ، بل على العكس تماما . فالحركة الصهيونية منذ البدء كانت على وعي لما سيحدث : « ان الاراضي الخاصة في المناطق الممنوحة لنا يجب ان نستولي عليها من ايدي المالكين ، ويجب اجلاء الفقراء من السكان بهدوء خارج الحدود وذلك عن طريق توفير اعمال لهم في البلاد التي يرحلون اليها ، ولكننا نحرم عليهم اي عمل في بلادنا، اما اصحاب الاملاك فسينضمون الينا. »(٢٣). ان الهستدروت يضع هذه الحقيقة بصورة واضحة : « ان السماح للعرب بالتغلغل في سوق اليد العاملة اليهودية يعني ان يستخدم ضخ الرأسمال اليهودي لمصلحة التطور العربي ضد الاهداف الصهيونية ، وبالاضافة لذلك فان توظيف العمال العرب في الصناعة اليهودية سيؤدي الى تقسيم طبقي في فلسطين يتبع الخطوط العرقية : اليهود كرأسماليين يستخدمون العرب كعمال ، وبذلك نعيد في فلسطين الاسس غير الطبيعية التي ادت الى ظهور اللاسامية في التيه»(٢٤). ان هذا التطابق الايديولوجي والواقعي على عملية الغزو الاستيطاني قد استولد ، مع تصاعد التناقض مع المجتمع العربي ، اشكالا فاشية من التنظيمات الصهيونية ، واستخدمت الفاشية الصهيونية هذه اساليب الفاشية الصاعدة آنذاك في اوروبا .

وكان العامل العربي ، في هذه الصورة ، تحت قاع ذلك الهرم الثقيل الشديد التعقيد . وازداد الوضع سوءا نتيجة ارتباك الحركة النقابية العربية الناشئة . والواقع انه في الفترة الممتدة بين اوائل العشرينات واوائل الثلاثينات تلقت الحركة العمالية اليسارية ، في الجانب العربي وفي الجانب اليهودي على حد سواء ، ضربات ساحقة جعلتها بالاضافة للاسباب الذاتية حركة كسيحة . فمن جهة كانت الحركة الصهيونية التي شرعت تتجه بسرعة نحو الفاشية والارهاب المسلح تشكل تهديدا معنويا وماديا للحزب الشيوعي الذي كان معظم زعمائه من اليهود ، والذي لم يكن يهضم بأي شكل من الاشكال آنذاك ، داخل الحركة الصهيونية الممثلة باحزابها « العمالية » ، من الجهة الاخرى كانت القيادة الاقطاعية الدينية الفلسطينية لا تتحمل بدورها نشوء حركة نقابية عربية خارج هيمنتها (ولم يكن ممكنا لحركة نقابية عمالية حقيقية ان تنشأ وتنمو فعلا الا خارج هيمنتها). وهكذا تعرضت هذه الحركة الوليدة* الى ارهاب القيادات الاقطاعية : ففي اوائل الثلاثينات اغتالت جماعة المفتي ميشيل متري رئيس جمعية العمال العرب في يافا ، وبعد ذلك بحوالي عشر سنوات اغتيل بالطريقة نفسها النقابي سامي طه رئيس جمعية العمال العرب في حيفا . لقد كانت العلاقة السياسية بين العمال العرب وبين القيادات الاقطاعية ، بسبب غياب قوة بورجوازية لها نفوذ سياسي واقتصادي في البلاد ، ذات طبيعة تناحرية لا يمكن التقليل من حدتها الا عندما تتحقق للقيادات الاقطاعية ـ الدينية السيطرة على العمل النقابي ، ولكن اذا حدث ذلك فان العمل النقابي يفقد جوهر دوره النضالي ، ومع ذلك فان مساحة معينة من القضية المشتركة كان يمكن العثور عليها دائما ، نتيجة لاحتدام النضال القومي .

ان دور الحزب الشيوعي هنا مهم للغاية ، وفي مطلع العشرينات كان يمكن العثور على بوارق من امل لم يكن من الممكن آنذاك الاعتقاد بأنها بوارق مزيفة، مثلا : تظاهرة شيوعية من نحو ٥٥ شخصا صباح اول ايار ١٩٢١ في تل ابيب تصطدم بتظاهرة صهيونية ، وقد ارغم الشيوعيون على الهرب من تل ابيب ، فالجأهم حي المنشية العربي في يافا ، واصطدم الجميع بالبوليس البريطاني حين جاء ليقبض على البولشفيك(٢٥). وفي بيان جرى توزيعه

---

* تأسست جمعية العمال العربية الفلسطينية ، التي كان مركزها حيفا ، عام ١٩٢٥، واستطاعت في فترة وجيزة ان تنشىء ١٩ فرعا في فلسطين (عكا، البصة، نابلس، طولكرم، يافا ، اللد ، الرملة ، بيت نبالا ، سلمه ، خان يونس ، القدس ، عمواس ، غزة ، المجدل ، النعاني ، القباب ، ترشيحا ، وصفد) على ان مبادءها الاساسية التي تتحدث عن تنظيم العمال والدفاع عن مصالحهم وحمايتهم تضمنت ايضا ان « تكون كل اعمالها ضمن دائرة القانون والنظام ، وأن لا تتناول الامور السياسية ولا الدينية » ومع ذلك فقد استطاعت ان تعبىء قوة لا بأس بها ، وقد سيطر عليها في معظم الحالات تيار القوميين العرب ، ومن بين صفوفها انبثق عدد من القادة الثوريين المحليين ، ويقال ان عزالدين القسام كان له نفوذ قوي بين صفوف قواعدها العمالية.

في اليوم نفسه ، قالت « اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي الفلسطيني » : « يعيش معكم العمال اليهود ، الذين لم يأتوا لاضطهادكم بل كي يعيشوا معكم ، وهم مستعدون للجهاد بجانبكم ضد هؤلاء الاعداء الماليين من اليهود والعرب والانكليز ... واذا كان اصحاب الاموال يدفعونكم ضد العمال اليهود حتى يأمنوا من تعديكم عليهم ، فهل تبقون على خطأكم هذا ! ان هذا العامل اليهودي ، جندي الثورة ، جاء يمد يده الى ايديكم كزميل لكم لمقاومة الماليين الانكليز واليهود والعرب ... نناديكم للجهاد ضد الاغنياء الذين يبيعون البلاد واهاليها للاجانب ، فلتسقط الحراب الانكليزية والفرنسية وليسقط اصحاب الثروات العرب والاجانب ...»(٢٦). ان المدهش في هذا البيان الطويل ليس فقط ذلك التحليل التجريدي ، الخيالي ، لحالة الصراع ولكن ايضا خلوه كليا من كلمة « صهيوني » : الخطر الذي كان يحسه العامل والفلاح العربيان احساسا يوميا ، والذي ربما احسه ، صبيحة اليوم ذاته الذي وزع فيه ذلك المنشور ، ٥٥ شيوعيا « يهوديا » ضربهم الصهاينة في تل ابيب ، وطردوهم نحو يافا .

سيظل الحزب الشيوعي الفلسطيني واقفا على هذا البعد من ارض الواقع حتى ١٩٣٠ حين انعقد مؤتمره السابع اخر ذلك العام ، واعترف في مقرراته انه « اعتمد موقفا اساسيا خاطئا في المسألة القومية الفلسطينية اي في مسألة دور الاقلية القومية اليهودية في فلسطين ازاء الجماهير العربية ، ونتيجة لذلك لم يقم الحزب بنشاط عملي بين الجماهير العربية ، وظل تقطاعا انعزاليا يعمل بين العمال اليهود وحدهم ، وهذه العزلة انعكست في موقف الحزب اثناء الثورة العربية عام ١٩٢٩ ، حين انقطع الحزب عن حركة الجماهير »(٢٧). وبالرغم من ان الحزب يكيل الاتهامات للبورجوازية الفلسطينية التي كانت آنذاك في وضع حرج ، وبالرغم من انه يتجه نحو نبذ تكتيكات الجبهات الشعبية والتحالفات بين طبقات الثورة فان وثائق المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني ١٩٣٠ — ١٩٣١ هي من اثمن وادق التحليلات في تاريخ هذا الحزب ، ففيها يكرس الحزب اولوية حل قضية العرب القومية كواجب من اهم واجبات الكفاح الثوري ، وفيها يعترف بان الانقطاع عن حركة الجماهير كان « نتيجة انحراف صهيوني اعاق تعريب الحزب ». وتشكو الوثائق من « مساع انتهازية ... لتجميد تعريب الحزب ». ان المؤتمر السابع يقر هذه الحقيقة البديهية الرئيسية : على الحزب ان يزيد كوادر القوى الثورية القادرة على توجيه نشاط الفلاحين في الطريق الصحيح ، اي كوادر العمال العرب الثوريين ، ولذا فان تعريب الحزب ، اي تحويله الى الحزب الحقيقي للجماهير الكادحة العربية ، هو الشرط الاول والاساسي « لعمل ناجح في الارياف »(٢٨). ولكن الحزب لم يستطع قط ان ينجز مهام التعريب ، ولذلك ظلت الشعارات الثورية الصحيحة التي اقرها المؤتمر بريقا نظريا لا اكثر : « لا دونم واحد للغاصبين الامبرياليين والصهيونيين »، « الاستيلاء الثوري على الارض العائدة للحكومات والمعمرين اليهود الاغنياء والطوائف الصهيونية وكبار الملاكين والمزارعين العرب » ، « عدم الاعتراف بالاتفاقات المتصلة ببيع الارض » ، « النضال ضد الغاصبين الصهيونيين ». ويقرر المؤتمر : « ان حل المسائل الملتهبة كافة ، والتصفية الحقيقية للاضطهاد ممكن فقط بثورة مسلحة تحت قيادة الطبقة العاملة»(٢٩).

« ممكن فقط » كانت هذه هي العبارة المهمة .

ان الحزب الشيوعي الفلسطيني لم ينجز مهمة التعريب ، وهكذا تهاوى بنيان المخطط برمته، وظل الميدان مفتوحا امام هيمنة القيادات الاقطاعية — الدينية . ان اسباب ذلك عديدة ، ولكن ربما يكون اهمها هو ان هذا الخط في الحزب الشيوعي كان انعكاسا للموقف المتصلب والثوري الذي اشتهر عن الكومنترن في فترة ١٩٢٨ — ١٩٣٤ . ورغم صغر عددهم ، وعزلهم ، وعدم نجاحهم الكامل في تعريب الحزب ، وفشلهم في الوصول الى الريف ، فقد القى الشيوعيون بكل ثقلهم في معركة ١٩٣٦ ، واخذوا مواقف شجاعة وتعاونوا مع بعض القادة المحليين ، وايدوا المفتي ، وخسروا كثيرا من الشهداء والمعتقلين ، ولكنهم لم يفلحوا في ان يكونوا قوة مؤثرة . ويبدو ان شعار التعريب ضاع في مكان ما بعد ذلك ، اذ تجرؤ الازفستيا في ١٩٤٦/١/٢٢ (اي بعد حوالي عشر سنوات) على تشبيه « نضال اليهود » في فلسطين بالنضال البلشفي قبل ثورة ١٩١٧ .

مهما يكن فان مقررات المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني لم يكشف عنها الا مؤخرا ، وعملية التعريب لم تحدث ، وبالرغم من الدور

الثقافي الذي لعبه الحزب ، والعناصر المناضلة في هذا الصعيد التي انتجها ، فانه لم يلعب في الحركة النضالية الفلسطينية في تلك الفترة الدور الذي رشحه له مؤتمره السابع ، وقد انشطر الحزب من القاعدة خلال ثورة ١٩٣٦ ، وتعرض لانشطار اخر ، قاعدي ، في ١٩٤٨ ، وفي ١٩٦٥ انشق مرة اخرى ، والسبب بالضبط يتعلق بمسألة التعريب ، اذ ان المنشقين كانوا من دعاة تبني سياسة «بناءة» ازاء الصهيونية . ان غياب دور الحزب الشيوعي على هذه الصورة ، وضعف البورجوازية العربية الصاعدة ، وتشتت الحركة العمالية العربية ، جعل دور القيادات الاقطاعية — الدينية مرشحا للعب دور رئيسي عندما تصاعدت الاحداث الى انفجار ١٩٣٦ .

الفلاحـــون

تلك كانت الاوضاع العمالية عشية انفجار ثورة ١٩٣٦ ، الا ان هذه الاوضاع كانت تشغل نصف مساحة الخارطة التي كان يحتدم فيها ذلك التناقض المركب بين المجتمع اليهودي في فلسطين وبين المجتمع العربي ثم داخل كل واحد من هذين المجتمعين على حدة . أما النصف الاخر من الخارطة فقد كان في الريف . فهناك اخذ الصراع شكله القومي المباشر ، لان الاموال اليهودية المتدفقة بغزارة على فلسطين مضافا اليها القوات العسكرية للامبرياليين البريطانيين ، والنفوذ الهائل للجهاز الاداري الانكليزي ، قد حققت بالنسبة الى مخططات الصهيونية في اقامة دولة يهودية نتائج تافهة (٦٧٥٢ مستوطنا مستعمرا) ولكنها نجحت في مزاولة تأثير تخريبي على الجماهير العربية ... ان ملكية الجماعات اليهودية قد ارتفعت على حساب الاراضي الريفية والمدينية من ٣٠٠ الف دونم عام ١٩٢٩ الى مليون و ٢٥٠ الف دونم عام ١٩٣٠ . ان هذه الـ ١٠٠ الف هكتار لا تساوي شيئا يذكر بالنسبة للاستعمار الجماعي ، ولحل « المسألة اليهودية » ، ولكن ... الاستيلاء على حوالي مليون دونم اي ما يقرب من ثلث الارض الزراعية ، يعني الافقار للفلاحين والبدو على نطاق ووتيرة لم يسمح بهما من ذي قبل ، ان عدد عائلات الفلاحين الذين طردوا من ارضهم من قبل الصهاينة يبلغ (١٩٣١) ٢٠ الفا (٣٠). على انه بالاضافة لعملية الافقار المنظمة هذه ، فان العامل القومي ها هنا يلعب دورا رئيسيا . فالحياة الزراعية في العالم المتخلف عموما ، وبصورة خاصة في العالم العربي ، ليست نمطا من الانتاج فحسب ، بل هي ايضا وبدرجة مساوية اسلوب حياة اجتماعية ودينية وطقوسية راسخة . وبالتالي فان الصدام على هذا الصعيد يشكل صداما يأخذ بالدرجة الاولى شكل الصراع القومي البحت . فحتى عام ١٩٣١ كان ١٥١ يهوديا فقط من كل الف يهودي في فلسطين يعتمدون في معيشتهم على الزراعة ، بينما كانت النسبة بين العرب المسلمين ٦٣٧ شخصا في كل الف ، وهكذا فانه من اصل حوالي ١١٩ الف «فلاح» يشتغل بالاعمال الزراعية في فلسطين لا يوجد الا ١١ الف يهودي تقريبا(٣١). وفي حين انه (في عام ١٩٣١) كان هناك ١٩٤١ بالمئة من اليهود فقط يعملون في الزراعة كان هناك ٥٩ بالمئة من العرب يمارسون هذا العمل. ان الاساس الاقتصادي لهذا الصدام فادح الخطورة بالطبع ، ولكن كي نفهمه تماما ينبغي ان ندرك وجهه القومي : ان ٣٠ بالمئة من الفلاحين العرب في ١٩٤١ لم يكن لديهم اية قطعة ارض ، فيما كان يملك ٥٠ بالمئة من الباقي ارضا صغيرة لا تكفيهم ، هنالك — من جهة اخرى — ٢٥٠ اقطاعيا عربيا كانوا يملكون ٤ ملايين دونم ، و ٢٥ الف عائلة فلاحية بدون أرض ، و ٤٦ الف عائلة فلاحية لها ارض صغيرة بمعدل ١٠٠ دونم للعائلة ، و١٥ الف عامل زراعي مأجور يعملون عند ملاكين. وحسب دراسة اجريت على ٣٢٢ قرية عربية في ١٩٣٦ تبين ان ٤٧ بالمئة من الفلاحين يملكون اقل من ٧ دونمات ، و٦٣ بالمئة يملكون اقل من ٢٠ دونما (الحد الادنى اللازم لاطعام عائلة فلاحية ١٣٠ دونما)(٣٢). ولكن من خلال انسحاق الفلاح العربي بين كابوس مثلث : الغزو الصهيوني للارض ، والملكية الاقطاعية العربية ، وفداحة الضرائب التي تفرضها حكومة الانتداب ، فان التحدي الذي يأخذ مكان الصدارة هو التحدي القومي . ان كثيرا من الفلاحين العرب الصغار ، في انتفاضة آب ١٩٢٩ وانتفاضة ١٩٣٣ باعوا اراضيهم للملاكين العرب الكبار كي يشتروا باثمانها سلاحا لمقاومة الغزو الصهيوني والانتداب البريطاني . ان الغزو ، الذي يتحدى طراز عيش له نفوذ الدين والتقليد والشرف ، هو الذي مكن القيادات الاقطاعية — الاكليركية من مواصلة لعب

دورها بالرغم من الجرائم التي ارتكبتها ، ففي كثير من الحالات كانت العناصر الاقطاعية التي تشتري تلك الارض تبيعها للرأسمال اليهودي . وخلال الفترة الممتدة بين ١٩٣٣ و ١٩٣٦ كان ٦٢،٧ بالمئة من مجموع الارض التي اشتراها الصهاينة اراضي ملاكين متواجدين في فلسطين ، و ١٤،٩ بالمئة اراضي ملاكين غائبين ، و ٢٢،٥ بالمئة اراضي فلاحين صغار بينما كانت هذه النسبة ، بين ١٩٢٠ و ١٩٢٢ : ٧٥،٤ بالمئة اراضي ملاكين غائبين ، و ٢٠،٨ بالمئة اراضي ملاكين متواجدين و ٣،٨ بالمئة اراضي فلاحين صغار(٣٣).

ان القوانين التي سنتها حكومة الانتداب قد صممت لخدمة اهداف الاستيطان اليهودي ، ورغم انه من حيث الشكل حاولت تلك القوانين الايحاء بوجود ضمانات للفلاح ازاء عملية طرده من الارض التي يعمل عليها ، او عدم ارغامه على البيع ، الا ان هذه القوانين لم تحل دون حدوث ذلك ، مثل « حادث وادي الحوارث الذي تبلغ مساحته ٤٠ الف دونم ، وحادث قرية شطة البالغة مساحة اراضيها ١٦ الف دونم وحوادث اخرى كثيرة اخذ فيها اليهود الاراضي وشتتوا شمل المزارعين العرب ، وبسبب ذلك اصبح الخمسون الف يهودي الذين يعيشون في المستعمرات الزراعية يملكون مليونا و ٢٠٠ الف دونم ، بمعدل ٢٤ دونما للفرد. اما الفلاحون العرب الذين يبلغ عددهم ٥٠٠ الف فيملكون مساحة تقل عن ٦ ملايين دونم ، بمعدل ١٢ دونما للفرد »(٣٤). وقد ظلت — على سبيل المثال — قضية ٨٧٣٠ فلاحا طردوا من مرج بن عامر (٢٤٠ الف دونم) الذي باعته عائلة سرسق الاقطاعية البيروتية لليهود معلقة منذ حصول البيع والطرد في ١٩٢١ حتى انتهاءالانتداب في ١٩٤٨(٣٥) « ان كل قطعة ارض يشتريها اليهود تصبح غريبة عن العرب وكأنها اقتطعت من جسم فلسطين ونقلت الى بلاد اخرى » (٣٦). ورغم ان هذا الكلام المؤثر هو لاحد كبار الاقطاعيين الفلسطينيين الذين اسهموا في تزعم الحركة الوطنية الفلسطينية ، فانه هو نفسه الذي يقول « يقول اليهود ان عشرة بالمئة من الاراضي التي ابتاعوها كانت من الفلاحين والبقية من الملاكين الكبار ». وكأنه يجد في هذا القول ما لا يعجبه فيستطرد : « ولكن الحقيقة هي ان ٢٥ بالمئة من الاراضي التي ابتاعوها كانت من الفلاحين »(٣٧). وهذا الشعور الخجول عند الاقطاعي المذكور له ما يبرره تماما. فقد بين غرانوت — خبير الاراضي اليهودي — ان ما كسبته ٣ شركات يهودية فقط حتى عام ١٩٣٦ ، (وهو يشكل نصف ما كسبه اليهود حتى ذلك التاريخ) « انما حصلت على ٥٢،٦ بالمئة منه من كبار اصحاب الارض الغائبين ، و ٢٤،٦ بالمئة من كبار اصحاب الارض المقيمين ، و ١٣،٤ بالمئة من الحكومة والكنائس والشركات الاجنبية ، و ٩،٤ بالمئة من الافراد الفلاحين»(٣٨).

كانت عملية الشراء تخلق طبقة متزايدة الاتساع من الفلاحين المعدمين الذين كانوا يتحولون الى عمال زراعيين موسميين ، ولكنهم كانوا في الغالب يتجهون الى المدن ويضحون يدا عاملة غير ماهرة ورخيصة ، اذ لم يحدث ان « اخرج فلاح من ارضه وتأمن على ارض جديدة ، ولا في حادثة واحدة ، اما التعويض فقد كان قليلا جدا ، ولم يكن سخيا الا في حالة المختار واعيان القرية ، اما الاكثرية الساحقة فلا »(٣٩). وكان هؤلاء يتوجهون في معظم الحالات الى المدن « ان عمال التنظيفات في يافا اكثرهم من القرى (بربرة وخلافها) ، وشركة السجاير والتنباك العربية في الناصرة تقول بان اكثر عمالها قرويون او من اصل قروي»(٤٠). ان ما يحدث هناك يصبح مفهوما «فقد سألنا الشركة (المذكورة) عن عدد عمالها فقالت ٢١٠ ، فسألناها كم دفعت لهم اجورا اسبوعية فاجابت ٦٢ جنيها ، فاذا قسمنا المبلغ على ٢١٠ نحصل على رقم ٢٩ قرشا ونصف وهذا معدل اجرة العامل الاسبوعي»(٤١) (اجرة العاملة اليهودية في ذلك الوقت ، التي تعمل في شركات التبغ كانت تتراوح بين ١٧٠ و ٢٣٠ قرشا يوميا)(٤٢) وحتى على الصعيد الرسمي ، حين كان القروي العربي المعدم ينزح الى المدينة ويجد عملا في دائرة حكومية مثل دائرة الاشغال ، فقد كان الفارق في الاجر بينه وبين زميله اليهودي في الدائرة نفسها يتجاوز غالبا الـ ١٠٠ بالمئة (٤٣).

وكانت لجنة جونسون — غروسبي قد قدرت متوسط دخل الفلاح العربي سنويا (عام ١٩٣٠) بمبلغ ٣١،٣٧ جنيها قبل دفع الضرائب ، ولكن هذا التقرير نفسه اظهر ان الفلاح يدفع ٣،٨٧ جنيها تسديدا لثلاث ضرائب ، فاذا حذفنا ٨ جنيهات سنوية يدفعها كفائدة على دينه السنوي يصبح

على الفلاح ان يعيش بـ ١٩ جنيها ونصف سنويا هو وعائلته بينما المعدل اللازم لتغطية اود عائلة فلاحية ، كما يقول التقرير نفسه ، هو ٢٦ جنيها . « ان طبقة الفلاحين هي في الحقيقة الطبقة الوحيدة التي يتحتم عليها ان تساعد في القيام بعبء جميع انواع الضرائب في فلسطين ... ان السياسة التي تتبعها الحكومة ترمي الى وضع الفلاح في حالات اقتصادية تضمن انشاء الوطن القومي اليهودي»(٤٤).

لقد كان للهجرة اليهودية ، والمسالة المهمة المرتبطة بها وهي تحويل الاقتصاد « الفلسطيني » من اقتصاد زراعي عربي الى اقتصاد صناعي يهودي اثرهما المباشر على الفلاح العربي الصغيربالدرجة الاولى كما رأينا : ان الاعفاءات الضريبية التي كانت تمنح للمهاجرين اليهود ، والاعفاءات التي كانت تغطي استيرادات تتعلق بتنشيط الصناعة اليهودية وذلك بفرض ضريبة جمركية عالية على المنتوجات المستوردة ، وباعفاء المواد الخام ، والمواد المصنوعة صنعا اوليا ، والفحم والاكياس والالات .. الخ من الضرائب الجمركية كانت تعوض عن طريق ابتزاز الفلاح العربي. فقد ارتفع معدل ضريبة الجمرك من ١١ بالمئة في بدء الانتداب الى اكثر من ٢٦ بالمئة في ١٩٣٥ : ١٠٠ بالمئة على السكر و ١٤٩ بالمئة على الدخان و ٢٠٨ على البنزين ، و ٤٠٠ بالمئة على الثقاب ، و ٢٦ بالمئة على القهوة(٤٥). ان طوق الحصار الاقتصادي تلخصه بصورة رمزية هذه الحكاية التي رواها المطران غريغوريوس حجار امام لجنة بيل في ١٩٣٧ : « كنت مرة في قرية الرامة في قضاء عكا ، وهنالك سمعت شكوى السكان (في) هذه البلدة وجوارها (التي) فيها اكبر موسم للزيتون والزيت النقي ، وطالما كرر (الاهالي) الشكاوى الى المندوب السامي عن استعمال معمل شيمن للزيت الصناعي ، (وهو المعمل) الذي تعززه الحكومة بان تعفي من الرسوم الجمركية كل ما يرد اليه من الفول السوداني ، الذي يستخرج منه الزيت ، وبعد ذلك يخلط هذا الزيت بزيت الزيتون ، وتباع باسعار دنيئة جدا ، وقد الح الاهالي في شكاوى (كذا بالاصل) متكررة بطلب حماية زيتهم من هذه الآفة ، فالفت الحكومة لجنة كلفتها بالاستماع الى شكاوى اهل القرية ، وتوجهت الى الرامة ، وما كان اشد دهشة هؤلاء وامتعاضهم عندما رأوا على رأس هذه اللجنة مدير معمل شيمن نفسه»(٤٦). « انه ليس محزنا فحسب ، بل مسبب للاشمئزاز ان الضرائب في فلسطين تفرض على طبقات الشعب بالطريقة الاتية : تسمح الحكومة بان يكلف الرجل الذي يكون محصوله السنوي ٢٣ جنيها و ٣٧٠ ملا بدفع ٢٥ بالمئة من الضرائب ، بينما التاجر ، واصحاب المهن الحرة والمستخدمون الذين دخلهم الف جنيه في السنة ينالهم ١٢ بالمئة من جميع ضرائب الحكومة»(٤٧).

كان الفلاح الصغير والمتوسط يرزح تحت ذلك العبء، ليس فقط بسبب سياسة الافقار والسلب، ولكن بسبب الشعار الذي كان يرفعه الصهاينة : « اليد العاملة العبرية فقط » وشعار « الانتاج العبري فقط » وكان ذلك يؤدي « ليس فقط الى تشغيل الصناعيين والمزارعين اليهود لعمال يهود فحسب ، ودفع اجور اعلى ، ولكن ايضا لتحديد اسعار اعلى لمنتوجاتهم . ان مبدأ الانتاج العبري كان يشجع السكان اليهود على تفضيل المنتوجات اليهودية باسعارها الاعلىمنمنافستهاالعربية(٤٨). فاذا تذكرنا – كما رأينا في السابق – ان معظم المواد الخام كانت معفاة من الضرائب ، وان الضرائب الجمركية كانت عالية على السلع المستوردة والتي كانت تنتج المصانع اليهودية في فلسطين مثلها ، ادركنا ان شعار « الانتاج العبري فقط » كان شعارا يتحمل عبئه الفقراء العرب بالدرجة الاولى مقابل ذلك كانت الطبقة التي اصطلح على تسميتها بطبقة « الافندية » والتي تعيش في المدن ، تحصل على الجزء الاوفر من دخلها من الارض الزراعية المؤجرة للفلاحين ومن فوائد الديون التي كانوا يقدمونها للفلاح – وفي الثلاثينات لم يكن هؤلاء الافندية قد شرعوا بتوظيف اموالهم في الصناعة وفي الاعمال في المدن (شرعوا في ذلك مع بداية الاربعينات على نطاق محدود) ، ولكن حتى هذا الابتزاز كان يشكل بالنسبة للفلاح شرا اقل فتكا من شر الصهيونية ، فاستغلال «الافندية» ، الطبقة التي نمت حول الارستقراطية الاقطاعية وكسبت حمايتها منذ الحكم التركي ، لم يكن يصل الى حد الاقتلاع،وكانت «المؤسسات» التي نمت منذ عهود سحيقة حول هذه العلاقات (الحمولة، العائلة ، العشيرة ، الطائفة .. الخ) تجعل ذلك التناقض الفادح يبدو اقل خطرا ،

قياسا على الخطر المباشر الذي كانت تمثله الصهيونية .
ان « طبقة » لم تعط الاهمية الكافية في الدراسات الفلسطينية هي « طبقة » البدو ، الذي بلغ تعدادهم في فلسطين عام ١٩٣١ : ٦٦٠٥٥٣ بدويا (كان عددهم ١٠٣٠٠٠ في ١٩٢٢). ان هذه القوة التي شاركت مشاركة بارزة في ثورة ١٩٣٦ كانت قد لعبت دورا مهما في انتفاضة شهر آب ١٩٢٩ ولفتت نظر الحزب الشيوعي الفلسطيني في مؤتمره التاسع الذي سبقت الاشارة اليه . ان هؤلاء البدو الذين يشكلون ٣٥ بالمئة من السكان تقريبا « يجعلهم الجوع الدائم في حالة غضب يبقى دائما على حافة الانتفاضة المسلحة، ان اشتراكهم في انتفاضة آب يدلك على الدور الكبير الذي يمكن ان يلعبوه في تمرد ثوري للجماهير ، وفي الوقت نفسه يغدو من الواضح ان شيوخ وزعماء هذه القبائل يمكن ان يفسدوا بالمال ... والبدو يمدون بلا انقطاع جيش الفلاحين المحرومين من الارض وانصاف البروليتارية بايد وافواه جديدة»(٤٩).
في غضون ذلك كانت البورجوازية العربية المدينية الصغيرة والممزقة في حالة تخبط وضياع وتمزق ، وكانت سرعة تحول المجتمع الى الاقتصادالصناعي اليهودي تجري دون ان تتيح لهذه البورجوازية الناشئة ، ولا للاقطاعيين ، فرصة المشاركة بهذا التحول او الاستفادة منه ، ولذلك فانه لم يكن غريبا قط ان نرى بان معظم الزعماء الفلسطينيين الذين شهدوا امام لجنة « بيل » الملكية في ١٩٣٧ وكذلك امام اللجان التي سبقتها ، يصرفون وقتا طويلا في امتداح الاستعمار العثماني واطراء معاملته قياسا على معاملة الاستعمار البريطاني : فقد كانوا يشكلون آلة الباب العالي وذراع السلطان وجزءا لا يتجزأ من نظام الهيمنة والاستغلال والقمع ، وقد صرفهم الاستعمار البريطاني من دور الوكيل الاول ، لانه وجد وكيلا اكثر كفاءة واشد رسوخا وارقى تنظيما هو الحركة الصهيونية .
وهكذا جرى رسم افق الدور الذي كان على القيادات الاقطاعية — الاكليركية ان تلعبه في الاساس ، « النضال » من اجل موقع افضل في النظام الاستعماري ، ولكنها لم تكن لتستطيع ان تخوض ذلك « النضال » دون ان ترص وراءها صفوف الطبقات التي كانت تتعطش لطرد القهر القومي المزدوج ، والقهر الطبقي المزدوج ، عن صدرها ، وكي تنجح في ذلك رسمت لنفسهابرنامجا اكثر تقدما من طاقتها ، واستعارت شعارات الجماهير التي لم تكن لتستطيع ولا ترغب في دفعها الى مداها ، وسلكت اشكالا في النضال ليست من طبيعتها . وبالطبع لم يكن لهذه القيادات مطلق الحرية في التصرف ، كما يحب الكثير ان يوحوا ، بل كانت تتعرض لجملة الضغوط التي كانت تحرك الاحداث ولتصاعد التناقضات واحتدامها ، ولجملة التأثيرات التي مررنا عليها ، وذلك يفسر التناقضات الجزئية التي كانت احيانا تقوم بينها وبين الانظمة العربية المحيطة بفلسطين والتي هي شريكة طبقية لها ، وكذلك يفسر احلافها الواسعة النطاق داخل البنية الطبقية في فلسطين .

المثقفون

بعد ١٣ سنة من الاحتلال البريطاني لفلسطين ، (اي في ١٩٣٠) يعترف مدير المعارف بتقريره : « لم تتكفل الحكومة منذ الاحتلال حتى اليوم بنفقات كافية لبناء اية مدرسة في البلاد » وفي ١٩٣٥رفضت الحكومة ٤١ بالمئة من طلبات الالتحاق بالمدارس التي قدمها عرب . وفي ٨٠٠ قرية عربية كانت موجودة في فلسطين كان هناك ١٥ مدرسة للبنات فقط و٢٦٩ للصبيان ، ووصلت ١٥ فتاة قروية فقط الى الصف السابع الابتدائي . وكان هنالك ٥١٧ قرية عربية لا مدارس فيها للذكور ولا للاناث ، ولا توجد اية مدرسة ثانوية في القرى العربية وبالاضافة لذلك كانت الحكومة : « تراقب الكتب وتعارض كل صلات ثقافية مع العالم العربي ، وهي لم تفعل شيئا لرفع المستوى الاجتماعي بين الفلاحين ...»(٥٠). في ١٩٣١ ، اذن ، كان المتعلمون بين مسلمي فلسطين ٢٥١ بالالف بين الذكور و ٣٣ بالالف بين الاناث و ٧١٥ بالالف بين الذكور المسيحيين و ٤٤١ بالالف بين الاناث . (وكانت النسبة ٩٣٤ بالالف بين ذكور اليهود و ٧٨٧ بين اناثهم!»(٥١). ومع ذلك فان هذه الارقام وان عكست الواقع التعليمي في الريف خصوصا فهي لا تعكس الواقع الثقافي في مجمل فلسطين ، هذا الواقع الذي لعب دورا طليعيا منذ بدء النهضة العربية في مطلع القرن العشرين . ففي الحقيقة كان عدد كبير من المطابع قد تأسس في فلسطين قبل الاحتلال البريطاني ، وفي المدة

الواقعة بين ١٩٠٤ و ١٩٢٢ ظهرت في فلسطين حوالي ٥٠ صحيفة عربية ، وقبل انفجار ثورة ١٩٣٦ اضيفت عشر صحف اخرى على الاقل ، كان رواجها واسعا .

ان عوامل كثيرة ، ليس هنا مجال التوسع فيها ، قد جعلت من فلسطين مركزا ثقافيا عربيا مهما ، وكانت الحركة الدائبة للمثقفين المهاجرين من والى فلسطين عاملا اساسيا في ترسيخ الدور الثقافي لفلسطين ، وكذلك انشاء الجمعيات والنوادي الادبية الذي بدأ منذ مطالع العشرينات . على ان هذا التطور الثقافي الذي كانت تغذيه باتصال افواج من المتخرجين العرب من بيروت والقاهرة رافقته حركة ترجمة واسعة النطاق عن الفرنسية والانكليزية، ولا شك ان الارساليات الاجنبية والتي كانت كثيرة بحكم خصوصية فلسطين بالنسبة لها لعبت دورا بارزا في نشر الجو التعليمي في المدن .

ان الذي يعنينا هنا ليس الجو الثقافي العام في فلسطين خلال الثلاثينات ، على اهميته ، ولكن تعنينا على وجه التحديد الانعكاسات التحريضية التي ادى اليها من خلال علاقته مع تفاقم المأزق الاقتصادي والقومي ، ومن الممكن قياس هذه الانعكاسات ، في اشكالها ومظاهرها المختلفة والمتعددة من خلال رصد الحركة الادبية في فلسطين في تلك الفترة ، ومن خلال رصد تطور ما يمكن ان نصفه بالثقافة الشعبية ، وهو ذلك الطراز من الوعي الذي ينمو في الريف الغارق في مجاهل الامية ، ولكن في الوقت نفسه — الذي يعاني من التحدي اليومي المباشر بصورة تجعله دائم التيقظ.

انه من الواضح ان مثقفي المدن في معظمهم ، لهم منشأ طبقي مختلف عن ذلك الذي كان « للدعاة » الريفيين ، ورغم انهم كانوا ينتمون الى العائلات الاقطاعية او البورجوازية التجارية او الصغيرة في المدن ، فقد دفعتهم ظروفهم ، في مرحلة دقيقة من حياة بلادهم ، الى لعب دور فريد من نوعه ، فقد كانوا دعاة ثورة بورجوازية ولكن هذه «الثورة البورجوازية » التي كانوا هم طلائع دعوتها لم تكن موجودة وجودا ماديا حقيقيا مبلورا في حركة ذات نفوذ وذات برنامج ، كان الميدان متروكا لهيمنة الاقطاع (الذي يذل كل ما لديه من جهد لمحاولة امتصاصهم تحت قيادته وتركت هذه المحاولات بصماتها بوضوح) ولذلك استطاع هؤلاء المثقفون ان يكونوا اكثر طلاقة اذ انهم لم يكونوا مرتبطين بوجود حقيقي او قاعدة صلبة لهذه البورجوازية ولذلك بالذات كانت الحدود التي ينبغي لهم التقيد بها بحكم منشأهم الطبقي ، حدودا مائعة يسرت لهم التقدم في دعواهم اكثر من الشعراء والادباء الذين يوازونهم ، طبقيا وثقافيا، في البلاد العربية الاخرى، في الفترة ذاتها.

اما في الريف فقد كان « القوالون » ، بحكم تجوالهم واحتكاكهم بالفلاحين ، يطورون نوعا من الزجل السياسي الذي كان يعكس هموم ومطامح الفلاحين بتصاعد يتناسب مع تصاعد الصراع الذي كانت اسبابه تزداد اتساعا وعمقا ، وفي الريف يشكل الشعر الشعبي ، وكل ما يتفرع عنه ، طقسا من طقوس الحياة وتقليدا من تقاليدهايزداد رسوخا مع الوقت ، ومن هذه الناحية يصبح لهذا الشعر الشعبي ، الذي يتبلور شكله النهائي من خلال اسهامات لا حصر لها وازمان متطاولة وصدمات اجتماعية متكررة ، سطوة تشبه سطوة الاعلام المعاصر .

ان ميكانيكية حدوث ذلك كله ، وطبيعة الصدام المركب والمعقد على صعيد الثقافات بين الدعوة الى الثورة والدعوة الى الاستكانة ، والتي تأخذ اكثر اشكالها تعقيدا وبطئا في الريف المتخلف على وجه الخصوص ، هي مسالة ليست من اختصاص هذا البحث هنا ، ولكن مع ذلك لا بد من الاشارة الى ان كثيرا من العناصر التي يبدو لاول وهلة انها ستلعب دورا سلبيا في هذا الشأن ، (مثل امام المسجد ، على سبيل المثال ، وهو اكثر الدعاة في الريف نفوذا) لا تفعل ذلك بالصورة المطلقة التي تقفز الى الخيال ، وفي فترات معينة يكون مستوى التناقض الوطني والطبقي قد بلغ حدا يستلزم حتى من امام المسجد ان يبرر مكانته، ومثل هذا العمل ، ان لم يؤد الى نتائج ايجابية مباشرة ، فهو يخلخل بالنتيجة « سطوة العصمة » التي لرجل الدين في الريف . من هذه الزاوية كان الصراع الثقافي بين الدعاة الثوريين وبين الرجعيين (في الريف) وبين الدعاة الثوريين وبين المعدمين والرومانطيكيين (في المدينة) ، يكسب في كل يوم ، لمصلحة الثقافة الثورية ، مساحة جديدة . لا نعرف كاتبا او اديبا فلسطينيا واحدا في الفترة التي نحن بصددها لم يخض غمار الدعوة المناهضة للعدو الاستعماري بهذه الدرجة او تلك وعلى هذا المستوى من الوعي او ذاك ، وقلة من الشعراء

لم تكتب عن المسألة الوطنية .

اننا نتحدث عن السمة العامة للجو الثقافي في فلسطين ، حيث لعب المثقفون دورا كان اكبر حجما من الدور الذي تلعبه هذه الفئة ، خصوصا حين لا تكون حزبية ، في امكنة اخرى تعيش الشروط الكلاسيكية لمعركة التحرر الوطني . كانت خصوصية الوضع بالنسبة للمثقف العربي فريدة : ففي المدينة كان أبناء الاغنياء يرون — بعد عودتهم من الجامعات او بعد انهائهم علومهم — كيف تقف الطبقة التي ينتمون اليها عاجزة كليا عن قيادة المعركة التي انتدبت نفسها لها ، مدركين في كل الاحوال تخلفها وكساحها الثقافي امام رياح العصر ، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يعانون من عجزهم عن ايجاد مكان لانفسهم في حركة المجتمع المتقدم نحو تثبيت صفته الصناعية ، اذ أن القوة التي كانت تتحكم بهذا التحول كانت قوة ، في جوهرها وفي مظهرها ، اجنبية وغريبة ، ولذلك فان البورجوازية الوحيدة الموجودة بقوة لم تكن تتحداهم قوميا فحسب ، بل أيضا كانت تعتنق ثقافة لا تمت بصلة الى ثقافاتهم ولا الى مطامحهم الثقافية .

وفي الريف كان الفلاح الفلسطيني الذي رزح قرونا طويلة تحت اثقال القهر الطبقي والقومي ، وجرى تحويله عبر ذلك الى القدرية المفرطة بأسم الولاء الديني ، قد أنشأ لنفسه عالما « ثقافيا » مسورا بالتقاليد التي فرضتها الطبقة السائدة ، والتي عبرت عن نفسها بالامثال الشعبية ، هذه الامثلة التي كان لها سطوة القانون ، وهي سطوة معروفة في كل مكان وخصوصا في الارياف الخاضعة لعلاقات الانتاج الاقطاعية « فهي ليست شكلا من اشكال الفولكلور ... بل هو عمل كلامي يؤدي الى أقوى انواع التأثير على مجرى الامور وعلى السلوك الانساني »(٥٢).

ان الفقر ، والانسحاق ، وتعاقب قرون مديدة من القهر القومي والطبقي ، قد ادت مجتمعة الى انشاء « مؤسسة كاملة » للاستسلام والقدرية والخنوع عكست نفسها بالامثلة الشعبية السائدة(*). وكان على المثقفين الفلسطينيين ، وخصوصا على الشعراء الشعبيين في الريف ، مهمات عظيمة لزحزحة تلك الثقافة الخاملة ، دون أن يكونوا هم أنفسهم قد تخلصوا جذريا من تأثيراتها . والصحيح ان قطاعا من المثقفين الفلسطينيين قد شرعوا يفعلون ذلك منذ وقت مبكر في تاريخ النضال الفلسطيني ، وقد لعبوا دورا بارزا في بلورة وعي متقدم : ان العلاقة التي نشأت بين الادب الشعبي الفلسطيني ، وكذلك الادب الفصيح في المدن ، وبين حركة النضال الفلسطينية لم تكن علاقة وصفية او تسجيلية ، ولكنها كانت علاقة جدلية من طراز عميق .

ان الشاعر اللبناني الاصل ، وديع البستاني ، الذي كان قد تخرج من الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٠٧ وهاجر الى فلسطين واستقر فيها ، لعب دورا رائدا في عملية التوعية هذه : فقد حذر من وعد بلفور في نفس الشهر الذي صدر فيه الوعد عام ١٩١٧ بوضوح يبدو لنا الان وكأنه كان نظرا في مرآة . ومن المفيد تتبع حقبة من الزمن يمثلها البستاني ستزدهر في الثلاثينات،حين نضحي على أبواب الثورة المسلحة ، طليعة قوية من الشعراء والقوالين الذين ألهبوا النضال المسلح وجعلوه ، ايضا ، جزءا من التراث الثقافي للجماهير التي كانت ترى في « كلب الامير أميرا » . ففي ٢٩ كانون الاول ١٩٢٠ وجهت حكومة الانتداب البريطاني الى رئيس تحرير مجلة الكرمل الثقافية التي كانت تصدر انذاك في حيفا رسالة رجت فيها نشر قصيدة كان قد اهداها شاعر العراق الشهير معروف الرصافي ، الذي كان يزور فلسطين آنذاك ، الى المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل ، وفيها يمجد خطيبا يهوديا اسمه «يهودا» ويكيل مديحا لا حد له للمندوب السامي . ولكن

(*) نماذج من هذه الامثال : اللي بياكل من خبز السلطان بضرب بسيفو ، معك قرش بتسوى قرش ، البرطيل حل دكة القاضي ، الكذب ملح الرجال ، الف قلبه ولا غلبه ، بعد حشيشي ما ينبت حشيش ، بيضة اليوم ولا جاجة بكرة ، حط راسك بين الروس وقول يا قطاع الروس ، قد بساطك مد رجليك ، كلب الامير امير ، العز للرز والبرغل شنق حالو ، تاجرنا بالكفان بطلت الناس تموت ، اشد الوجع الحاضر ، اللي ما بيجي معك تعال معو ، بيركض ورا الرغيف والرغيف بيركض قدامو ، الدنيا مع الواقف ، الاعمار والارزاق بيد الله ، ابن العازه عكازه ، من زود الطفر شفنا البزقة شلن ، العين ما بتعلا عن الحاجب ، انا اول من طاع واخر من عصي .

صاحب « الكرمل » لم يجد من اللائق نشر تلك القصيدة التي لا يمكن ان توصف الا بالخسة دون رد عليها تطوع لكتابته الشاعر وديع البستاني :
خطاب « يهودا » ؟ ام عجاب من السحر ؟
وقول الرصافي ؟ ام كذاب من الشعر ،
قريضك من در الكلام فرائد
وانت ببحر الشعر اعلم بالدر
ولكن هذا البحر بحر سياسة
اذا مد فيه الحق آذن بالجزر
أجل ! عابر الاردن كان ابن عمنا
ولكننا نرتاب في عابر البحر ...
ان هذه القصيدة الطويلة التي اشتهرت آنذاك كثيرا هي في الحقيقة وثيقة سياسية فذة ، فالمناقشة فيها لا تسفه الرصافي فحسب ، بل تثبت معطيات سياسية على غاية الاهمية في ذلك الوقت المبكر ، منها ، بالاضافة الى هجرة يهود اوروبا وخطرها ، دور بريطانيا في التجزئة العربية ، ووعد بلفور وآفاته ... الخ . وقبل ذلك بفترة وجيزة (في ١٩٢٠/٣/٢٨) كان وديع البستاني نفسه على رأس مظاهرة ، يقودها ويردد امامها نشيدا نظمه بنفسه ، وقد استدعي الشاعر الى التحقيق ، وجاء في ضبط التحقيق الاداري الذي قام به النائب العام :
« النائب العام : وردت بينات على انك كنت مرفوعا فوق الرؤوس ، وانت تقول ووراءك الجمهور : يا نصارى ويا اسلام !
المتهم : نعم
النائب العام : (وقلت ايضا) لمن تركتوا البلاد ؟
المتهم : نعم .
النائب العام : (ثم قلت) اذبحوا اليهود والكافرين ..
المتهم: لا . هذا اخلال بالوزن والقافية ، وما قلته كان مقفى موزونا ، وذا معنى ويقال له الشعر » !(٥٣).
ان الفترات اللاحقة ستشهد بروزا متعاظما لدور الشعر على وجه الخصوص ، ليعبر في مختلف المناسبات عما كان يعتمل في صدور الجماهير المغلوبة على أمرها ، فحين حضر بلفور من لندن ليشهد احتفال افتتاح الجامعة العبرية في ١٩٢٥ جاء الى الحفلة نفسها احمد لطفي السيد مندوبا عن الحكومة المصرية ، ويقول الشاعر اسكندر الخوري البيتجالي يومها موجها حديثه لبلفور :

من لندن هرولت تضرم — نار هذي الواقعة
يا لورد ما لومي عليك — فانت اصل الفاجعة
لومي علي مصر تمد — لنا اكفا صافعة(٥٤)

ان ابراهيم طوقان وابو سلمى (عبد الكريم الكرمي) وعبد الرحيم محمود يمثلون منذ بدء الثلاثينات تتويجا لجيش من الشعراء الوطنيين الذين ألهبوا فلسطين طولا وعرضا بالتوعية والتحريض(*): اسعاف النشاشيبي، وخليل السكاكيني ، وابراهيم الدباغ ، ومحمد حسن علاء الدين ، وبرهان العبوشي ، ومحمد خورشيد ، وقيصر الخوري ، والخوري جورج بيطار ، وبولس شحاده ، ومطلق عبدالخالق .. الخ . وفي رؤى هؤلاء الثلاثة ، طوقان والكرمي ومحمود ، قدرة خارقة على استشفاف ما كان يحدث ، لا يمكن تفسيرها الا بأنها استيعاب عميق لذلك الذي كان يحتدم في اوساط الجماهير . ان ما يبدو في قصائد هؤلاء الثلاثة وكأنه نبوءة لا تفسير لها ، وتكهن يشبه الرجم بالغيب ، ليس في الحقيقة الا قدرتهم على التعبير عن هذه العلاقة الجدلية التي كانت تربط نتاجهم الفني بحركة المجتمع .
يقول ابراهيم طوقان مثلا تعليقا على انشاء « صندوق الامة » عام ١٩٣٢ لانقاذ اراضي فلسطين من البيع لليهود (وهو الصندوق الذي انشأته وقتذاك القيادة الاقطاعية ــ الاكليركية بحجة عدم تسرب أرض فقراء الفلاحين الى اليهود) : « ان ثمانية من القائمين على مشروع صندوق الامة كانوا سماسرة على الاراضي لليهود » :
حبذا لو يصوم منا زعيم
مثل غاندي عسى يفيد صيامه
لا يصم عن طعامه ، في
فلسطين يموت الزعيم لولا طعامه
ليصم عن مبيعه الارض يحفظ
بقعة تستريح فيها عظامه(٥٥)

(*) يقول توفيق زياد ، شاعر المقاومة في فلسطين المحتلة (الناصرة) : « ان شعرنا الثوري (محمود درويش ، سميح القاسم ، وانا) هو امتداد للشعر الثوري الذي أنشده ابراهيم طوقان وابو سلمى وعبد الرحيم محمود ومطلق عبد الخالق واخرون ... لان معركتنا هي امتداد لمعركتهم » (عن الادب الشعبي ــ دار العودة ، ص ١٤) .

ان تركيزنا على الدور الذي لعبه الشعر ولعبه الشعر الشعبي ، لا يعني ان المظاهر الاخرى من الانتاج الثقافي في فلسطين لم تلعب اي دور او ان دورها كان يسيرا : فالصحف والمقالات الادبية والقصص وحركة الترجمة لعبت مجتمعة دورا طليعيا لافتا للنظر . ففي مقال افتتاحي — مثلا — نشره يوسف العيسى عام ١٩٢٠ في النفائس نقرأ : « فلسطين عربية ، عربية بمسلميها ، عربية بمسيحييها ، عربية بيهودها الوطنيين ايضا ، فملام يبيع حماها الاجنبي الصهيوني ... ان زوابع فلسطين لا تهدأ اذا فصلت عن سوريا وجعلت وطنا قوميا للصهيونية..»

ان انطلاقات من هذا النوع ، منذ مطالع العشرينات ، هي التي شكلت المد الثقافي الثوري في الثلاثينات ، الذي لعب دورا مهما في تنمية الوعي وتفجير الثورة : اقلام مثل قلم عارف العارف وخليل السكاكيني (الثائر الحاد ، الساخر ، الجريء ، ابن معلم النجارة) واسعاف النشاشيبي (البورجوازي الكبير الذي تأثر بالسكاكيني وتبنى الكثير من آرائه) وعارف العزوني ، ومحمود سيف الدين الايراني ونجاتي صدقي (الصوت اليساري المبكر الذي ، في ١٩٣٦ ، مجد مادية ابن خلدون واعلن احتقاره للمثالية — وربما كان هو أول من أرخ للحركة الوطنية العربية منذ بدء عصر النهضة عبر تحليل مادي للاحداث ، ونشر بحوثه في « الطليعة » خلال ١٩٣٧ — ١٩٣٨) وعبد الله مخلص (الذي أخذ منذ اواسط الثلاثينات يدعو الى الادراك بأن الاستعمار ظاهرة طبقية ، والى أن الانتاج الفني يجب ان يكون موجها) ورجا الحوراني ، وعبداله البندك ، وخليل البديري ، ومحمد عزة دروزة ، وعيسى السفري (الذي مجد استشهاد القسام تمجيدا له معناه الثوري العميق) ذلك الاحتدام في الجو الثقافي الفلسطيني ، الذي وصل الى ذروته في الثلاثينات، اخذ كما نرى أشكالا متعددة في التعبير ، ومع ذلك فقد ظلت اولوية التأثير — لاعتبارات عديدة منها تاريخ الادب العربي نفسه — للشعر وللشعر الشعبي الذي كان بدوره تعبيرا ، ايضا ، عن ذلك الجو. ان هذا وحده هو الذي يفسر ذلك الدور الذي كاد ان يكون وعظا سياسيا مباشرا ، الذي انتدب الشعر نفسه ليلعبه في تلك الفترة . ففي ١٩٢٩ على سبيل المثال كان ابراهيم طوقان يكشف ، في وقت مبكر ، ذلك الدور الذي كان يلعبه الملاكون الكبار في مسألة الارض :

باعوا البلاد الى اعدائهم طمعا
بالمال ، لكنما اوطانهم باعوا
قد يعذرون لو ان الجوع ارغمهم
والله ما عطشوا يوما ولا جاعوا

كان ابراهيم طوقان قد أطلق في العام نفسه ملحمته عن احكام الاعدام التي أصدرتها حكومة الانتداب على الشهداء الثلاثة : فؤاد حجازي من صفد ، ومحمد جمجوم وعطا الزير من الخليل ، وهي القصيدة التي اضحت شهيرة للغاية ، واضحت تعتبر جزءا من تراث الثورة ، مثلها مثل قصيدة عبد الرحيم محمود في ١٩٣٥/٨/١٤ ، التي خاطب بها الامير سعود الذي جاء يومذاك يزور فلسطين:

المسجد الاقصى ، اجئت تزوره
أم جئت من قبل الضياع تودعه ؟

سوف يستشهد شاعرنا هذا في ١٩٤٨ في معركة الشجرة في فلسطين ، ولكنه قبل ذلك يلعب دورا بارزا مع أبو سلمى وطوقان في ارساء دعائم الشعر الفلسطيني المقاوم الذي سيضحى فيما بعد ، تحت الاحتلال الاسرائيلي ، من ابرز مظاهر صمود الجماهير الفلسطينية .

لقد رافق الشعر والشعر الشعبي التحرك الجماهيري منذ اوائل الثلاثينات بصورة رئيسية ، وعبر عن انفجار الثورة وعن دقائقها وغناها : ان قصيدة أبو سلمى « انشر على لهب القصيد » التي أرخ فيها لثورة ١٩٣٦ تكشف بجرأة تلك الخيبة المرة التي نشأت عن خذلان الانظمة العربية للثورة :

يا من يعزون الحمى
ثوروا على الظلم المبيد
بل حرروه من الملوك
وحرروه من العبيد ...

ويذكر بالشاعر الشعبي « عوض » الذي كتب على جدران زنزانته في عكا ليلة اعدامه في ١٩٣٧ قصيدة رائعة كانت نهايتها :

ظنيت النا ملوك
تمشي وراها رجال
تخسا الملوك ان
كان هيك الملوك انذال
والله تيجانهم ما
يصلحوا النا نعال

احنـــا اللـــي نحمـــي
الوطـــن ونبـــوس جراحـــو *
ان الغضبة التي كانت تنصب في وقت واحد على العدو المثلث : الغـزو الصهيوني والانتـداب البريطاني والرجعية العربية المحلية وغير المحلية، كانت تنمو باطراد امام نمو المازق . في ذلك الوقت كان الريف يطور ، مع تصاعد التناقضات وانفجار الانتفاضات المسلحة ، وعيه الجديد مـن خلال احتكاك عناصره « المثقفة » بالمدن وتدفق عوامـل التوعية :

يا ناس شو هالسخمة صهيوني مع غربي(٥٦).

ثم :

طلت البـارودة والسبع مـا طـل
يا بـوز البارودة من النـدى منبل

وكذلك :

بـارودتـو بيـد الـدلال اريتهـا
لا عاش قلبـي ليش مـا شريتهـا
وبـارودتو لقطـت صدى عقرابهـا
لقطت صدى واستوحشت لصحابهـا

وحتى في الاعراس :

والعريس هو منا ـــ يا ويل اللي نحاربو ، بالسيف نقطع شاربو ، هز الرمح بعود الزين ـــ وانتو يا نشامى منين ؟ واحنا شباب فلسطين ، والنعـم والنعمتين ـــ يا أبو العريس لا تهتم ، واحنـا شرابين الدم ، في بلعا ووادي التفاح** صارت هجمة وضرب سلاح ... يا بيض يا مـلاح ، بالله تزغرتنا ، يوم وقعة بيت امرين ، تسمع شلـع المراتين ، طلي علينا من البلكون(٥٧).

بل تصل الدعوة التحريضية للثورة الى مداهـا بصورة مدهشة ، فبعد كل الامثال الموروثة التي تنصح بالاستكانة ، وتشكل تيدا له سطوة التقاليد وعصمتها ، تضحى الاهزوجة الشعبية فجاة ، قادرة على ان تقول :

يا عربي يا ابن المجرودة
بيع امك واشري بارودة
والبارودة خير مـن امـك
يوم الثورة تفرج همك ...(٥٨)

ان « البارودة » تضحى ، بتراكـم التناقضـات واحتدامها ، الاداة التي تحطم ذلك السور العريق من الدعوة للاستكانة ، وفجاة يصير بوسع هـذه « البارودة » ان تصل الى قلب المسالة ، وتصبح الثورة كوعد للمستقبل ـــ افضل من اكثر ما في الماضي من دفء : الام ، العائلة . ولكن فوق هذا الاحتدام كله كان الاقطاع الاكليركي يتكلس بقيادته العاجزة وسطوته وحلفه مع الماضي .

وسط هذه التناقضات المركبة ، المحتدمة ، المتزايدة الاتساع والعمق ، والتي كانت تنصب على الفلاحين والعمال العرب بالدرجة الاولى ، ولكنها ايضـا تجثم بثقل على البورجوازية الصغيرة والمتوسطـة في المدن والفلاحين المتوسطين بالارياف ، كـان المازق يتصاعد باطراد ، معبرا عن نفسه بانفجارات مسلحة بين الفينة والاخرى (١٩٢٨ ـــ ١٩٣٣) : كان الاقطاع الفلسطيني الاكليركي ، من الجهـة الاخرى ، يشعر بان مصالحه هو الاخر مهـددة من قبل قوة اقتصادية صاعدة هي الراسماليـة اليهودية المتحالفة مع الانتداب . ولكن مصالحه كانت مهددة ايضا من الجهـة المعاكسة : مـن الجماهير العربية الفقيرة التي لم تعد تعرف ايـن يتعين عليها أن تتجه ، فالبورجوازيـة العربيـة المدينية كانت ضعيفة غير قادرة على قيادة مرحلة التحول الاقتصادي التي كانت تجـري بسرعة لا مثيل لها ، وقسم صغير من هـذه البورجوازيـة تحول الى طحلـب متسلق علـى هامش النمـو الصناعي اليهودي واخذ طريقه ، بقدر ما كانت ظروفه الذاتية والظـروف الموضوعية المحيطـة بوجوده ، تتخذ مجرى معاكسا للحركة التي كانت تحتدم في المجتمع العربي ، وانفرد المثقفون الشبان الذين تحدروا من عائلات ريفية ومدينية غنية بلعب دور بارز في التحـريض الثوري فقد عادوا مـن جامعاتهم الى مجتمع يرفضـون فيه صيغة العلاقات القديمة التي اضحت متخلفة ، وترفضهم فيه الصيغ الجديدة التي اخذت تبلور نفسها وسط التحالف الصهيوني ـــ الامبريالي .

وهكذا امتزج ، بتلاحم لا نظير له ، النضال الطبقي بالمصلحة القومية بالمشاعر الدينية ، وتفجـر هذا

---

* يصف توفيق زياد ، هذه القصيدة بقولـه : « انني لا اعرف عملا شعريا يمكن ان يقف من ناحية الصلابة والتضحية والشجاعة في كفـة ميزان مع تلك القصيدة الرائعة » (عن **الادب والادب الشعبي** ـــ دار العودة ، ص ٣٠) .

** قريتان قرب نابلس وطولكرم ، وقعت فيهما معارك بارزة ضد الاحتلال البريطاني في ١٩٣٦ .

المزيج وسط الازمة الموضوعية والذاتية التي كان يعيشها المجتمع العربي في فلسطين ، وظل اسير القيادات الاقطاعية ـ الاكليركية لهـذه الاسباب كلها مجتمعة. فامام العسف الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يلحق بالفقراء العرب في المدن والقـرى لم يكن من الممكن للحركة الوطنية الا ان تأخذ اشكالا متقدمة من النضال والا ان ترفع شعارات وتتبع مسالك طبقية ، وامام الحلف المتين المعبر عن نفسه يوميا بين مجتمع الغزو الذي بناه الصهيونيون في فلسطين وبين الامبريالية البريطانية لم يكن من الممكن تغييب اولوية السمة القومية لذلك النضال، وامام الحمى الدينية المهولة التي ارتكز عليها الغزو الصهيوني لفلسطين والتي التصقت بكل مظاهره كان من المستحيل الا يتمترس الريف الفلسطيني المتخلف وراء التعصب الديني ، كمظهر من مظاهر معاداة الغزو الامبريالي والصهيوني(*).

ولقد تقدمت القيادات الاقطاعية ـ الاكليركية للتربع على رأس حركة الجماهير ، مستفيدة من ضمور البورجوازية العربية المدينية ، ومن الحد المعين من التناقض الذي كان يحتدم بينها وبين الامبريالية البريطانية التي كانت ترسي نفوذها عبر حلفها مع الحركة الصهيونية ، ومن صفاتها الدينية ، ومن صغر حجم البروليتاريا العـربية وضمور حزبهـا الشيوعي الذي لم يكن فقط تحت هيمنة الزعامـة اليهودية ولكن الذي تعرضت عناصره العربيـة الى بطش وارهاب القيادات الاقطاعية منذ اواخر العشرينات . امام هذه الخلفية المركبة ، التـي تحتدم فيها تناقضات متداخلة شديدة التعقيـد ، خطت ثورة ١٩٣٦ الى الصف الامامي في تاريخ فلسطين.

الثـــورة

يتسابق الكثير من المؤرخين في اعتبار حـادث معين وقع في مكان معين هو السبب في انفجار ثـورة ١٩٣٦ : يعتقد يهـودا بوير ان الحادث الـذي « يعتبر عموما بداية اضطرابات ١٩٣٦ » حـدث في ١٩ نيسان ١٩٣٦ حين « هاجمت حشود مـن العرب في يافا المارين اليهود »(٥٩). ويعتبر عيسى السفري(٦٠) وصالح مسعـود ابو يصيـر(٦١) وصبحي ياسين(٦٢) ان الشرارة الاولى انما كانت قيام عصابة عربية مجهولة (يقول صبحي ياسين انها كانت عصابة قسامية منها فرحان السعـدي ومحمود ديراوي) بنصب كمين لسيارات كانت تعبر بين عنبتا وسجن نور شمس ، بلغ عددها ١٥ ، فسلبت الركاب اليهود والعـرب على السـواء اموالهم ، والقى احد الافراد الثلاثة من العصابة خطبة موجزة في الركاب العرب الذين كانوا اكثرية الركاب ، كما يقول السفـري ، تضمنت القـول بان الثورة قد بدأت و « اننا نأخذ اموالكم لكـي نستطيع ان نحارب العدو وندافع عنكـم »(٦٣). ويرى الدكتـور عبد الوهـاب الكيـالي(٦٤) ان الشرارة الاولى انفجرت قبل ذلك ، اي في شباط ١٩٣٦ ، حين تألفت حامية من العمال العـرب طوقت احدى المدارس التي كـان مقاولون مـن اليهود يقومون ببنائها بواسطة ايد عاملة يهودية فقط في يافا . الا ان جميع المصادر تعتبر عن حق ان الانتفاضة القسامية التي فجرها الشيخ عـز الدين القسام كانت هي البداية الحقيقية لثـورة ١٩٣٦ . على ان تقرير اللجنة الملكية البريطانية (اللورد بيل)(٦٥) ، وهو التقرير الذي يعتبـره يهودا بوير من انضج مـا كتب عـن المسألـة الفلسطينية حتى الان ، يقفز فوق هذه التعابيـر المباشرة عن الانفجار ، ويرد الاسباب في انفجـار الثورة الى سببين رئيسيين هما : رغبة العرب في نيل الاستقلال القومي ، وكرههـم لانشاء الوطن القومي اليهودي وتخوفهم منه . وهذان السببان ،

(*) تقول مجلة « متسبن » اليسارية العبرية في عددها رقم ٥٨ الصادر في نيسان ١٩٧١ ، تعليقا على ظهور حركة الفهود السـود في اسرائيل : « تميل التناقضات الطبقية في اسرائيل ، في بعض الاحيان ، الى الظهور بمظهر تناقضات طائفية ـ ان المطالب الطبقية ، حتى وهي تترجم الى لغة طائفية ، تمس منذ لحظة البداية قلب الصهيونية في الصميم ». طبعا تنطبق صحة هذا القول بصورة مضاعفة على الدور الذي لعبه الدين ضد الغزو الصهيوني ، بصفته اضطهاد قومي وطبقي في آن واحد . وعلى سبيل المثال فقد « كان من ثمرات الغزو الصهيوني ... ان تحولت الموالد النبوية الى مهرجانات قومية بتدبير من مفتي حيفا والشاعر وديع البستاني ، وكان يحضر الحفلـة جميـع الرؤساء الروحيين واعيان النصارى ، ولم يكن يدعى اليهودي اليها قط ، وهكذا اصبحت الموالد، الاسلامية والمسيحية ، اعيادا شعبية تقام بمظهر قومي في مدن فلسطين » .

كما نلاحظ بسهولة ، هما في الواقع سبب واحد ، وتبدو العبارات التي صيغ بها فضفاضة ولا تقود الى اي معنى واضح . ولكن اللورد بيل يضع ما يسميه بـ « عوامل ثانوية » ساعدت على نشوب « الاضطرابات » وهي : ١ — انتشار الروح القومية العربية خارج فلسطين . ٢ — ازدياد هجرة اليهود منذ سنة ١٩٣٣ . ٣ — الفرصة المتاحة لليهود بالتأثير على الراي العام في بريطانيا . ٤ — عدم ثقة العرب في اخلاص حكومة بريطانيا . ٥ — فزع العرب من استمرار شراء الاراضي من قبل اليهود . ٦ — عدم وضوح المقاصد النهائية التي ترمي لها الدولة المنتدبة . اما قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك ، فان فهمها لاسباب الثورة يمكن استنباطه من الشعارات الثلاثة الاساسية التي كانت تتوج بها مجموع مطالبها ، وهي : ١ — الوقف الفوري للهجرة اليهودية . ٢ — حظر نقل ملكية الاراضي العربية الى اليهود . ٣ — اقامة حكومة ديمقراطية يكون النصيب الاكبر فيها للعرب وفقا لغالبيتهم العددية(٦٦). على ان هذه الشعارات ، بالصيغ الفضفاضة التي كان يجري من خلالها ترددها ، ظلت غير قادرة على التعبير عن حقيقة الموقف ، والواقع انها كرست الى حد بعيد هيمنة القيادة الاقطاعية على الحركة الوطنية .

ان الاسباب الحقيقية للثورة ، في الواقع ، هي وصول حدة التناقض في عملية انتقال المجتمع الفلسطيني من الاقتصاد الزراعي — الاقطاعي — الاكليريكي ، العربي الى الاقتصاد الصناعي البورجوازي اليهودي (الغربي) الى ذروتها ، كما رأينا في الصفحات السابقة . ان عملية تعميق حالة الاستعمار وتجذيرها ، ونقلها من حالة الانتداب البريطاني الى حالة الاستعمار الاسكاني الصهيوني ، وصلت الى ذروتها ، كما رأينا ، في منتصف الثلاثينات ، والواقع ان قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية قد ارغمت على تبني شكل الكفاح المسلح لانه لم يعد بوسعها ان تظل متربعة على سدةهذه القيادة في وقت وصل فيه التناقض الى شكل صدامي حاسم . وقد لعبت عوامل متناقضة ومختلفة في دفع القيادة الفلسطينية انذاك الى تبني شكل الكفاح المسلح : اولا : حركة عز الدين القسام . ثانيا : سلسلة الاخفاقات التي منيت بها هذه القيادة طيلة فترة تكلسها فوق رأس الحركة الجماهيرية ، حتى فيما يتعلق بالمطالب الجزئية الصغيرة التي لا يترددالمستعمرون عادة في تلبيتها لغرض امتصاص النقمة (وقد ادرك البريطانيون متأخرين هذه الامكانية التي خلف من الحاحها بالنسبة لهم وجود العميل الصهيوني الاكفأ) ثالثا : العنف اليهودي (الحاميات — شعار اليد العاملة اليهودية فقط — الخ) مضافا الى العنف الاستعماري (الطريقة التي قمعت فيها انتفاضة ١٩٢٩) .

ان الحديث عن ثورة ٣٦ — ١٩٣٩ يستلزم وقفة خاصة عند الشيخ عز الدين القسام ، فبالرغم من الكثير الذي كتب عنه الا انه بوسعنا ان نقول بان هذه الشخصية الفريدة ما تزال ، وربما ستظل ، شخصية مجهولة في الحقيقة . ان معظم الذي كتب عنه قد مسه من الخارج فحسب . وبسبب هذه السطحية في دراسة شخصيته لم يتردد عدد من المؤرخين اليهود في اعتباره «درويشا متعصبا»، فيما اهمله الكثيرون من المؤرخين الغربيين ، وفي الواقع يبدو ان الاخفاق في ادراك العلاقة الجدلية بين الدين والنوازع الوطنية في العالم المتخلف هو المسؤول عن التقليل من اهمية الحركة القسامية . ولكن مهما كان الرأي في افكار القسام ، فمما لا ريب فيه ان حركته (١٩٣٥/١١/١٢ — ١١/١٩/ ١٩٣٥) كانت نقطة انعطاف لعبت دورا مهما في تقرير شكل متقدم من اشكال النضال ، اذ انها وضعت زعامات الحركة الوطنية الفلسطينية التقليدية ، التي كانت قد انشقت على نفسها وتشتتت وتشرذمت،امام امتحان لا يمكن الفرارمنه. ولعل شخصية القسام تشكل في حد ذاتها نقطة التقاء رمزية لمجموعة هائلة من العوامل المتداخلة التي تشكل في مجموعها ما صار يسمى تبسيطا بالقضية الفلسطينية : فـ « سوريته » (هو من مواليد جبلة ، قضاء اللاذقية ، ١٨٧١) تمثيل للعامل القومي العربي في المعركة . و « ازهريته » (فقد درس في الازهر) تمثيل للعامل الديني — الوطني الذي كان يمثله الازهر في بداية القرن . و« نضاليته » (فقد اشترك في ثورة جبل حوران السورية ضد الفرنسيين من ١٩١٩ — ١٩٢٠ وحكم بالاعدام) هي تمثيل لوحدة النضال العربي . وقد جاء القسام مع الشيخ محمد الحنفي (المصري) والشيخ علي الحاج عبيد الى حيفا في ١٩٢١ ،

وبدأ لتوه العمل في انشاء حلقات سرية . ان ما يلفت النظر في النشاط القسامي عقله التنظيمي المتقدم ، وصبره الحديدي : فقد رفض عام ١٩٢٩ الاندفاع في الاعلان عن وجوده المسلح ، وبالرغم من ان هذا الرفض قد ادى الى انشقاق في تنظيمه، الا انه استطاع ان يظل متماسكا وسريا . ويقول احد القساميين المعروفين(٦٧) ان القسام برمج ثورته في اربع مراحل : الاعداد النفسي ونشر روح الثورة ، انشاء حلقات سرية ، تشكيل لجان لجمع التبرعات ولجان لشراء السلاح ، ولجان تدريب ، ولجان امن وتجسس ، ولجان دعاية واعلام ، ولجان اتصالات سياسية . ثم الثورة المسلحة .

ان معظم العارفين بالقسام يقولون ان خروجه الى تلال يعبد مع ٢٥ من رجاله ليل ١٩٣٥/١١/١٢ لم تكن غايته اعلان الثورة المسلحة ، ولكن نشر الدعوة للثورة ، الا ان اشتباكا عرضيا ادى الى انفضاح امر وجوده هناك ، وبالرغم من استبساله مع رجاله فقد قضت قوة بريطانية على مجموعته بسهولة ، ويبدو ان الشيخ القسام ، حين شعر بانه لم يعد بوسعه توسيع الثورة مع رفاقه ، رفع شعاره المشهور : « موتوا شهداء » . ومن حق القسام ان نفهم شعاره هذا فهما « فيغاريا » اذا جاز التعبير ، ولكن على المستوى الوطني العادي ، ان سلوك القسام من خلال الشهادات القليلة التي نملكها عنه تدل على انه كان يدرك اهمية دوره كمفجر لبؤرة ثورية امامية . وما لبث هذا الشعار ان اثمر على الفور : فقد شيعت الجماهير جثمان شهيدها مشيا على الاقدام الى قرية ياجور مسافة ١٠ كيلو مترات ، على ان اهم ما في الامر كان انفضاح القيادات التقليدية امام التحدي الذي مثله الشيخ القسام . وقد شعر هؤلاء القادة بهذا التحدي بنفس المقدار الذي شعر فيه الانتداب البريطاني . ويقول احد القساميين انه قبل ان يصعد القسام الى الجبال بشهور قليلة ارسل الى الحاج امين الحسيني بواسطة الشيخ موسى العزراوي يطلب منه التنسيق لاعلان الثورة في جميع انحاء البلاد ، الا ان الحسيني رفض ، بحجة ان الظروف لم تنضج بعد (٦٨). وعندما استشهد القسام لم يسر في جنازته الا الفقراء ، واتخذ الزعماء موقفا فاترا ما لبثوا ان ادركوا خطأه ، فقد شكل استشهاد القسام حدثا بارزا لم يكن بوسعهم تجاوزه بالتجاهل ، والدليل على ذلك ان ممثلي الاحزاب الفلسطينية الخمسة قاموا بزيارة المندوب السامي البريطاني بعد ستة ايام فقط من استشهاد القسام ، وقدموا له مذكرة لعلها من اندر المذكرات صفاقة ، فقد اعترفوا بـ « انهم اذا لم يتلقوا عن مذكراتهم هذه جوابا يمكن اعتباره بصورة عامة مرضيا ، فانهم سيفقدون كل ما يملكونه من نفوذ على اتباعهم ، وعندئذ تسود الاراء المتطرفة غير المسؤولة ، وتتدهور الحالة سريعا »(٦٩). فمن الواضح انهم كانوا يريدون توظيف ظاهرة القسام لتحقيق خطوة الى الوراء . على ان الشهيد القسام كان قد فوت عليهم ، بالشكل النضالي الذي ترره ، فرصة التراجع ، وهذا في الواقع ما يفسر اختلاف موقف الزعماء الفلسطينيين من استشهاد الشيخ القسام فور حدوثه عن موقفهم في الاحتفال الاربعيني باستشهاده ، فقد اكتشفوا خلال هذه الايام الاربعين انهم اذا لم يحاولوا ركوب الموجة الشامخة التي فجرها القسام ،فانها ستطويهم ، ولذلك قفزوا من الفتور في جنازته ، الى المهرجانات والخطابات في اليوم الاربعين لاستشهاده .

ويبدو ان الحاج امين الحسيني سيظل فيما بعد شاعرا بهذه الثغرة ، وحتى بعد اكثر من عشرين سنة ستظل مجلة « فلسطين » الناطقة بلسان الهيئة العربية العليا ، تحاول الايحاء بان الحركة القسامية انما كانت جزءا من نشاط الحركة التي كان يقودها المفتي ، وان هذا الاخير والقسام ، كانا « اصدقاء شخصيين »(٧٠).

اما البريطانيون فقد رووا قصة القسام في تقريرهم السنوي الذي جرى تقديمه الى لجنة الانتدابات في جنيف عن وقائع ١٩٣٥ كما يلي : « انتشرت في الجو اشاعات عن عصابة للارهاب تألفت بوحي من عوامل سياسية دينية ، وفي يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٣٥ كان جاويش ونفر من البوليس يقتفيان اثر سرقة في هضاب قضاء الناصرة فاطلق مجهولون النار فقتلوا الشاويش ... وسرعان ما ادى هذا الحادث الى اكتشاف عصابة كانت في ذلك الجوار تحت قيادة عز الدين القسام ، وهو لاجيء سياسي من سوريا ، وهو ذو مكانة ليست بالقليلة كرجل من رجال الدين ، وقد اشتبه به اشتباها قويا قبل ذلك ببضع سنوات، وقيل ان له

ضلعا في اعمال ارهابية . ولقد حضر جنازة الشيخ القسام في حيفا جمع غفير جدا ، وبالرغم من الجهود التي بذلها كبار المسلمين في توطيد النظام اثناء الجنازة الا انه وقعت مظاهرات وقذف احجار ، وبعثت وفاة القسام موجة قوية من الشعور في الدوائر السياسية وغيرها في البلاد، واتفقت اراء الصحف العربية على تسميته بالشهيد فيما كتبته عنه من المقالات ..»(٧١).

وقد شعر البريطانيون بدورهم بالتحدي الذي مثله استشهاد القسام ، وحاولوا بدورهم شد عقارب الساعة الى الوراء ، ولذلك كان رأي المندوب السامي البريطاني الذي كتبه لوزير المستعمرات في تلك الفترة بانه ما لم تلب مطالب الزعماء العرب « فانهم سيفقدون ما يملكونه من نفوذ وتختفي بالتالي امكانات تهدئة الحالة الحاضرة بالوسائل المعتدلة التي اقترحها »(٧٢). ولكن اعادة عقارب الزمن الى الوراء كانت مستحيلة ، فحركة القسام كانت تعبيرا في الواقع عن الشكل الطبيعي القادر على معالجة ازدياد التناقض وحسمه ، وسرعان ما انعكست في عدد من اللجان والتجمعات ،وصار يتعين على القيادة التقليدية ان تختار بين الوقوف في وجه ذلك التصاعد في ارادة القتال لدى الجماهير ، او في امتصاص هذه الرغبة والتكلس فوقها. وبالرغم من ان البريطانيين تحركوا بسرعة، فعرضوا فكرة اقامة مجلس تشريعي وفكرة الحد من بيع الاراضي الا ان ذلك جاء متأخرا ، واسهمت الحركة الصهيونية التي بدأت في تلك الفترة تبلور ارادتها بصورة قوية في اضعاف فاعلية العرض البريطاني ، ومع ذلك فان قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية لم تكن قد حسمت موقفها بعد ، وكان تذبذبها بارزا بصورة تدعو للدهشة ، وحتى ٢ نيسان ١٩٣٦ كان ممثلو الاحزاب الفلسطينية مستعدين لتشكيل وفد للذهاب الى لندن لطرح وجهة نظرهم امام الحكومة البريطانية. وقد انفجر الموقف قبل ان تقرر قيادة الحركة الوطنية تفجيره . فحين اندلعت شرارة شباط ١٩٣٦ في يافا كان زعماء الحركة الوطنية الفلسطينية يعتقدون انه ما زال بوسعهم ان يكسبوا من بريطانيا مطالب جزئية من طريق المفاوضات . ولكن الاحداث التالية فاجأتهم : ان جميع المقربين من احداث نيسان ١٩٣٦ يعترفون بان اندلاع العنف ، والعصيان المدني ، كان عفويا ، واذا استثنينا الاعمال التي حركها بقايا القساميين ، فان كل ما حدث كان تعبيرا عفويا من المستوى الحرج الذي وصله التناقض . وحتى عند اعلان الاضراب العام في ١٩ نيسان ١٩٣٦ كانت زعامة الحركة الوطنية متخلفة عنه ، ولكنها سرعان ما تعلقت بالقطار قبل ان يفوتها ، ونجحت — للاسباب التي ذكرناها في تحليل الوضع الاجتماعي السياسي في فلسطين انذاك — بالسيطرة على الحركة الوطنية .

كانت الحركة الوطنية الفلسطينية ممثلة ، من الناحية التنظيمية ، في عدد من الاحزاب هي في مجملها الافرازات التي نبتت عن الحركات التي نشأت ضد العثمانيين منذ اوائل القرن ، وهذا يعني انها — من جهة — لم تكن متمرسة بالنضال الاستقلالي (مثلما كان الحال في مصر مثلا) ويعني — من جهة اخرى — انها كانت اطارات عامة ، دون مبادىء محددة ، تحكمها شلل من الوجهاء ، وتعتمد على ولاءات متحدرة اليها من نفوذها الديني او الاقطاعي او الوجاهي ، ولكنها لم تكن احزابا لها قواعد منظمة . وفيما عدا القسام نفسه (والشيوعيون طبعا) فان احدا من زعماء الحركة الوطنية الفلسطينية في هذه الفترة لم يكن مسلحا بعقل تنظيمي . اما الحاج امين الحسيني ، الذي كان يمتلك قدرات ادارية نادرة فقد كان عقله بعيدا عن العقل التنظيمي بالمعنى النضالي . وان المسؤوليات التنظيمية ظلت في معظم الوقت مواهب فردية في اللجان الفرعية والكادر الاوسط ، وغالبا ما كانت تعجز عن تحويل كفاءاتها الى قوانين . عشية الثورة كان وضع ممثلي الحركة الوطنية في فلسطين كالتالي : فمع انحلال اللجنة التنفيذية العربية في آب ١٩٣٤ برزت ٦ مجموعات :
١ — الحزب العربي الفلسطيني ايار ١٩٣٥ ، يرئسه جمال الحسيني ، وهو ممثل تقريبا لسياسة المفتي ويمثل الاقطاعيين وكبار تجار المدن .
٢ — حزب الدفاع الوطني ، يرئسه راغب النشاشيبي ، وتأسس في كانون الاول ١٩٣٤ ، وهو يمثل البورجوازية المدينية الناشئة ، وكبار الموظفين . ٣ — حزب الاستقلال الذي كان قد تأسس عام ١٩٣٢ برئاسة عوني عبد الهادي ، وهو يجمع المثقفين والبورجوازية الوسطى وبعض قطاعات البورجوازية الصغيرة ، وساعد ذلك على

بروز دور خاص للجناح اليساري فيه . ٤ — حزب الاصلاح الذي اسسه الدكتور حسين الخالدي في آب ١٩٣٥ ، وهو ممثل لعدد من المثقفين . ٥ — حزب الكتلة الوطنية الذي يرئسه عبداللطيف صلاح . ٦ — حزب الشباب الفلسطيني الذي يرئسه يعقوب الغصين .

ان هذا التعدد في فصائل العمل الوطني كان شكليا ، ولم يكن يعبر تعبيرا واضحا وحاسما عن الخارطة الطبقية في البلاد ، فالاكثرية الساحقة من الجماهير لم تكن ممثلة فيه (يقول نيفيل باربور ان ٩٠ بالمئة من الثوار كانوا فلاحين يعتبرون انفسهم متطوعين). واذا نظرنا الى التوزيع الطبقي في فلسطين في ١٩٣١ نرى ان ٥٩ بالمئة من العرب كانوا فلاحين (١٩،١ بالمئة من اليهود) و ١٢،٩ بالمئة من العرب يعملون في البناء والصناعة والتعدين (٣٠،٦ بالمئة من اليهود) و ٦ بالمئة من العرب يعملون في المواصلات ، و ٨،٤ بالمئة بالتجارة ، و ١،٣ بالمئة في الادارة .. الخ(٧٣). ان ذلك يعني بان الغالبية الساحقة من السكان لم تكن ممثلة في هذه الاحزاب التي بالرغم من انها تمثل الاقطاع ورجال الدين والكومبرادورية المدينية وقطاعات معينة من المثقفين فقد كانت دائما خاضعة في تحالفها لزعامة المفتي وطبقته ، هذه الطبقة التي مثلت الاقطاع — الاكليريكي والتي كانت اكثر وطنية من الزعامة التي مثلت البورجوازية المدينية . اما البورجوازية المدينية فقد مثلها الافندية في فترة كانوا يتجهون فيها نحو توظيف اموالهم في الصناعة والاعمال (وقد تبلور هذا الاتجاه بعد هزيمة ثورة ٣٦ — ١٩٣٩). وكانت البورجوازية الصغيرة بالاجمال، (التجار الصغار واصحاب الدكاكين والمعلمون والموظفون واصحاب الحرف) دون زعامة، وكانت، كطبقة ، غير ذات نفوذ وغير ذات اهمية تحت الحكم التركي الذي اعتمد على طبقة الافندية التي اعطاها الاتراك حق الحكم المحلي بصفتها نمت حول الارستقراطية الاقطاعية . اما الحركة العمالية فقد كانت ضعيفة وناشئة ، ومع ذلك تعرضت الى عسف السلطة من جهة اولى ، والمنافسة الساحقة للبروليتاريا والبورجوازية اليهودية من جهة ثانية ، ولاضطهاد زعامة الحركة الوطنية العربية من جهة ثالثة .

وقبل تشكيل اللجنة العربية العليا في ٢٥ نيسان ١٩٣٦ برئاسة الحاج امين الحسيني ، كان جمال الحسيني زعيم الحزب العربي مستاء من نمو اعتقاد لدى الناس بان الانكليز هم العدوالحقيقي، وكان حزب الدفاع الوطني الذي يمثل بالدرجة الاولى الكومبرادور المديني النامي غير ميال اصلا للصدام مع البريطانيين صداما مفتوحا . قبل ذلك بيومين اثنين فقط ، اي في ٢٣ نيسان ١٩٣٦ ، القى وايزمان ، زعيم الحركة الصهيونية آنذاك ، خطابا في تل ابيب وصف فيه الصراع العربي — الصهيوني ، الاخذ في التفجر ، بانه صراع بين عناصر الهدم وعناصر العمران ، واضعا بهذا الوصف القوى الصهيونية في مكانها من الالة الاستعمارية عشية الصدام المسلح . كان ذلك هو الموقف على طرفي الميدان عشية الثورة !

في الريف اتخذت الثورة طابع العصيان المدني والعصيان المسلح ، وتقاطر المئات من المسلحين للالتحاق بالعصابات التي اخذت تنتشر في الجبال ، وكان الامتناع عن دفع الضرائب قد اقر في مؤتمر ٧ ايار ١٩٣٦ الذي عقد في كلية روضة المعارف الوطنية في القدس وحضره حوالي ١٥٠ مندوبا يمثلون عرب فلسطين ، وان استعراضا بسيطا لاسماء المؤتمرين كما اوردها عيسى السفري(٧٤) يدل بانه قد تم في هذا المؤتمر بالذات تكريس قيادة الحركة الجماهيرية لحلف واه بين الزعامات الاقطاعية الدينية وبين البورجوازية التجارية المدينية وبين عدد محدود من المثقفين ، وكان القرار الذي اتخذ في هذا المؤتمر موجزا ، ولكنه يعبر تعبيرا واضحا عن المدى الذي كانت قيادة من هذا النوع قادرة على الذهاب اليه :

« قرر المؤتمر بالاجماع اعلان الامتناع عن دفع الضرائب اعتبارا من يوم ١٥ ايار (١٩٣٦) الحالي ، اذا لم تغير الحكومة البريطانيةسياستها تغييرا اساسيا تظهر بوادره بوقف الهجرة اليهودية ».

لقد وجه البريطانيون ضربتهم ، في الرد على العصيان المدني والعصيان المسلح، نحو مفصلين: الاول الكادر التنظيمي الذي كان بالاجمال اكثر ثورية من القيادة ، والثاني الجماهير الفقيرة المشتركة في الثورة والتي لم تكن تتمتع في الحقيقة الا بحماية سلاحها ذاته . ذلك يفسر الى حد بعيد ان العنصرين الوحيدين اللذين يتمتعان بكفاءة تنظيمية نسبية في قيادة الثورة ، وهما عوني عبد

الهادي ومحمد عزة دروزة ، قد جرى اعتقالهما ، فيما لم يتعرض الاخرون الى اعتقال او مضايقة تصل الى حد الشل الكلي ، ويدل على ذلك انه تم اعتقال ٦١ مناضلا عربيا من المسؤولين عن تنظيم الاضراب (الكادر الوسط) ، وذلك في ٢٣ ايار ، الا ان هذا الاعتقال لم يمنع بريطانيا من منح تأشيرة سفر الى اربعة من زعماء الثورة ، هم جمال الحسيني وشبلي الجمل وعبد اللطيف صلاح والدكتور عزت طنوس للسفر الى لندن ومقابلة وزير المستعمرات وذلك في ١٢ حزيران . ومثل هذا الحادث الذي سيتكرر باطراد طيلة الاشهر والسنوات التالية ليس غريبا ، فقد كان المندوب السامي البريطاني يلاحظ بارتياح شديد ان « خطب يوم الجمعة قد اقترنت بدرجة من الاعتدال تفوق بكثير ما كنت اتوقعه ، في وقت بلغت فيه حدة المشاعر عمقا كبيرا ، والفضل في ذلك يعود بالدرجة الاولى الى المفتي»(٧٥).

لقد تبلور الموقف منذ البدء بان اعتبرت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية الثورة الجماهيرية مجرد ضاغط يهدف الى تحسين اوضاعها كطبقة لدى الاستعمار البريطاني ، وقد ادرك البريطانيون هذا الواقع ادراكا عميقا وتصرفوا وفقه ، ولكنهم مع ذلك لم يكلفوا انفسهم عناء منح تلك الطبقة الامتيازات التي كانت تطمع لها ، فقد كانت لندن مصرة على تلبية التزاماتها ازاء تسليم الارث الاستعماري في فلسطين للحركة الصهيونية ، وعلى العكس تماما ، فان سنوات الثورة ٣٦ — ٣٩ كانت السنوات التي رمى الاستعمار البريطاني بثقله ، خلالها ، لانجاز مهمة تصليب الوجود الصهيوني وابقائه على قدميه كما سنرى فيما بعد . وقد نجح البريطانيون في تحقيق ذلك من خلال وسيلتين : الاولى هي ضرب فقراء الفلاحين الثائرين بعنف لا مثيل له ، والثانية استخدام نفوذهم الواسع لدى الانظمة العربية ، التي لعبت دورا كبيرا في تصفية الثورة : **من الجهة الاولى** لعب قانون الطوارىء البريطاني دوره بفعالية ، ويورد السفري مجموعة احكام صدرت آنذاك للتدليل على عسف هذا القانون : « ست سنوات حبس لحيازة مسدس — ١٢ سنة لحيازة قنبلة — خمس سنوات مع الاشغال الشاقة لحيازة ١٢ رصاصة — ٨ اشهر بتهمة تضليل فريق من الجند عن الطريق — تسع سنوات بتهمة حيازة مفرقعات — ٥ سنوات لمحاولة شراء ذخيرة من الجنود — اسبوعان حبس لحيازة عصا»... الخ(٧٦). ووفق تقدير بريطاني قدم الى عصبة الامم فان عدد القتلى العرب خلال ثورة ١٩٣٦ يبلغ حوالي الالف ، هذا عدا عن الجرحى والمفقودين والمعتقلين . واستخدم البريطانيون سياسة نسف البيوت على نطاق واسع ، فبالاضافة الى عملية نسف وهدم جزء من مدينة يافا (١٨ حزيران ١٩٣٦) ويقدر عدد البيوت التي نسفت فيها بـ ٢٢٠ وعدد الذين شردوا نتيجة النسف بـ ٦ الاف نسمة ، نقول ، بالاضافة الى ذلك جرى هدم مئة تخشيبة في الجبالية و ٣٠٠ في ابو كبير و ٣٥٠ في الشيخ مراد و ٧٥ في عرب الداودي ، ومن الواضح ان سكان الاحياء التي هدمت في يافا ، والتخشيبات في ضواحيها هم من فقراء الفلاحين الذين هجروا الريف الى المدن ، اما في القرى فقد عدد السفري حوالي ١٤٣ بيتا جرى نسفها لاسباب تتعلق مباشرة بالثورة (٧٧). وهذه البيوت تخص فقراء الفلاحين وبعض الفلاحين المتوسطين وعددا يسيرا جدا من العائلات الاقطاعية . **ومن الجهة الثانية:** بدأ الامير عبدالله امير شرق الاردن ، ونوري السعيد ، نشاطهما للتوسط لدى الهيئة العربية العليا ، الا ان هذه الوساطات لم تفلح بالرغم من استعداد الزعامات لتلبيتها ، ولكن الحركة الجماهيرية كانت حتى ذلك الوقت (آب ١٩٣٦) غير قابلة للتدجين بعد ، على ان هذه الاتصالات اثرت تأثيرا سلبيا على الثورة ، وتركت في الجو شعورا بان التناقض القائم هو تناقض قابل للتسوية ، وبالفعل فان هذه البداية التي بدت فاشلة ستحقق نجاحا كاملا في تشرين الاول من العام نفسه ، اي بعد حوالي ستة اسابيع فقط ! على ان هذه الصلات لم تكن الشكل الوحيد لجدلية العلاقات بين فلسطين والبلدان العربية المجاورة ، فقد كانت هذه الجدلية اكثر تعقيدا ، وتعكس مجمل التناقضات المركبة ، وكنا قد لاحظنا ما مثله التسام في هذا المجال ، والواقع ان الظاهرة القسامية بهذا المعنى استمرت بالحدوث ، فقد تدفق الى فلسطين عدد كبير من المناضلين العرب مثل سعيد العاص (الذي استشهد في تشرين الاول ١٩٣٦) والشيخ محمد الاشمر وغيرهما الكثير ، على ان التدفق هذا شمل ايضا عددا من الضباط الوطنيين المغامرين ، وابرز هؤلاء

كان فوزي القاوقجي الذي ما لبث بعد دخوله الى فلسطين في آب ١٩٣٦ ، على رأس عصابة صغيرة ، ان اعلن نفسه قائدا عاما للثورة . وبالرغم من ان هؤلاء قاموا بتحسين تكتيكات الثوار وتوسيعها الا ان العبء الاكبر من العنف الثوري في الريف ، والعمل الفدائي في المدن ، ظل يتحمله الفلاحون المعدمون بالدرجة الاولى . والواقع ان « الضباط » الذين بزغوا من صفوف الفلاحين انفسهم ظلوا هم الذين يلعبون الدور الرئيسي ، ولكن معظمهم كان يخضع لقيادة المفتي، ومع ذلك فهم الذين يمثلون البطولة الاسطورية للجماهير في هذه الثورة .

وبالرغم من ان الموظفين البريطانيين في فلسطين لم يكونوا يوافقون تماما على سياسة لندن ، المستميتة في دعم الحركة الصهيونية ، والذين كانوا يرون ان هناك متسعا لزعامة طبقية عربية ليست مرتبطة المصلحة بالثورة ، للتعامل مع الاستعمار ، الا ان بريطانيا قررت كما يبدو ، نهائيا ، في ١٩ حزيران ١٩٣٦ « اهمية الارتباط العضوي بين سلامة المصالح البريطانية وبين نجاح الصهيونية في فلسطين »(٧٨). وقررت بريطانيا دعم قوتها في فلسطين ، وزيادة اجراءاتها القمعية هناك .

وقد تزعزعت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية وفقدت اعصابها وانتابها الخوف في اعقاب ذلك القرار ، وسارع الحاج امين الحسيني وراغب النشاشيبي وعوني عبد الهادي لمقابلة المندوب السامي البريطاني ، ويبدو من تقارير بعث بها المندوب المذكور انذاك الى حكومته ان هؤلاء هم الذين شددوا بالايحاء بانهم مستعدون لانهاء الثورة « اذا طلب منهم ملوك العرب ذلك ». الا ان هؤلاء لم يجرؤوا قط على الاعتراف امام الجماهير بانهم هم اصحاب تلك الفكرة الملتوية بل كرروا نفيها عدة مرات . واثر ذلك تدفقت اعداد كبيرة من الجنود البريطانيين تقدر بعشرين الف جندي الى فلسطين ، وفي ٣٠ ايلول ١٩٣٦ بعد استكمال وصول القوات البريطانية ، صدر مرسومبالاحكام العرفية ، وضاعفت سلطة الانتداب خطها القمعي المتصلب . وقد شهد ايلول وتشرين الاول اعنف المعارك ، وهي المعارك الاخيرة في الواقع التي شملت جميع انحاء فلسطين تقريبا آنذاك .

وفي ١٩٣٦/١٠/١١ وزعت اللجنة العربية العليا بيانا يطلب انهاء الاضراب ، وبالتالي الثورة ، « ولما كان الامتثال لارادة اصحاب الجلالةوالسمو ملوك العرب ، والنزول على ارادتهم ، منتقاليدنا العربية الموروثة ، وكانت اللجنة العربية العليا تعتقد اعتقادا جازما ان اصحاب الجلالة والسمو لم يأمروا ابناءهم الا لما فيه مصلحتهم وحفظ حقوقهم ، لذلك فاللجنة العربية العليا ، امتثالا لارادة اصحاب الجلالة والسمو الملوك والامراء ، واعتقادا منها بعظم الفائدة التي تنجم عنتوسطهم ومؤازرتهم ، تدعو الشعب العربي الكريم الى انهاء الاضراب والاضطراب انفاذا لهذه الاوامر السامية التي ليس لها من هدف الا مصلحة العرب»(٧٩). بعد ذلك بشهر واحد بالضبط (في ١٩٣٦/١١/١١) تعلن « القيادة العامة للثورة العربية في سوريا الجنوبية — فلسطين » في بلاغ وقعه فوز الدين القاوقجي ، انها « تطلب توقيف اعمال العنف تماما ، وعدم التحرش باي شيء يفسد جو المفاوضات التي تأمل فيها الامة العربية الخير ، ونيل حقوق البلاد كاملة »(٨٠). وبعد عشرة ايام تصدر القيادة المذكورة بيانا اخر يعلن « ترك الميدان اعتمادا على ضمانة الملوك والامراء العرب وحفظا لسلامة المفاوضات»(٨١). ويقول جميل الشقيري : « فطوعا لاوامر الملوك والامراء انحل الاضراب ، واوقفت اعمال الثورة بظرف ساعتين على اعلان النداء »!(٨٢).

ورغم أن بريطانيا قامت في تلك الفترة بتحدي القيادات الفلسطينية بالضبط في النقطة التي خدعوا فيها الجماهير ، وهي المتعلقة بموضوع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وان هذه القيادات قررت مقاطعة اللجنة الملكية (لجنة بيل) الا ان الملوك والامراء العرب ارغموا هذه القيادات ، مرة اخرى في أقل من ثلاثة شهور ، على الطاعة. فقد كتب الملك عبد العزيز آل سعود والملك غازي رسائل الى الحاج امين الحسيني تقول : « ... وبالنظر لما لنا من الثقة بحسن نية الحكومة البريطانية في انصاف العرب ، فقد رأينا ان المصلحة تقضي الاتصال باللجنة الملكية » . على أن هذا الحادث ، الذي يبدو جزئيا ، مزق ذلك التحالف في قيادة الحركة الوطنية ، اذ ان القوى التي كانت تقف الى يمين الحاج امين الحسيني ، والتي يتزعمها حزب الدفاع ، سارعت الى معارضة قرار مقاطعة لجنة بيل ، وابدى الحزب عدة

دلائل تشير الى رغبته في قبول مشروع التسوية التي كانت بريطانيا ستعرضه ، وقد استند زعماء هذا الحزب ، الذي كان يمثل بالدرجة الاولى افندية المدن ، الى التذمر الذي اصاب كبار التجار العرب في المدن نتيجة الاضراب ، والى التخلخل الذي طرأ على مصالح البورجوازية المدينية التي كانت تعتمد على علاقات اقتصادية وطيدة ممثلة بوكالاتهم عن الصنا. البريطانية وأحيانا اليهودية .

وساندت الانظمة العربية ، خصوصا نظام شرق الاردن ، موقف هذا اليمين بكل قوة ، ولم يكن عند الحاج امين الحسيني وما يمثله اي حافز للميل الى جهة اليسار الذي كان عمليا قد بدأ يعمل على تصفيته ، وهكذا شرع موقفه يزداد تذبذبا وترددا ، وبدا انه اضحى في موقع لا يستطيع معه المضي بالثورة ولا حتى خطوة الى الامام ، كما أن التراجع الى الوراء لم يعد يفيده ، ومع ذلك فحين اعتقد البريطانيون ان تصفية المفتي سياسيا اضحت ممكنة خلال فترة الهدوء التي اعقبت انهاء الاضراب اكتشفوا أن ذلك ليس صحيحا ، وان يمين المفتي ما زال اضعف بكثير من ان يضبط الموقف ، واستمر المندوب السامي البريطاني ، بخبث ، يدرك ضخامة الدور الذي يستطيع المفتي لعبه وهو محصور بذلك الموقف بين حزب الدفاع عن يمينه وحزب الاستقلال (جناحه اليساري) وحركات الشبيبة المتقفة عن يساره ، كان هذا المندوب السامي يدرك قدرة بريطانيا على الاستفادة من الهامش الواسع القائم بين « صلابة القرويين الذين قاومونا ستة اشهر وهم يتلقون اجورا ضئيلة ولا يقدمون على النهب » وبين « ضعف او انعدام الصفات القيادية العظيمة لدى اعضاء اللجنة (العربية العليا) العشرة »(٨٣). وقد اتضحت صحة نظرة المندوب السامي الى الدور المحدود الذي يستطيع يمين المفتي ان يلعبه حين عجز حزب الدفاع عن الوقوف بوضوح امام تقرير لجنة بيل الذي صدر في ٧ تموز ١٩٣٧ والذي اقترح التقسيم وانشاء دولة يهودية . وقد اتضحت في الوقت ذاته ، ايضا ، ان خشية المندوب السامي من أن يؤدي ضغط اولئك الذين يقفون على يسار المفتي الى افتقاده اعتداله لم تكن خشية بلا اسباب ، على ان ذلك الضغط لم يحدث من قبل الجهة التي توقعها المندوب السامي ، بل من قبل الكادر الاوسط الذي كان ما يزال ممثلا في اللجان القومية ، والذي كان يمثل يوميا بأفواج من الفلاحين المعدمين والعمال العاطلين عن العمل في المدن والارياف . وهكذا لم يكن أمام المفتي الا ان يهرب الى الامام ، فقد تجنب الاعتقال بأن اعتصم في الحرم الشريف ، ولكن الاحداث دفعته الى موقع لم يكن ليستطيع الوقوف فيه قبل ذلك بعام . ففي ايلول ١٩٣٧ اطلق أربعة من الفدائيين المسلحين النار على اندروز ، حاكم الجليل ، فيما كان يخرج من الكنيسة الانغليكانية في الناصرة فأردوه قتيلا ، « لقد كان اندروز الرسمي الوحيد الذي ادار الانتداب وفق ما كان يعتبره الصهاينة صحيحا ، وقد فشل في كسب ثقة الفلاحين العرب » . كان العرب يعتبرونه صديقا لليهود ، وان مهمته هي تسهيل انتقال لواء الجليل الى الدولة اليهودية التي حددها مشروع التقسيم ، كان الفلاحون العرب يكرهونه ويتهمونه بتسهيل بيع اراضي الحولة ، أما الفدائيون الذين صرعوه فمن المعتقد انهم ينتمون لاحدى خلايا السرية التي كانت للقساميين(٨٤) .

ومع ان اللجنة العربية العليا استنكرت هذا الحادث في الليلة ذاتها ، الا ان الموقف ، تماما كما كان الامر عند استشهاد القسام ، كان قد خرج من بين أيدي المفتي وجماعته ، وكان عليهم اذا ما ارادوا البقاء على رأس الحركة الوطنية ، اللحاق بها وركب موجتها كما حدث في نيسان ١٩٣٦ . الا ان هذه المرة كانت الاندفاعة الثورية عند الجماهير أشد عنفا ، ليس فقط بسبب الخبرات التي اكتسبوها اثناء تجربة العام الماضي ، ولكن ايضا بسبب ازدياد وضوح التناقض القائم أمام اعينهم ، ومن المؤكد ان هذه المرحلة من الثورة قد اتجهت بصورة جوهرية ، ان لم نقل كلية ، ضد البريطانيين وليس ضد الصهيونيين ، وقد أفرز نمو التناقض المواقف افرازا اكثر حسما: هيمن الفلاحون كليا تقريبا على الثورة ، وتراجع دور البورجوازية المدينية قليلا الى الوراء ، واخذ أثرياء الريف وكبار الفلاحين المتوسطين يترددون في مساندة الثوار ، وانتقلت القوى الصهيونية الى حالة هجومية فعالة .

ان مسألتين هامتين في هذه المرحلة من الثورة ، ينبغي التوقف عندهما : **الاولى** : ان « العرب اتصلوا باليهود مقترحين التوصل معهم الى نوع من الاتفاق على أساس قطع العلاقات مع بريطانيا

قطعا تاما ، ولكن اليهود رفضوا ذلك على الفور لانهم يعتبـرون علاقاتهـم ببريطانيـا مسألـة جوهرية »(٨٥). وقد ترافق ذلك مع ارتفاع عـدد اليهود الذين يخدمون في البوليس في فلسطين من ٣٦٥ عام ١٩٣٥ الى ٦٨٢ عام ١٩٣٦ ، وفي اواخر ذلك العام اذنت الحكومة بتجنيد ١٢٤٠ يهوديـا كبوليس اضافي مسلح ببنادق حربية ، وارتفع العدد بعد شهر الى ٢٨٦٣ مجندا(٨٦). ولعب ضبـاط بريطانيون دورا بارزا في قيادة مجموعات يهودية للهجوم على قرى عربية . **والثانية** : ان وجود زعامة الثورة خارج فلسطين (في دمشق) قد جعل دور القيادات المحلية المنحدرة من أصل فلاحي فقير في معظمها دورا اكبر مما كان في الحقبة المنصرمة، وكان هؤلاء يرتبطـون مع الفلاحـين ارتباطـا وثيقا ، وذلك يفسر ، الى حد بعيد ، المدى الابعد الذي كان بوسع الثورة ان تصله . لقد برز في هذه الحقبة ، على سبيل المثال ، عبدالرحيـم الحاج محمد كقائد محلي ، ويقول الشيوعيون انهم كانوا يتصلون به ويزودونه بالمعلومات(٨٧). وكان مـن الممكن ان يشكل هذا التطور نقطة انعطاف تاريخية في الثورة لولا ضعف « اليسار » بمعناه النسبي ومعناه الحقيقي ، ولولا اضطرار هذه القيـادات المحلية للاحتفاظ بصلتها التنظيمية الى حد معـين مع « اللجنة المركزية للجهاد » في دمشق ، وذلك ليس فقط بسبب الولاء التقليدي لها ، ولكن ايضا بسبب اعتمادها بدرجة من الدرجات على تمويلها .

في تاريخ النضال الفلسطيني برمته لم تكن الثورة الشعبية المسلحة اقرب الى الانتصار مما كـانت عليه في تلك الشهور التي امتدت بين اواخـــر ١٩٣٧ واوائل ١٩٣٩ . لقد ضعفت في هذه الفترة سيطرة القوات البريطانية على فلسطين ووصلت هيبة الاستعمار الى الحضيض ، واصبحت سمعة الثورة ونفوذها هما القوة الاساسية في البلاد . الا ان ما حدث في هذا الوقت أيضا هو ازدياد قناعة بريطانيا بأن عليها الاعتماد علـى القوى الصهيونية ان هي ارادت سيطرة طويلة الامد على الوضع ، وقد اعطاها الصهاينة حالة فريدة لم تكن لها في اي من مستعمراتها. هذه الحالة هي توفر قوة محلية لها مع الاستعمار البريطاني قضية مشتركة، ومشحونة حتى أقصى الحالات ضد السكان المحليين. في تلك الفترة بدأت بريطانيا تخشى من اضطرارها لتحويل جزء من قوتها العسكرية لمواجهة المـأزق الاوروبي المتصاعد الحدة ، ولذلك اخذت تميل باطراد نحو « الاسراع في تنظيم قوة دفاع يهودية متطوعة ، بالاضافة الى القوة القائمة وعددهـا ٦٥٠٠ مسلح »(٨٨). وقد مضت قدما في سياسة الاعتماد على القوة المحلية الصهيونية وتسليمهـا جزءا كبيرا من واجبات القمع الذي كان يتسع ، ومع ذلك فانها لم تقطع ذلك الجسر الذي كـانت تتركه دائما قائما بينها وبين قيادة الطبقات التي كان يتزعمها المفتي ، وقد لعب البريطانيون في هـذا المجال بالذات ، وفي هذه الفترة بالتحديد ، دورا بارزا في ابقاء المفتي بمثابة الممثل غير المنازع لعرب فلسطين ، فقد كان احتياطيهم من القيادة الواقفة على يمين المفتي قد احترق عمليا ، ولذلك لم تكن عملية استبعاد المفتي من اعتباره الزعيم الاوحـد الا عملية « لا تبقي من يستطيع تمثيل العرب سوى قادة الثورة في الجبال»(٨٩)، على حد قول المندوب السامي البريطاني لفلسطين ، ولا شك ان ذلك من بين اسباب اخرى ، ساعد على ابقاء الحاج امين الحسيني على قمة قيادة الحركة الوطنيـة الفلسطينية رغم انه كان قد غادر مكان اختفائه في الاقصى ، بأسلوب مثير ، وظل في دمشق منـذ اواخر تشرين الاول ١٩٣٧ .

ان العسف البريطاني الذي تصاعد بصورة غـير متوقعة ، وتصاعد عمليات المداهمة والاعتقـال الجماعي والاعدام طوال ١٩٣٧ و١٩٣٨ انهكت الثورة ، ولكنها لم تضع حدا لها ، وقد ادرك البريطانيون ان الثورة هي في جوهرها ومادتهـا وقياداتها المحلية ثورة فلاحية ، وحين حـاولت ، نتيجة ذلك ، ان تمايز في تعاملها مع المدينيين ادت الروح الثورية المهيمنة في فلسطين باجمعها الـى تعميم لباس الرأس الفلاحي (الكوفية والعقال) في المدن ، كي لا يخضع الريفي النازل الى المدينة لعسف السلطة ، وبعد ذلك منع الجميع من حمل هوياتهم الشخصية كي لا تكتشف السلطة الفلاح من المديني .

ان هذا الواقع يشير الى طبيعة الثورة والـى نفوذها في تلك المرحلة اشارة واضحة للغاية ، كان الريف ، بصورة عامة ، هو رحم الثورة ، وكانت عمليات احتلال المدن المؤقتة في ١٩٣٨ تتم اثـــر هجمات يشنها الفلاحون(٩٠) من الخارج ، وهذا يعني ان الفلاحين والقرويين بصورة عامة هم الذين كانوا يدفعون الثمن الاكبر . ففي عام ١٩٣٨ اعدم

عدد من الفلاحين لمجرد حيازتهم على اسلحة ، وان استعراضا سريعا لجداول اسماء اولئك الذين ارسلوا الى السجن او الى المشنقة ترينا ان الغالبية الساحقة كانوا من فقراء الفلاحين ، وعلى سبيل المثال فقد « حكم على جميع سكان قرية عين كارم ، وعددهم ثلاثة آلاف ، ان يسيروا عشرة كيلومترات يوميا ليثبتوا وجودهم لدى مركز البوليس »(٩١). وفي تلك الفترة كانت بريطانيا قد أصدرت احكامها بالسجن ، مددا طويلة على حوالي ٢٠٠٠ عربي ، وهدمت أكثر من ٥ الاف بيت ، واعدم شنقا في سجن عكا ١٤٨ شخصا ، وبلغ عدد المعتقلين لمدد مختلفة اكثر من خمسين الفا(٩٢).

كانت بريطانيا ، التي عدلت في تشرين الثاني ١٩٣٨ عن التقسيم الذي اوصى به تقرير لجنة بيل ، آخذة في محاولة كسب الوقت ، وهنا يجيء مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في لندن في شباط ١٩٣٩ نموذجا لتلك الصفقة المشبوهة التي كانت تجري طوال الوقت بصمت بين قيادة الثورة الفلسطينية وبين البريطانيين الذين كانوا يعرفون يقينا استعداد تلك القيادة للمساومة في أية لحظة ، وبالطبع لم يذهب جمال الحسيني وحده الى المائدةالمستديرة في لندن ، بل ذهب معه ممثلو الدول العربية « المستقلة » انذاك ، وهكذا فقد قدر للانظمة العربية التي كانت خاضعة للاستعمار ان تملي ارادتها مرة ثانية في اقل من عامين على عرب فلسطين ، بوساطة ذلك الالتقاء (الكامن والمحتمل) في مصالح جميع الذين كانوا جالسين حول تلك المائدة المستديرة في لندن .

ان الكلمات التي القاها جمال الحسيني ، والامير فيصل (ممثل السعودية) والامير حسين (ممثل اليمن) وعلي ماهر (ممثل مصر) ونوري السعيد (ممثل العراق) — الذي أعلن انه يتكلم «كصديق حميم لبريطانيا العظمى والذي لا يرغب بقول كلمة واحدة تجرح شعور أي بريطاني لانه يشعر بصداقته نحوهم من أعماق قلبه » (!)(٩٣). ان تلك الكلمات لم تؤكد الا نجاح خطة بريطانيا التي احتفظت بها بدقة طوال عقد من الزمن ازاء قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية : فهي لم تفرط بها ، وأبقتها دائما علىطرفجسر مفتوح،وكان البريطانيون واثقين من أن العراق والسعودية « مستعدتان لاستخدام نفوذهما لدى زعماء فلسطين لوضع نهاية للثورة وتهيئة أسباب النجاح للمؤتمر » .ومع ذلك فان الثورة في فلسطين لم تكن قد هدأت (حصيلة شباط ١٩٣٩ كانت ، رسميا : ١١٠ قتلى و١١٢ جريحا في ١٢ معركة ضد البريطانيين . تفتيش ٣٩ قرية — منع التجول في ٣ مدن ٣ مرات. اعتقال حوالي ٢٠٠ قروي — حرائق في ٥ دوائر حكومية — ، اعدام ١٠ عرب بتهمة حمل سلاح . هجمات على ١٠ مستعمرات يهودية . نسف أنابيب النفط مرة ، تفجير قطار حيفا واللد . انشاء نقطة تفتيش داخل المسجد الاقصى) . وان الارقام البريطانية التي يقدمها وزير المستعمرات البريطاني تشير الى أنه « بين ٢٠ كانون الاول و٢٠ شباط (اي في شهرين) وقع ٣٤٨ حادث اغتيال و١٤٠ حادث تخريب و١٩٠ حادث خطف و٢٣ سرقة وانفجار ٩ الغام و٣٢ قنبلة وخسر الجنود ١٨ قتيلا و٣٩ جريحا وخسر الاهالي ٨٣ قتيلا و١٢٤ جريحا ، ولا تشمل هذه الارقام ما اصاب الثوار .. »(٩٤).

وقد استمر الامر على هذا المنوال حتى الشهر الذي نشبت فيه الحرب العالمية الثانية (ايلول ١٩٣٩) تكبد خلالها الفلسطينيون العرب خسائر لم يكن من الممكن تعويضها : كانت القيادة ، بالاضافة لكل روح المساومة التي تعيشها ، موجودة خارج البلاد ، أما القيادات المحلية الناشئة فقد أخذت تسقط واحدة وراء الاخرى في ميادين القتال، وكان العسف البريطاني قد وصل الى ذروته ، وبدأ العنف الصهيوني يصعد باضطراد منذ اواسط ١٩٣٧ ، ولا شك ان التركيز البريطاني والاصرار الذي رافقه في الساحة الفلسطينية قد انهك الثوار الذين باتوا ، مع تراوح قياداتهم ، غير عارفين على وجه الدقة من كانوا يحاربون ولماذا ؟ فتارة كانت القيادة تتحدث عن الصداقة التقليدية والمصالح المشتركة ، مع بريطانيا ، وتارة تصل الى حد قبول منح ادارة ذاتية لليهود في المناطق التي يتواجدون فيها ، ولا شك ان تذبذب القيادة ورخاوتها وعدم قدرتها على تحديد هدف واضح للقتال قد أسهم في انهاك الثورة . ولكن ذلك يجب الا يدفعنا الى اهمال العامل الموضوعي . فقد استخدم البريطانيون فرقتين عسكريتين وعددا من اسراب الطائرات والبوليس وقوة حرس الحدود الاردني بالاضافة للقوة اليهودية المساعدة المؤلفة من ٦ آلاف ، ورموا ذلك كله للهيمنة على الموقف،

(وكانت لجنة بيل قد اعترفت ان نفقات الامن في فلسطين ارتفعت من ٨٦٢ الف جنيه لعام ١٩٣٥ الى ٢٦٢٢٣٠٠٠ عام ١٩٣٦) . ان حملة الارهاب هذه وخصوصا المحاولات التي بذلت لقطع الصلة بين الثوار وبين القرى ، أدت الى انهاك الثورة . وجاء استشهاد عبد الرحيم الحاج محمد في اذار من ١٩٣٩ بمثابة ضربة قاصمة للثورة اذ فقدت واحدا من أكثر القادة الشعبيين الثوريين شجاعة وحكمة واستقامة ، واخذت القيادات المحلية ، بعد ذلك ، تنهار وتغادر ميادين القتال، ولا شك ان التقارب الفرنسي البريطاني عشية الحرب الثانية قد لعب دوره في محاصرة الثوار . فقد استسلم عارف عبد الرزاق مع بعض اتباعه للفرنسيين بعد أن انهكه التشرد والجوع ، والقت القوات الاردنية القبض على يوسف ابو دره وسلمته للبريطانيين فاعدموه . وأدى الارهاب في القرى الى خشية من دعم الثوار ومدهم بالذخائر والطعام ولا شك ان انعدام الحد الادنى من التنظيم قد حال دون القدرة على تجاوز هذه العراقيل .

لقد ارجع الحزب الشيوعي الفلسطيني انذاك أسباب فشل الثورة الى خمسة اسباب رئيسية(٩٥). غياب القيادة الثورية ، فردية قادة الثورة وانتهازيتهم ، عدم وجود قيادة مركزية لقوات الثورة،ضعف الحزب الشيوعي الفلسطيني، عدم ملائمة الوضع العالمي . وهذه الاسباب في مجملها صحيحة ، ولكن يجب أن يضاف اليها تقرب الحزب الشيوعي الى زعامة الحاج امين الحسيني الذي كان يراه « منتميا الى اكثر أجنحة الحركة الوطنية تطرفا في العداء للاستعمار » ويرى اعداءه « اقطاعيين خونة »(٩٦). مع العلم ان جماعة المفتي لم تتوقف على الاطلاق في تصفية عناصر اليسار التي كانت تحاول التغلغل في اوساط العمال . وكان اليسار الشيوعي، بالاضافة الى ضعفه ، غير قادر على الوصول الى الريف . كان متمركزا في بعض المدن ، وكان قد أخفق في تعريب الحزب كما اوصى مؤتمر الكومنترن السابع، ولم يكن هو الاخر قد قرر اهدافا واضحة للقتال، وكان ما يزال ضحية للنظرة القاصرة لمسالة الوحدة العربية ، ولعلاقات النضال الت...د في الوطن العربي التي كان لها انعكاسا...ـبية . ويبدو ان الخلل الرئيسي في هذه الهزيمة كان يكمن في تلك الثغرة الكبيرة الناشئة عن الحركة السريعة للمجتمع في فلسطين ، الذي كان ينقلب بعنف شديد كما قلنا ، من مجتمع زراعي عربي الى مجتمع صناعي يهودي ، فذلك كان على وجه التحديد السبب الذي غيبالبورجوازية الوطنيةوالبورجوازية الصغيرة العربية عن لعب دورها التاريخي في الحركة الوطنية الفلسطينية انذاك ، واتاح للزعامات الاقطاعية الدينية فرصة تزعم هذه الحركة لفترة طويلة دون منازع . ويضيف الدكتور عبد الوهاب الكيالي أسبابا اخرى مهمة بقوله : « ان التعب من القتال والضغط العسكري المتواصل والامل في أن تتحقق بعض جوانب الكتاب الابيض ، بالاضافة الى معاناة العجز في الاسلحة والذخائر ، كل ذلك قد أسهم في عرقلة استمرار الثورة ، ثم ان اقتراب العالم من حافة الحرب العالمية الثانية حمل الفرنسيين على قمع مقر رئاسة الثوار في دمشق قمعا تاما »(٩٧). ويمكننا ان نضيف الى ذلك كله عاملين هامين متداخلين يمكن الحديث عنهما معا لانهما لعبا دورا بارزا في اجهاض الثورة ، وهما موقف شرق الاردن ممثلا بموقف النظام العميل الذي كان يتزعمه الامير عبد الله انذاك ، والنشاط الذي قام به عملاء الثورة المضادة في الداخل على هامش النشاط الارهابي الذي شنته القوات البريطانية والقوات الصهيونية .

كان حزب الدفاع الذي يتزعمه راغب النشاشيبي يلعب دور الممثل الشرعي لنظام شرق الاردن العميل داخل الحركة الوطنية الفلسطينية ، ولعل هذا الارتباط كان نوعا من التمويه بسبب عدم قدرة ذلك الحزب على كشف علاقة العمالة التي كانت تربطه عمليا بالاستعمار البريطاني وسط معركة كانت موجهة بالاساس ضد ذلك الاستعمار ولذلك فقد كان الارتباط بالنظام الشرق الاردني نوعا من التمويه المقبول من الطرفين . كان حزب الدفاع عبارة عن حشد صغير من أفندية المدن يمثلون بالدرجة الاولى مصالح البورجوازية الكومبرادورية الصاعدة والتي بدأت تكشف ان وجودها ونموها رهن بارتباطها ليس فقط بالاستعمار البريطاني ولكن ايضا بالحركة الصهيونية التي كانت تسيطر على عملية التحول الصناعي للاقتصاد الفلسطيني ، وهذا الموقع الطبقي هو الذي جعل تاريخهم يتلخص بأنهم « تعاونوا مع الاحتلال اداريا ، ومع الصهيونية تجاريا ، وباعوا الاراضي الى اليهود

وسمسروا وزرعوا الشكوك وعرقلــوا النشاط الوطني واحكموا الخطة بين عبد الله والحسين وبين الصهيونيين في ١٩٢٣ — ١٩٢٤ وأيدوا الهجرة والانتداب في العشرينات ، والتقسيم في الثلاثينات، ودعوا لوطن قومي يهودي في جزء من فلسطين ، وتسليم الجزء الاخـــر الـى شرق الاردن ... الخ »(٩٨).

وفي الوقت الذي كان الامير عبد الله ، امير شرق الاردن ، يقمع حركة الجماهير الشرق اردنية التي كانت قد قررت بمبادرتها الذاتية ، منذ حزيران ١٩٣٦ ، في المؤتمر الشعبي الذي عقد برئاســة مثقال الفائز في قرية ام العمد ، دعم ثورة فلسطين بالرجال والعتاد ، كان البريطانيون قـد قرروا اعتبار شرق الاردن ميدانا متصلا للقتال ضد الثوار الفلسطينيين في تحركاتهم . ولم يقتصر الدور الذي لعبه النظام الشرق اردني العميل على ذلكفحسب، بل اغلق الطرق المؤدية الى العراق ليمنع وصول اي امداد ، واخذ يعرقل حركة القادة الفلسطينيين الذين اضطروا لزيادة حركتهم من شرق الاردن بعد بناء الاسلاك الحاجزة علىحدود فلسطين الشمالية، وتوج هذا النظام نشاطه المضاد حين ألقى القبض على اثنين من القادة الفلسطينيـــين في ١٩٣٩ ، احدهما يوسف ابو درة ، وسلمهما الى البريطانيين حيث تم اعدامهما بعد ذلك بشهور قليلة ، كما سبق وذكرنا . في ذلك الوقت بالذات كانت قوات النظام الاردني تنشط جنبا الى جنب مع القوات البريطانية والعصابات الصهيونية في مطاردة الثوار ، ولا شك ان هذا الدور الذي لعبه نظام شرق الاردن قد شجع عناصر الثورة المضادة الداخلية على رفع مستوى اعمالها ، فقد اسهم عدد من قادة حزب الدفاع في انشاء ما اسموه بـــ « فرق السلام » ، وهي قوات صغيرة مرتزقـــة « تكونت بالتعاون مع الانكليـــز وساهمت في مطـــاردة الثوار والاشتباك معهم ، وزحزحتهم عن بعض المواقع التي كانوا يسيطرون عليها ، وكان فخري النشاشيبي ممن ساهموا في تكوين هذه الفـــرق ، وتسليحهـــا ، وتوجيهــه نشاطها ... مما ادى الى مقتله بعد انتهاء الثورة بعدة اشهر »(٩٩) وقبل ذلك كانت الحملة البريطانية الشرسة لنزع السلاح من جميع انحاء فلسطين قد اعتمدت على « تشجيع العناصر المعادية للمفتي على تزويد (البريطانيين) بالمعلومات والتعريف عـــن اشخاص الثوار»(١٠٠).

ولم يكن موقف العراق والسعودية، آنذاك، افضل كثيرا من موقف النظام الاردني ، وكانا يبديان منذ مؤتمر لندن استعدادهما « لاستخدام نفوذهما لدى زعماء فلسطين لوضع نهاية للثورة »(١٠١) ولكن ذلك كله لم يكن قادرا على ان يجعل من زعماء الثورة المضادة عمـــلاء الانكليز قـــوة لها وزنهـــا الجماهيري ، وعلى العكس ، كان يعزز من قوة المفتي وزعامته ، ولكـــن تشجيع عناصر الثورة المضادة كان يهدف ، من جملة ما يهدف اليه ، ضبط المفتي وابقاءه ضمن حظيرة يمكن السيطرة عليها في نهاية الامر ، فقد تصرف البريطانيون طوال الوقت وفق قناعتهم بأن النشاشيبي لا يستطيع ان يكون بدبلا للمفتي. اما الهامش الصغير الذي استخدمته قيادة المفتي ، والناشىء عن التناقضات الجزئية التي كانت قائمة بين الاستعمار الفرنسي في سوريا ولبنان والاستعمار البريطاني ، فلم يكن ليستطيع ان يؤدي الى تغيير جذري في ميزان القوى ، وما لبث هذا الهامش ان ضاق الى حد الاختناق عشية الحرب الثانية .

ان مجمل هـــذه الحقائق يشـــير الى ان الثورة الفلسطينية في ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ضربت على مفاصلها الثلاثة : المفصل الذاتي ، بمعنى عجز وتذبذب وضعف وذاتية وفوضى قيادتها المتخلفة . والمفصل العربي ، بمعنى تواطؤ الانظمـــة العربية علـــى اجهاضها في وقت لم تتفاعل الحركة الوطنية العربية الشعبية (الضعيفة) مع الثورة الفلسطينية الا بصورة انتقائية وذاتيـــة وهامشية . والمفصـــل العالمي ، بمعنى الخلل الضخم في ميـــزان القوى الموضوعي ، والناشىء عن تحالف مجموع المعسكر الاستعماري فيما بينه ، وكذلك فيمـــا بينه وبين الحركة الصهيونية التي صارت تتمتع منذ ذلك الوقت بقوة محلية ضاربة لا يستهان بها عشية الحرب العالمية الثانية .

ان افضل تقدير للخسائر البشرية العربية في ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ هو ذلك التقدير الذي يقول ان الخسائر في السنوات الاربع هذه قد بلغت ١٩٧٩٢، ما بين قتيل وجريح ، وهذا التقدير يتناول الاصابات التي اصيب بها العرب علـــى أيدي العصابات الصهيونية في هذه الفترة . ويستند هذا التقدير على الاعترافات الاولية المتحفظة التي كانت تتضمنها التقارير الرسمية البريطانية مع امتحانها على صعيد

وثائق اخرى(١٠٢) ويثبت هذا الاحصاء انه في عام ١٩٣٦ قتل ١٢٠٠ عربي وقتل ١٢٠ في ١٩٣٧ و١٢٠٠ في ١٩٣٨ و١٢٠٠ في ١٩٣٩ ، كما تم اعدام ١١٢ عربيا وقتل ١٢٠٠ عربي في عمليات ارهابية مختلفة ، وذلك يجعل عدد القتلى العرب في ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ حوالي ٥٠٣٢ قتيلا وعدد الجرحى في الفترة نفسها ١٤٧٦٠ عربيا* . اما اعداد المعتقلين فقد بلغ في ١٩٣٧ حوالي ٨١٦ وفي ١٩٣٨ حوالي ٢٤٦٣ معتقلا وفي ١٩٣٩ حوالي ٥٦٧٩ معتقلا . ويمكن فهم المعنى الحقيقي لهذه الارقام من خلال المقارنات . فبالنسبة لعدد السكان فان خسائر الفلسطينيين البشرية بين ٣٦ ــ ٣٩ توازي خسارة البريطانيين لـ ٢٠٠ الف قتيل و٦٠٠ الف جريح ومليون و٢٢٤ الف معتقل ، اما بالنسبة للاميركيين فانها توازي مقتل مليون اميركي واصابة ٣ ملايين بجروح واعتقال مليون و١٢٠ الف مواطن !

على ان الخسائر الحقيقية ، والاكثر خطرا ، كانت في ذلك النمو السريع لاسس الوجود الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، عسكريا واقتصاديا. وليس من المبالغة بشيء القول بأن ذلك الوجود الاقتصادي والعسكري ، والذي تزايد ارتباطه بالامبريالية وعبر عن نفسه بكثافة في ١٩٤٨ كان قد ارسى قواعده الرئيسية في هذه الفترة الممتدة بين ١٩٣٦ و١٩٣٩ . ويذهب احد المؤرخين الاسرائيليين الى حد الاقرار بأن « ظروف الانتصار في ١٩٤٨ كانت قد خلقت ابان فترة الثورة العربية (١٩٣٦) »(١٠٣).

ان السياسة العامة التي اتبعها الصهاينة في هذه الفترة يمكن رؤيتها في قرارهم العميق بتجنب انشاء اي تناقض بينهم وبين سلطة الانتداب البريطاني ، حتى حين كان هذا الانتداب ، تحت وقع ضربات الثوار العرب ، يضطر الى تجاهل بعض المطالب الحيوية للحركة الصهيونية. وكان الصهاينة يعرفون كما يبدو انهم اذا هيأوا للبريطانيين ، الذين كانوا يقودون في تلك الفترة اقوى واعتى جيش استعماري في العالم، اذا هيأوا له فرصة سحق الثورة العربية في فلسطين ، فانه يكون قد قدم لهم تلقائيا اكبر خدمة يمكن لمخططاتهم ان تحلم بها . وهكذا فقد سارت المخططات الصهيونية الرئيسية على خطين متوازيين : من جهة : التحالف الى اقصى حد مع البريطانيين ، حتى ان المؤتمر العشرين للحركة الصهيونية الذي عقد في صيف ١٩٣٧ أبدى استعداده لقبول التقسيم من خلال المهادنة مع بريطانيا والاصرار على تجنب الصدام معها ، وذلك ليتيح للامبراطورية الاستعمارية قمع الثورة العربية التي تجددت في ذلك الصيف . ومن جهة أخرى تعبئة التجمع الصهيوني الاستيطاني داخليا تعبئة متواصلة ، تحت الشعار الذي أطلقه بن غوريون آنذاك ، والذي ينادي بـ « لا بديل » ، وارساء قواعد المجتمع العسكري ، وادواته الحربية والاقتصادية .

وقد كانت مسألة الاصرار على مهادنة البريطانيين الى أقصى مدى ، بالرغم من ان هؤلاء قاموا بخطوات خفضوا فيها الهجرة اليهودية مثلا ، مسألة مركزية في تاريخ السياسة الصهيونية في تلك الفترة ، ورغم انه كان يوجد في داخل الحركة الصهيونية جهات ترفض ما كان يسمى بـ « ضبط النفس » ، الا ان اصوات الاقلية هذه لم تستطع ان تؤدي الى نتيجة ، فقد كان القانون الذي يسوق خطوات الحركة الصهيونية في تلك الفترة هو ذاك الذي لخصه وايزمن بقوله : « هناك تماثل مصالح تام بين الصهيونية وانجلترا في فلسطين». وخلال هذه الفترة ادى التعاون والتداخل بين هذين الخطين ، التحالف مع الانتداب الى أقصى مدى وتعبئة التجمع الاستيطاني اليهودي ، الى نتائج خطيرة للغاية : فقد انتهزت البورجوازية اليهودية انتشار الثورة العربية لتنجز الكثير من المشاريع التي لم يكن بوسعها ان تنفذها في ظروف مغايرة . واذ تحررت هذه البورجوازية ، فجأة ، من منافسة المنتوجات الزراعية العربية التي كانت رخيصة الثمن* فقد راحت تنصرف الى تنمية وجودها الاقتصادي ، ومن الطبيعي انه لم يكن من الممكن تنفيذ ذلك دون البركة البريطانية . ففي فترة الثورة نجح الصهاينة

---

* تقول دراسة ظهرت في مجلة « **معراخوت** » (عدد ٢٠٤ ، رقم ٥٥ ، كانون الثاني/شباط ١٩٧٠) ان ثورة ٣٦ ــ ١٩٣٩ انتهت بما مجموعه ٤١٥ قتيلا يهوديا من تجمع يهودي بلغ تعداد افراده وقتذاك ٤٥٠ الف نسمة .

* لنأخذ على سبيل المثال الاجور في زراعة الحمضيات وهو المنتوج الاول الزراعي في فلسطين ، فقد أقر المجلس الزراعي العام في ١٩٣٦ ان اجر العامل اليهودي سنويا للدونم الواحد ١٢ ج اما العربي فـ ٨ ج .

وسلطات الانتداب في بناء شبكة من الطرق بين المستعمرات الرئيسية والمدن شكلت فيما بعد جزءا اساسيا من الهيكل التحتي للاقتصاد الصهيوني ، وبالاضافة لهذه الطرق ، تم تعبيد الطريق الرئيسي بين حيفا وتل ابيب ، وجرى توسيع ميناء حيفا وتعميقه وبناء ميناء تل ابيب الذي تغضى فيما بعد على حيوية ميناء يافا ، وانفرد الاسرائيليون بتعهد تزويد القوات البريطانية التي اخذت تتدفق على فلسطين بالمؤن وبالمعدات . وقد تأسست خمسون مستعمرة اسرائيلية في الفترة الممتدة بين ١٩٣٦ و١٩٣٩ ، ففي الفترة من ١٩٣٦ — ١٩٣٨ وظف اليهود مليونا و٢٦٨ الف جنيه لاعمال البناء في ٥ مدن يهودية مقابل ١٢٠ الف جنيه فقط وظفها العرب في البناء في ١٦ بلدة عربية في نفس الفترة ! وانهمك اليهود بالعمل في مشاريع الامن البريطانية التي نشطت في تلك الفترة لمحاصرة الثورة العربية ، وبينها مشروع بناء حاجز من الاسلاك الشائكة على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية لفلسطين الذي « وظف البريطانيون عمالا يهودا بـ ١٠٠ الف جنيه فلسطيني ليتموا بناءه »(١٠٤) بالاضافة لعشرات من المشاريع الاخرى. وتعطينا ارقام نشرات صدرت فيما بعد فكرة أدق : فقد ازدادت قيمة الصادرات من البضائع المصنوعة محليا من ٤٧٨،٨٠٧ جنيهات فلسطينية عام ١٩٣٥ الى حوالي الضعف (٨٩٦،٨٧٥ ج. ف.) في ١٩٣٧ رغم احداث الثورة(١٠٥). ولا يوجد تفسير لذلك الا النشاط المضاعف الذي طرا على الاقتصاد اليهودي .

وقد اتسع نطاق هذه التعبئة من المجال الاقتصادي المتحالف مع الانتداب ، الى المجال العسكري المتواطىء معه*، فقد شعر البريطانيون بأن حليفهم الصهيوني مؤهل للعب دور لا يمكن لغيره ان يلعبه بنفس الجودة ، وفي الواقع فان بن غوريون لا يذكر الا جزءا من الحقيقة حين يعترف بأن عدد المجندين اليهود في البوليس الاضافي المسلح بالبنادق قد ارتفع الى ٢٨٦٣ في أيلول ١٩٣٦ . فذلك لم يكن الا جزءا من القوة اليهودية التي كان تعدادها ، في الهاغاناه ، ١٢ الف رجل عام ١٩٣٧ بالاضافة الى ثلاثة آلاف من اتباع جابوتنسكي (التنظيم العسكري القومي)(١٠٦). وقد أدى تحالف هؤلاء ، كممثلين حقيقيين للحركة الصهيونية ، مع الاستعمار البريطاني الى ولادة فكرة « قوة البوليس الاضافي » في ربيع ١٩٣٦ وهي الفكرة التي خدمت كتغطية للوجود الصهيوني المسلح المتمتع ببركة الاستعمار وتشجيعه . وقد خدمت هذه القوة كفترة انتقالية لمدة شهور، هيأت خلالها الهاغاناه للانتقال في بداية ١٩٣٧ الى مرحلة جديدة لم يكن البريطانيون غير غافلين عنها فحسب ، بل كانوا مساعدين في بلورتها ، وهي مرحلة تسيير دوريات والقيام بعمليات محدودة ضد العرب ، هدفها الرئيسي اشغالهم وتشويشهم . وكان من غير الممكن الانتقال الى هذه المرحلة والحفاظ على «الهدنة» (التحالف) مع سلطة الانتداب ، دون ان يكون ذلك نتيجة خطة مشتركة . ويقر بن غوريون بأن قوة البوليس الاضافي اليهودية شكلت « اطارا » ممتازا لتدريب الهاغاناه »(١٠٧).

في صيف ١٩٣٧ اطلق على هذه القوة اسم « الدفاع عن المستعمرات اليهودية » ثم تغير الى « بوليس المستعمرات » وجرى تنظيمها برعاية الانتداب البريطاني في طول البلاد وعرضها . وتعهد البريطانيون بتدريب عناصرها . وفي ١٩٣٨ جرى تعزيزها بثلاثة آلاف آخرين . ولعب جميعهم دورا مباشرا في اعمال القمع المسلح ضد الثوار العرب ، خصوصا في الشمال . وفي حزيران ١٩٣٨ قرر البريطانيون انه لا بد من شن عمليات هجومية ضد الثوار . وانشأوا دورات دراسية في هذا المضمار تدرب فيها عدد كبير من اطارات الهاغاناه التي شكلت فيما بعد اطارات الجيش الاسرائيلي(١٠٨).

وفي أوائل ١٩٣٩ نظم الجيش البريطاني عشر مجموعات من بوليس المستعمرات في مجموعات حسنة التسليح ، واعطيت أسماء عبرية ، وسمح لافراد هذه القوة بتغيير « القلبق » ، لباس الراس الرسمي بقبعة استرالية لتعزيز التمايز ، وقد بلغ عدد هؤلاء ١٤٤١١ رجلا ، يتزعم كل مجموعة منهم ضابط بريطاني يساعده وكيل تعينه الوكالة اليهودية ، وفي ربيع ١٩٣٩ صار عند اليهود ٦٢ وحدة آلية ، كل واحدة تحوي من ٨ الى ١٠ رجال.

---

* يقول ييجال آلون في كتابه **بناء الجيش الاسرائيلي** : « كانت السنوات ١٩٣٧ — ١٩٣٩ ذروة الاستيطان الطليعي والتسرب العسكري الى مناطق مكشوفة ... والفوز بموطىء قدم في مناطق حيوية استراتيجية » (راجع دراسة اميل توما بهذا الصدد في « **الاتحاد** » وفي « **فتح** » ١٩٧١/٩/١) .

وفي حزيران ۱۹۳۸ قررت القيادة البريطانية تكليف العناصر اليهودية هذه بحماية خطوط السكة الحديدية بين حيفا واللد التي نسفها الثوار العرب مرارا ، وقد أرسلت ٤٣٤ عنصرا لتنفيذ هذه المهمة، الا انه بعد ستة شهور فقط نجح رجال الوكالة اليهودية في رفع هذا العدد الى ۸۰۰ . ان هذا التطور لم يخدم فقط عملية بناء القوة الصهيونية العسكرية ، بل ساعد ايضا على امتصاص وتوظيف اعداد كبيرة من العمال اليهود العاطلين عن العمل والذين كانت اعدادهم تتزايد باضطراد في المدن ، وهكذا جرى تحويل هذه البروليتاريا نحو العمل في مؤسسات القمع ، ليس فقط في مشاريع الامن البريطانية المضادة للثورة ولكن ايضا في القوة العسكرية الصهيونية الصاعدة .

كانت أسس الجهاز العسكري الصهيوني ترسى برعاية البريطانيين ، واذا كانت القوة اليهودية قد كلفت بحماية خطوط السكة الحديدية بين حيفا واللد ، فقد جرى تكليفها بحماية خط انابيب النفط في سهل بيسان ، الذي كان قد بني حديثا (١٩٣٤) لنقل الزيت من كركوك الى حيفا والذي نسفه الثوار العرب عدة مرات . ولعل قيمة ذلك بالذات، هنا ، قيمة رمزية مثيرة للدهشة : ان الثوار العرب الدين أدركوا قيمة هذا النفط بالنسبة للمستغل البريطاني قد نسفوا الانبوب لاول مرة في ١٥ تموز ١٩٣٦ قرب اربد ، وبعد ذلك جرى نسفه عدة مرات قرب قرية كوكب الهوا ومحنة اسرائيل واكسال وبين العفولة وبيسان ، وفي تل عدس ، والبيرة ، وارض المرج ، وتمرة ، وكفر مصر ، وجسر المجامع ، وجنجار وبيسان وعين دور . وقد عجز البريطانيون عن حماية هذا الخط الحيوي واعترفوا بهذا العجز عدة مرات ، وفي الوقت نفسه دخلت « الماسورة » كما كان يسميها الفلاحون العرب في صلب الفولكلور الذي يمجد البطولات الشعبية . وعلى أي حال ، فقد توصل البريطانيون الى تأمين حد أدنى من الحماية للانابيب هذه عن طريقين : اعطوا لعصابات اليهود مهمة حمايتها في الداخل ، اما في الاراضي الاردنية فقد أوكلوا مهمة حراستها الى « الشيخ تركي بن زين ، رئيس فخذ الزين من عشيرة بني صخر ، وقد خولته الشركة حق التجوال في الصحراء بأية واسطة كانت »(١٠٩).

ان هذا الامر مهم للغاية ، ذلك ان هذا الحادث بالذات عزز القناعات البريطانية بأن انشاء قوة ضاربة يهودية يحل الكثير من الاشكالات بالنسبة لحماية المصالح الامبريالية عموما . ان بن غوريون يكاد يكشف هذه الحقيقة بمباشرة لا حد لها حين يتحدث عن الجهد البريطاني في انشاء قوة يهودية مسلحة مهمتها حماية هذه المصالح . وفي هذا المجال لعب الضابط البريطاني شارلز اورد وينغيت دورا بارزا في ترجمة التحالف البريطاني — الصهيوني الى واقع عملي ، وبالرغم من ان المؤرخين الصهاينة يحاولون الايحاء وكأن جهد وينغيت كان نتيجة مزاج شخصي وولاء « مثالي » ، الا انه من الواضح ان ضابط الاستخبارات هذا ، الذي ارسله رؤساؤه الى حيفا في خريف ١٩٣٧ ، كان مكلفا بمهمة محددة وهي انشاء النواة الضاربة للقوة اليهودية المسلحة التي كانت موجودة قبل ذلك بستة شهور على الاقل ولكن التي كانت تحتاج الى بلورة واعداد . وقد جعل هذا الضابط البريطاني ، الذي يعتبره العسكريون الاسرائيليون المؤسس الفعلي للجيش الاسرائيلي ، مسألة حماية انبوب النفط همه الاساسي . الا ان هذه المهمة كانت مدخلا لسلسلة عمليات ارهاب وقتل اخذ هذا الضابط على عاتقه مهمة تعليم تلامذته في عين دور — ومن بينهم دايان — اجادتها . ولا شك ان وينغيت كان يتسلح بالاضافة لكفاءته كضابط استعماري متمرس، بكراهية عنصرية غير محدودة للعرب ، ويبدو من سيرة حياته كما أرخها الذين عملوا معه انه كان يجد متعة في قتل الفلاحين العرب او تعذيبهم او ممارسة اي شكل من اشكال الاحتقار لهم(١١٠). وتؤكد دراسة لاميل توما عن كتاب ليبجال آلون حول هذا الموضوع ان وينغيت وشراذمه كانوا يساعدون القوات البريطانية على ارهاب السكان العرب في الريف خلال ثورة ٣٦ — ١٩٣٩ . وبواسطة رجال مستعمرين من طراز وينغيت ، وقادة رجعيين من طراز الامير عبدالله وافراد طبقته الحاكمة ، كان البريطانيون يهيئون للحركة الصهيونية فرصة ان تصبح عسكريا واقتصاديا المخفر الامامي الذي يحمي مصالحهم ، وكان ذلك كله يجري من خلال قناعة هؤلاء جميعا بأن قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية ليست في حالة من الثورية تؤهلها للوقوف في وجه هؤلاء الاعداء المتكاتفين . لقد اهتدى البريطانيون في وقت مبكر الى الاستراتيجية التي اطلق عليها الاميركيون بعد ذلك بثلاثين سنة اسم « الفيتنمة » . ووسط

ذلك كله وصلت الحركة الوطنية الفلسطينية ، التي شلتها ، بالاضافة للعوامل الذاتية التي ذكرناها ، الهجمات العنيفة التي شنها البريطانيون من جهة والصهيونيون من جهة أخرى ، الى موقف حرج عشية الحرب الثانية . ان ادعاءات بعض المؤرخين بأن العرب « أوقفوا » ثورتهم ليتيحوا لبريطانيا ، مرة اخرى ، فرصة خوض حربها العالمية ضد النازية هي ادعاءات ساذجة لا ينفيها واقع الحال فحسب ، ولكن ينفيها ايضا كون الحاج امين الحسيني نفسه قد لجأ الى المانيا النازية طوال سني الحرب .

ان مجمل هذه الصورة هي التي توضح حقيقة الخارطة السياسية والاجتماعية التي هيمنت طوال الاعوام الممتدة بين ١٩٣٦ و١٩٣٩ وذلك كله ، بعلاقته الجدلية فيما بينه ، هو الذي يفسر ذلك الركود الذي خيم على الواقع الوطني الفلسطيني طوال سني الحرب ، وقد انتهت الحرب العالمية الثانية ليجد البريطانيون ان الحركة الوطنية الفلسطينية قد دجنت بصورة تكاد تكون نهائية : فقد كان رأسها محطما ومشتتا وكانت قاعدتها قد انهكت واهترأ نسيجها الاجتماعي وتفتتت نتيجة للتحول العنيف الذي كان يجري في المجتمع ، ونتيجة اخفاق قياداتها واحزابها في تنظيمها وتعبئتها ، ونتيجة ، ايضا ، لضعف اليسار وحيرته وميوعة الحركة الوطنية في الاقطار العربية المجاورة. وهكذا دخلت الحركة الصهيونية الاربعينات لتجد الميدان امامها فارغا تقريبا ، وليكون الجو العالمي ملائما للغاية في اعقاب جو التعاطف النفسي والسياسي الذي عممته المذابح الهتلرية ضد اليهود ، ولتجد في الانظمة العربية المحيطة انظمة بورجوازية واقعة في مأزق تاريخي ، ولا قوة حقيقية لها . ولم تكن توجد داخل المجتمع اليهودي في فلسطين ، آنذاك ، اية حركة يسارية لتضغط باتجاه معاكس ، فقد كان المجتمع هذا ، في مجمله تقريبا ، مجتمع غزو اسكاني . اما اليسار الفلسطيني فقد بدأ ، منذ الحرب العالمية الثانية ، يفقد الجذوة التي كانت قد بدأت تسيره منذ اواسط الثلاثينات ، وكان هذا الفقدان نتيجة لتغير في استراتيجية الكومنترن رافقه فشل في تعريب الحزب ، يضاف الى ذلك ان هذا اليسار الشيوعي تعرض اكثر فأكثر الى قمع القيادة العربية المهزومة (مثلا : قيام رجال المفتي باغتيال النقابي اليساري سامي طه في حيفا في ١٢ أيلول ١٩٤٧ — وقبل ذلك اغتيال النقابي ميشيل متري في يافا ، وهو الذي لعب دورا مهما في تعبئة العمال العرب قبل انفجار الاحداث في ١٩٣٦) . وهذا كله يسر للحركة الصهيونية في اواسط الاربعينات رفع درجة تناقضها الجزئي مع الاستعمار البريطاني في فلسطين بعد سنوات مديدة من التحالف . وهكذا ، وما ان جاء عام ١٩٤٧ حتى كانت الظروف ناضجة كليا لقطف ثمار الهزيمة التي منيت بها ثورة ١٩٣٦ ، والتي أخرت الحرب العالمية الثانية موعد حصادها ، ولذلك فان الفترة التي استغرقها الفصل الثاني في الهزيمة (من أواخر ١٩٤٧ الى أواسط ١٩٤٨) كانت فترة مذهلة بقصرها ، وذلك انها كانت مجرد تتمة لفصل دموي طويل كان قد استمر من نيسان ١٩٣٦ الى ايلول ١٩٣٩ .

١ — **النظام الاقتصادي في فلسطين** — تحرير سعيد حمادة ، نشر جامعة بيروت الاميركية — بيروت ١٩٣٩ ص ٣٢ .

٢ — Moshe Menuhin, *The Decadence of Judaism in our Time*, Institute of Palestine Studies, Beirut, 1969, p. 92.

٣ — Nathan Weinstock, *Le Sionisme Contre Israël*, Maspero, Paris, 1968.

٤ — فاينشتوك ، **المصدر ذاته** .

٥ — حماده ، **المصدر ذاته** ، ص ٢٦ وص ٢٧ .

٦ — فاينشتوك ، **المصدر ذاته** .

٧ — حماده ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٧٣ .

٨ — حماده ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٧٦ .

٩ — **مجموعة شهادات العرب في فلسطين امام اللجنة الملكية البريطانية** — مطبعة الاعتدال — دمشق — ١٩٣٨ — ص ٥٤ .

١٠ — **المصدر ذاته** ، ص ٥٥ .

١١ — حماده ، **المصدر ذاته** ، ص ١٥ (وقد ارتفع عدد العاطلين عن العمل بعد ١٩٣٦ الى اربعة آلاف في يافا وحدها كما يقول المصدر رقم ٩ ص ٥٥) .

١٢ — **مجموعة شهادات** ، ص ٥٥ .

١٣ — **المصدر ذاته** ، ص ٥٥ .

١٤ — « **دافار** » العدد ٣٤٦٢ — ذكرها المصدر السابق — ص ٥٦ .

١٥ — **شهادات** ، ص ٥٩ .

١٦ — **المصدر ذاته** ، ص ٥٦ .

١٧ — **المصدر ذاته** ، ص ٥٩ .

١٨ — Yehuda Bauer, "The Arab Revolt of 1936", *New Outlook*, Vol. 9, No. 6 (81), Tel-Aviv, 1966, p. 50.

١٩ — **المصدر ذاته** ، ص ٥١ .

٢٠ — في ١٩٢٠ انخفض عدد عمال البناء العرب في القدس من ١٥٠٠ الى ٥٠٠ وارتفع عدد اليهود من ٥٥٠ الى ١٦٠٠ .

٢١ — حتى عام ١٩٣١ كان الصهاينة قد طردوا ٢٠ الف فلاح عربي بعد ان استولوا بالشراء على املاكهم او على الارض التي كانوا يعملون فيها .

٢٢ — Haim Hanegbi, Moshe Machover, Akiva Orr, "The Class Nature of Israel" *New Left Review* (65), Jan.-Feb. 1971, p. 6.

٢٣ — Theodor Herzl, *Selected Works*, Newman Ed., Vol. 7, Book 1, Tel Aviv, p. 86. (ذكرها المصدر السابق)

٢٤ — Esco Foundation for Palestine Inc., *Palestine, A Study of Jewish, Arab and British Policies*, Vol. 1, Yale University Press, 1947, p. 561.

٢٥ — **تاريخ فلسطين الحديث** — الدكتور عبد الوهاب الكيالي — المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٧٤ .

٢٦ — **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية** (١٩١٨ — ١٩٣٩) نشر مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

٢٧ — « العمل بين الفلاحين والنضال ضد الصهيونية » — موضوعات الحزب الشيوعي الفلسطيني لعام ١٩٣١ — وثيقة في كتاب « **الاممية الشيوعية والثورة العربية** » دار الحقيقة ، بيروت — ص ٥٤ .

٢٨ — **المصدر ذاته** ، ص ١٢٢ و١٢١ .

٢٩ — **المصدر ذاته** ، ص ١٢٤ و١٢٥ .

٣٠ — **المصدر ذاته** ، ص ١٦٢ .

٣١ — حماده ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٩ .

٣٢ — **الاممية الشيوعية** ، ص ١٣٥ — ١٤٥ .

٣٣ — ناينشتوك ، **المصدر ذاته** .

٣٤ — **مجموعة شهادات** ، ص ٣٤ .

٣٥ — كان الباب العالي قد منح هذه الارض لعائلة مرسق اللبنانية لقاء خدماتها — (راجع سامي هداوي : **فلسطين تحت الانتداب** ، ١٩٢٠ — ١٩٤٨ ، دراسات فلسطينية ، جمعية الخريجين الكويتية ، ص ٣٤ وص ٣٦) وكذلك كان الصهاينة في ١٩٣٤ قد كسبوا امتياز تجفيف حوض الحولة من عائلة سلام البيروتية ، بمساعدة الانتداب .

٣٦ — **مجموعة شهادات** ، ص ٣٤ (شهادة جمال الحسيني) .

٣٧ — **المصدر ذاته** ، ص ٣٩ .

٣٨ — هداوي ، **المصدر ذاته** ، ص ٢٩ .

٣٩ — **مجموعة شهادات** ، ص ٢٥ (شهادة عوني عبدالهادي) .

٤٠ — **مجموعة شهادات** ، ص ٥٦ (شهادة جورج منصور) .

٤١ — **مجموعة شهادات** ، ص ٥٨ .

٤٢ — حماده ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٧٦ .

٤٣ — **مجموعة شهادات** ، ص ٦٠ (شهادة جورج منصور) .

٤٤ — **مجموعة شهادات** ، ص ٦٢ — ٦٣ (شهادة فؤاد سابا) .

٤٥ — **المصدر ذاته** ، ص ٦٢ .

٤٦ — **المصدر ذاته** ، ص ٤٤ .

٤٧ — **المصدر ذاته** ، ص ٦٣ .

٤٨ — Rony E. Gabbay, *A Political Study of the Arab - Jewish Conflict*, Librairie de Droz, Genève, 1959, p. 29.

٤٩ — **الاممية الشيوعية** ، ص ١٤٣ — ١٤٤ .

٥٠ — **مجموعة شهادات** ، ص ٨٢ .

٥١ — حماده ، **المصدر ذاته** ، ص ٤٥ .

٥٢ — « المجتمع العربي » — الدكتور علي احمد عيسى ، ص ٩٦ ذكرت في كتاب يسرى عرنيطة، **الفنون الشعبية في فلسطين** ، بيروت ، مركز الابحاث ، م.ت.ف ، ص ١٨٧ .

٥٣ — **حياة الادب الفلسطيني الحديث** — الدكتور عبدالرحمن ياغي — المكتب التجاري بيروت — ص ٢٣٢ (عن : ديوان الفلسطينيات ، ص ١١٣ — ١١٤) .

٥٤ — **المصدر ذاته** ، ص ٢٣٧ .

٥٥ — **المصدر ذاته** ، ص ٢٨٣ .

٥٦ — **اغانينا الشعبية** — نمر سرحان ، وزارة الثقافة والاعلام الاردنية ، ص ١٥٧ .

٥٧ — **المصدر ذاته** ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

٥٨ — **المصدر ذاته** ، ص ٣٠١ .

٥٩ — يهودا بوير ، **المصدر ذاته** ، ص ٤٩ .

٦٠ — **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية** — عيسى السفري ، مكتبة فلسطين الجديدة ، يافا ١٩٣٧ — الكتاب ٢ ص ١٠ .

٦١ — **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن** — صالح مسعود بو يصير — دار الفتح — بيروت — ص ١٨٠ .

٦٢ — **الثورة العربية الكبرى في فلسطين** — دار الهنا — دمشق — صبحي ياسين ، ص ٣٠ .

٦٣ — بو يصير ، **المصدر ذاته** ، ص ١٨١ .

٦٤ — الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٠٢ .

٦٥ — **مجموعة شهادات** ، ص ٩٦ .

٦٦ — هداوي : **المصدر ذاته** ، ص ٣٨ .

٦٧ — صبحي ياسين ، **المصدر ذاته** ، ص ٢٢ و٢٣ .

٦٨ — **المصدر ذاته** ، ص ٢٢ .

٦٩ — الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٢٩٦ .

٧٠ — راجع « **فلسطين** » — بيروت (الهيئة العربية العليا) — العدد ٩٤ (٦٩/١/١) والعدد ٩٥ (٦٩/٢/١) .

٧١ — **المصدر ذاته** ، العدد ٩٤ ص ١٩ .

٧٢ — الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٢٩٦ .

٧٣ — *Palestine's Economic Future,* Percy Lund H., London, 1946, p. 61.

٧٤ — السفري ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٩ و٤٠ .

٧٥ — الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٣١١ .

٧٦ — السفري ، **المصدر ذاته** ، ص ٦٠ .

٧٧ — **المصدر ذاته** ، ص ٩٣ .

٧٨ — الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٣١٩ .

٧٩ — **الوثائق** ، ص ٤٥٤ .

٨٠ — **المصدر ذاته** ، ص ٤٥٧ . .

٨١ — **المصدر ذاته** ، ص ٤٥٨ .

٨٢ — **مجموعة شهادات** ، ص ٨ .

٨٣ — الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٢٦ .

٨٤ — Neville Barbour, *Nisi Dominus,* London, pp. 183-193.

٨٥ — الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٣٨ .

٨٦ — بن غوريون في *Jewish Observer,* London, 20 Sept. 1963, pp. 13 - 14.

٨٧ — عبدالقادر ياسين — **الكاتب** ، القاهرة ، نيسان ١٩٧١ ، العدد ١٢١ حول تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني ، ص ١١٤ .

٨٨ — الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٤٦ من رسالة من مكمايكل .

٨٩ — **المصدر ذاته** ، ص ٣٤٦ .

٩٠ — في ايار ١٩٣٨ احتل الثوار الخليل ، وقبلها احتلوا القدس القديمة ، وفي ٩ ايلول احتلوا بئر السبع واطلقوا سراح السجناء وفي ٥ تشرين الاول احتلوا طبريا ، وفي اوائل آب داهموا نابلس وسيطروا على بعض احيائها .. الخ .

٩١ — بو يصير ، **المصدر ذاته** ، ص ٢٤٧ .

٩٢ — **المصدر ذاته** ، ص ٢٤٧ .

٩٣ — **المصدر ذاته** ، ص ٢٥٨ .

٩٤ — **الاهرام** ، القاهرة — ١٩٣٩/٣/١ .

٩٥ — ياسين ، **المصدر ذاته** ، ص ١١٥ .

٩٦ — **المصدر ذاته** ، ص ١١٤ .

٩٧ — الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٥٩ .

٩٨ — انيس صايغ ، **الهاشميون وقضية فلسطين** — نشر « المحرر » بالاشتراك مع المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٦ — ص ١٥٠ .

٩٩ — **المصدر ذاته** — وكذلك راجع : الباقوري — **الطليعة** المصرية العدد ٤/س ٧ نيسان ١٩٧١ ص ٩٨ .

١٠٠ — الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٤٨ .

١٠١ — من رسالة لوزارة الخارجية البريطانية من بغداد (١٩٣٨/١٠/٣١) ذكرها الكيالي ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٤٩ .

١٠٢ — Walid Khalidi, ed., *From Haven to Conquest,* I.P.S. Beirut, 1971, pp. 836-849.

١٠٣ — بويصير ، **المصدر ذاته** ، ص ٢١ .

١٠٤ — باربور ، **المصدر ذاته** ، ص ١٩٣ .

١٠٥ — حماده ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٢٣ .

١٠٦ — بويصير ، **المصدر ذاته** ، الصفحة ذاتها .

١٠٧ — بن غوريون ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٧٢ .

١٠٨ — **المصدر ذاته** ، ص ٣٧٣ .

١٠٩ — السفري ، **المصدر ذاته** ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

١١٠ — الخالدي ، **المصدر ذاته** ، ص ٣٧٥ — ٣٧٨ .

المقاومة الفلسطينية في الصحف البريطانية والالمانية والاميركية (١٩٦٥ ـ ١٩٧١)

ف. المنصور

المقاومة الفلسطينية في الصحف البريطانية

تايمز (لندن) : التايمز اللندنية هي اقدم صحيفة في العالم ، ومن اشهر المؤسسات في بريطانيا . فهذه الصحيفة المحافظة التي يضرب المثل برصانتها ووقارها لا تزال تعتبر أهم صحيفة في البلاد بالرغم من توزيعها المحدود . بعد ان اشتراها اللورد تومبسن قبل سنوات واضافها الى امبراطوريته الصحافية الواسعة ، جرى تبديل جذري في تبويبها ، وبعد أن كانت الصفحة الاولى التي تطالع القارىء فيها هي صفحة الوفيات ، فان عملية التحديث التي مرت بها الجريدة جعلتها ذات اطار عصري وتبويب لا يختلف كثيرا عن تبويب الصحف الجدية الاخرى في لندن ، اي ان الادارة الجديدة للتايمز خرقت تقاليد الصحيفة العتيقة لتصنع منها واسطة اعلامية عصرية يمكن ان يقبل على قراءتها شباب اليوم ايضا ، وليس فقط الكهول وافراد المؤسسات البريطانية العتيدة . ان تقارير مراسلي التايمز من البلاد العربية هي في كثير من الاحيان موضوعية ودقيقة ، ولكن الامر ليس كذلك بالنسبة لمراسلها في اسرائيل لانه عموما اسرائيلي كاكثر مراسلي الصحف الاوروبية والامريكية في الدولة الصهيونية . ولما كانت الاخبار المتعلقة بعمليات فتح داخل الاراضي المحتلة قبل حرب حزيران مصدرها دائما من تل ابيب ، فان معلومات مراسل التايمز مستقاة من الناطق العسكري الاسرائيلي . ولما لم تكن التايمز تنشر بلاغات فتح ، فتقارير مراسلها الاسرائيلي لا تختلف في اللهجة عن بلاغات تل ابيب الرسمية . ولهذا فالفدائيون هم مخربون وارهابيون ، لا اكثر .

في تاريخ ١٩٦٧/١٠/٢١ نشرت الصحيفة تقريرا لمراسلها في تل ابيب بعنوان « اعتقال اسرائيل لارهابيين » ، تضمن القول بأن الاردنيين قد اكدوا رسميا أنهم يعارضون الارهاب ولا يساندون الا عدم الطاعة المدنية غير المسلحة في الاراضي التي احتلت بعد حرب حزيران . وفي هذا التقرير يظهر الضعف في معلومات المراسل ، فهو يذكر ان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هي منظمة تابعة لضباط بعثيين يساريين في الجيش السوري . وفي العدد الصادر بتاريخ ١٩٦٨/٣/٦ كتب مايك نيكولز تقريرا في ثلاثة اعمدة بعنوان « اسرائيل تنتصر على المقاومين العرب » قال فيه : « لا يستطيع أحد ان يدعي ان قوات الاحتلال الاسرائيلية ستنال حب السكان المحليين الذين حرضوا على الكراهية مدة عقدين من الزمان . » اي أن المستر نيكولز لا يجد سببا لكراهية الفلسطينيين لاسرائيل غير التحريض . ثم يستمر الكاتب في عرض صورته للوضع في الارض المحتلة ، فيذكر ان ما ساعد الاسرائيليين في حملتهم على المقاومة في غزة هو نفس العنصر الذي يساعدهم في كل مكان اخر في الاراضي التي احتلوها : استعداد المعتقلين للبوح بكل شيء حال وقوعهم بأيدي الاسرائيليين . وقد يتساءل القارىء هنا ، لماذا اذا كان الامر كما يقول المستر نيكولز ، لم يتمكن الصهاينة من القضاء قضاء مبرما على المقاومة في غزة ؟ اذا كان المعتقلون يفشون كل شيء ويشون بزملائهم ، فما الذي منع اسرائيل من اجتثاث المقاومة في غزة في خلال الاشهر القليلة بعد حرب حزيران ؟ والغريب

ايضا ان المستر نيكولز يذكر في تقريره أن اساليب الاسرائيليين في معاملة الفدائيين قد أصبحت اقل عنفا ! ولكن الاكثر غرابة من ذلك قوله ان القضاء على قواعد المتسللين في سيناء كان احد اهداف الهجوم الاسرائيلي في حزيران ١٩٦٧، متناسيا بذلك وجود قوات الامم المتحدة على الحدود منذ عام ١٩٥٦ ، علما بأنه حتى اسرائيل نفسها لم تزعم يوما ان « مخربي فتح » تسللوا الى اسرائيل في الفترة الواقعة بين حرب السويس وحرب حزيران .

ويواصل الكاتب حشده لجميع الاكاذيب التي نفحتها الوقائع التاريخية الثابتة ، فيقول مثلا : « ان احد العناصر في حرب حزيران كان الاتهام السوري ، الذي انكرته اسرائيل ، بأن القوات الاسرائيلية تتأهب لمهاجمة قواعد المتسللين في سوريا . » معنى ذلك ان المستر نيكولز لم يسمع بتهديدات ايشكول ورابين العلنية لسوريا بعزم اسرائيل على تأديبها . ثم يستطرد مراسل التايمز ليقول : « ان سوريا كانت تقنع الطلاب العرب في الجامعات الاوروبية بالالتحاق بمعسكرات التدريب في الجزائر ، وكان الطلاب يفعلون ذلك كمورد رزق لهم ، الا ان نجاح اسرائيل في اعتقال المتسللين منهم بسرعة اثبط عزم البقية ، ولهذا اخذت سوريا تبعث بسجنائها للتسلل ، الا ان الهبوط في المستوى الثقافي للمتسللين لم يحسن من فعالية المشرفين على الحركة » .

ويتساءل القارىء هنا : اذا كانت اسرائيل قد اعتقلت عناصر ذات سجل اجرامي ، فلماذا لم تذع ذلك على العالم ؟ ولكن الواقع ان مقال المستر نيكولز كله يبدو وكأن الناطق العسكري الاسرائيلي (الخبير طبعا بالعلاقات العامة) قد املاه عليه وليس المستر نيكولز هو أول مراسل غربي وضع توقيعه تحت بيان دعائي اسرائيلي .

اذا استثنينا هذا المقال ، فان تقارير مراسلي التايمز (اذا كانوا في الاقطار العربية) هي عموما موضوعية ، اذ طالما اشار مراسلوها في بيروت وعمان الى نمو المقاومة واكتسابها احترام الزعماء العرب ابتداء من عبد الناصر الى قادة سوريا والعراق . كما تستضيف التايمز احيانا بعض الكتاب الذين عرفوا بتفهمهم المنصف للقضايا العربية ، ففي ١٩٦٨/٩/١٠ مثلا كتب توم ليتل (وهو خبير قديم بالشؤون العربية ومدير سابق لوكالة الانباء العربية) مقالا طويلا حلل فيه بعمق العوامل التي جعلت العرب يرحبون بظهور المقاومة الفلسطينية بعد أن كانت الحكومات العربية تنظر اليها بشك . كما نشرت الصحيفة حديثا اجراه دانا ادمز شميت (سابقا مراسل النيويورك تايمز) مع ياسر عرفات في ١٩٦٨/١٢/٤ ، ثم نشرت مقابلة اخرى مع الزعيم الفدائي اجراها معه دينيس ولترز وايان غيلمور بتاريخ ١٩٦٩/١/٢ . وايان غيلمور هو نائب محافظ يتعاطف مع العرب. ومع ذلك كله فقد ظل التوازن يميل الى الكفة الاسرائيلية فكل خبر مصدره احدى العواصم العربية ، تنشره الصحيفة بعد أن تستهله بالكلمة: ادعى . اما النبأ الذي يأتيها من اسرائيل ، فتكتبه بالصيغة المباشرة وكأن الشك لا يمكن ان يرقى اليه . وقد حاول المحرر هوجكين ان يصحح التوازن بعض الشيء ، فكتب مقالا رئيسيا عن سوء الحالة في الارض المحتلة ، وسياسة القمع الشديد التي تسير عليها سلطات الاحتلال (٢٨ /٦٩/١٠) الا ان هذا المقال اثار عاصفة مخيفة من الهيجان في الاوساط الصديقة لاسرائيل، وانهالت الرسائل التأنيبية الشديدة اللهجة على رئيس التحرير . كما شنت حملة منظمة على المحرر هوجكين ، فتراجعت الصحيفة باضطراب ، وبدأت منذ ذلك الحين تحاول استرضاء الصهاينة بأي ثمن . مثلا : وافقت في احدى المناسبات على نشر ملحق اعلاني للجامعة العربية عندما احتج مكتب هذه المؤسسة في لندن على اغفال الصحف البريطانية لوجهة النظر العربية . وفعلا نشرت الصحيفة هذا الملحق بعد أن تقاضت ثمنه ، ثم هاجمته في افتتاحيتها . وفي ١٩٦٩/٦/٧ اعتذرت رئاسة تحرير التايمز للصهاينة كتابيا بعد ان نشرت الصحيفة اعلانا قدمته لجنة من النواب البريطانيين المتفهمين للموقف العربي ، وذلك لانه تضمن ابياتا للشاعر شيلي فسرت بأنها مهينة للدين اليهودي. وفي ربيع ١٩٧١ نشرت التايمز مقالا بقلم ديفيد نيز ، السفير الامريكي الاسبق في القاهرة ، الا أنها سارعت الى سحبه من الطبعات الاخرى لذلك اليوم تحت الضغط الصهيوني المباشر . ولكن بالرغم من تحيز الصحيفة السافر ضد العرب ، الا انها لا تزال منجما للمعلومات . ففي ١٩٦٩/٥/٢٩ كشف معلقها العسكري شارلس دوغلاس هيوم النقاب عن استيلاء سلطات الاحتلال

الاسرائيلية على ارشيفات الحكومة الاردنية في الضفة الغربية اثر حرب حزيران ، فقال ان ما ساعد سلطات الاحتلال على اخماد اية انتفاضة في الضفة الغربية هو حصولها على هذه الارشيفات التي تتضمن معلومات وافية جدا عن اكبر عدد من الناس في المنطقة .

غارديان (لندن) : يعتبر الكثيرون هذه الصحيفة الليبرالية التي كانت سابقا تصدر في مانشستر بانها افضل صحيفة يومية في البلاد . أما بقدر ما يتعلق الامر بالعرب ، فالغارديان هي أول صحيفة بريطانية أيدت الصهيونية ، اذ يرجع تاريخ مساندتها لهذه الحركة الى العشرينات . وفي حديث عن هذه الصحيفة في البي بي سي ، اذيع في صيف ١٩٧١ بمناسبة ذكرى تأسيسها ، كال المتحدث الثناء لها باعتبار انها احدى مفاخر الصحافة البريطانية . وفي مجال تعداد افضالها ، ذكر انها كانت من اول المؤيدين للحركة الصهيونية في وقت كانت فيه هذه الحركة مجهولة ، وتقابل باللامبالاة من اكثرية الناس . وكان بامكان المتحدث ايضا أن يضيف الى ذلك فيقول انها اثناء حرب ١٩٤٨ كانت احدى الصحف البريطانية القليلة التي تبنت وجهة النظر الصهيونية ، في حين ان اغلبية الصحف انذاك لم تكن قد ادلت بدلوها في الجانب الاسرائيلي بعد .

وقد اثارت مقالات مراسلها في الشرق الاوسط ، مايكل ادامز ، ضجة كبيرة في الاوساط المعادية للعرب ، عندما فضح اضطهاد الاسرائيليين للعرب بعد حرب حزيران ، فاستغنت الغارديان عن خدماته . ولكن كمحاولة لمحو رد الفعل السيء لهذا الاجراء الشائن ، فقد نشرت الصحيفة تعليقا بتاريخ ١٩٦٨/٣/١٢ تطرقت فيه الى سياسة الاسرائيليين في هدم البيوت والقيام بهجمات انتقامية عبر نهر الاردن ، وعتبت على تل ابيب لانها لا تشجع المعتدلين في القاهرة والقدس القديمة . هذا التعليق اعتبرته رئاسة تحرير الغارديان بمثابة دليل على حياد الصحيفة لانه تضمن نقدا لاسرائيل بسبب تعنتها . الا ان هذا النقد المعسول اللهجة لا يمكن ان يضر بسمعة اسرائيل في المحافل الدولية ، فاسرائيل لا يهمها ان تصبح موضع الانتقاد الخفيف بسبب تعنتها الذي تفخر به ، بقدر ما هي تخشى التحليل العميق لسياستها وخططها ودوافعها الحقيقية ، وهو التحليل الذي افقد مايكل ادمز منصبه وجعله يظل عاطلا عن العمل الى ان تسلم منصب رئاسة مجلس التفاهم العربي البريطاني . ويمكن القول أنه منذ حادثة ادمز الشهيرة ، والمراسلون البريطانيون حريصون على عدم المساس « بكعب اخيل » في الدولة الصهيونية ذات النفوذ الدولي الكبير .

ان خط الغارديان الرسمي تجاه المقاومة الفلسطينية هو معاد بثبات ، الا ان مراسلها في البلاد العربية ، ديفيد هيرست ، هو من خيرة المراسلين البريطانيين في المنطقة ، فمقالاته عميقة وموضوعية بقدر ما هي بعيدة عن مجاملة العرب . ففي تقرير له نشر في ١٩٦٨/٥/٣ أصاب هيرست بيت الداء في المثقفين العرب عندما قال أنهم اقل من غيرهم استعدادا لتلويث أيديهم ، وقد ذكر ذلك في معرض حديثه عن رغبة فتح في ضم افضل العناصر من بين الشباب المثقف اليها . ولا شك ان مقال هيرست هذا كان من اذكى المقالات التي ظهرت في الصحف البريطانية عن حركة المقاومة حتى ذلك الحين .

وكأن رئاسة التحرير أرادت أن تبين تنصلها من استنتاجات مراسلها ، فظهر تعليق في عدد ٨/٦/ ٦٨ دار حول « مأساة اللاجئين الذين لولا العقبات التي وضعتها السياسة العربية في طريقهم لكان بالامكان اعادة توطينهم خارج اسرائيل » . وينتهي التعليق الى النغمة الغربية الشهيرة التي فحواها ان اجراء الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية داخل البلاد العربية هو خير من تبذير الموارد على حملات الجهاد .

وفي العدد ١٩٦٨/٩/٣ نشر هيرست تحليلا اخر لحركة المقاومة تحدث فيه عن « بعض افضل الضباط الاردنيين الذين كانوا في السابق عرضة لحملات تطهير لا تحصى ، بدأوا الان يلعبون ادوارا متزايدة الاهمية في حركة المقاومة الفلسطينية » . ويتحدث الكاتب عن صرف الملك حسين لحوالي ٧٥٠ ضابطا في اواخر الخمسينات من أجل الاحتفاظ بعرشه . ثم يعقد مقارنة بين فتح والجبهة الشعبية ، فيقول ان الجبهة هي ذات تفكير واقعي ملتصق بالارض ومتحرر من الاوهام ، بينما فتح تميل الى الرومانتيكية وفيها عرق سذاجة . الجبهة تركز على الاستراتيجية بينما فتح تضع اهتماما كبيرا على الشجاعة . وقد بدا هذا التباين بوضوح في الهجوم الاسرائيلي على الكرامة ، فقد خرق

رجال فتح قواعد حرب العصابات في تلك المعركة ليجابهوا القوة الاسرائيلية الضخمة وجها لوجه . اما رجال الجبهة فقد انسحبوا الى التلال المحيطة ليمطروا الاسرائيليين الزاحفين بالرصاص والقذائف الخفيفة من مواقع اختبائهم . ولكن (يقول هيرست) في هذه المعركة انتصرت الرومانتيكية على وجهة النظر التقليدية في حرب العصابات . ومع ذلك ، فعلى المدى البعيد وعبر المناوشات والاشتباكات الصغيرة التي تقع كل يوم بين الفدائيين والاسرائيليين ، من المتوقع ان تكون لواقعية الجبهة الاثر الاكثر فعالية . فالجبهة اكثر احترافا وتنظيما من فتح .

ويتحدث هيرست بعد ذلك عن الاصابات التي وقعت بمعسكرات فتح من جراء الغارات الجوية الاسرائيلية،فيقول ان قادة فتح يفكرون في الحصول على مدافع مضادة للطائرات ، بينما تعارض الجبهة هذا الاتجاه ، لان هذا التغيير في أسلحة رجال المقاومة معناه تحويلهم في النهاية الى جيش تقليدي وجرهم الى اصطدام حاسم مع الاردن . ويقول هيرست ايضا ان ضباط الجبهة الذين كانوا سابقا ضباطا في الجيش الاردني يحتقرون هؤلاء الساسة الذين يحاولون بناء صيتهم السياسي على حساب المقاومة عن طريق حقنها بنظريات سوسيولوجية واقتصادية بينما هي في الاساس نضال شعبي لا مواربة فيه .

ثم يذكر هيرست ان الجناح السياسي في كل منظمة هو الجناح الذي يضم اقل الاشخاص شعبية في اوساط المقاومين ، فان مواقف هؤلاء الرجال المتميزة باليسار المتطرف تخلق تفرقة مصطنعة بين الفلسطينيين انفسهم ، وعلى الارجح فانهم سيتخلون عن هذا التطرف في المستقبل غير البعيد. ويتطرق هيرست بعد ذلك الى المبالغات في البلاغات العسكرية للفدائيين ، فيتحدث عن صحيفة بيروتية تحافظ على توزيعها الضخم بواسطة التشبه بروح ونص بيانات اذاعة صوت العرب فيما قبل حرب حزيران . ثم يقول هيرست ان الجبهة تبالغ ايضا، ولكن على الارجح اقل من فتح ، ثم يتساءل : هل يمتلك افراد المقاومة التصميم والموارد النفسية اللازمة للتمكن من التغلب ليس فقط على عدو عظيم الكفاءة وعلى ارض صعبة جدا ، وانما على اخطائهم ايضا ؟ ان صحفية لبنانية كانت تنشد فضائل الفدائيين بالاسلوب العربي المعروف ، شبهتهم بالرهبان المسلحين ، لانها رأت أنهم قد كرسوا حياتهم لهدف التحرير . فقد وجدتهم في كهف بوادي الاردن ، ولاول مرة في حياتها وجدت ان اللغة اليومية لا تفي بالغرض ، فانزلقت الى العربية الكلاسيكية ، لغة القرآن .

أما عن تجربتي انا (يقول هيرست) فكانت مختلفة جدا . ففي القاعدة التي زرتها بدا لي الفدائيون وكأنهم اناس عاديون جدا ، وكانت هذه «العادية» هي اهم شيء عنهم ، اذ لم يبد عليهم ما يشير الى أنهم اناس يقودهم التعصب الاعمى ، او أنهم مجرمون او قتلة مأجورون . فقد ظهر أنهم طيبون وذوو مزاج سهل . وقد تخلى عدد منهم عن وظائف في اقطار عربية مختلفة كانت بالنسبة اليهم مربحة . وكرجال مقاتلين كانت نقطة الضعف فيهم هي حماستهم. احدهم كان في السادسة عشرة فقط. أما ابو عمار ، رجل فتح ، فهو الزعيم الفدائي الوحيد الذي أصبح شخصية عامة . انه رجل يجد المرء انه يحبه بالفطرة ، وكل من يقابله يميل اليه. ان له وجودا يترك انطباعا قويا ويشير الى شخصية قوية عميقة تتصف بالتواضع المخلص . انه دائما يخبر الصحفيين انه يعتبر نفسه الاخير بين رجاله واقلهم اهمية ، وانطباعي انه حقا يعني ذلك .

هذا التحليل تبعه تعليق لرئاسة التحرير ظهر في ١٩٦٨/١٢/٤ وتضمن تبريرا لاحتلال اسرائيل للاراضي العربية ولتصلبها . ومرة اخرى برزت النغمة العتيقة ، عندما تساءلت الصحيفة : هل الاصلح للدول العربية هو المزيد من المدافع ام الزبدة ؟ جواب الصحيفة : الزبدة طبعا .

وفي اليوم الذي ظهر فيه هذا التعليق، ظهر تقرير ارسله هيرست من بيروت وقال فيه ان الزمرة المقربة من الملك تضغط عليه ليتخذ موقفا حاسما ضد الفدائيين ، ولكن الامر الاكثر احتمالا هو أن ينصت الملك الى الجهات المضادة لهذا الرأي ، والا فالنتيجة ستكون انتحارية .

وللصحيفة مراسل آخر هو والتر شفارتز الذي زار قواعد فتح ، ونشر تحقيقه في ١٩٦٨/١٢/١٢ ، فامتدح العلاقات العامة في فتح وقال ان المقاومة تركت لديه انطباعا قويا . وبالرغم من أن شفارتز يهودي، وهو يذكّر الفدائيين دائما بذلك عندما يزور قواعدهم ، فتقاريره اكثر موضوعية من بعض المراسلين غير اليهود . كما أنها اكثر موضوعية من مراسل الصحيفة في تل ابيب : والتر فروس

يهودي آخر) . ففي ١٩٦٩/١/٦ كتب فروس يحذر لبنان تحذيرا مباشرا من مغبة الاستمرار بالسماح للمقاومة بمهاجمة اسرائيل من اراضيه .. « والا فان اسرائيل ستجد الوسائل لتجعل ثمن معاونة الارهابيين كثير الكلفة للبنان » .

وفي ١٩٦٩/٢/٦ بدأ تعليق الغارديان بالعبارة : « فتح وهي اكبر مجموعة فدائية ، برزت كزعيمة وناطقة بأسم العرب والفلسطينيين ، وقد حدث ذلك بمباركة الرئيس ناصر » . ومن هذه النقطة تتدرج الصحيفة في تحليلها لموقف الاسرائيليين ، فتختتمه بهذه العبارة : « الاسرائيليون بحاجة الى اقناع المعتدلين بين العرب بأن الامن وليس التوسع هو هدفهم». وفي ١٩٦٩/٢/١٣ نشر والتر شفارتز تقريرا عن زيارة اخرى له لقواعد فتح ، فذكر ان منظمات المقاومة تعلمت الكثير من العصابات الصهيونية التي حاربت العرب والانكليز قبل قيام اسرائيل .

وفي ١٩٦٩/٣/٢٠ وضع هيرست اصبعه على بعض السلبيات التي تضايق العرب حول المقاومة، فقال انها التأكيد على الحجم بدلا عن الكفاءة ، والاعتماد على العلاقات العامة بدلا عن العمل الفدائي ، والقيام بالعمليات السهلة كالقصف عبر نهر الاردن بدلا من التغلغل في أرض العدو ، والمبالغات في البلاغات العسكرية بدلا عن الصدق والدقة . وفي ١٩٦٩/٨/٢٩ كتب هيرست مقالا عنوانه : بين الفدائيين العمليين ، ومرة اخرى كان تحليله للمقاومة ايجابيا ، وقد تضمن حديثا مع ابو نضال ، احد قادة فتح . وقال هيرست في خاتمة مقاله : ان المقاومة نمت الى درجة اصبحت معها الحكومة الاردنية غير قادرة — بلا مساعدة عسكرية مباشرة من الغرب — على سحقها .

وقد عادت الغارديان فنشرت مقالا لمراسلها السابق مايكل ادمز في نيسان ١٩٧٠ ، الا انها اغفلت نشر فقرتين هامتين منه دون الاستئذان من الكاتب ، واضطر ادمز الى ان يكتب رسالة (نشرت في ٧ نيسان ١٩٧٠) يوضح فيها ما اغفلت الصحيفة نشره .

في ١٨ ايلول ١٩٧٠ نشرت الغارديان كاريكاتورا يظهر فيه طفل لاجيء يجلس مع امه داخل المخيم الذي تحيط به الاسلاك الشائكة . ويقول الطفل لامه : عندما اكبر سأصبح خاطف طائرات ، اذ هل توجد امامي فرصة غير هذه ؟

كما نشرت الغارديان رسالة من الشاعر الالماني اليهودي اريخ فريد يدافع فيها عن الفلسطينيين وعن خطفهم للطائرات ، ويهاجم اسرائيل بعنف ، ويذكر فريد انه كان في معسكرات الاعتقال النازية حيث فقد عددا كبيرا من اهله ، كما له اقارب في اسرائيل ، ومع ذلك فهو يتعاطف مع الفلسطينيين .

ونشرت الصحيفة رسالة من أ. ر. ميور دافع فيها بقوة عن الفلسطينيين . الا ان تعليقات الصحيفة ظلت معادية للمقاومة ، ومنها التعليق المنشور في ٣ ايلول ١٩٧٠ حيث قبلت الغارديان اتهام الملك حسين للمقاومة بمحاولة اغتياله للمرة الثانية خلال ثلاثة اشهر ، على علاته .

وفي ١٩٧١/٨/٢ كتب هيرست عن وقفة المقاومة الاخيرة في مدينة درعا . فقال ان قائد فتح ، في هذه المنطقة ، هو شاعر اسمه ابو هشام ، يجيب على اسئلة هيرست الصحفية بانشاده بعض اشعاره . ويعلق المراسل البريطاني على ذلك بقوله انها طريقة ادبية لطيفة لتفادي الاشياء غير المستحبة . ومن هذه الاشياء غير المستحبة وجود المقاومة في طريق مسدود شديد الخطر . ثم ينهي هيرست تقريره بالقول انه في حالة فشل الحصار الاقتصادي الذي ضربته الدول العربية حول الاردن، فسيترتب على الفدائيين انفسهم ان يفعلوا شيئا ما حتى لا ينقرضوا . انهم جميعا متفقون على وجوب عمل شيء ما ، الا انهم لم يتفقوا بعد على ماهية هذا الشيء .

ديلي تيليغراف (لندن) : هذه هي بين الصحف الجدية البريطانية ، الصحيفة الاكثر عداء للعرب. الا انها في حجم التغطية الصحفية تأتي في المرتبة الثانية بعد التايمز وتسبق الغارديان ، ولا سيما انها تحتفظ بعدد أكبر من المراسلين الخارجيين . ان الديلي تيليغراف تجاهر بتأييدها لاسرائيل ، وهو أمر غريب اذا علمنا أنها صحيفة المحافظين الذين يؤمنون في قرارة نفوسهم بتفوق العرق البريطاني، علما بأن عضو المؤسسة البريطانية المحافظة هو عموما معاد للسامية . الا ان عداء العرب للامبريالية البريطانية ، والسويس وعبد الناصر وحلف بغداد وعدن الخ .. جعلت الديلي تيليغراف تنضم الى معسكر اعداء العرب بحكم الضرورة . انها ذات لهجة جارحة جدا ولا تخفي حقدها على العرب ، وعزاء العرب يجب ان يكون انهم

بالنسبة لهذه الصحيفة يجلسون في نفس القارب مع الشعوب الملونة والاشتراكيين ، فهذه الصحيفة تعطف على جنوب افريقيا والاقلية البيضاء في روديسيا والبرتغال والجيش الفرنسي السري (في زمانه) وموبزي شومبيه عندما كان لا زال يحكم كاتانغا الخ .. احد مراسلي هذه الصحيفة : المستر رشارد بيستن ، هو الذي اخترع قصة قصف المصريين للملكيين في اليمن بقنابل الغازات السامة، وهو زعم لم تثبت صحته حتى الفحوص التي اجراها خبراء وزارة الدفاع البريطانية على شظايا هذه القنابل . وبيستن هو من اقدم المراسلين البريطانيين في المنطقة ، فقد قضى فيها اكثر من خمسة عشر عاما . الا ان الذي يقرأ تقاريره لا يمكن ان يصدق ذلك . فتحليلاته ضحلة واستنتاجاته غبية . مثلا : في ١٩٦٨/٤/٤ كتب عن « الدولة داخل الدولة في الاردن»، وتحدث عن الفدائيين الذين « يتجولون في المدن والعاصمة ويتجاهلون قوى الامن ويبتزون الاموال من التجار » . وقد كتب مراسلون آخرون عن ابتزاز الاموال هذا ، الا ان هؤلاء ادركوا في وقت مبكر، وكتبوا، ان «الفدائيين» الذين يتصرفون بهذا الاسلوب هم من الذين جندتهم الحكومة الاردنية خصيصا كي يسيئوا الى سمعة المقاومة . طبعا خبرة المستر بيستن بالشرق الاوسط التي تمتد خمسة عشر عاما لم تكن كافية لان يتبين ذلك .

ولكن مقال المستر بيستن كان النزاهة بعينها اذا قارناه بتقرير ظهر في ١٩٦٨/٤/٣٠ بدون توقيع ، وفيه كتب المراسل المجهول (ولعله بيستن نفسه) يقول ان الاحتلال الاسرائيلي هو الاكثر انسانية وكرما في التاريخ الحديث ، بل وحتى افضل من الاحتلال الامريكي لليابان بعد الحرب العالمية الثانية . ثم يتحدث الكاتب المجهول عن المقاومة باحتقار ، ومرة اخرى يخبرنا بحكاية ابتزاز الاموال في اسواق عمان .

وفي العدد الصادر في ١٩٦٨/٥/٧ كتب فيليب كلاينمان متحدثا عن نقض الجيش الاردني لاتفاقية سرية بين الملك حسين واسرائيل ، وهي اتفاقية كانت تنص على عدم تدخل الجيش الاردني في حالة هجوم الاسرائيليين على قاعدة المقاومة في الكرامة، وكيف ان الاسرائيليين يشعرون بأن حسين يجب ان يعترف بجميلهم لانهم يقومون بتنظيف مملكته من المشاغبين الذين يعملون لاسقاطه .

وفي عدد ١٩٦٨/٦/٧ نشرت مجلة الصنداي تيليغراف (الشقيقة الاسبوعية للجريدة) عددا خاصا عن الصراع العربي الاسرائيلي تضمن مقالات بقلم يائيل ديان وشمعون ترابار . والاخير هو اسرائيلي يعارض الصهيونية المتطرفة ، وقد كتب في مقاله يقول ان السؤال هو ليس هل لاسرائيل الحق في البقاء ، وانما اي نوع من اسرائيل له الحق في البقاء ؟ وفي ١٩٦٨/٧/٢٩ نشرت الصحيفة مقالا طويلا للبروفيسور غودهارت ، وهو استاذ سابق للقانون في اوكسفورد ، وفيه حلل البروفيسور الموقف في الشرق الاوسط من الناحية القانونية ، فجاء تحليله صهيونيا بحتا .

وفي ١٩٦٨/٨/٢٠ كتب مراسل الصحيفة في بيروت ، اريك داونتاون ، وهو الاخر احد المراسلين المخضرمين في المنطقة، مقالا طويلا قال في نهايته «ان البدو الموالين للعرش في الاردن يجري تسليحهم دون ضجة ، وان خال الملك ، الشريف ناصر بن جميل ، هو المسؤول عن هذا الاجراء الاحتياطي ». اما فيما يتعلق الامر بالاثر الذي تحدثه المقاومة في الارض المحتلة ، فقد كتب مراسل الصحيفة في اسرائيل ، ديفيد لوشاك ، تقريرا من مستعمرة كفار روبين المتاخمة لنهر الاردن ، والتي كانت آنذاك تتعرض لقصف شديد بالهاون وصواريخ الكاتيوشا يوميا تقريبا ، فنقل نص حديث دار بينه وبين احد سكان المستعمرة الذي قال له : كم اتمنى ان نبادل اطفالنا لبضعة سنين مع اطفال سويسريين ، فهناك يتمتعون بسلام حقيقي ، ولا ينامون في الملاجيء كل ليلة . ان السويسريين ليس لديهم اطفال بلغوا الرابعة من العمر دون ان يتعلموا الكلام وذلك بسبب اصابتهم بالصدمة من جراء القصف . اننا لن ننتقل من هنا ، ولكننا ايضا لا نتظاهر بأن العيش هنا جنة !

ولا يبدأ اعتراف الصحيفة بفعالية المقاومة الا في وقت متأخر جدا ، عندما كتب ريشارد بيستن من عمان (في ١٩٦٨/١٠/٨) قائلا : «ان الكوماندو هم رجال اقوياء البأس ، كرسوا حياتهم لاستعادة اراضيهم المفقودة . وهم خارج سيطرة اية دولة لان قوتهم ونفوذهم نابعان عن شعبيتهم مع الجماهير العربية . كما ان سياستهم هي المجابهة المسلحة المستمرة مع اسرائيل ، لمدة اجيال ان تطلب الامر ذلك ، وسيفعلون كل ما بوسعهم لمنع الحكومات العربية من الارتخاء في هذا الصراع . ان الكوماندو

الفلسطيني المسلح برشيش الكلاشنكوف والمقتنع بكونيته اصبح الان البطل الجديد للعالم العربي».
وفي أوج الحديث عن تصاعد الازمة بين المقاومة والملك حسين ، نشرت الصحيفة في عدد ١٠/١٣/ ١٩٦٨ رسالة من ملك الاردن بين فيها «عدم وجود النية لديه على تحويل الاردن الى دولة «غيريلا»، ولا حتى الى دولة شمبانزي»» بل ليست له رغبة في السماح لاعمال اي قرود اخرى في بلاده (حسب تعبيره) . ويجب ان نذكر هنا انه بالرغم من معاداة التيليغراف لكل ما هو عربي ، فانها تؤيد النظام الاردني لصداقته التقليدية مع بريطانيا، ولان زوجة الملك هي انكليزية ، ولذلك تتخذ الديلي تيليغراف موقفا ابويا من الملك حسين ، وقد انبته قبل سنوات في مقال كتب بلهجة حازمة لانه لا يسمح لزوجته السابقة دينا بمقابلة ابنتها منه . وفعلا سمح الملك لمطلقته ان ترى ابنتها ، اثر ذلك المقال. وبالرغم من سجل بيستن الطيني كمحلل سيىء النية للموقف العربي ، فانه احيانا يصيب في آرائه . ففي ١٩٦٩/١/١٥ كتب يقول : « ان الخلق العربي المكرس للانقسام يحتوي على ميل قوي ولكن ليس غير مستحب ، للفوضى . وهذا ما يجعل العالم العربي منقسما على نفسه . ولكن بامكان العرب ايضا ان يكونوا عنيدين وعنيدين الى اقصى حد . وهذه خصلة فيهم اكتشفها الصليبيون ، وقد بدأت اسرائيل تدركها ايضا . ان لاسرائيل ارقى شبكة استخبارات في الشرق الاوسط ، ولكن مع انها تكاد تعرف كل شيء عن العرب ، الا انها لا تتعلم شيئا (..) ومن الواضح الان ان العقل العسكري هو الذي يسيطر على تفكير اسرائيل السياسي اليوم » .
وفي ١٩٦٩/٢/٢٨ نشرت المجلة — الملحق ريبورتاجا مصورا مستفيضا (خمس صفحات) عن المقاومة بقلم المراسلين باتريك مارنهام وجون بيركنز ، وقد اثار هذا الريبورتاج استغراب قراء التيليغراف لانه كان لا يخلو من التعاطف مع وجهة النظر الفلسطينية. ولكن في ١٩٧٠/٥/٧ كتب ايريك داونتاون من بيروت يهاجم العنف في السياسة العربية ويعقد المقارنة الحتمية بين الحشاشين في القرن الثاني عشر والفدائيين اليوم . وقد تضمن هذا التقرير الكليشيه العتيقة التي مؤداها ان الشيء الوحيد الذي يجمع بين الاقطار العربية هو كراهيتها لاسرائيل .
وفي اثناء الحرب الاهلية الاردنية في ايلول ١٩٧٠ وازنت الصحيفة بين تغطيتها للقتال وبين زيارات مراسليها لعائلة الملك حسين في لندن ، مع تقديم بروفيلات للملك . فكتب رونالد بين في ١٣ ايلول ١٩٧٠ يتحدث عن شجاعة الملك ونبله وبطولته .
ديلي اكسبريس : هذه هي صحيفة بوليفاردية ذات تغطية ضمينة لاحداث الشرق الاوسط لانها في الدرجة الاولى تهتم بالشؤون الداخلية للبلاد ، وخاصة بالفضائح . ولكن عندما تكتب عن العرب ، فهي تتفوق حتى على الديلي تيليغراف في التجريح وتلويث السمعة . ذات توزيع بالملايين .
ايفننغ ستاندرد : المختص فيها بشؤون الشرق الاوسط هو الصهيوني المعروف جون كمشه الذي اشتهر باكاذيبه المفضوحة . ومنها الكذبة التي نشرها في العدد المصادف في ٦٨/٤/٢٣ عندما كتب ان الكولونيل (كذا) ياسر عرفات قادم الى لندن ثانية ، وتحت اسمه الحقيقي هذه المرة . وقال ان الكولونيل زار لندن عدة مرات خلال الاشهر الستة الاخيرة ، وكان في كل زيارة يستعمل اسما جديدا . وكان في لندن عندما اختفت الغواصة الاسرائيلية داكار ، فاتصل به (أي بكمشه) الناطق الرسمي لياسر عرفات تليفونيا عند منتصف الليل ليخبره (أي كمشه) ان فتح هي المسؤولة عن اختفاء الغواصة. ان ياسر عرفات يحمل الرقم الاول في قائمة الذين تطلبهم اسرائيل ، وحينما علم عند الهجوم على الكرامة بأن الاسرائيليين يبحثون عنه في المخيم ويعرفون كل شيء عنه ، تمكن من الافلات قبل أن يطبقوا على المخيم . وفي مساء اليوم نفسه كان قد وصل الى باريس .
ولم يخبرنا المستر كمشه لماذا قرر الكولونيل عرفات ان يتوجه الى باريس بعد معركة الكرامة مباشرة . وفي مقال آخر لهذا الدعائي الصهيوني المخضرم ظهر في هذه الصحيفة المسائية البوليفاردية بتاريخ ١٩٦٨/٨/٥ كتب كمشه ان بعض الفلسطينيين الذين لا يرقى الشك الى وطنيتهم (حسب تعبيره) ألحوا على الملك حسين . وقد ساندهم في هذا الالحاح الاشتراكيون الاردنيون (!!) أن يتخذ الاجراءات الفورية ضد الجماعات الارهابية التي تعمل من الاراضي الاردنية . لماذا لم يتخذ اية اجراءات فان الارهابيين سيجلبون على البقية الباقية من مملكته وعلى الامة الفلسطينية نفس الكارثة التي حلت في السنة الماضية (أي حرب حزيران) بمصر وسوريا . وكانت هذه الجماعة

تعطف في السابق على فتح ، ولكنها هددت باتخاذ اجراءات ضد الارهابيين في حال عدم قيام حسين بذلك . وقد قويت يد الملك عندما اصدر الرئيس العراقي حسن البكر امرا الى القوات العراقية التي تتألف من سبعة عشر الف رجل لمساندة حسين في اي عمل ضد فتح.وكان ياسر عرفات قد عاد من موسكو قائلا انه حصل على وعود بتزويده بالسلاح، الا انه اثناء غيابه في موسكو قامت حركة انقلابية داخل فتح ، قادها فيصل العواف ، خريج السوربون . هذه كانت رواية المستر كمشه صاحب الخيال الصهيوني الواسع .

سكوتسمن : هذه الصحيفة الاسكتلندية تعتبر افضل صحيفة بريطانية تصدر خارج لندن . لقد ابدت بعض الاهتمام الجدي بالمقاومة ونشرت مقابلة مع بعض الفدائيين في عدد ٦٨/٣/٢٨ كانت موضوعية . الا ان الصحيفة هي عموما ضد العرب والمقاومة ، كما ان مراسلها في اسرائيل ، فرانسيس اوفنر ، هو اسرائيلي والمقاومة بالنسبة اليه تتألف من عصابات من الارهابيين ، لا غير ، كما ان السكوتسمن تبرر الهجمات الاسرائيلية (الإنتقامية) وتدين المقاومة كحركة تحريرية .

يوركشير بوست : ذات تحيز واضح ، وتقارير مراسلها جفري ويفودر هي عموما ذات لهجة مناوئة للعرب .

فايننشيال تايمز : اهم صحيفة اقتصادية يومية تصدر في بريطانيا . معتدلة اللهجة ورصينة . في ١٩٦٨/١٢/٣٠ كتب محررها للشؤون الخارجية ، ج. د. ف. جونس مقالا طويلا بدأه بالعبارة : « ان الكوماندو الفلسطينيين اخذوا الان يحصلون على تغطيات صحفية اكثر تعاطفا مع وجهة نظرهم عن ذي قبل » . الاتجاه السائد في تعليقات هذه الصحيفة هو ان اهمية الفدائيين لا تكمن في الناحية العسكرية وانما في انها خلقت الادراك بوجود الشعب الفلسطيني في العالم . ولكن عموما تؤيد هذه الصحيفة مبدأ الاستقرار في الشرق الاوسط حتى وان كان ذلك الاستقرار هو حاصل على حساب العدل . اسرائيل قد خلقت لتبقى : هذه هي نقطة الانطلاق لكل تعليق يظهر على صفحات فايننشيال تايمز . ويمكن القول ايضا ان هذه هي كذلك نقطة الانطلاق لاكثرية الصحف غير الملزمة التزاما تاما بتأييد اسرائيل .

الصحف الاسبوعية الصادرة يوم الاحد :

ذي اوبزرفر : هذه هي صحيفة المثقفين واحدى مفاخر الصحافة البريطانية ، فهي معروفة بمواقفها الشجاعة المتحررة وتحليلها الذكي العميق وعدم انسياقها وراء الراي العام اذا كان ذلك يتعارض مع اجتهاد محرريها ومعلقيها . انها مثلا عارضت الهجوم البريطاني على السويس عام ١٩٥٦ (بينما التايمز ايدته بعد تردد طفيف) مع ان هذه المعارضة افقدتها حوالي خمسة آلاف قارىء . الا ان الاوبزرفر سقطت في الامتحان الاكبر عندما سارت في طريق بقية الصحف البريطانية ، فاغفلت الحق الفلسطيني ، وفقدت بذلك نزاهتها الشهيرة .

في ١٩٦٨/٣/٣١ تحدث المراسل الدبلوماسي فيها روبرت ستيفن عن نتائج معركة الكرامة ، فذكر ان هذه المعركة قد انهت بنظر العرب أسطورة الجيش الاسرائيلي كجيش لا يقهر . الا ان المزاج العربي يعبر بسرعة من اليأس الى الفرح ويمكن ان يعود ادراجه بنفس السرعة . وقال ستيفن ان عرش حسين يرتكز على وجود الفدائيين بقدر ما يرتكز على الجيش الاسرائيلي ، ولكنه لن يستطيع ان يستعيد سيطرته على الفلسطينيين بواسطة اجراءات الامن العسكري القاسية التي كانت حكومته مسؤولة عنها في الضفة الغربية قبل الحرب .

وقد تضمن نفس هذا العدد من الاوبزرفر تقريرا من مراسل الصحيفة في تل ابيب ، الصهيوني فرانسيس اوفنر ، كانت آخر عبارة فيه هي : لو ان اصدقاء الملك حسين الغربيين يستطيعون اقناعه بأن مشكلته ستصبح اكثر قابلية للحل فيما لو هو قاوم الارهابيين وليس اسرائيل ، لكان الاسرائيليون اكثر استعدادا للموافقة على بقائه .

وفي العدد ١٩٦٨/٩/١ كتب كولن ليجوم مقالا طويلا من القدس بعنوان : المقاومة تجبر الاسرائيليين على النوم في الملاجىء — اسرائيل قلقة من ظاهرة فتح العسكرية اكثر مما هي قلقة من الجيوش العربية.

وقال ليجوم ان المتحمسين العرب الذين تحدث معهم في طول وعرض الاراضي المحتلة يعترفون بأن فتح فشلت في اقامة قواعد لها بالمناطق المحتلة لان العوائل العربية لا تريد المجازفة بهدم بيوتها على أيدي الاسرائيليين . ولكن (يقول هؤلاء المتحمسون) هذا لا يمنعنا من ايواء الفدائيين في قلوبنا . ثم يستطرد الكاتب ليقول ان غزة هي البقعة الوحيدة التي تثير مشكلة أمن للاسرائيليين . ويختتم ليجوم

تقريره بقوله ان الاسرائيليين يرون في ياسر عرفات اول زعيم فلسطيني . فهو رجل شجاع كرس حياته لخدمة شعبه . ومع ان تكتيكاته الحالية لن تقربه من هدفه ، الا انه قد يلعب في يوم من الايام دورا هاما في المفاوضات مع اسرائيل لتسوية المشاكل التي خلقها اقتلاع جذور العرب الفلسطينيين .

وفي ١٩٦٨/٩/٨ كتب نفس المراسل تقريرا آخر بعنوان : اسرائيل تركز آمالها على صلح مع الفلسطينيين ، تحدث فيه عن العلاقات بين الاسرائيليين والفلسطينيين على الصعيد الشخصي. ويظهر من سياق حديثه انه استقى معلوماته من الاسرائيليين ، ومن فئات معينة في الجانب العربي. فهو يكتب مثلا ان موشي ديان ، المسؤول المباشر عن ادارة المناطق العربية ، هو الزعيم الاسرائيلي الاكثر شعبية بين العرب ، وحتى بين هؤلاء الاكثر شعورا بالمرارة . فهم يمتدحون صراحته ويحترمون ثبات رأيه . ويكتب المراسل ايضا ان الموظفين في الضفة الغربية يتقاضون رواتبهم من الجهتين : الحكومة الاردنية واسرائيل . ويتحدث بعد ذلك عن المناطق المحتلة ، فيرسم صورة زاهية للاحتلال ويبين ضمنا أنه لا يكاد يوجد اثر لسوء المعاملة او الاضطهاد .

اما اكثر مراسلي الاوبزرفر موضوعية ، والذي يمكن وضعه على صعيد واحد مع ديفيد هيرست من ناحية النزاهة الصحفية وبعد النظر في التحليل ، فهو غافن يونغ ، الذي كتب عن التحديدات التي وضعتها السلطات الاردنية على المقاومة ، في عدد ١٩٦٨/١٠/٢٠ ، وقد تضمن هذا العدد مقابلة مع ياسر عرفات . وفي العدد الصادر في ١٩٦٩/٣/٩ كتب من القدس المحتلة تحليلا عميقا عن وضع الاحتلال في المدينة المقدسة ، فأجرى بحثه تحت السطح المخادع ، ليفضح زيف العلاقات الودية ، التي قال بقية المراسلين ، ومنهم كولن ليجوم ، انها تسود بين العرب وسلطات الاحتلال . كما انتقد غافن يونغ هؤلاء المراسلين الغربيين الذين يستقون جميع معلوماتهم من الاسرائيليين فينشروها وكأنها لا تتضمن الا الصدق ، ولا ترسم الا الصورة الصحيحة للوضع . وكان يونغ من اوائل الذين كتبوا عن النفور الذي تحسه الشخصيات الكبيرة في الاردن للفدائيين ، وكيف ان هذه الشخصيات تنظر بنقمة من خلال نوافذ سياراتها الفخمة الى الفلسطينيين المسلحين . ويحس القارىء من هذه العبارات مع اية جهة يتعاطف هذا المراسل البريطاني النزيه ، ولكن موقفه هذا لم يؤثر على السياسة التحريرية للصحيفة ، التي ظلت كأكثر الصحف البريطانية الاخرى تفضل الاستقرار في الشرق الاوسط واستتباب الامن فيه ، على رفع الظلم والاجحاف . ففي ١٩٧١/٧/٢٥ كتبت الصحيفة في تعليقها تقول ان تدمير جيش الملك حسين للفدائيين الفلسطينيين سيفهم في اوساط عديدة على انه ازالة لعقبة في طريق السلام في الشرق الاوسط .

صنداي تايمز : كانت هذه صحيفة ضعيفة المستوى مقلدة للاوبزرفر في الخمسينات . وكان مراسلها في البلاد العربية ضابط بريطاني سابق في الجيش الاردني ، هو سليد بيكر ، يكن حقدا اعمى على كل ما هو عربي . ثم ابتاع اللورد تومبسن هذه الصحيفة ، واتاح لها الموارد المالية التي سمحت لها ان تضم الى اسرتها التحريرية جماعة من افضل المعلقين السياسيين والمحررين والمراسلين في البلاد. فكان مراسلها في البلاد العربية هو بيتر مانسفيلد، وتبعه ديفيد هولدن وجفري سمنر . ومع ذلك ، لا يمكن القول ان الصنداي تايمز تتخذ موقفا موضوعيا محايدا في الشرق الاوسط . فمراسلها بيتر نيكولز ، الذي غطى نتائج معركة الكرامة ، ونشر تقريره في ١٩٦٨/٣/٢٤ من تل ابيب كان يبدو وكأنه استقى معلوماته كلها من الناطق العسكري الاسرائيلي .

وعندما اثار المحرر هوجكين في صحيفة التايمز (شقيقة الصنداي تايمز) العاصفة الصهيونية المعروفة لانه كشف عن سوء الحالة في الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزه ، كلفت الصنداي تايمز مراسلها الصهيوني ديفيد ليتش ان يتقصى الامر ، فجاء فحوى تحقيقه انه لا يوجد دليل ثابت على اضطهاد الاسرائيليين للعرب .

وفي العدد الصادر في ١٣ أيلول ١٩٧٠ نشرت الصحيفة (قصة ليلى خالد) في صفحتين كما كتبها الصحفي الهندي غودفري جانسن ، الا ان رئاسة التحرير قدمت المقال بالفقرة التالية : ان اشمئزازنا لهذه الجريمة (خطف الطائرات) هو واضح في تعليقنا المنشور بنفس العدد ، ويجب ان نضيف هنا ان الصنداي تايمز قد اتخذت الاجراءات اللازمة لتتأكد بأنه لن يذهب اي جزء من الاتعاب الصحافية المعتادة التي سيتقاضاها المستر جانسن ، الى ليلى خالد او الى الفدائيين بأية طريقة من الطرق ،

بل ان المستر جانسن نفسه قد استغنى عن نصف اجرته طالبا ان نقدمها الى جهة خيرية معترف بها تقوم بمساعدة اللاجئين .

المجلات الاسبوعية :

ايكونوميست : هذه هي اشهر مجلة اقتصادية في بريطانيا وذات تغطية مستفيضة لاحداث الشرق الاوسط . بعنوان « تحذير من اسرائيل » وبتاريخ ١٩٦٥/٦/٥ كتبت هذه المجلة عن الهجوم الاسرائيلي على الاردن فذكرت انه جاء نتيجة لاعمال المخربين في سوريا.وفي عام ١٩٦٦ كانت من اول الصحف الغربية التيتحدثت عن منظمة «أبطال العودة».وقد نظرت المجلة (التي لا تنشر ابدا اسماء معلقيها او مراسليها) نظرة شك الى تصريح الشقيري بأن جيش التحرير الفلسطيني سيختار الوقت المناسب لتحرير فلسطين ، باعتبار ان هذا الجيش الذي يتألف من عشرة آلاف مقاتل لا تسانده الدروع الثقيلة ولا الطائرات ، لا يصلح للقتال الا في دور اضافي مساند لجيش ضخم . ثم ذكرت المجلة ان نقطة الخلاف بين فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية هي : هل نضرب الان عندما لسنا نحن على استعداد ، ام هل ننتظر فنجازف بألا نكون على استعداد ابدا ؟ وفي ١٩٦٦/١٢/١٠ تحدثت الايكونوميست عن «جبهة تحرير فلسطين » ، فقالت انها قد تصبح اكثر المنظمات فعالية ، وان ازدياد تأثير هذه المنظمات يعود الى تذمر سكان الضفة الغربية من تمكن اسرائيل من شن الهجمات دون عقاب او حتى مقاومة تذكر .

وفي ١٩٦٧/١/٢٨ كتب مراسل المجلة في اسرائيل يقول ان المسؤولين الاسرائيليين يقرون بأنه مع ان مخربي فتح يتقاضون اجورهم ويحصلون على اسلحتهم من السوريين ، وتدريبهم الاستخبارات السورية ، الا انهم مع ذلك ليسوا تحت السيطرة السورية التامة . وقد تضمن هذا التقرير اعترافا بأن غارات فتح قد بدأت تزعج اسرائيل كثيرا ، وجعلت الاصوات في الدولة الصهيونية ترتفع مطالبة بالانتقام من سوريا .

وفي ١٩٦٧/٥/٢٠ ، اي قبل اسبوعين من حرب الايام الستة ، كتبت الصحيفة عن قرب هبوب العاصفة الهوجاء بين اسرائيل والدول العربية نتيجة لتصاعد اعمال الفدائيين . ويمكن القول ان الايكونوميست (التي كان كيم فيلبي في يوم من الايام مراسلها ومراسل الاوبزرفر من بيروت) هي من اكثر الصحف البريطانية اطلاعا على الشؤون العربية . الا انها دائما تكتب عن المقاومة بنفور سافر ، تحول الى هستيريا فيما بعد بسبب حوادث اختطاف الطائرات ، حينما اخذت المجلة تطالب باتخاذ أقسى الاجراءات ضد « القرصنة الجوية والاجرام الدولي » .

نيو ستيتسمن : هذه هي مجلة اليسار الاولى في بريطانيا . انها ذات مستوى كتابي رفيع ، وهي عموما ضد السياسة الامريكية الخارجية وفي كثير من الاحيان تهاجم الامبريالية البريطانية . كما كانت ضد الاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، الا انها شديدة التعصب لاسرائيل . كتّابها أمثال ريشارد كروسمان (رئيس تحريرها الحالي والوزير العمالي السابق) وكنغسلي مارتن (الذي توفي قبل اعوام) هم من يساريي الثلاثينات الذين تحالفوا مع الصهيونيين آنذاك لمكافحة الفاشستية في بريطانيا . كما ان افتتان هؤلاء المثقفين اليساريين بماركسية بعض الزعماء الصهاينة واعجابهم بمزارع الكيبوتز في اسرائيل « وتحول الصحراء الى بساتين يانعة » أعمت عيونهم عن فاشية هذه الحركة . علاوة على ان معاداة اليسار لليمين البريطاني الامبريالي الذي كان في السابق صديقا تقليديا للملوك والسلاطين والشيوخ العرب ، غرس في ذهن اليساريين البريطانيين بذور التحيز ضد كل نظام عربي ، باعتبار انه رجعي بطبيعته واقطاعي وغارق في اليمينية . وحتى قيام الاشتراكية في بعض الاقطار العربية وصف في هذه المجلة بأنه تطور هو اقرب شبها بالاشتراكية القومية (أي النازية) مما هو بالماركسية التحررية الصحيحة .

في هذه المجلة ركن اسرائيلي ثابت مكرس للكاتبة الاسرائيلية نعومي شبرد التي عرفت بمزجها التلفيق بالدعاية الاسرائيلية والتهديد . لها تلفيقات لا تنسى بسرعة ، كتبت مرة (١٩٦٥/١٠/٢٢) أثر زيارة عبد الحكيم عامر الرسمية الى باريس ، قالت ان فرنسا باعت الميراج الى الاردن .

وفي عشية حرب حزيران ، كتبت مايكل فانشر في عدد ١٩٦٧/٥/٢٦ قائلة : ان الموقف ناضج للحرب . الا ان الرأي العربي لا زال مترددا ، فهو يعتقد ان الاصطدام بات حتميا ولكنه يظن ايضا ان الغرب لن يسمح ابدا للاصطدام ان يقع . والواقع ان وجود المبادرة بيد العرب هو الذي يربكهم كل

الارياف .

ومع ان هذه المجلة تحرص على تقليل شأن المقاومة، الا ان نمو هذه المقاومة يقلقها ويضطرها في النهاية الى الاعتراف بها . فقد كتبت نعومي شبرد في ٢٨/٢/١٩٦٩ تقول ان ادعاء الفدائيين العرب انهم قتلوا ليفي ايشكول هو ادعاء سخيف وتلفيق صبياني ، ولكنهم مع ذلك ، وحتى في الاسبوع الذي مات فيه الرئيس الاسرائيلي لا زالوا اعظم خطر على اسرائيل .

سبكتيتر : هذه المجلة الليبرالية كانت في الخمسينات معادية للعرب ، ثم ابتاعها النائب المحافظ ايان غيلمور وجعلها اكثر الصحف الغربية تفهما لوجهة النظر العربية . الا انه باعها قبل سنوات ، فاشتراها رجل متزوج من يهودية ومنع التطرق الى الصراع العربي الاسرائيلي. الا ان اهمية الاحداث التي وقعت في المنطقة ارغمت المجلة على انهاء تجاهلها ، فكتب ديفيد برايس جونس (وهو مراسل يكتب ايضا في الصنداي تيليغراف وعرف بمعاداته للعرب) مقالا بتاريخ ٥/٤/١٩٦٨ تحدث فيه عن شوارع عمان الملأى برجال فتح ، وقال ان المستوى بين الفدائيين قد هبط مؤخرا ، فأصبحوا يتقاضون الخوة من اصحاب المتاجر ، وما ان يعتقلهم الاسرائيليون حتى يشوا بزملائهم بسرعة . المقال كله هو ترديد لما تقوله الصحف الاسرائيلية عن الفدائيين .

ولم يكن مقال كودليب نايار ، رئيس تحرير الصحيفة الهندية (ستيتسمن) الصادرة في نيودلهي والذي نشرته السبكتيتر في ٧/٢/١٩٦٩ يتضمن درجة أعلى من الموضوعية او الانصاف . فهذا الصحفي الهندي الذي تجول في المنطقة وزار اسرائيل ، خرج بانطباع سلبي عن المقاومة ، وظل الفدائيون بالنسبة اليه جماعة من الارهابيين لا يسببون الا المضايقات لاسرائيل .

احد الكتاب الجيدين في هذه المجلة هو جورج غيل الذي تمكن من وضع اختطاف الفدائيين للطائرات في اطاره الصحيح ، فكان بذلك احد المعلقين القلائل في الغرب الذين تفهموا وجهة نظر الجبهة الشعبية بخصوص خطف الطائرات .

المقاومة الفلسطينية في الصحف الالمانية

سويسرة الالمانية :

نويه تسوريشر تزايتونغ (زيورخ) : هذه الصحيفة اليومية هي اهم صحيفة سويسرية تصدر بالالمانية . بل ان الاعتقاد السائد بين افراد الطبقة الالمانية المثقفة في المانيا الغربية والنمسا وسويسرا ، انها افضل صحيفة يومية ناطقة بالالمانية على الاطلاق . فهي واسعة النفوذ بالرغم من توزيعها المحدود ، وهي رصينة رزينة وذات اتجاه محافظ يميل الى الليبرالية . وتغطي هذه الصحيفة انباء الشرق الاوسط باستفاضة ، حيث يوجد لها في المنطقة العربية مراسل يعتبر من اشهر المتخصصين في شؤون الشرق الاوسط بين مراسلي الصحف الناطقة بالالمانية ، هو ارنولد هوتنغر المستشرق . والمعروف عن المستشرقين انهم يميلون في العادة الى الجانب العربي وينصفوه ، الا ان هوتنغر ليس بين هؤلاء ، وقد يكون السبب الذي يدفعه الى التحيز ضد العرب هو انه يراسل صحيفة تصدر في بلد يطغي عليها النفوذ الصهيوني ، وسبق لها ان اتخذت موقفا مناوئا للعرب منذ البداية .

لا يمكن ابدا وصف هذه الصحيفة الزيورخية بالتجرد والموضوعية عندما تكتب عن الصراع العربي الاسرائيلي . ففي أيار ١٩٦٥ كتبت عن الهجوم الانتقامي الذي شنته القوات الاسرائيلية على الاردن ، فقالت انه لم يأت كمفاجأة بعد تزايد حوادث التخريب في اسرائيل وهي (الحديث دائما للصحيفة) الحوادث التي مصدرها سوريه ، البلاد التي يجري فيها تدريب الكوماندو ، والتي تقودهم . الا ان هؤلاء الكوماندو يتخذون من الاردن ممرا لهم الى اسرائيل . وبالرغم من تحذيرات اسرائيل المتكررة للاردن بمنع سوريه من السماح لهم بالتسلل عبر اراضيه ، والا فالاردن سيقاسي نتيجة لذلك ، الا ان هذا التسلل ما زال يحدث . ثم تتوصل الصحيفة الى الاستنتاج الى ان هذه العمليات التخريبية هي نوع من الموسيقى المرافقة لمؤتمر القمة في القاهرة (عام ١٩٦٥) . ولما كانت العمليات التخريبية موجهة ضد المدنيين ، فالاراء في اسرائيل متفقة على عدم السماح لها بالاستمرار. هذا الخبر المنشور في عدد ٢٩ ايار ١٩٦٥ مصدره تل ابيب ، وقد بعثه مراسل الصحيفة في اسرائيل، الذي اكتفت الصحيفة بطبع الحرفين الاولين فقط من اسمه ، كعادتها مع مراسليها . وهو على الارجح اسرائيلي ، كاغلبية مراسلي الصحف الغربية في الدولة الصهيونية ، ولذا فتحليله للموقف هو مجرد ترديد لوجهة النظر الرسمية في اسرائيل . ولا ريب

ان الدوائر المطلعة في اسرائيل كانت منـذ ذلك الحين تعلم بوجود منظمة ثورية فلسطينية ، هي فتح ، تعمل في سبيل تحرير فلسطين ، ولكن المصلحة الصهيونية كانت تقتضي وضع اللوم كله على الحكومة السورية باعتبار انها هي المسؤولة أولا واخيرا عن عمليات التخريب . أما الاعتراف بوجود منظمة فلسطينية أهلية مستقلة ، فمعناه الاعتراف بوجود كيان طالما انكرتـه اسرائيل : الشعب الفلسطيني . وقد قام مراسل الصحيفة في اسرائيل : غ.ل ، بنقل وجهة النظر الاسرائيلية الرسمية المعدة للاستهلاك الخارجي بكل أمانة ، ودون ان يكلف نفسه عناء مناقشتها . ومما يلفت النظر ايضا التخبط الذي تقع به هذه الصحيفة السويسرية عندما تريد ان تطلق اسما على المقاومين الفلسطينيين . انهم قبل حـزيران ١٩٦٧ مخربون وارهابيون ، ثم بعد معركة الكرامة في آذار ١٩٦٨ يصبحون متسللين . ومن الجدير بالذكر بمناسبة معركة الكرامة ، ان مراسل الصحيفـة في البلاد العربية ، الدكتور ارنولد هوتنغر ، وهو مؤلف اكثر من كتاب عن الشرق الاوسط ، لجأ الى طريقة غريبة في التحدث عن هذه المعركة بعد ان اتفق جميع المراسلين الاجانب على انها لم تكن مجرد نزهة للجيش الاسرائيلي . فلكي يتجنب هوتنغر كشف النقاب عن فشل الحملة الاسرائيليـة في هجومها على قاعدة المقاومة الفلسطينية ، فانه لا يتحدث عن مشاهداته هو لاثار المعـركة ، وانما يستشهد بلهجة هازئة بما كتبته الصحف العربية عنها ، فيضع بين فاصلتين « ادعاءات » الصحف العربية عـن خسائر الاسرائيليـين في الارواح والمعدات . ولو انه كلف نفسه عناء التوجه الى وادي الاردن ، كما هو واجب اي مراسل يشعر بالمسؤولية ، لشاهد بنفسه المعدات المحطمة التي خلفها الجيش الاسرائيلي في انسحابه المضطرب . الا ان مراسل الصحيفة الزيورخية فضل على ذلك الاستشهاد بالصحف العربية ، على اساس ان القارىء الغربي قد تعود دائما ان يشك في صحة معلوماتها ، وباعتبار ان هذا الاسلوب في تقديم الوقائع يتفق مع تحيز الصحيفة ضد كل ما هو عربي . ومع ذلك ، فان سياق الاحداث بعد حرب ١٩٦٧ يضطره في النهاية الى ان يستعيض عن الكلمات التي تسجل من البداية تحيز مستعملها ، مثل ارهابيين ومخربين ومتسللين ، بالتعبير الذي ينطبق على الواقع : منظمات المقاومة . هذا التعبير السليم يظهر لاول مرة في تقارير هوتنغر الصحفية بتاريخ ١٩٦٨/١٠/٢٥ ، وبعد ذلك تتبعه مرادفات أخرى ، كالانصار ، وغيريللا الخ.. وبمرور الزمن، تكتسب لهجة هوتنغر احتراما جديدا عندما يكتب عن المقاومة ، كما تحتوي تقاريره على درجة لا بأس بها من الموضوعية. الا ان السياسة التحريرية للصحيفة تظل مناوئة للعرب ، وان كانت لا تهبط الى الدرك الذي نزلت اليه صحف اخرى كثيرة في المانيا والنمسا وسويسرا .

المانيا الغربية :

الصحف اليومية :

فرانكفورتر الغيمانيه تزايتونغ (فرانكفورت) : هذه الصحيفة التي تروم التشبه بالتايمز اللندنية ، كانت بالمقارنة مع بقية الصحف الالمانية الاخرى اقلهـا تهجما على العرب اثناء حرب حزيران ، ولكن هذا هو شيء نسبي بالطبع ، فلا هي عموما موضوعية، ولا هي منصفة . كل ما في الامر ان محرريهـا ومعلقيها ومراسليها لا يستعملون الالفاظ الجارحة التي ترد في الصحف الاخرى كل ما اتى ذكر العرب في نطاق صراعهم مع اسرائيل . ان الكاتب المختص بشؤون الشرق الاوسط في هذه الصحيفة هو هارالد فوكه الذي لم تكن تعليقاته عن النزاع العتيد تتصف بالنزاهة الصحفية . الا انه هو الاخر اضطر الى أن ينظر الى المقاومة نظرة جديدة في اواخر عام ١٩٦٨ ، فكتب مقالا طويلا في عدد ١٩٦٨/١٢/١٣ بعنوان : صعود فتح ، حلل فيه حركة المقـاومة تحليلا عميقا ذكيا . الا ان هذه النظرة الموضوعية كانت ، كما هي الحال مع اكثر الصحف الالمانية ، الاستثناء وليس القاعدة ، فالسياسة التحريريـة ظلت معادية للمقاومة .

دي فيلت (هامبورغ) : صاحبها هو قيصر الصحافة في المانيا الغربية يمتلك دستة من الصحف والمجلات الاسبوعية والشهرية ودور النشر . هذه الصحيفة اليمينية المتطرفة يمكن مقارنتها بالديلي تيليغراف اللندنية من حيث معاداتها للعرب بصورة خاصة، ولليسار والثورات بصورة عامة ، علاوة علـى افتتانها بكل ما هو صهيوني . بعض محرريهـا ومعلقيها هم من النازيين القدامى الذين يرومـون التغطية على ماضيهم الاسود بالتحامل على العرب، الفدائيون بالنسبة لهذه الصحيفة هم مجرمـون

ومخربون يجب اجتثاثهم تماما . لم يظهر تحسن في موقف الصحيفة عبر السنين التي تلت حرب حزيران .

سودويتشه تزايتونغ (ميونخ) : يعتبرها الكثيرون أفضل صحيفة يومية في المانيا الغربية . ليبرالية ومنفتحة ، الا أنها معادية للعرب . رئيس تحريرها، فيرنر فريدمان ، الذي توفي قبل سنوات ، كان صهيونيا ، وكذلك المشرف الحالي على قسم الانباء العالمية : ايمانويل بيرنباوم . لم يظهر تحسن في تغطيتها لانباء المقاومة . لهذه الصحيفة شقيقة بوليفاردية هي **ابينت تزايتونغ** تصدر بعد الظهر . انها تتخذ نفس الموقف من المقاومة .

بيلد تزايتونغ (هامبورغ) : يمتلكها شبرنغر . هذه هي صحيفة العمال في المانيا وذات التوزيع الاكبر : حوالي اربعة ملايين نسخة في اليوم . انها الصحيفة اليومية الوحيدة في البلاد التي تباع على نطاق واسع يشمل المانيا الغربية كلها ، فالصحف الاخرى هي عموما اقليمية . مختصة بالدرجة الاولى بالفضائح ، وذات اسلوب سوقي يضرب به المثل لابتذاله وغبائه المنقطع النظير . أكثر الصحف الالمانية عداء للمقاومة .

الصحف الاسبوعية :

دي تزايت (هامبورغ) : اهم صحيفة اسبوعية تصدر بالالمانية ويمكن مقارنتها من ناحية المستوى بالاوبزرفر اللندنية . في عددها الصادر في ١٢/٢٧/ ١٩٦٨ مقال لكاتب اسمه ديتريش شتروتمن ، ظهر في ثلاثة اعمدة ، بعنوان : النبي المسلح بالرشيش — ياسر عرفات . جنرال فتح،يريد تدمير اسرائيل.

هذا المقال يمثل أسوأ ما في تقاليد الصحافة الالمانية ، فالكاتب يتخبط في خضم من الكليشيهات التي يقع فيها الالماني عادة عندما يتحدث عن العرب ، فبالنسبة للالماني ، « العرب » ، هي كلمة حبلى بارتباطات عديدة . فهي اولا تجلب الى ذهنه صورة لقوم شديدي السمرة ، يرتدون العباءات المضحكة، ويعتمرون الكوفيات ، ويركبون الجمال ذات السنامين ، ويعيشون في الخيام بالصحراء ، ويعبدون الاها غريبا بحركات عجيبة ، وينغمسون في ملذات حياة الحريم . اي ان المجموع هو مونتاج من اقاصيص الف ليلة وليلة وروايات كارل ماي* وفوضى سياسية لا حد لها ، يظهر من بينها زعماء هستيريون يعيشون حياة كلها عنف ومؤامرات ، ويلقون الخطب الديماغوغية التي تذكر الغربيين بهتلر وموسوليني . ونتيجة لهذا التحامل المسبق ، نجد الهذر الذي نقراه في كثير من الصحف الالمانية عن العرب .

يفتتح الكاتب شتروتمن مقاله بالتحدث عن صلاح الدين (الكليشيه الاولى) فيقول ان اليهود كانوا يكنون له احتراما كبيرا لانه سمح لهم بالعودة من المنفى الى الديار المقدسة ، ولا بد من ان نذكر هنا أن صلاح الدين الايوبي يتمتع في المانيا بشهرة خاصة لانه بطل مسرحية شهيرة للمؤلف الدرامي غوتهولد ليسنغ (١٧٢٩ — ١٧٨١) اسمها « ناثان الحكيم » . ويدور موضوع هذه المسرحية الكلاسيكية حول التحيز الديني . فناثان اليهودي هو رمز للانسان المضطهد الذي يجابه الاضطهاد بالحكمة ، أما صلاح الدين فهو يمثل الحاكم المستنير المتسامح . والشخص الثالث في المسرحية هو الفارس الصليبي . انه يمثل التحيز والتحامل المسبق والتعصب الديني . هذه المسرحية التي ما زالت تعرض في المسارح الالمانية (ليس بسبب قيمتها الادبية فقط ، لكن لانها تحث على التسامح) لا شك أنها كانت في ذهن الهير شتروتمن عندما عقد مقارنته بين السلطان الايوبي، الذي يحترم ذكراه ، وبين ياسر عرفات الذي (حسب قوله) قد يتسبب في حرب غير مقدسة بين العرب واليهود . (والحرب غير المقدسة هنا هي الكليشيه الثانية) .

ويقول الكاتب : « ان ياسر عرفات هو الجنرال (كذا) العربي الوحيد الذي يناضل منذ ثمانية عشر شهرا (كتب المقال في آخر شهر من عام ١٩٦٨) ضد اسرائيل . وشهداء فتح هم ابناء النبي المحبوبين الذي يعدهم رجال دينهم بالذهاب الى الجنة بعد موتهم في الحرب المقدسة (الكليشيه الثالثة) . ان عرفات هو المسؤول عن التعصب الاعمى الذي يدفع بهؤلاء الرجال الى القتال حتى الموت .

كما أن اذاعة فتح تردد شعار المعركة كل مساء

---

* كارل ماي هو مؤلف كتب مغامرات الماني عاش في القرن الماضي . تقع حوادث الكثير من رواياته في الشرق ، ولا يكاد يوجد صبي الماني لم يقرأ هذه الكتب الساذجة التي طبعا لا تعطي صورة صحيحة للشرق ، بعض رواياته اصبحت افلاما.

وكأنه الصلاة التي يدعو اليها المؤذن (الكليشيه الرابعة) . بهذا الاسلوب الالماني العتيد يستمر شتروتمن في « تحليل » ، حركة المقاومةالفلسطينية. ثم يستشهد بقول لموشي ديان يصف فيه الفلسطينيين بأنهم « يعيشون في عالم بلا واقع كمدمن المخدرات، لان الواقع كريه لهم . فهم يتناولون اقراص الكذب ليشعروا انهم في الجنة » . هنا نجد اصداء من اسطورة شيخ الجبل الاسماعيلي سنان الذي يحكى انه كان يكافىء فدائييه الذي يبعثهم لاغتيال خصومه ، بالحشيش والنساء . هذه الاسطورة منتشرة بالغرب ، بل أن الكلمة الاوروبية Assassin مأخوذة من الحشاشين ، ولهذا فرجال المقاومة هم قتلة ، وزعيمهم الحالي يبعث الى اذهان الغربيين الشيخ الاسماعيلي السيء الصيت. ان الاساطير التاريخية تتوالد وتنبعث،وكما يقال ان الارواح تتناسخ ، فكذلك الاساطير تتكرر عبر العصور . والاساطير التي كان الصليبيون يرددوها عن العرب قبل قرون لا تختلف كثيرا عن أساطير الصحافة الغربية اليوم .

في مقال لنفس الكاتب ظهر بتاريخ ٨ نيسان ١٩٦٩ بعنوان : اللعبة العربية المزدوجة ، نقرأ الكلمات التالية : « ان أسباب اللعبة العربية المزدوجة هي واضحة . فبواسطة المطالب المبالغ فيها ، والتي لا تدع لاسرائيل مجالا لتبولها ، وعن طريق صيحات الحرب والعمليات العسكرية التي لا بد أن تستفز الاسرائيليين الى رد الفعل ، يريد العرب أن يوقفوا اسرائيل امام العالم اجمع موقف الذي يهدد السلام . أما أصحاب هذه السياسة المسيئة لسمعة اسرائيل فهم زعماء المقاومة ذوو التعصب الاعمى الذين لا يريدون السلام » .

وفي مقال ثالث للهر شتروتمن ظهر في ٢ أيار ١٩٦٩ بعنوان : « احلام والغام — رجال المقاومة الفلسطينية هم اخطر على العرب مما هم على الاسرائيليين » . يحمل الكاتب من جديد على حركة المقاومة ، فيتهمها بالكذب والمبالغة المتناهية في بلاغاتها العسكرية ، ويهاجم المتطرفين فيها (الحديث كله للكاتب الالماني) لانهم يستفزون الجيش الاردني وينتقصون من سيادة البلاد . ثم يؤكد على ان المقاومة منقسمة على نفسها وليست بذات خطر على اسرائيل .

وفي هذا المقال يظهر الضعف في معلومات الكاتب، فهو يذكر ان سوريا هي التي تقود الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وايضا الجبهة الشعبية الدمقراطية ، الجبهة الاولى يتبناها اليسار في حزب البعث ، والجبهة الثانية يتبناها اليمين في نفس الحزب ! ثم تأتي المفاجأة في مقال الكاتب عندما يذكر ان السعودية والاردن تريدان تأسيس منظمة فدائية جديدة سيمين الحاج امين الحسيني قائدا لها . ويذكرنا شتروتمن بأن هذا الزعيم المسلم سبق وان قاد حملة مخزية ضد اليهود والعرب المتعاونين معهم، فيعود الى العدد الصادر في ١٥ تشرين الاول ١٩٣٨ من صحيفة نيويورك تايمز ، ليستشهد بمراسلها الذي كتب آنذاك يهاجم « الاسلوب الارهابي للمفتي ، ذلك الاسلوب الرامي الى القضاء على الفلسطينيين المعتدلين » والسؤال الذي يتبادر الى الاذهان هو : هل كلف الهر شتروتمن نفسه عناء الرجوع الى اعداد صحيفة ظهرت قبل ثلاثين عاما ، ام انه نقل شهادة المراسل من كتاب صهيوني ليبرهن على « سواد » ماضي المفتي ؟ وينهي شتروتمن مقاله بالتحدث عن محاولة المقاومة افساد سياسة ديان الرامية الى التعايش السلمي في الضفة الغربية المحتلة . وبقدر ما يتحامل هذا الكاتب على المقاومة ، وعلى العرب بصورة عامة ، فانه يمتدح الاسرائيليين ، ويثني على قادتهم . ولذا لم يكن مستغربا ان يعنون مقالا له عن غولدا مائير : امرأة من الغرانيت .

ويوجد كاتب آخر في الصحيفة يكتب عن العرب . انه هاوغ فون كونهايم ، وهو اقل تحاملا من زميله، وان كانت معلوماته ليست افضل من معلومات شتروتمن . ففي احد مقالاته ، يذكر ان الجيش الاردني يتألف من خمسة عشر الف رجل .

راينشه ميركور (كولونيا) : يمينية متطرفة وليست محترمة كثيرا في الاوساط المثقفة لضعف مستواها، وانكانت تحاول ان تبدو صاحبةمستوى كتابيرفيع. شديدة العداء للعرب ، وتستعمل الالفاظ الجارحة ضد المقاومة بحقد سافر . عددها الصادر في ٧ تشرين الثاني ١٩٦٩ ظهر وهو يحمل على صدر الصفحة الاولى صورة كبيرة لياسر عرفات بمناسبة عقد اتفاق القاهرة بين السلطات اللبنانية والمقاومة الفلسطينية . تحت الصورة كتبت الصحيفة : « ياسر عرفات ، عديم المبادىء . بعد اتفاق القاهرة سيتمكن ارهابيوه من العمل من لبنان بحرية ضد اسرائيل » .

ويصل التشويه في هذه الصحيفة الى ذروتـــه عندما يكتب مراسلها في بيروت : هـ . ل . كاستر ، في العدد الصادر في ٢٣ كـــانون الاول ١٩٦٩ مستشهدا بأقوال وردت في صحيفة القدس التي تصدر في القدس المحتلة بأشراف موشي ديـــان . صاحب هذه الاقوال هو محمد ابو شلبايه الـــذي طالب في مقاله اعضاء مؤتمر القمة في الرباط ، افساح المجال امام الفلسطينيين للدخول كأطراف مباشرين في المناقشات الدائرة حول مصيرهم . ويعلق المراسل الالماني على مقال ابو شلبايه فيصفه بأنه بيان شبه رسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية. والظاهر ان الكاتب نقل نص هذا المقال من مجلة «نيو ميدل ايست» الشهرية التي يصدرها الصهيوني المعروف جون كمشه ، في لندن . فهذه المجلة تقوم بدعاية نشيطة مستمرة لجريدة القدس ، ولمعلقيها، عزيز شحاده ومحمد ابو شلبايه ، اللذيـــن عرفا بتعاونهما مع سلطات الاحتلال . وهكذا جعـــل الكاتب الالماني من ابو شلبايه ناطقا شبه رسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية .

جميع مقالات الراينشه ميركور عن الصراع العربي الاسرائيلي وحركة المقاومة هي على هذا المستوى.

ناسيونال تزايتونغ (ميونخ) : صاحبها الدكتور غيرهارت فرآي الذي دعته حكومتا العراق والكويت الى زيارة بلديهما قبل ثلاثة أعوام . ان صحيفته هي صحيفة الحزب النـــازي الجـــديد في المانيا الغربية ، ولذا فهي محتقرة من اغلب الاوساط في البلاد . انها طبعـــا مؤيدة لحركة المقاومة وان كانت تتحفظ بسبب يسارية الثورة الفلسطينية . على كل حال ، فتأييدها ليس من النوع الذي من شأنه ان يفيد العرب .

المجلات الاسبوعية المصورة :

شتيرن (هامبورغ) : تبيع أكثر من مليون نسخة اسبوعيا . مستواها التحريري اعلى نسبيا من قريباتها كويك وبونته ونويه ريفو .. الخ . وعموما المجلات المصورة في المانيا الغربية هي تافهة وتعيش على الجنس والفضائح . تفسح شتيرن المجال احيانا لبعض الاراء الهرطقية تجاه اسرائيل، كما فعلت مرة عندما سمحت لمعلقهـــا اليساري المعروف سباستيان هافنر ان يهـــاجم سياســـة اسرائيل التوسعية ، فكانت تلك احدى المرات النادرة جدا التي جرؤ فيها الماني* على انتقاد اسرائيل .

وفي ١٩٦٦/٣/١٦ نشرت شتيرن لمراسليها غورديان ترويلر وكلود ديفارج ريبورتاجا مصورا عن زيارتهما لقواعد فتح ، ومشاهدتهما تدريب الفدائيين . كما أنهما خرجا مع وحدة في عملية فدائية اشتبكت مع القوات الاسرائيلية . كان الريبورتاج موضوعيا ، بلا تعاطف وبلا تحامل . ولكن شتيرن لم تكتب بهذه النزاهة عن الهجوم على طائرة العال فـــي زيورخ ، كما أنها في مقال مصور عن حرق المسجد الاقصى قارنت استنكار العرب لهـــذا الحادث باستنكار النازيين لحرق بناية الرايخشتاغ قبل الحرب العالمية الثانية . فاذا علمنا أن اصابع الاتهام آنذاك اشارت الى النازيين علـــى انهم هم الذين احرقوا البناية الضخمة التي كان يجتمع فيها مجلس النواب الالمان ، ادركنا ان المجلة تتهم العرب ضمنا بأنهم هم الذين احرقوا مسجدهم التاريخي ليلهبوا المشاعر ضد اسرائيل .

كويك (**ميونيخ**) : ايضا مـــن كبريات المجلات المصورة . اثناء حرب الايام الستة ضربت رقمـــا قياسيا عالميا في حملتها على العرب . حتى الاسلام كدين لم يسلم من تهجمها . في ١٩٦٩/١١/١٩ نشرت مقالا للبروفيسور النمساوي الدكتور هـــاينريش هير ، مؤلف الكتاب المعروف عن افضال اليهود على العالم : « حب الله الاول » حاول فيه ان يحلل الصراع العربي الاسرائيلي من زاوية تاريخية دينية بحتة ، فاستشهد بالقرآن والحديث النبوي ليبرهن على أن الصراع العربي الاسرائيلي ما هو الا صورة حديثة للجهاد الاسلامي القديم . فالفدائيون ليسوا الا نسخة معاصرة للمجاهدين القدامى . وقال البروفيسور ان المسلمين اليوم يبحثون عن محمد جديد ليوحدهم ويقودهم ، ولكن لا يوجد حاليا ما يبين علـــى ان هـــذا المنقـــذ هـــو في الطريق . أما ناصر ، فينظر اليه رجال الديـــن المسلمون نظرة الحذر والتحفظ .

ديرشبيغل (**هامبورغ**) : هذه هي المجلة الاخبارية الاسبوعية الوحيدة في المانيا الغربية . أسسها

---

* هافنر يحمل الجنسية البريطانية لانه لجأ الى انكلترة هربا من الحكم النازي . وهو يهودي الاصل ، ولعل ذلك ، بالاضافة الى ماركسيته جعل من الصعب على الصهاينة ان يتهمـــوه بمعاداة السامية كما اتهموا غيره .

في نهاية الاربعينات ، وبموجب ترخيص خاص من قوات الاحتلال البريطانية ، شاب اسمه رودلف اوغشتاين ، وجعلها على غرار مجلة تايم الامريكية في التبويب والاخراج ، وايضا في الاسلوب الساخر . وقد نمت هذه المجلة نموا هائلا الى ان أصبحت اليوم أهم إنجاز صحفي في المانيا الغربية ، واصبح صاحبها أشهر كاتب سياسي في البلاد .

وقد ارادها صاحبها ان تكون مرآة لالمانيا ، فهذا هو معنى دير شبيغل في العربية ، ولذا فانها كانت دائما جريئة في نقدها ، وفي نبشها لماضي الكثيرين من زعماء البلاد . كما عرفت بخبثها الصريح وعدم تهيبها من انزال كبار المانيا ، احياء وامواتا ، من فوق منصاتهم السامية ، لترجعهم الى حجمهم الحقيقي . ولا تنطلق مجلة الهير اوغشتاين من عقيدة معينة ، فلا هي باليمينية المحافظة ، ولا هي يسارية . انما هي ليبرالية جعلت من نفسها حارسا على الدمقراطية في المانيا ، ولا سيما بعد ان سجن صاحبها أيام كان فرانز يوزف شتراوس وزيرا للدفاع في بداية الستينات . أما بالنسبة لسياستها الخارجية ، فهي ضد التدخل الامريكي في الهند الصينية وتطالب بانهاء الحرب الفيتنامية. كما أنها تهاجم الاتحاد السوفياتي بشدة بسبب شيكوسلفاكيا . ولكنها عندما تأتي للتطرق الى الاحتلال الاسرائيلي ، فانها اقل تنديدا به . ففي العدد الصادر في ٩ كانون الاول ١٩٦٨ كتبت المجلة مقالا طويلا عن اسرائيل كسلطة احتلال ، فرسمت فيه صورة وردية للحالة في الضفة الغربية . الاسرائيليون يساعدون العرب في الزراعة ، واقتصاد الضفة الغربية في تحسن مستمر ، والخدمات الاجتماعية والصحية التي ادخلتها سلطات الاحتلال عديدة ، وسياسة التعايش السلمي بين الشعبين سائرة على ما يرام . ويقول الكاتب : وفي كل مكان ، ولا سيما في القدس الشرقية ، التقت الحضارة الاسرائيلية المتأثرة بالغرب بعالم يكاد يرجع الى القرون الوسطى بتأخره وتعصبه . فحصلت القدس الشرقية على مؤسسات حديثة لضخ الماء الى البيوت ، كما أن المباني الايلة الى السقوط قد تم تفجيرها حتى لو كانت واقعة بالقرب من حائط المبكى .

بالنسبة للمقاومة الفلسطينية ، بدأ اهتمام دير شبيغل متأخرا بهذه الظاهرة . فكتبت بتاريخ ٢٥ اذار ١٩٦٨ تقول ان « مخربي اليوم هم افضل تدريبا واشجع من الذين عبروا الى الضفة المحتلة بعد حرب حزيران مباشرة ، ولقاء الاجور التي دفعت لهم ، حاولوا اثارة السكان ضد الاحتلال » . معنى ذلك ان المجلة اعترفت اخيرا بوجود المقاومة وتحسن اساليبها ، الا انها لم تمنحها عطفها .

بعد ذلك في العدد الصادر في ٨ نيسان ١٩٦٨ كتبت المجلة عن معركة الكرامة تقول انها انتهت بهزيمة سيكولوجية للاسرائيليين كادت تكون عسكرية أيضا. وهنا تقع دير شبيغل في الخطأ عندما تكتب أن الاسرائيليين خسروا في هذه المعركة ٢٥ رجلا و٢٥ عربة مصفحة ، اي « اكثر من خسارتهم في اي يوم واحد اثناء حرب الايام الستة ». اذ كيف يمكن توفيق ذلك مع اعلان اسرائيل انها خسرت سبعمئة قتيل وثلاثة اضعاف ذلك العدد من الجرحى ؟ فهل من المعقول ان تكون اسرائيل قد بالغت في خسائرها في حرب حزيران ؟

وبمرور الاشهر يزداد اهتمام المجلة بالمقاومة ، فتخصص لها ثلاث صفحات في العدد الصادر في ٢٤ شباط ١٩٦٨ ، كما يتحدث مراسلها مع ابو عمار ويشهد عمليات التدريب . وفي العدد الصادر في ٢٤ شباط ١٩٦٩ تتحدث المجلة عن الجبهة الشعبية وتروي كيف ان بعض الزعماء الاسرائيليين يطالبون باجراء المفاوضات مع حركة المقاومة فوق رؤوس الحكومات العربية ، وكيف أن موشي ديان تحدث مع فدائي معتقل واقترح عليه أن يطلق سراحه مقابل ان يدبر له مقابلة مع ياسر عرفات ، فأجابه الفدائي الذي يبلغ العشرين : لست موشي ديان فحسب ، وانما انت أيضا عضو في الحكومة الصهيونية ، ولذلك لا يمكننا التفاوض معك .

وفي العدد الصادر في ٢٨ تموز ١٩٦٩ كتبت دير شبيغل عن الانقسام في صفوف الفدائيين ، وعن منظماتهم المتعددة ، والتناحر الدائم فيما بينهم ، والتضارب في بلاغاتهم العسكرية ،وكان من الواضح ان ذلك هو موضوع تكتب عنه المجلة بسرور . فاذا كان تزايد المقاومة وبروز دورها قد انتزع الاحترام من اقلام المحررين والمراسلين ، فان انقسامها وتناحرها صادف القبول والارتياح في نفوسهم ، واكد لهم أن تحاملهم الاول على المقاومة في بداية عهدها كان له ما يبرره . ومثال على موقف المجلة العام من الفلسطينيين كان واضحا في

مقال محررها القضائي غيرهارت ماوز الذي غطى محاكمة الفدائيين الثلاثة الذين هجموا على طائرة العال . فانه صدق دون تردد الادعاء الكاذب والقائل ان حارس الطائرة الاسرائيلي رخاميم اطلق النار على الفلسطيني دفاعا عن النفس .

ولا يجب ان ننسى ان مراسل المجلة الدائم في الشرق الاوسط يتخذ القدس المحتلة (وحتى قبل حرب حزيران) مقرا دائما له ، مع أن بيروت هي عادة عاصمة الشرق الاوسط بالنسبة للمراسلين والصحافيين . ولذا يحصل مراسل المجلة على معلوماته عن التطورات العربية من الدوائر الاسرائيلية . فقد كتبت المجلة اثر حادث قصف مقر منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت بالصواريخ ، تقول ان الذي قام بهذا العمل هم جماعة من منظمة فلسطينية معادية لمنظمة التحرير، مع ان مسؤولية الهجوم تقع طبعا على عاتق الاستخبارات الاسرائيلية عما هو معروف .

وفي العدد الصادر في ١٦ شباط ١٩٧٠ والذي كان موضوع الغلاف فيه : المقاومة ضد اسرائيل ، رافق مراسل المجلة كاي هيرمان مجموعة فدائية ليشهد بنفسه عملية كوماندو ضد القوات الاسرائيلية . وكان تقريره عما رآه موضوعيا ونزيها ، وبين فيه الخسائر التي وقعت بالاسرائيليين . هذا العدد تضمن حديثا مع جورج حبش ، واخر (للتوازن) مع ابا ايبان ، وقد بلغ طول المقال حوالي عشر صفحات .

وتبعت هذا المقال مقالات مطولة اخرى ، ولا سيما في عام ١٩٧٠ الذي كان عام الفدائيين ، وقد بلغت تغطية المجلة لاحداث الشرق الاوسط اوجها في ايلول ، ففي ذلك الشهر خطفت الطائرات بالجملة ، واندلعت الحرب الاهلية في الاردن .

ولكن جزر التغطية حل في صيف ١٩٧١ ، عندما صدر عدد في ٢٦ تموز يحمل مقالا بعنوان : مطاردة الفدائيين ، وفيه تحدث مراسل المجلة عن تصفية المقاومة في الاردن ، ونشرت المجلة صورة لفدائيين راكعين ورافعين أيديهم الى فوق ، فقالت انهم فدائيون هربوا من جحيم الاردن ليستسلموا للجيش الاسرائيلي . وكتبت دير شبيغل ان قوات البدو تطارد الفدائيين في كل مكان بالاردن، دون هوادة، مستخدمة قنابل النابالم والمدفعية الثقيلة ، ومتبعة التكتيك الامريكي في فييتنام المسمى : ابحث ودمر . وقالت أن بدو حسين يطاردون الفدائيين الذين يعانون من الجوع والعطش الشديد ويدفعوهم الى المناطق الموبوءة بالملاريا ، فقتل المئات في عمليات المطاردة ودخل الفان السجون الاردنية ، وهرب مئة عبر نهر الاردن ليلتجأوا الى العدو الذي كانوا في السابق يريدون تحرير وطنهم منه ، فخاضوا مياه الاردن الضحلة بذعر وهم يعلقون قمصانهم الداخلية البيضاء على فوهات الكلاشنكوف كعلامة على التسليم .

«انهم يطاردوننا كما طورد الهنود الحمر في امريكا»

قال ابو جمال للاسرائيليين : « اننا هنا نشعر بأمان اكثر من هناك حيث يوجد جيش حسين » . وحملت الاوتوبيسات السياحية التي كتب عليها : زوروا اسرائيل ، الفدائيين المعتقلين الى سجن نابلس . وقد دفع الذعر بعضهم الى ان يبلغ ديان استعداده للتطوع في الجيش الاسرائيلي .

وكان ذلك انهيار تراجيكوميك لحركة كانت في الماضي اكبر حدث دراماتيكي في أزمة الشرق الاوسط (نيوزويك) . فالفدائيون كانوا هم الذين ارادوا أن يعيدوا الى العرب كرامتهم بعد هزيمة حزيران. الا ان تكتيكات حرب العصابات خانتهم .فطبوغرافية الارض كانت غير صالحة لعملياتهم ، وتفوق الجيش الاسرائيلي عليهم كان واضحا . كما أن عدم تعاون السكان في الضفة المحتلة معهم ، وانقسام منظماتهم ، ومقاومة الدول العربية لهم التي وجدت فيهم تهديدا لمصالحها ، كل ذلك ادى الى انهيار المقاومة الفلسطينية .

وتصف المجلة بعد ذلك كيف اصدر الملك حسين أوامره الى بدوه بالهجوم على الفدائيين ، فبدأت القنابل تتساقط على مخيم غزة في جرش ، وبعد ذلك اخذت الدبابات والمدرعات تزحف على المدن والقرى التي اعتصم فيها الفدائيون، وفي دبين التي يقع فيها مقر الجبهة الشعبية الديمقراطية مزق البدو جسم سفيان ، احد قادة الجبهة . وقال رقيب اردني لاحد الصحافيين : الان سنقضي على الفدائيين قضاء تاما . وقال الفدائيون الذين فروا الى درعا في سوريا ان الجيش الاردني ينفذ ذلك حرفيا ، ورووا كيف ان الجنود البدو دعوا خمسين فدائيا محاصرا للاستسلام . فما ان خرج هؤلاء وايديهم فوق رؤوسهم ، حتى حصدتهم المدافع الرشاشة . وفي جرش وعجلون ، قال اللاجئون، رمى جنود الملك حوالي خمسين جريحا في حفرة واهالوا فوقها التراب ، فاختنق الجرحى وماتوا.

واعلن حسين : هذه هي النهاية ، لم تبق هناك مشكلة فدائيين . ثم اعلن نهاية اتفاق القاهرة الذي وقعت عليه احدى عشر دولة عربية ، وجعل الناطق باسمه يقول انه لن يكون هناك اتفاق اخر. ثم تحدثت المجلة عن ردود الفعل عند العرب ، فقالت انها ظلت في حدود الكلمات ، ولم يتحرك جندي عربي واحد لنجدة الفلسطينيين . وقال ضابط في هيئة الاركان الاردنية : لا احد يريد هؤلاء اللقطاء ..

بالرغم من موقف دير شبيغل الذي كان عموما معاديا للعرب، وللفلسطينيين، فلا شك انتغطيتها لمحنة المقاومة في الاردن كانت اكثر امانة حتى من الصحف العربية التي تدعي انها مؤيدة للمقاومة . فقبل تموز الماضي ، وعندما هجم الجيش الاردني على جرش في مطلع ١٩٧١ ، نشرت دير شبيغل رواية لشاهدة عيان ، هي ممرضة المانية تعمل في مخيم اللاجئين في جرش ، روت كيف قتل الاهالي ممرضا فلسطينيا لمجرد انه فلسطيني ، وكيف حصد الجيش الاردني بمعاونة الكثيرين من الاهالي البقية الباقية من الفدائيين في المدينة ، وكيف نهب الجنود البدو الدكاكين بحثا عن الملابس الداخليةالنسائية، وكيف اعدم الجيش بعض الاردنيين بتهمة التعاون مع الفلسطينيين ، « هذا الشعب السيء الرديء »، كما وصفه ضابط اردني للممرضة التي كانت ترتعش خوفا من جراء المجزرة التي شهدتها والتي كادت هي أيضا تذهب ضحية لها ، لعلاقتها بالفلسطينيين. هذه الممرضة جاءت بعد ذلك الى بيروت ، فلم يتصل بها صحافي عربي واحد .

كونكريت (هامبورغ) : مجلة شهرية كانت أصلا مجلة طلابية ، ثم أصبحت بعد ذلك مجلة عامة . يسارية ماركسية . رئيسة تحريرها السابقة هاربة من وجه البوليس الالماني بعد أن اتهمت بتزعم منظمة فوضوية تستهدف قلب نظام الحكم في المانيا بالقوة . وكتبت شبيغل انها هربت الى لبنان ومن هناك هربها رجال المقاومة الفلسطينية الى سوريا . كونكريت تكاد تكون المجلة الوحيدة، اذا استثنينا ناسيونال تزايتونغ (الصحيفة النازية) التي تؤيد حركة المقاومة . وكانت من اول المجلات التي فضحت الكيان العنصري لاسرائيل ، فنشرت تصريحات رجال منظمة ماتزبن اليسارية ، كما أن مراسليها كتبوا عن القضية الفلسطينية بعمق وتفهم . تتمتع هذه المجلة بمركز قوي بين أوساط الطلاب واليسار بوجه عام، والعداء متبادل بينها وبين دير شبيغل .

ان عقدة الذنب هي وراء كل شيء تكتبه الصحف الالمانية عن الصراع العربي الاسرائيلي،فلان الالمان في عهد الرايخ الثالث اضطهدوا اليهود وساقوهم الى معسكرات الاعتقال وقاعات الغاز ، فراحة الضمير والرغبة في كسب احترام الشعوب الغربية الاخرى التي عانت في السابق من نظريات التفوق العنصري الآري،تطلبت منهم اتخاذ موقف معاد من العرب . ولذا لم يكن من المستغرب مثلا ان يعمد اكسل شبرنغر ، قيصر الصحافة في المانيا الغربية، الى تهنئة نفسه ومؤسسته الاعلامية الضخمة بعد حرب حزيران ، لان صحفه بدت اثناء هذه الحرب وكأنها صحف اسرائيلية كتبت بالالمانية .

وبالاضافة الى عقدة الذنب ، فهناك ردة الفعل الحتمية على السنتمنتالية السابقة التي كانت تسود العلاقات الالمانية العربية ، فالعرب احد الشعوب القلائل التي لم تتورط في حرب فعلية ضد الالمان ، مما اسبغ على « الصداقة » بين الشعبين صبغة تاريخية . كما ان القاسم المشترك الاعظم بين الشعبين كان خلال العقود الاخيرة من الزمان هو الصراع مع اليهود . فمع ان الصراع العربي الاسرائيلي هو صراع سياسي لا دخل للعنصرية فيه ، الا ان الالماني اليوم لم يشأ ان يضع هذا الصراع في اطاره الحقيقي ، بل عزى اليه الطابع العنصري الذي كان يسود علاقاته هو مع اليهود قبل واثناء الحرب العالمية الاخيرة .

ان القوانين التي شرعتها حكومة بون ضد معاداة السامية هي شديدة الصرامة ، ولما كان من مصلحة الصهيونية ان تدخل في خانة التأليب والتحريض على اليهود كل انتقاد لاسرائيل ، فليست هناك شخصيات المانية كثيرة على استعداد لان تفقد مراكزها ومستقبلها كثمن لانصاف العرب. اضف الى ذلك ان عددا كبيرا من رؤساء التحرير والمعلقين والكتاب هم ذوو ماض نازي يهمهم ان يسدلوا الستار عليه عن طريق التعاطف مع اسرائيل ، فان سفارتها في بون هي بمثابة ديوان المندوب السامي الذي منه تخرج التوجيهات الى الصحف وحتى الى الحكومة الالمانيه احيانا . وقد شكر السفير آشر بن ناتان الصحف الالمانية بعد حرب حزيران على تغطيتها للاحداث ، كما امتنعها

فرصة سانحة لينهال على المانيا الدمقراطية ، حكومة وصحافة ، بالتقريع والتجريح لانها جرؤت على مهاجمة الحكومة الاسرائيلية . وتناسى السفير ان النازيين القدامى يجلسون على مقاعد الحكم في المانيا الغربية وليس في الشرقية ، وان العقاب على معاداة السامية هو لا اقل منه صرامة في برلين الشرقية مما هو في بون .

ما هو موقف الشعب الالماني من اليهود ؟ انه عموما يكرههم ، ليس فقط لان هتلر علمه ذلك ، ولكن لانه لا زال يذكر (ولو انه لا يوجد من يجرؤ على كتابة ذلك) سيول اليهود المهاجرين الذين تدفقوا من بولونيا وشيكوسلوفاكيا وروسيا ودول البلطيق على بلاده في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، عندما استغل الالاف من هؤلاء المهاجرين المعدمين انهيار المانيا الاقتصادي ليكونوا الثروات السريعة في السوق السوداء قبل هجرتهم النهائية الى الولايات المتحدة وكندا . ان حرب حزيران لم تنس الالمان كراهيتهم التقليدية لليهود ، ولكن الانتصار الاسرائيلي أدى الى مزج هذه الكراهية بالاحترام والتقدير . فالاداء العسكري الجيد لقوم لم تعرف فيهم الروح العسكرية من قبل ، انتزع الاعجاب من الشعب الالماني العريق في العسكرية ، والمحروم من التباهي بامجاده الحربية بأمر من الحلفاء . ولذا كانت الصحف الالمانية اول من عمد موشي ديان ثعلبا جديدا للصحراء وخليفة جديرا للماريشال رومل .

أما بالنسبة للطرف المغلوب والمظلوم ، فطبول الحرب المقدسة التي طالما اخافت اوربا في القرون الوسطى ، وظل صداها يقرع في عقل الاوربي الباطن ، هذه الطبول تلاشى وقعها وسط موجة الضحك والاستهزاء التي وجدت في العرب هدفا لها اثر هزيمتهم . ان العرب والمسلمين هما لفظان مترادفان بالنسبة للاوربي ، وبقدر ما يتعلق الامر به ، فان حرب حزيران لم تكن مجرد محاولة عربية مشروعة لتحرير ارض مغتصبة ، او على الاقل لصد عدوان سافر ، وانما كانت اندحارا منكرا لاخر حملة جهاد غير مقدس شنه الاسلام على الحضارة الغربية كما هي متمثلة في اسرائيل ، تلك القاعدة الامامية للدمقراطية والحرية ! والبارادوكس هنا هو أن الغرب الذي كثيرا ما اتهم العرب والشرقيين عامة بالاغراق في الغيبيات ، وبالتعصب الديني والطائفي ، هذا الغرب هو الذي يبحث اليوم محموما في القرآن والحديث النبوي والتراث الاسلامي عن آية او عبارة ليفسر بها على هواه خصلة في خلق العربي تبدو له سيئة ، او اجراء سياسيا اتخذته حكومة عربية ولم يصادف قبول الغرب . واصبحت الصحيفة الالمانية تستعين باستاذ اللاهوت او التاريخ في احدى الجامعات ليفسر لقرائها حركة المقاومة الفلسطينية من خلال الاطار الديني التقليدي للمسلمين .

ويذكرنا هذا الموقف بنادرة من نوادر الهير كوينر التي ألفها الشاعر والدرامي الالماني بيرت بريخت، ليفسر بها فلسفته في الحياة ، باعتبار ان كوينر يرمز له . يسأل احدهم الهير كوينر : ماذا تفعل عندما تحب شخصا ؟ فيجيب كوينر : اني اعمل رسما له واحرص على ان يشبهه . فيعود الاول ليسأل : من تعني ؟ الرسم ؟ فيرد الهير كوينر : لا ، الشخص . ان العنوان الذي وضعه بريخت لهذه النادرة القصيرة الحكيمة هو : عندما يحب الهير كوينر . فاذا قلبنا هذا العنوان الى : عندما تكره الصحافة الالمانية ، لوجدنا ان هذه الصحافة كانت حريصة دائما على ان يكون الشعب العربي شبيها بالصورة التي رسمتها له ، وليس العكس.

ثم يجب الا تغرب عن بالنا حقيقة بسيطة ، وهي أن عدم وقوع ارض عربية تحت السيطرة الالمانية في التاريخ الحديث ، جعلت البلاد العربية غريبة عن الالمان . فالصحف الالمانية لم تكن يوما ذات المام واحاطة بالمنطقة بنفس درجة الصحف البريطانية او الفرنسية ، او حتى الامريكية . فالى آخر يوم من حياة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود، كانت الصحف الالمانية تطلق عليه اسم ابن سعود ، مع ان ذلك هو لقب ابيه ، وهذا هو مجرد خطأ من اخطاء لا تحصى تقع فيها الصحف الالمانية عند التحدث عن العرب .

في البداية استقبلت الصحف الالمانية بروز حركة المقاومة الفلسطينية بعد حرب حزيران ، بعاصفة من التهكم والتشنيع . ولما كان الالماني هو بصورة عامة ، عكس الفرنسي او الانكليزي ، بطيء البديهة ، وثقيل الروح*، وسخريته تفتقر الى الخفة والرشاقة التي تجعل من السخرية في ارقى صورها فنا رفيعا يستدر في بعض الاحيان حتى

---

* في الادب الالماني الكلاسيكي كله لا توجد اكثر من حفنة مسرحيات كوميدية .

اعجاب من كان ضحية له » فالسخرية الالمانية البعيدة عن الظرف بقيت في أحسن تقدير مجرد محاولة باردة ممجوجة للتفكه والتندر .
الا ان المقاومة الفلسطينية بتصاعدها ونموها السريع بعد حرب حزيران اجبرت الكثيرين من المعلقين والمحررين والمراسلين على ابتلاع سخريتهم الاولى ، وحتى في ايلول ١٩٧٠ ، عندما هبت على العرب اعنف عاصفة من الهيجان الدولي منذ حرب حزيران ، لم يبق ثمة شك في أن المقاومة الفلسطينية قد اثبتت وجودها باعتراف الجميع . ولكن عندما بدأ الخط البياني للمقاومة يميل الى الانحدار اثر المجازر في الاردن ، اخذت الصحف تكتب عن انحسار الموجة بلهجة من يقول : الم أقل لكم منذ البداية ان هذا هو مصير الحركة المحتوم في النهاية ؟

المقاومة الفلسطينية في الصحف الامريكية

في العدد الصادر في ١٩٦٥/١/١٩ من النيويورك تايمز ظهر الخبر القصير التالي بعنوان: قوة عربية تعلن من هجوم في اسرائيل — خاص بالنيويورك تايمز — بيروت — ١٨ كانون الثاني : « ادعت منظمة عربية سرية مقاتلة ظهرت مؤخرا انها قتلت ١٢ اسرائيليا وجرحت ٩ . وقد أعلنت « القيادة العامة لقوات العاصفة الفلسطينية » انها اوقعت الاصابات بواسطة « المجموعة الرابعة من جناحنا الثالث » في اصطدام وقع « شمالي غربي بن جبرين »، وقالت الجريدة « ان عربيين جرحا ووقع واحد في أيدي الاسرائيليين . وبن جبرين هي مستوطنة اسرائيلية لا تظهر على الخرائط المتوفرة هنا ، لكن يعتقد انها قريبة من عكا . هذا كان البلاغ الصادر عن هذه المنظمة التي لا يعرف عنها الكثير . ولما كانت اكثر التعليقات تأييدا لها قد نشرت في مجلة الاحرار الناطقة بلسان حزب البعث، كما يظهر ان اكثر عملياتها تدور في شمال اسرائيل، فهذا يشير الى ان قواعد المغيرين هي في سوريا . والانطباع هنا هو انها منظمة للفلسطينيين تنال تأييد ومساندة الحكومة السورية ، ولكنها ليست بالضرورة مرتبطة بحزب البعث » .
وفي العدد الصادر في ١٩٦٥/١/٢٠ نشرت نفس الصحيفة خبرا قصيرا بعنوان : اسرائيل تنفي قيام قوة عربية بغارة او بقتلها اثني عشر شخصا — الامم المتحدة — نيويورك ١٩ كانون الثاني: وصف متحدث اسرائيلي على أنها « هراء » تلك التقارير الصحفية من لبنان التي تقول ان قوة عربية قد قامت بغارة على اسرائيل وقتلت ١٢ اسرائيليا . وقال عضو الوفد انه لم تدخل اسرائيل اية مجموعة مغيرة ، وان موقع الهجوم المزعوم « لا وجود له ». وكانت التقارير قد أشارت بأن الحادث وقع قرب بن جبرين .
وقال الناطق الاسرائيلي ان متسللا عربيا قد اعتقل اثر عبوره الحدود من سوريا وانه قد حدثت محاولات عبور عربية اخرى للحدود كانت فاشلة وتصدت لها قوات الامن الاسرائيلية . وقال الناطق: لم تكن هناك غارة . ولم تكن هناك اصابات ولا وجود لهذا المكان (بن جبرين) .
وهكذا حاولت اسرائيل في البداية ان تخنق فتح اعلاميا وتسدل ستارا كثيفا من التجاهل على عملياتها ، فهذا اسلوب طالما حقق النتائج الطيبة لها في الماضي ، الا ان اكذوبة اسرائيل انفضحت بعد خمسة أشهر من نفي ناطقها للغارة والاصابات والموقع . فبعنوان « جنود العاصفة » نشرت مجلة تايم بتاريخ ١٩٦٥/٦/١٨ مقالا في عمودين عن فتح بمناسبة محاكمة الاسرائيليين لاحد فدائييها : محمود حجازي ، الذي نشرت المجلة صورته . فذكرت تايم ان حجازي هو أول رجل من العاصفة يقع بيد الاسرائيليين ، وان العاصفة هي الذراع العسكري لجماعة تدعى فتح وتزعم انها قامت بثلاث عشرة غارة على اسرائيل منذ بداية العام (١٩٦٥) الا ان جعبة تايم من المعلومات الصحيحة تفرغ بعد هذه المقدمة ، فتذكر ان احد قادة فتح الكبار هو الحاج امين الحسيني مفتي القدس الاكبر سابقا . واسم الحاج الحسيني قد ارتبط في اذهان الكثير من الغربيين بهتلر وبالنازية وذلك من جراء الدعاية الصهيونية التي تركزت عليه منذ الحرب العالمية الثانية . ولذلك قد يكون ذكر اسمه هو خطأ متقصود من جانب المجلة . الا ان تايم كانت مصيبة على كل حال عندما كتبت تقول انه عكس منظمة التحرير التي ولدت قبل سنة بمساندة جمال عبد الناصر ، وبالرغم من صلة العاصفة الوثيقة بها ، فان هذه المنظمة الاخيرة لا تقبل الاوامر من الحكومات العربية ، كما ان قادة العاصفة يزدرون تحذير ناصر الاخير الى العالم العربي بوجوب عدم توريط نفسه في حرب سابقة لاوانها مع اسرائيل . وقد قال رجل مقرب من

العاصفة : ان تحرير فلسطين هو عائد للفلسطينيين وليس لناصر ، فان سبعة عشر عاما من الكلام لم تؤد بنا الى نتيجة ، ولذا فسنتصرف دون الالتفات الى ما يريده ناصر .

وفي هجماتها على الاراضي الاسرائيلية تعتمد العاصفة على تأييد منظمة سرية هي الارض ، اعضاؤها هم من بين الربع مليون فلسطيني عربي في اسرائيل . ان الاعضاء في الارض يعملون كادلاء لمغيري العاصفة ، ويزودوهم بالاستخبارات العسكرية ويخبئونهم . ومع ان رجال العاصفة هم قلة ، الا انهم قد ينجحون في اغراق العالم العربي في حرب ستكون على الارجح كارثة له . وموشي ديان هو احد الذين يطالبون الامة بالقيام بهجوم رادع على الاقطار العربية ، لاغتنام فرصة انقسامها فيما بينها ووجود خمسين الف جندي مصري في اليمن .

وقبل مقال التايم هذا ، كانت النيويورك تايمز قد ذكرت في ١٩٦٥/٥/٢٩ ان الاستخبارات الاسرائيلية قد اعلنت ان فتح تأسست منذ ستة أشهر . اي ان الاستخبارات الاسرائيلية لم تتطوع بهذه المعلومات الا بعد غارتها « الانتقامية » على الشونه وجنين وقلقيلية ، وعندما احتاجت الى نشر هذه المعلومات كتبرير لهجومها وهذا يجرنا الى ظاهرة غريبة حقا ، هي تصديق الصحف الغربية للادعاءات الاسرائيلية وكأنها استنتاجات فريق محايد لا دخل له في النزاع العربي الاسرائيلي . مثلا كتبت تايم عام ١٩٦٩ ، اي في اوج المقاومة الفلسطينية ، تتحدث عن المبالغات الكبيرة في البلاغات العسكرية العربية ، النظامية والفدائية، ولكنها عندما أتت للتحدث عن البلاغات الاسرائيلية، قالت انها دائما متناهية الدقة وذلك لاصرار الشعب الاسرائيلي على معرفة خسائره بالضبط . هذا التحليل الركيك للدوافع الاسرائيلية يمكن وصفه بأنه من صميم تقاليد الصحافة الغربية حينما تكتب عن اسرائيل . ويمكن تعريف هذه التقاليد بأنها موقف يحرص على تصوير نفسية الاسرائيليين تصويرا مخالفا للواقع تماما ، وذلك عن طريق اسباغ هالة مستعارة من الحضارة الغربية على القوم الذين يحملون مفاتيح التكنولوجيا بيد ، واللوح الذي كتبت عليه الوصايا العشر باليد الاخرى . فمن جهة ينظر الغرب الى الاسرائيليين على انهم شعب له تاريخ سحيق ، وعده الرب بأرض معينة هي فلسطين ، ومن جهة اخرى فالاسرائيليون هم بالنسبة للغرب اناس بلغوا درجة عالية من الرقي . والخطأ الكبير في النظرة الغربية ، انها لا ترى الصورتين في مونتاج يجمع بينهما : صورة موسى على جبل سيناء يعقد ميثاق الشعب المختار مع يهوه ، وصورة موشي ديان يخطط لحروب تلعب بها أحدث الاجهزة الاليكترونية المعقدة اهم الادوار.

ان الغرب لا يجرؤ على الاعتراف بحقيقة بديهية جدا، وهي انه لا يوجد فرد آخر في العالم تتضارب بداخله الغيبية الموحشة مع العقلانية العصرية بهذا النسيج الغريب من الـ Point Counterpoint كالصهيوني . وهذا يعود بنا الى ادعاء تايم بأن البلاغات العسكرية الاسرائيلية هي دقيقة وصادقة وذلك لاصرار الشعب الاسرائيلي على معرفة الحقائق (أي عكس العربي) . لا شك ان مجتمعا صغيرا شديد التكتل كالمجتمع الاسرائيلي لا يستطيع ان يكتم خسائره الحربية عن نفسه حتى لو شاء . الا ان تقليل اسرائيل لخسائرها الحربية (وقد ثبت وسجل ان اسرائيل فعلا تقلل من خسائرها ، وهناك شهود على ذلك اكثر ثقة من مجلة تايم) لا يعود الى رغبتها في كتم الحقائق عن شعبها بقدر ما يعود الى خوفها من الوقوع ضحية لشماتة العدو . فاسرائيل لا تريد ان تكون موضع شماتة، فأولا هذه الشماتة ستؤدي الى رفع معنوية العدو، وثانيا الخوف من الشماتة هو خصلة في التركيب النفسي للاسرائيلي تبدو واضحة لكل من درس العهد القديم . ولكن عندما تحاول مجلة تايم ان تستقصي الدوافع الاسرائيلية ، فدليلها عند ذلك هو العقلانية الاسرائيلية الحديثة وليس العقلية التوراتية الغارقة في الغيبيات . ان العقل الغربي يتظاهر لنفسه بأنه لا يوجد غرابة البتة في استناد الصهاينة على كتب دينية عتيقة ووعود الهية مزعومة لاثبات احقيتهم بفلسطين ، بل انه يسير خطوة أبعد من ذلك عندما يسبل رداء العقلانية على جميع التصرفات الاسرائيلية الاخرى ، مع انها وليدة نفس العقد الاسطورية الموغلة في القدم .

ان التجاهل الغربي تضارب في الشخصية الصهيونية : دكتور جيكل المثقف المعاصر ومستر هايد الخارج من فجر التاريخ ، هو الذي سيفسح المجال يوما ما لاسرائيل ان ترمي القنابل الذرية على المدن العربية ثم تبرر عملها باقتباس مناسب من التوراة . ولا بد من الذكر هنا ان سيطرة

الصهاينة على وسائط الاعلام في العالم الغربي وتهمة معادية السامية التي هي سيف ديموقليس المسلط فوق رأس كل باحث لا يتقبل وجهة النظر الصهيونية على علاتها ، قد أوجدت الوضع الذي نحن بصدد بحثه الان ، والذي يمكن تلخيصه بأنه تجاهل وسائط الاعلام الغربيةلوجهة النظر العربية، او تشويهها .

وقد حاول الغرب ان يبرر لنفسه هذا التحيـــز الصارخ ، فاقنع نفسه بأن الصهيوني هو غربي مثله ، أبيض اللون ، ويعتنق دينا قريبا من دينه، ووارث لنفس التراث الحضاري . وعندما توصل الى هذا الاستنتاج ، لم يبق أمامه ما يفعله الا ان يحلل النفسية العربية على ضوء دراستـــه الضحلة للدين الاسلامي مع حقن الصورة بجو الف ليلة وليلة والعودة الى صلاح الدين الايوبي وبقية الكليشيهات الاخرى الجاهزة للاستعمال علـــى الدوام . أما بقدر ما يتعلق الامر بتحليل النفسية الصهيونية ، فالمحاولة الوحيدة كانت تلك التي قام بها ، عرضيا وباختصار، الجنرال ديغول في مؤتمره الصحفي الشهير في أعقاب الهجوم الاسرائيلي على مطار بيروت . الا ان الحملة الشعواء التي تعرض لها الزعيم الفرنسي كانت كافية لتجعل منها المحاولة الاخيرة .

ان التحيز ضد العرب هو الاتجاه العام في صحف الغرب وعلى رأسها الصحف الامريكية . الويل لمن تعاديه الصحف الامريكية ، قـــال الفرنسي توكفيل في دراسته الشهيرة عن الدمقراطية فـــي امريكا (١٨٣٥) . لقد مرت مئة وخمسون سنة على هذا القول ، وفي خلال هذا الزمن تضاعفت قوة واهمية الصحافة الامريكية عشرات المرات ، كما أصبحت الولايات المتحدة دولة عظمى تتحكم في مصائر العالم وتقف وراء اسرائيل في دور حليفها الاول وضامن بقائها . وفي أية دراسة لموقــف الصحف الامريكية تجاه المقاومة الفلسطينية ، يجب اولا الاقرار بأنه في مجال التغطية اليومية للاحداث فان احسن الصحف الامريكية ، مثل النيويورك تايمز والكريستيان ساينس مونيتر ، هي أحسن صحف العالم في هذا المضمار . فاذا اغفلنا النظر عن تعليق رئاسة التحرير في الصحف الامريكية ، الذي يكاد يكون بـــلا استثناء مناوىء للعرب ، فالمراسلون الاميركيون يتفوقون في الدقة والموضوعية على زملائهم البريطانيين والالمان . وقد يكون هذا عائد الى حد ما الى عدم وجود انتماء حزبي أو عقائدي قوي عند الصحف الامريكية . فمراســـل الديلي تيليغراف البريطاني مثلا لا يمكن الا ان يتحامل على العرب ، لان هذا هو الموقف المتوقع من صحيفة محافظة تكـره اليسـار والحركـات التحررية . وكذلك الامر بالنسبة لمراسل النيـــو ستيتسمن اليسارية بحكم تحالف هذه المجلة مع الحركة الصهيونية منذ الثلاثينات ، باعتبار ان كل من المجلة والحركة الصهيونية تعتنقان الماركسية.

أما النيويورك تايمز او الكريستيان ساينس مونيتر او الانترناشنل هيرالد تريبيون ، فهي حرة من هذا الانتماء الحزبي . ومـــع ان النيويورك تايمـــز والانترناشيل هيرالد تريبيون واقعتان تحت النفوذ الصهيوني ، الا ان هذا النفوذ يظهر في تعليـــق الصحيفة وليس عادة في صفحات الاخبـــار . اما مراسل الديلي تيليغراف مثلا فهو يحرص علـــى أن يبين موقف صحيفته حتى في الخبر المباشر . فاذا نشرت هذه الصحيفة صورة جندي مصري أسره الاسرائيليون ، فانها لا تكتب : جندي مصري اسره الاسرائيليون ، وانمـــا : جنـــدي مصري أسره الاسرائيليون يجلس بذلة . هذا لا يظهر في اسلوب الصحف الامريكية الجدية ، وان كان ذلك لا يعني عدم وجود المراسلين الاميركيين الذين يصرون على تشويه الحقائق . ومن هؤلاء مراسل الانترناشنل هيرالد تريبيون في القدس المحتلة:ريشارد شيزنوف. فهذا المراسل كتب عن الفدائيين في ١٩٦٥/٥/٣١ فتحدث عنهم بازدراء ، وقال ان اسرائيل تريـــد القضاء على الحركة وهي ما زالت في المهد ، ثم ذكر أن فتح هي منظمة صغيرة جدا ، لا يتجاوز عدد افرادها بضع عشرات ، وهم جميعـــا من المرتزقـــة .

على كل حال ، واصلت الصحف الامريكية تغطية انباء فتح بانتظام ، وظلت النيويورك تايمز تعمل طبقا لشعارها الشهير : نشر جميع الانباء التي تستحق النشر . ويمكن القول ان تغطية هـــذه الصحيفة لانباء العالم لا تضاهيها من حيث الكثافة او الدقة صحيفة اخرى في العالم . اما تايم ، اكبر مجلة اخبارية اسبوعية في العالم ، فظلت حسب عادتها بعيـــدة عن الدقـــة والموضوعيـــة والتجرد . فقد كتبت في ١٩٦٥/٦/١٤ تتحدث عن فتح ، فقالت ان الغام هذه المنظمة لا تنفجر ، وتدريب رجالها سيء ، ومخططيها لا يتمتعـــون

بالكفاءة المطلوبة . وهذا كله كان متوقعا من مجلة تايم التي نادرا ما تنصف العرب .

ولم تكن تغطية منافستها نيوزويك بأفضل . الا ان مراسلها ريشارد شيزنوف (الذي هو ايضا مراسل الانترناشنل هيرالد تريبيون) اضطر في تقرير منشور في ١٩٦٦/٨/١٥ الى الاعتراف بارتفاع فعالية فتح ، كما نقل نص حديث اجراه مع اسرائيلي فقد ساقه نتيجة لمرور جراره فوق لغم . قال الاسرائيلي : ان هذا الوضع بدأ يضايقنا كثيرا ، فاننا الان نتعامل مع شيء مجهول: حرب العصابات . في هذه الحرب تذهب للنوم ، ولكنك لا تعلم اذا كنت ستفيق . لقد علمنا اولادنا عدم التجول في الحقول .

وفي نهاية عام ١٩٦٦ كانت التغطية الصحفية لعمليات فتح قد أخذت تصبح مستفيضة من جراء تزايد الهجمات الاسرائيلية الانتقامية على الاردن، وهي العمليات التي اضطرت اسرائيل الى رفع ستار التجاهل عن نشاط المقاومة . وكتبت التايم في عددها الصادر في ١٩٦٦/١١/٢٥ عن الغارة التي قام بها الفدائيون في القدس الجديدة على بعد ميل واحد فقط من دار رئيس الوزراء ليفي ايشكول . وكانت هذه الغارة هي المبرر بالنسبة لتايم لان يشن الاسرائيليون غارتهم المعروفة على قرية السموع . ولما كان بعض محرري تايم من الروائيين الفاشلين ، فهذا هو نوع النثر الذي تفضلوا به على قرائهم : « جاءت ضربة الرد الاسرائيلي كالغضب الابيض الحار لشمس الصحراء نفسها ، وكان هذا الهجوم الانتقامي هو اكبر واجرأ واكثر دموية من أي هجوم آخر منذ حملة السويس قبل عشرة اعوام . » كل هذه اللغة التوراتية الدراماتيكية لوصف هجوم كان يقف في مواجهته (او على الاغلب لا يقف) جيش بمقدرة الجيش الاردني !!

ولكن بغض النظر عن تايم ونيوزويك ، فتغطية الصحف اليومية الامريكية للاحداث كانت جيدة ، ومنها تغطية مراسل الانترناشنل هيرالد تريبيون : جو اليكس موريس (وهو مراسل قديم في البلاد العربية) لمعركة الكرامة ، حيث قال ان الدلائل تشير الى ان اسرائيل ارتكبت خطأ استراتيجيا جسيما (١٩٦٨/٣/٢٣) . وفي الانترناشنل هيرالد تريبيون كتب جيمس فيرون في ١٩٦٨/٤/١ يقول ان المسؤولين العسكريين في القدس كانوا يأملون ان الجنود الاردنيين النظاميين لن يقاوموا هجوما اسرائيليا على كوماندو فتح ، كما ان حسين كان قد وعد في شباط (١٩٦٨) بتطهير بلاده منهم . وحتى نيوزويك اضطرت في ١٩٦٨/٤/٨ الى القول بأن الكرامة كانت نصرا اسرائيليا ولكن بثمن مرتفع. وبعد اسبوع من ذلك نشرت تقرير مراسلها ميلان كوبيك في عمان ، الذي جاء فيه ان رجال المقاومة هم ابطال العالم العربي ، الا ان فتح مليئة بالعملاء الاسرائيليين ولها منافسات كثيرات بين المنظمات الاخرى ، وبعض هذه المنظمات لا تعدو ان تكون عصابات سرقة . ولكن جون كولي مراسل الكريستيان ساينس مونيتر (وهي من اقل الصحف الغربية تحاملا على العرب) اعترف في ١٩٦٨/٦/١٩ ان بعض اعوان الملك حسين الذين يعارضون نشاط المقاومة في الاردن اسسوا « منظمات فدائية » كاذبة لجمع الاموال وللتسلل الى داخل المنظمات الحقيقية .

وفي ١٩٦٨/٨/١٩ كتبت نيوزويك تتحدث عن محنة الامن في اسرائيل والاراضي المحتلة بسبب الفدائيين، فذكرت ان الغارات الانتقامية الاسرائيلية اثبتت فشلها في كسر حدة السلاح الذي هو اقوى الاسلحة فعالية بيد العرب : عنادهم الذي لا يلين . ولم تكتف الصحف الامريكية بأخذ الاحاديث من رجال المقاومة ، ففي ١٩٦٨/٩/٢٤ نشرت النيويورك تايمز مقابلة اجراها مراسلها دانا ادمز شميت (ايضا احد المراسلين القدامى في البلاد العربية) مع صلاح ابو زيد ، وزير الاعلام الاردني ، الذي قال للمراسل : أليس هو مدهش حقا ان يظل الملك حسين محافظا على صداقته مع الولايات المتحدة حتى بعد اندحاره في الحرب ! ففي الوقت الذي فيه يحذر العرب من الولايات المتحدة ويطالبون بتشكيل معارضة موحدة ضدها ، وقف هذا الملك وقال في اجتماعات الزعماء العرب : لقد كنا اصدقاء الولايات المتحدة، ونحن الان اصدقاؤها، وسنظل دائما اصدقاءها لاننا نثق ونؤمن بالولايات المتحدة .

وفي ١٣ كانون الاول ١٩٦٨ كانت قصة الغلاف لمجلة تايم هي المقاومة الفلسطينية . وكما هو متوقع ، بدأت المجلة مقالها الطويل بالعبارة التالية : كاذان المؤذن كل مساء ، ينبعث صوت اذاعة العاصمة من القاهرة في موعده المحدد . ثم استعرضت المجلة بعد ذلك الكليشيهات المعهودة عن الشهداء الذين

ينالون التبجيل الذي هو من حق الانبياء والرحلة المباشرة الى الجنة الخ.. الخ..*

وفي كثير من الاحيان تفقد المجلات الاخبارية الامريكية ما يسمى في الانكليزية Sense of Proportion ففي ١٣ — ١ — ١٩٦٩ كتبت نيوزويك تتحدث عن الغارة الاسرائيلية على مطار بيروت فوصفتها بأنها من أجرأ وادق الغارات في تاريخ جيش يتخصص في الجرأة والدقة . وفي هذا العدد ايضا كتب مراسل نيوزويك في اسرائيل ، مايكل الكينز (صهيوني) ما وصفه بأنه نص حديث اجراه مع فدائي معتقل . وقد جرى ذكر جمال حافظ في الحديث ، فوصفه الكينز بانه ضابط مصري قتل في ١٩٥٥ وهو يقود مجموعة ارهابية داخل اسرائيل ، بينما الواقع ان هذا الضابط المصري استلم في مكتبه بغزه طردا يحتوي على مواد متفجرة اودت بحياته . الا ان قتل ضابط وهو يقود عملية فدائية يسبغ على الاسرائيليين بطولة تفوق بطولة ارسال الطرود الملغمة الى اناس جالسين في مكاتبهم . ويكتب الكينز : وقد سألت الشاب (الفدائي المعتقل) بحزن حقيقي : ماذا كنت وزملاؤك تريدون ان تفعلوا عندما تصلوا الى القدس ؟ فأجاب الشاب بصوت خافت : كنا سنفجر البيوت ونقوم بالتخريب . اني اعلم ان القتل غير صحيح ، ولكن رؤسائي قالوا اننا يجب ان نخيف اليهود .

ان الكينز يحاول بهذا الاسلوب المأساوي (وقد سألت الشاب بحزن حقيقي) أن يرسم صورة لشباب فلسطينيين سذج اوهمهم قادتهم الانتهازيون بالانسياق مع تيار العنف ضد اسرائيل ، فوقع هؤلاء المساكين ضحية للطامعين في السلطة من زعماء الفدائيين . وكأن الكينز لا يجد اي مبرر شرعي لشاب فلسطيني يلتحق بالمقاومة ليساهم في تحرير القدس مدينته من ربقة الاحتلال الصهيوني . العنف حلال على الاسرائيليين وحرام على العرب . حلال على الاسرائيليين ان يحتلوا وحرام على العرب ان يقاوموا . هذا المنطق المعوج لا يبدو غريبا على رؤساء التحرير الامريكيين . وبعد تشويه التاريخ المعاصر ، لم تجد نيوزويك امامها الا التاريخ القريب لتشوهه . ففي العدد الصادر في ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٩ كتبت : « تقول اسرائيل ان الدول العربية هي التي شجعت الفلسطينيين على الهروب ، وفي الواقع ان العرب الذين بقوا في اسرائيل يتذكرون ان القادة العرب العسكريين ألحوا عليهم ان يغادروا حيفا ليتمكنوا من قصف المدينة .» هل نفهم من هذا ان المدفعية العربية كانت الى هذه الدرجة من الحجم الهائل حتى انها اجبرت الفلسطينيين على مغادرة قراهم ومدنهم في مختلف ارجاء فلسطين ؟! وتستمر المجلة في استعراض الحجج الصهيونية التقليدية عندما تكتب ان الدول العربية لم تفعل شيئا للاجئين ، وخاصة مصر التي وضعت ٣٠٠ الف لاجيء في قطاع غزة الضيق ، فباتوا وكأنهم في غيتو .

ويمكن القول انه بالرغم من المنافسة الشديدة بينهما ، فان النيوزويك وتايم مغازين يتشابهان في الموقف تجاه العرب ، وان كانت تايم بحكم كونها مجلة المؤسسة الامريكية القائمة وخاصة الحزب الجمهوري هي الى حد ما تمثل الادارة الامريكية القائمة ، بينما نيوزويك هي حرة من الارتباط بحزب او بحكومة . وكانت مجلة تايم في الخمسينات شديدة العنف في موقفها ضد الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية واليسار بشكل عام ، كما كانت ضد الميل الى عدم الانحياز السائد في دول العالم الثالث . وهذا الموقف جعلها الناطقة بلسان جون فوستر داليس ، وزير خارجية ايزنهاور الذي كان صديقا لهنري لوس صاحب تايم ومؤسسها ، وهو رجل شديد التحمس للحزب الجمهوري المحافظ وللدور الذي رسمه داليس لامريكا : دور رجل البوليس الاول في العالم .

وبعد موت لوس في وقت مبكر من عام ١٩٦٧ ، تحولت المجلة من عدائها السابق للعرب لانهم ضد الانحياز الى الغرب ، الى معاداتهم بسبب رفضهم لاسرائيل . والبارادوكس هنا هو ان المجلة التي تخلت عن اسلوب الحرب الباردة وباتت معتدلة في لهجتها تجاه الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية ، بل وحتى انتقدت الوجود الامريكي العسكري في الهند الصينية ، هذه المجلة صبغت نفسها بصبغة صهيونية اصيلة حتى انها احتفلت بالنصر الاسرائيلي في حزيران ١٩٦٧ وكأنه نصر امريكي .

---

* طالما هنئت تايم نفسها على ابتعادها عن الكليشيهات . وقبل اعوام نشرت قصة غلاف عن استراليا ، ثم نشرت بفخر في عدد تال رسالة من احد قرائها هنأها فيها لانها لم تذكر الكنغر ولا مرة واحدة في سياق مقالها عن استراليا .

ومن ذلك الحين والى اليوم ، وتايم مغازين هي من اشد المجلات تطرفا في مناوئتها للعرب وخاصة للمقاومة .

اما جريدة النيويورك تايمز التي استلم رئاسة تحريرها البريطاني جيمس ريستن ، بعد ان كان رئيس تحريرها دائما من الاسرة اليهودية التي تمتلكها ، فقد كانت سياستها التحريرية قبل حرب حزيران مضادة للعرب بعنف وعلى طول الخط . ومن الجدير بالذكر ان الاسرة اليهودية التي تمتلك النيويورك تايمز كانت في الاصل مناوئة للصهيونية ، الا ان الحملة المخيفة التي شنها عليها صهاينة نيويورك اجبرتها على الالتحاق بالتطبيع ، ولذا فان موقفها تجاه المقاومة هو مناوىء على الدوام ، وان كانت تفسح المجال لمراسليها للكتابة بحرية .

هذه الحرية غير متوفرة لمراسل التايم ، لان تقاريره دائما تطبخ في مكتب تحرير الصحيفة حتى لا تتعارض مع خط المجلة .

نظرة اجمالية

لو كان موضوع البحث هو الحرب الفيتنامية في صحف الغرب ، وحتى الثورة الجزائرية في هذه الصحف ، لكان بالامكان تقديم عرض غني ومتباين ويتضمن شتى الاتجاهات في هذه الصحف . ولكن المقاومة الفلسطينية ، لانها فلسطينية ، وموجهة ضد اسرائيل ، اصبحت في الموقف الفريد الذي جعل منها موضع عداء الجميع تقريبا .

مرت الثورة الفلسطينية المعاصرة بخمس مراحل هي التالية : ١ ــ فجر المقاومة عام ١٩٦٥ . ٢ ــ اشتداد المقاومة بعد حرب حزيران . ٣ ــ الاوج : معركة الكرامة . ٤ ــ خطف الطائرات . ٥ ــ مجازر الاردن وانحسار المقاومة .

في اكثر الحالات كانت ردود الفعل تجاه هذه المراحل متساوية في صحف الغرب . فجر الثورة استقبل في البداية بالتجاهل . وبعد ان ساهمت الهجمات الاسرائيلية « الانتقامية » في توجيه الاضواء عليه ، تحول التجاهل الى سخرية وازدراء . وازدادت هذه السخرية بعد ان استمرت الثورة في توجيه ضرباتها الى العدو الاسرائيلي بعد هزيمة العرب المنكرة في الحرب ، اذ كيف ستتمكن شراذم هزيلة من تحقيق ما عجزت عنه الجيوش العربية بأحدث الاسلحة ؟ ولكن هذه الابتسامة الهازئة بدأت تتجمد على وجوه اصحابها بعد معركة الكرامة ، عندما برز رجال المقاومة كأهم عنصر جديد في الشرق الاوسط بعد حرب حزيران . هنا بدأت الصحف الغربية تكتب عنهم بجدية متزايدة ، كما ان صحف اليسار الجديد اخذت تكسب الاصدقاء للثورة الفلسطينية كل يوم . ثم بدأ خطف الطائرات ، فاجتاحت العالم الغربي موجة من الغضب الهستيري على العرب ، ومع ذلك فقد اقر الكثير من الكتاب بأنه لم يبرز اسم فلسطين شيء كما ابرزته حوادث الخطف هذه ، وانه مع ان هذه الاعمال هي على المدى القصير مضرة بسمعة المقاومة ، الا انها على المدى البعيد ستكون ذات نتائج ايجابية بالنسبة للفلسطينيين . واخيرا جاءت مجازر الاردن ، وتنفست صحف الغرب الصعداء . اذ ان المقاومة التي انتزعت اعجابها انتزاعا قد وئدت اخيرا على يد العرب انفسهم ، فوفر ذلك على صحف الغرب اي احراج محتمل ، كأن تؤدي اعمال المقاومة الى اكتساب المزيد من تقدير الغربيين وثنائهم ، مما من شأنه ان يقود الى اتخاذ موقف معاد سافر من اسرائيل ، اذ طبعا لا يمكن امتداح المقاومة والاعجاب باسرائيل بنفس الوقت .

يمكن تقسيم الصحف الغربية الى قسمين : القسم الاول هو الذي يؤمن بأن نقطة الانطلاق لجميع الاعتبارات السياسية المتعلقة بالشرق الاوسط هي ان اسرائيل وجدت لتبقى ، وانه في هذه الحالة ليس ثمة خيار في اليد غير تفضيل الاستقرار والامن على العدل والحق . اما المقاومة الفلسطينية فهي تعكير لصفو الامن ولذا حبذا لو تنتهي . هذه هي الصحف الاقل عداء للعرب ، ومنها التايمز اللندنية ، والاوبزرفر والصنداي تايمز والفايننشيال تايمز والايكونوميست والسبكتيتر والكريستيان ساينس مونيتر الامريكية وربما الى حد ما ايضا النيويورك تايمز .

اما القسم الثاني فيتكون من الصحف المؤيدة لاسرائيل على طول الخط ، هذه الصحف لن توقف مساندتها للدولة الصهيونية حتى لو وصلت حدودها الى الفرات شرقا والاهرام غربا . بين هذه الصحف : الديلي تيليغراف والديلي اكسبريس والصنداي اكسبريس والديلي ميل والديلي ميرور والايفننغ ستاندرد والسكوتسمن واليوركشير بوست والنيو ستيتسمن والتايم ونيوزويك .

وفي الواقع ان الخط الفاصل بين القسمين ليس

كبيرا جدا ، وليس هناك ما يدل على ان صحف القسم الاول على استعداد لخوض حرب صحفية صليبية ضد اسرائيل فيما لو ابتلعت الاخيرة المزيد من الاراضي العربية ، بينما لم تتردد هذه الصحف في الصراخ بأعلى صوتها عندما اختطف الفدائيون بضع طائرات . ولكن اذا كان الفرق ليس كبيرا بين صحف القسمين في السياسة التحريرية ، فالفرق بين مراسل وآخر يجب الا يستهان بأهميته . وفي السنوات الاخيرة برز صحفيان غربيان لتجردهما من التحيز ولعمق تحليلهما ، هما ديفيد هيرست مراسل الغارديان في البلاد العربية ، وغافن يونغ مراسل الاوبزرفر (ايضا في البلاد العربيــة) والتساؤل الذي يطرح نفسه الان : كيف تكون رئاسة تحرير صحيفة ما آخر من يستفيد من تحليلات واستنتاجات مراسلها الخاص ؟ والجواب على ذلك هو ان السير حسب الخط المرسوم مسبقا للصحيفة يفوق في الاهمية التأثيرات الناجمة عن تقارير مراسليها . ان هذا هو ليس مجـال الخوض في موارد الصحف الغربية من الاعلانات ، ولا في السلطة التي توجد بيد اصحاب الاسهم او اعضاء مجلس الادارة ممن قد تكون لهم مصالح خاصة تدفعهم الـى تأييـد اسرائيل ، ولكن لا بأس اذا أوردنا امثلة سريعة من تاريخ الصحافة البريطانية لتعزيز الراي القائل بأن المصالح العليا لاية صحيفة هي التي ترسم لها الخط الذي تلتزم به ، وليس تقارير المراسلين ولا النزاهة والموضوعية .

اثناء الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) كانت اغلبية الرأي العام في بريطانيا ، لاسباب اقتصادية ، تؤيد الجنوب الكونفيدرالي في حربه الانفصالية ضد الاتحاد الشمالي الذي كان ابراهام لينكولن يترأسـه . وكانت التايمز اللندنية (آنذاك ليس فقط اهم صحيفة في بريطانيا وانما اكبرها توزيعا ايضا) تعطف بدورها على الجنوب وتؤيده في سياسته الانفصالية . ومع ان مراسل التايمز في امريكا كان هوارد رسل ، الرجل الذي اشتهر بأنه اول مراسل حربي في التاريخ . وكانت تقاريره الى صحيفته (وكذلك رسائله الشخصية الى رئيس التحرير ديلين) تتميز بميله الواضح الى الجانب الشمالي لتفهمه موقف حكومة لنكولن وتعاطفه مع سياستهـا ، الا ان التحليلات الصائبة لاشهر مراسل في اسرتها التحريرية لم تزحزح التايمز قيد انملة عن تأييدها للجنوب ، فبقيت ثابتة على موقفها الى ان اندحر وانتهـى الانفصال ، ولم يثبط في عزمها ان عداءها للشمال ادى الـى ان يصبح مراسلها فيه اكره شخصية اجنبية في الولايات المتحدة ، او انه مرارا كاد يتعرض الى الاعتداء عليه ، علاوة على ان الصحف الامريكية (الويل لمن تعاديه) ظلت تهاجمه طوال سني الحرب ، غير آبهة ببراءته من موقف صحيفته بل وحتى مخالفته اياها في الاتجاه .

اما المثال الاخر فهو اقرب الى عهدنا ، وهو ايضا يكوّن فصلا من التاريخ المخجـل لاكبر صحيفة بريطانية . ففي الثلاثينات انتمت التايمز الى الفئة من البريطانيين التي فضلت ان تسترضي هتلر على حساب تشيكوسلوفاكيا . ومع ان مراسلها الحربي آنذاك ، ليدل هارت ، الخبير العسكري المشهور ، ظل يكرر على رئيس التحرير مغبة هذه السياسة من الناحيــة العسكرية بحكم منصبــه كمستشار الصحيفة في شؤون الحرب ، وحاول ان يبرهن على صواب رأيه بالدراسات التي أعدها للنشر ، الا ان التايمز لم تأبه لاعتراضاته التي دفعته الى تقديم استقالته من أسرتها التحريرية ، بل انها رفضت حتى ان تنشر بعض مقالاته لان هذه الكتابات كانت تتعارض مع الخط الذي التزمت به : خط الاسترضاء والميوعة حيال هتلر وموسوليني .

بقي سؤال نهائي هو : لماذا غضبت الصهيونية على مايكل ادمز فاضطهدته ولاحقته ، بينما أهملت مهاجمة دفيد هيرست وغافن يونغ وغيرهما مـن المراسلين المنصفين ؟ والجواب على ذلك ان كتابات ادمز كانت قد اكتسبت صبغة الحملة الصليبية ضد اسرائيل ، فالرجل كان حقا قد اثارته ما رآه في الارض المحتلة من اعمال بربرية قامت بها سلطات الاحتلال كتدمير البيوت ومحو القرى من اساسها ، فأغاظت نبرة الغضب التي لاحت في لهجته انصار اسرائيل ، وكانت النتيجة انه فصل من منصبه وطورد . اما ديفيـد هيرست ، فمع انه أنصف المقاومة الفلسطينية ولم يشوه اهدافها ، الا انه في الوقت نفسه ظل في تلك « المساحة » وحافظ على الهدوء في نبرة صوته ، ولم يتعرض لاسرائيل بنوع النقد الذي تخشاه .

ان حادثة مايكل ادمز هـي باختصار ، مأسـاة الصحافة الغربية .

المقاومة الفلسطينية والعمل الاجتماعي

غازي خورشيد

الثورة في العالم الثالث حركة تغيير لواقع مجتمع معين ان في فهمه السياسي او الاجتماعي او الاقتصادي نحو نمط جديد من الممارسة والعلاقات . لا يمكن الفصل بين هذه المفاهيم الثلاثة عبر مرحلة التغيير لانها على علاقة جدلية تتمم كل الاخرى وتسير معا في عملية بناء المجتمع الجديد . فان عملية تطوير الفهم السياسي في المجتمع تتطلب بالضرورة وعي العلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة فيه وما تفرزه هذه العلاقات من سلطات ضمن طبقات المجتمع نفسه حتى يتم توعية الطبقات صاحبة الحق في السلطة على مصالحها . كما ان اي عملية تغيير في الوضع الاجتماعي او الاقتصادي لا ترتبط بفهم سياسي معين يكون جزءا من برنامج متكامل لا يمكن لها ان ترفع من مستوى الجماهير ــ صاحبة الحق في السلطة ــ لتتلمس هي قضاياها بل تكون هذه الخطوات بمثابة اصلاحات او خدمات تقدمها الثورة كأي مؤسسة مستقلة تضمن فقط استمرار التفاف منتفعين من حولها .

ان الجماهير بحكم واقع التخلف والتضليل والتجهيل الذي تعيش فيه والمفروض عليها من الطبقات الحاكمة حفاظا على مصالحها وامتيازاتها ، وبرغم تلمسها لهذا الاستغلال وتعبيرها عنه في بعض الاحيان بالاضراب او التظاهر او الاحتجاج تبقى عاجزة عن اتخاذ زمام المبادرة والقيام بالثورة التي تؤدي بالنهاية الى سيطرتها على السلطة . لذا تحتاج الثورة لطليعة تعي الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للجماهير لتتخذ على مسؤوليتها عملية تنظيمها وتعبئتها . وهكذا فان الثورة بحاجة لثقة الجماهير بها كمعبرة عن مصالحها حتى تتمكن من الاستمرار والوصول الى هدفها الاساسي . كيف يمكن كسب هذه الثقة ؟ او بكلام أدق كيف يمكن للثورة ان تقيم علاقتها بالجماهير ؟

لا شك بان الكفاح المسلح هو اهم المظاهر التي تلتف حولها الجماهير اذ انها ترى فيه بداية التحرر من الواقع الذي تعيش فيه . ان هذا الحس الطبيعي لدى الجماهير هو الذي يدفعها الى الوقوف مع الثورة فتشكل دعما معنويا له على الصعيدين المادي والبشري فهي تقدم كل ما باستطاعتها من العون المادي ، ومن ثم هي المصدر الوحيد لرصد المزيد من الامكانات والطاقات البشرية للثورة . ولكن هل يقتصر دور الجماهير على هذين المنطلقين فقط رغم اهميتهما كضمان لاستمرارية الثورة ؟ كما لا بد ان نتساءل الى اي مدى يمكن لهذه الجماهير وفي ظل دورها السابق الذكر ان تستمر في تقديم مساعداتها للثورة ؟ ان تصاعد النضال وتطور الثورة يبدأ بتطلب مزيد من التضحيات ومزيد من الدعم والصمود من الجماهير التي تصورت مع انطلاقة الثورة ان التحرير عملية شهور ومعارك محدودة وينتهي العدو ويستسلم . ان هذا الشعور الموجود اصلا لدى الجماهير لا تحاول الثورة عبر ذلك النمط من العلاقة ان تزيله بمفهومها الخاص للثورة ولدور الجماهير فيها . وهكذا فان بقاء الجماهير على هذه الحالة يبدأ بتسريب الشك الى نفسها فيما اذا كانت الثورة حقا تستطيع الاستمرار والتحرير ، ويرافقه ايضا تراجع في دعمها المادي والبشري . وهكذا فان عفوية الجماهير تقوم بدعم شامل

للثورة في انطلاقها ولكنها لا تستطيع فهم تطوراتها ومراحل تصاعدها مما يؤدي الى تراجع سريع في علاقتها بالثورة ، وتدريجيا تأخذ موقف المتفرج من الصراع القائم .
كما لا يقتصر دور الجماهير على تقديم الدعم المادي والبشري فقط فهي مطالبة بتحويل كافة نشاطاتها وعملها للثورة . ان الثورة تعي ، وان انطلقت في كفاحها المسلح ضمن اطارات عسكرية ضيقة ، ان هذه المرحلة لا بد منها كمقدمة لحربها الشعبية الطويلة الامد . وهذا ما يفرض عليها مزيدا من العمل لتنظيم الجماهير وتعبئتها حتى تتحول بكافة ممارساتها الى امداد وبناء للثورة ضمن برنامج شامل يعي كل فرد وكل مجموعة دورها في عملية التحرير .
اذا كان الكفاح المسلح يدفع لكسب الجماهير فان العمل الاجتماعي هو مظهر آخر لا يقل اهمية عن سابقه كأداة لكسب الجماهير وتنظيمها . ينحصر العمل الاجتماعي في هدف آني يقتضي رعاية اسر شهداء وأسرى وجرحى الثورة وهدف اساسي يقوم كجزء من برنامج الثورة العام لتغيير العلاقات السائدة في المجتمع . تعاني الجماهير من استغلال واضطهاد النظام الحاكم الذي يسخر كل مؤسساته واجهزته لتفرض علاقات معينة على الجماهير ، ولتكون فقط لخدمة ذلك النظام واستمرارا لتسلطه . ولكن وبما ان الثورة تشكل سلطة ثورية تعبر عن مصالح الجماهير فعليها ان تطرح نمطا جديدا من العلاقات والممارسات عبر المؤسسات التي توجدها . ان تمايز برامج واسلوب عمل مؤسسات الثورة عن اجهزة السلطة الحاكمة ، ولكونها تعبر عن مصالح القطاعات الواسعة من الجماهير ، تأخذ هذه القطاعات بدورها بالالتفاف حول الثورة ومساندتها . ومن ثم يسهل على الثورة عبر هذه الخدمات ان تنظم الجماهير وتعبئها اذ انها تقيم علاقة يومية ودائمة بها مما يساعدها على تفهم مشاكلها وواقعها لتطرح حلولا لها . كما ينمي تصاعد هذه الخدمات وتلمس الجماهير لفائدتها اعتماد الجماهير لها والانفصال تدريجيا عن مؤسسات السلطة الحاكمة القائمة. ويؤدي هذا التحول ايضا الى شعور الجماهير عمليا بضرورة استمرار الثورة كحماية لمصالحها المكتسبة . ويجب على الثورة ان تعي دائما بان الهدف من هذه المؤسسات ليس فقط الانتاج ، وانما تعويد الجماهير على نمط جديد من ممارسة العمل الجماعي والاعتماد الذاتي في ادارة شؤون حياتها اليومية ولتبدأ بطرح وممارسة مفاهيم جديدة للسلطة والسلطة الذاتية .
ان لكل ثورة ظروفها الذاتية والموضوعية الخاصة التي تولد تجربة معينة . وعندما نقول هذا لا نعني ان تنغلق الثورة على ذاتها بل يجب الانفتاح والاطلاع على تجارب الثورات الاخرى ودراستها والاستفادة من كل تجاربها على شرط ان توجد الثورة تجربتها الخاصة القائمة على ضوء ظروفها وامكانياتها الذاتية والموضوعية وان لا تنقاد وراء التقليد والتبعية العمياء التي وبدون شك تكون ذات نتيجة عكسية على الثورة .
وهكذا فحين نريد ان نتكلم عن فهم فصائل الثورة الفلسطينية للعمل الاجتماعي عبر المؤسسات والخدمات التي اقامتها لا بد من الالمام بالظروف الذاتية والموضوعية لهذه الثورة حتى يمكن طرح برنامج عملي يمكن الالتزام به وتنفيذه ويقوم فعلا من الواقع الفلسطيني .
ان توقف التاريخ بالنسبة للمجتمع الفلسطيني بعد عام ١٩٤٨ ، وتشتت الشعب الفلسطيني ضمن مجتمعات عربية اخرى أدى الى ربط علاقات هذه التجمعات الفلسطينية الاجتماعية والاقتصادية بالمجتمعات التي نزحت اليها . ان هذا الوضع قد فرض مزيدا من المسؤوليات على الثورة في نطاق عملها على صعيد العمل الاجتماعي اذ انه يتطلب دراسة واقع الشعب الفلسطيني على ضوء المجتمعات المتواجد فيها مما يؤدي أيضا الى ضرورة طرح برنامج مختلف لكل تجمع ، فواقع الشعب الفلسطيني في الاردن مثلا يختلف عنه في سوريا . كما فرض هذا الواقع على الثورة الوضع التالي :

ان العمل الاجتماعي للثورة الفلسطينية وسط تجمعات الفلسطينيين في البلدان العربية المختلفة رغم انه يطرح نمطا جديدا من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بينها ، الا انه يجب ان لا يهدف عبر هذا الطرح الى الاخذ على عاتقه توسيع طرحه لهذا المفهوم ليشمل تغيير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع المتواجد فيه ككل — أي تغيير طبيعة السلطة الحاكمة باستثناء الضفة الغربية وقطاع غزة — ويعود ذلك الى انه اولا ليست السلطات العربية الحاكمة العدو الرئيسي للثورة ولان عملية طرح من هذا النوع توقع الثورة في تناقضات ثانوية تؤثر كثيرا على نضالها الاساسي ضد العدو الاسرائيلي ، ولان عملية التغيير هذه ، ثانيا ، يجب ان تقوم بها الحركة الوطنية في البلد نفسه . فليس من مهمات الثورة الفلسطينية ان تنوب عن اي حركة تحرر في الوطن العربي فان لكل حركة نضالها ومسؤولياتها ، على ان لا يفهم من هذا ان هناك فصلا ميكانيكيا بين حركة التحرر هذه وحركة التحرر تلك ، فحركات التحرر في العالم العربي على علاقة وثيقة ببعضها بعضا وتدفع كل الاخرى وهي أيضا جزء من حركة التحرر العالمية ضد كافة اشكال الاستعمار والامبريالية .

وعلى هذا الاساس ، كيف فهمت فصائل المقاومة المختلفة قضيـــة العمل الاجتماعي ؟ هذا ما سأحاول ان أقدمه عبر عـــرض فهم وتجربة ثلاث من فصائــــل المقاومة لهذا الموضوع .

حركة التحرير الوطني الفلسطيني ((فتح))

اعتبرت حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ان تفجر الثورة قد خلق تحركات جماهيرية بين اوساط الشعب الفلسطيني مما دعا الى خلق مؤسسات لتنظيم العلاقات والمهمـــات الاجتماعية بين قوى الثورة والجماهير وللاشراف على رعـــاية وتأمـــين الاحتياجات المعيشية والخدمات الضرورية لاسر شهداء وأسرى وجرحى الثورة . كما رات ان الترابط بين النضال العسكري والنضال الاجتماعي قد فـــرض على الثورة الاهتمام بالاوضاع الاجتماعية للشعب الفلسطيني . هذا وتعيد الحركة الهدف من العمل الاجتماعي الى سببين : **اولهما ، انه يضمن استمرارية الثورة برعايته ورفعه مستوى الاسرة الفلسطينية** . « ان الثورة تحرير للوطن والانسان ، ان رعايـــة ابناء الشهداء يضمن للثورة الاستمرار ، لان اطمئنان المقاتل على مصير عائلته يجعله اكثر استعدادا للتضحية ، ان مؤسستنا (مؤسسة الشؤون الاجتماعية ورعاية اسر الشهداء) تهدف الى حفظ كرامة الانسان الفلسطيني ورعاية ابنائه وحمايتهم من التشرد وتربيتهم تربية نضالية علمية ثورية ، وكذلك فان خدماتنا تساهم في زيادة انتاجية شعبنا الفلسطيني وتبين له ضرورة اعتماده على نفسه ، اننا نربط الاسرة باطـــار الثورة الفلسطينية ونحاول رفع مستوى الوعي الوطني لدى العائلة ، ونؤكد التضامن الكامل بين افراد المجتمع الفلسطيني»(١). **وثانيهما ، لانه يؤمن استقرار المجتمـــع الفلسطيني بعـــد التحرير** . « علينا ان نعمل على تهيئة كافـــة الظروف التي تؤمن استقرار المجتمـــع الفلسطيني وتقدمه بعد التحرير ، لقد لاحظنا ان معظم مجتمعات دول العالم الثالث قد واجهت مشكلات اجتماعية متنوعة بعد انتصارها في معارك تحريرها ، فلقد خلق تحطم العلاقات الاجتماعية التي كانت تسود في عهد الاستعمار فراغا خلـــق بلبلة في البنية الاجتماعية لتلك الشعوب وكذلك فقد خلقت حروب التحرير عددا كبيرا من المصابين والمشوهين من المناضلين ينبغي تهيئتهم لتسلم اعمال ووظائف تمكنهم من المساهمة في بناء اوطانهم وتحفظ كرامتهـــم . اننا منذ الان نسعى لخلـــق كوادر مدربـــة لاستلام

---

١ — حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » . **الثورة الفلسطينية** ، العدد ١٩ ، ص ٣٢ .

مسؤولياتها في المجتمع المحرر»(٢).
ولكن قبل عرض تجربة حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » في ممارستها للعمل الاجتماعي لا بد من وعي نقطة هامة ظهرت بعد انطلاقة الثورة في ١٩٦٧ . لقد تميزت المرحلة الاولى من الكفاح المسلح ، ١٩٦٥ — ١٩٦٧ ، بالعمل السري الـذي اساسا تكون علاقتـه بالجماهير محدودة لظروف وطبيعة العمل ، لذلك لم تركـز الثورة على العمل الاجتماعي الا في نطاق رعاية اسر شهداء واسرى وجرحـى الثورة . واما بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ وبروز المقاومة كبديـل لفشل الانظمة العربيـة ، التي دفعت بالمقاومة اعلاميا وماديا حتى انها أوجدت منظمات تابعة لها مباشرة وذلك لامتصاص اي تحرك جماهيري لاسقاطها ، وللسيطرة واحتواء المقاومة واخضاعها لسياستها عبر ما تفرضه على الثورة من قيود من جراء علاقتها بها، انتقلت المقاومة الى العمل العلني.
ادى هذا الانفتاح الى توسع افقي للمقاومة دون ان يرافقه اي توسع عامودي بمعنى ان المقاومة انتقلت من مرحلة العمل السري الى العمل العلني دون ان تكون قد هيأت نفسها — على صعيد امكانياتها الذاتيـة — لاستيعاب هذا الانفتـاح على الجماهير لتأطيرها وتنظيمها . وانما فرضت اوضاع المقاومة الذاتية — تعدد المنظمات ، التأكيد على الكفاح المسلح ، التعايش مع الانظمة العربية ، فلسطينية الثورة ولفظية الالتحام بحركات التحرر العربية . . . الخ — الى عدم استيعابها للعمل الاجتماعي واهميته كأداة لاتصالها بالجماهير ، فكان ان نشأت منظمات اخذت على عاتقها بعض مهمات العمل الاجتماعي بين أوساط الشعب الفلسطيني .. وهنا لا تخفى خطورة مثل هذه الظاهرة اذ نابت هذه المنظمات عن الثورة الفلسطينية بين الجماهير في الفترة التي تلت ١٩٦٧ الى اواخر ١٩٦٨ حيث اخذت تنشط الثورة الفلسطينية على صعيد العمل الاجتماعي .
من هذه المؤسسات تأسست في دمشق في ١٩٦٧/٩/٢٨ ((**جمعية رعاية اسر مجاهدي وشهداء فلسطين**)) بهدف تقديم المساعدة والرعاية لعائلات وابناء مجاهدي وشهداء الثورة الفلسطينية وذلك بان طرحت سلسلة من الوسائل لذلك وتتلخص في : ١ — تقديم مساعدات مادية وعينية لعائلات شهداء الثورة الفلسطينية بكافة فصائلها . ٢ — تأمين اعانات ومنح وبعثات دراسية لابناء المجاهدين والشهداء وكذلك فتح مدارس خاصة بهم . ٣ — تنظيم الندوات الثقافية والاجتماعية اللازمة لرعاية الاطفـال والعاجزين والمسنين من عائلات المجاهدين والشهداء . ٤ — انشاء المؤسسات الاجتماعية اللازمة لرعاية الاطفال والعاجزين والمسنين من عائلات المجاهدين والشهـداء . ٥ — توفير الرعاية الصحية لعائلات وابناء المجاهدين والشهداء وذلـك بتأمين العـلاج أو فتح المستوصفات الخاصة بهذه الفئة .
ولكن ونتيجة للظروف المادية التي جابهتها هذه الجمعية لم تستطع ان تنفذ من برنامجها ذلك سوى تقديم المساعدات المادية لاسر كافة شهداء ومجاهدي الثورة . فلقد اعتمدت في ميزانيتها على تبرعات الحكومات والجماهير العربية ، وخاصة في منطقة الخليج العربي ، ومن الاشتراكات غير المحددة للاعضاء المؤازرين المنتسبين في الجمعية والبالغ عددهم حوالي الخمسمئة ومن اشتراك اعضائها العاملين ايضا — ستون عضوا — والمحدد بخمس ليرات سورية شهريا . هذا ويشرف على ادارة الجمعية التي ما زالت تعمل الى الان بالتنسيق مع مؤسسة الشؤون الاجتماعية ورعـاية اسر الشهداء في سوريا ، مجلس ادارة مكون من تسعة اعضاء ينتخب سنويا في اجتماع اللجنة العمومية المكونة من كافة الاعضاء العاملين . تصرف الجمعية مئة وخمسين ليرة سورية لاسرة كل شهيد اعزب يضاف اليها عشر ليرات سورية لكل ولد لاسرة الشهيد المتزوج .

٢ — المصدر السابق .

كما قامت في عمان ايضا في ١٩٦٧/٧/٢٢ « **جمعية رعاية أسر الشهداء** » والتي تتشابه في هدفها وأسلوب عملها مع سابقتها .

مارست « فتح » عمليا مفهومها للعمل الاجتماعي عبر « **مؤسسة الشؤون الاجتماعية ورعاية أسر الشهداء** » التي تأسست مع انطلاقة « فتح » في ١٩٦٥ وهي تتبع الحركة كليا بكل ما فيها من مؤسسات ومراكز كما ينحصر العمل فيهــا ايضا لاعضاء الحركة فقط . ونتيجة للتوزع الجغرافي للشعب الفلسطيني على امتداد اقطار عربية مختلفة اوجدت المؤسسة فروعا لها في المناطق والبلدان حيث تتواجد كثافة سكانية فلسطينية ــ مكتب دمشق ، مكتب بيروت ، فرع اربد . كما تقوم لجان الاقاليم لحركــة « فتح » في البلدان العربية الاخرى بواجبها ومهماتها الاجتماعية بتنسيق بين المؤسسة في عمان سابقا وبيروت حاليا وبين الاقاليم الاخرى بواسطة مكتب التعبئة والتنظيم .

تتشكل قيادة كل فرع للمؤسسة من مسؤول تعينه الحركة ومن مندوبين مفرزين عن التنظيم . تجتمع هذه اللجنة اسبوعيا لطرح كل مشاكل المناطق وينبثق عنها لجان عمل هي : ١ ــ اللجنة الاجتماعية التي تقوم باعداد دراسات حول اسر الشهداء والاسرى ورفع تقارير عنها . ٢ ــ اللجنة المالية وتشرف على القبض والصرف وتقوم بتأمــين المبالغ النقدية التي توزع على اسر الشهداء والاسرى شهريا والمساعدات الطارئة التي تقدمها المؤسسة . ٣ ــ اللجنة الصحية وتعنى بالاحــوال الصحيــة لاسر الشهــداء والاسرى وترشدهم للمراكز الطبية والعيادات التابعة للحركة لتوفير العلاج مجانا . ٤ ــ لجنة التوعية والتثقيف الثوري مهمتها توعيــة وتثقيف الاسر بشتى الطرق عبر نشرات وكراسات وندوات وذلك بالتعاون مع مكتب التعبئة والتنظيم .

كما يتفرع عن لجنة القيادة هذه لجان المعسكرات التي تتألف كل منها من خمسة الى سبعة اعضاء وبمساعدة ثلاث عضوات من التنظيم النسائي . تجتمــع هذه اللجان اسبوعيا ، وتحدد مهماتها بــ : ١ ــ دفع مخصصات اسر الشهداء والاسرى خلال اثنتين وسبعين ساعة من اخر كل شهر ، ومخصصات الجرحى واصحاب العاهــات الدائمة في المعسكر ودفع تحويلات المقاتلين في حينها أيضا . ٢ ــ تقديم المواد الغذائية الاساسية لابناء الشهداء والمقاتلين وتأمين الــدواء والوصفات الطبية لاسر المقاتلين والشهداء والاسرى . ٣ ــ تقوم اللجنة بمسح كامل لكل اسر الشهداء كل أول سنة وتقدمه للقيادة . ٤ ــ زيارة بعض الاسر المحتاجة في المعسكر للنظر في قدر المساعدة الممكن تقديمها لها . ٥ ــ القيام بندوات اسبوعية لأخوات وامهات المقاتلين والشهداء والاسرى لرفع مستواهم الثوري . ٦ ــ زيارة المقاتلين الجرحى في المستشفيات مرتين شهريا وزيارتهم ايضا في اجازاتهم واعداد برامج ترفيهية لهم . ٧ ــ تقوم اللجنة ايضا باعداد مشاريع تربط بين المقاتلين في القواعد وجماهير المعسكر كمشروع « هدية الى مقاتل » . ٨ ــ كما تشرف اللجنة على مكتبة المعسكر والناحية الرياضية وتقوم بجمع التبرعات العينية في منطقتها .

وتتحدد نشاطات المؤسسة بما يلي :

أ ــ مراسم تكريم الشهداء : ١ ــ تقدم المؤسسة لاسرة الشهيد وسام القيادة العامة لقوات العاصفة مع شهادة سجل الخالدين ودفع مساعدة فورية تقدر بحوالي مئة دينار اردني او بما يعادل ذلك في الاقطار العربية عند استشهاد احد المناضلين . هذا وتواكب الشهيد مع اخوته في النضال الى مثواه الاخير وتقدم لاسرته ما يجب تقديمه في مثل هذه المناسبات . كما تشارك المؤسسة في ذكرى مرور الاربعين وحفلات التأبين ايضا .
٢ ــ قامت المؤسسة بانشاء مقابر خاصة في كل بلد حيث تتكفل ببناء اضرحة الشهداء والعناية بها وحراستها .

ب ــ تقديم المساعدات النقدية : ١ ــ تدفع مخصصات شهرية لكل اسر الشهــداء

والاسرى بما في ذلك داخل الارض المحتلة وعلى ضوء تقرير الباحث الاجتماعي ، بحيث يغطي المخصص نفقات الاسرة ويحفظها من الحاجة والعوز ، وتشرف ايضا على مسكنهم . ٢ ــ تقوم المؤسسة بتبني عائلات من يسقط من المدنيين على اختلاف جنسياتهم ودفع مخصصات شهرية دائمة لهم . كما ترعى المجاهدين الاوائل الذين لا معيل لهم . ٣ ــ تقوم بدفع مساعدات نقدية وعينية في الاحداث الطارئة التي تواجه اي اسرة شهيد او اسير او المحتاجين وتقدم ايضا مساعدات نقدية وعينية في مناسبات اخرى كالاعياد . ٤ ــ تدفع احيانا تعويضات للمتضررين نتيجة الاعمال العدوانية التي يقوم بها العدو داخل الارض المحتلة او قصف المناطق العربية . ٥ ــ تعمل المؤسسة للاصلاح بين الاخوة المعنيين في حال حوادث عارضة ــ كحوادث السيارات واطلاق الرصاص وما قد ينتج عنهما .

جـ ــ توفير الخدمات الطبية لاسر الشهداء والاسرى وغيرهم : ١ ــ تقوم اللجنة الصحية برعاية كافة افراد اسر الشهداء والاسرى عبر زياراتها الدورية لهم . كما تؤمن لهم العلاج في العيادات الطبية العائدة للحركة او في العيادات الخاصة او حتى خارج القطر المتواجدة الاسرة فيه اذا اقتضى الامر . ولهذا زودت الحركة كافة اسر الشهداء والاسرى ببطاقة صحية تسمح لها بالمعالجة في اي من عيادات الحركة مجانا . ٢ ــ واما على صعيد المخيمات في لبنان فقد انشأت في كل معسكر لجنة للارشاد الصحي تقوم بزيارة اسبوعية للمنازل في المخيم تهدف الى رعاية الطفل من سن سنتين الى عشر سنوات من حيث نواحي التغذية والتلقيح ضد الامراض المعدية ، والى نظافة المنزل الداخلية . وتقوم بجولات على مدارس الاونروا لتفقد احوال الطلاب الصحية .

د ــ توفير التعليم الابتدائي والاعدادي والثانوي لابناء وبنات الشهداء والاسرى : اهتمت المؤسسة بتوفير التعليم بجميع مراحله لجميع افراد اسر الشهداء والاسرى حيث تقدم الخدمات التعليمية التالية : ١ ــ مساعدة ابناء الشهداء والاسرى لدخول المدارس الرسمية وفي حال عدم قبول اي منهم تقوم بالحاقه باحدى المدارس الخاصة على نفقتها . ٢ ــ تقوم المؤسسة بالتأكد باستمرار من أن جميع ابناء الشهداء ما زالوا يتابعون دراستهم وتحل مشاكلهم الدراسية ايضا ان وجدت . ٣ ــ وضعت المؤسسة في برامجها منذ تأسيسها خطة لفتح مدارس خاصة لبنات وابناء الشهداء فيما كان ذلك ممكنا .

وتنفيذا لهذه الخدمات اوجدت المؤسسة المدارس الثلاث التالية :

مدرسة بيت المقدس : تحدد المؤسسة بان الهدف من انشاء هذه المدرسة هو : ١ ــ اطمئنان الثورة والجماهير على مستقبل بنات اولئك الذين كان لهم شرف الاستشهاد وتسليحهن بسلاح العلم . ٢ ــ رعاية الفتاة رعاية اجتماعية على اسس سليمة لتعويضها بعض ما فقدته بسبب استشهاد والدها او أسره . ٣ ــ توعية الفتاة توعية ثورية لربط الاسرة بالثورة مؤكدة ان استشهاد او اسر بعض افرادها ليس معناه انتهاء العلاقة بين الاسرة والثورة . ٤ ــ انشاء جيل من الفتيات قادر على تحمل المسؤولية وفهم حقيقة النضال الذي يستشهد او يؤسر بسببه ابناء الثورة .

انشأت الحركة المدرسة في بداية عام ١٩٦٨ في عمان بالاشتراك مع المواطن الليبي الحاج يوسف مادي الذي قام بالانفاق عليها . كان عدد طالباتها يوم افتتاحها اثنتين وثلاثين طالبة موزعة على خمسة صفوف وباشراف ثلاث مدرسات فقط . اتسعت المدرسة واصبح عدد طالباتها في العام الدراسي ٦٩ ــ ١٩٧٠ سبعين طالبة تتراوح اعمارهن بين السادسة والرابعة عشرة سنة موزعين على الشكل التالي : الصف الاول ٢٠ طالبة ، الصف الثاني ١٥ طالبة ، الصف الثالث ١١ طالبة ، الصف الرابع ٨ طالبات ، الصف الخامس ٦ طالبات ، الصف السادس ٤ طالبات ، الصف الاول

اعدادي ٦ طالبات . واصبح يشرف على المدرسة لجنة ادارية مكونة من خمسة اعضاء وتتألف الهيئة التدريسية من عشر مدرسات ثلاث منهن يقمن في القسم الداخلي من المدرسة . كما ان هناك مديرة للمدرسة ومشرفة طعام ومشرفة على شؤون القسم الداخلي .

تتبع المدرسة نفس المنهاج التعليمي الذي اقرته وزارة التربية والتعليم الاردنية ، غير انها تعلم اللغة الانكليزية من الصف الاول ابتدائي واللغة العبرية من الخامس ابتدائي بالاضافة الى برامج التوعية والتثقيف الثوري .

مدرسة اسعاد الطفولة في سوق الغرب : أسس الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني مدرسة اسعاد الطفولة في سوق الغرب في ١٩٥٧ ، واشرفت في حزيران ١٩٧٠ مؤسسة الشؤون الاجتماعية ورعاية أسر الشهداء الى جانب الاتحاد على ادارتها حيث اخذت بدفع ميزانيتها على اثر الخلاف الداخلي في الاتحاد والذي ادى الى تجميد امواله . تقسم المدرسة الى الفرع المهني والفرع التعليمي . يضم الفرع المهني اقساما لتعليم الخياطة والحياكة الصوفية والتطريز والتدبير المنزلي والعناية بالطفل ، وانشأت في عام ١٩٧٠ قسما للتجميل . بينما يقوم الفرع التعليمي بتدريس المنهاج التدريسي المقر من قبل وزارة التربية في لبنان بالاضافة الى دروس في تاريخ وجغرافية فلسطين ودروس توعية قومية ، ضمت المدرسة ٢٢٠ طالبا في ١٩٦٩ و ٥٧٥ في ١٩٧٠(٣) وهي تشمل صفوفا من الحضانة حتى الثالث التكميلي وفيها خمس وستون معلمة بين مشرفة ومدرسة ومديرة دروس . وفي داخل المدرسة مسرح وصالة عرض وقاعة طعام وملاعب رياضية على انواعها ، ومزودة بباصات وبعض السيارات الصغيرة لنقل الطلاب، وفيها مشغل خياطة وتطريز لتعليم الفتيات ينتج ما يكفي المدرسة من الالبسة. هذا وقد قامت ادارة المدرسة في العام الدراسي ١٩٧٠ — ١٩٧١ بقبول اربعين طالبا من سكان المناطق المجاورة لها وذلك لاقامة مزيد من العلاقات مع الجماهير المحيطة بها. كما تعرف عن نشاطاتها عبر اقامة حفلات خيرية وندوات ومعارض .

مدرسة رام الله : اقامت المؤسسة في مدرسة رام الله التابعة للاونروا في صبرا — بيروت صفوفا ليلية لابناء الشهداء والمقاتلين في ١٩٧٠ ضمت اثنين وثمانين طالبا اشرف على تدريسهم اساتذة متطوعون من الحركة .

هـ — توفير التعليم الجامعي لاسر الشهداء والاسرى : تهتم حركة « فتح » بتأمين التعليم الجامعي لابناء الحركة عامة وابناء أسر الشهداء بصورة خاصة «باعتبارهم رسل الثورة الفلسطينية في الجامعات التي ينتسبون اليها » . وقد امنت الحركة حوالي خمسين منحة دراسية للعام الدراسي ٦٨ — ١٩٦٩ وتكفلت بالانفاق على الطلاب الحاصلين على هذه المنح .

و — التوعية والتثقيف الثوري : تقوم المؤسسة في هذا المجال بما يلي : ١ — زيارة الاسر بشكل دوري لتعريفها بمجريات الاحداث وتبادل الاراء حول القضية الفلسطينية. ٢ — التعاون مع جهاز الاعلام في الحركة لتوزيع النشرات الصادرة عنه على اسر الشهداء . ٣ — اقامة الندوات العامة لاطلاع الجماهير على اخبار الثورة . ٤ — اقامة دورات محو أمية في فصل الصيف للنساء والرجال حيث تمتد الدورة مدة ثلاثة اشهر طيلة خمسة ايام في الاسبوع بمعدل ثلاث ساعات يوميا — من الثالثة حتى السادسة للنساء ومن السادسة حتى التاسعة مساء للرجال . وقد اقامت المؤسسة دورة في مخيم برج البراجنة في لبنان في شباط ١٩٧١ باشراف التنظيم النسائي في الحركة ضمت

---

٣ — تعود هذه النسبة العالية في زيادة عدد الطلاب نتيجة لاحداث ايلول ١٩٧٠ حيث قدم مئة طالب من الاردن بعد ان اغلقت السلطات الاردنية بعض مدارس ابناء الشهداء .

خمس عشرة امرأة تزيد أعمارهن عن الثلاثين سنة دامت ثلاثة اشهر . لم تحقق هذه الدورة نتائج ايجابية نتيجة التغيب المستمر لافرادها وللنقص في المعدات واللوازم لها .

ز ــ توفير التأهيل الجسماني لمشوهي الحرب او من جراء الارهاب في سجون العدو :

تعمل المؤسسة على : ١ ــ توفير التأهيل الجسماني لهم بتعويضهم باطراف صناعية او غيرها . وقد تكفلت الخدمات الطبية بهذه المهمة باعتبارها جهة الاختصاص وذلك بتنسيق مع المؤسسة . ٢ ــ توفير التأهيل المهني لهم لتمكينهم من العمــل المجدي والمفيد لئلا يصبحوا عالة على أحد . ٣ ــ تتكفل المؤسسة بالانفاق على أسرهم وبرعايتهم طيلة فترة العلاج ولحين مزاولتهم العمل . وتجدر الاشارة هنا الى ان المؤسسة قد اقامت « **بيت الجريح** » لكل المقاتلين في حركة فتح ذوي العاهات الدائمة في معسكر برج البراجنة .

و« بيت الجريح » هو بمثابة منزل جماعي لهؤلاء المقاتلين يتألف من قاعة للطعام وقاعة للمطالعة وست غرف للنوم تستوعب كل منها اربعة مقاتلين . يتبع لبيت الجريح معمل لتنجيد المفروشات يعمل به المقاتلون ويدفع لكل منهم عدا مخصصه ومصروفاته الخاصة مخصص شهري لقاء عمله حيث توزع نصف أرباح الانتاج على العاملين ويذهب الباقي لصندوق المؤسسة . وتعنى المؤسسة ايضا بتقديم كافة وسائل الراحة للمقاتلين في «بيت الجريح » فعدا عن تجهيزه بكل المتطلبات المنزلية تقوم كل اسبوع بعرض فيلم سينمائي وتعقد كل خمسة عشر يوما ندوة تثقيفية . كما تفكر المؤسسة باقامة « المنزل الزوجي للجريح » ليكون بشكل مساكن شعبية لكل اصحاب العاهات الدائمة المتزوجين . هذا وتعمل ايضا هذه الفئة من المقاتلين في معارض ومعامل ابناء الشهداء في جميع معسكرات لبنان . كما كانت المؤسسة قد اقامت « بيت العائدات » في الاردن بعد ان تبنت الحركة البنات الفلسطينيات اللواتي ادى اضطهاد العدو الى تشريدهن وذلك لتوفير البيت اللازم لهن .

ح ــ توفير التأهيل المهني لافراد أسر الشهــداء والاسرى : انشأت المؤسسة مراكــز التأهيل المهني بهدف خلق المجتمع الفلسطيني القادر على تحمل اعباء المسؤولية وحيث ان الحركة رأت بأنه سيكون للعنصر النسائي اثره في ترسيخ بناء المجتمع الفلسطيني وضعت في الاعتبار تحقيق الاهداف التالية : ١ ــ تنمية المهارة والاستعداد لدى المرأة الفلسطينية بحيث تصبح قادرة على مضاعفة الانتاج ووضعه في خدمة الثورة . ٢ ــ للتأكيد على اهمية دور المرأة الفلسطينية في الثورة ومشاركتها في العمل الثوري من خلال الممارسة وتكوين القدرات لتحمل المسؤولية .

وتحقيقا لهذه الاهداف وعلى ضوء تجربة الحركة في المراكز المهنية التي افتتحتها مؤسسة الشؤون قامت بارسال ثماني اخوات لدورة في فرنسا للتدريب المهني ــ خياطة ، تطريز ، تدبير منزلي ، واشغال يدوية ــ مدتها سنتان،وذلك لكي يتوزعوا فيمراكز الحركة المهنية بعد عودتهن واقامة دورات لتخريج مشرفات في المراكز المهنية تسمى دورة المرشدات .

ومن المراكز التي أوجدتها المؤسسة في الاردن :

١ ــ مركز عمان : افتتح المركز في منتصف عام ١٩٦٨ في جبــل الحسين بعمان حيث التحقت به ست عشرة فتاة عند افتتاحه عملت المؤسسة على تأمين كافة متطلباتهن . ويتكون جهازه من مشرفتين مهنيتين لتعليم الفتاة وتأهيلها ، واعتبر هذا المركز كمقر رئيسي لباقي المراكز الموزعة في الاردن حيث يتم بواسطته توزيع المواد الخام عليها وانتقاء نوعية ما يجب توزيعه من انواع القماش المختلفة ضمن احتياجات البيع ، ثم يقوم بجمع انتاج باقي المراكز لعرضه للبيع . وبعد ازدياد عدد المنتسبات في هذا المركــز قامت المؤسسة بانشاء فرعين تابعين له احدهما في الجوفة والاخر في مخيم الوحدات .

٢ ــ مركز اربد : افتتحت المؤسسة في ايار عام ١٩٦٩ مركزا لتأهيل بنات الشهداء في اربد وقد وفرت له جميع الامكانيات اللازمة من ماكنات وأدوات كما وفرت له مشرفتين

مهنيتين وقد ضم خمسا وعشرين فتاة تلقين فيه أصول الخياطة والتطريز والتريكو .
٣ ــ مركز الزرقاء : افتتح في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٦٩ لنفس الاهداف التي وضعت لمراكز التأهيل وقد ضم سبعا وعشرين فتاة واشرفت عليه مشرفتان مهنيتان .
٤ ــ مركز البقعة : تم افتتاحه في شهر آب ١٩٦٩ وقد ضم خمسا وعشرين فتاة وقامت بالاشراف عليه مشرفتان مهنيتان .
٥ ــ كما تم افتتاح مراكز اخرى في السلط ومادبا وفي مخيم زيزيا قرب مأدبا .
واما اسلوب العمل في هذه المؤسسات فقد ضم ١ ــ لجنة ادارية تشرف على المراكز وتضع مخطط العمل . ٢ ــ لجنة للمعارض الخيرية لعرض انتاج مراكــز التأهيل . ٣ ــ لجنة التنسيق وتقوم بدراسة ما يمكن بيعه من الانتاج ودراسة احتياجات المناطق .
واما في لبنان فقد انشىء في كل مخيم مركز مهني مفتوح لكل فتيات المخيم ويعلم الضرب على الالة الكاتبة، خياطة، تطريز واشغال يدوية . وزود بمكتبة وقاعة مطالعة . كما يقوم بعقد ندوة سياسية كل خمسة عشر يوما وينظم دورات لمحو الامية . وحددت المؤسسة الهدف من هذه المراكز لتشغيل كل فتيات المعسكر في معامل ابناء الشهداء ــ مراكز التأهيل ــ ولرفع المستوى الاجتماعي من الناحية المادية للاسرة الفلسطينية في المخيم . هذا ويتحول المركز المهني الى معمل متخصص بنوع انتاج معين بعد انتهاء الدورة التدريبية فيه .
ويشرف على هذه المراكز التنظيم النسائي لحركــة « فتح » الذي يعمــل ايضا لحث الاهالي على ارسال فتياتهن الى هذه المراكز . تدعى هذه المراكز بمؤسسة معامل ابناء الشهداء وشعارها «صامد» وقد افتتحت أول مركز لها في صبرا في آذار ١٩٧٠ حيث عملت به عشرون فتاة بانتاج القمصان والبناطلين والرواب النسائية ثم قامت على التوالي بافتتاح مركز ضبية للبيجامات الرجالية ، والكرامة (تل الزعتر) للصوف التريكو ، وجسر الباشا للقمصان الولادي ، وبعلبك للقمصان والفساتين النسائية ، ونهر البارد للبيجامات والكنزات النسائية والكلسات والبداوي للرواب والالبسة الداخلية الرجالية ، وعين الحلوة للتطريز ، والنبطية للاشغال اليدوية والرشيدية لملبوسات الاطفال دون السنتين .
يدير مؤسسة المعامل هذه في لبنان مجلس اداري خاص ، يتألف من مسؤول فني للمعامل ومسؤول علاقات خارجية ومسؤول اداري ومسؤول مبيعات ومسؤول انتاج بالاضافة الى ثلاث مشرفات ، ويجتمع اسبوعيا . يدفع لكل عامل في هذه المراكز مخصص شهري يتراوح بين ١٠٠ ــ ٢٠٠ ليرة لبنانية بينما يدفع لمسؤول المعمل بين ٣٠٠ ــ ٣٥٠ ليرة .
هذا ويساهم بعض المقاتلين ذوي العاهات الدائمة في بعض اعمال هذه المراكز ويقدم لهم عدا مخصصاتهم راتبا اضافيا . كما تجدر الاشارة الى ان هذه المراكز تنتج كافة حاجيات المقاتلين من ملبوسات(٤) .
مؤسسة الاشبال : لم يقتصر دور حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » في رعاية وتقديم المساعدات لابناء الشهداء والاسرى فقط بل انها ومنذ انطلاقتهــا كانت تخطط ونعمل لاعداد « الاجيال القادمة » لتكون قادرة على متابعــة المسيرة النضالية للثورة الفلسطينية عبر « رعاية الاشبال الفلسطينيين » . واعتبرت الحركة ان هذه الرعاية ليست هدفا بحد ذاتها وانما هي وسيلة لتحقيق عملية التغيير في الواقع الفلسطيني لانجاز هدفه الاساسي ــ وهو تحرير فلسطين . « ان الحديث عن الاشبال يعني الحديث عن المستقبل الذي يتحتم ان يفوق الحاضر في كافة مزاياه وانجازاته وقدراته وامكانياته .
والاشبال الذين سيتحملون المسؤولية الكاملة في المستقبل هم الذين يتلقون اليوم الرعاية الاساسية لاعدادهم لتحمل تلك المسؤولية . فاذا ما اعدوا بصورة سليمــة تتفق مع

---

٤ ــ اعتمدت في هذه المعلومات عن « مؤسسة الشؤون الاجتماعية ورعاية اسر الشهداء والاسرى » على كراس خاص صادر عن حركة « فتح » وعلى مقابلة مع أحد مسؤولي المؤسسة .

العبء الذي سيلقى على كاهلهم فانهم سيقومون بانجازاتهم ويضمنون استمرارية الثورة للوصول الى الهدف »(٥). لذا يصبح تحديد الاسلوب والطاقات هما المسألة الاساسية لرعاية الاشبال بعد وضوح الهدف . ومن هنا حددت « فتح » بأن الاسلوب الذي يجب اتباعه يجب ان يقوم على الدراسة العلمية للواقع لاظهار « الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والصحية للانسان الفلسطيني مع شرح التباين الشخصي لافراد المجتمع الفلسطيني وتباين الفوارق الاساسية ودوافعها »(٦). ورأت ان التجمعات الفلسطينية في المخيمات ، التي تشكل المورد الاساسي للمقاتلين ، تشكل مجالا للقيام بالرعاية الجماعية من جهة وبأن أوضاع الاطفال الاجتماعية والاقتصادية والصحية فيها تفرض ضرورة القيام بهذه الرعاية من جهة اخرى .

جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني : في معرض الحديث عن الخدمات الطبية التي قدمتها الثورة الفلسطينية لا بد من الاشارة الى دور جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني. تأسست الجمعية في كانون الثاني ١٩٦٩ واعتمدها المجلس الوطني الفلسطيني في جلسته المنعقدة بالقاهرة بتاريخ ٢ — ٩ — ١٩٦٩ لتقديم الخدمات الطبية والاسعافية للمقاتلين وبأن تكون الجهة الوحيدة التي تتسلم المساعدات الواردة باسم الثورة الفلسطينية بصفتها ممثلة للشعب الفلسطيني لدى الجهات العربية والدولية .

تعمل جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني لتحقيق الاهداف التالية : ١ — ابراز الشخصية الفلسطينية فيما يتعلق بالشؤون الصحية والاجتماعية والثقافية وذلك على الصعيدين المحلي والدولي . ٢ — تقديم الرعاية الصحية والاسعافية للمقاتلين بانشاء المستشفيات والمراكز الطبية وتوفير سيارات الاسعاف ولوازمها . ٣ — رعاية شؤون الاسرى والجرحى والمعتقلين في سجون العدو الصهيوني . ٤ — رعاية شؤون الفلسطينيين في المناطق المحتلة من النواحي الصحية والمعيشية والاجتماعية . ٥ — تبني الامور الصحية والاجتماعية والثقافية الفلسطينية وذلك عبر فتح مراكز صحية واجتماعية ورياضية في المخيمات .

يعتبر المكتب التنفيذي السلطة العليا لجمعية الهلال الاحمر الفلسطيني ويتألف من رئيس ونائبي رئيس وامين للصندوق وثلاثة اعضاء ، ومركزه الحالي بيروت — وكان قبل ايلول ١٩٧٠ في عمان . يتفرع عنه لجان لادارة العمل مقسمة على الشكل التالي : ١ — لجنة الخدمات الطبية وتتفرع عنها ثلاث لجان : واحدة لشؤون المقاتلين واخرى للخدمات المدنية وثالثة للتمريض والمستشفيات . تعنى هذه اللجنة بفتح العيادات الشعبية بالمخيمات والمستشفيات وعقد دورات اسعاف ميداني وانشاء مراكز الاسعاف وتوفير السيارات اللازمة لها . ٢ — لجنة الجرحى ومهمتها العناية بالجرحى في المستشفيات وتقديم كل عون لهم وكذلك رعاية اسرهم الى ان يتم شفاؤهم . ٣ — لجنة الشؤون الاجتماعية وتقوم بدراسة احوال الفلسطينيين في المخيمات وبالمسح الاجتماعي لاحوالهم ، وبالاتصال بعائلات الجرحى والاسرى والمعتقلين وتقديم المساعدات الممكنة لهم ، وفتح مراكز لمحو الأمية وتأهيل الناس مهنيا وجمع انتاجهم وتسويقه . كذلك تشرف هذه اللجنة على عقد الندوات والمؤتمرات محليا ودوليا . ٤ — لجنة الاعلام ومهمتها تقصي الحقائق المتعلقة بأحوال الاسرى والمعتقلين في سجون العدو وبأحوال الفلسطينيين في الارض المحتلة وجمع هذه المعلومات من مصادرها الاساسية ثم تصنيفها واعدادها في نشرات بلغات مختلفة . كما تقوم لجنة الاعلام بالاتصالات

---

٥ — حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ، **الكتاب السنوي ١٩٦٩** ، ص ٦٤ .

٦ — يمكن مراجعة **الكتاب السنوي ١٩٦٩** لمزيد من التفاصيل حول الخطة التربوية العامة التي تقترحها « فتح » لرعاية الاشبال .

الصحفية(٧) .
اقامت جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني ١٨ فرعا لها في الدول العربية والاجنبية تمد المركز الأم بالمساعدات المالية وبالمعونات والتجهيزات الطبية وكذلك بالاخصائيين في الحقول الطبية . هذا وقد قدمت خلال سنتين ونصف من العمل المراكز الطبية التالية :
ا ــ سبعة مستشفيات سعتها مائتان وخمسون سريرا (الكرامة في عمان ، الشهيد الدكتور عبد القادر عودة في اربد - يافا في دمشق ، القدس في بيروت ، الشهيد جمال في راشيا الوادي بجنوب لبنان ، مستشفى للمقاتلين في جرش ، مستشفى عكا تحت الانشاء في درعا) . ب ــ ثمانية دور للنقاهة سعتها مائتان وخمسون سريرا تكون بالاضافة الى مجموع اسرة المستشفيات ٥٠٠ سرير جاهز لاستقبال الجرحى والمرضى . جـ ــ اربع وحدات علاجية كاملة : (الوحدات بالوحدات في عمان ، القسطل بدرعا في سوريا ، الفالوجا في مخيم اليرموك في سوريا ، دير ياسين في مخيم شاتيلا ــ بيروت) . د ــ ستون عيادة طبية ومركز اسعاف في كل معسكر من معسكرات اللاجئين في الاردن وسوريا ولبنان وكذلك بعض القرى على الحدود لخدمة المقاتلين والجماهير من سكان القرى الامامية . هـ ــ تسع عيادات للاسنان . و ــ ستون صيدلية . ز ــ ثلاثة مراكز طبية ومستودعات ادوية ولوازم طبية . حـ ــ قسم طب وقائي وصحة عامة للكشف العام على المقاتلين وتطعيمهم وعمل مسح طبي واجتماعي في المخيمات . هذا وفي نفس المدة ازداد عدد العاملين بالخدمات الطبية بمعدل ٢٠ مرة ما بين طبيب وممرض وعامل(٨) .

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

ترى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ان موضوع العمل الاجتماعي يرتبط بالخط والتوجه السياسي لاي تنظيم ، اذ ان العمل الاجتماعي بمجمله يشكل مجموعة مواقف من القضايا الجماهيرية تحدد المقياس الثوري للتنظيم في مدى تجسيده لها وتوجهه لحلها . فبالنسبة للمقاومة الفلسطينية اصطدم ما يسمى باليمين ، بسبب طبيعته الفكرية والطبقية ، حين مارس العمل الاجتماعي بأن مثل هذه الممارسة مرتبطة جذريا بضرورة اتخاذ القرار السياسي فانكفأ الى الجانب التقني من الموضوع بان اوجد مؤسسات تماثل في عملها وتوجهها مؤسسات قائمة اصلا وتقدم خدمات للشعب الفلسطيني ــ كالاونروا مثلا ــ معتقدا بأن هذا العمل سينتج على المدى القصير تاييدا له وجماهيرية لخطه ، وكانت نتيجة ذلك مضاعفة الخطأ اذ انه لم يفكر بتعميق هذا النشاط وجعله في جوهره نشاطا سياسيا بالدرجة الاولى ، وكذلك فانه لم يكن قادرا على حماية هذه المؤسسات . بينما اندفع اليسار الى الامام لكون القرار بممارسة النشاط الاجتماعي ينسجم مع طبيعة تفكيره ، ولكنه وقع في اشكالاته الذاتية ــ ضعفه، كادره الضعيف ، تصر نفسه ، المنافسة السطحية وكذلك اهماله لاهمية الجانب التقني مما جعل تأثيره محدودا جدا . ولكن ورغم ان هذه التجارب لم يكن يحكم لها الاستمرار ورغم عددها المحدود وطابعها التجريبي المخبري فقد ساهمت الى حد ما في خدمة التوجه السياسي ليسار المقاومة من حيث انها ساهمت في نشر وعي قومي وطبقي لما تدمه اليسار والعناصر المثقفة التي عملت في مؤسسات الخدمات الاجتماعية .

---

٧ ــ **الكتاب السنوي ١٩٦٩** ، ص ٧١ــ٧٥ .
٨ ــ **دور الخدمات الطبية في المعركة** ، ص ٢ . مذكرة الهلال الاحمر الفلسطيني الى المجلس الوطني الفلسطيني في دورته التاسعة .
٩ ــ اعتمدت في هذه المعلومات على مقابلات مع مسؤولين في الجبهة وعلى تقارير داخلية للجبهة .

واما بالنسبة للجهة الشعبية فقد حددت « ان التوجه دائما للجماهير . وتناول قضاياها والعمل من اجلها، ومساعدتها في فهم مشكلاتها وتحليلها واتخاذ موقف منها،ومساعدتها في تنظيم نفسها ، وقيادتها للعمل في مواجهة مشكلاتها ، هو اولى مهماتنا ، وهو الغاية من وجودنا،وهو طريقنا الوحيد لتجميع القوة الثورية القادرة على تحقيق اهدافنا»(١٠) .
ولهذا كان الهدف من عملها الاجتماعي يشمل : اولا ، خلق روح ثورية اجتماعية في المخيم بمعنى اقامة علاقات جديدة بين الجماهير من جهة وبينهم وبين عدوهم القومي والطبقي من جهة اخرى . وثانيا : تنظيم الجماهير في برامج تقدمية مختلفة وذلك عبر التثقيف السياسي ونشر « الوعي المحرر » .
وترى الجبهة انه يصعب تحقيق هذه الاهداف جذريا في ارض غير محررة ، ولكن جزئيا يمكن تحقيق مردود جيد من خلال العمل الحزبي الذي يقود العمـــل الاجتماعي والذي يكون جزءا من مخططاته البعيدة المدى للخروج من مأزق المقاومـــة الراهن والانطلاق بالثورة ، وهذا يجب ان يخضع للخطة العامة للمقاومة ومن اهم بنودهـــا التوجه نحو تعميق المقاومة الفلسطينية الى ثورة عربية ، وبالتالي ان يدخل العمل في اطار هـــذا المفهوم فلا يكون هناك عمل اجتماعي مهزوز في « جزر مهددة » بل عمل اجتماعي ثوري مربوط في تيار ثوري شامل محيط بهذه « الجزر » . ان عملية الاسراع في تشكيل ذلك الحزب اليساري ـــ الماركسي اللينيني ـــ هو القادر على حمل اعباء العمل الاجتماعي وقيادة التنظيمات الجماهيرية وتصعيد العمل السياسي بالدرجة الاولى ، اذا كـــان المقصود بالعمل الاجتماعي شيئا اكثر من مجرد تقديم خدمات مثلما تفعل المؤسسات الخيرية .
وفيما يلي بعض نماذج الخدمات الاجتماعية التي قدمتها الجبهة :
أ ـــ الخدمات الطبية : تنطلق الجبهة في مفهومها للخدمات الطبية من نقطتين : اولا ما هو دور الطب ؟ وثانيا ما هو نوع الخدمات الطبية التي يمكن تقديمها ؟ وتحدد انه لا بد عند طرح المسألة الاولى من فهم دور الطب في المجتمع البرجوازي للوصول الى كيف يجب ان يكون في مجتمع تحكمه قوى تغيير ثورية . يكون الطب في المجتمع البرجوازي اداة من ادوات الطبقة الحاكمة تسخرها لخدمة اغراضها ومنفعتها الذاتية بامكانياتها المادية المتوفرة . بينما تقوم تحت ستار ما تقدمه للقطاعات الواسعة من الجماهير من خدمات طبية بعملية الهاء وتخدير لها . اذ ان المراكز التي تقيمها ان في المدن او الريف نادرا ما تكون اماكن علاج حقيقية . ومن خلال هذه الصورة يكون على القوى الثورية ان تقدم اسلوبا مختلفا في العمل يتوفر فيه اساسا موضوع الالتزام لدى الطبيب وجهاز العمل في المنشآت الطبية ، ووعي البعد السياسي والاجتماعي للطب . ويمكن للطب ان يتطور بشكل ثوري في المناطق المحررة وفي ظل سلطة القوى الثورية التي توفر له قوة الاستمرار رغم كل العقبات الداخلية والاجتماعية . ولكن وبما ان السلطة الجديدة بين التجمعات الفلسطينية كانت مجزأة بين عدد من فصائل المقاومة تتباين رؤيتها لمثل هذه الاعمال ، وبالتالي كان استمرار هذه التجارب وتصعيدها رهن باللحظة التي تنهار فيها السلطة الجديدة أو تأخذ شكلا آخر لا يمكنها الدفاع عن التجربة أو المشتركين فيها .
وقد قدمت الجبهة الخدمات الطبية التالية في الاردن :
١ ـــ المراكز الطبية المتحركة وهي عبارة عن مستشفى متنقل بين القواعد والقـــرى والتجمعات السكانية المحيطة بها ويضم طبيبا وممرضا . اقتصر عمله عند تأسيسه في منتصف عام ١٩٦٩ على اعداد سجلات طبية لكـــافة المقاتلين ومعالجـــة الامراض في القواعد . وتمكنت مجموعة من اعضاء الجبهة كانت تتنقل مع هذه الوحدة من اقامة

١٠ ـــ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين : **الاستراتيجية السياسية والتنظيمية** ، ص ١٥١ .

اتصالات مع الجماهير طرحت من خلالها موضوع « المزرعة الجماعية » بين الفلاحين الذين كانوا يعملون في اراضي الاقطاع الى جانب موضوعات سياسية أخرى تكشف عن طبيعة السلطة الحاكمة . استمرت هذه الوحدة في العمل الى ايلول ١٩٧٠ حيث انتقلت مع المقاتلين الى الجبل ، واصبحت مستشفى ميدان ، ضمت اثني عشر سريرا ولكنها تابعت زياراتها للقرى ضمن برنامجها للتثقيف السياسي عبر الطب عندما كانت تسمح بذلك الظروف . ولكن السلطة الاردنية اغلقتها في تموز ١٩٧١ واعتقلت الطبيب والمرض .

٢ ــ الوحدات الثابتة : كان برنامج الوحدات الثابتة الاساسي هو الطب الوقائي في المخيمات في الاردن ــ اي بمعنى معالجة الاوضاع الصحية في المخيمات ــ وذلك عبر محاضرات سياسية وزيارات للبيوت كان يقوم بها جهاز الفتيات في الجبهة والذي أهل عبر دروس ودورات خاصة للقيام بحملات الطب الوقائي . كان يتم الطب العلاجي في المستوصفات وتنقل الحالات التي تحتاج الى عناية خاصة الى المركز الرئيسي في عمان الذي كان يضم الصيدلية الرئيسية ايضا . استمرت هذه المستوصفات في العمل الى ان أغلقتها السلطة الاردنية في ايلول ١٩٧٠ وحولت المركز الرئيسي في عمان الى مركز بوليس . تأسست هذه المستوصفات في منتصف عام ١٩٦٩ في عدد من المخيمات الفلسطينية في الاردن وكان اهمها ما سمي « بمجموع مستوصفات عمان » ، وكانت تتفاوت في تجهيزاتها التي كان معظمها تقدمة من جهات تقدمية في العالم .

واقامت الجبهة في لبنان أيضا عددا من المستوصفات اقدم نموذجا عنها « المركز الطبي في معسكر تل الزعتر » . أسس المركز الطبي في معسكر تل الزعتر في ١٩٧٠/١٢/٥ لجنة من انصار الجبهة التي امنت الادوية اللازمة له ايضا ، وساهمت الجبهة في تأمين ممرضة دائمة ومساعدين لها من عناصر التنظيم لاستقبال الجماهير وتقديم الاسعافات الاولية العامة يوميا وطبيب يعمل يوما في الاسبوع . استطاع المستوصف بعد ثلاثة اشهر من تأسيسه استقبال المرضى ثلاثة ايام في الاسبوع عبر اقامة علاقة مع ثلاثة اطباء ومساعدة اجتماعية . كما تمكنت لجنة المستوصف ابتداء من ١٩٧١/٩/٢٠ من تأمين خمسة اطباء اسبوعيا . يزور المستوصف يوميا من ٢٠ ــ ٢٥ مريضا وقد بلغ عدد زائريه من ٧٠/١٢/٥ لغاية ١٩٧١/١٠/١٠ ــ ١٥٧٥ ــ مريضا اي حوالي ٨١٠ عائلات من عائلات المعسكر حسب احصاء سجلات المرضى في المستوصف . وقد تم تدريب مجموعة على الاسعافات الأولية في دورة ضمت عشرين شابا وفتاة من اعضاء التنظيم واصدقائه . جهز المستوصف بأحدث التجهيزات التي قدم قسم منها لجنة انصار الجبهة وأمن القسم الآخر من عائدات المستوصف ، اذ ان للمستوصف ميزانية ذاتية لتأمين متطلباته من معدات وأدوية ومصروفات شهرية دائمة ــ راتب المرضة ، مبلغ رمزي لبعض الاطباء المتبرعين كبديل لمصاريف عملهم خلال وجودهم في المستوصف . يعتمد المستوصف في تأمين ميزانيته على جمع التبرعات بواسطة لجنة المستوصف ومن المستفيدين منه عبر دفع مبلغ رمزي ــ ليرة لبنانية ــ لضمان استمراريته وتأمين متطلباته مرحليا .

ويقوم اسلوب العمل فيه ضمن الخطوط التالية : ١ ــ تنظيم سجل لعائلة المريض يضم كافة افرادها مع فتح سجل خاص للمريض ضمنها . ٢ ــ المعالجة الطبية العادية مع تأمين الدواء اذا وجد . ٣ ــ التوعية الصحية للمريض من قبل الطبيب والمساعدة الاجتماعية . ٤ ــ زيارة المرضى في بيوتهم للتوعية الصحية والاجتماعية بهدف نشر وتطبيق الطب الوقائي . وتعد حاليا لجنة المستوصف دراسة اجتماعية اقتصادية سياسية للمعسكر وذلك بمساعدة اعضاء التنظيم واصدقائه .

كما قدمت الجبهة في مجال الخدمات الطبية في لبنان عددا من المستوصفات والمراكز

الطبية في المعسكرات الفلسطينية تتشابه الى حد كبير في اسلوب عملها وتجهيزها مع النموذج السابق . من هذه المراكز هناك مستوصفات شاتيلا وبرج البراجنة اللذان اغلقتهما الجبهة في اوائل ١٩٧١ لوجود مستوصفات أخرى ولقربهما من المدينة . ولكنها استمرت في توزيع الادوية المجانية في شاتيلا . وقد اسست مستوصفا في عين الحلوة في تشرين الثاني ١٩٦٩ يعتبر اكبر المراكز الطبية في المعسكر اذ يطبب يوميا حوالي الخمسين مريضا ، وقد زود في تشرين الاول ١٩٧١ بطبيبة اخصائية للنساء والاطفال تعمل بشكل دائم فيه . وأما مستوصف الرشيدية الذي اسس في ١٩٧٠/٣/٤ فهو يعمل ثلاثة ايام في الاسبوع فقط .

ب ــ **مشروع المزارع الجماعية** : تقسم منطقة الاغوار الخصبة الى اقطاعيات قليلة يسيطر عليها مجموعة من كبار الملاكين الذين يعيشون بعيدا عن أرضهم . بينما يسكن الفلاحون فيها في اكواخ معدة لهم ويقوموا بعملية الانتاج كلها في حين يسوق المالك عبر معاونيه المحاصيل ويجني الربح لنفسه مستغلا بذلك هذه الفئة من العمال الزراعيين الذين يعملون بشكل متواصل دون تحديد لساعات العمل وتحت خطر القصف الاسرائيلي ودون تأمين اي نوع من الخدمات الطبية أو الغذاء الكافي . اخذت احدى قواعد الجبهة قرب الصوالحة بالاتصال بمجموعة من العمال الزراعيين بعد احدى الغارات الاسرائيلية الراجلة ومقتل احد الفلاحين في منتصف ١٩٦٩ . كان مدخل الاتصال تدريبهم على السلاح وتسليحهم كي يدافعوا عن انفسهم عند اي هجوم اسرائيلي . اخذت عناصر الجبهة اثناء فترات التدريب بطرح دروس سياسية مبسطة لهم كان من بينها موضوع الاستغلال الذي يعانونه وضرورة اقامة مزارع تعاونية فيما بينهم اذ ان الارض واليد العاملة متوفرة لديهم . وهكذا بدأ المشروع باقتطاع قطعة من الارض قام الفلاحون بالعمل فيها بجد بينما تعهدت عناصر الجبهة بتسويق المحاصيل . واتفق بأن تزود المزرعة القاعدة بما تحتاجه من منتجات الارض ويذهب ريع الباقي للفلاحين . وكان هناك وجه آخر لاستغلال العمال الزراعيين ممثل بفرن الاقطاعي فبنت عناصر الجبهة والفلاحون فرنا في المزرعة تعهد بدوره بتأمين حاجيات القاعدة من الخبز . انتشرت هذه الفكرة بين الفلاحين واخذوا يترددون على الفرن بعد السماح لهم بذلك . أنشئت بعد ذلك المزرعة الجماعية الثانية باشراف قاعدة اخرى من قواعد الجبهة . استمر العمل في هاتين المزرعتين بعد ايلول ١٩٧٠ رغم اضطرار عناصر الجبهة للانتقال الى الجبل ولكن السلطة قامت في تموز ١٩٧١ بالاستيلاء عليهما وقتل بعض الفلاحين لاسهامهم في هذه التجربة .

جـ ــ **المؤسسات الاقتصادية** : ترى الجبهة الشعبية بأن اقامة المؤسسات الاقتصادية يهدف بشكل رئيسي نحو تحرير المرأة التي تعاني من اضطهاد مزدوج في مجتمعنا : الاضطهاد الطبقي الذي تعاني منه الطبقات التي تنتسب اليها ككل ، من جراء العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المفروضة عليه ، واضطهاد الرجل والتقاليد لها . وهكذا بقي ٥٠٪ من المجتمع مجمدا لا يشارك في المعركة لذلك سعت الجبهة لحل هذه الأزمة عبر توفير الاستقلال الاقتصادي للمرأة كخطوة أولى نحو تحررها بان اقامت عددا من المشاغل والمصانع الصغيرة ، وقد فعلت الجبهة ذلك دون ان تكف عن التأكيد بأن مسألة تحرر المرأة مرتبطة جذريا بتحرر المجتمع ككل .

اقيم في الاردن من ٥ ــ ٧ وحدات صناعية عاملة كانت تتراوح الدورة في كل منها بين شهر وشهرين تشمل تدريبا على العمل مع تثقيف سياسي وتدريب على السلاح . وقد خرجت هذه الوحدات خمس دورات وعرضت منتوجاتها في معارض خاصة في عمان وبغداد . اقامت الجبهة ايضا اربع وحدات صناعية في لبنان ــ برج البراجنة ، صيدا ، صور ، وبعلبك ــ اقدم نموذجا عنها مشغل منطقة صور في البرج الشمالي .

تم افتتاح مشغل منطقة صور في البرج الشمالي في كانون الثاني ١٩٧٠ وبعد ان قام جهاز الفتيات في الجبهة بعدة دورات سياسية اجتماعية في منطقة صور موضحا اهمية وضرورة مشاركة فتيات المخيم في هذا المشغل الذي تم تجهيزه بماكينة للحياكة واخرى للخياطة والتطريز بما جمع له من تبرعات وبمساعدة جزئية من الجبهة ، كما زود بمكتبة وغرفة للمطالعة . اقام المشغل الى الان ثلاث دورات مدة كل منها ستة اشهر ، وكان عدد المنتسبات في الدورة الاولى ثلاثين فتاة . يشمل برنامج الدورة تدريس الحياكة والتطريز مع التثقيف والتدريب العسكري وتقديم دراسات عن الاسعافات الاولية ، بينما يوزع البرنامج اليومي على الشكل التالي : ساعة للدراسة النظرية ، ساعتان للدراسة العملية ، ساعة للتدريب على السلاح والتثقيف والاسعافات الاولية . يباع انتاج المشغل من كنزات صوفية وخياطة وتطريز باسعار مخفضة للجماهير لتأمين متطلباته من مواد أولية ورواتب المتفرغين فيه .

د ـ الخدمات التعليمية : تراوحت هذه الخدمات في الاردن بين صفوف محو الأمية وبين التثقيف السياسي حيث كانت تعقد في النوادي الاجتماعية في المخيمات والتي كان ابرزها في مخيم البقعة وشنلر والوحدات . واما في لبنان فأنشئت مدارس ليلية لطلبة السرتيفيكا والمرحلة التكميلية في كل من شاتيلا وبرج البراجنة في بيروت والبارد في طرابلس والبص في صور . ضمت ٦٨٠ طالبا في العام الدراسي ٧٠ ــ ١٩٧١ وجندت لها الجبهة بين ٣٥ ــ ٤٠ مدرسا . وفيما يلي نموذج لمدرسة شاتيلا .

تم انشاء المدرسة الليلية لطلبة السرتيفيكا والمرحلة التكميلية في معسكر شاتيلا خلال السنة الدراسية ٦٩ ــ ١٩٧٠ وضمت حوالي ٣٥٠ طالبا وطالبة جند لها بين ١٢ ــ ١٥ مدرسا من ذوي الاختصاص من طلبة الجامعات والمدرسين من اعضاء واصدقاء للجبهة.

يشرف على المدرسة هيئة ادارية مكونة من ممثلين عن الجبهة وممثلين منتخبين عن المدرسين وممثلين منتخبين عن الطلاب ، وذلك من المراحل التكميلية فقط . تناقش الهيئة الادارية في اجتماعاتها اسلوب التعليم والتوجيه وكيفية تطويره ليخدم بالتالي اهداف الثورة الفلسطينية وذلك عبر : ١ ــ التعليم الاكاديمي العادي ، ٢ ــ تعليم مواد غير مقرة في مدارس وكالة الامم ــ تاريخ وجغرافية فلسطين ، مع تقديم تحليل للاحداث التاريخية ، ٣ ــ طرح القضايا الراهنة التي تمر بها القضية الفلسطينية لخلق حركة جدل حولها ضمن الطلاب وعائلاتهم .

تقوم الهيئة الادارية ايضا بتنظيم زيارات منظمة لاهالي الطلبة لمناقشتهم حول اوضاع المدرسة وسماع ملاحظاتهم وتقييم العمل ومحاولة اشراكهم في دعم وتبني مشروع المدرسة بالاضافة الى طرح القضايا السياسية وتحليلها والرد على استفساراتهم حول الوضع الراهن .

هـ ــ خدمات متفرقة : قدمت الجبهة بالاضافة الى هذه الخدمات مشاريع اجتماعية اخرى في عدد من المخيمات الفلسطينية منها النوادي الاجتماعية الثقافية والرياضية وفرقة للفنون الشعبية الفلسطينية .

الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين

حدد احد اعضاء المكتب السياسي للجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين مفهوم الجبهة للعمل الاجتماعي على الشكل التالي : « ان مفهوم الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين للعمل الاجتماعي ينطلق من انه في مواجهة عدو متفوق يصبح السلاح الرئيسي لاية منظمة ثورية هو تعبئة الجماهير لمواجهة هذا العدو بما يسمى بـ « حرب شعبية » . الا انه في ظل الظروف الخصوصية لهذه الحرب الشعبية في الساحة الاردنية ــ الفلسطينية كان واضحا ان المقاومة الفلسطينية ، والجبهة

الشعبية الديمقراطية كجزء منها ، تعيش في حالة ازدواجية السلطة ، وهذا ما يفرض عليها ان تطرح برنامج عمل يختلف كل الاختلاف عن المهمات الملقاة على عاتق اي حزب ثوري في ظل ظروف العمل السري او العلني ضمن الشرعية البرلمانية او البرجوازية القائمة . واذ ذاك يصبح النضال المباشر في ظل ازدواجية السلطة هو تعبئة وتنظيم الجماهير لانتزاع مطالبها بغض النظر عن ارادات السلطة والطبقة الحاكمة . ان تنظيم الجماهير بمعزل عن السلطة القائمة يصبح المرتكز الرئيسي لعمل اي منظمة ثورية ، فلا يقتصر عملها على مجرد الدعاية لبرنامجها واقناع الجماهير بصحته وفضح السلطات الحاكمة ، وانما يصبح عليها أيضا ان تقترن هذه الدعايــة وذاك التحريض في تنظيم الجماهير .

« لقد برزت من خلال العمل النضالي في ظل الاوضاع الخاصة للساحــة الاردنية ــ الفلسطينية اشكالا محددة للتعبئة الجماهيرية تمحورت في الدرجــة الرئيسية حول : المنظمات النقابية والمهنيــة ، الميليشيا الشعبية ، والمجالس الشعبية بشكــل أولي وجنيني . وترى الجبهة الشعبية الديمقراطية بانه كان يفترض لهذه التنظيمات ، التي هي بحكم طبيعة تكوينها صالحة لاستيعاب اوسع القطاعات الجماهيرية الممكنة ، ان تتحول الى ادوات تخدم السلطة الثورية الجديدة في ظل ازدواجية السلطة ، وذلك عبر تعويد الجماهير للجوء الى هذه المنظمات لحل مشاكلها اليومية ولادارة شؤون حياتها اليومية بحيث تبدأ هذه المنظمات بلعب دور متزايد ومتنام في الحيــاة اليوميــة لهذه الجماهير ومقدمة لها الخدمات التي هي من نفس الطبيعة التي توفرهــا الدولة ــ السلطة الرجعية ــ في اي ظرف اعتيادي . يكمن الهدف من هذا كله لان تبدأ الجماهير ، وبجهدها الخاص وبتجربتها الخاصة ، عملية تنظيم نفسهــا وللتخلي ورفض السلطة الرجعية القائمة . لقد نظرت الجبهة الشعبية الديمقراطية لما يمكن تسميته بالخدمات الاجتماعية من هذا المنطلق وعلى اعتبار ان هذه الخدمات ايضا تلبي جزءا من المطالب الجماهيرية الحياتية والمباشرة الى جانب الجزء الاخر الذي يقوم على تعبئة الجماهير من اجل انجاز متطلبات خوض المعركــة الوطنية (التدريب عــلى السلاح ، الميليشيا ، الاسعاف والتمريض ، ويضاف الى ذلــك ايضا التعبئــة السياسية والتنظيمية وبناء الملاجىء ... الخ) . من هنا كانت الجبهة تسعى لان تلزم كافة المنظمات الجماهيرية التي تعمل فيها ، كالنقابات والجمعيات المهنية ، ببرامج عمل تقوم على فرعين رئيسيين : ١ ــ تنظيم عمليات المشاركــة الجماهيرية في تلبية مستلزمات المعركة . ٢ ــ تلبية المصالح والمطالب المباشرة للجماهير والتي يشكل جزءا منها تقديم الخدمات الاجتماعية مثل مكافحة الأمية واقامة المستوصفات الشعبية والمطاعم التعاونية الشعبية وتدريب المراة على العمل الانتاجي في مشاغل الخياطة والتطريز والنسيج ... الخ .

« وكانت هذه العملية دون أي مضمون بالنسبة للجبهة لو انها جرت على طريقة تقديم الخدمات الاجتماعية من اجل الدعاية للجبهة . لقد كان المقصود من كل هذه التجارب ان يتم التركيز على تنظيم الجماهير بالدرجة الرئيسية لاجل ان توفر الامكانيات وتقديم اشكال من العمل الاجتماعي بامكانيات الجماهير الخاصة من خلال اتحادها وتنظيمها . وفي المقابل مثلا كانت حركة « فتح » تتوسع بشكل يفوق توسع الجبهــة في سلسلة عريضة من الخدمات في المناطق التي عملت بها « فتح » . الا ان الخدمات التي قدمتها كانت تستند في امكانياتها على امكانيات « فتح » ، فهي التي تمولها ــ كبناء ملاجىء ومستوصفات أربد ، واقامة مشاغل الخياطة والتطريز ... ــ كانت خدمات « فتح » بشكل خدمات تقدمها دولة مستقلة او منعزلة عن الجماهير دون اي الزام لهذه الجماهير في عملية التصدي لحل مشاكلها بنفسها .

« عملت الجبهة الشعبية الديمقراطية من خلال الاتحاد الوطني للمراة الفلسطينية في

ممارسة مفهومها للعمل الاجتماعي . لقد كانت ثلاث عضوات من مجموع تسع في الهيئة الادارية للاتحاد ينتمين للجبهة ، ولكن اكثر العناصر نشاطا ونتيجة لدورهن القيادي سار الاتحاد ضمن الخط العام لمفهوم الجبهة في العمل النقابي ودوره في المرحلة القائمة . طرح الاتحاد ضمن برنامجه اولا مساواة المراة بالرجل ، واعداد المراة لهذه المساواة في ظروف عامة وغير استثنائية . كان يمكن للاتحاد ان ينشط دعاويا وتنظيميا ويعتبر ان هذا النشاط هو الطريق لتنفيذ مطالبه . الا انه في ظل ازدواجية السلطة كان المطلوب من هذا الاتحاد ان لا يقتصر نشاطه في الدعاية لمطالبيه وانما في البدء فعليا في انجازات عن طريق العمل المباشر . من هنا كان المطلوب من الاتحاد عملية اعداد المراة لان تلعب دورها في المعركة والحياة الاقتصادية والسياسية ، وهذا كـان يتطلب : ١ ــ التنمية الثقافية للمراة ويشمل عمليات التوعية السياسية ومكافحة الأمية التي ترتفع نسبتها بين النساء في المجتمع الاردني ــ الفلسطيني عن نسبة الرجال . ٢ ــ اعداد المراة من اجل الانفصال الاقتصادي عن الرجل بتأهيلها للعمل الانتاجي عبر اقامة سلسلة من الدورات لتعليم الفتيات على بعض الصناعات ذات الطبيعة النسائية » .

نظم الاتحاد بالاضافة الى النشاط الثقافي الاعتيادي اربعة مراكز رئيسية لمكافحة الامية وذلك في اربد ، البقعة ، مخيم الوحدات لكل عمان ، والزرقاء . يضاف الى ذلك انه كان من ضمن برامج كافة المشاغل التي افتتحها الاتحاد عقد اجتماعات اسبوعية للمناقشة السياسية اولا ودورات لمكافحة الأمية مرافقة لدورات التدريب على الخياطة بالاضافة الى حصص تدريب النساء على السلاح . كانت كل دورة تضم بين عشريـــن وخمس وعشرين فتاة وتستمر لمدة ثلاثة اشهر . ولكنها لم تكن بشكل منتظم دائما نتيجة للظروف الاجتماعية في المخيمات حيث كان هناك كفاح من أجل اقناع العائلات للسماح لفتياتهم للاشتراك في هذه الدورات التي كانت تعقد غالبا في المخيمات نفسها . كما اقام الاتحاد ايضا مركزا للتدريب والخياطة في اربد ومشغلا لتدريب الفتيات على النسيج في مخيم الحصن ومركزا آخر للخياطة في البقعة ومركزين في عمان ومركزا في الزرقاء . يتعذر هنا دراسة كل مركز على حدة لذا سوف أقدم بعض النماذج لتركيب وطبيعة عمل هذه المراكز والتي تتشابه فيما بينها الى حد كبير .

مشغل مخيم الحصن : كان المشغل مجهزا بأحدث الالات وبمبلغ مالي لادارته كتبرع من جمعية خيرية مسيحية ، الا انه بمجرد ان استلم الاتحاد الوطني ادارة هذا المشغل في كانون الثاني ١٩٧٠ بدأ مباشرة بعملية تنظيم الفتيات العاملات فيـــه لتعويدهن على الادارة الذاتية . فشكلت جمعية تعاونية لادارة المركز من العاملات البالغ عددهن عشر عاملات في كل دورة . كانت الجمعية التعاونية منظمة على الطريقة التعاونية ــ حصص لرأس المال وحصص للانتاج المباع تستقطع منها الاجور وتوزع الارباح على العاملات . ان مجلس العاملات والذي يضم كل العاملات كان ينتخب مدير المشغل مباشرة ويشرف على سير العمل فيه ، كما يعقد اضافة الى ذلك اجتماعات اسبوعية للمناقشة السياسية واجتماعات يومية لمناقشة سير العمل في المشروع . كان هذا المركز نقطة استقطاب لكافة نشاطات الاتحاد في المخيم ، فالعاملات المنتسبات له كن يشكلن نواة فصول مكافحة الامية التي شكلت في المخيم ، ونلن ايضا التدريب على السلاح وشاركـــن في مختلف نشاطات الاتحاد الاخرى الثقافية والاجتماعية . هذا وعقد لدورة المشغل هذه دورة للتدريب على الاسعاف والتمريض بعد ساعات العمل استمرت ثلاثة اسابيع . لم يعقد هذا المركز سوى دورة واحدة استمرت ستة اشهر انتهت قبل اسابيع قليلة من معركة ايلول ، وكان العمل خلالها يخضع للاحداث السياسية ، ولقد صادرته السلطة الاردنية بعد ايلول .

مركز اربد للتدريب على الخياطة والتطريز : افتتح المركز في كانون الثاني ١٩٧٠ لاقامة

دورات تدريب على الخياطة والتطريز في اربد . اشتريت كل ماكينات المركز الضرورية بامكانيات الفتيات المشاركات فيه وبمساعدة من قبل الاتحاد . دفع الاتحاد ثمن الالات وقام المركز بتسديد ثمنها للاتحاد على اقساط يقتطعها من ارباح المشغل . كما سدد العمل اليومي في المركز تكاليف المشغل اليومية والتي كانت زهيدة حيث لم تتجاوز مبلغ عشرين دينارا شهريا كراتب للمدربة فيه . كان هذا المركز مركز تدريب اكثر منه مركز انتاج . فلم يكن هناك جمعية تعاونية او مجلس ادارة وانما اشرف عليه مباشرة فرع الاتحاد في مخيم اربد . ولقد بيعت منتجات هذا المشغل مع منتجات مشغل الحصن في معارض خاصة أقامها الاتحاد في مدينة اربد . واما برنامج هذا المركز اليومي من حيث مكافحة الامية والتوعية السياسية والتدريب على السلاح فكان شبيها ببرنامج مشغل مخيم الحصن . عقد المركز ست دورات كانت تستغرق كل منها بين شهر وشهرين وذلك حسب الظروف السياسية وتضم حوالي الخمس وعشرين فتاة .

مستوصف اربد : أسس المستوصف في نيسان ١٩٧٠ في مخيم اربد الذي كان يفتقر الى أي شكل من أشكال العناية الطبية رغم كونه مركز تجمع سكاني . كان المستوصف تحت الاشراف المباشر لفرع الجبهة الشعبية الديمقراطية في اربد حيث عمـل واشرف على ادارته وتسييسه الكادر الجبهوي المسؤول — كان المشرف على المستوصف عضوا في اللجنة المحلية في اربد بالاضافة الى طبيب نصير للجبهة وممرضة مؤيدة للجبهة ايضا . شملت الخدمات الطبية التي كان يقدمها المستوصف بالدرجة الاولى معالجة الحالات الطارئة والمستعجلة وتقديم الدواء للمرضى مجانا بالاضافة الى تقديم الثقافة الطبية الشعبية من خلال الندوات والمحاضرات التي كان يقيمها . هذا وكان يراجع المركز يوميا ما يقارب الستين مريضا في الفترة الاولى ومن ثم ارتفع هذا العدد الى المئة وعشرين مريضا بعد شهرين من افتتاحه . لقد قدمت الجبهـة كل الامكانيات والادوات الضروريـة لعمل المستوصف كما كان يساهم كل مريض من الذين يترددون على المستوصف باشتراك رمزي قدره خمسين فلسا اردنيا لسد احتياجات المركز من الادوية ومصاريف العاملين فيه وتسديد جزء من اقساط ادواته . كمـا استخدم المستوصف ايضا كأداة للتوعية السياسية ولاقامة علاقة منتظمة وحميمة مع جماهير المخيم . استمر في العمـل بعد أحداث أيلول ١٩٧٠ الا انه ضم بعد عملية التوحيد التي جرت الى مؤسسة الهلال الاحمر الفلسطيني حيث تم اغلاقه ، واكتفي بمركز الهلال فقط في المخيم . لقد قدم المستوصف خدمة مباشرة لسكان مخيم اربد بدليل ان نسبة التردد عليه كانت اكبـر بكثير من نسبة تردد الجماهير على مستوصفات اخرى رغم انها كانت تمتلك امكانيات افضل ، ولعل السبب في ذلك يعود الى الدور السياسي والتعبوي الذي لعبه المستوصف بالاضافة الى الخدمات الطبية التي كان يقدمها .

هذا وقد أقامت الجبهة مستوصفا في مخيم البقعـة وآخر في مدينة الزرقاء كما قدمت مراكز الاتحاد الوطني سلسلة من الخدمات الطبية في مدينة عمان ، يضاف الى ذلك ما قدمه اتحاد الطلبة الفلسطينيين من سلسلة دورات لمحو الامية والاسعاف والتمريض وخدمات اجتماعية اخرى .

المجالس الشعبية : حددت الجبهة « المجالس الشعبية » على انها « الصيغة الارقى والاكثر تقدما من صيغ الجبهة المتحدة للجماهير الكادحة . انهـا الاداة الرئيسية التي يتمكن خلالها الشعب المسلح من ممارسة سلطته الثورية بصورة ديمقراطية . ان هذه المجالس التي تنتخبها الجماهير بصورة مباشرة في كل حي او مخيم او مصنع او قرية ، والتي تمارس عليها الجماهير رقابة مباشرة وتستطيع استبدالها في اي وقت تشاء ، تشكل المرآة الامينة التي تعكس — دون تشويهات بيروقراطية — ارادة الجماهـير ومستوى وعيها ومزاجها واستعدادها الثوري . وهي لذلك السلطـة الوحيدة التي

تلتصق بها الجماهير التصاقا يوميا وحيا وتحترم تعليماتها وتطيعها ، لانها منبثقة مباشرة من ارادة الجماهير . لذلك تشكل المجالس الشعبية الاطار الاكثر فعالية لتعبئة طاقات الجماهير وقيادة نضالها وتنسيق نضالها اليومي . ففي اطار هـذه المجالس يمكن ان تمارس المنظمات الجماهيرية الاخرى (النقابات وغيرها) عملها التعبوي والنضالي ، وتحت امرة هذه المجالس يمكن أن توضع كافة وحدات الميليشيا الشعبية التي تشكل الاداة المسلحة لفرض ارادة الجماهير الثورية ، ومن خلال المجالس ايضا يمكن ان تجري مختلف اعمال تعبئة الجماهير وادارة شئون حياتها اليومية وتأمين مصالحها المباشرة »(١١).

هذا وقد وضعت الجبهة كشرط لنشوء هذه المجالس ان تكون ممثلة لكافـة التيارات السياسية التي لها وجود حقيقي في المنطقة المعنية ، ولذلك فان نمو ونشاط هذه المجالس مرهون ليس فقط بالجبهة وبالجهود التي تبذلها بل بموافقة وعمل المنظمات الفدائيـة والتيارات السياسية الاخرى الموجودة . لقد كانت تجربة المجالس الشعبية تجربة جنينية اكثر مما هي فعالة وذات أثر في الحياة اليومية في الاماكن التي تم فيها تشكيل مثل هذه المجالس . واما فيما يتعلق ببرامج عمل هذه المجالس فقـد قدمت الجبهة الشعبية الديمقراطية مشروعا الى اللجنة المركزية للميليشيـا في نيسان ١٩٧٠ نشرته مجلة « الحرية » في عددها رقم ٥٠٨ بتاريخ ٣٠ ــ ٣ ــ ١٩٧٠ والذي تضمن النقاط التالية :

المادة الاولى : تشكيل المجالس الشعبية

المادة الثانية : اهداف المجالس الشعبية وغاياتها

المادة الثالثة : كيفية تكوين المجلس

المادة الرابعة : المنظمات الفدائية ودورها في المجلس

المادة الخامسة : اللجان المنبثقة عن المجلس ــ مهماتها ــ وصلاحياتها .

لقد تمت عمليتا انتخاب في كل من مخيم سوف ومخيم غزة في منطقة جرش وذلك بعد اقرار مشروع الجبهة وقد تم ذلك على الشكل التالي : كان الاقبال على الانتخابات في مخيم غزة شديدا حتى تجاوزت نسبة المنتخبين ٩٠٪ من الرجال ونسبة لا تقل عن ٣٠ ــ ٥٠٪ من النساء . وقد كان المجلس الذي انتخب بأغلبية ٥١٪ من تحالف الجبهة الشعبية الديمقراطية والجبهة الشعبية والصاعقة وبعض المنظمات الاخرى ونسبة ٤٩٪ من تحالف « فتح » وقوات التحرير الشعبية وبعض المخاتير المستقلين . واما في سوف فاسفرت الانتخابات عن فوز فتح بأغلبية مطلقة في المجلس ــ ٦٠٪ .

وترى الجبهة « ان نتيجة الاغلبية التي أحرزتها منظمات ليس لها مفهوم في المجالس الشعبية ان جمدت هذه المجالس التي انتخبتها الجماهير ، واصطدمت من ناحية أخرى كل المحاولات التي بذلها عناصر الجبهة لدفع المجالس الى اتخاذ خطوات عملية باللامبالاة من عناصر المنظمات الاخرى » .

---

١١ ــ تقرير المؤتمر التاسيسي للجبهة الشعبية الديمقراطية ، الفصل الاول ص ٣٢ ــ ٣٣ .

الجباية الفلسطينية : تاريخ وتحليل

الدكتور سعيد حمود

تعيش الجباية الفلسطينية في المرحلة الراهنة حالة يمكن تصويرها بالمنظار العلمي على انها حالة فوضى وانفلاش ، اذ انه لا توجد للعمل الفلسطيني أداة جباية واحدة ، بل عدة ادوات ، حتى ان الادوات المختلفة لا تقوم بعملها على أسس منسجمة ومدروسة ، كما ان أوعية الجباية (الفئات على اختلاف أنواعها) التي تغرف منهـــا الجبايات ليست محصورة على أساس الاسلوب والاطار العلميين المتسلحين بالتنظيم . تعكس هذه الحالة نفسها على الواقع المالي للعمل الفلسطيني بأشكال ونتائج عديدة لعل اهمها هو التالي : أ ـــ لكل منظمة من المنظمات الفلسطينية جهاز مالي مستقل ، يقوم بنشاطاته ويضع مخططاته (هذا اذا وجد التخطيط) دون أي اعتبار لوجود الاجهزة الاخرى ، مما يؤدي في كثير من الاحيان الى تقاطع ونضارب في عمليات الجباية بين عـــدة منظمات دفعة واحدة . ب ـــ هناك عزلة تامة بين الاجهزة المذكورة وبين الصندوق القومي الفلسطيني، الذي اسس ليكون جهاز الجباية الوحيد للعمل الفلسطيني ، والذي كان من المفترض أن تصب فيه كافة الاموال المجباة ليقوم هو بتوزيعها على متطلبات العمل الفلسطيني في كافة جوانبها . جـ ـــ تتم عملية الصرف والتصرف بالاموال المجباة بأسلوب أبعد ما يكون عن تعيين الاهداف والارتباط بسلم اولويات مدروس، وبعيدا عن اعتبارات العلم والتوفير وتوجيه التركيز الى ضرورات العمل ومتطلباته . د ـــ نتيجة لهذا كله ونظرا للظروف القاسية التي يمر بها العمل الفلسطيني(١)، فاننا نلمس الان نضوبا وضمورا في موارد الجباية الفلسطينية . فلا الجباية الشعبية ولا الجباية من الحكومات ولا من الجاليات العربية في الخارج تدر موارد تتناسب مع طبيعة الاعباء الماثلة امام العمل الفلسطيني . هذه باختصار أهم ملامح الصورة التي يعيشها واقع الجباية الفلسطينية الراهن ، ولو انه كان ممكنا ان نستعين بأرقام حقيقية حول تطورات احجام الجباية والقنوات التي صبت وتصب فيها ، لازدادت الصورة وضوحا ولبيّنا علميا حقيقة ما نرمي اليه . غير ان هذا الامر مستحيل بسبب الاوضاع السائدة(٢). اما عن الاسباب والكوامن التي دفعت بالصورة الى واقعها الحالي ، فانه من المستطاع تسجيل صفحات عديدة مليئة بالقضايا السياسية والعسكرية وبقصص التنافس الحزبي والتيارات وبغيرها من الامور ، غير اننا نكتفي هنا بالاشارة الى جملة اسباب عامة : ١) التشتت الذي يعاني منه العمل

١ ـــ تجدر الملاحظة هنا : ان قسوة الظروف السياسية والعسكريـــة انما تفرض ان تزداد موارد الجباية ، غير ان هذه المعادلة غير قائمة بل عكسها هو القائم بسبب القضايا المشار اليها .

٢ ـــ انه من المستحيل حصر حجم الموارد التي دخلت منظمات العمل الفلسطيني ومن المستحيل أيضا اعطاء صورة رقمية حـــول صرف هـــذه الاموال على البنود المختلفة ، أولا بسبب صعوبة عملية الحصر نفسها ، وثانيـــا بسبب رفض المنظمات ان تطلع أحدا على مواردها الحقيقية وكيفية تصرفها بها .

الفلسطيني ، لدرجة ان ظاهرة غريبة اصبحت ملازمة لمسيرة هذا العمل : في المراحل التي تكون فيها كافة المؤشرات ضاغطة في اتجاه الوحدة الوطنية تكون هذه الوحدة اشد تعثرا وتحجرا واصعب منالا . هذه الظاهرة العجيبة لا بد من تعميق التمعن والدراسة فيها على اساس مختلف المعطيات الاجتماعية والحضارية وغيرها . ٢) غياب التصور العلمي الشامل والمؤسس على التخطيط في مقاربة العديد من معضلات العمل الثوري الفلسطيني ، الامر الذي يعكس نفسه بوضوح على الناحية المالية وعلى قضية الجباية بشكل خاص . ٣) بوجود حالة التشتت وغياب التصور العلمي الشامل تفجرت في العمل الفلسطيني الحدود المعقولة للتنافس وللخلاف بين المنظمات واختل ميـزان الاولويات بشكل خطير ، وقد عانت من جراء ذلك القضايا الاساسية للعمل الفلسطيني امر المعاناة، ومن ضمنها القضية المالية ، لقد امست محاولة اعادة ترتيب الاولويات في اطار الاوضاع القائمة أمرا على درجة عالية من الصعوبة والتعقيد .

لنا في التجربة اليهودية في الجباية مثال مليء بعناصر القوة والنجاح . وقبل أن نشير الى بعض هذه العناصر تجدر ملاحظتان : ان تجربة العدو في الجباية المالية هي بالفعل من اهم انجازاته ولا نتمثل بها هنا على اي اساس آخر غير الاستفادة العلمية من ناحية التخطيط واسلوب العمل المرن والمتحرك والقادر ، وانه ليس لعدونا فقط في هذا المجال تجربة ناجحة بل في تاريخ عملنا الفلسطيني تجربة في الجباية لا تقل احكاما في التنظيم ولا قدرة على التنفيذ ، الا وهي تجربة « بيت المال العـــربي » التي سنتناولها في صلب التحليل .

ما هي أهم العناصر الكامنة وراء نجاح الجباية اليهودية وانجازاتها الهائلة ؟

أ ــ التنظيم : النظرة الدقيقة على الهيكل التنظيمي لاجهزة الجباية اليهودية تبين لنـــا تداخلا وتعددا لا مثيل له . غير ان هذا التعدد والتداخل كان ولا يزال مضبوطا عبر تنظيم قوي اسس على نظرية الربط الدائم بين كافة نشاطات اجهزة الجباية والهدف الرئيسي الذي يحركها . ومنذ البدء ، أي منذ تأسيس الصندوق القومي اليهودي في العام ١٩١٠ وحتى قبل ذلك حين تأسيس الصندوق الرئيسي في انجلترا في العام ١٩٠١ بقرار من المؤتمر الصهيوني الخامس ، منذ ذلك التاريخ المبكر كان التنظيم تعبيرا عن أهداف واضحة محددة . ولعل اعلان تأسيس الصندوق التأسيسي لفلسطـــين المعروف باسم Keren Haysod في العام ١٩٢١ من اكثر الامثلة وضوحا ، حيث احتوى الاعلان هدفا واضحا هو العمل بكل ما باستطاعة هذا الجهاز لتطبيق وعد بلفور ، أي اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . لا نريد ان ندخل في تعداد كافة الاجهزة التي اشرفت عليها المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية ولا في كيفية عملها ، وانما نكتفي بالتأكيد على ان التنظيم الصلب والدقيق كان عنصرا رئيسيا وراء الانجازات الهائلة التي حققتها .

ب ــ الرقابة : الرقابة المركزية من قبل أعلى السلطات في المنظمة الصهيونية العالمية وفي الوكالة اليهودية كانت ولا تزال السلاح الفعال الثاني الذي أعطى الجباية قدرتها على الوصول الى المردود المرتفع .

جـ ــ النوعية البشرية للجهاز : من خلال التقارير ومن خلال دراسة المؤتمرات العديدة على مختلف المستويات يلمس الباحث التركيز الواضح من قبل المنظمة الصهيونية العالمية على انتقاء ابرز شخصياتها وخاصة في السنوات الاولى من عمل اجهزة الجباية ، للتفرغ من اجل هذه القضية . ولعل السر الحقيقي وراء تذليل كافة العقبات والصعاب أمام انطلاق عمل الجباية كمن في النوعية البشرية التي تصدت له ، بكل خبراتها واتصالاتها وقوة تأثيرها .

د ــ النظرة الاقتصادية العلمية في موضوع الجباية : لا شك ان النظـــرة الاقتصادية

العلمية القائمة على أساس الكلفة والمردود هي التي تحكمت منذ فترة الاعداد الاولى في التخطيط لعمل اجهزة الجباية وبالتالي فانه من الممكن التاكيد على أن هذه النظرة ظلت ترافق انتقال الاموال المجباة من مصدرها حتى مصبها النهائي . وهذا ما يفسر المردود الاقصى الذي حققته الجباية اليهودية .

هـ ـــ النظرة الاعلامية العملية في موضوع الجباية : نجح التخطيط الصهيوني في الربط المحكم بين الجباية والاعلام ، وتمكن من تحقيق انجازات اعلامية ضخمة عبر اجهزة الجباية الممتدة في العالم كله . ولا نجد في دراستنا للجباية اليهودية اي جهاز مالي دون نشرة او اذاعة أو صحيفة او دورية يشرف عليها ويوجهها ، الامر الذي حقق انجازات مزدوجة في الجباية والاعلام .

بعد هذه الاشارات الى واقع الجباية الفلسطينية الحالي والى بعض عناصر نجاح الجباية اليهودية نؤكد ان الغاية منها ومن الاستعراض التاريخي لمؤسسات الجباية الفلسطينية التي سيتناولها البحث والتحليل انما تتلخص بالوصول الى مقترحات محددة ترسي الجباية الفلسطينية على اسس علمية واضحة قابلة للتنفيذ تمكن العمل الفلسطيني من الاعتماد على جباية قوية ، ثابتة وقادرة في عملية نضاله وصراعه الطويل الشاق وبالغ الاكلاف .

عرف العمل الفلسطيني ثلاث مؤسسات للجباية : « صندوق الامة العربي » في العام ١٩٣٥ . « بيت المال العربي » في العام ١٩٤٦/٤٧ و« الصندوق القومي الفلسطيني » في العام ١٩٦٥ . كما ان مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية أعد في العام ١٩٧٠ «خطة الجباية المالية الفلسطينية» . سوف نستعرض المؤسسات الثلاث والخطة في أربعة ابواب لنصل الى جملة استنتاجات ومقترحات .

« صندوق الامة العربي »

١ ـــ **التأسيس والمؤسسون** : تأسس صندوق الامة العربي في القدس بتاريخ ٢٦ تموز ١٩٣٥ كشركة محدودة الضمان ليس لها رأس مال مقسم الى أسهم وعرف باسم شركة صندوق الامة العربي المحدودة ، على اساس قانون الشركات لسنة ١٩٢٩ الذي وضعته حكومة فلسطين . وقد اعلن تسجيل الشركة في العدد ٥٢٨ من الوقائع الفلسطينية بتاريخ ٨ آب ١٩٣٥ . اما المؤسسون فكانوا ثمانية : احمد حلمي باشا عبدالباقي ، رئيس مجلس ادارة البنك العربي والبنك الزراعي العربي ومن اصحاب الاراضي والاملاك من القدس ، الحاج يوسف عاشور ، من اصحاب الاراضي والاملاك من يافا ، عمر البيطار ، من اصحاب الاراضي والاملاك من يافا ، جمال الحسيني ، من اصحاب الاراضي والاملاك من القدس ، الحاج يعقوب الغصين ، من اصحاب الاراضي من واد حنين ، سليم عبد الرحمن ، من اصحاب الاراضي والاملاك من طولكرم ، فؤاد سابا ، فاحص حسابات من القدس ، سعيد الخليل ، من أصحاب الاراضي والاملاك من طولكرم .

٢ ـــ **غايات الشركة** : أ ـــ أن تشتري وتستأجر وتستبدل وتحوز الاراضي والاحراش وحقوق التصرف وغيرها ، وحقوق الارتفاق في الاموال المنقولة . ب ـــ ان تستثمر وتفلح وتروي وتحسن اراضي الشركة وأن تنشىء البنايات التي تستلزمها اعمال الشركة على هذه الاراضي وترمم وتحسن المشيد منها . جـ ـــ أن تؤجر أي قسم من هذه الاراضي الى اي عربي طبقا للشروط التي تستصوبها ، بشرط ان لا يخول المستأجر حق تأجير او تحويل (بطريق البيع او الفراغ او الهبة او الرهن) أي حقوق منحت له في الاراضي المبحوث عنها عدا حقوقه بمنتوجات هذه الاراضي . د ـــ أن تشتري وتبيع وتحوز وتتصرف بالاموال المنقولة على اختلاف انواعها . هـ ـــ أن تحصل الايجارات والديون

وسائر الذمم . و ــ أن تبيع وترهن وتسترهن وتستبدل وتمنح حقوق الارتفاق وغيرها من الحقوق التي للشركة ، بشرط ان لا تتنازل عن رقبة املاكها الا لمؤسسة عربية .
تدل هذه الغايات ، كما وردت في النص الاصلي لعقد التأسيس ان صندوق الامة العربي لم يكن مؤسسة جباية بالمعنى المباشر لمفهوم الجباية ، اي مؤسسة تجبي الاموال عبر اجهزتها وتجمعها في صندوق من اجل الاغتراف منه لاغراض العمل الوطني ، وانما كان مؤسسة ذات اهداف وفعاليات محددة بشراء وتأجير واستثمار الاراضي وكافة ما يتعلق بها من فعاليات مالية وعقارية . وسوف تتوضح كيفية التمويل حين نستعرض نظـام الصندوق بعد قليل . وتجدر الملاحظة بل تجب بأن الغايات المذكورة انما كانت تصب في صلب اغــراض العمل الوطني في تلك الفترة ، التي كانت تتميز بمحاولات الاجهــزة الصهيونية في شراء الاراضي واستملاكها وحصر ملكيتها باليهــود ، ولا شك ان الهدف الاساسي غير المعلن وراء انشاء شركة صندوق الامة العربي المحدودة كان الوقوف في وجه فعالية الصندوق القومي اليهودي الذي كانت مهمتــه الاساسية ، كذراع رئيسي للمؤتمر الصهيوني في فلسطين ، هي جمع الاموال من اجل امتلاك الاراضي في فلسطين .
٣ ــ **نظام شركة صندوق الامة العربي المحدودة** : يتألف نظام الشركة مــن ٣٦ مادة مقسمة على خمسة ابواب : المقدمة ، مركز الشركة ومدتها ، الاعضاء ، ادارة الشركة والجمعية العمومية . تنص المادة الاولى (المقدمة) على ان الشركة مؤلفة من خمسين عضوا على الاكثر . ويجوز لمجلس الادارة زيادة هذا العــدد . المادتان ٢ و٣ : مركز الشركة القدس . ويحق لمجلس الادارة انشاء فروع وتغيير مركز الشركة . مدة الشركة ٩٩ سنة . ويحق للجمعية العمومية اطالة هذه المدة او تقصيرهــا . المادتان ٤ و٥ (الاعضاء) : يعتبر عضوا في الشركة ــ المؤسسون والاشخاص الذين يقرضون الشركة مائة جنيه على الاقل والاشخاص الذين يثابرون على تأدية اكتتاباتهم مدة سنتين على الاقل والاشخاص الذين يدفعون للشركة اعانات لا تقل عن عشرة جنيهات سنويا . اما صلاحيات الاعضاء فهي شخصية وليس لهم اي حق بأموال الشركــة المنقولة وغير المنقولة .
يتضح من هذه المواد ان تمويل الشركة انما كان يقوم على ثلاث ركائــز : القروض والاكتتاب والاعانات . لم يكن معتمدا على الجباية الشعبية الواسعة او التمويل من حكومات او مؤسسات . كما هو الحال بالنسبة لاجهزة الجباية التي تعتمد على أوعية عريضة واسعة ، تجبي منها الاموال وتقوم بصرفها على اغراض مختلفة .
تنظم المواد ٦ الى ٢٢ أعمال ادارة الشركة وفعالية مجلسها ولجنتها الادارية ، ويمكن تلخيص صلاحيات المجلس بالنقاط التالية التي نصت عليها المادة ١٧ : تعيين الموظفين والمستخدمين واقالتهم وتحديد اعمالهم وقيمة الضمانات الواجب أخذها منهم . تنظيم ميزانية للشركة سنوية تحتوي علــى الواردات المخمنة ورواتب الموظفــين واجور المستخدمين وسائر النفقات . الاستئجار والتأجير لمدة قصيرة أو طويلة سواء بمقابل او بدون مقابل . اقتراض نقود برهن عيني او غيره من التأمينات . السماح بسحب وتحصيل وبيع الاموال المنقولة والاوراق المالية التي هي ملك الشركة . السماح باقامة كل دعوى والدفاع عن مصلحة الشركة امام القضاء سواء كانت الشركة مدعية أو مدعى عليها . التعاقد عن الشركة والمصالحات وقبول التحكيم والتنازل عن كل حجز متوقع تحت يد الغير بعد تأمين حقوق الشركة . قبول الرهنيات وشطبها وابطال المعارضات والتنازل عن حقوق الامتياز بعد تأمين حقوق الشركة .تقرير كيفيــة استعمال اموال الشركة بما في ذلك مالها الاحتياطي . تحديد مقادير القروض وفوائدها وفوائد الودائع وتعيين مقادير العمولات والاجور على اختلاف انواعها وتعيين انواع التأمينات الواجب اخذها مقابل القروض ومقاديرها . تصديق الحساب الختامي . تنظيم تعاليم الشركة .

القيام بكل ما يلزم لمباشرة او معاطاة كل عمل يدخل في غرض هذه الشركة . وبالاجمال ادارة أعمال الشركة ضمن الغايات المعينة في عقد التأسيس . اما المواد ٢٣ الى ٣٦ فتنظم فعاليات الجمعية العمومية حقوقها وواجباتها ولعل المادة الاخيرة تلقي المزيد من الاضواء حول طبيعة الشركة وغاياتها ، اذ تنص على ان أموال الشركة المنقولة وغير المنقولة وقف على الامة العربية في فلسطين ، وعند تصفية الشركة تؤول الى الجهات الخيرية العربية من انشاء مدارس زراعية وصناعية وعلمية ومستشفيات وما الى ذلك من المنشآت العربية العامة في فلسطين التي تقررها الجمعية العمومية .
لم تتوافر لنا معلومات أكثر من تلك التي وردت اعلاه حول صندوق الامة العربي وحول فعاليته ، ونعتقد انه ، نظرا للظروف السياسية التي كانت سائدة في فلسطين في ذلك الحين ونظرا لظروف الحرب ، لم تتح الفرصة أمام الشركة للتحرك علـى طريق تنفيذ اهدافها . في العام ١٩٤٥ ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أعيد تأسيس الشركة ، ولكن يبدو ان الظروف التي سادت فلسطين في تلك الفترة ايضــا تتويجا للمخططات الصهيونية قبل واثناء الحرب ، حالت مرة اخرى دون تحرك الصندوق . نبدي هذه اللمحات هنا بتحفظ شديد لاننا لا نملك صورة دقيقة حول أوضـاع ونشاطات الشركة .

« بيت المال العربي »

تسنى لنا الحصول على الوثائق الاساسية المتعلقة بانشاء وفعالية ونشاطات بيت المال العربي ، وذلك بفضل الدكتور عزت طنوس ، الذي كان أمينا عاما لبيت المال ، والذي اتاح لنا ، عبر أحاديث طويلة معه وعبر الوثائق والاوراق التي ما زال يحتفظ بها ، وكذلك عبر ذاكرة واعية دقيقة ، ان نطل على تجربة بيت المال اطلالة كاملة وكذلك على مختلف جوانب الصورة السياسية والظروف التي أحاطت بها في ذلك الحين . وتعتبر تجربة « بيت المال العربي » انجح تجربة جباية تمت في تاريخ العمل الفلسطيني ، ان من حيث التنظيم والدقة في الادارة أو من حيث الشمول أو من حيث النتائج التي توصلت لها ، كما سنبين في دراستنا لهذه التجربة . وما زالت الاسس والافكار الرئيسية التي قام عليها بيت المال صالحة ، في رأينا ، لتستفيد منها اية خطة جباية فلسطينية في الفترة الراهنة ، رغم اختلاف وضع الشعب الفلسطيني اليوم عنه في العام ٤٧/١٩٤٦ ، ورغم اختلاف الظروف السائدة اليوم عنها في تلك الفترة .
١ ــ تأسيس بيت المال العربي ومجلس الامناء(٣): انبثقت فكرة انشاء مؤسسة مالية لجباية الاموال من أجل اهداف الحركة الوطنية في فلسطين عن اللجنة العربية العليـــا (التي اصبحت الهيئة العربية العليا فيما بعد) في منتصف العـــام ١٩٤٦ . وسميت المؤسسة « بيت المال العربي » ووضع له دستور من احدى وثلاثين مادة ، حدد فكرة واغراض ونظام ومؤسسات وادارة وميزانية بيت المال العربي . قامت الهيئة العربية العليا بتعيين الدكتور عزت طنوس أمينا عاما لبيت المال العربي ، الذي بادر الى تشكيل مجلس امناء من الشخصيات البارزة في فلسطين والتي كانت تتمتع بثقة الناس وبمراكز اجتماعية ومالية مرموقة . كان مجلس الامناء مؤلفا من ٣٦ عضوا ، وقد انتخب من بين اعضائه ١٢ شخصا كلجنة تنفيذية : عبدالحميد شومان ، جمـــال الحسيني ، اسعد الحلبي ، كامل القاضي ، كامل عبدالرحمن ، أنيس نصر ، الحاج طاهر قرمان ، الشيخ شاكر ابو كشك ، الحاج مصطفى ستيتيه ، محمد عبدالباقي ، كامل الدجاني ، والدكتور

---

٣ ــ المعلومات الواردة مستقاة مـن **الكـراس الايضاحي** الصادر عن بيت المـال العربي ــ القدس ، حزيران ١٩٤٧ ، ومن المقابلات مع الدكتور عزت طنوس .

عزت طنوس امينا عاما .
بناء على دستور بيت المال العربي (المواد ٥ — ١٠) فان مجلس الامناء يشرف على بيت المال وتختار الهيئة العربية العليا ثلث الاعضاء من ذوي الكفاءة والمكانة المالية وتنتخب اللجان المحلية الاستشارية في مدن الالوية والاقضية الاربعة والعشرين عضوا الآخرين ، ويتقيد مجلس الامناء في اعماله بنظام داخلي يسير بموجبه من حيث ادارة الجلسات والاعمال والقرارات الخ ... لم يكن مجلس الامناء ، اذن ، جهاز جباية ، بل جهازا استشاريا يشرف على الجهاز الاداري ، الذي كان مسؤولا عنه وعن تأمين سياسة بيت المال الموضوعة الامين العام .

٢ — **ادارة بيت المال واللجان والمكاتب الفرعية**(٤): قام الدكتور طنوس ، الامين العام ، بتعيين الدكتور يوسف صايغ مديرا عاما لبيت المال ، الذي كان عليه أن يضع الافكار الرئيسية اللازمة للجباية ولكيفية تحصيل الاموال ولتنظيم بيت المال وتجهيزه . كما قام الامين العام بتعيين جورج فؤاد جورج محاسبا عاما ، وتولى المدير العام والمحاسب العام عملية وضع قيود بجميع العرب في فلسطين ، فصار لدى بيت المال العربي قيود تضاهي قيود الحكومة . كانت الخطوة التالية بعد وضع الافكار الرئيسية والقيود واللوائح هي تاليف الجهاز . كان حجم الجهـــاز يعكس الافكار الرئيسيـــة المتعلقة بأسس تكليف الفلسطينيين والضرائب المطلوبة منهم وأحجام هذه الضرائب .
تألف الجهاز من مكتب رئيسي في القدس ومن ستة مكاتب فرعية في مدن الالوية الستة : القدس - يافا - حيفا ، نابلس ، غزة والناصرة . وكان لكل مكتب مدير ومحاسب وجاب. كانت هذه المكاتب ترتبط بالادارة الرئيسية وتقع تحت اشراف وارشاد اللجان المحلية ، فتؤمن بذلك الصلة بين اللجان والجمهور والادارة ، خاصة لان مدير كل فرع كان بحكم مركزه سكرتير اللجنة المحلية ليتحقق الانسجام والاستمرار في العمل ولتوضع رغبات اللجنة الاستشارية موضع التنفيذ . وكانت هناك مكاتب فرعية اصغر حجما في مراكز الاقضية مثل صفد وعكا والبلدان الثانوية .
اذن - كانت هناك لجان استشارية ست تشرف على المكاتب الستة ، بالاضافة الى هذه كانت هناك لجان محلية استشارية اخرى في الاقضية : الخليل(٥)، أريحا ، رام‌الله ، بيت لحم ، اللد ، الرمله ، بئر السبع ، خان يونس ، الفالوجة ، المجدل ، جنـــين ، طولكرم ، عكا ، طبريا ، صفد وبيســان . وجميع هذه اللجان قد تشكلت في مدن الالوية والاقضية بعد اجتماعات عديدة قام بها الامين العام لبيت المال العربي ومساعدوه وبعد أن اتضحت فكرة بيت المال للشعب بأسره . وجميع هذه اللجان كانت ممثلة في مجلس الامنـــاء .
اما تشكيل اللجان فكان بطريق الانتخاب الحر لتكون لها صفة تمثيلية وتشعر ان جمهرة المكلفين تدعمها ، وقد شملت هذه اللجان ممثلين تتراوح اعدادهم بحسب المدن من ستة أشخاص الى ٢٥ شخصا عن مختلف الفئات الاقتصادية في مناطقها ، فهي تضم مندوبين عن التجار وذوي المهن الحرة والحرف والملاكين والعمال والمزارعين والاندية والجمعيات والمنظمات القروية في المدن(٦) — وجميع هؤلاء انتخبتهم مؤسساتهم او فئاتهم في اجتماعات علنية — فأصبحت للجان صفة تمثيلية صحيحة وكلمة مسموعة في تسيير شؤون بيت المال عن طريق ممثليها في مجلس الامناء ، أي ان هذه اللجان كانت شعبية — تمثيلية — استشارية ، تعين بالافكار مكتب بيت المال العربي ، وبعد الانتهاء مـــن فترة الاعداد

---

٤ — **المصدر نفسه** .

٥ — تعذر انشاء لجنة في الخليل رغم التركيز عليها ، وذلك بسبب معارضة وجهائها لمثل هذه اللجنة .

٦ — المواد ١٨ — ٢٥ من دستور بيت المـــال العربي .

ومباشرة العمل كانت مهمة هذه اللجان أن تساعد في فرض الضريبة على المكلفين ، بمعنى انها كانت تعين حجم الضريبة الذي يصيب هذا الحلاق او ذاك ، وهذا الطبيب او ذاك ، من ضمن المدى (مدى الضريبة) المخصص لكل فئة من الفئات ، وذلك في اجتماع كل لجنة محلية — اما بكامل اعضائها او عن طريق لجان فرعية منها — حيث تصنف كل فئة من المكلفين بمفردها بالتعاون مع افراد يمثلون تلك الفئة من خارج اللجنة . وعندما يتم هذا التصنيف وتقره اللجنة يباشر التحصيل على اساسه دون تعديل . اما في الحالات التي يكون فيها اي اعتراض لدى احد المكلفين فيبلغ الاعتراض واسبابه خطيا الى اللجنة فترفعه بدورها الى الامين العام عن طريق مكتب بيت المال الفرعي ويقرر فيه نهائيا على ضوء توصيات اللجنة والمكتب . وكانت هناك صلاحية رئيسية اخرى للجنة المحلية الاستشارية(٧) هي درس طلبات العمل التي يرشحها مركز بيت المال ، ومهمة المركز هي درس الطلبات من ناحية الكفاءة ، والطلبات التي تتوفر فيها المؤهلات ترفع للجنة فمن ترفضه من المتقدمين لا يجوز للامين العام تعيينه بل يعين من بين الاسماء التي ترضى اللجنة بالتعاون معها . لهذا التحفظ فائدة مزدوجة : من ناحية يعطي اللجنة كلمة اساسية في اختيار الموظفين . ومن ناحية أخرى يترك أمر التعيين النهائي بيد الامين العام ، فلا يصبح الموظفون مجرد أداة لترضية اللجنة(٨).

٣ — **أسس ومبادىء التكليف** : كانت الفكرة الاساسية التي اعتمدها بيت المال العربي في توجهه هي أن يتحمل الفلسطينيون العرب القسم الاكبر من الاعباء المالية للعمل الفلسطيني داخل البلاد ، هذا الى جانب الاسهام العربي المتوقع من الدول العربية . وقد شرح الكراس الصادر عن بيت المال (المذكور اعلاه) كيفية الجباية وبيّن أنها ، من حيث الاسلوب ، تقوم على ركيزتين : الاولى ، عن طريق التبرع المباشر ، والثانية ، عن طريق التبرع غير المباشر . أما التبرع المباشر فقد قام على مبدأين : المبدأ الاول ، التبرع الشعبي ، وهو ضريبة شعبية (١٠٠ مل سنويا) تصيب كل فلسطيني مهما كان عمره او جنسه . أما المبدأ الثاني ، التبرع النسبي ، وهو ضريبة تصاعدية تعكس القدرة على الدفع . لم يكن بامكان بيت المال الحصول على المعلومات الوافية حول دخول الافراد من دوائر ضريبة الدخل ، لذلك لم يكن بالتالي ممكنا فرض نسبة مئوية على الافراد كما تفعل الحكومات . كان الهدف هو فرض ضريبة تعكس القدرة على الدفع ، وبما ان بيت المال لم يكن يملك السلطة التشريعية والتنفيذية ، فقد كان لا بد من استنباط طريقة لاستيفاء هذه الضريبة . وسوف نبيّن بعد قليل الاساليب التي اتبعت لاستيفاء الضريبة الشعبية والضريبة التصاعدية . واما التبرع غير المباشر فقد شمل بعض الخدمات والحاجات كالمواصلات ودور السينما والمطاعم والملاهي ومباريات الرياضة والصحف وشركات الدخان والبرتقال وغيرها ، عن طريق اضافة مبالغ ضئيلة جدا على أثمان هذه الحاجات والخدمات .

٤ — **طريقة جباية الضرائب (الشعبية والتصاعدية وغير المباشرة)**(٩): بدأ بيت المال العربي بحملة(١٠) اعلامية واسعة النطاق في الصحف ودور السينما كان الغرض منها ، اولا استثارة الحماس الوطني بين الفلسطينيين وثانيا تبيان ان الحماس الوطني وحده

---

٧ — اننا نتوسع في تفاصيل صلاحيات اللجان بقصد تبيان المرتكزات الهامة التي كانت وراء النجاح الكبير في فعالية وانتاج بيت المال العربي.

٨ — ورد في الكراس الايضاحي ، **المرجع السابق** ، صفحة ١٠ رسم هيكلي يبين صورة الجهاز الاداري والاستشاري لبيت المال .

٩ — **المرجع السابق** ، صفحات ٥ — ٧ .

١٠ — بعد استعراض طرق الجباية سوف نلقي مزيدا من الاضواء على الحملات والاتصالات والفعاليات التي قام بها الامين العام لبيت المال ومساعدوه من أجل تحقيق اكبر قدر من الانتاجية والانجازات .

لا يكفي، بل يجب ان يدعم بالمسانده المالية حتى ينجسد في صيغة موارد وأسلحة يحتاجها العمل الفلسطيني . وبالتالي فانه على الفلسطينيين ان يحملوا الاعباء لتمويل حركتهم الوطنية التحريرية .

أ ـــ جباية الضريبة الشعبية : لم تكن جباية هذه الضريبة عملية صعبة امام اجهزة بيت المال وخاصة في تلك الفترة ١٩٤٦/٤٧ ، اذ ان ظروف الاعاشة والتموين في فلسطين اثناء الحرب جعلت الحكومة تعين بقالين معتمدين لتوزيع المؤن المقننة . وقام بيت المال العربي بتكليف نفس هؤلاء البقالين في كل مدينة وقرية وفي كل حي بعملية تحصيل الضريبة الشعبية بموجب لوائح التموين الموجودة لديهم . وكانت هذه اللوائح تامة ، اي شاملة كل العائلات الفلسطينية . وقد قام بيت المال بتزويد هؤلاء البقالـــين بتذاكر مرقمـــة (كوبونات) . حيث كان لدى كل بقال عدد من التذاكر يساوي عدد الافراد المسجلين لديه . وكلف هؤلاء البقالين بجباية الضريبة الشعبية من العائلات عندما تأتـــي لتأخذ حصصها من السكر والمؤن المقننة الاخرى ، حتى يكون تحصيل هذه الضريبة شاملا(١١)، فقد وضع بيت المال في مخططه منذ البدء امكانية تحصيل هذه الضريبة رأسا عن طريق محصلي بيت المال في المدن الصغيرة وبالتعاون مع لجان القرى في القرى(١٢). وبالطبع لم يكن ممكنا تحصيل هذه الضريبة دفعة واحدة ولكن بيت المال سار شوطا بعيدا في جبايتها .

ب ـــ طريقة فرض وجباية الضريبة التصاعدية (التبرع النسبي) : نصت المادة ٢٠ من دستور بيت المال على ان تقوم اللجان الاستشارية بتصنيف فئة التبرع المطلوبة من كل فرد من المكلفين . وكانت أسس التكليف التي وضعت للضريبة التصاعدية والتي أقرتها اللجان الاستشارية وجرى تطبيقها : أن يقسم المكلفون الفلسطينيـــون الى فئات على اساس حرفهم ونشاطاتهم الاقتصادية (المهن الحرة ، الحـــرف ، التجار ، الصناعيون الخ . .) . وان توضع حدود دنيا وعليا لكل من هذه الفئات . ولقد حدد ما سيدفعه أي تاجر أو شركة أو مصنع أو ملاك بفئة تتراوح بين جنيه واحد وخمسين جنيها سنويا حسب التصنيف (عدا التبرعات الاضافية) ، كما حدد ما سيدفعـــه ذوو المهن الحرة بعشرة جنيهات سنويا كحد أدنى (ايضا عدا التبرعات الاضافية) ، وحدد ما سيدفعه أرباب الحرف اليدوية بفئة تتراوح بين جنيه واحـــد وخمسة جنيهـــات سنويا حسب التصنيف ، وما سيدفعه الموظفون بفئة جنيه واحد أو جنيهين أو ثلاثة جنيهات سنويا حسب المدخول من الوظيفة ، وهذا جدول يبين فئات التبرع(١٣):

فئـــات المكلفين	التبرع النسبي المبلغ سنويا (جنيه)
التجار والشركات والملاكون والمصانع (عدا التبرع الاضافي)	من ١ الى ٥٠ حسب التصنيف
المهن الحرة (عدا التبرع الاضافي)	١٠
الحرف اليدوية	من ١ الى ٥ حسب التصنيف
الموظفون (عن مدخولهم الاساسي والعلاوات)	
لمن مدخوله الشهري تحت ١٥	لا شيء
لمن مدخوله الشهري من ١٥ الى ٢٤	١
لمن مدخوله الشهري من ٢٥ الى ٣٩	٢
لمن مدخوله الشهري من ٤٠ فما فوق	٣

١١ ـــ **المقصود** من وراء الشمول هنا **بالاضافة** الى تأكيد الجباية ، هـــو ربط كل انســـان فلسطيني بقضيته ومشاركته بها ، وهذا هو الهدف الاساسي لمبدأ التبرع الشعبي .

١٢ ـــ الكراس الايضاحي ، **المرجع السابق** ، ص ٧٠ .

١٣ ـــ **المرجع نفسه** ، ص ٦ .

كانت هذه الحدود تعكس القدرة على الدفع للفئات المختلفة وكان المدى Range يعكس التباين في القدرة على الدفع داخل كل فئة . وتجدر الملاحظة هنا ان عملية التوزيع كانت سهلة لان اللجان الاستشارية كانت تضم ممثلين عن مختلف الفئات ، فأخذ الاطباء مثلا الحدود الدنيا والعليا لفئتهم وعرضوها على نقابتهم وجرى هناك ، فيما بينهم ، وضع حدود التكليف .

بالاضافة الى هذه التبرعات نصت المادة ٢١ من دستور بيت المال على فئة اضافية تطلب التبرعات بموجبها من التجار والشركات والملاكين والمصانع ممن تمكنهم حالتهم المادية من دفع فوق الخمسين جنيها سنويا (وهي الحد الاعلى العادي) ، ومن ذوي المهن الحرة ممن يقدرون على دفع فوق العشرة جنيهات سنويا (وهو المبلغ العادي) . وقد طلبت هذه التبرعات الاضافية بكتب خاصة من الامين العام لبيت المال وروعي في هذا المجال (كما نصت المادة ٢١ من الدستور) أن يكون الطلب من القادرين ماديا على تحمل هذا التبرع(١٤).

اما جباية هذه الضرائب فقد تمت على الشكل التالي : وضع بيت المال كتب تكليف ، وكان المحصلون يحملون جداول بأسماء المكلفين في مناطقهم وفئة التبرع المطلوبة ، بالاضافة الى حمل المحصلين (الجباة) بطاقات رسمية تثبت صفتهم ، وقد جمعوا الاموال على اساس الجداول وتمت عملية الجمع بسهولة رغم انه كان من الضروري تقسيطها احيانا لصعوبة استيفائها مرة واحدة(١٥).

كانت الاموال التي تجبى توضع في المصارف يوما فيوما مقابل ايصالات ، وكانت ارومات كبونات الضريبة الشعبية وايصالات الضريبة التصاعدية تربط كلها معا وترفق بايصال البنك وترسل برفقة تقرير اسبوعي الى المركز الرئيسي في القدس ، الذي كان يحتوي على قسم محاسبة مستكمل .

جـ ــ الضريبة غير المباشرة(١٦): لعبت الضرائب غير المباشرة وعمليات تحصيلها الى جانب الضرائب الاخرى التي اعتمدها بيت المال دورا بارزا في اضفاء حالة من المشاركة الجماهيرية الواسعة في صميم العمل الوطني في فلسطين في ذلك الحين . وكان للطوابع التي أصدرها بيت المال ، والتي كانت اقوى وسائل استيفاء الضريبة غير المباشرة ، بالغ الاثر في هذا المضمار ، تبين الامثلة التي نوردها فيما يلي مراعاة عدم ارهاق جمهرة المستهلكين لئلا يقع عبء التبرعات غير المباشرة على كاهل ذوي المداخيل الصغيرة :

---

١٤ ــ لدينا نص الكتاب الاصلي الذي وجه للمكلفين بهذا التبرع بتوقيع الامين العام لبيت المال العربي وقد جاء في الكتاب : .... ولهذا فقد تألفت لجنة خاصة في منطقتكم لتسهل مهمة هذه النخبة المختارة وتحدد المبالغ التي يحسن ان يساهم بها كل منهم كتبرع اضافي استثنائي نظرا للظروف الدقيقة الحاضرة فكان نصيبكم ..... جنيها تدفع للامين العام ويرسل لحضرتكم بها وصل رسمي من بيت المال العربي مع رسالة شكر ....

١٥ ــ جاء في الكراس الايضاحي ، **المرجع السابق** ، ص ٨ ، حول التبرع المباشر ما يلي : « اما اهمية التبرع المباشر ــ من نسبي وشعبي ــ من ناحية التنظيم الوطني فهي ان المواطن الذي يقوم بالتزاماته المالية لبيت المال العربي يكون له الحق ان ينتخب وينتخب في الانتخابات الوطنية . وهذه الميزة لتحصيل بيت المال العربي شديدة الخطورة لانها تضع الاساس العملي لبناء التنظيم القومي الداخلي » .

١٦ ــ الامثلة الواردة حول الضرائب غير المباشرة مأخوذة عن اللوائح الاصلية التي وضعتها ادارة بيت المال العربي والموجودة لدينا بنسخها الاصلية .

أمثلة من الضرائب المقترحة

— ضرائب غير مباشرة

الصنف	الضريبة المقترحة	كيفية استيفاء الضريبة
الخبز	مل ١ على كل رغيف	بواسطة الافران
الكاز	مل ٥ على كل صفيحة	بواسطة الوكالة
البنزين	مل ٤ على كل غالون	بواسطة الوكالة
الدقيق	جنيه ١ على كل طن	بواسطة بائع الجملة
المشروبات الخفيفة والروحية	مل ١٠٥ اذا كان ثمن القنينة أقل من ١٠٠ مل مل ١٠ اذا كان ثمن القنينة من ١٠٠—٢٥٠ مل مل ٢٠ اذا كان ثمن القنينة من ٢٥١—٥٠٠ مل مل ٥٠ اذا كان ثمن القنينة من ٥٠١ فما فوق	بواسطة الوكلاء والنبارك المحلية وعلى الستوك الموجود في الاسواق في الابتداء .
المواصلات داخل المدن	مل ٥ على التذكر يومان في الاسبوع	
المواصلات بين المدن	مل ٥ على التذكرة يومان في الاسبوع اذا كان ثمن التذكرة اقل من ١٠٠ مل مل ٥ يوميا اذا كان ثمن التذكرة من ١٠٠— ٢٥٠ مل مل ١٠ على كل تذكرة سفر فوق ٢٥٠ مل	تستوفى من الركاب بواسطة طوابع وتذاكر بيت المال العربي .
الصيدليات	مل ١٠ عن كل وصفة طبية	بواسطة الصيدليات من الزبائن .
المطاعم والملاهي	مل ٥ عن كل وجبة او بطاقة ثمنها أقل من ٢٠٠ مل مل ١٠ عن كل وجبة او بطاقة من ٢٠٠ فمافوق	
القومسيونجية	١٪ من ثمن الفاتورة	
السجاير	وضع مل ٥ على كل علبة سجاير وطنية و١٠ مل على العلبة الاجنبية .	من وكلاء شركات السجاير وعلى الكمية الموجودة في الاسواق عند الابتداء .
البيض	مل ١ على كل بيضة	بواسطة جمعية بائعي البيض او الصنديقة .
الصادرات من المدن	١ الى ٣٪ على المواد الغذائية والضروريات ٥٪ على الكماليات	في مكاتب اللجان القومية مقابل ايصالات بيت المال وذلك بحمل كل المصدرين على اخذ رخص نقل البضائع من اللجان القومية .

— ضريبة الحراسة

الضريبة المقترحة

ضريبة الامن والحراسة : تقترح نسبة مئوية يتفق عليها من قيمة ضريبة البلدية على الاملاك وتستوفى من المالك والمستاجر وتستفيد اللجان القومية من هذه الضريبة لدفع رواتب ومصاريف حرس الامن الذين تعينهم اللجان القومية (هذا الباب لا صلة له بمصاريف الدفاع التي تتحملها القيادة بموجب تعليمات الهيئة العربية العليا) . وهذه الضريبة يتطلب فرضها الحصول في كل مدينة على جداول ضريبة البلدية والاستعانة بها ، (وهذه الخطوة في غاية الاهمية خاصة في المدن التي ليست فيها بلديات عربية صرف مثل القدس وحيفا وطبرية وصفد) .

- الرسوم والرخص والغرامات

- رخص الاسلحة	المبالغ ترتب	تستوفى هذه الرسوم
- رخص السيارات الخصوصية والعمومية	محليا بعد	في مكاتب اللجان القومية
- الهويات الشخصية	التداول وحسب	مقابل ايصالات
- التصاريح المتنوعة للسفر وما شاكل	الحاجة المحلية	بيت المال العربي .
- الغرامات		

توخينا في ايراد هذه الامثلة تبيان شمول تخطيط بيت المال العربي للجباية كافة الحقول والمجالات ، واشراك جميع المواطنين ، بأسلوب عملي مدروس ، في تأمين السند المادي والمعنوي لحركتهم الوطنية .

٥ - حول ميزانية واردات وصرفيات بيت المال : وضعت الهيئة العربية العليا بالتعاون مع مجلس الامناء ميزانية تقديرية سنوية للواردات والصرفيات(١٧). وقد ارتكزت الميزانية التقديرية على قاعدتين : احصاءات وجداول دقيقة للمكلفين (كما بينا سابقا) فيما يتعلق بالواردات ، والحاجات الملحة للمصالح الوطنية الرئيسية المتعددة وأولها الاراضي ، فيما يتعلق بالصرفيات .

شملت الميزانية الاولى السنة المالية من اول نيسان ١٩٤٧ لآخر آذار ١٩٤٨(١٨). واننا نورد هذه الميزانية(١٩) هنا تبيانا للدقة والوضوح ، اللذين اتبعتهما ادارة بيت المال منذ بدء عملها :

الميزانية التقديرية

الواردات

	التقدير بالجنيهات
أ التبرع المباشر	
١ - **التبرع الشعبي** (١٠٠ مل سنويا من كل عربي وعربية)	٩٠،٠٠٠
التبرع النسبي	
٢ - تبرع المهن الحرة (١٠ جنيهات سنويا عن كل ذي مهنة كحد ادنى)	٧،٠٠٠
٣ - تبرع التجار والشركات والمصانع والملاكين والحرف	٧٠،٠٠٠
٤ - تبرع الموظفين	١٣،٠٠٠
مجموع تقدير التبرع المباشر	١٨٠،٠٠٠
ب التبرع غير المباشر	
١ - عن طريق المواصلات ووسائل النقل	٢٥،٠٠٠
٢ - عن طريق السينمات والملاهي	٤،٠٠٠
٣ - عن طريق شركات الدخان	٥،٠٠٠
٤ - عن طريق الصحف	٥،٠٠٠
٥ - من طوابع التبرع وخلافها	١،٠٠٠
مجموع تقدير التبرع غير المباشر	٤٠،٠٠٠
مجموع تقدير الواردات	٢٢٠،٠٠٠

الصرفيات

	النسبة المئوية من الميزانية	التقدير بالجنيهات
١ - لمشروع او مشاريع الاراضي	٥٠	١١٠،٠٠٠
٢ - للتنظيم الوطني والرياضي	١١٤٤	٢٥،٠٠٠

١٧ - المادتان ٢٦ و٢٧ من دستور بيت المال .

١٨ - المادة ٢٨ من الدستور .

١٩ - كما تثبت في الكراس الايضاحي ، **المرجع السابق** ، صفحات ٤ و٥ .

٣ ــ للتنظيم الاقتصادي	٦،٨	١٥٠،٠٠٠
٤ ــ للمساجين والمنكوبين	٤،٦	١٠٠،٠٠٠
٥ ــ للهيئة العربية العليا	٦،٨	١٥٠،٠٠٠
٦ ــ للدعايــة	٤،١	٩٠،٠٠٠
٧ ــ لبيت المال العربي	١٠	٢٢٠،٠٠٠
٨ ــ للمصاريف والالتزامات الطارئة	٦،٣	١٤٠،٠٠٠
	١٠٠،٠	
	مجموع تقدير الصرفيات	٢٢٠٠،٠٠٠

٦ ــ **حول فعالية ونشاطات وانجازات بيت المال العربي** : استمرضنا حتى الان الاسس والمبادىء والافكار الرئيسية والاساليب التي مكنت بيت المال من بناء جهاز فعال متين ، كان اداة متحركة ومنفذة لجباية ضخمة ومردود كبير . هذه الاسس والمبادىء والافكار وضعتها ادارة متسلحة بالعلم والنظرة الثاقبة وملمة الماما واعيا بظروف الحركة الوطنية في تلك الفترة والظروف السياسية بمجملها وبأوضاع الشعب وامكانياته واستعداده . والامر الحاسم الذي اعطى الافكار والالمام الواعي قدرتهما على الفعل والانتاج هو الجهد الهائل الذي بذله الأمين العام والى جانبه المدير العام والمحاسب العام ، وكذلك التجاوب الذي لقيه هؤلاء مع المكاتب واللجان المحلية . كانت عملية تشكيل اللجان مــن أهم العمليات التي تمت ، فقد اشرف الامين العام ومساعدوه على تشكيل ١٣ لجنة في ١٣ بلدا وكذلك ٦ مكاتب ، وكانت تتم دورة مرة او مرتين في الشهر الواحد علــى المكاتب الستة . كانت الثقة بفكرة بيت المال عالية جدا ، الامر الذي جعل التعاون في اللجان والمكاتب على اعلى درجة ممكنة . يكفي ان نذكر أن الفترة التــي اتاحتهــا الظروف السياسية للعمل الجدي أمام جهاز بيت المال امتدت فقط بين ١٩٤٧/٤/١ و١٩٤٧/١١/٢٩ وقد بلغت الجباية في هذه الفترة حوالي ١٦٨ الف جنيه(٢٠) . ومن الجدير بالذكر انه طيلة فترة عمل بيت المال لم تسجل مخالفة مالية واحدة ، حدثت بالطبــع بعض التقصيرات والتأجيلات وبعض المحاولات القليلة للتهرب من الدفع ، امــا المخالفات مثل التزوير او السرقة او التلاعب في الحسابات فلم تسجل ولا مخالفة واحدة .

ذكرنا ان فترة العمل الجدي استمرت لغاية ٤٧/١١/٢٩ ، هذا من حيث استطاعة ادارة بيت المال وجهازه الاشراف على أوضاع هادئة نسبيا ، مورست خلالها اعمال الجباية حسب القواعد والانظمة التي ذكرناها . اما بعد هذا التاريخ فقد استمر بيت المال في القيام بواجبه النضالي مباشرة ، اذ اشرف على المناضلين وعلى سير الحركة الوطنية وتلبية احتياجاتها الملحة التي فرضتها طبيعة المرحلة . ونجح بيت المال العربي في اداء دوره في هذه المرحلة كما نجح في الفترة السابقة وربما بشكل فعال اكثر : ساهم بيت المال مباشرة في دعم المناضلين في معركة انقاذ القدس . وتولــى الصرف على البطل عبدالقادر الحسيني ورجاله (٢٠٠٠ دينار شهريا) . وكذلك على البطل ابراهيم ابو ديه ورجاله (١٠٠٠ دينار شهريا) . وجند نحو ٢٣٠ شرطيا في القدس كانت حكومة الانتداب قد سرحتهم ودفع رواتب لهم . وبعد انقطاع الاتصال مع الهيئة العربية العليا اصبح بيت المال هو السلطة الوحيدة الباقية فصار يعطي التصاريح وأذونات السفر(٢١) . وبذل

٢٠ ــ في حملة واحدة أشرف عليها الدكتور طنوس وغرنسيس الجلاد واسعد الحلبي واحمد عبد الرحيم يوم ٤٧/١١/٢٩ ومن يافا وحدها تم جمع حوالي ٦٠ الف جنيه .

٢١ ــ ضمن الملفات والوثائق الموجودة بعض هذه التصاريح موقعة من الامين العام لبيت المال .

بيت المال وبشكل خاص امينه العام محاولات لمجابهة خطر الاحتلال وسقوط القدس(٢٢) . هذه وغيرها من الاعمال والمهمات الكبرى التي ستظل شاهدة في سجل التاريخ على دور هذه المؤسسة الفلسطينية ، وعلى امكانية أي تنظيم يقوم على مثل قواعدها ان يحقق شبه المعجزات .

« الصندوق القومي الفلسطيني »

لم تشهد الفترة التي امتدت بين نهاية العام ١٩٤٩ والعام ١٩٦٤ قيام اية مؤسسة للجباية الفلسطينية الشاملة . كانت الهيئة العربية العليا ، التي لم تعد تملك صفة تمثيل الشعب الفلسطيني بعد الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، تؤمن مواردها من تبرعات متقطعة ومن الدعم المالي لبعض الحكومات العربية ، وكذلك كانت تؤمن موارد المكاتب واللجان التي حاولت ان تنشط باسم الشعب الفلسطيني في بعض الدول العربية او في الخارج طيلة الفترة المذكورة .

ولاعتبارات عديدة فاننا لن نورد اية تفاصيل رقمية فيما يتعلق بميزانية منظمة التحرير الفلسطينية ، وانما سنكتفي بذكر الابواب الرئيسية في كفتي النفقات والايرادات .

ربما كان المجلس الوطني الفلسطيني في دورة انعقاده الاخيرة (التاسعة) في القاهرة (٧ — ١٢ تموز ١٩٧١) محطة تزود فيها الصندوق القومي الفلسطيني بقوة دفع هائلة على طريق تأدية مهماته التاريخية ، اذ ان مؤتمر المجلس الاخير توصل الى توصيات اساسية في المواضيع المالية وخاصة فيما يتعلق بوحدة الجباية الفلسطينية(٢٣) . ولا شك ان اجماع المؤتمر على انتخاب الدكتور يوسف صايغ رئيسا لمجلس ادارة الصندوق القومي يعتبر مرتكزا هاما من اجل فعالية الصندوق ووضع تحركه على اسس علمية واعية قادرة على الحركة والتنفيذ . غير ان هذا كله واية مؤشرات ايجابية اخرى يمكن ان تبرز يظل نجاحه مرهونا بارادة الوحدة والتوحيد لدى اطراف العمل الفلسطيني .

١ — تأسيس الصندوق القومي الفلسطيني ومهامه(٢٤): قرر المجلس الوطني الفلسطيني الاول الذي انعقد في القدس في ٢٨ أيار من العام ١٩٦٤ والذي انبثقت عنه منظمة التحرير الفلسطينية ، انشاء الصندوق القومي الفلسطيني جهازا متخصصا للنواحي المالية . أما أهم الاعتبارات وراء انشاء الصندوق القومي فيمكن تلخيصها كما يلي :

---

٢٢ — مقابلة وفد مؤلف من منير ابو فاضل وفاضل الرشيد (قائد فرقة الانقاذ) وداوود الحسيني والدكتور عزت طنوس (متحدثا رسميا باسم الوفد) للملك عبدالله ، لمحاولة اقناعه بضرورة الاهتمام بانقاذ القدس ، ولكن دون جدوى .

٢٣ — جاء في توصيات لجنة الوحدة الوطنية : في المجال المالي .. انطلاقا من كون وحدة الجباية مرتبطة بوحدة الصرف المرتبطة بدورها بوحدة المؤسسات ... (ب) يحول ٣٠٪ من حصيلة الجباية الموحدة الى الصندوق القومي الفلسطيني ، و٧٠٪ تحول لحساب خاص يوضع تحت اشراف اللجنة التنفيذية ليصرف منه على المؤسسات التي يتم توحيدها والتي لا تقع مسؤولية الصرف عنها حاليا على الصندوق القومي ... (ج) — يتم تعديل الموازنة ، بحيث تشمل المؤسسات وابواب الصرف الناشئة عن مقررات التوحيد المالية بحيث يصبح بالامكان الصرف عليها من الصندوق القومي . (هـ) — يتم تعديل انظمة الصرف واجراءاته في الصندوق القومي بحيث تتلاءم ومتطلبات العمل الجديدة . (و)يقوم الصندوق القومي بالاشتراك مع اللجنة التنفيذية بوضع خطة للجباية الموحدة ، وتنمية الموارد المالية والاشراف على تنفيذها ، وذلك خلال ستة اشهر .

٢٤ — من التقرير المالي الخامس للصندوق القومي المقدم الى المجلس الوطني الفلسطيني الذي انعقد في القاهرة (أيلول ١٩٦٩) .

١) ضرورة قيام الاجهزة المتخصصة في كل ناحية من نواحي العمل الفلسطيني . والجهاز المالي المتخصص يأتي في المقدمة من حيث الاهمية لدعم الكفاح من أجل التحرير . ٢) ولا بد من تأمين المال لتنفيذ الخطط الهادفة الى المحافظة على الشخصية الفلسطينية ولابراز الكيان الفلسطيني ، وللتعريف بفلسطين وبقضية شعبها في جميع المحافل والمجتمعات وفي مختلف الاوساط والميادين(٢٥) . ٣) لا يمكن ان تؤسس المسيرة نحو التحرير على أسس صلبة ومتينة الا بالمشاركة الفعالة المباشرة لجماهير الشعب الفلسطيني خاصة والشعب العربي عامة ، بكافة قواها وامكانياتها ، المادية منها على وجه الخصوص ، في العمل والاعداد على طريق الكفاح المسلح .

وقد أنيطت بالصندوق القومي الفلسطيني مهام عديدة(٢٦)، لعل أبرزها : أ — تمويل دوائر المنظمة ومؤسساتها . ب — اعداد الحسابات الختامية للمنظمة . ج — الاشراف على نفقات المنظمة وتدقيق حساباتها . د — تلقي جميع التبرعات التي ترد باسم منظمة التحرير الفلسطينية وايداعها في مصارف معتمدة واستثمارها . هـ — السعي لتحصيل الالتزامات المالية ومنها مساهمات الدول العربية . و — وضع الخطط والمشاريع اللازمة لتنمية الموارد المالية وتعميم ضريبة التحرير على أبنـــاء فلسطين . ز — تنفيذ قرارات المجلس الوطني الفلسطيني المالية .

٢ — **النظام الاساسي للصندوق القومي الفلسطيني** : نصت المادة ٢٤ في الباب الرابع (أحكام عامة) من النظام الاساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية(٢٧) على ما يلي : « ينشأ صندوق يعرف بالصندوق القومي الفلسطيني لتمويل اعمال المنظمة يقوم بادارته مجلس ادارة خاص يؤلف بموجب نظام خاص بالصندوق يصدره المجلس الوطني ». على اساس هذه المادة والمادتين ٢٥ و٢٦ من النظام نفسه وضع المجلس الوطني النظام الاساسي للصندوق القومي(٢٨) :

نصت البنود ١ — ٣ من (المقدمة) علـــى انشاء الصندوق وانتخـــاب رئيس مجلس الادارة(٢٩)، الذي يعتبر عضواً في اللجنة التنفيذية ، وعلى تعيين اعضاء مجلس الادارة الذين لا يقل عددهم عن أحد عشر عضواً بقرار من اللجنة التنفيذية . وكذلك على انتخاب عضوين من قبل مجلس الادارة نائبين للرئيس واميناً للسر . اما مدة العضوية لمجلس الادارة فقد تحددت بثلاث سنوات قابلة للتجديد بموافقة اللجنة التنفيذية (البند ١ من باب « مدة عضوية مجلس الادارة وصلاحياته ») والصلاحيات تحدد بموجب نظـــام تضعه اللجنة التنفيذية (البند ٢) . المدير العام للصندوق يعينه مجلس الادارة وكذلك العدد اللازم من الموظفين ، واختصاصات المدير العام (البند ٣) .

فيما يتعلق بأعمال (مهمات) مجلس ادارة الصندوق ، فقد نص عليها النظام الاساسي

---

٢٥ — **المرجع السابق** ، ص ٢ .

٢٦ — وفقا لاحكـــام النظـــام الاساسي الـــذي سنستعرض بنوده لاحقا .

٢٧ — كما جاء في الكراس الذي أصدرته اللجنة التنفيذية للمنظمة في العام ١٩٦٨ بعد أن درس المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في القاهرة خلال الفترة من ١٠ — ١٧ تموز ١٩٦٨ الميثاق الوطني الفلسطيني ، والنظام الاساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ونظام الصندوق القومي وقرر ادخال تعديلات على الميثاق والانظمـــة المذكورة .

٢٨ — **المرجع السابق** ، صفحات ٢٢ — ٢٦ .

٢٩ — انتخب المجلس الوطني الاول عبد الحميد شومان رئيسا لمجلس ادارة الصندوق القومي، وبقي الاستاذ شومان لغاية العام ١٩٦٩ رئيسا، حين انتخب خالد اليشرطي رئيسا لمجلس الادارة وبعد حادث وفاته المؤسف انتخب الدكتور زهير العلمي رئيسا ، وبعد استقالة الدكتور علمي انتخب المجلس الوطني في دورة انعقاده التاسعة (الاخـــيرة) الرئيس الحـــالي لمجلس ادارة الصندوق ، الدكتور يوسف صايغ .

بشكل نقاط عامة دون تفاصيل ، ملخصها : تسلم جميع الموارد ، تمويل منظمة التحرير واجهزتها (وفق ميزانية سنوية) ، تنمية موارد الصندوق ، الاشراف على أعمال الجباية، الاشراف على أوجه صرف النفقات ، وضع نظام مالي خاص للسحوبات والصرف ومراقبة صرف الاموال والمساعدات (البنود ١ ــ ٧ من باب أعمال مجلس الادارة) . وكذلك حصر النظام الاساسي موارد الصندوق بنقاط عامة (بعضها حدد بنسب معينة) على الشكل التالي : رسم سنوي يلتزم بدفعه كل فلسطيني تجاوز الثامنة عشرة من عمره (بمثابة الضريبة الشعبية) ، ضريبة ثابتة تفرض على التجار والملاكين والموظفين وسائر الشركات والمؤسسات بين ٢ و٦٪ من مجموع الدخل الصافي (بمثابة الضريبة التصاعدية) ، القروض والمساعدات المالية من الحكومات والشعوب العربية ، طابع التحرير ، التبرعات في المناسبات القومية ، القروض والمساعدات التي تقدمها الشعوب الصديقة ، حصيلة أصدار سندات دين لحاملها (حددت الفائدة بـ ٤ ٪ سنويا لمدة عشر سنوات) ، ما تخصصه كل دولة عربية في ميزانيتها السنوية لصالح الصندوق القومي ، وأية موارد أخرى (البنود ١ ــ ٩ في باب « موارد الصندوق ») .
ثم احتوى النظام الاساسي على أحكام عامة ثلاثة : يقدم مجلس ادارة الصندوق الى اللجنة التنفيذية تقريرا ماليا عن اعماله يتضمن حساب الواردات والمصروفات مرة كل ثلاثة اشهر ، ويقدم كذلك التقرير السنوي عن اعماله متضمنا حساب الايرادات والمصروفات والميزانية العمومية . وتعين اللجنة التنفيذية مراقبي حسابات . وأخيرا يعدل هذا النظام بقرار يصدره المجلس الوطني بناء على توصية اللجنة التنفيذية . (البنود ١ ــ ٣ في باب « احكام عامة ») .
نرى أن نكتفي بابداء بعض الملاحظات الرئيسية حول النظام الاساسي ككل دون الولوج في عملية مناقشة تفصيلية لبنوده ، وذلك حرصا على البقاء داخل اطار الاستعراض الذي نقوم به : أ ــ وضع هذا النظام في العام ١٩٦٤ (وان كان قد عدل في العام ١٩٦٨)، قبل البداية العلنية للكفاح الفلسطيني المسلح ، أي قبل نشوء المنظمات وتعددها داخل العمل الفلسطيني . لذلك جاءت احكامه بعيدة عن احتواء الجبايات المتعددة التي فرضها تعدد المنظمات . ولذلك ايضا لم يستطع الصندوق القومي ممارسة جباية موحدة بالشكل الذي تضمنته بنود النظام الاساسي . ب ــ بعد التجربة الطويلة التي مر بها الصندوق القومي ، وفي ظل المنحى العام لدى المنظمات الفلسطينية الذي عبرت عنه في دورتي المجلس الوطني الفلسطيني الأخيرتين (الثامنة والتاسعة) فيما يتعلق بتوحيد الجباية واناطتها بالصندوق القومي الفلسطيني ، فان الحاجة الى تعديل اساسي في النظام باتت ملحة وعلى درجة كبيرة من الاهمية . جـ ــ لا يكفي ان تعدل البنود لتصبح قادرة على احتواء الجباية وتوحيدها وعلى ارساء أوجه الصرف على اساس هذا التوحيد ، بل لا بد من اعادة تشكيل الاجهزة في منحى علمي متخصص لتكون قادرة على التنفيذ . في هذا المجال تبرز تجربة بيت المال العربي كمثال يمكن الاستفادة منه الى ابعد مدى .
٣ ــ **بنود موازنة منظمة التحرير الفلسطينية** : دابت اللجنة التنفيذية للمنظمة ، عملا بأحكام المادة ١٦ من النظام الاساسي على وضع مشاريع ميزانية سنوية ، وكان المجلس الوطني الفلسطيني في دورات انعقاده يقوم بمناقشتها واحيانا تعديلها ثم اعتمادها (وفقا لما تنص عليه احكام المادة ١٠ من النظام) . نستعرض فيما يلي بنود الميزانية الدائمة دون ذكر المبالغ فيها مع الاشارة الى انه لا بد من احداث تغييرات اساسية في الميزانية وبنودها على ضوء التوحيد الكامل الذي اقره المجلس الوطني في دورة انعقاده الاخيرة : تحوي كفة النفقات في الميزانية البنود التالية : المجلس الوطني ، اللجنة التنفيذية ، دائرة الشؤون الادارية ، الدائرة العسكرية ، دائرة التنظيم الشعبي ، دائرة الاعلام والتوجيه القومي ، الدائرة السياسية ، دائرة الصندوق القومي ، دائرة

شؤون الوطن المحتل ، مركز الابحاث ، اذاعة صوت فلسطين ، مركز التخطيط ، ادامة جيش التحرير الفلسطيني ، قيادة قوات التحرير ومكاتب المنظمة . اما الايرادات فتتالف من : مساهمات الدول العربية ، تبرعات ابناء فلسطين ، تبرعات المواطنين ، حسميات رواتب موظفي المنظمة ، مبيعات انتاج ثقافي وفني ، فوائد مقبوضة ووارادت مختلفة .

٤ ــ **حول فعالية الصندوق القومي الفلسطيني :** يجدر التفريق ،حين البحث في فعالية الصندوق القومي ، بين ناحيتين من هذه الفعالية : الاولى ، الاشراف الداخلي على مالية منظمة التحرير ، دوائرها ، موظفوها ، مكاتبها ، مراكزها وجيشها . والثانية ، تخطيط وتنفيذ جباية موحدة شاملة كشرط اساسي للاشراف على كافة أوجه العمل الفلسطيني .

في الناحية الاولى تمكنت ادارة الصندوق القومي من القيام بجهد هائل في مجال ترتيب الاوضاع المالية الداخلية للمنظمة . واستطاعت طيلة فترة عملها تأمين بقاء واستمرارية دوائر ومكاتب ومراكز وجيش المنظمة ، رغم الصعوبات المالية والتقصيرات في الالتزام بالدفع من قبل حكومات الدول العربية (٣٠). ولا بد من القول ان هذا أمر (ترتيب الاوضاع المالية وتأمين البقاء والاستمرار) على درجة كبيرة من الصعوبة والتعقيد ، اذ انه لا يختلف كثيرا من الناحية الادارية عن شؤون الحكومات والدول . ولا نجد داعيا للدخول في تفاصيل الاعباء والمهمات والانجازات التي تحملتها ادارة الصندوق القومي وما تزال مكتفين بالتقييم العام الذي اوردناه قبل قليل . ان المهمات القادمة والمترتبة على التوصية الخاصة بتوحيد الجباية والصرف على مختلف مجالات العمل الفلسطيني والتي سيتحمل اعباءها ومسؤوليتها الصندوق القومي الفلسطيني لا شك ستكون اشد تعقيدا وصعوبة من اية معضلة سابقة . اما في الناحية الثانية وهي ناحية تخطيط وتنفيذ جباية موحدة شاملة من اجل الاشراف على كافة اوجه العمل الفلسطيني ، فلم تتمكن ادارة الصندوق القومي من التقدم بأية خطوات عملية على هذه الطريق . ونسارع بالقول ، انصافا ، أن الصندوق القومي لا يتحمل تبعة هذا التعثر . ولعل الفقرة التالية(٣١) من احد تقارير الصندوق القومي تلخص الازمة في هذا الصدد :

«ومع ان نجاح الجباية المالية يشكل خطوة واسعة واساسية في مسيرة النضال الفلسطيني، وفي صموده وفي دعمه ، فقد تعذر تحقيق هذا النجاح خلال السنوات الماضية ، وبرز هذا التعذر بأجلى صوره في اعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ حين اعتمد الكفاح الفلسطيني على عدة منظمات اخذت كل منها تعمل على تأمين مواردها المالية بالطريقة التي امكنها تحقيقها وبذلك تعددت الجباية للعمل الفلسطيني ، وتوزعت الموارد المالية بين المنظمات الفلسطينية المتعددة فكان هذا سببا في عدم نجاح الجباية نجاحا كاملا » .

« خطة الجباية المالية الفلسطينية »

خطة الجباية المالية الفلسطينية هي جزء من الخطة الشاملة للعمل الفلسطيني في مختلف مجالاته وابعاده ، التي وضعها مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية . من

---

٣٠ ــ بلغ مجموع الالتزامات المتراكمة التي لم تسدد مثلا حتى ١٩٦٩/٨/٣١ ما قيمته ١٢،٠٩٦،٦٥ جنيها استرلينيا منها ٤،١٩٩،٦٦٥ جنيها رصيد مساهمة الحكومات العربية في ميزانية منظمة التحرير و٨،٨٩٦،٤٠٠ جنيه تمثل مساهمتها في ميزانية جيش التحرير الفلسطيني (كما جاء في التقرير المالي الخامس المذكور سابقا ، ص ٦) .

٣١ ــ من التقرير الخامس **المذكور سابقا** ص ١٠ .

هنا فان استعراضنا للخطة المالية سيكون مختصرا جدا ، اذ ان خطط ودراسات مركز التخطيط ليست للنشر (حسب قرار انشاء مركز التخطيط الذي اتخذه المجلس الوطني الفلسطيني الرابع) .

وقد استفادت خطة الجباية المالية من تجربة بيت المال العربي ومن تجربة الجباية اليهودية استفادة كبيرة(٣٢)، ولكنها ظلت حريصة على البقاء العلمي الموضوعي والعملي في اطار المعطيات الواقعية لظروف العمل الفلسطيني الراهنة . كما حرصت الخطة على أن تبقى الاسس النظرية الاقتصادية في اطارها الصحيح ، وعلى اعطاء الافكار والمشاريع العملية القابلة للتنفيذ الحيز الكامل والاساسي في الخطوات التي توصلت اليها .

١ ــ **مقدمة الخطة** : اكدت المقدمة على منطلقين اساسيين : ــ ضرورة تنظيم الجباية على اسس ديناميكية ، أي فعالة ومتحركة ، ــ ضرورة تنظيم الجباية على اسس عملية وقابلة للتنفيذ . كما ربطت أهمية تنظيم الجباية بواقع المهمات السياسية والعسكرية ، « المقصود هنا ، أن يكون مشروع الجباية المالية منطلقا من واقع المهمات السياسية الواسعة ومن واقع الكفاح الفلسطيني المسلح ومن واقع تصاعده على طريق حرب التحرير الشعبية ». ولم تهمل التأكيد على المجال العربي : « ان الجزء الاكبر من شعب الامة العربية يعتبر القضية الفلسطينية قضيته المباشرة، بالاضافة الى ان الامة العربية هي قوة مادية ومعنوية كبرى . على هذا الاساس لا بد من اعتبار المجال العربي مجالا حيويا في عملية الجباية ولا بد من التوجه له ووضعه الى حد معين ضمن اطار المخطط العام للجباية ».

٢ ــ **اسس ومبادىء الجباية المالية** : أ ــ ضريبة شعبية الزامية يدفعها كل فلسطيني ايا كان وضعه . وهي مستقلة تدفع الى جانب الضرائب الاخرى . تشكل موردا حقيقيا وفي الوقت نفسه تكون عامل ربط جدي بين الانسان الفلسطيني وقضيته ، وهي شبيهة « بضريبة الشاقل اليهودية ». ب ــ ضريبة تصاعدية تعكس القدرة على الدفع . تعتمد جبايتها على اسلوب تقسيم الفلسطينيين الى فئات حسب الفعاليات والنشاطات الاقتصادية ، وعلى اسلوب تشكيل لجان استشارية لكل فئة تقوم بتحديد الحد الادنى والحد الاعلى لكل فئة . (شبيهة بفكرة بيت المال العربي في مبدأ « التبرع النسبي ».) هذا بالاضافة الى اسلوب تحديد نسب مئوية معينة لجباية الضريبة التصاعدية من الموظفين ، على أن تتم عملية مسح متكاملة في هذا القطاع . ج ــ المشاريع التجارية المعقولة القائمة على اساس دراسات اقتصادية ، التي تشرف عليها الجباية الفلسطينية (وقد أوردت الخطة عدة اقتراحات لمشاريع محددة). د ــ مؤتمر للاثرياء الفلسطينيين، يدعم الجباية ويساهم في التخطيط للمشاريع التجارية . هـ ــ مؤتمرات للاثرياء العرب. و ــ الجباية الخارجية ، من الجاليات العربية في دول الاغتراب ، ومؤتمرات في الدول الاسلامية الصديقة (وقد اقترحت الخطة الاساليب العملية للجباية في هذا المجال) الى جانب هذه الاسس لصيغ الجباية اكدت خطة الجباية على المبدأ الاساسي الذي يعتبر الشرط الحتمي لنجاح الجباية وهو مبدأ توحيد الجباية : « ان توحيد الجباية الفلسطينية يبقى اهم مبادىء الجباية النظرية والعملية على المدى القريب والبعيد . الى جانب المزايا العديدة لتحقيق هذا المبدأ عمليا هناك الكثير من الصعوبات التي تعترض طريقه ، ولكنها بكل حجمها وطبيعتها يجب ان لا تبقى عائقا ، اي انه لا بد من العمل على تذليلها بشكل تدريجي ومدروس ، لانها تكبل امكانيات الجباية وتشل الكثير

---

٣٢ ــ الملحق رقم ١ لخطة الجباية حول الجباية اليهودية ، ملحق رقم ٢ حول تجربة بيت المال العربي .

من طاقاتها ». ان توحيد الجباية يتطلب عمليا توحيد الصرف ، وتوحيد الصرف يستدعي بدوره توحيد المؤسسات . وهكذا نرى ان توحيد الجباية ليس عملية بسيطة خالية من التعقيد من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه من الاسس الحتمية من أجل ارساء العمل الفلسطيني على قواعد ثابتة صلبة وامينة . وقد أوردت الخطة جملة مزايا للتوحيد نعدد منها : — « وضع الموارد كلها في خدمة العمل الفلسطيني ضمن خطة موحدة ، بمعنى أن لا تتبعثر هذه الموارد ولا تتكرر بعض المصروفات في غياب التخطيط والتنسيق. — تحقيق امكانية توجيه الموارد حسب اولويات متطلبات النضال الفلسطيني ، بحيث تصبح الموارد خاضعة لبرامج العمل ولا تعود البرامج متعلقة ومتقيدة بوجود الموارد واحتمال عدم وجودها في بعض الاحيان . — تنسيق عمليات الجباية ، بمعنى ان لا يكون في كل يوم ، كما هو حاصل الان ، حملات جديدة ومن جهات مختلفة ، اذ يزداد العبء على المواطنين ويقل بالتالي المورود .

الى جانب ذلك عددت الخطة الصعوبات التي تعترض عملية التوحيد وخلصت الى التقرير : « ان اية نظرة متفحصة على مزايا توحيد الجباية وعلى طبيعة الصعوبات التي تعترض تحقيقها ، تبرز مدى اهمية وحيوية ايجاد صيغة للتوحيد ».

وقفت الخطة ايضا أمام « اسلوب تقييم موارد الجباية » وأشارت الى انه في مجمل العملية هناك اسلوبان للتقييم : الاول ، اعتماد تقدير طاقة الجباية أو المقدرة على الجباية ، عندئذ وعلى هذا الاساس التحديد يتم الانطلاق . والثاني ، ان يكون المنطلق وضع صورة شاملة للحاجات الحيوية (متطلبات النضال) ، ثم تتوجه الجباية بمجمل طاقاتها وبكل تصميم صوب توفير كافة الاحتياجات المادية لتحقيق البرامج والمهمات المرسومة . وبعد تعداد الاحتياجات الملحة للعمل الفلسطيني خلصت الخطة الى القول: « لا يجوز تقييد اي واحد من هذه البنود بقيود وحجم ما هو متوفر من امكانيات مالية . اذن لا بد من الانطلاق على اساس الاصرار والتصميم على توفير الموارد اللازمة ، اي اتباع الاسلوب الثاني الذي عرضناه اعلاه».

٣ — **أجهزة الجباية وصيغها**(٣٣): اقترحت الخطة انشاء مجلس جديد يسمى « جهاز الجباية الفلسطينية » تتفرع عنه اربع لجان : لجنة الاتصال بالحكومات من أجل الجباية، لجنة الجباية الخارجية ، لجنة الضريبة الشعبية والمشاريع ولجنة الضريبة التصاعدية.

وبعد تعيين مهمات هذه اللجان ومجالات عملها تفصيليا قالت الخطة : « جهاز الجباية هو الذي يشرف على تشكيل اللجان الاربع الآنفة الذكر ، ويكون مسؤول كل لجنة عضوا في ادارة جهاز الجباية . . . تقوم كل لجنة بوضع برنامج عملها ، ويتولى المسؤول تبليغ الادارة بهذا البرنامج وتقوم الادارة بدورها بتنسيق البرامج وتعديلها حسب ما تراه مناسبا ». ثم تعرضت الخطة الى الصعوبات التي تقف في وجه تشكيل مثل هذا الجهاز، ولكنها اوضحت كيفية التصدي العملي لهذه الصعوبات وضرورة ازالتها ، حتى تنطلق الجباية على اسس واضحة . واوردت : « لقد تعمدنا ان تكون صورة الجهاز المقترح مبسطة قدر الامكان وذلك لسببين : الاول ، اننا لا نتصور ان يكون هذا الجهاز معقدا يقع في اسر اللوائح الداخلية والروتين والمشاكل الادارية ، والثاني هو انه من المهم جدا أن تكون التكاليف الادارية لهذا الجهاز متدنية جدا ولا تشكل بأي حال عبئا ماديا على الجباية ».

وعددت الخطة ، كما ذكرنا آنفا ، تسع صيغ جباية مع تفاصيل بنودها واساليب التحرك في صددها . ويفضل عدم الخوض فيها هنا .

---

٣٣ — استعرض القسم الثاني من الخطة الفلسطينيين واوضاعهم . اما بالنسبة للصيغ فقد عددت الخطة في قسمها الثالث تفصيلات اقتراحاتها في صدد صيغ الجباية وكيفية جبايتها.

٤ ـ **ملاحظات الخطة الختامية** : ربطت الخطة في ملاحظاتها الختامية قضية الجباية بمهمتين رئيسيتين : الاولى ، تتمثل بوضع صورة متكاملة عن الاوضاع الاجتماعية والامكانيات الفلسطينية والعربية وفي الوقت نفسه وضع كافة عناصر هذه الصورة ضمن اطار منظم يهدف تجنيدها في خطة عملية قابلة للتنفيذ . والثانية ، وتتمثل بوضع صورة رقمية واضحة ، بحيث انها تبرز التوزيع العددي لهذه الامكانية ، والتحديد الرقمي لمقدرتها وحجمها ، وفي الوقت نفسه صياغة عناصر هذه الصورة على شكل لوائح ضمن هيكل محدد واضح المعالم لاعتمادها في عملية التنفيذ . واشارت الخطة الى ضرورة القيام بهاتين المهمتين في اسرع وقت ممكن وذلك لعدم توفرهما بشكل علمي حتى الان . ثم الحقت كافة مخططاتها بسلسلة من الاجراآت العملية المقترحة للبدء في تنفيذ خطة الجباية المالية .

خـاتمة

يظهر واضحا ان هذه الدراسة استهدفت استعراضا تاريخيا لمؤسسات الجباية الفلسطينية ، حملته مؤشرات وملاحظات في محاولة جادة باتجاه أن تصب كافة تلك التجارب والمؤشرات والملاحظات في مجرى يخدم التخطيط المالي للعمل الفلسطيني في مرحلته الراهنة والقادمة . هنا تكمن قيمة اي استعراض تاريخي ، أن يكون منبعا فعليا يغرف منه استمرار العمل عبرا ومرتكزات قوة . فما هي باختصار أهم الاستنتاجات التي يمكن الخروج بها بعد هذا الاستعراض الطويل ؟

ـ لا بديل ، من اجل جباية فلسطينية جدية وشاملة ، عن توحيد ادوات ومؤسسات الجباية وعلى اسس علمية ، موضوعية وواقعية .

ـ ان الصندوق القومي الفلسطيني قادر ، بعد تعديل نظامه الاساسي في اتجاه اعادة النظر في تجهيزه ولوائحه ، واعتمادا على ارادة الوحدة التي اكدتها المنظمات خاصة خلال دورة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني التاسع ، على أن يكون الاداة المشرفة على توحيد الجباية والصرف في العمل الفلسطيني ككل . وأكثر من ذلك فانه مؤهل ، في السياق القصير ، أن يكون أداة ضغط من أجل ترجمة ارادة الوحدة الى واقع عملي ملموس .

ـ ان ما يعتبر الاساس الحتمي من اجل انجاح التخطيط المالي وتنفيذ مشاريعه ومقترحاته ، هو تجنيد الكفاآت المتخصصة في هذه المجالات ، مع توفير كافة الشروط اللازمة امامها لاغراض تحرك فعال غير مقيد بقيود بيروقراطية أو غيرها .

ـ ليس صحيحا ما يقال أن جماهير الشعب الفلسطيني والامة العربية سئمت العطاء . الصحيح هو ان جماهيرنا قد اهتزت ثقتها بالمسيرة ، وهي عند أول بادرة تعيد لها بعض ثقتها ، سوف تعطي دون تردد وبلا حدود .

ـ ان القدرة على اجتراح شبه المعجزة الذي يخيم على الافق الان ، متوفرة بالفعل ، ان بتراكم التجارب أو بتوافر الكفاآت أو باختزان الارادة على العمل الجدي ، يبقى صمام البدء في عملية التغيير هو المحتم تفجيره في هذه اللحظة ، لينطلق الخط نحو الصعود ، بعد انحدار عنيف عاناه بألم العمل الفلسطيني .

تقليدية المرأة الفلسطينية في لبنان ومشاركتها في الثورة (دراسة اولية)

باسم سرحان

لا يوجد حتى الان دراسات علمية حول المراة الفلسطينية بشكل عـــام : حول حالتها الاجتماعية ، دورها داخل الاسرة ، شخصيتها ، نفسيتها ، دورها الوطني والسياسي ، مدى تحررها وامور اخرى كثيرة جديرة بالبحث . ونظرا لان شعبنا يعيش ثورة ضـــد مغتصبي ارضه ولانه قد يدخل مرحلة مشاركة الشعب كلـــه في الثورة خلال السنين القليلة المقبلة ، وجدنا من الضروري دراسة عنصر هام في الثورة الشعبية الا وهـــو المراة*. فالمراة تمثل نصف طاقة الشعب البشرية من الناحية الجسدية ، ولها اثر ووزن كبيران على رجال الثورة من الناحية النفسية . لقد لعبت المراة وما زالت تلعب ادوارا هامة في حروب التحرير الشعبية وفي معارك الاستقلال الوطنية ، والمثالان الحيان على ذلك هما المراة الجزائرية والمراة الفيتنامية .

نظرا لصعوبة دراسة كل جوانب حياة المراة الفلسطينية والتغير الذي طرا على حياتهـــا من خلال دراسة واحدة ، وخوفا من أن نضيع وسط هـــذا الموضوع الواسع ، قررنا ان نركز على ناحيتين جوهريتين من نواحي حياة المراة الفلسطينية وهما : مدى كونها تقليدية أو محافظة ، وهذا بالطبع يعطينا صورة عن مدى تحديثها او تحررهـــا لان المحافظة والتحرر امتداد واحد كلما زاد الاول نقص الثاني والعكس صحيح . ثم مدى مشاركتها في ثورة شعبها ودعمها لتلك الثورة .

هناك عدة طرق يمكن بواسطتها قياس درجة تقليدية المراة او درجة تحديثها . فمـــن الممكن اعتبار المراة محدثة اذا كانت ترتدي فساتين قصيرة او تذهب للحفلات الراقصة ، أو اذا كانت تختار زوجها بنفسها . وممكن ايضا اعتبار المراة التي تذهب للمدرسة محدثة . ان ايا من هذه الامور وحده لا يكفي للدلالة على تحديثية المراة أو تقليديتها . لكن عدة عوامل كهذه مجتمعة تساعد على تحديد درجة تقليدية المراة او درجة تحديثها . ويجدر بنا أن نذكر هنا ان التقليدية المطلقة والتحديثية المطلقة غير موجودتين . وبالتالي هناك في كل مجتمع درجات من التحديث ودرجات من التقليدية كما ان هناك درجات من الديمقراطية ومن الحرية السياسية . لذلك سنقيس درجة تقليدية المراة الفلسطينية بمدى اقترابها من انماط التصرف والتفكير العربية التقليدية التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من شخصية وتكوين الفرد العربي بشكل عام أو بعدها عنها . وتظهر هذه الانمـــاط في الركائز الاساسية للمجتمع العربي التقليدي . وهذه الركائز هي : ١ ـــ احترام شديد

* يود كاتب المقالة ان يشيد بجهد الدكتور حليم بركات ، استاذ علم الاجتماع في الجامعة الاميركية في بيروت، في مراجعة المقالة وتوجيه كاتبها .

للكبار في السن ولكل ما هو قديم . ٢ ـ سيطرة العائلة على الفرد سيطرة شبه تامة . ٣ ـ سيطرة الدين على الفرد وعلى الحياة العامة . ٤ ـ سيطرة الرجل على المراة سيطرة تامة والتزام المراة بحياة داخل المنزل . ٥ ـ المحافظة الشديدة في العلاقات العاطفية والجنسية . ٦ ـ عدم تشجيع تعليم النساء . ٧ ـ الحشمة في اللباس .
بقيت نقطة اخرى وهي ان المراة قد تتحرر من بعض هذه الركائز وتبقى اسيرة بعضها الاخر . وهذا بالطبع يؤدي الى مسألة تحرر المراة في تصرفها الظاهر دون ان يتحرر فكرها ، اي انها تبقى اسيرة الافكار التقليدية المغروسة في نفسها . لا حاجة للقول ان عملية التحرر الفكري اصعب بكثير من عملية التحرر في التصرف . ورغم ارتباط التصرف بالافكار فقد يتأتى التصرف عن تقليد او تشبه بالنساء في الدول المحدثة دون ان يتبع ذلك بالضرورة تغير في الافكار . فالوزن الحقيقي يعطى في هذا المجال لتغير فكر المراة ، اي لمدى تخلصها من الافكار التقليدية المتناقلة من جيل الى جيل والمقبولة من قبل كل الفئات التقليدية في المجتمع .
يعتمد قياس درجة مشاركة المراة في الثورة على التعريف الذي نعطيه « للمشاركة » . لذلك ، ومنعا لتعدد التفسيرات نعني « بالمشاركة » في هذا البحث الامور التالية والتي تعكس درجات مختلفة من المشاركة المباشرة وغير المباشرة : المشاركة الجسدية في الثورة (دور قتالي او القيام بمهمات ضرورية تساعد الكفاح المسلح او دور سياسي تنظيمي) ، مدى قبولها لمشاركة اقربائها ـ خاصة الرجال ـ في الثورة ، جمع الاموال والتبرعات للثورة ، الاسعاف والتمريض ، والتبرع الشخصي للثورة . فالتي تشارك جسديا في الثورة تأتي في قمة هرم المشاركة والتي تكتفي بتأييد الثورة سياسيا فقط دون ان تحاول ان تفعل شيئا ملموسا لمساعدة الثورة او التي تتبرع ببعض المال فقط تأتيان في قاعدة هرم المشاركة .
لاطروحة البحث العامة ثلاثة اجزاء :
اولا ، المراة الفلسطينية في لبنان هي ، بشكل عام ، مجددة في التصرف والمظاهر ، تقليدية في وضعها الاجتماعي . ثانيا ، المراة الفلسطينية في لبنان بشكل عام لا تشارك في ثورة شعبها وتشكل عائقا في وجه قيام الثورة الشعبية الشاملة لانها تحاول عرقلة مشاركة غيرها ، وخاصة اقربائها من الرجال ، في الثورة . ثالثا ، ليست هناك اية علاقة بين التقليدية والمشاركة في الثورة في حال المراة الفلسطينية . اي من الجائز ان تشارك المراة المجددة في الثورة بفعالية اكثر من المراة التقليدية ومن الجائز ان يكون العكس صحيحا . هذه الاطروحة العامة تنطبق على الغالبية الساحقة من النساء الفلسطينيات في لبنان . وسط هذه الاطروحة نلمس وقائع واتجاهات مختلفة نلخصها بالفرضيات التالية (قد يثبت البحث الميداني خطأ او صحة الاطروحة العامة وخطأ او صحة معظم او كل الفرضيات) : ١ ـ ما زالت المراة الفلسطينية بشكل عام تقليدية في علاقتها بالكبار في السن وهي تعاملهم معاملة خاصة . ٢ ـ ما زالت للرجل مكانة « السيد » بالنسبة لزوجته داخل الاسرة الفلسطينية التقليدية ، لكن هذه المكانة تزعزعت كثيرا داخل الاسرة المجددة او المتحررة . ٣ ـ ما زال للدين سيطرة على حياة المراة الفلسطينية وتصرفاتها ، وخاصة المتوسطة والكبيرة في السن . ٤ ـ ما تزال المراة الفلسطينية ، بشكل عام ، تحت سيطرة اسرتها تماما . وهذا الامر لا يسمح لشخصيتها بالنمو ويشل كل طاقاتها الممكنة . ٥ ـ ما زالت المراة الفلسطينية محافظة جدا في العلاقات الجنسية قبل الزواج ، وما زالت حذرة كثيرا في العلاقات العاطفية قبل الزواج . ٦ ـ لم تشارك المراة الفلسطينية في لبنان ، بشكل عام ، في ثورة شعبها بشكل فعال . ٧ ـ المراة الفلسطينية في لبنان ، بشكل عام ، لا تشجع رجالها على الالتحاق بالثورة . ٨ ـ المراة الفلسطينية بشكل عام تؤيد الشعوب المضطهدة وتقف موقفا معاديا من الاستعمار العالمي . ٩ ـ المراة الفلسطينية في المخيم تشارك في الثورة

اكثر من زميلتها خارج المخيم لان وضعها الاجتماعي والمادي يدفعانها للمشاركة الفعالة. **١٠ — ليست هناك أية علاقة بين مستوى التعليم والمشاركة في الثورة في حال المراة الفلسطينية، لان وعي الواجب القومي غير مرتبط بمستوى التعليم. ١١ — المراة العاملة تشارك في الثورة اكثر من المراة التي لا تعمل لانها تتعرض الى تيارات فكرية واجتماعية اكثر من المراة التي تقبع في بيتها. ١٢ — كلما كانت المراة اصغر سنا كلما كانت مشاركتها في الثورة اكبر. ١٣ — كلما انخفض مدخول المراة او مدخول عائلتها كان احتمال مشاركتها بالثورة اكبر. ١٤ — مشاركة المراة المتزوجة في الثورة اقل من مشاركة غير المتزوجة لان المتزوجة تخاف على بيتها وعائلتها ولديها مسؤوليات تقيد حرية تحركهـا.**

العينة. كنا نود ان نختار عينات عشوائية تمثل المراة الفلسطينية عامة، اي من أماكن تجمع الفلسطينيين الرئيسية. لكننا، نظرا لاعتبارات عملية، اكتفينا بدراسة المراة الفلسطينية في لبنان.

ليس لدينا جداول بالعائلات الفلسطينية المقيمة في لبنان يمكننا اختيار عينة احصائية عشوائية على اساسها. لذلك اضطررنا الى اختيار عينة كوتا (حصة نسبية) على اساس مكان الاقامة وتمثل قطاعات مختلفة من النساء الفلسطينيات من حيث المهنة ومستوى التعليم والمدخول. كما اننا حددنا عدد النساء من كل فئة من فئات السن بخمس وعشرين امراة،وذلك نظرا لاهمية عامل السن في موضوع بحثنا وتسهيلا للمقارنة بين فئات السن المختلفة. وقد أجرينا مقابلات في ثلاثة مخيمات وهي مخيم البداوي، مخيم تل زعتر (الكرامة) ومخيم برج البراجنة، وفي مناطق مختلفة من بيروت. كما أننا اخترنا بعض النساء من التجمعات النسائية الفلسطينية. كنا احيانا نجري المقابلات شفهيا، واحيانا اخرى نجمع عدة نساء ونطلب منهن تعبئة الاستمارات في جلسة واحدة.

الامر الهام الذي يجب أن ندركه حول هذا البحث هو كونه دراسة اولية أو مبدئية في الموضوع تعطينا صورة عن المراة الفلسطينية في لبنان. والامر الاخر الذي **يجب أخذه بعين الاعتبار هو ان نتائج البحث تعكس صورة العينة المنتقاة ولا يمكن تعميمها على النساء الفلسطينيات في لبنان. فائدة الدراسات الاولية تكمن في اعتمادهـا كاساس لابحاث علمية شاملة ودقيقة، بالاضافة الى كونها تزودنـا بالمعلومـات المنتظمـة.**

وفي احيان كثيرة لا تكون نتائج الدراسات الاحصائية مختلفة عن نتائج الدراسات الاولية.

التقليديـة

اود ان اشير قبل البدء بتحليل نتائج البحث الى أن تحليلي سيقتصر على دراسة واقع المراة الفلسطينية في لبنان من حيث التقليدية ومن حيث مشاركتها في الثورة، وانني لن اتطرق الى اسباب كون المراة تقليدية او متحررة، تشارك في الثورة او لا تشارك، لان هذا يصبح بحثا مختلفا تماما يحتاج الى معلومات غير متوافرة بتاتا في البحث الحالي.

١ — موقف المراة من الكبار في السن: سألنا اربعة أسئلة حول موقف المراة من الكبار في السن وهي: (أ) اذا كنت في ترام او باص أو مجلس ودخل رجل او امراة كبيران في السن ولم يجدا مكانا خاليا كيف تتصرفين؟ (ب) اذا كنت في محضر وسمعت رجلا او امراة كبيرين في السن يرويان قصة مختلقة او محرفة كيف تتصرفين؟ (ج) اذا كنت على خلاف شديد مع زوجك او اهلك وتدخل الكبار لمصالحتكم كيف تتصرفين؟ (د) اذا اهانك او عنفك كبير في السن، على انفراد او امام الاخرين، كيف تتصرفين؟

هذا وقد حددنا تصرفات مختلفة ممكنة لكل سؤال وطلبنا من المراة الاشارة الى التصرف الذي ستتخذه من بين هذه التصرفات. وقد قسمنا تصرف المراة، على أساس اجابتها على الاسئلة الاربعة الى الفئات التالية: تقليدية جدا، تقليدية، متحررة، ومتحررة جدا. فالتقليدية جدا هي التي تقف لتعطي الكبير في السن مكانها، وهي التي لا تعلق بشيء على رواية الكبير في السن احتراما لسنه، وهي التي تتنازل عن بعض حقوقها اكراما لوساطة

الكبار وخجلاً منهم ، وهي التي تتقبل اهانة الكبير في السن على مضض احتراما لسنه . المتحررة تماما تكون سلبية ازاء كل هذه التصرفات وتتصرف بشكل معاكس تماما . أما التقليدية والمتحررة فتعكسان درجات مخففة من كلا التصرفين .

اظهرت النتائج (انظر الجدول ادناه) أن غالبية نساء العينة ما يزلن تقليديات في موقفهن من مكانة الكبار في السن ، اذ كانت ٩١ امرأة منهن او (٧٢،٨٪) تقليدية بشكل عام مقابل ٣٥ امرأة منهن او (٢٧،٢ ٪) متحررة بشكل عام. كما ان نسبة التقليديات تماما (٢٨ ٪) تبلغ اربعة اضعاف نسبة المتحررات تماما (٧،٢ ٪) .

موقف المرأة من الكبار في السن

الموقف	العدد	النسبة المئوية
تقليدية جدا	٣٥	٢٨
تقليدية	٥٦	٤٤،٨
متحررة	٢٥	٢٠
متحررة جدا	٩	٧،٢
المجموع	١٢٥	١٠٠٪

اخيرا لا بد أن نذكر ان النتائج قد اظهرت انه كلما انخفض سن المرأة كلما ازداد عدد المتحررات والمتحررات جدا في تلك الفئة . ففئة الخمسين سنة وما فوق لم تضم ايــة امرأة متحررة او متحررة جداً من معاملة الكبار في السن ، بينما لم تضم فئة ٤٠ ـــ ٤٩ سنة أو فئة ٣٠ ـــ ٣٩ سنة اية نساء متحررات جدا من هذا التقليد . الفئتان اللتـــان ضمتا نساء متحررات جدا حول هذا التقليد كانتا الـــ ٢٠ ـــ ٢٩ سنة والـــ ١٦ ـــ ١٩ سنة . لكن الامر الذي يلفت النظر هو الغالبية العظمى (٨٨ ٪) من فئة ١٦ ـــ ١٩ سنة اللواتي يسكن المخيمات كن تقليديات او تقليديات تماما في موقفهـــن من الكبار في السن ، وهذا بالطبع نقيض موقف النساء اللواتي يسكن خارج المخيمات وينتمين الـــى فئة العمر نفسها .

٢ ـــ مدى سيطرة الدين على المرأة الفلسطينية : لقد حاولنا ان ندرس مدى سيطرة الدين على المرأة من خلال دراسة موقفها من الفروض أو الشعائر الدينية كالصلاة والصـــوم والحج ، ومن خلال تقيدها بالتعاليم الدينية في امور كالزواج من رجل من دين اخر ، وعقد زواج شرعي ، ومن خلال تأثير الدين على تصرفاتها في الامور الطبية كتناول حبوب منع الحمل واجراء عملية اجهاض او عملية لوقف مقدرتها على الولادة ، ثم من خلال تأثرها بالاوهام الغيبية كالاصابة بالعين وكتابة الحجب والتخريج الخ . وقد وضعنا عدة أسئلة حول كل من هذه النواحي .

اظهرت نتائج البحث ان نساء العينة ينقسمن الى ثلاث فئات حول هذا الموضوع ، الفئة الاولى خاضعة لسيطرة الدين تماما ، اي انها متمسكة بالفروض والشعائر الدينية وللدين تأثير على تصرفاتها فيما يتعلق بالزواج والامور الطبية واللجوء الى التعاويذ . والفئـــة الثانية خاضعة لسيطرة الدين في ناحية او اكثر من النواحي الاربع ومتحررة من سيطرته في النواحي الاخرى . والحالة الغالبة على نساء الفئة الثانية كانت التحرر من الفروض والشعائر الدينية ومن تأثير الدين في النواحي الطبية او في مسألة اللجوء الى التعاويذ والسحر . أما الفئة الثالثة فهي الفئة المتحررة تماما من سيطرة الدين في النواحي الاربع المذكورة . وقد ظهر ان السن ليس عاملا مؤثرا جدا على مدى سيطرة الدين على المرأة، لان أربعا من فئات السن الخمس قد تساوت تقريبا في نسبة المتحررات تماما من سيطرة الدين (٨ ٪ ـــ ١٠ ٪) ، والفئة الوحيدة التي لم تضم متحررات تماما من سيطرة الدين كانت فئة « الـــ ٥٠ سنة او اكثر » . أما توزيع نساء العينة حول مدى سيطرة الدين عليهن فكان كالتالي :

الفئة	العدد	النسبة المئوية
خاضعة لسيطرة الدين التامة	٥٠	٤٠
خاضعة لسيطرة الدين بشكل محدود	٥٩	٤٧،٢
غير خاضعة بتاتا لسيطرة الدين	١٦	١٢،٨
المجموع	١٢٥	١٠٠٪

نستنتج من هذه الارقام ان الدين ما زال يسيطر سيطرة تامة على تصرفات وعقول ٤٠٪ من نساء العينة ، ويسيطر سيطرة محدودة على تصرفات وعقول ٤٧،٢٪ منهن. اي ان نسبة النساء اللواتي ما زلن يتأثرن بالدين بشكل او بآخر تقارب ٩٠٪ . كما ظهر ان سيطرة الدين الاساسية في مجال التصرف الاجتماعي أكثر منها في الامور الدينية البحتة .

٢ ــ مدى سيطرة العائلة على المراة الفلسطينية : كانت العائلة العربية ، وما زالت الى حد كبير ، مسيطرة على حياة الفرد العربي سيطرة شبه تامة . وبالطبع كانت هذه السيطرة اشد بكثير على المراة منها على الرجل . فالعائلة العربية تقرر أو تلعب دورا هاما في تعليم الفرد وفي زواجه وفي المهنة التي يتخذها لنفسه وتتدخل في صميم شؤونه الخاصة وتخضع كل ما يتعلق به لوصايتها ورقابتها . فالعائلة العربية ــ باختصار ــ تتحكم بمصير الفرد العربي . وفي حال المراة يصبح هذا التحكم نوعا من الاستعباد . فبامكان العائلة ان تفرض على المراة زوجها وموعد زواجها ، وان تختار لها صديقاتها وثيابها وتبرجها ، حتى ان الامر يصل بالعائلة الى استباحة قتــل الفتاة اذا اساءت سلوكها . ان هذه السيطرة التامة تمنع الفرد العربي ، وخاصة المراة العربية ، من تنمية شخصيتها وتصبح هذه المراة في الاوساط التقليدية « ماركة مسجلة » . اي ان المراة العربية تمر بعملية اجتماعية طويلة تخرج منها كما تريدها عائلتها . وتظل المراة اسيرة هذه العملية ، نفسيا وعقليا ، حتى بعد أن تصبح أما وجدة .

لكن تغيرا ملموسا واحيانا جذريا ، طرأ على العائلة العربية بين بعض الفئات الاجتماعية كان سببه التحديث الذي طرأ على المجتمع العربي بشكل عام وتحول الانظمة الاقتصادية العربية من انظمة زراعية بحتة الى انظمة زراعية ــ صناعية ، أو أنظمة تعتمد على الخدمات . وقد ظهرت بعض علامات التفكك على قطاعات مــن العائلات العربية واضطرت العائلة الى تخفيف قبضتها على الفرد نظرا لحاجتها الى نتاجه الاقتصادي وخوفا من أن تخسره تماما . وما يزال المجتمع العربي يسير في طريق المزيد من الحرية الفردية ومن الاستقلال عن اخطبوط العائلة .

في حال المراة الفلسطينية ، ادى التشريد وتردي وضع العائلة الفلسطينية المالي الــى حاجة العائلة لعمل المراة ، وبالتالي الى تمكينها من اكتساب درجة ، ربما بسيطة ، من الاستقلال . وقد درسنا هذا الجانب للوصول الى بعض المعلومات والحقائق حول مدى سيطرة العائلة على المراة ، واي فئات كسبت استقلالا جزئيا او كليا . درسنا سيطرة الاهل على المراة من خلال الامور التالية : أ) حجم الدور الذي لعبوه أو الذي تتوقع ان يلعبوه في زواجها . ب) مدى تدخلهم في حياتها الخاصــة : اشرافهم على خروجها من المنزل وعودتها اليه ، اصرارهم على معرفة الذين او اللواتي تخرج معهم او معهن ، وتدخلهم في اختيارها لصديقاتها . ج) مدى تدخلهم في اختيارها لعمل ما او هواية ما او فن ما . د) تدخلهم في اختيارها للكتب التي تقرأها والثياب التي ترتديها ونوع التبرج الذي تضعه.

اظهرت نتائج البحث بالنسبة للعينة كلها ان اكثر من نصف النساء (٥٣،٦٪) كن او ما زلن خاضعات لسيطرة اهلهن التامة،اي ان اهلهن يسيطرون على مختلف نواحي حياتهن الشخصية والعامة . كما ظهر ان ٢٧،٢٪ من نساء العينة كن او ما زلــن يخضعن لسيطرة محدودة من اهلهن ، اي في بعض النواحي التي درسناها كالزواج او اختيار الصديقات او مواعيد الخروج من المنزل والعودة اليه الخ. امــا نسبة النساء اللواتي تحررن تماما من سيطرة عائلاتهن فقد بلغت ١٨،٤٪ . غير ان هــذه النتائج العامة

تتضمن اختلافات بحسب السن ومستوى التعليم والمدخول ومكان الاقامة والمهنة . لقد وجدنا ان غالبية النساء اللواتي تحررن تماما من سيطرة اهلهن (٦٩،١٪) ينتمين الى فئتي السن ١٦ ــ ١٩ و٢٠ ــ٢٩ . وهذا دليل على ان معظم النساء اللواتي تحررن من سيطرة اهلهن قد فعلن ذلك في هذا العقد او في العقد الماضي . اما قبل عقدين فقد كانت نسبة هؤلاء النسوة ضئيلة جدا . وبالاضافة الى السن ، تلعب عوامل المدخول والمهنة ومستوى التعليم دورا ايجابيا في تحرر المراة من سيطرة عائلتها . فكلما ازداد مدخول عائلة المراة ومستوى تعليمها كلما كانت فرصة تحررها من سيطرة اهلها اكبر . كما ان نسبة النساء المتحررات بين اللواتي يعملن اكبر منهـــا بين اللواتي لا يعملن : ٢٧٪ للواتي يعملن مقابل ٩،٣٪ للواتي لا يعملن . اما مكان الاقامة فيلعب دورا كبيرا في تحرر المراة من سيطرة اهلها التامة . ويظهر هذا جليا حين نقارن بين النساء من فئة العمر ١٦ ــ ١٩ سنة فنجد ان ٧٠٪ من اللواتي يسكن المخيمات خاضعات لسيطرة اهلهن التامة وما تبقى لسيطرة اهلهن المحدودة ، بينما نجد ٥٠٪ تقريبـــا من اللواتي يسكن خارج المخيمات متحررات تماما من سيطرة اهلهن و٣٠٪ خاضعات لسيطرة اهلهن المحدودة و٢٠٪ فقط خاضعات لسيطرة اهلهن التامة .

٤ ــ علاقة المراة بزوجها (أو تصورها لعلاقتها بزوج المستقبل) : تعتبر المراة في المحتوى التقليدي تابعة لزوجها في كل الامور ، وعليها اطاعته اطاعة عميـــاء ، ويعتبر الزوج مسؤولا كلية عن اعالتها وعن تقرير شؤون الاسرة الرئيسية كتزويج الابناء والبنات ، وارسالهم او عدم ارسالهم الى المدارس ، والجيران الذين يصادقونهم الخ . وقد حاولنا في بحثنا دراسة الجوانب المتعددة للعلاقة الزوجية وتقدير مدى التصاق المراة بالصورة التقليدية او بعدها عنها من خلال الاسئلة التالية :

١.) من الذي يقرر معظم الامور التالية : مصروف المنزل ، كيفية تربيـــة الاولاد ، اين تقضون السهرة ، اي جيران تصادقون : زوجي بمفرده / زوجي بشكل رئيسي وانا بشكل ثانوي/انا وزوجي بشكل متساو/انا بشكل رئيسي وزوجي بشكل ثانوي/انا بمفردي .

٢.) باعتقادك ، هل يجب ان تكون المراة : مساوية لزوجها في كل الامور بلا استثناء / مساوية له في امور وغير مساوية في امور اخرى / تابعة لزوجها في كل الامور / متفوقة على زوجها في كل الامور . لا جواب / لا اعرف .

٣.) اذا لاحظت ان زوجك ظالم في معاملته للاخرين ، كيف يكون موقفك منه : اتالم بصمت ولا اجرؤ على مجابهته بنواقصه / احاول التأثير عليـــه بطريقة غير مباشرة / اجابهه بالواقع واصر على ان يصحح تصرفاته / لا أدري / لا جواب .

٤.) اذا كانت لك آراء ومعتقدات تحررية او ثورية خاصة بك وكان زوجك يعارض هذه الاراء ، هل : تحاولين اقناع زوجك بآرائك ومعتقداتك / تجهرين بهذه الاراء ولو ادى ذلك الى تهديد زواجك / تتحدثين عن آرائك بالسر ولا تجعلينها تصـــل الى مسامع زوجك/تتنازلين عن آرائك ومعتقداتك في سبيل المحافظة على زواجك/لا جواب/لا اعرف.

اظهر تحليل النتائج توزع نساء العينة حول علاقتهن بأزواجهن كالتالي :

علاقة المراة بزوجها	العدد	النسبة المئوية
تقليدية جدا	٩	٧،٢
تقليدية	١٤	١١،٢
متحررة	٧٤	٥٩،٢
متحررة جدا	٢٦	٢٠،٨
لا جواب	٢	١،٦
المجموع	١٢٥	١٠٠٪

يبدو ان غالبية نساء العينة (٨٠ ٪) متحررات او متحررات جدا في علاقتهن بازواجهن، بينما لا تزيد نسبة التقليديات تماما في علاقتهن بأزواجهن على ٧٪ ونسبة التقليديات على

١١٪ . وهذا يعني ان معظم نساء العينة يتجهن نحـــو المساواة التامة في علاقتهـــن بأزواجهن . لم تكن هذه النتيجة متوقعة بتاتا ، خاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار علاقة معظم النساء التقليدية بعائلاتهن . يبدو ان المراة التي تخشى والديها واخوتها لا تخشى زوجها . ولا نستطيع فورا اعطاء اسباب منطقية لذلك . والامر الاخر الذي يحتاج الى تفسير هو «لماذا تبقى المراة المتحررةفيعلاقتها بزوجها تقليدية فيعلاقتها بأبنائها وبناتها ؟»

٥ ـــ موقف المراة الفلسطينية من العلاقات بين الجنسين : الموقف التقليدي من العلاقات بين الجنسين موقف متزمت او محافظ جدا . فهذه العلاقات ، سواء كانت عاطفية او جنسية ، تعتبر أمرا محرما . وقد سألنا حول هذا الموضوع الاسئلة التالية : ١) ما رأيك في وجود علاقة عاطفية بين الفتاة وشاب او اكثر قبـــل الزواج : اشجع هذه العلاقة كثيرا / اشجعها، لكن بشروط معينة / لا اشجع هذه العلاقة بتاتا / لا جواب / لا اعرف. ٢) ما رأيك في قيام علاقة جنسية بين الفتاة والشاب قبل الزواج : اوافق بلا تحفظ / اوافق شرط أن يكون الشاب خطيبها / اوافق اذا اعطاها وعدا بالزواج / لا اوافق مهما كانت الظروف / لا جواب / لا أدري . ٣) ماذا يكون شعورك حين تشاهدين شابا يقبل فتاة في الطريق العام او في منتزه : اشمئز منهما / انظر الى ذلك على انه أمر طبيعي / اتمنى ان اكون مكانهما / العنهما لقلة حيائهما / لا ادري / لا جواب .

كانت النتائج العامة لموقف نساء العينة من وجود علاقات عاطفية بين الشباب والفتيات قبل الزواج كما يلي :

الموقف	العدد	النسبة المئوية
موافقة تامة	١٩	١٥،٢
موافقة مشروطة	٧٧	٦١،٦
معارضة تامة	٢٢	١٧،٦
لا جواب / لا ادري	٧	٥،٦
المجموع	١٢٥	١٠٠٪

يبدو ان نساء العينة بشكل عام قد ابتعدن خطوة عـــن الموقف التقليدي من العلاقات العاطفية بين الجنسين قبل الزواج ، اذ ان ٦٠٪ تقريبا منهن يوافقن على هذه العلاقات لكن بشروط معينة ، بينما نجد اقليتين متساويتين تقريبا ١٦،٤٪ و١٧،٦٪ توافق الاولى منهما على تلك العلاقات بلا تحفظ بينما تعارض الثانية تلك العلاقات معارضة تامة .

اما موقف نساء العينة من العلاقات الجنسية قبل الزواج بشكل عام فكان كالتالي :

الموقف	العدد	النسبة المئوية
موافقة تامة	١٣	١٠،٤
موافقة مشروطة	١٦	١٢،٨
معارضة تامة	٩٣	٧٤،٤
لا جواب / لا ادري	٣	٢،٤
المجموع	١٢٥	١٠٠٪

تظهر النتائج ان موقف الغالبية العظمى من نساء العينة (٧٤،٤ ٪) ما تزال تقليدية تماما في موقفها من العلاقات الجنسية بين الشبان والفتيات قبل الزواج ، لانهن يعارضن قيام هذه العلاقات مهما كانت الظروف . اما نسبة النساء اللواتي يوافقن بلا تحفظ على هذه العلاقات فبلغت ١٠،٤٪ ، ونسبة اللواتي يوافقن شرط ان يكون الشاب خطيب الفتاة او شرط ان يعطيها وعدا بالزواج فبلغت ١٢،٨ ٪ .

٦ ـــ وضع المراة الاجتماعي بشكل عام : يمكن تحديد وضع المراة الاجتماعي بشكل عام على خط التقليدية ـــ التحررية (او التحديث) من خلال حاصل موقفها مـــن الركائز الخمس التي تناولهاالبحث بالتفصيل . اذا استعرضنا وضع نساء العينة حول الركائز الخمس لطالعنا بالصورة التالية : فيما يتعلق بالموقف من الكبار في السن نجد ان ٧٣٪

من النساء يقعن في خانة « التقليدية » و٢٧٪ منهن يقعن في خانة التحرر . فيما يتعلق بسيطرة الدين نجد ان ٨٧٪ منهن خاضعات لسيطرة الدين بشكل او بآخر مقابل ١٣٪ منهن متحررات من سيطرة الدين . وفيما يتعلق بسيطرة العائلة نجد ٨١٪ منهن ما زلن خاضعات لسيطرة اهلهن في بعض او كل نواحي حياتهن . وفيمـــا يتعلق بالعلاقات العاطفية بين الجنسين نجد ان ٧٧٪ منهن ما زلن يضعن شروطا للموافقـــة على هذا النوع من العلاقات . اما في العلاقات الجنسية بين الجنسين قبل الزواج فان ٧٤٪ منهن ما زلن يعارضن قيام هذه العلاقات مهما كانت الظروف مقابل ١٠،٤٤ ٪ يوافقن تماما على قيام هذه العلاقات ، و١٢،٨ ٪ يضعن شروطا صعبة لموافقتهن عليها . فيما يتعلق بعلاقة نساء العينة بأزواجهن نجد الصورة مخالفة تماما للنواحي الاربع السابقة اذ تقع ٨٠٪ من نساء العينة في خانة « التحررية » وتقع ٢٠٪ منهن في خانة « التقليدية » . هذا الاستثناء في وضع المراة العام لا يتطابق مع نواحي وضعها الاخرى والاساسية ، وقد يعود الى خطأ في تصورنا لعلاقة المراة التقليدية بزوجها او الى طبيعة العلاقة الوثيقة والخاصة بين المراة وزوجها مما يعطيها حرية غير متوافرة في العلاقات الاربع الاخرى . بناء على ذلك قررنا عدم ادخال علاقة المراة بزوجها في تحليلنا لوضعها الاجتماعي العام لانها ترفع نسبة النساء المتحررات بشكل كبـــير وبالتالي تشوه حقيقـــة وضع المراة الاجتماعي العام . فاذا اعتمدنا الركائز الاربع لوجدنا ان ٧٩ ٪ من نساء العينة مـــا زلن تقليديات بشكل عام في وضعهن الاجتماعي . اما اذا ادخلنا علاقة المراة بزوجها فان نسبة النساء التقليديات تنخفض الى ٥٨ ٪ فقط . ويلعب الســـن دورا في كون المراة تقليدية او محدثة في وضعها الاجتماعي . فنحن نلاحظ ان فئة الخمسين سنة وما فوق تضم تقليديات بنسبة اربعة اضعاف المتحررات ، وفئتي ٣٠ ــ ٣٩ و٤٠ ــ ٤٩ تضمان تقليديات بنسبة مرة ونصف ضعف المتحررات . لكن عندما ننتقل الى فئتي ١٦ ــ ١٩ و٢٠ ــ ٢٩ نجد الصورة معكوسة تماما ، اذ ان هاتـــين الفئتين تضمان متحررات اجتماعيا بنسبة مرة ونصف ضعف التقليديات . كذلك نجد نسبة التقليديات بين النساء اللواتي يسكن المخيمات (٦٥ ٪) اعلى من نسبة النساء التقليديـــات اللواتي يسكن خارج المخيمات (٤٢٪) . ونسبة التقليديات بين اللواتي لا يعملن (٦٠٪) هي ضعف نسبة التقليديات بين اللواتي يعملن (٣٢٪) . والنسبة تقريبا ذاتها بين المتعلمات وغير المتعلمات . ونسبة المتحررات او المحدثات بين اصحاب المداخيل العالية (٩١ ٪) تفوق ثلاثة اضعاف نسبتهن بين اصحاب المداخيل المنخفضة او البسيطة (٢٨ ٪) .

الاستنتاج العام حول تقليدية وحداثة نساء العينة :

لقد استطاعت نسبة صغيرة من نساء العينة (٢١ ٪) تجاوز وضعهن الاجتماعي التقليدي والانتقال الى وضع محدث او متحرر . بينما لم تستطع الغالبية العظمى منهن (٧٩ ٪) تجاوز وضعهن الاجتماعي التقليدي . غير ان اجابات هؤلاء اظهرت رغبة الكثيرات منهن في التحرر لكن هناك عدة اسباب تمنعهن من ذلك اهمهـــا (طبقا لاجابات النسوة) : ١) خوفهن من اهلهن ٢) خوفهن من كلام الناس ٣) خوفهن من الوضع الجديد الذي قد يجدن انفسهن فيه . كما ان هناك فئة صغيرة اخرى من النساء التقليديات غير راضية عن وضعها الاجتماعي وتحاول تغييره .

لقد دعمت نتائج البحث الجـــزء الاول مـــن الاطروحة العامـــة القائل بأن غالبيـــة النساء الفلسطينيات تقليديات في اوضاعهن الاجتماعيـــة . كمـــا دعمت نتائج البحث الفرضيات الاربع التالية : ١) ما زالت المراة الفلسطينية بشكل عام تقليدية في علاقاتها بالكبار في السن وهي تعاملهم معاملة خاصة . ٢) ما زال للدين سيطرة على حيـــاة وتصرفات المراة الفلسطينية وخاصة المتوسطة والكبيرة في السن . ٣) ما تزال المراة الفلسطينية بشكل عام واقعة تحت سيطرة اسرتهـــا تمامـا ، وهذا الامـــر لا يسمح لشخصيتها بالنمو ويشل كل طاقاتها الممكنة . ٤) ما زالت المراة الفلسطينية بشكل عام

محافظة جدا في العلاقات الجنسية حذرة من العلاقات العاطفيـــة قبل الزواج .
وقد اسقطت نتائج البحث الفرضية القائلة بأنه « ما زالت للرجل مكانـــة « السيد » بالنسبة لزوجته داخل الاسرة الفلسطينية التقليدية لكن هذه المكانة تزعزعت كثيرا داخل الاسرة المحدثة او المتحررة » . فالواقع ان مكانة الرجل « كسيد » من حيث علاقته بزوجته قد تزعزعت داخل الاسر التقليدية والمحدثة على حد سواء .

مشاركة المرأة في الثورة

لقد تعمدنا في هذا البحث اعطاء تعريف واسع « للمشاركة » لئلا نتهم كل من لا يقاتل او يحمل السلاح بأنه لم يشارك في ثورة شعبه . وتعريفنا الواسع يأخـذ بعين الاعتبار الواقع المادي لفئات الشعب الفلسطيني ثم المقدرة الذاتية لكل فرد او كل فئة . وبما ان المساهمة في الثورة ممكنة على مستويات مختلفة وبدرجات مختلفة ، فقد قررنا قياس درجة مشاركة المرأة الفلسطينية من خلال المستويات التالية : أ) هل للمرأة دور في الثورة ام لا وما هو هذا الدور ، واسباب عدم وجود دور لها في الثورة . ب) موقف المرأة من انضمام رجالها (زوجها ، والدها ، ابنها ، اخوتها) او محـاولة انضمامهم للثورة .
ج) موقف المرأة من الثورة اي موقفها السياسي من القضية الفلسطينية .
الاسئلة التي سألناها حول دور المرأة في الثورة كانت : ١) هل تعتقدين : ان للمرأة دورا في الثورة/من الافضل بقاؤها في البيت . ٢) اذا كان في رأيك ان للمرأة دورا في الثورة، فما هو ذلك الدور : جمع الاموال والتبرعات / الاسعاف والتمريض / العمل السياسي والاعلامي / نقل سلاح ومؤن ورسائل / القتال مع الرجل في الميدان / كل هذه الادوار .
٣) على أي الاراء التالية توافقين : لدينا العدد اللازم من الرجال ولا حاجة لمشاركة المرأة بالقتال / على المرأة ان تقاتل تعبيرا عن شعورها القومي بغض النظر عن عدد الرجال المتوفر للمعركة / المرأة ضعيفة ولا يمكنها حمل السلاح والقتال مثل الرجل / لا جواب / لا أدري . ٤) شخصيا ، هل لك اي دور في الثورة حاليا ؟ نعم / كلا . واذا كان لك دور ما هو ؟ ٥) اذا لم يكن لك دور في الثورة ، هل يعود ذلك الى : انشغالك بالامور المنزلية وعدم توفر الوقت لديك / مسؤولية اطفالك او اولادك / لم يوافق اهلك على انضمامك للثورة / اود ان اشارك لكن لم تبد المنظمات اهتماما بي / ذهبت وعرضت المشاركة لكنهم لم يسندوا الي اي دور / لم افكر في الانضمام الى صفوف الثورة / سبب آخر ؟ اذكريه / لا جواب .
تحليل النتائج العامة : قالت ١٢٢ امرأة او ٩٧٫٦٪ مـن نساء العينـة ان للمـرأة الفلسطينية دورا في الثورة ، بينما قالت ثلاث نساء او ٢٫٤٪ انه من الافضل بقاء المرأة الفلسطينية في البيت. اما توزيع النساء حول تصورهن لدور المرأة في الثورة فكان كالآتي:

الدور	العدد	النسبة المئوية
جمع الاموال والتبرعات	١٧	١٣٫٦
الاسعاف والتمريض	١٨	١٤٫٤
العمل السياسي والاعلامي	٧	٥٫٦
نقل سلاح ومؤن ورسائل	٣	٢٫٤
القتال مع الرجل في الميدان	—	—
كل هذه الادوار	٧٧	٦١٫٦
المجموع	١٢٢	١٠٠٪

تعتقد ٧٧ امرأة او (٦٠٫٤١ ٪) من نساء العينة ان المرأة يمكن أن تلعب كل الادوار في الثورة ، اي كل الادوار التي يلعبها الرجل. وتحدد ١٧ امرأة او ١٣٫٦٪ من العينة دور المرأة بجمع الاموال والتبرعات ، بينما تحدد ١٨ امرأة او ١٤٫٤٪ هذا الدور بالاسعاف والتمريض . اذن فالغالبية الساحقة من نساء العينة يعتقدن ان للمرأة دورا في الثورة ، كما يعتقد ثلثا نساء العينة ان دور المرأة يجب ان يكون مساويا لدور الرجل. بينما يذهب

ثلث نساء العينة الى تمييز دور المراة عن دور الرجل وحصره بمهام معينة .
تظهر الاجابات عن السؤال الثالث ، الذي يشابه السؤال الثاني لكنــه صيغ بطريقة مختلفة ، ان نسبة اكبر من النساء تؤمن بأن على المرأة ان تقاتل الى جانب الرجل ، وهذا طبعا يشمل الادوار الاخرى لانها أسهل . كان توزيع الاجابات حول السؤال الثالث كما يلي :

الراي	العدد	النسبة المئوية
لا حاجة لمشاركة المراة بالقتال	٩	٧،٢
على المراة ان تقاتل	١٠٢	٨١،٦
المراة ضعيفة ولا يمكنها حمل السلاح	١١	٨،٨
لا جواب	٣	٢،٤
المجموع	١٢٥	١٠٠٪

دلت الاجابات حول ما اذا كانت المراة تلعب حاليا دورا في الثورة ام لا على ان ٨٢ امرأة او ٦٥،٦٪ من نساء العينة لا دور لهن اطلاقا في الثورة ، بينما قالت ٤٣ امــرأة او ٣٤،٤٪ ان لهن دورا في الثورة . وقد توزعت النساء اللواتي لهن دور كالآتي :

الدور الذي تلعبه	العدد	النسبة المئوية من العينة
دور اجتماعي او انساني	١٦	١٢،٨
دور سياسي تنظيمي	١٢	٩،٦
دور قتالي	—	—
ميليشيا	١٠	٨
جمع التبرعات	٩	٧،٢
دور اعلامي	٦	٤،٨
المجموع	٥٣	

(رغم ان عدد النساء ٤٣ فقد ظهر ان عدد الادوار ٥٣ ، وذلك لان نساء الميليشيا العشر لهن ادوار مزدوجة ، اذ يلعبن في الوقت نفسه دورا في التنظيم السياسي للثورة) .
السؤال الاساسي الذي يجب ان نطرحه الان هو : لماذا لم يكن في العينة سوى ٨٪ يلعبن دورا سياسيا تنظيميا وميليشيا ولم نجد امرأة واحدة تلعب دورا قتاليا رغم ان ٨١،٦٪ من نساء العينة يعتقدن ان على المرأة ان تقاتل مع الرجل في الميدان تعبيرا عن شعورها القومي بغض النظر عن عدد الرجال المتوفر للمعركة ؟ قد يبــدو للمراقب الغريب ان النساء غير مخلصات حول اعتقادهن بدور المرأة . لكن الواقع انهن صادقــات فــي اعتقادهن ، انما اعتقادهن هذا لم يتحول الى عمل . وهذه آفة الشعب العربي بشكل عام، وهو ما يصفه الدكتور هشام شرابي بالسلوك الكلامي*. وهذا السلوك لا يتجاوز الكلام لانه غير موجه نحو تنفيذ او اتمام مهمة ما . يبدو لنا ان كل امرأة مــن النساء اللواتي نادين بوجوب مشاركة المرأة بالقتال تعتقد ان المفروض بغيرها ان تقاتل لانها هي مرتبطة بأمور اخرى او لها « ظروفها الخاصة » . والسلوك الكلامي مسؤول عــن التناقض الذي ظهر بين اعتقاد المرأة وموقفها الفعلي . وافضل مثال عــلى ذلك قول احداهن « لقد عرض عليّ المشاركة لكن لم يوجــد لدي الوقت الكافي مع انه واجب الانضمام مهما كانت الظروف » . اما النساء اللواتي لم يشاركن في الثورة فقد اعطين الاسباب التالية لعدم مشاركتهن :

سبب عدم المشاركة في الثورة	العدد	النسبة
١) انشغال بالامور المنزلية وعدم توفر الوقت	١٨	٢١،٩

* محاضرة للدكتور هشام شرابي القيت في دار الفن والادب ونشرت في ملحق **النهار** بتاريخ ١٩٧١/٤/١٨ .

٢) مسؤولية الاطفال والاولاد	٢٤	٢٩
٣) لم يوافق اهلي على انضمامي	١٢	١٤،٦
٤) اود ان اشارك لكن لم تهتم المنظمات بي	٢	٢،٩
٥) عرضت المشاركة لكنهم لم يسندوا لي دورا	—	—
٦) لم افكر بالانضمام للثورة	١٢	١٤،٦
٧) سبب آخر	٦	٧،٣
٨) لا جواب	٨	٩،٧
المجموع	٨٢	٪١٠٠

تقول ٥١ ٪ من اللواتي ليس لهن دور في الثورة انهن لم يشاركن نظرا « لانشغالهن بالامور المنزلية ومسؤولية اطفالهن او أولادهن وعدم توفر الوقت لديهن » . أما ١٥ ٪ منهن تقريبا فقد قلن ان « اهلهن لم يوافقوا على انضمامهن للثورة » وهذا سبب معقول نظرا لسيطرة العائلة على المراة . اما ١٥ ٪ اخرى منهن فقد قلن صراحة انهن لم يفكرن في الانضمام الى صفوف الثورة ، ولم يحاولن تبرير عدم مشاركتهن بأية اعذار . وقد ألقت ٣ ٪ من النساء اللوم على المنظمات التي لم تبد اهتماما بهن . اما ٧،٣ ٪ فقد اعطين اسبابا متفرقة مثل « عدم توحيد المنظمات » ، « سني لا تسمح لي بالمشاركة »، « لانني اشتغل لاعيش » . ولم تعط ٩،٧ ٪ منهن سبب عدم مشاركتهن في الثورة . ان قبول اعذار هؤلاء النسوة او عدم قبولها مسألة قائمة بذاتها ، لكن الواقع يبقى انهن شخصيا خارج صفوف ثورة شعبهن .

من المعروف ان للمراة تأثيرا كبيرا على اولادها وزوجها ، والى حد ما على اخوتها . والمراة قد تلعب دورا حاسما في تشجيع رجالها على الانضمام للثورة او عرقلة انضمامهم . وقد سألنا ثلاثة اسئلة مباشرة حول موقف المراة من رجالها والثورة، وهي: ١) اذا قرر زوجك الانضمام للفدائيين كيف تتصرفين ؟ تبدين معارضة شديدة لقراره / تتركينه وتذهبي الى بيت اهلك / تكوني مترددة بين معارضته والسماح له بالانضمام / تشجعينه على الانضمام / تهددينه بالطلاق / لا ادري ماذا افعل / لا جواب . ٢) اذا قرر والدك او اخوتك او ابناؤك الانضمام الى الفدائيين ، كمقاتلين ، هل : تفعلين كل ما في وسعك لعرقلة انضمامهم / تقبلين بالامر رغم معارضتك له / ترحبين بانضمامهم وتباركينه / لا ادري ماذا افعل / لا جواب . ٣) اي من الامور التالية مقبولا لديك اكثر من غيره : اقبل ان يعمل اخي او ابي او ابني في المجال الاعلامي للثورة في التنظيم السياسي / في المليشيا / اقبل ان يصبح اخي أو ابني او ابي مقاتلا / لا اقبل أيا من هذه الامور / اقبل كل هذه الامور / لا جواب .

يقيس السؤالان الاول والثاني رد فعل المراة ازاء قرار اتخذه غيرها (ابنها ، زوجها الخ) لكن هذا القرار يمسها ويعنيها . وقد قالت ٦٩ امراة او ٥٥،٢ ٪ من العينة انهن يشجعن ازواجهن على الانضمام للفدائيين اذا قرروا الانضمام . وقالت ٥٧ امراة او ٤٥،٦ ٪ من العينة انهن يرحبن بانضمام اخوتهن او ابنائهن الى الفدائيين كمقاتلين اذا قرروا الانضمام . اما اعلى ثاني فئة بين النساء فهن المرتبكات اللواتي لا يدرين ما يفعلن اذا قرر رجالهن الانضمام للثورة كمقاتلين . وتبلغ هذه الفئة في حال قرار الزوج بالانضمام ١٦ امراة او ١٢،٨ ٪ ، وفي حال قرار الاخوة او الابناء ٣٤ امراة أو ٢٧،٢ ٪ . اما الفئة المعارضة تماما لهذه القرارات والتي تحاول عرقلتها فقد بلغت ٢٦ امراة او ٢٠،٨ ٪ في حال قرار الزوج ، و١٢ امراة او ٩،٦ ٪ في حال قرار الاخوة والابناء والاباء . وهناك فئة اخرى بلغت ١٢ امراة او ٩،٢ ٪ قالت انها في حال قرار اخوتها او ابنائها بالانضمام للثورة ستقبل بالامر رغم معارضتها له .

السؤال الثالث يقيس الامر الاكثر قبولا لدى المراة اي ما ترغب ان تراه . اظهرت الاجابات على هذا السؤال ان هناك ثلاث فئات رئيسية متساوية في العينة تبلغ كل

منها ٤٠ امرأة أو ٢٥٫٣ ٪ مـــن عدد الاجابات (١٥٨ اجابة) . الفئة الاولى تقبل ان يصبح رجالها مقاتلين في الثورة ، والفئة الثانية تقبل ان يعمل رجالها في المجال الاعلامي للثورة ، والفئة الثالثة تقبل ان يعمل رجالها في التنظيم السياسي للثورة .
وهناك فئتان متعادلتان عدد كل منهما ١٢ امرأة او ٧٫٥٪ من عدد الاجابات، الاولى تقبل كل مجالات العمل لرجالها ، والثانية تقبل ان يعمل رجالها في الميليشيا . واخيرا هناك فئتان عدد كل منهما ٦ نساء او ٣٫٧ ٪ ، الاولى لم تعط أي جواب على السؤال، والثانية لا تقبل ان يعمل رجالها في اي مجال من مجالات الثورة .
نستنتج من بحثنـــا حول موقف المرأة من رجالهـــا والثورة ، ان نصف النساء تقـــريبا يشجعن رجالهن على الانضمام للثورة كمقاتلين اذا قرروا الانضمام للثورة ، وان هناك نسبا تتراوح بين ١٢ ٪ و٢٧ ٪ مرتبكة ولا تدري ماذا تفعل في هذه الحالة . اما الفئة المعارضة تماما لقرار رجالها بالانضمام للثورة فتتراوح بين ١٠ ٪ و٢٠ ٪ . كما نستنتج ايضا ان الغالبية الساحقة من النساء (٧٦ ٪) يردن لرجالهن ادوارا قتالية وسياسية واعلامية في الثورة ، وان الفئة التي لا تريد اي دور لرجالها في الثورة لا تزيد على ٤ ٪ .
ان موقف النساء من رجالهن ، بشكل عام ، موقف ايجابي .
موقف المرأة السياسي من القضية الفلسطينية : موقف المرأة السياسي من قضية شعبها اساسي لان تصورها السياسي يحدد مواقفها الفعلية والعملية فيما يتعلق برجالها ودورها في الثورة ، ومساندتها للثورة . حول موقف المـــرأة السياسي من القضية الفلسطينية سألنا هذا السؤال : كيف تشعرين الان : ان قضيتنا يائسة وشبابنـــــا يموتون بـــلا نتيجة / من الافضل ايجاد حل سياسي (سلمي) للقضية / ان قضيتنا معقدة ولن ننتصر بدون تضحيات كبيرة وعلينا الاستمرار بالكفاح المسلح مهما كانت الظروف/لا جواب — لا أعرف. قالت ١١٣ امرأة(او ٩٠ ٪)من نساء العينة ان علينا الاستمرار بالكفاح المسلح مهما كانت الظروف . وقالت عشر نساء (او ٨ ٪) ان قضيتنا يائسة ومن الافضـــل ايجاد حل سلمي للقضية . ولم تعط امرأتان جوابا على السؤال . تظهر هـــذه النتائج ان الغالبية الساحقة من نساء العينة يتخذن موقفا واضحا وجازمـــا مـــن قضيتهن وان تصورهن لابعاد تلك القضية سليم وان لديهن نفسا نضاليا ، وانهن لا يرضين بالحلول الاستسلامية والسلمية والتصفوية .
وضع المرأة الفلسطينية العام من حيث مشاركتها بالثورة : يمكننا التوصل الى تحديد هذا الوضع من خلال مواقف المرأة الثلاثة التي بحثناها سابقا . موقف نساء العينـــة العام موقف ايجابي من المشاركة في الثورة ويكاد يصبح موقفا متعارفا تماما مع الثورة لو قرن القول بالعمل الجدي ولو اضطلعت معظم النساء بمهام مباشرة في الثورة . نقول هذا بناء على النتائج التالية :
٩٧٫٦ ٪ من نساء العينة يقلن ان للمرأة دورا في الثورة وتقول ٨١٫٦ ٪ منهن ان على المرأة ان تقاتل في صفوف الثورة بينما تقول ٦٠٫١ ٪ منهن ان على المـــرأة ان تقوم بكل المهام التي يقوم بها الرجال في الثورة . وتؤمن الغالبية الساحقة من النساء (٩٠ ٪) بضرورة متابعة الكفاح المسلح لتحرير فلسطين مهما كانت الظروف . واخيرا يوافـــق ٥٣ ٪ من نساء العينة على انضمام رجالهن الى الفدائيين كمقاتلين ، ويتخذ ٢٧ ٪ منهن موقفا مترددا من انضمام رجالهن للثورة بينما يعارض مـــا بين ١٢ ٪ و٢٠ ٪ منهـــن انضمام رجالهن للثورة . غير اننا حين ننتقل الى ادوار النساء في الثورة نجد ان ٦٥٫٦ ٪ من نساء العينة لا دور لهن في الثورة، فلو استثنينا الخمس والعشرين امرأة (او ٢٠ ٪) من فئة السن خمسين سنة وما فوق وبعض النساء من فئة ٤٠ — ٥٠ سنة لبقي لدينا ٤٠ ٪ تقريبا من نساء العينة لا يشاركن في الثورة رغم ان الفرصة قد اتيحت لهن كمـــا اتيحت لكل فرد فلسطيني آخر . كذلك اذا انتقلنا الى نوعية مشاركة نساء العينة في الثورة لوجدنا ان لعشرين في المئة منهن فقط ادوارا مباشرة في الثورة اي في المجالات

العسكرية والسياسية التنظيمية والاعلامية . اما بقية نساء العينة اللواتي يشاركن في الثورة فتقتصر مشاركتهن على نشاطات انسب لجمعيات خيرية منها لثورة . طبعا هذا لا يجعلنا نتناسى دور النساء الفلسطينيات اللواتي قاتلن في غزة وعمان والضفة الغربية واللواتي خطفن طائرات والقين قنابل واعتقلن وعذبن وشاركن في كل المهام الثورية . غير ان الثورة ، من جهة اخرى ، اذا كانت حرب تحرير شعبية او وطنية لا تعتمد على البطولات الفردية والمشاركة الفورية والعفوية بل على المشاركة المنظمة والدؤوبة لالاف من النساء في كل المهمات الثورية . المراة الفلسطينية طاقة لم تدخل صفوف الثورة بشكل قوي بعد ، وهذا عامل اضعاف للثورة .

العوامل الثابتة التي تؤثر على المشاركة في الثورة :

السن والمشاركة في الثورة : ان للسن علاقة متينة بالمشاركة (انظر الجدول أدناه) .

	السن				
درجة المشاركة	٥٠ واكثر	٤٠ — ٤٩	٣٠ — ٣٩	٢٠ — ٢٩	١٦ — ١٩
مشاركة تامة	٢	٢	٢	٤	١١
مشاركة محدودة او بسيطة	٤	١١	١٠	١٤	٦
عدم المشاركة بتاتا	١٩	١٢	١٣	٧	٨
المجموع	٢٥	٢٥	٢٥	٢٥	٢٥

يتضح من هذا الجدول ان فئتي السن ١٦ — ١٩ و٢٠ — ٢٩ تضمان عددا اكبر من اللواتي يشاركن مشاركة تامة وفعالة في الثورة مما تضمه الفئات الثلاث الاخرى مجتمعة . كما ان الفئات الثلاث الكبيرة في السن تضم ٤٤ امرأة لم يشاركن في الثورة بتاتا مقابل ١٥ امراة للفئتين الصغيرتين ، اي بنسبة ثلاثة اضعاف تقريبا . نستنتج من ذلك انه كلما ازدادت سن النساء كلما ازدادت نسبة اللواتي لا يشاركن في الثورة بينهن، وان الصغيرات في السن يشاركن مشاركة فعالة ومحددة أكثر من الكبيرات في السن .

الحالة الزوجية والثورية : الحالة الزوجية احد العوامل التي تؤثر تأثيرا ملموسا على مشاركة المرأة في الثورة وخاصة على الدرجات القصوى من المشاركة . فان نسبة من يشاركن مشاركة تامة بين العازبات تفوق بأكثر من ضعفي نسبتهن بين المتزوجات (١٦ ٪ مقابل ٦،٤ ٪) ، وفي المقابل فان نسبة اللواتي لا يشاركن بتاتا بين المتزوجات تفوق بثلاثة اضعاف نسبتهن بين العازبات (١٩،٢ ٪ مقابل ٤،٨ ٪) .

العمل والمشاركة : يؤثر العمل على المشاركة ويلعب دورا شبيها بدور الحالة الزوجية، اذ انه يؤثر على الدرجات القصوى منها . فنسبة اللواتي يشاركن تماما بين النساء اللواتي يعملن تبلغ اربعة اضعاف نسبتهن بين النساء اللواتي لا يعملن (٩،٦ ٪ مقابل ٢،١ ٪) . كذلك ان نسبة النساء اللواتي لا يشاركن بتاتا بين اللواتي لا يعملن تزيد على ضعفي نسبتهن بين اللواتي يعملن ١٦ ٪ مقابل ٦،٤ ٪ . ويمكن تفسير هذا بتعرض المراة العاملة لتيارات فكرية لا تتعرض لها المراة التي لا تعمل كما يمكن ربطه بالحالة الزوجية لان معظم العاملات عازبات ، بينما معظم اللواتي لا يعملن ربات بيوت . كما يظهر الجدول ايضا ان نسبة اللواتي يشاركن تماما او مشاركة محدودة بين الطالبات تفوق بأربعة اضعاف نسبة اللواتى لا يشاركن بتاتا بينهن (١٢ ٪ مقابل ٣،٢ ٪) .

التعليم والمشاركة : لا يلعب التعليم اي دور في وضع المراة من حيث مشاركتها في الثورة، بكلام اخر ليست هناك اية علاقة بين التعليم والمشاركة في حال المراة الفلسطينية ، فقد أظهر بحثنا ان النساء من مستويات تعليم مختلفة موزعات بشكل متساو تقريبا على درجات المشاركة وعدمها : مثلا بين اللواتي يشاركن تماما هناك ٤ نساء اميات و٥ حصلن دراسة ابتدائية و٦ حصلن دراسة ثانوية و٥ حصلن دراسة جامعية . كذلك نجد نسبا متقاربة جدا لدرجات المشاركة وعدمها بين الجامعيات والاميات واللواتي

تلقين دراسة ثانوية .

مكان الاقامة والمشاركة :

درجات المشاركة	مكان الاقامة: مخيم العدد	مخيم النسبة	خارج المخيم العدد	خارج المخيم النسبة
مشاركة تامة	١٥	١٢٪	٥	٤ ٪
مشاركة محدودة او بسيطة	٢٠	١٦٪	٢٦	٢٠،٨٪
عدم مشاركة بتاتا	١٢	٩،٦ ٪	٤٧	٣٧،٦٪

يظهر الجدول اعلاه ان مكان الاقامة يؤثر تأثيرا كبيرا على مشاركة المراة في الثورة ، وان له علاقة مباشرة بالمشاركة . فقد ظهر ان نسبة اللواتي يشاركن تماما بين اللواتي يسكن المخيم تبلغ ثلاثة اضعاف نسبتهن بين اللواتي يسكن خارج المخيم (١٢ ٪ مقابل ٤ ٪)، وان نسبة اللواتي لا يشاركن بتاتا بين اللواتي يسكن المخيم تبلغ ربع نسبتهن تقريبا بين اللواتي يسكن خارج المخيم (٩،٦ ٪ مقابل ٣٧،٦ ٪) . وتتفوق اللواتي تسكن خارج المخيم على اللواتي يسكن في المخيم بنسبة المشاركة المحدودة او البسيطة فقط (٢٠،٨٪ مقابل ١٦ ٪) .

المدخول والمشاركة : لم نتمكن من وضع جدول للمدخول والمشاركة نظرا لقلة عدد المجيبات على هذا السؤال وكثرة فئات الدخل مما يجعل العدد في خانات الدخل والمشاركة صغيرا . لكن الصورة العامة للدخل والمشاركة تظهر أن هناك علاقة مباشرة بين الاثنين . فان معظم اللواتي يشاركن مشاركة تامة من ذوات الدخل الذي يقل عن ٦٠٠ ليرة شهريا للعائلة . لا نستطيع اعتبار هذه الصورة المشوهة دليلا علميا انما ذكرناها في سبيل دراستها في ابحاث اخرى .

العلاقة بين التقليدية والمشاركة في الثورة : بعد محاولة الربط بين التقليدية او التحرر والمشاركة او عدمها توصلنا الى نتائج (انظر الجدول ادناه) تظهر بشكل قاطع انه في حالة المراة الفلسطينية لا علاقة بتاتا بين التقليدية والمشاركة وان كون المراة تقليدية او محدثة لا علاقة له بكونها تشارك او لا تشارك في ثورة شعبها . واعتقد ان هذا الامر صحيح بالنسبة لحروب التحرير الشعبية ، لكنه لا ينطبق على الثورات التي يقوم مضمونها الاجتماعي على الصراع الطبقي ، اي ثورة طبقة على استغلالها اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا من قبل طبقات اخرى .

جدول التقليدية والمشاركة

	العدد
١) تقليدية او تقليدية تماما + مشاركة محدودة او تامة	٤٢
٢) متحررة او متحررة تماما + مشاركة محدودة او تامة	٣٤
٣) تقليدية او تقليدية تماما + عدم مشاركة بتاتا	٢٦
٤) متحررة أو متحررة تماما + عدم مشاركة بتاتا	٢٣

خاتمة : معظم نساء العينة تقليديات في اوضاعهن الاجتماعية لكن هناك فئة صغيرة منهن غير راضية عن ذلك وتحاول تغيير وضعها ، وهناك فئة اخرى ترغب في التغيير لكنها لا تقدم عليه خوفا من اهلها ومن كلام الناس . اما من ناحية مشاركتهن في الثورة الفلسطينية فان درجة مشاركة معظمهن بسيطة وجزئية ولا تعتبر في صميم المهام الثورية ، غير ان موقفهن السياسي من الثورة ومن انضمام رجالهن لها موقف ايجابي . وهذا لا ينكر دور الطليعة النسائية التي تشارك في الثورة مشاركة فعالة على كل المستويات . اخيرا ، ربما بسبب اوضاع الفلسطينيين وطبيعة قضيتهم ، لم يثبت وجود اية علاقة بين التقليدية او الحداثة والمشاركة في الثورة .

الفلسطيني الصغير :
دراسة في رسوم اطفال النازحين الفلسطينيين

هاني حوراني

مـدخل

منذ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨ ، عندما بدأنا بجمع رسوم الاطفال في مخيم البقعة(١)، وخلال ثلاثة أشهر من عمليات الجمع والفرز والتصنيف ، كنت قد سجلت مجموعة كبيرة من الملاحظات الشخصية حول التجربة ، وضعتها من باب الفضول الفني والعلمي ، ولم يكن في تقديري انها ستشكل المسودة الاولى لهذه الدراسة ، اذ لم يتوفر لدي بعد اول عرض لهذه الرسوم في مخيم البقعة اية فرصة لتتبع رحلات هذه الرسوم الى عدد كبير من العواصم العربية والاجنبية(٢)، وكنت اتمنى أن تتوافر لهذه الرسوم خلال عرضها في أماكن متفرقة فرص اوسع للتحليل والدرس تساعد على فهم التجربة وتضعها في اطارها الاجتماعي والتاريخي . وقد أسهمت المحاولة التي قام بها صادق جلال العظم في تعريف هذه الرسوم الى عدد كبير من المهتمين ، غير انها بقيت في حدود الغرض التي وضعت من اجله . ولم تتحقق اية دراسة ذات طموح علمي لاستشفاف ابعاد هذه الرسوم ، التي انتجت في ظرف تاريخي هام وتحت وطأة حرارة الهزيمة وطراوتها في اذهان الاطفال الفلسطينيين . ورغم الاحتفاء والدعاية الواسعة التي أحاطت هذه الرسوم من قبل الصحافة والمنظمات العربية والعالمية والمقاومة الفلسطينية(٣)، والتي تميزت بطابع سياسي صارخ هي جديرة به ، غير انها بقيت ، اي رسوم الاطفال ، مغطاة ومعالجة من جانب واحد ، وهو الجانب السياسي ، وهو أمر يفقد هذه الرسوم في غياب جهد علمي يتناول الجوانب الاجتماعية والنفسية والفنية والجمالية ميزتها الاساسية ، البراءة والعفوية عندما لا يرى من هذه الرسوم الا وجهها الاعلامي — السياسي .

وقد اضطرني ذلك الى القيام بما ظننت انه ليس من مهماتي ، فبعد ان اسهمت بدوري في جمع هذه الرسوم وانتقائها وعرضها ، وجدت نفسي مدفوعا الى العودة الى ملاحظاتي الاولية عن التجربة ، وادخل الى عالم اطفال البقعة كناقد ودارس ، بعد أن دخلت عالمهم كواحد يعابث الالوان والمساحات ويعيش مشاكل الخلق الفني ويسقط معهم في الهموم التي تنتاب كل من يقف امام مساحة بيضاء . وربما بت أقل حرجا ، اذ وفرت لي ظروف المعايشة فرص تمثل الجوانب الموضوعية والجمالية في رسوم الاطفال ، وربما كان من الصعب على الاخرين أن يدرك اية حيوية تلك التي تتدفق بهم ، بل واية جرأة تحملها اصابعهم وهي تقذف في وجوهنا بأشد الاشياء ايلاما وقسوة . وارجو ان تكون محاولتي هذه ، لتحليل رسوم الاطفال وتقييمها ضمن واقعهم الاجتماعي والانساني ، قد أصابت شيئا من النجاح ، وهذا مرهون بمدى قدرتي على اكساب هذه الرسوم ، كشكل من اشكال التعبير ، يمارسه الاطفال في كل مكان من هذا العالم ، بفهم افضل . اذ بدا واضحا ان هناك العديد من المعايير التي ينظر بها الى هذه الرسوم . وهناك الكثير من المفاهيم الاجتماعية والسياسية والنقدية التي حكمت كل من اتصل بهذه الرسوم ، فهي تقحم على اكثر من مختبر واكثر من منهج ، واحيانا تعامل وتتناول كأعمال فنية ناضجة(٤).

ومن ثم ، وجدت نفسي مضطرا للتنويه بأن هناك حاجة كبرى لان تفهم هذه الرسوم على حالها ، فهي بكل ما تحمل من تعابير تذمر ونزق طفولي ، من

الغنيات وأناشيد ، من عناد وسخرية ، من حزن وحلم ، من اخطاء وهفوات ، من فرح وموسيقى ، لقادرة على أن تعكس معاناة أدفأ، واحيانا اعمق، من همومنا الكبيرة . فقصاصات الورق الملونة ، المبقعة بالزيت ، تبعث فينا دهشة الاكتشاف وروعته وألمه . تكثف امامنا رؤية الاشياء وأحيانا تصححها. ألسنا ندهش لكلمة عابرة ينطق بها لسان طفل ، تختزل ألف معنى ومعنى . فاذن هذه الرسوم أشبه ما تكون بالكلمات اللثغاء العبقرية كثفت الكثير مما تود ان تقوله وبحماسة شديدة . بعيدا — ولو لقليل من الزمن — عن اشكال القهر والتكبيت التي تكاد أن تكون زادهم اليومي . وصاغت لنا هذه الملحمة الثرية الملونة .

واخيرا ، فان هذه الدراسة محاولة لجعل اصوات الطفولة النازحة قادرة على ان تأخذ مداها ، وان تعطى حقها ، ومحاولة لتمرير اوراق الطفولة ، بألوانها وخطوطها ، من فوق الكلمات الكابتة والاحكام والقيود والنظرات الميتة التي تحاول اسكات صوتها المعافى والصحيح وقتل ابداعاتها . فان نجحت في ذلك ، فان ذلك يعني ان اطفال البقعة ، عندما حاولوا ان يقولوا (حقائقهم الصغيرة) دون ان تموت في افواههم او على رؤوس انامله ، فقد كسبوا شوطا في نضالهم من اجل السيطرة على تشويهات الحياة الماثلة وبشاعتها .

(1)

يقول ويلهلم فيولا في معرض حديثه عن بداية الاهتمام برسوم الاطفال « ... ان اكتشاف فن الاطفال ، هو نتيجة لاكتشاف الطفل كانسان ، له شخصيته الخاصة وقوانينه الخاصة ... »(٥). وثمة اشارات تدلل على خلفية هذا « الاكتشاف »، فمنذ منتصف القرن الماضي ، كان ممكنا ان يردد هربرت سبنسر في كتابه عن التربية (١٨٥٤ — ١٨٥٩) : « ان الاعتراف السائد حول الرسم ، كأداة او عنصر تربوي ، لهو دلالة من بين دلالات كثيرة عن النظرة العقلية حول الثقافة الفكرية التي بدأت تنتشر الان » . « ... ما هو الشيء الذي يحاول الطفل ان يصوره اولا — يستطرد سبنسر قائلا — الاشياء الكبيرة ، الاشياء ذات الالوان الجذابة ، الاشياء التي تحوم حولها دلالات مسرة ... » . « أي طرق التقديم ، التشخيص، تعطي بهجة أكثر؟ التلوين» .«ليس السؤال فيما اذا كان الطفل ينتج رسوما جيدة، انما السؤال يكمن في هل يطور الطفل قواه أ... » . « في سني الطفولة الاولى ليس بالامكان اعطاء دروس رسم رسمية ، هل ، اذن ، علينا ان نكبت ، او نهمل هذه المحاولات الطفولية لتثقيف النفس ، ام هل نشجع ونوجه هذه المحاولات ، كتمارين طبيعية للادراك وقوة التوجيه ! » « يجب ان يحصل التالي : عندما يصل الطفل الى سن دروس الرسم ، سوف تظهر قدرة كانت غير موجودة . يستنتج من هذا اننا ضمنيا نشجب التمرين من نماذج . واكثر من ذلك نشجب الانضباطية الرسمية في تعليم رسم الخطوط المستقيمة ، والخطوط المنحنية وكذلك المركبة ، هذه القواعد التي يبدأ بها بعض الاساتذة... »(٦). ولا أظن ان ثمة حاجة للتذكير ، بأن هذه القواعد في تعليم الرسم للاطفال ، والتي يشجبها هربرت سبنسر منذ اكثر من قرن ، ما تزال متبعة في مدارسنا . غير ان ملاحظات سبنسر هذه ، والتي كانت متقدمة قياسا لعصره ، تلتها ، بعد نحو ثلاثة عقود ، محاضرة لابينزر كوك بعنوان « طرق تعليمنا الفن وطبيعة الطفل » كانت قد ألقيت امام الجمعية التربوية ثم نشرت في مجلة التربية عام ١٨٨٥ — ١٨٨٦(٧) وقد عرفت هذه المحاضرة ، بين غالبية الدارسين لفن الاطفال ، بمثابة البداية الرسمية للاهتمام برسوم الاطفال وتحليلها ، اذ ضمنها ملاحظاته واستنتاجاته حول مراحل نمو الاطفال من خلال رسومهم ، كما دعا الى فهم تربوي جديد في تعليم الاطفال يأخذ بعين الاعتبار مراحل نمو الطفل العقلية والذوقية(٨).

وبعد فترة وجيزة (١٨٨٧) صدر كتابان ، وعلى وجه الدقة تقرير وكتاب ، الاول وضعه كورادو ريتشي حول رسوم الاطفال الايطاليين ، وثمة اعتقاد ان اصطلاح « فن الاطفال » قد استعمل لاول مرة في هذا التقرير(٩)، كما يظن ان مجموعة رسوم الاطفال التي جمعها ريتشي قد تكون اول مجموعة نشر عنها بيان . اما الكتاب الثاني الذي صدر بنفس السنة ، فهو للالماني الفرد ليختفارك وتضمن « ان الطفل في تصويره للاشياء يبسطها ، حسب قوانين صالحة لكل الازمان وكل الشعوب ، ونحن تعرفنا على العلاقة ما بين محاولات الطفل الاولى ومحاولات الانسان البدائي »(١٠). و في عام ١٨٩٥ ردد جيمس سللي في كتابه « دراسات في الطفولة » « فن الاطفال ، شيء قائم بذاته » « الفنان الصغير هو رمزي اكثر منه طبيعي »(١١). ومنذ ١٨٩٧ وعلى

مدى اربعين سنة استمرت جهود فرانز كيزك في ملاحظة رسوم الاطفال في المدرسة التي حارب طويلا طويلا من اجل انشائها ، واستطاع الكشف عن القوانين التي يستخدمها الاطفال في خلقهم . وبهذا الصدد يقول هربرت ريد الذي كان من ضمن المسهمين الفعالين في كشف قوانين وملامح رسوم الاطفال وآثارها التربوية : « ... كان كيزك اول من اظهر الفوائد الجمالية والنفسية في اطلاق المجال امام النوازع الخلاقة المتمثلة في الاطفال . فقد كان هو الرجل الذي اخذ على عاتقه المهمة الصعبة : أن يبرىء القيم الجمالية للرسوم التي ينتجها الاطفال، فخلال فترة الاربعين سنة هذه ، نهض تذوق للفن البدائي ، وساعدت التطورات الثورية في الفن الحديث على تقريب فن الاطفال للمدى العام من الذوق الجمالي »(١٢).

وقبل نهاية القرن الماضي ، كان فن الاطفال ، موضوع العديد من الدراسات من جوانب متعددة(١٣)، لم تلبث ان بعثت حركة اهتمام واسعة أدت في اعتاب القرن الحالي ، الى « اكتشاف » فن الاطفال ، فوضعت حوله العديد من الدراسات والابحاث والتقارير ، تناولت أنتاج الاطفال من جوانبه السيكلوجية والفنية والاجتماعية والتربوية وغيرها .

ولئن طبعت معالجات النصف الاخير من القرن الماضي ، الوصفية والتقريرية لاعتمادها بوجه خاص على الملاحظة الشخصية ، فان ابرز ما يميز جهود الباحثين منذ مطلع القرن العشرين ، اعتمادها على مناهج جديدة في البحث والدراسة ، تأخذ بالتجريب العلمي والمقارنة ، والربط بين عدة معاملات ، والخروج من اطار العموميات الى التخصيص والتخصص بجوانب محددة من رسوم الاطفال ، والبحث المتقن . كما هو الحال على سبيل المثال مع لامبرخت الذي جمع آلاف الرسوم للاطفال من مختلف الجنسيات ، خضعت لشروط متقنة ، كذلك كلاباريد الذي تميز عن سابقه باهتمامه بالعلاقة بين الرسم والقدرة العقلية العامة خلال مراحل النمو المختلفة ، ايفانوف الذي ربط بين ثلاثة معايير فنية (الاحساس بالنسب ، الادراك الخيالي ، المهارة الفنية) بالاستعداد العام عند الطفل وبجوانب اجتماعية واخلاقية اخرى ، كاتزاروف الذي انصرف الى موضوعات رسوم الاطفال ، شتاين الذي جعل الانسان موضوعا للمقارنة بين رسوم الاطفال من كل الاعمار لكي يتوصل الى « مستوى مميز لكل سن » كرشنشتينر الذي أمضى عامين في جمع ودراسة مجموعة ضخمة من الرسوم ، وضعت في ظروف متقنة لكي يستنتج تقسيمات رئيسية وثانوية لهذه الرسوم ، جورج روما الذي قام بعدة تجارب هامة ، يعد كل منها فتحا هاما في مجالها، كدراسته المقارنة بين الاطفال المتأخرين والعاديين، ودراساته الاخرى على مجموعات صغيرة من الاطفال ، وقد جمعت تجاربه في ما يوصف بانه « اقيم واكبر بحث فردي » في رسوم الاطفال ، دون ان ننسى جهود فرانز كيزك التي استمرت حتى عام ١٩٣٨ ، في الاشراف على مدرسة خاصة كان برنامجها « ان نترك الاطفال ينمون ، ويتطورون ، وينضجون » حيث لاحظ الاف الاطفال تراوحت اعمارهم من ٤ — ١٤ سنة ، وأدت نتائجه العملية والنظرية الى انقلاب تربوي في طرق تعليم الفن للاطفال(١٤).

ولا ريب ان هذه السلسلة الطويلة من التجارب والابحاث ، والتي تمتد في يومنا هذا الى انحاء العالم بأسره ، قد حققت قفزات نوعية هامة في ميدان تحليل رسوم الاطفال من جوانب متعددة ، لا سيما بعد ان كشفت هذه الرسوم عن قيمة تشخيصية بالغة الاهمية . فهي لغة الاطفال قبل ان تصبح لهم لغة ، وهي التي لا تعرف — حتى سن معين — الحدود والقوميات والثقافات ، فهي على سبيل المجاز ، طريقنا الى عالم الاطفال ، كما كانت رسوم الانسان البدائي في الكهوف طريقنا الى معرفته في عصوره السحيقة ، فهي لغته قبل ان يعرف اللغة المنطوقة والمكتوبة(١٥).

ولئن وجدنا ان العديد من الدراسات التي تعنى برسوم الاطفال ، تنصرف في تحليلها الى اساليب ومناهج متنوعة التخصص ، فلأن طبيعة هذه الرسوم التشخيصية تتيح لنا بأن نرى فيها سجلا متعدد الجوانب لحياة الطفل الاجتماعية والنفسية والجمالية والثقافية ، ولتجاربه وقدراته ، فتتعدد على وجه العموم الاهتمامات والدراسات تبعا لذلك . اذ تنصرف كل منها الى جانب من جوانب هذه الرسوم ، مستخدمة في ذلك نهجا في البحث يلبي اهداف واغراض الباحث ، ويستجيب لنظرته الخاصة في رسوم الاطفال . هكذا وجدنا العديد من التجارب والدراسات قد قامت لاسباب تربوية كتعديل مناهج الرسم في مؤسسات التعليم . كذلك وجدنا من اهتم بدراسة رسوم الاطفال لاسباب

علمية متنوعة ، كالمقارنة ما بين رسوم الاطفال المتأخرين والاطفال العاديين ، او لدراسة رسوم الاطفال المصابين بأمراض عقلية او نفسية ، او مضطربين نفسيا ، او استخدام رسوم الاطفال كأداة في ميدان علم النفس المخبري (الاكلينكي) ، لقياس ذكاء الاطفال ، او للمقارنة ما بين رسوم الاطفال من مجتمعات متقدمة واخرى من مجتمعات متخلفة. كذلك درست العلاقة ما بين الرسوم واللغة عند الاطفال . واهتم بعض الباحثين بدراسة رسوم الاطفال من جوانب جمالية وفنية كالتميز ما بين رسوم الموهوبين والمقلدين او الاهتمام بالفروق بين رسوم الاطفال ، الذكور والاناث . ومن جهة اخرى يمكن التمييز بين الجهود العلمية التي انصبت في نطاق بحث ودراسة رسوم الاطفال من خلال اعتبارات مختلفة اخرى ، كاعتماد بعض هذه الجهود على متابعة دراسة طفل واحد ، او الاهتمام على وجه التخصيص بموضوعات رسوم الاطفال، او اعتبار رسم الجسم الانساني موضوعا لدراسة النمو العام عند الطفل .

مهما يكن طابع هذه التجارب واهتماماتها ، ومهما كانت المناهج واساليب البحث التي استخدمها هؤلاء الدارسون متنوعة ومتباينة ، فانها قد كشفت في مجملها عن حقيقة اساسية وهي ان للاطفال فنا خاصا بهم ، فنا متميزا بقواعد وقوانين وانماط شكلية تعطي رسومهم هذه اللغة الخاصة . كما دللت هذه التجارب والدراسات ، عن امكانات واسعة لاستقراء هذه الرسوم من عدة جوانب ، فهي تتضمن طبيعة جمالية خاصة ، وتكشف عن جوانب ذاتية من شخصية الطفل ، وتبين مدى التأثير الثقافي والاجتماعي السائد وتعكس هذه الرسوم في مجموعها ، انفعالات ومواقف الاطفال ضمن مناخ اجتماعي معين . كذلك تكتسب رسوم الاطفال ، اذا اخذت كل منها على حدة ، وفي ظروف مقننة اهمية خاصة ، من حيث كونها تعبر عن حالة الطفل الذهنية والنفسية والجسمية(١٦).

(٢)

لماذا كانت هذه التجربة ؟ ما هو الهدف الكامن وراءها ؟ واين تقع تجربتنا هذه ، من الارث الواسع الذي كرسته التجارب والابحاث والاهتمامات العالمية منذ العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر وحتى الان ؟ لنقرر منذ البدء ، ان تجربتنا مع اطفال مخيم « البقعة » ، لم تكن اكثر من عملية استكشاف مبهمة ، انطلقت من افتراض عام :

اذا كان الاطفال يستخدمون لغة واحدة ويعبرون بأساليب متشابهة في رسومهم يخلفونها عادة في دفاترهم ، او على الجدران ، او على الارض ، فان هذه التخطيطات والرموز والاشكال تتمايز فيما بينها على مستويين اساسيين : الاول : هو ان كل طفل يتسم بفرديته الخاصة ، في ظروف نمو طبيعي (اي ان الطفل ليس مصابا بمرض جسماني او نفسي) ، تفصح عن نفسها من خلال هذه الرسوم ، كاشفة عن رؤياه للاشياء ، والحياة ، والتجربة . متضمنة شخصيته ومواقفه الوجدانية والذهنية مما حوله . الثاني : ان مجموع الاطفال، في وسط اجتماعي محدد ، بشروط اقتصادية ، وثقافية واجتماعية معينة ، تحكمهم تجارب حياتية وانفعالات ومؤثرات ذات طبيعة عامة مشتركة ، لا يلبث ان تتشكل تعابيرهم ورسومهم من خلال معايشتهم للواقع القائم ، وتكتسب طابعا جماعيا، وتعطي فردية الطفل بعدها الاجتماعي وتطبع رسومه برموز البيئة والثقافة والحياة الاجتماعية ، وتعكس ، هذا الواقع ، بلغة الخيال والحلم ، حيث يعاد تركيب هذا الواقع ، او يختصر ، او يضخم ، او يرفض ، او يزاوج ما بين الحالة ورفض الطفل له . ومن ثم ، فان اي محاولة لاستكشاف رؤيا اطفال المخيمات عشية الحرب من خلال رسومهم ، لا بد ان تكشف بصورة حية ، ونموذجية، عن معاناة الاطفال لواقعهم كما عاشوه، والذي ما زال يردد أصداءه في وجدانهم وذاكرتهم. وكان ان بدأت المحاولة، من خلال مخيم البقعة، الذي أقيم على أثر الحرب، نظرا للتجربة الانسانية الخاصة التي عاشها سكان المخيم ، فقد خضعوا للاضطهاد والتشرد اكثر من مرة، كما عانت غالبيتهم من اوضاع معيشية واجتماعية وثقافية غاية في البؤس . لذلك كان اللجوء الى اطفال هذا المخيم يعني استشفاف ابعاد كافة هذه المعطيات على ضوء معاناتهم لها . لقد حكمنا هذا التصور العام : لا بد ان نجد في رسوم اطفال المخيم ، ما هو مميز ومختلف عن رسوم الاطفال الاخرين في كثير من بقاع عالمنا (أي مختلف ومميز بسبب معاناته لتجربة خاصة) ، بل عن رسوم اطفال آخرين في عمان نفسها .

لئن كان هذا التصور ، مبهما ، غير محدد بحيثيات وتفاصيل ، فلأن اكثر ما يمكن افتراضه في طابع

رسوم الاطفال هو نزوعه الانفعالي الحاد ، بحكم واقع النزوح ، والمناخ الاجتماعي الجديد ، والتوتر السياسي والعسكري . مع ذلك فقد تكللت التجربة باكتشاف « المميـز والمختلف » في رسوم اطفال المخيمات . وقد احتاجت التجربة الى ثلاثة اشهر تقريبا من العمل اليومي ، لكي تكتمل ملامح صورة « عالم اطفال المخيمات » التـي قدمت بألـوان اصحابها لاول مرة في أواخر تشرين الثاني ١٩٦٨ .

(٣)

لقد وجدنا مـن العرض السابق ، ان عرض هذه الرسوم ، شأنها شأن اية رسوم أخرى للاطفال ، يجعلها معرضة للنظر بطرق مختلفة وعبر معايير متباينة ، فرسـوم اطفال النقمة ، ستجد نفسها امام عدة اشكال من الرؤية ، كثيرون سيعتبرونها وثائق ومستمسكات الادانة ضد القهر والعسف ، آخرون سيرون فيها تسجيلا واقعيا حيا ، او مضاهاة فذة للطبيعة . سيحلو لبعض الدارسين ان يدخلوا هذه الرسوم على مختبراتهم ، ليبحثوا في سيكلوجية أطفال المخيم ، او يروا فيها أداة لنظرة اجتماعية دارسة . لا أحـد يمنع كل مـن يرغب في بحث موضوعات تمس طبيعة هذه الرسوم من قريب او بعيد ، كالذوق العام ، الثقافة ، اللون ، البيئة ، الازياء . من جهة اخرى ، سيثار موضوع هذه الرسوم بصور مختلفة : فقد يرغب البعض أن يعتبر رسوم الاطفال مسألة عاطفية محضة ، نقاد او فنانون قد لا يرون فيها سوى مساحات الالوان ، والمعالجة التشكيليـة والعديد مـن التخطيطـات الجريئة ، اصحاب الميول الزخرفية سوف يظهرون اعجابهم ببعض الصور المتقنة ، كتاب الصحافة وذوو الاهتمام بالاعلام سوف يرون في رسوم الاطفال وجها دعاويا وانسانيا بذات الوقت . الكثيرون تستهويهم دراسة مسائـل الدين ، العـادات الاجتماعية والثقافية وسيتساءلون عن مكمنها في هذه الرسوم .

مرة أخرى ، سننظر الى هذه الرسوم ، ونحـن مثقلون بالاحكام المسبقة ، والتصورات ، والترسبات الذوقية والثقافية ، سننظر اليها ونحن نمعن في اقحام منطقنا وذكائنا على رسومهم . ننظر — دون أن نقصد أحيانا — فنرى رسومهم ، وكأنها رسوم للكبار ، او كأنها خاضعة لنفس القوانين ، ولنفس الجماليات ، ولنفس المعالجة . من أجل ذلك ، لا بد أن نعرف كيف يرسم الطفل ، حتى نستطيع أن ندرك ماذا يريد الطفل من هذه الرسوم ، وكيف ينبغي أن ننظر اليها .

عند الطفل ، لا تشكل عملية الرسم اكثر من وسيلة مناسبة للتعبير عما ينتابه ، انفعال معين ، معنى ، مثير خارجي ، او حركة ميكانيكية(١٧).

في البداية ، يكون هم الطفل اكتشاف المادة التي بين يديه ، فيحاول ان يجد لنفسه مكانا ، داخل المساحة الفارغة ، الممتدة أمامه (ورقة مثلا) ، ثم عندما يحتك جسم اللون بالورقة يحدث تلك الآثار والخدوش اللونية في المساحة البيضاء ، تثير هذه الخدوش فضوله ، فتنتابه الرغبة في تكرار الحركة الاولى ، وتتحول يـده باللون الى مـا يشبـه « البندول » ، فتتحرك الى أعلى وأسفل ، يمينا ويسارا ، وكلما كانت قدرته في السيطرة علـى ساعده ، ثم على يده ، واخيرا على اصابعه اكبر ، تكون الحركة اكثر ايقاعية واقل تلقائية ، وتبدأ الخطوط بالتكسر ، ويبدأ الفعل الارادي غير الآلي ، في احداث رموز لونية ، وفي اكتشاف الاشكـال من جديد . وتظهر آثار البيئة ، المحيط الاجتماعي والثقافي ، تحفر فيـه وترسب في اعماقه ، قوانين المجتمع ، اشكال الحياة والاجسام فيه ، لغته ، اخلاقياته ، الخ . وهو ما يولد عند الطفل نوعا من الادراك الكلي او المجمل ، الذي ينتهي به الى ايجاد صيغ شكلية عامة (رموز) تمثل الاجسام والموضوعات حوله(١٨) ويستخدم الطفل هذه الصيغ الشكلية في التعبير عن كل ما يختزنه الطفل في أعماقه ، من خبرات وأحلام وذكريات وواقع . ان هذه الحصيلة العامة والمختزنة لدى الطفل تنقل طبيعتها الانفعالية سواء كانت ساكنة او متحركة ، عبر الرسم الـى الورق ، لتصيغ عالم الاطفال المتميز .

ان تناول الاطفال للموضوعات والاجسام والرموز يشبه السحر ، بكل ما يحمله عالم الاطفال من مجانية ويسر ، واذا كانت الاشياء الاثيرة لدى الاطفال تتحقق بما يشبه السحر ، بالاستعـارة والخيال (تصبح العصا بين ساقي الطفل حصانا)، فان الاشياء المؤلمة تنزاح بما يشبه « السحر » أيضا .

عند رسوم الاطفال النازحين ، تجـد هذه القوة « السحرية » على تمثيـل الاشياء ، وقتلها او احيائها . تجـد تلك الكوابيس وتلك الخبرات المسـتعادة والمسجلة بلمسات سحرية ولكن بقدر

اقل من المجانية ومن اليسر : الحلم الجميل لا يسجل وحدة على الورق ، فعلى حواف الحلم تطل كوابيس الحرب والموت . ان رسوم الاطفال تقدم هذا « الكل » الطفولي ، المكثف ، لونا وتشكيلا وموضوعا . وقيمتها الاساسية في انها تضع بين ايدينا هذا الكل الطفولي ، الثري .
ان هذه الرسوم كي نفهمها حقا ، ينبغي ان نكوّن قدراتنا على « الادراك الكلي » وعلى « الرؤية الكلية » ، واستجماع كل القدرات على التجاوز والامتداد والتجول بين ابعاد لامتناهية من الزمان والمكان ، ومعايشة كل التفاصيل ، واللحظات الملونة والايحاءات الرمزية، وتمثل الكلمات اللثغاء، وكافة الاخطاء اللغوية المعبرة ، والمسجلة على حواف الرسوم وخلالها . اذ لا يمكن ابدا ، وخصوصا أمام رسوم الاطفال ، ان ننظر من خلال منظارنا الذي يتلمس الاشياء باعتياديتها اليومية . مع ذلك ، فان ثمة من يعتقد ، انه لن يستطيع « استمزاج » كل هذا الخليط من الاشياء والرموز والاشكال المتمثلة في رسوم الاطفال ، ولكن هذا لا يضير الاطفال، الذين لا يتجاوزون الواقع، مهما بلغ بهم الخيال .
يقول سرل برت « ان تذوق الاطفال ، لا سيما أولئك الذين تحت الثامنة من العمر ، يظهر ان له علاقة ايجابية بتذوق الفنانين ونقاد الفن »(١٩). ذلك ان كل المحاولات الحديثة في الفن ، من اسقاط للجدار السابع ، الى اسقاط المعمار المسرحي التقليدي ، الى التكوينات الديناميية الحية والتجسيم في التصوير ، بل ان الايقاعات الداخلية في الشعر ومحاولة تجاوز عقدة اللغة والصوت ، ما هي الا تمثلات واعية من (الاطفال الكبار) لجعل الفن اقدر على صياغة علاقاته مع العالم والجمهور في هذا العصر ، عصر آلة الانتاج الضخمة ، التي بقدر ما ولدت من تقدم ، ولدت بالمقابل علاقات انسانية واخلاقية وثقافية متأزمة . واخيرا ، فان اطفال مخيم البقعة ، ما زالوا اقدر منا على جعل علاقة الفن بالحياة بمثل هذه الحيوية والاتصال والتجدد ، اذ انهم — رغم كل ما عرفوه — لا يزالون يملكون المقدرة السحرية على الامتداد ، وعلى تكثيف العالم ، وعلى رؤيته دفعة واحدة ، عبر رسمه وتلوينه ، هذه المقدرة الرائعة ، نسميها من قبيل المزاح او السخرية « خربشة » . انهم جريئون — عادة — في ابتداع الحيل وفي امتشاق المستحيل ، فامتطاء غيمة او العبث بالنجوم ، بنظرهم اكثر واقعية من كل تقديراتنا القائمة على الرزانة العلمية والتجربة والقياس .

ملاحظات اولية حول التجربة

١. اختير مخيم البقعة ليكون موضع التجربة لعدة اسباب ، اهمها وجود اكبر تجمع بشري من النازحين داخل مخيم(٢٠). ولوجود عدد كبير من مدارس الاطفال(٢١) من جميع بقاع فلسطين ومناطقها ، بحيث يشكل المخيم ارضا نموذجية للتجربة ، تعيش عليها ابرز رموز القضية الفلسطينية في تطوراتها المعاصرة : حركة المقاومة الفلسطينية . مثلما ان المخيم وهو احد المظاهر المترتبة على الحرب والاحتلال والنزوح ، يكوّن اطارا اجتماعيا واسعا لدراسة الملامح القديمة والحديثة لبنية المجتمع الفلسطيني ومؤسساته المختلفة في فترة محددة .
٢. اختيرت الوان الباستيل لعمل الرسوم ، وذلك لسهولة استعمالها وتحريكها على الورق . كما استخدمت بصورة محدودة خامات اخرى مثل الالوان المائية ، والاقلام الخشبية الملونة ، واقلام الرصاص ، والفلوماستر ، كل حسب حاجة الموضوعات وطبيعة هذه الخامات . وروعيت ، عند استخدام هذه المواد ، خبرات الطفل ، وقابليته ومزاجه الخاص في التلوين . غير ان الوان الباستيل استخدمت بصورة رئيسية لكونها خامة مناسبة للاطفال الذين ليست لهم خبرة سابقة في الرسم .
٣. اشترك في التجربة مئات الاطفال من مختلف الاعمار ، فتراوحت ما بين سن ٣ سنوات — ١٤ سنة . وبشكل خاص الاطفال في الصفوف الدنيا ، ما بين الاول الابتدائي والسادس الابتدائي . ومجموعات اخرى من الاطفال في سن الروضة ، ومجموعات صغيرة في سن ادنى من الروضة (٣ سنوات) ، وبعض الطلبة في سن الاعدادي .
٤. لوحظ ان مجموعات كبيرة من الاطفال تمسك بأصابع الالوان لاول مرة ، وخاصة في السنوات الدنيا ، ونادرا ما تعاملت مجموعة كبيرة من الاطفال مع الالوان من قبل ذلك(٢٢). وقد انعكس ذلك في النتائج الاولية من الرسوم ، حيث اتسمت معالجات الاطفال ، للمساحات والخطوط بالفوضى

والتشوش والسذاجة (في خبرتهم بالالوان وليس في طريقة رسمهم) . ويعود ذلك الى الظروف الحياتية في المخيمات بعد حزيران ٦٧ ، وقبل ذلك احيانا ، غير ان السبب المباشر يعود الى أن اعدادا كبيرة من الاطفال كانت أصلا من سكان مخيم الكرامة ، ومناطق اخرى في الاغوار عشية الحرب الاخيرة ، وكنتيجة لتعرض المخيم ، والمنطقة عموما للقصف المستمر ، واحيانا نشوب معارك في شرق النهر حيث توجت بمعركة الكرامة (٢١ آذار ١٩٦٨) فقد انتقل السكان الى مخيم البقعة بصورة اساسية والى مخيمات أخرى . وقد ترتب على ذلك تأخر الدراسة عدة شهور ، مما اضطر اجهزة التعليم لتعديل برامج الدراسة ، بحيث تحول الحصص والدروس « غير الهامة » ، كالرياضة والتربية الفنية الى المواد الاخرى ، كالدين واللغات والعلوم . وفي مخيمات اخرى، ومخيم « سوف » بصورة خاصة ، فقد وجد ان البرنامج الدراسي في تلك الفترة ، لم يتضمن حصص الرسم والرياضة ، وذلك يعود الى تقسيم ساعات التدريس لفترتين ، صباحية ومسائية ، نظرا لقلة الخيام وعدم وجود مدرسين بقدر يغطي عدد التلاميذ . ولا مناص من الاشارة هنا، انه على الرغم من كون هذه الاجراءات التي عمدت الى الغاء حصص الرسوم والرياضة ، تبدو «عملية» و«واقعية»، غير انها تشير الى مدى الاجحاف الذي لحق بهؤلاء الاطفال من جراء الحرب ، اذ حرموا من أبسط حقوق الاطفال واكثر اهتماماتهم انسانية، فالطفل الفلسطيني في المخيمات قد سلبت منه ابسط خصوصيات الطفولة ، كاللعب والرياضة والعبث بالالوان ، من يتصور الطفولة بدون اللعب ! مع ذلك ، فان فترة التجربة ، كانت كافية بالنسبة لاطفال البقعة ، كي يتجاوزوا قسطا كبيرا من الفوضى والتشويش التي حكمت رسومهم في البداية .

٥. تسود بين المعلمات والمعلمين في مدارس المخيم، بصورة عامة ، حالات مترديه من الجهل بأسس التربية الفنية ، وفيما عدا استثناءات نادرة ، فقد لوحظ ان المدرسين لا يستوعبون هذه «الخربشات»، وهذه « الاخطاء » في رسوم الاطفال . بالاضافة الى سريان روح الوصاية في فرض مضمون معين على رسوم الاطفال . وغني عن القول ان روح الوصاية التعسفية المنتشرة تعطي نتائجها السلبية بافقاد الاطفال تلقائيتهم وعفويتهم واستقلالهم في تخير الاشكال والموضوعات التي يرغبون التعبير عنها . وبالمقابل تظهر عادات سيئة مثل « التملق » لذوق الاستاذ ، وانعدام الصدق ، وزرع افكار «المحاكاة» و« النقل الحرفي » في التعبير الفني . لقد عكست الاساليب التربوية البائدة ، على التجربة في بدايتها ، نتائج سلبية تمثلت في طريقة الامشق وتقليد رسوم الكبار ، والاعتماد على رسوم مقننة يجري التقيد بها بحرفية تامة . وقد عبرت هذه الاساليب التربوية القديمة عن نفسها على السنة العديد من المعلمين الذين اظهروا نزوعهم للاستخفاف برسوم الاطفال فلم يروا فيها اية اهمية تعبيرية او جمالية(٢٣).

٦. ازاء الحالات السائدة بين الاطفال ، كانت مهمة المرحلة الاولى من التجربة تحرير الاطفال من الرواسب والاشكال والموضوعات التي بذرتها الاساليب التقليدية(٢٤)، والعمل على توليد حالات جديدة ، توامها خلق نوع من « التداعي الحر » ، أي ترك الاطفال يرسمون ما يخطر ببالهم دون طرح افكار مسبقة او الايحاء بها . وبلا ريب كان لا بد ان تجني البدايات الاولى للتجربة آثار الاساليب والانماط التعبيرية والموضوعات التقليدية التي يجري تلقينها للاطفال . فظهرت العادات الفنية الرديئة ، كالتسطير قبل الرسم ، استخدام قلم الرصاص قبل التلوين ، عادات النقل والنسخ عن الصور والرسوم المدرسية ، تقليد نماذج رسوم مقننة في دفاتر مخصصة لذلك ، جرى التقيد بها حرفيا ، انعدام المخيلة ، وعدم القدرة على مباشرة مواضيع حياتية ملاصقة لهم يوميا ، انفصام عن الارث الشعبي الزخرفي في الثياب والادوات المنزلية (اعمال القش ، الخرز ، التطريز ، الرسوم الشعبية المتوفرة في البيوت الفقيرة ... الخ) وقد اضطررنا الى اهمال اعداد كبيرة من هذه الرسوم التي جنت نتائج تربوية سيئة أو انعدمت فيها الخبرة الاولية(٢٥) في بداية التجربة . الى ان اخذت تظهر الايجابيات شيئا فشيئا ، وتكشفت عن طاقات الاطفال الابداعية .

وبالاضافة الى الجو المتفتح ، الذي ساعد الاطفال على التحرر فنيا وجماليا ، فقد ساعد على التحرر نفسيا ، من التقاليد والانماط التي تصنف الرسوم الى « خاطئة » و« صحيحة »(٢٦). وقد دفع هذا التحرر النفسي والجمالي الاطفال الى مزيد من الجراة في اقتحام الموضوعات والاشكال والخطوط

بشيء من الثقة ، اذ اصبح لحساب « الصح والغلط » مضمون أرقى ، يقوم على ادراك موضوعي بقوانين رسوم الاطفال وخصائصها خلال مراحل النمو المختلفة . وقد ظهر هذا بشكل تدريجي من خلال تبلور خبرة الطفل في تعامله مع اللون وحركة الذراع ، وتخير الاوضاع المناسبة ، واستخدام المساحات اللونية بادراك جمالي خاص، بصورة افضل عما كانت عليه . كما أظهرت محاولات الاطفال المتعددة في الرسم كل ما يميز رسوم الاطفال بعيدا عن التربية التي تعتمد على الامشق من حيث طرق المعالجة المميزة للاطفال ، كمحاولة التمثيل الزماني والمكاني ، التسطيح ، الشفافية ، تخير الاوضاع النموذجية ، والمبالغات ... الخ، اي كل ما يعرف من ظواهر في رسوم الاطفال في العالم . وقد عكست هذه المحاولات ، على تراوح، حالات متفاوتة من المعالجة المميزة لكل مرحلة من النمو والتطور العام عند الاطفال، وخبرته بالتعبير.

٧. ضمن شروط هذه التجربة ، التي كفلت تحرر الاطفال جماليا ونفسيا فقد حققت التجربة نتائج جيدة ، عبرت عن نفسها من خلال الرسوم التي جمعت ، اذ تمثلت كل نزق وكبرياء وصلف عند الاطفال في تخيرهم للموضوعات الخاصة بهم ، ملامستهم للحياة المعاشة في المخيم بواقعية حالمة ، الاسرة ، المدرسة ، المخيم ، السوق ، ذكرى الحرب والتجربة المشحونة بالانفعال : طائرات ، طائرات ، طائرات ملحة في وجدانهم واذهانهم ، الفدائي والحياة في المخيم ... الخ . هذه الملامسة الرتيقة للواقع ، اعطت رسوما خصبة بكافة موضوعاتها واسقطت كافة الاشكال والنماذج « الرسمية » من هذه الصور . غير انه لا بد من الاشارة ، الى ان هذه الحرية في التعبير ، لا تعني اتخاذنا موقفا سلبيا من الاطفال ، فقد كانوا خاضعين لمتابعة دائمة ، تهدف بالنتيجة الى تحسين معالجة الاطفال ، وبلورة خبرات الاطفال بخامات اللون والاستفادة من طبيعتها وخصائصها ، كما كانت تسجل ملاحظات مختلفة ، حول الاخطاء الشائعة ، والخبرات الاولية ، وملامح كل مرحلة ، وحول الرسوم الملفتة للنظر ، حيث يتابع اصحابها لمعرفة مدى تقدمهم في كل شوط من أشواط التجربة، الخ .

٨. تتضمن الملاحظات التي تسجل على الوجه الآخر من الصورة : اسم الطفل ، العمر الزمني ، الجنس ، الصف الدراسي ، وملاحظات خاصة بالرسوم ، واسم الصورة أو ملاحظات الطفل حول رسومه . وفي نهاية كل يوم ، تقوم عملية فرز اولية ، حيث تقسم هذه الرسوم الى مجموعات حسب السن ، ثم تقيّم في مستويات (متفوقة ، عادية ، ضعيفة) وتحفظ قوائم بأسماء الاطفال المتفوقين ، الذين كانوا يكلفون بتنفيذ لوحات اكبر حجما ، ويزودون بالالوان وبورق الرسم اثناء فراغهم من الدراسة .

٩. في المرحلة النهائية من التجربة ، تمكنا من استخدام غرفة صغيرة مستقلة كمرسم للاطفال . ونفذت فيها الرسوم ذات الاحجام الكبيرة ، والتي تحتاج عمل عدة مرات . وأصبحت الموضوعات أكثر تحديدا ، كما باتت المعالجة أرقى من جوانب متعددة . وفي تشرين الثاني ١٩٦٨ ، اي بعد ثلاثة اشهر من بدء التجربة ، تمت عمليات الفرز النهائية، حيث جمعت مئات الرسوم المقننة حسب الجنس والسن ، ثم جرى فرز نهائي ، اختيرت على أساسه ما يقرب الاربعمائة لوحة من احجام مختلفة ، صنفت الى مراحل تبعا للنمو الفني عند الاطفال . كما وضعت بضعة ملاحظات عامة حول كل مرحلة ، عرضت الى جانب الرسوم ، كي تساعد الزائرين في تتبع نمو الاطفال الفني والذهني، في ٢١ — ٢٤ تشرين الثاني ١٩٦٨ ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي تجمع فيها وتعرض رسوم الاطفال الفلسطينيين في المخيمات في الاردن .

مراحل نمو التعبير الفني عند الاطفال الفلسطينيين

تتصل الاساليب المستخدمة في دراسة رسوم الاطفال مع المناهج السوسيولوجية والسايكولوجية في البحث. لان رسوم الاطفال باتت ذات قيمة اجتماعية ونفسية ملموسة في واقعنا المعاصر ، بل باتت هذه الرسوم أداة من ادوات البحث في ميدان علم النفس التجريبي والمخبري ، كادت ان لا ترى فيها قيمة جمالية وثقافية ما ، كما اشرنا الى ذلك اشارات عابرة . وتتطلب محاولتنا لتتبع مراحل نمو التعبير الفني عند الاطفال الفلسطينيين ان نشير الى منهج التجربة ، مقارنة مع التجارب الاخرى . وغالبا ما اعتمدت التجارب والدراسات التي اجريت على رسوم الاطفال ، على واحد من المناهج الاربعة الرئيسية التالية : أ — منهج يعتمد على الملاحظة المباشرة العرضية ، ب — منهج يعتمد على

المقارنة ، ج ـ منهج يعتمد على البحث المقنن بشروط محددة ، د ـ منهج يجمع بين كافة الاساليب السابقة في الدراسة . ونلاحظ ان المناهج المذكورة آنفا هي من ضمن مناهج الدراسة الاجتماعية والنفسية عموما . وقد اعتمد شارلس داروين ولوكيه وهلجا انج وآخرون غيرهم ، على المنهج الاول ، اي الملاحظة المباشرة في دراسة رسوم ابنائهم ، وان تفاوت كل منهم في مدى انصرافه للدراسة المعينة وفي تتبع سلوك ابنه اثناء الرسم، وكذلك في طبيعة النتائج التي توصل كل منهم اليها. كما نحى كل من كرشنشتينر وجورج روما وسرل برت وستيلا اجنس مكارثي وروز الشولر ولابرتا هاتوك وآخرون غيرهم الى دراسة رسوم الاطفال بأسلوب البحث المقنن ، الذي يتوجه غالبا الى متابعة مجموعات كبيرة من الاطفال . اما الدراسة المقارنة ، فهي ملحوظة في أعمال اولئك الذين يهتمون بتتبع مدى التفاوت بين نتائج الباحثين الذين سبق ان قاموا بتجارب متماثلة ، وهو ما نلاحظه في الكتابات المعاصرة(٢٧). كذلك يلجأ كل باحث في شؤون رسوم الاطفال الى مقارنة نتائجه بنتائج غيره اذا ما انطلقوا من أساسات واحدة . فيعمد كل باحث الى اظهار أوجه التعارض او التشابه ، من خلال نماذج أصلية من رسوم الاطفال ، او برسوم توضيحية ، او باحصاءات(٢٨).

وتعتبر الطريقة التي استخدمت في تجربتنا مع اطفال مخيم البقعة ، مزيجا من عدة أساليب ، اذ ان السبب يعود الى طبيعة التجربة الاستكشافية العامة ، حيث لم تكن تستهدف تتبع موضوع بعينه ، او ملاحقة شريحة من عمر زمني معين ، كما لم تستهدف غرضا اجتماعيا او سايكولوجيا او فنيا او ثقافيا بصورة محددة . وانما كانت تتناول هذه الامور من حيث المحصلة العامة، لذلك، فقد كانت التجربة واسعة من حيث شمولها لاعداد كبيرة من الاطفال الاناث والذكور ، ومن فئات سن متعددة ، كما اعتمدت التجربة عموما في كافة مراحلها على عدة اساليب في دراسة هذه الرسوم، اذ اعتمدت على الملاحظة المباشرة ، من حيث كونها تترك للاطفال تلقائيتهم في التعبير ، وان كنا لم نهمل محاولة تعريف الاطفال للالوان وطبيعتها ، دون املاء وجهة نظر في طريقة التعبير ذاتها . وقد كفل ذلك مميزات هذه الطريقة ، مثل تيسير « الحصول على حقائق صحيحة بالنسبة للتعبير الحر للطفل».. كما انها تفسر الظروف البيئية التي لعبت دورا بارزا في ابراز هذه التعابير بشكلها المميز .

والواقع ان الملاحظة المباشرة ، قد استخدمت مع مجموعات كبيرة من الاطفال ، كنا نتتبع رسومهم يوميا . واحيانا نضمن رسومهم نفسها ، او في دفاتر خاصة ، ملاحظاتنا حولها . كذلك ، في فترة لاحقة تتبعنا بنفس الاسلوب بضعة اطفال ، عندما تيسر لنا الحصول على « استديو » خاص للرسم في المخيم . ومن جهة ثانية فقد اعتمدت تجربتنا على بعض مزايا الاسلوب القائم على الطريقة المقننة دون بعضها الاخر ، مثل جمع الرسوم وفحصها على اساس السن او الصف الدراسي ، وتقنين الرسوم التي تنتمي الى فئة سن واحدة الى اناث وذكور . وقد ساعد على التقنين وجود تجانس عام بين مجموعات الاطفال ، من حيث البيئة ، العمر الزمني ، الثقافة ، التجربة .. الخ ، بحكم وجودهم في مناخ اجتماعي وبيئة واحدة (المخيم). لذلك يمكن القول ، ان « العينات » او الشرائح التي اجريت عليها التجربة ، قابلة للتعميم على صعيد اطفال المخيمات التي اقيمت بعد الحرب في الاردن .

واخيرا ، فان التجربة، قد سمحت ببعض المقارنات، سواء من حيث اوجه التشابه والتعارض بين رسوم الاطفال الذكور والاناث ، او من حيث موضوعات وطريقة المعالجة عند فئات متفاوتة في النمو عند الجنسين . والتجربة ما زالت تسمح بمقارنات متعددة الاوجه ما بين رسوم اطفال المخيمات في الاردن ، وانظارهم في المدن ، او بين اطفال المخيمات في عدة اقطار عربية (الاردن ، سوريا ، لبنان) او بين الاطفال الفلسطينيين والاطفال العرب من اقطار شقيقة اخرى ... الخ . وعلى ذلك ، فانه يمكن القول ان الملاحظات الشخصية ، التي كانت تتبع التجربة اولا بأول ويوميا ، مضافا اليها المعلومات المدونة حول السن ، الجنس ، السنة الدراسية والاسئلة الشخصية الموجهة للاطفال ، وملاحظات الاطفال نفسها ، قد وفرت أساسا للتقنين وساعدت في تحديد الظواهر المرتبطة بكل مرحلة زمنية ، وفي وضع هذه الرسوم داخل الاطار الموضوعي الذي يحكم نمو الاطفال .

عند مراجعتي للاحظاتي الاولية حول مراحل نمو التعبير عند الاطفال النازحين في مخيم البقعة ،

مقارنة مع التقسيمات المعروفة في رسوم الاطفال تبعا لنموهم الزمني كتقسيم سولسي وتملنسون وتشزك ولونفيلد وهربرت ريد الخ ، فقد وجدت على الرغم من الاختلافات العامة والفروق الضئيلة بالسن ، وفي التسميات التي يقترحها كل باحث لمراحل النمو المختلفة عند الاطفال وغيرها من الفروق ، ان هناك أساسا جوهريا يوحد ما بين هذه التقسيمات المختلفة ، وهذا الاساس الجوهري لا يختلف مع ملاحظاتي حول مراحل نمو التعبير عند اطفال النازحين كثيرا او قليلا .

وقد فضلت ان لا اقحم نفسي ، عبر التقسيم الذي وضعته حول رسوم اطفال مخيم البقعة ، ضمن جملة الباحثين الذين يسهمون في الجدال الدائر حول كل مرحلة بعينها ، وحول تسمية كل مرحلة او تسمية الظواهر المصاحبة لكل مرحلة نمو ، او حول المراحل الثانوية ضمن المرحلة الواحدة الاساسية ، ولذلك عمدت الى تقسيم الفترة التي تعنينا من عمر الطفل وهي ٣ — ١٤ سنة ، الى اربع مراحل اساسية ، دون اللجوء الى تقسيمات ثانوية اخرى . كما استخدمت بضعة تسميات شائعة اكاديميا حول كل مرحلة او حول الظواهر الملازمة لكل مرحلة دون ان استخدم غيرها ، ليس استسهالا للبحث ورغبة في التبسيط ، وانما لان التجربة مع اطفال البقعة لبضعة اشهر لا تؤهل للاسهام بوضع تحديدات اكثر تفصيلا ، تاركا ذلك لتجارب اخرى قد تنال حظا اوفر لدراسة متأنية .

أ — سن الثالثة الى الخامسة ، وهذه مرحلة التخطيط(٢٩) : من الملاحظات البارزة حول رسوم اطفال ما قبل سن الروضة ، وخاصة في سن الثالثة ، هو انها ما زالت غارقة في سمات مرحلة التخطيط الاولي ، حيث لا تعدو هذه الرسوم ان تكون محاولة لاكتشاف القدرة العضلية على التخطيط ، كما يثار فضول الاطفال بسبب احتكاك مادة اللون بالورقة من جراء تحريك الذراع ، لاكتشاف ماهية اللون والخطوط الناتجة من حركتهم العضلية على الورق . وفي سن الثالثة ، عند اطفال المخيم ، تكون الرسوم ما زالت بدائية ، فهي وان تخطت شكل التخطيطات غير المقصودة (وهي مجرد حركات عضلية من اليمين الى اليسار) او « غير المتحكم بها كما يرى لونفلد »(٣٠) الا انها ما زالت ذات طابع عضلي ، اي ذات حركة موجية او بندولية(٣١) ، ثم ذات طابع متشابك بين الدوائر والخطوط(٣٢) ، وتبدو هذه الرسوم وكأنها اختبار لقدرات الطفل على تحريك ساعده ومن ثم رسغه ، واخيرا يده واصابعه . وقد وجد ، في العينة الصغيرة مع الاطفال في سن الثالثة ، ان بعضا منها يخلف رسوما تحمل سمات مراحل اولية من التخطيط ، في حين ان بعضها الاخر يحمل سمات مرحلة متقدمة ، اي التخطيط المقيد ، او شبه الرمزي او المتحكم به من قبل الطفل(٣٣) بمعنى ان رسوم المجموعة الاخيرة تتضمن فعلا قصديا أكثر من مجرد اختبار قدرته العضلية على تحريك اللون فوق الورق .

وفي سن الخامسة (وسن الرابعة أحيانا) وهو سن الروضة في المخيم ، لوحظ اتجاه اوسع لعمل تخطيطات رمزية ، ومحاولات لرسم اجسام واقعية ، اذ لوحظ ان الاطفال ينحون الى رسم الاشياء التي يتعرفون عليها او يدركونها ويكررون رسمها المرة تلو المرة . وفي هذا السن تدخل الحروف الهجائية والارقام التي يتعلمونها لاول مرة ، فيعاد رسم هذه الحروف والارقام بصورة آلية ، بألوان واحجام مختلفة ، فتمتزج كتابة (او رسم) هذه الحروف ، التي لا يدركون دلالتها بعد ، بالاشكال الاخرى ، وتختلط تخطيطاتهم بهذه الحروف والارقام المتكررة(٣٤) . وتظهر رسوم هذه المرحلة ان مدركات الطفل او محصلته الحياتية والثقافية ما تزال بسيطة ، نظرية ، لا تكاد تتعدى المحسوسات او المرئيات التي يتعلمون رسمها بالتكرار ، وليس ثمة اشكال مركبة او تفصيلية ، وانما اشكال عامة مجردة . ويلاحظ ان التحكم العضلي يصل الى ذروته بالاعتماد على الاصابع في الرسم وهنا يتمكن الطفل من وضع خطوط منفصلة ، متقطعة ، ذات طابع رمزي . وفي سن الرابعة ينتقل الطفل الى بدايات التمثيل الرمزي للاشياء والاشكال ويظهر اطفال البقعة اهتماما خاصا نحو رسم الجسم البشري . وعموما فانه يلاحظ ، من رسوم الاطفال ، في هذه المرحلة ، خضوعهم لكل مظاهر الطفولة المبكرة المعروفة في عالمنا ، فلا تتميز رسوم اطفال البقعة عن رسوم اطفال آخرين في اي مكان من هذا العالم(٣٥) ، كما ان البيئة لا تظهر او تنعكس بشكل واع في رسومهم بعد . اذ ان اهتماماتهم لا تتعدى الرغبة في اكتشاف مادة اللون والاثار التي تحدثها حركة اللون على الورق . وان كنا نلاحظ بدايات تمثل للواقع المرئي في تخطيطات ، هي مزيج

من الكتابة والرسم للحروف الهجائية والارقام والرموز الشكلية البسيطة ، « تفاحة ، شمس ، شكل بشري » ، وغالبا ما تكون هذه الحصيلة مكتسبة من التعلم ، او من الرغبة في التقليد . اما في سن الخامسة ، فانه يمكن رؤية رموز شكلية للانسان ، ذات طابع بدائي ، لكن واضحة المعالم، اذ تأخذ اشكال الجسم البشري طابعا اصطلاحيا او رمزيا ، تعمم وتكرر للتعبير عن شكل الانسان . وبالطبع ، ليس ثمة ما يميز رسوم الاطفال الاناث عن الذكور ، أن من حيث المعالجة او الموضوعات ، ذلك ان سمات الطفولة واهتماماتها البسيطة تعكس نفسها في رسوم الاطفال دون فصل او تباين بين الجنسين . واخيرا ، فقد لوحظ ان انماط التعبير الرمزي عند اطفال من بقاع أخرى ، عربية أو اجنبية ، تتطور بوتيرة اسرع مما هي عند انظارهم من اطفال المخيم ، لاسباب لا تخالها خافية على أحد ، أي عدم وجود فرص كافية للعناية بالاطفال سواء على الصعيد الاسري ، او الاجتماعي ، او التربوي . فالاطفال في المجتمعات المتقدمة تتاح لهم فرص دخول المدرسة بوقت مبكر جدا ، قياسا لحظ الاطفال في المخيمات ، كما ان فرص العناية الاجتماعية والاسرية باهتمامات الاطفال في هذه المجتمعات لا يمكن مقارنتها بالقهر الاجتماعي والاسري والتربوي[٣٦] في المخيمات .

ب ــ سن السادسة الى التاسعة : وهي المرحلة الوصفية : ان رسوم الاطفال ما بين السادسة والسابعة تظهر قدرا اكبر من الانطلاق ، والتعبير الجريء ووضوح الاشكال ، كما تظهر قدرة الطفل على التشكيل الواعي ، ويأتي هذا بعد سن الخامسة ، حيث يتجه الطفل نحو تكوين اشكاله او رموزه الشكلية للمدركات . فهي تمر بمرحلة من الزمن تتحول فيها رموزه الشكلية من طابعها البدائي البسيط ، الى شكل اكثر تعقيدا في محاولة لتمثل الشكل الواقعي ، فمثلا يتجاوز الشكل البشري الذي لا يعدو ان يكون : دائرة الرأس وخطين اسفلها يمثلان الساقين ، الى رسم الذراعين ، وتمثيل الجسم بمستطيل او دائرة كبيرة ، وقد يرسم العينين وأصابع اليد . غير ان الطفل لا يعنى باعطاء رسومه « منطقا » مكانيا وزمانيا ، كما انه يفصل ويعيد تركيب الاجسام ذات الاتصال والعلاقات الواقعية ، ذلك لانه يهتم بفكرته عن الاشكال المرئية وليس بما يراه فيها موضوعيا . اما رسوم ما بعد سن السادسة ، فهي تظهر وضوحا اكبر في التعبير الذاتي عن المرئيات ، وتقترب رسوم اطفال السابعة والثامنة من العالم الموضوعي وتظهر بوضوح الموجزات الشكلية للاجسام ، مع الابتعاد بوتيرة اسرع عن العشوائية والرمزية البدائية . غير ان هذا لا يعني ان الرموز الشكليةواللونية قد انسحبتا كليا، وانما هي اتخذت شكلا أرقى في التعبير، يقترب من محاكاة الاشياء في نوعها العام ، ويلاحظ ان الاطفال نتيجة لنمو ادراكهم الحسي واتساع خبراتهم الشخصية عموما فانهم يضفون مزيدا من التفاصيل على أشكالهم .

وتظهر رسوم الاطفال في هذه المرحلة اهتماما خاصا بالجسم البشري ، كموضوع بارز وأثير . والانسان في رسومهم يتخذ سمته المحلي البارز ، فهو الفدائي ، ويبدي الاطفال شغفا وعناية واضحة في رسمه بسلاحه وملابسه الموهة . كذلك يظهر ابن المخيم في حياته العامة خلال رسومهم ، كما تظهر النساء بالملابس الفلسطينية التقليدية في شتى الاوضاع ... الخ.

اما موضوعات رسوم الاطفال او طريقة المعالجة فانها لا تظهر أية امكانية واضحة للتمييز بين رسوم الاطفال من الجنسين ، اذ ما زالت الاهتمامات الطفولية المشتركة والعلاقات المفتوحة بين الذكور والاناث ، والمعاملة الواحدة التي يلقونها من الاسرة والمجتمع ، تجعل حدود التمايز ضيقة جدا. الا اننا سوف نلحظ ان هناك امكانية جزئية لمقارنة اعمال الاطفال الذكور عن الاناث ، ان من حيث الاهتمامات او المعالجة الخاصة ، بعد سن التاسعة ، حيث يأخذ الفصل بين الجنسين في صفوف الدراسة مداه النفسي والوجداني ، ويصبح كل جنس خاضعا للفصل التقليدي بين « عالم الرجال » و« عالم النساء » في كافة المستويات الحياتية وفي الاهتمامات . واخيرا ، فان رسوم الاطفال في سن التاسعة ، تبدأ بمحاولة محاكاة الطبيعة ، وتظهر رسومهم محاولات لتمثل القوانين التي تحكم الرؤية الواقعية للطبيعة ، كالمنظور ، النور والظل ، الفراغ ، التمثل لالوان الطبيعة ، وتحول اللون عن منحاه الرمزي كما هو حاله عند الطفل في مراحل سابقة .

جـ ــ سن التاسعة الى الثانية عشرة : يبدي الاطفال النازحون في هذه المرحلة اهتماما متزايدا

باظهار فكرة معينة في الرسم ومعالجة مواضيع واقعية ، كما تظهر محاولات لتمثل النسب الطبيعية في الرسم ، واستخدام بعدين او ثلاثة ابعاد ، وحل مشاكل الفراغ ، والتمثيل المكاني والزماني للرسم بصورة واقعية . وغالبا ما تحاول رسوم الاطفال في هذه المرحلة ان تقول شيئا ، او تعبر عن فكرة او تروي قصة ، ويكاد يكون الانسان الموضوع الاول في رسوم اطفال البقعة، فيتناولونه بالمعالجة، مع مزيد من التحديد والتفصيل ، محاولين مضاهاة الشكل البشري في الطبيعة . كما تنسحب بعض الظواهر التي يلجأ اليها الاطفال في سن ابكر ، مثل المبالغة والتسطيح واختلاط الامكنة والازمنة في معالجاتهم ورسومهم ، ويحل محلها رؤية واقعية بصرية . كما يميل الاطفال في هذه المرحلة الى تمثيل الالوان كما هي موجودة في الطبيعة . غير انه يلاحظ ، بشكل عام ، ان رسوم هذه المرحلة قد فقدت الكثير من تلقائيتها وهبطت ابداعيا واخذت تقترب من المحاكاة الطبيعية . كما ان النمو العام عند الطفل — ذهنيا وفسيولوجيا ونفسيا — تدفع به نحو عالم الكبار ، ونحو قوانينهم ، التي لا تلبث ان تحل مكان « القوانين » الفطرية ، ومكان الملازمات الشكلية لرسوم الاطفال ، وهو الامر الذي يفقدها عفويتها ورقتها المعهودة . ومن جهة اخرى تظهر في هذه المرحلة فروق لا يستهان بها بين رسوم الذكور والاناث من الاطفال ، حيث يتعمق احساس كل من الجنسين بعالمه واهتماماته ومثله المتميزة .

د — سن الثانية عشرة الى الرابعة عشرة : وفي هذه المرحلة تتبلور الظواهر الملحوظة في رسوم الاطفال في المرحلة السابقة ، حيث يكون قد ظهر مزيد من النضج الذهني في محاولات تصوير البيئة بأسلوب واقعي وصفي ، وتقليد الطبيعة من خلال استخدام المنظور ومحاولات الطفل في الظل والاضاءة ، وحل مسائل الفراغ ، والاتجاه الى توظيف اللون موضوعيا ، اي ان هذه الرسوم قد اخذت تمتثل لتقاليد الكبار الفنية في التصوير . ومن ثم فان هذه الرسوم تفقد مزيدا من تلقائيتها وعفويتها الفنية مع انصرافها بصورة متزايدة نحو موضوع او موضوعات ذات صبغة واقعية . وتظهر الاختلافات بين رسوم الاطفال الذكور عن رسوم الاطفال الاناث سواء من حيث المواضيع ، او حيث المعالجة التشكيلية ، ويعود هذا الى تبلور وعي واهتمامات كل جنس ضمن اوضاع مختلفة نسبيا .

موضوعات رسوم اطفال النازحين

يذكر صادق جلال العظم في أول مقالة تعرف رسوم اطفال النازحين للجمهور ، الملاحظة التالية : « ... نحن نتوقع في العادة ان تدور رسوم الاطفال حول موضوعات بريئة مبتسمة مبهجة ، تتصف بالهدوء والدعة والسذاجة وليس بالطابع الملحمي، غير ان الطفل الفلسطيني في المخيم ليس طفلا عاديا، وتجربته القاسية المرة جعلت من رسومه حالة فريدة في نوعها تقريبا ، ان كان ذلك بالنسبة لطاقاتها الثورية الكامنة ، او لسلبياتها الكابتة لهذه الطاقات والمشتتة لها .. »(٣٧).

ترتبط هذه الملاحظة ، او هذا التقرير لدلالات هذه الرسوم ، بشهادة الشاعر الفلسطيني محمود درويش عن طفولته « .. وحين صحا ذلك الطفل الممزق الثياب من التعب والرهبة ، كان رأسه يزدحم بالاسئلة التي هاجمته دفعة واحدة وبلا تسلسل ، ومنذ تلك الليلة انقلبت الصفة الخاصة لعالم الطفولة ، وأصبح ذلك الطفل محروما من الاشياء واللغة التي تميزه عن الكبار ... »(٣٨). اذ تبدو رسوم اطفال البقعة كصدى وترداد لاصوات طفولة النزوح الاول التي لم تستنطق بالالوان والورق ، مع ذلك فهي قد ائتلفت واتحدت مع طفولة ١٩٤٨ عبر ذات المأساة . « ... ان طفولتي هي بداية مأساتي الخاصة ، التي ولدت مع بداية مأساة شعب كامل ، لقد وضعت هذه الطفولة في النار ، في الخيمة ، في المنفى ، مرة واحدة وبلا مبرر تتمكن من استيعابه ، ووجدت نفسها نجأة تعامل معاملة الرجال ذوي القدرة على التحمل ، ولا تستثنى من مصيرهم ... » . « ... كنت ادخل عالم قضايا جديدة » يقول درويش ايضا « والتصق بها رغما عني ، مبتعدا بوتيرة سريعة عن عالم الطفولة ، اذا كان يعني ما يحظى به الطفل من تفوق وتميز ... »(٣٩).

لعلنا لن نكون بحاجة الى جهد كبير ، لكي نتبين القسمات المشتركة التي توحد ما بين رسوم الاطفال و« شهادات » محمود درويش الواعية عن طفولته، لذلك سوف نبحث في الصورة الاصلية ، في هذه الرسوم ، كي نتمثل صورة الحياة القائمة في المخيم، الذكرى الطازجة للحرب ، الانشداد العميق نحو البيئة الاصلية ، نحو الوطن ، التجربة والمشاهدة

العيانية للنزوح ، الرغبة الحالمة في صياغة عالم ملون ومزخرف ، الفدائيون و« الوعد » الفلسطيني الجديد .

الاطفال والحرب : عندما بدأ اطفال البقعة يرسمون هذه الرسوم كان قد مر على حرب حزيران خمسة عشر شهرا ، وعلى معركة الكرامة خمسة شهور . غير أن العمليات العسكرية لم تتوقف منذ ذلك الحين . وقد بدا واضحا من الرسوم ان موضوع الحرب يسيطر على الاطفال بصورة اجمالية ، وهو أمر لا يفسح المجال الا لتفسير واحد ، وهو خضوعهم جميعا لمعاناة الحرب ، على نحو متعب وملح ، جعلهم على هذا القدر من الحساسية تجاهها ، وصبغ رؤيتهم للاشياء بمنظار المأساة التي عاشوها . فمن الظواهر الملحوظة في رسوم اطفال النازحين ، ظاهرة التضخم الانفعالي، وبروز نفسية جماعية على قدر كبير من الحساسية والارهاف تجاه ظروف الحرب الاخيرة . ان سيطرة الرؤيا المتشائمة ، الحذرة والمتوجسة من العدوان الذي ينطوي عليه العالم ، ليست مجرد ظاهرة جانبية ، وانما هي ملحة الحاحا حادا ، حيث يعبر عن ذلك « التضاد » بين موضوعات الرسوم الواحدة . ان هذا التضاد يشكل بنية مأساوية وجدت مداها الطبيعي في نطاق هذه الرسوم (وردة مورقة ، وطائرة معادية تعلوها ، خيمة منفردة كعصفور منكمش على نفسه وطائرة حربية تحلق من فوقها ، سيارة اوتوبيس وطائرة معادية تسقط قنابلها حولها) ثم رسوم اخرى منقوشة بالمتناقضات التي لا يستقيم فهمها الا ضمن الاطار الموضوعي لمعاناة هؤلاء الاطفال ، رسوم تجد بها متسعا للسيارات والبيوت والاشجار والطائرات والاسلحة والرايات وثمار التفاح منزوية او مبعثرة في انحاء الورقة . صورة اخرى لمجموعة من النساء ، احداهن تحمل طفلها ثم طائرات تلقي بكرات مدمرة حولهن . ان معظم الاطفال يجسدون المقولة الدارجة لمأساتهم المعاشة ، فما من شيء يمكن ان يبقى ساكنا سالما ، كلما وجد بيت مظلل بخضرة الشجر (التي يحسن الاطفال زخرفتها) كان لا بد من طائرة تحلق وترمي شيئا من اسلحتها المدمرة ، والتي يعرفها الاطفال من تجربة محسوسة او سمعوا عنها مرارا .

لقد اصبح احساسهم بالعدوان وبالخطر مرهفا الى حد كبير ، كما أصبحت قدرتهم على التعبير عن هذا الحس منذرة بتشاؤم مطبوع اثر الحرب ، فرسومهم قادرة على اعطاء هذه الاشكال بصورة اكثر ايجازا وتعبيرا من بقية الاطفال ، لسبب بسيط هو أنهم قد خبروها اكثر من غيرهم . ان الطائرات التي تتخذ شكل الخفافيش المرعبة ، الهليكوبتر السوداء ذات الشكل الانقضاضي المتوحش ، السماء المظلمة المنبثة بأعتى الشرور ، كأنها شبكة عنكبوت ضخم ، والبيوت المتوحدة التي توحي بالحمائم الوادعة ، كل هذه « الاشكال » كانت حصيلة تكيفهم النفسي مع الحرب ، وحصيلة رؤيتهم الذاتية لاشكال تتضمن مواقف عدائية ، واخرى تعبر عن مواقف محسوسة من الاشكال الاول ، فيجري تعاملهم مع هذه الاشكال ، وكأنها كائنات حية واعية ، فلا غرابة ان نلمس في تعاملهم مع « اشكال » الطائرات — التي يفترض انها مثيرة لخيال الاطفال، ومدعاة لاسترسال حسهم الجمالي، ولحبهم وتوقهم للتحليق — موقفا عدائيا من الناحية التشكيلية ، حيث تبدو كأجسام شيطانية شريرة ، وهم بذلك ينسجمون مع ادراكهم الموضوعي للدور الذي لعبته الطائرات في القتل والدمار والتشرد الذي الحق بهم .

وكما بدا ، فان اطفال المخيم قد خاضوا تجارب مبكرة جدا وقاسية جدا بما لا يتناسب مع سنهم الغضة ، فجميعهم قد عانوا من حرب حزيران بشكل او بآخر ، فظهرت في اعمالهم تذكرات عن نزول الهليكوبتر في الكرامة ، المشاهدة العيانية لسقوط طائرة ، المسير ضمن قوافل النزوح ، الكمون في المغارات والكهوف خوفا من النابالم ، رسوم اشبه « بالخرائط » تروي قصة الخروج من الارض — الوطن ، وذكريات مرعبة عن الموت والاحشاء البارزة ، وتيه الصغار والعطش وحريق العربات على جنبات الطريق .. الخ.

على ان هذه الرسوم لا تكتفي بالتجسيد الساكن لما حدث ، اي انهم ليسوا رواة محايدين ، اذ نجد انهم غالبا ما يخرجون من نطاق السرد والوصف للمعاناة والمعايشة والذكرى الى نطاق اعطاء المواقف والامنيات ، والتدخل « الصريح » ضمن وسائلهم الخاصة ، فيسخرون قدرتهم السحرية في اصطياد جنود الاعداء بأساليب مناسبة، ويكرسونها لصالح الرمز الجديد للانتصار ، للفدائي الذي بدا وكأنه معادل موضوعي في هذا الصراع الراجح منذ أمد بعيد لصالح العدو .

لقد كان الاطفال يدركون بالبداهة والمعرفة المباشرة (الاولية) طبيعة الحرب ونتائجها لما من شيء في هذه الرسوم يتجاوز الحقيقة والواقع ، الطائرات هي دوما الطائرات المعادية ، الدبابات هي دوما الدبابات العربية ، الحركة والانطلاقة عند طائرات العدو ، السكون والثبات في مواقع الدفاع العربية . . بعض الاطفال يتجاوزون هذا الحس النقدي العفوي للصراع ، الى شكل من اشكال السخرية ، في احد هذه الرسوم ، تجد طائرة معادية ودبابة عربية في لحظة اشتباك ، غير ان قذائف الدبابة لا تصيب الطائرة بل تمر من خلفها ، اكان ذلك من قبيل التلميح الطفولي الخبيث ، ام كان مجرد مصادفة ان يرسم طفل دبابة عربية تخطىء هدفها ؟ ومهما يكن ، فان المعاناة الطازجة للحرب ابقت الاطفال قادرين على تمثلها في اذهانهم ووجدانهم ، واخذت خطوطها العريضة ترسم معالم وعيهم للحرب كما عرفوها : حرب طائرات مغيرة ، ومواقع دفاع ودبابات عربية تناوش ، وقوافل النزوح المظللة بالرعب ، ومشاهدات وخيالات مرسومة في دفق انفعالي بقي حبيسا طويلا طويلا ، ثم تفجر أمام اول فرصة تتاح له .

الاطفال والمخيم : يتناول الاطفال في رسومهم البيئة الجديدة بملامحها وقسماتها العامة المميزة ، فالحياة في المخيم ، عبر العديد من الرسوم ، قد اختزلت بحيوية وشمول ، وقد قامت العديد من الصور باكتشاف أعمق خطوطها ، ولم تضع ملامحها بين مئات التفاصيل التي بدت لهم غير ذات بال . وقد رغب اكثر من طفل في تصوير المخيم في منظر عام ، الا ان رؤية كل واحد منهم كانت تختلف باختلاف شخصيته ، وقد وجدنا احد الاطفال يتناول رسم المخيم من خلال الحركة اليومية فيه ، فاظهر الباعة والعربات والاطفال الذين يلهون في ساحاته، واظهر اشكال الخيم المتنوعة المتعددة وهي تحيط بالساحة الرئيسية التي تتوسط المخيم، وثمة صورة تعبر عن رؤية اخرى للمخيم في منظر عام ، لقد اقتنص الطفل لحظة سكون تعم المخيم ، فكانت رؤيته له كمساحات هندسية مربعة او مستطيلة الشكل تحيط بمركز المخيم . وتتوزع الخيم فيما بينها ، مع تشديد بالالوان القاتمة على شوارع المخيم ، فكادت الصورة ان تتحول الى « مخطط هندسي » لولا حيويتها وتنوع الوانها التي تمتعت بكثير من المهارة والذوق . غير ان العديد من الاطفال فضلوا تناول موضوع المخيم من خلال الفعاليات اليومية في أجزاء منه ، في لحظات معينة انتقيت بذكاء ، مثل انتظار المؤن من مطعم المخيم ، المدرسة ، ملء الجرار من الصنابير العامة ، حركة الباعة والعربات والسيارات ، العرس واحتفالاته، المظاهرات ، تدريب الاشبال ، لعبة كرة القدم . . الخ .

ولا تخلو بعض الرسوم من التبشير كتابة ، حيث لا يكتفي الطفل بالرسم ، فثمة صورة حاول صاحبها ان يعبر عن حالة المخيم في الشتاء ، اذ بالاضافة الى تصويره الدراماتيكي لحبات المطر المنهمرة فوق المخيم ، نجد بعض الطائرات تحوم في السماء ، فيعلق صاحب الصورة : — انظروا ايها المتفرجون، ان طائرات العدو لا تفارقنا ، حتى في أيام الشتاء، ولا يرتفع الضرب بالقنابل حتى والثلوج متراكمة . وفي صورة اخرى تمثل خيمة كبيرة ، لا يغفل صاحبها ان يسجل فوقها عبارة تشير الى انها « خيمة الغذاء » في المخيم ، ثم يضيف الجملة التالية : « النساء الفلسطينيات يطلبن الغذاء من اجل اطفالهن . . . » . وفي صورة ثالثة نجد مجموعة من الخيم على ثلاثة مستويات ، اثنتين من الخيام تحلق فوقهما طائرتان وتعليق: «طائرتان اسرائيليتان تحلقان فوق مخيم البقعة للنازحين » ثم تعليق ثان « النازحون في المخيم يعيشون عيشة شقاء وتعب » وفي منتصف الصورة خيمتان تتوسطهما طفلة صغيرة ثم تعليق : « طفلة تبكي للعيش الذي تعيشه في الخيمة الحقيرة » . وفي أسفل الصورة خيمة منفردة ثم خمسة اشكال بشرية يقفون بجانبها . ويعلق صاحب الصورة ايضا : « رجال في الصف لاستلام المؤن » . ويختتم الطفل تعليقاته : « سنرجع اليك يا فلسطين باذن الله واننا لعائدون » .

والواقع ان التبشير بالكتابة الى جانب الرسم يمس قطاعا من الاطفال ، وهم غالبا ممن تجاوزوا التاسعة ، اذ يرون ان الرسم وحده لا يسعفهم بالتعبير الشكلي فيلجأون الى الكتابة . وتتضمن رسومهم قيمة تنتمي الى اشكال أخرى من التعبير، فهي اكثر ميلا الى النثر والانشاء الادبي ، وتمثل الرسوم التي من هذا النوع نموذجا خاصا في خضوعها للتأثيرات الناضجة : المعلم ، الدعاية السياسية ، الكتاب المدرسي ، الاسرة . . . الخ فيغلب على رسومهم الطابع التوضيحي .

ولا بد ان نضيف ان رسوم المخيم ، على غناها ،

لا ترقى من حيث المعالجة والتشكيل الى مستوى رسوم الحرب ، كما لا تفلح في ان تعكس المزاج النفسي للاطفال بنفس الحرارة التي نراها في رسومهم الاخرى (خاصة رسوم الحرب). اذ غالبا ما تتضمن رسوم المخيم موقفا وصفيا فاترا أكثر منه موقفا حياتيا وانفعاليا . وربما عاد ذلك الى خلو الحياة العامة في المخيم من الحركة والديناميكية ، او لجفاف الطبيعة وخشونتها وقلة الوانها ، او لخضوع المخيم لانماط ضيقة من الاشكال والحركة والفعاليات المحدودة ، ولسيادة الروتين .

الوطن — والبيئة السابقة في رسوم الاطفال : لا تزال صورة القرية والارض قبل النزوح حية في اذهان غالبية الاطفال حيث تظهر كثير من الرسوم محاولات لاستعادة جانب من الحياة التي عاشها الطفل قبل النزوح . وتمثل رسوم عديدة هذا الجانب ، حيث موضوعات القرية والزراعة والحصاد تعطي اللون الاخضر مداه وتتعدد مستوياته ، وحيث تكشف هذه الرسوم عن صدق « طبوغرافي » وعشق خاص بالبيئة الاصلية ، التي هي مثار للتنوع والتعدد في خيال الطفل . لذلك لم يكن مستغربا ان تلحظ انعكاس البيئة على هذه الرسوم ، فنجد رسوما تتضمن اشجار البرتقال والنخيل عند اولئك الاطفال القادمين من أريحا او مخيم عين السلطان ، او نرى موضوعات الصحراء وآثارها والوانها في معالجات الاطفال القادمين من بئر السبع وقطاع غزة . ولا ريب ان « واقعية » هذه الرسوم و« صدقها » لا تعني حرفية هذه الرسوم او نسخها لصور البيئة ، اذ ان ذلك أبعد ما يكون عن رغبة الطفل وحبه للتعبير بالالوان . ولعل أشد التعابير عن البيئة الاصلية حرارة في ذاكرة الطفل ، رسومه للمنازل ذات الاشكال المربعة ، والتي تشف عمن بداخلها ، وحيث تحيطها الطبيعة باطار أخضر من الاشجار . وثمة رسوم أخرى ذات قيمة زخرفية عالية ، تمثل غرفا زهرية او خضراء اللون ، تتوسطها مائدة تحمل آنية ورد وبضع كراسي ، وتظهر بلاطات الغرفة الملونة ، ويقف وراء هذه الرسوم — التي تتيح لنا تدرا من الرغبة الطفولية في اختراق الصورة — نتيات صغيرات كثيرات العناية بالحياة المنزلية الهادئة . ان صور البيئة الاصلية — الوطن في هذه الرسوم ، تشكل نبعا خصبا لذاكرة الطفل الحية ، فلا يملك الا ان يؤكد ان منزله كان يوما هكذا ، وينكب على عشرات التفاصيل كأنما يصر على ان صورة منزله لا يمكن ان تنسى .

الاطفال والفدائي : الموضوع الاثير عند الاطفال هو الانسان ، والانسان عند الاطفال هو الفدائي ، فهو المعادل الموضوعي للجانب الاخر من صورهم ، الجانب السلبي والمأساوي . والاطفال عندما يعنون برسم الفدائي ، انما يعنون به من خلال انفعالهم الوجداني بالبطولة والشجاعة ، ومن ثم فهو « سوبرمان » اطفال المخيم ، القادر على اقتناص المجنزرة وكمائن العدو واحيانا الطائرات . وهو عندهم رمز للحركة والتهيؤ لعمل شيء ، ومن ثم فهو قلما يتخذ — في رسومهم — وضعا ساكنا ثابتا وانما هو غالبا في وضع قتالي ، فهو يتخذ وضع كمون او انقضاض ، حيث الظهر منحن والقدمان منفرجتان ، والسلاح في يده . وتتدخل نزعة الطفل الجمالية في تعميم بعض الظواهر المحببة ، اذ نلاحظ تكرر رسوم الفدائي الملتحي ، كما تشبع ثيابه المموهة والمرقشة رغبتهم في التلوين .

ان الجو النضالي العام الذي يعيشه أهالي المخيم دفع الاطفال الى التاثير بهذا الاتجاه في رسومهم . فالفدائي هو البديل للجانب المهزوم من الحرب المشتعلة يوميا . والفدائي اولا واخيرا ليس غريبا عنهم ، فهو ابن المخيم ، وقد نشأ بينهم ، وهم يعرفونه ، اذ هو يأتي بين الحين والاخر الى المخيم ، وعلى كتفه سلاحه السحري سريع الطلقات ، ولا بد ان تتاح لهم الفرصة ليسمعوا منه عن حياة الفدائيين وقتالهم .

ان رسوم الاطفال عن قتال الفدائي تعبر عن موقف ومزاج نفسي مختلف ، اذ ان موقفهم ازاء هذا « البطل » الذي يتحرك بينهم ، والذي يعرفونه بقسماته وباسمه ، واعجابهم أصلا بفكرة الفداء والشجاعة ، واتساق شكل الفدائي ، وملابسه مع جسمه الجمالي العام ، يكسب رسومهم معاني جديدة لم نعرفها في رسوم الحرب . فلا يروا « الحرب الجديدة » كما رأوها في حزيران ، انه النموذج الذي سيجند الاطفال من اجله كل امكاناتهم السحرية وحيلهم وحماستهم المجانية ليكون في وضع المنتصر دوما . ان المعارك التي يخلقونها على الورق تعكس هذا المزاج العام للاطفال ، فالفدائي احيانا اكبر حجما من اعدائه المتضائلين ورصاصه لا يطيش ، وهو ايضا متماسك الشكل ثابت (كتمثال اشوري) ومستعد للقتال . وهو حينا

ثالثا متطاول، نحيف، حيوي أشبه ما يكون بتماثيل جياكومتي الشهيرة ، وان كان اكثر حركة منها في رسوم الاطفال .

الاطفال وأشياؤهم الصغيرة : ربما كان علينا ان نفاجأ ان بقي لاطفال البقعة شيء من الطفولة ، وشيء من اهتماماتها ، مع ذلك فان اطفال المخيمات ما زالوا يدخرون في انفسهم القدرة على مواجهة ضغوط الحياة الجديدة والصراع اليومي والموت باللعب والزخرفة وعشق الورود والطيور . ففي رسوم اطفال البقعة تجد — رغم كل شيء — طيورا وعصافير ملونة تبحث عن حبات الطعام في التراب ، وتجد زهورا متعددة الاشكال والالوان ، وتجد رسوما مغطاة بالمساحات اللونية المجردة والزخارف . وتجد اشكال الفواكه والاشجار والشموس وتجد فتيات صغيرات بجدائل مربوطة بشرائط حمراء وبيضاء ، ورسوما للطبيعة المزخرفة ونساء وعرائس خدودهن مطبوعة بالاحمر كالتفاح . لذلك نحن مدعوون للتفاؤل : اذ ما زال لاطفال البقعة القدرة على اللعب !

جماليات رسوم اطفال النازحين

يعنينا الان دراسة معالجات اطفال البقعة للرسم ، التي تتميز بأنماط معينة في التعبير ، تسمى مظاهر ، او ملازمات رسوم الاطفال . وهي التي كانت تعتبر في الماضي كأخطاء ، وقد وجدنا ان جيمس سللي ، الذي تولى الكشف عن جوانب هامة في رسوم الاطفال ، كظاهرة الايجاز الشكلي ، قد تحدث عن التصوير الخاطىء عند الاطفال : « التناسق الخاطىء ، التقسيم الزمني الخاطىء ، عدد الارجل الخاطىء ، عينان في وجه جانبي ، بيت بثلاث جهات ، اخطاء في المنظور ، تعريض الاشياء مع أنه ينبغي اخفاؤها »(٤٠). هذا على الرغم من انه كان يحذر من جنوح البالغين للحكم على الاطفال من خلال مستويات الكبار . هذه « الاخطاء » ، والتي بقي عدد من العلماء يسمونها كذلك حتى ردح من الزمن ، هي جوهر رسوم الاطفال ، ميزتها ، جماليتها الخاصة ، النابعة من خلال رؤياهم الخاصة للعالم الموضوعي والتي ميزتهم دوما عن الكبار ، وقد أعاد فرانز كيزك الى هذه الميزات — الاخطاء اعتبارها ، سواء تلك التي تحدث عنها سللي ، واخرى غيرها ، تقنها وربط بينها وبين بعض القوانين التي حكمت الفنون القديمة ، والفن المصري بوجه خاص .

وعلى الرغم من اننا سوف نقتصر على تناول الملامح الخاصة لرسوم اطفال البقعة ، متجنبين قدر الامكان الاسترسال في بحث القوانين والانماط التعبيرية التي تميز رسوم الاطفال عامة ، فاننا مع ذلك سنضطر للدخول من باب التعبير الفني عند الكبار لكي نستطيع من خلال نظرة مقارنة اكتشاف مكامن اتصال فن الاطفال بالفنون القديمة والبدائية وصلتهما معا بالفن الحديث ، وصولا الى فهم جمالي لرسوم اطفال البقعة .

منذ عصر النهضة ، وبصورة اكثر دقة منذ ان حدد كل من البرتي وبرونللشي مفهوم المنظور ، والفنانون يخضعون انتاجهم على تراوح ، لثلاثة ابعاد ، وكانت مهمة البعد الثالث تحديد العلاقة بين الزمن والمسافة والحجم ، ويكون مقياسا لها جميعا . واستمر ذلك حتى القرن التاسع عشر عندما بدأ كسر هذه القاعدة في الرؤية بصورة حاسمة . ويقول روجيه جارودي « ان منظور عصر النهضة قد يكون طبيعيا بالنسبة لكائن خرافي له عين واحدة ، او لانسان أعور، على ان يظل ثابتا لا يتحرك »(٤١)، اي ان الافتراض في المنظور الكلاسيكي هو الرؤية من عين واحدة ، ومن مكان ثابت . وقد تعددت اساليب رؤية الفنان لعمله الفني طبقا لقواعد المنظور ، كأن يضع لوحاته في صندوق ، وينظر اليها من خلال ثقب واحد في الصندوق ، كما كان يفعل بوسان ، او بالنظر بعينين نصف مفتوحتين من مسافة قريبة كي نتيح لعناصر اللوحة الاندغام والاتساق ، كما فعل بعض الفنانين في حقبة لاحقة. غير ان مثل هذه المحاولات التي تعتمد على اتزان وهمي لارتباطه بالخداع الذي تخضع له القوانين البصرية في رؤيتنا للاشياء لم تقف حائلا امام ابداعات جديدة تحاول ان ترى بعينين اثنتين ، ومن كل مكان ، وان ترى الاجسام من عدة اوجه وعدة ازمان ، هذه الرؤية الرحبة التي « تستدعي رقصة حقيقية حول الشيء » وتتطلب « تغيرات مختلفة في المنظور »(٤٢). كذلك حاول العديد من الفنانين منذ نهاية القرن التاسع عشر ، احلال قوانين جديدة تسمح ، بالاضافة الى ما سبق ذكره ، الولوج الى « داخليات الاشياء » وتسمح بالحلم والتذكر واستباق الاشياء او توقعها او تخيلها . وواقع الامر ان مثل هذه التطورات لم تقتصر على فنون المحترف بل تعدتها الى كافة اشكال التعبير

الادبي ، كما في الشعر الحديث والرواية الحديثة ، والى فن السينما التي تميزت بقدرة خاصة هي جعلها « الزمن ارحب باظهار احداث تجري في آن واحد وفي اكثر من مكان » اذ نجد ان البناء الحديث للعمل الابداعي اصبح يتضمن اكثر من زمان واكثر من مكان ، وانفسح مجالا لان تجري الوقائع وتتحرك المخيلة وتهوم الاحلام وتتغير الشخصيات طورا بذات الزمان و(او) المكان ، وطورا عبر عدة ازمنة و (أو) عدة أمكنة .

واذا ما اقتصرنا هنا على الفن التشكيلي ، فاننا قد رأينا ان الفنانين ، على تراوح في فهمهم لطبيعة العمل الفني ودوره ، يعمدون لاستقصاء عناصرهم السلبية لتطلعهم لرؤيا جديدة في الفن من خارج الارث الفني الاوروبي ، وبالذات من الفنون الشرقية ، المنسوجات اليابانية ، النسيج الفارسي ، المعمار الاسلامي ، الفن المصري القديم ، الفنون البدائية ، وخاصة الفن الافريقي والمكسيكي القديم . وهي الفنون التي استخدمت انماطا من التعبير كان هدفها الاساسي « اعادة خلق الطبيعة دون نقلها » اي عدم اتخاذ موقف وصفي جامد من الطبيعة والحياة، وانما الفعل فيهما والتأثير في مجراهما .

ولو تفحصنا انماط التعبير عند الاطفال لوجدنا العديد من نقاط الالتقاء مع فنون طفولة الانسان الاولى ومع العديد من سمات الفنون الشرقية والفن المصري القديم بصورة او بأخرى ، وبالتالي وجدنا نقاط التقاء ما بين محاولات الاطفال التلقائية، والتجارب الفنية الحديثة الباحثة عن الرؤيا الارحب .. فالاطفال الذين غالبا يرسمون ما يعرفونه لا ما يرونه « يهملون » قواعد المنظور وقلما عرفوا البعد الثالث (الا في سني نمو متأخرة) تماما كما اهمل الفنانون الكبار عن وعي قواعد المنظور او حطموها منذ سيزان وجوهان وماتيس ... الخ . وكما يميل الاطفال الى الشفوف ، اي اظهار ما يفترض ان لا يرى بصريا ، كاظهار السمك وهي تسبح ، او اظهار الاشخاص القابعين في بيوتهم ، او اظهار الحبوب في احشاء الطيور .. الخ ، وجدنا جوان جري وبراك وبيكاسو يحاولون ان يظهروا ما لا يظهر . لقد وجدنا الاطفال يحتفون الرؤية الرحبة ، التي لا تنحصر في مكان واحد او زمان واحد ، حيث تنقل رسومهم عدة وقائع بذات الوقت دون العناية ان يكون ممكنا رؤية هذه الوقائع دفعة واحدة بصريا ، وهو ما فعله بيكاسو حينما كانت وجوه اشخاصه مرسومة من وضع جانبي وامامي مرة واحدة !

ان ما نعرفه من سمات لفن الاطفال ، من تخير للاوضاع النموذجية ، التسطيح ، التصنيف ، المبالغات ، الكتابة .. الخ ، قد رأينا تمثلات واعية له عند العديد من الفنانين المعاصرين والمحدثين مثل بول كلي ، ميرو ، شاجال ، دوفي ، سلفادور دالي وغيرهم . لذلك يمكن القول ، ان اطفال البقعة ، شأنهم شأن بقية الاطفال ، يقومون ضمن نظرتهم الخاصة للاشياء ، بما يحاول الفنان المعاصر ان يفعل اليوم ، اي استخلاص جوهر الشيء ، قانونه العام ، ويستبعد الامور العارضة، اي اعادة بناء الاجسام — الاشكال ضمن منظوره الخاص . فالرسم عند الطفل ليس تمثلا لما تراه العين في الطبيعة ، اي الحقيقة البصرية ، وانما هو اختصار وتشذيب للواقع ، مضمنا ذلك بموقفه الخاص ، الاحتجاج عليه ، اعادة صياغته برؤيا الطفولة واحلامها وامنيتها ، لذلك نشهد ، حتى في رسومهم التي تتناول موضوعا واقعيا ، كالقرية، الريف ، المخيم ، البيت ، عناصر جديدة لا تنتمي للواقع العيني ، المنظور ، تتمثل في اعطاء هذا الواقع صورة اجمل ، مزخرفة ، نظيفة ، كأنما يعكسون أمنية تحققها كما بنوها في خيالاتهم . هكذا رأينا آمنة عبدالغفار ترسم قريتها فرشقت فيها حسها الزخرفي والجمالي الخاص ، وهكذا رأينا نوال محمد ابراهيم ترسم غرفتها كما تتمنى ، مبلطة نظيفة ، تتوسطها مائدة خضراء ، وفوقها آنية تحمل زهرة منفردة ، لكنها كافية ، وتريد لنفسها متعددا ملونا . وهكذا يرسم الطفل النازح ، الفدائي بشاربين ولحية مسترسلة ، كأنما يريد ان يعمم ما هو خاص في رؤيته ، في حبه وعشقه لنمط جمالي ما .

الاطفال ، وكما يحاول الفنانون منذ زمن ، لا يرون اية حاجة لرصف كل المواصفات الشكلية لشيء ما . انهم يبحثون عن خطوطه المؤثرة ، الموحية بجوهر الجسم ، بطبيعته ، « بنواياه » . لذلك تبدو اشكال رسومهم حية ، مفكرة ، مريدة ، تشف عن مواقفها ، عن نواياها . لننظر الى رسم خطه الطفل يعقوب محمد ١٣ سنة ، وهو يمثل جمالا . ثمة شيء يشعرنا ان الجمال تضحك ، تسخر منا بصورة ما . انها اليفة بصورة مميزة ، لا نخطيء اذا امتلكتنا مشاعر الحنو على هذه المخلوقات

الصبورة ، التي تشف عن مشاعر صوفية . التعب والارهاق مع الابتسامة . لنأخذ صورا من الطائرات ، نلاحظ ان الاطفال قد اظهروا جوهرها العدائي ، نواياها العدوانية ، فجاءت مرعبة اسطورية !

(١)

« يبدأ الفن بمعناه الدقيق بعملية التحديد ، يبدأ بالطريق القائم بين الغموض والتخطيط الخارجي . ومن المؤكد اننا نجد ان النوع الاول من الفنون تاريخيا ــ من رجال الكهوف ــ يبدأ بالخط الخارجي ، فقد بدأ الفن بالرغبة في رسوم خطوط ما ، وما زال يبدأ هذه البداية عند الطفل ... »(٤٣).
لقد وجدنا الاطفال الفلسطينيين لا يشذون عن القاعدة العامة ، التي تحكم رسوم الصغار عموما ، ان الخط هو جوهر الرسم عند الاطفال ، يبدأ تحت وطأة تأثيرات بيولوجية ، مشوشا ، عشوائيا ، ثم آليا ــ موجيا ثم رحويا ، ويصبح أكثر قصدية ، فيتنوع ويتقطع ويتحول الى رموز ، الى ان تكتمل سيطرة الطفل على اصابعه ، ويأخذ الخط طوع ارادة صاحبه فيظهر اكثر وعيا ، اكثر « وظيفية » .
نجد في لوحة « المخيم » ، رسم عنان ، ٦ سنوات ، بداية تحول الخط لخدمة فكرة في ذهن الطفل . نجد خطوطا رمزية ، متنوعة ، بدايات تكسر الخط ، مع بقايا شيء من العشوائية . فقد اكتشف الطفل المخيم من خلال كتل بيضوية ، شبه دائرية ، عبر من خلالها عن هيئة الخيم المتراصة . ولانه يعرف اكثر عما تحتويه هذه الكتل ــ الخيام ، فقد ضمنها كتل بيضوية صغيرة اخرى ، انها سكان الخيم . وتعبر لوحة « كتابة » عن ذات المرحلة ، غير ان المدرسة خلفت له رموزا شكلية لم يكن يعرفها كتابة : ارقام ، احرف ، اشكال فطرية ، غير انه لا يميز فيها سوى طابعها العام ــ شكلها ، فيكررها ، يصففها الى جانب بعضها البعض افقيا ورأسيا . وبعض « السطور » تضمنت ثمار تفاح مختصرة في شكل دائري ملون ، ثم خط رأسي قصير اعلاها . ثم حروف : ب ، ت . صفوف تضمنت ارقام : ٣،٥ (مقلوبة) . ، ١ ، ٢ ، ١ ، ٣ (مقلوبة) ، ثم حروف ت ، ب ، ثم ثمرتا تفاح . صفوف ثالثة ورابعة تضمنت ارقاما واحرفا واشكالا بشرية في غاية الايجاز والاختزال : شمس ، هلال قمر ، عصفور ... الخ .

يكتسب الخط في مرحلة نضج تالية ملامح معينة . خطوط مختصرة ، موجزة، بليغة ، مكتفية بحدودها، تنثني حينا وتتكسر في حين آخر ، ولكن بخدمة هدف يسيطر على ذهن الطفل . لنرى نموذجا للتعبير الخطي الذي يعطي احساسا بوظيفة الخط في هذه المرحلة ، انه يمتد ويتطاول فوق النموذج الموضوعي ــ الواقعي بصريا ، ليعني شيئا محددا . ليعبر عن فكرة ، مدرك ، احساس ملح . اننا نرى في احدى اللوحات طفلة تقف فوق كرسي اخذ شكلا مختصرا جدا . غير انه ليس موضع شبهة او التباس ، انه كرسي كما لا يمكن ان يكون شيئا آخر . لنلاحظ هنا ان الطفلة متضائلة الحجم ، قصيرة الساقين ، ليس ثمة شعر (ولماذا الشعر هنا ، لا حاجة اليه) ، اما الساعدان فهما طويلان بما يكفي لقطف ثمرة تفاح متدلية . هنا نلاحظ ان الخط يوظف لخدمة غرض محدود . لقد ابرز لنا الرسم اصابع اليد بصورة واضحة، لان لها علاقة بالقطف ، بتناول ثمرة تفاح . وبذلك كان الطفل منسجما مع احساسه بغرض الصورة . فالحاجة الى الساعدين تبرر (المبالغة) في تطويلهما ، كما ان الساقين قد بولغ في تقصيرهما ايضا . لماذا ؟ لان الطفل احس بعجز ساقيه على ايصاله الى ثمرة التفاح ، فيما كان الكرسي يمثل في ذهنه ، أداة الرفع ، العلو .
ثمة صورة ، عبر طفل فيها عن ذعره ، من خلال توحده ضمن مساحة الورقة ثم احاط نفسه بزوابع من الخطوط الرحوية الى درجة خانقة ، فيما تظهر طائرة من بعيد ، تظهر رغم اختزال شكلها ، مصدر خوفه . ولطفل آخر ، عادل ، لوحة تعبر عن ذات الفكرة ، الخوف من الطائرات ، حيث توسط شخصان الصورة ، ثم احاطهما بالخطوط التي اتصلت بطوق شبه دائري من الخطوط يحيط بهما . لقد وجدنا ان هذا الطوق من الخطوط قد نقل احساسه بحركة الطائرات ، وبقدرتها على المحاصرة .
وتقدم الطفلة جليلة (١١ سنة) نموذجا عن احساسها الغريزي بقدرة الخط على تشكيل كتلة بصورة حيوية . الخط في لوحتها ، نموذج لاحساس الطفل بقيمة الخط في اداء وظيفة ما . نلاحظ مثلا امتداد الخط ، انحناءه ، ثم تكسره في نقاط معينة ، معبرة بذلك عن كتلة صلبة بارزة ، مثيرة للفضول ، دون ادنى حد من التلوين ، ثم نلاحظ تقاطع الخطوط ودخولها في صلب الشكل ، مكسبة

الاجسام شفافية رقيقة تسمح بمثل هذا التقاطع . اما رسوم الطفل محمد احمد عرفات (١١ سنة) ، فان الخط يتضمن عنده قيمة استثنائية ، اذ تبدي رسومه اتجاهه التخطيطي اكثر مما تمثل تلوينا . لذلك فهو ينتخب موضوعاته من ساحات القتال التي تسمح له بممارسة عشقه للخطوط حيث تكثر الاليات ، الطائرات ، الجنود ، الفدائيون ...

ملاحظات خطية عامة : ١) تستخدم الكتابة والاحرف والارقام والاشكال المختصرة بصورة عامة في سن الروضة وبعدها بقليل (ظاهرة التصنيف، التكرار..) ٢) ظهر تقليد متوارث بين الاطفال ، وهو رسم الوجه بطريقة « كتابية » ، اذ يشتق رسم الوجه الجانبي من كلمة « ملح » ويتكرر هذا الاشتقاق كثيرا عند رسم الوضع الجانبي للوجه بين اطفال المخيم ، وربما بين اطفال المنطقة . ٣) الموضوعات التي تستجيب لقدرات اطفال المخيم التعبيرية في الخط هي : الفدائيون والشكل البشري عموما ، المعارك ، الفعاليات اليومية في المخيم ، الطيور ، حيث تتيح هذه الموضوعات فرص التعبير عن الحركة في هذه الموضوعات من خلال الخط .

(٢)

كان الفنان هويسلر يقول انه يمزج الوانه بعقله. وثمة من يقول : اذا كان التلوين قبل ان يكون سمجا، فذلك لانه تقليد أعمى للطبيعة(٤٤). وبين القولين المارين واستخدام الاطفال للالوان صلة واسعة ، مع فارق ينبغي أن نأخذه باعتبارنا دوما في مثل هذه المقارنات : الوعي عند الكبار والتلقائية عند الصغار . ان اطفال البقعة شأنهم شأن بقية الاطفال عامة ، يتعاملون باللون تعاملا رمزيا . ويستمر هذا مع تدرجهم في النمو الى مرحلة متأخرة ، تبدأ مظاهرها الاولية منذ سن التاسعة فما فوق حيث تغلب على الاطفال الرؤية البصرية الواقعية والاستخدامات « الطبيعية » للون . ومن جهة ثانية ، يشكل الاستخدام الرمزي للون عند الاطفال وجها آخر من أوجه التشابه بينهم وبين الرسوم البدائية والفنون القديمة عموما . وهكذا نجد ان اطفال البقعة يميلون الى احلال الوانهم محل الالوان الواقعية معبرين عن مواقف ذاتية من الاشكال والاجسام . ان الطائرات مثلا تتباين الوانها ما بين الاسود والاحمر والازرق ، تبعا لحالة الطفل الذاتية ورؤيته لهذه الطائرات ، غير انه لم يكن ثمة طائرة واحدة ذات لون « طبيعي »، « واقعي » بصريا . كذلك الخيم التي لا يمكن تميز الوانها الاصلية في المخيم ، بفعل الغبار والشمس والمطر وبسبب قدمها ، فانها جميعها مصبوغة بلون التراب ، تجدها عند العديد من الفتيات وبعض الفتيان ملونة مزخرفة حية مبهجة ، ليس لانهم يرونها هكذا ، ولكن لانهم يودونها اجمل مما هي عليه . ان العديد من هذه الخيم قد تحول عند بعض الفتيات الى قطع مزخرفة غنية بالالوان حتى فقدت صلتها بالواقع العياني . كما هو حال « خيمة » سارة حمدان (١٠ سنوات) ، كذلك « خيمة » فاطمة سليمان احمد و« خيمة » صبحة محمد (١٢ سنة) و« خيم » يسرى احمد (١٠ سنوات) . كذلك نجد اتجاهات زخرفية وتلوينية في مواضيع متعددة عند بعض الفتيات رغم اتجاههن نحو الرؤية البصرية . اذ لم يمنعهن ذلك عن تجميل الواقع او اعادة تشكيله من جديد . هكذا نرى ثلاث صور لنوال محمد ابراهيم (١٣ سنة) ، مثل « غرفة » التي سبق الاشارة اليها ، وثانية « بيوت » وثالثة رأينا فيها قطعة ملونة من المخيم لا يمكن ان يقع عليها بصرنا اطلاقا . كذلك وجدنا بضعة صور لآمنة عبد الغفار (١٤ سنة) تصور الحياة الريفية ، والقرية وقطف الثمار ، مزجت فيها الرؤية الواقعية الناضجة بالصياغة الزخرفية المليئة بالتفاصيل الجميلة . وثمة صور ذات زخرفات وصياغات لونية مجردة وجدناها عند الطفلة ميسر سعود موسى (١٠ سنوات) ويسرى احمد (١٠ سنوات) . ووجدت بضعة موضوعات استجابة خاصة في التلوين ، كما هو الحال مع « زهور » آمنة احمد (١٠ سنوات) ، « طيور » يسرى احمد (١٠ سنوات) ، « عروس » جليلة (١١ سنة) . وفي صورة « الام تحمل طفلها » لفاطمة رمضان (١٠ سنوات) ، كذلك في زخرفة شعبية عند ميسر صالح التي تبدو متأثرة بالتطريز المعروف في الملابس النسائية الشعبية الفلسطينية .

وكما هو واضح فان الاتجاه الزخرفي والتلويني ، يغلب على معالجات الاطفال الاناث اكثر مما هو عند الاطفال الذكور ، غير ان هذا لا ينفي وجود بضعة صور مزخرفة ، او تعطي اتجاها تلوينيا عاما . مثل صورة « دار وتفاحة » لفتحي (١٠ سنوات) ، قبة الصخرة للطفل محمد قنديل (١١ سنة) ، وكذلك « شيخ البلد » للطفل محمد احمد (١٠ سنوات) ... الخ .

وخلافا للمألوف في رسوم اطفال البقعة ، فان بعض الرسوم للحرب والدبابات او الطائرات كانت مجالا للزخرفة ، كما هو حال صورة « دبابة » لموسى خليل (٨ سنوات) ، « طائرة » لعمر محمد (٧ سنوات) . اما الطفل يعقوب محمد (١٣ سنة)، الذي تميز بكثرة انتاجه وتباين موضوعاته وتعددها ، عوضا عن ان رسومه تتميز بطابع شخصي مميز من عدة اوجه ، ويهمنا هنا ان نشير الى احداها ، وهو استخدامه للون الزهري ، فقد تعود ان يصبغ خلفية الصورة او الارضية بهذا اللون ، الذي نفترض ان انتقاءه له والاصرار عليه ليس تعسفيا فقد ارتبطت رسومه بدلالات بيئته باكثر من ناحية ، « فهو من اسرة تنتمي الى عرب بئر السبع ، المنطقة التي تتميز بطبيعة صحراوية». فهو ، باصراره على صبغ الارض باللون الزهري ، يدفعنا الى الاعتقاد الى ان فكرته عن الارض وخبرته بالامتداد الصحراوي جعلته ينتقي بصورة واعية لونا صعبا يمتاز بدفئه وحرارته ، ليعبر رمزيا عن هذه الخبرة ، في الوقت الذي يرفض فيه استخدام الوان واقعية كالاصفر الاوكر او الترابي او البني القهواتي ، وهي تلك التي يمكننا رؤيتها بصريا في رمال الصحراء او لون الارض .

ملاحظات لونية عامة : ١) يلجأ الطفل في مراحل مبكرة الى التلوين الرمزي ، بصبغ اطراف الاشكال التي يرسمها للدلالة على لونهـا ، دون ان يتم تلوينها ، كطلاء رأس الورقة العليا بالازرق دلالة على السماء وترك باقي المساحة بيضاء . ٢) يبدو ان الاناث من اطفال البقعـة يتمتعن بحس لوني وزخرفي اكثر مما هو نحـو العناصر التشكيلية الاخرى . وبصورة عامة يميل الاطفال ذكورا واناثا، في مرحلة متأخرة نحو الزخرفة ونحو رسم التفاصيل وتلوينها . ٣) تظهر الموضوعات التالية استجابة نحو التلوين : — الزهور ، الطيـور ، الخيم ، الريف والقرية الفلسطينية ، الفواكه ، المساجد ، ملابس الفدائيين وملابس النساء . كما ان موضوع القتال يستجيب لميول الذكور في التلوين ، ويلاحظ ذلك في رسوم مصطفى حسين (١١ سنة) ، حيث تتيح « البرقشة » في ملابس الفدائيين المجـال لاستخدامات لونية متعددة ، كذلك الحال مع لون الدبابات والارض والجبال . ٤) اظهرت التجارب الاولى للاطفال عدم وجود خبرات لونية عندهم ، يبدو ذلك من خلال عدم ادراكهم لطبيعة العلاقات اللونية ، فكانت تستخدم بضعة الوان باهتة على خلفية بيضاء (لون الورق) غير ان استمرارهم في الرسم أدى الى استخدامات جيدة اظهـرت حسا عفويا بعلاقات الالوان ، وتمكنت مجموعة من الرسوم من تحقيق نتائج طيبة في هذا المجال ، حيث بدا من خلالها ادراكهم لطبيعة المادة وليونتها وامكانية خلق شرائب ونتوءات لونية اضفت على رسومهم ملمسا بارزا ، مثلما اظهـرت تنظيمات عفوية لعلاقة الالوان القاتمة مع الالوان الفاتحة وايقاعات وتنظيمات لونية خاصة . ٥) استخدام التنقيط : ثمة ظاهرة ملموسة بوجه عام عند اطفال البقعة ، وهي استعمال النقطة بلون واحد او اكثر في التخلص من الفراغ ، وهذا الاستعمال للنقطة يتضمن قيمة هامة في رسوم الاطفال ، اذ انها تشكل حلا ما لمشكلة الفراغ التي يواجهها الطفل بصعوبة بالغة ، كما ان النقطة بحد ذاتها قيمة جمالية هامة ، خاصة اذا فرشت على النحو الذي يفعله اطفال البقعة في ارضية الرسم ، اذ تكسب صورهم قيمة اشعاعية كبيرة وحيوية بالغة ، وجدنا على سبيل المثال مدرسة فنية كاملة تلجأ اليها ، كما هو الحال مع « الترقيميين او التنقيطيين » . وبوسعي ان اتحدث عن الكيفية التي جرى بها اللجوء الى التنقيط في احد الصفوف، غير اني لا استطيع تفسير تعميمها على النطاق الذي نلاحظه في مجموعة كبيرة من الرسوم ، فقد حـدث ان تمت هذه العملية بصورة ايحائية من قبل طفل بدأ بتنقيط ورسم نقط على صفحة الورقة ، فاحدث وقـع التنقيط على الخشب ايقاعا معينا استجاب له بقيـة الاطفال بصورة تلقائية ، وانتقلت هذه « العدوى » الى البقية ويلاحظ ان هذه الظاهرة تشمل الاطفال الذين ما زالوا في مراحل نمو اولية وتتقلص تدريجيا مع تطور قدراتهم العامة . وربما ، يكون لخبرات الاطفال في المخيم ، مع ذرات التراب والغبار ، التي هي نقط صغيرة ، أساسا لحل مشكلة الفراغ في رسومهم بواسطة التنقيط . ٦) رغم انه لا يمكننا الحديث عن الوان « مفضلة » عند اطفال البقعة ، لان اساس هذا التفضيل لم يكن متوفرا دائما ، اذ كثيرا ما كانت الالوان قليلة ومحدودة بحيث لا تسمح لهم بالاختيار . غير انه يمكن ان نسجل ملاحظة او اثنتين على تاثيرات اجتماعية بصدد اللون . ففي احد الصفوف ، انهمكت طفلة في رسم امراة ، وقالت بشيء من الفرح الطفولي سألون فستان

البنت باللون الاحمر الذي « يغوي » ، ويمكننا تقصي مشاعر الطفلة نحو لون له احترام اجتماعي ، له اتصال بحس انثوي ، لون له ندرة ما ، يرتبط بطابع احتفالي « عرس ، فرح ، عيد .. الخ » . كذلك انهمك الطفل حسين ابراهيم (٩ سنوات) برسم عروس ، فعمم خبرته اللونية من خلال طقس اجتماعي « الاعراس » فجعل العروس ترتدي اللباس الابيض . كما لفتت نظره زينة النساء ، فصبغ وجنات العروس والفتيات اللواتي يحطن بها ببقع حمراء ، تعبيرا عن الزينة « الفندرة » وحمرة الخدود في الافراح .

(٣)

يذهب التفسير الاصطلاحي لتعريف معنى الشكل الفني على انه «الهيئة التي يتخذها العمل الفني»، ويزيد هربرت ريد : الشكل الجيد في العمل الفني « هو الذي يتخذ شكلا افضل من شكل ممكن ، هو الذي يمتعنا امتاعا يفوق الاعمال الاخرى »(٤٥). ان هذين التعريفين هما افضل ما يمكن تقديمه هنا ، رغم اتسامهما بالغموض والعمومية ، لسبب جوهري هو ان الشكل ، شأن بقية العناصر « الفيزيقية » الاخرى في اللوحة ، تتحدد وتتصف بمعايير عصر بعينه وحضارة بعينها ، وتحتفظ بذات الوقت بقيمة انسانية تتجاوز الحدود الزمانية والمكانية التي خلقت ضمن اطارهما ، لذلك لا يمكن ان تعمم مواصفات معينة للشكل في مرحلة حضارية ، على مراحل اخرى بصورة تعسفية . ولكن ماذا بالنسبة للاطفال ؟ يقال عادة ان الاطفال يرسمون ما يعرفونه ، وليس ما يرونه ، او بعبارة أدق يغلبون المعرفة على الحقيقة المرئية ، ذلك ان الاطفال يرسمون من خلال وعيهم هذا العالم والاشياء المتضمنة فيه . ويضرب مثل بهذا الصدد : اذا وضع أمام الاطفال نموذج ما ليرسموه ، فان رسومهم لهذا النموذج لا تختلف كثيرا عن رسومهم له من الذاكرة . وقد سبق ان اشرنا الى تقنين فرانز كيزك للقوانين التي تحكم رسوم الاطفال ، وعلاقتها بالقوانين السائدة في الفنون القديمة عامة، والفن المصري القديم خاصة . وسوف نحاول هنا ان نتبين هذه القوانين من خلال تتبعنا لملامح « الشكل » في رسوم اطفال البقعة بالاضافة الى ظواهر اخرى مختلفة عبر نماذج من رسومهم .

مصطفى حسين (١١ سنة) : تقدم رسوم هذا الطفل بعض المظاهر البارزة في فن الاطفال ، مثل خط الارض ، الاوضاع النموذجية ، التمثيل الزماني والمكاني ، التكرار المستمر . ففي صورة معركة الكرامة تسم الصفحة الى عدد من المستويات المتوازية (٥ مستويات) لها خطوط ارض خاصة بالاشكال التي يتضمنها كل مستوى . وقد احتل راس الصفحة عدد كبير من المنازل على شكل مستطيلات ومربعات تتكرر بعرض الصفحة . وعبر المستوى الثاني من الصورة عن قتال الدبابات العربية والطائرات الاسرائيلية . ويلاحظ ان الدبابة اخذت وضعا نموذجيا هنا ، فيما تكررت اشكال الطائرات على مساحة واسعة ، في محاولة لاظهار حركة الطائرات الحيوية . والمستوى الثالث هو نمط من التكرار لما سبق ذكره مع شيء من التنويع. اما المستوى الرابع فهو عن قتال الفدائيين ، حيث يلاحظ اتخاذ الفدائيين لاوضاع مختلفة (وقوف ، كمون ...) ، وفي المستوى الخامس يظهر مصطفى المخيم . ان الصورة بالاجمال تظهر ان الطفل قد عبر عن شريط من الحوادث وقعت في عدة اماكن بنفس الزمن او بأزمان مختلفة نسبيا بطريقة سردية (رواية) وهي الظاهرة التي تسمى بالتمثيل الزماني والمكاني لفكرة في رأس الطفل .

والصورة الثانية لمصطفى حسين تعكس ذات الظواهر في الاولى : ثلاثة خطوط ارض ، التكرار الآلي (الخيول الحمراء) ، التمثيل الزماني والمكاني ، كما يمكن ملاحظة ظاهرة اخرى هي المبالغة ، كما هو واضح ، في طول الفدائي الذي جعله بارتفاع الجبل ، ليمكنه من اطلاق النار على أعدائه ، وسنتحدث عن هذه الظاهرة عبر نماذج أخرى . اما صورة « فدائي فلسطين » ، فانها تقدم أحد أوجه ظاهرة « تغير الاوضاع النموذجية » كما يبدو من وضع الرأس الجانبي ، ووضع الجسم المقابل . وفي صورة « جندي اسرائيلي يستسلم لفدائي عربي » ، فاننا نجد ان الطفل قد عمد الى المبالغة في حجم الجندي الاسرائيلي ، لانه يريد ان يركز على فكرة الاستسلام ، كما مثل الفدائي في وضع نموذجي يساعد على ابراز فكرة الاستعداد، ومن جهة اخرى تعبر الصورة عن شغف الطفل ببعض الجماليات (اللحية ، الثياب المرقشة) .

يعقوب محمد (١٣ سنة) : نلاحظ في صورة « مظاهرة الفتيات في مخيم البقعة » بعض الظواهر البارزة الاخرى ، مثل التكرار اللحظي ، وظاهرة الرصف ، التصفيف ، اذ بعد ان رسم عددا من

الفتيات وعددا من الفتيان بشيء من التفصيل بدأ ان الطفل بدأ يمل من تكملة بقية الاشخاص في الصورة ، فأخذ يكررها بشيء من الاهمال ، مقتصرا على دائرة الرأس وخطوط تعبر فن الساعدين والجسم . والصورة تعطي ايضا نموذجا للمبالغات في رسم بعض الاحجام ، كما هو الحال مع الفتاة حاملة العلم ، فالمبالغة هنا تهدف الى لفت الانتباه الى أهمية هذه الفتاة التي تقود المظاهرة . ولنفس الطفل صورة ثانية تعكس ظاهرة اخرى هي عدم تقيد الطفل بوضع الاشكال بصورة تتسق مع الواقع المرئي ، اذ نجد انه قد غير وضع الورقة عندما رسم (حامل الثعابين) . وفي صورة النازحات يحملن الحطب ، فاننا نجد اتجاهات ناضجة في الرسم ، تتمثل في التلوين الكامل للمساحات ، أجسام النساء في وضع متقابل ، كذلك وضع رؤوسهن ، بالرغم من التكرار في رسم النساء الا انه لونهن بألوان مختلفة . كذلك يلاحظ وضعهن المتماثل الذي يعطي الصورة اتزانا يوحي بالنضج. كذلك نجد في صور اخرى له (بلدة الكرامة مثلا) محاولة للتمثل للرؤية البصريـة والمنظور (رسم البيوت على شكل مكعبات) ويلاحظ انه استخدم ثلاثة ألوان ، لتغطية مساحات الجدران ، مما اعطى البيوت شيئا من التجسيم .

الطفل عادل (٦ سنوات) : في الصور العديدة التي تركها لنا نجد العديد من المظاهر التي تميز الاطفال في مرحلة مبكرة من النمو ، كما نجد العديد من السمات الخاصة به . ان السمة البارزة في معالجاته، هو انه يقلب وضع الورقة أمامه في عدة اتجاهات فلا تكاد تعرف كيف تنظر اليهـا . وفي رسومه عادة حشد من الاشخاص والطيور والطائرات والدبابات والبيوت مرسومة من اتجاهات الورقة الاربعة . وفي صورة « دار » نجد نموذجا لمرحلة اخرى ، ويلاحظ انها تجمع بين ظاهرتين هما الشفوف ، والتسطيح ، فالرسم يظهر ما يفترض عدم ظهوره واقعيا (عبر الدار يظهر : الشخص النائم ، الجرة) . اما التسطيح فيعبر عنه اظهار النوافذ والابواب بصورة غير «واقعية»، فهي مفلوشة خارج الجدران ، وتجمع الصورة بين الرؤية من مسقط رأسي ومسقط افقي بوقت واحد . وعموما نلاحظ ظاهرة الشفوف في صور اكثر وضوحا مثل صورة دار للطفل منير احمد (٨ سنوات) ، « طائرات اسرائيلية تحلق فوق باص » للطفلة ميسر (٨ سنوات) . كما نلاحظ ظاهرة التسطيح في صورة « ملعب كرة القدم في البقعة » للطفل محمد عياد عيد (٨ سنوات) وفي العديد من رسوم الخيم ، الطائرات ، البيوت ... الخ .

وثمة ظواهر اخرى مثل الحذف ، كحذف شعر الرأس ، او الفم او احدى اليدين او الاثنتين معا، اذا لم يكن لهذه الاعضاء دور في الرسم . كما يلاحظ ذلك في صورة حاملات الجرار لليلى (١١ سنة) وصورة « ذات الشرائط الحمراء » للطفلة يسرى احمد (١٠ سنوات). كذلك ظاهرة التطويل، كما هو الحال في رسم الطفلة التي تقطف التفاح . وثمة ظاهرة عكسية ، هي التصغير ، كما نجد ذلك في رسم ليلى (١١ سنة) التي تمثل لعبة الحبل « النطة » ، فالطفلتان اللتان تمسكان بالحبل قد رسمتا بحجم كبير نسبيا ، فيما رسمت الطفلة التي تقفز صغيرة جدا ، ولعل الدافع الى ذلك هو الايحاء بعملية القفـز في الهواء « الخفة في الوزن » . كذلك نجد ذات الظاهرة في الرسومات التي تمثل أم تحمل طفلها ، اي المبالغة في تصغير الطفل الى درجة يمكن ان يحمل بكف واحدة ، كما هو مبين في صورة تغريد حسن (٧ سنوات) او فاطمة رمضان (١٠ سنوات) او رسمية توفيق (٩ سنوات) .

وتظهر رسوم اطفال اعمارهم فوق سن التاسعة مظاهر فنية ناضجة مثل : آمنة عبدالغفار (١٤ سنة) ، مصطفى حسين (١١ سنة) ، نوال محمد ابراهيم (١٣ سنة) ، يعقوب احمد (١٢ سنة)، محمد تنديل (١١ سنة)، احمد عرفات (١١ سنة)، آمنة احمد (١٠ سنوات) ، يسرى احمد (١٠ سنوات) ... الخ ، يمكن ان نلاحظها في محاولاتهم للامتثال للواقع المرئي ، وتجسيده من خلال محاولة اخضاع رسومهم للمنظور البصري ، اقتراب الوانهم من الطبيعة وابتعادها على تراوح عن التعبير الرمزي ، حل مشاكل الفراغ بصورة ناضجة ، ملء المساحات باللون، ابتعاد اشكالهم عن التعميم، وتقترب من التحديد والتفصيل ، فتظهـر البيئة برموزها المختلفة . وبوسعنا ان نتبين تراوح هؤلاء الاطفال ما بين مظاهر معالجـاتهم الطفوليـة ومحاولاتهم لتمثل اساليب ناضجة في التعبير ، في النماذج التي تناولناها في الملاحظات السابقة .

تتميز الرموز الشكلية (الموجزات الشكلية) للاطفال

عادة على صعيدين ، فهي عند اطفال البقعة تتميز اولا انها تحمل طابعا فرديا عند كل طفل ، يعبر عن خبرته الخاصة ومعرفته المعممة حول الاشكال والجنس العام لهذه الاشكال ، كما تقدمها البيئة والوسط الاجتماعي فتعكس رموزه الشكلية خبرته، نفسيته ، مستواه الذهني ، الجنس ، (ذكر، انثى) ، عمره الزمني : وهي العوامل التي تعطي اشكاله طابعا تعبيريا خاصا — (شخصي) . وثانيا، ان جملة الرموز الشكلية عند الاطفال ضمن الوسط الاجتماعي الواحد والتجربة الموحدة (المخيم ، النزوح ، الحرب) تعكس طابعا جماعيا عاما يحمل تأثيرات بيئية ، ثقافية، اجتماعية وتفاعلات جماعية. ان هذين الصعيدين هما ميدانان لمقارنات قابلة للقياس بين رموز الاطفال الفلسطينيين الشكلية ، ورموز اطفال آخرين من مجتمعات عربية واجنبية اخرى . ان هذه الدراسة والنماذج المرفقة تقدم أساسا اوليا لمثل هذه المقارنات من جوانب متعددة. وسنكتفي هنا بالاشارة الى ابرز الاشكال التي ترددت في رسوم الاطفال الفلسطينية ، والتي تظهر فروقات فردية متعددة، سواء تفاوتها من حيث النمو التعبيري ، السن ، ومن حيث الجنس (ذكور ، اناث) ، ومن حيث الفروقات الشخصية بين الاطفال الذين في عمر زمني واحد وجنس واحد :

١) الطائرات . ٢) الدبابات . ٣) الخيام .
٤) الشكل البشري (الفدائي بصورة خاصة) .
٥) الطيور . ٦) البيوت — المنازل .

---

١ — قام بالتجربة منى السعودي وكاتب البحث ، وشاركنا العديد من شبان المخيم ومعلمو ومعلمات مدارس المخيم في عملية جمع الرسوم ، كما أسهم بعض المهتمين بتقديم التجربة الى العالم العربي والخارجي واخص بالذكر صادق جلال العظم ، الذي كان استاذا في الجامعة الاردنية آنذاك والصحفي السويدي ستيفان بكمن .

٢ — عرضت هذه الرسوم في الاردن ، لبنان ، العراق ، السويد ، الدانمارك ، اليابان ، الولايات المتحدة الامريكية . وساعد في عرضها هيئات ومنظمات وشخصيات عربية واجنبية مهتمة .

٣ — حسبما اتصل بعلمي ، فقد ظهرت هذه الرسوم او بعضها في عدد كبير من الصحف والدوريات العربية ، اللبنانية والسورية والعراقية ، وبعضها احتل اغلفة عدد من المجلات وملاحق الصحف . كذلك قامت وكالة صحفية امريكية (Liberation News Service) بنشر مجموعة كبيرة من هذه الرسوم في بضعة اعداد من نشرتها الدورية ، كما نشرت في صحف ومجلات اجنبية مختلفة . ومن جهة اخرى احتلت رسوم الاطفال ، تقويما سنويا للجبهة الشعبية الديمقراطية ، وبطاقتين ، كما صدر كتاب « **شهادة الاطفال في زمن الحرب** » بتحرير منى السعودي من منشورات مواقف بالتعاون مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بيروت ١٩٧٠.

٤ — اشير بهذا الصدد الى تقييم ظهر في مجلة **الطليعة** السورية — بقلم طارق اسماعيل حول تجارب جمع رسوم اطفال سوريين — العدد ١٦٠ — ٢٨ حزيران ١٩٦٩ .

٥ — Viola, Wilhelm. *Child Art*, 2nd Ed., University of London Press, 1951, p.7.

٦ — **المرجع السابق** ، ص ٧ — ٨ .

٧ — **المرجع السابق** ، ص ٩ .

٨ — راجع : البسيوني ، محمود (دكتور) : **سيكلوجية رسوم الاطفال** . دار المعارف بمصر، القاهرة (١٩٥٨) : الفصل الثاني ص ٢٤ .

٩ — فيولا ، **المرجع السابق** ، ص ٨ .

١٠ — **المرجع السابق** ، ص ٨ .

١١ — **المرجع السابق** ، ص ٨ — ٩ .

١٢ — **المرجع السابق** ، ص ١١ .

١٣ — Charles Darwin, *Biological Sketch of an Infant*, Mind, Vol. 2, 1877, pp. 285-294.

١٤ — البسيوني ، **المرجع السابق** ، ص ٢٥ — ٣٤ .

١٥ — البسيوني ، **المرجع السابق** ، ص ٣٧ — ٤١ ، وص ١٣٢ — ١٤٣ .

١٦ — **المرجع السابق** : ص ١٥ ، ٢٧ — ٤١ .

١٧ — دوافع الطفل للرسم مختلفة ، تتغير بفعل النمو العام ولاسباب اخرى منها ما ورد ، سوف نأتي على ذلك في الفصل المتعلق بمراحل النمو والتعبير الفني عند الاطفال الفلسطينيين .

١٨ — هذه الصيغ الشكلية ، تتعدد تسمياتها « رموز شكلية » « موجزات شكلية » « نسق شكلية » « كليشهات » الخ .

١٩ — البسيوني : **المرجع نفسه** ، ص ٦٩ .

٢٠ — حسب احصاءات الامم المتحدة يبلغ عدد سكان مخيم البقعة ٣١٠ ٤٢ ٢ مواطنين ، وهناك نازحون لا يقيمون في المخيم ولكن يتصدونه للحصول على حصصهم ، بذلك يصبح العدد ٠٧٠ ٥٣ شخصا ، (جيرار شاليان : **المقاومة الفلسطينية** . دار الطليعة . بيروت ١٩٦٩) .

٢١ — احصاءات التعليم في مخيم البقعة : يوجد ٥١ صفا ابتدائيا للفتيان و٣٥ للفتيات ، و١٥ و٦ صفوف اعدادية ، و٢٦٧١ طالبا و١٧٢٢ طالبة ابتدائية و٦٤٨ طالبا و٣٣٠ طالبة اعدادية ، و٨٩ مدرسا و٤٧ مدرسة (شاليان ، **المرجع السابق** ، ص ٥٩ — ٦٠) .

٢٢ — يلاحظ ذلك بوضوح مع تلامذة الثاني الابتدائي ، ومع باقي الاطفال بصورة عامة .

٢٣ — لاحظت ان المعلمين لم يكونوا مقتنعين ذهنيا وذوقيا برسوم الاطفال التي تعطي الطفل قسطا وافرا من الحرية . ربما لانها تخرج الاطفال من نطاق المعايير الفنية القديمة ، التي كان بوسع المعلم ، على اساسها ، ان يضع مقياسا « لجودة الرسم » ، اما في تجربة مثل هذه فان المعلم يجد نفسه غير مهيأ للحكم على انتاج الطفل او توجيهه . والمسؤول طبعا هو ثقافة المعلم ، يفترض في مثل هذه الحالات ان يعاد تأسيس ثقافة المعلم على أسس تربوية جديدة .

٢٤ — مثل رسم الفواكه التي — لسوء حظ الاطفال — لا يرونها الا في النماذج المصورة .

٢٥ — تضمنت هذه الرسوم أرثا تربويا تقليديا من جهة ، وقلة تعامل مع الالوان من جهة ثانية ، تتطلب الخبرة الاولية فهم خصائص اللون وكيفية استعماله ، علاقة خامة اللون مع لون الورق.

٢٦ — طبعا ، لم يترك الحبل على غاربه ، انما أصبح معيار تقييم الرسوم على اساس فهم اهتمامات الطفل ودرجة نموه وخبرته ونوعية الموضوع المعالج اي مدى سهولته او صعوبته.

٢٧ — على سبيل المثال راجع
Johnson, Ronald C. & Medinnus, Gene R: *Child Psychology (Behavior and Development)* John Wiley and Sons, New York, 1965, pp. 47-49.

٢٨ — راجع احصاء عن رسم تفاصيل الجسم الانساني بين جودانف وبارتردج ، البسيوني ، **المرجع السابق** ، ص ٣٠ . وفي واقع الامر ان غالبية الباحثين الذين يستخدمون الرسوم لتحديد وقياس ذكاء الاطفال يعمدون الى وضع نتائجهم بصورة رياضية . راجع : بدري ، مالك (دكتور) : **سيكلوجية رسوم الاطفال (اختبارات رسم الانسان وتطبيقاتها على اطفال البلاد العربية**) بيروت — دار الفتح للطباعة والنشر ١٩٦٦ .

٢٩ — مرحلة التخطيط تبدأ من سن أقل لكني بدأت من سن الثالثة ، وقد جمعت رسوم لاطفال في هذا السن بصورة محدودة . ويعتبر سن الخامسة هو سن بداية التجربة (مرحلة الروضة في المخيم) نظرا لان التجربة لم تشمل اطفالا من سن ادنى من ذلك الا بصورة محدودة جدا .

٣٠ — يستخدم لونفيلد تسمية التخطيط غير المتحكم به محل تسمية تخطيطات غير مقصودة ، وأساس الاعتراض على التسمية الاخيرة هو انها بنيت على اساس الرسم ، اما التسمية التي يقترحها : التخطيط غير المتحكم به ، فانه يبنيها على اساس نمو الطفل الذي لا يستطيع التحكم في عضلاته . (راجع البسيوني ، **المرجع نفسه** ، ص ٤٧ — ٤٨) .

٣١ — حركة موجية ، بندولية ، نمط من التخطيط يتضمن قدرة عقلية اولية على التخطيط اكثر انتظاما مما قبلها .

٣٢ — تتضمن هذه الخطوط ، حركة دائرية ، رحوية ، ثم يصيبها شيء من التنوع بادخال الخطوط عليها . وهي تمهد لحركات قصرية تتمثل في تقطع الخطوط واتجاهها نحو الرموز .

٣٣ — تخطيطات مقيدة — شبه رمزية . محاولة للطفل لتعبير باشكال رمزية ذات طابع نظري جدا .

٣٤ — رسم الارقام ، الحروف الهجائية ، الاشكال الاولية للموجودات ، تكرار رسم الاحرف ، الارقام ، الاشكال النظرية من مميزات هذه المرحلة . (التكرار ، الرصف ، التصنيف . الخ)

٣٥ — لا تتميز هذه الرسوم من حيث نمطها ، تتميز من حيث شكل الاحرف العربية عن اللاتينية مثلا في رسوم الاطفال . غير ان اساس هذه الرسوم واحد في رسوم الاطفال في العالم .

٣٦ — اي ان اطفالنا ليسوا فقط ، يعانون من

القهر القومي (الاحتلال ونتائجه) وانما من قهر انساني ينطوي عليه التخلف العام للمجتمع ، الذي من آثاره فساد وتأخر المؤسسات التربوية عوضا عن ضآلتها ، الى حرمان الاطفال من سمات الطفولة المعروفة .

٣٧ — مجلة **الطريق** (اللبنانية) عدد ١١ — ١٢ سنة ١٩٦٩ .

٣٨ — من حديث مع الشاعر محمود درويش : مجلة **الطريق** اللبنانية عدد ١١ — ١٢ ١٩٦٩ .

٣٩ — الطريق ، **المرجع نفسه** .

٤٠ — جارودي ، روجيه : **واقعية بلا ضفاف** ، ترجمة حليم طوسون ، مراجعة فؤاد حداد ، دار الكاتب العربي — القاهرة (١٩٦٨) ص ٣٩ .

٤١ — جارودي ، روجيه : **المرجع السابق** ، ص ٣٩ .

٤٢ — جارودي ، روجيه : **المرجع السابق** ، ص ٤٠ — ٤١ .

٤٣ — ريد ، هربرت : **معنى الفن** ، ترجمة سامي خشبة (القاهرة ، دار الكاتب العربي . ١٩٦٨) ص ٦٤ .

٤٤ — هويسمان، دنيس: **علم الجمال ((الاستطيقا))** ترجمة : اميرة حلمي مطر ، مراجعة : الدكتور احمد فؤاد الاهواني . (القاهرة — دار احياء الكتب العربية . ١٩٥٩) ص ٧٤ .

٤٥ — ريد.، هربرت : **المرجع السابق** ، ص ٥١ ومن ص ٧٥ — ٧٨ . راجـع للمؤلف نفسـه **التربية عن طريق الفن** .

ثورة الشيخ عز الدين القسّام

عادل حسن غنيم

كانت قيادة الحركة الوطنية في فلسطين طوال العشرينات تعتقد أن الصهيونية وليس الاستعمار هي العدو الاول الذي ينبغي على الشعب العربي في فلسطين مواجهته ، وانه ينبغي التخلص منها اولا حتى يمكن التفاهم مع الانتداب ، وظلت قيادة الحركة الوطنية في فلسطين طوال تلك السنوات تأمل خيرا في بريطانيا ، وتتوقع منها في نهاية الامر ان تستجيب لمطالب البلاد وتتخلى عن سياستها التهويدية ، غير مدركة لحقيقة العلاقة التي تربط الاستعمار بالصهيونية .

وتحدث تغييرات هامة خلال سنوات النصف الاول من الثلاثينات ، لكن تلك التغييرات لم تكن تغيرات في الاهداف السياسية للحركة الوطنية ، بل كانت تغيرات في اساليب الحركة الوطنية ووسائلها ، فمع تدفق اعداد المهاجرين الصهيونيين الى فلسطين في تلك السنوات ، ومع زيادة امتلاك الصهيونية للاراضي الزراعية ، ومع ازدياد نضج عرب فلسطين سياسيا وادراكهم لحقيقة الاستعمار وفهمهم لمناوراته واساليبه ، تنبعث الدعوة قوية الى اتباع سياسة اخرى غير سياسة الاحتجاجات والوسائل السلمية ، فتبذل محاولات للحفاظ على الارض العربية وبناء اقتصاديات البلاد ، ويساهم الشباب بدور واضح في ميدان الحركة الوطنية ، وتنظم الدوريات لمراقبة الشواطىء منعا للهجرة غير القانونية ، وترتفع رايات الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطاني ، وتتشكل في تلك الفترة جماعات سرية نضالية آمنت بالكفاح المسلح طريقا لمكافحة الاستعمار والصهيونية ، وكان اهم تلك الجماعات جماعة الشيخ عزالدين القسام رائد الكفاح المسلح في فلسطين في وجه بريطانيا .

والشيخ عز الدين القسام سوري الاصل ، ولد في بلدة جبلة التابعة لقضاء اللاذقية عام ١٨٧١ ، ونشأ في بيت من بيوت العلم والادب ، وبعد أن درس العلوم الابتدائية ارسله والده الى الازهر الشريف حيث تلقى عن الامام الشيخ محمد عبده ، ثم عاد الى بلده بعد سنوات عديدة ، وعكف على التدريس في جامع السلطان ابراهيم بن ادهم ، ولم يكتف بنشر العلم بل شارك في حركة الجهاد ، فانضم الى عصبة عمر البيطار ، ثم اشترك مع صالح العلي في ثورته ضد الفرنسيين في شمال سوريا (١٩٢٠ — ١٩٢١) ، وارسلت اليه السلطة العسكرية رسولا يعد بتوليته القضاء وبذل العطاء له ، فرد الرسول خائبا وحكم عليه الديوان العرفي في اللاذقية بالاعدام . ثم التجأ الى حيفا في الخامس من شهر فبراير ١٩٢٢ واستوطن فيها وتولى التدريس في جامع النصر (ذكرت مصادر قليلة انه كان ايضا خطيبا لجامع الاستقلال في حيفا) . كما اسس مدرسة ليلية لتعليم الاميين من العرب(١). وكانت حيفا عندما هبط بها الشيخ القسام سريعة النمو في عمرانها ، فهي مرفأ فلسطين الاول واقرب مدنها الى لبنان ودمشق ، وهي بلدة متعددة الاقوام والجنسيات ، وهي قاعدة من قواعد التهويد مما

اسبغ عليها حساسية خاصة . ووجد القسام في جمعية الشبان المسلمين التي تألفت في حيفا عام ١٩٢٧ فرصة لتوسيع نطاق علاقاته بالناس ، فكان رئيسها وحامل لوائها . ويقول رشيد الحاج ابراهيم « لعل القسام هنـا بدأ في ممارسة ما كانت نفسه تتوق اليه ، وهو ان ينشىء عصبة بعد عصبة من اهل الايمان بهدف الثورة يوما ما » واذا بالقسام بعد عدة سنوات يكون عصبة سرية شرطاها الاساسيان أن يقتني العضـو السلاح على حسابه الخاص وان يتبرع بما يستطيعه لهذه العصبة ، وكان بعض افراد هذه العصبة من جمعية الشبان المسلمين وبعضهم الاخر من خارج هذه الجمعية(٢).

وكان الشيخ القسام ذا شخصية جذابة ، حسن السيرة والمعاشرة ، محدثا لبقا وخطيبا بارعا ، وابتدأ يخرج الى القرى منذ عام ١٩٢٩ عندما عـين مأذونا شرعيا مـن قبل المحكمة الشرعية فكان بمقتضى هذه الوظيفة يحضر حفلات الاعراس ، مما أعطاه فرصة لدراسة نفسيات الجماهير ، وكان القسام يتصل بسائر طبقات الشعب لا فرق بين متدين وغيره ، اعتقادا منه أن اصلاح المستهترين اولى من اصلاح غيرهم ، وكان هذا الاسلوب محل انتقاد موجه اليه من بعض الشخصيات ، حتى انه جرت بينه وبين بعض المثقفين مناظرات في هذا الصدد ، مثل تلك التي حدثت مع الشيخ صالح الحوراني ، فكان يفحم خصومه ، وقد ذكر الكثيرون من اخوان الشيخ القسام انه كـان يراقب المصلين وهو يخطب فوق منبـر المسجد ، ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد الى زيارته في منزله ، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لانقاذ فلسطين مما يهددها من اخطار ، ضمن مجموعات سرية صغيرة لا يزيد عدد أفراد كل منها عن خمسة أفراد ، وكان القسام يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان ، فكان لا يبوح بالسر الكبير الذي يحمله وهو الدعوة الى الثورة لمنع اقامة وطن قومي يهودي في ارض فلسطـين الا لاشخاص قلائل بعد ان يدرس نفسيتهم دراسة كافية لمدة قد تطول عدة سنوات . واستمر القسام يعمل بكل الوسائل لتأسيس نواة صالحة من عرب فلسطين ، يهيئهم للانطلاق في الوقت المناسب نحو الثورة(٣).

وكان القسام يحس بخطر الاستعمار والصهيونية ، فكان يدعو الى اتحاد الكلمة ولم الشعث وكان يبث روح الوطنية في النفوس ، داعيا الى الوحدة مناديا بالعودة الـى تعاليم السلف الصالح ، منددا بالفرقة منذرا قومه بعواقب الشقاق والتمزق(٤). واتفق مع بعض الخلص من اصدقائه على حمل راية الثورة ، وتعاهدوا على أن يقدموا حياتهم فداء على مذبح الوطن ، ليعطوا لابناء امتهم درسا بليغا في التضحية(٥). وكان القسام ينتقي اصحابه من اهل الدين والعقيدة الصحيحة ويقوم بتدريبهم في رحلات ليلية ، كما كانوا يقومون بحركات استطلاعية يتمرنون في اثنائها على اصابة الهدف(٦). ويروي صبحي ياسين ان القسام كان يقسم اخوانه الى عدة وحدات عسكرية منظمة : وحدة خاصة بشراء السلاح ووحدة للتدريب العسكري ووحدة للتجسس على البريطانيين والصهيونيين ووحدة للدعاية للثورة في المساجد والمجتمعـات ووحـدة للاتصـالات السياسية ، وهذا كله برغم امكانياتـه المحدودة ورغم مراقبـة السلطـة لسائـر تحركاته(٧).

وكان القسام يهتم بنشر مبادئه الحرة بين العمـال والفلاحين والباعة الذيـن كانـوا يحضرون دروسه(٨). كما كان متصلا بأوساط العمال في حيفا ، وكانت روحه وعظاته منسجمة مع فكرة الجهاد ووجوبه ، وكان بارعا في الوعظ نافذا به الى اعماق النفوس. وتكونت حوله حلقة جهادية متدينة من هذه الطبقة(٩). وكان القسام يلوم العلماء على تهاونهم في الدعوة الى الجهاد وحملهم مسئولية الوضع الجائر الذي كانت تنوء فلسطين تحت أثقاله ، وكان يردد على شفتيه في كل مناسبة آيات من كتاب الله تتعلق بالجهاد والاستشهاد(١٠). ولم يكن الشيخ القسام بالمتسرع او المندفع ، فقد جاوز الستين من عمره ، كما انه زوج وأب لبضع بنات وأطفال صغار ، وهو فوق ذلك عالـم مفضال

وشيخ جليل القدر ، فهو والحالة هذه ، رجل عاقل مسئول يدرك ماذا يصنع ويفهمه كل الفهم(١١). وكان القسام يؤمن بأن عرب فلسطين اذا شاءوا ان يحيوا في بلادهم ويدرأوا عنها الخطر الاستعماري والصهيوني فعليهم ان يبادروا الى ذلك معتمدين على انفسهم فقط ، غير منتظرين ان تهبط عليهم النجدات من السماء أو تأتي اليهم من وراء الحدود ، لانه كان يدرك ان كل بلد عربي لديه ما يشغله من مشاكله الخاصة او يمنعه من تقديم المساعدة والعون لعرب فلسطين(١٢).

ويحدث بعد انتفاضة البراق عام ١٩٢٩ انقسام داخلي في حلقات الشيخ القسام ، فقد انشق عدد من اخوانه على رأسهم أبو ابراهيم الكبير (خليل محمد عيسى) نتيجة لعاملين: العامل الاول هو انهم رأوا ان الوقت قد حان لاعلان الثورة حيث يرون الخطر يهدد كيان البلاد ، ولم يكن الشيخ القسام موافقا على ذلك حيث أن الاعداد للثورة لم يكن قد اكتمل بعد. والعامل الثاني هو رغبة المنشقين في جباية الاموال اللازمة للثورة من الشعب بكل وسيلة ممكنة ، بينما كان القسام يميل بل يصر على الانتظار وعدم استعمال العنف خوفا من الانقسامات الداخلية ، وأن الشعب سيؤيد الثورة بكل امكانياته بعد قيامها . وقد ظل امر هذا الخلاف غير معروف للحكومة اكثر من خمس سنوات ، ودل على تقدير رجال هذه العصبة لرسالتهم حتى وان اختلفوا على الوسائل والتفاصيل . وقد ظل المنشقون بعد ذلك يعملون سرا ضمن مخطط القسام الثوري .

وفي السنوات التي تلت انتفاضة البراق عام ١٩٢٩ كان نفر من الشباب المتحمس من اخوانه يرغب في التعبير عن شعور السخط على سياسة تهويد فلسطين بقتل من يمكن قتله من الصهيونيين . وفي عام ١٩٣٣ تمكن احمد الغلاييني من صنع قنابل الغام في معمله بمدينة حيفا ، واعطى ما صنع منها وعدده قنبلتان الى الحاج صالح احمد طه من قرية صفورية ،وكان لدى الحاج صالح ثلاث بنادق حربية، فكان يذهب في بعض الليالي الى المستعمرات الصهيونية الواقعة في مرج ابن عامر مع الشيخ احمد التوبة ومصطفى علي الاحمد ويطلق النار على من يجد من الصهيونيين . وعندما تمكن احمد الغلاييني من صنع القنابل استلمها الحاج صالح وذهب مع بعض اخوانه ، ووضعوا اول قنبلة في مسكن اربعة حراس صهيونيين في مستعمرة نهلال « الواقعة بين حيفا والناصرة قرب قرية المجيدل » فقتلت القنبلة اثنين وجرحت آخرين ، ولم يكشف سر القنبلة الا بعد ثلاثة اشهر بالرغم من جهود رجال الشرطة . فقد اكتشف الحادث عندما قامت قوة من رجال الشرطة بتطويق قرية صفورية وصادرت بندقية حربية وتنبلة مماثلة للقنبلة التي القيت في نهلال في منزل مصطفى الاحمد الذي استعملت معه سائر وسائل التعذيب الوحشية حتى اعترف بالحادث تفصيلا ، فاعتقل احمد الغلاييني صانع القنبلة وابراهيم احمد طه واحمد التوبة وآخرون منهم خليل محمد عيسى (ابو ابراهيم الكبير فيما بعد) وجرت محاكمتهم حيث حكم على مصطفى علي الاحمد بالاعدام ونفذ الحكم فيه ، وحكم بالسجن خمسة عشر عاما على صانع القنبلة احمد الغلاييني وبرىء الآخرون(١٣). ويروي عجاج نويهض ان الغلاييني حكم عليه بالسجن عشر سنوات مع الاشغال الشاقة ، وانه بقي في السجن حتى عام ١٩٤٤ ، وانه تابع نشاطه الوطني بعد الافراج عنه .

وقد تبع ذلك محاولتان اخريان محدودتان قام بهما رجال القسام على سبيل التجربة ، الاولى في مستعمرة عتليت عندما فاجأوا الصهيونيين وقتلوا عددا منهم ، والثانية قرب قرية « الياجور » عندما تصدوا لسيارات كثيرة كانت تنقل العمال الصهيونيين من مستعمرة الى اخرى وقضوا على عدد منهم(١٤). وقد اشار التقرير السنوي لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥ الى ان الحكومة كان لديها شك كبير في ان لعصابة الشيخ القسام علاقة بالاعمال الارهابية التي حدثت خلال السنوات السابقة(١٥). وكانت تلك المنظمة تعمل في طي الكتمان ، فلم يكن يعرف من كان يقوم بتلك الاعمال غير نزر يسير من الوطنيين ، ولكن لم يلبث الشيخ القسام وعصبته ان قرروا القيام بأعمال الجهاد علانية

لرفع معنويات الجماهير العربية وابرازا للاهداف التي يجاهدون في سبيل تحقيقها ، واحباطا للدعاية المعادية التي كانت تحاول اظهار اعمال القساميين بأنها اعمال اجرامية وانهم لم يكونوا سوى عصابة للسلب والنهب(١٦). فعندما اشتد خطر الهجرة الصهيونية وانكشف أمر تسلح الصهيونيين سرا بمساعدة السلطات البريطانية، اصبح الوضع السياسي لا يحتمل مزيدا من التأجيل ، وتقرر البدء بالتحرك من اجل الثورة في الاراضي الجبلية ، وعقد اجتماع في مدينة حيفا مركز الثورة الرئيسي في منـــزل محمود سالـــم المخزومي ليلة الثاني عشر من نوفمبر ١٩٣٥(١٧). وباع أصحاب القسام حلى زوجاتهم وبعض أثاثهم ، واشتروا بثمنها رصاصا وبنادق ، ثم قصدوا جبال يعبد القريبة من مدينة حيفا ، بل القريبة من مرسى الاسطول البريطاني ، غير عابئين بقـــوة بريطانيا المسلحة . وهذا يدل على أن القوم كانوا يعرفون مصيرهم ، وانه الشهادة في سبيل الله(١٨). ويؤثر عن رجال القسام ان كل واحد منهم كان يحمل في جيبه نسخة مـــن القرآن الكريم الذي اتخذوه قدوة لهم(١٩). وكانوا يرون أن كل السعادة هي في بلوغ مرتبة الشهادة والانتقال الى الحياة الاخرى للتمتع بما اعده الله للمجاهدين والشهداء من نعم(٢٠).

ويروي الاستاذ دروزة ان عدد الذين خرجوا مع القسام كانوا عشرة ، وهم : يوسف الزيباوي (من قرية الزيب) ، وحنيفة المصري (من القطر المصري) ، ونمر السعدي (من غابة شفا عمرو) ، واسعد المفلح (من قرية ام الفحم) ، وحسن الباير (من قرية برقين)، وأحمد عبدالرحمن جابر (من قرية عنبتا) وعرابي البدوي (من قرية قبلان) ، ومحمد يوسف (من قرية سبسطية) ، ومحمد الحلحولي (من قرية حلحول) ، ومعروف الحاج جابر (من قرية يعبد) ، وانهم دعوا اخوانهم الباقين للانضمام اليهم(٢١). ومروا وهم في طريقهم الى غابات يعبد بمستعمرة عين حارود ، فتعرض لهم حارس المستعمرة الصهيوني فقتله يوسف الزيباوي(٢٢) . وكان مع كل واحد منهم بندقية ومبلغ ضئيل من المال يستعين به على القيام بأوده ، وقد روى سكان قرية يعبد حيث كان القسام يرابط بجماعته على مقربة منهم ــ انهم لم يسألوهم او يطلبوا منهم شيئا في يوم من الايام، بل كانوا في النهار يأوون الى كهوفهم يصلون ويقرأون القرآن ، وفي الليل يخرجون الى القتال(٢٣) .

وقد ذكرت بعض المراجع العربية أن احد أفراد قوات الامن ــ وكان معروفا بأنه يعمل جاسوسا للسلطة المنتدبة ــ علم بالمكان الذي لجأ اليه القسام ورجاله ، فدل السلطة عليه(٢٤). وسارعت السلطة الى قمع هذه الحركة الخطيرة قبل تفاقمها وأرسلت الى الاحراش قوة مختلطة من البريطانيين والعرب ــ تساعدها طائرات استكشافية ــ فطوقت العصبة التي لم يكن امامها بد سوى الدخول في المعركة الحاسمة قبل اوانها، رغم المفاجأة وعدم التكافؤ في القوة(٢٥). وحين طلب من القسام أن يستسلم اجـــاب « اننا لن نستسلم . ان هذا جهاد في سبيل الله والوطن » والتفت الـــى زملائه قائلا « موتوا شهداء »(٢٦). وحين رأى في القوة المحاصرة عددا من الجنود العرب صاح في رجاله « اياكم ومقابلة رصاص الجنود العرب بمثله .. ولكن عليكم بالانجليز، فاجعلوهم هدف رصاصكم » ، وعلى هذه القاعدة دارت المعركة(٢٧). وبعد قتال استمـــر عدة ساعات انتهت المعركة باستشهاد الشيخ القسام وعدد من رفاقه وأسر الباقـــين ، واصدرت السلطة بلاغا بالحادث نعتت فيه القسام وصحبه بالاشقياء(٢٨) .

ويروي التقرير السنوي لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥ ان حادث مصرع جاويش من رجال الشرطة كان يقتفي اثر حادث سرقة في تلال الناصرة يوم ٧ نوفمبر هو الذي أدى سريعا الى اكتشاف وجود عصابة مسلحة بقيادة الشيخ عز الدين القسام بالقرب من هـــذا المكان ، وانه بعد هذا الحادث بعدة ايام وقبيل اكتشاف عصابة الشيخ القسام صرع احد عساكر الشرطة بعد تبادل النيران مع أحد رجال العصابة الذي قتل ايضا ، وانه

في يوم ٢٠ نوفمبر اطلق عيار مفاجيء على موقع به احد رجال الشرطة كان يقوم بعملية بحث في التلال الواقعة غرب جنين بعدة اميال ، وادى هذا العيار الى اكتشاف الموقع الرئيسي لعصابة القسام ، وانه في القتال الذي حدث بعد ذلك قتل أربعة من رجال العصابة واسر خمسة آخرون ثم قبض على احد افراد العصابة بعد ذلك ، وان العصابة كانت مسلحة تسليحا جيدا بالسلاح والذخيرة(٢٩).

ومن الغريب ان هناك اختلافا بين المراجع العربية — حتى من عاصر منها هذا الحدث — في تحديد موعد هذه المعركة وعدد الذين استشهدوا مع الشيخ القسام . فيروي احد المراجع ان هذه المعركة كانت في يوم الاربعاء الموافق الحادي عشر من أكتوبر ١٩٣٥ ، وان عدد الذين استشهدوا مع الشيخ القسام كانوا اثنين فقط هما يوسف الزيباوي وحنيفة المصري ، وان اثنين جرحا هما نمر السعدي واسعد المفلح ، وان الاحياء قد اعتقلوا بما فيهم المجروحون ، وان احد الرجال العشرة الذين خرجوا مع الشيخ القسام استشهد قبل واقعة يعبد بيومين ، وان معروف الحاج جابر لم يشهد المعركة ، لكنه اعتقل بعد ذلك وحوكم باعتباره احد افراد العصابة(٣٠). كما يروي مرجع آخر ان هذه المعركة كانت في اليوم الحادي عشر من اكتوبر عام ١٩٣٤ وليس عام ١٩٣٥ ، وان الذين استشهدوا مع القسام هما الزيباوي وحنفي ، وان المفلح والسعدي قد جرحا وقبض على الجرحى وعلى الباقين احياء(٣١). بينما يروي مرجع ثالث ويتفق معه الاستاذ عيسى السفري(٣٢) والاستاذ نجيب صدقة في تحديد الموعد(٣٣)، ان هذه المعركة كانت يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٣٤ وان الذين استشهدوا مع القسام كانوا اربعة لا اثنين وهم الشيخ يوسف عبدالله ومصطفى الزيباوي وحنفي عطيه احمد واحمد ابو عطية احمد، وان الجند قبضوا على الذين ظلوا احياء من رجال العصبة وهم الشيخ نمر السعدي وداود الخطاب ومحمود الزرعيني ومعروف الحاج جابر واسعد المفلح واحمد الحاج عبد الرحمن وعرابي بدوي(٣٤). ويروي الاستاذ عمر ابو النصر ان المعركة كانت في الثلث الاخير من شهر نوفمبر ١٩٣٥ ، وان الذين استشهدوا مع القسام كانوا اربعة هم : الشيخ يوسف عبدالله ومصطفى الزيباوي وحنفي عطية احمد وحمد بو قاسم خلف وان الذين قبض عليهم من رجال القسام اربعة هم الشيخ نمر السعدي وداود الخطاب ومحمود الزرعيني ومحمود جابر(٣٥).

وبروي صاحب « مجمع الاثار الاسلامية » ان المعركة حدثت يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥ — ويتفق — معه في تحديد الموعد الاستاذ أكرم زعيتر(٣٦). وانها انتهت باستشهاد ثلاثة من رجال الشيخ القسام هم : الشيخ يوسف عبدالله الزيباوي وحنفي عطية ومحمد ابو قاسم خلف(٣٧). ويروي الدكتور احمد طربين ان المعركة حدثت في نوفمبر ١٩٣٥ وان أربعة من زملاء القسام استشهدوا وقبض على الباقين ، بينما قتل جندي بريطاني وجرح اخران(٣٨). كما يروي مرجع آخر ان المعركة حدثت يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٣٥(٣٩). بينما يروي احد المراجع الصهيونية ان جماعة الشيخ القسام نشطت في تلال الجليل في بداية نوفمبر ١٩٣٥ ، وان ثلاثة من الجماعة قتلوا مع الشيخ القسام في المعركة ، وانه وجدت فوق جثثهم نسخ من القرآن الكريم(٤٠). ولكن تتبع الاحداث يؤكد ان هذه المعركة حدثت في الاشهر الاخيرة من عام ١٩٣٥ ، وبالتحديد في ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥ ، وقد تأكدت هذه الحقيقة من مراجعة الصحف اليومية العربية الصادرة في ذلك الوقت(٤١).

واما عن تحديد عدد واسماء الذين خاضوا المعركة مع الشيخ عز الدين القسام ، وعدد واسماء من استشهدوا او اصيبوا فيها ، فهذا امر ما يزال يحتاج الى تحقيق لم تتوفر وسائله بعد ، وان كان هناك شبه اجماع بين المراجع العربية على ان من بين من استشهدوا في هذه المعركة محمد حنفي احمد (المصري) ويوسف الزيباوي . وهناك اختلاف بين الصحف المصرية في تحديد اسم المصري الذي استشهد مع الشيخ القسام . فتروي جريدة المقطم ان اسمه هو « السيد قاسم المصري »(٤٢). بينما تروي جريدة

الاهرام ان اسمه « السيد احمد عطية » من سكان القاهرة ، وانه كان يقيم في حيفا قبل ذلك باثنين وعشرين عاما ، وانه كان يشغل وظيفة « ورديان » في جمرك حيفا ، وانه كان زوجا وابا لثلاث بنات صغيرات(٤٣).

تبقى بعد ذلك نقطة اخرى ما تزال تحتاج الى تحقيق ، وهي ما ذكرته بعض المراجع الغربية(٤٤) من ان القسام كان ينوي احتلال حيفا واعلان ميلاد ثورة شعبية كبيرة . وان كنت ارى على ضوء تطور الاحداث ان ذلك لم يكن أمرا مطروحا ــ على الاقل في تلك المرحلة ــ وان تنفيذه كان يحتاج الى مزيد من الرجال ومن العتاد ومن التهيئة الشعبية اللازمة التي لم تكن قد توفرت بعد بالقدر الذي يجعل هذا الهدف امرا قابلا للتنفيذ في ذلك الوقت. وقد أثارت هذه المعركة عواطف أبناء فلسطين والهبت مشاعرهم، فتابلوها بمظاهر جياشة من الاكبار ، حتى خشيت السلطة من ذلك ، فسلمت جثث الشهداء لذويهم واغمضت العين عن الاحتفال بدفنهم(٤٥). وقد نعي الشيخ عز الدين القسام وصحبه من مآذن المسجد الاقصى ومساجد فلسطين ، وصلى الناس عليهم في كل مكان صلاة الغائب(٤٦). وسار موكب الجنازة مجللا بالاعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية(٤٧). وقد حضر الجنازة جمهور كبير من المواطنين ، وحيت الصحافة العربية الشيخ القسام كشهيد للوطن والعقيدة . « أيها الصديق العزيز والشهيد . لقد سمعتك تعظ فوق منصة ، مستندا الى سيف ، اما اليوم وانت في جوار الله ، فقد اصبحت في مماتك اكثر عظة مما كنته في حياتك »(٤٨). وقد اغلقت مدينة حيفا في ذلك اليوم ، وصلي على الشهداء في المسجد الكبير ، وانقلبت الجنازة الى مظاهرة وطنية هاجمت فيها الجموع دائرة الشرطة فحطمتها ، كما حطمت نوافذ المحطة ، واصيب عدد من رجال الشرطة البريطانيين ، ولولا ان لزمت السلطة الصمت وسحبت جنودها لتطور الامر الى درجة كبيرة(٤٩). وابت الجماهير الا ان تشيع الشيخ عز الدين القسام الى مقره الاخير في قرية الياجور التي تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلومترات سارتها على الاقدام حاملة نعش الشهيد ، فكان مشهدا رائعا من مشاهد الوطنية الحقة(٥٠). وفطن اهل فلسطين الى الغرض الذي اراده القسام باستشهاده ، فاحتفلت حيفا في اوائل يناير ١٩٣٦ بتأبينه وتأبين رفاقه بمناسبة مرور اربعين يوما على استشهادهم احتفالا رائعا(٥١).

ولم يفت الشعر الوطني ان يعبر عن هذه الحادثة ، فهذا هو الشاعر عرنوس يردد :

من شاء فليأخذ عن القسام	أنموذج الجندي في الاسلام
وليتخذه اذا اراد تخلصا	من ذله الموروث خير امام
ترك الكلام ورصفه لهواته	وبضاعة الضعفاء محض كلام
او ما ترى زعماءنا قد اتخموا الـ	آذان قولا ايما اتخام
كنا نظن حقيقة ما حبروا	فاذا به وهم من الاوهام(٥٢)

وجرت يوم ١٩ اكتوبر ١٩٣٦ محاكمة عصبة الشيخ القسام ، فحكم على كل من احمد الحاج عبد الرحمن وحسن باير وعرابي بدوي بالسجن اربعة عشر عاما مع الاشغال الشاقة ، واسعد المفلح والشيخ نمر السعدي وداود علي الخطاب ومعروف الحاج جابر بالسجن سنتين(٥٣). وتضيف بعض المراجع اسما اخر الى الذين حكم عليهم بأربعة عشر عاما وهو محمد يوسف ، وان المحكمة اوصت بمعاملة المحكوم عليهم معاملة خاصة وان يعتبر تاريخ سجنهم من يوم ٢ مارس ١٩٣٦(٥٤). وقد أعلن رجال القسام امام المحكمة والقاضي البريطاني انهم خرجوا لقتال البريطانيين لا اليهود(٥٥).

اما الجاسوس الذي وشى بعصبة الشيخ القسام وهو احمد نايف ، فقد اغتاله المجاهدون في حيفا قبيل محاكمة جماعة المجاهدين(٥٦). واما الذين ساعدوا في القبض على المجاهدين او شهدوا زورا اثناء محاكمتهم ، فقد اغتالهم المجاهدون في أوائل عام ١٩٣٧(٥٧). وكان القساميون قد لجأوا في تلك الفترة الى الاغتيالات الفردية لارهاب

الجواسيس وسماسرة الاراضي ، فاغتالوا كثيرين كان في مقدمتهم الضابط حليم بسطه مدير القلم السياسي في شرطة حيفا ، وكانوا قد هاجموه في المرة الاولى واطلقوا عليه الرصاص فجرحوه ، فهاجموه بعد ذلك في رابعة النهار ، ورموه سبع عشرة رصاصة استقرت في جسده ، ولم يبرحوا المكان حتى تركوه جثة هامدة ، ثم انصرفوا دون ان يتعرض لهم احد او تعرف اسماؤهم(٥٨).

وكان لاستشهاد الشيخ القسام وتلاميذه وللرصاصات التي اطلقوها صداها الطيب في نفوس عرب فلسطين ، فأيقظتهم من غفلتهم ، وافهمتهم أن لسان القوة هو اللسان الوحيد الذي يجب أن تخاطب به السلطة المنتدبة، وان لغة الرصاص هي اللغة الوحيدة التي تفهمها(٥٩). وبرهن القسام على ان الكفاح المسلح والايمان الوطني الصحيح هما الطريق لمقاومة المستعمر البريطاني والحركة الصهيونية ، فاستيقظت فلسطين على استشهاده. ورغم أن المعركة لم تأخذ وقتا طويلا، لكن أثرها كان من حيث الروح لا المقدار، ومن حيث الكيف لا الكم. فقد دل القسام الجماهير على الطريق رغم ادراكه لقوة بريطانيا، وقاتل السلطة بعدد قليل من الرجال ليحيي في النفوس روح الثورية(٦٠). وخرج بنفسه في اول معركة ليضرب المثل للجماهير ، ويعلم الثوار كيف تكون القدوة الحسنة والنموذج الصالح . وكان ما فعله القسام ابلغ رد على سياسة زعماء فلسطين التقليديين ، فلقد ثقف ونظم وقاتل حتى مات شهيدا ، غير آبه لجاه او زعامة ، وكانت سيرته مثلا للكفاح والفداء ، وكان المنهج الذي نهجه يخيف الزعامات ، لانه لا يكشفها فقط ، بل يهددها بفقدان زعامتها ، لهذا فان الزعامات حرصت على عدم الاستفادة من الجو المتوتر الذي تولد عن بدء المقاومة ، كما ان الزعماء لم يحضروا جنازة القسام ، على الرغم من أن اكرم زعيتر — من رجال حزب الاستقلال — دعا الزعماء الى الاشتراك في تشييع الجنازة ، وكانت البرقيات التي ارسلوها باهتة باردة ، ولم يكتفوا بهذا، بل أنهم اجتمعوا بالمندوب السامي قبل ان يمضي اسبوع على وفاة القسام ، وقدموا له مذكرة حددوا فيها مطالب البلاد واعطوه مهلة شهر للاجابة عليها(٦١).

وبذلك يكون الشيخ القسام اول من عمل عملا مركزا للثورة ، وزرع بذور الحقد على الاستعمار البريطاني في فلسطين ، وترك عشرات من رجاله يقومون بالدور البارز في الثورة التي اندلعت في فلسطين خلال الاضراب الذي بدأ في فلسطين في النصف الثاني من ابريل ١٩٣٦(٦٢). والذي كان هذا الحادث من حوافزها النفسية القوية(٦٣). حتى أن بعض المراجع العربية تعتبر أن ثورة ١٩٣٦ قد بدأت يوم خرجت حيفا بشيوخها وشبابها ونسائها تضطرب في موجة حزن ، حاملة اعلامها ورايات‌ها مودعة الشيخ القسام وصحبه الشهداء(٦٤). واعتبر مصدر آخر هذا الحدث مقدمة لثورة ١٩٣٦ (٦٥).

وقد ازعج القسام السلطة المنتدبة حتى بعد موته ، فقد استدعى مدير المطبوعات اصحاب الصحف ورؤساء تحريرها ، وحظر عليهم كتابة شيء عن القسام وهدد بمحاكمتهم وتعطيل صحفهم ، لكن السلطة سرعان ما رأت روح القسام تنتشر في الشعب كله خلال الاضراب الكبير الذي حدث بعد استشهاد القسام بعدة اشهر والذي دام ستة اشهر كاملة .

وقد تابع رجال القسام رسالة قائدهم حتى قبيل اضطرابات ١٩٣٦ ، ففي اليوم الثاني من استشهاد الشيخ القسام خرج الشيخ فرحان السعدي احد مريديه مع جماعة من الانصار الى جبال صفد ورابط هناك(٦٦). وفي الخامس عشر من ابريل ١٩٣٦ قامت جماعة من اخوان القسام بقيادة الشيخ فرحان السعدي والسيد محمود ديراوي بالهجوم المسلح على السيارات الصهيونية بطريق نابلس — طولكرم ، وقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا آخرين، واختفوا عن الانظار ليعيدوا الكرة من جديد ، واخذت الجماهير تفكر في الثورة المسلحة، وبدأ اخوان القسام من العلماء ، يحرضون الشعب على القتال ، وكان للعالم الشيخ

كامل القصاب وزملائه دور بارز في هذا الصدد(٦٧).
وفي ختام حديثي عن ثورة الشيخ القسام، اود أن اناقش ثلاث نقاط هامة هي: هل كانت هذه الثورة تضم قطاعات معينة من المواطنين ام كانت تقتصر على قوى معينة؟ وهل استطاعت ان تجند عددا كبيرا من المواطنين؟ وهل كانت هذه الثورة تابعة او مرتبطة بحزب معين؟.

اولا — ان الذي يستوقف النظر في دعوة الشيخ القسام انها اقتصرت على طبقتي العمال والفلاحين وحدهم، فلم تتجاوزها الى المثقفين او الى غيرهم من طبقات المجتمع وعناصره. بل انه يقال ان اصحاب القسام بعد استشهاده كانوا يأبون انضمام احد من الافندية او غيرهم من الضباط المدربين الى حركتهم، مفضلين ان يتحملوا وحدهم عبء النضال. ويرجع الاستاذ امين سعيد ذلك الى ان القسام كان يرى الخير في ان تكون حركته قاصرة على طبقتي العمال والفلاحين، لانهما أخلص الطبقات وأكثرها انقيادا واستعدادا للبذل والتضحية(٦٨).

ثانيا — أما عن عدد الذين استطاعت ان تجندهم ثورة الشيخ القسام، فهناك اجماع على أن عددهم كان قليلا عند استشهاده. فقد ذكرت بعض المراجع ان عددهم ربما بلغ الخمسين(٦٩). وذكر الاستاذ صبحي ياسين ان بعض اخوان القسام رووا له ان عدد المجاهدين الذين أعدهم القسام للجهاد بلغوا في عام ١٩٣٥ مائتي مجاهد(٧٠). بينما قدرهم الاستاذ امين سعيد بالمئات(٧١). لكنني اعتقد أن ثورة الشيخ القسام على قلة عدد رجالها وصغر حجم المعارك التي خاضوها خلال عام ١٩٣٥، كانت معنى اكثر منها كما، وكانت رمزا للحركة الثورية التي ستسود فلسطين بعد عدة اشهر ثم تبلغ أوجها خلال ثورة ١٩٣٧ — ١٩٣٩.

ثالثا — اما بالنسبة لتبعية الشيخ القسام او ارتباطه بحزب معين، فهناك اختلافات متعددة في هذا الشأن. فقد ذكر الاستاذ دروزة ان القسام كان من الذين انتسبوا الى حزب الاستقلال في حيفا، وانه كان على صلة وثيقة ببعض اركانه(٧٢). وانه كان لبعض زعماء الحركة الوطنية صلات مع التشكيلات الجهادية قبل ثورة ١٩٣٦، وان من هؤلاء الحاج امين الحسيني ومحمد عزة دروزة ومعين الماضي وصبحي الخضرا ورشيد الحاج ابراهيم(٧٣). بينما ذكرت مصادر الهيئة العربية العليا ان القسام كان عضوا في لجنة الحزب العربي التنفيذية، وانه كان اكثر رجال الحزب العربي الفلسطيني اتصالا بالمفتي وتعاونا معه، وانه انصرف الى حركته بناء على اتفاق مع رجال الحركة الوطنية وتأييدهم له، وانه تمت في خريف ١٩٣٥ مباحثات سرية بين القسام وزملائه وبين المفتي ورجال الحركة الوطنية بالقدس، انتهت بالاتفاق على انتهاج خطة معينة في مقارعة الاعداء(٧٤). وأشارت مصادر اخرى الى ان القسام لم يكن مؤمنا بأي حزب، ولم يكن مرتبطا بأية جهة على الاطلاق(٧٥). بل أن احد المصادر ذكر ان القسام اجتمع مع الحاج امين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى حينذاك عدة مرات، طالبا منه تعيينه واعظا عاما متنقلا، حتى يتمكن من الاتصال بسائر طبقات الشعب في المدن والقرى ومضارب البدو للاعداد للثورة، غير أن الحاج أمين اعتذر له قائلا «اننا نعمل لحل القضية سياسيا» وان القسام عندما قرر القيام بثورته، أرسل احد اخوانه (محمود سالم) الملقب بأبي أحمد القسام الى الحاج امين الحسيني، يخطره عن عزمه القيام بثورة في فلسطين للقضاء على فكرة الوطن القومي اليهودي، وكان ذلك قبل حركة القسام بأشهر قليلة، وان رسول القسام اتصل بالمفتي بواسطة الشيخ موسى العزراوي احد اعوان الحاج امين واعلمه برغبة القسام، وهي ان يسرع الحاج امين في الاعداد للثورة في جنوب فلسطين، على ان يعد القسام للثورة في شمال فلسطين، فأجابه الحاج امين بواسطة العزراوي «ان الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل، وان الجهود السياسية التي تبذل تكفي لحصول عرب فلسطين على

حقوقهم » ويضيف المصدر نفسه ان القسام كان يقاوم بشدة انفاق اموال الاوقاف في تشييد الابنية (فندق الاوقاف بالقدس) وتزيين المساجد بما فيها المسجد الاقصى نفسه ، لان اعداد الشعب للجهاد وتسليحه لخوض المعركة افضل وأحق من الامور الشكلية التي يمكن انجازها في أوقات أخرى اكثر مناسبة ، خاصة وان المبالغ التي أنفقت في ذلك قدرت بمئات الالوف من الجنيهات الاسترلينية التي كان بالامكان تسليح خمسة آلاف مقاتل بها آنذاك ، لكنه لم يؤخذ بهذا القول(٧٦).

وقد تصدت نشرة « فلسطين » التي تصدرها الهيئة العربية في بيروت لهذا القول فنشرت بيانا لاخوان القسام ردوا فيه على ما جاء بالمصدر السابق ، واعلنوا ان الشيخ القسام وجميع اخوانه وزملائه وتلامذته كانوا يعملون بتعاون تام مع مفتي فلسطين وبتفاهم معه ، وبتوجيه وتأييد منه ، وان المرحوم الشيخ كامل القصاب كان هو الوسيط الوحيد بين المركز الرئيسي للمجاهدين القساميين وبين المفتي، وانه كان يسافر الى القدس بين فترة واخرى ، ويعود حاملاً للمجاهدين التوجيه الوطني والمدد المادي(٧٧).

تلك هي الاراء المختلفة التي قيلت في صدد ثورة الشيخ القسام او تبعيتها لحزب أو اتجاه معين ، لكني اعتقد من دراستي لهذه الحركة ومن تتبع أدوارها انها لم تكن تابعة لاحد . وقد يكون للقسام علاقات مع الحزب العربي الفلسطيني او مع حزب الاستقلال ، وقد يكون على صلات طيبة مع قيادة الحركة الوطنية ، لكن ذلك لا يعني ارتباطه بتلك الاحزاب او تبعيته لقيادة الحركة الوطنية . والامر في تقديري لا يحتاج الى عناء كبير ، فحركة الشيخ القسام كانت تقوم على فكرة الجهاد المسلح ضد الاحتلال ، وان القوة وحدها هي التي تستطيع ان تمنع بريطانيا من اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ، ولم تكن الاحزاب او القيادات القائمة في فلسطين في ذلك الوقت تؤمن بهذه الفكرة او تدعوه الى انتهاجها . وقد يكون هناك تعاون بين حركة القسام وبين بعض القيادات الوطنية ، لكني اعتقد — على ضوء ما توفر لدي من مصادر — ان الحركة لم تكن تابعة من حزب معين ، بل كانت منبثقة من احساس ديني عميق من رجال القسام ، وكلهم من الفلاحين والعمال ، بالخطر الذي يهدد حياتهم من جراء استمرار الهجرة الصهيونية المتدفقة الى فلسطين ونشاط حركة بيع الاراضي ، وان الوسائل السلمية والطرق المشروعة لم تعد تجدي فتيلا ، وان العمل المسلح وحده هو الذي يستطيع ان يعيد الامور الى نصابها . وهال الانجليز أن تقوم في فلسطين ثورة علنية ضدهم وضد سياستهم ، وراعهم ما تركه استشهاد الشيخ القسام من أثر في نفوس أهل فلسطين ، فعادت الحكومة الى استعمال سياسة التهدئة والتخدير ، واعلنت في ٢١ ديسمبر ١٩٣٥ عن عزمها على اشراك العرب في الادارة والتشريع ، ووضعت مشروع تأليف مجلس تشريعي(٧٨).

تبقى بعد ذلك نقطة اخيرة وهي : هل كان الدافع لهذه الثورة دافعا اقتصاديا ام ان هناك دوافع اخرى ساهمت في قيام هذه الثورة ؟ لقد كان للعامل الاقتصادي اثره من غير شك في حدوث هذه الثورة ، لكن العامل الديني كان هو العامل الاساسي في قيامها . ويظهر ذلك بشكل واضح من دراسة شخصية الشيخ عز الدين القسام قائد هذه الثورة . فهو شخصية دينية هامة ، ورجل ذو مكانة اجتماعية ووضع اقتصادي مستقر، لكن تربيته الدينية وفهمه للاسلام جعلاه رافضا للظلم مستعدا لمقاومته ، ليس لمجرد المساهمة في تحرير جزء من وطنه ، بل تنفيذا لما أمر به الله سبحانه وتعالى من وجوب الجهاد في سبيله ومقاومة الظلم والظالمين .

ثم نأتي الى رجالات الشيخ عز الدين القسام ، فنجدهم جميعا من الرجال الذين التفوا حوله في المسجد واستجابوا لتعاليمه وعظاته ، ولم يكونوا أفقر النماذج الاقتصادية في المجتمع الفلسطيني ، فقد كان كل عضو يسلح نفسه على حسابه الخاص ويبذل شيئا مما يملك لعصبته ، لكنهم كانوا في نفس الوقت من الذين يرون الخطر يهدد بلادهم ،

ويشاهدون الهجرات تتدفق على ميناء حيفا ، ويحسون بما ينتظر البلاد من هلاك ودمار، وقد كان هناك على شاكلتهم كثيرون لم يتحول الاحساس بالخطر لديهم الـــى تحرك ومقاومة مسلحة . فالعامل الديني أساسا هو الذي ملأ قلوبهم بالايمان ، وهو الذي حرك فيهم كوامن الغضب ، وهو الذي جعلهم يتركون اولادهم وازواجهم جهادا فـــي سبيل الله . ومن ناحية اخرى فقد كان الجو السياسي العام في فلسطين في تلك الفترة لا يشجع على قيام تحركات ثورية من هذا النوع ، فالقيادة السياسية تؤمن بالنشاط السلمي ضد بريطانيا ، والاغلبية العظمى من عرب فلسطين تستجيب لهذه القيادة ، حتى وان لم يصادف ذلك ميولها ، لكن العامل الديني هو الذي دفع رجال هذه العصبة الى الخروج على هذا الاطار الذي كان يحدد مسار الاحداث السياسية في فلسطين في ذلك الوقت ، والى رفع شعار الثورة المسلحة تحريرا للبلاد ومقاومة للانتداب والصهيونية .

---

١ ــ ابراهيم عيسى المصري : **مجمع الاثار العربية ورجال النهضة الفكرية** . الجزء الاول ص ١٥١، ١٥٢، صبحي ياسين : **الثورة العربية الكبرى في فلسطين** . ص ١٩ ، ٢٠ ، عمر ابو النصر : **الثـــورة العربية الفلسطينية** . الجزء الاول . ص ٢٧ .

٢ ــ **الانوار** : العدد ٦٠٩ ــ ٦ آب ١٩٦١ . ص ١٣ مقال لعجاج نويهض .

٣ ــ صبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢٠ ــ ٢٢ .

٤ ــ عمر أبو النصر (وآخران) : **جهاد فلسطين العربية** . ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

٥ ــ عيسى السفري : **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية** . ص ٢٣٨ .

٦ ــ محمد نمر الخطيب : **من اثر النكبة** . ص ٨٧ ، ٨٨ .

٧ ــ صبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢٣ .

٨ ــ امين سعيد : **ثورات العرب في القرن العشرين** . ص ١١٧ .

٩ ــ محمد عزة دروزة : **حول الحركة العربية الحديثة** . الجزء الثالث . ص ١١٦ .

١٠ ــ **الرابطة العربية** : السنة الاولى ــ العدد ١٧ ــ ١٦ سبتمبر ١٩٣٦ . ص ٢٤ .

١١ ــ اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : عن **ثورة فلسطين** ١٩٣٦ ص ٤١ . مقال لمحمد علي الطاهر .

١٢ ــ **الانوار** : **المرجع والصفحة السابقان** .

١٣ ــ صبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢٦ .

١٤ ــ الانوار : **المرجع والصفحة السابقان** .

١٥ ــ Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Trans-Jordan for the Year 1935, p. 6.

١٦ ــ اميل الغوري : **المؤامرة الكبرى : اغتيال فلسطين ومحق العرب** . ص ٧٦ ، ٧٧ .

١٧ ــ صبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢٥ ، ٢٦ .

١٨ ــ اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : **المرجع والصفحة السابقان** .

١٩ ــ **الرابطة العربية** : السنة الاولى . العدد ٢٤ ــ ٤ نوفمبر ١٩٣٦ . ص ٢٢ مقال لعبدالله مخلص .

٢٠ ــ **الرابطة العربية** : السنة الثانية ــ الجزء ٩٦ ــ ٢٠ ابريل ١٩٣٨ . ص ٢٤ مقال لامين سعيد بعـــد زيارته لفلسطين .

٢١ ــ محمد عزة دروزة : **المرجع السابق** . ص ١١٦ .

٢٢ ــ **الانوار** : **المرجع السابق** .

٢٣ ــ **الرابطة العربية** : السنة الاولى ــ العدد ١٧ ــ ١٦ سبتمبر ١٩٣٦ ص ٢٥ .

٢٤ ــ **فلسطين** : العدد الثالث ــ ١٥ اذار ١٩٦١ ص ١٠ .

٢٥ ــ محمد عزة دروزة : **المرجع السابق** . ص ١١٦ .

٢٦ ــ ناجي علوش : **المقاومة العربية في فلسطين ١٩١٧ ــ ١٩٤٨** ، ص ١٠٣ .

٢٧ ــ اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : **المرجع والصفحة السابقان** .

٢٨ ــ اكرم زعيتر : **القضية الفلسطينية** . ص ٩٧ ، ٩٨ .

٢٩ ـ انظر الحاشية رقم ١٥ .
٣٠ ـ محمد عزة دروزة : **المرجع السابق** . ص ١١٦ .
٣١ ـ الانوار : **المرجع السابق** .
٣٢ ـ عيسى السفري : **المرجع السابق** . ص ٢٣٨ .
٣٣ ـ نجيب صدقة : **قضية فلسطين** . ص ١٧١ ، ١٧٢ .
٣٤ ـ امين سعيد : **المرجع السابق** . ص ١١٧ .
٣٥ ـ عمر ابو النصر (وآخران) : **المرجع السابق** . ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .
٣٦ ـ اكرم زعيتر : **المرجع السابق** . ص ٩٧ ، ٩٨ .
٣٧ ـ ابراهيم عيسى المصري : **المرجع السابق** . ص ١٥٢ .
٣٨ ـ احمد طربين : **محاضرات في تاريخ قضية فلسطين** . ص ١٦٨ .
٣٩ ـ اميل الغوري : **المرجع السابق** . ص ٧٧ .
٤٠ ـ Esco: *Palestine: A Study of Jewish, Arab, And British Policies.* Vol. II. p. 784.
٤١ ـ **الاهرام** : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥ ص ٧ ، **المقطم** : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥ ص ٥ .
٤٢ ـ **المقطم** : **المرجع والصفحة السابقان** .
٤٣ ـ **الاهرام** : ٢٣ نوفمبر ١٩٣٥ ص ٦ .
٤٤ ـ صبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢٨ ، ناجي علوش : **المرجع السابق** : ص ١٠٤ .
٤٥ ـ محمد عزة دروزة : **المرجع السابق** . ص ١١٦ ، ١١٧ .
٤٦ ـ **المقطم** : ٢٣ نوفمبر ١٩٣٥ ص ٥ .
٤٧ ـ **الاهرام** : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥ ص ٧ .
٤٨ ـ The Secretary of State for the Colonies: Palestine Royal Commission. *Report,* p. 88.
٤٩ ـ عيسى السفري : **المرجع السابق** . ص ٢٣٨ .
٥٠ ـ اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : **المرجع السابق** . ص ٤١ ، ٤٢ . وصبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢٩ .
٥١ ـ عمر ابو النصر (وآخران) : **المرجع السابق** . ص ٢٧٢ .
٥٢ ـ محمد صادق عرنوس : **صوت الشعر في قضية فلسطين** . ص ٢٧ .
٥٣ ـ عيسى السفري : **المرجع السابق** . ص ٢٣٨ .
٥٤ ـ **الرابطة العربية** : السنة الاولى ـ العدد ٢٤ ـ ٤ نوفمبر ١٩٣٦ . ص ٢٢ ، مقال لعبدالله مخلص ، صبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢٨ .
٥٥ ـ محمد نمر الخطيب : **المرجع السابق** . ص ٨٨ .
٥٦ ـ **فلسطين** : العدد الثالث ـ ١٥ اذار ١٩٦١ . ص ١٢ ، **الرابطة العربية** : السنة الاولى ـ العدد ١٧ ـ ١٦ سبتمبر ١٩٣٦ ص ٢٤ ، ٢٥ .
٥٧ ـ اللجنة الفلسطينية العربية بمصر : **بيان الى العالم الانساني عن حالة المعتقلين بجوار عكا** . ص ٦ .
٥٨ ـ **الرابطة العربية** : السنة الثانية ـ الجزء ٩٦ ـ ٢٠ ابريل ١٩٣٨ ص ١٥ . مقال بقلم امين سعيد . زيارة له لفلسطين .
٥٩ ـ امين سعيد : **المرجع السابق** . ص ١١٨ .
٦٠ ـ **الانوار** : **المصدر السابق** .
٦١ ـ ناجي علوش : **المرجع السابق** . ص ١٠٤ .
٦٢ ـ صبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢٩ .
٦٣ ـ محمد عزة دروزة : **المرجع السابق** . ص ١١٧ .
٦٤ ـ عمر ابو النصر (وآخران) : **المرجع السابق** . ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥ .
٦٥ ـ اكرم زعيتر : **المرجع السابق** . ص ٩٧ ، ٩٨
٦٦ ـ **الرابطة العربية** : السنة الاولى ـ العدد ١٧ ـ ١٦ سبتمبر ١٩٣٦ . ص ٢٥ .

٦٧ — صبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢٩ ، ٣٠ .
٦٨ — **الرابطة العربية** : السنة الثانية — الجزء ٩٦ — ٢٠ ابريل ١٩٣٨ . ص ١٤ ، ١٦ مقال لامين سعيد .
٦٩ — محمد عزة دروزة : **المرجع السابق** . ص ١١٦ .
٧٠ — صبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢٣ .
٧١ — الرابطة العربية : **المرجع السابق** . ص ١٤ .
٧٢ — محمد عزة دروزة : **المرجع السابق** . ص ١١٦ .
٧٣ — محمد عزة دروزة : من رسالة منه الى الباحث مؤرخة في ١٤ اغسطس ١٩٦٤ .
٧٤ — **فلسطين** : العدد الثالث — ١٥ اذار ١٩٦١ . ص ١٠ .
٧٥ — **الانوار** : **المصدر السابق** .
٧٦ — صبحي ياسين : **المرجع السابق** . ص ٢١ ، ٢٢ .
٧٧ — فلسطين : **المرجع السابق** . ص ٢٥ ، ٢٦ .
٧٨ — اميل الغوري : **المرجع السابق** . ص ٧٧ .

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

كانت الوساطة المصرية السعودية، منذ أن بدأت، محاولة عربية رسمية، تحاول جهدها ايجاد «منفذ عمل» للقوة الفدائية الفلسطينية، باتجاه اسرائيل، حتى لا تتحول هذه القوة بأي حال من الاحوال، باتجاه الاوضاع العربية المضادة لها، خوفا من أن يكون ذلك، بالرغم من كل مظاهر الضعف، بداية ولادة جديدة لحركة المقاومة الفلسطينية، تدفعها الظروف الموضوعية، لان تلتقي اكثر وأكثر بالجماهير العربية، ولان تصطدم أكثر واكثر بواقع الانظمة واستراتيجيتها ومصالحها.

داخل هذا المسعى العربي العام، كان هناك تناقض واضح في المواقف بين النظام الاردني والمقاومة الفلسطينية. فالاردن يدرك تماما الدافع العربي وراء الوساطة، ولذلك يوافق على عودة مقاومة ذات طابع عسكري، مقطوعة الصلة بالجماهير، الى الاردن. والمقاومة تدرك ان فعاليتها العسكرية تنطلق من التلاحم مع جماهيرها، وهي بدون هذا الدعم، قوة لا وزن حقيقي لها، لذلك كانت تفهم العودة الى الاردن، من هذا المنطلق، بكل ما يحمله من معان سياسية، رافضة العودة الشكلية المحكومة سلفا بألف قيد. والموقفان اللذان انقسم اليهما الصف الفلسطيني، عادا ليلتقيا عند نفس النقطة. الفريق الاول: كان يقول سلفا بأنه لا فائدة من المفاوضات، وان الصراع مع النظام الاردني قد وصل مرحلة اللاعودة. والفريق الثاني: كان يريد ان يختبر الامور بكل امكاناتها وفي ذهنه ان النجاح في المحاولة مفيد، والفشل فيها مفيد أيضا، من زاوية متابعة فضح اصرار النظام الاردني على رفض المقاومة، وقد فشلت مفاوضات جدة، وتلا فشلها مقتل وصفي التل الذي سد عمليا كل ابواب الحوار، وبذلك يكون موضوع الخلاف حول الموقف من النظام الاردني، الذي بدا كبيرا في الفترة السابقة، قد انتهى عمليا، لتبقى بعد ذلك دلالاته الفكرية والسياسية.

في المرحلة السابقة من مفاوضات جدة التي امتدت من ١٥ الى ٢٥ ايلول ١٩٧١، فشلت الجولة عند نقطة محددة، هي اصرار الاردن على رفض اتفاق عمان، المنبثق عن اتفاق القاهرة، والدعوة الى اعادة النظر في بنوده، وبالتالي صياغة اتفاق جديد. بينما كان الوفد الفلسطيني يصر بالمقابل على التمسك باتفاق عمان، والتمسك بورقة العمل السعودية — المصرية التي تنطلق من اتفاق القاهرة، ومن اتفاق عمان أيضا رافضا البحث باتفاق جديد، طارحا البحث بقضية التنفيذ فقط. وكان تجدد الوساطة مرهونا بتغير موقف طرف من الاطراف الثلاثة: النظام الاردني، او المقاومة، او الوساطة نفسها. هل يعود النظام الاردني للقبول باتفاق عمان؟ هل تقبل المقاومة التنازل عن اتفاق عمان؟ أم هل تضغط الوساطة على احدهما ليعدل موقفه؟.

وحين جاء الجواب على هذه الاسئلة الثلاثة، عادت الوساطة لتبدأ من جديد، ولكن الجواب لم يكن بسيطا بساطة الاسئلة المطروحة، بل رافقته تعقيدات على مدى الفترة الممتدة من ٨ تشرين الاول وحتى ٨ كانون الاول ١٩٧١، سنحاول شرحها هنا بايجاز.

كيف تجددت الوساطة؟

في ٨ ت ١ قال بيان رسمي صادر في عمان ان رئيس الوزراء وصفي التل، وقائد الجيش حابس المجالي سوف يقومان بزيارة السعودية، وان التل يحمل معه رسالة من الملك حسين الى الملك

فيصل . ولم يكن هذا الخبر بداية قصة الجولة « الجديدة — والنهائية » من الوساطة ، بل كان أول مظهر علني لها فقط . المظاهر الاخرى غير العلنية ، لم تتداولها وكالات الانباء ، واكتفت صحف قليلة باشارة غامضة لها . ففي ١١ ت ١ كتبت جريدة النهار بأن «موقف مصر كان أقل تصلبا» وكانت عمان اطلعت في السابق على هذا الموقف من خلال معلومات نقلتها شخصية اردنية زارت القاهرة بدعوة رسمية قبل ايام . وبعد ذلك أعلن بيان للجبهة الديمقراطية في ١١ ت ٢ « ان هناك ورقة عمل مصرية اردنية جديدة ، تفرض تنازلات شاملة لمصلحة النظام الاردني » . وأكدت اوساط المقاومة ان اجتماعا عقد في القاهرة بين مسؤولين اردنيين ومصريين ، جرى فيه وضع ورقة العمل الجديدة ، وحمل المسؤولون الاردنيون ورقة العمل الجديدة الى وصفي التل في عمان ، وقرر بناء عليها أن يسافر الى السعودية معتبرا أنها يمكن أن تكون اساسا لتجديد الوساطة حسب أسس يرضى عنها الاردن . وتضيف اوساط المقاومة ان ورقة العمل المصرية — الاردنية تتضمن البنود البارزة التالية :

١ — ان منظمة التحرير الفلسطينية تمثل المقاومة الفلسطينية ، ولا يجري البحث في تمثيل الشعب الان . (ويحقق هذا البند هدف الاردن الرئيسي من وراء الاصرار على تعديل اتفاق عمان ، أي الغاء البند الذي يعترف رسميا بحق المقاومة الفلسطينية في تمثيل الشعب الفلسطيني) .

٢ — يتواجد الفدائيون داخل مناطق محددة (معسكرات) ، ويقومون بنشاطهم الدعاوي والاعلامي داخلها . (وهذا يعني الغاء بنود العمل السياسي والتنظيمي والاعلامي في اوساط الجماهير ، والتي ضمنها اتفاق عمان ويحقق رغبة النظام الاردني بقبول مقاومة ذات طابع عسكري فقط) .

٣ — يتم العمل العسكري للمقاومة بالتنسيق مع الجيش الاردني (بهدف ضبط تحرك الفدائيين داخل الاردن) .

٤ — يسري تنفيذ الاتفاق على المنظمات التي وافقت على الوساطة (أي فتح ، والصاعقة ، وجيش التحرير فقط) .

وتقول اوساط المقاومة ، ان وصفي التل حاول في السعودية ، الايقاع بينها وبين مصر ، فحاول ان يوحي للملك فيصل عندما اجتمع معه في ١٠ ت ١ ان المصريين قد تخلوا عنه ، وقبلوا وضع شروط للوساطة لا علم له بها ، محاولا الوصول الى تفاهم مع السعودية يكون أساس تجديد الوساطة، بحيث تفرض على الوفد الفلسطيني كل الشروط المطلوبة ، مؤكدا من خلال ذلك كله ان المقاومة توافق بدون شك على هذه البنود ، لان مصر لا يمكن ان تطرحها بدون علم المقاومة ، بسبب العلاقة الوثيقة بينهما .

وقد تمثل رد الفعل السعودي على هذه التطورات بثلاثة امور : ١ — ارسلت في ١٠ ت ١ برقية الى القاهرة تطلب حضور السيد حسن صبري الخولي ممثل مصر في الوساطة الى جدة لمعرفة حقيقة الموقف المصري . وقد وصل الخولي في نفس اليوم ، وشارك في الاجتماعات ، ثم غادر عائدا الى القاهرة معلنا انه يحمل رسالة من الملك فيصل الى الرئيس السادات ، ومعربا عن تفاؤله بأن تحل الازمة بين المقاومة والنظام الاردني قبل حلول شهر رمضان (أي في ٢٠ ت ١) . وكان ذلك اشارة ضمنية الى موافقة السعودية على ورقة العمل الجديدة . ٢ — اعلن في ١٥ ت ١ ان السعودية وجهت دعوة الى السيد ياسر عرفات لزيارتها ، لمعرفة حقيقة الموقف الفلسطيني منه ، ولاطلاعه على ما جرى من مناقشات مع التل . وقد اجتمعت اللجنة التنفيذية وقررت الموافقة على سفر ياسر عرفات ، وحملته تفويضا بامكان البحث في تعديل اتفاق عمان ، بما لا يتناقض مع جوهره . وقد وصل عرفات الى جدة يوم ١٦ ت ١ ، وعقد في ١٧ ت ١ اجتماعا مع السيد رشاد فرعون « لتبادل وجهات النظر بالوساطة ». قالت بعدها اذاعة السعودية انه من المتوقع ان تسفر المحادثات عن نتائج حسنة . ٣ — اعدت ورقة عمل ثانية ، تمثل رايها في ورقة العمل المصرية — الاردنية ، تضمنت موافقة على اغلب البنود باستثناء البند الاول المتعلق بالتمثيل ، فقد حذفت السعودية القسم الاخر منه الذي يقول « لا يجري البحث في تمثيل الشعب الان » ، وكذلك البند المتعلق بالتنسيق : اضافت عليه السعودية « ان التنسيق يجري فقط في المناطق التي يتواجد فيها الفدائيون والجيش الاردني بشكل مشترك » .

في مقابل هذا الموقف قدم السيد عرفات ورقة عمل ثالثة ، وضع لها عامدا عنوانا ذا مغزى

يقول « مذكرة توضيحية لورقة العمل السعودية — المصرية » . اي ان السيد ياسر عرفات اعتبر البحث استكمالا للوساطة الاصلية ، وليس وساطة جديدة تتم على اسس جديدة . ومع ان البنود المطروحة تمثل تعديلا لاتفاق عمان ، ويستطيع السيد ياسر عرفات بناء على تخويل اللجنة التنفيذية له أن يبحث في تعديله ، الا انه لم يسلم بذلك « رسميا » . وتضمنت مذكرة عرفات التوضيحية موافقة على ورقة العمل حسب التعديلات السعودية التي ادخلت عليها ، مضيفة الى ذلك تغييرا في بندين : الاول يتعلق بتواجد الفدائيين في « مناطق » وليس في « معسكرات ». ويشمل نشاطهم الاعلامي بالتالي المناطق نفسها ، ولا يقتصر على معسكرات الفدائيين . والثاني يتعلق بالمنظمات التي يسري عليها تنفيذ الاتفاقات، اذ طلبت المذكرة ان تسري الاتفاقيات بالاضافة للمنظمات التي وافقت على الوساطة « على المنظمات التي توافق عليها مستقبلا » .

وقد كانت النقطة الجوهرية في موقف السيد ياسر عرفات ، أنه وافق على مبدأ تعديل اتفاق عمان، كما وافق على ورقة العمل المقترحة كأساس للبحث في المرحلة الجديدة من الوساطة ، بالرغم مما تتضمنه من تنازل عن حق تمثيل شعب فلسطين ، دون أن يعتبر ذلك بديلا لاتفاق عمان ، بحيث يبقى الباب مفتوحا امام بحث جديد فيما يمكن تعديله او لا يمكن تعديله في الاتفاق المذكور . (وستظهر أهمية هذه النقطة فيما بعد ، عندما تبدأ الوساطة جولتها الرسمية من خلال الوفود) .

أعلن وصفي التل عند وصوله الى عمان (١١ ت ٢) « أن العقبات التي تقف في وجه الوساطة قد ذللت ، وربما تكون هناك جولة ثانية من المفاوضات » . ثم أعلنت عمان في ١٩ ت ١ ان السيد ياسر عرفات « وافق على أربعة بنود من مذكرة وصفي التل (المذكرة المصرية — الاردنية) واعتبر البنود الاخرى قابلة للتفاوض » . واعلنت السعودية في نفس اليوم « ان وفدين يمثلان المقاومة والنظام الاردني سيجتمعان قريبا في جدة». وفي اليوم التالي : صدر أول تعليق فلسطيني رسمي عن الموضوع ، اذ اعلن السيد كمال ناصر الناطق الرسمي بلسان منظمة التحرير « ان وفد المنظمة الذي زار السعودية برئاسة السيد ياسر عرفات رفض المذكرة الاردنية ، وتقدم بمذكرة تفسيرية لاتفاقي القاهرة وعمان ، واعتبر اي اتفاق يعقد يشمل كل المنظمات العاملة في اطار منظمة التحرير » .

وقد كان مقررا ان تعقد جولة المفاوضات الجديدة، يوم ٢ ت٢ ، الا ان هذا الموعد قد أجل لاسباب لم يعلن عنها ، وتلقت الحكومة الاردنية اشعارا من الحكومة السعودية يطلب تأجيل سفر الوفد الاردني ، وحين وجه الملك حسين يوم ٤ ت ٢ رسالة الى السيد رياض المفلح رئيس الوفد الاردني في المفاوضات ، قال في رسالته ان هذه الجولة « ربما تكون الجولة الحاسمة والاخيرة ». بينما قال وصفي التل في ٦ ت ٢ « انه اقترح على الحكومة الاردنية شطب ما نرى شطبه من اتفاق عمان ، وذلك لان مفاوضات جدة ستبدأ من هذه النقطة » . وتبرز هذه المقتطفات بوضوح جو التفاؤل الذي كان سائدا في اوساط المسؤولين الاردنيين ، وثقتهم بأن المفاوضات المقبلة ، سوف تؤدي الى اتفاق ينسجم مع كامل شروطهم .

بالمقابل ، كانت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير قد عقدت اجتماعا في دمشق ، درست فيه اتفاق عمان بندا بندا . (انسحبت الجبهة الشعبية من الاجتماع قبل بدء هذه المناقشة . ولا زال ممثل الديمقراطية صالح رافت غائبا عن حضور الاجتماعات معتقلا في سجون الاردن) ، واتفقت على البنود التي ترفض تعديلها، ووضعت الصيغة التي تقترحها للبنود التي رأت او من الممكن تعديلها ، وطلبت من وفدها ان يتقيد بذلك بدقة .

مجريات الوساطة :

— في ٨ ت ٢ عقد الاجتماع الاول لمؤتمر الوساطة في جدة ، اجتمع اولا الوسيطان السقاف والخولي . ثم اجتمع السقاف مع رئيس الوفد الفلسطيني السيد خالد الحسن ، ثم عقد اجتماع مشترك تقرر فيه ان يقدم الوفد الاردني مذكرة خطية يحدد فيها المواد التي يرغب بتعديلها في اتفاق عمان ، لتعرض للنقاش في الاجتماع الثاني .

— عقد الاجتماع المشترك الثاني في نفس اليوم ليلا، حيث قدم الوفد الاردني مذكرته ، ورفضها الوفد الفلسطيني بشدة ، واعتبرها نسفا — وليس تعديلا — لاتفاق عمان . وادى هذا التعارض في المواقف الى تأجيل الاجتماعات المشتركة .

— تدخل الملك فيصل وتبادل الرسائل مع الملك حسين . وقالت مصادر «فتح» ان رسالة الملك فيصل تضمنت تهديدا بقطع المساعدات الاقتصادية عن الاردن ، وبسحب الجيش السعودي من اراضيه ، وباصدار بيان علني يعلن مسؤوليته عن فشل الوساطة .

— اعدت لجنة الوساطة اسسا للمحادثات بين الفريقين ، يجري على ضوئها مناقشة اتفاق عمان (١١ ت٢) .

— عقدت الوساطة اجتماعات جانبية مع كل وفد على حدة ، ثم عقد اجتماع مشترك ثالث أعلن فيه الوفد الفلسطيني موافقته علـى الاسس التـي اقترحتها الوساطة . بينما اعلن الوفد الاردني انه ينتظر تعليمات من عمان .

— عقدت الجلسة الرابعة المشتركة ، والخامسة المشتركة ، وفيها أعلن الوفد الاردني موافقته على الاسس التي اقترحتها الوساطة (١٢ ت٢) . وكان من الواضح انه يتعمد المماطلة حتى يحين موعد اجتماع وزراء الخارجية العرب في ١٣ ت٢ ، فتنقطع المفاوضات بشكل طبيعي .

وبالفعل أرجئت المفاوضات يوم ١٣-ت٢ لمدة يومين بسبب سفر الوسيطين الى القاهرة ، وسفـر السيد خالد الحسن على رأس الوفد الفلسطيني ايضا . ثم تأجلت مرة اخرى بسبب عطلة العيد حتى يوم ٢٢ ت٢ . واتخذت الوساطة موقفـا حاسما ، حددت فيه يوم ٢٦ ت٢ موعدا لانتهاء المفاوضات سلبا او ايجابا . وسبب تحديد هذا الموعد يعود الى ان مجلس الدفاع العربي سيعقد في القاهـرة يوم ٢٧ ت٢ ، وسيكـون الجميـع مشغولين به .

— صباح يوم ٢٣ ت٢ بدأ البحث من جديد باتفاق عمان بندا بندا ، وتعطل البحث طويلا عند المادة الثالثة من الاتفاق والتي تنص على ان « الوجود والتعبئة والتنظيم الشعبي والقتالي وحرية العمل السياسي والعسكري من الامور الاساسية للثورة الفلسطينية ، وتمارسها بحرية » ، فقد طلب الوفد الاردني الغاءها ، واصر الوفد الفلسطيني على ابقائها كما هي .

وواجهت المفاوضات بسبب ذلك مأزقا هددهـا بالفشل .

— تدخل السيد رشـاد فرعون مستشار الملـك فيصل يوم ٢٤ ت٢ وتقدم اقتراحا بتصوره لتعديل المادة الثالثة من اتفاق عمان .

— بدأ الوفد الاردني يماطل من جديد وحتى مساء ٢٥ ت٢ لم يكن قد تقدم بأي رد على اقتراح التعديل واعتبرت هذه المماطلة رفضا للاقتراح .

— وفي صباح ٢٦ ت٢ ، اي في الموعـد الذي حددته الوساطة كموعد نهائي للمفاوضات سلبا او ايجابا ، غادر السيد صبري الخولي جده متوجها الى القاهرة ، كما غادرها ايضا السيـد خالد الحسـن . وانتهت بذلك مفاوضات جـده الى الفشل .

وبالرغم من ذلك نفى السيد رياض المفلح في عمان (٢٧ ت٢) أن يكون مؤتمر جدة قد فشل ، واصر على ان الوفد الاردني يعود الى عمان بسبب انشغال رجلي الوساطـة في اجتماعات مجلس الدفاع العربي . كذلك أعلـن ان السيد رشاد فرعون سوف يصل الى عمان ليبحث مع الملك حسين في قضية الوساطة . وقد كان من الممكن القول بأن هذه الاتصالات ربما تسفر عن أمر ما ، الا ان ثلاثة شبان فلسطينيين اطلقوا النار على وصفي التل أمام فندق شيراتون في القاهرة عصر يوم ٢٨ ت٢ ، فوضعوا بذلك حدا لاي تكهن في هذا الاتجاه.

المواقف المعارضة :

رافق الجولة الجديدة من محادثات جدة ، نفس جو المعارضة الذي رافق الجولة السابقة . اما لهجة المعارضة فقد اتخذت طابعا مختلفا . ففي المرة السابقة كان التركيز حول رفض مبدأ الحوار مع النظام الاردني ، اما هذه المرة فقد تركزت المعارضة حول نقد مواقف اللجنة التنفيذية ، وكشف النتائج التي ترى أنها تترتب على محادثات جدة . فعلى صعيد التنظيمات اصدرت الجبهـة الديمقراطية في ٥ ت٢ بيانا قالت فيه « ان مؤتمر جده هو بمثابة خطة روجرز العربية . وكما أدت خطةروجرز الامريكية الىنقل الصراع بين قوى حركة التحرر العربية ، فان مؤتمر جده يهدف الى نقل الصراع بين فصائل الثورة الفلسطينية » . وفي ٨ ت٢ أصدرت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بيانا قالت فيه انه في « جو اندفاع يمين المقاومة في تنفيذ الترتيبات التنظيمية الداخلية ، المنسجم مع جو الترتيبات الرجعية الاستسلامية العربية ، تأتي دورة مفاوضات جدة الثانية ، وفي ذهن مخططيها ومدبريها والمشتركين فيها انهـا ستكون الدورة الاخيرة والحاسمة ... وتكون هذه الدورة بهذا

الافق المرحلة النهائية من عملية تصفية المقاومة الفلسطينية كحركة شعبية ثورية واخضاعها اخضاعا كاملا لارادة الرجعية العربية العميلة » .
وعلى صعيد المواقف الشعبية ، برز أكثر من موقف يعلن رفضه للوساطة . فصدرت بيانات واحتجاجات في لبنان عن خمسة مخيمات (مخيم شاتيلا — شرشبوك — الرشيدية — بئر حسن — نهر البارد). وصدرت بيانات أخرى عن ثلاثة احياء تضم قطاعات من الفلسطينيين (سكان حي الطريق الجديدة — حي الوطى — برج حمود) ، كذلك أصدرت بيانا مماثلا منظمتان فدائيتان (الشعبية والديمقراطية) واربع تنظيمات لبنانية (منظمة العمل الشيوعي — منظمة حزب البعث — حزب العمل الاشتراكي العربي — التقدميون المستقلون في صور) واتحاد عمالي واحد (اتحاد عمال فلسطين في صور) . وكانت كل هذه المواقف تعلن رفض الوساطة ، والدعوة للعمل السري المسلح ضد النظام الاردني « لاسقاط هذا النظام واقامة نظام وطني ديمقراطي » .

الصراع داخل الاردن :

في الوقت الذي كانت فيه الوساطة مستمرة في جدة ، كان جو العلاقات في الاردن بين المقاومة والنظام يندفع نحو مزيد من التأزم ، ولم تتمكن ان تخفف منه كل المواقف الاردنية العلنية المتفائلة تجاه الوساطة . ففي ٩ ت١ خطب الملك حسين في حفل تخريج دفعة جديدة من قوات الشعبية الخاصة الاردنية معربا عن اعتزازه بهذه القوات ، ومشيرا « الى محاولات جرت لحلها في السابق ، من قبل المنظمات الفدائية » وانه رفض ذلك . والمهم في هذا الموقف ان قوات الشعبة الخاصة كانت من اوائل المجموعات التي شكلت لضرب العمل الفدائي ، ولعبت في أزمة حزيران ١٩٧٠ دورا هاما ، وخاصة في عمليات القنص الفردي للفدائيين في الشوارع . وقد القى هذا الخطاب قبل يوم واحد من سفر التل الى السعودية . وفي ١٣ ت١ تابعت السلطة الاردنية خطتها الدعاوية ، بالاعلان المتكرر بين فترة وأخرى عن اكتشاف مخابىء للاسلحة ، فاعلنت اكتشاف مخبأ في مخيم الوحدات . وبعد ذلك بيومين (١٥ ت١) أعلن في الاردن حل « الاتحاد العام لعمال الاردن » ، مع ان قيادة هذا الاتحاد لم تكن بالرغم من تأييدها للعمل الفدائي جذرية في مواقفها تجاه السلطة الاردنية ، والتزمت في اغلب الاحيان بمواقف وسطية .

ثم بدأت مواقف السلطة الاردنية تنحو منحى آخر لا يقتصر على توجيه الضربات المعنوية والمادية لجيوب العمل الفدائي في الاردن ، انما اتسع ليشمل اقامة مؤسسات مضادة ، تحاول ان تمتص بداخلها ارهاصات العمل الفدائي في اوساط الجماهير. ففي ٣١ ت١ اعلنت مصادر «فتح» ان الاردن أنشأ تنظيما فدائيا باسم « فتح » برئسه شخص يدعى محمد عبدالهادي . واذا أردنا أن نفسر طبيعة هذه الخطوة فان افضل تفسير لها ما جاء على لسان الملك حسين نفسه حين قال في مقابلة مع مجلة « لوي » الفرنسية في ٢٥ ت٢ انه « لا مكان لقواعد الفدائيين في الاردن » وان اقصى ما تقبل به حكومته هو « نقطة انطلاق او منطقة تدريب » لكن لن نقبل بوجود قيادات عامة من اي نوع كان . وقد نشر هذا الكلام قبل الاعلان عن فشل الوساطة بيوم واحد ، وحين كان رئيس الوفد الاردني في جده يماطل حتى يحين موعد « انذار » الوساطة ، في ٢٦ ت٢ .

وفي نفس اليوم أيضا أعلن الملك حسين قيام « الاتحاد الوطني الاردني » كتنظيم سياسي وحيد في الاردن . وبذلك يصبح للنظام الاردني ، تنظيمه الفدائي ، وتنظيمه السياسي ، اي الرد العملي على كل طلبات المقاومة ، التي لا يرى مبررا لها بالاصل .

وحتى يخفف النظام الاردني من وطأة هذه التطورات ، ويغطي اهدافها الحقيقية ، قام بعدة اجراءات ذات طابع دعاوي . فأعلن في ٢٠ ت١ تجميد حكم الاعدام الصادر على الشاب اللبناني « بلال عبدالقادر حسن » الذي وجهت له تهمة نسف طائرة اردنية . كما قام عشية عيد الفطر باطلاق سراح ٤٠٥ فدائيين معتقلين منذ أحداث أيلول ١٩٧٠ ، سفر ١٠٥ منهم الى سوريا. كذلك أعلن في ٨ ك١ تخفيض ٦٠ حكما بالاعدام صدرت عن محكمة امن الدولة بحق فدائيين معتقلين . والغريب في هذا الخبر ان هذه هي المرة الاولى التي يعلن فيها عن وجود احكام سرية بالاعدام على الفدائيين المعتقلين ، فاذا لاحظنا ان هذا الخبر صدر بعد مقتل وصفي التل ، فيمكن ان يعتبر كتمهيد لاعدام مجموعات من الفدائيين لم تخفض عنها احكام الاعدام ، ما دام اصدار الاحكام يتم دون ان يعلم به أحد .

وقد ردت المقاومة علـى هذا النشاط الاردني المعادي بنسف خط انابيب التابلاين في الاراضي الاردنية في ٢٤ ت١ (لم تعلن المنظمات علاقتها بالحادث) . وفي ١٠ ت٢ وقعت اربعة انفجارات قوية في فندق الاردن بعمان دمرت ثلاث غرف ، واحدثت اضرارا مادية . ووجهت التهمة الى طالبة قبرصية قبل أنها غادرت الاردن يوم الحادث عن طريق الرمثـا . وفي ٢٧ ت٢ ، وبعد فشـل الوساطة ، حدث صدام بين الفدائيين والجيش الاردني بشمال اربد قتل فيه ضابط من ضباط الامن العام برتبة رئيس ، وجرح ضابط آخر برتبة رائد ، وقد شيع جناز الضابط في عمان رسميا ، اذ حضره « احمد طوقان » وزير البلاط . وهدد الشريف « زيد بن شاكر » قائلا « لن تمر جريمة اخرى بعد اليوم من دون عقاب شديد جدا » . وفي اليوم التالي ٢٨ ت٢ اغتيل وصفي التل ، فطغت انباء الحادث وردود فعله على كل هذه العلاقات المتأزمة ، ومن بينها اشتباك آخر وقع شمالي اربد ايضا قتل فيه اثنان من الفدائيين وجندي اردني يوم ٣٠ ت٢ .

محاولة اغتيال عرفات :

في ٥ ت١ جرت محاولة لاغتيـال السيد ياسر عرفات في منطقة الجولان بسوريا ، اثناء توجه عرفات الى قاعدة فدائية قامت بمخالفات تنظيمية، لضبط الامور فيها . برئس هذه القاعدة « حسين هيبه » ، الذي قام بدون علم القيادة ، بضم عدد كبير من ابناء عشيرته الى القاعدة ، ووزع عليهم السلاح ، وطالب لهم بنفقات مالية . وحـين رد طلبه قام بمصادرة سيارات تموين تابعة لحركة فتح . حين وصل عرفات الى مشارف القاعدة ، تعرض الى كمين معد سلفا بدأ باطلاق نار غزير أدى الى مقتل سائقه . وقد تابع ابو عمار طريقه الى قلب القاعدة ، وتصرف بشجاعة ملحوظة ، اعتقل اثناءها بنفسه « حسين هيبه » ، وكان طوال الحادث معرضا للاصابة في أيـة لحظة ، وكانت شجاعته السبب الحقيقي وراء نجـاته . وقد انشغلت اوساط فتح طويلا بالحادث ، في محاولة معرفة ما اذا كانت هناك جهات ما وراء تدبيره ، وكذلك في دراسة ايـة دوافع اخرى قد تكـون وراءه . وبعد التحقيق مع « حسين هيبه » سلم الى السلطات السورية ، ولم تنشر بعـد ذلك تفاصيل اخرى . هذا وقـد تلقى السيد عرفات برقيات تهنئة عديدة بنجاته ، منها برقية من الرئيس السادات ، وبرقية اخرى من اللواء صادق وزير الدفاع المصري ، وبرقية ثالثة من الاتحاد العام لعمال الاردن (قبل حله) ، وبرقية رابعة مـن محمود الروسان عضو اللجنة التحضيرية للجبهة الوطنية الاردنية .

رحلة موسكو :

في ١١ ت١ اعلن ان وفدا برئاسة السيد ياسر عرفات سوف يزور موسكو في وقت قريب ، تلبية لدعوة من لجنـة التضامن الآسيـوي الافريقي السوفياتية . وفي ٢٠ ت١ وصـل عرفات الى موسكو على رأس وفد مشكل من : سامي العطاري (الصاعقة) ، فاروق القدومي (فتح) ، مصباح البديري (جيش التحرير) ، سعد صايل (قوات اليرموك) ، خالد الفاهوم (رئيس المجلس الوطني الفلسطيني) ، فائق وراد (منظمة الانصار) . ولوحظ ان الوفد لم يضـم ممثلين عن الجبهة الشعبية او الجبهة الديمقراطية ، او جبهة التحرير العربية .

وقد انتقدت « الهدف » في ٢٢ ت١ تشكيل وفد موسكو ، وقالت ان ممثل الجبهـة الشعبية في اللجنة التنفيذية طرح الموضوع للنقاش ، ولكن عرفات رفض الخوض فيه ، مصرا ان الدعوة وجهت اليه شخصيا . وقالت « الهدف » ان الجبهة الشعبية سوف تعيد النظر بموقفها مـن اللجنـة التنفيذية اذا ظلت العلاقات داخلها خاضعـة للمزاج والفردية . وكانت قد سرت انباء تقول ان الدعوة وجهت الى اللجنة التنفيذية ، على اساس ان يضم الوفد ممثلين عن كافة المنظمات المشاركة فيها ، وان السوفيات حـاولوا اقناع عـرفات بذلك ، ولكنه اصر على موقفه من تشكيل الوفد بالطريقة التي تشكل بها .

وقد صدر عن المحادثات في ٣٠ ت١ بيان مشترك صيغ بطريقة ملفتة للنظر ، ابرز ما فيها : ١ — ان الموقف السوفياتي من حركة المقاومة الفلسطينية صيغ ضمن اطار « التضامن مع كفـاح الشعب العربي الفلسطيني » ٢ — تضمن البيان اشارة الى موقف الوفد الفلسطيني الذي اعرب « باسم الشعب الفلسطيني المقاتل عـن الامتنان **للحزب والحكومة والشعب السوفياتي كله** لما يقدمون من دعم لحركة التحرر الوطني للشعوب العربية ، ولنضالها في سبيل الحرية والاستقلال والتقدم » ، ولم تتضمن الفترة اشادة بالموقف السوفياتي من

النضال الفلسطيني. ٣ — بينما تضمن البيان اشارة الى موقف الوفد السوفياتي المتضامن مع النضال الفلسطيني باسم **«الاوساط الاجتماعية السوفياتية»** وليس باسم الحزب او الحكومة ، ويقول النص « اعرب ممثلو لجنة التضامن باسم الاوساط الاجتماعية السوفياتية عن الاستنكار الحازم **للعدوان** الامبريالي — الاسرائيلي المستمر على الشعوب العربية ، وعن التضامن مع النضال الباسل الذي يخوضه الشعب الفلسطيني ضد المحتلين الاسرائيليين الذين يسعون لشل نضال الشعب الفلسطيني في سبيل حقوقه المشروعة والعادلة » وهذا يحصر التأييد السوفياتي لحركة المقاومة الفلسطينية في نطاق التخلص من العدوان فقط وليس من الكيان الاسرائيلي . ٤ — ورد بند خاص حدد موقفا من حركة المقاومة صيغ على الشكل التالي « الاوساط الاجتماعية السوفياتية تقف بحزم الى جانب حركة المقاومة الفلسطينية التي تشكل جزءا لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني العربية » ، وتتجاهل الفقرة الاشارة المباشرة الى اهداف هذا النضال .

وبهذا فان الموقف السوفياتي من القضية الفلسطينية ، ومن حركة المقاومة يكون قد بقي من حيث الجوهر على حاله . ولكن هذا لا ينفي ان نلاحظ بأن الزيارة السابقة التي تمت في شباط ١٩٧٠ لم يصدر عنها بيان مشترك وصدور بيان من هذه الزيارة امر له دلالته . وهناك ايضا تطور في مستوى التأييد لحركة المقاومة ، يعبر عن نفسه بصدور البيان ، وبتحديد صفة « الاوساط الاجتماعية » في نطاق التأييد ، بينما كانت حتى مثل هذه الصيغ في السابق لا ترد في المواقف السوفياتية الرسمية .

وقد أعلن السيد عرفات عند انتهاء الزيارة « ان ثلوج موسكو كانت اكثر دفئا من السابق » . وتوجه بعد ذلك الى المانيا الشرقية في زيارة مماثلة ، ثم عاد الى بيروت في ٣ ت٢ واعلن « ان العلاقات مع البلدين زادت رسوخا » .

هذا وقد ذكرت وكالة الانباء العراقية في ٢٥ ت١ ان وفدا من الجبهة الشعبية سافر الى موسكو برئاسة السيد تيسير قبعة ممثل الجبهة في اللجنة التنفيذية . وفهم ان سفر وفد من الجبهة الشعبية هو بمثابة رد على موقف عرفات من تشكيل الوفد بالطريقة التي تم بها . ولكن اوساطا مطلعة اكدت ان وفدا من الجبهة الشعبية لم يسافر الى موسكو ، وان الذي سافر فقط هو السيد تيسير قبعة بدعوة من منظمة الشباب (الكومسومول) ، وجهت اليه بصفته الرئيس السابق لاتحاد طلاب فلسطين ، وانه ليس لهذه الزيارة بالتالي اي مغزى سياسي آخر .

والجدير بالذكر ان اوساطا سياسية عديدة ، رأت في توجيه دعوة من الاتحاد السوفياتي لوفد من المقاومة الفلسطينية ، بداية عودة الى سياسة التعامل مع الحركات الوطنية العربية ، اضافة الى سياسة التعامل مع الانظمة الوطنية العربية، وذلك بعد التطورات التي شهدتها المنطقة اثناء احداث السودان وبعدها ، وان بدء الاتحاد السوفياتي بتعميق علاقاته مع المقاومة الفلسطينية يعود الى انها اكثر الحركات الوطنية حيوية في الساحة العربية ، كما ان لتحسين العلاقات معها مردودا نفسيا جماهيريا تبرز آثاره بسرعة . فهل تستطيع المقاومة ، مع نمو هذا الاتجاه ، ان تستفيد منه بشكل كاف ؟

— النشاط العسكري :

لوحظ ارتفاع واضح في عدد العمليات الفدائية بشكل عام ، بالنسبة للمرحلة السابقة ، وكان رقم العمليات داخل اسرائيل نفسها اعلى رقم في هذه الفترة (من ٨ ت١ — ٨ ك١ ١٩٧١) . كذلك ارتفع مستوى الارهاب الاسرائيلي على صعيد القتل والاعتقال والاحكام والابعاد . ويمكن تلخيص حصيلة كل ذلك كما يلي×:

العمليات والاشتباكات : ٨ داخل اسرائيل — ٢ في الضفة الغربية — ٧ في غزه — ٣ في جنوب لبنان — ٤ في الجولان — المجموع ٢٤ عملية .

القتلى الاسرائيليون : ٢ في الجولان .

الجرحى الاسرائيليون : ٢٢ داخل اسرائيل .

القتلى الفدائيون : ١٣ في غزه — ٣ في الجولان —

× ان ما ينشر هنا عن النشاط العسكري لحركة المقاومة الفلسطينية يعتمد فقط على ما تنقله وكالات الانباء ، وما تنشره اوسع الصحف العربية انتشارا . والقصد منه مراقبة ما تتعمد هذه الصحف ايصاله الى القارىء العربي . مع ملاحظة ان هذا الذي ينشر لا يتطابق مع ما يعلنه الناطق الاسرائيلي ، كذلك فهو لا يتطابق مع ما تعلنه البيانات الفدائية .

١ في الضفة الغربية — ٣ داخل اسرائيل — ٢ عند جنوب لبنان — المجموع ٢٢ شهيدا .

الجرحى الفدائيون : ٤ في غزه — ٣ في الضفة الغربية — المجموع ٧ جرحى .

الاعتداءات الاسرائيلية : اعتداء علـى جنـوب لبنان — ٤ حوادث تحليق طائـرات فوق جنوب لبنان .

المعتقلون العرب : ١٢٤ داخل اسرائيل — ٧١ داخل الضفة الغربية — ٤ داخل غزه — المجموع ١٩٩ معتقلا .

المحكومون : ١١ من غزه بينهم ثلاثة حكموا بالمؤبد.

المبعدون : ٢١ شخصا من الضفة الغربية وقطاع غزه ، ابعدوا الى الضفة الشرقية .

نشاط جماهيري : مظاهرتان نسائيتان في نابلس — مظاهرة نسائية وطالبية في غزه — اضراب في غزه — حرق دواليب سيارات (حدادا على مقتل الفدائيين) .

ويلاحظ من هذا الجدول اختفـاء العمليات ضد العرب الذين يعملون في المؤسسـات الاقتصادية الاسرائيلية ، وتضاؤل نسبة الاعتداءات على جنوب لبنان .

— **اخبار متفرقة** :

في ٢٦ ت٢ وقع في جنوب لبنان حادث مؤسف ، انزعجت له أوساط حركة المقاومة بشكل بالغ . فبينما كانت سيارة عسكرية تسير عـلى الطريق المؤدي الى راشيا الفخار ، انفجر بها لغم مزروع، أدى الى استشهاد « الرائد الركن يوسف يونس » وثلاثة عسكريين آخرين مرافقين له. وصادف وقوع الحادث اثناء وجود السيد « ياسر عرفات » في لبنان ، فعقد بشكل سريع اجتماع بينه وبين السيد « صائب سلام » رئيس الوزراء حضره قائد الجيش العماد « اسكندر غانم » . وتم في هذا الاجتماع بحث الحادث ، وبحث مجمل الوضع السياسي على ضوء فشل محادثات الوساطة في جدة ، وتقرر في نهايته تشكيل لجنة تحقيق مشتركة ، ولجنة خبراء مشتركة .

وقـد ادلى السـيد كمال ناصر ببيـان حـول الحادث أعلن فيه أسف المقاومة الشديد للحادث ، وأوضح ان الطريق الذي وقع فيه شقته القوات الاسرائيلية بعد معـركة العرقوب الاولى عـام ١٩٦٩ ، بالاضافة الى ان قربه من خط النار يجعله بمتناول القوات الاسرائيلية ، ولا بد ان تكـون اسرائيل قد قامت بعد شق الطريق باتخاذ اجراءات وقائية لحمايته ، عـن طريق زرع الالغام على جانبيه . كما اوضح بأن هذا الطريق لا يستعمله الفدائيون في تنقلاتهم ، ولا توجـد بقربه قواعد فدائية .

وفي اليوم التالي عثرت لجنة الخبراء على عدد آخر من الالغام في نفس المكان ، وتبين ان هذه الالغام زرعها فدائي قتل بعد الاعتداء الاسرائيلي المذكور على منطقة العرقوب ، وبمقتله فقدت معه خريطة الالغام .

وقد شيع شهداء الجيش اللبناني في موكب رسمي شاركت به حركة المقاومة . وكتبت اكثر من صحيفة تقول ان الحادث على ألمه ، هو مشاركة مـن الشعب اللبناني في آلام معركة التحرير الفلسطينية.

هذا وقد نشرت الصحف اللبنانية على اثر ذلك انباء عن حادثي انفجار ألغام في منطقـة جنوب لبنان . وقع الحادث الاول في نفس اليوم في منطقة مرجعيون ، وأدى الى جرح مواطنين نقلا فورا للعلاج . ووقع الحادث الثاني في ٣ ك١ في قضاء بنت جبيل ، حيث انفجر لغم بجـرار زراعي ، أصيب سائقه برضوض .

بلال الحسن

مقتل وصفي التل :
عنف ثوري وليس ارهابا

كيف نفهم مقتل وصفي التل ؟ كيف نفهمه كأفراد وكمنظمات وكجماهير ؟ هذا السؤال يجب ان يطرح على نطاق واسع في هذه المرحلة ، لغرضين متكاملين : الغرض الاول : الرد على كافة الكتابات التي تحاول ان تصور الموضوع على انه « جريمة » ، او تعبير عن « اليأس » الفلسطيني ، او تصرف « سطحي » لا يحل المشكلة ولا يفيد القضية الفلسطينية ، معتبرة ان الحادث من أساسه اغتيال سياسي فردي على الطريقة التقليدية المعروفة في التاريخ . والغرض الثاني : الخروج من عملية الرد هذه بوضع تقييم صحيح لمقتل وصفي التل ، يعطيه ابعاده ومعانيه الكاملة ، ليتم على ضوء ذلك شرح كافة المحاذير التي يجب بالضرورة تجنبها بوعي كامل ، والتي يمكن ان تنمو في هذه المرحلة ، مروجة للافكار المغامرة والفوضوية التي عرفتها تجارب الحركات الثورية في اكثر من بلد ، وناضلت للتخلص منها .

وما يجب تحديده منذ البدء أن مقتل وصفي التل ليس اغتيالا سياسيا بالمعنى التقليدي . لانه تعبير عن المصير الذي يلاقيه كل من يقف ضد قضية الشعب الوطنية الاساسية ، ويكرس جهوده لضرب حركته الوطنية . ومن هنا فان مقتل شخص من هذا النوع هو نتاج عملية تصنعها الجماهير بمجموعها ، وبحصيلة كفاحها الجماعي المعبر عن مواقعها ومواقفها الطبقية والسياسية الوطنية الجذرية ، ضد مواقع ومواقف القوى الطبقية القمعية والاستغلالية والعميلة .

ان العنف ضد الافراد يأخذ طابعا ثوريا ومشروعا عندما يكون جزءا من العملية الثورية التي تصنعها الجماهير المنظمة على أساس خط سياسي استراتيجي واضح ، واهداف تكتيكية ، تكون في خدمة الخط العام والاستراتيجية البعيدة المدى . وبهذا يتم انجاز العنف الفردي ، بينما تتابع الحركة الجماهيرية نضالها السياسي والعسكري .

وما دام مقتل التل جزءا من حركة جماهيرية نضالية واسعة ، فهو اذا بعيد كل البعد عن الاتجاهات المغامرة ، التي تحاول كثير من المواقف الصاقها بالحادث . خاصة وانه لم يطرح في أي وسط فلسطيني تفسير او تبرير للحادث على أساس ضرورة الاقتصار في هذه المرحلة على الاساليب الفردية والمغامرة .

ومع ان هذه الحقيقة بارزة بشكل ساطع حتى الان ، فمن الضروري ضرورة بالغة بالرغم من ذلك ، ان تشهد كافة فصائل حركة المقاومة الفلسطينية ، نضالا ايديولوجيا يشرح لقواعد هذه الفصائل ، كما يشرح للجماهير على نطاق واسع ، الفارق العام بين عنف فردي يكون جزءا من حركة النضال الجماهيري المنظم ، وبين نوع اخر من العنف الفردي يكون معزولا عن حركة الكفاح الجماعية للجماهير ، اذ ان هذا النوع الاخر من العنف ، لا قيمة حقيقية له كمنهج في النضال ، فالقوى الرجعية المضادة قادرة دائما على فرز رجالات من بين صفوفها ، للمضي بالخط المعاكس لحركة التاريخ ومصالح الجماهير .

ومن مهام حملة التوعية المطلوبة ايضا ، التركيز على أن مقتل وصفي التل لا يصبح جزءا من العملية الثورية بحكم انبثاقه من حركة جماهيرية مناضلة فقط ، بل حين يرتبط معه ذلك ايضا ، بعمل سياسي متواصل في صفوف الجماهير ضد السياسة الرجعية المعادية للنضال الفلسطيني ، بهدف خلق الظروف التي تمكن هذا النضال من الاستمرار والنمو .

وبالتركيز على شرح هذه القضايا ، نستطيع ان نخلق مناخا قادرا على ان يميز بوضوح ، متى يكون العنف ضد الافراد ثوريا ، ومتى يكون ارهابيا عاجزا عن التغيير .

وبعد عملية التوعية هذه ، فان التركيز على ما كان يمثله وصفي التل على كافة الاصعدة العربية والفلسطينية امر هام للغاية . لان مقتل التل لم يكن مقتلا لفرد ، انما كان في الحقيقة مقتلا للرمز الذي كانت تتجسد فيه سلسلة طويلة من المخططات والمواقف التي يجمعها خيط واحد ، والعداء للحركة

الوطنية ، والممارسة الشرسة لعمليات قمع هذه الحركة . واختياره هو بالذات تعبير عن فهم جماهيرنا ووعيها للدور الذي كان يلعبه ، والخطورة التي كان يمثلها . دون ان يجرنا ذلك الى ان نغفل ولو للحظة واحدة عن طبيعة المعركة الدائرة بين الحركة الجماهيرية وبين النظام الاردني ، اذ يبقى الاصل في المشكلة ، النظام الاردني نفسه ، وما هو يجب ان تتشد اليه الانظار باستمرار .

وما تجدر الاشارة اليه هنا ان مقتل وصفي التل ليس عملا ينتهي بانتهاء الرجل ، فمن المؤكد ان سلسلة مخططات معادية سوف تنبثق بسرعة كنوع من الرد ، في بداية هذه السلسلة تأتي التوقعات المؤكدة لتوجه النظام الاردني نحو تسعير النزعة الاقليمية ، في محاولة للزج بكل ما هو اردني ضد كل ما هو فلسطيني ، في محاولة لتمويه الحقائق ، واخفاء المصالح المشتركة التي تدفع القطاعات المناضلة الفلسطينية والاردنية على حد سواء ، الى مواجهة خصم واحد . وفي هذا النطاق لن يتورع النظام عن القيام بعملية اغتيالات معاكسة، كما أنه لن يتورع عن الانتقام من المناضلين الصامدين في سجون الاردن ، كذلك تأتي في مقدمة هذه السلسلة ايضا المساعي التي ستبذلها القوى الرجعية المضادة لفرض سياسة الترويض على الحركة الجماهيرية الفلسطينية ، بعد ان منعت هذه الطاقة من التوجه نحو قضيتها الاساسية ، وبعد أن فشلت محاولات ايجاد منفذ لها في وساطة جدة .

على ضوء هذه الامور . على ضوء فهمها بشكل صريح ، ومواجهتها بجراة ، يمكن ان ننتقل الى شرح مجمل السياسات التي كان التل رمزا وتجسيدا لها .

وصفي التل كما عرفته الجماهير

عاش وصفي التل وتربى منذ أن ولد في قرية الصريح الاردنية قرب اربد عام ١٩٢٠ في بيئة تسيطر عليها الافكار الاقليمية الانعزالية المتطرفة . فقد كان والده مصطفى وهبه التل شاعرا معروفا بقصائده الاقليمية . ومنذ اوائل العشرينات وحتى الثلاثينات ، عمل ابوه على تغذية هذه النزعة سواء بأشعاره او باتصالاته التحريضية المعادية لكل ما هو عربي عامة وفلسطيني خاصة . في وقت كانت فيه فكرة الوحدة العربية تسيطر على الحركة النضالية ، وكانت فكرة سوريا الكبرى مطلبا جماهيريا واسعا وبسبب طموح الامير عبدالله لكسب موقع هام داخل هذه الوحدة ، قام باعتقال مصطفى وهبه التل اكثر من مرة معتبرا نزعته الاقليمية الاردنية عاملا مشوشا على طموحه . الا أن هذه النزعة انغرست في نفس وصفي التل منذ أن كان طفلا ، ولازمته بعد ذلك طويلا وكانت عاملا أساسيا في تكوينه الفكري وسياساته العملية .

اما العامل الثاني الذي شكل وصاغ نفسية وصفي التل واتجاهاته الفكرية فهو علاقاته الوثيقة مع بريطانيا . وقد سارت هذه العلاقة في صعود مضطرد ويمكن ايجاز مراحلها بما يلي : ١ — في عام ١٩٤٢ التحق وصفي التل بالكلية العسكرية البريطانية في « صرفند » وتخرج منها برتبة ملازم في الجيش البريطاني وقد كان زميلا له في نفس الدورة الجنرال بارليف . ٢ — خدم بعد ذلك في الاستخبارات العسكرية البريطانية التابعة للجيش الثامن وكان مقرها الرئيسي في القاهرة . ٣ — اثناء عمله في المخابرات البريطانية كان مقربا جدا من الجنرال « كلايتون » رئيس المخابرات البريطانية في الشرق الاوسط آنذاك ، واحد الذين كانوا يرسمون سياسة بريطانية الاستعمارية في المنطقة . ٤ — بعد انتهاء الحرب انتهى الارتباط العسكري لوصفي التل ببريطانية وبدأ ارتباطه بمخططها السياسي وتمثل ذلك الارتباط في ذلك الوقت بقضيتين : الاولى : عمله في المكتب العربي في لندن وواشنطن ، وهو المكتب الذي كانت ترعاه وتموله السلطة العراقية المعروفة بولائها البريطاني الكامل . والثانية : تبنيه للمشروع البريطاني للوحدة العربية الذي كانت بريطانيا تسعى لتنفيذه ليكون تحت سيطرة التاج العراقي وبالتالي تحت النفوذ البريطاني المباشر .

ومن خلال هذين العاملين ، النزعة الاقليمية الاردنية والارتباط بالسياسة البريطانية ، نستطيع أن نفهم كافة مواقف وصفي التل السياسية وأول هذه المواقف الجديرة بالتسجيل دوره في جيش الانقاذ الذي كان يقوده « فوزي القاوقجي » عام ١٩٤٨ . فبعد فترة قصيرة من الالتحاق بهذا الجيش نقل وصفي التل من مركزه كضابط في دائرة العمليات الى قيادة الفوج الاردني في منطقة الجليل واعتبر هذا النقل في ذلك الوقت قضية ادارية بحتة . ولكن الغاية الحقيقية منه تكشفت بعد سقوط الجليل بيد الاسرائيليين وانتقال جيش

الانقاذ الى الجبهة السورية اذ انتقل معه وصفي التل وأقام مع فوجه في منطقة بحيرة طبريا وبدأ من هناك يجري اتصالات خاصة مع الامير عبدالله متخطيا جيش الانقاذ والقيادة السورية التي اصبح جيش الانقاذ تحت امرتها . وبسبب هذه الاتصالات اعتقلته السلطة السورية التي كانت اجهزة مخابراتها تصر انذاك على أن الامير عبدالله يعمل بالتخطيط مع بريطانيا على القتال ضمن مناطق التقسيم فقط ، وبقي في السجن ثلاثة أشهر افرج عنه بعدها وسفر الى الاردن .

في هذه المرحلة احتضنه النظام الاردني احتضانا كاملا وبدأ يسند اليه سلسلة من المناصب : مسؤول في دائرة الاحصاء — مساعد مدير ضريبة الدخل — مدير المطبوعات — مستشار السفارة الاردنية في بون — رئيس التشريفات الملكية — القائم بأعمال السفارة الاردنية في ايران — رئيس التوجيه الوطني . وكانت هذه الاعمال كما يبدو نوعا من التهيئة والتدريب حتى يستطيع تأدية الدور المطلوب منه وقد كان بالممارسة والوقائع دورا خطيرا اداه وصفي التل بدأب على كافة الاصعدة .

فعلى الصعيد الفلسطيني : لعب وصفي التل ادوارا خطيرة ، لعل ابرزها الدور الذي لعبه في دورة مجلس الجامعة العربية الاستثنائية المعقودة في شتورا في ١٩٦٠/٨/٢٢ . في تلك الدورة كان الوفد الاردني برئاسة موسى ناصر وزير الخارجية الاردنية وكان وصفي التل عضوا في الوفد الاردني. وكان موضوع البحث الرئيسي في هذه الدورة ابراز الكيان الفلسطيني وانشاء جيش فلسطيني . وقد وافق الوفد الاردني على هذه المطالب ثم قام التل نفسه بالاتصال شخصيا بالملك حسين واقنعه بضرورة رفض الفكرة ثم فرض الرفض على الوفد بعد ان كان قد انتهى من تقديم موافقته وكان يرسم بذلك وبشكل مبكر منهج العداء للنضال الفلسطيني الذي تولى فيما بعد شخصيا تنفيذه بكل شراسة .

وفي ١٩٦٥/٢/١٣ شكل وصفي التل الوزارة الاردنية واسندت اليه هذه المهمة بعد حدثين فلسطينيين هامين هما تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية وانطلاقة حركة فتح في النضال المسلح ضد العدو الاسرائيلي. ومارس خلال تسلمه رئاسة الوزارة سياسة معادية للكيان الفلسطيني وللنضال الجماهيري الفلسطيني والاردني على حد سواء .

تجاه الكيان الفلسطيني اعلن وصفي التل في ١٩٦٦/٧/٤ قطع العلاقات مع منظمة التحرير وطالب بالعودة من جديد « لتعريف الكيان الفلسطيني وشخصيته وصلاحياته » وكان أبرز ما رفضه التل من مطالب منظمة التحرير سعيها لانشاء جيش فلسطيني يأخذ مواقعه على الحدود مع اسرائيل . وكان يرد على هذه الدعوة قائلا في ١٩٦٥/٢/٢٠ « ان الحكومة الاردنية قد فرغت من تسليح القرى الامامية » ولكن الاحداث نفسها جاءت لتقدم ردا ملموسا على هذه الادعاءات ، وذلك حين قامت اسرائيل في ١٩٦٦/١١/١٣ بعدوانها الشهير على قرية السموع الاردنية ، وقامت على اثر ذلك انتفاضة شعبية شاملة امتدت الى كافة المدن الاردنية وقراها مطالبة بتسليح وتحصين القرى الامامية وقامت وزارة وصفي التل بالتصدي لهذه الانتفاضة الشعبية وقمعها بوحشية لا مثيل لها مكرسة بذلك تقاليد النظام الاردني في التعامل مع الحركة الجماهيرية.

وامتد هذا الموقف الى الحركة الوطنية ايضا وذلك حين قامت حكومة وصفي التل في ١٩٦٦/٤/١٣ بشن حملة اعتقالات واسعة شملت القيادات الوطنية من كافة الاتجاهات وبقيت هذه القيادات داخل السجون حتى حرب حزيران .

وتجاه العمل الفدائي التزم وصفي التل دائما بسياسة عدائية واضحة وصلت الى حد ملاحقة الفدائيين المتوجهين نحو اسرائيل ومحاصرتهم وقتلهم كما حدث في ١٩٦٦/٧/٢٢ حين قتلت القوات الاردنية اربعة من مناضلي فتح اثناء عودتهم من احدى العمليات داخل الارض المحتلة ، وكان ذلك نوعا من التنسيق الفاضح ، بين سياسة اسرائيل التي لاحقت الفدائيين حتى الحدود الاردنية ، وسياسة وصفي التل التي أكملت ملاحقتهم داخل الحدود الاردنية .

كل هذا حدث قبل حرب حزيران ١٩٦٧ وقبل مجزرة أيلول ١٩٧٠ ولكن دور وصفي التل عاد ليتجسد في مجزرة ايلول وذلك من خلال الدور البارز الذي لعبه في التخطيط للمجزرة وفي الاشراف على تنفيذها من داخل غرفة العمليات اذ كان وصفي التل احد الرجال الخمسة المسؤولين فيها ، وبعد أن تم تنفيذ المجزرة وحان دور دفعه الى الواجهة تسلم رئاسة الوزارة من جديد في ١٩٧٠/١٠/٢٨ وقاد منذ ذلك الوقت بصورة علنية معركة مكشوفة ضد

العمل الفدائي سياسيا وعسكريا ونفذت في عهده « العلني » : معركة جرش الاولى في ١٢/٦/١٩٧٠ ، معركة السلط في ١٩٧٠/١٢/٢٥ ، معركة الرصيفة في ١٩٧١/١/٨ ، معركة هملان في ١٩٧١/٢/١١ ، معركة اربد في ١٩٧١/٣/٢٦ ، معركة جرش الثانية في ١٩٧١/٧/٦ .

واثناء تنفيذ كل هذه المجازر العسكرية انهى مهمة اللجنة العربية العليا التي انبثقت عن مؤتمر القمةفي القاهرة ، ثم أعلن انتهاء مفعول اتفاقيات القاهرة وعمان ، ورفض اثناء ذلك دعوة اللجنة العربية لعقد مصالحة وطنية تنهي جو الاقتتال ، مصرا على المضي في السياسة الاقليمية حتى النهاية . وحين اضطرت وزارته تحت الحاح الضغط العربي وطمعا بعودة المساعدات المقطوعة الى التدفق ان توافق على مؤتمر الوساطة في جدة ، خطط وصفي التل منذ اليوم الاول لافشالها . فبعد ان عرضت عليه ورقة العمل المصرية — السعودية للمرة الاولى وهي الورقة التي تنص على السعي للوساطة انطلاقا من اتفاقيات القاهرة وعمان وافق عليها داخل الاجتماع بينما اعلن خارج الاجتماع في ٧١/٨/١٢ « ان البحث تركز حول اعداد صيغة مشروع اتفاق جديد منبثق عن اتفاق القاهرة » وهو ما كانت ترفضه الوساطة وترفضه منظمة التحرير ايضا . ولكن هذا التصريح ابرز منذ وقت مبكر التكتيك الذي سيتبع لافشال المفاوضات من اساسها . لقد اعتقد وصفي التل ان المقاومة الفلسطينية قد انتهت وتلاشت وبعث بوفده الى جدة ليملي شروط الاستسلام عليها ، ومن خلال هذه العقلية فرض جو الفشل على المفاوضات منذ بدايتها . ولم تكن هذه العقلية سوى امتداد للنظرية التي كان يروج لها في مجالسه الخاصة نظرية ان « فلسطين قد انتهت ... قسم مع اسرائيل وقسم آخر مع الاردن » ولذلك كانت مشكلته الاساسية ، الشعب الفلسطيني وليس اسرائيل .

اما على الصعيد العربي : فقد كانت لوصفي التل ادوار خطيرة ايضا ففي عام ١٩٦٠ عين وصفي التل سفيرا للاردن في العراق وكان القصد الاساسي من تعيينه في هذا المنصب الاتصال مع العناصر الرجعية السياسية والعسكرية ذات الولاء للنظام الملكي الذي انهته ثورة تموز ١٩٥٨ وذلك من ضمن المحاولات الرامية لاعادة الملكية الى العراق وضرب النظام الجمهوري وقد طلب النظام الجمهوري في العراق من الاردن تعيين سفير اخر بدلا من وصفي التل بعد ان انكشفت نشاطاته وعرفت اتصالاته . وفي عام ١٩٦٢ عين رئيسا للوزراء للمرة الاولى وذلك بعد انفصال وحدة مصر وسوريا الذي لعب النظام الاردني دورا بارزا في تحقيقه . وبعد انفجار الحرب في اليمن بين الملكيين والجمهوريين ساهم وصفي التل مرة اخرى في المعركة ضد النظام الجمهوري وتولى ارسال القوات العسكرية والطائرات للاسهام في ضرب ثورة الشعب اليمني .

كان موقفه هذا سببا وراء العداء العميق بين وصفي التل وبين النظام المصري هذا العداء الذي لم يخمد يوما بل كان يزداد في كل يوم الى حد دفع الرئيس جمال عبد الناصر لان يعلن في ٦٧/٥/٢٦ وفي الخطاب الذي القاه بوفد من العمال العرب بينما كانت أجواء الحرب تسيطر على المنطقة « التل جاسوس عند الامريكان وجاسوس عند الانجليز ولا يمكن ان أتعاون مع هؤلاء الجواسيس بأي شكل من الاشكال لان المعركة هي معركة مصير ولا محل للجواسيس في هذه المعركة » . وحين شكل وزارته الاخيرة في ١٩٧٠/١٠/٢٨ كان وجوده سببا رئيسيا وراء سوء العلاقات الديبلوماسية بين مصر والاردن وادت هذه الازمة الى الغاء زيارة الملك حسين الى القاهرة لانه كان سيصطحب معه وصفي التل كما ادت الى بقاء السفير الاردني اشهرا طويلة ينتظر تقديم اوراق اعتماده . اما ذهاب وصفي التل الاخير الى القاهرة فقد تم لسبب واحد وهو أن الاجتماع للجامعة العربية وسوف يعقد فوق ارض الجامعة العربية ولا علاقة بالتالي لمصر الدولة به . وقد عبرت صحيفة « الاهرام » في ٧٠/١٠/٣٠ عن وجهة نظر مصر شبه الرسمية من وصفي التل حين كتبت تقول « ان للتل مواقف سياسية سابقة ومشهورة » كما أنه من الناحية السياسية أبرز المحركين وراء الازمة الدامية بين السلطة الاردنية وبين المقاومة الفلسطينية وكان هو القوة الحقيقية وراء الوزارة العسكرية التي ترأسها العميد محمد داوود لتنفذ مجزرة ايلول .

اما على الصعيد الاردني الداخلي : فقد اطلق وصفي التل العنان لنزعاته الاقليمية اذ كان هو الذي وضع الاسس النهائية للسيادة الاقليمية التي

نفذت خلال السنوات العشر الاخيرة ، فمنذ ان تولى رئاسة الوزارة للمرة الاولى وضع خطته الاقليمية القاضية بابعاد الفلسطينيين عن كافة المجالات الاساسية في الدولة باستثناء بعض الشكليات التي لا بد من المحافظة عليها ونفذت هذه السياسة بدأب في الجيش والوظائف وسلك التعليم والبعثات الدراسية لتأخذ طابعا اردنيا خالصا ضد كل ما هو فلسطيني ونفذ هذا المخطط كله تحت الشعارات الاعلامية التي تدعو وتهلل للوحدة الوطنية وكانت ذروة هذه السياسة الاقليمية خطة التنمية التي اخذت على عاتقها وضع كافة المشاريع الفعالة في الاردن في الضفة الشرقية والاكتفاء بالتطوير التقليدي للاقتصاد في الضفة الغربية وكان هذا يتم حسب تخطيط وصفي التل بحجة التخطيط تارة والتحديث تارة اخرى .

اخيرا ... على صعيد الموقف تجاه اسرائيل :
كان وصفي التل يتحدث في المجالس وهو خارج الحكم عن دولة اسبارطة الاردنية التي سيتولى بناءها اذا تسلم السلطة ولكن اسبارطة وصفي التل تحولت على يديه الى دولة تريد ان تحارب الفلسطينيين ولا تريد ان تحارب اسرائيل وتنوي عقد صلح ثنائي معها واعتراف بها كما نشرت مؤخرا مجلة « لوي » الفرنسية للتخلي عن المواقف المبدأية والقبول بالامر الواقع . واخيرا .. وليس اخرا ما اعلن في الاردن قبل فترة عن رفض الدخول في حرب مع اسرائيل والاستعداد لعقد تسوية ثنائية وهذه هي في الحقيقة والواقع النتيجة المنطقية لكل سياسات وصفي التل التي مارسها اثناء وجوده على رأس السلطة في الاردن . فهل كان من الممكن ان تجد كل هذه السياسات طريقها للتنفيذ بدون ثمن ؟

الحادث

لقد جاء الثمن فعلا . ففي الساعة الثالثة والدقيقة الاربعين من بعد ظهر يوم الاحد الثامن والعشرين من تشرين الثاني ١٩٧١ ، قتل وصفي التل رئيس وزراء الاردن ، امام فندق شيراتون في القاهرة . جرى الحادث في فترة انعقاد مجلس الدفاع العربي في مبنى الجامعة العربية في القاهرة . وكان وصفي التل على رأس الوفد الاردني ، بصفته وزيرا للدفاع . وقد نفذ العملية أربعة شباب فلسطينيين اعتقل ثلاثة منهم بعد الحادث مباشرة ، واعتقل الرابع بعد الجولة الاولى من التحقيق . وكانوا جميعا قد وصلوا الى القاهرة قبل أيام من الحادث ، ودخلوها بجوازات سفر سورية .

اعلنت أسماؤهم فور الاعتقال ، ثم تبين في التحقيق ان الاسماء المعلنة اسماء سرية . واذيعت الاسماء على الشكل التالي : عزت احمد رباح واسمه الحقيقي محمد نبيل سلامه (ابو العز) قائد العملية ومطلق الرصاصات القاضية ، منذر سليمان خليفه واسمه الحقيقي خيري سليم خشان ، جواد خليل بغدادي واسمه الحقيقي جواد أحمد أبو عزيزه ، زياد بسام بدران واسمه الحقيقي زياد محمد الحلو . وبعد ايام أبرز في التحقيق اسم شخص خامس يدعى (ابو محمد) ، يعتقد أنه هو الذي خطط العملية ، وغادر القاهرة قبل وقت قصير جدا من الحادث ، ثم اعلن في ٢ ك١ أن اسمه الحقيقي هو فخري عامر ، وكان دخل القاهرة بجواز سفر سوداني .

وتبين من اعترافات المعتقلين الاربعة أن « منظمة ايلول الاسود » تشكلت بعد مجزرة ايلول ١٩٧٠ في الاردن ، وهي المجزرة التي ذهب ضحيتها عشرون الف قتيل وجريح . أما الذي شكل المنظمة فهو «ابو علي أياد» احد قادة فتح البارزين الذي استشهد في معركة جرش الاخيرة في تموز ١٩٧١ . اما مهمتها فهي القضاء على كافة المسؤولين عن تدبير مجزرة ايلول . وهي منظمة لا علاقة لها حسب اصرار الاربعة بأية منظمة فدائية قائمة .

وفي ٢ ك ١ أصدرت المنظمة بيانها الاول في بيروت وجاء فيه « ان منظمة ايلول الاسود .. تعد شعبنا بالمضي قدما في حمل مشعل الثورة الفلسطينية ، حتى يتم تحرير كامل التراب الفلسطيني » .

الدفن : وقد وصل في منتصف الليل الى مطار القاهرة احمد طوقان وزير البلاط وأحمد اللوزي وزير المالية ، على متن طائرة اردنية خاصة لمرافقة جثمان التل الى عمان ، ورافق الجثمان ايضا بعثة تعزية مصرية برئاسة السيد صبري الخولي الممثل الشخصي للرئيس السادات . وفي ظهر اليوم التالي (٢٩ ت ٢) تم دفن التل بأمر من الملك حسين ، في مقبرة بجوار المقبرة المدفون بها جده الملك عبدالله ، الذي اغتيل في القدس عام ١٩٥١ . وقد تمت عملية التشييع والدفن ، وسط اجراءات امن مشددة وحصار فرض على مخيمات اللاجئين في عمان . وقد دفعت الحكومة بقوات اضافية من

الجيش خرجت مسلحة بالبنادق الاوتوماتيكية ، تجوب شوارع المدينة ، بينما اخذت سيارات الامن المزودة بمكبرات الصوت تطلب من المواطنين التزام الهدوء وعدم القيام بأية مظاهرات .
واطلقت في الجناز هتافات معادية لمصر ، ووضعت حراسة خاصة على السفارة المصرية ، وعلى وفد التعزية المصري .

التحقيق :

فور الحادث اذاع النائب العام المصري بيانا ضمنه المعلومات الاولية ، حول هوية المعتقلين الاربعة ، والافادات الاولية التي ادلوا بها ، واعلنوا بها مسؤوليتهم عن الحادث . وقالت « الاهرام » صباح اليوم التالي ، ان هناك اتجاها لتشكيل محكمة أمن دولة لمحاكمة المعتقلين ، وان المحاكمة ربما تكون علنية ، وينتظر ان تبدأ بسرعة ، لان التحقيق يكاد يكون منتهيا بالاعترافات التفصيلية التي ادلوا بها .

بعد سماع الاعترافات الاولية للمعتقلين — اذ اعترفوا بمسؤوليتهم الكاملة عن الحادث — أصدرت النيابة العامة قرارا بحبسهم ، ووجهت لهم تهمة « القتل المتعمد مع سبق الاصرار والترصد » . وأعلن ان السيد حسين الشافعي ، نائب رئيس الجمهورية يشرف على التحقيق بنفسه .

نشرت في اليوم التالي (٢٩ ت٢) الاقوال التفصيلية للمعتقلين ، واطلع القائم بأعمال السفارة الاردنية على مجرى التحقيق . ثم وصل في ٢ ك١ مبعوث اردني الى القاهرة ، ابلغ النائب العام ان لديه معلومات تفيد التحقيق . بينما قالت المباحث المصرية ان هناك ثلاثة اشخاص آخرين شاركوا في التخطيط بينهم فتاتان ، احداهن شقيقة ابو علي اياد . وقد اعتقل الثلاثة ثم افرج عنهم .

وكان مقررا ان يصدر قرار الاتهام في ٥ ك١ الا ان النيابة العامة ارجأت ذلك ، وأعلنت ان التحقيق يدور الان حول الجانب السياسي للقضية ، وطلبت ملفا كاملا لاحداث ايلول ١٩٧٠ في الاردن ليضم الى اضبارة التحقيق .

ردود الفعل المباشرة : أثار الحادث ضجة عربية وعالمية واسعة ، وتناقلته بالتفصيل كافة الصحف والاذاعات ووكالات الانباء ، وتراوحت المواقف ازاءه بين التأييد الكامل والرفض الكامل . وكانت المواقف الوسطية نادرة جدا . وفيما يلي تسجيل سريع لابرز ردود الفعل على الحادث .

١ — رد الفعل الاردني : فور الاعلان عن مقتل وصفي التل ، خرجت الى شوارع عمان مظاهرات شعبية عفوية ، لم تعلن الصحف عن هويتها ، ولكن مجرى الاحداث ، اظهر انها كانت مظاهرات تأييد . فقد وصفت هذه المظاهرات بأنها خرجت « لتعلن اغتيال رئيس الحكومة » ، وأعقبتها فورا اجراءات أمن شديدة ، رافقها انزال عدد كبير من السيارات المسلحة والمحملة بالبدو ، بدأت تطوف شوارع المدينة . وفي هذا الجو المتوتر اقفلت المحلات أبوابها ، وخفت حركة السير .
وفي المساء ، بدأت الاجراءات الرسمية تأخذ مجراها ، في محاولة لابراز الموقف الاردني على أنه موقف واحد جماهيريا ورسميا . وبدأت هذه الاجراءات بتوزيع بيانات رثاء للتل حملت توقيع « أبناء الشعب الاردني » . وفي الساعة الثامنة ليلا وجه الملك حسين كلمة من التلفزيون ، رثى فيها التل ، ولمح الى حالة التوتر السائدة ، من خلال مطالبته الشعب بمزيد من الايمان بالوحدة الوطنية ، وأعلن البلاط الملكي على أثر ذلك الحداد لمدة أربعين يوما ، اما مجلس الوزراء فقد أعلن الحداد لمدة اسبوع ، وتعطيل دوائر الحكومة لمدة يومين . ثم بدأت كافة مؤسسات الدولة تعلن مواقف مماثلة ، فقد أصدر مجلس الوزراء بيان رثاء واستنكار للحادث ، وصدرت بيانات أخرى عن مجلس الاعيان ومجلس الامة . ثم صدرت بيانات مماثلة بأسماء المسؤولين عن هذه المؤسسات شخصيا .

وفي اليوم التالي (يوم الدفن) كانت ابواب المتاجر في عمان لا زالت مقفلة ، ودوريات الجيش متمركزة على مفارق الطرق ، وبعض جنود البدو قلبوا كوفياتهم (علامة الثأر القبلية). وبعد الدفن توالت برقيات المؤسسات الرسمية الاردنية ، وبرز فيها عنصر جديد هو عنصر التهديد . فقد وجه حابس المجالي ، قائد الجيش في مجزرة ايلول ، برقية الى الملك حسين ابلغه فيها « ان الجيش سيقمع اي محاولة لهدم الوحدة الوطنية !! » ، ووجه نذير رشيد مدير المخابرات الاردنية برقية اخرى الى الملك هدد فيها « بتلقين كل فاجر موتور غادر لئيم حمم الهلاك واذاقته سما زعافا » . أما علي ابو نوار سفير الاردن في باريس فقد اتهم القاهرة ضمنا بالحادث حين قال « ان الشرطة المصرية معروفة بقدرتها وعندما يقتل رئيس وزراء في

القاهرة ، فأن هذا غريب حقا ، ان هذا غير عادي » . وفي ٣ ك١ وجه ناطق بلسان المخابرات الاردنية اتهاما اوضح حين نفى وجود ١٥ حارسا اردنيا برفقة التل ، وقال ان هذا النبأ « عذر لتغطية نقص جهاز الحماية المصري » .

في هذا الجو التحريضي والمنفعل ، بدأ النظام الاردني اتخاذ الترتيبات الادارية اللازمة . فكلف احمد اللوزي وزير المالية بتسلم منصب رئاسة الوزراء ، حتى يمكن الابقاء على وزارة التل نفسها ، وعدم الخوض في اية تغييرات سياسية قبل هدوء الوضع الداخلي . وتوجه اللوزي في نفس اليوم الى القاهرة لمتابعة اشتراك الاردن في مناقشات مجلس الدفاع . وأصدر الملك حسين أيضا قرارا بتعيين محمد رسول الكيلاني رئيس المخابرات الاردني المشهور ، ووزير الداخلية السابق ، مستشارا شخصيا له لشؤون الامن . وفسر تعيينه في اوساط المراقبين على انه اعلان بالتوجه نحو تصعيد سياسة القمع ، اذ ادار الكيلاني طويلا عمليات قمع الحركة الوطنية الاردنية قبل حزيران ١٩٦٧ .

بعد تعيين الكيلاني مباشرة ، وصلت سرا الى بيروت ودمشق مجموعات من رجال المخابرات الاردنية ، من المؤكد انها أرسلت لتدبير عمليات انتقام ضد الشخصيات الفدائية الفلسطينية . وقد تم اعتقال مجموعة من هؤلاء في دمشق بواسطة الكفاح المسلح الفلسطيني ، وكانوا قد اجتازوا الحدود باجازات وهويات جنود في جيش التحرير الفلسطيني . اما في بيروت فقد أجرى بعض قادة المقاومة اتصالات سريعة مع المسؤولين اللبنانيين، ونقلوا اليهم المعلومات المتوفرة حول عناصر المخابرات الاردنية التي وصلت الى لبنان . وقام السيد صائب سلام بالاجتماع مع الملحق العسكري في السفارة الاردنية ببيروت وبحث معه الموضوع ، فنفى الملحق المعلومات ، وتم تبليغ ذلك لقادة المقاومة .

وحين القى الملك حسين خطاب العرش مفتتحا الدورة العادية الخامسة لمجلس النواب الاردني في ١ ك١ ، عقد بعده مباشرة مؤتمرا صحفيا قال فيه أن هناك أيد خفية وراء هذا الحادث ، ثم زاد موضحا انها أيد عربية ، وانه لن يكشف المعلومات التي لديه الا في الوقت المناسب . وحين سئل عن الموقف من مفاوضات الوساطة في جده أجاب « ان الوقت غير مناسب للحديث عن موضوع مفاوضات جده او غيرها من المفاوضات » ، محددا بذلك المنهج السياسي النهائي للاردن تجاه حركة المقاومة . وقد قام مجلس النواب بترجمة واضحة لهذا الموقف حين اعلن عن جملة قرارات اتخذها من بينها قرار يقول « ان مجلس النواب الاردني الممثل الشرعي للشعب في ضفتي المملكة الاردنية الهاشمية ليعتبر كل زعم وادعاء بتمثيل الشعب الفلسطيني في هذه المملكة انما هو مؤامرة تنطوي على قتل الوحدة الوطنية ... وان جميع المواطنين يمثلهم جلالة الملك المعظم وسلطات الدولة الشرعية بأجهزتها المختلفة » . ويمثل هذا القرار قطيعة نهائية مع حركة المقاومة الفلسطينية التي كرست بعد عام ١٩٦٧ ، وخاصة بعد توقيع اتفاقي القاهرة وعمان ممثلة شرعية للشعب الفلسطيني . وفي ٤ ك١ كشف رئيس الوزراء الجديد احمد اللوزي في مقابلة مع جريدة « النهار » عن قرار آخر لمجلس النواب لم يعلن عنه ، حين قال ان المجلس « طلب من الحكومة عدم السماح باقامة أية قاعدة فدائية لاية منظمة ما لم يكن هدفها الحقيقي القتال ضد العدو الاسرائيلي » ، ويؤكد هذا رفض اي عودة فدائية الى الاردن مهما كان نوعها ، بينما كان الموقف الاخير في جدة ، استعدادا لقبول عودة المنظمات التي وافقت على الوساطة . ومما يزيد الامر وضوحا ان اللوزي قال في نفس المقابلة ان الاردن « يؤمن بمقاومة منزوعة داخل الارض المحتلة » .

في ٧ ك١ صعد الاردن ردود فعله ، فاعتقل مجموعات جديدة متعاطفة مع العمل الفدائي . كما اعتقل العاملين في « جمعية رعاية أسر الشهداء » وهي جمعية مستقلة لا علاقة رسمية لها بمنظمة التحرير وتصرف على عائلة وابناء أي شهيد فلسطيني تبلغ عنه . كذلك اعتقلت السلطات الاردنية العاملين في مكتب الضفة الغربية ، وهو مكتب تابع لحركة فتح ، يتولى الاشراف على ادارة بعض العمليات داخل اسرائيل والاراضي المحتلة . ومن جهة أخرى قام النظام الاردني بعقد مؤتمر موسع لرؤساء العشائر صدر عنه بيان طالب جميع الحكام العرب « باعادة النظر في مواقفهم من المنظمات الفدائية » وحمل البيان حركة فتح صراحة مسؤولية الحادث .

٢ ـ ردود الفعل العربية : اتسمت ردود الفعل العربية الرسمية ازاء الحادث باعلان الاستنكار

بشكل عام . البعض أعلن بحرارة ، والبعض أعلن حسب اللياقات الديبلوماسية ، والقليلون اعلنوا تعاطفهم مع الحادث . وكان اول رد فعل عربي برقية التعزية التي أرسلها الرئيس السادات وجاء فيها « ان الشعب المصري بكل قيمه الحضارية يستنكر بشدة كل منطق تصدر عنه مثل هذه الاعمال » . ثم ارسل الملك فيصل برقية تعزية للملك حسين استنكر فيها بشدة «الجريمة النكراء». وتلتها برقية من الرئيس السوداني جعفر النميري اعرب فيها عن « الاسى لاغتيال التل » . ولم يصدر في دمشق وبغداد طوال اليوم الاول اي تعليق ، اما اذاعة الجزائر فقد وصفت وصفي التل بأنه « سفاح الفدائيين » ، واعلنت في ٢٩ ت٢ ان نقابة المحامين كلفت ثلاثة محامين للدفاع عن المتهمين ، وفي ٧ ك١ انضم عمار بن تومي ، نقيب المحامين الجزائريين الى زملائه الثلاثة للاشتراك في الدفاع . وتابعت الجزائر موقفها ، فهاجمت جريدة « المجاهد » وجود ممثلين للاردن في مجلس الدفاع العربي .

في اليوم التالي أرسلت بقية الحكومات العربية رسائل تعزية . فأرسل الرئيس سليمان فرنجية برقية أبدى فيها الاسف «العميق لفداحة الخسارة». وأرسل كل من رئيس الوزراء صائب سلام، ورئيس مجلس النواب كامل الاسعد برقيات مماثلة . وقال الفريق حافظ الاسد في برقيته « كم كنا نتمنى ان لا يلجأ أحد الى مثل هذه الاساليب » . وندد الرئيس الحبيب بورقيبه باسم تونس بحادث الاغتيال ، اما المغرب فقد بعث برئيس وزرائه محمد العراقي على رأس وفد للتعزية والاشتراك رسميا بالتشييع . وكشفت صحيفة الاهرام ان الوفد الليبي في مجلس الدفاع العربي رفض التوقيع على برقية تعزية اقترح ان ترسل باسم المجلس موقعة من جميع الوفود ، مما ولد احراجا عاما تم حله بالاكتفاء بوضع توقيع الامين العام للجامعة فقط . بينما نشرت صحيفة الرائد الليبية مقالا قالت فيه « ان اغتيال التل يجب ان يكون درسا يتعظ به الملك حسين » .

٣ ـــ ردود الفعل العالمية : منذ اليوم الاول للحادث أعلن ناطق باسم الرئيس الاميركي نيكسون عن « القلق الشديد » للحادث . وفي لندن أعلنت الحكومة البريطانية أنها «اصيبت بالاسى العميق». اما في موسكو فقد نشرت وكالة « تاس » الخبر بدون أي تعليق وبدون أية تفاصيل . ثم توالت برقيات تعزية كثير من الحكومات حسب الاعراف الدبلوماسية .

اما الصحف الاجنبية فقد اهتمت بتحليل نتائج الحادث فقالت صحيفة « التايمس » اللندنية « ان اغتيال التل سيوقد جمر حركة الفدائيين الفلسطينيين » . وقالت صحيفة « اللوموند » الفرنسية « من المحتمل ان يزيد اغتيال التل من اشتداد الازمة الراهنة داخل العالم العربي » . وقالت صحيفة « نيويورك تايمز » الامريكية « ان السيد التل لم تأخذه شفقة في قمعه الفدائيين ولكن المتطرفين كانوا اكثر ما يكرهونه ويخشونه لانه كان رجلا منطقيا يسعى الى تسوية عملية مع اسرائيل » .

اما في اسرائيل نفسها فقد قال الملقون الصحفيون « لقد نجح الفدائيون في اغراق العالم العربي في الفوضى والقلق والاضطراب » . اما المسؤولون الرسميون فقد رفضوا التعليق على الحادث ، غير ان متحدثا اسرائيليا وصفه بأنه « خسارة للملك حسين وللاردن » واضاف « ان التل حافظ على موقف متوازن جدا تجاه اسرائيل » .

٤ ـــ ردود الفعل الفلسطينية : كان رد الفعل الجماهيري على الصعيد الفلسطيني هو الموقف الاساسي . ففور اذاعة النبأ سمعت في كافة مخيمات اللاجئين في لبنان أصوات طلقات نارية ، أطلقت كتعبير عن التأييد . وفي المساء أرسلت اربعة اتحادات شعبية هي : اتحاد طلاب فلسطين (بيروت والقاهرة) ـــ اتحاد العمال ـــ اتحاد المعلمين ـــ اتحاد المرأة ، برقيات الى الرئيس المصري أنور السادات تناشده اطلاق سراح المعتقلين « لانهم قاموا بواجبهم الوطني » بينما توالت حملة برقيات كثيفة من كافة مناطق التجمعات الفلسطينية تطالب بالافراج عن المعتقلين ، ولا زال سيل من هذه البرقيات يتوالى على المسؤولين المصريين .

وقد أدلى فور وقوع الحادث ناطق باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بتصريح قال فيه « ان مقتل التل نذير بكل ما سيصيب اعداء شعبنا ، والجبهة تتوقع ان يعامل الفدائيون المعتقلون معاملة المناضلين الذين نفذوا مهمة نضالية » ، ونسر الصحفيون الاجانب فورا هذا التصريح على انه اعتراف من قبل الجبهة بمسؤوليتها عن

الحادث . ولكن الجبهة اصدرت بسرعة بيانا ينفي ذلك بوضوح (٢٩ ت٢) . ولم تعلق حركة فتح على الحادث الا في ١ ك١ حين نشرت « حصاد العاصفة » تعليقا يقول « ان الابطال الاربعة الذين نفذوا حكم الشعب الفلسطيني في وصفي التل ، هم ابناء الشعب الفلسطيني ، ويمثلون ارادة الثورة الفلسطينية » . وفي ٢ ك١ اصدرت الجبهة الديمقراطية بيانا طالبت فيه بالافراج عن المعتقلين . ثم اصدرت خمس منظمات فدائية (فتح — الشعبية — الديمقراطية — جبهة التحرير — القيادة العامة) بيانا مشتركا حللت فيه دوافع الشباب الاربعة الذين نفذوا العملية ، والمبررات التي استند اليها موقفهم ، وطالبت بالافراج عنهم . وقد شذ عن هذا الاجماع الفلسطيني « العميد مصباح البديري » رئيس أركان جيش التحرير الفلسطيني ، الذي أرسل في ٣٠ ت٢ برقية استنكار للحادث ، ورد عليه الشريف زيد بن شاكر برسالة شكر مطولة . وأثارت برقية البديري استغرابا واسعا في كافة الاوساط ، وتساءلت اذا كان يحق لضابط في جيش التحرير ان يحدد اي موقف سياسي ، قبل ان تبادر اللجنة التنفيذية الى تحديد موقف المنظمة .

وكانت قد اثيرت ضجة كبيرة حول تصريح نقلته الصحف على لسان السيد « زهير محسن » عضو الوفد الفلسطيني في مجلس الدفاع العربي . اذ روت هذه الصحف على لسانه انه قال في الجلسة التي عقدت عقب الحادث مباشرة ان ما جرى « مؤامرة دنيئة تقف وراءها قوى معادية للامة العربية ... وان التحقيق سيتوصل الى كشف أبعاد هذه المؤامرة وفضح الذين يقفون وراءها ». ولكن مجلة الطلائع الناطقة بلسان منظمة التحرير الفلسطينية ، كذبت النبأ في عددها الصادر بتاريخ ٦ ك١ وأوردت النص الرسمي لكلام السيد زهير محسن المدون في محضر الجلسات . كما ان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير أصدرت في ٦ ك١ توضيحا نفت فيه ما رددته الصحف قائلة ان تشويها كبيرا طرأ على الكلام المنسوب للسيد زهير محسن .

٥ — رد الفعل الجماهيري العربي : كان رد الفعل الجماهيري العربي ازاء الحادث مماثلا لرد فعل الجماهير الفلسطينية . فقد بادرت تجمعات جماهيرية عفوية في اكثر من بلد عربي الى ارسال عدد كثيف من البرقيات الى الرئيس السادات تطالبه بالافراج عن المعتقلين . اما في لبنان فقد وزعت الاتحادات الطلابية العربية (الكويت — الاردن — فلسطين — كونفدرالية الطلبة العرب) بيانا دعت فيه الى« اطلاق الذين أدوا الامانة والواجب » (١ ك١) . أما الاحزاب التقدمية في لبنان فقد اصدرت في ٣٠ ت٢ بيانا قالت فيه « ان التل يتحمل مسؤولية كبيرة في تصفية الفدائيين » ، ووقعت على هذا البيان أربعة أحزاب هي (الحزب التقدمي الاشتراكي — الحزب الشيوعي — حزب البعث — وحدة القوى الناصرية) .

وبالاضافة الى ذلك فقد أعلن عدد كبير من المحامين في اكثر من قطر عربي ، استعدادهم للدفاع عن المعتقلين . ونشرت « حصاد العاصفة » في ١ ك١ أسماء ثلاثين محاميا لبنانيا ابدوا استعدادهم للدفاع . وفي ٧ ك١ بلغ عدد المحامين اللبنانيين المتطوعين أكثر من مئة . ثم عقد المحامون اللبنانيون في ٤ ك١ مؤتمرا صحفيا أدلوا فيه ببيان تضمن تحليلا وافيا للاسباب التي دفعتهم الى تبني هذا الموقف . وجاء في هذا البيان ان « الثورة الفلسطينية ... إصدرت حكمها على وصفي التل بصفته احدى الادوات الاساسية في تنفيذ جريمة الابادة ، وذلك عملا بقانون حماية الثورة من أعدائها » .

وفي القاهرة اعلن في ٤ ك١ ان خمسة عشر محاميا مصريا تطوعوا للدفاع عن المعتقلين . وفي ٧ ك١ سافر خمسة عشر محاميا عراقيا الى القاهرة للغرض نفسه . وابرقت نقابة المحامين السوريين تعلن استعداد محاميها للدفاع . ثم وجهت نقابة المحامين الفلسطينيين نداء الى اتحاد المحامين العرب لاتخاذ الاجراءات اللازمة لاشراك محامين يمثلون كل النقابات العربية للدفاع عن المعتقلين . هذا بالاضافة الى المحامين الجزائريين الاربعة الذين أشرنا اليهم من قبل ، وكانوا أول من بادر الى فتح باب التطوع للدفاع .

ب٠ ح٠

(٢) القضية الفلسطينية عربياً

١ ـ فشل الجولة الثانية من جولات المصالحة
انتهت الجولة الثانية من مسلسل المصالحة بين المقاومة الفلسطينية والنظام الاردني الى الفشل . ولقد جاءت هذه النهاية عكس ما كان يشيعه الاردن وبعض الاوساط العربية ، وخاصة المملكة العربية السعودية من جهة ، وعكس ما كانت تؤكده صحف عربية واوساط عربية تقدمية ووطنية من جهة اخرى . فلقد جاء في الوكالات من عمان « ان مصادر مسؤولة في الوفد الاردني الى محادثات الوساطة في جدة » أعربت « عن املها بالتوصل الى اتفاق نهائي وشامل بين الحكومة الاردنية ومنظمات المقاومة خلال اليومين القادمين » . واضافت هذه المصادر ان « جوا من التفهم ساد المحادثات مع وفد المقاومة الذي أبدى تجاوبا حسنا ونية حسنة » (الكفاح ١١/١٦ ، ٢٧٣٦) . وكان مصدر رسمي اردني قد اعرب عن تفاؤله بالمحادثات التي ستجري في جدة ، يوم ١٠/٣١ (الحياة ١١/١ ، ٧٩٧٤) .

وكان مثل هذا التفاؤل الاردني ـ السعودي يجد صدى مخيفا في الاوساط التقدمية والوطنية . وقد عبرت صحيفة (الحرية) عن ذلك بقولها : « ان الذين قبلوا بمنطق الوساطة العربية والمفاوضات مع النظام الاردني لن يستطيعوا ايقاف تيار التنازلات الجوهرية المتتابعة الان ، ذلك هو من صلب المنطق نفسه » (الحرية ٥٩٢) . وعادت (الحرية) فأكدت في الاسبوع التالي ان وفد المقاومة يسير على طريق التسليم (٥٩٣) .

فلماذا فشلت مباحثات المصالحة اذن ؟ وما سر التفاؤل الاردني الرسمي وتخوف الاوساط التقدمية الفلسطينية والعربية ؟

أولا : ان الوفد الاردني الذي كان يفاوض في جدة جاء الى جدة بأوامر صريحة وافكار محددة تدور حول ما يلي : أ ـ ان السلطة الاردنية هي ممثلة الشعب الفلسطيني ، وسوف نبحث هذه القضية فيما بعد . ب ـ ان السلطة الاردنية هي السلطة الوحيدة في الاردن ، وان اي عمل يتم في الاردن يتم من خلالها ، وتحت اشرافها . جـ ـ ان المقاومة الفلسطينية ليست الا اعمالا فدائية لجماعات محدودة ، تعمل « ضد الاحتلال حيث يربض ويبسط ظله وطالما بقي » كما يقول حسين الى رئيس وفده الى المباحثات (الراي ٧١/١١/٥ ، ١٣٥) . وهي بالتالي ليس من حقها ان تملك حريتها في العمل العسكري ، وليس من حقها ان تقوم بالعمل السياسي في اوساط جماهيرها .

ولهذا كان الوفد الاردني صريحا في مطالبه ومقترحاته : فالمنظمة لا تمثل الشعب الفلسطيني ، والدولة هي صاحبة السيادة الكاملة على أراضيها ، والعمل السياسي ممنوع على الثورة والعمل العسكري تحت اشراف السلطة الاردنية ، وعدد الفدائيين المسموح بوجودهم لا يجوز أن يزيد على الالف . وكان طبيعيا ان يرفض وفد المقاومة كل هذه الشروط ، خاصة وهنالك رفض شعبي وفي اوساط قواعد المنظمات للمصالحة أصلا .

ثانيا : ان المفاوض الاردني ذهب الى جدة ، وهو يراهن على « توقعات » اخرى . وكان يجلس الى مائدة المباحثات مناورا ، وهو يتوقع احداثا تقلب الامور رأسا على عقب . فما هي هذه الاحداث التي كان المفاوض الاردني يتوقعها ؟

انها تتلخص في أمر واحد : انفجار حركة المقاومة من الداخل ، وفي هذه الحالة تتمكن العناصر المؤمنة بضرورة حصر المقاومة في عدد محدود من الفدائيين وحصر مهمتها في العمل داخل الارض المحتلة فقط من تحقيق الاتفاق المنشود . ولقد كان هدف المحاولة الرامية الى اغتيال ياسر عرفات خدمة مخطط التفجير هذا . وكانت دوائر المخابرات الاردنية ودوائر اخرى تعتقد ان اغتياله سيفجر حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، وسينهي مشكلة الثورة الفلسطينية ومنظمة التحرير ! ولكن مخطط الاغتيال لم ينجح ، ووفد حركة المقاومة لم يسر في مسلسل التنازل ، كما توقعت الحرية ، والضغط السعودي لم يثمر . وهكذا فشلت الجولة الثانية من المباحثات .

ويعود سر التفاؤل الاردني في تقديرنا الى ثلاثة عوامل :

اولها : ان الاردن ، الذي حقق انتصارات على حركة المقاومة ، خلال عام او يزيد ، ومنذ نهايات صدامات ايلول وحتى اليوم ، كان واثقا من قدرته على تحقيق المزيد من الانتصارات . وكان ما يراه

من تراجع مستمر في حركة المقاومة ، يقنعه بأن التنازل سيستمر ، لا سيما ان هنالك من يرفعون شعارات مماثلة لشعارات السلطة الاردنية بأساليب مختلفة ، وهناك من يساومون ومن يتخاذلون ، ومن يهربون من المعارك ، ومن يبحثون عن الراحة والوجاهة داخل حركة المقاومة .
ثانيها : ان الاردن كان يعمل ، مع دوائر مخابرات عربية واجنبية لشق حركة المقاومة ، ما بين فتح وغير فتح ، ويسار ويمين و... و... وكان يبدو ان هذه المساعي الرامية الى تفجير حركة المقاومة تؤتي أكلها . وكان هنالك كثير من الظواهر التي تؤكد هذه الحقيقة . كما يبدو ان الخيل التي كانت تراهن عليها الانظمة كانت حريصة على ان تقنع الانظمة بقدرتها على تحقيق الاهداف المطلوبة .
ثالثها : ان الاردن كان يريد ان يحتال على بعض الانظمة العربية لانهاء العزلة والقطيعة ، وليبدء حوار مع هذه الانظمة يقود الى عزل المقاومة نهائيا . ثم ان النظام كان يحاول ان يخدع جماهير الشعب الاردني التيضايقها الحصار بوعودسرابية.
اما سر تخوف بعض الاوساط العربية التقدمية فيعود الى عاملين : اولهما : عدم ثقة هذه الاوساط بقيادات حركة المقاومة ، واعتقادها بانها قيادات « سقطت » « وانتهت » . ثانيهما : اعتقاد هذه الاوساط بأن القيادات التي رضيت بكل التنازلات السابقة ، مستعدة لكل تنازل يطلب منها . وسنناقش موقف هذه الاوساط فيما بعد .
وهكذا كان ان انتهت جولة اخرى من المباحثات دون ان تتنازل المقاومة عن هدف من اهدافها الاساسية الثلاثة وهي : ١ — منظمة التحرير هي الممثل للشعب الفلسطيني . ٢ — حرية العمل الفدائي عسكريا . ٣ — حق الثورة الفلسطينية بتعبئة الجماهير في الاردن سياسيا واعلاميا .
هذه هي « المطالب » التي ان تنازلت عنها المقاومة انتهت تماما ، والتي تحاول جهات مختلفة ان تسلبها اياها ، كما ان هناك داخل المقاومة من يدعو الى التنازل عنها بأساليب مختلفة ، تبدأ بالدعوة الى العمل السري — ولسنا ضد السرية بالطبع . وتنتهي بالدعوة الى التوجه الى الداخل، والى الداخل فقط ، من اجل انهاء وجود المقاومة ومكاسبها خارج نطاق الاحتلال الصهيوني ، ولحرمانها من حقل استقطابها بين جماهيرها الفلسطينية والعربية ، ولالغاء قواعدها الخارجية ومناطق تمحورها وانتشارها التي تعطيها اسباب البقاء والقوة في الداخل والخارج .
ان هذا كله يحقق غاية الانظمة المترددة والخائفة ، لان هذا الالغاء يضع حدا لنمو سلطة الشعب الفلسطيني وتبلور ارادته المنظمة المسلحة ، كما يمنع التفاعل بين هذه البؤرة المتهبة والجماهير العربية.
انتهت الجولة الثانية اذن بالفشل فهل ستبدأ جولة اخرى ! ان هذا يعتمد على مجموعة من الظروف الفلسطينية والعربية . ذلك ان يأس جمهورية مصر العربية من « الحل السلمي » الموحى به اميركيا ، يدفع الى الحديث عن ضرورة الحرب . والحديث عن ضرورة الحرب يجر الى الحديث عن الجبهة الشرقية ودور المقاومة . وفي هذا المجال يكتفي بعضهم بضرورة ان تضع المقاومة نفسها ضمن اطار « التنسيق العربي » ، كما يرى بعض آخر ان من الضروري ان تحدد المقاومة دورها في المسيرة كلها « لان المسيرة لن تنتهي بالاشتباكات المقبلة ، بل ستدخل مع هذه الاشتباكات مرحلة جديدة ، طريقها طويل وشاق ومعقد » (المحرر ، الياس سحاب ، ١١/٢٦) والكلام واضح في معناه ومبناه . ذلك ان المطلوب عربيا ، هو التنسيق اولا ، وللتنسيق عربيا معناه . والمطلوب ثانيا هو ان تصبح المقاومة جزءا من استراتيجية الانظمة الحالية .
وما دامت الرغبة في الضغط على دولة الاحتلال الصهيوني واردة ، فسيظل الحديث عن المصالحة واردا . وعلى الرغم من ان الملك حسين قد صرح بأنه لن يصافح قتلة وصفي التل ، فان استمرار التوتر والحديث عن الحرب واستمرار « المساعي الحميدة » سوف يقود الى جولات اخرى ، الا اذا حدثت تطورات مفاجئة وجذرية في الموقف الاردني او العربي او الفلسطيني ، او فيها جميعا .

٢ — ياسر عرفات يطلب الوساطة وياسر عرفات يحبطها :

بينا الاسباب التي نعتقد انها تكمن وراء فشل مباحثات المصالحة . ولكن هنالك من يعزو الفشل الى اسباب اخرى . وهذه الاسباب هي :
اولا : ان المفاوض الاردني كان « مزودا بأوامر وتعليمات صريحة من حكومته بعدما قبلت هذه الحكومة ورقة عمل الوسطاء ! في حين ان مفاوض المقاومة الذي قبل ورقة العمل كان يتعرض لضغوط وتيارات تتجاذبه ، ولا قبل له على مواجهتها بحزم! ولعل أبرز هذه الضغوط هي التي واجهتها منظمة

التحرير الفلسطينية من بعض فصائلها المتمردة عليها اصلا ، والتي قبلت الوحدة داخل المنظمة كتكتيك وليس كاستراتيجية » (الجديد ، ٢٥١ ، ١/١٠/٧١) .

ثانيا : « كان بامكان ياسر عرفات ان يقول بصراحة أن المقاومة هي التي طلبت الوساطة ، ولو فعل هذا لقطع الطريق على المنظمات التي تعرقل مسيرة المقاومة ، ولكن السيد عرفات فضل اللجوء الى السياسة المتعارف عليها بين الحكام العرب ، والتي تقول في الاجتماعات الرسمية شيئا وتجاهر امام الناس بشيء اخر » (الجديد ، ٢٥٤ ، ٢٢/١٠/٧١) . وكانت المجلة ذاتها قد اتهمت ياسر عرفات بانه لم يستطع ان يتخذ موقف الحسم (الجديد ، ٢٥١ ، ١/١٠) كما اتهم من قبل بأنه يمسك بالعصا من منتصفها (انظر شؤون فلسطينية ، العدد ٥ فلسطين عربيا).

ثالثا : « ان القاعدة الشعبية الفلسطينية تصر على أن تكون المعركة مع العدو ، وداخل الاراضي التي يحتلها ، وتصر بالتالي على رفض جميع الوصايات ، مهما كان شكلها ونوعها وتبعيتها ! وكان على السيد عرفات المؤمن بهذا الاتجاه ان لا يترك الامور تفلت من يده . وكان بامكانه ان يحرر المقاومة من عقدها باتخاذه موقفا صريحا يحصر عمل الكفاح المسلح في اطاره الذي انشيء من اجله ... » . « ولان السيد عرفات قد أمسك بالعصا من منتصفها تحت ضغط الاخوان المحيطين به ، بدأ يواجه المتاعب المتلاحقة ، ومنها مشكلة جيش التحرير الذي نمت فيه الماركسية بغفلة...»(الجديد ٢٥٣، ١٥/١١/٧١).

رابعا : « ... قيام بعض الدول العربية الرافضة للسياسة المصرية الخارجية بالتدخل في اوساط الفدائيين والعمل لنسف مبدأ الوساطة » (الجديد ٢٥٤ ، ٢٢/١٠/٧١) .

القضية اذن هي قضية ياسر عرفات اولا . فياسر عرفات لا يريد ان يحسم مع الماركسيين ، او لنقل لا يريد لانه عاجز عن الحسم . وهي أيضا قضية المنظمات الماركسية المطلوب الحسم في أمرها والتي « رأت في هذا التحرك اول خطر حقيقي يواجه التغلغل الماركسي في الساحة الفلسطينية بمخطط معاكس ... او على الاصح بتدابير معاكسة » (الجديد ٢٥٤ ، ٢٢/١٠) . وهي ثالثا قضية بعض الدول العربية المشاكسة للسياسة المصرية، كما تزعم المجلة المذكورة ، والتي حركت العمل الفدائي ضد الوساطة . ولكنها فوق هذا كله قضية الوسطاء انفسهم ، وماذا يريدون . فهم لا يريدون وساطة تعيد المقاومة الفلسطينية الى الاردن ، وهم لا يريدون « من وساطتهم ان تكون بمثابة حبة مسكن توقف الى حين النزيف ، بل يريدونها عملية حسم تضع المقاومة في المكان الذي رسم لها في خط المواجهة » (الجديد ٢٥١ ، ١/١٠/٧١) .

هذا اذن ما تريده الوساطة . والمطلوب من ياسر عرفات أن يحسم . فماذا تعني ان يحسم ؟ انها تعني ان يبادر الى ما يلي : اولا : قمع الحركة الوطنية الفلسطينية ، وضرب جذورها وظواهرها الشعبية ، واغراق البلاد في بحر من الدماء من أجل سحق روح التسيس لدى الجماهير ومنعها من ان تفكر وتناقش وتنتقد الخونة والعملاء وتكشف خيانتهم وزيفهم وعمالتهم . ثانيا : ربط الشعب الفلسطيني بعجلة الانظمة ودوائر مخابراتها ، وتجنيده لتنفيذ مخططات التصفية والاستسلام . ولان ياسر عرفات لم يقبل السير في هذا الطريق تشن عليه الحملات التشكيكية . وتشن ضده حملات التحريض .

وهكذا نرى بوضوح ما الذي تريده بعض الاوساط العربية من الوساطة . وهي اذ تعجز عن تحقيق ما تريد ، على الرغم من المجازر ، تلجأ الى محاولة التفجير من الداخل ، والى محاولة التشكيك والدس والوقيعة ، مستخدمة العناصر التي تريد « حسما » على هذه الطريقة . وسيكون فخرا لياسر عرفات ان يرفض الحسم في مثل هذه الحالة ، كما سيكون شرفا له ان يحبط وساطة هذه هي اهدافها . ولكن القضية في رأينا ، ليست قضية ياسر عرفات ، بل قضية الشعب الفلسطيني كله . والشعب الفلسطيني لا يسمح بتصفية قضيته ، كما أنه لا يرضى ان يتحول ابناؤه الى أجهزة قمع في أيدي دعاة التصفية والاستسلام . وأمام تمسك الشعب الفلسطيني باستقلاليته وحرصه على استمرار ثورته ، وعلى دحر مؤامرات التصفية والاستسلام ، لا بد من أن تفشل وساطة مثل الوساطة الانفة الذكر .

فأنى لهؤلاء ان يفهموا ان ارادة الجماهير لا ترد ولا تهزم ، وأنها ليست ملكا لفرد ، وان ما من احد يستطيع الاحتيال عليها او ابقائها او صرفها

عن اهدافها .

٣ — من يمثل الشعب الفلسطيني ؟

منذ انطلقت المقاومة سنة ١٩٦٥ انطلق للشعب الفلسطيني صوت جديد ، كان ضائعا وتائها . ولقد أحس شعبنا منذ ذاك بالفرح العميق لانه وجد نفسه . ولكن بروز المقاومة ممثلا للشعب الفلسطيني كان لا بد من آن يصطدم بالوصايات المفروضة على شعبنا عموما ، وبالسلطة الاردنية خصوصا . فالوصايات كانت وما زالت تسعى لان تلغي شخصية شعبنا ، او لان تجعله في وضع القاصر دائما . اما السلطة الاردنية فانها لا تريد أن تلعب دور وصي ، أنها تعتبر نفسها صاحب الحق ، الوريث . وشعبنا بالطبع يقاوم ، منذ اتحدت الضفتان ، هذه السياسة العدوانية، ولكن النظام الاردني يندفع ويزداد شراسة كلما ازدادت المقاومة .

وتبدأ قضية التمثيل عندما قلم جماعة من شعبنا، لا صفة تمثيلية لهم، باعلان وحدة الضفتين في مؤتمر اريحا . ولم يعترض شعبنا على وحدة الضفتين وقتها ، ولا هو معترض الان ، ان اعتراضه على السلطة الاردنية وعلى اهليتها لتمثيل الشعب في الضفتين .

وتنبع المشكلة الاساسية في قضية التمثيل مما يلي:

اولا : ان السلطة الاردنية لم تكن في يوم من الايام ممثلة ارادة التحرير والعودة . وكانت علاقاتها وارتباطاتها الدولية وطبيعة تكوينها تجعلها ممثلة للوضع القائم : أي استمرار الاحتلال الصهيوني ، استمرار التشريد والقمع والجوع الخ . وكان شعبنا يريد من يمثل ارادة التحرير والعودة ، وليس صعبا ان يكتشف ان السلطة الاردنية لا تمثل هذا الاتجاه .

ثانيا : ان السلطة الاردنية لا تستطيع ان تدعي قانونيا ودوليا أنها تمثل اكثر من الضفة الغربية. ولكن فلسطين ليست الضفة الغربية فحسب . فاذا ما اوكل تمثيل فلسطين الى السلطة الاردنية حولته الى موضوع اعادة الضفة الغربية فحسب، اي تكريس الاحتلال في المناطق الاخرى ، وعدم القتال لاعادة الضفة الغربية ذاتها .

هذا من جهة أما من الجهة الاخرى ، فان الامريكيين والاسرائيليين استخدموا قضية من يمثل الشعب الفلسطيني لتحريض السلطة الاردنية على ضرب المقاومة . وكان دعاة وزارة الخارجية الاميركية يهمسون في اذن السلطة الاردنية دائما : كيف تريدون ان نتفاهم معكم على حل سلمي ما دامت قضية تمثيل الشعب الفلسطيني لم تحسم . ان منظمات المقاومة تحظى بتأييد واسع في اوساط الجماهير الفلسطينية ، وعليكم ان تثبتوا أنتم انكم قادرون على وضع حد لهذا كله . وكانت مجزرة ايلول وما تلاها . ولكن القضية لم تحسم. فالسلطة الاردنية تريد من الشعب ان يوكلها بتمثيله لتكون قادرة على اجراء عملية التصفية . ولهذا أخذت السلطة الاردنية ، وبعد سقوط جرش وعجلون خاصة في طرح قضية التمثيل محليا وعربيا (انظر هذا الباب ، العدد ٤ و٥) . وازداد نشاط السلطة في هذا المجال بالذات ، خلال الشهرين الماضيين ، وتمثل هذا النشاط فيما يلي : اولا : محاولة سحق حركة المقاومة نهائيا ، حتى لا تظل القضية مطروحة . وكان ان لجأت السلطة الاردنية الى المجازر الدامية والقمع والبطش ، ثم أخذت تعمل لتفجير المقاومة من الداخل ، ثانيا : القيام باتصالات عربية لتصوير الامر على غير حقيقته ، ولمحاولة اقناع الدول العربية ، بأن المقاومة تطالب بحق التمثيل من أجل خلق دولة فلسطينية مسخ ، او ما « مقدار الفائدة او الضرر الذي يلحق بمسألة التحرير من جدوى البحث والسؤال الان في (من يمثل شعب فلسطين) قبل أن تتحرر فلسطين واهلنا في فلسطين » (الرأي ، ١٤٩ ، ١١/٢٤) . ثالثا : القيام بحملات اعلامية لتكريس القيادة الواحدة وفكرة الاسرة الواحدة ووحدة الضفتين ، بينما هم يعملون بمنطق السيطرة والاخضاع (الرأي ١١٩، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٤٥ تاريخ ١٠/٨ ، ١٠/٢٢ ، ١٠/٢٨ ، ١١/١٧) .

ولم يكتف عملاء السلطة بطرح هذه القضية في احاديثهم وفي ندواتهم من خلال الحديث عن القيادة الواحدة والاسرة الواحدة ، بل تجرأوا فطرحوها علانية . ولكنهم استخدموا اكثر من اسلوب في طرحها . فهم يحاولون حينا ان يقولوا ان قضية التحرير أهم من قضية التمثيل . وهذه كلمة حق اريد بها باطل . لان السلطة الاردنية تريد صرف النظر الان عن قضية التمثيل ، وعن قضية التحرير. ولقد قالت صحيفة الرأي الرسمية، في طرحها للموضوع : « اذا كان المطلوب ، عربيا وفدائيا ، تحرير فلسطين ، فنحن في طليعة من

يجاهد ويناضل في هذا السبيل ، وسجل كفاح الاردن في هذا المضمار يشرف كل المتشدقين وادعياء التحرير . أما اذا كان المطلوب عربيا وفدائيا الحصول على اعتراف اردني بمنح هذه المنظمات حق تمثيل شعبنا في الضفة الغربية على أساس نسف وحدة ضفتي الاردن ارضا وشعبا، فهذا المطلوب مرفوض جملة وتفصيلا » (الرأي، ١٤٧ ، ١١/٢٢) .

ويلاحظ هنا ان اوساط السلطة الاردنية معنية بمن يمثل الضفة الغربية ، وليست معنية بشيء بصدد قضية فلسطين كلها وشعب فلسطين كله .

ويبدو الارتباك الاردني الشديد ، من خلال طرح قضية التمثيل هذه التي تخلط في طرحها محاولة الاساءة للمنظمات الفدائية بمحاولة تضليل الرأي العام عن طريق ايهامه بأن انتزاع التمثيل من السلطة الاردنية معناه : « فصل الضفة الغربية عن الضفة الشرقية ، على أساس ان الضفة الاردنية المحتلة هي التي وقع عليها الاختيار اسرائيليا وفدائيا ، لتمثيل الفصل الاخير من مسرحية خيانة القضية على ارضها الطهور » (الرأي ١٤٧ ، ٧١/١١/٢٢) .

ولكن هذا الاسلوب ليس الاسلوب الوحيد الذي يستخدمه جهابذة السلطة الاردنية . اذ انهم ما ان يكتشفوا عقم هذا الاسلوب حتى يطرحوا ما يريدون مباشرة . ولهذا حولوا قضية تمثيل الشعب الفلسطيني الى قضية قانونية تكتب فيها الابحاث القانونية. وجرت المحاولة لاثبات ما يلي:

١ ــ ان وحدة الضفتين وحدة قانونية وشرعية، وانها كانت وليدة « الارادة الشعبية التي عبر عنها الشعب بشكل مباشر عن طريق المؤتمرات ، واقرها ممثلو الشعب في مجلس الامة » المنتخب من الضفتين .

٢ ــ « ان عدم عرض قرار الوحدة على الاستفتاء الشعبي لا يؤثر في شرعية هذا القرار لسببين : أ ــ لان الشعب اظهر رأيه في اقرار هذه الوحدة عن طريق المؤتمرات الشعبية وعن طريق نوابه ... » ــ « ان وحدة الضفتين تعتبر شرعية طالما اعترفت دول العالم بها ، سواء تمت عن طريق الاستفتاء او عن غيره » .

٣ ــ « ان كون الثورة الفلسطينية تسعى لتحرير الاراضي المحتلة بالقوة لا يجعل لمنظمة التحرير باعتبارها تضم فصائل المقاومة الحق في تمثيل الشعب الفلسطيني لعدة اسباب : أ ــ لانه ليس هناك رابطة بين الصفة القانونية او الواقعية للسلطة وبين مضمون نشاطها او طبيعة الاهداف التي تسعى اليها ... » ب ــ « ان السلطة التي تمثل شعبا معينا يجب ان تستند الى ارادة هذا الشعب التي يعبر عنها ممثلوه بطريقة حرة ... » . ج ــ « ان الثورة عندما تستهدف التجزئة والانفصال وتفكيك عرى وحدة الشعب الواحد ، فانها لا تكون ارادة شعبية . »

٤ ــ « ان تنازل الحكومة الاردنية في اتفاقية عمان لمنظمة التحرير عن حق تمثيل الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية باطل لان اتفاقية عمان تعتبر باطلة قانونا لعدم عرضها على مجلس الامة وموافقة مجلس الامة عليها » .

وتصل الدراسة الى الاستنتاج التالي :

« يتبين مما سلف ان منظمة التحرير الفلسطينية لا يمكن ان تمثل كافة قوى الشعب الفلسطيني . ولا يمكن ان تمثل سوى فصائل المقاومة طالما انها تفتقر الى الارادة الشعبية التي تعتبر وسيلة اسناد اية سلطة . وان الحكومة الاردنية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني في الضفة الغربية » (الرأي ، ١٤٣ ، ١١/١٥).

ويبدو واضحا من هذا كله ما يرمي اليه النظام الاردني، انه يريد ان يتمسك بشرعية تمثيل الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية ، ليستطيع اجراء تسوية فيما يتعلق بالضفة الغربية ، وليمنع طرح القضية الفلسطينية طرحا شاملا ، لان في ذلك ما يمسه . ولكن تمثيل اي شعب ليس مرهونا بفرض سلطة الامر الواقع ، ولا مرهون بالاتفاقيات والقرارات . انه مرهون بظهور قوة تستطيع ان تستقطب ارادة الجماهير ، وان تجعلها قادرة على تغيير الامر الواقع . فاذا ما استطاعت المقاومة الفلسطينية ان تستأنف مسيرتها ، وان تتخطى العقبات التي تقف في طريقها انتزعت حقها في تمثيل الشعب الفلسطيني واسقطت كل مؤتمرات السلطة الاردنية وكل اسانيدها « القانونية » الشكلية . وفي النهاية لن يمثل شعب فلسطين الا الذين يجسدون قضية التحرير والعودة ، وواضح ان النظام الاردني ليس واردا في هذا المجال .

ناجي علوش

(٣) القضية الفلسطينية دوليا

لم تطرأ اية تبديلات ذات أهمية على المعطيات الاساسية للاوضاع الدولية المحيطة بالنزاع العربي الاسرائيلي في الشهرين الاخيرين ، اذ استمر المشروع الامريكي الداعي لاعادة فتح القناة (أي ما يدعى بمشروع التسوية الجزئية او المؤقتة) في تشكيل المحور الرئيسي للنشاط الدولي الذي تبديه الاطراف المعنية بأزمة الشرق الاوسط. ولكن لا بد من التنبيه الى ان كل الدلائل تشير ، مرة اخرى ، الى أن مشروع التسوية الجزئية قد اصطدم بالعراقيل المعروفة التي تلاشت بسببها كل المشروعات السابقة لتسوية الازمة ، مما خلق انطباعا عاما ، في الفترة الاخيرة ، بدخول المشروع الراهن مرحلة الوهن والاحتضار حتى ان روجرز نفسه ، صاحب المشروع ، لم يعد يؤكد بأن الوساطة الامريكية ستتوصل الى اتفاق لاعادة فتح القناة قبل نهاية عام ١٩٧١ كما كان يفعل سابقا باستمرار . تبعا لذلك استمرت الوساطة الامريكية بالعمل على أساس سياسة التوازن الشكلية بين المفهوم العربي لما يعنيه مشروع التسوية الجزئية على الصعيد التنفيذي والمفهوم الاسرائيلي المضاد لمعنى المشروع نفسه ، وذلك عن طريق (أ) ما تسميه الدبلوماسية الامريكية بتقريب وجهات النظر بين الطرفين العربي والاسرائيلي، (ب) طرح الحلول الوسط الانتقائية التي يفترض ان يلتقي عندها الطرفان المتنازعان ، (ج) الامتناع عن ممارسة اي ضغط مفتوح على اسرائيل لجعلها تقبل بالمقترحات الوسطية الامريكية بسبب الالتزام الاساسي لحكومة الولايات المتحدة بعدم فرض أية تسوية للنزاع لا تريدها اسرائيل ولا تعتبرها لصالحها ، (د) المماطلة المستمرة بأسم الدبلوماسية الهادئة الى ان يموت المشروع من كثرة المشاورات والمناقشات والوساطات والمذكرات الخ ...فيحل محله مشروع آخر يتطلب مشاورات ومناقشات ووساطات جديدة . كل ذلك بغية ابقاء التوازن القائم في المنطقة على حاله لاطول مدة ممكنة لان الوضع السياسي المحلي يسير باتجاه يتناسب مع المصالح الامبريالية والامريكية في الشرق الاوسط (على سبيل المثال تصفية الحركة الوطنية التدريجي في كل مكان تقريبا) . وقد أكد الرئيس السادات بصورة علنية هذا الاتجاه المماطل والمراوغ والهادف الى كسب الوقت في الوساطة الامريكية وذلك في المقابلة الهامة التي نشرتها مجلة « نيوزويك » في الاسبوع الاول من شهر كانون الاول ١٩٧١ . وتدعم الولايات المتحدة هذه السياسة اولا عن طريق التعامل برقة ورفق مع مصر كما في التساهل الذي أبدته بالنسبة للديون المستحقة على مصر لحساب امريكا (حوالي ١٤٠ مليون دولار) حيث منح الاتفاق الذي توصلت اليه الدولتان في اوائل شهر تشرين الاول مدة سبع سنوات لمصر كي تسدد دينها ، واعتبرت امريكا التوصل الى مثل هذا الاتفاق بمثابة شرط ضروري لعودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في المستقبل . وثانيا ، عن طريق الامتناع الاني من تزويد اسرائيل بالطائرات التي تطلبها بالحاح باعتبار ذلك أداة صالحة لاستمرار هيمنة امريكا على النزاع في الوقت الحاضر وضبطه ضمن الحدود التي تريد الا يتعداها حاليا .

ضمن هذا الاطار العام تحركت السياسة الامريكية في باديء الامر لتنشيط مشروع التسوية الجزئية وتقويته من جديد بعدما أصبح باهتا ومهلهلا بالاضافة الى خلق انطباع مجدد بأن هذه الدبلوماسية جادة « هذه المرة » في جهودها ووعودها بتسوية النزاع وانه على مصر ان تمنحها فرصة اخرى لممارسة جهودها الهادئة والا تفقد الثقة بنواياها في الوصول الى حل عادل يرضي الطرفين . وهذا يعني على الصعيد الفعلي ابقاء كل شيء على حاله في المنطقة لفترة اخرى من الزمن . وقد تلخصت التحركات الامريكية المشار اليها بالنقاط التالية :

(١) استمرار الولايات المتحدة في معارضة احياء مهمة يارينغ (التي حلت محلها الوساطة الامريكية) التي أخذت مصر تطالب بالعودة اليها ، ومعارضة تنشيط اجتماعات الدول الاربع الكبرى كوسيلة للوصول الى تسوية سلمية تفرضها هذه الدول على المنطقة وتضمن تنفيذها . وقد أدلى روجرز في اوائل شهر تشرين الاول بتصريح ذكر فيه انه استنتج عبر اتصالاته بوفود الدول الكبرى في هيئة الامم بأنها لا ترى اي احتمال لقيام الدول

الكبرى بدور مشترك بالنسبة لازمة الشرق الاوسط في المرحلة الحالية . كما اكد ان الاتجاهات الدبلوماسية في المنظمة الدولية تحبذ اعادة فتح القناة وتعتبر ذلك الخطوة العملية الوحيدة للوصول الى تسوية شاملة للازمة . بعبارة اخرى عبر روجرز عن تصميم حكومته على الاستمرار في المماطلة من خلال الاصرار على مشروع التسوية الجزئية .

(٢) قيام روجرز بطرح مشروع وسطي قديم — جديد في الخطاب الذي القاه امام الجمعية العامة لهيئة الامم في اوائل شهر تشرين الاول حيث قدم لمشروعه بالقول ان « المساعي الامريكية لتحقيق اتفاق جزئي بين مصر واسرائيل حول قناة السويس هي الطريق الوحيدة الواقعية والمثمرة للوصول الى السلام في الشرق الاوسط . ان الولايات المتحدة ستستمر في هذه الطريق لان مصر واسرائيل طلبتا منا ذلك . » وتضمن المشروع ٦ نقاط هي : (أ) الاتفاق حول القناة ليس الا مرحلة نحو تطبيق قرار مجلس الامن الدولي المؤرخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ تطبيقا كاملا ، وهو ليس غاية في حد ذاتها . وطرق الاتفاق الشامل يجب أن يتفق عليها في اطار مفاوضات بأشراف الدكتور غونار يارينغ . (ب) يجب التوصل الى اتفاق للمحافظة على وقف اطلاق النار في القناة . اما انهاء حالة العداء فلا يمكن اشتراطها الا في اتفاق سلام صريح . (ج) تحديد المسافة التي على القوات الاسرائيلية ان تنسحب اليها لان المغزى الاساسي للاتفاق الجزئي هو في انه يطرح مبدأ الانسحاب . (د) يجب تقوية أجهزة المراقبة في منطقة القناة لارضاء مصر واسرائيل . (هـ) ان اعادة فتح القناة وتشغيلها يتطلبان وجود موظفين مصريين في الضفة الشرقية للقناة . كما ان احتمالات التسوية حول وجود عسكري مصري في الضفة الشرقية للقناة ليست سلبية . (و) ان تحديد الوقت الذي ستصبح فيه القناة مفتوحة امام سفن كل الدول من دون تمييز امر ممكن . واضح ان هذه النقاط ليست الا استعادة للمقترحات الامريكية السابقة في محاولة للتوسط بين الموقفين المصري والاسرائيلي بالنسبة لموضوعات معينة مثل علاقة التسوية الجزئية بالتسوية الشاملة للنزاع على أساس تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، واصرار مصر على عبور قواتها للحلول محل الجيش الاسرائيلي المنسحب ، وغيرها من القضايا الحيوية المختلف عليها والتي أصبحت طبيعتها مرونة على نطاق واسع . وقد واجهت نقاط روجرز نقدا قويا من قبل الاوساط الاسرائيلية الحاكمة بما فيها رئيسة الوزراء نفسها . وقد رد روجرز على ذلك في ندوة تلفيزيونية ذكر فيها انه عرض هذه النقاط على ابا ايبان قبل اعلانها ولم يعترض الوزير الاسرائيلي على اي منها . وقد تبع خطاب روجرز اتصالات امريكية دبلوماسية بمصر هدفها مناقشة النقاط الست بين الطرفين والتفاهم حولها الا انه يبدو ان هذه الاتصالات لم تؤد الى أية نتائج ايجابية مثلها في ذلك كمثل الاتصالات التي سبقتها. وجدير بالذكر هنا انروجرز اعترف صراحة ، اثناء المقابلة المشار اليها ، بأن محاولات الوصول الى حل وسط بالنسبة لمسألة عبور القوات المصرية الى الضفة الشرقية من القناة لم تحرز أي تقدم . ثم أعرب عن أمله في تجاوز هذه العقبة . الا انه جدير بالذكر ايضا ان الرئيس السادات ذكر في المقابلة المشار اليها آنفا مع « نيوزويك » انه أبلغ سيسكو (أثناء زيارته الاخيرة الى القاهرة) استعداده للتساهل في كل من مسألة عبور القوات المصرية وفي طلب اسرائيل بعدم وضع اي حد على مدة وقف اطلاق النار على جبهة القناة .

(٣) في النصف الثاني من شهر تشرين الاول تقدم الطرف الامريكي باقتراح جديد يقول بتعيين مسؤول كبير في وزارة الخارجية الامريكية ليكون الوسيط بين مصر واسرائيل في المفاوضات اللازمة لاعادة فتح القناة . وترددت انباء موثوقة بأن المرشح للقيام بهذا الدور هو جوزيف سيسكو . وذكرت بعض المصادر الدبلوماسية ان مصر قد وافقت على هذا الاقتراح . الا ان المراجع المصرية الرسمية نفت ان تكون قد وافقت عليه ولكنها لم تنكر وجود الاقتراح الامريكي او وجود اتصالات حوله بغية تعديله لجعله اكثر قبولا بالنسبة للطرف العربي الرئيسي . ومن ناحية اخرى فقد رحبت جريدة « الرأي » الحكومية في عمان بالاقتراح الداعي الى جعل سيسكو الوسيط الذي تجري تحت اشرافه المفاوضات . كما ان الرئيس السادات عاد الى تأكيد موافقته على هذا الاقتراح الامريكي (في المقابلة مع « نيوزويك ») الذي يدعو « الى اجراء محادثات بين ممثلين عن مصر

واسرائيل يقيمون في غرف متجاورة في أحد فنادق نيويورك بحيث يكون سيسكو همزة الوصل بين الجانبين » ، كما جاء في المقابلة . وذكر الرئيس السادات ايضا أنه عين الدكتور مراد غالب ليكون ممثل مصر في هذه المحادثات الا أنه اشترط ان تعتبر الولايات المتحدة سنة ١٩٧١ السنة الحاسمة. ويبدو ان البحث في هذا الاقتراح قد تأجل في الوقت الحاضر وربما الى ما بعد انتهاء مهمة « حكماء افريقيا » في القاهرة وتل ابيب وظهور نتائجها في هيئة الامم عند مناقشة قضية النزاع في الشرق الاوسط في اوائل كانون الاول ١٩٧١ .

(٤) في اواخر شهر تشرين الاول ارسلت الحكومة الامريكية مبعوثا جديدا الى القاهـرة هو السيد نورمان اندرسون مساعـد رئيس دائرة الشرق الادنى في وزارة الخارجية الامريكية. وقد استغرقت زيارته ٥ أيام كانت بمثابة المرحلة الاولى من جولة يقوم بها في عدد من بلدان الشرق الاوسط للبحث بموضوع النزاع العربي الاسرائيلـي . وذكرت الانباء ان اندرسون حمل معه الايضاحات التي طلبتها الحكومة المصرية من واشنطن بصدد بعض الامور الغامضة في نقاط روجـرز الست . وفي منتصف شهر تشرين الثاني جاء مبعوث امريكي آخر ولاغراض مشابهة هو تالكوت سيلي ، رئيس قسم الشرق الاوسط في وزارة الخارجية الامريكية . وقد قام بجولة في المنطقة العربية اجتمع اثناءها الى عدد من المسؤولين الكبار في الدول العربية .

الا انه يبدو ان كافة هذه الاقتراحات والتحركات الامريكية تركت كل شيء في ازمـة المنطقة على حاله ، كما كان متوقعا أصلا ، الى ان ادى تفاعل الاحداث الى اعلان تجميد الوساطة الامريكية بين الدول العربية واسرائيل الى مـا بعد مناقشة موضوع الشرق الاوسط في هيئة الامم . وقد جاء قرار التجميد كنوع من الرد على سياسة القاهرة التي نزعت في منتصف شهر تشرين الثاني باتجاه قرع طبول الحرب وتصعيد لهجتها الحربية الرسمية بالنسبة لعبور قناة السويس ، بالاضافة الى عقد اجتماعات مجلس الدفاع العربي في القاهرة ضمن اجواء اعلامية رسمية توحي بأن الحرب ستقع في الايام القليلة المقبلة ، وبالتأكيد قبل انتهاء عام ١٩٧١ ، أي عام الحسم في موضوع الحرب او السلم مع اسرائيـل كما حدد ذلـك الـرئيس السادات . وقد تركت هذه التطورات تأثيراتهـا السياسية والاعلامية على الصعيد الدولي مما دعا روجرز لان يعلـن محذرا الجانب العربي « بأن الولايات المتحدة لن تتخلى عن مساعدة اسرائيل ، ولو من أجل تحسين علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي والدول العربية . » وعـاد للتشديد على اهمية المساعي الامريكية المتعلقة بالتسوية الجزئية لاعادة فتح القناة . ولم تكتف الحكومة الامريكية بتحذير العرب بل اطلقت ، بعد فترة قصيرة ، تحذيرا اخر ، من قبل وزارة الخارجية ، موجهـا الى الاتحاد السوفياتي هدفه تنبيه الدولة الكبرى الى تخوف الولايات المتحدة مـن ان تكون شحنات الطائرات وغيرها من الاسلحة الى مصر قد أخلت بميزان القوى في المنطقة ، ويعني هذا ان امريكا تهدد باعطاء المزيد من الطائرات الى اسرائيل ما لم تسر سياستها في المنطقة سيرا « مرضيا » . وتجدر الاشارة هنا الـى ان مجلس الشيوخ الامريكي كان قد تبنى قرارا يدعو الرئيس نيكسون الى استئناف ارسال طائرات الفانتوم وغيرها من الاسلحة لاسرائيل كما تبنت لجنة الشؤون الخارجية في المجلس نفسه مشروعـا جديدا للمساعدات الخارجية يقدم لاسرائيل مبلغ ٣٠٠ مليون دولار لتشتري بها معدات حربية و٨٥ مليون دولار دعما ماليا مباشرا الى حكومة مائير .

اما بالنسبة للاتحاد السوفياتي فقد استمر في حملته ضد مشروع التسوية الجزئيـة باعتبارهـا محاولة من قبل امريكا لاحتكار العمل على اعادة فتح القناة والوصول الى تسوية سلمية للنزاع . وذكرت الاوسـاط السوفياتية ، بهذا الصدد ، ان المبادرة الامريكية المعنية قد عرقلت الجهود التي كان يقوم بها الوسيط الدولي يارينغ كما اتهمت امريكا بمحاولة تقويض محـادثات الدول الاربع الكبرى حول الشرق الاوسط . وقد تم التعبير عن هذا الموقف ، بصورة غير مباشرة ، في البيان المشترك الذي صدر عقب زيارة بريجنيف لفرنسا في اواخر شهر تشرين الاول حيث تمت الاشارة الى فشل مساعي السلام الجارية في الشرق الاوسط في احراز اي تقـدم (اي المساعي الامريكية) بالاضافة الى التشديد علـى اهمية احياء مهمة يارينغ والعودة الى مباحثات الدول الاربع الكبرى وضرورة انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة واعتراف كل طرف مـن اطراف النزاع بسيادة واستقلال الطرف الاخر .

ومن ناحية اخرى كان الزعيم السوفياتي كوسيغين قد قام بزيارة رسمية للجزائر والمغرب في اوائل شهر تشرين الاول في محاولة لتوسيع اتصالات بلاده وتنويعها بالدول العربيـة ، خاصة وان الجزائر هي ثاني أهم بلد عربي يتعامل تجاريا مع الاتحاد السوفياتي . وبالاضافة الى موضوع الصراع العربي الاسرائيلي فقد تطرقت المحادثات السوفياتية في البلدين العربيين المذكورين الى القضايا الهامة المتعلقة باستراتيجية الدول الكبرى في البحر الابيض المتوسط . وعاد كوسيغين الى طرح الموقف السوفياتي المعروف بالنسبة للنزاع في المنطقة الذي يؤيد الجانب العربي في جهـوده « لتصفية آثار العدوان واستعادة الحقوق المشروعة للشعوب العربية بما فيها الشعب الفلسطيني » . وتنفيذا لهذا الموقف تعهد بتقديم كل المساعدات اللازمة للدول العربية ، بما فيها السلاح ، من اجل استعادة اراضيها المحتلة ، الا انه حث ايضا على ايجاد حل للنزاع عـن طريق التفاوض . وحذر كوسيغين العرب من العداء للشيوعية باعتبار ان هذا الخط يؤدي دوما الى « اضعاف الكفاح من اجل الاستقلال والديمقراطية والتقدم الاجتماعي ». وكان ذلك اشارة واضحة من قبل الزعيم السوفياتي الى الضربة التـي وجهت للحزب الشيوعـي السوداني وما نجم عنها من موجة عداء للشيوعية في البلدان العربية وتأزيم للعلاقات مع الاتحـاد السوفياتي .

في الاسبوع الثاني من شهـر تشرين الاول زار الرئيس السادات الاتحاد السوفياتي يرافقه وزير الحربية وقد اعتبـرت بعض الاوساط السياسية العربية أن هذه الزيارة من أهم اللقاءات العربية السوفياتية . وتعهد الرئيس السوفياتي بودغورني بمواصلة الجهود لتحقيق التسوية السلمية مع اتخاذ كل الاجراءات الفعالة لتقوية دفاعات الدول العربية . كما تعهـد بتقديم التأييد السيـاسي والعسكري للدول العربية ما دام عدوان اسرائيل قائما على اراضيها . ولم ترد اية اشارة ، في البيان المشترك الذي صدر عقب الزيارة ، الى « سنة الحسم » التي كثـر اللغط حولها في الاوساط العربية ، بل كان التشديد على موضوع السلام في المنطقة وضرورة الوصول الى تسوية سلمية لانهاء النزاع بارزا جدا في البيان المشترك. كذلك ندد البيان مطولا بالعداء للشيوعية بقوله « ان الحملات المعاديـة للشيوعية والاتحـاد السوفياتي لا تستهدف سـوى بعث الشقاق في صفوف المناضلين العرب الثوريين كما ترمي هذه الحملات الى نسف التضامن والتعاون بين الشعوب العربية والدول الاشتراكيـة وهم أصدقاؤهـا الحقيقيون . كذلك يستنكر الجانبان بشدة تلك الحملات المعادية للشيوعية السوفياتية التي تضر بآمال الشعوب التحررية ومصالحها الوطنية كما انها لا تخدم سوى مصالـح القوى الامبريالية العالمية . » ومن جهة اخرى استنكر روجرز البيان المشترك الصادر عـن زيارة السادات للاتحـاد السوفياتي لانه تعهد بزيادة قوة مصر العسكرية ، باعتبار ان ذلك يعرقل جهود امريكا في تحقيق مشروع التسوية الجزئية ويؤثر على ميزان القوى بين الطرفين كما تفهمه امريكا .

وعلى صعيد آخر ينبغي الاشارة الى ان الصين الشعبية قد أوضحت ، بعد دخولها هيئة الامم ، على لسان رئيس وزرائها شو ان لاي بأنها لن تنشىء علاقات دبلوماسية مع اسرائيل بالرغم من ان الاخيرة ايدت مشروع حلول الصين الشعبية محل ممثل تشان كاي تشك في المنظمة الدولية . كذلك رفضت حكومة الصين الانضمام الى محادثات الدول الاربع الكبرى المتعلقة بالنزاع العربي ــ الاسرائيلي وذلك انسجاما مع ما قاله مندوبها في خطابه أمام الجمعية العامة لهيئة الامم حيث اعلن رفض بلاده « للمساومـات الجارية بين الدول الكبرى من وراء ظهر الفلسطينيين والعرب . » واكد السفير الصيني في مصر هذا الموقف بتشديده على « استمرار تأييد الصين للنضال العربي من أجل استرداد الارض العربية المحتلة ومن اجـل استعادة حقوق شعب فلسطين » كما اكد ان بلاده ستقف في الامم المتحدة الى جانب حركات التحرر والدول الصغيرة والنامية . واشار السفير ايضا الى ان اسرائيل بذلت جهودا كبيرة للاتصال بالصين لكن رد بلاده كان الرفض القاطع لان اسرائيل تمثل قاعدة عدوانية توسعية . وبالرغم عن ايجابية الموقف الصيني الواضحة بالنسبة لدعم الموقف العربي دوليا لا بد من الاشارة هنا الى ان تحولا قد طرأ على السياسة الصينيـة حيال القضية الفلسطينية . في السابق كانت الحكومة الصينية تدعم بوضوح وشدة حركة المقاومة وترفض فكرة التسوية السلمية مع اسرائيل تحت اشراف موسكو

وواشنطن وتدعو الى استمرار الكفاح الشعبي المسلح بهدف تحرير فلسطين . اما بعد اخراج المقاومة من الاردن والتحولات السريعة التي طرات على الصعيد الدولي (زيارة نيكسون القادمة لبكين ، دخول الصين هيئة الامم) فقد اخذ الموقف الصيني بالتحول باتجاه دعم النضال العربي عامة بما في ذلك « نضال » الانظمة لتحقيق التسوية السلمية . على سبيل المثال أعلن رئيس الوفد الصيني الى هيئة الامم (في الاسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني) عن تأييد بلاده القوي « لموقف الرئيس السادات وجهوده التي يبذلها من اجل السلام القائم على العدل . » وفي هذا الكلام اشارة واضحة الى موضوع الحل السلمي وتأييد الصين له . كما ان اي تدقيق في العبارات التي جاء عبرها التأييد الصيني الاخير للموقف العربي يوحي بالشيء نفسه .

تحولت زيارة لجنة رؤساء الدول الافريقية الاربع التي زارت كل من مصر واسرائيل الى حدث سياسي ذي حجم اكبر بكثير مما كان متوقعا . انبثقت اللجنة الرباعية عن لجنة الرؤساء الافريقيين العشرة التي تشكلت بموجب قرار اتخذه اجتماع القمة لمنظمة الوحدة الافريقية (حزيران ١٩٧١) بهدف السعي الى تسهيل مساعي التسوية السلمية وتطبيق قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . وفي أواخر شهر تشرين الاول وصلت اللجنة المؤلفة من رؤساء جمهوريات السنغال ونيجيريا والكاميرون وزايزه (الكونغو كينشاسا) الى الشرق الاوسط حيث قامت بزيارة كل من اسرائيل ومصر واجرت اتصالات مهمة مع كبار المسؤولين في البلدين . ونتيجة للمسعى الرئاسي الافريقي وافقت مصر على تأجيل مناقشة ازمة الشرق الاوسط في الجمعية العمومية لهيئة الامم التي كان يفترض ان تبدأ في منتصف شهر تشرين الثاني . وبعد انتهاء جولتها الاستطلاعية عادت اللجنة الى عاصمة السنغال للتشاور ثم عادت فارسلت الى المنطقة لجنة مصغرة مؤلفة من رئيسي السنيغال ونيجيريا للقيام بالعمل الدبلوماسي اللازم بغية الوصول الى صياغة محددة للنتائج التي توصلت اليها في مساعيها للتوسط بين مصر واسرائيل . ويبدو ان مجموعة الدول الافريقية في الامم المتحدة تنوي تقديم مشروع قرار الى الجمعية العمومية حول تسوية النزاع في الشرق الاوسط عبر تطبيق قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ استنادا الى نتائج جهود بعثة حكماء افريقيا . وقد تم تدوين هذه النتائج في وثيقة مهمة ارسلت الى يو ثانت والدول الخمس الكبرى الاعضاء في مجلس الامن بالاضافة الى الدول الافريقية المعنية. وتتألف محتويات الوثيقة من ٦ نقاط محددة مع تبيان موقف كل من مصر واسرائيل بالنسبة لكل نقطة على حدة . وجدير بالذكر هنا ان المحور الذي تدور حوله الوثيقة (ودارت حوله مهمة حكماء افريقيا) ليس الا مجموعة المسائل المتنازع عليها بين مصر واسرائيل بالنسبة للحل السلمي عامة وقضية التسوية الجزئية على وجه التخصيص ، وكلها مسائل اصبحت معروفة بوضوح من خلال الوساطة الامريكية ومضاعفاتها. وفيما يلي المسائل التي تطرقت اليها الوثيقة الافريقية في نقاطها الست :

(أ) استئناف مهمة يارينغ على اساس قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . وبما ان هذه النقطة هي من المطالب المصرية المتكررة فقد وافقت مصر عليها بدون تحفظ . اما اسرائيل فقد وافقت شريطة عدم فرض أية شروط مسبقة على استئناف المهمة . وهذا يعني ، بعبارة اخرى ، عدم مطالبتها بتبديل ردها السلبي على مذكرة يارينغ التي طلب فيها من اسرائيل الالتزام بمبدأ الانسحاب الى ما وراء حدود ٥ حزيران ١٩٦٧ .

(ب) التوصل الى اتفاق مؤقت لاعادة فتح القناة على اساس انسحاب اسرائيلي جزئي مع حلول قوات دولية على ضفة القناة الشرقية محل القوات المنسحبة . ووافقت مصر على هذا الترتيب شرط ان تلتزم اسرائيل بالانسحاب الكامل من الاراضي المحتلة . بعبارة اخرى ، شرط ان تكون التسوية الجزئية خطوة اولى نحو التسوية الشاملة للنزاع وهذا مطلب اساسي من المطالب المصرية . الا ان قبول مصر بهذا الترتيب يعني ، من ناحية اخرى ، تراجعها عن مطلب عبور القوات المصرية والاستعاضة عن ذلك بقوات دولية . ووافقت اسرائيل ايضا على هذا الترتيب شرط أن يتم التفاوض بين الطرفين حول شروط الانسحاب الاسرائيلي الجزئي . اي ان اسرائيل تحاول ، كلما سنحت لها الفرصة ، الضغط بكافة الطرق لجر الطرف العربي الى مائدة المفاوضات .

(ج) تضية الحدود الامنة والمعترف بها . موقف مصر هو ان تنص التسوية النهائية على الحدود

الآمنة والمعترف بها بما يتفق مع قرار منظمة الوحدة الافريقية الذي يطالب اسرائيل بالانسحاب الكامل من الاراضي العربية المحتلة . اما موقف اسرائيل فقد تلخص بالتعبير عن استعدادها للتفاوض على شروط قيام هذه الحدود .

(د) الضمانات التي تقدمها هيئة الامم لتدعيم اية تسوية بين طرفي النزاع بما في ذلك وجود قوات دولية في المناطق الستراتيجية . وافقت مصر على تمركز القوات الدولية على جانبي الحدود من هذه المناطق . اما اسرائيل فقد عبرت عن استعدادها للتفاوض حول هذه النقطة وذكرت ان لديها شروطا وتحفظات بشأنها .

(هـ) ورود نص في التسوية النهائية حول اجراءات الانسحاب الكامل . بطبيعة الحال وافقت مصر وشددت على ان يكون الانسحاب كاملا الى ما قبل خطوط ٥ حزيران ١٩٦٧ بحيث تعود كل الاراضي العربية المحتلة . اما اسرائيل فقد عبرت عن استعدادها للتفاوض بشأن الحدود التي سيتم الانسحاب اليها .

(و) مسألة حرية الملاحة في مضائق تيران ووجود قوات دولية في شرم الشيخ . وافقت مصر بدون تحفظ . اما اسرائيل فقد عبرت عن استعدادها للتفاوض حول شروط تحقيق مثل هذا الترتيب .

ويتبين من هذه الوثيقة ان الطرف العربي ما زال يبذل اقصى جهوده (وبالرغم من قرع طبول الحرب) للحصول على تسوية سلمية تحفظ ماء الوجه اي لا تبقى أي من الاراضي العربية بيد اسرائيل حتى لو تطلب ذلك تسليم اجزاء استراتيجية من هذه الاراضي الى القوات الدولية مما يعني عمليا نزع السيادة العربية عنها . أما الجانب الاسرائيلي فقد ابدى بعض « الليونة » في مواقفه بمعنى انه اخضع هذه النقاط الحساسة الى « التفاوض » بدلا من ان يحدد منها مواقف متصلبة مسبقة . ان قبول مصر بدخول قوات دولية الى الضفة الشرقية للقناة بعد الانسحاب الاسرائيلي الجزئي بدلا من عبور القوات المصرية قد رفع احدى المعتبات الرئيسية امام تنفيذ مشروع التسوية الجزئية .

اما على صعيد هيئة الامم فلم يكن الانتباه منصبا على ازمة الشرق الاوسط في الفترة التي نحن بصددها اذ طغى موضوع دخول الصين الى المنظمة الدولية على كافة القضايا الاخرى . وكان متوقعا ان تبدأ مناقشة قضية النزاع العربي الاسرائيلي بعد الانتهاء من موضوع الصين الا ان المسعى الافريقي للتوسط بين الطرفين ادى الى تأجيل بدء المناقشة حتى الاسبوع الاول من شهر كانون الاول من هذا العام . لكن هذا لم يمنع عددا من الخطباء الرئيسيين عند افتتاح الدورة السنوية للمنظمة الدولية من الاشارة الى أزمة الشرق الاوسط . فقد دعا ممثل مصر في خطابه الى انسحاب اسرائيلي على مرحلتين من اجل اعادة فتح قناة السويس كما طالب بضرورة اتخاذ اجراءات دولية حازمة لاجبار اسرائيل « على التقيد بالمبادىء الاساسية لميثاق هيئة الامم » وندد برفض اسرائيل طلب الوسيط الدولي بأن تلتزم بالانسحاب الكامل من الاراضي العربية المحتلة ، ورفض فكرة اجراء مفاوضات مباشرة معها . اما ايبان فقد دعا في خطابه الى عقد اجتماع فوري مع وزير خارجية مصر للعمل من أجل التسوية السلمية مؤكدا بذلك رغبة اسرائيل في الضغط ، بكافة الوسائل ، لجر مصر الى مائدة المفاوضات .

وعبر ممثل بريطانيا ، دوغلاس — هيوم ، في خطابه عن الموقف الاوروبي « المتوازن » بين الطرفين بتشديده على خطر وقوع الحرب في الشرق الاوسط وابرازه « للاقتراحات العملية » التي تم تقديمها لحل النزاع على اساس تلبية المطلب العربي في انسحاب القوات الاسرائيلية من جهة وتلبية حاجات اسرائيل الامنية من جهة اخرى . وحث الاطراف المعنية بالمواجهة المساهمة في الحوار المؤدي الى تنفيذ هذه الاقتراحات . وضرب مثلا على ذلك بالتسوية الجزئية الداعية الى انسحاب اسرائيلي على مراحل واعادة فتح القناة مع ربط ذلك بالمرحلة التالية من التسوية التي يفترض فيها ان تنهي النزاع كليا مما يفترض فيه ان يرضي كافة الاطراف .

من جهة أخرى ارسل ممثل اسرائيل في هيئة الامم مذكرة الى يو ثانت رفض فيها طلب المنظمة الدولية الموجه الى حكومته وقف تدمير المنازل وعمليات الترحيل في قطاع غزة . وزعم الممثل الاسرائيلي ان العمل الذي تقوم به سلطات بلاده يساعدها على شق طرق جديدة في المخيمات مما يسهل حركة تنقل الدوريات العسكرية للمحافظة على الامن .

كذلك قامت اللجنة المكلفة من قبل هيئة الامم بالتحقيق في موضوع انتهاك حقوق الانسان في

الاراضي العربية المحتلة بتقديم تقريرها عن العام ١٩٧١ . وذكر التقرير ان اسرائيل ما زالت مستمرة في تنفيذ السياسات والاجراءات التي فيها انتهاك لحقوق الانسان في الاراضي المحتلة واشار بالتحديد الى سياسات الاستيطان وضم اجزاء من الاراضي المحتلة بالاضافة الى استمرار عملية ابعاد المدنيين مما يهدف الى «التخلص كليا من المجتمع الفلسطيني في الاراضي المحتلة» على حد قول التقرير . ودعت اللجنة الى اتخاذ الترتيبات اللازمة لحماية حقوق الانسان التابعة لسكان الاراضي العربية المحتلة .

صادق جلال العظم

(٤) السياسة الاسرائيلية

اختارت اسرائيل خطاب روجرز الذي القاه في الجمعية العامة للامم المتحدة في ٤ اكتوبر من عام ١٩٧١ ، وطرح فيه مشروعه ذا النقاط الست (راجع شهريات القضية الفلسطينية دوليا) ، كذريعة لنسف المبادرة الاميركية المتعلقة بالحل المرحلي وشن حملة ضغط عنيفة على الحكومة الاميركية لارغامها على تزويدها بالمزيد من طائرات الفانتوم التي تطلبها منذ شهور ، وتمتنع الحكومة الاميركية عن تقديمها لها حتى لا يؤدي ذلك الى الغاء مصر لموافقتها على الوساطة الاميركية .
وقد كانت هذه الحملة في الحقيقة هي الشاغل الرئيسي من بين كل ما شغل الحكومة والصحافة الاسرائيلية في شهري اكتوبر — نوفمبر الماضيين . وقد كان أهم ما شغل الحكومة والصحافة بالاضافة الى هذا الموضوع في الشهرين المذكورين ميزانية الامن التي انتقل الخلاف حولها من جلسات الحكومة المغلقة الى صدر الصحافة العلنية ، وفضيحة شركة « نتيفي نفط » التي وصفها احد كتاب صحيفة هآرتس بأنها « العمل المخزي » لعام ١٩٧١ مقارنا اياها بفضيحة لافون التي انفجرت في الحياة السياسية الاسرائيلية في عام ١٩٦٤ وأدت الى انسحاب بن غوريون وانصاره من حزب الماباي . وكان من الاحداث الهامة التي وقعت على الصعيد الحزبي انعقاد المجلس الفكري لحزب المابام لبحث مفهوم الحزب للاشتراكية وعلاقته بالاتحاد السوفياتي .

الحملة ضد روجرز : مع تصاعد تهديدات السادات بأن عام ١٩٧١ سيكون عام الحسم فيما يتعلق بتحقيق حل لما يسمى بأزمة الشرق الاوسط ، ان سلما او حربا ، كان العالم يتلفت الى الولايات المتحدة ليرى ما ستفعله بهذا الصدد ، باعتبارها « الوسيط » الذي تم بفضل جهوده تحقيق وقف اطلاق النار منذ آب من عام ١٩٧٠ ، وباعتبارها الجهة الوحيدة القادرة على ان تضغط على اسرائيل للوصول الى تسوية سلمية للمشكلة . وتكلم وزير خارجية الولايات المتحدة وليم روجرز في ٤ اكتوبر ١٩٧١ في الجمعية العامة للامم المتحدة ، وخصص جزءا كبيرا من كلامه للشرق الاوسط . وتضمن الجزء الخاص بالشرق الاوسط من كلام روجرز ست نقاط ، اعتبرها هذا بمثابة اساس ممكن لجولة جديدة من المفاوضات بين مصر واسرائيل لاخراج الحل المرحلي من حالة الجمود التي يمر بها ، وناشد الطرفين اعلان موافقتهما على الدخول في مفاوضات جديدة على أساس النقاط الست ، متصورا ، ربما ، ان اسرائيل في النهاية لا يمكن الا ان تقبل بها باعتبارها معتمدة في اقتصادها وتسليحها اعتمادا كليا على الولايات المتحدة ، وباعتبار انه قد بات واضحا لاسرائيل ان جهوده لا تعكس وجهة نظره فقط ، وانما وجهة نظر البيت الابيض ايضا . ولكن اذا كان روجرز فعلا قد تصور ان اسرائيل ستتقبل كلامه ، فانه لا بد وان يكون تلقى مفاجأة عمره عندما ارتطم برد الفعل الاسرائيلي . لقد كان رد الفعل حملة لا سابقة لها في العلاقات الاميركية — الاسرائيلية منذ حرب حزيران على وزير الخارجية ومساعده سيسكو تصريحا ، وعلى الرئيس نكسون تلميحا .

لقد بدأت الحملة بعد يومين من خطاب روجرز في الجمعية العامة ، وتصاعدت في كل من اسرائيل والولايات المتحدة حتى اتخذت في اواخر نوفمبر ابعادا يبدو انها اقلقت الحكومة الاميركية ، بحيث وافقت هذه على لقاء قمة بين نكسون وغولدا مئير لحل الاشكالات الناجمة عن الحملة ، في محاولة منها لاسترضاء اسرائيل . وقد بدأت الحملة بمؤتمر صحفي عقدته غولدا مئير في ١٩٧١/١٠/٦ هاجمت فيه وزير الخارجية الاميركي هجوما عنيفا متهمة اياه بتشجيع المصريين « على الاستمرار في مواقفهم المتصلبة (!)» . واختصت غولدا بالهجوم (معريف ٧١/١٠/٧) ما قاله روجرز حول نقاط ثلاث هي الاساسية فيما يتعلق بالحل المرحلي : ارتباط هذا الحل بقرار مجلس الامن ، الفترة الزمنية لوقف اطلاق النار ، وعبور قوات مصرية الى الضفة الشرقية من قناة السويس . حول النقطة الاولى هاجمت غولدا مئير قول روجرز بأن الحل المرحلي « مجرد خطوة » لتطبيق قرار مجلس الامن بقولها : « املنا ان يستمر السيد روجرز في السعي لاقناع حكام مصر بأهمية التسوية لفتح قناة السويس كتسوية قائمة في حد ذاتها ، غير مشروطة او مقرونة بالشروط والمناقشات المتعلقة بالتسوية الشاملة . ولكن روجرز للاسف [فيما قاله] قدم لمصر امكانية تفسير اقواله كما لو انها تمثل دعما لموقفها القائل بضرورة ربط اتفاق لفتح قناة السويس بتلقي تعهد من اسرائيل بتطبيق قرار مجلس الامن » . وحول النقطة الثانية ، التي ذكر روجرز بصددها بأن مطلب اسرائيل بوقف اطلاق نار غير محدود مطلب « غير واقعي » ، قالت رئيسة الحكومة الاسرائيلية : « ان وزير الخارجية الاميركي ... بدلا من ان يدعم مطلب اسرائيل بتحقيق وقف اطلاق نار غير محدود سمح لنفسه بأن يسمع اقوالا فيها ما يحرر المصريين من الاستجابة لمطلب اسرائيل العادل بشأن وقف القتال » . اما نقطة العبور ، التي قرر روجرز ان الفرص بشأن الوصول الى تسوية حولها « ليست سلبية » ، فقد قالت غولدا مئير : « ان وزير الخارجية اعترف حقا بأن مصر واسرائيل مختلفتان حول هذا الموضوع ، ولكنه مع ذلك قرر بأن الفرص للوصول الى تسوية بشأن هذه النقطة ليست سلبية ... ان موقف مصر حسب علمنا لم يطرأ عليه اي تغيير ... وفي حالة كهذه فان اقوال روجرز تستثير القلق من حيث انها قد تثير في نفوس حكام مصر الامل بأنه من الممكن توقع موافقة اسرائيل على عبور قوات مصرية الى شرق القناة» . وكان واضحا من كلام غولدا مئير ان اسرائيل تطلب من الولايات المتحدة ، اما اتخاذ موقف متطابق مع الموقف الاسرائيلي ، المرفوض قطعا من قبل مصر ، او الامتناع عن اتخاذ اي موقف .

وفي اليوم التالي لمؤتمر غولدا مئير الصحفي نشرت معريف (٧١/١٠/٨) نبأ رئيسيا في صفحتها الاولى يقول بأن اسرائيل سوف تفتتح في الايام القريبة القادمة حملة اعلامية لكسب الرأي العام الاميركي في « اعقاب الانحراف المتطرف لوزير الخارجية الاميركي عن خط عدم التدخل في تقرير شروط الحل الجزئي (!) » . وبعد ان عقدت الحكومة الاسرائيلية اجتماعا في ١٩٧١/١٠/١٢ اتخذت فيه قرارا وصفته صحيفة معريف (١٩٧١/١٠/١٣) بأنه « مظاهرة تضامن [مع غولدا] ضد التآكل في موقف الولايات المتحدة » المؤيد لاسرائيل ، شدد المسؤولون والصحافة الاسرائيلية الحملة على نقاط روجرز الست ، وبدأ تركيز خاص في الصحف الاسرائيلية على الموضوعات التالية : تهديدات السادات باستئناف القتال اذا لم يتحقق تقدم حقيقي في الجهود السياسية لحل « الازمة » قبل نهاية عام ١٩٧١ ، السلاح الروسي « المتدفق » لمصر ، اختلال ميزان القوى في الشرق الاوسط ، «اخلال» البيت الابيض بتعهداته فيما يتعلق بالمحافظة على ميزان القوى ، امتناع الولايات المتحدة عن تزويد اسرائيل بالمزيد من الفانتوم . ورافق هذا التركيز في وقت لاحق ابراز خاص لموضوع طيران عدد من طائرات ميج ٢٣ بقيادة طيارين روس (على حد زعم الصحف الاسرائيلية) على ارتفاع شاهق بمحاذاة ساحل سيناء حتى مواجهة عسقلان في ٧١/١٠/٢٣ وطيرانها فوق شبه جزيرة سيناء في١٩٧١/١١/٦ . وكان واضحا ان هدف اسرائيل من الحملة والتركيز على الموضوعات المذكورة مقابلة الضغط الاميركي ، الذي يتلخص في امتناع الولايات المتحدة عن امداد اسرائيل بالمزيد من طائرات الفانتوم ، بضغط مقابل لارغام الولايات المتحدة على امدادها بهذه الطائرات ، مغتنمة فرصة انتخابات الرئاسة الاميركية المفروض ان تتم في نوفمبر من عام ١٩٧٢، وواعية جيدا في الوقت ذاته ان نجاحها في هذا معناه استثارة مصر ودفعها لالغاء موافقتها على

المبادرة الاميركية ، وتحميلها بذلك مسؤولية وأد المبادرة الاميركية امـام الرأي العـام الاميركي والعالمي . وعندما قدم روجرز اقتراحا الى مصر واسرائيل بعقد مفاوضات علـى غـرار مفاوضات رودس في فنـدق والدورف استوريا في نيويورك بواسطة سيسكو على اساس نقاطه الست ، ردت اسرائيل على الاقتراح ببيان القته غولدا مئير في الكنيست بتاريخ ٧١/١٠/٢٦ طرحت فيه علنا على الكنيست ، لاول مرة منذ موافقتها علـى البادرة الاميركية ، تفاصيل خلافها مع الولايات المتحدة ، وطرحت فيه ايضا شروطها لتحقيق الحل المرحلي. وهي ● تنظف مصر قناة السويس وتفتحها للملاحة في وجه سفن جميع الدول ، بما فيها اسرائيل ، خلال ستة شهور ● تلتزم اسرائيل ومصر بوقف اطلاق نار غير محدود ● يعبر الفنيون المدنيون المصريون لتشغيل القناة الى الضفة الشرقية لاداء مهامهم ● لا تعبر قوات مصرية ، او اية قوات اخرى ، نظامية او غير نظامية ، قناة السويس ولا تدخل الى المنطقـة التـي تنسحب منهـا اسرائيل ● تخفض مصر قواتها في غرب القناة حسبما يتم الاتفاق عليـه ● يتفق على وسائل مراقبة ● عندما يتفق على حدود نهائية ينسحب الجيش الاسرائيلـي اليها ● اسرائيل مستعدة لاستئناف المفاوضات باشراف يارنغ . واولت غولدا مئير في بيانها هذا عناية خاصة لموضوع الفانتوم ، منتقدة موقف الولايات المتحدة منـه ، ومجددة مطالبتها بها . وكان معنـى كلام غولدا مئير ان اسرائيل مصممة على المضي في تصلبها ، وغير مستعدة ابدا للتجاوب مع الولايات المتحدة .

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الحملة في اسرائيل ضد روجرز وسيسكو تتصاعد ، كانت حملة اخرى مقابلة في الولايات المتحـدة تتصاعد لتحقيق ذات الاهداف . وقد بدات الحملة هناك بعريضة وقعها ٧٨ عضوا من اعضاء مجلس الشيوخ الاميركي دعوا فيها نكسون الى تزويد اسرائيل بطائرات الفانتوم ، وشهدت تصعيدا اساسيا في المؤتمر الذي عقدته اللجنة التنفيذية لرؤساء المنظمات اليهودية في نيويورك في اوائل نوفمبر ١٩٧١ لبحث موضوع « الخلاف المتزايد بين وزارة الخارجية الاميركية وبشكل اساسي وزيـر الخارجية وبين حكومة اسرائيل » وتكلم فيه عدد من أبرز الاعضاء المناصرين لاسرائيل في مجلس الشيوخ الاميركي ، لتصل الى ذروتها في اللقـاء العاصف الذي تم بتاريخ ١٩٧١/١١/٢٣ بين روجرز وسيسكو من جهة وثمانية مـن ابرز الشيوخ الاميركيين المناصرين لاسرائيل ومن بينهم رئيس الحزب الجمهوري وعدد من المرشحين الاقوياء لرئاسة الجمهورية — هذا اللقاء الذي تم بعد ساعات من انعقاده اقرار مجلس الشيوخ الاميركي بأغلبية ٨٢ صوتا ضد ١٤ لقانون يقضي بتقديم تسهيلات مالية لاسرائيل مقدارها ٥٠٠ مليون دولار لشراء معدات واسلحة عسكرية ، على ان يخصص نصف المبلغ لطائرات الفانتوم .

ان قرار مجلس الشيوخ الاميركي كان في الحقيقة بمثابة مؤشر لمدى قدرة اسرائيل على الضغط على الساسة الاميركيين. ويضيف اليه المرء التراجعات التالية على صعيد الحكومة الاميركية كتلخيـص رمزي لنتيجة ما سمته بعض الصحف الاسرائيلية « بالمواجهة بين وزارة الخارجية الاميركية وحكومة اسرائيل » . اولا : اجتماع نكسون بغولدا مئير في اوائل كانون الاول في عام ١٩٧١ لبحث العلاقات بين البلدين . ثانيا : تصريح مصادر اميركية بان الرئيس نكسون يدرس موضوع تزويد اسرائيـل بصواريخ لانس التي يبلـغ مداها ٨٠—١٠٠ كم ويعتبرها الخبراء العسكريون افضل سلاح لتدمير صواريخ سام التي تشكل العمود الفقري لشبكة الدفاع الجوي عن منطقة القناة . ثالثا : خطـاب مندوب الولايات المتحدة في الجمعية العامة بتاريخ ١٩٧١/١٢/١٠ الـذي دعـا فيه الجانبيـن الى « اجراء تعديلات في مواقف كل منهما » مدعيا بأن الصعوبة في تحقيق الحل المرحلي نشأت من ان « الفريقين حاولا ان يدخلا في صلب تسوية مؤقتة مبادىء هي منطقيـا (!) من اختصاص تسويـة شاملة » ، وهو خطاب معناه الفعلي التخلي عن نقاط روجرز الست ، وتحميل مصر مسؤولية عرقلة الجهود للوصول الى تسوية مرحلية .

يضيف المرء هذه التراجعات ليطـرح السـؤال الكبير : متى تحارب مصر ؟

ميزانية وزارة الدفاع : ولاول مرة ، ربما منذ قيام الدولة ، تتعرض ميزانية الدفاع في اسرائيل لنقد علني في الاذاعـة والصحـف من قبل وزراء في الحكومة ومعلقين عسكريين وسياسيين بارزين . ان ظهور تنظيم الفهود السود وما ادت اليه اعماله من تسليـط للضوء على الفقر القائم والهـوة

الاجتماعية بين الطبقات ، وما كشفته الصحف مؤخرا من بذخ في حياة العسكريين والموظفين الكبار ، وازدياد الضغط على الحكومة من قبل الجيش من جهة للمزيد من النفقات ومن قبل الطبقات المحرومة من جهة اخرى لتحسين اوضاعها الاجتماعية ، قد خلق كما يبدو المناخ الذي جعل ممكنا مس الموضوع « المقدس » في اسرائيل — الجيش . وقد كانت المناسبة التي استثارت النقد العلني لموضوع ميزانية الدفاع ، الخلاف في اوساط الحكومة حول الميزانية العامة للعام القادم . اذ ان سابير ، في سياق تهيئته لمسودة ميزانية العام القادم ، ابلغ الحكومة ان سقف الميزانية القادمة يجب ألا يتجاوز الـ ١٦٬٢٥ مليار ليرة اسرائيلية اذا اراد الاقتصاد الاسرائيلي تجنب كارثة اقتصادية ، بينما تطلب الوزارات المختلفة مبالغ يصل مجموعها الى ١٩٬٢٥ مليار ليرة اسرائيلية . وبما ان وزارة الدفاع هي صاحبة النصيب الاكبر في الميزانية العامة ، فان انظار الوزراء قد اتجهت اليها . وقد كان من الاشارات الباكرة لوجود مثل هذا الخلاف داخل اوساط الحكومة تصريح لدايان نشرته صحيفة هآرتس (١٩٧١/٩/٩) بأن وزارة الدفاع لن تبادر الى اقتراح تخفيض في الحصة التي تطلبها من الميزانية العامة ، وكان المبلغ الذي طلبته آنذاك ٦٠٥٠ مليار ليرة . وكان ايضا من علائم استمرار الخلاف والضغوطات على وزارة الدفاع الانباء التي نشرت فيما بعد ، وذكرت ان وزارة الدفاع بمبادرة منها قد وافقت على تخفيض المبلغ المطلوب بمقدار نصف مليار ليرة . ولكن هذا التخفيض ، كما اتضح فيما بعد لما انفجر النقاش علنا ، لم يكن مقبولا من سابير وزير المالية والون نائب رئيسة الحكومة وبعض الوزراء الاخرين ، الذين اصروا على انه ما زال هناك مجال لتخفيضات كبيرة اخرى ، وانه بات مطلوبا من الجيش تخفيف الاسراف واذابة « الشحم المتراكم » — على حد تعبير الون (هآرتس ١٩٧١/١١/٣) — لتحول المبالغ المستنفذة الى « التعليم والحرب ضد الفقر وبناء مساكن للازواج الصغار والمهاجرين الجدد وسكان الاحياء الفقيرة » .

ان زئيف شيف ، المحرر العسكري لصحيفة هآرتس ، يطرح في سلسلة مقالات نشرها عن الميزانية (هآرتس ٨٬٧ ، ١٩٧١/١٠/١٠) الارقام الموردة ادناه حول حصة ميزانية الدفاع من الانتاج القومي الاجمالي في السنوات الخمس الماضية : ١٩٦٦—٦٧ ١٠٬٧! ٪ ، ١٩٦٧—٦٨ ١٦٬٣٪ ، ١٩٦٨—٦٩ ١٨٪ ، ١٩٦٩—٧٠ ١٩٬٦٪ ، ١٩٧٠—٧١ ٢٤٬٧٪ ، ١٩٧١—٧٢ ٢٤٬٧٪ ، ويتضح من هذه الارقام ، التي لا تشمل المصروفات غير المباشرة مثل المصروفات على الملاجىء ومستوطنات الحدود والدفاع المدني الخ ، مدى التصاعد الحاد في الانفاق على الاغراض العسكرية في اسرائيل من سنة لاخرى . وبعد ان يقارن شيف الانفاق على الاغراض العسكرية في اسرائيل بالانفاق عليها في دول اخرى اغنى من اسرائيل بكثير [الولايات المتحدة في ذروة الحرب الفيتنامية ٨٪ ، انكلترا ٥٬٥٪ ، فرنسا ٣٬٤٪ ، المانيا الغربية ٤٪] يطرح المحرر العسكري لهآرتس اسئلة يقول بانها قائمة في ذهن المواطن الاسرائيلي، وان على وزارة الدفاع الاسرائيلية ان تقدم أجوبة عليها : لماذا ، لما كانت اسرائيل في وضع استراتيجي اسوأ ، كانت تنفق على الاغراض الامنية ١١٪ من الانتاج القومي الاجمالي ، وعليها الان ، وهي في وضع استراتيجي افضل ، أن تنفق ٢٥٪ ؟ وهل هذا هو ثمن الانتصار العسكري في حرب حزيران ؟ والى متى ؟

وعكس مقال اخر اصرح واجرأ ، نشرته مجلة « أوت » الناطقة بلسان حزب العمل الحاكم (قدمت هآرتس تلخيصا له في عدد ٧١/١٠/٢٩) عدم قناعة قطاعات كبيرة من الرأي العام في اسرائيل بضرورة تخصيص مثل هذه المبالغ الكبيرة للاغراض العسكرية . يقول كاتب المقالة ، الذي هو ضابط احتياط كبير في الجيش الاسرائيلي ، في مقالته ، « منذ ٢٣ سنة ونحن معتادون على التصرف تجاه موضوع الامن وكأنه موضوع مقدس ... ان الوقت قد حان لفحص ميزانية الامن فحصا دقيقا بطريقة ديمقراطية ... لئلا نجد نفسنا دون ان نعي وقد تدهورنا الى الطريق الذي تدهورت فيه اسبارطه أو بروسيا » ، من ثم يطالب الكاتب بتخفيض ميزانية الدفاع وتحويل الفائض الى الاغراض الاجتماعية والثقافية .

ضد هذه النظرة طلع دايان ، في مقابلة اذاعية له لخصت محتوياتها معريف ٧١/١١/١٤ ، ليرد على المهاجمين والمنتقدين قائلا بأن اسرائيل تعيش في حالة حرب ، وان الدولة التي تعيش في حالة

حرب « لا تستطيع ان ترفع راية الامن وراية الاصلاح الاجتماعي في آن واحد » . ان السؤال المطروح على اسرائيل ، بصدد ميزانية وزارة الدفاع ، في رأيه ، ليس سؤالا اقتصاديا ، وانما سؤال سياسي : هل تكف اسرائيل عن « تنمية قوتها العسكرية الى اقصى حد تسمح بهامكانياتها البشرية بسبب من القيود الاقتصادية والمالية » او لا تكف ؟ وجواب دايان بالطبع : على اسرائيل الا تكف . والمطلوب ليس تخفيض ميزانية الامن، وانما اتباع سياسة تقشف وجباية المزيد من الضرائب .

ان يوئيل ماركوس يلاحظ في مقالة نشرها في هآرتس (١٩٧١/١١/١٢) ان الصراع علىميزانية الدفاع انما هو في أساسه صراع سياسي يدور بين الحمائم والصقور ، بمصطلحات اقتصادية هذه المرة . ان لجنة وزارية قد تشكلت برئاسة غولدا للبت في موضوع ميزانية الدفاع ، وينتظر بعض المراقبين قرار اللجنة ليروا اية وجهة نظر سوف تنتصر — وجهة نظر العسكريين الداعية لمزيد من عسكرة اسرائيل ، أم وجهة نظر معارضيهمالداعية لمزيد من الاهتمام بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية.

فضيحة عام ١٩٧١ : ووسط زحمة المشاغل الأمنية والصراعات الاقتصادية والاجتماعية انفجرت مؤخرا في الحياة العامة في اسرائيل فضيحة شركة « نتيفي نفط » ، الموكل اليها أمر التنقيب عن النفط واستخراجه من سيناء ، لتعزز في ذهن المواطن العادي في اسرائيل الشكوك القائمة حول الفساد المستشري في الطبقات العليا التي تحكم الدولة — هذا الفساد الذي بدأت الصحف تكثر من الحديث عنه مؤخرا ، مما حدا بعضو الكنيست زبولون همار (من المفدال) الى تقديم اقتراح ببحث الموضوع في الكنيست ، ودفع غولدا مئير رئيسة الحكومة ، في صدد دفاعها عن الاوساط الحاكمة ورفضها لبحث الموضوع في الكنيست ، الى القول: « هناك ظواهر سلبية في المجتمع الاسرائيلي لم اتوقعها في بداية طريقي ، لما كانت لنا دولة في طور التكوين . ولكن لا داعي للمبالغة بشأن مثل هذه الظواهر ... او سحبها على قادة مخلصين في عملهم لا يعيش اي منهم حياة بذخ او اسراف ». لقد بدأ موضوع شركة « نتيفي نفط » بالتفجر في ابريل من عام ١٩٧١ ، عندما أرسل دافيد نيف ، الذي كان مديرا لشؤون النفط في وزارة التطوير، مذكرة الى وزارة المالية ، اتهم فيها مدير وادارة شركة « نتيفي نفط » بالاهمال والتلاعب بأموال الدولة وغنائم الحرب ، وتلقي وتقديم رشاو من والى جهات مستفيدة ، وألمح الى استغلال مدير الشركة ، مردخاي فريدمان ، لعلاقته باوساط حكومية وعامة نافذة ، في تغطية تلاعبه بأموال الدولة وسرقته لغنائم الحرب من معدات التنقيب عن البترول التي تركها الجيش المصري وراءه في عام ١٩٦٧ . وقد حول وزير المالية في حينه المذكرة الى وزير العدل ، الذي كلف محاميا معينا بفحص الموضوع . وكانت النتيجة التي استخلصها هذا المحامي ان هناك امورا تستدعي الريبة فيادارة المدير المذكور لشركة « نتيفي نفط » ، واقترح تعيين لجنة تحقيق لها حق استجواب شهود لاستجلاء الوقائع . ولكن وزير العدل ، بدلا من ان يعين لجنة تحقيق ، كلف محاميا آخر باجراء تقص اشمل للموضوع . وقد وضع هذا المحامي، موشيه بن زئيف ، تقريرا مطولا احدث نشره ضجة كبيرة في اوساط الرأي العام . اذ اتضح من التقرير ، والنقاش الذي دار حوله ، ان المبالغ المتحدث عنها تقدر بعشرات الملايين من الليرات الاسرائيلية ، وان هناك علامات استفهام كبيرة حول استعداد بعض الموظفين والضباط الكبار لتلقي رشاو من نوع معين من فريدمان . وبدأ يتكون رأي عام في اسرائيل يدعو الى تشكيل لجنة تحقيق قضائية عليا لتبحث في الاتهامات الموجهة لمدير الشركة وتحقق في علاقاته مع موظفين كبار يحتلون مناصب رفيعة في الدولة. وكان يمكن لهذه القضية ان تكون فقط مجرد قضية اختلاس وسرقات ، والا تتحول الى فضيحة سياسية ، لولا المعارضة الشديدة التي ابداها وزير العدل يعقوب شمشون شابيرا لتشكيل اللجنة ، وادعائه بأن القضية ليست هامة بحيث تتطلب تشكيل لجنة كهذه ، الامر الذي أثار الشكوك بأن وزير العدل واشخاصا آخرين في الحكومة يحاولون التغطية على الموضوع . وقد عقد يوئيل ماركوس في هآرتس (١٩٧١/١١/٨) مقارنة بين تصرفات الحكومة الراهنة بصدد تشكيل لجنة تحقيق عليا وبين تصرف حكومة بن غوريون في عام ١٩٦٤ بشأن تشكيل لجنة مشابهة لبحث قضية « لافون » ، ملاحظا ان الاشخاص الذين يعارضون تشكيل اللجنة الان هم نفس الاشخاص الذين

عارضوا آنذاك تشكيل اللجنة الاخرى ، مستنتجا من ذلك ان القيادة السياسية الحاكمة في اسرائيل تصدر في معارضتها لتشكيل اللجنة عن رغبتها في الحفاظ على هيبة القيادة السياسية الحاكمة وعن رغبتها في عدم خلق سابقة تفسح المجال للقضاء للتنقيب في مسلكية الموظفين الحكوميين والعاملين الكبار. ونتيجة لتلكؤ وزير العدل في تشكيل لجنة التحقيق العليا ، واستمراره في محاولة التهوين من شأن القضية ، أثار عدد من النواب الموضوع في الكنيست ورفعت هيئة التدريس في كلية الحقوق في جامعة تل ابيب مذكـرة الى رئيسة الحكومة تطالب بتشكيل اللجنة . ويبدو ان رئيسة الحكومة، التي اقلقها الحديث المتكاثر هنا وهناك عن وجود فساد مستشر في اوساط الطبقات الحاكمة ، قد قررت بعد فترة تردد بأن تلتي بثقلها الـى جانب تشكيل اللجنة . وهكذا ، في جلسة الحكومـة المعقودة بتاريخ ١٩٧١/١١/١٤ وافقت الحكومة على تشكيل لجنة التحقيق ، واوكلت الى رئيس محكمة العدل العليا تسمية اعضائها. ان الحكومة الاسرائيلية ، بموافقتها على تشكيل لجنةالتحقيق هذه ، تكون قد وضعت سابقة قـد يكون لها في المستقبل أثر كبير في خلق الادوات التي يمكن أن تهشم سور التضليل ، وتفتـح عيـون المواطن العادي في دولة العدو على حقيقة مسلكية حكامه « الاسطوريين » .

مؤتمر المابام : واخيرا ، بعد صراع داخلي عنيف بين مئير يعري زعيم حزب المابام وغالبية أعضــاء الحزب ، عقد الحزب مؤتمرا فكريا لبحث مفهومه للاشتراكية ونظرته الى الاتحاد السوفياتي وتجربته الاشتراكية . ان هذا الموضوع كان قد درس في مؤتمر الحزب الذي عقد في عـام ١٩٦٨ لبحـث انضمام المابام الى حزب العمل الحاكم لتشكيل المراخ ، وكان رأي مئير يعري ، زعيـم الحزب التاريخي وسكرتيره العام منذ خمسين سنـة ، ان بحث موضوع تقييم الحزب للتجربة الاشتراكية في روسيا في ظروف العداء الراهنة القائمة بـين اسرائيل والاتحاد السوفياتي سوف يحول المؤتمر الى مظاهرة ضد الماركسية والتجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، بينما كان رأي يعقـوب حزان ، الرجل الثاني في المابام ، أن الوقت قد حان لحسم حالة البلبلة الفكرية التي يعيشهـا اعضاء الحزب حول هذا الموضوع ، وأيده في رأيه غالبية شباب الحزب واعضاء الكيبوتسات التابعة للمابام . وتفاديا لازمة في القيادة قرر المؤتمـر تشكيل لجنة تحضيرية مهمتها عقد مؤتمر خـاص لبحث الموضوع ، وكلف يعقوب حزان وآخرين ، بعد أن رفض مئير يعري الاشتراك في اللجنـة التحضيرية ، باعداد رؤوس اقلام حول الموضوعات المطلوب طرحها للنقاش . وتأخر انعقاد المؤتمر بسبب ظروف حرب الانهاك ، وبسبب عرقلة مئير يعري وانصاره له . ولكن اللجنة التحضيرية ، تحت ضغط شباب الحزب واعضاء الكيبوتسات ، تحركت بنشاط اكبر في نهايات العام الماضي ، وتم عقد المؤتمر في يوم ١٩٧١/١١/٢٦ . وكما توقع مئير يعري في عام ١٩٦٨ ، تحول المؤتمر فعلا الى مظاهـرة ضد الاتحـــاد السوفياتي وتجربتـه الاشتراكية التي رفضها يعقوب حزان وانصاره بكليتها . ان المجال لا يتسع هنا لايراد تفاصيـل النقاشات ، ويكفي القول بأن مؤتمر المابام هـذا قد كرس في نقاشاته وقراراته الانزلاق النهائي نحو اليمين الذي تمثل في سياساته التي ما برح يتبعها منذ حرب ١٩٦٧ .

احمد خليفة

(٥) المناطق المحتلة

برزت في الاونة الاخيرة في المناطق العربية المحتلة عدة موضوعات تتباين في معظمهـا الواحدة عن الاخرى ، وتتشابه في بعض منها ، ولعل هذا التباين يعود الى طبيعـة الاوضاع المختلفة في المناطق العربية المحتلة اكثر مما يعود الى العدو الاسرائيلي الذي يرغب في هذا التباين ويسعى اليه وينميه ، ففي الضفة الغربية حيث الزعامة التقليدية النامية تبرز هناك على السطح موضوعات ناجمة عن تطلعات هذه الزعامـة على اختلاف مشاربها وأهوائها ، وفي القطاع حيث الثورة والكبت ، تبرز موضوعات ناجمة عن الصراع المحتدم بين قوات الاحتلال الاسرائيلية وبين ثورة جماهير القطاع التي تتعرض الان الى محاولة تصفية خطيرة ، وفيما يتعلق بهضبة الجولان وسيناء فان المواضيع التي تبرز فيهما تكون عادة مواضيع اسرائيلية دون ان يكون لسكانها تأثير بخلقها من قريب او بعيد ، ومع تباين الموضوعات التي تبرز في المناطق المحتلـة كافة ، اخذت سلطات الاحتلال الاسرائيلية تلائم مواقفها مع مجمل الموضوعات في كل منطقة على حدة ، ففي الضفة الغربية تقف وراء نمو وتطور الزعامة التقليدية مع بذل محاولات جمة لجعل هذا التطور وذاك النمو لصالح اسرائيل، اما في القطاع فانها تقوم بمحاولات قوية وشرسة لتصفية الثورة، واحلال زعامة تقليدية مكانها شبيهة بالزعامـة التقليدية في الضفة الغربية ، وفيما يتعلق بهضبة الجولان وسيناء ، فانها تركز على احداث علاقات وطيدة مع شيوخ العشائر في سيناء ، ومع بعض وجهاء الهضبة . ومع ذلك فهنالك خط واضح في سياسة اسرائيل تجاه المناطق المحتلة ، يتمثل في طمس معالم قائمة ، واقامة وقائع جديدة تتمثل في اقامـة المستوطنات الاسرائيليـة فـي اماكـن معينة في المناطق العربية المحتلـة ، تمشيا مع سياسة التوسع التي تنتهجها اسرائيل .

الاستيطان في المناطـق المحتلة : شهدت المناطق المحتلة في الاونة الاخيرة نشاطا ملموسا من قبل سلطات الاحتلال الاسرائيلية في ميدان الاستيطان ، حيث اخذت عجلة الاستيطـان في الاونة الاخيرة تتسم بالسرعة والتواجد في كافة المناطق المحتلة . ففي الضفة الغربية تركـز السلطات الاسرائيلية عملية الاستيطان في منطقة غور الاردن ، لتطوق الضفة من الشرق بحاجز من المستوطنات الاسرائيلية بعد ان كانت قد طوقتها من كافة جهاتها الاخرى بسوار من المستعمرات على أمل ان تفصلهـا جغرافيا عن العالم العـربي . فبالاضافة الـى المستوطنات الست التي اشادتها اسرائيل على امتـداد غـور الاردن ، استكملت السلطـات الاسرائيلية مؤخرا بناء ثلاث مستوطنات اخرى ، وبذلك حققت بالفعل الجزء الخاص من « مشروع الون » بغور الاردن . والمستوطنات الثلاث الجديدة هي : (١) مستوطنة «حمره» تقع الى الشمال من الجنتلك بين مستوطنتي « محولا » و« مسدآه » (٢) مستوطنة « نعران » وتقع الى الشمال من مدينة اريحا جنـوبي مستوطنـة « جلجـال » (٣) مستوطنة « متسبيه شليـم » تقع في جبال الخليل المطلة على البحـر الميت جنوب غـروب مستوطنة « كاليه » . وتبذل السلطات الاسرائيلية المسؤولة عن الاستيطان جهودا لاحلال مستوطنين مدنيين محل المستوطنين من سلاح الناحال فـي مستوطنات الغور ، وقد نجحت حتى الان في تحويل اربع مستوطنات من مجموع المستوطنات التسع الى مستوطنات مدنية ، وهذا الامر ينطوي على خطورة بالغة « لان الجيش الاسرائيلي بامكانه ان يأمر رجاله (من قوات الناحال) بنقل حاجياتهم واخلاء المنطقة في الوقت الذي يختلف فيه الامر بالنسبة لمستوطنة مدنية » هذا مع العلم ان وزير الدفاع موشيه ديان كان قد صرح اكثر من مرة بأنه يعتقد « بضرورة عدم التحرك في المستقبل مـن الامكنة التي تقام فيهـا مستوطنات في المناطق المحتلة » . ولا تقف عملية الاستيطان الاسرائيلي عند هذا الحد من المستوطنات ، فهنالك مخططات يقوم باعدادها خبراء اسرائيليون لاقامة شبكة من المستوطنات . فقد اعلن قائد المنطقة الوسطى « رحبعام زئيفي » انه سيتم في المستقبل القريب اقامة اربع مستوطنات جديدة في غور الاردن ، كما وان الخبراء يقدرون بأنه من الممكن اقامة حوالي ٣٠ مستوطنة في الغور « ستشكـل في المستقبل بستان خضار وزهور شتوي لاوروبا ، حيث سيتم نقل الانتاج من مطار في الغور»(هآرتس ١٠/٧/٧١).

لا يقتصر النشاط الاستيطاني الاسرائيلي في الضفة الغربية على منطقة الغور فقط بل يشمل مناطق أخرى في الضفة مثل « غوش عتسيون » والخليل، ففي منطقة غوش عتسيون يجري العمل الان لتعزيز المستوطنات الاسرائيلية الثلاث وذلك بدفع عائلات مدنية لاستيطانها ، كما ويجري الحديث حول اقامة مستوطنة رابعة في هذه المنطقة ، تتشكل نواتها من مهاجرين يهود من الولايات المتحدة . ومن المقرر ان تحمل هذه المستوطنة اسم « عتسيون بيت ». وفي منطقة الخليل بدأت مباني « كريات اربع » التي اشيدت بالقرب في مدينة الخليل تستقبل مستوطني الخليل الذين كانوا يقيمون في مبان خاصة أعدت لهم بالقرب من مقر الحاكم العسكري. ومن المقرر ان تستوعب مستوطنة « كريات اربع » حوالى ٩٠٠ عائلة يهودية . ومن الجدير بالذكر ان سلطات الاحتلال الاسرائيلية قامت في الفترة التي اخذ المستوطنون ينتقلون الى « كريات اربع » بمصادرة قطعة ارض متاخمة للمستوطنة تبلغ مساحتها ٢٣٠ دونما ، بناء على أمر من الحاكم العسكري للضفة الغربية ، وقد تعللت السلطات الاسرائيلية عند مصادرتها لهذه القطعة من الارض « بالمتطلبات الامنية » غير ان السبب الحقيقي الذي يكمن وراء هذه الخطوة هو تعزيز الاستيطان في الخليل وتوسيع رقعة « كريات اربع » عندما يحين الوقت المناسب .

وفي الهضبة السورية تقوم سلطات الاحتلال بحملة استيطانية مركزة ، مستغلة ضآلة الكثافة السكانية في أعقاب عملية التهجير شبه الجماعية لسكانها العرب ، بهدف ازالة معالم قديمة ، واقامة وقائع جديدة « لابقائها الى الابد » تحت السيطرة الاسرائيلية . ففي الآونة الاخيرة برزت على الارض في الهضبة مستوطنتان اسرائيليتان (علاوة على المستوطنات الثلاث عشرة القائمة والمستوطنتين اللتين سينتهي العمل بهما في ابريل ١٩٧٢) . تدعى المستوطنة الاولى «الروم» وتقع في شمال الهضبة ، اما الثانية فتحمل اسم « كفار حريب » وتقع في جنوب الهضبة عند منتصف الطريق بين مستوطنتي « مفوحمه » و« جبعات يوآب » . ومن المقرر ان تعزز مستوطنة « الروم » بنواتين من شبيبة الكشافة يعمل افرادهما في سلك الناحال ، اما مستوطنة « كفار حريب » فستعزز بنواة من الكشافة التي يعمل افرادها في سلك الناحال .

وفي سيناء ، التي تركز الاستيطان الاسرائيلي فيها على امتداد المحور الشمالي وفي منطقة شرم الشيخ و« ابو رودس » ، حيث اقيمت ثماني مستوطنات اسرائيلية ، يدور التفكير الان حول انشاء مستوطنتين على ساحل خليج العقبة في المنطقة الواقعة بين ايلات وشرم الشيخ ، بالقرب من مستوطنة « نويبا » التي تبعد حوالي ٧٠ كم جنوبي ايلات ، ومما ساعد على التخطيط لاقامة هاتين المستوطنتين العثور على بئر ارتوازية في المنطقة ، وافتتاح الطريق المعبدة الجديدة التي شقتها اسرائيل بين ايلات وشرم الشيخ .

وبالاضافة الى النشاط الاستيطاني في سيناء ، تقوم السلطات الاسرائيلية بتنشيط الحركة السياحية في مناطق معينة من شبه الجزيرة حتى شرم الشيخ ودير سانت كاترينا والعريش . ومن اجل ذلك وافقت الحكومة الاسرائيلية على اقامة فندق يتكون من مئة غرفة بالقرب من المطار المدني الذي أقيم مؤخرا بالقرب من دير سانت كاترينا . كما ووافقت وزارة السياحة على اقامة ناد للغوص في « نعمه » وناد آخر في « راس محمد » . ومن الجدير بالذكر ان هذه المشاريع تقام من قبل اشخاص بمبادرتهم الذاتية بعد موافقة الحكومة عليها . وتتوقع الاوساط السياحية في اسرائيل ان يصل عدد السياح والزوار الذين ستستقبلهم سيناء في خلال العام القادم حوالي ربع مليون شخص !! ولعل هذا الرقم ، بالاضافة الى ما تستخرجه اسرائيل من نفط من آبار البترول في سيناء التي يصل انتاجها السنوي الى ستة ملايين طن ، يلقي مزيدا من الضوء على الاسباب الكامنة وراء تمسك اسرائيل بهذه المنطقة .

لم يسلم قطاع غزه هذه المرة من عجلة الاستيطان الاسرائيلي ، فقد كان القطاع طيلة الاعوام الماضية التي تلت الاحتلال بمثابة منطقة محرمة بالنسبة للاستيطان (باستثناء مستوطنة يتيمة هزيلة تدعى كفار دروم اقيمت بالقرب من الخط الاخضر) . ففي المدة الاخيرة اخذت السلطات الاسرائيلية وسط حملة الهدم والتشريد والتهجير ، ومع محاولاتها العسكرية الكبيرة الرامية الى تصفية الثورة في القطاع ، اخذت تعمل جاهدة لفتح المنطقة امام الاستيطان الاسرائيلي ، حيث شرعت بطرد العرب المقيمين في منطقة تقع بين غزة ودير البلح تبلغ

مساحتها اربعة الاف دونم ، وباحاطتها بسياج ، تمهيدا لاقامة مستوطنة فيها . كما والحقت هذا الاجراء باجراء آخر ، حين أقدمت على احاطة منطقة تبلغ مساحتها عشرة آلاف دونم تقع بين دير البلح وخان يونس بسياج ، تمهيدا لاقامة مستوطنة ثانية . ومن المقرر ان تكون نواة هاتين المستوطنتين من حركة « ايحود هكيبوتسوت فهكبوتسيم » التابعة لحزب مباي . وبالاضافة الى ذلك ستقام « مستوطنات ناحال » في جنوب غزة ، ولم تذكر المصادر الاسرائيلية عددها ، غير انها ذكرت ان احداها ستبرز على الارض « في غضون بضعة اسابيع » (معاريف ٧١/١٠/٨) . ومن الجدير بالذكر ان هذه المستوطنات تقام في الاراضي الحكومية التي تعتبرها اسرائيل « ضمن أراضي الدولة » بعد احتلالها للقطاع . واذا علمنا ان مساحة القطاع برمته تصل الى ٣٤٠ الف دونم ومساحة الاراضي الحكومية ١٢٠ الف دونم اي ثلث اراضي القطاع ، يتضح لنا مدى الخطورة الكامنة وراء التدابير الاستيطانية التي تجري الان في القطاع .

حول الدولة الفلسطينية : طفت في الآونة الاخيرة على سطح الاحداث في المناطق المحتلة ، وخاصة تلك المتوفرة بها زعامة تقليدية مثل الضفة الغربية، وكذلك في قطاع غزه الذي اخذت تبرز فيه براعم زعامة تقليدية وسط المحاولات المبذولة لتصفيةالثورة في القطاع ، فكرة الدعوة الى دولة فلسطينية او كيان فلسطيني ، ومع ان هذه الدعوة قديمة الا انها تعززت بفضل اربعة عوامل : ١ — حملة أيلول التي قام النظام الاردني بها ضد المقاومة الفلسطينية ، وحملة الاحراش التي وضعت حدا للتواجد العلني للمقاومة في الضفة الشرقية ، وما رافق هاتين الحملتين من اعمال وحشية سهلت مهمة الداعين الى الكيان الفلسطيني . ٢ — خيبة امل سكان المناطق المحتلة عامة من الانظمة العربية التي درجت على التغني « بصمود المناطق المحتلة » وبالتبشير بين الفينة والاخرى بالتحرير ، دون ان يرتبط ذلك بالعمل الجاد . ٣ — الوهن الذي دب بحركة التحرر العربي . ٤ — والاهم من ذلك كله حالة الانحسار التي تمر بها الثورة الفلسطينية ، وعدم تخطيها حتى الان لمرحلة الانحسار هذه .

كان من بين الداعين هذه المرة للكيان الفلسطيني محمد ابو شلبايه احد محرري صحيفة القدس التي تصدر في القدس العربية ، وجاءت دعوته في كتاب صدر مؤخرا في الضفة الغربية يحمل اسم « لا سلام بغير دولة فلسطينية حرة » ويتكون من خمسة فصول حول تطورات القضية الفلسطينية . واخطر فصل فيه هو الفصل الذي يتحدث فيه ويدعو الى قيام الدولة الفلسطينية . ويقرر المؤلف في كتابه ان اقامة الدولة الفلسطينية تتطلب حلا لقضية اللاجئين ، كما يدعو الى ان تكون القدس العربية عاصمة للدولة الفلسطينية ، والقدس اليهودية عاصمة للدولة اليهودية دون ان يكون هنالك حاجز بينهما . ويقول المؤلف انه ينبغي على اسرائيل ان تعيد الضفة والقطاع للشعب الفلسطيني ، وعلى الدول العربية ان تمكن اللاجئين من العودة الى اراضيهم ، ثم يدعو الامم المتحدة ومجلس الامن ودول العالم ان تأخذ على عاتقها حماية الدولة الفلسطينية من اي تدخل مدة عشر سنين على الاقل . وقرر المؤلف في كتابه انه اذا ما وضع الفلسطينيون امام خيار البقاء تحت الحكم الاسرائيلي او العودة الى الحكم الهاشمي ، فانهم سيختارون الحكم الاسرائيلي . وقد تصدى لهذه الدعوة عبدالرحيم الشريف من سكان القدس ومن الموالين للنظام الاردني ، في مقالتين نشرتا في مجلة « البشير » التي تصدر في بيت لحم ، ركز فيهما هجومه على الفقرة التي وردت في كتابه والتي تنص على ان الحكم الاسرائيلي افضل من الحكم الهاشمي . وقد حظي عبدالرحيم شريف الذي شغل في السابق منصب وزير الاقتصاد في الحكومة الاردنية برد شديد اللهجة من قبل ابو شلبايه متهما اياه بأنه « مؤيد للحكم الدموي للنظام الاردني ، وعميل الهاشميين » (دافار ٧١/١٠/١٨) كما واتهم مؤيدي السلطة الاردنية بأنهم ارادوا شراء نسخ كتابه من المكتبات بغرض حرقها . ووسط جو تراشق التهم بين ابو شلبايه وعبدالرحيم شريف ظهرت نتيجة استفتاء كان قد اعده الدكتور « يوحنان بيرس » من جامعة تل ابيب ، شمل ٥٠٠ شخص من ابناء الضفة من فوق سن العشرين . واظهر الاستفتاء انه بالرغم من وجود ٧٠٪ يطالبون بسقوط حسين الا ان ٦٠٪ يؤمنون بأن الضفة الغربية جزء لا يتجزأ من الاردن وانهم اذا ما وضعوا امام خيار العودة الى الحكم الاردني او البقاء تحت الاحتلال الاسرائيلي ، فانهم يفضلون العودة الى الحكم الاردني ، وهذه النتيجة التي

توصل اليها الدكتور يوحنان بيرس تختلف وتتناقض مع الفرضية التي شملها كتاب ابو شلبايه .
ومع ان الزعامة التقليدية التزمت الصمت في الآونة الاخيرة تجاه هذا الموضوع ، باستثناء حمدي كنعان الرئيس السابق لبلدية نابلس الذي عارض فكرة اقامة دولة فلسطينية ، الا ان « اوري افنيري » رئيس كتلة « هعولام هزيه » المعارضة ، خرج بانطباع بعد اجتماعات مطولة عقدها مع وجهاء كافة المناطق في الضفة الغربية بأن سكان الضفة يريدون تقرير مصيرهم بأنفسهم ، وذكر ان كثيرا من الزعماء لا يجرأون على الافصاح عما يختلج في صدورهم ، الا انه ذكر انه سمع من هذه المجموعة ثلاث خطط مختلفة لحل القضية الفلسطينية :
الخطة الاولى « على اسرائيل ان تسلم الضفة الغربية والقطاع الى الامم المتحدة ، وتقوم قوات الامم المتحدة بالاشراف على المناطق ، وتقيم سلطة مدنية ، وتجري انتخابات واستفتاء . وبعد ان يمنح الفلسطينيون حق العودة الى وطنهم يسمح للسكان حينذاك بالحسم في الحلول المختلفة (دولة فلسطينية مستقلة ، اتحاد فدرالي مع الاردن ، اتحاد فدرالي مع اسرائيل، الإنضمام للاردن او لاسرائيل) واذا ما صوت السكان الى جانب دولة فلسطينية، كما هو متوقع ، ستقام حكومة فلسطينية تجري مفاوضات سلام ، وتقيم علاقات مع اسرائيل » .
الخطة الثانية « على الحكم الاسرائيلي ان يقوم فورا بتعيين قائمقام عربي ، يأخذ على عاتقه ادارة الامور المدنية ، ويقوم باجراء الانتخابات للبلديات والمجالس المحلية بعد ان يتمكن من توفير حرية النشاط السياسي . وبعد الانتخابات يجري استفتاء (كالاستفتاء الذي ورد في الخطة الاولى) ثم تقوم الزعامة السياسية بعقد اتفاقيةسلام مع اسرائيل».
الخطة الثالثة « على الجيش الاسرائيلي الاكتفاء بالمرابطة على امتداد النهر للحيلولة دون دخول الجيش الاردني الى البلاد ، وعليه ان ينسحب من قلب المناطق في الوقت الذي تجري فيه انتخابات او استفتاء » (هآرتس ٧١/١٠/١٤) .
الدعوة لاقامة دولة في القطاع : لم يسلم قطاع غزه من فكرة الدعوة لاقامة دولة فلسطينية او كيان فلسطيني ، بعد ان اخذت تبرز براعم للزعامة التقليدية فيه في الآونة الاخيرة وسط اجراءات القمع والتصفية التي تتعرض لها الثورة الفلسطينية هناك . فعلى اثر حملة الهدم والتشريد والتهجير الواسعة النطاق التي تعرض لها القطاع بدات الزعامة التقليدية تتململ وتتحرك ومن بينها الشيخ هاشم نعمان الخزندار الذي كان من القائمين على العريضة التي وقعها ستة آلاف شخص من اجل تربع هشام الشوا على كرسي رئاسة البلدية ، والذي أخذ يطالب باقامة دولة فلسطينية دون ان يذكر حدودها ، الا انه يود ان تشمل الضفة والقطاع شريطة ان لا تكون تحت النفوذ الاردني ، واذا تعذر هذا الامر فانه من الضروري حسب قول الخزندار اقامة « دولة غزة » فورا . ويتساءل الخزندار : ماذا في ذلك ! ان مالطه اصغر من القطاع وسكانها اقل من سكان القطاع ومع ذلك فهي دولة ! » واذا استحال هذا الامر فان هذا الشيخ البالغ من العمر ٦٥ عاما والمتخرج من جامعة الازهر (يملك معملا لانتاج مواد البناء يستخدم فيه ٥٠ عاملا) يقترح بأن تضم غزة الى اسرائيل وليس للاردن « لان ديان افضل الف مرة من حسين » كما ورد على لسانه .
وفيما يتعلق بالطرف الاسرائيلي فانه ماض في اتخاذ تدابير لتعزيز الاستيطان في المناطق المحتلة، ويرفض التداول حول فكرة اقامة دولة فلسطينية ، اذا كان هذا يعني انسحاب اسرائيل من هذه المناطق، فقد رد وزير الدفاع موشيه ديان الذي يملك يدا طولى في بلورة السياسة الاسرائيلية تجاه المناطق المحتلة على سؤال عما اذا كان يعتقد بوجود من يتحدث معه في الضفة حول هذا الموضوع ، قائلا : « حول ماذا نتحدث ! يوجد هنالك من نتحدث معهم ولكن حول ماذا ؟ انني اعرف ماذا يريدون ان يقولوا لك ... ان حق تقرير المصير يعني ان هذه دولتهم وهذا يعني ان نرحل من هناك . انهم سيوافقون ، وانا اعارض ، انني لست من الداعين الى الخروج ، وبامكان الذي يؤيد ذلك التحدث معهم » (هآرتس ٧١/١٠/١٤) .
ان فكرة اقامة دولة فلسطينية لا زالت فكرة عائمة في الضفة الغربية ، وليست هنالك فئة قوية منظمة تدعمها ، الا انها تتعزز بين الفينة والاخرى نتيجة الضربات الشرسة التي يوجهها النظام الاردني للمقاومة ، كما ان هذه الفكرة تتعارض وتتنافى مع استراتيجية الثورة الفلسطينية المبنية على تحرير كامل التراب الفلسطيني ، واعتباره جزءا لا يتجزأ مع التراب الاردني ، ولا يمكن للثورة

الفلسطينية ، قبول هذه الفكرة ، لانها تعني قبل كل شيء تصفية الثورة ذاتها .

حول الانتخابات البلدية في الضفة الغربية : اشتدت في الآونة الاخيرة الدعوة لاجراء انتخابات بلدية في الضفة الغربية ، وكان على رأس الداعين لهـا رئيس بلدية نابلس السابق حمدي كنعان . وقبل التطرق الى خطورة هذه الدعوة ، تجدر الاشارة الى قانون الانتخابات الاردني القائم في الضفة الغربية . ان هذا القانون بعيد في نصه وروحه كل البعد عن القوانين المعمول بها في الدول الديمقراطية . فحسب هذا القانون يسمح للرجال فقط الذين هم فوق سن الواحد والعشرين عاما بالانتخاب . ولا يكتفي القانون باستثناء النساء فقط من قائمة المنتخبين بل يستثني ايضا اولئك الذين لا يدفعون ضرائب للبلدية ، وبذلك يقلص عدد المنتخبين ويحصرهم في طبقة معينة . وفوق ذلك كله فان مجلس الوزراء الاردني هو الذي يعين — بمقتضى القانون — رئيس البلدية من بين المرشحين الفائزين في الانتخابات بناء على توصية وزير الداخلية . والانكى من ذلك ان القانون يخول مجلس الوزراء تنحية رئيس البلدية والغاء المجلس البلدي ، واتخاذ قرار بشأن امواله وممتلكاته اذا ما ارتأى وزير الداخلية « ان مصلحة المدينة تتطلب ذلك » . وفي ظل هذا القانون نمت في الضفة الغربية زعامة تقليدية خرجت من وسط فئة الوجهاء . وكانت هذه الزعامة تحتل المرتبة الثالثة في بنية النظام الاردني تلي مرتبة مجلس الوزراء ومجلسي النواب والاعيان . امـا بعد الاحتلال فقد أصبح رؤساء البلديات والمجالس المحلية يحتلون المرتبة الاولى من حيث الاهميـة السياسية . فقد تسلم جهاز الحكم العسكري الاسرائيلي مهام الحكومة المركزية وغدا هـؤلاء ممثلين للسكان تجاه سلطات الاحتلال ، واصبحوا يمتلكون يدا طولى في مجال الوساطات والتوصيات. وازاء هذا الوضع اخذ البعض من وجهاء الضفة الغربية يطالب باجراء انتخابات جديدة ، الا ان دعوتهم تصطدم بطرفين من ذوي النفوذ في الضفة الغربية :

١ — النظام الاردني : يعارض النظام الاردني الدعوة لاجراء انتخابات بلدية خوفا من بروز زعامة تقليدية جديدة غير موالية له تعمل من اجل الكيان الفلسطيني . وقد هاجمت وسائل الاعلام الاردنية في الآونة الاخيرة فكرة الدعوة لاجراء الانتخابات ، كما وقامت السلطات الاردنية من جانبها باستئناف تقديم المعونات المالية للسلطات المحلية ولموظفي الحكومة والوجهاء وبعض الصحفيين في الضفة .

٢ — رؤساء البلديات : يجمـع معظم رؤسـاء البلديات على معارضة الدعوة لاجراء الانتخابات بذرائع شتى ، خوفا من دخول منافسة مع زعامة تقليدية اخرى ، هم في غنى عنها .

اما الطرف الاسرائيلي ، وهو الطرف الاقوى ، فقد ارتأى بعد دراسة الموضوع انه من الافضل الموافقة على اجراء انتخابات بلدية في عدد من المدن الصغيرة في الضفة الغربية اريحا وطولكرم وجنين وطوباس وقلقيليه ، في شهر نيسان (ابريل) المقبل ، دون الموافقة على اجرائها في المدن الكبيرة مثل الخليل ونابلس ورام الله وغيرها ، على امل خلق زعامة تقليدية من فئة الوجهاء تكون مرتبطة معه وموالية له . فالسلطات الاسرائيلية تدرك جيدا ان وجهاء المدن الصغـيرة هم اقرب الى التطويع والتوجيه والتسيير في خط يخدم المخطط الاسرائيلي الرامي الى تكريس الاحتلال ، ومن ثم يكون بامكانها على ضوء تجربتها الانتخابية في المدن الصغيرة ، الموافقة على اجراء انتخابات في المدن الكبيرة بعد ان تضمن سلفا ان النتائج ستكون في مصلحتها . ومن هنا يمكن القول ان اي انتخابات في الضفة الغربية في ظل الاحتلال ، سواء في المدن الصغيرة او الكبيرة تعتبر جزءا من مخطط اسرائيلي لاقامة حكم ذاتي او كيان فلسطيني مرتبط باسرائيل، ترفضها كافة العناصر الوطنية المؤمنة بتحرير كامل التراب الفلسطيني .

مؤتمر بلاطة : عقد في الآونة الاخيرة مؤتمر في مخيم بلاطة ضم حوالي ٣٠ مختارا ، يمثلون حوالى ٣٥ الف لاجىء يقطنون في خمسة مخيمات تقع في منطقة نابلس . وقد عقد المؤتمر بمبادرة علي بركات احد مخاتير بلاطة بعد موافقـة سلطـات الاحتـلال الاسرائيلية . ومن بين الموضوعات التي طرحت فيه مشاكل المياه والمواصلات والعمل التي تواجه سكان المخيمات ، واتخـذ المؤتمـرون قرارات بالاجماع طالبوا فيها سلطات الحكم العسكـري بالعمل على تنظيم عملية تزويد المخيمات بالمياه ، وتوسيع الطرق المؤدية اليها وايجاد عمل للمثقفين من صفوف ابنائها . والسبب الرئيسي لعقد هذا المؤتمر يكمـن في الصراع المستتر بين الزعامـة

التقليدية في المدن التي عظم شأنها بعد الاحتلال الاسرائيلي ، وبين الوجاهة التقليدية في المخيمات التي تعتبر ادنى مرتبة منها وبأتمر بأمرها . ولذا يمكن القول ان مؤتمر بلاطة جاء كمحاولة من قبل مخاتير المخيمات للتمرد على الزعامة التقليدية في نابلس التي درجت على تمثيلهم امـام سلطات الاحتلال دون استشارتهم .

أوضاع الخريجين الثانويين : لا زالت مشكلـة خريجي المدارس الثانوية قائمة في المناطق المحتلة، خاصة في الضفة الغربية وقطاع غزة حيث تفتقر هذه المناطق الى مؤسسات جامعية . ومما يزيد الطين بلة ان الجامعات في الدول العربية درجت على تحديد عدد المقبولين من هؤلاء الخريجين ، الامر الذي دفع البعض منهم الى الالتحاق بالجامعة العبرية في القدس ، فقد التحق هذا العام ٢٠ طالبا من ابناء الضفة بالجامعة العبرية ، وبذلك يرتفع عدد الطلبة من ابناء الضفـة في الجامعة العبرية الى ٤٥ طالبا .

تمرد السجناء في سجن عسقلان : في ١٩٧١/٩/٢٠ وقع تمرد في سجن عسقلان . وكان السبب المباشر لهذا التمرد ، قيام ضابط اسرائيلي اثناء مهمة احصاء السجناء بالاعتداء على سجين ضرير كان مضجعا على سريره الامـر الذي دفـع زملاءه للتصدي للضابط الذي اخذ يصرخ طلبا للنجدة وحينذاك تقدم عدد من حراس السجن واصطدموا مع السجناء الذين اخذوا يتسلحون بكل ما يقع تحت أيديهم ، للتصدي لقوات الحراسة . وقد استطاعت قـوات الحراسـة تخليص الضـابط الاسرائيلي من ايدي السجناء الثائرين بعد ان ضرب ضربا مبرحا ، ونقله الى المستشفى فـي حالة خطرة . ولم يتوقف الصدام بعد تخليص الضابط الاسرائيلي ، بل اتسع واشتد وسط الهتافات ضد الاحتلال ، مما اضطر المسؤولين عن السجن الى استدعاء نجدات من قوات الشرطة والجيش. وقد انتهى التمرد بعد مضي ثلاث ساعات علـى نشوبه . واسفر كما تدعي المصادر الاسرائيلية عن اصابة عشرة من السجناء بجراح ، الا ان منظمة الصليب الاحمر ذكرت في احد تقاريرها ان الاشتباك اسفر عن جرح ١٨ سجينا . اما السبب غير المباشر لهذا التمرد فانه يعود الى غطرسة المسؤولين عن السجن ، والمعاملة السيئة التي يحظى بها سجناء عسقلان البالـغ عددهم ٤٧٧ سجينا تتراوح الاحكام الصادرة بحقهم من السجن ١٥ عاما الى السجن المؤبد .

ومن الجدير بالذكر ان عدد السجناء والمعتقلـين (فدائيين ومناضلين) في المعتقلات والسجـون الاسرائيلية قد بلغ في نهاية ١٩٧٠ ، ٣٢١٧ شخصا من المناطق المحتلة ، من بينهم ١٥٣٥ صدرت احكام بحقهم و١١٦٩ معتقلا و٤٨٦ معتقلا اداريا . وهم موزعون كالتالي : ٨٦١ في سجن غزة و٥١٦ في سجن بئر السبع و٤٧٧ في سجن عسقلان و٤٤١ في سجـن نابلس و٣٢٦ في كفاريونا و١٥٨ في رام الله و١٤٥ في الخليل و١٢٦ في جنين و١٠٣ في طولكرم و٥٢ في الرملة و١١ فتاة في نفيـه برتسا .

محاولة تصفية الثورة في القطاع : تتعرض ثورة جماهير القطاع الى محاولات تصفية خطـيرة ، وليست هذه المحاولات جديدة بالنسبة للقطـاع غير أنها تتسم هذه المرة بالخطورة الشديدة لعدة اسباب اهمها انها تجيء بعد ضرب المقاومـة في الاردن وتصفية وجودها العلني هناك ، وعـدم تخطيها حتى الان لمرحلة الانحسار التي تمر بها، والتزام الجانب العربي بوقف اطلاق النار على امتداد الجبهات مع العدو الاسرائيلي ، مما تأتى عنه بقاء قطاع غزة كجبهة وحيدة تقف في وجـه الاحتلال ، الامر الذي مكن قائد المنطقة الجنوبية الزعيم « اريك شارون » من تخصيص قسم من قواته الضاربة المرابطة في الجبهة الجنوبية في محاولة منه للقضاء على « الجبهة الوحيدة » . وقد قامت هذه القوات بحملة الهدم والتشريـد والتهجير الواسعة النطاق (انظر شؤون فلسطينية: المناطق المحتلة . العدد الخامس) .

الى جانب ذلك قامت السلطات الاسرائيلية باتخاذ اجراءات وتدابير ووسائل لتعزيز نفوذها في القطاع في محاولة خطرة لتصفية الثورة هناك :

١ — توزيع القوات الاسرائيلية في وحدات صغيرة وعديدة : اعتمدت القوات الاسرائيلية المتواجـدة في القطاع اسلوبا جديدا في مقاومتهـا للثورة ، وبمقتضى هذا الاسلوب جزئت القوات الى وحدات صغيرة وعديدة ، واخذت تنتشر في المدن والقرى والمخيمات والبيارات الملاءمة اسلوب قتالها مـع اسلوب حرب العصابات ، الامر الذي فرض على قوات الثورة الاعتماد على السرية التامة والمطلقة — بعد أن توصلت خلال هذا العام الى التواجد

العلني في المخيمات التي كانت تسيطر عليها ـ والتنقل من مكان الى مكان داخل « الغابة البشرية » .

٢ ـ حملة الاستيطان الاسرائيلية التي لجأت اليها السلطات الاسرائيلية لاثبات التواجد الاسرائيلي هناك ، وقد مر الحديث عنها .

٣ ـ توزيع هويات جديدة في القطاع : من اجل تقييد حركة الفدائيين ومحاصرتهم ، أصدر قائد منطقة القطاع « يتسحاق فونداق » أمرا باصدار هويات جديدة لتوزيعها في القطاع ابتداء من ١٧ نوفمبر ١٩٧١ على كل شخص ذكر من فوق سن الـ ١٦ عاما . ومن المقرر ان تشمل هذه العملية زهاء ١٢٠ الف شخص ، وبعد ذلك ستجري عملية التوزيع على النساء . ومن الجدير بالذكر ان تذكرة الهوية الجديدة اعدت بطريقة تحول دون امكانية تزويرها ، فعلى ظهر كل تذكرة تلصق صورة ملونة تعد بواسطة آلة تصوير خاصة ، ومن ثم توضع التذكرة داخل محفظة مصنوعة من البلاستيك ، ويحكم غلقها . واذا ما حاول أحد فتح المحفظة بغرض التزوير او تغيير الصورة فان لون الصورة الملونة يأخذ بالتغير وبذلك تفشل محاولة التزوير .

٤ ـ فتح الخط بين القطاع واسرائيل امام الباصات الاسرائيلية : سمحت السلطات الاسرائيلية في مطلع شهر نوفمبر لباصات شركة « ايجد » الاسرائيلية بالتنقل بين القطاع والمدن الاسرائيلية بغرض نقل العمال العرب ، بعد ان كان ذلك محرما عليها في فترة السيطرة شبه التامة للفدائيين في القطاع . وقد استخدمت الشركة لهذا الغرض ٤٠ باصا .

٥ ـ تعيين رئيس لبلدية غزة : في غمرة مخططات التصفية التي تقوم بها القوات الاسرائيلية في القطاع ، اقدمت سلطات الاحتلال على تشكيل مجلس بلدي وتعيين رشاد الشوا رئيسا للبلدية ، على امل خلق زعامة تقليدية شبيهة بزعامة الضفة، تكون بمثابة حلقة وصل بينها وبين الجماهير لخدمة اغراضها . وكانت سلطات الاحتلال قد حلت في ١٤ فبراير المجلس البلدي في غزة برئاسة راغب العلمي متهمة اياه بالتعاطف مع رجال المقاومة ، وبقيت الشؤون البلدية تدار بواسطة ضابط اسرائيلي طيلة ستة اشهر حتى النصف الثاني من أيلول ، حيث شكل مجلس البلدية برئاسة رشاد الشوا وعضوية كل من محمد رضوان ، عرفات ابو حصيرة ، شعبان ابو رقطة ، موسى علي ابو شعبان ، حسن ابو رجله ، رفيق ابو الحسن بسيسو ، احمد فايق خيال ، احمد شراب ، محمد الشوا ، خليل ابراهيم ، وعبد اللطيف الغصين . ويعتبر رئيس البلدية الجديد من أثرياء القطاع ، فهو يمتلك بيارة مساحتها ١٠٠٠ دونم ، كما ويمتلك مع شركاء له من عائلته وعائلة المغربي معملا حديثا لتوضيب الحمضيات ، بالاضافة الى نشاطه في الميدان التجاري . أما اعضاء المجلس فمعظمهم من التجار والوجهاء والاغنياء والمقاولين ، وبذلك أخذت تبرز على السطح في القطاع براعم للزعامة التقليدية . وكان اول المهنئين لهذه الزعامة الجديدة رئيس بلدية الخليل الشيخ علي الجعبري ، حين تقدم الى غزة على رأس وفد ضم حوالي ٥٠ شخصا من وجهاء منطقة الخليل للتعبير عن « تمنياته بالنجاح » لرئيس البلدية الجديدة رشاد الشوا .

٦ ـ استشهاد زياد الحسيني قائد قوات التحرير الشعبية : خلال حملات التصفية وقع حادث غريب في منزل رئيس بلدية غزة رشاد الشوا حين أقدم قائد قوات التحرير الشعبية في قطاع غزة زياد الحسيني على الانتحار باطلاق النار على نفسه . ومع ان ملابسات القضية لا زال يكتنفها الغموض ، الا اننا سنوردها كما وردت في المصادر الاسرائيلية نقلا عن رئيس بلدية غزة ، وتتلخص كالتالي : في ١١ اوكتوبر التجأ زياد الى منزل رئيس البلدية بعد أن علم انه اجرى اتصالات في الخارج حول امكانية اخراج بعض الفدائيين من القطاع . وقد رحب به رئيس البلدية « وفقا للتقاليد العربية » ، ولم أخبر السلطات الاسرائيلية لان ذلك يتنافى والاعراف العربية » وطلب زياد ان يجري اتصالات مع قائد منطقة القطاع وعبر عن رغبته في مغادرة المنطقة ، وقد اقترح رئيس البلدية على حاكم القطاع الاستجابة لطلب زياد غير أن القائد اشترط عليه ان يسلم نفسه مع مجموعته الى السلطات الاسرائيلية . وفي غضون ذلك اخذت نفسية زياد تتدهور الى ان اصبح غير قادر على ضبط اعصابه ، فأقدم على الانتحار باطلاق النار على نفسه بعد أن قضى مدة ٤٢ يوما في منزل رئيس البلدية ، حينذاك هرع رشاد الشوا الى قائد منطقة القطاع وابلغه بالحادث ،

ثم توجه الى تل ابيب وقابل وزير الدفاع موشيه ديان وابلغه تفاصيل ما جرى ، تطويقا لمضاعفات محتملة . الا ان السلطات الاسرائيليــة اكتفت باجراء تحقيق معه دون أن تعتقله او تقوم بنسف منزله بتهمة « تستره على الفدائيين » .

والمعروف ان زياد الحسيني الذي توفي عن عمر يناهز التاسعة والعشرين كان قد أصبح في عام ١٩٦٩ قائدا لقوات التحرير الشعبية في القطاع ، ولم تتمكن سلطات الاحتلال بالرغم من محاولاتها الكبيرة خلال اربعة أعوام من القاء القبض عليه، فقد كان لفترة طويلة على رأس « قــائمة المطلوبين » . وتقول المصادر الاسرائيلية ان زياد ترك وصية بالممتلكات التي بحوزته جاء فيها : (١) « بحوزتي ٤٧٢٠ ليرة اسرائيلية (٢) ١٠٠ دولار اميركي (٣) ٢٥٠ قرشا مصريا + ساعة يد (٤) خاتم ذهب + دبلة » وطلب من رشاد الشوا تسليمها الى اهله بطـريقة سرية . كما ووجه رسالة الى الشوا يستشم منها انه لم يكن راضيا عن مواقفه السياسية جاء فيها : « آسف على التعب الذي تسببت به لك بسبب اضطراري على الانتحار بالمسدس . احتفظ لنفسك بالبندقيــة والحقيبة ، فلربما تستطيع بهما مقاتلة العــرب والمصريين اعدائك » !

والامر الذي يسترعي الانتباه والاهتمام معا هو زمان ومكان حادث الانتحار ، فقد وقع في وقت تحاول فيه قوات الاحتلال بكل شراسة تصفيــة ثورة جماهير القطاع ، وفي مكان تحاول الزعامة التقليدية من خلاله ان تطل راسها .

وبالرغم من ذلك كله فان مركز المقاومة لا يزال قويا بين جماهير القطاع «فوسائل القمع الشديدة» كما يقول الصحفي الاسرائيلي زئيف شيف « لم تهز مركز الفدائيين » (هآرتس ٧١/١٠/١) بفضــل الالتحام غير القابل للذوبان بين رجال المقــاومة وجماهير القطاع ، وخير دليل على ذلك خروج الجماهير في جباليا وغزة ودير البلح في مظاهرات ومسيرات حداد على ارواح اربعة شهداء سقطوا في معركة مع قوات الاحتلال في منطقة جباليا في النصف الاخير من شهر اكتوبر ، غــير أن وقفة الجماهير لا يمكن لها أن تتعزز وتشتد في مواجهة مخططات التصفية الا بقيام منظمات المقــاومة العاملة في القطاع وهي فتح وقوات التحريــر الشعبية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وكذلك المنظمات غير العاملة هناك ، بتوجيــه ضربات شديدة وموجعة للعدو الاسرائيلي اينما كان وحيثما وجد ، حفاظا على الثورة من التصفية .

ع٠م٠

(٦) الاقتصاد الاسرائيلي في النصف الثاني من العام ١٩٧١

لا شك ان اهم حدثين اقتصاديين حصلا في النصف الثاني من عام ١٩٧١ هما خفض قيمة العملة الاسرائيلية بنسبة ٢٠٪ في اعقاب الاجراءات التي اعلنها الرئيس الاميركي في ٢٢ آب من نفس العام ، والاهمية المتزايدة لدور صناعات الاسلحة في النشاط الاقتصادي الاسرائيلي الذي اعلن منه وكيل وزارة الصناعة حيث اعلن ان اسرائيل قد اصبحت من بين الدول المصدرة للاسلحة وان جزءا لا يستهان به من دورة الدخل في القطاع الصناعي هو نتيجة لانتاج مختلف أنواع الاسلحة. فيما يتصل بموضوع تخفيض قيمة الليرة الاسرائيلية فقد سبق ان عالجنا الموضوع بالتفصيل في العدد الماضي (راجع العدد ٥ ص ١٨ — ٢٩) . ولا تزال آثار التخفيض تتفاعل في مختلف قطاعات الاقتصاد الاسرائيلي وسنأتي على ذكرها وتحليلها في معرض استعراضنا لنشاط كل قطاع على حدة ، اما ازدهار صناعة الاسلحة فهو نتيجة حتمية لتوجيه المزيد من الموارد الاقتصادية صوب قطاع التسلح ومحاولة السلطات الاسرائيلية توفير معظم احتياجاتها من المعدات والذخيرة ، ويمكن مقارنة اسرائيل في هذا المجال وفي هذه الفترة بالذات بما حصل في الولايات المتحدة خلال الحرب الكورية وفي السنوات الخمس الاولى من الحرب الفيتنامية حيث نشأت صناعات عديدة لها علاقة وثيقة بقطاع التسلح وفي طليعتها الصناعات الاليكترونية . ويبدو ان عددا لا يستهان به من القوى العاملة في اسرائيل اصبحت مرتبطة بصناعات الدفاع والتسلح وبالتالي فان اي خفض في حجم ميزانية وزارة الدفاع مستقبلا سيؤدي الى حدوث آثار عكسية على ازدهار هذه الصناعة . غير أن هذه الظاهرة يجب ان لا تدفعنا الى الاستنتاج بأن ازدهار الاقتصاد الاسرائيلي والذي يتمثل بارتفاع مستوى العمالة والزيادة السنوية الحقيقية في حجم الناتج الوطني مرتبط باستمرار حالة اللاحرب واللاسلم التي تسود المنطقة الان. فقد اثبتت كافة الدراسات الاختبارية بأن توجيه قسم كبير من الموارد الاقتصادية نحو التسلح يؤدي الى تردي الاوضاع الاقتصادية في المدى الطويل وان كانت بعض قطاعات الاقتصاد او على وجه التحديد بعض الصناعات المعنية قد تزدهر على حساب غيرها .

ميزانية ٧٢/١٩٧٢ : بدأ وزير المالية في وضع اللمسات الاولى لميزانية العام المالي ٧٣/١٩٧٢ . وتدل التقديرات الاولية على ان مجموع بنود الميزانية سيكون في حدود ٤٬٦٧ مليار دولار ، اي ما يساوي ١٦٬٢ مليار ليرة اسرائيلية بالمقارنة الى ٣٬٦٧ مليار في ميزانية عام ٧٢/١٩٧١ . وقد ظهرت مؤخرا في الصحف الاسرائيلية مقالات عديدة تدعو الى ضغط مصروفات بعض الوزارات وفي طليعتها وزارة الدفاع حيث وصلت الى ارقام باتت تهدد الاقتصاد بأوخم العواقب . واكثر ما يزعج الراي العام في اسرائيل ان ارتفاع حجم الميزانية يعني ارتفاع مستوى الضرائب وقد وصلت الى حد لم يعد المواطن قادرا على تحمل المزيد .

وكان حاكم مصرف اسرائيل المركزي الجديد ، موشي ساندبرغ ، الذي خلف دافيد هوروفيتز في منصبه ، قد اعلن في اول تصريح رسمي له بعد استلام منصبه الجديد بأنه لا بد من خفض النفقات الحكومية لجميع الوزارات دون استثناء بما فيها وزارة الدفاع تجنبا لتمويل العجز في الميزانية العامة بوسائل تضخمية . وكان بذلك يعلق على ما رددته الصحافة الاسرائيلية من ان هنالك عجزا مرتقبا في الميزانية لعام ٧٣/١٩٧٢ قدره ١٢٠٠ مليون دولار ، وانه اذا لم تصمم منذ الان ميزانية متوازنة فان هنالك خطرا من حدوث تضخم مالي لا يمكن السيطرة عليه .

ومن ناحية اخرى دعا حاكم المصرف المركزي الجديد الى الاستعانة بطلاب المدارس الثانوية لجني محصول الحمضيات هذا الشتاء حيث أن هنالك نقصا في اليد العاملة يتراوح بين ٢٥ — ٣٠ الفا خصوصا وان الاعتماد على المناطق العربية المحتلة لتزويد هذا العدد الاضافي غير مؤكد . ومن ناحية اخرى اكد ساندبرغ انه يتوجب على الحكومة تشجيع الانتاج المحلي من الصناعات الحربية لانها توفر على اسرائيل استعمال رصيدها من القطع الاجنبي لاستيراد ما تحتاجه من الذخيرة وقطع الغيار ، كما انها تنعش في نفس الوقت الصناعات

الاليكترونية ، وصناعة المعادن وغيرها من الصناعات التي لها صلة مباشرة بانتاج الاسلحة. وعلى اثر الغاء برنامج المساعدة الامريكية من قبل الكونغرس الامريكي طلب سابير ، وزير المال من جميع الوزراء اعادة النظر في ميزانياتهم الاولية . والمعروف ان حصة اسرائيل المقررة من المساعدات الامريكية قبل الغائها كان (١٨٥) مليون دولار للعام المالي ٧٣/١٩٧٢ .

وعلى اثر نداء سابير ، وزير المالية ، قام موشي دايان ، وزير الدفاع ، بتخفيض ميزانية وزارته للعام المالي القادم بمبلغ ٥٠٠ مليون ليرة اسرائيلية (حوالي ١٢٥ مليون دولار) بحيث تصبح في حدود ٦٠٠٠ مليون ليرة اسرائيلية (حوالي ١٤٤٣ بليون دولار) . وكان سابير قد أعلن امام اللجنة المالية في الكنيست ان الميزانية ستكون في حدود ١٦٤٢ بليون ليرة اسرائيلية (حوالي ٣٢٧ بليون دولار). وهذا يعني ان نسبة النفقات الدفاعية الى مجمل الناتج الوطني ستظل في حدود ٢٥٪ بالمقارنة الى نسبة ١١٪ قبل عام ١٩٦٧ .

ولا يزال هنالك متسع من الوقت قبل أن تتبلور نهائيا الميزانية اذ أن السنة المالية في اسرائيل تبدأ في اول نيسان من كل عام ، لذلك فان هذه الارقام مؤقتة . ومهما اختلفت التقديرات الحالية والتقديرات اللاحقة فان الشيء الاكيد هو أن الميزانية ستقع تحت عجز يتراوح بين ٣ــ٥ بلايين ليرة اسرائيلية . وفي عرف القارىء ان الضرائب قد وصلت الى حد لم يعد يسمح بأي زيادة اضافية، وان أي تخفيض في مستوى النفقات الحكومية مستبعد ، فان الاحتمال الاقوى هو في ان تلجأ الحكومة للاقتراض من البنك المركزي وهذا يعني زرع بذور التضخم المالي من جديد وهو ما تحاول السلطات الاسرائيلية تفاديه بأي ثمن حتى لا يأتي على المكاسب التي قد يحققها خفض قيمة العملة الاسرائيلية .

قطاع التجارة الخارجية : زاد العجز في الميزان التجاري الاسرائيلي خلال الاشهر الستة الاولى من هذه السنة بنسبة ٣٧٪ الى الفترة نفسها من العام الماضي . وقد بلغت الواردات في النصف الاول من ١٩٧١ مبلغ مليار وخمسمئة وثلاثة واربعين مليون دولار اي بزيادة قدرها ٢٩٪ من الفترة نفسها من العام الماضي .

وتأمل السلطات الاسرائيلية في أن يطرأ تحسن طفيف على وضع الميزان التجاري بعد خفض قيمة الليرة الاسرائيلية بنسبة ٢٠٪ في الثاني والعشرين من اغسطس من هذا العام . وقد اتخذت الحكومة عددا من الاجراءات الجديدة لتعزيز وضع الصادرات الاسرائيلية عن طريق مكافحة التضخم المالي . وتتلخص هذه الاجراءات بما يلي : ١ ــ عدم توزيع ارباح اضافية للمؤسسات والاحتفاظ بتوزيع مستواها السابق . ٢ ــ الاستمرار في مراقبة الاسعار . ٣ ــ تخفيف النشاط في قطاع البناء بسبب النقص في اليد العاملة وذلك بقصد تطويق أية زيادة في مستوى الاجور . ٤ ــ الغاء كافة المصاريف التي تنتج عن الاحتفال بالمناسبات الرسمية والاكتفاء باحتفالات شكلية .

ديون الدولة: ارتفعت قيمة ديون اسرائيل الخارجية بنسبة ٢٠٪ عن العام الماضي اذ ارتفعت من ٢٩٠٠ مليون دولار في نهاية عام ١٩٧٠ الى ٣٥٠٠ مليون دولار في نهاية عام ١٩٧١ . وقد اصبحت الفوائد المستحقة على هذه المبالغ في حدود ٢٥٠ مليون دولار سنويا كما أكد ذلك بنحاس سابير وزير المالية الاسرائيلي في تصريح له حول هذا الموضوع . ولا يوجد خطر من زيادة الديون الخارجية اذا ظلت تزداد بنسبة الزيادة في الناتج الوطني ، اما عندما تزيد عن ذلك فانها تصبح عبئا على الاقتصاد اذ تؤثر تأثيرا مباشرا على مستويات الانتاج وحجم النشاط الاقتصادي . واذا كان الدين الداخلي يمثل عملية تحويل الموارد من فئة من السكان الى فئة اخرى ، او من القطاع العام الى القطاع الخاص ، فان الدين الخارجي يشكل عبئا على الاقتصاد بأسره اذ أنه يحرم المواطنين من موارد معينة يمكن الاستفادة منها في انتاج سلع استهلاكية وانتاجية ويحولها نحو تسديد ديون الدولة الخارجية .

وقد عبر روجرز ، وزير الخارجية الامريكية ، عن قلقه من ازدياد حجم الدين الخارجي لاسرائيل واكد انه لا بد من الوصول الى تسوية سلمية بين اسرائيل والبلدان العربية حتى تستطيع اسرائيل ، على حد رأيه ، ان توجه مواردها نحو الانماء بدلا من التسلح .

المناطق المحتلة : بدأت السلطات الاسرائيلة في نشر احصاءات شهرية ودورية عن النشاط الاقتصادي في الاراضي العربية المحتلة . وقد جاء في هذه النشرة ان معدل زيادة السكان السنوي في قطاع غزة هو ٢٠٨٪ وفي الضفة الغربية ٢٠٤٪ بالمقارنة الى ١٠٦٪ في اسرائيل و ٤٪ للعرب

المقيمين في اسرائيل . وتعتبر نسبة الزيادة بين السكان العرب في اسرائيل من اعلى النسب في العالم نظرا لتمسكهم بالتقاليد ولانخفاض مستوى الوفيات بينهم .

وتؤكد السلطات الاسرائيلية ان حجم البطالة انخفض في المناطق المحتلة من ١٧٪ في عام ١٩٦٧ الى ٥٪ في قطاع غزة و٣٪ في الضفة الغربية . ولا يزال قطاعا الزراعة والبناء يشكلان المجال الحيوي لامتصاص اليد العاملة في المناطق المحتلة. ومن ناحية اخرى ارتفع مستوى الاجور في القطاع الصناعي بنسبة ٢٠٪ في غزة و١٤٪ في الضفة الغربية وان كان معظم الزيادة جاء نتيجة لارتفاع نفقات المعيشة ومستوى الاسعار اجمالا . وقد حاولت السلطات الاسرائيلية الاستفادة من انخفاض مستوى الاجور هناك بالمقارنة باسرائيل لاجتذاب المزيد من اليد العاملة لسد النقص الحاصل في اسرائيل وكذلك لاقامة صناعات خفيفة تعتمد على اليد العاملة غير أن النشاط الفدائي المتزايد في قطاع غزة قد حال حتى الان دون تنفيذ هذه الخطة .

خلال العام الماضي ارتفع الانتاج الزراعي بنسبة ٢٦٪ في الضفة الغربية و٤١٪ في قطاع غزة من العام الذي سبقه . وقامت السلطات الاسرائيلية باستيراد ٣٠٪ من استهلاكها من البطيخ من الضفة الغربية و ٢٠٪ من حاجتها من الخضراوات . كما زودت المناطق المحتلة اسرائيل بـ ٢٠٪ من محصول القمح ، وبلغ محصول الزيتون ضعفين ونصف محصول اسرائيل .

وتحاول السلطات الاسرائيلية الايحاء بين الحين والاخر الى وجود ازدهار اقتصادي في الضفة الغربية وغزة لم يكن متوفرا قبل الاحتلال الاسرائيلي عن طريق نشر احصائيات حول الزيادة في حجم الناتج الوطني . فمثلا نشرت احصائيات تتلخص في حدوث زيادة قدرها ٩٪ في الضفة الغربية و٣١٪ في قطاع غزة نتيجة لتوظيف قسم كبير من اليد العاملة في اسرائيل . غير انه عند اخذ ارتفاع المستوى العام للاسعار بعين الاعتبار فان الزيادة الحقيقية تنخفض الى ٣٪ في الضفة الغربية بينما تظل مرتفعة في قطاع غزة .

ان المناطق المحتلة تشكل مصدرا حيويا بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي من حيث أنها تزود اسرائيل بما تحتاجه من اليد العاملة ومن المنتوجات الزراعية التي لا تعطي غلة نقدية مرتفعة وبالتالي تمكن اسرائيل من استثمار رقعتها الزراعية المحدودة على احسن وجه . ويمكن اعتبار علاقة المناطق المحتلة باسرائيل كعلاقة الدول النامية بالدول المتقدمة اقتصاديا من حيث اعتماد الاخيرة على الاولى في تزويدها بما تحتاجه من عوامل الانتاج بأسعار واجور زهيدة .

التضخم المالي : حذر عدد من الاقتصاديين البارزين الحكومة الاسرائيلية بأن الميزانية الاسرائيلية الحالية والقادمة تحمل في طياتها عوامل ستزيد من حدة ارتفاع مستوى الاسعار . فهنالك زيادة قدرها (٧٥٠) مليون ليرة اسرائيلية في وسائل الدفع نتيجة لرفع مستوى الضرائب وزيادة الانفاق الحكومي بنسبة تفوق الزيادة في مستوى الضرائب. اي ان الزيادة في الضرائب لن تستطيع امتصاص القوة الشرائية الاضافية المترتبة على عملية زيادة الانفاق الحكومي . ومثل هذا الامر سيزيد من العجز الحاصل في الميزان التجاري . وفي رأي هؤلاء الاقتصاديين ان الاقتصاد الاسرائيلي غير قادر على امتصاص اكثر من (٥٥٠) مليون ليرة اسرائيلية من السيولة الاضافية على أساس زيادة قدرها ٧٫٥٪ في حجم الانتاج و٧٪ من مستوى الاسعار .

ويبدو ان ضبط الزيادة في الانفاق ضرورية الان اكثر من قبل بعد تخفيض قيمة الليرة الاسرائيلية نظرا للارتفاع الذي طرأ على مستوى الاسعار اجمالا مما دفع الحكومة الى رفض اي زيادة محتملة في مستوى الاجور والتهديد باحالة كل مخالف الى القضاء . واذا ما اضفنا الزيادة المرتفعة في حجم القروض والسلف المقدمة من القطاع المصرفي والمقدرة بحوالي (١٥٠) مليون ليرة لاتضح لنا ان عام ١٩٧٢ سيشهد ارتفاعا كبيرا في مستوى الاسعار قد يأتي على أية مكاسب حقيقية في مستوى الانتاج .

اخبار متفرقة

ــ تقرر انشاء مصرف صناعي جديد برأس مال قدره (٣٠) مليون جنيه استرليني . وستبلغ نسبة مساهمة الحكومة الاسرائيلية فيه حوالي (١٨) مليون جنيه :

تريمف استمت ترست	٢٫١ مليون جنيه
فرست بانسيلفانيا بنك	٦٫٦ مليون جنيه
مجوعة روتبرغ	١٫٢
اتحاد العمال الاسرائيليين	١٫٠
اتحاد الصناعيين	١٫٠
جهات اخرى	١٫٥

ــ ادى الاضراب الذي اعلنه موظفو الجمارك في الموانىء الاسرائيلية الى تراكم السلع المستوردة والمصدرة بحيث بدأت المصانع تواجه نقصا في المواد الخام وقطع الغيار الضرورية . وبعد أيام من اضراب عمال الموانىء اعلن موظفو المطارات اضرابا مماثلا لمطالبتهم بزيادة الاجور. وقد اصدرت محاكم تل أبيب قرارا بارغام موظفي الجمارك بالعودة الى اعمالهم وانهاء الاضراب . ولا شك ان موجة الاضرابات هي نتيجة منطقية لقرار خفض العملة الاسرائيلية وما يتركه عادة من ارتفاع في اسعار السلع الاستهلاكية ومؤشر نفقات المعيشة. وقد تحركت الحكومة الاسرائيلية لوضع حد لموجة ألاضرابات فقررت عرض مشروع قانون على الكنيست ينص على اعطاء العقود القائمة بين الحكومة والعمال والمؤسسات صفة الالزام القانوني ، وقبول التحكيم الاجباري اذا نص عقد العمل على ذلك وتنظيم الاجراءات الخاصة باعلان الاضرابات . وكان المكتب الاسرائيلي للاحصاء قد أعلن أن اسعار المواد الغذائية ارتفعت في اسرائيل بمعدل ٩٪ في المتوسط نتيجة لخفض قيمة الليرة الاسرائيلية .

ــ من ناحية اخرى نشرت مجلة « ازرائيل ايكونوميست » أن نفقات الانتاج الصناعي سترتفع بنسبة ١٥٪ نتيجة للخفض والاجراءات المرافقة وفي طليعتها تشديد القيود على الائتمان والقروض المقدمة للشركات . وعلى هذا الاساس فستجد هذه الشركات نفسها أمام احد طريقين اما تخفيض حجم نشاطها او الاقتراض بسعر فائدة مرتفع ، والمعروف ان ارتفاع اسعار الفائدة قد خفض معدل الربح في القطاع الصناعي قبل رفع الضريبة الى ٤٪ . لذلك فاذا لم تبادر الصناعات الى رفع أسعارها فانها ستصبح مهددة بالوقوع في خسارة طائلة . ولا يوجد أي امكانية لزيادة ارباح الصادرات الصناعية اكثر من ١٠٥٪ لذلك فان رفع أسعار السلع المباعة في السوق المحلي يصبح الطريق الوحيد للحفاظ على نفس المستوى السابق من الارباح . غير انه من المستبعد جدا ان يوافق مجلس الرقابة على الاسعار في اسرائيل على زيادة أسعار السلع الصناعية .

ــ اعلن دافيد هوروفيتز ، حاكم مصرف اسرائيل السابق ، ان حجم التثمير المتوقع خلال عشر السنوات القادمة سيكون في حدود ٦٦ مليار ليرة اسرائيلية . وهذا الرقم هو ضعف حجم التثميرات التي وجهت الى مختلف قطاعات الاقتصاد خلال فترة الستينات . وقد كان نصيب قطاع البناء ٣١٪ من المجموع وقطاع التجارة ٢٠٪ والنقل والمواصلات ٣٠٪ والصناعة ١٥٪ .

ــ بدأت الحكومة الاسرائيلية برنامجا يهدف الى بناء وبيع شقق سكنية للاجانب فقط بقصد الحصول على مصادر اضافية للقطع الاجنبي . وقد استطاعت جمع مبلغ خمسة ملايين دولار قبل أن تبدأ بالفعل في تنفيذ المشروع .

د. يوسف شبل

مراجعات

أبو سلمى ، من فلسطين ريشتي (دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧١)

شعر أبي سلمى شعر حزين ، أولا ، وشعر موجه، ثانيا . موجه توجيها تلقائيا — كما هي عادة « الشعر الوطني » في كل مكان — يغني الارض ويشيد بها ، ويغني الابطال ، ويشيد بهم . ويتجه حيث الحق كما يراه، وحيث العدالة ، كما يراها. وهو شعر فيه هجاء المرارة ، لا هجاء الطبيعة والسليقة . ولقد هيأت ظروف الامة التي ارتبط بها الشاعر ارتباطا واضحا — لهذا اللون من الشعر الهجومي ، لا عند الشاعر فحسب ، بل لدى الجيل المعاصر له جميعه .

ابو سلمى ، يواجه السلطة ، ضد السلطة حيث تكون ، ويأخذ مكانه بين الشعب حيث يكون ليواجه السلطة . بهذه البساطة التي الفناها عادة في شعر الوطنيات ، والذي ارتفع ، شأنه شأن الهاجس الوطني في بدايات النهضة العربية ، ومرحلة الاستقلال . وسيكون أبو سلمى بهذا ، البقية الباقية ، من هذا الضرب الحماسي التقليدي المشرف ، من الشعر الوطني . لا شك انه كان لابي سلمى مجد ، فيما يتصل بالمسألة الفلسطينية ، والمسألة القومية العربية . فبالقدر الذي تغنى بمجد الارض ، تغنى فيه بمجد العروبة ، وبالقدر الذي أدان فيه الملوثين بالسكينة، آدان أيضا دعاة التجزئة والانفصال ، ورجال القوة من العسكر ، ولكن الى جانب هذا ، هل كان لابي سلمى الوعي الاجتماعي ، الذي يواكب مواكبة فاعلة ، الوعي الوطني ، كما كان للشاعر محمد مهدي الجواهري على سبيل المثال؟ ببساطة نستطيع ان نقول : لا . فلأبي سلمى تلقائية « الشاعر الوطني » ، فحسب ، لا رؤية ووعي « الشاعر الاجتماعي » ، ولقد وضح ذلك في مجموعته الاخيرة التي صدرت من دار الاداب ، بعنوان : « من فلسطين ريشتي » .

لنحاول في البدء ان نتعرف على أبي سلمى عبر « مقدمتين » كتبتا لمجموعته هذه ، الاولى للشاعر الكبير « بدوي الجبل » ، والثانية لشاعر المقاومة « محمود درويش » . يرى فيها الاول ان حزنها على فلسطين حزن هادىء وجيع ، « انه حزن الثاكلات لا حزن النائحات » ، والكلمة الصغيرة هذه تقليد أدبي ، لا تقييم ادبي . في حين كانت كلمة « محمود درويش » ، الغنية بجمالها وعمقها، هي الاخرى ليست تقييما ، ولكنها شهادة . تقول لابي سلمى : « انت الجذع الذي نبتت عليه أغانينا .. أفرح بك يا قطعة من وطن ترحل وتحوم على العش المحرم .. نحن امتدادك وامتداد أخويك اللذين ذهبا — ابراهيم وعبدالرحيم محمود الذي قاتل بالكلمة والجسد .. اننا ابناؤكم ... لقد كنت شاعر المقاومة قبل اكتشاف النقاد لهذا التعبير ، وقبل تحوله الى تعبير شائع ، يحدثنا آباؤنا عن ثوار فلسطين الذين كانوا يحملون سلاحين : البندقية والقصيدة . وكانت القصيدة لك . من ينسى غارتك الشجاعة على عروش الملوك ، يوم كان الشعر نديما الملوك ! من ينسى أغانيك وقذائفك اليسارية عندما كانت اليسارية مغامرة توصل الى المشانق ، وتحرم الناس من رحمة الله؟ يسمونك الشاعر المشرد، وأسميك العاشق المشرد، العشق أولا ، والشعر ثانيا . من لا يعشق لا يحسن الغناء ، ومن لا يعشق لا يحسن القتال . الحنين قد يؤدي الى التراخي ، ولكن حنينك ليس سلبيا ، ليس انهزاميا ، وليس تسلية جادة . انه حنين فعال : حنين المواطن وحنين القاتل وحنين العائد » .

لعل أول سمة تواجهنا في شعر « أبي سلمى » الاخير ، بعد ان نستثني قضيته الاساسية فلسطين الذي يدور عليها دون كلال — هي ، عشق الارض. ولكن هذا العشق يختلف عن ذلك العشق الذي تعرفنا عليه عند محمود درويش وجيله من شعراء

المقاومة . فالعشق هناك أخذ — على ضوء تطور الابداع الشعري والقصيدة الجديدة — اشكالا وصورا عديدة ، متداخلة ، وعميقة ، تداخل وعمق القصيدة نفسها . فالارض هناك هي المرأة بكل نماذجها : حبيبة ، زوجة ، ام ، اخت .. وهي الزيتون والاطفال ، وهي الاسطورة ، والحلم ، تارة . وتارة ، هي الرؤية التي تعكسها في مرايا الشعراء العاشقة .. في حين هي لدى «أبي سلمى» الارض عينها، بسيطة ، ومباشرة ، بساطة ومباشرة القصيدة التقليدية . وانما عشق الشاعر لهذه الارض وتدلهه بها يتضح — شعريا — في التغني بمظاهرها هي ، بصفاتها هي : بأشجارها وأعشابها ، بشمسها وكواكبها ، بنداها وعطورها .. بأزهارها وسواقيها .. واذا شاء ان يرمز لهذه الارض بالمرآة شأن الشعراء الجدد من الشباب ، فانما يتوقف الامر في حدود التشبيه .

السمة الثانية ، هي هذا الالحاح الحزين في الحب، الحب الذي ليس دعابة ، ولا لعبة جميلة لذيذة ، ولكنه جهد ساخن ، وتعب شاق ..

« .. كلما حاربت من أجلك .. أحببتك أكثر
كلما دافعت عن أرضك .. عود العمر يخضر
وجناحي يا فلسطين على القمة ينشر »

والشاعر لا يفرق بين « فلسطين » و« فلسطينية الاسم » ، وكأنها لم تعد اسما جغرافيا بقدر ما أصبحت « صفة » مرادفة للجمال ، ورمزا له :

« يا فلسطين الاسم الذي يوحي ويسحر
تشهد السمرة في خديك ، ان الحسن أسمر »

وكل جزء من فلسطين مقترن لا بد ، بيقظة الطبيعة الجميلة ، وهي حياة ووجود كما يراها الشاعر ، ولكنها ايضا في مواطن أخرى تقترن بالدموع ، والدم ، وهي دلالة كارثة . كما تقترن بالنار ، وهي دلالة ثورة . ولان الشاعر يرى فلسطين في دمه حيث ذهب ، فها هو يصرخ : « أنا تاريخ أمتي .. » . ولان دمه هو شعره ، فأي حروف يحمل هذا الشعر :

« أحرف من تشرد ، وحروف
داميات .. وأحرف من رماد
انما لا تزال خلف حروفي
جمرات مشبوبة الاتقاد »

ولكن هناك حروفا ربيعية ايضا شاء الشاعر أن لا يضمها ، هنا ، مع حروف التشرد والدم والثورة:

« احرفي من قطاع غزة والشاطىء
تمشي مصبوغة الاردان
من شذا برتقال يافا قوافيها
ومن سهل طولكرم المعاني »

ماذا بشأن العروبة ، والامة ، وشعبها ، وحاكميها ؟ لعل هذا الموضوع من أكثر الدوائر اتساعا في شعر « أبي سلمى » ، ولعل هذه الشجاعة أصيلة ايضا بحكم قدمها — كما اشار لذلك محمود درويش — فليس في مجموعة الشاعر الاخيرة ، قصيدة ، تخلو ، الى جانب المشاعر الوطنية ، من المشاعر القومية ، بل هي تختلط مع بعضها ، دون تفريق . ولو قلت ان هذه المشاعر شجاعة ، لانها انما تحدق في واقع الامة لتنتهي الى مواجهة حاكميها والمتحكمين في مصيرها والدائبين على مواصلة تجزئتها، وحرمانها من حق الحرية والوحدة والحياة الكريمة . ولانهم أيضا العلة الكبيرة الوحيدة — كما يرى الشاعر — في ضياع الارض ، وفي انتهاك حرمة شعبها ، وتشريده .

انه يقف في مواجهتهم وقفة صريحة وشجاعة ، ولعل هذا هو همه الاساسي ، لانه قد يثب كثيرا هذه الوثبة ، انما على حساب الشعر وقيمته الفنية . فانشاده يقترب من الحديث النثري .

من « المشردين » الى « النسر العربي » ، مرورا بالحروف الحمراء ، والبندقية ، هذه هي الدائرة الشعرية الاخرى ، في مجموعة « من فلسطين ريشتي » .

انه أمام «المشردين» حزين « حزنا هادئا » ، يضاعف أمام بصره وبصيرته صور تشتتهم ، وضياعهم ، فها هم انكرتهم حتى القبور ، وها هي شظاياهم تلفظها كل أرض ، وخيامهم جريحة لا تنقطع عن الشكوى :

« أهلي !! واين هم ؟! واين ربوعهم !!
على الزمان وجال بينهم السردى
في كل درب من شظاياهم لظى
يسم الجباه ، معفرا ومسودا »

ولكنه حين يرى انهم تركوا المشرد في العراء ، وحيدا ، يراه هو : انه لم يهن « فالسيف أمضى ما يكون مجردا » ، وها هو من الوحدة والعري، ينطلق من جديد ، فدائيا ، مقاتلا ، حاملا حروفه الحمر « صلاها تشرد وسعير » ماشيا على الجمر قويا نزاعا الى النصر ، يستوحي قوته من

« ان جيش الشعب المشرد اقسوى تشرده : من جيوش الحرير والطيلسان » وهو أقوى لان دمه « وحده يرى البطولات » ، وخطواته حين تلامس الارض ، لا تملك هذه الارض الا ان تزهر « وتهدي غلائل الريحان » .. ويأتي بعد كل هذا « النسر العربي » الذي يمد جناحيه على الكرمل واللد والرملة والمجدل والذي تناجيه يافا .. منطلقا في الذرى ليضيء دروب النجم ، كاتبا بريشه تاريخ الثورة . انه الذي تجسدت فيه الامنيات ، فهو حامل بالمنى والتحرير .. وها هو أبو سلمى العاشق المشرد مغنيا وكأنه يرى اخر المطاف :

« هذي بلادي مسحت دمعها
وابتسمت لنسرها المقبل »

فوزي كريم

David Waines, **The Unholy War: Israel and Palestine 1897-1971** (Montreal: Chateau Books, 1971).

صدرت في الاونة الاخيرة في كندا عدة كتب حول القضية الفلسطينية ألفها رجال دين . وكان من ضمنها كتاب **الارض غير المقدسة** للقس الدكتور فورست ، رئيس تحرير جريدة الاوبزرفر الناطقة بلسان الكنيسة الموحدة ، وكتاب **لمن هي أرض فلسطين** للقس الدكتور فرانك أب ، مدير دائرة دراسات النزاعات الدولية التابع لكنيسة المانونايتس . بيد ان كتاب **الحرب غير المقدسة** يشكل ظاهرة جديدة . فالكاتب استاذ في معهد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجيل وهي من اكبر جامعات كندا وأشهرها . وقدم للكتاب ماكسيم رودنسون ، المفكر اليهودي الفرنسي المشهور .

يعرض الكتاب للفترة التاريخية ١٨٩٧ — ١٩٧١ ويحدد الموضوع بالمشكلة الفلسطينية أي أنه يعتبر المسميات الاخرى كالنزاع العربي الاسرائيلي ، والنزاع العربي اليهودي ، وقضية الشرق الاوسط ، غير دقيقة ولا تعني الاطراف المعنية الحقيقيين . ويوضح الكاتب عنوان الدراسة فيقول ان الحرب التي يعنيها تعود الى فترة الخمسين سنة الممتدة منذ نشوء الحركة الصهيونية وحتى أعلان قيام دولة اسرائيل. ويحدد هدفها بأنه صراع ما بين الكيان الفلسطيني وفكرة اسرائيل . واما عدم قدسيتها فيعود الى كونها حربا غير متكافئة كانت حقوق الشعب الفلسطيني فيها دائما مهدورة. فالاستعمار البريطاني حرم على الفلسطينيين الاستقلال بينما أقر به لجميع الشعوب الاخرى الواقعة تحت الانتداب . والصهيونيون لم يعترفوا بوجود شعب ومجتمع قائم في فلسطين طوال المدة التي عملوا فيها على تحويل الارض الى مستعمرة أوروبية يهودية . أما اليوم ، فالحكومات العربية الفاشلة في احقاق السلام العادل والفاشلة في شن حرب ناجحة فيبدو أنها عازمة على منع الفلسطينيين من ممارسة الوسيلة الوحيدة المتبقية لهم لاسترداد حقوقهم — وهي الكفاح المسلح .

يقع الكتاب في ١٢ فصلا . ويتناول كل من هذه الفصول ، وبطريقة العرض التاريخي التحليلي ، حلقة من الحلقات في تطور المشكلة . فالفصلان الاول والثاني مخصصان للنظرة الصهيونية في المشكلة اليهودية وفي أرض فلسطين وشعبها . ويخرج الكاتب الى القول بأن من أسس الفكر الصهيوني الادعاء بتأصل المعاداة للسامية في نفس كل غير — يهودي . ولقد قررت هذه النظرية الى حد بعيد طريقة معاملة الصهيونيين لعرب فلسطين وطبيعة علاقاتهم مع حلفائهم . ذلك أنه بحسب هذه اللامنطقية ، أضحت كل بيئة بنظر الصهيوني معادية تكون معاملته معها على أسس استغلالية . فالصهيوني لا يعتقد بامكانية توفر حلفاء له مخلصين وحقيقيين . ولهذا ، ومن وجهة مبدئية ، اعتبر قيام تفاهم وتعاون ما بينه وبين الانسان العربي أمرا مستحيلا . ولان هذا الانسان ثار على الصهيوني المستعمر ولم يكن للصهيوني من وسيلة لاستغلال هذا الحقد لمنفعته ، كما حدث في اوروبه، لهذا توجب ان ينفي وجوده بالتخلص منه نهائيا وبممارسة اخلاقية مزدوجة . ويستعرض الكاتب في الفصل الثالث ، وهو بعنوان لعبة الامم ، سياسة الدول الكبرى تجاه فلسطين في الربع الاول

من هذا القرن . وكيف كانت هذه الدول تسكت عما تعنيه وتقول ما لا تعنيه . وكان مجمل نتيجة السياسة الدولية تكييف فلسطين وتوليتها بالاشكال التي تريدها الدول الكبرى من دون اعتبار لما يريده الفلسطينيون . واما الفصول الرابع والخامس والسادس فتتناول ردة فعل الفلسطينيين تجاه المخططات الصهيونية والانتداب وثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٨ . ونعرض في هذا المجال الى التحليل الذي يقدمه الكاتب عن ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٨ ويفسر فيه سبب فشل هذه الانتفاضة القومية في تحقيق هدفها . يقول واينز انه وبالرغم عن مشاركة جميع الفلسطينيين في الايمان بالهدف القومي،فان الفارق في الدوافع وطريقة التقييم ما بين الطبقة الفوقية والجماهير كانت أهم اسباب فشل الثورة . فالطبقة الفوقية ، ممثلة بمجموعات كعائلات الحسيني والنشاشيبي ، كان يهمها بالدرجة الاولى أن تحل قضية الاستيلاء على السلطة لصالحها . وأما الجماهير الفلسطينية فكانت، بالاضافة الى تعسف حكم الانتداب ، مدفوعة للثورة بسبب فشل قياداتها التقليدية تأمين تنازلات حقيقية من الانجليز تخفف من بؤس وشقاء الفلاحين. ولهذا فان درجة العنف التي تميزت بها ثورة الجماهير أثارت مخاوف ابناء الطبقة الفلسطينية الفوقية لانها عرضت قياداتهم للزوال . وما كان من هذه الطبقة الا ان سارعت الى تهدئة خواطر الجماهير بايهامها ان الحكومة البريطانية أضحت مستعدة لتفهم عدالة قضيتها . وبهذا تخلفت هذه الطبقة قصدا عن ترؤس الانتفاضة من اجل تحطيم الانتداب نهائيا . ويضيف الكاتب أن الفلسطينيين لم يستوعبوا مغزى هذا الدرس ، أي ضرورة الاتجاه نحو الجماهير وتعبئة طاقتها ، طوال عشرين سنة بعد النكبة والى ان ظهرت حركة الفدائيين الفلسطينيين . ويتعرض الكاتب في الفصل السابع والثامن الى الاستراتيجية الصهيونية ما بعد ثورة الفلسطينيين العرب في الاعوام ١٩٣٦ — ١٩٣٨ وحتى نهاية الانتداب . ويخصص الكاتب الفصول التاسع والعاشر والحادي عشر لحالة المشردين الفلسطينيين وأمانيهم ووضع الاقلية العربية في فلسطين بعد قيام اسرائيل . ويخلص الكاتب الى ان وجهة النظر الاسرائيلية في طبيعة العلاقة ما بين الايديولوجية الصهيونية وأية حركة ثورية عربية قد تنشأ هي علاقة صراع ينفي وجود احداهما وجود الاخر .

ويتناول الكاتب في الفصلين الاخيرين الحالة الناتجة عن حرب حزيران ، ١٩٦٧ . ويخرج في الفصل الحادي عشر الى قناعة بأن اسرائيل مدفوعة الى التوسع الجغرافي والاقتصادي بسبب العقيدة التي تمشي على خطاها . وأما في الفصل الثاني عشر ، وهو بعنوان من الحرب الى الثورة، فيتحدث واينز عن حركة الثورة الفلسطينية ويعتبرها تحديا حيا موجها ضد ايديولوجية اسرائيل القائمة على التمييز العنصري والديني . ويقول الكاتب ، عند كلامه عن فصائل الثورة ، ان قيادة الثورة اخطأت حين اعتبرت عمان هانوي الشرق الاوسط بينما تبين انها سايغون الشرق الاوسط . ويقول عن الجبهة الشعبية ان عمليات خطف الطائرات التي قامت بها كان لها الفضل في اعلاء معنويات الفلسطينيين خاصة والعرب عموما . وانه كان لها الاثر الاكبر في أوساط الفلسطينيين الفقيرة التي رحبت بهذا العمل . ويختتم واينز كتابه بالتأكيد على حقيقة اعتبرها خلفية دائمة للمشكلة الفلسطينية وهي رفض الفلسطينيين الدائم لقبول المصير الذي خطط لهم أكان ذلك من مصادر عربية او اسرائيلية او اميركية .

لكتاب **الحرب في المقدسة** ميزات عدة اهمها ثلاث، أولها الفهم العميق والدقيق للقضية الفلسطينية والالمام بها من جميع جوانبها . وقلما نجد كتابا ، وخاصة لاجانب ، يتوفر لصاحبه مثل هذه المعرفة. وأما الموضوعية والتجرد فهو ميزة الكتاب الثانية . فواينز لم يؤخذ كالكثيرين غيره بما قيل او كتب عن القضية الفلسطينية ولكنه جعلها موضع بحث مركز وجاء بنفسه عدة مرات الى الشرق الاوسط ليرقب على الطبيعة القوى المتصارعة في هذا النزاع . واما الميزة الثالثة فهي في الاسلوب الذي يتبعه واينز . فدراسته تقدم تحليلا شاملا ومتكاملا وبطريقة العرض التاريخي التحليلي الذي لا يتوقف عند الارقام والحقائق فقط بل يتعداها الى حقل التجريد والنظرية فيظهر العلاقة ما بين الاحداث ويعطيها معنى ومغزى . ويقول رودنسون في المقدمة ان اقل ما سيساهم به هذا الكتاب هو تعبيدالارض لدحض معتقدات قديمة وخاطئة ، واشعال شرارة الشك التي تحرر الانسان من مفاهيمه الخاطئة ، واقناع العقول المتفتحة لتقبل الحقيقة .

هاني فارس

Kibbutz bewegung (Hersg.), Gespräche mit israelischen Soldaten (Frankfurt A. M., Melzer, 1970)

جاء كتاب حركة الكيبوتس حول « احاديث مع جنود اسرائيليين » نتيجة حلقة واسعة من الاحاديث جمعها اثنا عشر شخصا ، لا يتعدى عمر اكبرهم خمسا وثلاثين سنة ، كما شارك معظمهم في حرب الايام الستة ، ومن سماتهم الاساسية نشوءهم جميعا في الكيبوتس واشتراكهم سابقا في حركات الشباب .. جمعهم اختبارهم الشخصي اثر حرب حزيران واستحسنوا معرفة تجربة واراء زملائهم . وفي خريف عام ١٩٦٧ وشتاء ١٩٦٨ توزعوا على حوالي عشرين كيبوتسا يناقشون ويسجلون اراء نماذج من الشباب هناك . كما عقدوا بعد انتهاء التجوال لقاءات مع شباب من عدة كيبوتسات . بالرغم من ان العنوان باللغة الالمانية هو « احاديث مع جنود اسرائيليين » ، الا ان الكتاب بالاحرى احاديث مع نماذج من اعضاء الكيبوتسات الذين شاركوا في العدوان ومنهم بعض الشابات . نشر الكتاب عام ١٩٦٨ باللغة العبرية وصدر عام ١٩٧٠ باللغة الالمانية . لم تدون في الكتاب كامل الاحاديث كما جزئت هذه الاحاديث ووزعت حسب المواضيع وليس حسب اللقاء . ويؤكد لنا الناشر الالماني انه حذف بدوره بعض التكرار دون المساس بالفحوى لعدم انسجامها مع المزاج الاوروبي .

هدف فريق الاستقصاء الى معرفة ردود فعل جنود الاحتياط حين جرى استدعاؤهم للخدمة وخلال اسبوعي الانتظار وخلال المعارك وبعد صرفهم من الخدمة ، وكذلك الى معرفة تأثير الحرب عليهم ونظرتهم وخبرتهم الى الجنود والسكان العرب ومعرفة رأيهم اخيرا حول امكانية السلم . ومبعث كل هذه الاستقصاءات معرفة مدى تأثير الحرب على مستقبل شباب الكيبوتس وخصوصا ان هذه الحرب بالرغم من سرعتها كانت شديدة الوطء على مجتمع الكيبوتس اذ فقد ٢٠٠ جندي حسب الاحصاءات بينما لا يمثل رجال الكيبوتس الا ٤ من المائة من مجموع الجيش الاسرائيلي خلال التعبئة العامة .

تؤكد المقدمة ان نسبة الضباط من افراد الكيبوتس تفوق نسبة عددهم في الجيش ، ويتضح لنا من خلال المعلومات التي اعطيت من ٣٨ مستجوبا في اربعة عشر كيبوتسا وجود ٢٤ ضابطا (من عدد لا بأس به برتبة عقيد) مع العلم ان الاكبر سنا لا يفوق عمره ٣٧ سنة . واذا كانت هذه العينة تمثل حقيقة الانتساب العسكري للكيبوتسات ، فتكون اذا فئة الضباط المسيطرة عدديا من الكيبوتس . ظل عدد قليل منهم في الخدمة الفعلية واما الباقون فرجعوا الى ممارسة اعمالهم ونشاطاتهم السابقة : العمل في الزراعة او الصناعة الملحقة بالكيبوتس او العمل كمربين او كمسؤولين اداريين في الكيبوتس . كما أن قسما كبيرا من هؤلاء الافراد ينشطون كرواد شباب . يتضح من كلام الجنود ثقتهم التامة بالجيش الاسرائيلي واعداده لهم لكل الظروف . اوجد التدريب آلية في حركة الجندي تستمد ايضا انضباطها من الثقة الكاملة بالتخطيط العسكري وتوفر احدث الاسلحة . كما يشعر الفرد بثقة كبيرة تجاه قائده ويدرك هذا الاخير واجب القتال على رأس رجاله. ويوجد هناك علاقة حميمة بين الضباط والجنود لجيئهم من نفس المنطقة وكونهم من نفس فئة العمر، اذ يعرف بعضهم بعضا منذ خدمة العلم ويلتقون دائما في الحياة العادية . خلال المعارك تتقدم الوحدات المكونة من الشباب وبعد احتلال المواقع تأخذ مكانها وحدات من الجنود الكبار نسبيا في العمر (بين ٤٠ و٥٥ سنة) . يشعر الجندي من الكيبوتس خلال المعارك بالطمأنينة من أن مجتمع الكيبوتس سيتعهد بأهله واولاده . ويكون مجتمع الكيبوتس في نفس الوقت رقيبا على الجندي . يحاسبه معنويا عند عودته ويطلب منه الصمود والبطولات والا واجه النبذ ، كما أن افتخار الكبار ببطولاتهم في الحروب السابقة ولد لدى الشباب الجدد معيارا وتشبها وحافزا لهم على الشجاعة . يظهر من اقوال افراد الكيبوتس افتخارا بأنتسابهم الاجتماعي ، يجعلهم يشعرون بتمييز عن غيرهم من سكان المدن او الفلاحين العاديين الذين لا يجدون لديهم نفس المثل التي يتحلون بها . وبالرغم من اتفاق المستجوبين على « حسن » سلوك الجيش الاسرائيلي في الاراضي المحتلة الا انهم يلومون غيرهم خصوصا اليهود الشرقيين على سلب السكان واظهار القسوة

تجاههم دون مبرر . كما يؤكدون هرب بعض هؤلاء خلال المعارك .

لا تنحصر خطورة التعبئة العامة في خفض الانتاج عامة ، بل أيضا في ترك جنود الاحتياط لكثير من المشاكل المعلقة في محيط بيتهم واعمالهم بسبب سرعة الالتحاق،فهم لا يتذمرون من هذه التعبئة بل من اطالة وقت تجنيدهم. انحدرت معنويات الجيش مع اطالة الانتظار وكانت الحرب متنفسا لهم ، مدركين معها ان الانتصار أمر محققنتيجةاستيعابهم لقوة وإستراتيجية الجيش الاسرائيلي . ويسعى الجنود الى اظهار ليبرالية وعطف على السكان العرب ولكن يتضح لنا ان التعبئة القومية والنفسية تكذب هذه الصورة . فلقد نظروا باحتقار الى السكان العرب فهم باعتقادهم بدائيون وينظرون الى اي مقاومة عربية كعمل همجي . كما وطدت الدعاية الداخلية حقدا فرديا لديهم ضد الدول العربية خصوصا مصر وسوريا ، مدعية تعذيب الدولتين للاسرى الاسرائيليين . ولا تكتفي اسرائيل بحقن الاجيال الصاعدة بالتعبئة القومية ، الصهيونية ، اي حق اليهود بأرض « اسرائيل »، بل تسعى الى اذكاء العداء الفردي ، وتخيفهم بوهم الفناء الجماعي .

أكدت جميع الاقوال ان التربية الصهيونية اعمق مما كانوا يتصورونها ، رفض قسم منهم قبل ١٩٦٧ الانتساب الصهيوني ، ولكنهم وجدوا انفسهم خلال الحرب وبعدها غير متناقضين معها . لقد كانت الصهيونية متأصلة في وجدانهم،ليس هناك انفصال بين الجيل الجديد والصهيونية لكن هناك بعض الانفصال بين هذا الجيل وجيل السياسيين الشيوخ المتلهين بالحرتقات المنقسمين شكليا فيما بينهم ، وليس التفكير الليبرالي هو الذي حرك هذا النفور لدى عامة الشباب بل التربية العسكرية في الجيش الاسرائيلي ، هذا الجيش المرتفع فوق خلافات الشيوخ المجدد نفسه دائما . ونستطيع الاستنتاج ان الانتساب الى اسرائيل ياتي لدى هؤلاء الشباب من خلال الانتساب للجيش الذي بدوره يجسد حركية العقيدة الصهيونية .

بالرغم من الجذور الصهيونية والاستعلائية لدى هؤلاء الشباب نجد ان منظر اللاجئين الجدد والقدامى يؤثر على معنوياتهم ، خصوصا مشاهدتهم للاجئين في مخيمات غزة ، وحيث تعرف المجموعات والافراد بأسماء مناطقهم الاصلية مثل بئر السبع وعسقلان. لم تستطع التربية الصهيونية أن تطمس فيهم حقيقة حق عرب فلسطين بأرضهم. فهم يتهمون الدول العربية بابقاء امال العودة لدى الفلسطينيين، لكنهم يعترفون في نفس الوقت بحق هؤلاء بالارض، بل ترتفع بعض الاصوات من بين المستجوبين تقول بحقهم في العودة والعيش مع اليهود . ان طرد اللاجئين وخز ضمير الكثير منهم . الا انهم يسعون عن طريق القوة الى اخفائه من تفكيرهم اليومي، لكنه موجود في وجدانهم واخذ ابعادا جديدة مع احتلال الضفة الغربية وغزة . ولذا لا يؤمن معظمهم بامكانية تحقيق سلام مع العرب . يرجع بعضهم هذا الادراك الى المنطق والبعض الاخر الى الحدس، وكلاهما يمثلان اقتناع الاسرائيليين باقتراف ذنب تجاه العرب وما يسمونه بمأساة الصهيونية ، وما تتطلب هذه المأساة من اظهار القوة واخضاع العرب وتوسيع رقعة الارض لزيادة المقدرة البشرية والانتاجية والعسكرية . ويأخذ لدى بعض الافراد الصراع الدموي مع العرب صورة قانون طبيعي يتجدد كل عشر سنين (١٩٢١ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧) . وهم يفضلون حربا كل عشر سنين من سلام يمتد الى عشرين سنة . وهم مستعدون للتخلي عن الاراضي المحتلة باستثناء القدس وقسم من الجولان . ولكنهم يدركون في نفس الوقت ان هذا التراجع لن يحقق لهم السلام، فالقوة وحدها تحقق شعورا بالامن. وهم بالرغم من تفاؤلهم بقوتهم متشائمون من ازدياد عسكرة حياتهم وزيف الكثير من قيمهم الانسانية .

نبيل بدران

Michael Elkins, **Forged in Fury**
(New York : Balantine Books, 1971).

الكتاب الذي بين ايدينا سرد يستحوذ على الذهن لقصة المقاومة اليهودية خلال الحرب العالمية الثانية ، وعن التعسر الذي واجهته ولادة هذه المقاومة في حارات اليهود في المانية وبولنده وفي معسكرات الاعتقال النازية ، وذلك رغم كل العراقيل التي كانت تبدو مستحيلة التجاوز . ففي اسلوب يتسم بالوضوح والحدة ، وغالبا ما تشوبه المرارة والسخرية ، يصف لنا مايكل ايلكنز الرعب في معسكرات الموت ، ويحدثنا انه بعد أن سيق ملايين اليهود « كالنعاج الى المسلخ » هب نفر قليل من الشبيبة اليهود العزل والذين كانت تنقصهم الخبرة من « حارة كوننو » قرب الحدود البروسية وعقدوا العزم على تنظيم « نوع من المقاومة كتعبير عن كرامتهم كبشر ... » ، ومن ثم ينتقل ايلكنز ، بتفاصيل اخاذة ، الى وصف بناء المقاومة المضني وانتشارها في الحارات المعزولة ، والى الحديث عن المشاكل التي واجهتها ليس فقط في تضليل النازيين وخداعهم ، ولكن ايضا في اقناع « الشعب اليهودي » المهدد بالفناء بالسير في خطى ذلك النفر من اليهود الذين باتوا مقتنعين بأنه ما دام جميع اليهود سيفنون حتما ، فمن الافضل لهم ان يموتوا في ساحة الكفاح . وبعد ذلك ينتقل الى استعراض الانشقاق بين الزعماء اليهود الذي كانوا يؤمنون بـ «المقاومة البيضاء» التي كانت تهدف الى المحافظة على حياة اليهود، وبين أنصار « المقاومة السوداء » الذين كانوا يؤمنون بالمقاومة النشطة والعنيفة . ويشير الى ان انصار « المقاومة البيضاء » كانوا مرارا يسألون انصار « المقاومة السوداء » : « انكم تطلبون منا ان نضحي بأنفسنا ، ولكن هل تريدوننا ان نموت جميعا لانكم تعلمون وتتمنون ان تموتوا أبطالا ؟ » ثم يسألون السؤال الذي لا جواب له : من نصبكم قادة علينا ؟ ولكن الالمان هم الذين اجابوا على هذا السؤال . ففي اليوم الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ ، بعد أن أبعد الالمان فوجا جديدا من النفي يهودي الى بونار ، بعث قادة « المقاومة السوداء » بنشرة الى شباب وشابات « المقاومة البيضاء » أدت الى حدوث انشقاق في صفوفهم بشكل ، مال معه الميزان لصالح المقاومة المسلحة . فقد كانت تلك النشرة تهدف الى تبديد الوهم لدى اولئك اليهود الذين كانوا لا يزالون متشبثين بالاعتقاد ، او الامل ، او خداع النفس ، بأن ما يسميه الالمان معسكرات « الاستيطان » و « العمل » ليست في الواقع الا معسكرات للموت ، وتقول النشرة: «ايها الشباب اليهود ، لا تصدقوا اولئك الذين يحاولون خداعكم ... فجميع طرق الجستابو تؤدي الى بونار ، وبونار تعني الموت . وجميع الذين يتم اخراجهم من الحارات لن يعودوا اليها ابدا ... » ولقد كان هذا الانشقاق في الحركة بداية المقاومة المسلحة في حارة فيلنا وبداية « سلسلة متصاعدة لا تنتهي من اعمال الانتقام . » ويشير مايكل ايلكنز الى ان « البندقية » هي من اولى متطلبات المقاومة المسلحة ، ولكن كيف يمكن ان يتسنى ليهود الحارات الحصول عليها ؟ نعم ، لقد تمكنوا من ذلك ، بمختلف السبل الشريفة وغير الشريفة، فقد كانوا يسرقون ليشتروا ، ويسرقون الاموال والجواهر من آبائهم وامهاتهم ، ولما تنفد النقود يسرقون كل ما تقع ايديهم عليه ، كما كانوا يسرقون من المصانع الالمانية التي كانت تسترق اليهود،كل ما كانوا يتمكنون من اخراجه من المصنع الى السوق السوداء ليستبدلوه بالبنادق . أما بالنسبة لتهريب هذه البنادق الى الحارات فقد « كانت البنات احيانا يخبئن البنادق بين سيقانهن وهن في طريقهن الى خارج المصنع » . وبالنسبة للتدريب ، كانت لديهم الاسلحة ولكن كانت تنقصهم معرفة استخدامها،لذلك كانوا يعمدون الى انتزاع بعض الصفحات من الكتب التي تتحدث عن استخدام المسدس والبندقية . وكانوا ينسخون هذه الصفحات ويوزعونها على الوحدات المقاتلة. كما كانوا يدرسون الكيمياء مما ساعدهم على صنع قنابل بيتية ، وكذلك صنعوا الغاما استخدموها في تفجير العربات المارة ، وصنعوا «قنبلة الجيتو» وهي عبارة عن علبة من التنك مملوءة بالبراغي وملفوفة باحكام حول مادة متفجرة متصلة بصاعق ليفرقعها . هكذا ، وبهذه « الخردة » انطلق يهود الحارات في مقاومتهم للجيش الالماني . فقد كانوا ينصبون له الكمائن ، وينسفون خطوط سكة الحديد

ومستودعات الذخيرة ، ويلقون بالقنابل علـى الضباط الالمان في حانات شرب البيرة ، وينظمون عمليات الهرب من السجون ، والانتفاضات الكبيرة في معسكرات الموت . ولقد كان الانتقام سريعـا ومحزنا في الوقت نفسه . وواجهت المقاومة مقاومة من الجالية اليهودية نفسها التـي كانت تتهـم عناصرها بأنهم « جزارو اطفالها » لذلك كانت هناك وشايات ، فقد كانت اسماء رجال المقاومة تتسرب الى أيدي الالمان تحت التعذيب أو بسبب الخوف او الجبن او الامل « في ما كان يدرك المقاتلون انه ليس سوى توهم في أمل لا أمل منه » ، وذلك عن طريق اولئك اليهود الذين كانوا على استعـداد للحصول على ساعة اضافية من الحياة في مقابل حياة « مقاتل أسود » . وعلى الرغم من أن حركة المقاومة بذلت جهودا جبارة ومنظمة لاقناع مئات الالاف من اليهودفي الحارات للانضمام الى صفوفها، الا أنها بقيت أقلية . ولم يدرك المتحزبون اليهود الحاجة الماسة لرص صفوفهم لكي يصبحوا الناطقين بأسم اليهـود في فترة ما بعد الحـرب ، الا في العام ١٩٤٤ عندما تم دحر الجيش الالماني النازي الى حدود بولنده ورومانية . وما أن وضعت الحرب اوزارها حتى بدأ نوع جديد من «المقاومة» لا يزال مستمرا حتى يومنا هذا لكي « يثأر لليهود وتنفذ احكام اليهود في جزاريهم . » فقد قامت مجموعة من ٥٤ يهوديا من اولئك الذين اشتركوا في المقاومة ضد النازية وشهدوا او عانوا من رعب المعسكرات بتشكيل منظمة سرية اطلق عليها اسم « دن » ، وهي عبارة عن الاحرف الاولى للشعار العبري : سيأخذ دم اسرائيل بثأره . ونشاط « دن » اختصاصي ويغطي مختلف انحاء العالم من أجل البحث عن الضباط النازيين الذين تمكنوا من الهرب عندما هزمت المانية ، او افلتوا من عقاب الحلفاء الذين تخلوا عن سياستهم الاولى «بالاعدام السريع للزعماء النازيين»وذلك لاستبدالها بسياسة معتدلة ، ومن ثم العفو التام ، وبعد القبض على هؤلاء الضباط يتم اعدامهم . ويحلم رجال « دن » بـ « ثأر يتناسب والاساءة التـي ارتكبت بحق اليهود . » ففي شتاء ١٩٤٥ قرروا تسميم الخزانات التي تمد حوالي مليون الماني بمياه الشرب « مسببين الموت في اللحظة التي يدار فيها الصنبور » . ولكن الهاجاناه عرقلت تنفيذ الخطة على اعتبار أنها عمل غير شريف ، له نتائج خطيرة على « الشعب » اليهودي ومضاعفات قاضيـة على اليهود في جميع انحاء العالم . وهكذا وشت الهاجاناه بزعيم هذه المنظمة المدعو مالاكي والد للبريطانيين . وفي غضون ذلك ، وبينما كان والد يقضي ايامه بأمان وراء قضبان سجن بريطاني ، عملت الهاجاناه على تشجيع الافراد الاخرين من المنظمة على الهجرة الى فلسطين للالتحاق بالمنظمات السرية هناك للعمل على طرد البريطانيين مـن فلسطين وللتحضير للمواجهة المحتومة مع العرب بعد تأسيس الدولة . وهكذا بدأ رجال « دن » يتوافدون على فلسطين ، ولكنهم أبوا ان يتركوا اوروبه قبل تنفيذ ولو عمل واحد من اعمال الانتقام الجماعي ، فقد سمموا الخبز لمجلس القيـادة المشتركة للحلفاء خارج نورمبرج حيث كان سيتقدم لما يزيد على ٨ آلاف من رجال « الصاعقة » الالمانية المعتقلين هناك ينتظرون المحاكمة . وقد تسبب ذلك في « موت ما يزيد على ٧٠٠ من رجال الصاعقة ، واصابة حوالي ألف بأمراض خطيرة ، عدد كبير منهم كان على وشك الموت . » وفي سنة واحدة من حياة « دن » « مـات ألف شخـص بسبب صليبيتهم السوداء في المانيه والنمسه . » وفيما بعد التحق عناصر « دن » بعصابات الهاجانـاه التخريبية التي كانت مهمتها « التدخل » في نشاطات البعثات العربية لشراء الاسلحة . فكثيرا ما خطفت العصابة وضربت و« أحيانا قتلت » رجال هـذه البعثات . « واولئك الذين كانوا يبيعونهم كانوا يعاملون بطريقة مماثلة ، فقد كان يتم تخريب او نسف شاحناتهم ، وتحطيم مستودعاتهم وحرقها ، وكذلك اغراق سفنهم المحملة بالاسلحة . » وفي ١٩٥٢ استأنفت « دن » نشاطاتها بملاحقة النازيين وقتلهم . ويقول ايلكنز : « حيثما كان ممكنا او مفيدا ، كانت عمليات القتل التي يقوم بها رجال « دن » تنفذ بشكل وكأنها « موت طبيعي » او « نتيجة لحادث ما » او حتـى « انتحارا » . وفي هذه الفترة تمت «تصفية» حوالي أربعين نازيا، كما استمرت مطاردة مئات آخرين. و«دن» هي التي عثرت على ادولف ايخمان في بيونس ايرس وسلمته الى سلطات الامن الاسرائيلية . ويذكر ايلكنز انه في نيسان (ابريل) من العام ١٩٦٧ اعترف الدكتور اوالبرت راكيلر ، المدعي العام في المانيه الغربية ، بأن « اقل من ١٠ بالمئة فقط من مجموع المجرمين النازيين المعروفين والذين لا يزالون احيـاء قد

تدموا للمحاكمة . » ولكن عمل « دن » لا يزال في بدايته ...

وهنا لا بد من الاشارة الى ان كتاب ايلكنز يفرض علينا مقارنة الحالة التي كان يعيشها اليهود في اوروبه بالحالة التي يعاني منها الفلسطينيون في الوقت الحاضر ، وذلك لانه من مأساة اولئك اليهود ولدت مأساة فلسطين ونشب النزاع العربي — الاسرائيلي الذي يظهر وكأن لا نهاية له . ويعلق ايلكنز على التصويت على قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الجمعية العمومية للامم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين الى دولة عربية واخرى يهودية : « لقد ساهمت عوامل عدة في نتيجة التصويت ، ولكن النقاش الطويل الذي سبق ذلك يقدم دليلا كافيا على ان الجمعية العمومية اتخذت هذا القرار كتعبير عن الندم ، على الاقل . » ويعرب ايلكنز عن أسفه لعدم قيام اي من الدول الغربية بعد الحرب بفتح ابوابها لاعداد كبيرة من اليهود ، رغم علمها بالرعب الذي عانوا منه في المانيه ، ويقول : « في ١٩٤٥ ، تمكنت جيوش الامم المتحدة من تحرير اليهود الجائعين من معسكرات الموت ومعسكرات الاسترقاق ، ولمت بعضهم من الغابات ومجارير الحارات ، وحررتهم وجمعتهم وجعلتهم يرون شعاع المستقبل الذي ينتظرهم في العالم الحر الجديد — معسكرات اضافية ، ومعسكرات جديدة ... حيث كانوا يحصلون على الغذاء والملبس والعناية الطبية ، ويتزاوجون وينجبون الاطفال ، بعد ان كان من المتوقع ان يموتوا جميعهم . »

ولكن هل صحيح ان المنظمة الصهيونية العالمية كانت تتمنى ان يجد بقية اليهود بيوتا مفتوحة في بلدان صديقة حيث يتمكنون من الاستيطان بكل هدوء بل وربما ينصهرون ولا يتعلمون الشعار الصهيوني حول « العودة الخالدة » و« العودة الى صهيون »، اي ان على اليهود ان يذهبوا الى «ارض الميعاد»، الى فلسطين ؟ صحيح ، يمكن ان نفهم ان كون ايلكنز يهوديا جعل عاطفته كلها الى جانب اليهود ، ولكن الى الحد الذي يرفض فيه ايلكنز ان يرى الحيف الذي لحق بالفلسطينيين بسبب « فعل الندامة » الذي قامت به الامم المتحدة ، مما وضع بداية لسلسلة من المعاناة و« التعفن » في المخيمات للفلسطينيين الذين لم يكن لهم أي دور على الاطلاق في اضطهاد اليهود . يمكننا ايضا ان نفهم سبب المرارة التي يشعر بها ايلكنز تجاه لامبالاة العالم نحو اليهود ، ولكن مرارته تضيع في متاهات خيالاته عندما يتهم بريطانيه بأنها « محرضة فعالة على عدوان العرب » وان « الامم المتحدة لعبت دورا أكثر سلبية ولكنه بالخساسة نفسها » وان « الدول الاعضاء اظهرت ان التصويت كان مجرد طقس لطرد شبح الاموات من اليهود ولتهدئة الضمير المضطرب للعالم عن طريق تعويذات خالية من اي معنى او هدف . » وكذلك عندما يتحدث ايلكنز عن « عدوان العرب » في ١٩٤٨ يتجاهل حقيقة كون الفلسطينيين الذين خاضوا غمار الحرب هم الشعب الذي عاش في تلك البلاد منذ اجيال لا تحصى ، وكانت تشدهم روابط عضوية بالبلاد كالصخور التي شيدت عليها المدن والقرى . ولقد كان الفلسطينيون دون أية مساعدة من بريطانيه او اية دولة غربية اخرى ، يحاولون يائسين ، وبدون اية فعالية ، كما ظهر فيما بعد ، مقاومة قرار الدول الغربية اجتثاثهم لفسح المجال لليهود ليسكنوا مكانهم . وانه لامر غريب حقا ان لا يرى ايلكنز جريمة ومهزلة السياسة الصهيونية في فلسطين ، او ان لا يحس بالخطر الناجم عنها . ويساهم اليهود بشكل أعمى، بمساعدة أولئك الذين اضطهدوهم ، على خلق دولة شعبها يعيش حالة من اليأس كالتي كان يعاني منها اليهود في أوروبه خلال الحرب العالمية الثانية ، وكل ذلك على انقاض أمن الوطن الذي اقتلع منه الفلسطينيون . والفلسطينيون اليوم يناضلون وحيدين من اجل البقاء كما كان اليهود في اوروبه ، ولكن الجميع خانوهم او تخلوا عن مساعدتهم ، بما في ذلك بعض « اخوانهم العرب » . وهم اي الفلسطينيون ايضا ايقنوا « أن لا أحد يهب لنجدة من لا يحسن الدفاع عن نفسه» وان «لا دولة، اية دولة،تتحرك ضميريا او بحسن النية اوبالاستغاثة المدوية » بسبب حالتهم . وفي نهاية الكتاب يقول ايلكنز : « ان الرجال الذين يحرم عليهم التمتع بالعدالة ، يأخذون منها قدر ما يمكن ان تصل اليه ايديهم وبأي اسلوب ممكن . نعم ، جميع الرجال ، بما في ذلك اليهود . » وهكذا فان النتيجة المؤسفة التي يمكن للمرء ان يخلص اليها عند انتهائه من قراءة الكتاب هي ان الرجال ، جميع الرجال ، بما في ذلك اليهود ، لا يتعظون بعبر الماضي .

ايرين بيسون

Ehud Yarri, **Strike Terror: The Story of Fateh**
(New York: Sabra Books, American-Israel Publishing Co., 1970).

يعالج هذا الكتاب ، الذي صدر أولا بالعبرية في القدس ثم ترجم الى الانجليزيـة ، تاريخ حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) بشكل خاص وحركة المقاومة الفلسطينية بشكل عام حتى صيف ١٩٧٠ ، فيعرض لكيفية نشوء فتح ، وكيف كانت منظمة سرية ، ومـن هم زعماؤها ، وما هـي عقيدتهم ، ومن هو ياسر عرفات ، وما هو نوع التحالف الذي تام بين الحـركة وسـوريا ، وكيف « نشلت الثورة الشعبيـة المسلحة في الضفـة الغربية بعد حرب حزيران » ، كما يعرض لانقسام الحركة الفلسطينية وتناقضها مع النظام الاردني وعلاقات فتح مع الدول العربية والعمليات العسكرية للمقاومة . ويفترض أن يكون الكتاب من تأليف يهود يعاري ، مراسل صحيفة دفار للشؤون العربية ، لكن يد المخابرات تبـدو واضحة جلية مـن بين سطوره ، اذ لا يفشل الكتاب في أن يعطي للقارىء منذ الصفحات الاولى انطباعا قويا بأنه مبني على تقارير المخابرات الاسرائيلية . ولا يجـد الكاتب مناصا من الاعتراف مداورة بهذهالحقيقة ، فيقول في المقدمة انه وجد السبيل الى المعلومات المتجمعة في مؤسسات اسرائيلية مختلفة.وهو الى ذلك يغني نفسه حرج اثبات مصادره بالقول ان في ذلك حملا ثقيلا على القارىء يقطع تواصل الكتاب (ص ٨). ونحن هنا لن نتطوع لاسداء خدمة ثمينة للمخابرات الاسرائيلية فنبين لها أين أخطأت في معلوماتها وأين حالفها الصواب ، كل ما يهمنا هو تبين المنطق الذي يعالج به الكتاب موضوعه ، وعرض الكيفية التي يرى بها العدو بعض جوانب المقاومة .

يعرض الكتاب تاريخ فتح وكأنه مؤامرة كبيرة متشعبة الجوانب متعددة الاطراف تتصارع فيها قوى مبهمة غامضة ، وتتحاور فيها الارادات وتتقاطع وتمتحن الصلابات لتعود فتمتحن من جديد لتقوم هي بدورها بامتحان صلابة الاخرين . وهكذا حتى يخرج المرء بصورة مؤداها أن مؤسسي فتح جماعة من الدهاة القساة ذوي الانياب الزرقاء يتمتعون بارادات صلبة وطموحات مثالية لفرط لامحدوديتهـا ، وأن نمو الحركة واتساعها يعود الى مقدرة دهاتهـا على النفاذ من ثغرات مؤامرات الاخرين مـن انظمة وأحزاب وحركات سياسية عربية . ويكاد المرء يظن لذلك أن الكتاب انما وضع نصب عينيه اثارة الاعجاب بذكاء ودهـاء ومقدرة وربما خبث فتح وقادتها ، لولا ان لهذا العرض اللاتاريخي هدف آخر . ذلك ان عرض الحركة الوطنية الفلسطينية، التي لم يعد بوسع اسرائيل انكارها ، من منظور المؤامرة يساهم في طمس حقيقة ان هذه الحركة نتاج لعملية تاريخية تجد جذورها في الاغتصاب الصهيوني لفلسطين والقهر القومي الذي أوقعته الصهيونية بشعبها . هذا بالاضافة الى ان هذا السياق يسهل أمر المطابقة ما بين التآمر والارهاب والمتآمرين والارهابيين ، فيصبح الصاق تهمـة الارهابية بالحركة الفلسطينية مجرد نتيجة منطقية جدا . والطريف في الامـر أن الكتاب من هـذه الزاوية يصدق فيه ما يقوله هو في الفكر السياسي العربي : « لقد كانت الفلسفة السياسية العربية، لسنوات عدة حتى الان ، خاضعة لنظرية المؤامرة التي تقول انه ليس هناك من شيء يحدث كنتيجة مباشرة لعمليات سياسية طبيعية » (ص ٣٠٩) . وعلى الرغم من ان الكتاب يبدأ في فصوله الاولى باتباع اسلوب مشوق يعتمد الحبكة القصصية ، الا انه في فصوله الاخيرة يفقد عنصر التشويق ، ويتحول الى مناقشة لعدد من القضايا بطريقة يغلب عليها التعثر والارتباك الى حد اثارة الملل . وفي الفصل الذي يحمل عنوان « عقيدة مصطفى خميس » نواجه مثالا نموذجيا على الاسفاف الدعاوي ، ومصطفى خميس هذا ، طبقا للكتاب ، قائد فدائي من غير فتح وقع فيالاسر وهناك كتب وثيقة سياسية يتجشم الكتاب عناء ايرادها كاملة.وهذه «الوثيقة» الطويلة المبتذلـة تبدأ بالاسف للعـداء العربـي الاسرائيلي والتأسي عليه لتنتهي بمناشدة اسرائيل مساعدة الفلسطينيين في محنتهم ، كما ساعدت شعوبا أخرى في افريقيا ، والسماح لهم باقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربيـة . ولا ينسى الكتاب بعد ذلك أن يحمل تصلب الحركة الفلسطينية مسؤولية ضياع فرصة مثل هذا الحل « المعقول ». ومع ذلك ، نستطيع ان نستشف من الكتاب بعض اللمحات عن الكيفية التي ينظر بهاالعدو للمقاومة. فمثلا يعترف الكتاب للمقاومة بقدر من الفعالية العسكرية ، فهو يقول « تقز النشاط الارهابي من

ثلاثين عملية في الشهر خلال فترة الكرامة الى ثلاثين عملية او اكثر في اليوم في بداية العام ١٩٧٠ . وقد القى ازدياد النشاط التخريبي على اسرائيل بعبء ثقيل ، اذ رفع عدد الاصابات وضيّق على موارد اسرائيل المالية وتسبب في اطالة امد الخدمة العسكرية النظامية والاحتياطية وفي صعوبات أخرى لا تنتهي » (ص ٣٦٢) . ويورد الجدول التالي عن العمليات العسكرية للمقاومة (ص ٣٦٧) :

القطاع		عدد العمليات حتى نهاية ١٩٦٨	مجموع العمليات حتى نهاية ١٩٦٩
الاردن :		٩٨١	٣٤٢٥
	سهل بيسان	٤٩٥	١٥٠٧
	غور الاردن	٣٩١	١٦٦٥
	وادي عربة	٩٥	٢٥٣
لبنان		٥٩	١٨٤
مرتفعات الجولان		٨٢	٣٤٦

ويلاحظ في الجدول غياب الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهذا الامر ليس صدفة ، فالكتاب يحاول ان يعطي انطباعا بأن المقاومة تقتصر فحسب على عمليات الاغارة من خارج الارض المحتلة . اذ يفرد الكتاب فصلا كاملا يؤكد فيه « فشل الثورة الشعبية المسلحة في الضفة الغربية » ، وهو يعزو هذا الفشل الى ان الكوادر التي دخلت الضفة الغربية بعد حزيران كانت غريبة عن المنطقة وغير متجذرة فيها ، والى ان عمليات الاعداد للثورة كانت متسرعة ، وهو يشبه الثورة المسلحة ببناء ذي ثلاث طبقات ، الاولى منها هي المقاومة السلبية والثانية هي المقاومة السياسية والثالثة هي « التخريب » ، ويخلص الى القول ان المقاومة بدأت ببناء الطابق الاخير دون ان تبني ما قبله .

ويجد الكتاب ان اللياقة تفرض عليه الاعتراف بفضل الملك حسين ونظامه على اسرائيل . فقد القى النظام الاردني القبض على مجموعة من فدائيي فتح عملت منطلقة من جبال الخليل من كانون الثاني الى آذار ١٩٦٥ ، « واصدر الملك حسين اوامره لرجاله بأن يتصدوا بحزم للارهابيين والمتعاونين معهم » (ص ٦٧) ، وقاد الحملة ضد الارهابيين اللواء محمد رسول الكيلاني ، رئيس مخابرات حسين القوي القادر ، واللواء راضي العبدالله ، مدير الامن العام ، واللواء محمد احمد سليم القائد العسكري للضفة الغربية » (ص ٦٨) ، وطوال السنوات الثلاث التي سبقت حرب حزيران « حارب الملكحسين فتح واخواتها بقبضة من حديد ، قبضة يشكل البدو قوتها الدائمة والمخابرات الفعالة عضلاتها المحركة . ولكن وفي ١ حزيران ١٩٦٧ ، غطيت القبضة الحديدية بقفاز ناعم لم تخرج منه الا في صيف ١٩٧٠ المصيري عندما تسنمت السلطة الحكومة العسكرية » (ص ٢٣٦) .

ولا يخلو الكتاب من الافتراءات الرخيصة . فعبد القادر الحسيني قتل عام ١٩٤٨ « بينما كان يصعد جبل القسطل وحيدا » (ص ١٥) ، وجماعة القسام « جندت صعاليك القرى الشرسين » (ص٤١) ، والهجومات الفردية التي كان يقوم بها الفلسطينيون بعد العام ١٩٤٨ لم تكن تعبيرا عن مقاومة الشعب الفلسطيني بل كان هدفها القتل والنهب فحسب . « ورواد فتح الاوائل امثال احمد موسى وجلال كعوش ومحمود بكر حجازي ليسوا ، في مواضع متعددة من الكتاب ، أكثر من مجرمين عاديين انضموا الى فتح ارتزاقا » .

بقي ان نشير الى ما يرويه الكتاب عن البادرة التي لفتت نظر المخابرات الاسرائيلية الى وجود فتح ، عندما كانت هذه لا تزال منظمة سرية لم تعلن عن نفسها (ص ٤٩) ، ونحن نورد هذه الرواية هنا لمجرد الاشارة الى الحذر الذي يتوجب علينا ان نلتزمه في ما ننشر حول القضايا السرية الحساسة.

يقول الكتاب ان احدا في اسرائيل لم يلتفت الى وجود فتح الا في منتصف عام ١٩٦٤ ، عندما صدر كتاب لكاتب فلسطيني (يذكر اسمه) يناقش في احد فصوله المفاهيم التي كانت تطرحها جريدة « فلسطيننا » . فقد وقع هذا الكتاب في يد خبير اسرائيلي بالشؤون العربية ، ففهم هذا من كلمات الكتاب ان وراء « فلسطيننا » تقف « منظمة لا تعرف حدودا ، يمكن في يوم ما ان تجرب نفسها في عمل حقيقي » ضد اسرائيل ، وعندئذ قام الرجل « بلفت انتباه الاطراف المعنية » في اسرائيل الى المسألة .

يستخلص الكتاب في الخاتمة انه « بعد خمس سنوات ونصف مرت على اول عملية تخريبية في بيت نطوفا ، لم يعد ممكنا تجاهل وجود الحركة الارهابية او التغاضي عنه ، واصبحت مسألة امكان تصفيتها او اختفائها غير واردة . ولكن ما زال الوقت مبكرا للاجابة على مسألة الشكل والاتجاه اللذين ستتخذهما الحركة في المستقبل » (ص ٣٨٥) .

ونحن لا يسعنا الا أن نمنح موافقتنا .

خليل هندي

Norman Bentwich, **Israel : Two Fateful Years, 1967-1969** (London: Elek, 1970).

في هذا الكتاب الصغير ولكن الهام يعبر صهيوني قديم عن درجة محدودة من خيبة الامل بسياسات اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ ، وهو بذلك يصبح واحدا من مجموعة « اليهود الشرفاء » التي تقدم خدمة جلى للدعاية الصهيونية — الاسرائيلية .

كان المحامي الانجليزي بنتويتش صهيونيا نشيطا عندما عينه البريطانيون اول مدع عام للانتداب البريطاني في فلسطين . وحتى مع عام ١٩٢٠ ،كان بنتويتش قد كتب الكثير لدعم القضية الصهيونية وشبه الدعاوى الاقليمية الصهيونية تشبيها مفعما بالحيوية بأنها كجلد الغزال الذي يتمدد او يتقلص تبعا لوفرة الغذاء الذي يتناوله الغزال او نقصانه. وكان بنتويتش يهدف الى توفير اكبر قدر ممكن من الغذاء لـ «الغزال» الصهيوني، وقد فعل هذا خلال المدة التي قضاها في منصبه في فلسطين ، وفيما بعد عندما اصبح داعية للصهيونية ومفاوضا نافذا لها لا يكل في دوائر حزب العمال البريطاني في لندن .

اما الان وقد بلغ العمر ببنتويتش عتيا ، فان من الواضح انه يراجع افكاره فيما يتعلق بسلوك الاسرائيليين ، على الرغم من ان مخاوفه لا تتعدى كونها مجرد ارتعاشات يعانيها ضميره السياسي .

هكذا فانه يردد الادعاء الصهيوني المتغطرس بأن « الحكمة » هي التي ساعدت على خلق اسرائيل ، وهو لا يزال مؤيدا صلبا في تأييده للدولةاليهودية، كما انه يذهب الى حد ابداء الاعجاب بالصفاقة التي سرق بها الاسرائيليون الزوارق الحربية من احواض السفن الفرنسية في شيربورغ . ومن هنا ، فانه في الوقت الذي يصف فيه السياسة الاسرائيلية بانها تبدو « قاسية » و« غير مرنة » لا يحبذ عودة القدس العربية الى السيادة العربية بل يرى فقط وضع الاماكن المقدسة تحت سلطة تشارك فيها الاديان جميعا . وبينما يعترف بأن ظلما قد لحق بالسكان السابقين لفلسطين وأن تعويضات يجب أن تدفع لهم عن أملاكهم ، الا انه ليس مستعدا للذهاب أبعد من التوصية بأن تقبل اسرائيل جزءا من اولئك الذين يريدون العودة « بعد تدقيق حريص » ، أما « الاغلبية » فيجب ان يعاد اسكانها في البلاد العربية او العالم الجديد . ومع ذلك فان هذه الدرجة المحدودة جدا من لين الحمائم التي يبدو بها أناس كبنتويتش تفيد الجهد الدعاوي الصهيوني أيما افادة ، لانها تعشي الابصار عن الصورة الصلبة للصقور الصهيونيين وتلطف هذه الصورة وتشوشها ، في الوقت الذي لا تقدم فيه في واقع الامر اي تنازل ذي أهمية ودون أن تتهدد بالخطر اطلاقا موقف اسرائيل . فعندما يقول صهيوني قديم كبنتويتش ان اسرائيل يجب ان تصبح دولة ثنائية القومية ، يستطيع الدعاة الصهيونيون أن يزعموا أنه ليس كل الصهيونيين متطرفين ، فيخفون بذلك الحقيقة البالغة الاهمية وهي ان ما يتحدث عنه بنتويتش هو اسرائيل وليس فلسطين. ان الحمائم الصهيونية او الاسرائيلية ، ما دامت اسرائيلية او صهيونية ، أبلغ خطرا بكثير من الصقور الصهيونيين — الاسرائيليين المعلنين .

ليس بنتويتش غير آخر كثيرين من الصهيونيينالذين اضطربت ضمائرهم . ولقد بدأت وخزات الضمير في الحركة الصهيونية تجعل نفسها محسوسة في وقت مبكر ، وآحاد هاعام أوضح مثال على ذلك. ولان آحاد هاعام كان يعارض سياسة غالبية المؤتمرات الصهيونية ، كما بسطها وايزمان ومن بعده بن غوريون ، ولانه كان ينادي بشكل ثقافي غائم من الصهيونية ، فان كثيرين ينسون أنه رغم ذلك كان صهيونيا استوطن فلسطين وأسهم في الحركة ليكافأ باطلاق اسمه على احد شوارع تل ابيب . ومثل ذلك آرثر كوستلر الذي خدم القضية الصهيونية سنوات عدة وخاصة عندما كتب روايته الدعاوية القوية « لصوص في الليل » ، ولم يتخل عن الصهيونية الا بعد ذلك . ويبدو ان الامر ذاته يحدث لبن غوريون ، فبعد أن طبع بن غوريون اسرائيل بطابعه المتصلب المتزمت ، بدأ الان يعلن استعداده لاعادة كل الاراضي العربية المحتلة تقريبا ، اذا كان لهذه التضحية أن تحقق سلاما دائما ، وهذا هو الحال مع بنتويتش الذي يقوم الان ، بعد حياة صهيونية حافلة ، بتوجيه لوم خفيف الى اسرائيل ، وبذلك لا يزال كصهيوني « ليبرالي » و « معقول » يسهم في القضية الصهيونية . لقد أصبح الصهيوني التائب نموذجا يسهل التعرف عليه .

يبدو أن اليهود في أي وقت يتخذون من الصهيونية

ثلاثة مواقف . اذ يمكـن أن يكونوا في شبابهم لا صهيونيين او حتى معادين للصهيونية ، ليصبحوا في أواسط العمر صهيونيين ملتزمين نشطين، لينتهوا في الشيخوخة صهيونيين تائبين . وهكذا عندما كان آحاد هاعام يتوب ، كان هرتزل ومن بعده وايزمان نشيطين ، وعندما أصبح وايزمان تائبا ، كان بن جوريون وبوبر وماجنيس نشيطين ، وعندما بدأ بوبر وماجنيس يدقان صدريهما ، كان بن غوريون ومعه بنتويتش لا يزال يدفع الى الامام ، والان وعندما بدأ بن جوريون وبنتويتش يلينان ، يحمل دايان الشعلة . ويفترض المرء انه عندما يشيخ دايان ويصبح أعقل انـسان واحدا كعيزر وايزمان سيقوم بالعمل القذر .

عندما يكون الامر متعلقا بالصهيونيين ، فان هنـا اتجاها ينحو الى القول ان المرء يجب ان يشعر بالعرفان تجاه الكرامات الصغيرة وأن يرحب بأي ميل نحو التوبة مهما كان جزئيا. غير انه من الممكن أن تأتي التوبة بعد فوات الاوان وان لا يتكلم صوت الضمير الا بعد أن يفقد أي قدرة على التأثير في سير الامور . وهذا هو الحال بالنسبة لبن جوريون وبنتويتش. هناك قول مشهور يقول «احذروا الذئب في ثوب الحمل » ، وعلى المرء أن يكون اكثر حذرا بكثير تجاه أولئك الصهيونيين الذين قاموا بدورهم في خدمة القضية الصهيونية ليستمروا في خدمتها اذ يعرضون على الناس بعد فوات الاوان ضميرهم الذي استيقظ حديثا. غير أن بنتويتش يلاحظ ملاحظة عميقة جدا يجب أن يأخذها بعين الاعتبار كل من ينادون بمعالجة « موضوعية » أكاديمية للمسألة الفلسطينية . انه يقول « الموضوعيـة بالنسبة لقضيتي فلسطين واسرائيل متناقضة في ذاتها » .

جودفري جانسن

1) Raanan Weitz and others, **Regional Cooperation in Israel.**
2) Alexander Berler and others, **Urban-Rural Relations In Israel.** (Tel Aviv: Settlement Study Center Rehovot, 1970).

يعالج هذان البحثان موضوعـين هامين بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي وبالنسبة للتنظيم الاجتماعي في اسرائيل . يتعلق الموضوع الاول بسياسة التنمية والاستيطـان في الريف وبالتعاون الاقتصادي ــ الاجتماعي بين المستوطنات والمناطق المختلفة . ويتعلق الموضوع الثاني بالعلاقات بين الريف والمدن في اسرائيل ، وهذا أمر حيوي لاسرائيل نظـرا لاضطرارها الى توزيع المهاجرين اليهود بشكل معقول على المناطق وصعوبة تطبيق هذا التوزيع.

تهتم دراسة التعاون الاقليمي اساسا في تحديد وتوضيح المشاكل الاساسية التي تواجه التنمية الريفية وذلك لتمكين المخططين من ايجاد حلول تعتمد الى اقصى درجة على معرفة الحقائق الموضوعية. وقد نمت فكرة التعاون الاقليمي في اسرائيل على مدى عدة سنوات . وكانت في البداية عبارة عن انشاء مشاريع مشتركة بين المستوطنات في انحاء مختلفة من البلاد على اساس الظروف الفورية ودون اي تخطيط مسبق . وقد برزت ومع الوقت عدة انواع من التعاون يعتمد معظمها على انشاء نقاط معينة تخدم كمراكز للاقاليم . ولم تطبق فكرة التعاون الاقليمي كأسلوب في التخطيط الاستيطاني سوى منذ تخطيط منطقة لخيش . ويتم التعاون بين المستوطنات الجماعية والتعاونية (الكيبوتس والموشاف) وبـين بعض المستوطنات الخاصـة (الموشافة) . والسبب في التعاون هو الرغبة في تحقيق الفعاليـة الاقتصاديـة وتنظيم التسويـق والمشتريات بشكل عقلاني ، كما انه يرجع الى اتجاهات المستوطنين العقائدية والاجتماعيـة . بالاضافة الى التعاون الداخلي على اساس جماعي، فان المستوطنات مرتبطة باتحاد وطني للتعاونيات . وقد مكن البنيان الاقليمي عددا من المستوطنات من توحيد مواردها من اجل اقامة مصالح ومؤسسات تجارية على نطاق اوسع بكثير من طاقة كل مستوطنة بمفردها . وقد أدى ذلك التعاون الى تخفيض الكلفة

والى ادخال تحسينات تكنولوجية وتوظيف خبراء وفنيين على مستوى رفيع . من الامثلة على ذلك استعمال المعدات الثقيلة وتصنيف المحاصيل الزراعية وانشاء معمل لتصنيع المحاصيل وانشاء مدارس ثانوية .

المشاكل الرئيسية الثلاث التي تواجه الذين يخططون المستوطنات الريفية الجديدة في اسرائيل هي : ١) كيفية ازالة الحواجز القائمة بين الاجيال القديمة والمهاجرين الجدد من ناحية ، وبين الجماعات العرقية المختلفة من ناحية اخرى . ٢) كيفية تدريب المهاجرين الجدد لكي يصبحوا مزارعين وعمالا مستقلين يمكنهم ادارة اقتصاد زراعي معقد وادارة شؤون قريتهم . ٣) كيفية اجتذاب الفنيين والخبراء والموظفين الى مناطق الاستيطان الريفية . وقد استطاع التعاون الاقليمي حل هذه المشاكل الى حد كبير ، لكن ما زالت هناك مشاكل اساسية تواجه التنمية الريفية ستعالج في البحث الثاني .

المشكلة الاساسية في تحليل العلاقات الريفية ــ العمرانية في اسرائيل هي مسألة التوازن بين القرية والمدينة ، فالقرية تقف دائما موقف الدفاع أمام انتشار اسلوب الحياة العمرانية . كما ان هناك اخطارا كبيرة تهدد وضع القرية الاسرائيلية ونموها ، أهمها الانحسار المستمر لاهمية الزراعة في الحياة الاقتصادية الاسرائيلية . اما الخصائص الرئيسية للوضع الحاضر للعلاقات الريفية ــ المدينية في اسرائيل فهي : ١ ــ توجد في المناطق الريفية عدة أنواع من المستوطنات تشكل تسلسلا هرميا كبيرا مساحة وزمنا . ٢ ــ تجتذب المدن الكبيرة فائض القوى العاملة في المناطق الريفية رغم كل الجهود المبذولة لتقليل تأثير المدن . ٣ ــ ان تفوق المستوطنات القديمة انتاجيا واجتماعيا وثقافيا لا يعطيها مناعة ضد جاذبية المدينة لان هذه المستوطنات غير قادرة ، مهما بلغت درجة تحديثها، على توفير الامتيازات الموجودة في المدينة . ٤ ــ ان البلدة، التي تكون عادة في وسط التسلسل الهرمي، قد فقدت مركزها في اسرائيل واصبحت في قاعدة الهرم ولا يمكنها ضبط فائض الريف السكاني . وبما ان القرية الاسرائيلية متقدمة اكثر من البلدة فان الفائض السكاني في الريف يتجه نحو المدينة . يمكن القول ان العلاقات الريفية ــ المدينية في اسرائيل هي نتيجة لعوامل محددة تعكس الاحوال المحلية . فمن ناحية هناك عوامل بارزة تعمل ضد الحياة الريفية وتخلق مشاكل للقرى الاسرائيلية اهمها : أ) الطابع المدني او العمراني المميز لليهود . ففي عام ١٩٣١ ، مثلا ، كان يعيش ٧٦٫٤٪ من اليهود البولنديين في المدن مقابل ٢٢٫١٪ لغير اليهود . وكذلك الحال في العديد من البلدان . ومن آثار هذا الطابع كون معظم المستوطنين الريفيين في اسرائيل هم من سكان المدن اصلا . وقد أظهرت نتائج احصاء العام ١٩٦١ ان ٧٪ فقط من المزارعين اليهود الذين ولدوا خارج اسرائيل كانوا مزارعين قبل أن يهاجروا الى اسرائيل . ومن آثار هذا الواقع ضعف القرية امام المدينة . فمن ناحية ، لم يمر المزارع اليهودي بتجربة التعلق العميق بالارض الذي نما عند فلاحي البلاد الاخرى عبر اجيال عديدة . وهذا ما جعل المستوطنين الريفيين يشتغلون في مهن غير زراعية ، وربما يكون هذا السبب في تحويل العديد من مستوطنات الموشافة الاولى الى مدن صغيرة . وكان للطابع العمراني لسكان الريف في اسرائيل اثرا آخر هو ان هؤلاء السكان ظلوا مشدودين الى المدينة نظرا لتعودهم على الخدمات والترفيه ، وغالبا ما كانوا يتركون القرية عند أول مصاعب شخصية او اقتصادية تصادفهم . ومما يجدر ذكره ان الوكالة اليهودية كانت تجبر هؤلاء المستوطنين على الاقامة في الريف رغم أنهم يكرهون الزراعة وطريقة الحياة الريفية . ب) مما زاد في مصاعب القرية تمركز المستوطنين الريفيين اليهود في مساحات صغيرة حول المدن . مثلا ، يعيش ٦٢٪ من سكان الريف في الرقعة الساحلية ــ حيفا ــ تل ابيب ــ عكا ــ عسقلان . كما ان المسافة بين القرى والمدن الكبيرة تبلغ ٣٠ ــ ٣٥ كلم وبين القرى والمدن المتوسطة ١٥ ــ ٢٠ كلم مما يعرض القطاع الريفي لضغط الحياة العمرانية القوي . جـ) كان لكبر قطاع الخدمات في اسرائيل اثر كبير في اجتذاب وتوظيف سكان الريف (٢٩٫٨٪ لاسرائيل مقابل ٢٣٫٦٪ لفرنسا) . د) قلة الموارد الزراعية . هـ) النقص في مياه الري . اخيرا كانت هناك عوامل غير اقتصادية كان لها تأثير سلبي على نمو وأوضاع المناطق الريفية . اهم هذه العوامل الضعف الذي حل بالاساس العقائدي للمجتمع الاسرائيلي ، وضعف التعلق بطريقة الحياة الريفية ــ التي كان القيمة الرئيسية

في فترة الاستيطان الاولى . وقد أدى ذلك الى الحد من تدفق شبان المدن علـى الكيبوتسات والموشافات ، وحط من قيمة القرية .
الصورة الثانية لعلاقة القرية بالمدينة هي صورة ايجابية ، صورة القرية القوية التي استطاعت الوقوف في وجه المدينة وطريقة الحياة العمرانية .
العوامل التي تعمـل في صالح القرية هي : ــ أ) اجراءات الامن من حيث تنظيم المستوطنات ، ويعود نجاح اجراءات الامن الى الاطار التعاوني او الجماعي لمعظم القرى اليهودية . ب) كان للاطار التعاوني فعالية كبرى في المحافظـة على الاطار الريفي ويظهر ذلك انه لم يتحول اي موشاف او كيبوتس للطبقة العاملـة الى مستوطنـات عمرانية. جـ) فعالية الريف الاسرائيلي الاقتصادية. ان نمو الانتاج الزراعي الاسرائيلي مـن اسرع نسب النمو في العالم ، ويعود ذلـك للاسباب التالية : المستوى الرفيع لاستعمال الماكينات في الزراعة ، الاستثمـارات الكبرى في المعـدات ومشاريع الري وتحسين التربة ، الاستثمار الفكري في الزراعة ، اي الجهود المبذولة لزيادة المعرفة والتدريب المهني العالـي والخدمات الاعلاميـة الزراعية . د) الجمع بين الزراعة والصناعة في الكيبوتسات . تلعب الصناعـات الريفيـة دورا اقتصاديا واجتماعيا هاما . فهي تخلق من الناحية الاقتصادية وظائف جـديدة وتقـوي الاسـاس الاقتصادي وترفع مستوى الدخل . اما اجتماعيا فان زيادة نوعية المهـن المتوفرة وزيادة فـرص التخصص والتقدم المهني يساعد على وقف تدفق شباب القرية الذين لا يرغبون بالعمل في الزراعة الى المدينة . هـ) توفر مستوى رفيع للخدمات واسباب الراحة العمرانية ، خاصة السكن الجيد، وتوفر مستوى تعليمي رفيع . و) التأثير العقائدي والسياسي ــ الاجتماعي للقرية . في الواقع ، حدثت تغييرات بالنسبة لهذه العوامـل فضعف تأثير العوامل العقائدية بينما زاد تأثير العوامل الاقتصادية .
يمكننا على اساس المعلومات التي جاءت في هذين البحثين ان نستنتج الامور التاليـة : ان مبدأ التعاون الاقليمي في اسرائيل يشكل مصدر قوة للمجتمع الاسرائيلي لانه خارجيا يشكل حلقة هامة في الدفاع عن الحدود ، ويشكل داخليا اطارا هاما للمحافظة على الريف الاسرائيلي وعلى التوازن بين الريف والمدينة . فلولا التعاونيات والمستوطنات الجماعية لما كان ريف اسرائيلي نظـرا لطبيعة السكان الريفيين وضعف الموارد الزراعية وقلة مياه الري . الامر الهـام الثاني الذي يمكـن استنتاجه هو ان ارتباط المزارعين الاسرائيليين بالارض هو ارتباط تجاري ومـادي بحت وليس ارتباطا عاطفيا كما هي الحـال بالنسبة لباقي المزارعين في العالم (ويمكن فهم هذا الامر لان الارض اغتصبت اغتصابا ولان الوكالة اليهودية تجبر هؤلاء الناس على السكن في الريف) . كما ان الارتباط العقائدي الاشتراكي الذي كان عند المستوطنين الاوائل قد خف كثيرا . الامر الثالث الذي يمكن استنتاجه من مجرى العلاقات الريفية ــ المدينية هو ان المدينة قد تتغلب على الريف في المستقبل وتتحول اسرائيل الى امتداد عمراني كبير مما يخلق لاسرائيل مشاكل اجتماعية وسياسية لا حصر لها ويفشل مشاريعها الاستيطانية ، خاصة وهي تتوقع آلاف المهاجرين الجـدد على أساس توزيعهم بشكل معقول بين الريف والمدن .

ب. ص.

ليلى سليم القاضي ، المنظمة الاشتراكيـة الاسرائيليـة (ماتسبن) مركز الابحاث في م. ت. ف. ، بيروت ١٩٧١ .

بعد اطلاعي على هذا الكتاب ، وخصوصا على المقدمة التي كتبها الاستاذ غسان كنفاني ، رأيت ان اشارك في عملية النقاش والتقييم وطـرح التساؤلات حول المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية على الصعيد النظري والممارسـة العملية . انني على خلاف الباحثة لن اقوم بعملية استعراض وتلخيص لآراء ومواقف المنظمة علـى الصعيـد النظري والممارسة العملية ، ولكن سأحاول الوقوف على بعض النقاط التي عرضتها الباحثة بأمانة كما وردت في كتابات المنظمة وفي المقابلة التي اجرتها الباحثة مع « موشي مخوفر » احد قادة المنظمة الموجودين في لندن . سأحاول ان اعطي صورة آمل ان تكون

وافيه لوضع المنظمة داخل اسرائيل . ان عدم تنوع المصادر التي اعتمدتها الباحثة ادى بها في النهاية الى اتباع اسلوب العرض والتلخيص . لم يكتب الشيء الكثير حول المنظمة لا في داخل اسرائيل ولا في خارجها وهذا الكتاب هو اول دراسة من هذا النوع حول المنظمة . بالرغم من هذا فلو توفرت بعض الامكانات للباحثة ، للوقوف على الجدل الذي ثار بين المنظمة والحزب الشيوعي الاسرائيلي «راكاح» من جهة وبين المنظمة والاجنحة التي انشقت عنها في ايلول ١٩٧٠ من جهة ثانية حول مختلف القضايا الداخلية والخارجية مثل : الموقف من الهستدروت ، الموقف من الاتحاد السوفياتي ، الموقف من قرار مجلس الامن ، الموقف من المنظمات الفدائية وغيرها من الامور ، لو توفر ما ذكرت لكانت الدراسة أوفى وأشمل . انني الان هنا امام نفس الاشكال الذي واجه الباحثة ، ولكنني من جهة ثانية ، نظرا للصلات الوثيقة التي كانت لي مع المنظمة كتنظيم ونظرا لعلاقات الصداقة الشخصية التي كانت تربطني ببعض افراد المنظمة قبل الانشقاق وبعده ، لذلك فعملية تناولي للموضوع ستركز على معلوماتي الشخصية عن المنظمة ، نتيجة صلة تمتد فترة من الزمن لا تقل عن ثلاث سنوات ، اثناء هذه الفترة شاركت تقريبا في معظم نشاطات المنظمة بالرغم من عدم انتسابي الرسمي . فقد كنت مداوما على حضور الندوات المفتوحة التي كانت تقيمها المنظمة للبحث في مواضيع مختلفة ، كما وكنت مداوما على حضور الندوة المغلقة التي كانت تتناول الامور النظرية والفكرية .

من أهم سمات العرض العلمي والتحليل العلمي للمواقف ان يكون ذلك العرض والتحليل مستندا الى نصوص يمكن الرجوع اليها للتأكد من صحتها. وما سأقوم به في الحقيقة لا يمكن ان نسميه بحثا ، لانه في حقيقته استعراض لكتاب الباحثة « **المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية** » ومن ثم محاولة لرسم صورة واضحة عن المشاكل والصعوبات التي تجابه المنظمة في القطاعين العربي واليهودي اثناء ممارستها للعمل السياسي بين الجماهير . واخيرا اعطاء صورة واضحة لاسباب الانشقاق الاخير والسمة المركزية لكل جناح . وبديهي انني في عرضي وتحليلي للمشاكل والصعاب التي تجابه المنظمة في القطاعين العربي واليهودي ، وايضا في عرضي لاسباب الانشقاق الاخير لن استند الى النصوص المكتوبة نظرا لعدم وجودها الان في متناول اليد ، هذا اذا اخذنا بعين الاعتبار ان الملاحق التي أوردتها الباحثة حول موضوع الانشقاق تعبر عن وجهة نظر المنظمة الام حول الموضوع فقط . (وقد صدر بعد الانشقاق عن كل من الجناحين المنشقين منذ ايلول ١٩٧٠ ما يقارب ست نشرات) .

نظرة حول الكتاب : لقد نجحت الكاتبة تماما في عملية استعراض وتلخيص تاريخ نشوء المنظمة ومواقفها من عدة قضايا مثل :

(١) نظرة المنظمة الى الصهيونية واللاسامية واستعمار فلسطين : لقد كانت تحليلات المنظمة في هذا المضمار على قدر كبير من الصواب والجرأة، بحيث تركت ردود فعل عنيفة داخل المجتمع الاسرائيلي تفوق بكثير امكانيات المنظمة على صعيد العمل السياسي الداخلي .

(٢) نظرة المنظمة الى المجتمع الاسرائيلي : لقد توصلت المنظمة من خلال دراساتها وتحليلاتها الى الطبائع والميزات الخاصة والفريدة لهذا المجتمع ، واكدت على ميزتين رئيسيتين لهذا المجتمع اولاهما: كونه ليس مجتمع مهاجرين فحسب بل مجتمع مستوطنين ايضا . وثانيهما : كون التناقض الرئيسي لهذا المجتمع هو تناقض خارجي وليس داخليا .

(٣) نظرة المنظمة الى « اليسار » الاسرائيلي : تفرق المنظمة في هذا المضمار بين اليسار الصهيوني وبين اليسار غير الصهيوني المتمثل في الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكاح » . ولكنها ترى ان امكانيات التعاون مع « راكاح » محدودة نظرا للتباين في وجهات النظر حول طبيعة النظام في الاتحاد السوفييتي ، وحول بعض القضايا العالمية واهمها الموقف من حركات التحرر الوطني التي تقودها البرجوازية الصغيرة في البلدان المتخلفة .

(٤) نظرة المنظمة الى المقاومة الفلسطينية والحل الثوري للنزاع في المنطقة : ترى المنظمة في الكفاح الفلسطيني المسلح بداية تحول جذري في اسلوب النضال وشكله على صعيد المنطقة ، رغم تحفظاتها على الابعاد السياسية لهذا النضال . لقد شرحت الباحثة في كتابها وجهات النظر الانفة الذكر بالتفصيل ولقد كانت الصورة معبرة تماما ، وبما ان الباحثة التزمت منذ البداية اسلوب العرض والتلخيص لذلك أصبح مفروضا ايضاح بعض النقاط. سأتناول في عملية الايضاح نقطتين لا اكثر ،

احداهما جاءت منافية للواقع تماما ، وثانيهما تشير الى التخبط في أسلوب العمل السياسي داخل اسرائيل . النقطة الاولى تتعلق بنسبة عدد **الاعضاء** العرب في المنظمة ، والثانية بموقف المنظمة من انتخابات ١٩٦٥ ، وتأييدها لاوري افنيري في تلك الانتخابات .

(١) من الامور المنافية للواقع ما يلي « تعكس المنظمة في تكوين عضويتها التكوين العام لسكان اسرائيل . بعبارة اخرى ان نسبة الاعضاء العرب في المنظمة تساوي على وجه التقريب نفس نسبة عدد السكان العرب في اسرائيل » (ص ٣٧) . اذا اخذنا الامر من ناحية منطقية يظهر صحيحا ، واكثر من هذا يجب ان تكون نسبة العرب في المنظمة اعلى من نسبتهم لعدد السكان الكلي . ولكن الواقع هو خلاف ذلك ، فنسبة الاعضاء العرب في المنظمة اقل من نسبتهم الى مجموع السكان . على قدر ما اعلم فعدد الاعضاء العرب في المنظمة لم يتجاوز **الاربعة** في احسن الاحوال . على كل حال ، فان هدفي من التطرق لهذه النقطة ليس الوصول الى حقيقة نسبة العرب في المنظمة ، فسواء كان النص المذكور اعلاه صحيحا او لم يكن، فالامر يشير الى عدم نجاح المنظمة في العمل في الوسط العربي في اسرائيل . هذا الامر يأخذ اهميته اذا اخذنا بعين الاعتبار ان العمل بين السكان العرب يجب ان يكون من ضمن استراتيجية العمل السياسي للمنظمة داخل اسرائيل . تتضح اهمية هذه النقطة عندما نرى انها شكلت احدى نقاط الخلاف داخل المنظمة التي أدت الى الانشقاق الاخير ، حيث رأت احدى المجموعات « الاتحاد الشيوعي الثوري » ان المنظمة لم تعط هذه النقطة حقها ، مما حدا بأحد قادة المنظمة عوديد بيلاسكي الى القول « ومجمل القول ان طريقة عمل الاتحاد الشيوعي الثوري ، كما ورد في نشرته الاولى ، تضر بوحدة الثوار الاشتراكيين العرب واليهود الذين تعدوا المرحلة القومية ، **بطرحه قومية يسارية اشتراكية أممية** » (ص ١٧٨) .

(٢) بالنسبة للنقطة الثانية أي الموقف من اوري افنيري وانتخابات ١٩٦٥ ، فلقد اتخذت المنظمة آنذاك قرارا بالاكثرية وليس بالاجماع بتأييد اوري افنيري في تلك الانتخابات ، مع اعطاء الحرية للاعضاء الذين عارضوا هذا القرار في عدم المشاركة في الحملة الانتخابية ، او حتى الدعوة لاحزاب أخرى والمقصود هنا الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكاح » . اذا قارنا هذا الموقف بموقف المنظمة من الانتخابات التالية ، حيث دعت الى تأييد « راكاح » بالاجماع نرى تبدلا ايجابيا في التكتيك في مجال العمل السياسي داخل اسرائيل . اذا اخذنا بعين الاعتبار اسباب خروج قادة المنظمة او بعضهم من صفوف الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، حيث يذكرون من جملة الاسباب ، مواقف الحزب اللاثورية من عدة قضايا ، ثم تمعنا في تبريرات المنظمة لا نجد وزنا للمواقف اللاثورية هذه . بمعنى انها لم تكن تشكل مقياسا عند بحث المنظمة لقضية الانتخابات . تقول المنظمة في مجمل تبريراتها التي توردها الباحثة ، ان المنظمة رات في برنامجه — بالقياس الى الظروف السائدة في تلك الايام — نوعا من الايجابية ، كدعوته « للاعتراف بحقوق اللاجئين الفلسطينيين » من جهة ، وانها قدرت بأن حركة أوري افنيري ستجذب عددا كبيرا من الشباب غير المسيس من جهة ثانية ، واهم من هذا وذاك كون حركته غير مبلورة عقائديا ولا تنظيميا ، اي بمعنى انها لا تشكل حزبا ، بل تيارا او اطارا فضفاضا ، وهكذا يمكن استغلال هذا الاطار لنشر الدعاية والتحريض وعرض وجهات النظر لكسب المؤيدين او حتى لمجرد اثارة القضايا وطرحها بأسلوب جديد وتحليل جديد . يضاف الى هذا تقديراتها المغالية — حسب ما اعتقد — في نسبة العناصر من الشباب العربي في اسرائيل التي قدرت المنظمة ان تنجر وراء « ظاهرة » المعارضة الجديدة ، بسبب شخصية أوري أفنيري وشعبيته بين الشباب .

هذا التقدير الخاطىء — بالنسبة للشباب العربي — يعود الى عدم تفهم المنظمة لواقع التيارات التي كانت سائدة في أوساط الشباب والى اتجاهاته السياسية . كما وانه يشير بوضوح الى عدم وجود برنامج عمل مبرمج للنشاط السياسي والى اتباع اسلوب الانفعالية في هذا المضمار . ان العناصر التي سارت وايدت أوري أفنيري من الشباب العربي في اسرائيل يمكن تقسيمها الى فئتين : فئة استطيع أن أقول انها ضللت نفسها وخدعتها في مدى الحرية التي يمكن ان تعطيها لها حركة اوري افنيري في التعبير عن آرائها مثل الشاعر سميح القاسم وغيره من المثقفين الذين اشتركوا في تحرير مجلة « هذا العالم » التي

صدرت آنذاك باللغة العربية . وفئة وصولية نفعية رأت في الانضواء تحت جناحي هذه الحركة طريقا للشهرة ، وهذه الفئة لا تختلف عن عرب المبام او أي حزب صهيوني آخر ، حيث ترى بمجرد سيرها مع حزب صهيوني نوعا من الحماية ، نظرا لان السياسة العامة للسلطة على المستوى الدعائي والرسمي الداخلي ، تحذر دائما من الانضمام الى/او تأييد الحزب الشيوعي الاسرائيلي «راكاح» وتطارد مؤيديه واعضاءه وتضطهدهم . من هذا نرى ان ما وقعت فيه الفئة الاولى من عناصر الشباب العربي هو نفس الوهم الذي وقعت فيه المنظمة بالنسبة لحركة اوري افنيري ، ومثلما ابتعدت المنظمة عن صفوف حركة اوري أفنيري ، كذلك خرج هؤلاء الشباب من هيئة تحرير « هذا العالم » واتجهوا الى الحزب الشيوعي «راكاح» (مثلا : استقالة الشاعر سميح القاسم من هيئة تحرير « هذا العالم » وانضمامه الى أسرة تحرير الجديد والاتحاد) .

هذا الموقف تجاه افنيري في انتخابات ١٩٦٥ يصعب فهمه اذا ما اخذنا بعين الاعتبار تصريحات قادة المنظمة بأنهم آثروا الخروج من صفوف الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، بسبب مواقفه اللاثورية . والسؤال الذي يطرح نفسه تلقائيا ، اين هي مواقف افنيري الثورية ؟ في اعتقادي ان تلك الخطوة ، رغم بعض النقاط — استغلال الاطار غير المبلور للحركة — كانت خطوة غير صحيحة ، وانهم كانوا آنذاك أمام اختيارين لا ثالث لهما : اما تأييد « راكاح » او الامتناع عن التصويت .

مشاكل وصعوبات : ان الصعوبات التي تجابهها المنظمة على صعيد العمل السياسي في القطاعين العربي واليهودي أكبر وأضخم من طاقة المنظمة في الوقت الحاضر . ففي الوسط اليهودي تصطدم المنظمة بالايديولوجية الصهيونية المسيطرة على مفاهيم الاغلبية الساحقة من الجماهير اليهودية . هذه الايديولوجية التي استطاعت على مدى ما يقارب القرن من تحقيق الانتصارات المتوالية بفضل مؤازرة الامبريالية العالمية . لقد توجت الصهيونية أهدافها باقامة دولة اسرائيل والمحافظة عليها وحتى توسيعها . هذه الايديولوجية نجحت في وضع الجماهير اليهودية امام خيارين لا ثالث لهما : اما الحفاظ وبشتى الوسائل على كيانها المستقل واما الفناء . وهذا الشكل القاسي يجعل ايا كان يختار الخيار الاول ، وبالتالي نجد كثيرا من العناصر اليهودية التي تشعر بصدق ان هناك ظلما قد حل بحق الشعب العربي الفلسطيني غير قادرة على الاشارة الى مخرج من هذا الوضع . فلقد اصبح ينظر الى شعار « الحرب الابدية » بين اليهود والعرب على انه قدر ليس بالامكان تفاديه . هذا الاقرار يجر الى اقرار آخر بأن الارتباط بالامبريالية العالمية والاميركية على وجه الخصوص هو ايضا ضرورة حتمية من اجل البقاء . لقد استطاعت الصهيونية ترسيخ كل هذه الامور في نفسية الانسان اليهودي على مستوياته المختلفة ، مستغلة بنجاح كبير الدعاية العربية الشوفينية التي كانت تصدر عن بعض التيارات والحركات العربية . ولكن المنظمة باستغلالها كل مناسبة كانت تقوم بنشر افكارها وطرح التساؤلات حول مستقبل الشعب اليهودي على المدى البعيد مؤكدة دائما بأن المصلحة الحقيقية للشعب اليهودي هي في النضال المشترك مع الشعوب العربية ضد الصهيونية والاستعمار والرجعية العربية . لقد كانت المنظمة ، تجاه الفكر الصهيوني القائل بأن لا خيار امام اليهود الا ان يحافظوا دائما على وحدة داخلية متماسكة وعلى تفوق علمي وعسكري دائم ، تطرح بديلا ثالثا يدعو للنضال من اجل اقامة مجتمع اشتراكي في الشرق الاوسط العربي . ان هذا البديل الداعي للمشاركة في النضال الثوري من اجل اقامة المجتمع الاشتراكي الشرق — اوسطي ، ينظر اليه حتى اولئك الذين لا يعارضون الفكرة من ناحية المبدأ ، على انه شعار مثالي لا ينطلق من واقع الظروف القائمة حاليا ولا يعالج المشكلة الملحة حاليا ، الا وهي قضية حرب حزيران (يونيه) ٦٧ وما ترتب عليها . ثم تتورط المنظمة اكثر في عملها التحريضي بين الجماهير اليهودية عندما تؤكد ان هذا الهدف الاستراتيجي مرهون تحقيقه بدرجة اولى بتغييرات جذرية في العالم العربي ، تتطلب وجود تنظيمات ثورية أممية توجه الجماهير وتقودها من اجل تحقيق الهدف الاستراتيجي على مستوى المنطقة . ولكن المنظمة رغم تقديرها للكفاح المسلح الفلسطيني فهي ما زالت ترى ان هذا البديل لم يخلق بعد سواء في الجانب العربي او الجانب الفلسطيني على وجه الخصوص ، لذلك يصعب على المنظمة الاجابة على السؤال التالي : اين هي الحركة الثورية الصحيحة الموجودة في العالم العربي وفي الجانب

الفلسطيني على وجه الخصوص التي يمكن ان نعتبرها نقطة البدء ؟ ففي تحليلات المنظمة للمقاومة نرى انها لا تتعدى كونها حركة تحرر وطني بقيادة البرجوازية الصغيرة من جهة وانها تظل محصورة ضمن نطاق الاطار القومي من جهة ثانية . ان المنظمة تقرر بأن الكفاح الفلسطيني المسلح غير قادر على هزم العسكرية الاسرائيلية بمفرده حتى لو تمت التحولات المطلوبة داخل المقاومة الفلسطينية وتبنت الثورة الفلسطينية خطا ثوريا اشتراكيا يدعو ويعمل من اجل الثورة الاجتماعية والسياسية على مستوى المنطقة . وبناء على ذلك فانها ترى ضرورة العمل من اجل ايجاد حركة او جبهة ثورية على مستوى المنطقة تأخذ على عاتقها مهمة تحريض الجماهير وتثقيفها وتعبئتها من اجل احداث التغيير اللازم الكفيل بالقضاء على المصالح الامبريالية وعملائها في المنطقة بما في ذلك النظام الصهيوني . على ضوء هذه الصورة التي ترسمها المنظمة للواقع الشرق اوسطي حاليا نستطيع ان نفهم الصعوبات التي تواجه المنظمة خلال عملية التحريض السياسي التي تقوم بها ، كما واننا نستطيع ان « نتفهم » الهوة او الفجوة بين الهدف الاستراتيجي الذي تضعه المنظمة وبين انعدام وجود برنامج عمل واضح لتحقيق هذا الهدف . اذا اخذنا بعين الاعتبار تحليلات المنظمة للمجتمع الاسرائيلي التي تخرج بأن التناقض الاساسي في هذا المجتمع يختلف عن المجتمعات الرأسمالية الكلاسيكية ، بمعنى ان هذا التناقض هو تناقض خارجي، تتضح لنا اهمية وجود الشريك في الجانب العربي ، لان اي برنامج عمل يتعدى النضال المطلبي في الجانب الاسرائيلي يصبح غير ذي جدوى حتى على المستوى السياسي — اي قبل تصعيده الى المرحلة الارقى — اذا لم يتوفر الشريك في جانب الاغلبية اي الجانب العربي . على ضوء هذا الواقع السياسي نستطيع ان نفهم عدم قدرة اي تنظيم « ثوري » مثل المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية على اختراق الحاجز الاكاديمي والتحول الى تنظيم سياسي جماهيري . اما في القطاع العربي فتجابه المنظمة عائقين يحدان من فعاليتها وامكانية قيامها بالتحريض السياسي بين الجماهير العربية . هذان العائقان يتمثلان بقوتين سياسيتين مختلفتين هما السلطة وجهازها البوليسي والحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكاح ».

فالسلطة بجهازها القمعي المتمثل في الاستخبارات والشرطة . تقف بالمرصاد لكل تحرك سياسي او تنظيمي (حتى لو كان ثقافيا) اذا كان لا يسيطر عليه اعوانها . لقد كانت السياسة الرسمية للسلطة تجاه العرب في اسرائيل وما زالت تهدف الى عزل هذه الجماهير وابعادها عن مجريات التطورات السياسية وغير السياسية في العالم العربي ، لذلك كانت تشجع على الدوام تلك العناصر التي تنادي بالواقعية والى ربط مصير العرب بمصير الدولة . لقد ايدت السلطة تلك العناصر ودعمتها وجعلت منها ممثلين ينطقون باسم العرب بشتى وسائل الضغط والارهاب ، مستغلة الناحية الاقتصادية حيث ان مصير السوق والايدي العاملة العربية متوقف على الجهة اليهودية التي تتحكم بالانتاج وتصريفه . يضاف الى العامل الاقتصادي العامل النفساني الذي استطاعت اجهزة الاعلام الصهيونية غرسه في نفوس الجماهير العربية مما ادى الى بروز تيار لا يؤمن بجدوى النضال حتى على مستوى النضال المطلبي الذي تكفله القوانين في اسرائيل . بل يميل هذا التيار ويتبع اسلوب تحاشي الاحتكاك بالسلطة ، بمعنى عدم التعرض للامور السياسية الداخلية منها والخارجية ، والانطواء على الذات ومحاولة حل المشاكل بشكل فردي عن طريق الوساطة . ان السبب المركزي والرئيسي الذي ادى الى هذا الوضع هو حالة الجمود التي اصابت القضية الفلسطينية منذ حرب ١٩٤٨ ، هذه الحالة الناتجة عن الوصاية التي فرضتها الانظمة العربية على الشعب الفلسطيني . لذلك فالعرب الذين لم يغادروا البلاد يمكن تقسيمهم على ضوء ما ذكر الى قسمين : الاول قبل بالامر الواقع وربط مصيره بمصير الدولة وهو يتماثل كليا مع الخط الرسمي للسلطة . والثاني رفض التخلي عن ذاته ولكنه مع مرور الايام والسنين وقع فريسة للاوهام التي زرعتها اجهزة الاعلام التابعة للانظمة العربية ، هذه الانظمة التي تجاهلت وجوده في الداخل ، وجعلت من نفسها وصيا على القسم الموجود منه خارج فلسطين . لذلك كان هذا القسم من العرب الموجودين في الداخل ينتظر خلاصه على أيدي الجيوش العربية ، ولم يشعر يوما ما بأنه مطالب بموقف يتعدى موقف المتفرج . هذا القسم من السكان العرب في اسرائيل يشكل القاعدة

الجماهيرية للحزب الشيوعي الاسرائيلي «راكاح». ولكن من الجدير بالذكر ان الجزء الاكبر من هذه القاعدة غير منتظم رسميا داخل صفوف الحزب ، بل يرى في الحزب اطارا شرعيا يمارس من خلاله حركته السياسية في مناهضة السياسة الاسرائيلية الرسمية على الصعيدين الداخلي والخارجي . على ضوء ما ذكر نرى ان الظروف الخارجية والداخلية جعلت من الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكاح » المتنفس الوحيد للجماهير العربية في نضالها اليومي. لقد ازداد نفوذ الحزب الشيوعي في الوسط العربي بسبب التقارب المصري — السوفياتي الذي تجلى في التنسيق السياسي والعسكري والاقتصادي بين البلدين . لقد كانت العلاقات العربية ـ السوفياتية وما زالت عامل سلب او ايجاب بالنسبة لحجم التأييد الذي يناله الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكاح » في القطاع العربي . والدليل على ذلك ان الحزب في انتخابات ١٩٥٩ خسر ما يقارب نصف الاصوات بسبب النزاع السوفياتي — العربي في تلك السنة . بناء على هذا كله نرى ان هذه الجماهير اصبحت تقرر موقفها من التنظيمات السياسية في الداخل والخارج على ضوء موقف هذه التنظيمات من النظام الناصري الذي تعتبره أملها الاكبر في الخلاص رغم تقديرها وعطفها الصامت على حركة المقاومة . وهي لا ترى ولا تريد ان ترى اي ترابط بين قبول قرار مجلس الامن ومن بعده مبادرة روجرز وبين ما تتعرض له المقاومة من محاولات التصفية على أيدي النظام الاردني . انها لا تريد ان ترى ذلك دفاعا عن نفسها وأملها في الخلاص ، وهي ستبقى كذلك طالما لم يتبلور بديل جاد يأخذ على عاتقه مهمة تعبئة الجماهير وتثقيفها ليس فقط من اجل خوض معركة التحرير بل من اجل خوض معركة التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي على صعيد الوطن العربي. هذه المهمة ليست سهلة . ولكنها ليست صعبة المنال ايضا ، وهي تتطلب تنسيقا كاملا بين جميع التنظيمات السياسية الثورية في العالم العربي بما فيها العمل الفدائي ، من جل اقامة جبهة ثورية عريضة تضع برنامجا للعمل السياسي والعسكري (حد ادنى) تتفق عليه جميع التنظيمات .

هذه صورة مبسطة للتيارات الفكرية والسياسية السائدة في ذلك القطاع من السكان العرب الذين لم يسلموا بالامر الواقع . فاذا لخصنا العوامل المؤثرة والموجهة والضاغطة في هذا القطاع نراها : منطلق قومي يرى في الناصرية ممثلة للحركة العربية القومية وللتحرر السياسي والاجتماعي ومكافحة الاستعمار والصهيونية . هذا التيار القومي يتعرض لعملية كبح وتوجيه من جانب الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكاح » ، حيث يشكل الحزب « راكاح » الاطار السياسي الذي يعمل من خلاله هذا التيار ، حيث يقوم الحزب بامتصاص هذه الطاقة وتوجيهها في اقنية النضال المطلبي الشرعي . اما العامل الضاغط والكابت فيتمثل في السلطة بأجهزتها المختلفة التي تشكل عامل ردع للجمهور العربي ، بحيث تقوم بعملية تهديد وترغيب لعزل الجمهور العربي وخصوصا الشباب المثقف عن العمل السياسي حتى لو اتخذ الشكل الشرعي الذي يكفله القانون .

هذا هو واقع الامور في الوسط العربي الذي يجب ان تتنبه المنظمة او اي تنظيم ثوري آخر . والصعوبات التي تواجهها المنظمة في الوسط اليهودي لا تقل جسامة عن تلك التي تواجهها في الوسط العربي . هنالك قاسم مشترك لهذه الصعوبات يتمثل في النظرة الى المنظمة على انها مجموعة من الشباب المثقف المغامر وغير الواقعي. على ضوء هذا المناخ السياسي والايديولوجي السائد في اسرائيل سواء في القطاع العربي او اليهودي يجب ان ننظر الى فعاليات المنظمة. وتقييمنا للمنظمة يجب ان يستند بالدرجة الاولى الى علمية تحليلاتها وجرأتها في طرح قضية الشرق الاوسط والنزاع الاسرائيلي — العربي ، لا الى مدى حجمها وتأثيرها على الجماهير في الداخل . لاننا اذا نظرنا الى هذا الامر فسنجد ان المنظمة هي «ظاهرة» جديدة في المجتمع الاسرائيلي أكثر منها تيار سياسي جماهيري ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان اي احتمال لحدوث تغيير جذري في البنية السياسية الاسرائيلية يعتمد على عوامل خارجية في الدرجة الاولى . هذه العوامل الخارجية التي تتجسد في تبلور حركة او جبهة ثورية عربية تضع حلا للمعضلة القائمة حاليا حول ماهية الصراع مع الصهيونية على المدى الطويل بمعنى هل تتركز الجهود حول قومية المعركة ، ام تتركز الجهود لجعل الصراع اكثر شمولا وعمقا بحيث توجه الجهود ضد الصهيونية والرجعية العربية والمصالح الامبريالية في المنطقة في آن واحد . في اعتقادي ان الحسم في هذه

النقطة له أهميته الكبرى سواء سلبا او ايجابا على اي عمل سياسي ثوري داخل الارض المحتلة. ففي حالة الحسم في هذا الموضوع على الصعيد النظري، ووضع برنامج عمل سياسي وعسكري يأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية القائمة في المنطقة عامة وبضمنها اسرائيل ، وامكانيات القوى الثورية التي تلتقي حول الهدف الاستراتيجي للعمل الثوري وحول استراتيجية الكفاح المسلح يصبح بالامكان وضع شعارات كل تنظيم ثوري في المنطقة وخصوصا داخل اسرائيل موضع الاختبار . ان تحقيق هذا الهدف ، اي وحدة القوى الثورية حول الابعاد العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للنضال يتطلب شرطين رئيسيين هما : ممارسة النقد والنقد الذاتي ، والاخذ بمبدأ الديمقراطية المركزية في جميع الامور .

المنظمة والانشقاق : تشكلت المنظمة منذ تأسيسها من ثلاث مجموعات . المجموعة الاولى كانت تتكون من بعض افراد الحزب الشيوعي الاسرائيلي (قبل انشقاقه) وافراد هذه المجموعة ما زالت اغلبيتهم ضمن اطار المنظمة الام بعد الانشقاق. اما المجموعة الثانية فكانت تتكون من بعض الافراد الذين انشقوا عن « حركة العمل السامي » . افراد هذه المجموعة لم يحافظوا على اي نوع من التكتل ولم يشكلوا تيارا بحد ذاته ، بسبب افتقارهم منذ البداية — اي قبل انشقاقهم عن حركة العمل السامي — الى اية ايديولوجية واضحة . اما المجموعة الثالثة فكانت تمثل التيار التروتسكي في المنظمة الذي يتبع ما يسمى « السكرتاريا العالمية للاممية الرابعة » هذه الالوان الرئيسية للمنظمة تعددت وتفرعت اكثر بعد حرب يونيو ، حيث انضم الى المنظمة بعض الشباب الآتي من فرنسا ومن اميركا اللاتينية والمانيا الغربية وبعض عناصر من حزب المابام او مؤيديه ، معظم هذا الشباب اليهودي المهاجر كان ضمن اطار اليسار الصهيوني في بلاده ، ولكنه صدم بالواقع عندما هاجر الى اسرائيل ، حيث اخذ الوجه الحقيقي والدور الحقيقي للحركة الصهيونية يتضح له ، ولكن هذا لا يمنع بقاء بعض الرسوبات من الفكر الصهيوني احيانا في نفسية وفكر هؤلاء الشباب . ولكن بقيت بعض الامور التي توحد هذه المجموعات رغم تعدد ألوانها واختلاف بلدانها الاصلية وبالتالي اختلاف المؤثرات الفكرية عند كل مجموعة . من جملة الامور الموحدة سواء على الصعيد العالمي او على الصعيد الداخلي :

١) كون المنظمة على صعيد الفكر امتدادا لحركة اليسار الجديد التي اجتاحت اوروبا في اوائل الستينات . ان هذه الحركة ، برغم تعدد تياراتها واجتهاداتها بالنسبة لبعض القضايا وخصوصا قضايا العالم الثالث ، تتفق حول موقفها من الاحزاب الشيوعية في بلدانها وحول تحليلاتها لطبيعة النظام السوفييتي والسياسة الخارجية اللاثورية للحزب الشيوعي السوفياتي التي جعلت من الاحزاب الشيوعية في العالم مجرد احزاب اصلاحية لا تسعى لاستلام السلطة فحسب بل وترفض العنف كوسيلة للوصول الى ذلك ، كما وانها اخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي .

٢) على الصعيد الداخلي تتفق المجموعات التي تشكل المنظمة حول نظرتها الى الحزب الشيوعي الاسرائيلي وفي كونه حزبا لم يعد باستطاعته حمل الاعباء الثورية المتوجبة على كل حزب ماركسي — لينيني . كما وانها تتفق جميعا على عدم استطاعتها ممارسة افكارها السياسية والقيام بالدعاية والتثقيف ضمن اطار الحزب الشيوعي بسبب تخلي الحزب عن مبادىء النقد والنقد الذاتي وبسبب تفشي البيروقراطية في قيادة الحزب . يضاف الى هذا مواقف الحزب من بعض القضايا العالمية والداخلية قبل وبعد انشاء المنظمة .

جميع هذه المواقف التي وحدت الجماعات المختلفة التي كونت المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية على الصعيد النظري وعلى صعيد التحليلات لعدة قضايا داخلية مثل النظرة الى الصهيونية والنظرة الى المجتمع الاسرائيلي والموقف من الهستدروت وغيرها من القضايا ، كانت تبطن في داخلها تباينا في الاستنتاجات المترتبة عن هذه التحليلات ومن ثم تباينا في التكتيك المتوجب اتباعه على صعيد الممارسة العملية للمواقف . بقيت هذه التباينات تتفاعل وتتفاقم حتى اصبح الوضع داخل المنظمة لا يطاق حسب تعبير الجميع . فرغم معرفة الجميع منذ البداية بوجود بعض الخلافات فان الاعتقاد السائد في المنظمة كان يرى بأن هذه التباينات عدا عن كونها ظاهرة صحية فانها لا بد ستتلاشى مع مرور الزمن نتيجة للممارسة المشتركة للنضال ونتيجة لحرية الرأي والحوار التي حرصت المنظمة

على ان تكفلها . ولكن الذي حدث ان هــذه التباينات اوصلت المنظمة في الآونة الاخيرة الى ما يشبه حالة الشلل .

يضاف الى ذلك كله تفشي عدم الانضباط وهبوط مستوى الفعالية كنتيجة لاختلاف وجهات النظر . جميع هذه الامور ابتداء من التباين في الاستنتاجات المترتبة عن التحليل وانتهاء بعدم القناعة الذاتية من مستوى وشكل النضال ، بالاضافة الى عامل الحساسيات على المستوى الشخصي الذي لمسته شخصيا ، رأى الجميع ان الانشقاق هو المخرج لهذا الوضع ، بحيث تصورت كل فئة بانها اصبحت تملك حرية الحركة أكثر من السابق . ولكن الامر الذي ما زال قائما هو ان الانشقاق عدا عن انه لم يؤد الى سد الفجوة بين الهدف الاستراتيجي للمنظمة وجناحيها المنشقين وبين خطة العمــل لتحقيق الهدف الاستراتيجي ، فلقد ادى الى زيادة الغموض والنظرة غير الجدية لشعارات هذا اليسار الثوري على اختلاف اجنحته . اذا ما تمعنا في الاتهامات المتبادلة بين الاجنحة الثلاثة ، والردود على هذه الاتهامات ، نرى ان الميزة الرئيسية لهذه الردود هي نفي قاطع لمعظم هذه الاتهامات ، ولكن تبقى بعض الميزات الرئيسية التي يمكن اضفاؤها على كل تنظيم . فالنتيجة المستخلصة من الحوار بين المنظمة الام ومجموعة اللامبرتيين هي ان نقطة الخلاف المركزية ليست حول التحليل لطبيعة المجتمع الاسرائيلي ، بل حــول النتائج المترتبة عن هذا التحليل واثرها على ماهيــة العمل السياسي والتحريضي واتجاهاته . هذه هي النقطة المركزية والجوهرية في الخلاف بين المنظمة الام والاتحاد الشيوعي الثوري من جهة وبين اللامبرتيين من جهة ثانية . وفي هذا المجال يظهر مدى الاتجاه الدوغماتي عند اللامبرتيــين ، حيث ان الموقف النظري الصحيح من قضية معينة يصبح نوعا من الجمود الفكري اذا تعامى عن الظروف الموضوعية القائمة في البلد المعين . لذلك فان التركيز على التناقض الطبقي داخل اسرائيل ، ومن ثم بناء استراتيجية العمل الثوري على هذا الاساس ، يمكن ان يؤدي بالنضال الثوري الى منزلق النضال المطلبي الصرف ، والى الوهم في امكانية احداث تغيير جذري وثوري في بنية وايديولوجية المجتمع الاسرائيلي السياسية والاقتصادية والاجتماعية من الداخل وعلى الاخص الشرائح العمالية لهذا المجتمع.

هنالك نقطتان تجمعان بين الاتحاد الشيوعي الثوري واللامبرتيين في موقفهما من المنظمة . النقطة الاولى تتعلق باتهامهما للمنظمة بانها ترفض اعداد برنامج عمل سياسي . اما النقطة الثانية فتتلخص بان كلا التنظيمين يرى بان المنظمة اضحت تشكل تجمعــا متباينا لمعارضي الخط الرسمي للسلطة على كافة المستويات اكثر من كونها تنظيما له مواقف محددة ويخضع اعضاؤه لمبدأ الديمقراطيــة المركزية في ممارسة المواقف النظرية على الصعيد العملي وفي نشاط وتصرفات الاعضاء . وبينما ترفض المنظمة الاتهام الثاني فانها تقر بالاتهام الاول مبررة هــذا الموقف بانها تفضل تطوير برنامج بشكل عضوي ، ليساير التطور السياسي والفكري للتنظيم وانها ليست ضد الفكرة مبدأيا . رغم اقرار الاجنحــة الثلاثة باهمية وضرورة العمل والتواجد في الوسط العربي في اسرائيل ، فان نشاط المنظمة الى ما قبل الانشقاق لم يكن بالمستوى المطلوب لاقامــة علاقات جدية في هذا الوسط وخصوصا مع الشباب المثقف والعمال . لقد كان اعضاء المنظمة يظهرون في الشارع العربي في المواسم الانتخابية والمناسبات الاخرى فقط ، وهكذا فان عمل المنظمة في هــذا الوسط لم يكن عملا متواصلا هادئا وهادفــا ، بل كان يهدف الى احداث اكبر قدر من الضجة ، الامر الذي لفت الانظار الى المنظمة ولكنه لم يؤد الى النتيجة المرجــوة من كــل عمــل سياسي وتحريضي وهي في البداية نشر الافكــار ومن ثم كسب عطف وتأييد السكان ككل وبالتالي اجتذاب العناصر الواعية الى صفوف التنظيم ، بمعنــى التواجد ، لقد فشلت المنظمة في التواجد في الوسط العربي والاسباب متعددة ، منها ان العمل الدعائي كان على فترات متقطعة ، ومنها ان المنظمة لــم تبذل جهدا مركزا من اجل اقامة صلات وثيقــة ومستمرة على المستوى الشخصي كبداية من اجل انشاء خلايا صغيرة ، ومنها عدم استطاعة المنظمة ازالة الغموض حول جدية مواقفها النظريــة ، ومدى استعدادها لتحويــل هذه المواقــف الى ممارسة عملية ، بالاضافة الى عدم تفهم صحيح للواقع السياسي في الوسط العربي ، الامر الذي يتطلب اسلوب عمل خاص ، على اعتبار ان الهدف النهائي للعمل التحريضي ليس اعداد الجماهــير لخوض النضال المطلبي فقط ، بل الى الارتقــاء بهذا النضال الى مرحلة العنف . لقد اخذ الاتحاد

الشيوعي الثوري هذا الامر بعين الاعتبار مستفيدا من تجربة المنظمة في الوسط العربي ، بحيث يقوم بعمل اكثر كثافة وتركيزا واقل صخبا ، وهـذه هي الميزة الرئيسية للاتحاد الشيوعي الثـوري في عمله السياسي سواء بين الجماهير اليهودية او العربية . يشدد الاتحاد على ضرورة اقامة جبهة ثورية في اسرائيل تأخذ على عاتقها علـى المدى البعيد هدف تحضير وتنظيم وادارة الصراع ضـد الحكـم الصهيوني علـى ضوء الاممية البروليتارية ، بجميع الطـرق التي ترتئيها هذه الجبهة . لقد حقق الاتحاد الشيوعي الثوري نجاحا نسبيا في عمله في الوسط العربي في فترة وجـيزة بالقياس الى عمل المنظمة في هذا الوسط ، يختلف الاتحاد الشيوعي الثوري عن الجناحين الاخرين في نظرته وتقييمه للعمل الفلسطيني المسلـح ، رغم اقراره بعدم تبلور بديل اممي في صفـوف حركة المقاومة الفلسطينية ، ورغم اقراره بـأن النصر النهائي على الصهيونية مرتبط بقيام جبهة ثورية على مستوى العالم العربي تأخذ على عاتقها ادارة الصراع ضـد الصهيونيـة والاستعمـار والرجعية العربيـة ، وتقـوم في نفس الوقـت بمحاربة الاتجاهات الشوفينية في اوساط حركـة التحرر العربي . يتجسد هذا الاختلاف في تركيزه على اهميـة تفتيت تدريجي للتفـوق العسكري الاسرائيلي حاليا . هذا الشـعار يمكن ان يضم قوى ثورية تتباين في التفاصيل ولكنها تلتقي حول الاستراتيجية العامـة للنضال ، ذلـك النضال المشترك كفيل بتوحيد تلك القوى في النهاية اذا بني على اساس ديمقراطي يكفل حرية النقد والنقد الذاتي . كما وينتقد الاتحاد موقف المعلم والمرشد الذي يتبعه الجناحان الاخران من القوى الثورية في المنطقة .

يختلف الاتحاد الشيوعي الثوري عن الجناحـين الاخرين في موقفه من الاتحاد السوفييتي ، فرغم اتفاقه مع الجناحين الاخرين في تحليل طبيعة النظام والحزب الشيوعي السوفياتي ، غير ان هـذا الموقف يبقى اكثر « اعتدالا » واقل حدة من بعض القضايـا على الصعيـد الـداخلي في الاتحـاد السوفييتي . فعلى سبيل المثال نرى ان الاتحاد الشيوعي الثوري اسقط من برنامجه السياسي بندا كان قد ضمنه لاقتراح برنامج العمل السياسي الذي تقدمه الى المنظمة قبل الانشقاق . هذا البند ينص على ما يلي : « **التضامن مع العمـال ، والمثقفين والقوميات المضطهدة في الاتحـاد السوفياتي (« والدول العمالية ») في نضالهم ضد سلطة الثورة المضادة البيروقراطية ومن اجـل دمقراطية اشتراكية** » (من نشرة خاصة أصدرها الاتحـاد الشيوعي الثوري قبـل الانشقاق) . ان اسقاط هذا البند له دلالته ، ولقد اتضحـت هذه الدلالة اثناء « محاكمات لينغراد » حيـث رفض الاتحـاد الشيوعي الثوري اعتبار هـذه القضية ، قضية ديمقراطيـة تتعلق بالحريـات الشخصية . ورفض موقف المنظمة القائل بضرورة ضمان حرية الهجرة لمواطني الاتحاد السوفياتـي بما فيهم اليهود . هذا الموقف الذي يبدو موقفـا ديمقراطيا على الصعيد النظري يغفـل الناحيـة الموضوعية ودور الصهيونية في تلك القضيـة ، ويتخذ منها ذريعة للتهجم على الاتحاد السوفياتي وموقفه من الاقليات القومية .

لقد حاولت اعطاء صورة واضحة قدر الامكـان عن الانشقاق الاخير ، معتمـدا في هـذا عـلى معايشتي لتلك الفترة وعلى صلتي الشخصية بتلك الاجنحة الثلاثة بعد الانشقاق ، مبينا الاتجاهات او الاتجاه المركزي للجناحين المنشقين . وتحاشيت قدر الامكان التكرار لان الملاحـق التي الحقتهـا الباحثة في كتابها تتضمن بعض المقالات التي تدور حول موضوع الانشقاق ، ولكـن هذه الملاحـق اعطت نقط موقف المنظمة وردودها على النقاط التي اثارها المنشقون . اما الانطباع العام لكل من يقرأ كتاب الباحثة حول مواقف المنظمة والاجنحة المنشقة على الصعيد النظري والممارسة العملية فيبقى غير كاف . اما الاجابة على السؤال المركزي التالي : اين تقف المنظمة والجناحان المنشقـان من استراتيجيه الكفاح المسلح ؟ فان الجواب على هذا التساؤل يجب ان يأتي من قبل المنظمة الام وجناحيها المنشقين بشكل عملي تثبت فيه خروجها في ممارستها العملية لمواقفها النظرية عن اطـار النضال المطلبي الصرف ، مع الاخذ بعين الاعتبار بان الانشقاق الاخير يعبر في ماهيته عن عدم القناعة من اسلوب الممارسة العملية للمواقف النظريـة وبان الانشقاق لم يتجاوز في عمره السنة وهـي بالطبع غير كافية للحسم في قضية على غاية من الاهمية كهذه .

هاني العبدالله

تقارير ورسائل

مؤسسات البحث الاميركية والقضية الفلسطينية

يعمد البعض الى القول ان سياسة الدعم الاميركية لاسرائيل ومطامحها تقوم على سوء فهم الدوائر الاميركية الحاكمة لمصالح الولايات المتحدة في الشرق الاوسط ، وينتهي هؤلاء الى القول ان مجابهة اميركا ومصالحها في المنطقة تلحق الضرر بالقضية العربية، لان ذلك يجعل من اسرائيل الحليف الوحيد للولايات المتحدة في المنطقة . والمطلوب ، في رأي هؤلاء ، ليس اكثر من تبصير الولايات المتحدة بمصالحها الحقيقية ، بالدعاية الذكية طبعا . ولا شك في أن الوجه الاخر لهذا المنطق هو منطق ان اميركا ضحية للدعاية والنفوذ الصهيونيين ، وأن من مصلحة العرب أن يخلصوها بوسائل وديعة ، على راسها الدعاية الذكية مرة اخرى . ولا شك في أن هذين المنطقين ، بغض النظر عن الدور السياسي والاجتماعي الذي يلعبانه ، متهافتان لسبب بسيط هو أن اميركا تعرف مصالحها في المنطقة العربية معرفة كاملة ، تماما كما تعرف مصالحها في الهند الصينية او في اي مكان اخر من العالم .

غير ان من يملكون سلطة التقرير السياسي في الولايات المتحدة بدأوا مع التورط الاميركي في الهند الصينية يشعرون ان تحديد المصالح الاميركية في هذه المنطقة او تلك من العالم لا يكفي لتحديد سياسة اميركية سليمة ، من وجهة النظر الاميركية بالطبع . وشاهد هؤلاء على ذلك ، أن أميركا تورطت في فيتنام رغم معرفتها الدقيقة والتفصيلية لمصالحها في المنطقة . ويعزو هؤلاء الفشل الاميركي الى أن اميركا لم تأخذ بالحسبان المقاومة الصلبة البطولية التي جابهت بها جماهير فيتنام العدوان الاميركي ، ويذهبون الى القول أن ذلك يعود الى اعتماد السياسة الاميركية في معرفتها لفيتنام ولشعب فيتنام على مصادر ثانوية أغلبها فرنسي ، فهي لم تقم من جانبها بدراسة اولية لفيتنام والاوضاع الفيتنامية . وينتهي هؤلاء الى القول أن على السياسة الاميركية أن لا تقترف الخطأ ذاته في الشرق الاوسط ، الذي تعدل أهمية المصالح الاميركية فيه اهميتها في الهند الصينية او ربما تزيد . ولذا فان على السياسة الاميركية ان لا تعتمد على المصادر البريطانية والفرنسية في فهم المنطقة ، بل ان عليها ان تقوم ببحث أصيل لكل ما يتعلق بالمنطقة وشعوبها، لتتمكن من تحديد خطواتها السياسية وضبطها بدقة ، وتستطيع توقع ردود الفعل عليها .

ويبدو ان مراكز التقرير السياسية الاميركية قد اخذت بهذا الرأي ، اذ تجري الان في الولايات المتحدة دراسات مستفيضة للشرق الاوسط والشعوب العربية من مختلف النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والديموقراطية والتاريخية والنفسية . ويشترك في هذه الدراسات عدد ضخم من مؤسسات البحث والمراكز العلمية والافراد . ويقوم بالتنسيق ما بين هذه الجماعات ، وما بين خطوط البحث المختلفة مؤسسة فورد التي عهدت بها الحكومة الاميركية بذلك .

ولا شك في أن هذه الابحاث ، على شمولها واتساعها واهتمامها بأدق التفاصيل ، تركز على دراسة الشعب الفلسطيني والفرد الفلسطيني والحركة الوطنية الفلسطينية . ويعود ذلك الى أن السياسة الاميركية تعتبر أن احد اهم الاهداف التي تضعها على رأس قائمة اولوياتها هو تحقيق تسوية سلمية لنزاع الشرق الاوسط . ولا تقتصر هذه التسوية كما تريدها السياسة الاميركية على العودة الى الاوضاع التي كانت سائدة قبل حرب حزيران ، او التقدم عليها خطوة او خطوتين بتحقيق اعتراف عربي واقعي وقانوني ودبلوماسي باسرائيل ، بل تتعدى ذلك الى الاندفاع باتجاه انشاء وحدة اقتصادية تنتظم المنطقة كلها ، وتلعب فيها اسرائيل دور الشريك الاصغر للامبريالية

الاميركية في نهب المنطقة وثرواتهـا واستغـلال شعوبها . ولهذا الامر اهمية كبرى في نظر السياسة الاميركية ، فهي من جهة تريد تحقيق توازن دائم وثابت في المنطقة لا تتهدده احتمالات النمو الثوري، وهي من جهة ثانية تشعر أن اميركا لا تستطيع ان تستمر في حقـن اسرائيـل بالمساعدات المالية والاقتصادية إلى الابد ، وان علـى المشروع الاستيطاني الصهيوني أن يصبح قـابلا للحيـاة والاستمرار بذاته . ومن هنـا تركز الابحـاث والدراسات التي أشرنا اليها على الفلسطينيين والحركة الفلسطينية . فالسياسة الاميركية تعتقد أنه على الرغم من أن المقاومة الفلسطينية لم تعد بعد الضربة القاسية التي وجهها لها النظـام الاردنـي فعالة عسكريا ، الا انهـا لا تـزال فعالة جدا سياسيا . فالمقاومة هي العنصر الوحيد في المنطقة الذي لا يزال يهدد بتعقيـد احتمـالات التسوية السلمية ، او انه على حد تعبير السياسة الاميركية عنصر التطرف الجدي الوحيد في المنطقة .

وتزداد اهمية دراسة الفلسطينيـين والحركـة الفلسطينية في نظر السياسة الاميركية لان هـذه السياسة تشعر ان المقاومة تدخل عنصرا من الشك على الحسابات السياسية الاميركية ، اذ لا يمكن حتى الان توقع ردود فعلها واتجاهات استجاباتها ان سلبا او ايجابا بالعلاقة مـع الخطـوات السياسية المحتملة .

تعتمد الدراسات الجارية للشعب الفلسطيني على مصادر مختلفة ومتعددة ، لكن ما يهمنـا هنا هو الاشارة الى المصادر التي تعتمدها الابحـاث الجارية حول المقاومة الفلسطينية . اول هـذه المصادر هو ملفات استجواب آلاف المعتقلـين الفلسطينيين في سجون العدو . ونستطيع أن نقدر أهمية هذا المصدر حق قدرها ، اذا أخذنا بعين الاعتبار ان الاستجواب الذي يجري للمعتقلين ليس استجوابا بسيطا يهدف الـى تحديد مسؤوليـة المستجوب عن هذا العمل أو ذاك ، بل هـو استجواب مركب يهدف الى معرفة أوفى التفاصيل عن مختلف الجوانب : نمط الاعداد الذهني والنفسي والثقافي للمقاتلين ، نمط الاعداد العسكري لهم ، الحياة داخل المنظمات الفلسطينية ، علاقـات المقاتلين ببعضهم بعضا وبرؤسائهم ، التركيـب التنظيمي للمنظمات وعلاقة الاجهزة السياسيـة بالاجهزة العسكرية ، أسماء القادة وخلفياتهـم الاجتماعية والسياسية وشخصياتهم، مراكز القوى وتوزيع التكتلات داخل كل منظمة . ولا يجري هذا الاستجواب عشوائيا، بل طبقا لاستبيانات متكاملة معدة سلفا وبدقة . ويركز الاستجواب على عناصر الكادر الوسيط في الحركة الفلسطينية الذين يقعون أسرى في قبضة العدو ، فالكادر الوسيط يتمتـع بأهمية بالغة في أي حركة سياسية مسلحة ، اذ انه هو الحزام الذي يصل ما بين القمة والقاعدة ويضمن للحركة تماسكها أو يتسبب في ضعفه . ولذا يسعى الاستجواب الى دراسة عناصر هذا الكادر بدقة ، وكثيرا ما يتعمد اجراء نقاشات بين هؤلاء وبين اختصاصيين في مسائل قد تبدو وكأن لا علاقة لها بالموضوع ، ولكنها في الحقيقة تهدف الى دراسة شخصيات المستجوبين وقدراتهم .

أما المصدر الثاني الذي تعتمد عليه مؤسسات البحث الاميركية في دراسة المقاومة فهو المـواد المنشورة عنها . وتشكل هذه المواد بالفعل ثروة هائلة من المعلومات ، اذ يندر وجود حركة تحرر وطني صدر عنها وكتب فيها بكثرة ما صدر عن المقاومة الفلسطينية وكتب فيها . فلقد عاملـت المقاومة مسألة الدعاية والاعلام بطريقة يغلب عليها الانكشاف وتشوبها السذاجة ، فصدرت عنها آلاف البيانات ، وزار قواعدها ومكاتبها ومقراتها آلاف الصحفيين والزوار ، وصورت عن حياتها وحتى عملياتها مئات الافلام التلفزيونية. لقد كانت المقاومة تكاد تفتح ابوابها لكل طارق ، ويقابل مسؤولوها كل من طلب المقابلة . ويكفي في هذا المجال أن نشير الى ان سكرتيرة أوري أفنيري ، حضرت الى الشرق الاوسط بجواز سفر اميركي منتحلة صفة صحفية ، وقابلت عددا من مسؤولي المقاومة وزارت عددا من القواعد ، ثم عادت الى اميركا واسرائيل لتتحدث عن مشاهداتها في الصحف والاذاعـات وعلى شبكات التلفزيون . وبالطبع يمكن للمؤسسات الاميركية ان تستفيد استفادة قصوى من كل ما نشر، بعد ان يتم تبويبه وتصنيفه وتحليله ومقارنته . هذا بالاضافة الى ان كثيرين ممن استطاعـوا الوصول الى المقاومة بالطريقة اياها لم ينشروا ، بل كتبوا تقارير مباشرة الى المخابرات الامبريالية ، وكثيرين ممن نشروا لم ينشروا كل شيء بل وضعوا ما تبقى تحت تصرف هذه المخابرات .

ولعل من أهم الدراسات التي أجريت حول المقاومة الفلسطينية دراسة مقارنة بينها وبين حركة التحرير الوطني الفيتنامية (الفيتكونغ) . وقد تسربت بعض المعلومات حول هذه الدراسة، ويمكن تلخيص

أهم ما جاء فيها في النقاط التالية :

١ ــ يؤكد الفيتكونغ تأكيدا كبيرا على التمسك بالحياة وضرورة المحافظة على القوى البشرية ، وتنفيذ العمليات والتصدي للهجمات بأقل ما يمكن من الخسائر في الارواح ، وبالمقابل تؤكد الحركة الفلسطينية على تمجيد الموت والسعي الى الشهادة . ويميل ذلك في الحالة الفلسطينية الى زيادة عدد الاصابات خلال الاشتباك ، لانه نفسيا يقلل من سرعة استجابة المقاتل للمؤثرات الخارجية ويحقنه بنوع من الجبرية تدفعه احيانا الى الصمود حيث يجب الهرب والى اقتحام الاخطار حيث ينبغي تجنبها .

٢ ــ يولي الفيتكونغ أهمية كبيرة للعلاقة بين التاكتيكات والسلاح ، فهم يركزون على معرفة المقاتل لمزايا وسمات سلاحه التعبوية معرفة كاملة ، ويهتمون اهتماما بالغا بتكامل أسلحة المجموعة القتالية وتناسب أسلحة المجموعة مع المهمة الملقاة على عاتقها سواء كانت كمينا أم اقتحاما أم مناوشة أو غير ذلك من صنوف الاشتباك . اما في الحركة الفلسطينية فتكاد نقاط التركيز هذه تكون غائبة ، وبالمقابل يميل المقاتل الفلسطيني الى امتلاك احدث انواع السلاح واكثرها فعالية مما يخلق نوعا من التماثل في اسلحة المجموعة الواحدة يحول دون تكاملها .

٣ ــ يعمد الفيتكونغ في الاعداد الذهني والنفسي لجمهرة اعضائهم الى التركيز على قضايا عيانية وأهداف ملموسة مثل الفظائع التي يرتكبها العدو والاوضاع السيئة التي يعاني منها الشعب والرفاه الذي سيحققه انتصار الثورة والارض التي ستوزع على الفلاحين لدى تحرير المناطق وما الى ذلك ، أما حركة المقاومة فتميل الى التركيز على قضايا واهداف مجردة ، مثل الظلم الواقع بالشعب والعدالة والحق اللذين يجب ان ينتصرا واعلاء كلمة العرب ورفع شأنهم والديالكتيك والتاريخ وما الى ذلك . ويبدو ان النوع الاول من الاعداد أقرب الى اذهان الجماهير وأقدر على تعبئتها بصلابة ، بينما يفشل النوع الثاني في تحقيق مستوى مرتفع من التعبئة والصلابة .

٤ ــ يلجأ الفيتكونغ الى اساليب مدروسة للتجنيد واختيار الاعضاء ، ويتبنون اسلوب الانتقاء ، وبعد التجنيد يعمدون الى اختبار المجندين ومن ثم توزيعهم على المهام التي تناسب كلا منهم . أما أنماط التجنيد في الحركة الفلسطينية فمختلفة وعشوائية ولا تعلق أي قدر من الاهمية على الاختيار الدقيق للاعضاء . ويصيب هذا الامر المقاومة بضعف بالغ، اذ يتيح وصول عناصر ضعيفة الى التنظيم والوحدات المقاتلة ، ولما كانت قوة أي وحدة أو مجموعة تماثل قوة أضعف عنصر فيها ، فان سوء الاختيار او انعدامه يؤدي الى اصابة الوحدات والتنظيم كله بضعف عام .

٥ ــ يتميز الفيتكونغ ببساطة وقوة العلاقات بين القيادة والقاعدة وخلوها من التوتر ، فهي تقوم لديهم على الثقة الرفاقية المتبادلة ، وعلى الطاعة والانضباط القائمين على اعجاب الوحدة بقائدها ، الذي يختار بدقة بحيث يكون متفوقا في قدراته على افراد المجموعة . أما في المقاومة الفلسطينية فيندر ان تخلو علاقة القاعدة بالقيادة من التوتر ، وينجم ذلك عن سوء اعداد الكادرات ووجود نزعات تسلطية لديها .

٦ ــ تسود وحدات الفيتكونغ علاقات رفاقية طيبة ، وغالبا ما تكون علاقة افراد المجموعة الواحدة ببعضهم بعضا على المستوى ذاته من القوة ، وتكاد تنتفي بينهم التكتلات . أما في حركة المقاومة فغالبا ما يكون داخل المجموعة الواحدة كتل يشعر افراد كل منها بأنهم أقرب الى بعضهم بعضا منهم الى الآخرين . وفي احيان اخرى تطور المجموعة الواحدة علاقات وثيقة جدا تجعل أي عنصر جديد يدخل اليها يشعر بالعزلة عن الباقين . وقد وجد ان هذه النزعة تزيد من وتيرة الاصابات في المجموعة الفلسطينية المقاتلة خلال الاشتباك ، اذ انها لا تتبادل الدعم بين مختلف عناصرها بصورة متساوية ، بل يميل اعضاء الكتلة الواحدة بصورة لا شعورية الى تبادل الدعم فيما بينهم وحجبه عن باقي افراد المجموعة .

٧ ــ لا تعود صلابة المقاتل الفيتنامي الى دقة التنظيم وحسن الاعداد الذهني والنفسي فحسب ، بل وايضا الى سيادة النقد والنقد الذاتي ، فهما يؤديان الى ثقة المقاتل بنفسه وقدراته وثقته برفاقه وبقيادته . وتعطيه هذه الثقة قدرة هائلة على التحمل في الاوقات العصيبة ، وتخلق لديه ميلا الى عدم استفظاع الاخطاء والهفوات عندما يتسبب فيها الغير . على العكس من ذلك ، يكاد النقد والنقد الذاتي يكونان غائبين في صفوف المقاومة الفلسطينية مما يخلق عيبا في تكوين المقاتل وشرخا في صلابته وقوة احتماله .

٨ ــ حقق الفيتكونغ شبكة استخبارات دقيقة

ومنظمة وواسعة تشمل ارجاء البلاد جميعا ، وتوصلوا الى مستوى مرتفع من القدرة على استخدام المعلومات التي يستطيعون جمعها والتوصل اليها . ومن الجهة الاخرى تجمع المقاومة الفلسطينية كميات ضخمة من المعلومات عن العدو ، ولكن اجهزة رصدها لا تستطيع تنسيق وتبويب وتحليل المعلومات ومن ثم هضمها وتمثلها واستخدامها في العمل .

٩ — مستوى الكراهية للعدو مرتفع جدا لدى المقاتل الفيتنامي بالمقارنة مع المقاتل الفلسطيني ، وذلك يعود الى اختلاف نمطي التعبئة النفسية بين الفيتكونغ والمقاومة الفلسطينية ، فبينما يتجه الفيتكونغ الى حقن المقاتلين والكادرات بالكراهية والاحتقار للعدو ولكل ما يمت له بصلة والى تمجيد الحياة الفيتنامية وفضائلها تجاه حياة العدو الغربية المرذولة ، لا تبذل المقاومة الفلسطينية أي جهد حثيث في هذا السبيل ، حتى ان نظرة الكثيرين من المقاتلين الى العدو يشوبها الاعجاب به وبطريقته في الحياة . وهذا بالطبع يميل الى التقليل من شراسة مجابهة المقاتل الفلسطيني للعدو .

١٠ — تمتاز وحدات الفيتكونغ في المستويات الدنيا بقدرة عظيمة على المبادرة والمبادهة واتخاذ القرارات ، وينمي التنظيم هذه القدرات لدى اعضائه بوعي وتصميم . فمعظم من يندرجون في التشكيلات المقاتلة شبه النظامية يكونون قد امضوا بعضا من الوقت في فرق الدفاع الذاتي . وهذه الفرق تقوم بحماية القرى والقرى الصغيرة وتشن عمليات محدودة ضد العدو ، وعليها ان تكون معتمدة على نفسها اعتمادا ذاتيا كاملا فهي تتولى تجنيد الاعضاء الجدد وتدرب وتمول نفسها بنفسها وتقوم بعمليات الاستطلاع وتخطيط العمليات القتالية وتنفيذها باستقلال ذاتي كامل . وكذلك تسود التنظيمات المقاتلة علاقات تسمح بمشاركة كل المستويات في اتخاذ القرارات ومراقبة تنفيذها . اما في المقاومة الفلسطينية فمستوى المبادرة والمبادهة متدن ، فالتنظيم شديد المركزية وشديد التسيب في آن واحد ، اذ تتركز سلطات كثيرة في ايدي اشخاص قلائل ، ولذا فانهم من جهة لا يستطيعون الاحاطة بجميع مسؤولياتهم بشكل مرض من جهة ، ومن جهة اخرى يؤدي ذلك الى افتقاد المستويات الدنيا القدرة على سرعة التصرف واتخاذ القرارات المناسبة . ويمتد تأثير ذلك حتى يصل الى ميدان العمليات ذاته .

١١ — يعلق للفيتكونغ اهمية كبرى على الحفاظ على الكادر . ففي المراحل الاولى لم يقع في يد العدو غير عدد قليل من اعضاء الكادر ، ولم توقع اصابات كبيرة نسبيا بعناصر الكادر الا بعد أن امتدت الحركة وتوسعت كادراتها واصبح لديها كادرات احتياطية ، مما أصبح يمكنها من دفع عناصر من الكادر الى ساحات الاشتباك . ولا ينطبق الامر ذاته على المقاومة الفلسطينية التي يبدو انها لا تعير اهتماما كافيا لمسألة متى وكيف وفي ظل أية ظروف يجوز الدفع بالكادر الى مهمات يمكن أن تشكل خطرا عليهم ، وبالتالي خسارة جمة للحركة . فقد وقع عدد كبير من عناصر الكادر صرعى او أسرى ، وخاصة في الضفة الغربية وغزة .

١٢ — يلجأ الفيتكونغ الى استخدام اساليب متقدمة وعلمية في اتخاذ القرارات ، وتمتاز هذه الاساليب ببساطتها المتناهية التي تمكن حتى قادة الوحدات الصغيرة من استخدامها بفعالية . فمثلا وجد ان الفيتكونغ طوروا حلولا رياضية بسيطة لمسائل توزيع شبكات طرق التموين وتوزيعها بحيث يتحقق فيها أقرب قدر من الكمال والفاعلية ، وتأخذ هذه الحلول الرياضية في الاحتساب عددا كبيرا من المتغيرات : جغرافية الارض ، الاخطار المحيطة ، قدرة تحمل الفرد ، حجم القافلة ، وما الى ذلك . وبالمقابل وجد أن المقاومة الفلسطينية لم تطور اي أساليب علمية في حل مسائل التنظيم والتوزيع وتحقيق الفعالية .

ان هذه النقاط التي أوردناها ليست بالطبع كل ما ورد في الدراسة المقارنة هذه ، ولكنها تكتسب أهمية خاصة لمعالجتها مسائل ذات طابع عملي وعملياتي مباشر . غير أن المرء لا يستطيع أن يجزم بصحة كل هذه المقارنات ، فهذا أمر لا يستطيع الادلاء بالقول الفصل فيه ، غير اولئك المناضلين الفلسطينيين الذين يعيشون التجربة بكل دقائقها وخصوصياتها وتفاصيلها وجوانبها . ولكنها على أية حال تبقى زادا مهما للتفكير وتعطي مؤشرات لبحث قد تكون فيه فائدة من بعض الزوايا في دراسة تجربة المقاومة . واننا اذ نورد هذه النقاط لا نرى ان من واجبنا التبرع بالرد عليها وانما نوردها لانها تكشف المعايير التي يقيس بها المعسكر الامبريالي حركات التحرير الوطني ومن بينها الثورة الفلسطينية .

خ . هـ .

تقرير من غزة

من بين جميع الاغراض التي كنا نود تحقيقها في رحلتنا ، من اجراء مقابلات وجمع وثائق وزيارة الاماكن التاريخية ، كانت زيارة غزة بالنسبة لنا هي الاهم ، ولكننا كنا نخشى ان تكون الاقل احتمالا ، اذ أن مرجل المقاومة الفلسطينية هناك كان قد تسبب في حدوث ارتباك شديد للسلطات الاسرائيلية منذ اسابيع قليلة خلت ، فقد تصدرت الصحف العالمية الكبرى صور الجنود الاسرائيليين وهم يختمون بالشمع الاحمر ابواب المحلات التجارية في مدينة غزة في محاولة لانهاء اضراب اصحاب هذه المحلات احتجاجا على قيام سلطات الاحتلال بشق طرق للقوافل العسكرية وسط مخيمات اللاجئين . وفي الوقت الذي كانت « الجروسالم بوست » تتحدث عن الكمائن التي ينصبها الفدائيون للدوريات الاسرائيلية ، وعن تصفية العملاء المتعاونين مع سلطات الاحتلال وغير ذلك من عمليات المقاومة اليومية ، كنا نتساءل ما اذا كان سيسمح لنا بزيارة هذا القطاع الثائر ؟ ولما لم يكن لدينا اي ترخيص بهذه الزيارة ، وليس لدينا سوى اوراق ثبوتية غير كافية ، عملنا بنصيحة جون ديفز ، المفوض العام السابق للانروا ، واتصلنا برئاسة الانروا حال وصولنا الى القدس . وسرعان ما لبى المدير الحالي للانروا ، الان جراهام ، طلبنا بزيارة المخيمات ، كما انه وضع تحت تصرفنا سيارة تابعة للانروا ، وأحد موظفيها ليرافقنا في جولتنا هذه . فقد كان جراهام تواقا ليرى الاجانب يشاهدون بأم اعينهم البؤس الذي يلف مخيمات اللاجئين ، ربما على امل ان يقوم هؤلاء الزوار بعرض القضية في الخارج للمساعدة على ايجاد مخرج لهذه الحالة . وقد اعرب لنا جميع من تسنى لنا مقابلتهم من موظفي الاونروا عن مثل هذا الامل . وهكذا في الساعة التاسعة من صباح يوم سبت انطلقنا من الفندق الذي ننزل فيه في القطاع القديم من القدس واتجهنا صوب غزة عبر الشوارع المقفرة من القطاع الجديد للمدينة ، ولقد كانت الشوارع خالية من الاهالي لان ذلك اليوم كان يوم العطلة الاسبوعية .

ومن بين سكان غزة (١٤٠ ميلا مربعا) الذين يكاد عددهم يقارب نصف المليون نسمة ، هناك اكثر من ٧٠ بالمئة من اللاجئين . ولطالما حاول الجيش الاسرائيلي منذ ١٩٦٧ فرض سيطرته على هذا التجمع الهائل من البشر المضطهدين (بفتح الطاء) والثائرين ، ولكن منظمات المقاومة تجعل القوات الاسرائيلية تدفع ثمنا باهظا لاستمرارها في احتلال هذا القطاع . وفي تل ابيب اخبرنا احد جنود الاحتياط الاسرائيليين الذي أمضى فترة خدمته العسكرية منذ ١٩٦٧ في قطاع غزة ان العداء يزداد سنة عن سنة ، وقال : حتى الان « لا ازال ارى نيران الحقد تتقد في عيونهم . » ومن المناظر المألوفة في اسرائيل هذه الايام منظر الجندي الاسرائيلي الذي يسير وحيدا في الشوارع وهو يتأبط رشيشه الحربي من طراز عوزي ، ولكن الوضع ليس كذلك في غزة ، فهناك لا يسمح للجنود الا بالسير جماعات وهم يحملون رشيشات عوزي وغيرها من الاسلحة وهي في حالة جاهزة للضرب . ولقد كان رجال الحرس الذين يفتشون العربات والمارة في الفجوة الضيقة من الشريط الشائك الذي يحيط بالقطاع ، وشراذم الجنود الذين كانوا يسيرون في الشوارع عندما توقفت سيارتنا في معسكر الشاطىء ، اكثر تيقظا ، وتوترا واندفاعا من اي جندي رايناه في اي مكان آخر .

ومن خلال رؤيتنا للارض الملأى بالانقاض امام مركز توزيع خدمات الاطفال في معسكر الشاطىء ، علمنا لماذا شق الاسرائيليون هذه الطرق التي تبدو كالمهابط بسبب عرضها الواسع . انهم يعتقدون انهم بذلك يمكن أنيخففوا عدد المكامن والاصطدامات التي تتعرض لها دورياتهم . وبالفعل تمكنوا عبر هذه الشوارع من نقل دباباتهم الثقيلة وناقلات الجنود المدرعة الى وسط المعسكر .

وعلى اي حال ، لم تتحدث الصحف عما شاهدناه بأم اعيننا ، وهو ان الطريقين المتوازيين اللذين ينطلقان مباشرة من الشارع الرئيسي الذي يحاذي الجبهة الشرقية للمعسكر الى الشاطىء الفسيح في الغرب ، يقسمان طريق المعسكر الوسطى الى ثلاثة اقسام وبذلك تجزءان المعسكر الى ستة اقسام . وسيكون في حالة حدوث قلاقل ، من السهل حصر اي جزء من الاجزاء الاخرى . واخيرا لا بد من الاشارة الى انه تم تدمير العديد من المنازل ، وتأثر نتيجة لذلك ١٤ الف شخص منهم ٦٠٠ عائلة في معسكر الشاطىء فقط . ولقد صورت الصحف الاسرائيلية ابعاد المئات من العائلات

العربية بأنه ليس سوى نتيجة ثانوية لشق الطرق الذي لا بد منه . ولكن موظفي الانروا اعطوا تفسيرا آخر ، فقد كانوا يظنون ان المسؤولين الاسرائيليين كانوا يريدون تجزئة المخيمات عن طريق ابعاد السكان لفترة طويلة ، وبذلك تكون عملية شق الطرق قد ساهمت في اختبار جماعي . وكان وزير الاسكان الاسرائيلي قد وعد منذ البداية بتمويل بناء بيوت بديلة . وفي المخيمات الصغيرة حيث شقت الطرق قامت الانروا بالفعل ببناء بيوت للعائلات قبل طردهم من بيوتهم . ولكن شق الطرق الذي حدث فيما بعد في المخيمات الكبيرة، جباليه والشاطىء وخان يونس ، تم بشكل سريع لدرجة ان الانروا لم تتمكن من معرفة الاماكن التي كان ينتقل اليها الاهالي المبعدون ، عداك عن بناء بيوت لهم . وبالنسبة لاموال البناء ابلغنا ألان جاني ، مدير الاونروا في غزة : « لم أتسلم اي قسم منها حتى الان ، ولدي شك في امكانية حدوث ذلك . » وفي حين تمكن عدد من العائلات من اللجوء الى اقاربهم واصدقائهم في المعسكرات والمدن المختلفة ، نرى انه تم « اسكان » عدد غير معروف في العريش ، المدينة المصرية التي تقع خارج نطاق صلاحيات الانروا . وبذلك قطعت الاعاشات والخدمات المجانية الاخرى عن هؤلاء اللاجئين .

والطرق هي ابرز المحاولات الظاهرة التي تحاول اسرائيل من خلالها فرض مخططاتها على قطاع غزة . وعند الشاطىء رأينا كيف ان بناء حاجز ضد الامواج لتسهيل رسو سفن الشحن من شأنه ان يسهل النقليات البحرية الضخمة في موانىء حيفا واسدود . وفي منتصف الطريق خارج القطاع رأينا نحالا ، اي نقطة عسكرية زراعية ، كما ان هناك ست مراكز للتدريب المهني لتعليم الشبان العرب ابسط المهارات التي يحتاجها الاقتصاد الاسرائيلي . وفي غضون ذلك ، نرى ان الشبان الذين ينهون دراساتهم في مراكز التدريب المهني التابعة للانروا لا يتمكنون من ايجاد عمل لهم لانهم اصبحوا مؤهلين بدرجة تفوق مما يسمح به الاقتصاد الاسرائيلي ، كما انهم لا يجدون اي عمل مناسب في غزة .

وقبل عدوان حزيران (يونيو) لم يكن هناك اي وجود عسكري في القطاع سوى لذوي القبعات الزرقاء من قوات الطوارىء التابعة للامم المتحدة ، وكانت غزة تتصل بالعالم العربي عن طريق مصر . ومن الامور التي لا تزال تذكرنا بتلك الايام وجود اعلانات شركات الطيران العربية واسم مصرف فلسطين الذي يكاد يمحى عن اللوحة المكتوب عليها . ولكن ابرز دليل على التغيير هو وجود مقر الادارة العسكرية الاسرائيلية . وفي البناية المركزية الكبيرة من هذا المجمع الضخم كانت تقيم حكومة غزة السابقة ، في حين كانت قيادة قوات الطوارىء الدولية تقيم في بناية صغيرة عبر الشارع تقيم فيها حاليا الادارة المدنية للقطاع .

وحتى في نور شمس المتوسط المتلألئة ، كان الجو يبدو كئيبا في غزة . ففي المدينة وعلى طول الطريق كانت البنايات غير المرممة لا تزال تحمل آثار القصف الشديد ، وفي غضون اربع ساعات خضعت سياراتنا للتفتيش ست مرات عند الحواجز القائمة في الطرق . ورأينا ايضا جنديا اسرائيليا يراقب وجوه السكان المحليين الكئيبة من خلال متراسه على سطح اعلى بناية في قلب غزة . وكانت النساء يرتدين اللباس الاسود الذي كان احيانا يتخلله اللون الابيض او الارجواني الغامق . ولم نشاهد في اي مكان الفساتين المطرزة التي تشتهر بها المراة الفلسطينية ، رغم انه قيل لنا بأن معظم الفساتين التي تباع للسياح في القدس تصنع في غزة . واخيرا علمنا بأنه عندما تلبس النساء العربيات الفساتين السوداء المتشابهة والفضفاضة فانما يساعدن في ذلك على تضليل الجنود الاسرائيليين اثناء التفتيش من الفدائيين .

ك . ت .

النشاط الصهيوني في الولايات المتحدةللفترة من فبراير الى سبتمبر ١٩٧١

١ — الضغط السياسي على الحكومة الامريكية : صعدت المنظمات الصهيونية خلال الثمانية اشهر الماضية حملتها على الحكومة الامريكية وخاصة البيت الابيض ووزارة الخارجية الامريكية لارغامها على التخلي عن الوساطة بين اسرائيل والدول العربية وامداد اسرائيل بالمساعدات المالية . وركزت المنظمات الصهيونية ومؤيدوها في الكونجرس الامريكي حملتها على وزارة الخارجية الامريكية وذلك عن طريق اتهامها بأنها منحازة للعرب وبأنها تمارس ضغطا على اسرائيل مما يهدد أمن وسلامة اسرائيل ويعرض العلاقات الامريكية — الاسرائيلية للخطر . كما ركزت المنظمات الصهيونية ضغطها على الرئيس نيكسون ، فطالبه عدد من زعماء المنظمات الصهيونية واعضاء الكونجرس بامداد اسرائيل بالاسلحة والمساعدات المالية وعدم الضغط عليها وحملها على الانسحاب الجزئي من الاراضي العربية المحتلة .

كما ركزت الدعاية الصهيونية خلال الاشهر الماضية على تهويل الخطر الروسي والتغلغل الروسي في المنطقة ، خاصة بعد توقيع اتفاقية الصداقة الروسية — المصرية . وطالب عدد من المنظمات الصهيونية واعضاء الكونجرس بارسال اسلحة لاسرائيل لان الاتحاد السوفياتي ارسل اسلحة حديثة لمصر مما اخل بميزان التوازن العسكري لصالح العرب .ولقد قاد حملة الضغط الصهيوني عدد من«السناتورز» الامريكان ومنهم السناتور هنري جكسون الذي قام بزيارة لاسرائيل في شهر فبراير ، والسناتور بيرتش بايه الذي زار اسرائيل مع وفد من اربعة اعضاء من مجلس الشيوخ الامريكي وهيو سكوت الذي القى خطابا بدعوة من المنظمة الصهيونية بناي تسيون خلال شهر فبراير، وكذلك جاكوب جافيتس الذي حذر امريكا من الضغط على اسرائيل خلال حديث مع احدى محطات الاذاعة وكذلك السناتور ادلاي ستيفنسون الابن الذي طالب امريكا بأن تبقى الحليفة العظمى لاسرائيل والنائب جاشوا ايلبيرج الذي قدم مشروعا لمجلس النواب يدعو نيكسون لمساندة موقف اسرائيل من المفاوضات والحدود الامنة . ومنهم ايضا السناتور هيوز الذي دعا امريكا الى التزام مطلق باسرائيل للحفاظ على توازن القوى في منطقة الشرق الاوسط، والسناتور ساكسبي الذي اعلن في حفل النداء اليهودي المتحد انه يجب ان لا تنسحب اسرائيل الى ما وراء حدود ١٩٦٧ حسب مشروع روجرز . كما هاجم السناتور سيمور هالبرن السناتور فولبريت وذلك لانتقاد الاخير اسرائيل واتهمه بأنه يزيد من امكانيات الحرب في الشرق الاوسط . وانتقد السناتور يوجين مكارثي روجرز لمطالبة اسرائيل بالانسحاب من الاراضي المحتلة . كما قام عشرة من زعماء الكونجرس بمطالبة الرئيس نيكسون بامداد اسرائيل بالاسلحة والمساعدات المالية ، كما هاجم النائب بنجامين روزنتال روجرز واتهمه بأنه يمارس الضغط على اسرائيل ، كما انتقد السناتور ادمند مسكي سياسة نيكسون وطالبه بارسال الاسلحة لاسرائيل . واما السناتور ادوارد كيندي ، فصرح خلال زيارته لاسرائيل في شهر سبتمبر بأن على امريكا امداد اسرائيل بالاسلحة وخاصة طائرات الفانتوم لمواجهة الخطر العسكري السوفياتي في مصر . وكذلك صرح السناتور جورج مكجافرن خلال زيارته لاسرائيل في شهر سبتمبر بأنه سيبذل وسع جهده للاسراع في ارسال طائرات الفانتوم لاسرائيل .

ومن الواضح ان زيارات السياسيين المرموقين لاسرائيل وتصريحاتهم بتأييدها وامدادها بالاسلحة بدأت تزداد وذلك لاقتراب موعد انتخابات الرئاسة الامريكية . ولقد استغلت اسرائيل هذا الوضع للتحرك السياسي بالضغط على الحكومة الامريكية للتخلي عن السياسة الحالية الرامية الى انسحاب قوات اسرائيل والبدء في المحادثات السلمية بينها وبين العرب .

٢ — يهود الاتحاد السوفييتي : مارست المنظمات الصهيونية في الاشهر الاربعة الاولى (فبراير الى مايو ١٩٧١) حملة اعلامية ضخمة للضغط على الاتحاد السوفييتي لايقاف محاكمات يهود روسيا والسماح لمزيد من اليهود بالهجرة الى اسرائيل ، ولقد تمثلت الحملة بالمظاهرات والمهرجانات الكبيرة وحملات الاحتجاج عن طريق الرسائل والاتصالات الرسمية .

واما في الاشهر الثلاثة التالية (مايو الى اغسطس ١٩٧١) فاتسمت الحملة الصهيونية بالضغط عن طريق الكونجرس الامريكي وتصريحات اعضائه بمطالبة الاتحاد السوفييتي بالسماح لليهود بالهجرة الى اسرائيل . ولقد وصلت قمة هذه الحملة في

معارضة المنظمة الصهيونية للقانون المقدم الى الكونجرس بالسماح لعدد من اليهود بالدخول الى الولايات المتحدة الامريكية . ولقد اكدت المنظمة ان يهود روسيا يرغبون بالهجرة الى اسرائيل . كما اكدت معظم المنظمات الصهيونية (١٩ سبتمبر ١٩٧١) باهتمامها بوضع يهود الاتحاد السوفيتي ومطالبتها يهود امريكا بالمسير في شوارع امريكا يوم رأس السنة تضامنا مع يهود روسيا ورغبتهم في العودة لاسرائيل . وصرح ايمانويل نيومان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية بأن عددا كبيرا من اليهود لا يزال تحت الاضطهاد الشديد في الاتحاد السوفييتي ويرغب في العودة الى اسرائيل. كذلك صرح فيليب هوفمان رئيس اللجنة اليهودية — الامريكية بأن عددا كبيرا من يهود الاتحاد السوفييتي تمكنوا من العودة لاسرائيل وان على المنظمات الصهيونية العمل لدفع مزيد من اليهود على العودة الى اسرائيل .

٣ — **المساعدات المالية** : استمرت المنظمات الصهيونية خلال الاشهر الماضية في حملة كبيرة لجمع المزيد من الاموال لاسرائيل لكي تواجه هذه احتياجاتها العسكرية والحربية المتزايدة . وكان وزير مالية اسرائيل قد صرح في شهر فبراير ١٩٧١ بأن عجز ميزان التجارة الخارجية لاسرائيل سيبلغ حوالي ١٤٦٠ مليون دولار وان نسبة الديون المتراكمة على اسرائيل ستبلغ قيمة ١١٢٥ دولار من الدخل الفردي السنوي . ولهذا شددت المنظمات الصهيونية على زيادة التبرعات لاسرائيل. وذكرت المنظمة الصهيونية بأن سندات اسرائيل ادخلت عام ١٩٧١/٧٠ حوالي ٥٤٤٥٠٦٠٠ مليون دولار (بزيادة ١٤٪ من دخل العام السابق) واعلنت لجنة سندات اسرائيل بان دخل الاشهر السبعة الاولى بلغ حوالي ١٣٢ مليون دولار (مقابل ١٠٠ مليون عام ١٩٧٠) ، كما اعلن صندوق النداء اليهودي الموحد بأن دخل عام ١٩٧١ سيزيد عن العام السابق بنسبة ٣٠٪ ، وسيبلغ دخل عام ١٩٧١ ٦٠٠ مليون دولار ، منها ٤٠٠ مليون من امريكا و ٢٠٠ مليون من دول اخرى . كما اعلنت جمعية هاداسا في مؤتمرها السنوي بأن دخلها لعام ١٩٧١ سيصل ١٣ مليون دولار وذلك لتغطية المصاريف المتزايدة على مشاريع الانماء والاقتصاد في اسرائيل .

٤ — **النشاط الثقافي العبري** : نشطت المنظمات الصهيونية في الاشهر الماضية في مجال احياء التراث اليهودي العبري بين جيل الشباب اليهودي وذلك لربط هذا الجيل باسرائيل ومواجهة الدعاية اليسارية التي جعلت الكثير من الشباب اليهودي الامريكي ينتقد سياسة اسرائيل العسكرية ويظهر التأييد للمقاومة الفلسطينية . ولقد أقامت المنظمات الصهيونية عددا من المؤتمرات والاجتماعات لدراسة هذا الموضوع ، كما قامت بارسال طلاب الى اسرائيل للدراسة خلال الصيف وبدأت تحضر اساتذة اسرائيليين لتدريب يهود امريكا ، كما عملت على اقامة دروس خاصة عن الحضارة اليهودية والحركة الصهيونية وتاريخ اسرائيل في عدد من الجامعات الامريكية . وذكر ايمانويل راكمان مدير دائرة الثقافة والتعليم في الوكالة اليهودية ان برنامج الثقافة لعام ١٩٧١ — ١٩٧٢ سيشمل انتساب مئة طالب وطالبة من يهود امريكا في مدارس اسرائيلية عدة سنين كما ذكر ان ٦٩ استاذا اسرائيليا يعملون في جامعات امريكا وكندا لتوعية الشباب اليهودي . كما اعلنت الوكالة اليهودية ان ٢٢٠ استاذا يهوديا سيحضرون في صيف ١٩٧١ للاشتراك في مخيمات الشباب الصهيوني وتعريف الشباب اليهودي الامريكي بطبيعة الحياة في اسرائيل وتوثيق روابطهم بها . كما اشترك ١٤٠ استاذا امريكيا في دراسات صيفية باسرائيل وذلك عن طريق برنامج اعده اتحاد المعلمين بنيويورك . واعلنت وكالة الانباء اليهودية بأن عدد المدارس اليهودية ارتفع الى ٤٧٨ في امريكا وكندا ، كما اعلنت ان عدد المدارس العبرية اليهودية ارتفع الى ٣٩٥ في امريكا و٤٥ في كندا . وهدفهذه المدارس احياء الشخصية اليهودية خاصة بين المراهقين اليهود.كما أعلن مورتون سيغل مدير قسم الثقافة اليهودية ان عدد المدارس الابتدائية اليهودية اصبح ٤٢ مدرسة ، يحضرها حوالي ٧٨٠٠ طفل يهودي . أما على مستوى الجامعات الامريكية ، فلقد اعلن عدد من الجامعات ومنها جامعة براندايس ، الجامعة الامريكية في وشنطون وجامعة ميرلاند وكلية نيويورك عن اقامة دراسات عن تاريخ اسرائيل والحركة الصهيونية . وتهدف هذه الدراسات الى التركيز على ربط الطلاب اليهود باسرائيل والرد على دعاية اليسار الامريكي الذي يتهم الصهيونية بأنها حركة استعمارية عنصرية .

٤ — **مناهضة اللاسامية واستمالة السود** : حاولت المنظمات الصهيونية في الفترة الاخيرة اتهام المنظمات

والجمعيات السوداء التي أيدت الحق العربي والشعب الفلسطيني بأنها لاسامية وانها وقعت تحت تاثير الدعاية العربية. وقد بدأت المنظمات الصهيونية حملة اصلاح العلاقات مع المنظمات السوداء المعروفة مثل NAACP و Urban League وذلك بدعوة زعمائها لزيارة اسرائيل . كما بدأت المنظمات الصهيونية باقامة منظمات تمثل الطبقات اليهودية الفقيرة وتستعمل اسلوب «القوة اليهودية» وذلك للربط بين اليهود والسود. وهاجمت المنظمات الصهيونية احدى منظمات السود وهي « جمعية الرجل الاسود » في وشنطون وذلك لانها هاجمت الصهيونية في احدى نشراتها عام ١٩٦٧. كما ركزت المنظمات الصهيونية هجومها على الافراد اليساريين الذين يؤيدون الشعب الفلسطيني واتهمت اليهود منهم بأنهم يتعاونون مع « المخربين » الفلسطينيين والمنظمات الفدائية مثل « فتح » وغيرها . وهذه محاولة واضحة للتشكيك في اخلاص اليهود اليساريين واتهامهم بالعمل ضد يهود امريكا .

وحاولت المنظمات الصهيونية ، عن طريق اتحاد طلاب اسرائيل ، اثارة موضوع جنوب السودان واتهام العرب باضطهاد السود وقتلهم . ويهدف هذا النشاط الى اضعاف تأييد السود الامريكيين للعرب وخلق فجوة في العلاقات بين السود والطلاب العرب في الولايات المتحدة الامريكية .

٥ ــ التعاون مع الجمعيات المسيحية : حاولت المنظمات الصهيونية في الاشهر الماضية استمالة الجمعيات المسيحية وخلق حوار معها من اجل الحصول على تأييدها خاصة حول موضوع توحيد مدينة القدس تحت الحكم الاسرائيلي . واقيمت بعض المؤتمرات من اجل هذا الهدف ومنها مؤتمر في نيويورك برعاية اللجنة اليهودية الامريكية واشترك فيه الاب ادوارد فلانري كما اصدرت جمعية جديدة اسمها « المسيحيون المهتمون باسرائيل » بيانا يؤيدون سياسة اسرائيل في توحيد مدينة القدس وتغيير معالمها العربية ــ كما اعلن تحالف الراهبات الامريكيات في مؤتمرهم في مدينة شيكاغو عن التأييد لسياسة اسرائيل في المدينة المقدسة ورفضهم لمبدأ تدويل القدس كما اعلن مؤتمر الكنيسة الميثودية العالمية من تأييده لحق يهود الاتحاد السوفييتي في الهجرة لاسرائيل . وينسق هذا النشاط مع الجمعيات المسيحية الحاخام تاننباوم رئيس الجمعية اليهودية الامريكية.

٦ ــ الوسائل التي يستخدمها الصهاينة : تستخدم المنظمات الصهيونية وسائل مختلفة لخدمة اهدافها. فعلى المستوى السياسي تعمل المنظمات الصهيونية على الضغط على الحكومة الامريكية عن طريق الجمعيات والاتحادات الهامة وذلك باصدار قرارات تأييد لاسرائيل في المؤتمرات السنوية لهذه الاتحادات ومنها اتحاد المحاربين القدامى واتحاد عمال امريكا ، والجمعيات المسيحية .

كما تعمل المنظمات الصهيونية على خلق واجهات لها ومنها مثلا « جمعية المهتمين بأمن اسرائيل » ، وجمعية « الاساتذة من أجل السلام في الشرق الاوسط » ، وجمعية « الطلاب المتضامنين مع يهود الاتحاد السوفييتي » ، ومعظم هذه الجمعيات يحركها يهود صهيونيون ويصدرون عن طريقها البيانات والبرقيات والرسائل التي تخدم مصالح اسرائيل . وتقوم المنظمات الصهيونية ومن ورائها السفارة الاسرائيلية بتزويد اعضاء مجلس الكونجرس (خاصة المؤيدين لاسرائيل) وعدد من مؤيدي اسرائيل في المنظمات والحركات السياسية والعمالية الهامة بالمواد الاعلامية والنشرات الخاصة التي توضح وجهة نظر اسرائيل وتشوه وجهة النظر العربية. فمثلا تركز الدعاية الصهيونية على اثبات « الحقيقة التاريخية » بأن اليهود كانوا دائما الاغلبية في مدينة القدس ويقدمون الوثائق والاحصائيات لاثبات ذلك كما تقوم المنظمات الصهيونية بالتعاون مع السفارة الاسرائيلية والطلاب الاسرائيليين بحضور المؤتمرات السنوية الهامة ، وخاصة مؤتمرات اتحادات العمال والطلاب والمؤتمرات المسيحية والمؤتمرات السياسية ويشتركون فيها بشكل فعال فيقيمون المعارض عن اسرائيل ويوزعون المواد الاعلامية ويختلطون بأعضاء المؤتمر للحصول على تأييدهم لاسرائيل . ففي مؤتمر اتحاد طلاب امريكا خلال شهر اغسطس ١٩٧١ مثلا ، كان الوفد الاسرائيلي ممثلا مع وفود الجامعات الامريكية واشترك معهم حتى في الجلسات المغلقة للمؤتمر .

واما عن المستوى الاعلامي ، فتستخدم المنظمات الصهيونية جميع الوسائل للوصول الى اهدافها . فتقوم بالمظاهرات في الشوارع وامام الامم المتحدة عن طريق منظمة « رابطة الدفاع اليهودية » ولقد اتبعت هذه المنظمة اسلوبا ناجحا في تهديد السياسيين الامريكيين ، فقامت باعتصام بمكتب السناتور كيندي وعلى اثره صرح كيندي بأنه سيعمل جهده على مساعدة يهود روسيا الهجرة

الى اسرائيل ، كما قاموا مؤخرا بدوريات حراسة في احياء اليهود بمدينة نيويورك ونتج عن ذلك دعاية واسعة في اجهزة التليفزيون الامريكي . كما يستخدم الصهاينة اجهزة الاعلام بشكل فعال لتشويه سمعة العرب ، وذلك عن طريق تقديم برامج وحلقات تليفزيونية تشوه الواقع السياسي والاجتماعي العربي . ولقد ظهرت افلام عن الوضع في جنوب السودان ، تظهر العرب باضطهاد وقتل السود في الجنوب . كما قدمت برامج احاديث ولقاءات مع يهود من الاتحاد السوفييتي لتأييد رغبتهم في الهجرة الى اسرائيل .

وعلى المستوى الفني ، بدأت المنظمات الصهيونية منذ عام التركيز على الفن الاسرائيلي وذلك عن طريق احضار فرق الرقص والغناء والتمثيل المسرحي التي تقيم مهرجانات في مدينة نيويورك وغيرها ، وكذلك اظهار الفن الاسرائيلي في معارض الازياء وصناعة التحف والحلى التي تصنع في اسرائيل .

وكثير من هذه الازياء والحلى اصلها فلسطيني عربي ، كما اتجهت المنظمات الصهيونية في الفترة الاخيرة نحو دعوة محاضرين اسرائيليين معروفين « بعطفهم على العرب » للتجول في امريكا والرد على الدعاية العربية ومنهم يوري افنيري وسمحه فلابان . وكذلك بعض العرب من اسرائيل المعروفين بولائهم للحكومة الاسرائيلية ومنهم النائب عبدالعزيز الزعبي الذي اشترك في مؤتمر هاداسا خلال شهر اغسطس ، والذي اكد ان العرب يريدون التعايش مع اسرائيل وان العائق في ذلك هو الحكومات العربية . وهدف برامج المحاضرات هذه هي الرد على الدعاية العربية وخاصة موقف اليسار الامريكي الذي يؤيد المقاومة الفلسطينية ، والتركيز على ان العرب والفلسطينيين يريدون التعايش مع اسرائيل وانه ليس هناك اضطهاد وتعذيب داخل الاراضي المحتلة ، بل العكس تعاون بين السلطات الاسرائيلية والعرب .

د . حاتم الحسيني

الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والتوثيق والمخطوطات العربية (دمشق)

عقدت في الماضي مؤتمرات ولقاءات للمكتبيين ، وكذلك صدرت خلال مؤتمرات ثمانية سابقة توصيات خاصة حول المكتبات والتصنيف والمخطوطات والوثائق ، لكن المؤتمر الحالي والذي دعت اليه المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم وبرعاية الحكومة السورية وذلك من ٢ــ١١/١٠/١٩٧١ ، جاء متخصصا وشاملا ، اذ جمع بين المؤتمر والحلقة الدراسية وحضره مندوبو عشر دول عربية هي ج٠م٠ع وج٠س٠ع وليبيا والعراق والاردن وتونس وفلسطين وقطر والبحرين وكذلك ممثلو بعض الاتحادات والمراكز العلمية العربية . وشجعت سوريا اكبر عدد من المكتبيين السوريين (٨٦شخصا) والعاملين في الجامعات والدوائر الرسمية والمؤسسات الاعلامية على حضور المؤتمر للاستفادة منه لتطوير المكتبات ومهنة المكتبي . وكانت الثمرة الاولى للزملاء السوريين اجتماعا تمهيديا لانشاء اتحاد للمكتبيين في القطر السوري لتوطيد مهنة المكتبي ومن خلاله ابراز اهمية الادارة العلمية للمكتبات ، النابعة من معرفة حقيقية لاهداف واعباء المكتبات .

ادراكا من قبل المجتمعين لاهمية مراكز الابحاث الفلسطينية ، خصوصا مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية والذي يمثل المكتبة الوطنية ومركز الوثائق للشعب العربي الفلسطيني ، أوصت الحلقة بمساعدة هذه المراكز . ويدرك مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير ما لهذا التأييد والدعم لنشاطه ، والذي ظهر ايضا في توصيات لمؤتمرات متخصصة اخرى ، من دفع لطموحه في زيادة التعمق بدراسة العدو والقضية الفلسطينية عامة وكذلك دراسة تطور الشعب الفلسطيني ونضاله ، ومن جهة اخرى الى تحقيق مزيد من التنسيق مع مراكز التوثيق والدراسات الفلسطينية الموجودة في بعض الدول والجامعات العربية .

لقد تحلى المؤتمر بمستوى رفيع من التنظيم اذ كان وليد الاهتمام الكبير الذي أبدته الحكومة السورية وخصوصا وزير التعليم العالي الدكتور شاكر الفحام تجاه الحلقة الدراسية ، يضاف الى ذلك حماس منظمي الحلقة من القطر العربي السوري الذين رأوا في هذه الحلقة نقطة تحول في فهم المسؤولين والجماهير عامة لرسالتهم ولمفهوم المكتبة الحديث . طالب الحضور منذ البدء المساهمة في مناقشة المحاضرات الاساسية لاهمية تبادل الخبرات . ووقع على عاتق اللجان الفرعية الخوض في تفاصيل الموضوعات التي تعالجها وهي : ١)

الخدمات المكتبية ٠ ٢) التنظيم البيليوغرافي والتوثيق ، ٣) المخطوطات العربية ، ٤) الوثائق القومية . واتفق المجتمعون على عدم الاكتفاء بتوصيات فنية بحتة بل السعي الى التأكيد على المفاهيم الاساسية المرتبطة بالكتاب والمكتبة . ولذا جاءت التوصيات تؤكد اهمية المكتبات في تثقيف الشعب وتعليمه وتوعيته وكذلك حق المواطن في القراءة والتثقيف الذاتي من الاموال العامة . واكدت من جهة اخرى احدى التوصيات على وجوب اتباع المكتبة العامة للتحليل الاجتماعي للبيئة التي تخدمها لتوجيه نشاطها حسب المتطلبات المحلية لتحكم صلاتها بالجماهير .

أكدت الحلقة الحالية توصيات الحلقات السابقة حول تحقيق قانون الايداع وتنفيذه في كل البلاد العربية واعتمادا على هذا التنفيذ اصدار البيليوغرافيا القطرية ويقع على عاتق الجامعة العربية بعد ذلك اصدار البيليوغرافيا الموحدة المنظمة على اساس جغرافي وتحت اسم كل قطر ترتب المصنفات موضوعيا وان تتبع بكشاف هجائي لجميع الموضوعات والعناوين واسماء المؤلفين . كما اكدت التوصيات على اهمية تسهيل انتقال الكتب وتبادلها بين المكتبات العربية وكذلك على تنسيق التصنيف وتبادل فهارس المكتبات ليكون لدى المكتبيين والبحاثة معرفة بمحتويات المكتبات العربية.

لقد ساهمت الجامعة العربية في التعريف بالتوصيات الصادرة عن المؤتمرات والحلقات المتشابهة والسابقة . وجاء تصنيف هذه التوصيات المتفاوتة زمنيا حسب المواضيع بحيث اعطت صورة واضحة لما تقدم سابقا من توصيات ، وكان هدف ادارة التوثيق في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم طرح التوصيات السابقة على محك الدراسة وحث الوفود على القيام بمراجعة ذاتية لمعرفة ما طبق منها . وبالرغم من حسنات هذا المسعى الا انه كان على المنظمة الاستفسار لدى الدول العربية عن سبب عدم تطبيق الكثير من هذه التوصيات وتقديم تقرير بهذا الشأن للحلقة . ولذا وجد المجتمعون ان ملاحقة التوصيات خصوصا بعد اقرارها من قبل وزراء التربية امر حيوي . فأوصت بعقد حلقة في المستقبل يعرض خلالها ما تم تنفيذه من هذه التوصيات واسباب عدم تنفيذ التوصيات الاخرى.

ومن جهة اخرى اوصى المؤتمر بعقد حلقة دراسية قبل انتهاء السنة الحالية تخصص لدراسة التشريعات الخاصة بانشاء مراكز الوثائق القومية ومن خلالها الاشراف على محفوظات الدوائر الرسمية ، على أن تسعى الحلقة ايضا الى تنسيق العمل بين هذه المراكز وايجاد التنظيم العربي لمراكز التوثيق والوثائقيين ، كذلك ان تعمل الحلقة لوضع الخطة القريبة والبعيدة المدى للحصول على جميع الوثائق الخاصة بالتاريخ العربي والموجودة في اسطنبول وباريس ولندن واماكن اخرى ، والتي نحتاج أليها للاعتماد عليها في دفاعنا عن عروبة فلسطين ولفضح المؤامرة الاستعمارية الاستيطانية.

لقد شملت الحلقة مواضيع عديدة ولذا يستحسن مستقبلا تخصيص حلقات لمواضيع معينة مثل حلقة دراسية حول الوثائق كما ذكر سابقا او حول تحديد منهج عربي شبه موحد لتصنيف الكتب ، او مثلا حلقة دراسية لمناقشة مشاكل المكتبات المدرسية . ويستحق الموضوع الاخير حلقة دراسية في القريب العاجل لتدهور وضع المكتبات المدرسية في بعض الدول العربية نتيجة الانفجار السكاني والطلابي . فالمطلوب هو تبادل الخبرات لايجاد السبل اللازمة لتحقيق الهدف التربوي من نشر المكتبات المدرسية وباقل التكاليف . وفي الحقيقة يجب دراسة هذه المشكلة في اطار مشكلة التعليم ككل وايجاد ثورة في مفهوم التعليم وتمويل التعليم.

كان يرجى من الحلقة اصدار توصية تطلب من الدول العربية اعطاء الحرية الكاملة للمكتبات الجامعية والعامة والمتخصصة لشراء جميع الكتب والمجلات والتي تتضمن ايضا الصادرة في اسرائيل وذلك دعما للبحث العلمي وتوفير ما يحتاج من مصادر اولية . ولكن وجد قسم من الحاضرين ان هذه المكتبات تحصل على ما تريده من المصادر وبطرق عديدة دون مجابهة معارضة من قبل حكوماتها . ويرى هؤلاء الاكتفاء بالوضع الحالي ، غير ان الوضع الحالي غير سليم لعدم استفادة جميع المكتبات من التسامح الرسمي ، وخصوصا المطلوب فعلا نشر الاهتمام بدراسة العدو في جميع الجامعات العربية . وقد يقف التفكير السلبي لدى موظفي دوائر مقاطعة اسرائيل والجمرك والامن العام دون تحقيق هذا الواجب ، متذرعين بقرارات مقاطعة اسرائيل . لقد كان من الواجب الادبي اقرار توصية واضحة تدين ضمنيا المسلك السلبي السائد ، ومعلنة بنفس الوقت حق البحث العلمي ومبدأ معرفة العدو والحصول على كل ما يحتاجان من مصادر .

ن. ب.

اربعة مؤتمرات طلابية في امريكا

عقدت خلال شهري أغسطس وسبتمبر ١٩٧١ عدة مؤتمرات لاتحادات طلابية هامة درست خلالها القضية الفلسطينية، واتخذت بعض هذه الاتحادات قرارات تأييد للشعب الفلسطيني ولحقه في الكفاح المسلح من اجل تحرير ارضه .

١. **اتحاد الطلاب السود** : عقد المؤتمر السنوي لاتحاد الطلاب السود في مدينة شيكاغو من ٨/٢٦ الى ١٩٧١/٩/٢ وحضره وفد من طلاب فلسطين . وتأسس اتحاد الطلاب السود منذ ثلاثة اعوام ويضم مئات الطلاب من مختلف الجامعات الامريكية. وانشق هذا الاتحاد عن اتحاد طلاب امريكا وذلك بسبب الاضطهاد والعنصرية التي تعرض لها الطلاب السود داخل الاتحاد وبسبب مواقفه الهزيلة تجاه قضايا هامة مثل نضال شعوب العالم الثالث والكفاح ضد الاستعمار والعنصرية. وذكرت جريدة الواشنجتون بوست ان اتحاد الطلاب السود الناشيء تعرض لمراقبة الحكومة الامريكية لانه يمثل نواة ثورية وسياسية . وخلال مؤتمر الاتحاد أقيمت ندوة عن « الثورة الفلسطينية » تكلم فيها أحد الشباب الفلسطينيين فأكد العلاقة الوثيقة بين نضال الشعب الفلسطيني ونضال السود في أمريكا من اجل التحرر والاشتراكية ، واكد ان الشعوب المضطهدة تناضل ضد عدو مشترك هو الامبريالية والصهيونية . واظهر ان حالة التشرد والاضطهاد التي يعيشها الشعب الفلسطيني لا تختلف عن حالة السود في امريكا .

وأظهر الطلاب السود تأييدا حارا وقويا للثورة الفلسطينية وقدم رئيس الاتحاد برنارد نيكولاس قرارا ينص على تأييد حق الشعب الفلسطيني في الكفاح المسلح ضد الصهيونية والاستعمار ، ووافق المؤتمر على القرار بالاجماع .

٢. **المؤتمر السنوي للاتحاد العام لطلاب ايران** : عقد مؤتمر اتحاد طلاب ايران في مدينة شيكاغو بتاريخ ١ ــ ٦ سبتمبر ١٩٧١ ، وحضره عدد من طلاب فلسطين . وتحدث في المؤتمر عدد من طلاب فلسطين ومنهم أخت فلسطينية أكدت ان الثورة الفلسطينية جزء من حركة التحرر العالمي وان نضال الشعب الفلسطيني وشعب ايران جزء لا يتجزأ من حركة التحرر العالمي .

وكان تجاوب طلاب ايران رائعا ، وارتفعت هتافاتهم بحياة فلسطين والثورة الفلسطينية ، كما دارت الاسئلة والمناقشات حول المأزق الراهن الذي تمر به الثورة وكيفية الخروج منه خاصة التركيز على التنظيم السري الجديد والعمل المسلح تحت الارض. واتخذ المؤتمر قرارا بالاجماع يؤيد الثورة الفلسطينية ويعتبرها جزءا من كفاح شعب ايران ضد الاستعمار والرجعية ويؤكد حق الشعب الفلسطيني في النضال من اجل القضاء على الصهيونية والاستعمار .

ويعتبر اتحاد طلاب ايران من اقوى وانشط الاتحادات الطلابية في الخارج . وقام الاتحاد بعدة نشاطات من اجل نصرة فلسطين خاصة اسبوع التضامن مع الثورة الفلسطينية عام ١٩٧٠ ومظاهرات ضد اسرائيل وسياستها العنصرية . وقام الاتحاد بمظاهرة ضخمة في واشنجتون العاصمة وسان فرانسسكو احتجاجا على احتفالات شاه ايران ، ورفع المتظاهرون رايات التأييد للثورة الفلسطينية ولنضال شعب ايران ضد الشاه وحكمه المستبد .

٣. **المؤتمر السنوي لمنظمة الطلبة العرب** : عقد المؤتمر السنوي العشرون لمنظمة الطلبة العرب بجامعة هيوستن بتكساس وذلك بتاريخ ٢٦ ــ ٢٩ أغسطس ١٩٧١ ، وكان موضوع المؤتمر « الثورة الفلسطينية : أبعادها ومستقبلها » واقيمت عدة ندوات دراسية لبحث أوضاع الثورة الراهنة اشترك فيها عدد من الباحثين والمفكرين ومنهم الشاعر راشد حسين وعبدالله الاشطل من وفد اليمن الجنوبية للامم المتحدة والمحامي عابدين جباره والدكتور نصير عازوري رئيس جمعية الخريجين العرب . والقى الكلمة الرئيسية في المؤتمر الدكتور عبدالوهاب الكيالي الذي استعرض تاريخ الثورة الفلسطينية والمراحل التي مرت بها وركز على المرحلة الراهنة واكد ان وحدة المقاومة ستقوم على أسس نضالية جديدة ، وان الشعب الفلسطيني سيستمر ، رغم النكسات ، في كفاحه المسلح ضد الصهيونية والاستعمار حتى يحقق النصر . واتسمت مناقشات المؤتمر بالنقد الحاد للحكومات العربية خاصة تلك التي تضطهد الحركات الشعبية والشيوعية . كما وجه نقد لحركة المقاومة بكافة فصائلها وذلك لفشلها في

مواجهة الهجمة الاستعمارية الرجعية في هذه المرحلة . واتخذ المؤتمر قرارات عديدة تتعلق بالثورة الفلسطينية والخليج العربي والحكومات العربية والعالم الثالث .

وحول الثورة الفلسطينية اكدت القرارات « ان المنظمة ١. تدين حكم العمالة في الاردن وتندد بالمجازر الوحشية التي يرتكبها هذا النظام بأمر من الامبريالية والصهيونية لتصفية حركة المقاومة . ٢. تناشد حركة المقاومة بترسيخ مفهوم حرب التحرير الشعبية واستمرار العمل المسلح حتى التحرير الشامل ، وتناشد بترسيخ الوحدة الوطنية وتوسيع التحامها بالجماهير الفلسطينية الاردنية . ٣. مناشدة حركة المقاومة في خلق علاقات نضالية مع الجماهير العربية وقواها الوطنية وتحديد علاقات واضحة مع الانظمة العربية ومحاربة كل عمليات الوصاية والاحتواء التي تقوم بها هذه الانظمة . ٤. ان المنظمة ترفض رفضا قاطعا كل المشاريع والحلول الاستسلامية بكل اشكالها وتعلن التزامها بالكفاح المسلح كطريق وحيد لتحرير فلسطين . »

٤. **المؤتمر السنوي لاتحاد طلاب امريكا** : عقد هذا المؤتمر في جامعة ولاية كولورادو بتاريخ ٢٠ — ٢٩ اغسطس ١٩٧١ وحضره حوالي ٥٠٠ طالب امريكي من مختلف الجامعات الامريكية . ويمثل هذا الاتحاد قاعدة طلابية هامة ، ولكنه وقع منذ عام ١٩٦٧ تحت سيطرة وتأثير الحكومة الامريكية وبالتالي لم يتمكن من التعبير عن الرأي الطلابي ولم يتخذ المواقف السياسية الصحيحة تجاه قضايا العالم الثالث وحركات التحرر . ولقد تمكنت المنظمات الصهيونية من الوصول الى المراكز الهامة في الاتحاد وبالتالي منعته من اتخاذ قرارات تأييد للشعب الفلسطيني . وكان الاتحاد قد اقر « حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير » عام ١٩٦٥ ، ومنذ تلك السنة بدأت المنظمات الصهيونية تتغلغل في الاتحاد لتمنع تأييده لنضال الشعب الفلسطيني . وقاطعت منظمة الطلبة العرب الاتحاد وذلك لمواقفه المشينة في الفترة الاخيرة . ففي عام ١٩٧٠ حاول المسؤولون عن الاتحاد ، بالتعاون مع الحكومة الامريكية ، جمع وفد طلاب فلسطين وطلاب اسرائيل في لقاء مباشر والضغط على الوفد الفلسطيني لقبول قرار مشترك مع الوفدالاسرائيلي . وحاول ممثل وزارة الخارجية الامريكية السيد ادوار بليكلي أن يلعب دور الوسيط بطرح القرار الذي ينبع من السياسة الامريكية ويدعو الى الاعتراف باسرائيل والصلح معها وحقها في المرور بقناة السويس ويدعو الى الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في كيان مستقل . وعند وضوح خطوط هذه المؤامرة انسحب الوفد الفلسطيني من المؤتمر واعلن في بيان ان الاتحاد لا يزال تحت سيطرة الحكومة الامريكية ودعا الطلاب الامريكيين لتأييد نضال الشعب الفلسطيني وتغيير قيادة الاتحاد وسياسته .

وفي مؤتمر الاتحاد عام ١٩٧١ حضر بعض الطلاب العرب بشكل فردي لتقديم وجهة النظر الفلسطينية ومتابعة ما يدور في المؤتمر . وعقدت ندوة عن القضية الفلسطينية تحدث فيها بوب فوجال ، من جمعية الاصدقاء التي قدمت مؤخرا دراسة للمشكلة ودعت الى حل القضية عن طريق اقامة كيان فلسطيني يتعايش مع اسرائيل . وذكر فوجال في كلمته ان هناك حقين متساويين في فلسطين ، حق «الشعبين» اليهودي والفلسطيني والقى اللوم على الحكومات العربية في خلق المشكلة واكد ان الحل هو الاعتراف باسرائيل وخلق كيان فلسطيني يتعايش معها . وهاجم الممثل العربي هذا المنطق بشدة واكد ان الاحتلال العسكري الاسرائيلي والعنصرية الصهيونية لا يمكن ان تسمى « بحق كامل » واكد ان الحل الوحيد هو تأييد نضال الشعب الفلسطيني واقامة دولة ديمقراطية علمانية في فلسطين عن طريق الكفاح المسلح الشعبي ضد الصهيونية والامبريالية والرجعية العربية .

وانضم الطلاب العرب في المؤتمر الى تجمع طلاب العالم الثالث المكون من السود والامريكيين المكسيكيين واتخذ هذا التجمع موقفا موحدا من كل القضايا على اساس التضامن بين الشعوب المضطهدة في صراعها ضد الامبريالية والعنصرية . وقدم التجمع قرارا نيابة عن الطلاب العرب يدعو الاتحاد الى : « قطع كل المساعدات الامريكية من عسكرية ومالية عن اسرائيل فورا ، والتأييد الكامل للشعب الفلسطيني في نضاله من اجل التحرر وتقرير المصير . »

واصطدم تجمع العالم الثالث والسود بأعضاء المؤتمر الذين عارضوا القرارات المقدمة ، فاحتل السود قاعة المؤتمر وعطلوا اعماله ثم انسحبوا من المؤتمر احتجاجا على مواقف الاتحاد المشينة .

ملاحظات هامة :

من الواضح ان المنظمات والجمعيات الثورية والتقدمية هي التي تعلن التأييد الكامل لكفاح الشعب الفلسطيني ، وبالتالي يجب على الوفود الفلسطينية والعربية أن تركز على توثيق الروابط والعلاقات مع هذه المنظمات والاتحادات لتخلق منها قاعدة قوية تدافع عن الشعب الفلسطيني بقوة وصلابة .

ان حضور مؤتمرات المنظمات الليبرالية والخيرية (الكنائس وغيرها) بشكل رسمي يعرض الوفد الفلسطيني لمخاطر كثيرة منها محاولات الحكومة الامريكية دفع الوفد نحو مفاوضات مع اسرائيل ، ومنها محاولات المسؤولين الضغط على الوفد للتنازل عن موقفه وقبول مبدأ التعايش مع اسرائيل او مبدأ الكيان الفلسطيني وغيره . ان مقاطعة هذه المؤتمرات في بعض الاحيان له ميزته واثره ، ولكن في نفس الوقت يجب متابعة الاحداث ومراقبة هذه المنظمات وخاصة التحركات الصهيونية داخلها ، وبالتالي يمكن حضور افراد بشكل غير رسمي لمتابعة الاحداث والاتصال بالفئات التي تؤيد الحق العربي ودفعها لاتخاذ مواقف سليمة .

وقد يقول البعض انه من الافيد التركيز على المنظمات والجمعيات التي لم تتفهم القضية الفلسطينية ، بدل التركيز على منظمات تقف معنا . ولكن هذا المنطق يشوه حقيقة نضال شعب فلسطين ، فالقضية ليست مسألة متاجرة أو اعلام ، وانما هي قضية كفاح مسلح ضد الاستعمار والعنصرية وبالتالي يجب الوقوف مع التجمعات والمنظمات المناضلة وخلق قاعدة صلبة معها من خلال نضال مشترك .

ان المنظمات الليبرالية (طلابية ، كنسية او حرفية) لا يمكنها ، بسبب طبيعتها الاجتماعية والاقتصادية وبسبب عقليتها النابعة من تكوينها الطبقي ، ان تتخذ المواقف السياسية المطلوبة ، خاصة فيما يتعلق بحركات التحرر الوطني والنضال ضد الامبريالية والعنصرية ومن أجل التحرر والاشتراكية.

ان المنظمات الليبرالية والمجتمع الرأسمالي الليبرالي لا يفهم سوى لغة العنف الثوري وبالتالي تصعيد النضال الثوري والكفاح المسلح الشعبي هو الطريق الوحيد لانتزاع الحقوق المسلوبة وارغام المجتمع الغربي على اتخاذ المواقف المطلوبة . وعلى حركة التحرر الوطني الفلسطيني ان تفهم هذا الواقع ، وتعمل على ارسال الوفود للمؤتمرات الثورية . لقد عقدت عدة مؤتمرات هامة منها « مؤتمر القوى المعادية للامبريالية » الذي عقد في شيلي خلال شهر اغسطس ، ومؤتمر القوى المعادية للامبريالية الذي عقد في امريكا مؤخرا ، ومؤتمرات الاتحادات السوداء والمؤتمرات المذكورة في التقرير .

ح.ح.

الحلقة الدراسية حول العناصر المشتركة في المأثورات الشعبية (الفلكلور) في الوطن العربي

أظهر المجتمعون في الحلقة التي دعت اليها المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم في القاهرة من ١٣ ــ ٢٠/١٠/١٩٧١ ، ادراكا عميقا لاهمية اظهار التراث الشعبي الفلسطيني ومكافحة تشويه هذا التراث من قبل اسرائيل وادعائها لقسم منه كتراث اسرائيلي ــ يهودي هادفة من ذلك اظهار جذور « الاسرائيلية » في فلسطين ووحدة الشعب اليهودي ، ولذا صدرت التوصية التالية :

« انطلاقا من الظروف التي يعيشها الشعب العربي الفلسطيني وتقديرا لقيمة تراثه الشعبي ، واهميته في المحافظة على الشخصية الفلسطينية القومية للشعب العربي الفلسطيني ، ونظرا لما تقوم به سلطات الاحتلال الصهيوني للاراضي المقدسة من اجتثاث للتراث العربي كله في ذلك الجزء الغالي من الوطن العربي ، بسرقتها هذا التراث وادعائها اياه ، واستغلاله على انه تراث اسرائيلي وتزييفه وتزويره والتجول به في شتى انحاء العالم . لهذا كله توصي الحلقة باعتبار دراسة واحياء التراث الفلسطيني واجبا قوميا تقوم به المراكز الفلكلورية والهيئات والافراد القادرون على القيام بذلك في الوطن العربي . وتأخذ الحلقة بعين الاعتبار الاهتمام بجمع الدراسات التي كتبت باللغات الاجنبية عن فلكلور الاراضي المقدسة والتي تعين على اكمال الصورة الفلكلورية الفلسطينية نظرا لتعذر امكانية المسح الفلكلوري الشامل لبعض القطاعات الشعبية الفلسطينية لظروف الاحتلال

الصهيوني لفلسطين . كما توصي الحلقة بتقديم التشجيع والدعم المالي لمركز الابحاث الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية لتمكينه من تأسيس نواة لمركز للفلكلور الفلسطيني داخل المركز للجمع والدراسة،وكذلك لغيره من المعاهد والمراكز التي تعنى بهذا الموضوع . وتوصي الحلقة بتشجيع فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية كمظهر من مظاهر الحفاظ على التراث الشعبي الفلسطيني ولتمكين هذه الفرقة من تمثيل ما تعالج من موضوعات فلكلورية فلسطينية تمثيلا سليما وكاملا ، ولاتاحة الفرصة لهذه الفرقة من ان تأخذ طريقها في المجال العربي والعالمي في خدمة القضية الفلسطينية والتراث العربي كله . »

جاءت التوصية واضحة تؤكد اهمية دراسة وعرض التراث الشعبي العربي الفلسطيني لتأكيد ارتباط هذا التراث بالارض الفلسطينية والمجتمع العربي الفلسطيني ، ويرجع تاريخه الى ألوف السنين . فهو حصيلة الحياة في فلسطين والتفاعل العضوي مع المجتمع العربي الأكبر ، كما ترجع الكثير من اصوله الى الحضارات القديمة والتي شاهدتها فلسطين . وتثبت هذه الحقيقة جميع الابحاث الفلكلورية — الانتروبولوجية التي قام بها الاجانب منذ مائة سنة ، وبل استنجد البحاثة الاجانب بالفلاح الفلسطيني والسوري عامة ليستوعبوا ما جاء في التوراة والتلمود من عادات وانماط عمل خاصة بالعصر العبري — الكنعاني . وشهد هذا النوع من الابحاث ازدهارا كبيرا عبرت عنه اعداد كبيرة من المؤلفات والمقالات يفوق عددها التسعين ، كما تشمل جميع نواحي الحياة الشعبية من عادات وتقاليد واغان وموسيقى وخرافات وتقاليد الاحتفالات الدينية وقصص شعبية والمنزل الفلسطيني والنمط الانتاجي وأدوات العمل والفنون الحرفية ... وقد شارك في هذه الدراسات بحاثة فلسطينيون مثل الدكتور توفيق كنعان واسطفان حنا اسطفان . كما تظهر من جهة اخرى اهمية تجميع المأثورات الشفهية ، والتي تستطيع اعطاء صورة عميقة عن الروح الوطنية والتمسك بالارض والعودة من خلال المعاناة الجماعية التي يعيشها الشعب الفلسطيني منذ اكثر من خمسين سنة . ولقد جمع فعلا الاخ نمر سرحان قدرا كبيرا منها ويؤمل من خلال عمل جماعي القيام بالمسح الشامل لهذا النمط من المأثورات . ولذا يؤمل ان تجد هذه التوصية سريعا حيز التنفيذ للاسراع في تجميع الدراسات والقيام بالمسح الميداني وتعهد قسم الفلكلور في مركز الابحاث . ويجب التنويه هنا الى ان الواجب يدعو الى ضم الدراسات والتعبير عن التراث العربي الفلسطيني الى المجهود الاعلامي الداخلي والخارجي تكملة لاظهار الكيان العربي الفلسطيني وكذلك عمق التمرد والثورة الفلسطينية وكدعم اضافي لحقه الطبيعي والعادل بالعودة الى ارضه واعادة كيانه على الارض الفلسطينية .

لقد جاء عقد هذه الحلقة في جو يحتم هذا اللقاء ولكنه كان في نفس الوقت مفعما بغموض الفحوى والتناقض النسبي ، انه في نفس الوقت الذي بدأ فيه الاهتمام العلمي بالتراث الشعبي خصوصا بالادب الشعبي ظهر اهتمام اكبر بالفنون الشعبية خصوصا الرقص الشعبي والاغاني ولكن حسب مقتضيات الدعاية والاستحسان الاني . كان عقد مثل هذه الندوة مهما جدا لتبادل الاراء والتأكيد على اهمية الحفاظ على اصالة المأثورات الشعبية وابراز العناصر المشتركة لهذه المأثورات في الوطن العربي ، بالرغم من الاختلاف الشكلي للتجمعات العربية بغض النظر عن الحدود الحالية . كما يجيء عقد الحلقة في وقت يظهر فيه حماس قطري تجاه التراث الشعبي المحلي يتناسى احيانا ادراك البعد القومي لهذا التراث .

وخشي البعض من عقد مثل هذه الحلقة من ابراز الشخصية المحلية الممثلة خصوصا باللهجة الدارجة، في وقت يتطلب من الجامعة العربية دعم المقومات الاساسية للوحدة العربية واحدى هذه المقومات اللغة العربية الفصحى . وكان الدكتور عبدالعزيز الاهواني قد اجاب مسبقا على هذا التخوف حين قال في بحثه المقدم الى الحلقة : « ولكن المراجعة الدقيقة للمشكلة اللغوية في الوطن العربي، وللتطور الحضاري في العصر الحديث ، ولدور اللغة الثقافية في عالم اليوم ، يثبت ان المشكلة في جوهرها ليست مشكلة صراع بين عامية وفصحى تقضي احداهما على الاخرى ، كما كان يحدث قديما ، وانما هي مشكلة الامية لا العامية ، التي تقيم في الوطن العربي هذا الازدواج البغيض ، وهذا التفاوت الشنيع ، بين ابناء الوطن الواحد ثقافيا وحضاريا . وانه بمحو الامية — وهو ما نحن في سبيله — تنمحي مشكلة الصراع الموهوم ، ويقوم نوع من التقارب بين لغة الكتابة ولغة

الحديث اليومي » . وقد يكون التخوف في محله في حال اتجاه بعض الاقطار العربية نحو تشجيع الفنون الشعبية كمأثورات اقليمية تعكس الفكر الانعزالي ، ولكن هذا التخوف آني ، اذ بالدراسة العلمية لهذه المأثورات داخل كل بلد عربي وعلى نطاق الوطن العربي سيصير تكذيب الاتجاه اللاعقلاني الضيق . كما ان العمل العربي الموحد خصوصا من قبل الاختصاصيين الملتزمين بالوحدة العربية سيصد بحزم اي عمل اقليمي مشوه .

لقد وضع للحلقة برنامج عمل واسع وغير دقيق والعذر في ذلك كون هذه الحلقة الاولى من نوعها، كما ساهم توزيع النشاط مباشرة على اللجان على الشرود عن المواضيع . وكان يستحسن تخصيص يوم ونصف لسماع ومناقشة محاضرتين او ثلاث تمهد لمناقشة اللجان من السماع لتقارير الوفود وكان قد طبع اكثرها وتتحدث عن نشاط الدول العربية في نطاق المأثورات الشعبية . وانصافا للحقيقة كانت اللجنة التحضيرية والحلقة برمتها مدركتين شوائب اول حلقة ومقتنعتين من ان اللقاء الشخصي وتبادل الاراء في هذا اللقاء الاول سيسهمان في تحضير لحلقات اكثر تخصصا .

منذ البدء جابه اللقاء تناقضا في فهم معنى دراسة الفلكلور . لقد نظر اليه البعض كتجمع لنتاج الابداع الشعبي خصوصا من الناحية الفنية والاستفادة من حصيلة هذا التجميع لدعم التطور الحضاري العربي والاستفادة من هذا الفن لابراز الشخصية العربية . بينما نظر البعض الاخر ويحق الى دراسة المأثورات الشعبية بهدف فهم قبل كل شيء ثقافة الشعب التقليدية وتماثلا لهذا المفهوم توجيه العمل الميداني . لم يكن هذا التناقض علنيا بل كان ضمنيا ، ظهر خلال عرض منهج ودليل العمل الميداني . ويرجع القسم الاكبر من هذا التناقض الى أنماط التخصص او مجرى الاهتمام بالمأثورات الشعبية . فالذين درسوا علم الفلكلور وعلم الاجتماع ينظرون الى عملهم كمسعى لفهم الثقافة التقليدية والتفكير الشعبي مع الاعتراف الكامل بالناحية الفنية ، ويسلك ايضا هذا الطريق قسم من الاتين الى موضوع المأثورات الشعبية من خلال الدراسة الادبية ويهتمون حاليا بالادب الشعبي . بينما نرى من جهة اخرى ان الذين اهتموا بالمأثورات الشعبية اثر هواية خاصة او تخصص في بعض المجالات الفنية ، يتفوق لديهم الموقف الرومنسي ، وهكذا يبدو لنا ان الحلقة الدراسية الخاصة بالمأثورات الشعبية جمعت تخصصات واهتمامات مكملة ومتناقضة . فلا عجب من ذلك ، اذ ان الاهتمام بالمأثورات الشعبية جديد العهد نشأ من تعدد الاسباب واوجه النظر بعضها متناقض وبعضها مكمل ، وانعكس هذا التفاوت على مناقشات الحلقة . يطلب حاليا التضافر في نشر الاهتمام بالمأثورات الشعبية ومحاربة التشويه ويطلب ايضا من الباحثين الاستفادة بما جمع من مأثورات لتحليل الثقافة التقليدية ، وذلك لتعميق نظرة مجموع الفلكلوريين والمثقفين عامة حول مقومات الثقافة التقليدية واسسها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والاخلاقية . وتساعد مثل هذه الابحاث على انارة الطريق امام من يهمه الامر من المهتمين بهذه المأثورات وعقلنة عملهم . وهنا تطرح ايضا قضية علاقة الابحاث الانتروبولوجيا الاجتماعية مع البحث الفلكلوري .

جاء التناقض السابق في فهم المأثورات الشعبية ايضا من زاوية قضية تحديد مجال ابحاث كل تخصص . والذين يطرحون هذه القضية يرون ان دراسة الثقافة التقليدية تتبع فرع الانتروبولوجيا الاجتماعية ، اما علم الفلكلور فيهتم بأنماط الابداع الشعبي . ويستمد هؤلاء هذا الرأي من حقيقة الوضع في بعض الدول المتقدمة . ولكن هذا الرأي لا يضع امام اعينه السبب التاريخي لنشوء هذا الافتراق ، بينما نجد ان ابحاث الاختصاصيين الغربيين الفلكلورية والانتروبولوجية تتداخل نسبة للدول النامية . وبل اخذ تيار التحليل الفلكلوري المتكامل اي الملتحم مع الانتروبولوجيا يأخذ طريقه بنجاح في الدول المتقدمة . اذا كانت الاهتمامات الفلكلورية الرومنسية قد سبقت الابحاث الانتروبولوجية في الوطن العربي فليس معنى ذلك السير في طريق انفصال العلمين ، بل يجب تدارك هذا الامر ومعرفة عناصر الترابط ، اي كما ذكر سابقا الاهتمام بدراسة الثقافة التقليدية . ولا يعني هذا الجمع حصر الدراسة الفلكلورية باختصاص معين ، بل معناه تنسيق عمل جميع التخصصات حسب منهج عمل موحد ودليل عمل واضح ، لتستطيع جميع هذه التخصصات خدمة دراسة الثقافة التقليدية واظهار في نفس الوقت الابداع الشعبي التراثي .

ن . ب .

المقاومة والمجلس الكنسي العالمي

لقد نجحت المقاومة الفلسطينية عن طريق نضالها وطرحها التقدمي الانساني في الوصول الى قطاعات واسعة من الرأي العالمي حتى ان بعض الاوساط الليبرالية الغربية بدأت تتفهم عدالة القضية الفلسطينية . وطبعا ان التفهم شيء والمواقف شيء آخر . وتخطىء العقلية الليبرالية الغربية خطأ فادحا اذ تتوهم ان مجرد تفهم قضية يؤدي الى اتخاذ الموقف « الصحيح » متجاهلة بذلك حقيقة التناقضات والصراعات بين مختلف الانظمة والطبقات .. ومن هذا المنطلق نرى ان الاتصال بالقطاعات الليبرالية وتفهيمها عدالة قضيتنا وكفاحنا ليس بدون جدوى شرط ان نضع هذه الاتصالات في مرتبة دنيا على سلم الاولويات لنشاطاتنا السياسية والاعلامية وان نعي ان مثل هذا النشاط ما هو الا مجرد تشويش في معسكر الخصم .

لقد سجلت المقاومة نجاحا ملموسا في علاقاتها مع الاوساط الكنسية في العالم . فالندوة العالمية للمسيحيين من اجل فلسطين (بيروت ايار ١٩٧٠) جمعت اكثر الفئات المسيحية تقدما واتخذت مواقف مساندة صريحة . وتقوم اللجان الوطنية المختلفة المنبثقة عن تلك الندوة بنشاطات اعلامية هامة . وبالاضافة الى علاقة المقاومة بهذه اللجان فقد تمت اتصالات عدة بين المقاومة وبين مجلس الكنائس العالمي (جنيف) الذي يجمع الطوائف البروتستانتية والارثوذكسية في العالم . ففي آب ١٩٦٩ اعلن المجلس ان الدول الكبرى بخلقها اسرائيل ارتكبت ظلما فادحا في حق عرب فلسطين. وفي عام ١٩٦٩ تبنى مجلس الكنائس العالمي برنامجا لمكافحة العنصرية في العالم وخصص مساعدات مالية لعدة حركات تحرر مما اثار ضجة في بعض الاوساط الكنسية في الغرب ، غير ان اجتماع اللجنة المركزية للمجلس في اديس ابابا (يناير ١٩٧١) اقر هذه المساعدات (٢٠٠ الف دولار) للمنظمات المناضلة ضد العنصرية ، كما اقر المجلس في ٩ ايلول في صوفيا ٢٠٠ الف دولار اخرى للكفاح ضد العنصرية . وللاسف لم تقم المقاومة بالجهد اللازم لكي تكون المقاومة الفلسطينية من بين المنظمات المستلمة هذه المساعدات الرمزية ولنحصل بذلك على اعتراف قطاع هام من الرأي العالمي بعنصرية عدونا الصهيوني . وفي ايار ١٩٧١ وبعد اتصالات تمهيدية زار يوجين بليك الامين العام للمجلس الكنائسي العالمي الجزائر واجتمع بالرئيس هواري بومدين وبممثلين عن المقاومة . واصدر بليك عقب اجتماعه ببومدين بلاغا ايد فيه نضال الشعب الفلسطيني من اجل استعادة حقوقه .

وبالتعاون مع لجنة الجزائر لنصرة فلسطين رتبت اتصالات للمقاومة مع أوساط كنسية امريكية صيف ١٩٧١، كما رتب لقاء في اوكتوبر ١٩٧١ بين المجلس الكنسي الوطني في الولايات المتحدة (من اهم الاعضاء في المجلس العالمي) ووفد من المقاومة . وقد تم اللقاء في نيويورك . وابدى اعضاء المجلس في اجتماعاتهم ومناقشاتهم مع اعضاء الوفد الفلسطيني تفهما للقضية واعتبروا دعوة وفد منظمة التحرير الفلسطينية بحد ذاته موقفا . ورتبت زيارة الوفد الفلسطيني الى مينابوليس لحضور مؤتمر لاكبر الطوائف البروتستانتية في أمريكا (الميثوديست) . ومع وجود فئات معارضة لدعوة وفد المقاومة الا ان الدعوة تمت، وبعد عرض الوفد للقضية ومناقشتها في المؤتمر اعرب بعض الزعماء الذين كانوا يعارضون دعوة المقاومة عن تغيير موقفهم السابق وتقديرهم لزيارة الوفد وعرضه للقضية ، وتعهدت فئات من المؤتمرين ان تواصل مساعيها لشرح القضية على مستوى القاعدة ولحمل المؤتمرات المقبلة على اخذ المواقف المتفهمة .

ح° م°

المؤتمر العمالي العالمي للتضامن مـــع عمال وشعب فلسطين

ان هذا المؤتمر الذي عقد في صوفيا (بلغاريا) في الفترة ما بين ١٠–١٣ سبتمبر ١٩٧١ لهو اهـم مؤتمر عالمي لمناصرة الشعب الفلسطيني . ويمثل هذا المؤتمر بالنسبة للقضية الفلسطينية خطوة الى الامام في مواقف الـدول الاشتراكية الصديقـة والحركة النقابية العالمية . فقد ضم المؤتمرممثلين عن سبعين منظمة وطنية واقليمية ودولية من ٥٦ دولة . ومثل اتحاد عمال فلسطين وفد من عشرة اشخاص برئاسة الاخ ابو لطف مسؤول التنظيم الشعبي في منظمة التحرير الفلسطينية . وتلقى المؤتمر رسالة من الاخ ياسر عـرفات حيا فيها المؤتمرين وعبر عن شكر شعبنا وتقديره لقـوى التقدم والتحرر التي تقف الى جانبنا كما اكـد الاخ ياسر عرفات ان الهجمات الشرسـة التـي تتعرض لهـا ثورتنا لا تزيدنـا الا اصرارا على مواصلة الكفاح الثوري المسلح من اجل التحرير. وقد لعب الوفد الفلسطيني دورا هاما في انجـاح المؤتمر والخروج بنتائج جيدة . ونجاح مثل هـذه المؤتمرات لا يقاس بمدى الموافقة الكلامية علـى مواقف الثورة فحسب بل ايضا بتطور مواقـف الاصدقاء والامكانيات الحقيقية التي تكمن وراء من يلتزم بمثل هذه المواقف والاعمال الملموسة التي يمكن ان يقوم بها الاصدقاء ترجمـة للمواقـف الكلامية .

وجه المؤتمر بعد مناقشاته نداء الى عمال العالم هاجم فيه القوى الامبريالية والصهيونيةواسرائيل والرجعية العربية وناشد عمال العالم تأييد كفاح الشعب الفلسطيني العادل من اجل العودة الى وطنه وتقرير مصيره . كما وجه المؤتمر مذكرة الى السكرتير العام لهيئة الامم المتحدة مطالبا باخـذ الاجراءات الرادعة لكبح جماح المعتدين ووضع حد لاستهتارهم بمصالـح الشعـوب . ووجـه المؤتمـر مذكـرة أخـرى الـى لجنـة حقـوق الانسان التابعة لهيئة الامم المتحدة تفضح جرائم اسرائيل وانتهاكها لحقوق الشعب الفلسطينـي وتطالب ليس بالادانة فقط بل باتخاذ الاجراءات الاكثر فعالية من اجل تأييد الكفاح العادل لشعب فلسطين . وترجمت بضعة وفود من الـدول الاشتراكيـة ، بما فيها الاتحـاد السوفييتي ، مساندتها هذه بمساعدات مادية لاتحاد عمـال فلسطين على ضوء المحادثات مع الوفدالفلسطيني.

من نداء المؤتمر الى عمال العالم

« ان شعب فلسطين يعيش اليوم بلا ارضوبالتالي بلا ابسط مقومات الحياة لاي شعب . لقد اجبرت السياسة التوسعية لاسرائيـل التي تساندهـا الامبريالية ، وعلى رأسها الامبريالية الامريكية ، والحركة الصهيونية العالمية ، اجبرت الشعـب العربي الفلسطيني على الهجرة من وطنه وفرضت عليه الحرمان وآلام لا تحصى ولا تعد ، والالتجاء للبلدان العربية الاخرى . وفي المناطق المحتلة ، يتعرض شعب وعمال فلسطين الى شتى اشكال التفرقة والقمع والاضطهـاد البشع والسجـن والتعذيب وتدمـير المساكن والترحيـل الجماعي الاجباري والمذابح.فقد شن العسكريون الاسرائيليون منذ عام ١٩٤٨ ، وبالتحالف مع الامبريالية ثلاث حروب عدوانية ضد البلدان العربية ، وذلك لضم المزيد من الاراضي ولمنع الشعوب العربية مـن تدعيم استقلالها الوطني وخلق مجتمع جديد . ومن الواضح ان اسرائيل وحماتها يواصلون جرائمهم الظالمة ضد الشعوب العربية ، ولذلـك فـان النضال العادل الذي تخوضه الشعوب العربية بشتى الوسائل ، وفي مقدمتها شعب فلسطين ، للحصول على حقها المشروع والانساني في الوجود الوطني المستقل ، على ارضه الطبيعية ، لا بد وأن يحظى بالتأييد الفعال من جانب العالم بأسره وبالاخص من جانب العمـال والحركة النقابيـة العالمية . والواقع انه طالما ان شعب وعمـال فلسطين لم يحصلوا على حقهـم في العودة الى وطنهـم وارض اجدادهـم وفي تقرير مصيرهـم بأنفسهم ، فان الشرق الاوسط ، بل والعالـم بأسره ، لن يعرف السلام او الامن . ان نضال شعب فلسطين لهو كفاح من اجل العدل والحق في الحياة وتحقيق السلام ، وعلى عمال وشعـوب العالـم بأسره أن يقفوا تمامـا الى جانبه وان يحتجوا بحزم ضد القـوى الامبريالية والصهيونية والقوى الرجعية العربية في الاردن خاصة التي تحاول أن تقضي على ذلك النضال البطولي بقتل المناضلين العرب بوحشية .

لكل هذه الاسبـاب ، يوجه المشتركون في المؤتمر النقابي العالمي للتضامن مع عمال وشعب فلسطين،

ذلك النداء الحي لنقابات كل بلدان العالم ، من مختلف الاتجاهات والانتماءات النقابية والاراء ، ولكل العمال والعاملات من اجل :

— مساندة واسعة للنضال العادل للشعب العربي الفلسطيني بقوة ، ليعود الى وطنه ويعيش فيه بحرية ، ومن اجل حقه في تقرير مصيره بنفسه ، واختيار وسائل تحقيق مصالحه الوطنية بنفسه .

— القيام بحركة واسعة لادانة سياسة العدوان التي تنتهجها اسرائيل ضد شعوب البلدان العربية، والمطالبة بانسحاب اسرائيل فورا وبلا شروط من الاراضي المحتلة ، وبتنفيذ الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني ومطالبة حكوماتكم باصرار بالعمل بشكل فعال داخل هيئة الامم المتحدة من اجل تطبيق القرارات التي اتخذت من قبل من جانب هذه المنظمة لصالح احترام حقوق الشعوب العربية وشعب فلسطين ومن اجل اجبار اسرائيل على احترام هذه الحقوق .

— العمل من اجل مراعاة حقوق شعب فلسطين تماما ، في البحث عن حل لازمة الشرق الاوسط بما في ذلك حق هذا الشعب السيادي في الاشتراك على قدم المساواة في البحث عن حلول ، اذ انه لا يحق لاحد ان يقرر مصير الفلسطينيين في غيابهم.

— القيام في بلادكم ، بنشاط واسع ومتواصل من اجل تفهم افضل وتضامن اوسع مع النضال العادل لعمال وشعب فلسطين .

— العمل من أجل تطوير وتدعيم التضامن الدولي العريض من اجل تنفيذ واحترام الحقوق الانسانية والوطنية للفلسطينيين .

— تقديم المساعدة المادية للفلسطينيين الذين طردوا من وطنهم ويعيشون في ظروف الفقر الشديد محرومين من الامكانيات الاولية للحفاظ على وجودهم .

— التعاون مع الاتحاد العام لعمال فلسطين ، والتعبير من خلال ذلك التعاون عن تضامنكم مع عمال فلسطين ومساندتكم لهم » .

من مذكرة المؤتمر الى يو ثانت

« منذ ثلاثة وعشرين عاما وشعب وعمال فلسطين يقعون ضحية ظلم بشع اذ طردوا من وطنهم ولاقوا شتى انواع التعذيب وتعرضوا للمذابح البربرية ، وهم يعيشون الان اقسى انواع الظلم والاضطهاد يعانون من الفقر والمرض داخل مخيمات التشرد محرومين من ابسط الحقوق الانسانية. ان قضيتهم تعني قضية ظلم وتجريد شعب من كل مقومات الحياة ، انها جريمة تهز ضمير الانسانية . ولهذا خصصت الامم المتحدة الف جلسة من جلسات هيئاتها الاساسية واللجان التابعة لها لدراسة هذه القضية واتخذت اكثر من ١٥٠ قرارا بهذا الشأن . وقد اعترفت كل هذه القرارات بالحقوق الشرعية والوطنية لشعب فلسطين الذي طرد من أرضه ورفضت الظلم الذي لحق به . وأمام تحدي اسرائيل الوقح ، بدعم من الامبريالية العالمية ، لكل قرارات الامم المتحدة المعترفة بحقوق الشعب الفلسطيني ورفضها ، ظل شعب فلسطين محروما من وطنه مشردا خارج دياره . وفي نفس الوقت يتعرض باستمرار السلام في هذه المنطقة من العالم للخطر بشكل بات يهدد السلام العالمي .

ولكل هذه الاسباب مجتمعة ، فان المشتركين في المؤتمر النقابي الدولي للتضامن مع عمال وشعب فلسطين في صوفيا ، يتوجهون اليكم مع تقديرهم لمبادئكم الانسانية ، بنداء حار يطالبونكم فيه بالتوسع في نشاطات الامم المتحدة لصالح قضية شعب وعمال فلسطين والشعوب العربية العادلة. ان ملايين العمال الذين نمثلهم ظلوا يتساءلون ، ولهم كل الحق في هذا ، عن موقف الامم المتحدة تجاه قضية شعب طرد من وطنه وحرم من ابسط مقومات الحياة ، وعن موقف الامم المتحدة من دولة تتمادى في الاستهتار ورفض مقررات الامم المتحدة الخاصة بحقوق هذا الشعب . لقد آن الاوان للامم المتحدة ان تتخذ من الاجراءات الرادعة ما يكبح جماح المعتدين ويضع حدا لاستهتارهم بمصالح الشعوب . اننا نعتقد صادقين انه في امكان هيئة الامم المتحدة ان تتقدم خطوة في هذا السبيل لفرض احترام قراراتها وذلك عن نفس الطريق الذي سلكته وتسلكه هيئة الامم المتحدة والغالبية العظمى من اعضائها تجاه الدولة العنصرية في جنوب افريقيا وتجاه البرتغال الاستعمارية . وفي هذا المجال ، فان المؤتمر النقابي العالمي للتضامن مع عمال وشعب فلسطين يحيي الموقف الذي اتخذته البلدان الاشتراكية من تأييدها الكلي للنضال العادل الذي يخوضه عمال وشعب فلسطين ، ونحن نحيي كذلك المبادرات التي تساعد كثيرا في عزل اسرائيل سياسيا واقتصاديا على الصعيد الدولي . . كما يحيي المؤتمر النضال

العادل الذي يخوضه عمال وشعب فلسطين من اجل العودة الى وطنه وتقرير مصيره بنفسه . اننا مرة أخرى نكرر طلبنا يا سيادة السكرتير العام مقدرين جهودكم الانسانية ، أن تبذلوا جهودكم الشخصية في السير بهذه القضية من أجل ان يقترب اليوم الذي يعود شعب فلسطين الى دياره ويقرر بمحض ارادته وبحرية تامة مصيره بنفسه ، ويوضع حدا لهذه المأساة الانسانية » .

من مذكرة المؤتمر الى لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة

« منذ عام ١٩٤٨ ، ومن تاريخ اقامة اسرائيل على أرض فلسطين ، وشعب وعمال فلسطين يتعرضون لمظالم بشعة ، لقد طردوا من اراضيهم ونهبت أملاكهم ، وعذبوا وقتلوا بالجملة . وقد تفاقمت مأساة هذا الشعب بعد عدوان عام ١٩٦٧ ، وتضاعفت اعمال القمع : عقوبات جماعية ، تدمير مساكن وأحياء بأكملها ، قتل نساء واطفال وشيوخ . وفي مواجهة هذه الاعمال اللاانسانية التي قامت بها اسرائيل ، لم تقف هيئة الامم المتحدة واجهزتها مكتوفة الايدي ، فقد تعرضت لجنة حقوق الانسان بالاخص وفي مناسبات عديدة وبتصريحاتها وقراراتها ولجان التحقيق التابعة لها ، وغير ذلك من المبادرات ، تعرضت لهذه المظالم ووجهت الاتهام لاسرائيل بادانتها . ولكن اسرائيل ، التي تساعدها وتساندها الامبريالية الامريكية في المقام الاول ، لم تأبه بهذه الادانات، بل ضاعفت من مظالمها واعمالها البربرية للقضاء على ذلك الشعب ، كما يحدث في غزة حيث تواصل اسرائيل جرائمها البشعة وتجبر الاف الافراد الى النفي وتريق دماء الابرياء . وفي مواجهة النضال المشروع لشعب وعمال فلسطين ، تواصل اسرائيل اعمالها البربرية وتريق المزيد من الدماء، وترتكب جرائم اخرى .. وهذه الجرائم معروفة للعالم ، وبالاخص للجنة حقوق الانسان التي كونت من قبل لجان التحقيق في الجرائم اللاانسانية التي ترتكبها اسرائيل . ولكل هذه الاعتبارات ، فان المؤتمر المنعقد في صوفيا ، والذي يدرك تماما ان الادانات وحدها لن تحول دون مواصلة اسرائيل ارتكاب المظالم ، يقترح عليكم اتخاذ الاجراءات الاكثر فعالية من اجل تأييد الطموح العادل لكفاح عمال وشعب فلسطين بالعودة الى بلده وتقرير مصيره بنفسه ، ومنع الجرائم البشعة ،وبالاخص في غزة » .

ح ٥ م ٥

رالف بانش كما لم نعرفه

ان الدكتور رالف بانش ، مساعد السكرتير العام للامم المتحدة الحائز علـى جائزة نوبل للسلام ، والذي قضي في التاسع من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١ عن عُمر يناهز السابعة والستين ، لم يكن حقيقة الانسان الذي كان يبدو لنا من بعيد . ويمكن ان يكون العالم قد أبنه بأجـل عبارات المديح والثناء ، ولكن بالنسبة للفلسطينيين وسائر العرب هناك الكثير من الاسباب التي تجعلهم يتحفظون عن ذلك . فلم يكن موظفا دوليا بل كان اميركيا ينفذ السياسة الامريكية على صعيد المراتب العليا للسكرتارية العامة للامم المتحدة ، ويهتم بأن تؤخذ سياسات اميركه العليا في الحسبان عندما يحين الوقت لتنفيذ قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة ومجلس الامن الدولي . ولم يتلـق جائزة نوبل للسلام من اجل تأمين السلام في الشرق الاوسط ولكن لمساعدته القوات الصهيونية الاستيلاء على النقب ليضموها الى الدولة التي اقاموها في فلسطين . لقد كان الدكتور بانش زنجيا ينظر الى العالم من زاوية الرجل الابيض والتعصب لاوروبه كما ان عواطفه كانت مع الحركة الصهيونية . فهو الاميركي الـذي كان دائما يشغل المراكز الحساسة في اي جهد تقوم به الامم المتحدة لمعالجة الصراع في فلسطين . وبدأت علاقته بفلسطين في العام ١٩٤٧ عندما عين مستشارا للجنة الامم المتحدة من اجل فلسطين ، اذ كان يقوم بصياغة التقارير التي تقدمها هذه اللجنة للجمعية العامة . وفي ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ ألحق الدكتور بانش بمستشاري الكونت فولك برنادوت ، الوسيط الدولي في فلسطين ، وكان هـو ، اي بانش ، مسؤولا الى حد كبير عن صياغة تقرير ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨ الذي نجح بكل دقة في اخفاء اسلوب العنف اليهودي واهدافه ضـد الشعب الفلسطيني ، اي التدمير المنظم للقرى العربية الفلسطينية وطرد الشعب الفلسطيني من المناطق التي كانت محط اطماع الصهيونيين . وبعد ان اغتال الارهابيون اليهود الكونت برنادوت في ١٧ أيلول ١٩٤٨ عين بانش وسيطا بالوكالة ، وقد اوكلت له الجمعية العامة مهمة الحفاظ على وقف اطلاق النار وتأمين سلامة اهالي فلسطين واجراء مفاوضات لعقد هدنة بين الدول العربية واسرائيل. وتميزت هذه الفترة بوقف اطلاق نار غير محدد

استغلتها القوات اليهودية التي كانت في موقف هجومي لتعزيز قبضتها على المناطق التي كانوا يسيطرون عليها وضم الاراضي العربية التي كانوا يرغبون في ضمها . وفي آذار (مارس) حشد اليهود قواتهم في وجه القوات المصرية والاردنية في النقب في الوقت الذي كان بانش ينتظر في رودس بدء مفاوضات السلام . وابلغه جلوب باشا ، قائد الجيش العربي في الاردن آنذاك ان قواته تعرضت للهجوم ، فطلب اليه بانش مزيدا من التفاصيل ، فبعث بها اليه جلوب ، ولكن بانش طلب المزيد ، ورد جلوب من جديد ، ومن جديد طلب بانش المزيد من التفاصيل ، وظل يماطل الى ان بلغت القوات الاسرائيلية ايلات منهية بذلك حملة النقب . وبهذه المماطلة حال بانش دون تدخل الامم المتحدة ، ولو لفظيا ، في الحملة الصهيونية لضم النقب الى الدولة الصهيونية ، وفي الحقيقة فان بانش ، الى حد ما ، قدم النقب هبة لاسرائيل.

وفي العام ١٩٦٧ اصبح بانش مساعد السكرتير العام للشؤون السياسية ، وفي أيار (مايو) ١٩٦٧ عندما طلب الرئيس عبدالناصر من او ثانت سحب قوات الطوارىء الدولية من قطاع غزة وسيناء ، ابلغ بانش او ثانت ان الرئيس المصري يقوم بخدعة، واشار على السكرتير العام ان يتخذ موقفا متصلبا ضد مصر . وقد انتقد المصريون هذا الخط المتشدد والذي نصح به بانش ، ولا يزالون يصرون على ان الرئيس عبد الناصر كان في الحقيقة على استعداد للوصول الى اتفاق بشأن اعادة توزيع قوات الطوارىء الدولية بشكل كان من الممكن ان يمنع وقوع مجابهة بين القوات المصرية والاسرائيلية ادت الى الجولة الثانية من اجل فلسطين في حزيران .

وفي مناسبات عدة اعرب الدكتور بانش كتابة عن تعاطفه مع الصهيونين واعجابه بالجهود التي كان يبذلها الدكتور حاييم وايزمن لتأمين انشاء وطن قومي لليهود . وكغيره من الليبراليين في الغرب كان يتحدث عن معاداة الصهيونية وكأنها معاداة السامية . ووقف الى جانب اليهود في نضالهم ضد التمييز العنصري والاضطهاد ، ولكنه ، واعجبا ، لم يستطع ان يكتشف ان الدولة الصهيونية بطبيعتها عنصرية على اعتبار انها استثنت الشعب الفلسطيني من مواطنيتها ، وأعار بانش اهتماما كبيرا كما تأثر عاطفيا باضطهاد اليهود في اوروبة والزنوج في اميركة وبتحاملات الاميركيين البيض المسيحيين ضد الزنوج واليهود، ولكن طرد شعب بكامله على يد شعب اخر ، اي طرد اليهود للفلسطينيين ، كان بالنسبة له ليس تهما عنصريا بل « المصير اليهودي » .

ومع ان الدول العربية كانت تدرك جيدا دور بانش خلال معركة النقب ، ومع ان الديبلوماسيين العرب اعربوا خلال السنوات الماضية عن شكوكهم بالنسبة لصلاحية بانش للمناصب العالية التي احتلها في سكرتارية الامم المتحدة ، لم يجرؤ احد من هؤلاء على الوقوف بوجهه أو توجيه انتقاد رسمي لسياسته : ولو كان بانش اميركيا ابيض، كان يمكن ان تظهر الدول العربية عدم ثقتها به ، ولكن ما حدث هو انه بالنسبة للدول العربية التي كان لديها كل الحق في الاحتجاج ضد ترقية بانش المستمرة ان حال اللون ضد اية معارضة ، وكان ذلك في الحقيقة نوعا من التمييز العنصري المعكوس . وهنا لا بد من التذكير ان عدم توجيه النقد لاي فرد على اساس من لون بشرته او المجموعة البشرية التي ينتمي اليها يشكل تحاملا بالمقدار ذاته كالانتقاد الذي يوجه في غير مكانه . من كل هذا ، ارى ان هذه التجربة مع الدكتور بانش ثمينة بأن تعلم العرب ، والفلسطينيين على وجه التحديد ، درسا هاما في السياسة العرقية، وهو ان لون البشرة ليس دليلا على التحالف السياسي ، وان الاميركيين السود ليسوا كلهم اصدقاء لقضايا العالم الثالث ، وفي الحقيقة فان منظمات عدة من الاميركيين السود ، بما في ذلك المنظمات الراديكالية ، معجبة بالصهيونيين ، وتحاول ان تسير على هدى خطاهم عند حلها لقضاياها العرقية الخاصة . ولاكتشاف ذلك ليس علينا الا الرجوع الى مجموعة المقالات الاخيرة (١٩٦٨) التي كتبها ايلدريج كليفر .

مايكل جانسن

حديث مع اربعة متمردين اسرائيليين

جميل هلال

التقى في لندن ، اواخر سبتمبر ١٩٧١ ، اربعة من الاسرائيليين المتمردين على سلطات اسرائيل . وهم عكيفا اور وموشيه ماخوفر ، من قـادة حركة متسبين ، وشمشون ، من مؤسسي حركة الفهود السود ، والدكتور اسرائيل شاحك ، رئيس اللجنـة الاسرائيلية لحقوق الانسان . وقد دار بينهم وبين جميل هلال ، الاستاذ المحاضر العربي في لندن الحديث التالي . وجدير بالذكر ان المنظمات الثلاث ، التي يتولى هؤلاء الاربعة مسؤوليات بارزة فيها ، تشترك في معارضة السلطات الاسرائيلية وفي فضح اعمالها ونواياها علنا وبشكل متواصل داخل الارض المحتلة وخارجها ، وان كان لكل من المنظمات مواقف عقائدية تختلف عن الاخرى : فبينما ترفض متسبين الصهيونية ، يكتفي الفهود السود بمهاجمة الطبقة الحاكمة . اما لجنة حقوق الانسان فتشدد على ضرورة انهاء احتلال ١٩٦٧ والكف عن الاساليب اللاانسانية في معاملة العرب . وقد سبق لشؤون فلسطينية ان نشرت مقابلة مع مؤسس متسبين (عدد ٢) ومقالا عن الفهود السود (عدد ٤) وبيانات للجنة حقوق الانسان (عدد ١ و٣) .

ظهر في المدة الاخيرة حركة بدائية لمقاومة التجنيد في اسرائيل . ما هي الدلائل السياسية لهذه ، وما هي الدوافع التي تقف وراء ظهورها وما هي قابلية التوسع لهذه الحركة ؟

شمشون : لا تزال حركة العصيان هذه في مرحلة جنينية ولهذا فهي لا تمثل ، في مرحلتها الراهنة ، ظاهرة سياسية خطيرة . ان الوسيلة القانونيـة الوحيدة لتجنب التجنيد في اسرائيل هي الاختلال العقلي . ولا يقر القانون الاسرائيلي بالاستنكاف الضميري (الاخلاقي) كحجة مقبولة لرفض حمل السلاح . ولكن هذا لم يمنع اربعة من الشبيبة اليهود من توجيه رسالة الى ديان (في آب ١٩٧١) أعلنوا فيها رفضهم « الانخراط في جيش احتـلال يوجه الى شعب اخر نفس المعاملة التي وجهت الى ابنائنا » كما رفضوا ان يكونوا « أداة طيعة في جيش يشن حروبا خارجية لاسباب داخلية » . ومن الضروري ربط هذه الخطوة بما حدث في آيار ١٩٧٠ عندمـا وجه (١٨) طالبـا — من اغنى المدارس العليا في اسرائيل — رسالة الى جولدا ماير عبروا فيها عن تلقهم الضميري وعن فقـدان ثقتهم بالحكومة (٠جاء هذا بعد مسألة جولدمن). وأحد هؤلاء الطلاب كان من بين الاربعة الذيـن رفضوا (هذه السنة) اوامر الالتحاق بالجيش . واعتبرت اغلبية الشعب الاسرائيلي تصرف هـذه المجموعة عملا شائنا للغاية ووصفتهـم الصحافة الاسرائيلية بالجبن والخيانة . ولكن عملهم هذا كان بمثابة رسم لعلامة استفهام حـول النظـام الاسرائيلي ، فقد زحزح من شرعية هذا النظـام وزرع بذور الشك والارتياب في نفوس بعـض الشباب .

عكيفا اور : من المهم أن نتذكـر ان الطالـب الاسرائيلي لا يستطيع تكميل دراسته قبـل أن يؤدي الخدمة العسكرية ، كما أن التعليم العالي (الجامعات والصفوف العليا في المدارس الثانوية) ليست مجانا في اسرائيل . وهذا يعني ان طلاب المدارس العليا والجامعـات ينتمـون ، بطبيعة الحال ، الى طبقات وفئات اجتماعية معينة لا تمثل المجتمع الاسرائيلي ككل . كما أن الطالب يلتحق بالجامعة لغرض واحد فقط وهو الحصول علـى وظيفة ادارية ، حكومية او تجاريـة . ولهـذه

الاسباب فان فئة الطلاب في اسرائيل لا تشكل ، كواقع او كامكانية — قوة ثورية .وبخلاف هذا فان طلاب المدارس العليا (قبل التحاقهم بالجيش) هم اكثر اندفاعا لتحدي النظام الاسرائيلي وهم اكثر تقبلا للافكار الثورية من الطلاب الجامعيين . ان اهمية حركة العصيان هذه تعود الى نوعية الموضوعات التي تثيرها . وأهم هذه يتناول طبيعة تماسك وترابط المجتمع الاسرائيلي والوسائل التي يستخدمها هذا لضبط واخماد التناقضات والنزاعات الداخلية (جيلية ، طلابية ، اثنية ... الخ) وتواجد هذه يعتبر بالشيء العادي في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بخلاف الوضع القائم في اسرائيل . فالضجة التي قابلت عصيان هذه المجموعة الصغيرة من الشبيبة تعود في سببها الى التحدي الذي اظهرته هذه لاسس المجتمع الاسرائيلي . ومن الواضح ان الظاهرة لا تماثل — في درجة عموميتها وتفشيها — نفس الظاهرة في الولايات المتحدة . ولكن هذا ليس ضروريا . فلو انتشرت الظاهرة لتشمل على ٥٪ فقط من الشبان لكان في هذا ما يكفي لتقويض وتشويه معنويات الجيش الاسرائيلي . ومن المحتمل جدا ان تطلق هذه العنان لمختلف انواع القمع الشوفيني مما قد يؤدي الى نوعية جديدة من ردود الفعل المعاكسة .

لننتقل الان الى موضوع حركة « الفهود السود » في اسرائيل . يوحي اسم « الفهود السود » بوجود حركة سياسية ذات نظرية فكرية وبرنامج سياسي وممارسات عملية من نوع معين . ما هي درجة التماثل والتقارب بين هذه الحركة وحركة « الفهود السود » في امريكا ؟

شمشون : ولدت حركة الفهود السود بين صفوف الشبيبة من اليهود الشرقيين الذين ولدوا وترعرعوا في الاحياء الفقيرة في مدينة القدس (حارة « المصرارة » على وجه التحديد) . وكان اغلبهم من عصابات « الاشتيباء » (جماعات اجرامية « تحتية ») . كما وينتمي اغلبهم الى وسط اجتماعي مهمل وعاطل من العمل . وبالتدريج أخذت هذه الجماعات تشعر أن السبب الكامن وراء وضعهم الاجتماعي المنحط يعود اساسا الى طبيعة المجتمع الاسرائيلي القائم وليس السبب نقصا ذاتيا كما كان يتمثل لهم .

هذه هي الخلفية الاجتماعية التي بدأ منها تنظيم جديد باسم « الفهود السود » . والواقع أن اسم « الفهود السود » الذي تبنته هذه المجموعة لم يكن ، بادىء الامر ، يعني وجود ايديولوجية واعية وبرنامج سياسي مدروس . فقد تم انتقاء الاسم بشكل تلقائي عفوي وبادراك حدسي ، والغرض منه لم يتعد اثارة نوع من الفزع داخل المجتمع الاسرائيلي . ان وضع اليهود الشرقيين القاسي ليس ظاهرة جديدة ، فقد تواجد هذا منذ أن خلقت اسرائيل . وما حدث بالفعل كان بمثابة تعرية للايديولوجية السائدة . فقد كان اليهود الشرقيون الذي هاجروا الى اسرائيل قبل (٢٠) سنة يعتقدون ان الخدمات العامة (من مساكن ، وفرص عمل ... الخ) التي تحت تصرفات السلطات الرسمية توزع حسب مبدأ الاسبقية الزمنية . ولكن ابناء هذا الجيل الاول من المهاجرين الشرقيين أخذوا بالادراك انهم لم يتخطوا الوضع الذي بدأ منه جيل ابائهم ، هذا في حين أن المهاجرين من روسيا وامريكا يتلقون المساكن الجميلة الواسعة . ان الامثلة التي توضح حدة التباين بين توقعات كل من الطائفتين كثيرة فاليهودي الروسي — على سبيل المثال — الذي تلقى شقة ودكانا يتذمر — وبشكل جدي — من أن الزبائن لم تؤمن له ! بلورت هذه الاوضاع شعورا لدى هذه الشبيبة بضرورة الاهتمام في تغير الوضع القائم . ولهذا قرروا القيام بمظاهرة احتجاج على ظروفهم الحياتية (حصل هذا قبل أن يكون « للفهود السود » تنظيم سياسي) . ولكن السلطات الاسرائيلية رفضت السماح لهم بالتظاهر . هذا في حين أن هذه السلطات كانت تسمح لمنظمة مثل « متسبين » بالتظاهر حتى ضد السياسة الاسرائيلية في قطاع غزة والسبب في هذا بسيط ، هو ان منظمة « متسبين » لا تملك رصيدا شعبيا في اسرائيل بعكس حركة « الفهود السود » . ولهذا ايضا نجد أن قوات الامن الاسرائيلي سلكت منذ البداية طريق العنف في معاملتها « للفهود السود » ودرجت على اعتقال الكثيرين منهم وزجهم في السجون .

ولا شك أن الحركة آخذة في النمو . ولكنها لا تزال ، بشكلها الحالي العام ، حركة اصلاحية، ولا يزال الكثير من افرادها مرتبطا بالفكر

والاحساس الصهيوني . غير ان بعض قادةالحركة من الشبان قد تخلوا عن الفكر الصهيوني . ويتجلى هذا في الطريقة التي يقيم بها هؤلاء العديد من القضايا العامة : فهم يعارضون هجرة اليهود الروس الى اسرائيل ، ويشعرون بالعداء تجاه الولايات المتحدة — ويعارضون الانخراط في الجيش الاسرائيلي — وهم يدركون بوضوح بأن نشوب القتال بين اسرائيل والعرب سيستغل لشل حركتهم ولعرقلة تضيتهم بحجة « الامن الداخلي » . وقد قال لي احد قادة الحركة « أنا احلم باليوم الذي نوحد فيه قوانا مع العرب ونسير في مظاهرة واحدة معهم .. ولكن الوقت لم يحن بعد للحديث عن قضايا العرب لان هدفنا الاساسي في المرحلة الراهنة هو كسب تأييد الشعب الاسرائيلي لقضيتنا وسيأتي وقت يسمح لنا بتوحيد قوانا مع العرب لشن نضال مشترك ». وهذا يعني ان حركة « الفهود السود » ليست حركة متجانسة : فقسم منهم صهاينة وينظرون الى صراعهم على اساس أنه « نزاع عائلي » . ولهذا فلا بد وأن تنشق الحركة الى شطرين : الاول سيبقى جزءا من التركيب الاسرائيلي الصهيوني ، والثاني سيكون معاديا لهذا .

ان اهم اثر ملموس للحركة هو تسيسها لجزء من اليهود في اسرائيل . فقد لاحظ هؤلاء وسائل العنف الجسدي التي استخدمتها سلطات الامن الاسرائيلية ضد حركة « الفهود السود » مما دفع البعض الى وصف اسرائيل بدولة بوليسية ونعت الشرطة بالنازية . وحتى الطلاب الجامعيون في اسرائيل — وهم عادة يتجنبون الالتزامات السياسية — أخذوا باظهار عطفهم على الحركة بسبب تصرفات قوات الامن الاسرائيلية . واولئك هم نفس الطلاب الذين كانوا يهاجمون مظاهراتنا ضد التدخل الامريكي في فيتنام لاعتبارهم امريكا الصديقة الوفية لاسرائيل . ومن الملاحظ أيضا أن محاولات منع مظاهرات «الفهود السود» في اسرائيل حثت اليهود الشرقيين (« اسرائيل الثانية » كما يسميها علماء الاجتماع) الى الاهتمام السياسي بوضعهم الاقتصادي — الاجتماعي : فأخذوا يناقشون مشاكلهم المشتركة (اسكان ، بطالة ... الخ) مما زاد من حقدهم ضد الاشكنازيين ، (يهود اوروبا) . ان خوف السلطات الاسرائيلية من فعالية الحركة هو السبب الذي دفع سلطات الامن الاسرائيلية مؤخرا (منتصف ايلول) لمنع جميع المظاهرات داخل المدن . هذه تعليمات بوليسية وافق عليها البرلمان الاسرائيلي . وهذا عمل ليس له سابق في تاريخ اسرائيل .

ان مستقبل حركة « الفهود السود » يعتمد على قابلية هذه على التفاعل الواعي مع قوى الواقع بقصد تحريكها في اتجاه ثوري . ان قسما منهم — كما ذكرت سابقا — أخذ يعي مصالحه المشتركة مع الشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة . الا ان هذا التفكير لم يأخذ بعد ، طابعا علنيا . وهو تفكير يسود بين اقلية صغيرة من افراد الحركة . وقد اظهرت هذه الاقلية مقدرتها على التفاعل الايجابي مع القوى الراديكالية في الساحة الاسرائيلية : وهذه القابلية اظهرها بعضهم قبل ظهور حركة « الفهود السود » بمدة سنوات كما تدل تصرفات احد مؤسسي هذه الحركة (سعاديا مارسيناو) : من المعروف أن هذا كان قد قابل — في احد سجون اسرائيل — احد العرب من جماعة متسبين (نبيل سعد) الذي اعتقلته السلطات الاسرائيلية بتهمة تعامله مع منظمة فتح (كل ما قام به هذا الشخص — فعليا هو مساعدته لمنظمة متسبين على توزيع بعض منشوراتها باللغة العربية). والمهم ان السجناء اليهود عاملوه بحقد وخشونة وأخذوا يتحرشون به ويهددونه . ويظهر ان هذا لم يرق (لسعاديا) الذي دخل الى زنزانة (نبيل) واغلق بابها ليمنع السجناء الاخرين من الدخول . وبقي هذا مع « نبيل » طوال الليل يصغي الى كلامه . حدث هذا قبل ثلاث سنوات . وعمل كهذا ليس بالشيء العادي وخاصة وأن اليهود « الشرقيين درجوا على تأييد الاحزاب اليمينية المتعصبة . فشعورهم بالاضطهاد لا يمنعهم من الاحساس بأنهم يشغلون مكانة أعلى في البنية الاجتماعية الاسرائيلية .

كما درج اليهود الشرقيون على التصدي لمظاهرات « متسبين » ومهاجمتها . ولكن تغيرا ملحوظا طرأ على هذا الوضع بعد ظهور حركة « الفهود السود » ، وقد حدث هذا بشكل تلقائي بعد أن حاول جماعة من عصبة الدفاع اليهودي مهاجمة مظاهرة « لمتسبين » حصلت هذه السنة . وافراد هذه العصبة يهود امريكيون الفوا القدوم الى

القدس لقضاء سنة دراسية يعودون بعدها الى امريكا وكان ما حصل ان تصدى لهم « الفهود السود » وهاجموهم . هذا مع العلم بأن «متسبين» لم تطلب منهم الحماية وبالرغم من ان الفهود السود ، لم يكونوا على الم باطراف القضية السياسية . وكان لمجيئهم الى المظاهرة سبب « تقني » وهو الاطلاع على عملية التظاهر فقط . هذا لا يعني أن حركة الفهود السود قد تحولت الى تنظيم سياسي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فلا يزال قسم منهم (الاغلبية) متمسكين بالعقلية الصهيونية كما ان الحركة لا تزال تفتقر الى برنامج سياسي يوضع البديل للنظام القائم .

عكيفا اور : من الضروري ان لا ننسى ان الحركة لا زالت في مرحلة اولية تكونية . فهي لم تصل الى مرحلة تسمح لها بصياغة برنامج سياسي متكامل . ومن الواضح ان تيارين متعارضين في تبلور داخل الحركة . تيار هدفه النهائي الحصول على حصته من « كعكة » النظام ، وتيار اصغر يريد خلق نظام بديل ولهذا فهو يعارض ويهاجم النظام ككل . وتشير بعض الدلائل الى ان هذا الانشقاق قد وقع فعلا .

في تحليل لكم نشر اوائل هذا العام ، قارنتم وضع اليهود الشرقيين في اسرائيل بوضع « البيض الفقراء » في الولايات المتحدة . وكان استنتاجكم بان العمال من اليهود الشرقيين لا يشكلون قوة ثورة يمكن الاعتماد عليها في تغيير الوضع في اسرائيل .. هل تغير رايكم هذا بعد ظهور حركة « الفهود السود » على ساحة القوى السياسية في اسرائيل ؟

عكيفا اور : كان من اهداف المقالة المذكورة (نيو لفت رفيو — عدد ٦٥ — كانون ٢ — شباط ١٩٧١) معالجة الموضوعة القائلة بان اليهود الشرقيين يشكلون حليفا للثورة الفلسطينية . ومن المعلوم بأن التركيب الطبقي في اسرائيل يطابق تركيب المجتمع الاثني (الجغرافي) . فالغرض من استحضار اليهود من البلاد العربية كان لتشكيل طبقة عاملة في اسرائيل لان اقانيم الصهيونية تصر على خلق مجتمع تكون اليد العاملة فيه من اليهود واليهود فقط . فاليهود الشرقيون احتلوا دور اليد العاملة الفلسطينية . ولكن هذه المجموعة اخذت تتشبه باليهود الغربيين (الاشكنازيين) على اعتبار أنهم يشكلون جماعة « مرجعية » لهم ، ولهذا فقد أخذ اليهود الشرقيون يحاولون البرهنة لليهود (الاشكنازيين) بأنهم اكثر صهيونية منهم — على الرغم من ان التشابه الثقافي والجسمي بينهم وبين العرب اكثر اصالة وعمقا من اي تقارب بينهم وبين « الاشكنازيين » . ولهذا نجد بأن اليهود الشرقيين في الجيش الاسرائيلي اكثر قسوة ووحشية من يهود اوروبا .

ولكن ما غفلنا عنه في المقالة المذكورة هو العامل الجيلي . وما اقوله هنا هو وجهة نظري الخاصة ولا يشاركني فيها الرفاق الذين اشتركوا معي في كتابة المقالة . ورأيي الخاص يتلخص في المقولة التالية : ان خصوصية المجتمع الاسرائيلي — كمجتمع استيطاني من نوع معين — تجعل فعالية العامل الجيلي تطغي على تأثير العامل الطبقي . ومن هذا المدخل يشكل اليهود الغربيون ثلاث فئات جيلية : فالفئة الاولى (جيل غولدا مايير ، بن غوريون .. الخ) تسيرها عقدة الاضطهاد . وتفسر هذه الفئة كل الظواهر السياسية — بما في ذلك القضية العربية — بارجاعها الى اضطهاد اليهود . فالمسألة اذن ليست مسألة عمر وانما مسألة تجربة الاضطهاد والشعور به . والمهم ان هذه الفئة لا تزال تحكم اسرائيل وقد يستمر هذا لفترة خمس او ست سنوات اخرى .

والفئة الثانية (ديان وأمثاله) نشأت وتربت في فلسطين بين الحرب العالمية الاولى والثانية . وما يميز هذه الفئة هو فقدان الشعور بالاضطهاد الذي يشبع عقلية الفئة الجيلية الاولى — كما ان هذه الفئة عاشرت المجتمع الفلسطيني العربي وكثير من افراد هذه الفئة يتكلمون العربية ويعترفون بوجود الشعب الفلسطيني ويقرون بترحيله وتجريده من أرضه . وهم ينظرون الى الامور نظرة تقنية بشكل عام .

والفئة الثالثة تتكون من الجيل الذي ولد وتربى داخل دولة اسرائيل (بعد ١٩٤٨) . وكان من نتائج حرب حزيران ١٩٦٧ ان اكتشفت هذه الفئة الوجود الفلسطيني العربي (في القدس والضفة الغربية) . وهذا لان هذه الفئة بقيت حتى ذلك الوقت معزولة عن الواقع الخارجي . فالكتب الاسرائيلية (وغيرها من وسائل الاعلام) تجاهلت كليا وجود شعب فلسطيني . وكان من النادر أن يصادفوا فلسطينيا في فترة ١٩٤٨ —

١٩٦٧ . بالنسبة الى اليهود الشرقيين فان الخطأ الذي ارتكبناه هو اعتبار هؤلاء كتلة متجانسة متجاهلين التباين بين جيل الاباء الذين — رغم كونهم من العمال والمضطهدين— يتشبهون باليهود الاوروبيين وجيل الابناء (ولد وتربى في اسرائيل) الذي اظهر مقدرته على التحرك كقوة مستقلة متمثلة في حركة الفهود السود . اما ما تكلمنا عنه في المقالة فهو الجيل الاول وما غفونا عن أخذه في الحسبان هو الجيل الصاعد من اليهود الشرقيين.

موشيه ماخوفر : من المبالغة اعتبار حركة « الفهود السود » من حلفاء حركة المقاومة الفلسطينية . ولكن كونها حركة تهدد وتساعد على تفسخ النظام الاسرائيلي يجعل منها — موضوعيا — سندا لحركة المقاومة . وفي رأيي انه من الخطأ اعتبار حتى الجيل الصاعد من اليهود الشرقيين حليفا فعليا للقضية الفلسطينية . ان مطالب القسم الاكبر منهم اصلاحية ولا تتعدى الحصول على نفس الامتيازات التي يتمتع بها اليهود الغربيون . ولهذا فان اعتبار اليهود الشرقيين حليفا للثورة الفلسطينية لا يشكل سوى ضرب من التفكير الرغبي الهوائي .

ان من مصلحة الثورة العربية تقوية وتحريك القوى المعادية للصهيونية في اسرائيل . ما هي الوسائل التي يتحتم على القوى العربية الثورية اتباعها للمساهمة في تغيير وتثوير الوضع داخل المجتمع الاسرائيلي ؟

اسرائيل شاحاك : عندي ملاحظتان بهذا الصدد : الملاحظة الاولى تخص نقطة تقنية : ان عددا كبيرا من الاسرائيليين يصغون الى الاذاعات العربية والبعض منهم يصغي الى محطات المقاومة الفلسطينية وخاصة البرامج العبرية . وكثيرا ما تتلاشى جدية هذه البرامج بسبب الاخطاء النحوية واللغوية التي ترتكب فيها . هذه نقطة تقنية ولكنها مهمة .

الملاحظة الثانية تخص موضوع الدعاية الصهيونية في اسرائيل . فالفكرة الاساسية التي درجت هذه على ترديدها تصور ان الهدف الرئيسي للعرب هو التنكيل باليهود وطردهم من فلسطين . وما دامت هذه الفكرة سائدة ومقبولة في اسرائيل فمن الصعب جدا تغيير الوضع وتثويره . وهذا ينطبق على « الفهود السود » الذين لا زالوا يحتفظون بنظرة محافظة بما يخص القضية العربية . هذا مع العلم بأن تغيرات ملحوظة قد طرأت على تفكيرهم بهذا الصدد . فقد تخلصوا من كراهيتهم الشديدة للعرب وقد انعكس هذا على بعض تصرفاتهم . فقد رفضوا اقتراح وزير الاسكان الاسرائيلي الذي عرض عليهم مساكن في الاراضي المحتلة (في الخليل) وكان جوابهم الاولي « اذهب انتواسكن هذه المنازل »،ثمتحولجوابهم الى القول « اننا لا نريد ان نسكن في اماكن لا تخصنا ».

ومن الجدير بالذكر هنا هو ان السلطات الاسرائيلية أخذت توظف وتستخدم افراد الشرطة العرب في القدس لمهاجمة ومطاردة « الفهود السود » . ويرجع هذا الى كون افراد الشرطة من الفئات التي رفضها ولا يتعامل معها الشعب الفلسطيني . ولهذا فالسلطات الاسرائيلية لا تلقى أفرادا اكثر تقبلا واستعدادا للسخرة منهم . ويرجع السبب الثاني الى نجاح الفهود السود في التأثير على رجال الشرطة الاسرائيلية من اليهود الشرقيين الذين وجدوا انفسهم في حالة من الانفعال والتوتر في مواجهتهم للفهود السود مما أدى الى سحبهم من العمل وتبديلهم بأفراد من البوليس العربي .

موشيه ماخوفر : لقد طرأ تغير ملحوظ على موقف العرب من يهود اسرائيل . ففي فترة ما قبل حرب حزيران كان الموقف يتلخص في « القاء اليهود في البحر .. » وقد فسر هذا من قبل اليهود بمفهوم التهديد الجسدي . هذا كلام لم يعد يردده أحد . ومع هذا فان المقاومة الفلسطينية على مختلف آرائها ترفض ان تعتبر اليهود الاسرائيليين بأكثر من كونهم مجموعة او طائفة دينية . ولكن هذا لا يطابق الواقع (الموضوعي والذاتي) القائم في اسرائيل . فيهود اسرائيل يشعرون بانهم أمة . ولا يوجد حتى الان أية حركة فلسطينية على استعداد لتقبل هذه الفكرة. هذا يعني ان فكرة الدولة الديمقراطية العلمانية ليست قابلة للتطبيق في فلسطين سواء كان هذا من وجهة نظر اليهود في اسرائيل او من وجهة التطبيق العملي بهذه الفكرة . والمسألة التي تثيرها الفكرة هذه تخص الجنسية او الهوية القومية لهذه الدولة . « فتح » تقول ان هذه الدولة ستكون جزءا من العالم العربي ولهذا فان

جنسية السكان اليهود ستكون عربية . ولكن اعتراضي على هذه الفكرة لا يرجع الى هذه النقطة بالذات . فأنا كثوري (وكثوري من المشرق) انطلق من فكرة ضرورة الثورة الشاملة في المنطقة. فلا يمكن ان ننظر الى المشكلة الفلسطينية بمعزل عن باقي المنطقة . ولهذا فمن الضروري تقييم شعار الدولة الفلسطينية الديمقراطية — كغيرها من الشعارات — من خلال تفحص الهدف المنوي حشد وتعبئة الجماهير من اجله . وهذا الشعار بالذات يطرح على الجماهير فكرة تغيير الوضع القائم في فلسطين في حين يتطلب الواقع ثورة شاملة في المنطقة العربية . ولهذا فاننا (متسبين) نرفع شعار الثورة الشاملة في الشرق الاوسط كوسيلة لبناء مجتمع عربي موحد. فنحن جزء من المشرق العربي — وهذا يعني ضرورة ايجاد حل للمشكلة القومية . فالامة العربية — كأي أمة كبيرة — تحوي جماعات وطوائف مختلفة ، وهذا يعني بالتالي ضرورة العمل لخلق كونفدرالية اشتراكية تشمل الجميع. ولهذا كان من الضروري تجنب طرح حل للقضية الفلسطينية بدون الاشارة الى الثورة في الشرق الاوسط .. وقد اصبح واضحا أن فكرة تأسيس دولة فلسطينية ديمقراطية كمرحلة اولى نحو الثورة الاشتراكية في المنطقة ، كانت فكرة غير صائبة . فالتحليل النظري وممارسات وتجارب الفترة الاخيرة تظهر بوضوح استحالة بدء ثورة فلسطينية بمعزل عن الثورة الشاملة . ومع ان المنظمات الفدائية قامت بتحليل المشكلة على هذا النحو الا ان ممارساتها العملية لم ترتفع الى مستوى هذه التحليلات النظرية .

فالنقطة الجوهرية في الموضوع تخص ما يحدث على الساحة العربية وعلى صعيد الثورة العربية — ونمو الثورة العربية سيساعد على تحريك الحركات الثورية داخل اسرائيل — ولهذا فنحن بحاجة الى حركة ثورية على نطاق المنطقة ككل — تشكل الحركة الثورية في اسرائيل جزءا منها . وهذا يعني ضرورة المباشرة بخطوة جديدة ليس على اساس فلسطين الضيق بل على نطاق المشرق العربي ككل .

اسرائيل شاحك : اعتقد ان في مقدور فكرة الدولة الفلسطينية الديمقراطية ان تلقى تجاوبا داخل اسرائيل ان رافق هذه ضمانات بأن مشروع هذه الدولة لا يعني طرد جزء من اليهود الموجودين حاليا في فلسطين . ولهذا فأنا اعتقد انه من الضروري في المرحلة الحالية — وقبل أن تنمو حركة ثورية من النوع الذي تكلم عنه موشيه ماخوفر — أن يتم خلق جبهة واحدة تجمع ما بين كل من الفلسطينيين واليهود (في اسرائيل) المعادين للصهيونية . جبهة كهذه يجب ان تبدأ بعمل أشياء بسيطة كاصدار البيانات والخروج في مظاهرات مشتركة . الخ . وانا متأكد من أن اعمالا من هذا النموذج سيكون لها تأثير بالغ داخل اسرائيل . ومن المهم كذلك ان تقوم الجهات الفلسطينية المختصة بنشر البيانات والمقالات التي تخاطب الشبيبة اليهود المعادين للصهيونية والمقالات الضرورية ، بوجه خاص ، هي تلك التي تعالج موضوع المستقبل ووضع اليهود في فلسطين. من المهم جدا ان تتصدى الجهات الفلسطينية والعربية لهذه النقطة بالذات . لان الدعاية الصهيونية قد نجحت في غرس فكرة تصميم العرب على طرد وحتى قتل اليهود في اسرائيل . يجب ان تكتب هذه المقالات خصيصا للشبيبة اليهود لانهم لا ينظرون بجدية الى المقالات العامة حول الموضوع لاعتقادهم انها موجهة للاستهلاك العربي فقط . وانا مستعد على نشر وتوزيع هذا النوع من المقالات داخل اسرائيل . (بطرق قانونية وغير قانونية) . وفي الواقع ان بوادر من هذا النمط قد بدأت تنمو داخل اسرائيل — ويوجد الان تناسق وتآلف بين بعض الفئات الاسرائيلية المعادية للصهيونية وبعض الطلاب العرب وخاصة طلاب الجامعات في القدس وتل ابيب. ويتم عقد اجتماعات مشتركة بين هذه الجماعات ، كما اخذت هذه باصدار البيانات المشتركة — ولكن هذه المجموعة من الشباب الفلسطيني تشعر بالانعزال والوحدة ... وهم يتلهفون الى توصيل اخبارهم الى العالم العربي .

عكيفا اور : ان ضرب وهزيمة المنظمات الفدائية جاء على يد الملك حسين وليس من قبل اسرائيل . وهذا يعني — بادىء ذي بدء — أن سياسة الجبهة العربية العريضة ضد العدو الصهيوني قد كانت خاطئة .. فالمهمة الاولى هي الاطاحة بالنظام الاردني وبدون هذا لا يمكن انجاز عمل سياسي جدي على الجبهة الفلسطينية — الاسرائيلية ، والنقطة الثانية تدور حول علاقة

الكفاح المسلح بالعمل السياسي . وفي رأيي أن الثورة الفلسطينية كانت تشدد اكثر من اللازم على العمل العسكري مما أدى الى اهمال العمل السياسي وخاصة في الضفة الغربية . وبالطبع فانا لست ضد الكفاح المسلح ، ولكن تأثير هذا على اسرائيل لم يتجاوز الازعاج واحداث الخدوش البسيطة ، ولو تم بناء حركة سياسية جماهيرية في الضفة الغربية لتمخضت هذه بتأثير اقوى واشد — فالمظاهرات التي قامت بها بنات المدارس في نابلس وضعت النظام الاسرائيلي في حالة اكثر احراجا وصعوبة من كثير من غارات الفدائيين عبر نهر الاردن . واطلاق الرصاص على المظاهرات الشعبية يكلف اسرائيل ثمنا أغلى من خسارة مركز على الحدود لان هذا عمل عسكري محض بينما العمل الاول ذو طبيعة سياسية واضحة .

ان الفرق بين الوضع في غزة وبين الوضع في الضفة الغربية يعود الى أن المقاومة في غزة هي مقاومة داخلية بينما نجدها خارجية المصدر في الضفة الغربية .

اسرائيل شاحك : انا لا اوافق على تقييم « عكينا اور » للعمل العسكري الفدائي . فقد بات واضحا في المدة الاخيرة ان تأثير الفدائيين على اسرائيل كان أكبر واقوى مما كانت تصوره الصحف وأجهزة الاعلام الاسرائيلي . هذا ليس رأيي الخاص بل ما يعترف به الضباط الاسرائيليون داخل الجيش. ولهذا فان استمرار العمل الفدائي عبر الحدود ذو اهمية في تطوير الوضع الداخلي في اسرائيل — فقد أخذت السلطات الاسرائيلية تقر بشجاعة وفعالية الفدائيين بعد أن شلت حركتهم هجمات الملك حسين . ان تباين الوضع بين غزة والضفة الغربية لا يرجع — كما يعتقد البعض — الى كون المقاومة داخلية في غزة وخارجية في الضفة الغربية . ففي البداية كانت المقاومة تباشر عملها من داخل الضفة الغربية . وكانت لهم قواعد في الضفة الغربية (في نابلس ، رام‌الله ، طولكرم ، الخليل .. الخ) . ولقد تتبعت بنفسي اخبار هذه في الصحافة العبرية ، كما كانت تصلنا معلومات عن هذه من جهات اخرى .. ولكن ما حدث هو ان سمحت المقاومة لبعض الرجعيين بالبقاء في السلطة وصارت تتعامل معهم . ولما شعر هؤلاء بأن مركزهم اصبح مستقرا تحولوا الى عملاء لاسرائيل وبدأوا في دس المعلومات الى الشرطة والسلطات الاسرائيلية عن افراد المقاومة مما أدى الى فشل المقاومة في الداخل .

ان ضعف المقاومة في الضفة الغربية يرجع الى تعامل هذه مع الرجعيين من مخاتير ورؤساء بلديات واعيان . وبهذا سمحت المقاومة لهؤلاء باضطهاد الشعب . فأول عمل قامت به السلطات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة كان ارجاع سلطة المخاتير التي كانوا يتميزون بها وقت الانتداب البريطاني (فأخذوا — مثلا — يتقاضون الرسوم النقدية لقاء التوقيع والختم على المستندات والاوراق الرسمية لافراد الشعب) . أما في غزة فان المقاومة قوضت سلطة المخاتير والاعيان ولم تسمح لهم باستغلال واستعباد الاهالي . ولهذا فان ما حدث في الضفة الغربية يماثل ما حدث في الضفة الشرقية في المدة الاخيرة ، فأعيان الضفة الغربية (امثال الجعبري) قاموا بنفس الدور الذي لعبه النظام الهاشمي في الضفة الشرقية ضد المقاومة .

ان من واجب المقاومة الفلسطينية ان تنظف الضفة الغربية من العملاء الفلسطينيين الذين يعلنون جهارا عن عدائهم للمقاومة والذين ساعدوا السلطات الاسرائيلية في قمع المقاومة في الضفة الغربية وفي توطيد الاحتلال . ان غزة لا زالت صامدة لا تقهر . والجيش الاسرائيلي يرتجف ويرتعد من غزة ، والحكومة العسكرية مكروهة في غزة . هذا بخلاف الوضع في الضفة الغربية حيث تشعر السلطات الاسرائيلية بالطمأنينة والامان . والفرق يرجع الى اختلاف تكتيكات المقاومة في المنطقتين. ولا شك ان طمانينة اسرائيل قد ارتفعت بعد ان اظهر الحكم الاردني انه الحليف الوفي لها — ومن المعلوم بأن جنود المظلات الاسرائيليين كانوا في حالة تأهب للتدخل في الاردن في حوادث ايلول ١٩٧٠ — ومن المعلوم كذلك ان الذخيرة العسكرية كانت (في ايلول وتشرين الاول ١٩٧٠) تفرغ في ميناء حيفا وترسل عن طريق اسرائيل الى الاردن ...

وثائق بريطانية حول اقتراح يهودي باقامة دولة يهودية في منطقة الخليج العربي اثناء الحرب العالمية الاولى

خيرية قاسمية

منذ دخول تركيا الحرب العالمية الاولى عرض الصهيونيون على بريطانية تقديم قوات عسكرية للمشاركة مع القوات البريطانية في عملياتها في فلسطين ، وبراي المكتب العربي في القاهرة في مذكرة ١٩١٧/٢/٥ « ان الاقتراح الصهيوني من اجل تعاون عسكري قد عمل بشكل واضح لاجل هدف سياسي ، اي الحصول على حق القول بانهم شاركوا في عملية تحرير البلاد .. » (١)

وكان من جملة ما قدم على الحكومة البريطانية في تلك الفترة التي سبقت اصدار تصريح بلفور عرض يهودي غريب ، لاظهار هذا الارتباط بين المصالح البريطانية واليهودية ، ومدى المشاركة التي يمكن ان يقدمها اليهود في هزيمة الامبراطورية العثمانية ، ولكن في جبهة اخرى : مدخل الخليج العربي .

فقد تقدم طبيب يهودي روسي اسمه م.ل. روتشتين (يقيم في باريس) بتاريخ ٢ سبتمبر (ايلول) ١٩١٧ باقتراح (باللغة الفرنسية) الى وزارة الخارجية البريطانية عن طريق السفير البريطاني في باريس لورد بيرتي ، راجيا ان يولى هذا الاقتراح الثقة والاهتمام ، وخلاصته : « ان تقوم دول الحلفاء بتجهيز وتنظيم جيش من اليهود قوامه ١٢٠ الفا في البحرين تضمه تحت قيادته لغزو واحتلال منطقة الاحساء التركية ، وان تعقد معاهدة مؤقتة معه من اجل خلق دولة يهودية على الخليج الفارسي » (٢).

تفاصيل الاقتراح غريبة : وروتشتين نفسه يعترف بان هذا العرض يبدو للوهلة الاولى وهما ، ولكنه واثق انه سيفقد صفته الوهمية حين تصل الالاف الاولى من الفرقة اليهودية التي تعهد بجمعها الى اماكن تمركزها في الربيع القادم ، والتي لا تقل عن ١٢٠،٠٠٠ من المحاربين الاشداء يساهمون بشروط معينة الى جانب فرق الحلفاء . الشروط هي : ان تصبح المقاطعة التركية (الاحساء) قرب الخليج « الفارسي » ، عدا الكويت ، دولة يهودية التي ستكون بمساعدة الفرقة اليهودية لدى وصول ٣٠ الف رجل ، يجهزون ويدربون في مكان تمركزهم وهي جزيرة البحرين في نفس الخليج ، وان تدفع تكاليف التجهيز من تسليح وغيره اللازمة للاعداد والنقل والتموين سلفا اما من بريطانية وحدها او الحلفاء ، وتكون هذه المبالغ الدين الاول على الدولة اليهودية ، وان يقدم الحلفاء المدربين وقسما من هيئة القيادة على ان يعتبروا في خدمة الجيش اليهودي ويرتدون زيه ، وان لا تحارب الفرق اليهودية الا في آسية ، وان يتولى هو اي روتشتين مهمة الادارة العليا للعملية ، وان يطلب مساعدة رجال ذوي خبرة من انكلترا او دول الحلفاء لضمان مصالح (الامة) اليهودية من جهة وضمان التنفيذ الدقيق والامين لالتزاماتها تجاه الحلفاء ، وشرط اخير ان تحاط العملية بالسرية التامة حتى لحظة غزو الاحساء .

اما الترتيب الزمني للعملية فيكون برايه كما يلي : وضع مشروع معاهدة بين الحلفاء وانكلترا من جهة ، وبينه اي روتشتين بصفته المتحدث باسم الدولة اليهودية المقبلة ، وسيصبح المشروع معاهدة لما يحدد وضعه رسميا من قبل مجمع الحاخامات على رأس الفرق اليهودية ، ثم بعد عمليات الانتقال الى البحرين ووضع كافة ادوات التجهيزات والتسليح ، والتدرب والتأهب للحرب، يتم غزو منطقة الاحساء ، ثم اعلان قيام الدولة اليهودية ، واعتراف دول الحلفاء بالدولة الجديدة وتنظيم سريع لها مع وصول متطوعين جدد وتدريبهم

١ ـ F.O. 882/2/14 Arab Bureau Papers

٢ ـ F.O. 371/3053/18242

وتنظيمهم ، بعد ذلك تعلن حالة الحرب بين الدولة اليهودية وتركيا من جراء غزو اراضي الاخيرة ، وتدخل الفرق اليهودية فورا في المعركة وتبقى على هذه الحال حتى النصر النهائي لدول الحلفاء .
ويعدد الاقتراح ما يعود على قضية الحلفاء من فوائد بفضل هذا المشروع : يشكل الاعلان الفوري للدولة اليهودية واعتراف دول الحلفاء بها عاملا قويا لحماس (الامة) اليهودية ، واندفاعها نحو دول الحلفاء الذي تشكل الدولة اليهودية جزءا لا يتجزأ منها ، مع ما يرافق ذلك من تدفق الاموال والمحاربين ، بالاضافة الى ذلك ان الشعور الديني البالغ لدى الجنود اليهود المحاربين في جيوش تركيا والمانيا سيشل تلقائيا شعورهم بالواجب ، كما سيكون للحماس اليهودي تأثير في روسيا اكثر حظا على اخوانهم المسيحيين .
وبعث السفير البريطاني في باريس هذا الاقتراح الى بلفور وزير الخارجية في ١٤ سبتمبر ١٩١٧ يطلب تعليماته حول الرد المناسب . واستطلعت وزارة الخارجية رأي الوزارة المسؤولة عن شؤون الهند فيما يتعلق بهذا العرض فاشار الوزير مونتاجو (الوزير اليهودي الوحيد بالوزارة) في رده في ١٥ اكتوبر (تشرين اول) سنة ١٩١٧(٣) « ... انه بصرف النظر عن الاعتراض العام لادخال عنصر جديد في الجزيرة العربية ، وبصرف النظر عن المشكلة التي هي مثار الجدل حول مرغوبية اقامة دولة يهودية في اي مكان ، هناك اسباب خاصة لاعتبار المواقع المختارة لكل من تمركز الفرق اليهودية وللاقامة النهائية للدولة اليهودية المقترحة غير ملائمة تماما . ان وصف الاحساء (كولاية تركية) يمكن ان يكون صحيحا من وجهة فنية ، ولكن المنطقة هي في الحقيقة بحوزة ابن سعود امير نجد منذ ١٩١٣ ، الذي عقد معاهدة صداقة وتحالف مع حكومة جلالته في ديسمبر ١٩١٥ التي تعترف بصراحة بحقوق ابن سعود بالاحساء ، وتضمن له المساعدة من حكومة جلالته في حالة هجوم اي دولة اجنبية على بلاده، وفيما يتعلق بالبحرين فان شيوخها كانت لهم علاقات معاهدة مع بريطانية منذ ١٨٢٠ ، وحكومة جلالته لا يمكنها ان تقر ، بدون موافقة صريحة من هؤلاء الحكام اي اقتراحات تتعلق بحقوقهم الاقليمية ..»

ربما بسبب هذا الاعتراض ، او بسبب ان الاقتراح نفسه ليس له دعم الاوساط الصهيونية ذات النفوذ (التي كانت على وشك انهاء مفاوضاتها المتعلقة بتصريح بلفور)، والتي برأي روتشتين « لا تتوافق مطامعها مع مطامع زملائي ومطامعي والتي لا اقر اساليبها وطرقها .. » او لان الاقتراح كان يلاقي عطف الحكومة الفرنسية ، والذي يرى فيه مونتاجو « دليلا على ان الفرنسيين يهمهم وضع اليهود في اي مكان ، فقط كحجة للتخلص منهم جميعا ، او من اعداد كبيرة منهم .. » كما جاء في مذكرته عن الصهيونية التي وزعها على اعضاء الوزارة في ٩ اكتوبر ١٩١٧ في معرض اعتراضه على موقف الحكومة البريطانية بالالتزام باي تصريح لصالح الصهيونية(٤) ، ربما لهذه الاسباب مجتمعة اعتذرت الخارجية البريطانية في ٢٣ اكتوبر الى صاحب الاقتراح دون ان تبدي له الاسباب عن طريق سفيرها في باريس لورد بيرتي (٥).
ومع ان روتشتين لم يعلم بالاسباب الموجبة لرفض اقتراحه الا انه قدر ان « اختياره مواقع منطقة الغزو لا تتناسب مع سياسة الحكومة » كما جاء في رسالته من مرسيليا في ٥ ابريل (نيسان) ١٩١٨(٦) ، التي عاد فيها لتجديد عرضه بتشكيل فرقة محاربين يهود لانشاء دولة يهودية تساهم في عمليات القوات البريطانية في الشرق . ورجا عن طريق السفير البريطاني في باريس « من حكومة جلالته التفضل بتحديد منطقة تركية اخرى ذات موقع جغرافي يتمشى مع مصالح السياسةالانكليزية ومصالح الدولة اليهودية المقامة في الشرق ، هذه الدولة التي يسعدها ان تربطها بانكلترا وفرنسة اواصر المودة » .
ومع ان الخارجية البريطانية ظلت على موقفها في رفض المشروع الا ان لهجتها قد اصبحت اكثر اعتدالا ، فقد ابلغته في ٢٤ ابريل ١٩١٨ « .. ان المشروع ليس ذلك الذي باستطاعتها ان تنظر اليه بعين الاعتبار في الوقت الحاضر .. » .
والواقع انه لاسباب عديدة كانت مناصرة المطامع الصهيونية في فلسطين التي تضمنها تصريح بلفور اكثر ملاءمة لوجهة نظر المصلحة البريطانية .

---

٣ — F.O. 371/3053/18242

٤ — Cab. No. 24/28

٥ — F.O. 371/3395/189074

٦ — F.O. 371/3406/68455

جدول بالشكاوي التي قدمها عرب " الضفة الغربية " المحتلة ضد تعسف الاحتلال الاسرائيلي ١٩٦٧ ــ ١٩٧١

ع ٠ ع ٠

١ ــ من الهيئة الاسلامية بالقدس الى الحاكم العسكري العام ١٩٦٧/٧/٢٤ : الاعتراض على ضم القدس الى اسرائيل والتدخل في الشؤون الاسلامية ــ اجتمع عدد من رجالات القدس عفوا ودون دعوة من اية جهة كانت وقدموا للحاكم العسكري الاسرائيلي العام احتجاجا على قرار سلطة الاحتلال بضم القدس الى اسرائيل وكونوا في الوقت نفسه هيئة أطلقوا عليها اسم « الهيئة الاسلامية » .

٢ ــ من مجلس امانة القدس الى مساعد الحاكم الاداري لمدينة القدس في ٦٧/٧/٢٢ : رفض الانضمام لبلدية اورشليم اليهودية ــ رفض اعضاء مجلس الامانة التكليف الذي قدم اليهم بالانضمام الى بلدية اورشليم اليهودية . كما رفضوا قرار اسرائيل بضم القدس اليها وطالبوا ببقاء الوضع على ما كان عليه قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ .

٣ ــ من رؤساء واعضاء المجالس البلدية والغرفة التجارية وجمع غفير من سكان القدس ورام الله والبيرة الى الهيئة الاسلامية في ٦٧/٧/٢٥ : تأييد الهيئة الاسلامية في اعتراضها على ضم القدس والاعتراض على اجراءات الجيش التعسفية ــ وجهوا مذكرتهم الى الهيئة الاسلامية وارسلوا نسخة منها الى الحاكم العسكري العام مستنكرين ضم القدس الى اسرائيل وسلخ الضفة الغربية من الاردن واعتقال الابرياء ونسف الدور ، وطالبوا باعادة النازحين .

٤ ــ من المنظمات والهيئات النسائية في الضفة الغربية الى الهيئة الاسلامية في ٦٧/٧/٢٥ : الضفة الغربية ــ وجهن مذكرتين الى الهيئة الاسلامية وارسلن نسخة منها الى الحاكم العسكري العام في القدس وطالبن بجلاء قوات الاحتلال عن البلاد .

٥ ــ من المحامين ورجال القانون بنابلس الى الحاكم العسكري في ٦٧/٧/٢٥ : الاعتراض على سلخ مدينة القدس من الضفة الغربية وضمها الى اسرائيل وتهجير السكان ومصادرة الاموال والممتلكات وفرض الضرائب ونهب المتاجر .

٦ ــ من رجال الدين والنواب واعضاء المجالس البلدية والغرفة التجارية والاطباء والصيادلة والمحامين بطولكرم وقضائها الى الحاكم العسكري العام في الضفة الغربية في ٦٧/٨/٨ : تأييد الهيئة الاسلامية في كل ما قالته .

٧ ــ من عدد من رجالات بيت المقدس من مسلمين ومسيحيين الى ارنست تالمان الممثل الشخصي للسكرتير العام للامم المتحدة في ٦٧/٨/٢٥ : التنديد باعمال اسرائيل الرامية الى تغيير الاوضاع في المدينة المقدسة وضم المدينة الى اسرائيل خلافا لقرارات الامم المتحدة ــ اكثر الموقعين رجال دين واطباء ومحامون وفي مذكرتهم هذه ذكروا جميع الاعمال التعسفية التي قامت بها اسرائيل لتغيير معالم القدس ، مثل الغاء امانة القدس العربية والغاء القوانين الاردنية واقامة الحواجز بينها وبين الضفة الغربية واستبدال مناهج التعليم الحالية بمناهج اسرائيلية وتجاهل اللغة العربية ومحاولة وضع المحكمة الشرعية تحت اشراف وزارة الاديان الاسرائيلية وطرد السكان وعدم مراعاة حرية الاماكن المقدسة .

٨ ــ من عدد من سيدات بيت المقدس من مسلمات ومسيحيات الى نساء العالم والهيئات النسائية وكل ذى ضمير حي في ٦٧/٨/٢٧ : التنديد بالاحتلال الاسرائيلي والمطالبة بعودة النازحين ــ في مذكرتهن هذه استصرخن العالم لمؤازرة ابناء فلسطين وبناتها كي يتمكنوا من القضاء على الاحتلال الاسرائيلي الغاشم .

٩ — من رئيس مجلس الاوقاف ورئيس محكمة الاستئناف الشرعية الشيخ عبد الحميد السائح الى رئيس وزراء اسرائيل في ٦٧/٩/٨ : الاحتجاج على اخذ مفاتيح باب الحرم بالقوة — طلبت الحكومة الاسرائيلية في ٦٧/٨/٣١ مفاتيح باب المغاربة من ابواب الحرم ، ولما رفض مجلس الاوقاف تسلميها المفاتيح ارسلت قوة من الجند واستولت على المفاتيح بالقوة ، الامر الذي جعل رئيس الهيئة يقدم احتجاجه الى رئيس الوزراء الاسرائيلي ويطلب منه ارجاع المفاتيح ، معتبرا ذلك تعديا على حرمة المسجد الاقصى .

١٠ — من رئيس مجلس الاوقاف والشؤون الاسلامية الى رئيس وزراء اسرائيل في ١٠/١٥/ ٦٧ : الحفريات الجارية في منطقة البراق حول الحرم القدسي — اشار الشيخ حلمي الى مذكرته السابقة بتاريخ ٦٧/١٠/١ وطلب مرة اخرى وقف الحفر والتنقيب عن الاثار حول الحرم الاسلامي بالقدس .

١١ — من الهيئة الاسلامية الى الامين العام للامم المتحدة في نيويورك في ٦٧/١١/١٢ : الاعتداء على الاماكن المقدسة — احتجت الهيئة الاسلامية في مذكرتها هذه على التشريعات والقوانين التي سنتها اسرائيل بعد ان قررت ضم القدس اليها قاصدة تثبيت ذلك الضم . وطالبت الامم المتحدة بوضع حد للاعتداءات الاسرائيلية على الاماكن الاسلامية المقدسة .

١٢ — من مفتي القدس الشيخ سعد الدين العلمي الى رئيس وزراء اسرائيل في ٦٧/١١/٢١ :الاعتداء على الاماكن الاسلامية المقدسة — ذكر المفتي رئيس الوزراء ووزير الاديان بالاجماع الذي جرى في دار الرئاسة بتاريخ ٦٧/٦/٢٧ والذي وعد فيه بالمحافظة على الاماكن المقدسة وذكر لهما حوادث تدل على عكس هذا الوعد وطلب وضع حد للاعمال التي يقوم بها الجيش والشعب اليهودي والتي ترمي الى انتهاك حرمة المسجد .

١٣ — من رئيس سدنة الحرم الابراهيمي في الخليل الشيخ عاطف الحموري الى قاضي القضاة ورئيس مجلس الاوقاف الاعلى في ٦٧/١٢/٦ : محاولة كبير الحاخامين اليهود غورين الصلاة في داخل الحرم الابراهيمي — استشار رئيس السدنة قاضي القضاة ماذا يفعل ؟ واستشار قاضي القضاة الهيئة الاسلامية فقررت الهيئة عدم السماح لليهود بالصلاة في أرض الحرم الابراهيمي ولا في اي مسجد او معبد للمسلمين .

١٤ — من الهيئة الاسلامية الى رئيس الوزراء في ٦٧/١٢/١١ : توسيع ساحة المبكى وتنظيمها — اشارت الهيئة الى ما نشرته صحيفة (معاريف) في عددها الصادر في ٦٧/١٢/٦ حول المشروع الذي تدرسه لجنة وزارية اسرائيلية من اجل احداث تغيرات وانشاء مبان في ساحة المبكي . فاحتجت الهيئة على هدم ١٣٥ بيتا في حي المغاربة ومحاولة الاستيلاء على الزاوية الفخرية وعلى المدرسة التنكزية وطلبت من الحكومة الاسرائيلية الاقلاع عن الاجراءات هذه .

١٥ — من عدد كبير من رجالات بيت المقدس من مسلمين ومسيحيين الى رئيس وزراء اسرائيل بالوكالة بواسطة الحاكم العسكري العام للضفة الغربية في ٦٨/١/١٤ : الاحتجاج على مصادرة اراضي العرب من اجل انشاء مساكن للقادمين الجدد من اليهود — ارسل هذا الاحتجاج اثر القرار الذي اصدرته الحكومة الاسرائيلية باستملاك ٣٣٤٥ دونما من اراضي الشيخ جراح ووادي الجوز واستملاك ١١٦ دونما من حارة الشرف .

١٦ — من قاضي القضاة ورئيس مجلس الاوقاف والشؤون الاسلامية الى الحاكم العسكري العام في ٦٨/١/٢٥ : انتهاك اليهود لحرمة الحرم الابراهيمي في الخليل — ارسلت نسخة من هذه المذكرة الى وزير الدفاع الاسرائيلي واخرى الى الحاكم العسكري لجبل الخليل .

١٧ — من عدد من رجالات بيت المقدس الى حاكم القدس العسكري في ٦٨/٣/١٥ : الاعتراض على تغيير الاوضاع في المدينة — المذكرة كتبت باللغة الانجليزية ووقعها عدد كبير من رجالات بيت المقدس وقد طلبوا من الحكومة وقف جميع الاعمال التي من شأنها تغيير معالم القدس عملا بقرار هيئة الامم ٤ و ٦٧/٧/١٤ وميثاق جنيف ١٩٤٩ .

١٨ — من المنظمات النسائية في القدس وفي جميع انحاء الضفة الغربية الى وزير الدفاع الاسرائيلي في ٦٨/٤/٢٩ : ضرب المتظاهرات من السيدات ومنع التظاهر ضد السلطة واستنكار العرض العسكري الاسرائيلي الذي تنوي سلطات الاحتلال اقامته في القدس — ان مذكرة الاحتجاج هذه التي قدمت لوزير الدفاع بعد مظاهرة صاخبة قامت

بها السيدات العربيات في القدس وضعت بلهجة قاسية وقد وقعها زهاء سبعمائة وخمسين سيدة.

١٩ — من امين القدس روحي الخطيب الى مجلس الامن الدولي في ٦٨/٥/٣ : الوضع المتردي في مدينة القدس — هذا التقرير الذي وضعه امين القدس باللغة الانجليزية وقدم الى مجلس الامن وقد جاء في ١٨ صفحة وصف فيه كل ما قامت فيه اسرائيل في القدس من اعمال تعسفية من شأنها تهويد المدينة .

٢٠ — من رئيس الهيئة الاسلامية بالقدس الى رئيس الوزراء الاسرائيلي في ٦٨/٧/١١: الاعتراض وتكرار الاحتجاج على اعمال الحفر والتنقيب حول الحرم الشريف من الجنوب والغرب — وقد احتج رئيس الهيئة في مذكرته هذه على ما تقوم بـه السلطات الاسرائيلية من استيلاء على الممتلكات الاسلامية وهدمها .

٢١ — من رئيس الهيئة الاسلامية الى رئيس الوزراء الاسرائيلي في ٦٨/٧/٢١ : التبرم من انتشار الفسق والفجور وابداء السخط والاستنكار بسبب العدد الكبير من المراقص والخمارات واماكن اللهو التي انشئت في الاحياء الاسلامية من القدس — ارسل رئيس الهيئة نسخة من مذكرته هذه الى وزير الدفاع الاسرائيلي .

٢٢ — من الهيئات النسائية ورجال الدين في الضفة الغربية الى الحاكم العسكري العام للضفة في ٦٨/٧/٢٤ : المطالبة بالافراج عن عبله طـه وساره جودد ولطيفة الحاج ابراهيم والاحتجاج على ضرب السيدات المسلمات وتعذيبهن في السجون — ارسلت نسخة من هذا الاحتجاج الى السكرتير العام للامم المتحدة والى كبير المراقبين الدولية والى الاتحاد النسائي في العالم ورئيس جمعية الصليب الاحمر الدولي والقاصد الرسولي والى جميع قناصل الدول في القدس .

٢٣ — من عدد كبير من سكان القدس الرجال الى الحاكم العسكري للمنطقة الوسطى في ٦٨/٨/٧ : التبرم من انتشار الفسق والفجور وكثرة اماكن اللهو اليهودية في الاحياء الاسلامية — ارسلت نسخ من هذه المذكرة الى رئيس الوزراء ووزير البوليس والى وزير الاديان .

٢٤ — من السيدات العربيات في القدس الى رئيس الوزراء في ٦٨/٨/١١ : التبرم من انتشار الفسق والفجور وكثرة اماكن اللهو اليهودية في الاحياء العربية — وقع هذه المذكرة اربع وستون سيدة من كرام السيدات العربيات بمدينة القدس. وارسلن نسخا منها الى وزراء الداخلية والاديان والشرطة .

٢٥ — بيان من الهيئة الاسلامية للرأي العام في العالم ٦٨/٨/١٩ : اعتراض على تدخل السلطات في شؤون المسلمين الدينية في القضاء الشرعي والوقف الاسلامي والاماكن الاسلامية المقدسة — بحثت الهيئة في هذا البيان انتهاك الاسرائيليين لحرمة المسجد الاقصى بالقدس والحرم الابراهيمي بالخليل الذي استعمله اليهود كنيسا لهم وهدم العديد من العقارات وعدم اعتراف السلطة بصلاحية محكمة القدس الشرعية واحالة تلك السلطة الى محكمة يافا الشرعية . وطالبت الهيئة بوضع حد لهذه التصرفات .

٢٦ — من رؤساء البلديات في الضفة الغربية وممثلي الهيئات الشعبية الى وزير الدفاع الاسرائيلي في ٦٨/٨/٢٦ : رفض الاحتلال الاسرائيلي والمطالبة بوحدة الضفتين — وقع هذه المذكرة التي سلمت لوزير الدفاع رؤساء البلديات في نابلس وجنين وطولكرم وقلقيلية وعنبتا والبيرة ورام الله وبني زيد ودير ديوان وعرابه وبير زيت وبيت لحم وبيت ساحور واريحا وسلوان وطوباس وسلفيت وبيتونيا وعدد اخر من رجالات الخليل ونابلس والقدس .

٢٧ — من الهيئة الاسلامية الى رئيس الوزراء الاسرائيلي في ٦٨/٩/١١ : الاعتراض على نفي الفلسطينيين وابعادهم — ارسلت نسخ من هذا الاعتراض الى وزير الدفاع وكبير المراقبين والامين العام للامم المتحدة .

٢٨ — من وفد يمثل الهيئة الاسلامية الى الهيئة الاسلامية في ٦٨/٩/٢٢ : تقرير عن الزيارة التي قام بها الوفد لمكان الحفر والتنقيب عن الاثار حول الحرم الشريف — قام بهذه الزيارة وفد مؤلف من بعض اعضاء الهيئة الاسلامية هم عارف العارف والشيخ سعد الدين العلمي ومحمد اسحق درويش وحسن طهبوب وقد ندد الوفد باعمال التنقيب رغم فائدتها لان الاسرائيليين يقومون بهذه الاعمال دون اخبارنا ولا يرسلون الينا تقارير عن نتائج حفرهم . واقترح الوفد على الهيئة ان تطالب توقف الحفر وانتداب مهندسين وعلماء في الاثار مسلمين للاشراف على اي عمل من اعمال الحفر

يجري في اي مكان من الاماكن الاسلامية .
٢٩ ـ من الهيئة الاسلامية الى الحاكم العسكري العام في ٦٨/٩/٢٥ : الحفر والتنقيب عن الاثار حول الحرم الشريف ـ في هذه المذكرة ايدت الهيئة ما جاء في تقرير الوفد المتقدم ذكره وطالبت بوقف اعمال الحفريات بالاضافة الى انها تذمرت من الاعمال الاخرى التي قامت بها اسرائيل كتحطيمها مقبرة مأمن الله الاسلامية . وطالبت بالامتناع عن اي عمل من شأنه تغيير معالم القدس .

٣٠ ـ من قضاة الشرع والمفتيين في القدس وسائر انحاء الضفة الغربية الى الامة الاسلامية في ٦٨/٩/٢٦ : بيان للامة الاسلامية حول تدخل السلطات الاسرائيلية في الشؤون الاسلامية بوجه عام وفي القضاء الاسلامي بوجه خاص ـ وقع هذا البيان قاضي القضاة وقضاة الشرع بالضفة الغربية كما وقعه المفتي في كل من القدس والخليل وجنين واستنكر الموقعون نزع صلاحية محكمة القدس الشرعية . وأصروا على استقلال القضاء الشرعي وعدم تدخل الحكام بالمحاكم الشرعية .

٣١ ـ من القائم باعمال قاضي القضاة ورئيس مجلس الاوقاف والشؤون الاسلامية الى رئيس الوزراء الاسرائيلي في ٦٨/٩/٢٩ : صلاة اليهود في ٦٨/٩/٢٣ في داخل المسجد الابراهيمي بالخليل الامر الذي يدل على انهم يحاولون قلبه الى كنيس يهودي ـ وجه القائم بالاعمال احتجاجا الى رئيس الوزراء طالبا وقف هذا التحدي لشعور المسلمين وكان ذلك بناء على برقية تلقاها من رئيس بلدية الخليل وعدد كبير من سكان المدينة . وقد ارسل نسخا من احتجاجه الى وزير الدفاع والحاكم العسكري العام والى رجالات المدينة .

٣٢ ـ من رجالات الخليل الى وزير الدفاع الاسرائيلي في ٦٨/١٠/١٣ : الاعتداء على الحرم الابراهيمي وهدم الباب الشرقي للمسجد ـ وقع الاحتجاج رئيس بلدية الخليل وقاضيها الشرعي والمفتي ومدير الاوقاف ورئيس السدنة وامام المسجد وممثل الخليل في مجلس النواب الاردني .

٣٣ ـ من الهيئة الاسلامية الى رئيس الوزراء الاسرائيلي في ٦٨/١٠/٢٤ : الاعتداء على الاماكن الاسلامية المقدسة في القدس والخليل وبيت لحم ـ قال رئيس الهيئة في المذكرة التي وجهها الى رئيس الوزراء الاسرائيلي ان الهيئة التي استعرضت في جلستها المنعقدة بتاريخ ٦٨/١٠/٢١ الاعتداءات الاسرائيلية على مختلف الاماكن الاسلامية ، قررت عقدمؤتمر لبحث الوضع في قاعة المجلس الاسلامي الاعلى في ٦٨/١١/١٧ وقد ارسلت نسخ من هذه المذكرات الى وزراء الدفاع والداخلية والشرطة والحاكم العسكري العام للضفة الغربية . وما كادت الهيئة الاسلامية تختتم جلستها المنعقدة بتاريخ ٦٨/١٠/٢١ تلك الجلسة التي انتهت في الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم وقبل ان تخبر المسؤولين عن الامن في الحكومة الاسرائيلية عن عزمها بعقد المؤتمر حتى سمع الرئيس المباشر صوتا من المباحث ، مصلحة الاستخبارات الاسرائيلية المعروفة بـ (الشين بات) يتلفن له قائلا انهم ـ اي الحكام الاسرائيليين ـ سمعوا بالقرار القائل بعقد المؤتمر وانهم لن يوافقوا على عقده والقيام بالاضراب والتظاهر في مسيرات شعبية ، سلمية كانت او غير سلمية ، وانهم سيمنعون كل حركة تقوم في القدس او في غير القدس في المدن الواقعة تحت احتلالهم . ولم ينس المتكلم باسم (الشين بات) أن الهيئة الاسلامية اذا اصرت على قرارها وحاولت عقد المؤتمر فان مصيرها ؛ وان شئت نقل مصير اعضائها الذين بقوا في البلاد ، كمصير زملائهم الذين سبقوهم الى عمان . عندئذ عدل الاعضاء عن تنفيذ قرارهم. ولم يعقدوا المؤتمر الذي كانوا سيدعون اليه عددا كبيرا من ممثلي الجمعيات والطوائف والاحزاب . وكان الجيش الاسرائيلي قبل ذلك التاريخ قد اعتقل عددا من اعضاء الهيئة ، وابعدهم عن القدس في التواريخ التالية : الشيخ عبد الحميد السائح في ٦٧/٩/٢٣ ، ابراهيم بكر ٦٧/١٢/٢٢ ، روحي الخطيب ٦٨/٣/٧ ، كمال الدجاني ٦٨/٩/٧ ، الدكتور داود الحسيني ٦٨/٩/٧ . وكان الاسرائيليون قد اعتقلوا عضوا سادسا ، هو الدكتور صبحي غوشه . فسكتت الهيئة ، ولم تبد حراكا بعد ذلك الانذار. واستمرت صامتة اربعة شهور .

٣٤ ـ بيان من رئيس مجلس الاوقاف الاعلى في ٦٩/٣/١٢ : الاعتراض على استمرار الاسرائيليين في عمليات الحفر والتنقيب عن الاثار في المناطق المجاورة للحرم الشريف .

٣٥ ـ من عدد كبير من الاطباء والصيادلة برام الله الى وزير الدفاع الاسرائيلي في ٦٩/٣/١٥ :

الاعتراض على ترحيل عدد من الاطباء والاستيلاء على المستشفى الحكومي في الشيخ جراح والمطالبة باخلاء سبيل المعتقلين — ارسل الموقعون على هذا الاحتجاج مذكرتهم هذه اثر ابعاد الدكتور نبيه معمر واعتقال الدكتورين حاتم ابو غزالة وصبحي غوشه .

٣٦ — من اعضاء الهيئة الاسلامية الى رئيس الوزراء ووزير الدفاع والعدل في ٦٩/٣/٢٦ : حول قاسم ابو عكر التميمي الذي عذب في السجن الى ان مات — اعتقل المرحوم قاسم ابو عكر في ٣/١٥ ولما اصبح على وشك الموت من شدة التعذيب في ٦٩/٣/٢٤ طلبت سلطة السجن من امرأته ان تأخذه وتدفنه ليلا قبل ان يراه احد من الناس . احتج الاعضاء على هذه الجريمة النكراء وطالبوا التحقيق .

٣٧ — من المحامين وعدد من رجال القانون العرب في الارض المحتلة منذ ١٩٤٨ الى المحامين ورجال القانون اليهود المشتركين في اول مؤتمر دولي للمحامين في القدس في ٦٩/٥/١ : شكوا من اساليب الحكم اللاديمقراطي التي تتبعها السلطات ضدهم — ومن الامثلة على الاساليب غير الديمقراطية التي تتبعها اسرائيل ، ذكروا في مذكرتهم التي وضعوها باللغة الانجليزية الاوامر التي تصدر باستمرار باعتقال المحامين اعتقالا اداريا ولعدد من الذين دون حكم ومنعهم من مغادرة منازلهم ومراجعة مراكز الشرطة مرة او اكثر في كل يوم ، الامر الذي يناقض ميثاق حقوق الانسان . وقالوا انهم على استعداد لقبول اي حكم يصدر ضدهم من قبل المحاكم الاسرائيلية . ومما ذكروه في مذكرتهم الى المؤتمر ان اسرائيل تقوم بهذه الاعمال وفقا لانظمة الطوارىء التي سنت في زمن الانتداب البريطاني (١٩٤٥) . وانه لجدير بالذكر ان المحامين الذين كانوا في ذلك العهد يعيشون في فلسطين ، اعترضوا عربا ويهودا ، على تلك الانظمة الظالمة . وكان بين المعترضين يومئذ وزير العدل الاسرائيلي الحالي .

٣٨ — من عدد كبير من سكان القدس نساء ورجالا مسلمين ومسيحيين الى ممثلي الدول الاربع الكبرى بواسطة الامين العام لسلام المتحدة في نيويورك في ٦٩/٥/١٥ : رفض الاحتلال ورفض تدويل القدس ورفض الانضمام الى اسرائيل — وقد طالب الموقعون على هذه المذكرة بانسحاب الجيش الاسرائيلي من كافة الاراضي العربية التي يحتلها وفي مقدمتها مدينة القدس العربية .

٣٩ — بيان عام من الهيئة الاسلامية في ٦٩/٥/٢٠ : حول انتهاك اليهود حرمة الحرم الابراهيمي في الخليل ومنعهم المسلمين من دخول الحرم الا وقت صلاة الجمعة .

٤٠ — من الهيئة الاسلامية الى رئيس الوزراء في ٦٩/٦/١٦ : هدم الزاوية الفخرية الملاصقة للحرم والاعتراض على اعمال الحفر تحت المدرسة التنكزية — هذه الزاوية والدور التي حولها هي دور اسلامية يسكنها عدد كبير من المسلمين من آل ابي السعود هدمها الاسرائيليون الواحدة بعد الاخرى وهكذا شردوا سكانها وعددهم لا يقل عن ثلاثمئة نسمة .

٤١ — من رئيس بلدية الخليل الشيخ محمد علي الجعبري الى رئيس الوزراء في ٦٩/٦/١٩ : مصادرة ثلاثة آلاف دونم من اراضي منطقة بيت لحم — قال الناطق بلسان الحكومة الاسرائيلية في رده ان مساحة الاراضي المصادرة ١٢٠٠ دونم وليست ٣٠٠٠ وليس فيها سوى ١٣ منزلا و١٩ كوخا وليست الالاف من السكان كما يقولون وان هذه المصادرة لا بد منها لاسباب عسكرية .

٤٢ — من عدد من الجمعيات النسائية ومن الاتحادات العمالية والنقابات في القدس والضفة الغربية الى السلطات الاسرائيلية : اعتقالات جماعية لمئات الابرياء كرهائن مقابل الركاب الذين احتجزتهم الجبهة الشعبية وطائراتهم المختطفة — طالب الموقعون من السلطات الاسرائيلية الافراج عن المعتقلين .

٤٣ — من مدير اوقاف القدس الى وزير الدفاع في ٦٩/٧/٨ : اليهود من رجال البوليس الحرمي يتحرشون بالحراس المسلمين في الحرم .

٤٤ — نداء ونعي من الهيئة الاسلامية الى العالم الاسلامي في ٦٩/٨/٢١ : الجريمة النكراء التي أقدم عليها المجرمون الذين احرقوا المسجد الاقصى .

٤٥ — من اهالي بيت ساحور الى وزير الدفاع الاسرائيلي في ٦٩/١٠/١٨ : مصادرة أراضي بيت ساحور — ارسل اهالي بيت ساحور نسخا من شكواهم الى الحاكم العسكري العام للضفة الغربية والى الحاكم العسكري المحلي لمنطقة بيت لحم .

٤٦ — من لجنة اعمار المسجد الى الهيئة الاسلامية

في ٦٩/١١/٢٥ : المراحل الثلاث لاعمار المسجد الاقصى بعد المحاولة النكراء التي قام بها الاسرائيليون لحرقه في ٦٩/٨/٢١ — بحثت الهيئة الاسلامية التقرير الذي قدمته لجنة اعمار المسجد بتاريخ ٦٩/١١/٢٥ واقروا الخطوات التي لا بد من اتخاذها لاعماره .

٤٧ — من سكان صورباهر وشرفات وبيت جالا الى سلطات الاحتلال الاسرائيلي في ٧٠/١/٣١ : مصادرة اراضيهم الكائنة في جبل المكبر — ارسل الموقعون على هذه الشكوى نسخة من شكواهم الى المؤرخ عارف العارف ليسجل في مذكراته الظلم الذي أحاق بهم وبممتلكاتهم .

٤٨ — من رؤساء وأعضاء المجالس البلدية في بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور الى الحاكم العسكري لمنطقة بيت لحم في ٧٠/٦/٥ : المطالبة بتنفيذ قرار مجلس الامن الدولي ٢٤٢ بتاريخ ٦٧/١١/٢٢ والاصرار على انسحاب الجيش الاسرائيلي من الاراضي العربية التي يحتلها — ارسلت المجالس البلدية في هذه المدن الثلاث هذا الاحتجاج في يوم الذكرى الثالثة لحرب حزيران ٦٧ . وقد ارسلوا معها نسخة مترجمة الى اللغة الانجليزية .

٤٩ — من الهيئة الاسلامية الى الوفد الذي سافر الى عمان ودافع عن مصالح الاوقاف الاسلامية في ٧٠/١٢/١٤ : حول وضع الاوقاف الاسلامية .

٥٠ — من عضو الهيئة الاسلامية عارف العارف الى الهيئة الاسلامية في ٧١/١/٣ : اضراب المعتقلين في سجون اسرائيل والاعمال التعسفية التي تقوم سلطات الاحتلال في القدس وغير القدس من المناطق التي تحتلها — لفت العارف في مذكرته هذه نظر اخوانه في الهيئة الى وضع المعتقلين المتردي في سجون اسرائيل وما يلاقونه من اضطهاد وتعذيب والى المئات منهم ممن لا يزالون في السجون اعتقالا اداريا ودون محاكمة او سؤال ، والى الاعمال التي تقوم بها سلطات الاحتلال لتغيير الاوضاع في القدس واستمرارهم في هدم المنازل ونسفها الامر الذي لا يترك مجالا للشك ان القوم يريدون تهويدها .

٥١ — نداء من الهيئة الاسلامية في ٧١/١/٤ : حول اضراب المعتقلين — ارسلت مئات النسخ منه الى الصحف والهيئات الدولية والقومية والى قناصل الدول الاجنبية .

٥٢ — من رئيس لجنة اعمار المسجد الاقصى الى قائد اللواء الجنوبي في الجيش الاسرائيلي في ٦/٣/ ٧١ : اعمار المسجد الاقصى — هذا جواب قاضي القضاة ورئيس لجنة الاعمار على كتاب ارسله القائد الاسرائيلي بتاريخ ٥/١٠ وقد اقترح فيه الاسراع في اتخاذ الترتيبات اللازمة لتعمير المسجد الاقصى وتأمين سلامته وقد اكد له ان الهيئة الاسلامية مهتمة بالامر واغتنم رئيس الهيئة الاسلامية الفرصة لتذكير الحكومة الاسرائيلية بما عليها من واجبات نحو هذا المسجد الاسلامي ، ومنها : ١. ارجاع مفاتيح باب المغاربة التي اخذت من المشرفين على الحرم المسلمين . ٢. الحيلولة دون دخول غير المسلمين الى الحرم دون الحصول على موافقة موظفي مصلحة الوقف الاسلامي . ٣. وقف اعمال الحفر والتنقيب عن الاثار حول الحرم الاسلامي دون الحصول على موافقة الهيئة الاسلامية . هذه الامور التي جرت ولا تزال تجري رغم ارادة المسلمين والتي تفقد بالسيطرة الفعلية على الحرم وهي التي أدت في الماضي الى تشجيع المجرمين على عملهم عندما احرقوا المسجد الاقصى .

٥٣ — من الهيئة الاسلامية الى مجموعة منها لتشكيل وفد لزيارة أماكن الحفر والتأكد مما يجري هناك في ٧١/٦/٢١ : حول اعمال الحفر والتنقيب التي لا يزال الاسرائيليون يقومون بها حول الحرم.

٥٤ — من عضو الهيئة الاسلامية عارف العارف الى الهيئة الاسلامية في ٧١/٦/٢٤ : ضرورة العناية بوضع الحرم القدسي اكثر فاكثر — طلب العارف في مذكرته هذه بذل عناية اكثر لوضع الحرم . واقترح الاصرار على وقف الحفر في منطقة الحرم وانتداب ممثل لمصلحة الاوقاف الاسلامية من اجل الاشراف على عمليات الحفر . كما اقترح ان يرافق السياح والزائرين ادلة وتراجمة عرب لان الادلة اليهود يحرفون الحقائق والاصرار على مطالبة الحكومة باعادة مفاتيح الحرم التي اخذت بالقوة .

٥٥ — من الهيئة الاسلامية الى وفدها الى أماكن الحفر في ٧١/٧/٥ : حول اعمال الحفر والتنقيب التي لا يزال الاسرائيليون يقومون بها حول الحرم — الهيئة تقرر ما قاله وفدها وتتبناه .

٥٦ — بيان من رئيس الهيئة الاسلامية الى الصحف الاسرائيلية ومنها جريدة (هاآرتس) في ٧١/٧/٥ : — كانت هذه الجريدة اشارت الى اهتمام الحكومة الاسرائيلية باعمار المسجد الاقصى وزعمت ان

الهيئة لم تقم بأي عمل للاسراع في التعمير . ارسل الرئيس اليها رسالة ذكر فيها ما عملته الهيئة لاعمار المسجد ، وما طلبته من الحكومة كي ترفع سيطرتها عن الحرم القدسي .

٥٧ — من رئيس الهيئة الاسلامية الى رئيس الوزراء في ٧١/٧/١٨ : الحفريات الجارية حول منطقة الحرم من الناحيتين الغربية والقبلية — قال الرئيس ان عددا من اعضاء الهيئة الاسلامية زاروا مواقع الحفر في ٧١/٦/٣٠ ورأوا ما يجري هناك . والهيئة ترى ان هذه الحفريات تحت عقارات اسلامية تعرض هذه العقارات للخطر والحفر في مناطق الاحتلال مخالف لتواصي مؤتمر جنيف لليونسكو . سيما ان المناطق المفرغة اصبحت اماكن عبادة لليهود . وبهذا تطلب الهيئة التوقف عن الحفر حالا .

٥٨ — من رئيس مجلس الاوقاف الاعلى الى وزير الدفاع ووزير الشرطة والحاكم العسكري للضفة الغربية في ٧١/٧/٢٠ : محاولات اليهود المتكررة اقتحام ساحات الحرم القدسي واقامة الصلوات فيها حسب الديانة اليهودية — كانت آخر محاولة من هذا القبيل قام بها اليهود في ٧١/٧/١١ وكان يرافقهم عدد من مصوري التلفزيون ليثبتوا للعالم انهم اصحاب حق في هذا المكان الذي يقدسه المسلمون وعاد رئيس المجلس فكرر مطالبته بمفاتيح الحرم التي اخذها الجيش بالقوة .

٥٩ — بيان عام من الهيئة الاسلامية في ٧١/٦/٢٢ : هل انفقت اسرائيل اي مبلغ من المال على ترميم المسجد الاقصى او اي مسجد من المساجد الاسلامية — اذاعت الهيئة الاسلامية بيانا وزعته على جميع الصحف ووكالات الانباء كذبت فيه ما ادعاه يوسف تكواع ممثل اسرائيل في مجلس الامن ان اسرائيل انفقت مبالغ ضخمة من المال على ترميم المساجد الاسلامية بما في ذلك ترميم المسجد الاقصى المبارك .

٦٠ — من الهيئة النسائية في القدس والبيرة ورام‌الله الى الحاكم العسكري لمنطقة رام الله بواسطة رئيس بلدية البيرة في ٧١/١٠/١٢ : المطالبة بزيارة سجن عسقلان والتحقيق عما يجري فيه من تعذيب السجناء — اصرت السيدات في مذكرتهن على اجراء تحقيق والسماح بزيارة السجناء .

فيلادلفيا

فلتر

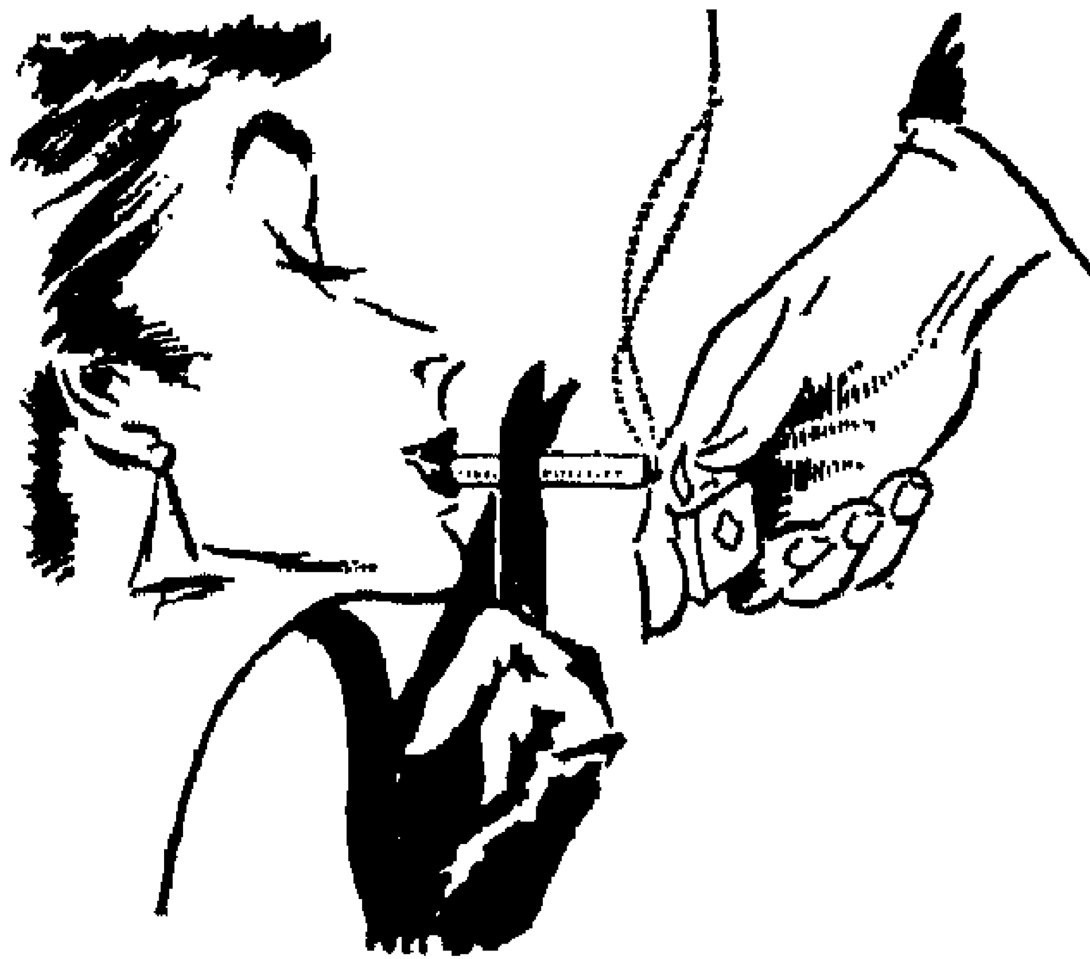
"نكهة اميركية"



PHILADELPHIA
FILTER TIPPED
AMERICAN BLEND

هي اليوم في لبـنان ... اطلبوها من الباعة في كل مكان

سجاير
جولدستار





أفخر سيجارة "فلتر"
في أفخر ثوب
المصنوعة من التبغ الفرجيني الممتاز

لذيذة الطعم — ممتعة في التدخين — سهلة المذاق

حاليا في اسواق لبنان بحجم « كينج سايز »
وتباع بذات السعر اي ١٠٠ غرش فقط

الثقافة العربية ٧١

وحـــدة الوطــن الكبـير

من يمنعها ؟ ومن يصنعها ؟

صدر العدد الثالث من مجلة « الثقافة العربية ٧١ » وهو عدد مخصص لمعالجة قضية الوحدة العربية ويتناول المواضيع التالية :

مناقشات حول الوحدة العربية (منح الصلح ، ياســين الحافظ ، خليــل نعوس ، نبيل شعث ، عصام نعمان) **رد على محمود حسين** (لطف الله سليمان) **البورجوازية الصغيرة ومصر والوحدة** (ميشيل كامل) **بيــان وحدوي** (جودت الراسي) **الوحدة والماركسية في الوطن العربي** (الياس مرقص) **النفط العربي ومعركة الوحدة والتحرر** (نقولا سركيس) **من الامة الى الدولة** (انطون مقدسي) **المضمون الانساني للقومية العربيــة** (انور عبدالملك) **الكلمة والوحدة العربية** (ميشال سليمان) القوميون السوريون والوحدة ــ العقبة ــ **تجربة محمد علي الوحدوية** (ماجد نعمة) **دور مصر في الوحدة العربية** (محمود حداد) ــ **الكيان الصهيوني وقضية الوحدة** (انيس صايغ ، حبيب قهوجي ، ابو همام ، صــبري جريس ، اســعد عبدالرحمن ، يوسف شبل ، عبدالحفيظ محــارب) **رسائل وحدوية** (من المغرب ، وتونس والجزائر والخليج ولبنان ومصر) **القاعدة المادية للوحدة العربية** (ملف احصائي شامــل لاهم مؤشرات البنيــان الاقتصادي ــ الاجتماعي العربي من اعداد : سليم نصر) **القضية الارمنية** وحركات التحرر الوطني في المشرق العربي ضد السلطنة العثمانية (ملف ــ ملحق لكسبار ديردريان .)

٢٦٠ صفحة ــ ٣ ل.ل.

- **رئيس التحرير الزائر** : الدكتور جمال الاتاسي .
- **عنوان المجلة** : ص.ب. ١٧٣٣ ــ بيروت ــ لبنان .
- تستقبل المجلة اصدقاءها في **النادي الثقافي العربي** ــ شارع عبدالعزيز ــ بناية يارد ــ الطابق الثاني ــ ت : ٣٤٥٨٠٩

قسيمة اشتراك

في مجلة

شؤون فلسطينية

أرجو اعتباري مشتركا في مجلة شؤون فلسطينية

لمدة .... ابتداء من ....

الاسم ....

العنوان ....

....

تجدون طيه شكا بقيمة ....

شؤون فلسطينية

تصدر شهريا في سنتها الثانية ابتداء من اول آذار (مارس) ١٩٧٢

ثمن العدد : ٢١/٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي
٤ ل.ل. في آسية وافريقية واوروبة ⎫ بريد جوي
٦ ل.ل. في الاميركتين واوسترالية

الاشتراك السنوي : ٣٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي (بريد جوي)
٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا اميركيا) في آسية وافريقية واوروبة (بريد جوي)
٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا اميركيا) في الاميركتين واسترالية (بريد جوي)
٤٠ ل.ل. (١٣ دولارا اميركيا) في سائر الدول الاجنبية (بريد عادي)

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال والطلاب اذا جاءت الطلبات من خلال التنظيمات او النقابات او الاتحادات .

Subscription Form
for
PALESTINE AFFAIRS

I wish to subscribe to Palestine Affairs beginning ....

Enclosed is my check for ....

NAME ....

ADDRESS ....

....

PALESTINE AFFAIRS

Beginning March 1971, this journal will be published monthly

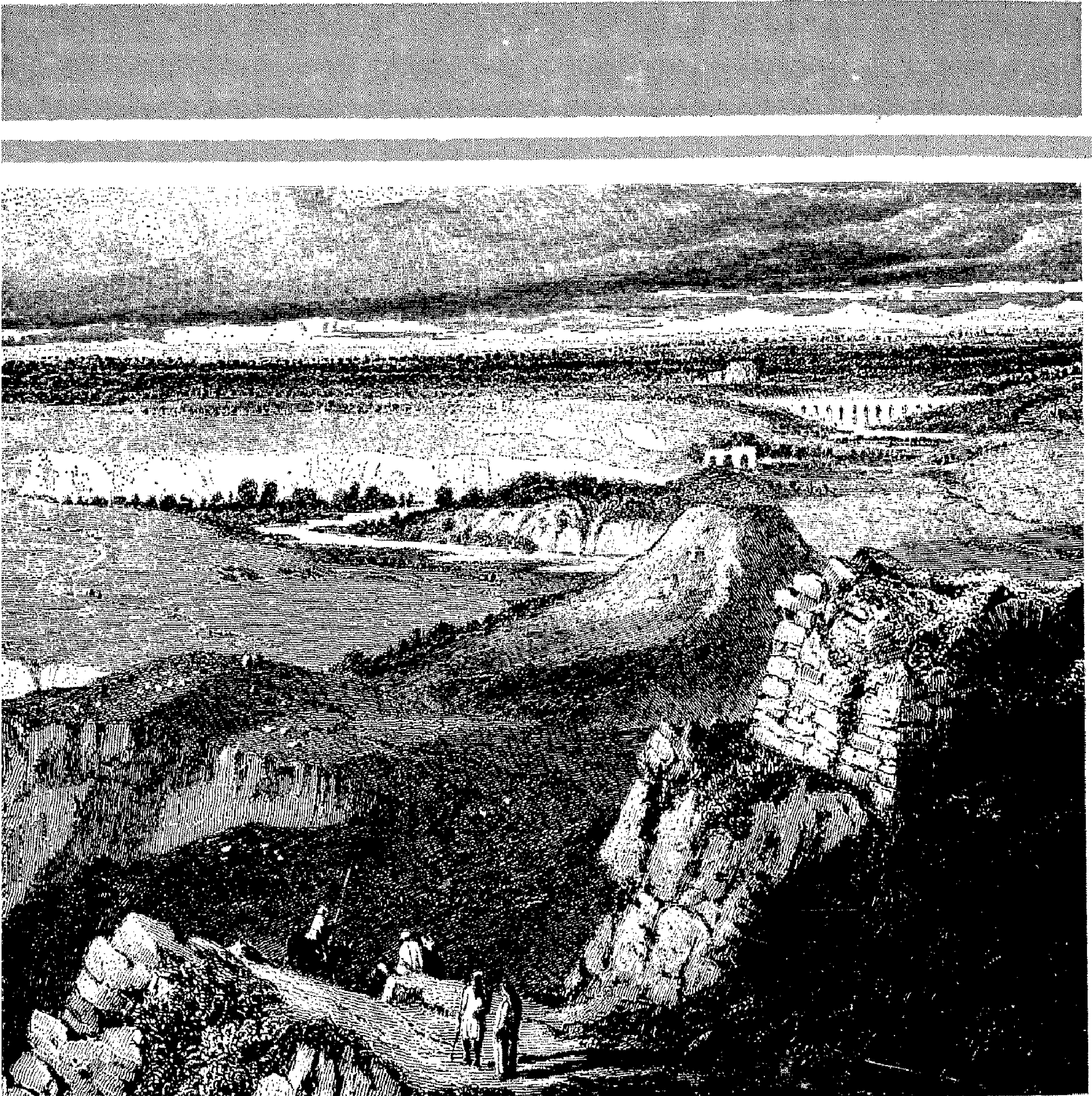
Single copy (by airmail)	L.L. 2½	in Lebanon and Arab world
	L.L. 4	in Asia, Africa and Europe
	L.L. 6	in Americas and Australia
Yearly Subscription (by airmail)	L.L. 30	in Lebanon and Arab world
	L.L. 50	in Asia, Africa and Europe ($US 16)
	L.L. 80	in Americas and Australia ($US 26)
Yearly Subscription (surface mail)	L.L. 40	in countries outside Arab world ($US 13)

A 50% discount (excluding mailing charges) will be given to commandoes, workers and students when their orders are placed through their organizations, syndicates or unions.

السعر ٤ ل.ل. في الوطن العربي او ما يعادلها
٢½ دولار في الخارج (بريد جوي)

شؤون فلسطينية

٧
اذار (مارس) ١٩٧٢



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٧ — اذار (مارس) ١٩٧٢

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص. ب ١٦٩١ ، تلفون ٣٥١٢٦٠ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد (بريد جوي) : ٢١/٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي، ٤ ل.ل. في آسية وافريقية واوروبة ، ٦ ل.ل. في الاميركتين واوسترالية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٣٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي، ٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا اميركيا) في آسية وافريقية واوروبة، ٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا اميركيا) في الاميركتين واوسترالية . (بريد عادي) ٤٠ ل.ل. (١٣ دولارا اميركيا) في سائر الدول الاجنبية .

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال اذا جاءت الطلبات من خلال التنظيمات او النقابات او الاتحادات .

صورة الغلاف : غور اريحا ، القرن التاسع عشر .

المحتويات

شؤون فلسطينية

الدكتور انيس صايغ

يرجع تاريخ تفكير مركز الابحاث باصدار دورية فكرية مختصة بالشؤون الفلسطينية الى العام ١٩٦٦ الذي وليت في صيفه مسؤولية ادارة المركز . وقد أجرينا في العام ١٩٦٧ محاولة لم يكتب لها النجاح لاسباب مالية صرف ، وبشكل خاص لانخفاض ميزانية المركز التي يتلقاها سنويا من منظمة التحرير الفلسطينية كنتيجة لاحداث ذلك العام وانقطاع معظم الدول العربية (ثم كلها فيما بعد) عن الوفاء بالتزاماتها لمنظمة التحرير . (وقد تمخض عن تلك المحاولة كتابان نشرا في العامين ١٩٦٨ و١٩٦٩ بعنوان « فلسطينيات » تضمن كل منهما مجموعة من البحوث التي أعدت لمشروع المجلة) . لكن الرغبة في اصدار الدورية ، والاصرار على اهمية المشروع ، لم تنهزم أمام تفاقم المصاعب المالية التي اخذ المركز يعاني منها منذ ١٩٦٧ ولا يزال ، وهي مصاعب تركته عاجزا عن اعداد الكثير من البحوث ونشر الكثير من الدراسات وجمع الكثير من الوثائق ، وعن تلبية طلبات جهات مختلفة وتنفيذ مقترحاتها والاخذ بملاحظاتها حول نشاطات كثيرة على المركز ان يقوم بها كجزء من العمل المطلوب منه . ولولا سلوك المركز سبيل التقشف الشديد والتضحية بأكثر من باحث واكثر من مشروع ، ولولا معونات قليلة نسبيا يعبر بها اصحابها عن تقديرهم للمركز ولرسالته من خلال مساعدته على تنفيذ مشروع او نشر كتاب ، لولا ذلك كله لما استطاع المركز ان يبقى حتى هذا الاسبوع الذي يبلغ فيه عامه السابع .

بفضل هذه المساعدات المالية استطعنا ان نصدر في مارس ١٩٧١ « شؤون فلسطينية » . وان كان هذا يعني ، فيما يعنيه ، ان دوريتنا ليست عبئا ماليا على الثورة الفلسطينية ولا على الصندوق القومي الفلسطيني بشكل خاص ، فهو يعني ايضا ، من جهة أخرى ، ان مصير الدورية رهن ببقاء المعونة المتقطعة القصيرة الاجل ، وان أي تخطيط للمستقبل لا يتجاهل ان رصيدنا في البنك لا يكفي الا لاشهر قادمة قليلة فقط .

« شؤون فلسطينية » ابنة مركز الابحاث . ولعلها الابنة الاصغر . لكنها ابنة مستقلة . وهي تستفيد من خبرات اخوانها ، مشاريع المركز الاخرى ، ومن جهود باحثي المركز ومن معلوماتهم ، ومن مكتبة المركز . وهي ايضا ترتبط مع المشاريع الاخرى وتتعاون معها . لكنها تظل مستقلة تماما . وهذا هو اهم ما فيها . ولا يعني الاستقلال ، فقط ، ان كل عمل يجري فيها انما يجري خارج دوام المركز ، من الناحية الادارية . ولا ان كل مصاريفها منفصلة تماما عن ميزانية المركز ، من الناحية المالية . بل ان الاستقلال يعني ايضا ان ما تقوله المجلة لا يمثل الا الكاتب ، وليس فيها ما يعبر بالضرورة عن مركز الابحاث ولا عن منظمة التحرير التي ينتمي المركز اليها . ويعني الاستقلال ، ايضا ، ان رئاسة تحرير « شؤون فلسطينية » ، بمساعدة ومشورة هيئة تحريرها ، هي التي تتحمل مسؤولية سياسة المجلة وافكارها .

ان « شؤون فلسطينية » تكمل عمل مركز الابحاث وتقوم بدور خاص في خدمة القضية

لا يستطيع المركز ، سواء لتكوينه او لطبيعته او لانظمته ، ان يؤديها . وهي تكمل ، بنوع خاص ، منشوراته التي تبلغ حوالي المئتين واربعين منشورا . وقد قصد منها ان تكون مجـالا رحبا لتقديم المعلومات والتحليلات ، ومنبرا حرا لتقديـم الاراء والافكار . وتحرص المجلة ان تؤمن لجميع الاصوات السبيل للوصول الى الجماهير بمنتهى الحرية، ما دامت هذه الاصوات ، والافكار والاراء والاتجاهات التي تعبر عنهـا ، انما هي من ضمن الاطـار العام للثورة الفلسطينية ، ومن ضمن الالتزام العام بأهـداف الثـورة الفلسطينية وباماني الشعب الفلسطيني ومطلبه في الكفاح المسلح لتحرير وطنه واستعادة حقوقه واقامة الكيان الفلسطيني الديمقراطي العلماني الحر الذي ينادي به . ومما سهل على « شؤون فلسطينية » ان تقوم بهذا الدور الخطير ان اسرتها وهيئة تحريرها وكتابها ومعلقيها ومراسليها ليس فقط لا ينتمون الى تنظيم سياسي واحد ولا يلتزمون ايديولوجية معينة ، بل هم ايضا يؤمنون بان تعدد الافكار التي يحملون وتنوع المعتقدات التي ينتمون اليها انما هو يخصب المجلـة ، كما انهم يؤمنون بان اتاحة المجال امـام الاتجاهـات والحركـات السياسية المختلفة لتتناقش ولتعرض افكارهـا بهدوء وبموضوعية وثقة واحترام متبادلين هو السبيـل الافضل لايصال صوت الثورة الفلسطينية الى المثقـف العربي ، ولحمل رغبة الجماهير الى قيادة الكفاح الفلسطيني ، وهو العمـل الذي اذا استطاعت مجلة ما ان تؤديه بامانة تكون قد قدمت للثورة خدمتها الجلى .

من هنا كان توكيد « شؤون فلسطينية » ، ان في اعدادها الستة الماضية التي تشكـل سنتها الاولى ، او في مخططاتها لسنتها الثانية التي تبدأ بهذا العدد السابع ، على جعل المناقشة الهادئة والهادفة مادة اساسية تبرز على صفحاتها في كل عدد : سواء في مقالات افرادية تعالج مواضيع لا يتفق الفلسطينيون على تفسيرها ولا ينظرون اليها بمنظـار واحد ، او في مقالات وردود عليها معاكسة لها تنشر في العدد نفسه ، او في مقابلات مع مسؤولي المنظمـات المختلفة تحمل اليهم شكـاوى وشكوكا واتهامات يتناقلهـا بعض المواطنين ، او في ندوات يشارك بها افراد او ممثلو جماعات لا يتفقون على رأي واحد حيال المسائل المطروحة للنقاش . وان كنت لا ازعم ان هـذا الجو الصحي من النقاش الهادىء غير المتوافر كثيرا في المجال السياسي العربي ، قد انقذ الافكار المتصارعة على الصفحات الصامتة من المهاترات ومن الاصطدامات ومن الصراعـات غير الرياضية في الحقول الاخرى ، الا انني استطيع ان اؤكد ان نقاشات « شؤون فلسطينية » أعطت مجالات واسعة لعدد كبير من اصحاب الافكار للتعبير عن انفسهم وللرد على غيرهم مما اغنى الفكر الثوري الفلسطيني الى حد ظاهر .

وقد عنيت الاعداد السابقة من « شؤون فلسطينية » بالتركيز على عدد من المواضيع : منها الكتابة المستمرة عن الشعب الفلسطيني — لا بالكلام المعروف عن حقوقه ومطالبه وانما بدرس متعمق لمشاكله واوضاعه وبتحليل لقطاعات معينة فاعلة ومهمة فيه . ومنها التعريف المستمر بالعدو — لا بالكلام في العموميات المألوفة بل بدرس احواله الحاضرة (الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية) وبتحليل مواقفه وسياساته ومؤسساته وقياداته . ومنها التتبع المستمر للثورة الفلسطينية — لا بسرد افعالها العسكرية والاشادة العاطفية ببطولاتها ، بل بالكشف عن متاعبها ومحاولة ايجاد بعض الحلول لها ، وبدرس قضاياها وتقييم مؤسساتها وتفسير اهدافها وشعاراتها . ومنها التغطية المستمرة للنشاطات المتعلقة سلبا او ايجابا بالقضية الفلسطينية : تغطية الاحداث السياسية والعسكرية والدبلوماسية فلسطينيا واسرائيليا وعربيا ودوليا ، وتغطية النتاج الفكري والفني والمؤتمرات والندوات وكافة الجهود الاعلامية في دول العالم المختلفة .

والواقع ان مخططات كثيرة وضعت وتوضع لشؤون فلسطينية ، ولكل عدد منها بشكل

خاص . ونحن ننجح في تنفيذ بعض هذه المخططات ونفشل في بعضها . ولكننا نؤمن ان المجلة الناجحة لا تبلغ مرتبة النجاح عفويا ، وان نجاح مرحلة لا يتم الا اذا استمر وتصاعد في المرحلة التالية ، وان رئاسة تحرير المجلة هي التي تسير المجلة وتقرر وجهتها (بمساعدة ومشورة هيئة التحرير) ولا نترك المجلة رهن الظروف وتحت رحمة ما يردها من مواد ومن يتجاوب معها من متعاونين ، بل ان المجلة هي التي تأخذ بزمام المبادرة ، وهي التي تستكتب ، وهي التي تقرر المواضيع ، وهي التي تحدد الاحجام والمستويات .
فمن حيث **المواضيع** التي تعالجها المقالات المختلفة نحاول ان تكون متنوعة ومتوازية في العدد الواحد . وكلها في مستوى يتراوح بين الجيد والممتاز ، وعليها ان تشمل جوانب تثير اهتمامات قطاع واسع من القراء او تجيب على استفسارات عدد كبير من المواطنين او تساعد المثقف العربي على استيعاب او فهم امور معينة متعلقة بالقضية او بالثورة او بفلسطين او بالعدو . وفي احصاء سريع للمواضيع التي دارت حولها مقالات السنة الاولى نجد انها قسمت الى اربعة اقسام شبه متساوية : عالج الربع الاول مواضيع اسرائيلية وصهيونية ، وعالج الربع الثاني المقاومة الفلسطينية ، وكان الربع الثالث عن النشاطات الاعلامية الفلسطينية والعربية والنشاطات الدعاوية الصهيونية ، في العالم ، اما الربع الاخير فكان عن الشعب الفلسطيني وعن التاريخ العربي لفلسطين .
اما في نقد الكتب والمؤتمرات فقد راجعت دوريتنا في اعدادها الستة الاولى ستين كتابا عن فلسطين والقضية الفلسطينية . وقد صدر كلها في ١٩٧٠ و ١٩٧١ . وكان عشرون منها بالعربية واثنان وثلاثون بالانجليزية وثمانية بالفرنسية والالمانية والهولندية والسويدية والنرويجية . كما حضر مندوبو شؤون فلسطينية خمسة وعشرين مؤتمرا عالميا له علاقة بالقضية الفلسطينية ، وغطوها كلها .

اما من حيث **الكتّاب** فان شؤون فلسطينية تخطط لتوسيع رقعة المساهمين بها فلا تحصر نفسها بباحثي مركز الابحاث ولا بالكتّاب الفلسطينيين المعروفين ، بل اننا نسعى دوما لاستكتاب المزيد من الكتّاب من خارج مركز الابحاث ، ومن غير المقيمين في لبنان ، ومن العرب غير الفلسطينيين ومن الاجانب ايضا . وقد اسهم في تحرير المجلة ، في سنتها الاولى فقط ، ١٠٩ كتاب (وهو ، بالطبع ، عدد كبير نسبيا) : ٦١ فلسطينيا و ٣١ عربيا غير فلسطيني و ١٧ اجنبيا . ويقيم ٥٨ منهم في لبنان و ١٩ في انحاء اخرى من الوطن العربي و ٣٢ خارج الوطن العربي . وفقط ٢٥ منهم من الباحثين في المركز . ويبدو من هذه الارقام اننا نجحنا الى حد بعيد في استقطاب العشرات من الباحثين من خارج المركز، ونجحنا الى حد أقل في استكتاب نسبة لا بأس بها من خارج لبنان ومن خارج البلاد العربية . ونرجو ان ننجح اكثر ، في المستقبل ، في استكتاب المزيد من غير الفلسطينيين وغير العرب .

ان العثور على الكتّاب المناسبين والاتفاق معهم وضمان تقيدهم بالمستوى المطلوب وبالوقت المحدد انما هو من المشاكل التي تواجه كل مجلة ، ولا تنفرد «شؤون فلسطينية» بذلك . لكنها ربما هي تنفرد بمواجهة مشكلة اخرى : مشكلة الحجم . فان كثرة المواضيع الفلسطينية التي تحتاج الى معالجة فرضت على المجلة التضخم بشكل يفوق ما كان قد خطط له سابقا ، فقد قفز حجمها من ٢٣٦ صفحة في العدد الاول الى ٢٦٠ صفحة في العدد الثاني . ومع اننا تمكنا في العدد الثالث من النزول الى ٢٥٠ صفحة عاد الحجم فارتفع الى ٣٠٠ في العدد الرابع والى ٣٢٢ في الخامس والى ٢٩٨ في السادس — متذكرين ان ثلث العدد الواحد ، على الاقل ، هو في الحرف الصغير (أي ٦٠٠ كلمة في الصفحة الواحدة . وما كنا نستعمل هذا الحرف المتعب للعين عند القراءة لولا ضرورة اختصار الصفحات) ومتذكرين ان الصفحة العادية في المجلة تضم ٥٠٠ كلمة على الاقل، وهو تكثيف يكون في معظم الحالات على حساب الاخراج الفني واناقة الشكل ، ورغما عن

توصيات (واحتجاجات) مدير الاخراج ! ولو اتبعنا الاسلوب الاميركي في الاحصاءات لتبين لنا ان الاعداد الستة السابقة من دوريتنا بلغت كلماتها ، في سنة واحدة فقط ، حوالي ٩٠٠،٠٠٠ كلمة . وهي كثافة لا نجدها ، اطلاقا ، في اية مجلة عربية مماثلة . لا في الحاضر ولا في الماضي .

هناك ايضا مشكلة تغطية النفقات . ان تخصص المواضيع التي تعالجها « شؤون فلسطينية » ، وكثرة عدد المساهمين فيها (كتّابا ونقادا ومراسلين ومعلقين ، الى جانب المدققين والمصححين والمترجمين) ، ونوعية الكتّاب ومستوى البحوث التي يقدمونها عادة ، والحجم الضخم ، يضاف الى ذلك حرص المجلة على بيع اعدادها باسعار معقولة نسبيا وباسعار اكثر انخفاضا في بعض الاقطار العربية وعلى تقديم حسم بمقدار نصف سعر البيع للمنظمات والاتحادات الفلسطينية ، وقلة الاعلانات (وهناك حصار تقاسي منه المجلة اعلانيا يعود لاسباب سياسية معروفة) . ان ذلك كله ، واسباب اخرى كثيرة ، تجعل مصاريف هذه الدورية الفلسطينية ، في الاعداد والطباعة والتوزيع وكافة النفقات اليومية الاخرى العادية ، تفوق دخلها من البيع والاشتراكات والاعلانات بمعدل أربعة اضعاف . ومما يؤلمنا ان يشكو قراء كثيرون من ارتفاع سعر العدد الواحد. ونحن ندرك ان مبلغ اربع ليرات لبنانية للعدد الواحد (كما كان في السنة الاولى وقبل ان ينخفض ابتداء من هذا العدد الى ٢/١ ٢ ل.ل.) هو مبلغ يبدو للوهلة الاولى كبيرا بالنسبة الى مجلة (أية مجلة) والى نتاج ثوري بالنسبة الى شعب يعاني القطاع الاكبر منه من مداخيل قليلة . لكننا ، من الجهة الاخرى ، نود ان نذكر ان العجز في المجلة يزيد سنويا على ١٥٠،٠٠٠ ليرة لبنانية ، وان الاغلبية الساحقة من المبيعات تكون بنصف سعر (باعتبار ان الموزعين والوكلاء والمنظمات والاتحادات ، لا يتركون لنا الا نصف السعر) ، وان نفقات شحن النسخة الواحدة الى كثير من الاقطار تزيد على سعر العدد وتبلغ احيانا ست ليرات لبنانية ــ وغير ذلك من الحقائق المجردة والبشعة التي كانت تضطرنا لان نجعل سعر العدد اربع ليرات ، وهو مبلغ اقل مما يدفعه عادة الشخص الواحد في مطعم عادي في أية مدينة عربية ثمن وجبة غذاء واحدة .

ولا يصح ان نقفل الكلام عن المصاعب التي واجهناها في سنتنا الاولى ، ونخشى ان تظل تعترض سبيلنا هذه السنة ايضا ، دون ان نعرج على مشكلة اخرى اعمق وأقسى واجهناها في كل عدد بدون استثناء ــ وهي مشكلة عتب العاتبين (ولعلني يجب ان أقول غضب الغاضبين) بسبب سياسة « شؤون فلسطينية » ، بل بسبب مقال او تعليق في عدد واحد . ونحن لا نستغرب ان يؤدي تشديدنا على اهمية عرض جميع الاراء واتاحة المجال امام الجميع لمناقشتها وحرصنا على ممارسة النقد الصريح (وقد مارسناه على منشوراتنا وانفسنا قبل ان نمارسه على غيرنا) ان يؤدي ذلك كله الى اثارة بعض الاخوان (وعتابهم ، وغضبهم) ، سواء كان هؤلاء الاخوان افرادا او مسؤولي منظمات واتحادات فلسطينية او انظمة ومؤسسات عربية . فان شرط دخول مجلة مثلنا لهذا الميدان الخطر ان يكون لها الصدر الواسع على تحمل العتاب والنفس الطويل على مجابهة العاتبين . انما ما لم نكن نتوقعه هو ان نتهم ، لكلمة واحدة في تعليق واحد ، مثلا ، اننا « اداة » بيد هذا التنظيم او ذاك ، او اننا « عملاء » لهذه الجماعة او تلك . وفي مدى اسبوع واحد فقط صدرت علينا ثلاثة احكام من ثلاث صحف ينتمي كل منها لتنظيم فلسطيني يختلف عن الاخر ، تشترك كلها بادانتنا وانما يتهمنا كل واحد منها باننا عملاء للتنظيم الاخر وان همنا الوحيد هو التهجم على التنظيم الذي تنطق باسمه المجلة صاحبة الاتهام . (نحن عملاء لـ أ ضد ب. لا ، نحن عملاء لـ ب ضد ج. لا ، نحن عملاء لـ ج ضد ا) . ولعل هذه التخبط في الاتهام ، في وقت واحد من ثلاث جماعات متناقضة ، يزيد من قناعتنا الذاتية باننا نسير على الطريق الصحيح في ان المجلة ، وان

كان كتابها ينتمون الى عدة تنظيمات ، ليست لجماعة ضد أخرى ، وانما هي لفلسطين . وفلسطين ، في نهاية المطاف ، اكبر من الجميع وامنع من الجميع .
الا انني اظلم اختبارات السنة الاولى من حياة دوريتنا اذا اكتفيت بالكلام عن المصاعب ولم اتطرق ، ولو باسطر قليلة جدا ، الى تقدير المواطن ورضى القارىء ــ وهما ، في النهاية ، الاهم والابقى . وقد كان هذا التشجيع هو الحافز الذي اعاننا ويعيننا على اجتياز المصاعب وعلى القفز فوق العقبات . وهو قفز بالحجم (بحيث اصبحت شؤون فلسطينية ، ابتداء من اليوم ، شهرية) ، وبالرواج (بحيث ارتفع المبيع ، في سنة واحدة فقط ، بنسبة الضعفين وثلث الضعف) . وكل ما نرجوه هو ان نستمر في خدمة قرائنا حتى يستمر تقديرهم ورضاهم وتشجيعهم لنتمكن من اداء قفزات أهم نوعية ومدى : قفزات في المستوى ، حتى تكون « شؤون فلسطينية » هي بالفعل تجسيد لعبارات المديح التي نسمعها من المئات من القراء ، وهي عبارات مديح نمتنع عن ترديدها هنا حتى نحمي انفسنا من تهمة الغرور .

فتح بين النظرية والتطبيق
١ ــ الاطار النظري

هاني الحسن

يبحث هذا المقال في الاطار النظري لحركة فتح ، ولا يتطرق الى موضوع التطبيق ، ولكنه مع ذلك يشكل وحدة متكاملة ، تنشره « شؤون فلسطينية » آملة ان تتمكن من تقديم القسم الاخر المكمل له ، في العدد القادم .

مع اشراقة عام ١٩٧٢ يكون عمر الكفاح المسلح لحركة (فتح) قد القى ظله على سبع سنوات مضت . وبمجرد تذكر هذه الحقيقة يتجه عقل كل مناضل من المناضلين الثوريين العرب ، ويشكل لا ارادي الى مقارنة عمر الكفاح المسلح الفلسطيني مع عمر الثورات الشعبية العالمية الحديثة . انطلاقا من عمر الثورة الجزائرية البطلة والتي انجزت مهمتها خلال سبع سنوات ، ومرورا بالثورة الفيتنامية والتي ما زالت منذ حوالي خمسة وعشرين عاما تناضل بلا كلل ، ولكنها حررت شمال البلاد وقطعت شوطا كبيرا في تحرير جنوب البلاد ، وانتهاء بالثورة الصينية العظيمة والخالدة والتي استمرت ربع قرن من الزمن ، قادت في النتيجة الى نتائج يمكن ان توصف بزلزال ثوري شمل الصين والشرق الاقصى جميعا .

اننا اليوم ونحن نقف على عتبة العام الثامن للثورة الفلسطينية تتجاذب الكثيرين منا ــ وخاصة ابناء فتح ــ مشاعر متداخلة من الامل والتشاؤم من التفاؤل والسوداوية . والسبب يرجع الى واقع الضبابية الذي يخيم على القضية الثورية الفلسطينية ، ذلك الواقع الذي لم يقم بعد بوضع الماضي بايجابياته وسلبياته في اطاره النقدي الصحيح من جهة ولم يبلور بالتالي تصور خط السير الصحيح بوجهيه العسكري والسياسي الذي سيقود المسيرة الثورية في السنوات القليلة القادمة ، من جهة اخرى .

لهذا فاني سأحاول محاولة متواضعة القاء الاضواء على المراحل الحاسمة التي مرت بها (فتح) سواء بحياتها الداخلية او الخارجية . (ففتح) هي الثورة الفلسطينية ، والكلام عن حياتها الداخلية او الخارجية يعني الكلام عن حياة الثورة الفلسطينية . فتاريخ حياة (فتح) هو تاريخ الثورة الفلسطينية الحديثة ، وتاريخ الثورة هو في التحليل النهائي تاريخ حركة (فتح) .

اني اذ اتجرأ اليوم على الخوض في موضوع لم يصبح كله بعد للتاريخ ، فاني افعل ذلك حفاظا على اطول ثورة مسلحة خاضها الشعب الفلسطيني في هذا القرن حتى الان . واوجه كلامي بالذات الى الفتحويين ، سواء أولئك الذين عندهم الحس الفتحوي، والذين سيستمرون رافعين راية الثورة الشعبية المسلحة مهما طال الطريق وتعقد ، او اولئك الذين عرفوا الثورة في أيام مدها فقط ، وعندما بدأ الانحسار ــ الظاهرة التي لا تتفرد بها الثورة الفلسطينية ــ بدأوا يحاولون اعدام الماضي ، ويحاولون تحويل

الاخطاء الى خطايا ويلقون المسئولية على النظرية والشعارات المرحلية ، وذلك كله بدافع اخفاء مسئوليتهم الشخصية . لقد اصبح من الضروري اعادة الاعتبار الـــى الحقيقة ، وهذا لا يتم الا بممارسة النقد الثوري ، الذي هو حتما ليس حفلة شتائم او اسلوبا للادانة فقط . فالنقد الثوري مصدر الابداع . وحتى يتحقق ذلك لا يجوز ممارسة النقد من اجل اراحة الضمير ، وانما من اجل وضع القضية في اطارها الصحيح المدفوع نحو الافضل .

١ ـــ نظرية العمل الفتحوية

من يعرف أين يقف وماذا يريد يعرف في النهاية حتما الى اين سيتجه . هذه الصفات الثلاث كانت متوفرة لدى (فتح) في مرحلة ولادتها وحتى نهاية عام ١٩٦٨ عـــام معركة الكرامة .

ما هي أبعاد الاجواء السياسية والفكرية التي ولدت فيها (فتح) ؟ . عام ١٩٥٢ أطل عبد الناصر من خلال الثورة المصرية على الوطن العربي وكانت الساحة يومها تعـــج بالاحزاب ذات الطابع القومي وخاصة في المشرق . ولمـــا كانت الامة العربية مثخنـــة بالجراح، مطأطئة الرأس امام الهزيمة العسكرية التي لحقت بها فان القضية الفلسطينية اصبحت محور حديث كل من يريد الاستيلاء على قلوب الجماهير العربية وعقولها . وكان عهد التحرير واسترداد فلسطين يكاد يكون الكلمات الاولى التي يبدأ بها البلاغ العسكري لاي انقلاب او تغيير سياسي يحدث في المنطقة العربية .

بين عامي ١٩٥٥ و١٩٥٨ حققت القوى الوطنية العربية في مصر أروع الانتصارات حيث تم طرد الاستعمار البريطاني من مصر وصمدت مصر وسوريا في وجه حلف بغداد ومبدأ ايزنهاور . وكذلك سقط حلف بغداد بانفجار ثورة ١٤ تموز وانهيار الحكم الملكي الاقطاعي في العراق وانهارت بشكل عام السيطرة الاستعمارية التقليدية، وتوجت هذه الانتصارات بقيام وحدة بين سوريا ومصر في أوائل عام ١٩٥٨ . كل تلك الانجازات وعلى رأسها معركة السويس عام ١٩٥٦ ألهبت حماس الجماهير العربية وبدأت ترتفع بالنضال العربي الى أرفع مستوى ، بحيث عادت الى الحركة الوطنية ديناميكية التحرك والثقة بالنفس وبقدرة الشعب على صنع أهدافه .

ان المؤرخين لن يجدوا مفرا عندما يؤرخون لفترة الخمسينات من تاريخ المنطقة من أن يقدروا بأن طريق دايان الى غزة والقويصمة وسيناء عام ١٩٥٦ كان طريق عبد الناصر الى كسر الارتباط التاريخي بالغرب ، وطريق الفلسطينيين الى اكتشاف دورهم الخاص ومن ثم التمرد فالثورة . وقد اكتشف الفلسطينيون دورهم الخاص اثنـــاء الاحتلال الاسرائيلي الاول لقطاع غزة ١٩٥٦ ، وانهم يستطيعون أن يقاتلوا حتى في أسوأ ظروف الاحتلال . وان الانسان اذا ما أراد يستطيع النضال حتى ولو كان على حافة الموت ، وان سيطرة العدو على الارض لا تعني الهزيمة النهائية . فالهزيمة هي سقوط الارادة . باختصار لقد الهمت حرب السويس من خلال التمرس في مواجهة الاحتلال طليعة من الفلسطينيين بما يمكن فعلـــه وما يمكن تجنبه ، وكيف يمكـــن الانتقال مـــن الانتقام السلبي الى المقاومة الايجابية ، مـــن الملاحظة الى التخطيـــط . يضاف الى ذلك ان الثورة الجزائرية التي اعادت الى المواطن العربي احساس النصر الغريب عليه منذ زمن طويل ، ساهمت مساهمة فعالة في اغناء قناعات نواة الطليعـــة الثورية بالقدرة على الولادة والبدء . وكلما حققت الثورة الجزائرية انجازا باتجـــاه النصر كانت الظروف الموضوعية لولادة عمل ثوري مسلح ضد اسرائيل تزداد توفرا ويرافـــق ذلك تنام في وضوح الرؤيا عند كوادر الطليعة ويرفع من معنوياتها . بزوال الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٥٦ فوجىء الطليعيون والواعون من ابناء الشعب الفلسطيني بأن الانظمة العربية لم

تع الدروس المستفادة من المعركة . وان الدول العربية خرجت « مضبوعة » مذعورة من الاستعمار واسرائيل وان استراتيجيتها مبنية على ان هناك ما يسمى بمعركة الاسترداد وهنالك ما يسمى بمعركة الوضع الراهن .

معركة الاسترداد — كما كانت الدول العربية الثورية تقول — يجب ان تكون حربا خاطفة تتقرر نتائجها خلال أيام بل خلال ساعات . الامر الذي يضمن حسم الامور قبل تمكن المستعمرين الامريكيين من التدخل . والتسلسل المنطقي لتحقيق الحرب الخاطفة قاد الى الشروط اللازمة لسرعة الحسم وهي : ١ — قوى عسكرية نظامية ضاربة كلاسيكية سريعة الحركة . ٢ — تحقيق وحدة دول الطوق كحد أدنى لتكون بمثابة السوار المدبب المحيط بالمعصم ليدميه وينهيه . ٣ — بناء كل من الانسان العربي والصناعة العربية وهما العاملان المكملان للطاقة الذاتية للحرب النظامية الخاطفة .

ان ذلك التفكير ذا النظرة الوحيدة الجانب المهمل لجانب العدو وامكانيات نموه وتطوره قاد العسكريين والسياسيين العرب الى القناعة بأن الامور الثلاثة السابقة الذكر لا يمكن توافرها الا على المدى البعيد وفي ظل ظروف دولية يجب ترقبها واستغلالها ولذلك فان جميع الدول العربية الثورية وعلى راسها مصر الناصرية كانت تخطط على انها لا تخوض مع اسرائيل معركة استرداد وانما **معركة الحفاظ** على الوضع الراهن .

ان منطق الحفاظ على الوضع الراهن قاد الاستراتيجية العربية الى الالتزام بخط استراتيجي يحكم سيرها وردود فعلها وهو أن خط الهدنة **خط دفاعي ثابت** ، نحن نطور خلفه قوى الحرب الخاطفة وليفعل العدو خلفه ما يريد . وكان موضوع تحويل نهر الاردن من الامثلة النموذجية على خط الدفاع الثابت، فالعدو يحول خلف خطوطه ونحن نحول خلف خطوطنا .

المناضلون الاوائل في (فتح) والذين عاشوا مرحلة الولادة الصعبة للثورة الفلسطينية ، والذين عاشوا عن قرب أو في داخل ما جرى من اخذ ورد ، ومن اتهام وتأييد ، قبل ويوم انطلاق الرصاصات الاولى عام ١٩٦٥ ، يجمعون حتما على ان السمة الاساسية لفكر (فتح) في تلك الاونة — وهكذا استمر حتى معركة الكرامة — هي الرفض الكامل للنظرة الاستراتيجية العربية ولكافة التحليلات التي طرحتها كل القوى الوطنية — ناهيك عن القوى غير الوطنية — سواء في الاسلوب او في المنهج لتحرير فلسطين .

بدون تردد يمكن القول بأن فكر (فتح) وخطها السياسي في تلك المرحلة يعرف من خلال تمييزه بصفة النقض الكلي للاستراتيجية والتكتيك العربيين المطروحين . والفكر النقيض هو في النهاية رفض وثورة على المطروح .

من يراجع أدبيات (فتح) حتى عام ١٩٦٥ فانه مع ملاحظته لندرة ما كان يصدر داخليا فانه سيجد ان مجلة « فلسطيننا » المعبرة عن وجهة نظر (فتح) في مقالها الرئيسي وما كان ينشر تحت باب «رأينا» تطرح دائما شعارات واضحة محددة،وتحليلات يحكمها منهج واضح المعالم في التحليل الامر الذي يحقق انسجاما بين (فتح) ونفسها المعبر عنها (بهيكل البناء الثوري) . الا انه سيلاحظ ان هنالك محاولة متعمدة لعدم الخوض في التفاصيل . دون ان يعني ذلك عدم توفر التفاصيل ، وانما تمسكا بالقناعة التي كانت مسيطرة يومها على كادر (فتح) المجرب الخبير بالساحة العربية ، تلك القناعة التي كانت ترى بان أهم عنصر لحماية (فتح) من بطش الانظمة العربية هو القدرة على طرح الشعارات التي تجنب الثورة استنفار قوى كبيرة في معسكر الخصم قبل ان تقف على قدميها . اذ ان معرفة القوى المضادة بالابعاد الكاملة للعمل الثوري الجديد، يجعلها قادرة — في وقت مبكر — على ابداع وسائل وتكتيكات مناسبة ، تبطل وتنقص من فاعلية الفكرة اساسا ، والاستراتيجية والتكتيك المنبثقين عنها . كانت المحافظة على

الغموض في كل قضية ، غير الخطوط العامة لاسلوب التفكير ولمعالم الطريق قضية متعمدة . واخذت (فتح) تزيل الغموض شيئا فشيئا بعد انطلاقتها المسلحة عام ١٩٦٥ وذلك من خلال الرد بالوقت والقدر المناسبين لما يثار ويطرح . ولذلك فان أدبيات (فتح) التي تلت ولادتها المسلحة يمكن أن يستنبط منها فكر (فتح) ومنهج عملها .

من يقرأ ما صدر عن (فتح) في « بيان التوقيت » ، و« فتح تبدأ النقاش » ، و« نضالنا القطري » ، و« الثورة والمضمون الاجتماعي » ، مع « كيف تتفجر الثورة المسلحة » و« مذكرات (فتح) لمؤتمرات القمة العربية » ، سوف يلاحظ بدون لبس او غموض الحسمية والرفض الكامل للعقل العربي الرسمي وشعاراته المرحلية المطروحة للتحرير .

يبرز مستوى الوضوح الفتحوي ، النقيض للتفكير العربي من خلال منظومة الشعارات التي طرحتها منذ بداية نشأتها . فشعار الثورة الشعبية المسلحة طريق تحرير فلسطين نقيض ورفض لمفهوم الحرب الخاطفة والنظامية ... وشعار تحرير فلسطين طريق الوحدة العربية نقيض ورفض لمفهوم التوالي الزمني الهادف الى تأجيل معركة الاسترداد بانتظار الوحدة العربية اولا ... وشعار غير خاضعة ولا تابعة ولا موجهة رفض لمحاولة الانظمة العربية فرض وصايتها وولاية أمرها على الفلسطينيين .

ان الحسمية ليست هي الصفة الرئيسية الوحيدة المميزة لفكر (فتح) ، عند ولادتها ، وانما الارتباط بالواقع ايضا . والذي يتجلى بأوضح مظاهره في الاصرار على الممارسة ، الذي كان يطغى على التحليل ، بحيث تشكل الممارسة طبيعة (فتح) الاولى والتحليل طبيعتها الثانية .

هذه الخاصية (الممارسة) يلاحظها ببساطة من يتعمق بنظرية العمل الفتحوية ، حيث تتسم بالالتصاق بالواقع والاعداد لمواجهة الواقع من خلال رفضه كأمر واقع . (فتح) في مرحلة ولادتها ونشأتها كانت ترفض الصوفية الفكرية ذات الالتفاتات التأملية لوقائع أمور متخيلة .

ما هي نظرية العمل الفتحوية ؟

اصبح من الضروري وضع نظرية (فتح) في العمل مجددا على الورق وذلك بعد الانعطاف الفجائي الذي قاد الى الانحسار المؤلم خلال العام الماضي (١٩٧٠) . اذ ان سؤالا يطرح نفسه علينا بالحاح : ما اذا كانت نتائج الممارسة نتيجة طبيعية للنظرية أم انها كانت على حساب النظرية التي لم يلتزم بها ؟ ان الوصول الى نتيجة بالنسبة لهذه النقطة بالذات أمر مهم لمعرفة مستقبل خط سير (فتح) وبالتالي مستقبل ديمومة (فتح) كلها كحركة ثورية .

المواطن العربي يعيش على ارضه غريبا . وحالة الاغتراب السياسي التي كانت وما زالت تسيطر على الامة العربية تعتبر الخطر الحقيقي الذي لا بد لنا من أن نزيله ونقضي عليه . لقد قامت في المنطقة العربية احزاب وحركات عربية عديدة حاولت تحقيق أهداف الامة العربية وخلق الانسان العربي الجديد اللامغترب سياسيا واقتصاديا ، ولكنها فشلت جميعا . ان تلك المؤسسات سواء الاحزاب القومية او الحركة الناصرية ، كانت ثورية من حيث آمالها واخلاصها ، ولكنها نسيت ان تخطي الاوضاع التي أوجدها الاستعمار والصهيونية من تخلف وتجزئة ، والتي خلقت مناخ الاغتراب ، لا يمكن بدون تعبئة الجماهير ، وبدون ايصالها الى مرحلة استعمال العنف الثوري بكل أشكاله لفرض ظروف التغيير ، بينما سارعت القوى الوطنية الى تسلم السلطة عن طريق الانقلاب العسكري قاطعة بذلك الطريق على نشوء التنظيمات الشعبية القادرة على ان تكون الواسطة بين السلطة والجماهير ، والنتيجة الحتمية لذلك مواجهة التناقضات الجديدة

داخليا وخارجيا مواجهة عاجزة عن الوفاء بوعودها التي قطعتها على نفسها قبل تسلمها السلطة سواء في الامور الداخلية او في القضايا القومية كالوحدة وتحرير فلسطين . ولذلك تحولت تلك القوى الى اداة قمع قسري للشعب تمنع عنه القسط الضروري من الحرية السياسية ، حتى انها أصبحت أحيانا تذكره بأولئك الذين ناضل ضدهم ، ولم يبق أمام المواطن العربي في ظل القهر والاضطهاد وضعف الحركة الجماهيرية الا الانسحاب من ميدان النشاط او الانعزال والاهتمام بأموره المعيشية الضيقة ، مشكلا جزيرة قائمة بنفسها ، الابعاد الجغرافية بينه وبين الاخرين معدومة بينما الابعاد النفسية شاسعة(١) وهذا هو السبب الذي جعل الاربعين مليون عربي المحيطين باسرائيل رقما (كتلة) لا دور حقيقي لهم فيما يجري حولهم من أحداث ، وموقفهم من سير الامور يتحول الى موقف لا يتعدى كونه تأمليا صرفا تجاه سير الاحداث(٢)، فهو متفرج قادر على البكاء عند الهزائم القومية ، وعلى التصفيق عند الانتصار . والنتيجة الحتمية لهذا الوضع الشعبي هو تحول المجتمع الى مجتمع اللاقدرة واللاانتماء الذي تغيب فيه قواه الفاعلة فيقف عاجزا أمام الهزيمة وتآمر الاستعمار ، وحدوث ذلك هو اكمال عوارض المرض .

ان للنضال دائما هدفا وأداة ، وغاية النضال هو حل المشاكل السياسية والقومية ببعث طاقات العطاء والكفاح عند الشعب المستعمر او شبه المستعمر . وأداته هي الشعب الواعي والمنظم والمسلح . ان حضور الشعب (الواعي والمنظم والمسلح) ، ومشاركته ككل — بكل ما في كلمة مشاركة من محتوى — في خوض النضال هو وحده الكفيل بتنمية حركة الجماهير ، وبالتالي انجاز المهام القومية الصعبة . ولكن كيف نصل الى ذلك ؟ الماء لا يعطي كهرباء الا اذا كان خلف السد . وكذلك الجماهير لا بد من وضعها في وضع تكون فيه قادرة على العطاء . وهذا لا يتأتى الا من خلال ممارسة ما يحدث في النهاية تغييرا جذريا . وفي ظروف الامة العربية ، التي تواجه يوميا خطر الوجود الاسرائيلي ، كأداة معدة لضرب أي نهوض في الحركة الوطنية العربية ، فان تركيز الانظار حول هذا الخطر ، والسعي لحله والهيمنة عليه ، باعتباره العائق « الفعلي » الذي أعدته القوى الامبريالية لتتمكن من الاستمرار في فرض نفوذها على المنطقة العربية ، يشكل القضية المصيرية ، التي يتوقف على حلها ، انجاز كثير من المهمات الجذرية التي تبدو الان بعيدة المنال ، كما يشكل القضية المصيرية القادرة على حشد أكبر طاقات جماهيريـة عربية باتجاهها ، كما اثبتت ذلك الاحداث نفسها ، على مدى فترة زمنية طويلة . فاذا أضفنا الى ذلك ان تعميق النضال القطري ، هو المدخل لتوفير نضال قومي متماسك ، لان النضال القومي يبقى شعارا عائما ، وملاذا للهرب ، اذا لم يأت كنتيجة لنمو النضال القطري ، اذا أضفنا ذلك ، نجد أنفسنا أمام المبدأ الذي يشكل دعامة اساسية من الدعائم التي تقوم عليها نظرية العمل الفتحوي . والادبيات الفتحوية مليئة بتحليلات تشير وتدافع فيها بكل وضوح عن ضرورة الالتزام بالنضال القطري القائم على وحدة وطنية لجميع القوى الثورية العاملة في القطر من جهة ، والمتداخل مع طلائع النضالات القطرية الاخرى... « ان النضال لتحقيق الاهداف القومية لا يتم الا من خلال الواقع القطري ؛ ان ممارسة الانسان العربي لنضاله الثوري من خلال قطره الذي يعيش فيه يزيده عطاء وقدرة ونموا في الوعي(٣) .. ان على النضال القطري ان يلتزم بوعي بحدود « الاطار التحرري » بمعنى ان يحرر القطر نفسه من العوائق التي تحول بينه وبين الالتقاء مع الاقطار الاخرى لتحقيق الوحدة والعدالة

---

١ — حسب تعبير ملنيل في رواية موبي ديك .

٢ — لوكاش ، في التنظيم الثوري ، ص ٦١ ، ترجمة جورج طرابيشي .

٣ — دراسات وتجارب ثورية رقم ١ ، مقال بعنوان نضالنا القطري ، ص ٤٧ .

الاجتماعية . فان كان القطر مستعمرا لا بد ان يخوض قبل كل شيء معركة التحرر من الاستعمار ، وان كان القطر مستقلا فلا بد من ان يخوض معركة الخلاص من الرجعية. وهذا يشترط في البداية الوحدة الوطنية لجميع القوى الثورية العاملة في القطر كشرط اساسي لسلامة النضال القطري ... ان مهمة النضال القطري محددة باطار الحرية لان الوحدة والعدالة الاجتماعية بمفهومهما الثوري الشامل لا تتحققان على اساس قطري ولا بد من ان يكون الوطن العربي اطارهما الواسع .. »(١).

ان تركيز واصرار (فتح) على النضال القطري مبعثه قناعة (فتح) بأنه الطريق للحصول على افضل محصلة للنتائج النضالية ، انطلاقا من الواقع الموضوعي لاختلاف ظروف كل قطر عربي بسبب الخصائص التي يتميز بها التركيب السياسي والاجتماعي لكل قطر . تلك الخصائص التي قادت اليها التجزئة والتي تجعل من غير الممكن رسم مخطط واحد لكل الاقطار او تعميم الاساليب . فلكل قطر خصوصيته التي يفرضها مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي له . ان القضية التي وضعت (فتح) يدها عليها وادركت ضرورتها بالنسبة لدور الشعب الفلسطيني، هي المعنى الخـــاص والفعالية الثورية الكامنة في النضال القطري الفلسطيني والذي تفرض صفاته الخصوصية مباشرة، ابعادا قومية له ، وليس أبعاداً جغرافيـــة فقط . ان الحقيقة القائلـــة بأن فلسطين بعد قومي وليست بعدا جغرافيا هي محور وجوهر نظرية العمل الفتحوية . وهي مسلمة فتحوية تعتمد على مبررات ومنطلقات كان للحوار الطويل مع الرفاق الصينيين منذ عام ١٩٦٣ فضل كبير في بلورتها المبكرة والتي ابرزت الاحداث ، من خلال تجربة السنوات الاربع الاخيرة عمقها ، وتبناها كثير من الكتاب والمحللين في الساحة العربية .

ان ماوتسي تونغ قد حلل التناقضات من خلال مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية معبرا عن أن هنالك تناقضا رئيسيا بين الامة والامبريالية وتناقضا رئيسيا ثانيا بين الشعب والاقطاعية . وعندما نحاول تطبيق هذا على الوطن العربي بشكل عام ، فانا نستطيع القول بأن التناقض الاول بين الامة (الاقطار العربية) والامبريالية تناقض قومي ميدانه الرئيسي هو الساحة الفلسطينية ، ودور الفلسطينيين فيه تعميق نضالهم القطري . اما آفاق النضال القومية فهي مهمة الثوريين العرب ، الذين يشكـــل نضالنا القطري بالضرورة جزءاً عضويا منهم .

واذا كان الخطأ لا يظهر الا اذا جسد بالمخطىء، والصواب لا يظهر الا اذا جسد بالمصيب. كذلك فان القول بأن التناقض الرئيسي هو بين الامة والامبريالية لا يمكن لنا أن نتحسس معناه وابعاده الا اذا جسدناه بمواجهة أداة قمعه الاساسية ، اسرائيل .

الاستعمار بدأ يدرك مع مطلع القرن العشرين انه يعيش آخر مراحله . واستمـــرار السيطرة المباشرة من خلال جنود الاستعمار ودباباته سوف يصبح أمـــرا غاية في الصعوبة . الا انه نظرا لاهمية الوطن العربي استراتيجيا للاستعمار ، فانه انسحب من المنطقة وأقام استعمارا استيطانيا على الارض الفلسطينيـــة من اجل الابقاء علـــى مصالحه وتواجدها .

ان استمرار وجود اسرائيل في فلسطين يعني استمرار الوجود الامبريالي في كل الارض العربية(٢). فمن هذا الاطار يجب فهم الوجود الصهيوني والادراك التام : ان التركيب الفكري والمادي للصهيونية ونشأتها الفاشستية بالاضافة الى المهمة الاساسية، تتضامن للحفاظ على تواجد مصالح الامبريالية ، ان تلك الخواص جميعها تجعل اسرائيل (كأبرز

---

١ ــ **المصدر السابق** .

٢ ــ منيف الرزاز ، **السبيل الى تحرير فلسطين** ، ص ١٨ .

مظاهر الوجود المادي للامبريالية) مضطرة باستمرار للتوسع ، الامر الذي يقرر بأن التناقض معها عدائي ودائم ، شاعت الاستراتيجيات الرسمية العربية ذلك أم أبت . وفي لحظات جمود الصراع العدائي المسلح ، فان ذلك الجمود تفرضه الحركة الصهيونية وحدها ، عندما تكون في حاجة للهدوء ولهضم مكاسب أحرزتها ، استعدادا لعملية قضم وانقضاض جديدة . ان هذا الفهم لمعنى وجود اسرائيل يفسر العلاقة الجدلية القائمة بين وجود اسرائيل من جهة وبين التخلف الاقتصادي واستمرار وجود القوى والانظمة الرجعية في المنطقة العربية من جهة اخرى . وهذه العلاقة تفسر كيف ان الوجود القومي للأمة العربية مهدد باستمرار من قبل اسرائيل (التجسيد المادي للامبريالية) . صحيح انه نظريا يمكن القول بأن اسقاط النظم الاقطاعية والعشائرية الرجعية يقود الى تحرير فلسطين عبر تحقيق الوحدة العربية . ولكن هذا ليس سوى هروب نحو حل تاريخي حضاري لمسألة الصراع العربي الاسرائيلي ، بينما تواجه كل أمة مستعمرة ، سؤالا ملحا : ما هي اسرع الوسائل للنصر ؟ ولم يكن السؤال ابدا امام الثوريين : كيف يستطيع التطور الحضاري ان يحل المعضلة الاستعمارية ، المعروف سلفا ، انها ستسقط وتنتهي على المستوى الحضاري. اما على صعيد التخصيص ، فان نضالاتنا الوحدوية لم تنضج الى الحد الذي يجعلها أمرا راهنا . وعلى ضوء هذا فانه من غير الممكن ان نطالب بوقف النضال القطري الفلسطيني، كما انه من غير الممكن ان نطالب بوقف النضال القطري ضد القوى الرجعية والاقطاعية على يد الحركة النضالية الثورية لذلك القطر، لاننا اذا ما فعلنا ذلك نكون كمن يطلب أن تكف الارض عن الدوران . الا ان المطلوب هو أن تكون النضالات القطرية داخل الاطار القومي . والسؤال الهام كيف ؟ والجواب بدون تردد أن تكون الثورات القطرية جميعها موازاة وداخل القضية التاريخية للمرحلة الراهنة للامة العربية ، بحيث تكون القضية التاريخية هي الاساس والمحور ، ولها الاولوية على كل شيء في الامكانيات وفي الاستمرار في النضال ، وليس هنالك من قضية تاريخية في المرحلة الحالية للامة العربية الا فلسطين باعتبارها المدخل الاساسي للمواجهة مع النفوذ الامبريالي . « المعركة المسلحة (على أرض فلسطين) ومستلزماتها يفرضان المصلحة القومية ، وهذا يعني ان الحدود الإقليمية بين الاقطار العربية ستزول من خلال التجربة المسلحة وسوف تتخطاها القوى الثورية لتتصل ببعضها بعضا كشرط أساسي لحماية الارض العربية وخاصة في المواقع الجغرافية التي لا تتوفر لديها الحماية العسكرية اللازمة ... »(١) ان المقتطفات السابقة الذكر تبرز قوتها عندما نتذكر انها قيلت عام ١٩٦٥ وكيف انها أصبحت تبدو ممكنة للجماهير حتى عام ١٩٧٠ بعد انجازات النضال المسلح ، تلك الانجازات التي لم نستغل نتائجها وكانت لذلك مع الفشل صنوان .

القضية التاريخية يمكن تحديدها بعدد كبير من النقاط التي تكشف كل نقطة منها عن زاوية معينة ترتكز عليها القضية التاريخية . الا أنه من الواضح ان زاويتين اساسيتين لا يمكن للقضية التاريخية أن تفقدهما: الاولى هي ان القضية التاريخية هي قضية التحدي الاكبر لمجموع شخصية الامة المستعمرة في ان تبقى او لا تبقى في ان تكون او لا تكون في ان تنهض او لا تنهض ، في ان تتحرر او أن تبقى مستعبدة . والثانية نتيجة الاولى وهي انه اثناء حل (التناقض التاريخي) يجري بحكم ارتباط النتائج بالاسباب ، والجزء بالكل، فتح الطريق أمام حل التناقضات الرئيسية الاخرى وكذلك توفير المناخ لحل التناقضات الثانوية . أي انه يمكننا القول بدون تردد أن حل تناقض تاريخي ، نتائجه في التحليل النهائي عملية خلق جديدة تكون بداية مرحلة حضارية جديدة للامة . وهذا هو ما يقصده

---

١ ــ نفس المصدر ، ص ٢٩ .

ماوتسي تونج عندما يقول :
(ان الحرب الثورية هي نوع من الترياق تدفع سموم العدو ، وفي الوقت ذاته تطهرنا من الاقذار والاوساخ . وفي كل حرب ثورية عادلة (قضية تاريخيـــة) تكمن قوة جبارة تستطيع ان تعيد تكوين اشياء كثيرة او تمهد الطريق لاعادة تكوينها ... ان الناس والاشياء في كل من الصـــين واليابـــان سيصهرون من جـــديد في سياق الحرب وفي اعقابها ...)(١).

ان هذه المقدمة البسيطة ضرورية كمدخل لفهم المقصود برفض التوالي الزمني القائل بتجميد القضية التاريخية (فلسطين) ريثما يقضى على الاقطاع والانظمـــة والقوى الرجعية ، وللتأكيد على بديهية ان حل التناقض التاريخي يحمل معه اثناء المسيرة الثورية المسلحة وبعدها تغييرات كبيرة اجتماعية وسياسية واقتصادية . وأول ما يحققه البدء بالمسيرة الثورية جر القوى الرجعية ممثلة الامبريالية داخل معسكر الامة الى القتال على الارض التي ليس من مصلحتها القتال عليها مفرزة نفسها مع الامبريالية الامر الذي يقود حتما في مراحل المد الثوري الى تأزيم التناقضات داخل المجتمعات الرجعية ومن ثم تحريكها . هذا هو المعنى الذي لا تخلو منه مقالة لفتح . ففي « فتح تبدأ النقاش » وتحت عنوان التوجه الكلي نحو ساحة فلسطين نقرأ :

(اننا ننادي بالتوجه الكلي نحو ساحة فلسطين ، وشد الانظار والهمم وكل سلاح ممكن الى الارض المحتلة ، والابتعاد عن الحرائق الجانبية ، لانها انعكاس للوجود الصهيوني في الارض العربية. ان الوجود الصهيوني سبب لكل مشاكلنا في المنطقة العربية ، وتحطيم لكل تطلعاتنا نحو فجر جديد للامة العربية ... فالوجود الصهيوني جذر امراضنا وليس نتاجا من نتائجها ... ان التوجه الكلي نحو فلسطين واشعال المعركة في الارض المحتلة محك لا يخطيء ابدا ، وميزان صادق حتما يميز الخائن العميل من الوطني المخلص . ان القوى الثورية في المنطقة العربية يجب ان تدرك بوضوح انّ نقطة الاحتكاك مع الاستعمار والعملاء والصهيونية هي في الارض المحتلة(٢). وفي « بيان التوقيت » نقرأ (ان التذرع بوجود مشاكل معينة في الاقطار العربية لا بد من حلها قبل خوض معركة فلسطين هو تذرع يخلو من المعالجة الجذرية لهذه المشاكل ، ويترك قضية فلسطين في دوامة الاحداث المفتعلة(٣) .

(فتح) لم تقل مرة واحدة لا كتابة ولا لفظا انها ستحرر فلسطين وحدها ، وانما هي تهدف الى ايقاف قضايا الامة العربية على قدميها بدلا من رأسها ، والى جعل المواطن العربي يعيش حيث الجرح ، كي لا يسيطر عليـــه سراب ثوري فيكتشف اوهامـــه وضياعه بعد فوات الاوان . اذ انه فقط من يعيش حيث الجرح ، هو القادر على التطور نحو الافضل وعلى الاستفادة من تجاربه . والعيش حيث الجرح بمفهوم (فتح) يتجسد بتحريك القضية الاساسية والتاريخية للامة العربية (فلسطين) لتفجير التناقض مع الصهيونية عن طريق خوض الكفاح المسلح كتيار فلسطيني في البداية يتحول بالممارسة الى تيار عربي ، وتحويل ارادة النضال من ارادة سلبية دفاعية الـــى ارادة ايجابية هجومية . وبعد خلق هذه الحقائق يصبح من السهل جدا البناء عليها ونقـــل المواطن العربي من الفردية الى الجماعية ومن التأخر الى التقدم .

---

١ — مقتطفات من اقوال الرئيس ماو ، ص ٦٤ ، مأخوذة عن « **حول الحرب الطويلة الامد** » ، المؤلفات المختارة ، المجلد الثاني .

٢ — **دراسات وتجارب ثورية** ، رقم ١٠ ، مقال بعنوان : فتح تبدأ النقاش ، ص ١١ .

٣ — **دراسات وتجارب ثورية** ، رقم ١٠ ، ص ٢٩ .

لقد سيطر على الوطن العربي حتى الخامس من حزيران منطقان لتحرير فلسطين . احدهما القائل بأن الحزب القومي الشامل هو القادر على تحقيق الوحدة العربية ومن ثم تحرير فلسطين كنتيجة للوحدة. ومنطق آخر يقول أن الدولة صاحبة الامكانيات الواسعة في ظل قائد فذ ملهم تعطيه الجماهير تأييدها وثقتها المطلقة يمكن ان يحقق الوحدة العربية بداية وتحرير فلسطين انتهاء . ان كلا المنطقين رغم اختلافهما طرحا صيغة خاطئة تلتقي في نقطتين اولاهما ان معالجة التناقض الاساسي الاكبر والاهم مع الصهيونية يجب الهرب منها بحجة الاستعداد وخلق الوحدة التي لا يمكن ان تتم الا من خلال مواجهة العائق الاساسي أمامها . وثانيهما اذابة الشخصية الفلسطينية داخل الاطار القومي بحجة قومية وعروبة المعركة . (فتح) طالبت بالعودة الى المنطلق ، الى الساحة الاساسية التاريخية ، فتحرير فلسطين هو المنطلق الذي يزيل اداة التهديم التي اعدت لضرب كل قوة ثورية تسعى لحل مشاكل الأمة العربية في الوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية ، ورفضت (فتح) مصادرة الذات الفلسطينية وذوبانها في الدائرة الاوسع ، الدائرة القومية . وهي فعلت ذلك ليس ارتدادا ورفضا للبعد العروبي للقضية ، وانما تأكيدا له . فبدون الفلسطينيين تفقد الثورة صفتها التحررية القطرية الاساسية وتبدو القضية عالميا وكأنها نزاع بين الدول العربية واسرائيل الامر الذي يسلب الثورة احد اركان الثالوث اللازم لخوض اي حرب ، الراي العام العالمي(١)، يضاف الى ذلك نقطة هي الاساس والاهم من سابقتها ، وهي أن الفلسطينيين ، بسبب المعاناة وحالة الاغتراب والضياع والالم ، يشكلون نبعا غنيا للثورة والعطاء ، ومن هنا فان اذابة هذا القطاع ومصادرة اسمه وكيانه يعني بالنتيجة سلب الامة العربية قضيتها التاريخية الوحيدة من فعاليتها والابقاء على جانب البؤس السلبي فيها . الحقيقة التاريخية لا تتحول الى واقع من خلال التعميمات العريضة وانما من خلال سياق الاحداث المعقدة . هكذا تقول الممارسة ، المعلم الكبير للحركات الثورية . ومن جملة التعميمات العريضة التي تجعل العربي يبني أوهاما كبيرة على قواه ، القول بأن مائة مليون عربي يخوضون معركة مع الصهيونيين في فلسطين ، وهذا كلام نظري يحتاج الى تجسيد . بل ان التحدي المضاد الذي توجده الصهيونية هو القدرة على تعبئة القوى وتطويرها الى طريق عمل وكفاح .

ان البعد العروبي والعمق الثوري الشعبي مفهومان لا يجسدهما عدد المواطنين العرب ولا مساحة الارض العربية من المحيط الى الخليج ، بل يجسدهما عدد العرب المزجوج بهم في معمعان ممارسة الكفاح المسلح ، وبالمساحة التي يعيش عليها شعب واع ومنظم ومسلح ، يحمي مؤخرة قواته المركزة عندما يهاجم ، ويتحول الى محيط ثوري يغرق به العدو عندما تقتحم حدوده ، أي بالدائرة الجماهيرية التي تحولت ارادتها ومساهمتها النضالية من سلبية الى ايجابية . ان حرب الخامس من حزيران لم تكن حرب الجماهير الشعبية المسلحة المنظمة والواعية وانما كانت حرب مئات الالوف الموضوعة تحت السلاح من الجيوش النظامية . اما عشرات الملايين الاخرى فلم يكن امامها الا الجلوس الى الراديو والبكاء والنحيب ومن ثم الاستسلام .

ان فكر (فتح) في هذه النقطة بالذات يجمع بين الموقف الجذري من حيث المبدأ العام ويتجنب الغموض من حيث الاستنتاجات العملية . ففي بيان التوقيت نجد (ان الحدود الاقليمية بين الاقطار العربية ستزول من خلال التجربة المسلحة ، وسوف تتخطاها القوى الثورية لتتصل ببعضها بعضا كشرط اساسي لحماية الارض العربية وخاصة في المواقع الجغرافية التي لا تتوفر لديها الحماية العسكرية اللازمة . . . ان

١ ـــ الثالوث ، هو : أسلوب الحرب الملائم ، التعبئة الشعبية القصوى ، الرأي العام العالمي .

وجود حركة ثورية منظمة تستطيع تجسيد العمل المسلح بشكل واع وفاعل هو الذي يستقطب هذه القوى العربية ... وبذلك تصبح الحركة الثورية الفلسطينية المسلحة هي نقطة الالتقاء للقوى العربية وقاعدة لتوحيد جهدها من خلال ذلك ... وتلتقي لقاء واعيا لتحقيق هدف تحرير فلسطين ...)

النضال القطري الفلسطيني اذن نضال قومي التركيب والوجود ونقطة تجمع وتلاقي كل القوى الثورية العربية ذات الرؤيا الواضحة لمعنى الاستفادة من التناقض الاساسي . تلك الاستفادة التي طريقها المواجهة الدائمة للتناقض العدائي بيننا وبين الصهيونية ، لوضع الامة العربية أمام التحدي الكبير ، الحافز المغير لكافة مظاهر الحياة العربية من خلال ممارسة الثورة الشعبية المسلحة . اذ أنه فقط يمكننا أن نغير ذاتنا فيما نحن نحرر أرضنا . فوحدة الكيان ووحدة المصير ووحدة الارادة لا يمكن خلقها الا باذابة كل العوائق والسلبيات ، وهذا لا يتم الا عبر النضال المسلح من اجل تحقيق اماني شعبنا وانقاذ وجوده القومي المهدد ، الامر الذي له اسبقية حتى على الافواه الجائعة التي لا حل لجوعها عن غير هذا الطريق : هذه الحقيقة ادركتها (فتح) وكانت حجر الاساس في نظرية عملها منذ نشأتها ، حيث ولدت وهي مقتنعة تماما : ان المستقبل في الوطن العربي ليس في يد الحركة او الحزب الذي يملك البرنامج الاكثر تقدمية ، وانما في يد الحركة الوطنية التي ستعرف قبل كل شيء كيف تجلب الجماهير الى ممارسة الكفاح المسلح في ميدان المعركة الاساسي ، واقناعها بأن مشاكلها وأهدافها في الحرية والتحرر والوحدة والعدالة الاجتماعية لا يمكن أن تسوى وتحل حلا جذريا ، الا من خلال انهاء العدو ركيزة الامبريالية المادية ، اسرائيل .

لا يستطيع أحد الادعاء بأن مؤسسي (فتح) عندما وضعوا منهج العمل وضعوا أمامهم مقولة ماو الشهيرة (ان الذي يقرر طابع الثورة هو اعداؤها الرئيسيون من جهة، والقوى الثورية الرئيسية من جهة اخرى) . ولكن بدون شك ان الثورتين الصينية والجزائرية كانتا ملهمتين لفتح في هذه النقطة بالذات . يضاف الى ذلك ان الوضع الفلسطيني في هذه النقطة أقل تعقيدا وتداخلا منه في ثورة اخرى .

ان دراسة أنماط الانتاج بقصد تحديد النموذج الذي ينتمي اليه القطر ومن ثم دراسة خصوصيات هذا التكوين من خلال الاعتماد على التحليل الطبقي لتمييز موقع مختلف الطبقات الاجتماعية في النموذج لم يكن أمرا معقدا ، او بحاجة الى دقة لاستنباط النتائج من واقع الشعب الفلسطيني . فالاحتلال الصهيوني حطم الهرم الطبقي للشعب الفلسطيني ، فبفقدان الارض تحطم المجتمع وتقطعت أوصاله ووضع الشعب الفلسطيني في واقع نضالي مرير مستمر من اجل تثبيت وجوده والعودة الى ارضه . ومن هنا كانت القضية الاساسية المطروحة على حركة التحرير الوطني الفلسطيني هي تحرير الارض وانهاء الوجود الصهيوني التجسيد المادي للامبريالية بجميع مؤسساته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وهذا حدد تلقائيا الشكل الرئيسي للنضال على أنه الكفاح المسلح . هذه القضية هي التي قادت (فتح) الى القناعة ان تبقى حركة تحرر وطني قادرة على تجميع أوسع قطاع ممكن في قاعدتها بسبب خصوصية الوضع الفلسطيني . (فتح) حركة حللت المجتمع الفلسطيني بعد النكبة ودرست السلبيات والايجابيات في الوضع الاجتماعي للفلسطينيين والناتج عن تحول قطاع واسع منهم الى لاجئين يعيشون على هامش العملية الانتاجية وعن قيام الاحتلال الصهيوني لارضهم . ومن خلال ذلك التحليل استنتجت مدى الفعالية الثورية الكامنة في القطاع المتمرد من الشعب العربي ، وكون فلسطين هي القضية التاريخية للامة العربية في المرحلة الراهنة . ومن خلال ذلك

التحليل حددت المبادىء والاهداف والاسلوب(١): رافضة الوجود الصهيوني والوضع الجديد لشعب فلسطين ، والاسلوب العربي لمواجهة الوجود الصهيوني ونتائجه ، رافضة ذلك كله فكرا ، ومنذ عام ١٩٦٥ ممارسة بالبندقية .
ونظرا لايمان (فتح) بالنضال القطري فتقناعتها بأن هيكل الثورة العربية الواحدة هو محصلة لقاءات الحركات الوطنية في كل الاقطار العربية داخل اطار واحد ، واعتبار نفسها ليست البديلة للحركة الوطنية الاردنية وانما ترعاها وتشكل معها ، بحكم الظروف الملائمة ، المحور الاساسي للقاء الحركات الوطنية القطرية الاخرى . لهذه الاعتبارات كلها لا تجد سوى شعار واحد يتعلق بالارض طرحته (فتح) وهو «الارض لمن يحررها».
صحيح أن (فتح) كانت منذ البداية مدركة ان الثورة الفلسطينية هي ثورة العرب من أجل فلسطين . الا أنها داخل هذا الاطار من فهمها ، اعتبرت نفسها منذ البداية ممثلة للحركة الوطنية الفلسطينية فقط ، صاحبة الدور الاساسي ضمن اطار وحدة الحركات الوطنية العربية ، وبالتالي فهي ممثلة للفلسطينيين .

الحركة الوطنية الفلسطينية في اطارها القطري تمثل مرحلة تحرر شعب فقد كيانه الاجتماعي والسياسي ولم تعد عنده مشكلة فلاحين وعمال؛ لان فلاحيه وعماله لم يعودوا جزءا من الهرم الطبقي الذي تحطم بتشردهم . هذه الظاهرة ، يلقي كثيرا من الاضواء عليها اسلوب عمل الاتحادات النقابية العمالية والطلابية الفلسطينية ، والتي تجد نفسها عاجزة عن اعطاء الاولوية للمصالح النقابية لمن تمثلهم ، ليس بسبب العجز الذاتي ، وانما بسبب الواقع الموضوعي الذي يجعل من النقابات تنظيمات ذات مهام تعبوية سياسية بالدرجة الاولى .

ان الوصول الى مرحلة الاراضي المحررة كان يعتبر منذ البداية حلما جميلا بعيد المنال يتهم كل من يتحدث فيه بمزاولة احلام اليقظة ، وكان معروفا باستمرار في البداية ان (فتح) حذفت هذا الحلم من ذاكرتها مؤقتا .

الجماهير لا تؤمن الا بالعمل . وكل حركة او منظمة تفقد عنصر القدرة على وضع نظريتها موضع الممارسة والتطبيق تفقد الاتصال بالجماهير وستجد نفسها مجرد قوة ثورية لفظية تجتر الشعارات والمبادىء كمادة الهائية ، وتعجز بالتالي عن تكوين تجربة نضالية خاصة بها وتبقى ثورة في البرج العاجي ... انطلاقا من ادراك هذه الحقيقة حرصت (فتح) حرصا كبيرا على تأمين المناخ والظروف الملائمة لولادتها . واثبتت الايام ان فتح الى جانب وضوح هدفها التاريخي — تحرير فلسطين — وما يحمله من فعالية ثورية تؤهله ليكون محورا للثورة العربية ، فانها قد وعت طبيعة الخطوات العملية والتكتيكية الضرورية لتأمين ولادة ثورة غير ميتة بحيث لا تكون الرصاصات الاولى رصاصات يتيمة.
وتمثل هذا الوعي باختيار سوريا ، الوطن العريق التقليدي للنضال القومي العربي بالاضافة الى موقعها الاستراتيجي ، قاعدة للانطلاق . ومن اجل ضمان النجاح في القدرة على افشال عملية الاستيعاب ، وعلى الحفاظ على حرية التصرف ، تلك المعركة السياسية التي كان واضحا منذ البداية انها ستكون ضارية بمجرد الوقوف على الارض وستزداد ضراوة كلما رسخت اقدام الثورة الجديدة ، فقد رفعتا — فتح — منذ البداية شعارين اساسيين يجعلان — فتح — قادرة على ممارسة الصمت الواقي وتبريره ، والى عدم دفع الانظمة العربية الى الدخول في معركة جدية تشعر فيها الانظمة انها تخوض معركة هي فيها « قاتل او مقتول » . هذان الشعاران كانا شعار عدم التدخل في الشؤون

---

١ — راجع في نهاية المقال : الاساليب والاهداف والمبادىء لحركة (فتح) .

المحلية للدول العربية (وليس الداخلية كما حرف الشعار) وشعار الجبهة العربية المساندة .

اعلنت (فتح) بملء صوتها وحتى يسمعها الجميع انها لن تتدخل في الشؤون المحلية لاي دولة عربية . ان هذا الشعار « يستهدف التفريق بين النظام والشعب . النظام الذي تمثله الدول والشعب الذي نحن جزء منه . نحن لا نتدخل بشؤون الانظمة بمعنى اننا لا نسعى الى الحكم ولا نريد ان نصل اليه ولا نتآمر على حكم عربي لصالح حكم اية فئة أو جماعة ولكننا نعيش كل احداث الامة العربية بقلوبنا وافئدتنا ومستعدون ان نناضل وسنناضل من أجل انتصار هذه ليتحقق أملها الكبير ... »(١). وطرحت (فتح) شعار الجبهة المساندة رافضة كلمة المشاركة عنقصد، ولهجته غير المعادية، منالغموض بحيث لا يثير اي اعتراض .. (الجبهة العربية المساندة في راي حركة فتح هي الامة العربية كلها ... لان هنالك تداخلا فعليا وواقعيا بين القضية الفلسطينية والقضية العربية ، بل هي في الواقع قضية واحدة ... يجب ان تعرف الامة العربية انها مشاركة للشعب الفلسطيني بالمال والسلاح والرجال في حربه ضد الاحتلال الصهيوني ... ان المرحلة القادمة سوف تتسع لاخواننا العرب ليقفوا مع اخوانهم الفلسطينيين على جبهة القتال داخل أرضنا المحتلة ...)(٢).

صحيح ان (فتح) لم تكن هي خالقة فكرة الكفاح المسلح ضد اسرائيل ، بيد ان (فتح) كانت أول من جعل هذه الفكرة المجردة مهمة عملية وشعبية ، والسبب ليس هو امتلاك (فتح) لسر التحليل الصحيح وانما بسبب قدرتها على طرح منظومة من الشعارات تشكل بمجموعها منهج عمل يضمن الا تضع الثورة الناشئة نفسها في مأزق لا مخرج منه . والشعاران المذكوران هما شعاران استراتيجيان خلقا لفتح مجالات تكتيكية واسعة . فالطوباويون طوباويون كما يقول لوكاش ، ليس بسبب الهدف الذي يضعونه نصب أعينهم وانما بسبب عجزهم عن ادراك الخطوات اللازمة لتحقيقه ، هذه الخطوات التي تكمن في ماهية الهدف بالذات . ان هذه الحقيقة هي التي تفسر لنا لماذا استطاعت (فتح) بتواضع أن تخوض تجربتها الجماهيرية الخاصة بها بينما بقي كثيرون ممن يرفعون راية الثورية اللفظية بلا جماهير . فالفرق بين الثوري القادر والعاجز لا يكمن في فهم دروس الماضي واستنتاج العبر منها وانما بالقدرة على الا يكون طوباويا ، وذلك بوضع اهداف المستقبل موضع التنفيذ . وهذا يتطلب تركيب معادلة معينة لا تتنازل عن اتجاه الضربة الرئيسية بينما تتغاضى عن عمد عن قضايا اذا كانت ضرورية لحماية اتجاه الا انها لا تتيح توجيه الجهود باتجاه الضربة الرئيسية . وهذا هو دور شعار عدم التدخل والجبهة المساندة في معادلة الثورة الشعبية المسلحة الطريق الوحيد لتحرير فلسطين .

الثورة الفلسطينية ، سيكتب التاريخ في يوم من الايام تجربتها تحت باب ثورة المستحيل. الفييتناميون عندما يعددون مصاعب ثورتهم يتحدثون عن صغر مساحة الارض ، فكيف بثورة لا تقف على الارض اساسا .

لقد ولدت الثورة الفلسطينية رافعة شعار النضال القطري غير مدعية بأنها ستحمل اعباء الامة العربية كلها على كتفيها، وان كان نضالها القطري مدخل اساسي لحل مشاكل الامة العربية . ولدت وهي تحمل معها ازمة القاعدة الآمنة والمنطلق ، لانه لم يكن بامكانها الا ان تولد من الخارج في وسط عقلية عربية متخلفة شعارها (تكفيني صنعاء).

---

١ — دراسات وتجارب ثورية ، رقم ١٢ ، ص ٤ — ٥ .

٢ — دراسات وتجارب ثورية ، رقم ١٢ ، ص ١٠—١١ .

هذا الواقع يفرض على كل منهج عمل ان يتبنى في اجواء الولادة تكتيكات صحيحة تضمن الاستفادة من الحد الاقصى من القوى الثورية الفاعلة لصالح الثورة وتفكيك الحد الاقصى من القوى العدوانية المضادة التي يمكن تفكيكها . وتحييد الحد الاقصى من القوى التي لا يمكن دفعها الى جانب الثورة ، ولكن يمكن الحيلولة بينها وبين الوقوف في صف القوى العدوانية .

ان التمرد الفتحوي على الواقع العربي الفاسد والرفض بالممارسة المسلحة للاستراتيجية العربية عام ١٩٦٥ فرضا على (فتح) العمل السري من جهة ، وضرورة استقطاب الجماهير من خلال مخاطبة حدسها المباشر من جهة أخرى . ولقد سلكت (فتح) لذلك طريق منع الدوريات الاولى والمتجهة من الضفة الغربية او الشرقية الى الارض المحتلة من الاصطدام بالجيش الاردني حتى وان اطلقت النار عليهم من قبل الجيش . وبالرغم من أن أول شهيد للثورة الفلسطينية ـــ احمد موسى ـــ قد قتل على يدي الجيش الاردني الا أنها اضافت الى تلك الصورة التي هزت يومها الضمير العربي ، أضافت الى ذلك صراخها بأنها لا تنوي التدخل في الشؤون المحلية للدول العربية ، لتجسد امام الجماهير ان من يضطهدونا يقفون في صف اسرائيل وضد التحرير والجماهير وهذا أمر ما كانت (فتح) قادرة على تحقيقه لو أنها أضفت على نفسها منذ البداية صفة الاله أطلس الذي يحمل على ظهره مستقبل الامة العربية والمدافع عن كل المظلومين والمضطهدين في العالم .

كان طرح منظومة الشعارات (الفتحوية) بمثابة التجاوز الفكري للاستراتيجية العربية (الناصرية او الحزبية القومية) في الساحة الفلسطينية ، الساحة القائدة لكل الساحات الاخرى مهما بلغت قيمتها وأهميتها . الا ان التجاوز الكبير الذي حققته (فتح) هو قدرتها على تجاوز ذاتها داخليا ، عندما تمكنت من نقل امكانياتها الذاتية المادية والفكرية من مرحلة الامكان الى مرحلة الفعل ، مرحلة البدء بتفجير الثورة . مرحلة الانتقال من النظرية الى التطبيق ، ذلك الانتقال الذي بقي رأسمال الامة العربية عندما تحطمت كل بنادق الانظمة العربية أمام البندقية الاسرائيلية الا بنادقها بقيت صامدة حتى تآمر الصهيونيون العرب عليها فتقدم النظام الاردني يلعب دور الحجاج ومن ورائه الخلفاء .

لقد كانت ولادة الثورة الفلسطينية عملا أذهل كل المناضلين العرب حتى ان احد المفكرين في لبنان كتب يقول (اليس من المفاجآت الحرية بالانتباه ، ان يخرج عمل تاريخي ضخم كالعمل الفدائي ، بعد كل هذه المرحلة التي قطعها العرب في السير تحت رايات الثورة والاشتراكية من أوساط غير يسارية في الاصل ..)(١) .

هذا هو الاطار النظري العام لحركة فتح . ولكن ترى ... كيف جرى التطبيق ؟ .

---

١ ـــ منح الصلح ، مقابلة في مجلة **مواقف** ، العدد ٤ ، ص ١٥٥ .

خواطر في العنف الفلسطيني

الدكتور حسام الخطيب

اثارت حادثة اغتيال رئيس الوزراء الاردني وصفي التل (القاهرة ١٩٧١/١١/٢٨) من جديد مشكلة الوسيلة والغاية ، مشكلة العنف المشروع وغير المشروع . وحتى لا يقع التباس بين المفهوم الحقوقي الاصطلاحي لهذه الكلمة (المشروع) وبين معناها العام فانه لا بد من التأكيد باديء ذي بدء على أن الكلمة مستعملة هنا بالمعنى الاعم : اي المقبول عرفا عند الناس . فمثلا لو أن رجلا كوصفي التل لقي مصرعه في ساحة قتال أو في صراع مكشوف وجها لوجه لكان رد فعل الرأي العام مختلفا بنسبة كبيرة عن رد الفعل المتحفظ الذي ظهر في الصحافة العربية ورد الفعل المشوب بالحيرة الذي تجلى عند رجل الشارع (هل يظهر تحبيذه ام يضبط مشاعره ؟) . ومن الناحية المنطقية الخالصة يمكن لكل من يقرأ سجل حياة الرجل كما نشر في الصحافة العربية ان يستنتج طبيعة رد الفعل الذي يتوقع ان يثيره لدى الرأي العام اختفاؤه عن مسرح الاحداث ، ولكن مع ذلك قرأنا في تلك الصحف أحيانا استنكارا مكشوفا وأحيانا مبطنا لعملية الاغتيال .

ان نظرة فاحصة لجميع التعليقات التي استنكرت العملية بشكل او بآخر تفيد بأن الاستنكار كله انصب على **الاسلوب** لا على النتيجة ، وهذا بالضبط ما يدفعنا الى طرح الموضوع من هذه الزاوية : العنف المشروع والعنف غير المشروع وامتداداتهما . وحتى لا يبدو الكلام اقرب الى التجريد فلنسارع الى القول : ان التعليقات التي استنكرت الحادثة بالذات اوردت حججا مختلفة يمكن تلخيصها بالاتجاهات التالية : ١) رفض اسلوب الاغتيال السياسي من حيث المبدأ ، ويتفاوت اصحاب هذه النظرة بين التصلب العقائدي (الدوغمائية) وبين التذبذب باتجاه رفض الحادثة على اساس نتائجها وعواقبها. ٢) لوم الشباب الاربعة لاستغلالهم كرم الضيافة في قطر عربي يعد المركز الاساسي للنشاط العربي العام ويفترض فيه أن يؤمن حرية الحركة والراي (والوجود ايضا) لكل من يفد اليه ولا سيما بمهمة رسمية في ظل الجامعة العربية . ٣) انتقاد الحادث من وجهة نظر ذرائعية (براغماتية) على اعتبار ان هذا الحادث يؤدي الى تعقيدات كثيرة وقد يعود بالضرر على الفلسطينيين المقيمين بالاردن ، بل اعتبره بعضهم — من ناحية النتيجة — نسفا للجهود التي بذلت في مجلس الدفاع لرأب الصدع العربي ودفعه الى مواجهة العدو بشكل موحد او شبه موحد .

وبالطبع لا يمكن ان تكتمل الصورة الا باستيعاب الدوافع التي تذرع بها الشبان انفسهم، وهناك من الدلائل ما يشير الى أنهم صادقون ، فسذاجة أعترافاتهم واسلوبهم غير المحتاط في تقديم انفسهم للشرطة وللمحققين وللراي العام يوحيان بنسبة كبيرة من العفوية والصدق في موقفهم .

ماذا يقول هؤلاء الشبان ؟

دونما تدقيق في التفصيلات التي قد يكون فيها تزيد او تحريف يعتبر الشبان الفلسطينيون

وصفي التل مسؤولا مباشرا عن احداث ايلول الدامية وينسبون اليه اوامر بالابـــادة الجماعية للفلسطينيين ، وليس من المستبعد كما يقول احد هؤلاء الشبان ان بعضا من اقرب أقربائه كأمه او اخته او ابيه تعرض لعملية سحق نظيعة من الدبابات امام عينيه ، فاذا أضفنا الى ذلك ان الشبان الاربعة نسبوا الى وصفي التل أنه هو الذي اصدر الامر بقتل المناضل (ابو علي أياد) ، رئيس فرقتهم ، تبين لنا ان هناك من الاسباب النفسية والعاطفية ما يكفي لدفع هؤلاء الشبان ـ سواء أكان تحليلهم لدور التل صحيحا تماما أم تقريبيا ـ الى السعي وراء الثأر بأية طريقة ودون التفكـير بالعواقب السياسيـة بالنسبة للقضية التي يحاربون من اجلها أو بالعواقب الفردية بالنسبة لمصيرهم (مـا داموا مجرمين في نظر القانون) .

ولكن هل تشكل الاسباب العاطفية والسايكلوجية غطاء شرعيا كافيا لمثل هذا العمل ؟ قطعا لا . ولسبب بسيط هو ان هذه الاسباب غير خاضعة لمقاييس عامة ، وهي ذات صفة فردية انفعالية غير متبصرة وغير متوازنة . وربما غير منسجمة دائما مع الهدف المقصود منها . ولكن هذا لا ينفي أنها انسانية اي ناتجة عن **دافع انساني مفهوم تماما ،** وكذلك **متوقعة** اي ان الانسان يجب ان لا يستبعد حدوثها لان العالم ، بكل بساطة ، ليس عقلا . والمشكلة هنا تختلف تماما عن مشكلة القتل السياسي المدبر من قبـل هيئة او منظمة والذي يكون فيه الفرد مجرد منفذ لاوامر اعلى منه قد يفهمها ويقدرهـا ولكنه لا يستطيع ان يدرك بالضبط لماذا يختار هو بالذات ولماذا يطلب منه بالذات ان يكون اليد القذرة والضحية في الوقت نفسه (الايدي القذرة لسارتر) . اننا هنا ازاء وضع انساني (حار) لا (بارد) ، ازاء وضع اشبه بأوضاع الثأر المباشر عند اجدادنا العرب ، وضع نابع من الداخل لا مفروض من الخارج (التنظيم) ، وضع ينتظر ان تكون له ذيول وامتدادات لان الظروف والملابسات الحادة التي أوجدته قائمة ومستمرة الى حـين .

هنا بالضبط تكمن الخطورة وهنا بالضبط نصل الى بيت القصيد : امتدادات العنـف الفلسطيني .

ان التسلسل المنطقي للكلام يقتضي البدء بشرح المقصود من التركيز على هذه النقطـة ولكن هناك خواطر تستبق هذا الشرح وتضطر المرء الى اعطائها الاولوية . قبـل الانطلاقة الاولى (١٩٦٥) للثورة الفلسطينية بأمد قصير قابل مندوب مجلة «فلسطيننا» أحد زعماء الثورة الجزائرية وتحدث معه حول التحسبات التي تدور في أذهان القـادة الفلسطينيين بالنسبة للانطلاقة ولا سيما خوفهم من عواقب تحرك اسرائيلي استعماري انتقامي ضد الدول العربية للرد على التحرك الفلسطيني ، قال الزعيم الراحل : « والله لو كان العالم برميلا من البارود لحق لكم ان تفجروه » .

وفي جلسات شخصية لكاتب هذه السطور مع كثير مـن الاوروبيين المهتمين بالقضية الفلسطينية او ـ على الاصح ـ بما يجري في الشرق الاوسط ابدى معظمهم استغرابه (بعضهم باعجاب وبعضهم باستنكار) لغياب العنف الفلسطيني التلقائي مع وجـود الاسباب النفسية والعاطفية الكافية لتوقع مثل هذا العنف .

لنعترف اولا بصحة هذه الملاحظة ان ما ظهر من العنف غير المنظم عند الفلسطينيين اقل بكثير مما يتوقع من شعب نام مر بظروف قاسيـة جدا وتجددت نكبتـه باستمـرار خلال ربع قرن وتعرض لالوان شتى من الاهانة والذل على يد الاعداء وكذلك على يد الاهل وذوي القربى في حالات كثيرة . وبالنسبة لموضوع الاغتيال بالـذات انحصرت الحالات ذات الطابع الوطني بحوادث معدودة جدا بعد سنة ١٩٤٨ : اغتيال الملـك

عبدالله في القدس سنة ١٩٥١ . اغتيال هزاع المجـالي سنة ١٩٦٠ ، اغتيال وصفي التل سنة ١٩٧١ ، تضاف الى ذلك بعض المحاولات غـير الناجحة لاغتيال افراد من الاسرة الهاشمية . أما فيما عدا ذلك فيبدو الفلسطينيون شعبا عاقلا ومنضبطا وصبورا، اذ قلما سمعنا بقيام مظاهرات انفعالية في هذه المنطقة العربية او تلك وقلما سمعنـا بردود فعل عاطفية جماعية او فردية ضد وضع اضطهادي ما . بل ان حوادث الاغتيال نفسها تشير الى اتجاه معين : الاسرة الهاشمية وحاشيتها ، اي بمعنى من المعاني : المنافس الاخر على كيان فلسطين او المقتسم الاخر او طرف الاحتكاك المباشر في وجه التحرك الفلسطيني . وبتحديد ادق ظهر العنف الفلسطيني الداخلي مصمما وعنيدا في الحالات التي تضمنت خروجا واضحا على عناصر الموقف العربي او تحديا مباشرا للوجود السياسي الاجتماعي للشعب الفلسطيني .

هل نحن اذا ازاء ظاهرة خنوع وانحلال ام ازاء ظاهرة وعي وتبصر ؟ يدل تاريخ الشعب الفلسطيني انه عرف دائما عدوه وعرف دائما ضخامة عدوه ، ولم يكن ذلك نابعا على الدوام من وعي سياسي تام ولكن من وعي عام — ربما مبهم — بالمأزق الوجودي الذي هوى فيه الشعب الصغير طوال نصف القرن الماضي ابتداء من نهاية الحرب العالميـة الاولى . وخلال هذه الفترة كان نضال هذا الشعب يبرز في شكل قمم من النضـال المشترك (المشروع) : مرحلة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ، مرحلة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، مرحلـة ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، مرحلة ١٩٦٥ — . وقد رافق هذه التحركات المنيفة المشتركة حوادث من الاغتيالات الداخلية غير مستندة الى معيار واضح واهداف متماسكة ، وفيما عدا ذلك كان الشعب الفلسطيني دائما اميل الى تجنب ردود الفعل الانفجارية او حـوادث العنف غير الجماعي وغير الهادف . وان عدم توصل هذا الشعب الى نتائج ملموسـة حتى اليوم لا ينهض حجة ضد هذه الحقيقة ، ذلك ان التحدي كان دائما اكبـر مـن امكانيـاته .

ولكن يجب ان لا يتوقع المرء استمرار هذا الضبط الى ما لا نهاية ، ومن المستبعد ان تقف المسألة عند هذا الحد لان الظروف السياسية الخاصة للشعب الفلسطيني والظروف العامة للقضية تسير في خط بياني منحدر باستمرار . وان حادثة اغتيال وصفي التل حين نوضع ضمن اطارها العام تعتبر مؤشرا لما يمكن ان ينجم عن هذه الظروف السيئة من ردود فعل انفجارية .

ولا يفهمن احد من هذا الكلام أنه يتضمن محاولة لتسويغ الحادثة بحد ذاتها او المرافعة لصالح مرتكبيها . انه محاولة لفهم أصح لطبيعة الموقف . وان هذه المحاولة مطلوبـة بوجه خاص من أصحاب الحل والربط في الوطن العربي والا فان الوضع سيتفاقم ويتعقد وقد يتحول الى نهاية فاجعة .

وبوجه عام يمكن تلخيص عناصر الوضع على النحو التالي :

أولا : ان الشعب الفلسطيني بعد الثورة يختلف من نواح كثيرة عن الشعب الفلسطيني قبل الثورة : **فمن الناحية النفسية** : كان الشعب صابرا يترقب ويدبر ، أما الان فهو في مواجهة الواقع بكل مرارته وقسوته . كان قبل الثورة مستمرا في دفع ضريبة التخلي القهري وغير المقصود عن الارض ولكنه بعد الثورة حقق التبرئة المنشودة واصبح بامكانه ان يلقي اللوم على الاخرين . ولقد زرعت احداث ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ المرعبـة جرحا بليغا في قلبه أعمق من جرح ١٩٤٨ ، ليس لانه وقع تحت وطأة ظلم ذوي القربى فحسب بل لان كارثة أيلول حلت به وهو في حالة توقعـات كبرى وتفتح وتحفـز ووعـي .

ومن الناحية السياسية : كان قرار الشعب الفلسطيني في منتصف الستينات ان يتولى بنفسه شق طريق المعركة تحولا تاريخيا كبيرا لا يمكن أن يتصور المرء امكان التراجع عنه ، وينتج عن ذلك ان التماس مع حكام الوطن العربي ولا سيما على النطاق الاردني الفلسطيني سيتركز حول هذه النقطة وقد تفوق حدته واعتباراته حدة المعركة المنتظرة مع العدو واعتباراتها لسبب بسيط هو اعتقاده ان المعركة نفسها غير ممكنة الوقوع على الشكل الجذري المطلوب قبل تسوية هذه المشكلة .

ومن الناحية العملية : اتصلت اجزاء الشعب المشتت بعضها ببعض وتلاقت وتفاهمت على موجة مشتركة بحيث اصبح يخفق بنبضة واحدة من شأنها ان تتحكم من الان فصاعدا بوضعه العام في الدول العربية المضيفة ، وربما دفعته الى التصرف من خلال المصلحة الفلسطينية المشتركة على نحو قد يخل بالوضع الاجتماعي والسياسي في اقطار عربية كثيرة .

ثانيا : من الضروري جدا ، لصالح الوضع الفلسطيني والوضع العربي في وقت واحد ، أن يستبعد العنف الرسمي كحل لمواجهة العنف الفلسطيني المتوقع . وتقول القاعدة التربوية ان كل ظاهرة تعالج على أساس تحليل مسبباتها . وباختصار يمكن القول ان العنف الفلسطيني ناتج عن الضغط السياسي وتضييق الخناق على الحركة الفدائية ابتداء من احداث أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ وما تبعها من اقفال الجانب الاكبر من الحدود العربية للمنطقة المحتلة في وجه الحركة الفدائية . وينتظر المرء ان يزداد العنف الفلسطيني اتجاها الى الداخل بما يتناسب طردا مع ازدياد الضغط . لقد تربى في ظل الثورة جيل فلسطيني جديد ثائر يختلف تماما في موقفه من العالم عن اللاجئين الفلسطينيين الذين استقبلتهم البلاد العربية بعد سنة ١٩٤٨ والذين كانوا يعانون من وطأة الصدمة بشكل جعلهم اكثر طواعية للوضع العربي العام . وأن الجيل الفلسطيني الجديد جيل ثوري وعنفي بكل معنى الكلمة ، وهو غير مستعد لان يطيع احدا بما في ذلك قيادته المباشرة بعد أن مارس بنفسه حرارة الكفاح المسلح في الارض المحتلة او الكفاح السياسي على الساحتين العربية والعالمية . وان مواجهته بالعنف سوف تدفعه الى مواقف وتصرفات اكثر خطورة . وكل من يخطر له الشك في هذه القاعدة مطالب بأن يتفهم العلاقة الدياليكتيكية بين عنف الحاكم وعنف المحكوم في قطاع غزة (مع اختلاف التشبيه اختلافا هائلا بين بلد عربي واخر وعدم انطباقه ابدا على اقطار عربية معينة ولا سيما الاقطار المتوجهة بجد لخوض المعركة) . وتقول تجربة غزة أن عنف الحاكم يلقى الان جوابا واحدا من المحكوم وهو مزيد من العنف .

ثالثا : واذن فقد عرف الشعب الفلسطيني طريقه الى العنف بعد سلسلة من التجارب التاريخية المرة ، وهذا العنف حتما في مصلحة المعركة التي تخوضها الامة العربية ضد العدوان الصهيوني الامبريالي بل هو ورقة ذات اهمية مركزية في الصراع الذي تتصاعد حدته يوما بعد يوم . ويجب استغلاله وتوجيهه باتجاه المعركة وافساح المجال ليأخذ دوره الفعال والطليعي . ان دوافع العنف الفلسطيني انسانية وسياسية ومسوغة ضمن منطق المرحلة التاريخية ، ورد الفعل السليم تجاهه هو اعطاؤه الفرصة الكافية لكي يتبلور وينظم نفسه ويأخذ مجراه الطبيعي باتجاه العدو المحتل . واذا لم يتم خلق جو من الحرية للعمل الفلسطيني المسلح فان الامر سيؤدي الى نتائج وخيمة على المستويين العربي والفلسطيني . ويقول التاريخ ان الشعوب تصل في ظروف زمنية معينة الى مرحلة الانفجار نتيجة للضغوط التي تمارس عليها وتتخذ هذه المرحلة شكل احتكام كامل الى العنف يسوده جو من (روح الجماعات) تذوب فيه اعتبارات الخوف على المصير الفردي او الجماعي وتظهر فيه اندفاعات من مستوى غير مألوف في الظروف

العادية ، وقد يتاح لهذا العنف نوع من التنظيم والاساس الطبقي او القومي فيكون عند ذلك ثورة ويتخذ الاندفاع شكلا بطوليا ، وقد يتم هذا الاندفاع بشكل عفوي غير منظم وغير واضح الهدف وعند ذاك يتخذ طابع المغامرة الفردية أو طابع الفتنة العامة .

ان مشكلة الشعب الفلسطيني اعقد من هذين النوعين فقد مارس هذا الشعب النوع المنظم من العنف وانتهى به الامر الى مجزرة — مأساة أفدح ما فيها انها لم تتم على يد العدو القومي المباشر ، وانها استهدفت منعه من ممارسة حقه المشروع في الكفاح المسلح ضد الغاصب المحتل ، والى ان يتبلور العنف في شكل جديد ادق تنظيما واكثر تحسبا وحيطة فان هناك احتمالا شديدا لظهور مرحلة من العنف الفردي او العصابي غير المنظم ، من شأنها — كما يعلمنا التاريخ — ان تتناول المؤسسات القائمة واصحاب العلاقة المباشرة وغير المباشرة، والمستحقين وغير المستحقين ، وان التداخل الفلسطيني العربي في معظم اقطار المشرق العربي سوف يزيد الامر سوءا ويؤلف جوا مؤاتيا جدا للانزلاق في الفوضى واللا تمييز .

وازاء هذا الاحتمال الذي يبدو للمراقب المدقق غير بعيد لا يلوح في الافق سوى اختيار واحد ، وهو أن تعمل المنطقة العربية على اتاحة فرصة كافية للجيل الفلسطيني الثائر كي ينظم نفسه ويمارس العنف المشروع بحرية ودون تأثيرات وضغوط ، على أن يرافقه تصور عربي مشترك (بقدر الامكان) لمواجهة التحدي المصيري وخوض الصراع الذي لا بد من خوضه .

احاديث مع قادة المقاومة حول مشكلات العمل الفدائي الفلسطيني

(الحلقة الثالثة)

(١) سامي عطاري
(٢) الدكتور عبد الوهاب الكيالي

تتابع « شؤون فلسطينية » في هذا العدد لقاءاتها مع بعض قادة حركة المقاومة الفلسطينية ، لمناقشة القضايا الراهنة التي يواجهها العمل الفدائي ، وكانت قد قابلت في اعداد سابقة كلا من الاخوة خالد الحسن ، جورج حبش ، صلاح خلف ، نايف حواتمه . وهي تقابل في هذا العدد الاخ سامي عطاري، امين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وأحد المسؤولين الرئيسيين في طلائع حرب التحرير الشعبية (قوات الصاعقة) ، والدكتور عبدالوهاب الكيالي ، احد كبار مسؤولي جبهة التحرير العربية . وستواصل شؤون فلسطينية في اعدادها القادمة نشر لقاءات مع عدد آخر من قادة المقاومة ، حيث يكون القارىء في النهاية أمام خريطة واضحة لكافة القضايا المطروحة والردود عليها ، آملين ان يسهم ذلك في توفير الوضوح اللازم لمواجهة متطلبات المرحلة المقبلة من النضال الفلسطيني الذي تكتنفه حاليا صعوبات جمة يلعب فيها الوضوح دورا اساسيا في صمود الجماهير أمام هجمات التصفية .

الحديث الاول : مع الاخ سامي عطاري

من المهم لحركة المقاومة الفلسطينية ان تناقش بتوسع قضاياها الراهنة . ولكن من المؤكد أن هذه المناقشة لا يمكن أن تجري بجدية الا على ضوء مناقشة الملامح الاساسية للتجربة الماضية ، ونقاط الضعف فيها . على ضوء ذلك ما هو تقييمكم للقضايا الاساسية التالية :

أ ــ المرحلة السابقة :

الى أي حد نجحت حركة المقاومة في وضع صيغ ملائمة لتحقيق قضية الوحدة الوطنية . وما هي الثغرات الاساسية في التجارب السابقة .

لو عدنا الى قرارات المجالس الوطنية الفلسطينية السابقة في هذا الصدد وأخص بالذكر المجلس الوطني التاسع الاخير لوجدنا ان جميع القرارات التي أتخذت كانت تمثل بالنسبة لنا حدا أدنى قبلنا به وعملنا جاهدين من أجل وضع هذه القرارات موضع التنفيذ الا أننا وللظروف التي احاطت بمجمل مسيرتنا بدءا باحداث جرش والاحراش ومرورا بمؤتمر

جدة وانتهاء بمقتل وصفي التل احداث أثرت جميعها بوضع القيـادة السياسية ممثلة باللجنة التنفيذية ، وبالرغم من ان بداية هذه اللجنة كانت بداية أمل وعمل وتطلع الا انه لم يعد خافيا على أحد الاوضاع الحالية التي تمر بها اللجنة التنفيذية مع هذه الاوضاع التي تتنافى مع منطق الحرص على أية صيغة لقاء جبهوي وتتنافى مع منطـق جماعية وديمقراطية القيادة . وسبب ذلك يعود الى الفردية لدى بعض فصائل حركة المقاومة ومحاولة الانفراد بالعمل الفلسطيني متجاهلة أبسط قواعد اللقاء الجبهوي . ونأمل ان تنقشع هذه الغيوم ويسود المنطق الصحيح منطق جماعية القيادة .

اما عن التجارب السابقة بدءا من تجربة الكفاح المسلح ومرورا بالقيادة المـوحدة التي كانت أثرا من آثار صدام ١٠/٢/١٩٧٠ ، مـع السلطـات الاردنية وانتهـاء باللجنة المركزية ، أريد ان اقول في البدء أنها جميعا كانت محاولات على طريق قيام جبهة وطنية ذات برنامج عمل واضح ومحدد او على الاقل هكذا كنا نريد لها ان تكون لان جملة هذه المحاولات كان من الممكن تطويرها وتثويرها لو سادت فيها روح الجماعة الديمقراطية . ولكن الثغرة الرئيسية في جميع هذه المحاولات انها جاءت لهاثا وراء الاحداث والازمات وسرعان ما كانت تنتهي عند نهاية مبرر قيامها أي أن هذه التجارب جميعها كانت وليدة ظروف فرضت نفسها على حركة المقاومة ولم تكن نابعة من وضوح الرؤيا لدى فصائل هذه الحركة او بعضها على الاقل ... فكثيرا ما كان انضمام بعض الفصائـل الى هذه الصيغة او تلك وخروجها منها كيفيا وبدافع حماية النفس .

هل استطاعت حركة المقاومة ان تقيم علاقات وثيقة مع الجماهير الفلسطينية على صعيد الحشد والتنظيم والتعبئة السياسية ؟

الجماهير الفلسطينية هي التي اندفعت نحو حركة المقاومة باعتبارها الامل الذي راود هذه الجماهير منذ نزوحها الاول وباعتبار ان الجمـاهير الفلسطينية التي تلقت سلسلة الضربات تولدت لديها قناعة لا يساورها أدنى شك بأنها يجب ان تحمل السلاح لتقف في الخندق الاول في مواجهة العدو الصهيوني ، على ان الاطلاق هنا ليس المقصود بحد ذاته بل كان هناك الكثير من جماهيرنا الذين اندفعوا نحو حركة المقاومة بدافع ردة الفعـل العاطفية من جهة والحقد على الانظمة العربية وعلى النظام الاردني بصورة خاصة من جهة اخرى لانها لم تستطع ان تنتصر في معركة واحدة او حتى أن تفي بوعـد واحد من الوعود التي قطعتها على نفسها تجاه شعب فلسطين .

هذا المد الجماهيري لم تستطع حركة المقاومة ان تستوعبه وان تصبه في المسار الصحيح الذي كان ينبغي ان تصب جميع الطاقات فيه وذلك يعود الى ان هناك خلافا بين فصائل المقاومة نفسها على قضايا أساسية كثيرة وعلى جانب كبير من الاهمية ، كرفـع شعار عدم التدخل في الشؤون الداخلية للانظمة العربية ، وطبيعة العلاقة القائمة بين فصائل المقاومة والانظمة العربية وكيف يجب ان تكون ، وعلاقة حركة المقاومة بحركة التحـرر الوطني العربية .

الخلاف على هذه القضايا الاساسية بالاضافة الى عدم صدق فصائـل المقاومة في طرح وجهات نظرها مع الجماهير وتصوير كـل فصيل لنفسه على انه وحده يمتلـك الرؤيا الصحيحة ، بالاضافة الى ممارسة عمليات التجريح علنا لبعضها بعضا كان سببا في انفضاض بعض الجماهير الفلسطينية من حولهـا . على أن احداث الاردن الاخيرة رغم ضراوة الهجمة وحجم المؤامرات الهادفة الى تصفية الثورة والتي كانت برأي الجماهير الفلسطينية حصيلة ونتاجا لعمل المقاومة اليومي وتخلي هذه الفصائل عن جماهيرها على الساحة الاردنية كان سببا في عملية الانفلاش التي تعاني منها الجماهير اليوم .

وباختصار فان عدم قدرة فصائل المقاومة على الوصول الى برنامج عمل محدد وموحد يمثل الحد الادنى لتطلعات الجماهير الفلسطينية كان سببا رئيسيا في عدم قدرتها على اقامة علاقات وثيقة معها بالمستوى الذي يجب أن يكون .

في العلاقة مع الجماهير الاردنية تخصيصا ، ما هي الخطوات التي انجزت وما هي نقاط الضعف التي برزت ، وساعدت النظام الاردني على استغلال وتعميق النزعات الاقليمية في الاردن ؟

الجماهير الاردنية جزء من الجماهير العربية اندفعت هي الاخرى نحو حركة المقاومة بردة فعل عاطفية اعتقادا منها ان حركة المقاومة هي بارقة الامل التي يمكن ان ترد لامتنا العربية كرامتها بعد ان منيت بسلسلة الهزائم التي كان آخرها هزيمة الخامس من حزيران . على ان الجماهير الاردنية التي تعرضت الى أبشع صنوف القهر من النظام الهاشمي كانت تؤمن أن عملية تحرير فلسطين لا بد و أن تكون مرورا بعمان مما يساعدها على الخلاص من نظام حكم عميل متسلط ابتليت فيه . لكن الذي أصاب الجماهير الاردنية هو نفس الذي أصاب الجماهير الفلسطينية حيث شعرت بأن حركة المقاومة بجميع فصائلها غير صادقة بطرح قضاياها أمام هذه الجماهير مما جعلها تنكمش شيئا فشيئا .
على ان نقطة الضعف الرئيسية هي ان الجماهير الاردنية قد فوجئت بأكبر فصائل حركة المقاومة تطرح شعار عدم التدخل في الاوضاع الداخلية للانظمة العربية ومنها النظام الاردني وهي أي الجماهير الاردنية التي كانت مقتنعة بأن قضية شرق النهر وغربه هي قضية واحدة باعتبارها كانت تشعر باستمرار بأن هناك سلطة غريبة على كاهلها .
هذا من جهة . ومن جهة أخرى فان الامر الاكثر خطورة ان الثورة الفلسطينية ايضا ممثلة بأكبر فصائلها قد بنت التنظيمات النقابية والمهنية الاقليمية مما أدى الى تعميق النزعات الاقليمية في الاردن وشل فعاليتها بشرذمتها وهي التي خاضت نضالا طويلا مشتركا ضد النظام اضافة لذلك كله منذ انطلقت الثورة الفلسطينية من فهم خاطىء متجاهلة تاريخ الحركة الوطنية الاردنية ومجمل نضالاتها على الساحة الاردنية ووضعت نفسها بديلا لهذه الحركة حيث ظنت بعض فصائل المقاومة ان العمل المسلح ليس بحاجة الى أرضية سياسية واعية وواسعة مما أدى الى اغفال العمل السياسي واهماله بشكل فاضح في اكثر الاحيان حتى خيل لبعض فصائل حركة المقاومة ان الحركة الوطنية على الساحة الاردنية الفلسطينية لم يعد لها أي دور وخاصة وان معظم فصائل هذه الحركة قد حملت السلاح واخذت تشارك في الكفاح المسلح . جملة هذه الممارسات وهذا الفهم الخاطىء هو الذي ساعد النظام الاردني على استغلال وتعميق النزعات الاقليمية بالاضافة الى كثير من الممارسات الفردية التي كانت تحصل من قبل أفراد اما مدسوسين او اغبياء او جهلة لم يحاسب أي منهم علنا ليكون عظة لغيره وتدليلا على حسن نية حركة المقاومة تجاه الجماهير . خاصة وان معظم هذه الممارسات او ما كان يستغل منها كان يحصل مع الجماهير الاردنية تخصيصا .

وبالرغم من ذلك كله فان حركة المقاومة لم تتخذ حتى الان ما هو كفيل لاعادة الثقة والعلاقة مع الجماهير الاردنية ومن هنا كان اصرارنا على ان تبني الجبهة الوطنية الاردنية بأسس موضوعية وسليمة بعيدا عن وصاية البندقية لانها وحدها الكفيلة برأب الصدع ولئم الجرح لاننا شعب واحد لا شعبان .

كيف ترون علاقات حركة المقاومة مع الواقع العربي ، أنظمة ، وحركات شعبية ؟ هل سارت هذه العلاقات باتجاه يخدم مصلحة الثورة ؟ وما هي اسس العلاقات الثابتة التي تقترحونها تجاه الانظمة وتجاه الحركات الشعبية .

هناك مبدأ ثابت بالاساس حددته المجالس الوطنية الفلسطينية وهو ان معيار العلاقة ما

بين الثورة الفلسطينية واي نظام عربي أو اي حركة شعبية تتحدد بما يقدمه هذا النظام او تلك الحركة لخدمة الثورة وقضية تحرير كامل تراب أرض فلسطين .

لم تكن جميع هذه الانظمة تضع امكاناتها وطاقاتها لخدمة الثورة ، هناك أنظمة تقدمية عربية كانت ولا زالت تزج بطاقاتها في سبيل استمرار الثورة ، ودعمها وحمايتها، في حين ان بعض الانظمة كانت ولا زالت تسعى لتصفية الثورة بينما بعض الانظمة وقف متفرجا وعلى هذا الاساس فان على الثورة الفلسطينية ان تميز بين من هم معها ومن هم عليها . مع التأكيد على اننا حركة تحرير وطني وهي بالتالي جزء من حركة التحرر العربية التي هي ايضا جزء من حركة التحرر العالمي .

لقد شكلت منظمة التحرير اطار اللقاء لكافة اشكال الوحدة الوطنية . هل لا زال هذا الاطار صالحا لتلبية متطلبات النضال الفلسطيني أم ان هناك حاجة لاشكال تنظيمية أرقى وما هي هذه الاشكال ؟

تعرضنا من قبل للاجابة على هذا السؤال وما أريد أن أؤكده هنا أن ليست التسمية هي المشكلة ومنظمة التحرير اطار يضم جميع الفصائل الرئيسية على الساحة ، وهو اطار كاف ومقبول ومن خلاله كان يمكن تنفيذ كافة مقررات المؤتمرات الوطنية ووضع برامج وصيغ محددة حتى لو مثلت الحد الادنى الذي يمكن أن تتفق عليه جميع الفصائل . ولكن كما قلنا ، المشكلة تكمن في محاولات تسييب هذه المنظمة وشل فعاليتها من خلال تعمد البعض الانفراد والتصرف بعيدا عن جماعية وديمقراطية القيادة . هذا الامر الذي نصر نحن وغيرنا من الفصائل التي عانت من عدم سيادة الروح الصحيحة على أن تأخذ الامور مجراها الطبيعي . وباعتقادنا اننا اذا استطعنا أن نضع الامور في نصابها فان المنظمة ستصبح صالحة لتلبية متطلبات النضال الفلسطيني وهي نفسها قابلة للتثوير والتطوير الى أي شكل تنظيمي أرقى .

ب ــ المهمات الراهنة :

تواجه حركة المقاومة الفلسطينية حاليا المزيد من الاخطار والمتاعب والتي تقتضي تركيزا في العمل والجهد ، ووضوحا اكبر في الموقف السياسي . انطلاقا من هذا الواقع ما هي الوسائل التي ترونها ملائمة لمواجهة المشكلات الاساسية التالية :

المساعي التي تبذل حاليا لانجاح التسوية السياسية . خاصة وان مشاريع التسوية السياسية ، بدأت تأخذ لونا أمريكيا ظاهرا ؟

نحن رفضنا في البداية قرار مجلس الامن واعلنا ولا زلنا بأن طريق الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية هو الاسلوب الوحيد وسواء أخذت هذه المساعي لونا امريكيا او اي لون آخر . فان الهدف الذي ينبغي ان لا تتزحزح عنه المقاومة الفلسطينية هو تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني واستعادة عروبة فلسطين وقد تكون الطريق لتحقيق هذا الهدف طويلة الا ان المقاومة مطالبة بالاصرار عليها مبدئيا وعمليا والتصدي بالعنف الثوري لكل محاولة تستهدف اجهاض نضال التحرير .

ان المساعي التي تبذل حاليا لانجاح التسوية السياسية ترمي الى ايجاد طرف فلسطيني يقبل بهذه التسوية ويزعم تمثيل شعب فلسطين . والمهمة العاجلة التي تواجهها المقاومة هي الحيلولة بشتى الطرق والوسائل دون ايجاد مثل هذا الطرف الفلسطيني ، وفي مقدمة هذه الوسائل استمرار نشاطات المقاومة داخل الارض المحتلة ولو بشكل عمليات منتقاة تستهدف بتركيزها ، على النوع لا على الكم ، اثبات استمرار وجود المقاومة واستمرار الاصرار على تحرير كامل التراب الفلسطيني مع قمع اية محاولة يقوم بها طرف فلسطيني للتجاوب مع المساعي الاستعمارية .

هناك نشاط متصاعد داخل الضفة الغربية بشكل خـــاص ، لاشراك طرف فلسطيني في التسوية السياسية ، عن طريق رفع شعارات مثل الكيان الذاتي او الدولة الفلسطينية. كيف ترون ان على الثورة مواجهة هذه القضية ؟

التحركــات الغريبة والمشبوهة التي تشهدهـــا الضفة الغربية ، ليست جديــدة على الاطلاق ، ولكنها كانت تجري في الماضي وقبل عملية الصدام مع النظـــام الاردني همسا وبسرية ، لان رؤوس هذا التحرك لم يدخلوا باب العمالة حديثا ، بل اتجروا في القضية منذ زمن . لكن علنية التحـــرك الان أملته عوامل عدة لعل من اهمهـــا وأبرزها ضرب المقاومة على الساحة الاردنية من جهة ، وارتماء النظام الاردني في دوامة الحلول واعلانه عدم استعداده لدخول أية معركة مقبلة مـــع العدو الصهيوني . هـــذه العناصر أيضا أصبحت تتلقى اليوم كل اشارات الضوء المشجعة من اسرائيل وأمريكا لان الاستعمـــار يدرك اهمية توقيع الفلسطينيين انفسهم على وثيقة الصلح والاستسلام . هذه العوامل جميعها مجتمعة أعطت الفرصة لهؤلاء بالتحرك بالاضافة الى الشعور الذي بدأ يسود في أوساط الفلسطينيين بأن حركة المقاومة التي منيت بسلسلة التراجعات عاجزة الان عن حزم أمرها ومواجهة المعضلات التي تعترض مسيرتها . وباعتقادي ان أية مواجهة لهذا التحرك لا يمكن أن تتم باعلان الرفض المجرد من هذه الجهة أو تلك بل لا يمكن أن يكون الا بزيادة الحشد والتنظيم والتعبئة السياسية لصفوف الفلسطينيين ضمن برنامج عمل واضح ومحدد يمثل على الاقل الحد الادنى الـــذي يمكن أن تلتقي عنده فصائـــل حركة المقاومة . وباعتقادي أن الاستمرار في السكوت والاسترخاء في هذه المرحلـــة الدقيقة وعملية تمييع الامور لا يمكن أن يكون الا في خدمة هذا التحرك . على ان هنـــاك نقطة جوهرية يجب ان ترافق باستمرار عملية الحشد والتعبئة السياسية وهي التوجه فورا وبكل القوى المتوفرة لدى حركة المقاومة لتصعيد عملها العسكري في عمق الارض المحتلة لكي ترتبط الجماهير المعبأة سياسيا بالبندقية القادرة على حمايتها وعلى بقائها مشدودة اليها بأمل التحرير .

في ظل حالة الانحسار التي يواجهها العمل الفدائي منذ ايلول ١٩٧٠ ، وفي ظل التحـــرك المضاد لتشويه الموقف السياسي الفلسطيني من قبل القوى اليمينية الفلسطينية ، كيف تنظرون لقضية العمل العسكري في الاراضي المحتلة ووسائل تصعيده ؟

بعد مجازر ايلول الاخيرة في الاردن وبعد الانحسار الذي تلا هذه الاحداث بدأ التحـــرك المشبوه لليمين الفلسطيني العميل علنا من اجـــل التوقيـــع على وثيقة الاستســـلام . وباعتقادنا أن اسلوب المواجهة الوحيـــد هو أن تحزم الثورة الفلسطينية أمرها كما قلنا بزيادة الحشد والتنظيم والتعبئة من جهة ومن جهة أخرى أن تتصدى الى تعزيز وتصعيد عملها العسكري في الارض المحتلة ، هذا التصعيد يتطلب منا بالدرجة الاولى توحيد البؤر الثورية داخل الارض المحتلة وتعزيز صمود وبطولة ابنائنا وثوارنا في غـــزة البطلة . ان هذا هو الطريق الوحيد باعتقادي للوقوف بوجه اليمين العميل وتفويت الفرصة عليه.

لمواجهة كل هذه القضايا ما هو نمط العلاقات المطلوبة ، على صعيد المنظمات فيما بينها ، وعلى صعيد المنظمات والواقع العربي ، لوضع خطة عمل قادرة على تقديم علاج ثوري لكافة القضايا المطروحة سابقا ؟

لا شك أن النمط المثالي للعلاقات المطلوبة بين المنظمات ببعضها بعضا هو ذلك النمط الذي واجهته شعوب أخرى مارست نضال التحرير ونقصد بذلك التقاء القوى الوطنية ضمن جبهة وطنية بقيادة حزب تقدمي ثوري .

لكننا هنا نستطيع القول انطلاقا من التجربة الفلسطينية في محاولة تحقيق الوحدة الوطنية

وما آلت اليه هذه التجربة ، أنه كان بالوسع الاستفادة من تلك الخطوط التي رسمها المؤتمر الفلسطيني الاخير . لو توفرت النية لدى جميع الاطراف المعنية على تجسيد الوحدة الوطنية تجسيدا عمليا ملتزمة بمبدأ وضع الشخص المناسب في المكان المناسب . وتلافي ما يجره التعصب التنظيمي من نتائج . هذا التعصب الذي قاد الى محاولة البعض الانفراد في التصرف ومحاولة احتكار العمل والسيطرة عليه مما الحق أشد الضرر ليس فقط بالوحدة الوطنية ولكن أيضا بروح هذه الوحدة . بالاضافة الى ذلك كان ينبغي ان تتلو الحدود الدنيا من اللقاء التي حققتها المؤتمر الوطني الاخير جهود صادقة للوصول الى وضع دليل نظري للثورة الفلسطينية تلتقي من حوله جميع فصائلها ويحدد خطواتها السياسية التكتيكية والاستراتيجية الا أن أية محاولة من هذا القبيل لم تجر حتى الان مما أدى الى استمرار واقع التعدد على الصعيد النظري وعلى صعيد الممارسة العملية وبالتالي فان تجاوز الوضع الراهن يقتضي على الاقل الالتقاء حول دليل نظري ثوري وبرنامج للعمل الثوري يحددان علاقات موضوعية داخل اطار الوحدة الوطنية تختفي فيها روح الاثرة ورغبة السيطرة والتنافس ليحل محلها التنسيق الفعلي بين القوى وتوجيهها في المسار الصحيح . اما على صعيد علاقة المقاومةبالواقع العربي فاننا نعتقد ان هذه العلاقة يجب أن تتحدد وفق الاسس التالية : ١ – ان حركة المقاومة هي حركة تقدمية بطبيعتها وبالتالي فهي جزء لا يتجزأ من الحركة التقدمية العربية ، ٢ – ان ساحة العمل الاساسية للثورة الفلسطينية هي الساحة الفلسطينية ويجب أن لا تشغلها أي مهمات أخرى عن ممارسة نضالها في هذه الساحة . ٣ – لكن ذلك لا يعني أن تجرد حركة المقاومة الانسان الفلسطيني كمواطن عربي من حقه في ممارسة النضال العقائدي على الساحة العربية . ٤ – تلافي المعارك الجانبية مع الانظمة العربية لان من شأنها تبديد طاقات الثورة الفلسطينية واشغالها عن ممارسة مهمتها الاساسية لان هذه المهمة على أهميتها هي من مهام الحركة الوطنية العربية في مختلف أقطارها ولا ينبغي لحركة المقاومة أن تحل نفسها محل هذه الحركات ولكن حركة المقاومة مطالبة في الوقت ذاته بأن لا تسمح لنفسها بممارسة أي دور على الصعيد العربي من شأنه أن يشل أو يحد من قدرة قوى الثورة العربية على انجاز مهمتها . ٥ – وأخيرا فان علاقة حركة المقاومة الفلسطينية بالانظمة العربية تحدد بمقدار ما تقدمه هذه الانظمة لها من دعم وتأييد .

بشكل خاص ما هي المهمات الراهنة المتعلقة بموقف حركة المقاومة في الاردن (النظام – الخط السياسي تجاه النظام – الجبهة الوطنية الاردنية) والتي يمكن تنفيذها العمل الفدائي من الاستمرار في القتال باتجاه العدو الاسرائيلي ؟

لا شك أن الاجابة على هذا السؤال هي من أكثر المسائل التي تواجهها الثورة الفلسطينية صعوبة ، ففي الوقت الذي كانت فيه محادثات جدة مستمرة ، تلك المحادثات التي قبلنا أن نذهب اليها ، وذهبنا اليها صادقين ومخلصين ، لاننا نعتبر أن الساحة الاردنية هي المنطلق الرئيسي لحركة المقاومة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان أية قيادة عليها أن تتعايش بين جماهيرها لا أن تبتعد عنها وتقودها من الخارج كما أن تواجدنا في الاردن على خط المجابهة يسهل علينا عملية الاتصال بشعبنا في الارض المحتلة ، وقد بذلنا من أجل ذلك جهودا صادقة رغم كل ما لقيناه من عدم صدق من قبل وفد النظام الاردني الذي أخذ يراوغ ويميع ويؤجل حتى انتهى الى قراره المعروف ، ودون أن تعود المقاومة الى الاردن ، فأصبحت المقاومة الان أمام السؤال الاساسي التالي : اذا لم تكن هناك امكانية للعودة السلمية الى الاردن فما مدى امكانية العودة بأسلوب آخر ؟؟ ان هذا الاسلوب الاخر قد يقود المقاومة الى زج جميع طاقاتها في معركة طويلة الامد مع النظام الاردني بدلا من زج هذه القوى في معركة طويلة الامد ضد العدو الصهيوني وهي نتيجة يطمع العدو الصهيوني دون شك للوصول اليها خاصة وانها ستضمن على الاقل عزل واشغال

مليون ومائتي ألف عربي فلسطيني يقيمون في الضفة الشرقية. كما اتضح من الاحصاءات الاخيرة من الاردن ، أي ما يقارب نصف الشعب الفلسطيني .

من ناحية ثانية فان الجهود التي بذلت لانشاء جبهة وطنية أردنية تضم كافة القوى الوطنية في الاردن وتضع على هذه القوى مسؤولية النضال من أجل قيام حكم وطني في الاردن يؤمن في المستقبل القريب أو البعيد عودة المقاومة الى الساحة الاردنية ، قد تعرض لمحاولة الاجهاض بانشاء جبهة شكلية تحمل لافتة الجبهة الوطنية الاردنية وتختفي وراء البندقية دون أن تضم القوى الوطنية في الاردن ، وهذا تكريس آخر للفهم الخاطىء الذي وقعت فيه المقاومة قبل ايلول الاسود ، ويبرز من خلال هذا التحليل ، أن انشاء جبهة وطنية أردنية حقيقية ، يظل في الظروف الراهنة مطلبا أساسيا قابلا للتحقيق .

جـ ــ اسئلة خاصة بالصاعقة :

نريد في هذه الاسئلة ان نكون صريحين ، وهدفنا تسجيل الملاحظات الاساسية التي تقال كاتهام للصاعقة حتى يمكن الرد عليها بجدية وثورية . وأبرز هذه الاتهامات :

الصاعقة ، هي نتاج حزب قومي ناضل طويلا لقضيتي الوحدة والاشتراكية . هذا التراث النضالي كان قادرا على أن يمكن الصاعقة من أن تلعب دورا قياديا بارزا في ساحة النضال الفلسطيني ، الذي حصل ان الصاعقة مثلت دائما رديفا لحركة فتح ، وأذا كانت لها انتقادات على ما هو سائد ، فهي لم تعمل على اساس طرحه وتجاوزه ، فساهمت بذلك في ابقاء نقاط الضعف في العمل الفلسطيني على حالها . هل ترون هذه الرؤيا لدور الصاعقة منصفة ؟

من المسلم به أن الصاعقة في ولادتها كانت ولا زالت تمثل نتاج حزب قومي ناضل طويلا من أجل قضايا الامة العربية وأمانيها العريضة . وكان من الممكن أن لا تكون منظمة الصاعقة على الساحة لولا أن القناعة اكتملت لدى قواعد الحزب بضرورة قيام منظمة فدائية تقدمية الاتجاه قومية النزعة يسارية المفاهيم والعقلية والاسلوب قادرة بالدرجة الاولى على استيعاب كافة المناضلين التقدميين في الوطن العربي وزجها في المعركة لكي تملأ الفراغ القاتل الذي كانت تعاني منه الساحة الفدائية ومبرر ذلك أن منظمة الصاعقة تمتلك اساسا ارضية نضالية من خلال دور الحزب التاريخي والعريق ونضاله على الساحة العربية . هذه الارضية وهذا التراث كان من الممكن أن يعطي الصاعقة دورا قياديا بارزا في ساحة النضال الفلسطيني . وولدت الصاعقة وهي تمتلك كل هذه المقومات . لكنها لم تكن وحدها على الساحة كانت هناك فصائل أخرى ليس من الانصاف اطلاقا أن ننكر وجودها وحجمها ومن غير المستطاع تجاوزها . ولما كان الهدف الاساسي من تشكيل نواة المنظمة هو كما ذكرنا استيعاب الطاقات الجماهيرية العربية التقدمية وزجها في المعركة تلك الطاقات التي لم تكن الفصائل القائمة آنذاك قادرة على استيعابها . لذا كانت الطلائع تحاول باستمرار أن تبني علاقة ودية مع بقية فصائل المقاومة وخاصة فتح من خلال قناعتها المطلقة بأنها لا تستطيع وحدها أن تقود وكذلك لا يمكن لاية منظمة فدائية أخرى أيضا أن تقود وحدها . وكنا ننطلق باستمرار من أجل العمل على قيام جبهة وطنية ذات برنامج عمل محدد وواضح . ومن الحرص على هذا الهدف الكبير كان حرصنا باستمرار على بقاء العلاقة مع فتح وتطويرها باتجاه الافضل لان حركة فتح كانت أساسا بالنسبة للحزب ، حزب البعث العربي الاشتراكي ، الذي رعاها وقدم لها كل عون ، كانت تمثل شيئا قائما وموجودا . وكان الحزب حريصا على استمرارها ، ولم يكن ميلاد الصاعقة اطلاقا بديلا لحركة فتح بل كان دعما لها واستيعابا للثغرات التي تعتورها ونقاط الضعف التي كانت تعاني منها الساحة الفدائية . هكذا كان يرى الحزب . ومن هنا كان الحزب يتصور ان أية عملية حوار من خلال قوتين

أساسيتين موجودتين على الساحة الفدائية تلقيان من الحزب روح الحرص والدعم كان من الممكن ان يعطي ثمارا ايجابية اكثر بكثير من بقاء مناضلي الحزب داخل صفوف حركة فتح . ناهيك عن الاخطار التي كان من الممكن ان تنجم عن استمرار هذا البقاء .

ولم ينقطع الحوار مع فتح يومـــا . بل كان معها ومـــع الديمقراطية الشعبية مفتوحـــا باستمرار — وان لم يكن مقطوعا مع غيرهما — رغما عن اختلاف نظرة الحزب لكل من المنظمتين . وكثيرا ما اثمر هـــذا الحوار وأعطي عـــلى الصعيد النظري صورة أفضل للمستقبل ، لكنه ككل قرار أو تصور نظري يبقى في حدود النظريات . وللحقيقة ان حركة فتح كثيرا ما كانت تطمع في هذا الفهم .

على أن قواعد الصاعقة كثيرا ما كانت تتمرد عـــلى استمرار اللقاء الـــذي لم يعط ثمرة واحدة لانها كثيرا ما كانت توعد من قيادتها بآمال أفضل وبالتوصل الى صورة مرضية وتصور للقواعد ان حركـــة فتح قدمت تنازلات معينة ومحـــدودة تمثل بالنسبة لقواعد الصاعقة حدا أدنى يمكن القبول به .

ولنكن صريحين اكثر وخاصة في هذه الفترة بالـــذات التي لم تعد تحتمل الا مصارحـــة الجماهير بكل شيء . لقد تجاوزت قواعـــد الصاعقة قيادتها في أكثر من تصور حتى أنها طرحت علنا أثر الخلاف مع فتح في أوائل عام ١٩٧٠ اللقاء مع يسار المقاومة مهما كـــانت أخطار محورة العمل الفلسطيني ، وبالفعل فقد تم اللقاء مع كـــل من الجبهة الشعبية (جورج حبش) والشعبية الديمقراطية وقوات الانصار في قائمة تقدمية علنا ضد قائمة حركة فتح في انتخابات اتحاد عمال الاردن كما تكررت صورة مماثلة في انتخابات الاتحاد العام لطلبة فلسطين فرع دمشق . في الوقت الذي كانت فيه قيادة الصاعقـــة تتفق مع حركة فتح على صيغة أو أخرى واكثر من ذلك كله ان القواعد اصرت على موقفها ونفذت ضاربة بكل الاوامر والتعليمـــات التي صدرت اليها من قيادتها عرض الحائط (موقـــف عاشته الفصائل الاخرى) .

هاتان الحادثتان من جملة حوادث كثيرة يمكن التعرض لها . ولعل عمليات الصدام مـــع النظام الاردني في أكثر من منطقة باللقاء مع يسار المقاومة بعيدا عن تعليمات القيادة من خلال تجـــاوز قواعد المنظمة وعدم تسليمها بالفهم الخاطيء لعملية الـــدفاع عن النفس واللهاث وراء الاحداث وشعارات عدم التدخل ، أدلة أخرى تؤكد عدم اللقاء في بعـــض الظروف والمراحل السابقة .

صحيح أن تمرد القواعد مع كل ادراكها مسبقا على عدم جدوى الحوار جاء متأخرا ولكنه يبقى حقيقة يجب أن تقال . على أنه ليس من الانصاف أن نقول أن الصاعقة وحدهـــا أسهمت في استمرار نقاط الضعف لكن مجمـــل فصائل حركة المقاومـــة أسهمت بنسب مختلفة في استمرارها نتيجة لعقدة الثورة الفلسطينية نفسها والكامنة أساسا في العصبية التنظيمية لدى كل فصائلها . تلك العقدة التي لا زالت تشكل سببا من أسباب عدم قدرة الثورة على مواجهة ازماتها .

يلاحظ ان منظمة الصاعقة لم تعط للجـــانب السياسي والجماهيري من النضال المسلح الاهمية التي تستحقه ، وبقيت لذلـــك ضعيفة التأثير في الحركة اليومية للعمل . هـــل توافقون على هذا التصوير ، وما هي أسبابه ؟

عندما نقول وعندمـــا يسلم معنا الجميـــع بأن الصاعقة هي نتـــاج حزب قومي مناضل تاريخيا ، وقبل ميلاد حركة المقاومة بما يقارب ربع قرن من الزمن حزب له جذوره ولـــه جماهيره يدرك أن في صيغة السؤال مغالطة . ولعل المغالطـــة لا تكمن فقط في التغني بتراث الحزب ونضاله فحسب بل ان الصاعقة التي جاء ميلادها متأخـــرا على الساحة

الفدائية استطاعت أن تلف حولها من الجماهير العربية ما لم يستطعه اولئك الذين سبقوها . على ان هناك نقطة هي على جانب كبير من الاهمية وهي ان الصاعقة منذ الساعات الاولى لولادتها كانت تعتمد النوع لا الكم . اما عن مدى تأثيرها على الحركة اليومية للعمل ، فقد كانت الصاعقة بمعرفة الجميع على الساحة الفدائية والساحة العربية بأسرها فاعلة بنسبة أكثر بكثير من عمرها الزمني ، لكن الصاعقة لم تبتل بمرض الاعلام المهوش والمشوه للحقيقة .

ولكي نضع أصابعنا على الحقيقة يكفي العودة الى تقارير المنظمات الفدائية التي كان لها تواجد في معارك أيلول على الساحة الاردنية لنرى ان الصاعقة كانت تمثل قاسما مشتركا للتواجد على ساحة القتال والدفاع عن الثورة ، وهذه الفصائل وجماهيرنا بأسرها تعرف أن الصاعقة قدمت في عمان وحدها ثلاثة وتسعين رفيقا شهيدا على مذبح الدفاع عن بقاء الثورة الفلسطينية ، كل هؤلاء من صفوف الحزب والعاملين في ميليشيا الصاعقة من جماهيرها . لذا فاننا مع كل حرصنا على اعطاء الحقيقة نرد هذا التصور الخاطىء بهذه الحقائق والارقام البسيطة والمتواضعة .

التصور السائد ان الصاعقة كانت تمتلك امكانيات عسكرية مرموقة ، ولكن فعالية عملكم العسكري لم تكن بمستوى امكانياتكم . ويقال بان هذا مرتبط بضعف الجانب السياسي والجماهيري من عملكم . ما هو رأيكم ؟

التصور السائد هنا ينطلق في الحقيقة من فهم خاطىء أساسا ومن تصور خاطىء ايضا من خلال تسمية اراد البعض تكريسها ، هذه التسمية هي « الصاعقة السورية » . هؤلاء كانوا يتصورون أن امكانيات الصاعقة العسكرية والمرموقة هي امكانيات الثورة في القطر العربي السوري . هذا التصور في الحقيقة عانينا منه كثيرا وهو يعود الى التضليل والتشويش الاعلامي الذي مارسته بعض الصحف والاذاعات والمؤسسات الرجعية . وهذه الحملة التي رافقت بداية دخول قواتنا وتمركزها على ساحات القتال مع العدو . الغاية منها ليس اكثر من اغراق الانظمة العربية وخاصة القطر العربي السوري بتهمة التدخل في الشؤون الداخلية للانظمة العربية المعينة والتي كانت تبحث عن ذريعة لتصفية حركة المقاومة .

والحقيقة هي ان المنظمة نشأت بعد تبلور القناعة لدى قواعد الحزب ، وقد أسهبنا في هذا المجال طويلا ، ومن الطبيعي أن يبقى الحزب العمود الفقري للمنظمة التي ضمت في صفوفها خيرة الشباب العربي التقدمي واللامنتمي لصفوف الحزب .

أما علاقة المنظمة بالحكم في سوريا فلم تكن يوما كما أرادت هذه الاجهزة المعادية تصويرها ، وليست هناك أية علاقة بين الصاعقة ودوائر الدولة في سوريا أكثر مما بين بعض الفصائل الاخرى وهذه الدوائر وجميع مشاكلنا واحتياجاتنا تحل عن طريق مكتب العمل الفدائي في قيادة الحزب .

اذن فهذا التصور مبني أساسا على حملة تهويش وتشويه خاطئة جرت البعض الى أن يتصور أن امكانيات الصاعقة العسكرية هي امكانيات دولة وان فعاليتها لم تكن اطلاقا بمستوى امكانياتها . ولو سلمنا بالفهم الخاطىء لقلنا صحيح . ولكن الحقيقة ان امكانيات منظمة الصاعقة العسكرية لم تصل على الاطلاق في يوم من الايام الى امكانية أكبر فصائل المقاومة بل كانت دونها بكثير ، لهذا كان تواجدها وفعاليتها العسكرية أكثر بكثير من امكانياتها العسكرية ، وفي كثير من الاحيان ، وخاصة عملياتها في عمق الارض المحتلة . وليست معركة كفرشوبا ببعيدة عن أذهاننا ، ولا معركة خسفين وبطولات رفاقنا واستشهاد سعيد معاذ بطل هذه المعركة وأحد القادة المعروفين في

المنظمة ولا معركة العرقوب التي قادها الرفيق البطل الشهيـــد الاخضر العربي الا مرآة حية تعكس صفاء صورة فعاليتنا . ناهيك عن كثير من العمليات في عمق الارض المحتلة التي قام بها مناضلو الصاعقة وانتحلتها منظمات فدائية أخـــرى ونسبتها اليها وبقينا صامتين مثل المعركة البطولية التي خاضها رفاقنا ضد مبنى المخابرات الاسرائيلية في قلب مدينة رام‌الله والتي قتل فيها مدير مخابرات العدو .

أما عن ارتباط هذا الضعف بما سمي بضعف الجانب السياسي والجماهيري من عملنـــا فهو منطق مغاير اطلاقا للحقيقة فالمقاتـــل في الصاعقة يعي تماما لماذا يحمل بندقيته لانه قبل كل شيء ابن أمة تدافـــع عن قضيتنا وعن امانينـــا العريضة في الوحدة والحريـــة والاشتراكية . عقل يحمل بندقية دفاعا عن الارض والانسان .

أثار موقف الصاعقة من قضية مقتل وصفي التل دهشة شعبية واسعة . لان نقدكـــم للعملية لم يتركز حول جدوى هذا الاسلوب في العمل الثوري ، وهـــذه قضية مطروحة للنقاش دائما . بل تركز نقدكم حول ادانة العمل بالاساس . ما هو رأيكم ، وكيف تبررون هذا الموقف ؟

لم يكن للصاعقة موقف من قتل وصفي التل يثير الدهشة اطلاقا ، ولم تتصد الصاعقة لنقد عملية مقتل وصفي التل رغم أن هذا الاسلوب بالنسبة للحزب مدان وغير مقبول ، ولكن الصاعقة وقفت من عملية اغتيال وصفي التل موقفا خاصا علميا وموضوعيا لمـــا يمثلـــه وصفي التل من ارتباط وماض حافل بالعمالة والارتباط بعيـــدا عن العواطـــف والمزاودة ولكن الاجهزة المشبوهـــة حاولت ان تصور للصاعقـــة موقفا كما حلا لها ان تصوره طمعا في استغلاله ليس الا . ولكن الصاعقة كفصيل مشارك في مسيرة الثورة الفلسطينية ترى أن من حقها التساؤل فيما اذا كان هذا الاسلوب هو خط الثورة أم لا ؟ ومن الذي يقرر هذا الخط ؟ ان الصاعقة ترى أن من مصلحة الثورة عدم الانفراد بمثل هذا العمل الذي يمثل بحـــد ذاته مسارا جديدا للثورة الفلسطينية بعيـــدا عن جماعية القيادة ، ونحن نؤمن بأن وصفي التل لا يمكن ان ينتهي الا بمثل هذه النهاية .

الحديث الثاني : مع الاخ الدكتور عبد الوهاب الكيالي

نعتقد أن حركة المقاومة بحاجة الى وقفة امام تجربتها الماضية لتتمكن من تحديد الاخطاء ونقاط الضعف بهدف تجاوزها والارتفاع الى مستوى التحديات الحالية، فما هي القضايا التي ترى أنها جديرة بتركيز الاضواء عليها ؟ وما هو تحليلك لها ؟

في رأيي ان المقاومة عانت من ازمتين رئيسيتين الاولى هي الازمة الموضوعية ، اي أزمة فكرها الاستراتيجي العام ، والرؤيا الكاملة في تشخيصها لطبيعة الصراع القائم ، وفي فهمها لطريق النضال والارتفاع الى مستوى المعركة . فالمقاومة من حيث شرارتها ، ومن حيث مركز الثقل الاساسي فيها في المرحلة الحالية هي عبارة عن ردة فعل وتمرد ورفض للاوضاع العربية العامة ولواقع ازمة الثورة العربية ، أزمة حركة التحرر العربي التي تمثلت في القوتين الاساسيتين فيها واعني بهما عبدالناصر وحزب البعث العربي الاشتراكي . لقد ادركت المجموعة التي شكلت نواة المقاومة في مرحلة مبكرة ان قوى حركة التحرر العربي كانت شبه منصرفة عن معركة تحرير فلسطين ، اذ لم تكن هذه القوى في نضالها العام ضد الاستعمار وفي سبيل تحقيق التحرر الوطني والوحدة العربية في مستوى فهمها لمركزية القضية الفلسطينية في القضية العربية واحجمت عن خوض نضال خاص وكفاح يومي مسلح من اجل تحرير فلسطين . ولم تدرك اهمية النضال اليومي المسلح ضد الوجود الصهيوني في فلسطين ودوره الاساسي في تحقيق اهدافها الشاملة . ان هذا النقص الاساسي في حركة التحرر العربي يبرر الى حد ما قيام ردة الفعل الفلسطينية متمثلة بالمقاومة ، ولكن ردة الفعل هذه لا تشكل ثورة بحد ذاتها . التمرد ليس ثورة وان كان يشكل في كثير من الاحيان الارضية الصالحة لها . ومن هنا كانت بدايات المقاومة بدايات صحيحة ، ولكنها ليست كل الجواب المطلوب . لان ردة الفعل هذه تنكرت لايجابيات تجربة حركة التحرر العربي في ربع القرن الاخير وبالتالي فقدت منذ قيامها الكثير من امكانيات تطوير التمرد وردة الفعل الى ثورة شاملة قادرة على فهم استراتيجية التحرير وتعبئة القوى الكفيلة بانجاز مهام التحرير . كما انه من الضروري الاشارة الى ان هذا العامل الموضوعي الاساسي ارتبط منذ البدء ببعض البنى التكوينية وببعض الاشخاص وببعض الخلفيات . بحيث ان هذه الشرارة اغفلت ضرورة استيعاب تكامل وتفاعل الصراع القومي مع الصراع الاجتماعي من اجل تحرير الانسان الذي سيتولى مهمة تحرير الارض . وهكذا فان جوهر حركة المقاومة الموضوعي ، اي طبيعة المقاومة واثرها الفعلي في الاوضاع العربية ، هو اكثر سلامة واعمق ايجابية من منطلقها النظري ، وان كان لبعض الفصائل منطلقات نظرية سليمة .

هنا في الواقع ننفذ الى الازمة الثانية ، وهي الازمة الذاتية في المقاومة ، ازمة طبيعة القيادة ، طبيعة تجاربها الشخصية ، طبيعة خلفياتها العقائدية والطبقية ، وهذه بمجملها تشكل ازمة لان قيادة معركة تحرير فلسطين ليست بالامر اليسير وليست بالامر المتيسر للعاديين من البشر بل هي مهمة تليق بالقيادات التاريخية للشعوب ، وهذه القيادات بدون تحامل وبدون أدنى محاولة للتقليل من نضاليتها ليست تاريخية ، وقد اثبتت انها لا تستطيع أن تقود المعركة ، انطلاقا من الخطأ الاساسي المتمثل في فهمها لطبيعة الصراع ومعادلة التحرير ، وانطلاقا من أن تجاربها الشخصية قد ولدت لديها « حولا » هاما بحيث انها لم تستطع ان تستوعب معنى النضال الجماهيري العربي ضد الاوضاع الفاسدة القائمة في الوطن العربي والترابط المكين بين هذا النضال ومهمة تحرير فلسطين . ثم هناك مسألة التعدد والمنافسة . لقد افسحت

طبيعة الاوضاع القائمة في البلاد العربية المجاورة، ووضع شعب فلسطين المشرد الموزع، والتناقضات القائمة بين صفوفه وطبيعة قصر نظر ومحدودية الرؤيا عند بعض القيادات، أفسحت المجال أمام التعدد . والتعدد ليس شيئا خارقا للطبيعة، ولكن المشكلة انه سمح لهذا التعدد ان يتحول الى منافسة غير موضوعية وضارة بحيث اخذت المنظمات تنحو ممارسات خاطئة بهدف المنافسة ، وبهدف المزاودة والمناقصة ، بحيث صرف الكثير من الجهد في هذا المجال ، عوضا عن ان يصرف في مجالات مقارعة العدو وتعبئة الجماهير وتنظيم القدرة الذاتية للمقاومة وزيادتها. المسألة اذن بحاجة الى مراجعةشاملة وجذرية، لا للاخطاء الثانوية ولا للممارسات العابرة بل لطبيعة منطلقات هذه المقاومة وفهمها لقواها وعمقها ومداها ، والاجابة على الاسئلة الاساسية: كيف يكون التحرير ؟ بواسطة من يكون التحرير ؟ ومتى يكون التحرير ؟ بدون الاجابة عن هذه الاسئلة لا نستطيع ان نبدأ الطريق الصحيح ، وتظل المقاومة اسيرة فهمها المحدود اسيرة نواقصها التي عانت منها ولا تزال .

الاسئلة الثلاثة التي طرحتها في نهاية حديثك ، ما هي الخطوط العامة المكونة لها ؟

اعتقد ان المسألة تبدأ بالسؤال : ما هو التحدي الصهيوني في فلسطين ؟ ما هي طبيعة التحدي الصهيوني في فلسطين ؟ وللاجابة على ذلك اقول ان التحدي الصهيوني في فلسطين هو ذروة المحاولة الاستعمارية للسيطرة على المنطقة العربية بأسرها عن طريق اخضاعها لمشيئة حامية صهيونية مسلحة متقدمة ، تمنع قيام الوحدة العربية وتمنع تحرير الجماهير العربية في سياق نضالها من أجل تحررها الذاتي ومن اجل وحدتها القومية . هذا هو الاطار الاساسي للصراع . وعندما يكون فهمنا للاطار الاساسي بهذا الافق التاريخي ، يتحدد الجواب على كثير من الاسئلة . المقصود بالاحتلال هو الجماهير العربية بأسرها ، جماهير الامة العربية بأسرها . وان يكون الشعب العربي الفلسطيني هو الضحية المباشرة ، لا يعني ان هذا الشعب هو الضحية الوحيدة المستهدفة . بقدر ما نفهم ما هو المقصود من هذه المؤامرات الاستعمارية او بهذا التحدي الاستعماري بقدر ما يحمل جوابنا على التحدي نفس الصفة التاريخية لهذا التحدي ، اي اننا اذا قلنا ان المقصود بالمؤامرة هي الجماهير العربية فمعنى ذلك ان الاستعمار قد حشد ما يكفي وسوف يحاول دوما ان يحشد ما يكفي لمواجهة رد فعل الجماهير العربية على هذا التحدي . وبالتالي فان اي محاولة او اي فهم يقول بأن المقصود هم الفلسطينيون فقط ، او هم بشكل رئيسي ، معنى ذلك ، اننا سنعتمد في ردنا على التحدي على الفلسطينيين دون سواهم من الناس ، ومعنى ذلك اننا سنظل نلهث وراء قيام ما أسميه بمعادلة التحرير . معادلة التحرير باختصار وببساطة تكون قائمة عندما نحشد من القوى والامكانيات ما يفوق ما حشدته القوى المعادية في حربها معنا وذلك على المدى الطويل . ان القوى المعادية هي الاستعمار ، زائدا الصهيونية زائدا كل القوى العربية الرجعية منها والمستسلمة التي تتحرك ضمن فلك هاتين القوتين . مقابل ذلك لا يمكنك ان تضع الشعب الفلسطيني كمعادل ومساو لهذه القوى العالمية الكبيرة ، ان العنصر الاساسي في المعادلة من جهتنا نحن هو جماهير الامة العربية بأسرها ، وان هذه الجماهير هي وحدها القادرة بدعم من جميع قوى التحرر في العالم على مواجهة هذا التحدي . ولكن هذا لا يلغي في رأيي دور الشعب العربي الفلسطيني كطليعة لتفجير قوى الجماهير العربية ، وللمزيد من تحديد مسارها الجاد ازاء طريق التحرير لاسباب بشرية وجغرافية وتاريخية ومنطقية . الجماهير الفلسطينية هي رأس الرمح اما الرمح فهو الجماهير العربية . ان هذا الفهم يجيب في رأيي على الكثير من الاسئلة بل على معظم الاسئلة .

الموضوع في الاساس هو كيف تستطيع ان تفجر الطاقات العربية وان توجه مسيرة التاريخ العربي المعاصر نحو التحرير من خلال التوجه الى المقاومة ، مقاومة الاحتلال الصهيوني في فلسطين ، المسألة انه حتى تتحرر فلسطين ، لا بد من ان يتحرر الانسان العربي ويصبح عنده ما يكفي من الوعي والقدرة والامكانية ، من حيث التنظيم ومن حيث الفكر ومن حيث الانتاج ومن حيث تحرير العلاقات الانسانية . وعندها يصبح قادرا على تنفيذ ارادته في تحرير فلسطين ، فعملية التوجه نحو فلسطين ، هي في نفس الوقت عملية توجه نحو تحرير الجماهير العربية ونحو تحرير الاوضاع العربية . فالنضال لتحرير فلسطين يضع الاوضاع العربية في مواجهة الازمة ، وفي جو الازمة تتعرى المؤسسات البالية . وتنكشف طبيعة التآمر القائم من خلال بنية التجزئة ، ومن خلال الحكومات الفوقية البعيدة عن الجماهير والتي لا تريد تحرير الجماهير لان تحرير الجماهير يعني انهيارها كحكومات وطبقات حاكمة .

على ضوء هذا الفهم كيف يمكن تقييم العلاقات التي اقامتها فصائل حركة المقاومة مع الحركة الوطنية العربية سواء كانت في السلطة أو في الشارع ؟

لا بد من الانطلاق في هذا المجال من نقد حركة التحرر العربي لا من نقد المقاومة . وانني اعتقد أن المسؤولية الاساسية في تحرير فلسطين ، من خلال التشخيص لطبيعة المعركة ومن هو المقصود بالمؤامرة،تقع على عاتق حركة التحرر العربي.وبقدر ما اخطأت حركة التحرر العربي وقصرت في التوجه نحو فلسطين وفي فهم مركزية القضية الفلسطينية داخل القضية العربية بقدر ما اخطأت في حق نفسها ومهدت الطريق امام قيام ردة فعل منحرفة لايجابياتها قبل سلبياتها . المسؤولية تقع على الحركة الام التي هي حركة التحرر العربي . لكن هذا لا يعفي المقاومة الفلسطينية من التقصير الشديد ازاء فهمها لطبيعة علاقتها وتوجهها نحو الحركة الام التي هي حركة التحرر العربي . لقد نظرت طليعة المقاومة او شرارتها (لاسباب كثيرة لا أود الدخول في تفاصيلها) الى حركة التحرر العربي على أساس انها عالم اخر ومسألة اخرى ، وبالتالي اخذت شرارة المقاومة المعاصرة تبني نفسها خارج اسوار حركة التحرر العربي . ومن هنا لم تنشأ بالفعل علاقة صحيحة بسبب الازمة الذاتية عند حركة التحرر العربي والازمة الذاتية عند المقاومة . واذا اردنا ان نحدد طبيعة التقصير نقول أن حركة التحرر العربي لم تزل تتخبط في أزمتها بدليل انقساماتها وتبعثر قواها واقتتال قواها ايضا.وبعض فصائل حركة المقاومة الفلسطينية لم تفهم من حركة التحرر العربي ودورها سوى التصفيق او جمع الاموال ولم تنظر اليها على أنها افضل من الحكومات العربية، حتى الرجعية السافرة منها. فمن هذا الفهم نرى ان الهوة شاسعة . والطريق الى تصحيح هذه الناحية بالذات يأخذ شكلين الشكل الاول ان تنمو الدعوة داخل صفوف حركة التحرر العربي الى وضع صيغة جديدة تحدد الفهم المشترك بين فصائل حركة التحرر العربي وجماهيرها لقضية فلسطين ولمركزية القضية الفلسطينية في النضال العربي من اجل تحرير الجماهير ومن اجل تحقيق الوحدة العربية ولقيام جبهة تضم كافة قوى التحرر العربي تضع فلسطين في مركز عملها وبرنامجها ، وتعمل على اساس ان التوجه نحو فلسطين هو توجه امة محتلة نحو تحرير اراضيها ، تماما كما كانت حركة التحرير الوطني الجزائري تنظر الى أن الجزائر محتلة على الرغم من أن ثلاثة ارباع الجزائر لم يكن بعد اندلاع الثورة محتلا، وكانت تسير الامور بعقلية التحرير لكامل الارض الجزائرية ولمصلحة التحرير الشامل . اي ان على حركة التحرر العربي ان تعتبر نفسها حركة وطن محتل لا حركة وطن احتل جزء منه وحسب ، فمن منطلق وحدوي حقيقي لا يجوز ان ننظر الى الاحتلال الصهيوني لفلسطين على انه احتلال لجزء من الوطن ، فاحتلال الجزء هو احتلال للكل ، والجزء غير

المحتل غير محتل لصالح تجزئة النضال العربي وتفتت وحدة توجه الجماهير العربية . والواقع ان الجزء غير المحتل خاضع للنفوذ الاجنبي بدرجات متفاوتة اذ ليس هناك استقلال عربي كامل ، ليس هناك دول عربية مستقلة ، لانه ليس هناك استقلال مع التجزئة ، التجزئة هي استمرار لاخضاع الاوضاع في المنطقة العربية للمصالح وللنفوذ الاستعماريين . هناك دول خاضعة تماما وهناك دول نصف خاضعة ودول خاضعة جزئيا ولكن ليس هناك دول غير خاضعة تماما للنفوذ الاجنبي . فالنفوذ الاستعماري قائم حيث يكون الضعف والتجزئة هي ضمانة الضعف . ومن هنا يصبح تصرف حركة التحرر العربي على اساس انها حركة مناضلة لامة محتلة ويسيطر عليها الاجنبي ، هو وضع لقضية الاحتلال الصهيوني في موضع المركز في الصراع الدائر. من خلال هذا الفهم لمتطلبات التحرير تتقرر نوعية المسلكية داخل « جبهة التحرير العربية » وخارجها ، وتتقرر المواقف من كل الاشياء بما في ذلك الموقف من طبيعة الصراعات الطبقية والاجتماعية داخل المجتمع .

هنا نأتي الى مسألة هامة اعرف ان الاجتهادات حولها كثيرة . اننا نؤمن بوحدة الصراع القومي مع الصراع الاجتماعي والطبقي في مرحلة التحرير ومرحلة التوحيد القومي . فنحن لا نفصل بين المرحلتين واقول ان تحرير الانسان العربي اي تحرير الانسان من جميع القيود ومن الاستغلال الطبقي والقهر الطبقي والتبعية مرتبط ارتباطا كاملا وتاما مع متطلبات التحرير القومي ومع متطلبات حرب التحرير ، اذ كيف يمكن ان يكون الفلاح السوري أو الفلاح العراقي او الفلاح المصري قادرا على المساهمة في حرب التحرير اذا لم يكن مسلحا بالوعي والعلم واذا لم يشعر ان هذا الوطن وطنه وان هذه الامة تقدم له متطلبات الحد الادنى من المعيشة ومن الوعي والكرامة والقوت ، ومن مستلزمات الحياة العصرية . كيف يمكن ان تؤهل المسحوقين طبقيا لان يساهموا ، وهم الاكثرية الساحقة في حرب التحرير ؟ هنا نأتي الى مسألة في غاية الاهمية واعتقد انه من الضرورة بمكان ان تفهم حركة التحرر العربي ان تحرير الانسان من الاستغلال الطبقي ومن الانسحاق الطبقي يسير جنبا الى جنب مع متطلبات الانسان ومع متطلبات الصمود ومتطلبات التعبئة القومية في سبيل حرب التحرير ، وان تفهم المقاومة الفلسطينية او حركة الشعب الفلسطيني أهمية تحرير الجماهير العربية التي هي بالاساس العامل الحاسم في حرب التحرير . ان ذلك لا يعني بالطبع ابعاد الطبقة البورجوازية الوطنية والبورجوازية الصغيرة عن المساهمة في المعركة الوطنية ولكنه يشمل ، تحديدا ، اسناد القيادة الى العناصر الثورية الملتزمة التزاما مصيريا بالثورة والى العناصر الشعبية الكادحة التي تشكل مرتكز الثورة ومحورها وأداتها وهدفها ايضا .

ضمن الخطة التي لا تفرق بين النضال الوطني والنضال الاجتماعي ، ما هو الدور الخاص بالفلسطينيين في هذا الموضوع ؟

الدور الفلسطيني الخاص يأخذ وجهات متعددة : الوجهة الاولى ان الشعب الفلسطيني بصفته الشعب الاكثر التصاقا بالظلم الصهيوني والشعب المتحسس قوميا وانسانيا وماديا لهذا الخطر ، على أن يبادر بشكل طبيعي وبشكل عقلي وآلي الى مقاومة الاحتلال والظلم اللاحق به . ومن الطبيعي ان يقاوم الشخص المتواجد تحت سلطات الاحتلال ذلك الاحتلال اكثر من الشخص الذي يقيم خارج الارض المحتلة . ومن الطبيعي ان تقاوم الجماهير التي تنتمي الى الاراضي المجاورة لفلسطين اكثر من الجماهير التي تعيش في أطراف الوطن العربي على بعد الاف الاميال . هذه مسألة فيها شيء من البساطة المنطقية التي لا تخفى على احد، ثم هناك مسألة ضرورة اعطاء المثل الرائد: على الشعب الفلسطيني ان يتحمل مسؤولية المبادرة والتضحية اكثر من سواه من الشعوب العربية

حتى يعطي مثل التضحية لان المثل بحد ذاته قوة جد كبيرة . ثم هناك الواقع الطبقي او واقع الانسحاق الانساني الناتج عن الاحتلال الذي يجعل قضية التحرير والاستشهاد قضية يومية بالنسبة لسكان المخيمات وبالنسبة لمن احتلت اراضيهم ، بحيث يكون الاحتلال والعدوان مركز دوران الحياة بكاملها ، اي ان التحرير يصبح قضية يومية حياتية بالنسبة للانسان الفلسطيني وهذا ما لا يتوفر مثلا لشعب المغرب وبالتالي هناك منطقية وبديهية معينة لمبادرة هؤلاء الناس الذين يعيشون الاحتلال والعدوان كل يوم لتحمل مسؤوليتهم . ثم هناك الناحية الدولية والرأي العام العالمي ، ان قيام المسحوقين والمحتلين والمضطهدين في الارض المحتلة بتنظيم المقاومة شيءمفهوم تماما بالنسبة للعالم، فالشعوب التي تحتل ترد على الاحتلال بالمقاومة ، وبالتالي فان ابراز هذه الناحية ، والتركيز على هذه البديهية في المقاومة ، بديهية أن الشعب المحتل يقاوم الاحتلال والعدوان ، تخدم القضية الفلسطينية من حيث انها تجسد ابعاد ونتائج العدوان الصهيوني .

بالنسبة للوضع في الاردن ، هل تعتقد ان هناك مهمات أكثر تحديدا مطلوبة من حركة المقاومة ؟

لا اعتقد بأن الاردن هو بلد آخر غير فلسطين . هو فلسطين بمعناها الكامل أي ان هناك أرضا واحدة ، ولا شيء يفصل بين شرقي الاردن وغربي الاردن الا السدود التي أقامها الاستعمار بسبب تآمره . وتسهيلا لمهمة الحركة الصهيونية العالمية أقام دويلة سماها شرقي الاردن ونصب عليها الامير عبدالله بعد أن أخذ تعهدا بواسطة لورنس بالموافقة على السياسة البريطانية الصهيونية في فلسطين والسياسة الفرنسية في سوريا . لهذا فان شرق الاردن كيان غريب لم يكن في يوم من الايام دولة ، وجاء الاستعمار ليقيمها كحاجز بين عرب سوريا وفلسطين وكمستودع احتياطي لاستيعاب الجماهير العربية التي ستطرد من فلسطين بموجب الخطة البريطانية الصهيونية ، وللسيطرة على هذه الجماهير بعد طردها . المسألة اذا هي مسألة النضال ضد الكيان الاردني المصطنع وضد الكيانية الاردنية الرجعية ، وهي مسألة في صلب النضال من اجل تحرير فلسطين . وكلنا يدرك ان النظام القائم هو امتداد للمؤسسة التي قام الامير عبدالله بقيادتها منذ ان تأسست دولة شرقي الاردن حتى اليوم . ان الشيء الوحيد الذي يحرر الاردن هو اندماجه في وحدة متجهة نحو التحرير لان الاردن سوف يظل خاضعا للقوى الاجنبية طالما بقي له كيان مصطنع خاص به . مسؤولية المقاومة الخاصة في شرق الاردن تنبع من هذه الحقيقة ومن حقيقة أخرى هي ان غالبية السكان في شرق الاردن هم من الفلسطينيين. اذا هناك توحد كامل ما بين حركة الجماهير الاردنية من أجل تحررها والسيطرة على مصيرها وارادتها وبين الهم الاساسي للشعب الاردني كمجموع وهو هم تحرير فلسطين . ويمتزج العامل القومي في موضوع التعلق بتحرير فلسطين مع طبيعة ومسار الحركة الوطنية الاردنية في نضالاتها الاجتماعية والداخلية ، وبالتالي لا بد للمقاومة من ان تبادر بصفتها قلب الحركة الوطنية في الاردن لاقامة جبهة اردنية حقيقية ذات أهداف واضحة وبرامج مفصلة للوصول الى حكم وطني في الاردن يحوله من وضعه المتآمر الحالي الى قاعدة ومنطلق وسند للمقاومة . ولا يمكن أن يتم ذلك الا باستقطاب الجماهير الاردنية وتوحيد نضالها وتحسين احوالها المعيشية وتحقيق سيادتها على نفسها وتحقيق توحدها مع جماهير الاقطار المجاورة ضمن اطار الوحدة القومية العربية . ولا شك بأن احداث ايلول ١٩٧٠ ومجازر جرش التي تلتها قد حسمت الموقف داخل حركة المقاومة لصالح الاتجاه الثوري في هذا الصدد .

ينطوي هذا الموقف اذا على رفض للرأي الذي يقول بان من واجب العمل الفدائي التوجه نحو اسرائيل بينما واجب الحركة الوطنية الاردنية التصدي لقضايا النظام الاردني ؟

لم افصل بين التوجه نحو فلسطين وبين التوجه نحو تحرير الجماهير العربية من جميع معوقات استلام زمام مصيرها وسيطرتها على نفسها وعلى ارادتها . واذا كان هذا الشيء صحيحا بشكل عام ، فهو صحيح بشكل خاص في الاردن . اعتقـد ان النتيجة الطبيعية الاولية للتوجه نحو تحرير فلسطين هو انهيار الانظمة والمؤسسات البالية التي تحيط بفلسطين والتي هي بحد ذاتها مؤامرة على التحرير . ان الاصطدام بالعدو الاقوى اسرائيل ، يعني بالضرورة الاصطدام والتغلب على المعوقات الاقل اهمية واعني بهـا المؤسسات الرجعية القائمة المتمركزة حول اسرائيل والتي كان المقصود منها ان تكون خط دفاع اول للحدود الصهيونية . وهكذا فان التصدي للنظام الاردني لا يعني بالضرورة ايقاف العمل من اجل تحرير فلسطين . على المقاومة الفلسطينية ان تظل مستمرة ، لان استمرارها في العمل التحريري وفي المقاومة داخل الارض المحتلة ، وفي تعبئة القوى الوطنية كافة تستطيع ان تخوض معاركها ضد معوقات التحرير التي تقوم على حدود اسرائيل . انني ادعو الى ان تقوم المقاومة الفلسطينية بتعبئة حقيقية وبتهيئة جميع المجالات النضالية امام شعب الضفة الغربية وامام شعب غزه وامام عرب الارض المحتلة عام ١٩٤٨ . ان تهيىء لهم بشكل حقيقي وفعال ، عن طريق استراتيجية جديدة وتوحيد حقيقي جديد حول برنامج ثوري فعال ، ان تهيىء لهؤلاء عمل المقاومة المستمر . وان تتوجه في نفس الوقت (لانها معركة واحدة) الى تعبئة القوى العربية والجماهير العربية في الاراضي المجاورة ولا سيما في الاردن لتكون قادرة على حماية ظهر المقاومة ومنع التآمر عليها . وبالتالي فالمسألة مسألة واحدة والتفريق غير صحيح ، من يتصدى ؟ ومن يعمل ؟ لان القضية واحدة .

هل توافقون على الرأي الذي يقول بأن العلاقات التي أقامتها حركة المقاومة مع الانظمة العربية أدت الى أن تصبح أسيرة لسياسة هذه الانظمة ؟

ان الحركة الرئيسية في المقاومة على الرغم من بطولتها وعظمة المبادرة باتجاه حمل السلاح ومقاومة الاحتلال الصهيوني قد قبلت ضمنا والى حد منظور ان تكون اسيرة الاوضاع العربية عندما قررت ان المسألة تخص الجماهير العربية وحدها ، فتخلت بطوع ارادتها وبقصر نظرها عن الرصيد الاساسي لها اي الجماهير العربية . تخلت المقاومة عن رصيدها الاساسي ومنحت الحكومات ، التي نعلم جميعا أنها حريصة على استمرار امتيازاتها اكثر مما هي حريصة على التحرير ، منحت هذه الحكومات فرصة السيطرة عليها وفرصة ضربها لان الرادع الاساسي لهذه الحكومات من ضرب المقاومة هو حركة الجماهير وليس حسن نيتها ازاء أهداف التحرير ، من هنا نرى ان هذه الخطيئة الخانقة قد ساعدت فيما بعد على ان تقوم الحكومات بفرض شروطها وان تتدخل بشتـى الوسائل في مسار المقاومة وفي سياستها وفي منطلقاتها وفي تحركاتها بحيث ادى شعار « عدم التدخل في الاوضاع العربية » تلقائيا وكلما سنحت الفرصة ، الى تدخل الاوضاع العربية في مسيرة القضية الفلسطينية ، وهذا يعود بنا الى مسألة الخطأ في فهم من هو المقصود بالمؤامرة ومن هو الذي يحرر الارض المغتصبة والمحتلة ، فنقول ان تخلي المقاومة الفلسطينية عن فهمها القومي الشامل لموضوع دور الجماهير العربية ، أدى بها الى التخلي عن هذه الجماهير لحكوماتها وبالتالي قوّى هذه الحكومات امام حركة المقاومة ومكنها بالنتيجة من ضرب المقاومة ، وكلما انحرفت حكومة أو خانت أو تآمرت على القضية الفلسطينية نسمع كلاما كثيرا ينبع من نقطة واحدة « مالنا ومال العرب » . وهذا ليس الا استمرارا لفهم القيادات القديمة لدور العرب في القضية الفلسطينية . ليس العرب كلا واحدا ،

العرب عربان ، عرب الرجعية والاستسلام والامتيازات ، وعرب الجماهير الذين هم العمود الفقـري لاي حركة تاريخية نحو تحرير أي شيء سواء الارض او الموارد او الانتاج او الاقتصـاد او العلاقـات الانسانية في الوطن العـربي . هذا الخلط بحد ذاته هو استسلام لمنطق الطبقات الحاكمة واستسلام عملي للحكومات المتخاذلـة . ومن هنا اغفلت المقاومة اهمية اقامة علاقات مباشرة مع الجماهير العربية . فالحكومات هي التي تعطيها المال حتى لا تقيم علاقات مع الجماهير . والحكومات تعطيها الاذاعة ، حتى لا تقيم المقاومة علاقات اعلامية مع الناس وتشرح لهم ماذا يجري . عندما رضيت المقاومة ان تكون الحكومات وكيلة الشعوب ، قبلت المقاومة في نفس الوقت أن تكون هذه الحكومات قيمة عليها لانها حرمت نفسها من سلاحها الاساسي في وجه هذه الحكومات. وبالتالـي لم تكن العلاقـة مع الحكومات سليمة بالمـرة . لقـد غلبت المقاومـة الاعتبارات المرحلية واعتبارات السهولة على اعتبار سلامة العمل التاريخي . رب قائل يقول ان لبعض الانظمة العربية امتدادا داخـل المقاومة فماذا تفعل ؟ البلـد الفلاني هو رئة المقاومة فهل نخاصمه ؟ او لا نخاصمه ؟ ان المسألة ليست مطروحة بهذا الشكل. ان المسألة منطلقة من الفهم الاساسي لطبيعة الصراع القائم ، لطبيعة القوى ، لفهم طبيعة القوى ودور القوى المختلفة في مسيرة التحرير . المشكلة هنا ، وهنا تتحدد المسألة بكامل ابعادها واي انطلاق لتحليل اين اخطأنا واين اصبنا في علاقتنا مع الدول العربية تنطلق من هذا المبدأ . ولو كانت المنطلقات سليمة والرؤيا والاستراتيجية ثورية واضحة لامكن تحقيق وحدة اداة الثورة ولتحولت هذه الجماعات امـا الى امتدادات للثورة او لهيئات عديمة التأثير .

ما دام التركيز في الحديث على الموقف السياسي فما هو الاسلوب العملي المحدد الذي يمكن من الوصول والاتفاق على هذا الموقف ، بحيث نصل عن طريقه فعلا الى تحقيق الوحدة الوطنية الفلسطينية ، خاصة ان هناك من يقول بأن المشكلة ليست في تحديد الموقف السياسي من القضية الفلسطينية ومن أسلوب التحرير ، بل في اتخاذ أجراءات تنظيمية لتكوين هذه الوحدة .

اعتقد ان للمشكلة جذرا اساسيا هو الناحية المتعلقة في توحيـد الفهـم والنظـرة الاستراتيجية للمعركة ولطريقة تعبئة القوى ولحشد الطاقات وللعمل ضمن برنامج سياسي متفق عليه . وهناك بالاضافة الى ذلك مشكلة ثانوية ، تقفز احيانا الى المقدمة هي مشكلة التعصب والتحزب الفئوي والتنظيمي . واعتقد ان مشكلة التعصب الفئوي خفت الى حد كبير بعد الاحداث الاخيرة . لقد ثبت للجميع ان القيادات لم تكن في مستوى المعركة وان التنظيم الواحد لا يحوي بالفعل كل أنصار وجهة النظر الفكرية لهذا التنظيم وان هناك الكثير من التنظيمات الاخرى التي تضم عناصر أكثر قـربا الى بعض الفئات المنتمية الى هذا التنظيم او ذاك من الفئات الاخرى التي تنتمي الـى نفس التنظيم . وبالتالي لا يضم التنظيم جميع الذين يؤمنون بوجهة النظر الواحدة ، كما وان التنظيمات الاخرى تضم أناسا يؤمنون بوجهة نظر يحملها تنظيم آخر . اذا لم تعـد التنظيمات ، وهذا اتضح بعد أيلول ، تمثل وحدة فكرية منسجمة وبالتالي خف التعصب للتنظيم . هناك اجتهادات واختلافات في وجهات النظر داخـل التنظيمات . وبالتالي لم يعـد من الممكن ان يتعصب عضو اي جماعة الى تنظيمه بالشكل الكامل الذي كان موجودا قبل ايلول لان القاعدة جميعها احست بأن القيادة لم تكن في مستوى المعركة وانها ليست جديرة بأن يتعصب الانسان لها الى درجة شق الوحدة الوطنية لحساب هذه القيادة او تلك . ولكن وفي الوقت الذي أرى فيه ان المشكلة الاساسية هي مشكلة التفاهم حول العمل من خلال برنامج استراتيجي موحد متفق عليه اعتقد ان المشكلة الاكثر اساسية هي مشكلة الحركة الام، مشكلة حركة التحرر العربي. اذا ما تم النجاح في صهر حركة التحرر

العربي في بوتقة جبهة وطنية شعبية عريضة ملتفة حول برنامج وطني ديمقراطي تحريري واضح ، تصبح مشكلة المقاومة وأزمتها في اطار يسمح لها بحل معظم تناقضاتها بسرعة نوعية ويصبح اطار العمل ثوريا بالفعل لا بالكلام . ومن هنا ارى ان المدخل الاساسي لحل هذه المشكلة هو العمل بجد من أجل حل المشكلة الاكبر ، الا أن هذا لا يعفينا من العمل بصدق وباخلاص للضغط داخل جميع التنظيمات وبكافة الوسائل ، على القيادات وعلى جميع المعنيين بالامر ، من اجل اقامة وحدة موضوعية لا وحدة توفيقية كاذبة سرعان ما تنتهي . ولا شك بأن وحدة المقاومة الفلسطينية على أسس ثورية صادقة تشكل اختراقا لأسوار الفرقة والاقتتال اللاموضوعي داخل حركة التحرر العربي ومقدمة لوحدة هذه الحركة .

ننتقل الان للحديث عن موضوع آخر هو الوضع الراهن . ما هي المهمات الاساسية التي ترون ان على حركة المقاومة ان تقدم الان أجوبة عليها وان تلتزم بالنضال من أجلها؟

امام حركة المقاومة العديد من المواضيع ، منها ما يتعلق بالاطار العام للعمـــل وقـــد سلف الحديث عنه فيما يتعلق بالفهم الاستراتيجي للمشكلة وطـــريقة مواجهتها ، اي علاقتها بحركة التحرر العربي وبالجماهير العربية . ولكن هناك مشاكل عديدة أخرى لا بد للمقاومة من أن تعالجها . المشكلة الاولى تتعلق بتكويناتها وبطريقة عملها . أي أن تبادر المقاومة الى توحيد قواها توحيدا موضوعيا حول البرامج وحول خط ورؤيا واحدة وحول خطة عمل واحدة تسمح لها بتثوير الوضع داخل الارض المحتلة . هذه المسألة الاولى . المسألة الثانية اتخاذ موقف واضح وحاسم فيما يتعلق بالوضع في الاردن ، كل ذلك ضمن اطار موقف موحد وفعال بصدد العلاقة مع الجماهير العربية وحركة التحرر الوطني من اجل تثوير الوضع في المنطقة ككل لان أي نجاح للمقاومة يبقى نجاحا معزولا اذا لم ترفده نجاحات عربية كما هو الحال في غزه ، فبدلا مـــن أن تكون مثالا رائدا ، يهز ضمير الامة ويدفع قواها نحو التوحد والصمود والمواجهة اصبحت حـــالة نادرة معزولة محاصرة لا تفعل فعلها الكافي والطبيعي في مجمل الوضع . ومن هنا فان النظرة الشمولية للموضوع تصبح أساس النجاحات التفصيلية والتقدم المتنامي .

هل يعني اخذ موقف حاســم من النظام الاردني ، رفض كل فكرة للتعايش مع هـــذا النظام واذا كان هذا هو الموقف ، ما هو أسلوب العمل الذي يتناسب معه ؟

ان التعايش مع النظام الاردني ، مسألة ليست متروكة للمقاومة ، انها محسومة من قبل النظام ، محسومة من قبل النظام منذ أن قام ، منذ اليوم الاول لتأسيسه ومحسومة منذ ان قرر النظام القضاء على بذور المقاومة عام ١٩٦٥ ، ومحسومة منذ ان انبرى النظام الاردني لتصفية طلائع حركة المقاومة قبل ان يتسع نفوذها وقبـــل ان يكون هنـــاك مـــا يسمى بالممارسات الخاطئة ، أي قبل أن تكون هناك مكاتب وسيارات وتجاوزات . هذه المسألة بالنسبة للنظام الاردني ، تعني وجوده فعندما تكون المسألة بهذه الخطورة يكون طرح السؤال هل نتعايش مع النظام او لا هو دلالة على عدم أهلية القيادة وعدم فهمها لطبيعة ما جرى وما يجري في المنطقة ولطبيعة مسارهـــا . ان المقاومة متهمة ومحكوم عليها بالاعدام من قبل النظام الاردني بسبب خطيئة الولادة ، لان فكرة المقاومة هي فكرة معادية للنظام الاردني . فمهما فعلت المقاومة ، مهما نسقت ومهما عايشت ومهما طمأنت النظام ، فالنظام لا يطمئن اليها ولا يريدها لانه يريد ان يقضي على فكرتها . وكل ما فعله النظام وما حاول ان يفعله هو ان يحول محدودية النظرة واقليميتها عنـــد المقاومة الى أداة في يده ، ليخلق المقاومة المدجنة التي تأتمر بأمره والتي تستخدم في النهاية ضد فكرة المقاومة الحقيقية . أسلوب العمل ضد النظام ، يطرح من خلال الفهم العام لحركة التحرر العربي ومن خلال الفهم الخاص للاردن . أسلوب المواجهة يكون

بالاعتماد على الجماهير ، بتنظيمها ، بتعبئتها ، بالتفافها حول برنامج واضح ، بوضع الاولويات امامها بشكل سليم ، بفضح الوضع الحاضر باستمرار ، بوضعها امام مسؤولياتها في حماية المقاومة في الارض المحتلة وبمسألة المشاركة الفعالة من قبل الجبهات العربية المتاخمة . لن نستطيع مواجهة النظام الاردني الا من خلال النفاذ الكامل الى الجماهير الاردنية والى وضعها أمام مسؤولياتها في قضية مصيرية بالنسبة لها والتخلي عن جميع مظاهر التعصب الاقليمي الفلسطيني ووضع القضية في نصابها الحقيقي ، اي انها قضية الجماهير العربية . وعندما نربط النضال من اجل فلسطين بالنضال من أجل تحرير ظروف المعيشة وتحرير العلاقات الانسانية داخل المجتمع الاردني ، وحين نستطيع أن نعبىء وان ننظم على هذه الاسس نكون قد مهدنا الطريق امام زوال النظام الذي يتصدى لمهمة المقاومة ولمهمة دعم المقاومة .

لقد رفضت كافة فصائل المقاومة التسوية السياسية من حيث المبدأ . ولكن هذا لا يلغي ضرورة الحديث في كل فترة حول المهمات المرحلية لاحباط اي نشاط جديد من اجل تسوية سياسية . هل تعتقد ان حركة المقاومة قادرة في وضعها الحالي على انجاز مثل هذه المهمة ؟ وكيف تتصور وضع المقاومة على الصعيد الدولي والعربي اذا تحققت التسوية ؟

اعتقد ان المقاومة وحدها غير قادرة على ان تحبط التسوية السياسية او حتى أن تحبط تآمر دولة ما من الدول العربية عليها . باعتبار ان الذي يحبط المؤامرات الكبرى هو وحدة الجماهير الوطنية العربية . هذه هي القوة الوحيدة القادرة على المواجهة . اما المقاومة الفلسطينية فتستطيع أن تبادر الى شحذ همة الجماهير والى دعوتها لمواجهة مسؤولياتها عن طريق المزيد من النضال الصلب ، وعن طريق توحيد قواها ، وعن طريق ضرب مثل نضالي يبرز كيف ان شعبا صغيرا يكون قادرا وفي أسوأ الظروف على تحدي الدولة الصهيونية بكامل قواها ، كما يحصل في غـزه . ان غـزه في نضالها الدائم وتضحياتها العظيمة تدين اي خط استسلامي عربي لان طبيعة ظروف شعب غزه وضآلة موارده وعزلته الكاملة لم تمنعه وهو الشعب الفقير الصغير ، من مقاومة كامل قوة الدولة الصهيونية . اذا تصعيد عمل المقاومة وتوحيد عمل المقاومة ، ووضعها على اسس اكثر ثباتا وأوسع مدى ، وفهمها لدور الجماهير العربية وحركة التحرر العربية هو المدخل الى مقاومة التسوية السياسية ، لان مقاومة التسوية السياسية مسألة تعني بالضبط خلق المناخ المناسب للمقاومة عربيا . المسألة ليست لفظية ، انها مسألة موضوعية تقتضي دائما توفير الشروط اللازمة للمواجهة المطلوبة . بالنسبة للشق الثاني من السؤال ، اعتقد ان التسوية السياسية ، بما تعنيه من استسلام ورضوخ لمشيئة الدول الاستعمارية ولنفوذ الدولة الصهيونية سوف تضع القوى الوطنية كافة لا المقاومة الفلسطينية وحسب أمام السيطرة الصهيونية المباشرة ، وسوف يجعل مسألة قول اي رأي تحرري في اي بلد عربي مسألة في غاية الصعوبة ، ونصبح خاضعين من جديد لنفوذ استعماري مباشر . ومن هنا فان قول الراي الوطني يصبح بطولة يعاقب عليها صاحبها، فكيف بالمقاومة ؟ ستصبح الاوضاع العربية معادية تماما لفكرة المقاومة ولكل من يقوم بأعمال المقاومة ولكل من يدعم المقاومة لان التسوية السياسية ليست وضعا ازاء اسرائيل فقط بل هي موقف من الجماهير العربية ومن الوطنية العربية . اي ان الذي يريد ان يدخل في حل استسلامي يوافق سلفا على قهر وهزيمة وكبت اي راي وطني في البلد ، فتصبح فكرة المقاومة معادية لكل الاوضاع السائدة في المنطقة العربية .

تجري حاليا محاولات لاشراك أطراف فلسطينية في التسوية السياسية بوسائل مختلفة منها الدعوة للدولة الفلسطينية ، ومنها نشاط بعض رؤساء البلديات في المناطق المحتلة ،

والمنادين بضرورة اجراء انتخابات لاختيار ممثلين للشعب الفلسطيني ينطقون باسمه تحت ظل الاحتلال . كيف ترون ان على حركة المقاومة أن تتصرف ازاء هذه التحركات ؟

ان الطريقة الاجدى والامثل في مواجهة كافة التحركات المشبوهة هي المزيد من التماسك والمزيد من تنمية القوى السياسية ومن تنظيم الجماهير وتعبئتها في اتجاه المقاومة ، لانه ليس من المنطق ان تقوم دعوات استسلامية وخيانية في ظل مقاومة قوية ونامية وفعالة. ان بروز هذه التيارات الخيانية ليس سوى ظاهرة لضمور المقاومة ، لفشلها في تحقيق أهدافها الرئيسية في هذه المرحلة ، ولفشلها في تنمية قدراتها الذاتية وفي التحامها مع الجماهير . من هنا أرى ان اقامة الشروط الموضوعية لنمو قوة المقاومة ذاتيــا وبين الجماهير وتوحيد قواها حول خط نضالي متصاعد هو الشرط الاول . أما الشرط الثاني (ولا يمكن ممارسته بفعالية الا بعد اقامة الشرط الاول) ، هو أن تقام محاكم ثورية تقدم كل من يطرح الخط الخياني للمحاكمة ويحكم عليه غيابيا وينفذ الحكم الصادر بحقه . لا تستطيع ان تتصرف كثورة الا اذا كنت ثورة ، ولا تستطيع ان تقضي على الخيانة الا اذا كان هناك بديل للخيانة ، أي الوطنية الثورية ، والمقاومة التي تعرف ماذا تريد وكيف تحقق ما تريد .

بحكم صلتك الوثيقة بجبهة التحرير العربية ، نود أن نسأل بعض الاسئلة التي تتعلق بالجبهة . أولا : ما هي حقيقة العلاقة بين الجبهة والحكم القائم في العراق ؟

العلاقة بين الجبهة والحكم القائم في العراق تتحدد من خلال علاقة الجبهة بحزب البعث العربي الاشتراكي . ليس هناك علاقة قائمة خارج هذا الاطار ، حزب البعث العربي الاشتراكي كان القوة الاساسية المبادرة الى اقامة جبهة التحرير العربيـــة ، وبصفته النضالية الشعبية قام الحزب بالمناداة بفكرة الجبهة قبل أن يكون حاكما في العراق . وبالطبع فان قيام حكم يكون الحزب فيه طرفا اساسيا يساعد الحزب علىتوفير الامكانات المادية للجبهة ، وان يصار الى نوع من العلاقة ، علاقة الدعم المتبادل . من هنا أؤكد ان ليس هناك علاقة خارج هذا الاطار .

ألا يؤثر الارتباط الحزبي والتمويل والوزن المعنوي للحكم في العراق على اســتقلالية مواقف الجبهة اذا كانت هناك ضرورات لاتخاذ مواقف فيها نوع مـــن التعارض بين المتطلبات الفلسطينية البحتة والمتطلبات التي تتعلق بالعراق كدولة ؟

ان استقلالية جبهة التحرير العربية نابعة من طبيعة أهدافها ومن طبيعة تكوينها ، فهي بقدر ما تكون امينة على فكرة التحرير والنضال الشعبي المسلح بقدر ما تكون مستقلة . وليس هناك من قوى تستطيع ان تحرف هذه الجبهة عن هذه الاهداف الاصيلة ، وكل ما يتعارض مع هذه الاهداف مرفوض من اساسه وبغض النظر عـــن نتائجه . بالنسبة لامكانية التعارض بين امكانيات القطر العراقي وبين آمال التحرير والاهداف القومية ، هناك نضال دائب داخل الجبهة تتفاعل فيه مع نضال الحزب من اجل تطوير امكانيات القطر العراقي وتسخيرها من أجل المعركة ، ولا يمكن لاحد ان ينكر ان هناك هوة تفصل بين امكانيات قطر عربي واحد وبين العبء القومي من اجل تحقيق الامـــال القومية والمعارك القومية ، ولكن هناك توجها نضاليا نحو تسخير الامكانيات المتوفرة وتطويرها لتلبية اهداف ومتطلبات المعركة القادمة .

ترددت اقوال كثيرة حول موقف جبهة التحرير في معركة أيلول ١٩٧٠ . قيل ان الاطارات القيادية في الجبهة لم تكن في مستوى مسؤولياتها ، ما هو مدى صحة هذه الاقوال ؟

هناك الكثير من الاشاعات التي انطلقت في أيلول والتي ثبت ان بعضها غير صحيح . وبالتالي يجب أن نأخذ ما يقال بهذا الصدد بعين الحذر . بالنسبة لجبهة التحرير العربية،

شاركت الجبهة شأنها في ذلك شأن المنظمات الفدائية كافة ؛ في مقاومة هجمة النظام الشرس في الاردن وقاتل فدائيوها وقاتل تنظيمها الشعبي ببسالة شأنه بذلك شأن جميع العاملين في صفوف العمل الفدائي . اما بالنسبة للقيادات ، فان الذي حصل هو ان بعض القيادات في الجبهة كانت من اقطار عربية من خارج الاردن ولم يكن من السهل على هذه القيادات أن تتحرك في ايلول كباقي التنظيمات التي هي في الواقع اردنية تعرف البلد أكثر ولها أقارب اكثر واذا صادفت جنودا من السلطة فبالامكان القول : « انني من سكان جبل اللويبده » مثلا فيحميهم ذلك من الاعتقال ، بينما كانت السلطة تعتقل كل عراقي او سوري وتتشدد معه . وقد صدف اثناء ايلول أن امين عام الجبهة الدكتور « زيد حيدر » كان خارج القطر لاسباب نضالية ، وعندما وقعت أحداث أيلول توجه عدد كبير من قيادات الجبهة ، الفلسطينيون منهم وغير الفلسطينيين الى الاردن ، الذين كانوا خارج القطر توجهوا جميعا الى أرض المعركة وساهموا قدر استطاعتهم في قيادة المقاومة في المناطق التي كانت خاضعة للمقاومة . ومن هنا نرى ان ما يشاع عن قصور حصل بالنسبة لقيادة الجبهة ، هو نوع من التجاوز للحقيقة ، وان كان بالامكان القول ان القيادات بشكل عام تعطل دورها اثناء المعركة لانه لم يكن من السهل ان تقوم القيادات بالتنقل وبالقيادة داخل الاردن . أي لم يكن من القيادة من هو على اتصال مع القواعد ويستطيع ان يتفاعل معها او يوجهها اثناء المعركة ، الا بضعة اشخاص معظمهم من فتح . عندما وقعت المعارك فقدت القيادة قدرتها على القيادة باستثناءات قليلة جدا طبعا ساعد عليها تواجد بعض القياديين في أمكنة واحدة في بعض المناطق . اما القول بأن القياديين من كافة المناطق تمكنوا من ممارسة دورهم القيادي فهذا غير صحيح بالنسبة للجميع ، والشيء ذاته ينطبق على بعض العناصر القيادية في جبهة التحرير العربية .

رفعت الجبهة دائما شعار «قومية المعركة» واعتبرت هذه القضية أساس استراتيجيتها. وفي كتاباتها الرسمية صورت الموضوع وكأنه يتحقق بتشكيل منظمة تضم مناضلين من أكثر من قطر عربي ، بينما المسألة الرئيسية في قومية المعركة هي النضال الوطني داخل كل قطر عربي بهدف تطوير اوضاعه الاقتصادية والسياسية والعسكرية ليمكن وضعها باتجاه طريق التحرير . كيف تشرح ذلك ؟

انني اختلف معك في سؤالك من ناحيتين . الناحية الاولى هي ان قومية المعركة بالنسبة لجبهة التحرير العربية لم تكن تعني مجرد تشكيل يضم مناضلين من اكثر من قطر عربي. هذا لم يكن طرحنا اطلاقا واعتقد انه اذا كان هناك شيء من عدم الوضوح فبالامكان تقديم مزيد من الشرح حول هذه المسألة لازالة اللبس حولها . واما المسألة الثانية التي اختلف معك فيها فتتعلق بما ورد في السؤال عندما تقول « بينما المسألة الرئيسية فيقومية المعركة النضال الوطني داخل كل قطر عربي يهدف تطوير الاوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية ليمكن وضعها في طريق التحرير » . في رأينا ان المسألة اكثر من ذلك ، هي ذات شقين ، الشق الاول هو بالفعل الشيء الذي تتحدث عنه ، أي النضال الوطني داخل كل قطر لتطوير أوضاعه ولوضعها في طريق التحرير ولكن هناك شقا آخر وهو شق المشاركة في المعركة والنضال الخاص من أجل فلسطين ، لا يكفي لجماهير المغرب او تونس ان تناضل في بلدها ، هذا شيء مطلوب طبعا ، ولكن مطلوب ايضا أن يرافقه نضال خاص متعلق بفلسطين ونضال وحدوي مرتبط مركزيا بالقضية الفلسطينية . أي هناك النضال القطري ، النضال الفلسطيني ، والنضال الوحدوي . تفاعل هذه النضالات وسيرها في خطوط متميزة في آن واحد هو مسألة أساسية بالنسبة لقومية المعركة . نحن لا نفهم قومية المعركة على انها تشكيل تنظيم قتالي من بضع مئات من الاشخاص من اقطار مختلفة ، هذا هو مظهر قومية المعركة وليس جوهر قومية

المعركة الذي هو تحرير الاوضاع العربية وربط عملية التحرير هذه بالنضال الدائب والمسلح من اجل قضية فلسطين ، ولذلك نختلف مع بعض الفئات الاخرى التي تطرح هذا الفهم الذي اشرت أنت اليه . نحن نربط ما بين النضال الوطني وما بين تجسيد توجه النضال الوطني والوحدوي في اتجاه فلسطين عن طريق الكفاح الشعبي المسلح . وهنا تحدد أطر قومية المعركة . بالامكان الدخول في التفاصيل ولكن هذا هو اطار فهمنا لقومية المعركة .

على ضوء هذا الشرح هل تعتقد ان الجبهة قامت في كراساتها ونشراتها بشرح مفهومها لقومية المعركة بشكل كامل ؟

لا أدعي الكمال في شروحات جبهة التحرير لفهمها ، ولكن بالنسبة للبيان التأسيسي للجبهة هناك وضوح وهو بالواقع اعمق مما صور السؤال . ان فهم قومية المعركة كان مرتبطا بالنسبة للبيان في عدة أمور ، منها النضال الوحدوي ومنها النضال الاجتماعي ومنها النضال الشعبي ومنها تحرير القوى القادرة على التحرير الخ . لذلك وفي الوقت الذي يكون الجواب على هذا السؤال هو بالسلب اي ان الوضوح لم يكن كاملا ، فقد كان هناك في الواقع درجة من الوضوح كافية لتحديد اتجاه الجبهة ، وبالطبع المسألة بحاجة الى مزيد من التوضيح ومزيد من النقاش واعتقد ان جبهة التحرير العربية قد طرحت مسائل مبدئية فعلت فعلها في تطوير فهم مجمل حركة المقاومة فيما يتعلق بموضوع قومية المعركة والعلاقة مع الجماهير العربية .

انطلاقا من شعار قومية المعركة ، رفضت جبهة التحرير العربية الاشتراك في المجالس الوطنية الفلسطينية وفي اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير لانها تمثل حسب قولها مؤسسات قطرية ، هل تعتقد ان قومية المعركة تتناقض مع النضال داخل كل قطر على حدة وهل تتمثل قومية المعركة بمجلس وطني يضم عربا من كل الاقطار او لجنة تنفيذية تضم عربا من كل الاقطار ... مثلا ؟

ان مصدر التحفظ تجاه منظمة التحرير الفلسطينية والمشاركة في المجالس الوطنية ليس معارضة الصيغ القطرية للنضال وحسب، فالجبهة تؤمن بأن هناك شيئا اسمه النضال القطري وان على العناصر الوطنية في القطر ان تشارك في النضال القطري الوطني. ولكن التحفظات صادرة عن اسباب اخرى ، السبب الاول يتعلق بمنظمة التحرير نفسها . منظمة التحرير كما تفهمها الجبهة ، كانت تاريخيا وليدة مؤتمرات القمة . مؤتمر القمة الاول الذي دعي الى الاجتماع كتغطية للفشل في صد تحويل مجرى نهر الاردن ، ولمنع العدو من تحويل مجرى نهر الاردن قام بعدة خطوات تسكينية منها مشروع التحويل المضاد ومنها انشاء منظمة التحرير كنوع من الضربة الاستباقية للتململ الثوري الذي كان يسود اوساط الشعب الفلسطيني . لقد كانت نظاما عربيا آخر ، يضاف الى الانظمة القائمة ، بقصد احتواء النضال الفلسطيني ومنعه من التطور نحو مقاومة مسلحة . هكذا تفهم الجبهة دوافع الانظمة التي أقرت بالاجماع تشكيل منظمة التحرير ، ونحن نعلم ان الاجماع لا يكون الا حسب قاعدة « سيروا سير أضعفكم » واضعفنا في هذه الحالة معروف ، سائر بركاب الاستعمار وسائر بمخطط عدم تثوير الاوضاع وعدم الاشتراك بمعركة التحرير . التحفظ اذا نابع من نظرتنا المبدئية . الناحية الاخرى تتعلق بتكوين القيادة في جبهة التحرير العربية . الجبهة قامت لتضيف بعدا قوميا لفصائل المقاومة. وكان معظم افراد قيادتها من غير الفلسطينيين . وبسبب كيانية المنظمة، كانت المشاركة في المجلس الوطني ممنوعة على المناضلين العرب . المجلس الوطني الفلسطيني مجلس كياني وليس مجلس ثورة ، وبالتالي كان مفتوحا ولا يزال أمام الفلسطيني الذي لا يمارس دورا في الثورة وممنوعا على العربي الذي يمارس دورا فيها . فالتحفظ انطلق

من وجهة نظر تسعى لان يتحول كيان المنظمة الى كيان ثوري يعبر عن التوجه نحو التحرير الفلسطيني لا عن تمثيل الشعب الفلسطيني تمثيلا برلمانيا وجغرافيا. الانتساب لفلسطين ليس انتسابا جغرافيا في نظر الثورة - هو انتساب نضالي ، وقد حرم عدد كبير من الاشخاص لهم ممارستهم الفكرية والنضالية ، من المشاركة في المجالس الوطنية الفلسطينية لانهم مولودون على بعد عشرة أميال من حدود فلسطين الانتدابية . لذلك ان هذه التحفظات ليست منطلقة من تحفظات على النضال القطري ، فالنضال القطري نضال مشروع اذا كان له توجه قومي وارتباط مصيري في القضية المركزية التي هي قضية فلسطين .

لقد قبلت الجبهة بعد أيلول الاشتراك في المجلس الوطني التاسع ، وكذلك المشاركة في اللجنة التنفيذية ، وقالت في بيان علني انها تشارك لتناضل من الداخل من اجل اقناع الجميع بقومية المعركة . نعتقد ان هذا التفسير لا يجيب على السؤال المطروح وهو يحتاج الى توضيح . اولا : ان الاقتناع بقومية المعركة مهمة موجهة اساسا للقوى الوطنية العربية وليس للقوى الوطنية الفلسطينية فقط . ثانيا : لماذا لم تشارك الجبهة منذ البداية في الاسهام بعملية الاقناع هذه ؟ ثالثا ان امتداد الجبهة التنظيمي في العراق مضطر من ضمن الواقع العربي القائم ان يقيم مؤسسات قطرية على كل المستويات . فلماذا قبلت الجبهة ذلك في العراق ورفضته في الساحة الفلسطينية ؟

كما قلت نحن لسنا ضد قيام مؤسسات قطرية نضالية تعمل من خلال الصراعات القائمة في القطر لصالح التحرير ولصالح حشد الطاقات من اجل المعركة . اما بالنسبة لسبب المشاركة بعد أيلول في المجالس الوطنية فيعود الى عدة اسباب وعوامل ، منها ان تفاعل نضال الجبهة مع نضال التنظيمات الاخرى ولد بعض القناعات الجديدة ، منها ان الجبهة يجب ان لا تغيب عن المشاركة في النشاطات وفي المؤسسات التي يكون فيها للمنظمات النضالية الاخرى وجود . وبالتالي أصبحت المسألة ان تتواجد الجبهة حيث تتواجد الفئات المناضلة الاخرى . فقبلت ان تشارك بعناصرها الفلسطينية . كذلك مشاركة الجبهة مرتبطة بالنضال من اجل تثوير المنظمة وليس من اجل اقناع الناس بقومية المعركة فقط . تثوير المنظمة هو تحويل مؤسسة مثل المجلس الوطني الفلسطيني الى مؤسسة ثورية وليس مؤسسة كيانية . هو ان يكون المجلس الوطني الفلسطيني ممثلا للقوى وللعناصر المشاركة في النضال وليس للقوى والعناصر التي تنتمي مجرد انتماء جغرافي لفلسطين . فالمفروض ان يمثل المجلس الوطني الثوار والمقاتلين اكثر مما يمثل بعض الفلسطينيين ، الذين ربما لا علاقة لهم بالتحرير وربما لا يساعدون في التوجه نحو التحرير . هناك اذا ظروف استمرت بعد أيلول ، منها ان العمل الفدائي في مجمله أصبح اكثر اقتناعا بقومية المعركة وليس ان الجبهة دخلت لتقنع الناس بقومية المعركة. الناس اقتنعت اكثر بقومية المعركة والجبهة اقتنعت اكثر بضرورة المشاركة في النضال القطري الفلسطيني بسبب هذا التقارب في وجهتي النظر . وهناك ناحية ثالثة ومهمة جدا وهي ان الجبهة رأت أنه من الضروري المشاركة في عملية تثوير المنظمة والاسهام في عملية تغيير بنيتها من الداخل ، لدعم مؤسسات ثورية لا مؤسسات كيانية ، اذ لا يكفي النضال من الخارج فنقول ان منظمة التحرير منظمة كيانية . وكل هذه المواقف تمثل على اي حال وجهات نظر يمكن ان تتطور على ضوء الممارسة وحسب ما تمليه ظروف النضال الثوري ومصلحته .

حول المؤتمر الصهيوني الاخير

الدكتور اسعد رزوق

انعقد في القدس المحتلة ، بين ١٨ و ٢٧ من شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ ، المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون . وجاء انعقاد هذا المؤتمر ، بالنسبة للحركة الصهيونية ، وهي تقف علــى عتبة الدخول في عامها الخـامس والسبعين ـــ منـذ تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية تحت اشراف تيودور هرتزل في المؤتمر الاول (بازل ، ١٨٩٧) . أما على الصعيد الاسرائيلي ، فان المؤتمر المذكور هو المؤتمر السادس الذي تعقده الحركة الصهيونية في القدس المحتلة منذ قيام اسرائيـــل . بالاضافة الى كونه المؤتمـــر الثاني للصهيونية العالمية منذ حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

ومما لا ريب فيه ان غياب الدكتور ناحوم غولدمان عن مسرح المؤتمر الاخير يشكل ظاهرة جديدة في مسيرة الحركة الصهيونية وتصاعد النفوذ الاسرائيلي الرسمي من خلال القوى الفاعلة في توجيه أنشطة الحركة واستقطابها الايديولوجي الملائم للحاجات الاسرائيلية ، الراهنة منها والطـارئة والمتوقعة . فقد شغل غولدمـــان منصب الرئاسة في المنظمة الصهيونية العالمية طيلة ١٢ عاما (من ١٩٥٦ الى ١٩٦٨) ، ولا يزال حاليا على رأس المؤتمر اليهودي العالمي . وكان مدعوا هذه المرة لالقاء الخطبة الافتتاحية بمناسبة اليوبيل الخامس والسبعين لقيام الحركة الصهيونية العالمية . لكن التصريحات التي أدلى بهـــا غولدمان امام جمع من اليهود البريطانيين في لندن (خلال الاسبوع الثالث من شهر كانون الاول ـــ ديسمبر ـــ ١٩٧١) أدت الى حرمانـــه من القاء خطبة الافتتاح التقليدية والتي تصادف مناسبة اليوبيل . فالمعروف انه ناشد اليهود في كافة أنحاء العالم ايقاف الحملة التحريضية ضد الاتحاد السوفياتي بقصد احراجه وارغامه على السماح بخروج اليهود الراغبين في الهجرة الى اسرائيل . وانتقد الذين ينادون بموقف « قصير النظر » زاعمين انه يحق لجميع اليهود الموجودين في الاتحاد السوفياتي أن يهاجروا الى اسرائيل ، لكي يؤكد على حق اليهود السوفيات في الوجود كجماعة يهودية داخل الاتحاد السوفياتي . حتى ان صحيفة « الجيروسالم بوست » نسبت في مقالها الافتتاحي الى الدكتور غولدمان اعتناق نظرية من هذا القبيل : « ينبغي لليهود ان يدركوا بان المستقبل يقبع لدى روسيا والصين ، وليس في الغرب مثلا ، وان يتدبروا أمور حياتهم على هذا الاساس »(١) .

لكن مثل هذه التصريحات ، رغم انطوائها على قدر من الواقعية السياسية واتصافهـــا بشيء من بعد النظر ، زودت المسؤولين الاسرائيليين بمادة ملائمة لاستنباط الذريعـــة الكافية لاقصاء الدكتور غولدمان عن تلبية الدعوة الاصلية . فسارع الناطقون الرسميون الى اعتبار كلامه وآرائه بمثابة هرطقة صهيونية ، واتهموه بالخروج على الخـــط المتبع رسميا : كما أعلن لويس آرييه بينكوس ، رئيس اللجنة التنفيذية للوكالـــة اليهودية ـــ المنظمة الصهيونية ، عشية انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين بأن المسؤولين في الحركة الصهيونية والاوساط الاسرائيلية النافذة لم يكن بوسعهم التغاضي عن تصريحات

غولدمان وتركه يتحدث عن الصهيونية طالما أن آراء الرجل لا تتفق « مع افكارنا وآرائنا بشأن الصهيونية »(٢).

ولا غرو فان جذور الخلاف بين الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية والاوساط الحاكمة في اسرائيل ترجع الى فترة مبكرة من قيام الدولة . فقد نشب النزاع بين غولدمان وبن غوريون حول مسألة بقاء الصهيونيين خارج اسرائيل وحقهم بالمشاركة مع الدولة اليهودية في تقرير الشؤون المصيرية . وتصاعدت نقمة الحكومة الاسرائيلية على ناحوم غولدمان في ربيع العام ١٩٧٠ ، اثر احباط المبادرة التي أخذها على عاتقه لترتيب لقاء مع الرئيس الراحل عبد الناصر . حتى ان الجنرال عيزر وايزمان (قائد سلاح الجو الاسرائيلي سابقا ، وعلى رأس وزارة المواصلات في الحكومة الائتلافية ، والرئيس الاداري لحركة حيروت حاليا) في تحليله لمرحلة حرب الاستنزاف ، اعتبر « الغولدمانية » بمثابة احدى الظواهر المميزة لذلك الجو البائس الذي خيم على اسرائيل في مستهل صيف ١٩٧٠ (٣).

لكن اتهام غولدمان بالهرطقة ينعكس على الموقف الاسرائيلي داخل الحركة الصهيونية ، مثلما انه يشير الى التوقعات التي تعلقها الاوساط الحاكمة في اسرائيل على دور المنظمة الصهيونية العالمية في المرحلة الراهنة والقادمة . وقد تبدى ذلك بوضوح في مناقشات المؤتمر الثامن والعشرين والازمة التي نشبت حول بعض قراراته النهائية . فالشيء الذي يمكن استخلاصه من تحليلات المراقبين والعارفين ببواطن الامور الصهيونية والاسرائيلية هو ، أولا ، ان الموقف الذي أعلنه غولدمان بشأن اليهود السوفيات — لئلا تطغى مسألة تهجيرهم الى اسرائيل على الاهتمام بضمان حرياتهم وحقوقهم الدينية كأقلية قومية في الاتحاد السوفياتي — هو موقف لا يتنافى ابدا مع برنامج المنظمة الصهيونية(٤). وثانيا ، ان الاوساط الحاكمة في اسرائيل اغتنمت مناسبة التصريح الذي تفوه به غولدمان لكي تقضي على رصيده الصهيوني داخل الحركة وتسحب منه الثقة كضابط اتصال بين الحكومة الاسرائيلية والاتحاد السوفياتي . ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض المؤيدين لناحوم غولدمان ، في اسرائيل وخارجها ، سارعوا الى الوقوف بجانبه وتوجيه الانتقادات الشديدة للخطوة التي أقدمت عليها الاجهزة الصهيونية المسؤولة بوحي من دوافع صادرة عن الاوساط الحاكمة في اسرائيل . حتى ان صحيفة « معاريف » ألحت في تعليقها على المؤتمر الذي شاءت له الجهات الاسرائيلية النافذة ان ينعقد في ظل انشغالها الهستيري بقضية الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفياتي ، فقالت ما مؤداه : « ينبغي للحركة الصهيونية في الخارج ان تولي اهتمامها المتزايد لمسائل التربية اليهودية ودروس تعليم اللغة العبرية وغرس « الوجدان اليهودي » في نفوس الناشئة ، بدلا من الانشغال بمشكلة الهجرة . اذاك تصبح الهجرة الى اسرائيل نتيجة منطقية ، ولن تحتاج الى عمليات دعائية واسعة النطاق»(٥). كما أقدم نفر من شبيبة المابام داخل قاعة المؤتمر على توزيع المنشورات ورفع يافطة بتأييد غولدمان ، والمطالبة بعودته الى منبر المؤتمر الصهيوني(٦).

لكن المندوبين التابعين لحركة حيروت — هتسوهار انتظروا حتى المرحلة الاخيرة للمؤتمر فتقدموا بمشروع قرار ينص على توجيه اللوم الشديد الى الدكتور ناحوم غولدمان بسبب نشاطه السياسي الذي يتعارض مع الخط الرسمي للسياسة الاسرائيلية (ن. م. د. ف. ٧٢/٢/١) . وتجدر الملاحظة هنا الى ان مشروع القرار هذا قوبل بالرفض من جانب الاكثرية ولم ينل العدد اللازم من الاصوات لاعلانه قرارا صادرا عن المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين . كما لا يخفى بان القضاء التام على نفوذ غولدمان داخل المنظمة العالمية معناه غلبة القوى الصهيونية العاملة بتوجيه الاوساط الحاكمة في اسرائيل

(حزب العمل الصهيوني) . وربما أدى الى اشتداد حدة الانقسام بين التنظيمات التي تقف الى جانب غولدمان أو تشاطره شيئا من آرائه (كالفئـــات الصهيونية العمومية في الولايات المتحدة ، مثلا) ، وبين العناصر العاملة بوحي من متطلبات السياسة الرسمية لحكومة اسرائيل . حتى ان غولدا مئير ، رئيسة الحكومة ، اختارت عنوانا لخطابها أمام المؤتمر على النحو الاتي : « أخطـــار الانقسام بيننا » . ومما جاء على لسانهـــا في جو مشحون بالازمة داخل قاعة المؤتمر : « من بين جميع المواهب التي نتحلى بها ، لدينـــا « موهبة » فذة هي : التطرف » . (مجلة **نيوزويك** الاميركية ، ٧٢/١/٣١) .

على ان اقصاء الدكتور ناحوم غولدمان ليس الا الظاهرة الخارجية التي تميز بها المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون . ولا بد من تناول الجوانب الاخرى لهذا المؤتمر لكي تتضح أبعاد الصورة الكاملة ، ويتاح الوقوف على المشكلات التي عالجها والتعرف الى الازمات التي واجهها . فالحركة الصهيونية ارتأت بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ان تضع لنفسها برنامجا يلخص أهدافها في صيغة جديدة (برنامج القدس ، ١٩٦٨) ، كما عمدت الى اتخاذ قرارات شتى تتعلق بتجديد شباب المنظمة العالمية واستقطاب المزيد من يهود العالم ، بالاضافة الى اعادة النظر في تركيبها وهيكلها التنظيمي .

الاحصاء الصهيوني « وصراع الاجيال »

ظهرت خلال انعقاد المؤتمر الاسبق (السابع والعشرون ، ١٩٦٨) بوادر تذمر ومناداة بالتجديد في صفوف العناصر الشابة داخل الحركة الصهيونية . وارتفعت أصوات الشباب مطالبة بجعل المنظمة الصهيونية ميدانا مفتوحا أمام الجيل الطالـــع ، لا سيما بالنسبة لاحتلالهم بعض المناصب والمراكز التي تسيطر على مقدرات الحركة ومواقع القوى في داخلها . فبادرت وسائل الاعلام الصهيوني حينـــذاك الى التحدث بصورة مستفيضة ، ولهجة تنم عن الاعتزاز والرضا ، عما دعته بـــ « ثورة الشباب » ، زاعمة ان المؤتمر السابع والعشرين قد انحنى أمام « انتفاضة القوى الشابة » واستجاب لمطالبها . وكان « الاتحاد العالمي للطلاب اليهود » قد ناقش في جلسة استشارية عقدهـــا بمدينة ميلانو (كانون الثاني ، ١٩٦٨) اقتراحا يدعو الى حل الحركـــة الصهيونية . فسقط الاقتراح نتيجة التصويت . مما دفع بمندوب المملكة المتحدة في الاتحاد المذكور ، غوردن هاوسمان، الى طرح دعوة مضادة من شأنها ان تمتص النقمة وتؤدي الى احتواء العناصر المعارضة. فقد ناشد هاوسمان الحركة الصهيونية توسيع نطاقها حتى تشمل جميع الذين استفزتهم حرب حزيران وتحفزهم لتأييد اسرائيل ودعمها بصورة فعلية . كمـــا دعا الى وجوب احداث تغيير جذري في تركيب الحركة بحيث يؤدي هذا التغيير الى افساح المجال أمام التمثيل على أساس فردي أو على أساس المنظمات التي أعلنت قبولها ببرنامج القدس (١٩٥١) (٧).

لكن العناصر الشابة والطلابية في الخارج تطلعت الى اجراء انتخابات داخل الحركة ، وتوسمت في تحقيق ذلـــك مناسبة لحقن دماء جديـــدة تنعش الجسد الفاسد للمنظمة الصهيونية بنظرها . بينما لم تشهد الحركة الصهيونية انتخابات من هذا القبيل طيلة ما ينيف على عقدين من الزمن . ومن الطبيعي ان تلقى مثل هذه الانتخابات معارضة شديدة في أوساط الذين تحدوهم الرغبة الى الاحتفاظ بمقاعدهم وعدم التنازل عن نفوذهم داخل المنظمة .

كيف جرت تلك الانتخابات وما هي نتائجها على صعيد نسبة التمثيل في المؤتمر الصهيوني؟ في أواخر شهر شباط (فبراير) ١٩٧٠ عقـــد المجلس الصهيوني العام دورته السنويـــة " تحت وطأة التهديدات التي أطلقتها وفود الشباب بعرقلة سير الاجتماعات والحيلولة دون استمرار الدورة"(٨). والمعروف ان هذا المجلس هو بمثابة الهيئة الحاكمة للمنظمة

الصهيونية خلال الفترة الفاصلة بين مؤتمر وآخر . فقد اتفق اعضاؤه على اجراء انتخابات عالمية للمؤتمر الصهيوني القادم ، وكتبت صحيفة « الجيروسالم بوست » تقول : ان هذا القرار هو الاول من نوعه منذ عقدين من السنين . وقد تم اتخاذه حيال وجود مشكلات كبيرة على الصعيدين المالي والتنظيمي أثارها بعض المندوبين(٩) .

اما المرحلة الاولى لانتخابات المؤتمر فقد انطوت على حملة عالمية بغية تسجيل اكبر عدد ممكن من الاعضاء على أساس قبولهم بالبرنامج الصهيوني الذي تبناه المؤتمر السابع والعشرون (برنامج القدس ، ١٩٦٨) . وينص البرنامج المذكور على الاهداف والمبادىء التالية :

« أهداف الصهيونية هي كما يلي :

— وحدة الشعب اليهودي ومركزية اسرائيل في الحياة اليهودية .

— تجميع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي — أرض اسرائيل — عن طريق الهجرة من كافة البلدان .

— تقوية دولة اسرائيل القائمة على رؤيا الانبياء في العدالة والسلام .

— الحفاظ على هوية الشعب اليهودي من خلال تنمية التربية اليهودية والتعليم العبري وتعزيز القيم الروحية والثقافية اليهودية .

— حماية الحقوق اليهودية في كل مكان »(١٠) .

فالتسجيل العضوية قبل المشاركة في الانتخابات يشترط على المرشح ان يبادر الى توقيع استمارة يعلن فيها تأييده لبرنامج القدس الوارد أعلاه . ولقد جاءت هذه الحملة بمثابة احصاء صهيوني على صعيد العالم أجمع . وكانت حصيلتها ان المنظمة الصهيونية العالمية تضم في عداد عضويتها ما مجموعه ٨٩٨،١٤٦ يهوديا — باستثناء اسرائيل(١١) . فلو أضفنا الى ذلك مجموع الصهيونيين المسجلين في اسرائيل ، ربما توصلنا الى رقم يتجاوز حدود ٩٠٠ ألف عضو . بينما يصل عدد اليهود الموجودين في العالم حاليا الى قرابة ١٤ مليون نسمة — استنادا الى المصادر الصهيونية اياها .

وفي حديث أجرته صحيفة « هآرتس » مع آرييه بينكوس ، رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية ، (بتاريخ ٨/١٠/٧١) ارتأى الزعيم الصهيوني ايراد تفسيره لعملية الاحصاء على النحو الاتي : « ان برنامج القدس هو في الحقيقة البرنامج الانتخابي الصهيوني . وعلى اساس هذا البرنامج قمنا باحصاء في المهجر . احصينا جميع الذين أعلنوا عن عضويتهم في منظمات صهيونية ، وطلبنا منهم التوقيع شخصيا على البرنامج . وقد تعرفنا ، بهذه الطريقة ، الى عدد كبير من اليهود لا ينتمون الى تنظيمات صهيونية معروفة ، ومع ذلك يتشوقون الى الصهيونية . لقد تعرفنا بهذه الطريقة الى نحو ٩٥٠ ألف شخص ، وقعوا البرنامج ويحق لهم الانتخاب »(١٢) .

ان انتخابات المؤتمر جرت على أساس قوائم تستند بدورها الى هذا الاحصاء الصهيوني . ففي المانيا الغربية ، مثلا ، يعيش الان حوالي ٥٠ ألف يهودي (تافور) . وينتمي من اصل هؤلاء ما مجموعه ٢٥٣٠ يهوديا الى عضوية المنظمة الصهيونية العالمية ، يمثلهم مندوبان في المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين . بينما هناك ما يقارب نصف المليون من اليهود في فرنسا ، تمثلوا لدى المؤتمر بعدد من المندوبين بلغ مجموعه ٢٣ مندوبا .

اما مجموع المندوبين الذين اشتركوا في المؤتمر وكان لهم حق التصويت على القرارات فقد وصل الى ٥٥١ مندوبا ، جاء توزيعهم كالاتي(١٣) : الليراليون (نتيجة تحالفهم مع جماعات متفرقة) : ٧٣ مقعدا ، حيروت (بعد فشل ائتلافها مع الليبراليين) : ٤٩ مقعدا ، الصهيونيون العموميون : ٨٩ ، حزب العمل الاسرائيلي — الصهيوني : ١٥٧ ،

حركة مزراحي : ٨٣ ، المابام : ٣١ ، الليبراليون المستقلون : ١٣ ، النساء الصهيونيات ــ هداسا : ٥٣ . والمجموع ٥٤٨ مقعدا .

وازاء الاحتجاجات التي ارتفعت في أوساط الشباب عن « المركز الاحتكاري الذي يحتله القدامى » داخل المؤتمر الصهيوني وعن ظاهرة التحجر ، والجمود التي تبدت اعراضها على المؤتمر كمؤسسة صهيونية ، بادر بينكوس الى القول ان ثلث المندوبين (البالغ عددهم ٥٥١ مندوبا) ينتمي الى عنصر الشباب من الذي تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و ٣٥ سنة(١٤) . لكن هذه النسبة التي يفردها بينكوس لعنصر الشباب داخل المؤتمر الصهيوني، ان صحت ، فهي تنطوي على بذور تهديد لنفوذ الزعامة التقليدية في الحركة الصهيونية . وفي تصريح أدلى به أحد المندوبين الشبان مردخاي بار ــ أون، نكتشف ان تمثيل العناصر الشابة في المؤتمر لم يبلغ النسبة التي ذكرها بينكوس : « على الرغم من ان الشباب ممثلون في المؤتمر الحالي بعدد كبير (١٠٠ شخص) عن حق وليس منة ، فان الشباب في المؤتمر يشعرون بأنهم يائسون ومضطربون ؛ وغرباء ، ومرتبكون . أما سبب ذلك فهو عدم قدرتهم على تخطي الحواجز الادارية في المؤتمر . . . [هذا بالاضافة] الى فوارق الجيل والنفسية بين المجتمع الاسرائيلي وبين المجتمع اليهودي في المهجر»(١٥) .

ولا نعرف ، مثلا ، ما اذا كان « الاتحاد العالمي للطلاب اليهود » قد تراجع عن قراره السابق بعدم الاشتراك فيالاحصاء الصهيوني وفي الانتخابات لمؤتمر القدس الاخير . ففي تحقيق نشرته صحيفة « معاريف » على ثلاث حلقات عن هذا الاتحاد بمناسبة الزيارة التي قام بها سكرتيره لاسرائيل نتبين وجود أزمة صعبة بين الاتحاد ، من جهة ، والاوساط الصهيونية والاسرائيلية من جهة ثانية . وتعود جذور هذه الازمة الى استياء القيادة الصهيونية من مواقف الاتحاد التي ظهرت في « مؤتمر عراد » (صيف ١٩٧٠) وتبلورت في برنامج مستقل . فالحركة الصهيونية تعتبر نفسها صاحبة حق في الوصاية على الاتحاد . وعندما يبادر مؤتمر عراد المذكور الى اتخاذ قرار بدعوة حكومة اسرائيل الى الاعتراف على الفور بالحقوق القومية للشعب الفلسطيني ، ويؤكد بان « تحقيق الاهداف الصهيونية مرتبط بحل المشكلة الفلسطينية » ــ ليس بمستغرب ان يثير نقمة الحكومة الاسرائيلية وغضب الحركة الصهيونية . هذا مع العلم بان المؤتمر الذي انعقد في عراد لم يتنكر لحق اسرائيل في الوجود والبقاء ، ولم يتردد عن التنديد بـــ « أعمال الارهاب العربية » . لكنه أعــرب أيضا عن أسفه لعمليات الاستيطان في المناطق التي احتلتها اسرائيل خلال حرب حزيران ، ودعا الى اعتبارها « ورقة مساومة » ابان محادثات السلام(١٦) .

فالقرارات التي اتخذها الاتحاد بشأن الاعتراف بالحقوق القومية للشعب الفلسطيني أحرجت المندوبين الاسرائيليين وحملتهم على الانسحاب من قاعة المؤتمر عند التصويت عليها . وعندما طلب المسؤولون الصهيونيون الى زعامة الاتحاد ان تبادر الى المشاركة في الاحصاء الصهيوني بوضع التواقيع على « برنامج القدس » (١٩٦٨) ، ارتأت هذه الزعامة ان تطالب ، مقابل ذلك ، بالتوقيع على « برنامج عراد » (١٩٧٠) . ثم لجأت الاجهزة الصهيونية الى تذكير « الاتحاد العالمي للطلاب اليهود » بان الانتخابات التي تجري داخل الحركة الصهيونية انما هي تتم بفضل المبادرة التي تزعمها الاتحاد اياه ابان المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين . لكن سكرتير الاتحاد وجد هذه المرة تبريرا معقولا لمواقفه التي أغضبت الاوساط الصهيونية والاسرائيلية على السواء . فقد أشار الى قرارات اتخذها شباب حزب العمل الاسرائيلي في مؤتمرهم الاخير بروح مشابهة ــ مما حمل غولدا مئير عن الامتناع عن حضور الجلسة الافتتاحية لهذا المؤتمر !(١٧)

ولئن دعا أحد المندوبين الشبان الى المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين الى مواصلة

الحوار بين عناصر الشباب والقيادة التقليدية داخل الحركة الصهيونية ، فلا يعني ذلك ان الازمة القائمة أصبحت في حكم المنتهية . بل ان كافة الدلائل تشير الى المخاوف التي تساور القيمين على شؤون الحركة الصهيونية من خروج الجيل الناشىء عن طاعتها التقليدية والتزامه بمواقف لا تتفق مع الخط الرسمي ، وتأبى الانصياع للسياسات التي تمليها حكومة اسرائيل .

غير ان المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين واجه مشكــلات من طراز آخــر وبالنسبة للتناقضات القائمة في المجتمع الاسرائيلي . فالى جانب اهتمامه الرئيسي بقضية الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفياتي وكيفية تأمين الموارد المالية اللازمة لسد نفقات التهجير والاستيعاب والاستيطان والتأهيــل ، قامت المنظمة الصهيونية العالمية ومعها المؤتمر بادراج مشكلة التوتر الاجتماعي والصعوبات التي يعانيها اليهود الشرقيون في اسرائيل على جدول الاعمال . ويبدو انها المرة الاولى في تاريخ الحركة الصهيونية ان يعمد المؤتمر الى تشكيل لجنة خاصة لمعالجة المشكلات الاجتماعية في الدولة الصهيونية .

الفهود السود والمهاجرون الجدد

رافقت جلسة افتتاح المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين تظاهرة صاخبة قامت بتنظيمها جماعة الفهود السود وانضمت اليها بعض الفئات اليسارية . وكان الفهود السود قد طلبوا ان يتم تمثيلهم في المؤتمر لكي يتسنى لهم عرض شكاويهم أمام سائر المندوبين عن التمييز الحاصل ضدهم ولصالح المهاجرين الجدد . غير ان اللجنة التنفيذية الصهيونية ابلغتهم بأن حق الكلام داخل جلسات المؤتمر هو امتياز يتمتع به المندوبون المنتخبون فقط. وفي اسرائيل يتم اختيار المندوبين الى المؤتمر الصهيوني عن طريق الاحزاب وتبعا لنسبة تمثيلها في الكنيست . لذا أشارت اللجنة التنفيذية علــى الفهود ان يقوموا بتلخيص مطالبهم ومشاكلهم وتقديمها مكتوبة الى أمانة المؤتمر . لكنهم رفضوا أسلوب التهدئة وامتصاص النقمة ، ولجأوا الى مهاجمة المنظمة الصهيونية العالمية بشدة وعنف. فعمدوا الى توزيع مناشير جاء فيها ما يلي : « عندما كنا في الخارج أغدقتم علينا الوعود التي تنبىء بكل خير ، لا لشيء الا لكي تحملوننا على المجيء الى اسرائيــل فحسب . لقد وعدتمونا بتحصيل تربية جيدة ، لكنكم في الواقع جعلتم منا مجرمين . وخلقتم منا شبابا تنقصهم الثقافة وشبيبة تعاني الاذلال والانسحاق ، لا بل جيلا من الشبان الذين تعوزهم التربية والتعليم . . . تعهدتم لنا بالسكن في منازل لائقة ، ثم حشرتمونا في أماكن ملأى بالاكواخ واحياء قذرة . أنتم تبذلون قصارى جهدكم لكي توفروا المساكن لليهود الروس، ثم يأتي من يقول لنا انكم لا تملكون المال اللازم . . . »(١٨).

ثم دعوا مؤيديهم للاشتراك في تظاهرة ضد المؤتمر الصهيوني والاعراب عن سخطهم على موقف الحركة الصهيونية ومن ورائها حكومة اسرائيل . فالاهتمام الكاسح الذي توليه الاوساط الحاكمة لقضية هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي أثار نقمة الفهود السود ونبههم من جديد الى سوء المعاملة التي يلقونها على يد الاوساط الحاكمة في اسرائيل ، حيث ترجح الكفة لصالح اليهود الغربيين بصورة فاضحة للغاية . واستقدام اليهود من الاتحاد السوفياتي يعني محاباة من جانب السلطة ، لانها تؤمن للمهاجرين الجدد أماكن للسكن على حساب الآخرين، أي دون الالتفات الى مطالب اليهود الشرقيين الذين يعانون من الحرمان ولا توجد مدارس كافية لتعليمهم . ليس من المستغرب ، اذن ، ان يشعر الفهود السود بأن المنظمة الصهيونية التي حفزتهم للمجيء الى اسرائيل قد غررت بهم وخدعتهم . فالحديث الطاغي على جلسات المؤتمر وفي أروقة المكان هو عن هجرة اليهود الروس وكيفية تأمين الاموال اللازمة لكي تتمكن اسرائيل من استيعابهم وتأهيلهم .

غير ان السلطات الاسرائيلية بادرت الى اتخاذ احتياطات مشددة على صعيد الامن .

واذا كانت التظاهرة التي قام بها الفهود السود وانصارهم قد استقطبت حوالي ٢٠٠ شخص (وهناك مصادر ترفع العدد الى ٣٠٠) ، فان قيادة الشرطة حشدت في القدس حوالي ٤٠٠ شرطي جرى استقدامهم من كافة أنحاء البلاد . كل ذلك للحيلولة دون تعكير صفو الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين . واستعمل الشرطيون هراواتهم في قمع التظاهرة ، كما لجأوا الى خراطيم المياه وفرق الخيالة واستخدموا أقسى الاساليب في تفريق المتظاهرين . علما بأن القوى لم تأت متكافئة على الاطلاق . حتى ان قوات الامن اعتقلت أحد الصحافيين بالاضافة الى واحد من مندوبي المؤتمر . وهناك مندوب ثان فاجأته الاشتباكات وهو في طريقه الى المبنى فخرج منهـا بذراع مكسورة . مما حدا بمراسل الماني الى اجراء مقارنة بين اندفاع رجال الشرطة لتفريق التظاهرة أمام مبنى انعقاد المؤتمر الصهيوني وبين تحفظهم وتراجعهم ابان الاسبوع الثقافي الالماني ، عندما انهال فريق من الشبان اليمينيين والمتطرفين بسيل من الشتائم والاهانات على نفر من اليهود الناجين من معسكرات الاعتقـال النازية ونعتوهـم بـ « النازيين »(١٩).

اما الخطبة الافتتاحية التي القاها آرييه بينكوس أمام مندوبي المؤتمر ، وعقب قيام قوات الامن بقمع التظاهرة واعتقال عدد كبير من المتظاهرين، فقد جاء فيها ان المؤتمر الصهيوني يقود اليوم معركة حياة وموت في سبيل مصير اليهود السوفيات . ولذا وجد بينكوس ان الظروف الراهنة تدفعه الى مناشدة جميع اليهود المقيمين خارج اسرائيل لكي يضاعفوا مساعداتهم المالية للدولة الصهيونية . بينما كانت غولدا مئير قد سبقته في خطابها « امام المؤتمر العالمي الرابع للاتحاد العبري » ، والمنعقد في تل ابيب، فناشدت اليهود في البلدان الغربية ذات الرخاء والبحبوحة أن يقتدوا باليهود السوفيات ويهاجروا الى اسرائيل . واستطردت رئيسة الحكومة للاعراب عن رأي مفاده ان تدفق مليون آخر من المهاجرين على اسرائيل من شأنه الحيلولة دون نشوب حرب جديدة في الشرق الاوسط ، لانه سوف يردع العرب ويقنعهم بعدم جدوى النزاع والقتال(٢٠).

على ان تظاهرة « الفهود السود » تكتسب دلالات بعيدة المدى ازاء الخلفية التي يصدر عنها موقف اليهود الشرقيين والسفارديين من الحركة الصهيونية والاوساط الحاكمة في اسرائيل . فالمنشور الذي قام الفهود بتوزيعه يعرب عن خيبة أمل مريرة من الوعود التي نشرتها الحركة الصهيونية وأجهزتها بقصد حملهم على المجيء الى الدولة اليهودية. وهناك نقمة شديدة في أوساط اليهود السفارديين خارج اسرائيل ، لا سيما في فرنسا ، حيث يحتشد عدد كبير من يهود شمال افريقيا ولا يريد هؤلاء ان يجازفوا بالهجرة الى اسرائيل خوفا من المعاملة السيئة التي يلقاها اليهود الشرقيون .

فقد نشرت صحيفة « لوموند » في باب « الرأي الحر » مقالة تحت عنوان « نحن يهود الكهوف » (١٩/١/٧٢) . وكاتب المقالة هو صموئيل زربيب ، أحد أعضاء المجلس الملي للطائفة اليهودية في تونس سابقا . كما انه من المندوبين الذين حضروا المؤتمر العالمي الاول لليهود السفارديين والاجتماعات التي عقدتها منظمة الصهيونيين العموميين لشمال افريقيا واوروبا في باريس . ومما كتبه زربيب بمناسبة انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين ، في معرض الاشارة الى برنامج القدس (١٩٦٨) ، هو التذكير بما يلي : « اذا كانت دولة اسرائيل هي مركز الوسط في الحياة اليهودية ، ينبغي لليهودي اذن ان يهتم ايضا بالحياة في دولة اسرائيل . واذا كان ينبغي توحيد الشعب اليهودي في الشتات، فهناك حجة أقوى لتوحيد هذا الشعب داخل دولة اسرائيل . ولئن كان الواجب يدعو الى الحفاظ على هوية الشعب اليهودي وأصالته خارج اسرائيل ، فمن الواجب ايضا افساح المجال أمام هذه الهوية لكي تعبر عن نفسها تعبيرا كاملا في اسرائيل بالذات ، وسواء كانت هوية اشكنازية أم سفاردية » . وفي معرض رده على تصريح أدلت به غولدا مئير

الى مراسل صحيفة « لوموند » ، حيث اجابت عن سؤال يتعلق بانعدام التكافؤ بين القوة العددية لليهود الشرقيين والسفارديين في اسرائيل وبين نسبة تمثيلهم في جهاز الحكم والمراكز القيادية للدولة بالاشارة الى العادات المتأصلة لدى هؤلاء والى عجزهم عن المشاركة في ادارة الدولة الى جانب الاشكنازيين — يخاطب زربيب جميع الذين يشاطرون رئيسة الحكومة الاسرائيلية هذا الراي بقوله : « لو ان موازنة التربية الوطنية سارت على الايقاع التصاعدي ذاته لموازنة الدفاع ، لكانت الجامعات الاسرائيلية تضم الان نسبة من الطلاب المتحدرين من أصول سفاردية تفوق نسبتهم الحالية من ٨ بالمائة ... ولكان عدد « الفهود السود » قد تضاءل كثيرا في شوارع القدس »(٢١).

فهل تنوي المنظمة الصهيونية العالمية معالجة المشكلة الاجتماعية داخل اسرائيل ، وهل تستطيع ذلك دون الاصطدام برغبات الحكومة الاسرائيلية وسياسة الاولويات التي اختطتها لنفسها ؟ أم ان التناقضات سوف تزداد حدة ازاء الاهتمام الطاغي باسترضاء اليهود السوفيات وتشجيعهم على البقاء في الدولة الصهيونية ؟ هذا مع العلم بأن الامور لا تسير على خير ما يرام مع المهاجرين الذين وفدوا حديثا من الاتحاد السوفياتي . فقد تبين ، مثلا ، ان هؤلاء المهاجرين الجدد حصلوا على بعض التمثيل في المؤتمر الصهيوني. لكنهم اصيبوا بخيبة أمل وأعربوا عن استيائهم من « المكانة الدنيا » التي أعطيت لهم في تركيب المؤتمر . والظاهر انهم كانوا يأملون بالحصول على نسبة أوسع من التمثيل مع ضمان كامل لحقهم في التصويت على القرارات(٢٢).

تهديدات الحاخام كهانا

لم ينفرد الفهود السود بطلب تمثيلهم لدى المؤتمـر والاستماع الى شكاويهم ، بل ان الحاخام كهانا — زعيم رابطة الدفاع اليهودية ، الذي قرر الاقامة في اسرائيل مؤخرا — اراد اسماع صوته والترويج لافكاره أمام المندوبين . فقد هدد كهانا وانصاره بتعطيل جلسات المؤتمر وعرقلة أعماله ، ما لم تتمثل الرابطة في المؤتمر الصهيوني ويعطى لمندوبها حق الكلام . لكن أوساط اللجنة التنفيذية رفضت الاستجابة لطلب الرابطة ، بحجة ان الرابطة المذكورة كان لديها الوقت الكافي في الولايات المتحدة لكي تنضم الى المنظمة الصهيونية الاميركية فتكتسب بذلك حق التصويت والكلام . بينما صرح الحاخام كهانا بأنه رفع الى المنظمة الصهيونية في اميركا الفي توقيع لتحقيق الغرض المشار اليه . وردت أوساط مسؤولة لدى المنظمة الاميركية بقولها ان الطلب المقدم من رابطة الدفاع اليهودية كان يحمل ٥٠٠ توقيع وليس ألفين ، كما جرى تقديمه بعد انقضاء المهلة القانونية . غير ان هذه التبريرات لم تقنع مثير كهانا وجماعته على ما يبدو ، لا سيما وانه ضمن التأييد من اوساط تنتمي الى حركة حيروت — هتسوهار . فقد أصر لدى وصوله الى اسرائيل على تنفيذ القسم التالي : « اما ان يتاح لي التحدث أمام المؤتمر ... أو ينتهي بي الامر الى السجن . لا توجد سبل اخرى » . وهدد باللجوء الـى التظاهرات والاساليب المعهودة عنه وعن جماعته . كما ترامى الى الاسماع بأنه لا ينوي الاكتفاء بترديد معزوفته الشائعة عن اليهود السوفيات فحسب ، بل سوف يعمد الى اثارة مسألة « الابادة » التي يتعرض لها اليهود الاميركيون بفضل خطر الاندماج والتماثل ! ويقول تافور ان الحاخام كهانا أراد عرض مشروعه على المؤتمر الصهيوني ، وهو المشروع الرامي الى اجلاء اليهود الاميركيين ونقلهم الى اسرائيل !

غير ان المؤتمر لم يستجب لمطالب الحاخام مثير كهانا . ورغم المؤازرة التي نالها من جانب المندوبين التابعين لحركة حيروت وانصارها ، فقد صوت المؤتمر الصهيوني في جلسة ضمت كافة المندوبين ضد الاستماع الى آرائه ومشاريعه. وكان مشروع الاقتراح الداعي الى السماح له بالكلام صادرا عن اوساط المندوبين الذين يمثلون حيروت . لكن تهديدات

كهانا لم تنفع ، وبقيت دون تنفيذ ، حتى أنه أعلن في أعقاب نتيجة التصويت عزمه على استئناف القضية امام محكمة المؤتمر الصهيوني لكـي تلفظ حكمها . وعلقت مجلـة « نيوزويك » على تهديد كهانا باللجوء الى حلين لا ثالث لهما ، فقالت : « تبين ان هناك سبيلا أخرى . فقد صوت المندوبون ضد الاستماع اليه . ولم يقم بأية محاولة لاقتحام منبر المؤتمر بحجة اثارة « قضية الابادة التي تواجه اليهود الاميركيين » .

ومما تجدر الاشارة اليه ان انعقاد المؤتمر لم يشهد تظاهرات الفهود السود وتهديدات الحاخام كهانا فحسب ، بل تخللت جلسته الافتتاحية ظاهرة صدرت عن بعض الفئات اليسارية التي رفعت شعارات مناوئة للصهيونية وانضمت الى جماعـات « الفهود السود » ابان التظاهرة .

قرارات وتصريحات

واستمع المؤتمر الصهيوني الى تهديدات من نوع آخر ، أطلقها وزير الدفاع الاسرائيلي — موشيه دايان — في خطابه مناشدا العرب اعتماد « التعقل » . فقد كـرر الموقف الاسرائيلي الرسمي من حل النزاع القائم ، ودعا العرب الى تعديل موقفهم الاساسي من النزاع . ثم استطرد قائلا بأن انتصار اسرائيل العسكري لن يسفر عن ايجاد التفهم لدى العرب أو التفاهم معهم ، حتى ان المشكلة لم تعد مشكلة عسكرية وليس لها من حل بالطرق العسكرية . وفيما يتعلق بالصهيونية ، أردف دايان بقوله : « جاءت الصهيونية لتصحيح مظالم الماضي ومساوئه ، كما جاءت لكي تضمن مستقبل الشعب اليهودي . وبينما كان على اسرائيل في الماضي ان تقلق بشأن كيفية الدفاع عن نفسها ، فان القاهرة ودمشق هما اليوم أقل مناعة من تل ابيب او بئر السبع . أما المسائل العائدة للهجرة اليهودية او لانشاء مستوطنات جديدة فهي تخضع للقرارات الاسرائيلية دون حاجة الى أخذ موقف العرب في الحسبان »(٢٣).

كما ذكر شلومو هيلل ، وزير الشرطة الاسرائيلي ، امام أعضاء المؤتمر بأن عدد اليهود الذين غادروا البلدان العربية الى اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ يصل الى قرابة ٨٠٠ الف يهودي ، وان ستين ألف يهودي ما زالوا يعيشون الآن في البلدان المشار اليها .

وعندما عقد المؤتمر جلسة خاصة للاستماع الى بن غوريون بمناسبة بلوغه الخامسة والثمانين من العمر ، بادر الزعيم العجوز الى تكرار معزوفته التقليدية عن الدهشة والاستغراب لتوجيه مثل هذه الدعوة اليه ، بقوله : « أنا لست حتى من الاعضاء المنتمين الى المنظمة الصهيونية » . والمعروف ان بن غوريون استقال من عضوية المنظمة قبل عقدين من السنين . لكنه ، رغم الاستقالة ، لم يتخلف عن تلبية الدعوة منذ ذلك الحين . هذا وقد عدد بن غوريون ثلاثة مشاريع رئيسية ينبغي لاسرائيل ان توليها اهتمامها : أولا ، ان اسرائيل لن تكون اسرائيل بدون وجود اكثرية الشعب اليهودي للعيش فيها . ولذا فالامر يحتاج الى هجرة يهودية تحمل ما يتراوح بين ٥–٦ ملايـين يهودي الى اسرائيل . ثانيا ، التطوير الكامل والاستيطان التام لصحراء النقب . وثالثا ، احلال السلام مع جيران اسرائيل العرب(٢٤) .

ولقد كتب احد المعلقين في المانيا الغربية (عمانوئيل بيرنباوم) تعليقا تحت عنوان « لا يرغب كل اليهود في الذهاب الى اسرائيل » ، فأشار الى ان الذين يتعاطفون مع اسرائيل من يهود العالم ليسوا بحاجة الى الاستيطان فيها . وأعـاد الى الاذهـان قصة البارون روتشيلد الذي تبرع بأموال كثيرة للدولة اليهودية ، وعندما سئل عن المنصب الذي يتطلع اليه في الدولة العتيدة ، أطلق اجابته الشهيرة : « سفيرا لاسرائيل في باريس » . ثم انتقل الى الرد على مشروع بن غوريون القديم ليؤكد ان استصلاح النقب واستخصابه هو مسألة لها حدود تفرضها الطبيعة . هذا بالاضافة الى المساعدات المالية البارزة التي

يحتاجها التأهيل الاقتصادي للمهاجرين الجدد . وانتهى الى الاثناء على موقف غولدمان وتقديره الرصين للوضع السائد في أوروبا الشرقية ، كما اعتبر الذين يقدرون عدد اليهود الراغبين في الهجرة بما يتجاوز رقم ٢٥٠ الف يهودي على اقصى حد بأنهم يمارسون نوعا من التفكير القائم على التمني الصهيوني(٢٥).

لكن قرارات المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين لم تشأ تخييب آمال الزعماء الاسرائيليين . فقد تقدمت اللجنة السياسية للمؤتمر من جمعيته العمومية بمشاريع قرارات جرى التصويت عليها بالاجماع . ومن هذه القرارات واحد يدعو الى تأييد اسرائيل في كفاحها الرامي الى « احلال سلام عادل ودائم ، ضمن حدود آمنة ومرسومة بوضوح يتم التوصل اليها عن طريق المفاوضات ودون شروط مسبقة » . كما ينص هذا القرار على دعم اسرائيل في مطالبها بالحصول على السلاح . وهناك قرار ثان شدد فيه مندوبو المؤتمر على حق اليهود السوفيات في الهجرة الى اسرائيل ، مثلما أعرب المؤتمر في قرار آخر عن قلقه « بشأن الوضع الصعب الذي يعانيه اليهود في البلدان العربية »(٢٦)، زاعما بأن هؤلاء اليهود « محتجزون كرهائن » في هذه البلدان ! لكن المؤتمر اياه رفض الموافقة على مشروع قرار تقدمت به أوساط الطلبة والشباب — على ما يبدو — اذ يدعو اسرائيل الى « الاهتمام بالشؤون الاجتماعية للعرب في المناطق المحتلة » . كما رفض مشروع القرار الذي تقدمت به « القائمة الرسمية » (جماعة بن غوريون في السابق)(٢٧).

وهو يتضمن الدعوة الى « تصفية الصندوق القومي اليهودي » (الكيرين كايمت لاسرائيل) ، علما بأن الاعمال التي يمارسها الصندوق المذكور تشمل مسألة استملاك الاراضي في فلسطين والمناطق المحتلة وتأجيرها الى المستوطنين والمهاجرين اليهود .

وعلى صعيد العلاقات مع الطوائف والهيئات غير اليهودية، طالب المؤتمر بضرورة « زيادة النشاط الهادف الى اقامة علاقات بين اليهود وغيرهم من الطوائف الدينية » ، ولا سيما العلاقات مع المسيحية ، على ان تجري « مراعاة المعنى العميق لكل من الصهيونية واسرائيل» . كما دعا المؤتمر الصهيوني الى الابقاء على «الاتصالات مع المنظمات الدولية غير الحكومية ، من أجل زيادة التعريف بكل من اسرائيل والصهيونية في العالم » .

والحديث عن قرارات المؤتمر الصهيوني ينقلنا الى التساؤل عن منجزاته الرئيسية بالنسبة لكل من الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل . ما هي الآمال التي كانت معقودة عليه والتوقعات المنوطة به ؟ هل استجاب للتحديات التي تواجهها الحركة الصهيونية منذ قيام اسرائيل ، وكيف استطاع ان يتخطى العقبات والمشاكل التي برزت بصورة واضحة على مسرح المؤتمر الاسبق ؟

وربما كان من الانسب تناول هذا الموضوع من زوايا ثلاث على المستويات التالية : **الايديولوجية والتنظيم والتمويل** . على ان يكون التشديد الرئيسي منوطا بالناحية الايديولوجية في الحركة الصهيونية خلال السبعينات .

هل انتهت صهيونية الآباء ؟

ان الموضوعات المدرجة في جدول اعمال المؤتمر الصهيوني تجري صياغتها عادة بصورة عامة جدا . فالموضوع الذي استغرق جلسة الافتتاح وساد المناقشات طيلة يومين من أيام المؤتمر هو موضوع « الشعب اليهودي والحركة الصهيونية » . وهناك دون ريب موضوعات أخرى تتناول مشكلة الهجرة وقضية خروج اليهود من الاتحاد السوفياتي وبعض البلدان العربية ، بالاضافة الى الموضوع العام عن تحديد الروابط بين الشتات اليهودي واسرائيل ، حيث ترد المشكلات المتعلقة بالتربية اليهودية وتلقين اللغة العبرية لليهود الموجودين في الخارج . كما ان المؤتمر يهتم بتحديد الوسائل الكفيلة بتدعيم دولة

اسرائيل وتأمين المساعدات المالية اللازمة . فالهجرة المتوقعة تأتي من الاتحاد السوفياتي ، مثلا ، بينما تقع على عاتق اليهود في اميركا والعالم الغربي مسؤولية تسديد « الفاتورة » التي تتضمن النفقات في حقول التهجير والاستيطان ومجالات الاستيعاب والتأهيل .

ولقد سبق لرئيس اللجنة التنفيذية في الوكالة اليهودية ، آرييه بينكوس ، أن قال في كلمته الختامية التي ألقاها عند انتهاء دورة المجلس الصهيوني العام (آذار ، ١٩٧٠) ما يلي : « ثمة واجب أدبي يقع على عاتق كل يهودي يعي يهوديته ، وهو واجب الانضمام الى المعسكر الصهيوني » . ثم عاد وأفضى في حديث أجرته معه صحيفة « هآرتس » بالكلام التالي « ان التربية اليهودية في المهجر هي المهمة الرئيسية للحركة الصهيونية في السبعينات »(٢٨).

بينما بادر رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية ، أهود افريال ، الى تقديم استقالته (أواخر ١٩٧١) من المنصب الذي كان يشغله وتوجيه النقد الشديد الى المنظمة الصهيونية . فهي بنظره منظمة تحتاج الى اعادة نظر جذرية ، بحيث يجري تناول مسائل من هذا النوع : من هم زعماء المنظمة ؟ وما هي الوجهة التي تتخذها لدى الجمهور اليهودي ؟ ومن هم أولئك الاشخاص الذين يتماثلون معها ؟ ومن هم الذين تجتذبهم هذه المنظمة ؟ واذا كانت استقالته قد جاءت لانه لم « يستسغ الاسلوب الذي تدار به اعمال المنظمة الصهيونية ويتم به تنفيذ تلك الاعمال » ، فقد حدد افريال في مقابلة اذاعية مفهومه للاولويات في المهام الرئيسية الملقاة على عاتق المنظمة الصهيونية العالمية على النحو التالي : أولاً ، التربية العبرية . ثانيا ، هجرة الاعضاء المنتسبين الى هذه المنظمة ، وثالثاً ، التماثل التام دون قيد او شرط مع دولة اسرائيل . وانتهى الى القول : « ان الهجرة الى اسرائيل تأتي قبل طائرات الفانتوم. ويجب اعطاؤها ما تستحقه من أفضلية. واذا ما ضاعفنا جهود الهجرة ، وخفضنا مستوى حياتنا من اجل استيعاب المهاجرين الجدد ، فاننا نستطيع الوصول خلال فترة تتراوح بين ٤ و٥ سنوات الى خمسة ملايين يهودي في البلد »(٢٩).

لكن هذه التصريحات التي ادلى بها كبار المسؤولين في المنظمة الصهيونية ، وخلال فترة سابقة لانعقاد المؤتمر الثامن والعشرين ، تعكس شيئا من تضارب الآراء والتناقضات الكامنة في صميم الايديولوجية الصهيونية ، كما في اتجاهات الحركة والتركيب الراهن لاجهزة المنظمة الصهيونية العالمية . فقد ارفضّ المؤتمر وسط أزمة شديدة عصفت به ونشبت اثر حدوث انقسام في الرأي حول ما اذا كان يتوجب على كل صهيوني المجيء الى اسرائيل والتوطن فيها . والمعروف ان هذه المسألة كانت المحك الذي أصر عليه بن غوريون في مطلع الخمسينات ، فأدى به الامر الى الخروج من المنظمة الصهيونية ، مثلما ازداد التباعد بينه وبين غولدمان ، رئيس المنظمة العالمية حتى العام ١٩٦٨ . فماذا حدث في جلسة التصويت على القرارات لكي ينتهي المؤتمر في جو مشحون بالازمة التي تكاد تشق الحركة الى معسكرين ؟ وهل جاءت القرارات موضوع الخلاف بمثابة انتصار للموقف الذي تمسك به بن غوريون منذ ذلك الحين ؟

ثمة قرارات ثلاثة ، على الاقل ، جرى التصويت عليها واتخاذها في الجلسة الختامية للمؤتمر . فالقرار الاول يعتبر غرس الثقافة الصهيونية في نفوس النشء اليهودي من الواجبات الرئيسية التي تقع على عاتق كل فرد يهودي خارج اسرائيل . والقرار الثاني يؤكد ان الهجرة الى اسرائيل هي من واجب كل شخص صهيوني . أما القرار الثالث — وهو الذي أدى الى نشوب الخلاف بين المندوبين — فقد اشترط على كل مسؤول في الحركة الصهيونية عدم الاستمرار في تولي المهام الرسمية داخل الحركة طيلة ولايتين

متلاحقتين ، ما لم يبادر هذا المسؤول الى تدبير أمر هجرته الى اسرائيل في تلك الاثناء . وفي حال اخفاق هذا المسؤول في اتخاذ الخطوة الحاسمة ، يتوجب عليه ان يستقيل من منصبه .

ان هذا القرار تقدم به تنظيم « الحارس الفتى » التابع للحركة الصهيونية العمالية ، وحظي بتأييد شديد من جانب المندوبين الاسرائيليين . ولقد جرت محاولة مماثلة خلال المؤتمر السابع والعشرين لتمرير مشروع قرار من هذا القبيل . لكن الخوف من احراج الفريق الصهيوني الاميركي حال دون المضي به حتى النهاية . بينما فاز القرار هذه المرة بأغلبية ضئيلة لا تتجاوز ستة أصوات (١٠٤ أصوات لصالحه و٩٨ صوتا ضده) . ولا ريب في ان فوز القرار يحقق أمنية غالية لدى الزعماء الاسرائيليين ، وعلى رأسهم دافيد بن غوريون . فهو موجه بالدرجة الاولى ضد فريق « الصهيونيين المحترفين » الذين قد يرتضونه على الصعيد النظري فحسب ، لكنهم لن يتنازلوا عن مواقعهم خارج اسرائيل بقصد ترجمته الى تطبيق عملي .

وربما كان الخلاف الذي نشب حول القرار ، وأدى الى انسحـاب مندوبات الهداسا (النساء الصهيونيات) من قاعة المؤتمر ، هو النقاش العقائدي الملحوظ في هذا المؤتمر الصهيوني . فالاوساط القابعة وراء تقديمه وانجاحه رأت فيـه ضربة موجهة الـى « صهيونية الآباء » ، وذريعة لاحراجهم بقصد اخراجهم من مناصبهم التقليدية داخل الحركة . وهي أوساط يغلب فيها عنصر الشباب الصهيوني المتطرف وتدعمها الحكومة الاسرائيلية والجهات النافذة في حزب العمل . انها تدّعي رفض المساومات وتصر على استخلاص النتائج المنطقية من كون المرء عضوا في المنظمة الصهيونية خارج اسرائيل . و« الصهيونيون المحترفون » الذين يطالهم هذا القرار هم اولئك اليهود الذين ينطبق عليهم التعريف الشائع للشخص الصهيوني : « ذلك اليهودي الذي يتبرع بالمال الى يهودي ثان لكي يؤمن به انتقال يهودي ثالث الى اسرائيل » ! بيد انه من الصعب الاقتناع بأن مصلحة الحركة الصهيونية واسرائيل تقضي بالتخلص كليا ونهائيا من أمثال هؤلاء اليهود. فالمعروف انهم يشكلون الاكثرية الساحقة بين اليهود الذين يمدون اسرائيـل بالاموال والمساعدات ويوفرون النجاح لحملات الجباية وجمع التبرعات . وهذا ما يفسر الى حد ما انسحاب مندوبات الهداسا البالغ عددهن ٥٣ من قاعة المؤتمر . لكن رئيسة فرع منظمة الهداسا بادرت الى التأكيد بأن اتخاذ مثل هذا القرار لن يصل بالمنظمة النسائية الى حد الانسحاب من الحركة الصهيونية ، رغم اعترافها في الوقت نفسه بأنه قد يتسبب في احداث انشقاق داخل الحركة .

ومما يدل على خطورة الموقف والنتائج التي قد يرتبها اغضاب الصهيونيين الاميركيين هو التراجع الذي أعقب انسحاب النساء الصهيونيات . فالقرار بنظر معارضيه يخالف دستور المنظمة الصهيونية العالمية ، اذ ينطوي على اجراءات تعسفية ويهدد بفرض العقوبات . والهداسا هي منظمة اختيارية ، لا تستطيع حمل اعضائها علـى التقيد بمضمون القرار وتنفيذه عمليا . كما تجدر الاشارة الى ان منظمة الهداسا في الولايات المتحدة تضم ما يزيد على ثلث اعضاء المنظمة الصهيونية العالمية (يبلغ عدد أعضائها في الولايات المتحدة ٣٥٠ الف عضو !) . وازاء هذه الوقائع والمحاذير لجأ الخائفون من عواقب الامر الى التخفيف من حدة القرار بجعله « توصية » بدلا من « قرار » ، على ان يسري مفعول هذه التوصية بعدما يفرغ الخبراء القانونيون من دراسة الموضوع واصدار حكمهم عما اذا كان يحق للمؤتمر الصهيوني اتخاذ قرار حاسم من هذا النوع .

فعلى المستوى الايديولوجي الصهيوني يبقى انجاز المؤتمر الثامن والعشرين رهنا بمصير « القرار » الذي تحول الى « توصية » ، بانتظار رأي الخبراء . والقرار الذي تقدم

باقتراحه مناحيم بيغن وحظي بموافقة الاكثرية ــ «لا مجال للتشكيك في الحقوق التاريخية للشعب اليهودي في أرض اسرائيل » ــ هو قرار لا ينطوي على شيء جديد بقدر ما يرضي غرور الذين تقدموا به . كما ان الاحزاب الدينية واليمينية لم تستطع انجاح مشروع قرارها الداعي الى الانطلاق من المفهوم الديني في تحديد « من هو اليهودي ؟ » .

وعلى الصعيد التنظيمي ، يمكن القول ان الانتقادات التي سبقت انعقاد المؤتمر لم تؤت ثمارها . فقد اوردت الصحف نبأ انتخاب آرييه بينكوس لرئاسة المنظمة الصهيونية العالمية ، بعد أن كان يشغل منصب رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ــ المنظمة الصهيونية . وبقي منصب الرئاسة شاغرا منذ استقالة ناحوم غولدمان (١٩٦٨) أو عزوفه عن الترشيح ازاء المعارضة الاسرائيليــة . وربما كان انتخاب اسحق نافون لرئاسة « لجنة العمل الصهيونية » بمثابة بادرة لاسترضاء اليهود السفارديين(٣٠). مع العلم بأن « لجنة العمل » لا تعمل الا خلال الفترة الفاصلة بين مؤتمرين ! كما تجدر الملاحظة الى كون نافون هو الممثل الوحيد عن اليهود الشرقيين الذي أتيح له ان يشغل هذا المنصب ، وللمرة الاولى في تاريخ الحركة الصهيونية . وعلاوة على انتخاب نافون اعطي المندوبون السفارديون (والبالغ عددهم ٨٠ مندوبا في المؤتمر) مقعدا واحدا في اللجنة التنفيذية الصهيونية التي تضم ٢٠ مقعداً . فأخذ المقعد اندريه ناربوني ، وهو محام يهودي كان يمارس المهنة في الجزائر سابقا .

لكن هذه البادرة تجاه السفارديين تهدف الى استرضائهم ، أكثر من كونها تشكل تغييرا جذريا على الصعيد التنظيمي . وقد علق أحد المراسلين اليهود ، وهو فرنسي ، على منجزات المؤتمر بالنسبة لتركيب المنظمة الصهيونية بقوله : « غير ان جميع الانتقادات لم تسفر عن احداث اي تغيير ملحوظ في الاجهزة والبنيات التي تقادم عهدها داخل المنظمة الصهيونية . فهي ما زالت على حالها ، بمثابة جهاز ضخم يسيطر عليه الزعماء والاعيان الذين تقوم بتعيينهم الاحزاب السياسية الاسرائيلية »(٣١).

وعلى الصعيد المالي ، يصعب التكهن حاليا بنتائج حملات الجبايــة وجمع الامــوال والتبرعات . لكن أجهزة الجباية الصهيونيــة سوف تمضي في استغلال قضية اليهود السوفيات الى جانب الاساليب النفسية الاخرى ؛ بغية حمل اليهودي الاميركي على التبرع بسخاء . وليس بمستبعد أن تلجأ هذه الاجهزة الى استثارة الاريحية لدى المتبرع اليهودي الاميركي عن طريق « غسل دماغه » واقناعه بأن تبرعه ، فضلا عن كونه تأدية للواجب الاخوي ، مرهون بالتعبير عن كراهيته لدولة شيوعية .

وثمة تعديلات طرأت على تركيب الحركة الصهيونية ، لكنها تمت قبل انعقاد المؤتمر الثامن والعشرين ، وجاءت تنفيذا لمقررات اتخذها المؤتمر الاسبق (السابع والعشرون). فقد أصدرت اللجنة التنفيذية خلال دورة انعقادها (تموز ، ١٩٦٩) بالقدس قرارا يقضي بتوسيع هيكل الوكالة اليهودية ــ على غرار ما احدثه وايزمان عام ١٩٢٩ بالنسبة للوكالة اليهودية الموسعة . والغرض الظاهر لعملية التوسيع هو اتاحة المجال امام الجماعات والتنظيمات غير الصهيونية لكي تنضم الى صفوف الوكالة اليهودية ، بحيث يؤدي ذلك الى مضاعفة نسبة العضوية في الصيغة الجديدة لتنظيم الوكالة . اما اعتبار هذا التعديل بمثابة « الحدث التاريخي » الذي من شأنه توليد مضاعفات على الصعيد اليهودي العالمي ، فانه أقرب الى النواحي المالية منه الى التغييرات التنظيمية . وليست المشاركة التنظيمية في ادارة اعمال الوكالة ، عن طريق السماح بضم غير الصهيونيين الى تركيبها ، سوى تغطية لتأمين المزيد من اموال الجباية والتبرعات . ففي التصريح الذي ادلى به بينكوس ، رئيس المجلس التنفيذي للوكالة ، الى صحيفة هآرتسس (٧١/١٠/١٨) نكتشف الغرض الحقيقي لعملية التوسيع ، حيث قال بصدد مشاركة

غير الصهيونيين في ادارة الوكالة انها اتاحت المجال لتشكيل لجنة عالمية تهتم بأمور الجباية في الخارج . واستطرد بينكوس قائلا : « كان هناك حتى الآن جباية خاصة بكل بلد . وسوف يتغير الان طقم العاملين في جمع الاموال ، من خلال المعرفة والخبرة ، لكي يصار الى استعمال اساليب جديدة . كما انه سيقام معهد خاص لتدريب الاشخاص المولجين بجباية التبرعات . . . »(٣٢) .

وتجدر الاشارة هنا الى تعديلات اخرى جرت على صعيد التنظيم داخل الحركة الصهيونية العالمية ، وتمشيا مع القرارات المتخذة في المؤتمر السابع والعشرين . فالتعديل الاول تميز بتشكيل « الفدرالية الصهيونية الاميركية » وانضمامها الى عضوية المنظمة العالمية . والمعروف ان هذه الفدرالية تتألف من المنظمات الصهيونية الرئيسية في الولايات المتحدة ، كما تبلغ عضويتها المجتمعة ما يزيد على نصف مليون شخص . أما التعديل الثاني ، فهو انشاء « المجلس الصهيوني لاسرائيل » ، حيث يخضع تركيب هذا المجلس لتوزيع القوى بالنسبة للاحزاب الاسرائيلية .

اما المؤتمر ككل ، وبالنسبة للمشكلات الكبرى التي ادرجها في جدول اعماله ، فانه خيّب الآمال الكثيرة ، بنظر المراقبين . فالشخص العادي في اسرائيل أظهر اللامبالاة حيال مناسبة صهيونية بمثل هذه الاهمية . والصحافة لم تتردد في توجيه النقد الشديد احيانا . بينما جاء الانذار ، الذي صدر عن عناصر الشباب الصهيوني العامل بوحي من الجهات النافذة في اسرائيل ، وخاطب قدماء الصهيونيين بلهجة قرار مؤداه : « تعالوا الى اسرائيل او تخلوا عن مناصبكم » ليضع الحركة الصهيونية على حافة الانشقاق . وفيما يتعلق بهجرة اليهود السوفيات ، ثمة دلائل تشير الى ان هذه الظاهرة تنطوي على نقمة ، جنبا الى جنب مع « النعمة » التي تتوسمها اسرائيل . فالحلم ، على حد قول احد المراقبين ، يحمل معه عناصر الكابوس المزعج !

ولقد أوجز احد المراسلين الالمان في اسرائيل حصيلة المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين لجهة التوقعات والمنجزات على النحو الآتي : « القرارات وحدها تكفي لكي يرى المرء ان المؤتمر لم يحقق الآمال التي علقها عليه المتفائلون : فقد تنبأ دعاة التفاؤل مسبقا بان المؤتمر سوف يولي اهتمامه على نطاق واسع جدا للمشكلات الاجتماعية بداخل اسرائيل . كما تنبأوا ايضا بان عنصر الشباب سوف يأخذ مبادرة الكلام واثبات الوجود في هذا المؤتمر اكثر من ذي قبل . لكن الامور سارت على غير ما اشتهته رياح التنبؤات »(٣٣) .

ان « صهيونية الآباء » لم تجد نهايتها على يد الابناء في المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين . ومهما هبطت أسهم « الصهيونيين المحترفين » لدى دعاة « الصهيونية المنسجمة مع نفسها » و« الهادفة لتحقيق الهجرة الذاتية الى اسرائيل » ، فان المنظمة الصهيونية العالمية لا تستطيع الاستغناء عن الآلاف من سفرائها في شتى انحاء العالم ، كما ان اسرائيل لن تكون اسرائيل بدونهم خارجها .

ملاحظة ــ جرى الاعتماد في اعداد هذه المقالة عن المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين على الصحف الاجنبية بالدرجة الاولى ، ولا سيما الصحف الصادرة باللغة الالمانية . كما تم الرجوع الى « نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية » ، منذ صدورها وحتى تاريخه ، لاستقاء المعلومات واقتباس التصريحات المتعلقة بشؤون الحركة الصهيونية والاطار الخلفي لمناسبة انعقاد المؤتمر الاخير . ومما يسترعي الانتباه ان معظم الصحف الاجنبية الكبرى قد اولت المؤتمر الصهيوني اهتمامها البالغ ، فنشرت التقارير والانباء المفصلة لمراسليها الذين تابعوا اعمال المؤتمر وافاضوا في الحديث عن المشكلات التي واجهها والازمة التي عصفت به ابان جلسته

النهائية للتصويت على القرارات .

١ — انظر : صحيفة ((**فرانكفورتر الغماينه**)) ، العدد ٣٠١ ، بتاريخ ١٩٧١/١٢/٣٠ و ((**سود دويتشه تزايتونغ**)) . العدد ٣٠٩ ، ١٢/٢٧/ ١٩٧١ .

٢ — ((**نوي تزوريخر تزايتونغ**)) ، ١٩٧٢/١/١٩ (العدد ١٨) .

٣ — ((**نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية**)) (ن.م.د.ف) ، العدد ٥ ، السنة الاولى ، ١٩٧١/٦/١ ، ص ٧٦ (نقلا عن صحيفة ((**معاريف**)) ، ١٩٧١/٥/١٤).

٤ — المراسل الاسرائيلي ، موشيه تافور ، لصحيفة ((**فرانكفورتر الغماينه**)) ، ٧٢/١/١٩ (العدد ١٥) .

٥ — نقلا عن صحيفة ((**نوي تزوريخر تزايتونغ**))، ١٩٧٢/١/١٩ .

٦ — ((**لوموند**)) ، ١٩٧٢/١/٢١ .

٧ — راجع ((**الجويش اوبزرفر**)) ، ١٩٦٨/٢/٢٣ (العدد ٨) ، ص ٢٣ — ٢٤ .

٨ — ((**الجيروزالم بوست**)) ، الملحق الاسبوعي (رقم ٤٨٩) ، ١٩٧٠/٣/٩ .

٩ — **المصدر نفسه** .

١٠ — **المصدر نفسه** (العدد ٤٩٣ من الملحق الاسبوعي) ، ١٩٧٠/٤/٦ .

١١ — أورد موشيه تافور هذا الرقم في مقاله المشار اليه في الحاشية رقم ٤ .

١٢ — نقلته **ن.م.د.ف** (عدد ١٤) ، ٧١/١٠/١٦، ص ٢٥٢ .

١٣ — راجع المقالة التي نشرتها صحيفة ((**نوي تزوريخر تزايتونغ**)) ، الحاشية رقم ٢ .

١٤ — **المصدر نفسه** .

١٥ — **ن.م.د.ف.** (العدد ٢ من السنة الثانية)، ١٩٧٢/٢/١ ، ص ٧٦ .

١٦ — **المصدر نفسه** (العدد ٨ من السنة الاولى)، ١٩٧١/٧/١٦ (نقلا عن ((**دافار**)) ١٩٧٠/٨/٧).

١٧ — **المصدر نفسه** (العدد ١ ، السنة الاولى) ١٩٧١/٤/١ ، (نقلا عن (**معاريف**) ٧١/٣/٢١).

١٨ — ((**سود دويتشه تزايتونغ**)) ، ١٩٧٢/١/١٩ (العدد رقم ١٤) .

١٩ — **المصدر نفسه** ، ١٩٧٢/١/٢٠ (عدد ١٥).

٢٠ — **المصدر نفسه** ، ١٩٧٢/١/١٢ (عدد ٨) .

٢١ — جاء في مقالة لمراسل صحيفة ((**لوموند**)) من القدس ان المندوبين السفارديين لدى المؤتمر الصهيوني بلغ مجموعهم ٨٠ مندوبا ، وانهم أظهروا تكتلا داخل قاعات المؤتمر وفي اثناء مناقشاته وجلساته (٣٠ — ١٩٧٢/١/٢١) .

٢٢ — راجع مقالة ((**نوي تزوريخر تزايتونغ**)) ، تحت الحاشية رقم ٢ .

٢٢ — ((**الدايلي ستار**)) ، ١٩٧٢/١/٢٨ . ((**سود دويتشه تزايتونغ**)) ١٩٧٢/١/٢٨ .

٢٤ — ((**الدايلي ستار**)) ١٩٧٢/١/٢٠ .

٢٥ — ((**سود دويتشه تزايتونغ**)) (١٩٧٢/١/٢٠).

٢٦ — **المصدر نفسه** ، ٢٩—١٩٧٢/١/٣٠ (العدد ٢٣) .

٢٧ — **ن.م.د.ف.** (العدد ٣ السنة الثانية) ، ١٩٧٢/٢/١ .

٢٨ — **المصدر نفسه** (عدد ١٤ السنة الاولى) ، ١٩٧١/١٠/١٦ ، ص ٢٥٢ .

٢٩ — **المصدر نفسه** (عدد ١٧ ، السنة الاولى)، ١٩٧١/١٢/١ ، ص ٣١٧ .

٣٠ — هناك تضارب في الانباء المتعلقة بشخصية نافون . بعض الوكالات نقلت عنه انه من مواليد القدس (١٩٢١) ، بينما يقول مراسل صحيفة (**لوموند**) (٣٠—١٩٧٢/١/٣١) ان نافون يتحدر من اصل مراكشي وقد شغل منصب مدير في وزارة بن غوريون سابقا .

٣١ — انظر ((**لوموند**)) بتاريخ ٣٠—٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ ، ص ١٨ .

٣٢ — انظر **ن.م.د.ف.** (عدد ٧ ، سنة اولى) ١٩٧١/٧/١ و (عدد ١٤ ، سنة اولى) ، ١٩٧١/١٠/١٦ . وراجع ((**الدايلي ستار**)) ، ١٩٧١/٦/٢٣ .

٣٣ — راجع صحيفة ((**سود دويتشه تزايتونغ**)) ، ٣٠/٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ (العدد ٢٣) .

لماذا يرفض الفلسطينيون مشروع الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة

منير شفيق

موضوع اقامة دولة فلسطينية الى جانب دولة اسرائيل ليس جديدا ، فقد نص عليه قرار التقسيم ١٩٤٧ ، ولكنه وضع على الرف نتيجة ثلاثة عوامــل رئيسية : أ ــ رفض الجماهير الفلسطينية والعربية تقسيم فلسطين، والاصرار على عدم الاعتراف بالاغتصاب الصهيوني والدولة الصهيونية . ب ــ الخطة الامبريالية ــ الصهيونيــة الرامية الى اجتثاث الشعب الفلسطيني من ارضه ، واذابته في البلدان العربية . جـ ــ ضم الضفة الغربية الى المملكة الاردنية الهاشمية ، وحكمها بالحديد والنار ضمن أهداف الخطة الامبريالية ــ الصهيونية المذكورة اعلاه ، وضمن تعزيز الكيان الاردني الهزيل الذي اصطنعه الاستعمار الانكليزي ليكون مخفرا في المنطقة ضــد حركات التحرر العربي ، والوحدة العربية . ولكن ، رغم الاوضاع التي نشأت بعد نكبة ١٩٤٨/١٩٤٩ ، جرت محاولة لاقامة حكومة فلسطينية ــ « حكومة عموم فلسطين » ــ في المنفى برئاسة أحمد حلمي ولكنها لم تعمر طويلا ، وظلت حبرا على ورق . وهكذا نام المشروع أمدا طويلا ، الى أن وقعت حرب حزيران ١٩٦٧ ، لتبدأ اصوات بالارتفاع ، تحت الاحتلال ، تنادي باقامة دولة فلسطينية تضم الضفة الغربية وقطاع غزة ، وقد عبر عن هذه الاصوات ، كل من عزيز شحادة ، وحمدي التاجي الفاروقي . كما وجد هذا الاتجاه تجاوبا من بعض الزعماء الاسرائيليين ، مثلا ، مشروع « ريف كاتز » الذي طالب باقامة دولة فلسطينية ضمن شروط الاعتراف باسرائيل والتعايش معها ، ومشاريع افنيري وجولدمان ، بينما ظل الموقف الرسمي لحكومة اسرائيل يرفض الاعتراف بوجــود الشعب الفلسطينــي والشخصية الفلسطينية ، وبالتالي رفض أي اقتراح باقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية والقطاع . وفي أحسن الحالات ، الموافقة على قيام نوع من الحكم الذاتي ، أو الكيان الذاتي ، في الضفة والقطاع ، تحت حماية الاحتلال الاسرائيلي ، واقامة دولة فلسطينية في الضفة الشرقية خارج مناطق الاحتلال الحالية ، وقد عبر ايجال آلون عن هذا الاتجاه الاخير .

كان لتصاعد الثورة الفلسطينية وانتصاراتها بعد معركة الكرامة ، دور بارز في استبعاد هذه المشاريع ، واخراس الاصوات « الفلسطينية » التي نادت بها ، بالاضافة الــى احتواء الصراع المسلح على جبهة القناة ، ووضع قرار نوفمبر ١٩٦٧ على الرف . ولكن بروز مشروع روجرز ، وما صاحب ذلك من موافقة بعض الدول العربية عليه ، ثم ما تلا ذلك من عمليات ابادة للثورة الفلسطينية في الاردن ، أدى الى ان تعود تلك المشاريع فتحتل مكانا بارزا في الضفة الغربية ، والمحافل العربية والدولية ، جنبا الى جنب ، مع مشاريع التسوية الشاملة للوضع في المنطقة بأسرها ، كما أدى الى طرح مجموعة كبيرة من الخرائط لاعادة تقسيم المنطقة وترتيب أوضاعها .

ولكن كل أولئك الذين راحوا يخططون لاعادة تقسيم المنطقة ، ويتغنون في طرح مشاريع لتصفية القضية الفلسطينية . وايجاد « سلم دائم » ، كانوا يحاربون طواحين هواء في واد ، بينما كان الهدف الذي طرح مشروع روجرز من أجله قد تحقق ، أي اجتثاث الثورة الفلسطينية من الاردن ، وأصبح المخطط الامبريالي الامريكي يعمل في واد آخر . انهم لم يدركوا انه لم يبق بعد ضرب الثورة الفلسطينية في الاردن مسوّغ لمشروع روجرز ، بدليل بسيط ، وهو ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سرعان ما كشفت أوراقها ، وأدارت ظهرها للتسوية ، فاتضح حتى للذين خدعوا ، انها كانت تناور ، ولم تكن تستهدف اجراء تسوية ، وانما ضرب الثورة الفلسطينية كمقدمة لبدء مرحلة جديدة في طريق تحقيق أهدافها الرامية الى السيطرة الكاملة على المنطقة . واتخذ ذلك اسلوب ممارسة ضغط شديد على مصر تحت شعار سحب الوجود ، أو النفوذ ، السوفياتي منها . أو بكلمات أخرى ، غير مقنعة ، تحقيق سيطرتها السياسية والاقتصادية على مصر ، ومن ثم على سوريا وليبيا والعراق وسائر البلدان العربية، وما يتطلبه ذلك من ضرب لحركات التحرر العربي ، وسلب المكتسبات الوطنية والتقدمية التي تحققت خلال العشرين سنة الماضية. لهذا فان المعركة الان ليست على طاولة المفاوضات ، او على مائدة نشرت فوقها الخرائط لاعادة تقسيم حدود الدول ، وانما هي معركة الامبريالية الامريكية للسيطرة الكاملة على مصر كثمن لاية تسوية ، واذا نجحت في هذه المعركة تفرش خريطة المنطقة ليعاد ترتيب الحدود والأوضاع ، وعندئذ يبحث مشروع اقامة دولة فلسطينية او عدم اقامتها .

ان ادراك هذه الحقيقة لا يعني التقليل من خطورة تطور الاوضاع باتجاه تصفية القضية الفلسطينية من خلال اقامة دولة فلسطينية صورية هزيلة . ولكنه يعني معرفة أين نوجه النار في المرحلة الراهنة ، والتحضير الجدي لمواجهة معارك المرحلة التالية . ولهذا لا بأس من مناقشة الذين قدموا مشاريع للدولة الفلسطينية ، ولكن مع التأكيد الجازم ان المعركة الان ، ليست معركة الدولة الفلسطينية وتصفية القضية الفلسطينية ، وانما معركة تصفية حركة التحرر العربي ؛ كثمن مقدم لتنفيذ أجزاء من قرار نوفمبر ١٩٦٧ ومعه تصفية القضية الفلسطينية .

يمكن تقسيم المشاريع المقترحة لاقامة دولة فلسطينية الى قسمين رئيسيين :

أولا : المشاريع التي ينادي بها أولئك الذين رفضوا أصلا استراتيجية وتكتيك حرب الشعب طويلة الامد لتحرير فلسطين كل فلسطين ، وساروا في طريق الاستسلام للامبريالية والصهيونية ، فراحوا يفتشون عن « حل » ضمن المخطط الامبريالي — الصهيوني للمنطقة ، وخارج الكفاح الثوري من اجل التحرير . وهنا لا بد من التنبيه الى ان هنالك قلة من بين المنادين بتلك المشاريع ، ليسوا من عملاء الامبريالية والصهيونية ولكنهم انهزاميون لا ثقة لهم بالثورة المسلحة والثورة العربية ، فانجرفوا في طريق المشاريع الاستسلامية وهؤلاء يجب التفريق بينهم وبين العملاء ، وذلك من أجل تحييدهم، او اقناعهمبضرورة التراجع عنالدرب الذييؤدي الى العمالة وتصفيةالقضيةالفلسطينية.

تتراوح تلك المشاريع بين : أ — قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية ، وقطاع غزة — واذا أمكن بعض الاراضي التي أقرها للعرب قرار التقسيم ١٩٤٧ — منفصلة عن الضفة الشرقية ، وتعترف بدولة اسرائيل ، وتقيم معها على اساس « التعاون » و« حسن الجوار » — وحتى اتحاد فيدرالي — (اتجاه حمدي التاجي الفاروقي وآخرين).
ب — قيام دولة فلسطينية تضم الضفة الغربية وقطاع غزة ، وأية أراض تتنازل عنها اسرائيل من تقسيم ١٩٤٧ ، تحت حماية هيئة الامم المتحدة والدول الكبرى ، تعترف باسرائيل و« تتعاون » معها الخ. (اتجاه يمثله عزيز شحادة وآخرون) . ج — وضع الضفة الغربية والقطاع والقدس العربية ، لمدة خمس سنوات ، تحت وصاية دولة

محايدة . ويجري استفتاء . بعد هذه الفترة . حول مستقبل المناطق المحتلة يقوم به اهالي تلك المناطق (اتجاه محمد علي الجعبري وآخرين) . د ــ اقامة دولة فلسطينية مستقلة مع تغيير الدستور الاردني ؛ ومن ثم اقامة دولة اتحاد لا ضم مع الاردن (حمدي كنعان وآخرون) . هـ ــ هنالك مشاريع مشابهة يتحدث عنها ، أكثر الاحيان همسا . نفر من الشباب الطامحين للحلول محل الزعامة التقليدية ؛ وستظهر أسماء الكثير منهم في انتخابات المجالس البلدية والمحلية .

رغم الاختلافات الشكلية بين هذه المشاريع واشباهها ، الا أنها جميعا تلتقي ، موضوعيا، فيما يلي : ١ ــ كلها أسقطت من حسابها مسائل التحرر من الامبريالية وقضية تحرير فلسطين ، وراحت تدور في فلك الوصاية الاسرائيلية والامبريالية . ٢ ــ خلق كيان هزيل صوري مجرد من كل مقومات الدولة المستقلة . ٣ ــ تحويل الدويلة الفلسطينية المقترحة الى كيان يصفي القضية الفلسطينية ، ويعترف باسرائيل ويكون لها بمثابة جسر ، أو ممر ، اقتصادي وسياسي وثقافي الى العالم العربي ، لتحقق تحت مظلته اكثر مما تطمح في تحقيقه عن طريق الحرب والتوسع العسكري . ٤ ــ تصفية الثورة المسلحة ، والقيام بدور العازل عسكريا لمصلحة الكيان الصهيوني .

ان اكثر أصحاب هذه المشاريع لا يستحقون مناقشة الا بقدر ما « تناقش » به ثورة عملاء العدو . لان الخلاف معهم هو الخلاف بين الثورة وبين الاستسلام والمهادنة ، او على الاصح خلاف على البدهيات الاولية . ولكن الشيء الذي يجب لفت النظر اليه هو «المنطق» الذي ينشر لترويج تلك المشاريع . . أي « المنطق » الذي يبشر بعدم جدوى النضال ضد أعداء اقوياء ، وبأن الطريق الوحيد هو المهادنة والقبول باي شيء لئلا يضيع كل شيء .

ان الوقوف قليلا عند مثل هذا الطرح ضرورة لانه قد يخدع بعض الذين لا مصلحة لهم في الانجرار وراءه . ومن هنا علينا ان نلحظ عبارة « القبول بأي شيء » ، كم تحمل من المعاني ، اي القبول بأن نكون صوريين ، ان نكون واجهة في جزء من بلادنا مقابل أن يكرس العدو في الجزء الآخر . ويتنفذ اقتصاديا وسياسيا في الجزء الذي نحن فيه ، ويتسلل منه الى بقية البلدان العربية . فهل هنالك أفضل للعدو من أن تقوم دولة فلسطينية مرتبطة به ، وتأخذ عنه مهمة جلد الشعب الفلسطيني واضطهاد ثواره بينما تترك له أخذ كل شيء . ان الاستسلام لاعداء اقوياء لا ينفذ شيئاً ، وانما يفقدنا كل شيء حتى الامل والكرامة ، لان جوهر الصراع بيننا وبين الامبريالية والصهيونية ينبع من الطبيعة العدوانية التوسعية الاستغلالية للامبريالية والصهيونية ، وليس من عنادنا ورفعنا راية المقاومة . ومن يقل عكس ذلك فسينتهي الى نتيجة مقلوبة تماما تفسر انشاء دولة الكيان الصهيوني على ارض فلسطين بسبب رفض الفلسطينيين للهجرة الصهيونية وانشاء الوطن القومي اليهودي . ولكن مثل هذا الكلام لا يجرؤ غلاة الصهيونيين على تبنيه .

والسؤال، هل اذا استسلمنا وقبلنا بالتخلي عن قضية التحرير تغير من طبيعة الصهيونية والامبريالية شيئا ؟ ام ان كل الذي نفعله هو ان نحقق للعدو ، برضانا واستسلامنا ، ما أراد ان يحققه بالقوة العسكرية ؟

ثمة نقطة اخرى تجب ملاحظتها هنا . وهي ان اولئك الذين يجهدون عقولهم في اثبات عدم جدوى الكفاح المسلح يخوضه الشعب ضد عدو يمتلك امكانات عسكرية ضخمة ، لا يتحدثون شيئا عن امكانات العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية في مجال التوسع الاقتصادي والسيطرة السياسية في حالة ابرام اتفاقية التسوية . ام ان اختصاصهم يتركز في مسائل فن الحرب مع العلم انهم من رجال الاعمال واصحاب المتلكات الكبيرة وذوي الارصدة في البنوك ؟؟ واذا رد عليهم انسان بسيط ، قائلا ، ثمة تجارب عديدة في التاريخ استطاع فيها شعب فقير كادح ان يهزم بأسلحته البسيطة في حرب الشعب جيشا

امبريالية قويا للغاية . ولكن لا توجد تجارب مطلقا استطاع فيها شعب متخلف تحت ظل السيطرة الامبريالية ان يهزم التروستات والكارتيلات في التنافس الاقتصادي ، فكيف يردون ؟ أم ان هذه القضية ليست موضوع بحث . وكذلك قضية التحرير ، ما دامت هنالك فئة قليلة سوف تنتفع حين يوكل اليها لعب دور الوسيط التجاري للاحتكارات الصهيونية والامبريالية ، وأخرى سيتحقق حلمها في بيع أملاكها التي فقدتها عام ٤٩/٤٨ أمثال عزيز شحاده وحمدي التاجي الفاروقي ؟

على كل حال ، ان نظرية « لنقبل بأي شيء لئلا نفقد كل شيء » ليست جديدة ، فقد عرفت كل الشعوب التي واجهت محتلين اقوياء ، وهبت للمقاومة المسلحة ، أمثال هذه النظرية يروجها المستسلمون للعدو . ألم يحدث مثل هذا في فرنسا وبلجيكا وهولندا ونيرويج الخ أيام الاحتلال النازي ؟ ألم يحدث مثل هذا في بلادنا العربية أيام الاحتلال البريطاني والفرنسي ؟ ألا يوجد الان مثل هؤلاء ، في فياتنام وكمبوديا ولاوس ؟

ثانيا : ثمة مشروع لقيام دولة فلسطينية ، أو كيان فلسطيني ، في الضفة الغربية وقطاع غزة ، تحت شعار المرحلية في الثورة .

ان هذا المشروع لم يكتب عنه ، ولم يناقش علنا ، ولكن الثورة الفلسطينية ووجهت به في اثناء لقاءاتها مع بعض الاحزاب الشيوعية الاوروبية . وربما وجد له صدى ، في ظل الظروف الراهنة ، لدى بعض الافراد في المنطقة هنا . ولهذا لا بد من مناقشته لانه يستظل تحت تنظير ذي صباغ « ثوري » ، مما يتطلب تصفية الحساب معه لخطورته على الثورة من الداخل .

يلخص أصحاب هذا الاتجاه وجهة نظرهم كما يلي : الثورة ، اية ثورة تحقق أهدافها على مراحل ، فهي تضع اهدافا مرحلية قابلة للتحقيق الآني ، وحين تتحقق توقف الثورة الكفاح المسلح لترسيخ المكتسبات التي أحرزتها استعدادا للنضال من اجل المرحلة التالية . ثم يعزز هذا الرأي باستشهادات من الثورة الروسية (صلح برست ليتوفسك ١٩١٨) ، والثورة الفياتنامية (اتفاقيات جينيف ١٩٥٤) الخ .

هنا ، تواجهنا مغالطة خطيرة حين تطرح هذه الموضوعة تجريديا ثم تفرض قسرا على مسألة الدولة الفلسطينية المقترحة والتسوية السياسية موضوع البحث . وذلك :

أ ــ يجب أولا أن توضح السمات الاساسية للاهداف المرحلية وعلاقتها بالهدف النهائي ، اي ان يفهم أن الجوهر هنا يشترط أن تكون الاهداف المرحلية تشكل حلقات متماسكة توصل الى الهدف النهائي ، كما يجب ان تفهم السمة الاخرى للاهداف المرحلية ، وهي تقريرها على ضوء الظروف المعطاة ، في كل مرة ، بالارتباط العضوي بالهدف النهائي . اذ ليس كل ما يسمى بهدف مرحلي هو فعلا الهدف المرحلي الصحيح الذي تتطلبه ظروف التطور الثوري ، كما ان الاهداف المرحلية التي تضعها ثورة ما ليست الاهداف المرحلية التي تضعها ثورة أخرى . واخيرا ان السمة التي لا جدال حولها بالنسبة لموضوعة الاهداف المرحلية، هي ان من غير الممكن اطلاقا ان تسمى أهدافا مرحلية تلك التي تصفي الثورة وتصفي هدفها النهائي . وعند هذا الحد نقول ان المسألة اذن ، ليست نقاشا حول موضوعة وضع أهداف مرحلية في النضال ، وانما السؤال : مـــا هي الاهداف المرحلية الصحيحة لثورتنا في الظرف الراهن ؟ ولماذا لا يمكن اعتبـــار الكيان المقترح ــ الدولة ــ والتسوية السياسية المقصودة ، من الاهداف المرحلية لثورتنا ، بل على العكس ، هما من أهداف الامبريالية والصهيونية في تصفية ثورتنا وتصفية هدفها النهائي، وبالتالي فان احباطهما أحد الاهداف المرحلية لثورتنا .

واذا أردنا ان نتوسع اكثر في الرد على سؤال ، ما هي الاهداف المرحلية لثورتنا في الظرف الراهن ، نقول ان من بين تلك الاهداف ، مثلا ، تأمين قواعد ارتكاز وانطلاق

آمنة للثورة الفلسطينية - خاصة ، من خلال اسقاط الحكم الهاشمي وعودة الثورة الى الاردن ، تصعيد الكفاح المسلح في الارض المحتلة ، حماية المقاومة في قطاع غزة من التصفية ، احباط المؤامرة الامبريالية الامريكية لضرب الثورة العربية ، اعادة تنظيم الوحدة الوطنية في الثورة الفلسطينية ، السعي الحثيث لتشكيل جبهة عربية واسعة معادية للامبريالية والصهيونية ، وفوق هذا كله . اعادة تنظيم القوى الذاتية للثورة وانهاض الجماهير الخ.

واذا أردنا أن نضرب أمثلة عامة لاهداف مرحلية تواجهها الثورات المسلحة في اغلب الحالات نقول : تأمين قاعدة آمنـة ، ايجاد مناطق محـررة ، الدفاع عن المناطـق المحررة ، احباط هجوم شامل يشنه العدو ، الانتقال من مرحلة الدفاع الاستراتيجي الى مرحلة التوازن الاستراتيجي .. الخ .. ام لا يفهم الذين يطرحون موضوعة الاهداف المرحلية في النضال من هذه الموضوعة الا الصلح ، والتسوية ، وتوقيف الكفاح المسلح ؟؟
ب ــ ان موضوعة الاهداف المرحلية في النضال تشترط، فيما تشترط، ترسيخ المكتسبات التي أحرزتها الثورة وتوفير امكانية اجراء الاستعدادات من اجل مواصلة النضال في سبيل تحقيق اهداف المرحلة التالية .

عندما وافق لينين على معاهدة صلح برست ليتوفسك لم يفعل ذلك لانها تشكل مرحلة ضرورية من مراحل الثورة الروسية وضعت في برنامج الحزب البلشفي سلفا ، اذ أن مثل هذه المعاهدات والاتفاقيات لا علاقة لها بموضوعية المرحلية ، وأنما تمليها عادة اعتبارات أخرى تقررها الثورة ضمن كل ظرف معطى . فمثلا كانت معاهدة صلح برست ليتوفسك تعني اطلاق يد الحكومة السوفياتية في المناطق الشاسعة التي حررتها الثورة، اي في كل الروسيا تقريبا ، وكانت كل الامكانات متوفرة لترسيخ المكتسبات وبناء قوة عسكرية جبارة .. الخ . فهل كان لينين سيقبل بمثل تلك المعاهدة اذا كانت تشترط تجريد روسيا من السلاح ، ووضع الدولة السوفياتية تحت الاشراف المباشر لهيئة دولية او لدولة امبريالية . هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى فان المشكلة التي واجهتها ثورة اكتوبر تختلف كيفيا عن المشكلة التي تواجهها الثورة الفلسطينية ، فالمسألة هناك كانت مواجهة احتلال أجنبي ، اما المسألة هنا فهي مواجهة كيان استيطاني اجتث الشعب من أرضه واحل مكانه شعبا آخر . والمطلوب تكريسه شرعيا وقانونيا فلسطينيا وعربيا ودوليا مع فتح كل سبل توسعه اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ، وايجاد الضمانات لتجريد الفلسطينيين من السلاح ، وخلق كل الشروط للقضاء على أية امكانية للتحرير مستقبلا . ويمكن أن يقال الشيء نفسه في حالة المقارنة مع اتفاقيات جينيف ١٩٥٤ حول الهند الصينية.

والان ، لنضع جملة من الاعتبارات المبدئية والجوهرية التي تقضي برفض قيام الدولة الفلسطينية المقترحة ، او اجراء التسوية المطروحة ، لنضعها جانبا من اجل الجدل فقط ، ولنلق نظرة الى الدولة المقترحة ، والتسوية المطروحة لاظهار الخطأ الفادح حين تسمى أهدافا مرحلية من وجهة نظر الشرطين القاضيين بترسيخ المكتسبات التي أحرزتها الثورة ، وتوفير الامكانات لاجراء الاستعدادات من اجل مواصلة النضال لتحقيق الهدف النهائي : أ ــ ان قيام الدولة الفلسطينية ضمن التسوية المقترحة يشترط تجريدها من السلاح ووقف كل الاجراءات التي تعني العداوة ــ مثلا تصفية المقاومة المسلحة ــ وابقاء الكيان الصهيوني متفوقا عسكريا ، بصورة مطلقة . هذا فضلا عن الاعتراف به ، وافساح المجال لتوسعه الاقتصادي والسياسي والثقافي . ب ــ هل هنالك مقومات اقتصادية وعسكرية وسياسية لدولة فلسطينية تقوم في الضفة الغربية وقطاع غزة ؟ ان عدم وجود مثل تلك المقومات لا يجادل بها اثنان . وهذا يعني ان تلك الدولة ستكون بحاجة الى « المعونات » العربية والاجنبية حتى لصرف رواتب موظفيها ، أي ان تلك الدولة لن تستطيع ان تكون مستقلة بسياستها واقتصادها وارادتها ، وبالتالي **لا مفر** من

ان تكون كيانا هزيلا تابعا يعيش تحت رحمة « الاجاويد » الى جانب العيش تحت رحمة تغلغل الامبريالية الامريكية وسيطرتها ، وتحت رحمة سيطرة النفوذ الاسرائيلي والجيش الاسرائيلي .

يتضح ، مما تقدم . ان ما يسمى بالاهداف المرحلية في النضال — الدولة الفلسطينية والتسوية السياسية — لا علاقة لها هنا بموضوعة المرحلية في النضال ، فهي تصفية للثورة المسلحة ومكتسباتها ومعها تصفية هدفها النهائي وقضيتها العادلة .

ثمة حجة أخرى تقوم باتجاه « المرحلية » في النضال ، تقول : الكفاح المسلح أصبح في مأزق بعد مجازر أيلول وتموز وضرب الثورة الفلسطينية في الاردن . وبسبب الصعوبات والسلبيات الناجمة عن عدم وجود أرض يقف عليها الفلسطينيون ، مما يترك الثورة تحت رحمة بعض الانظمة العربية . ولهذا لا بد من ارض يمتلكها الفلسطينيون حتى يكون بالامكان تحرير ارادة الثورة وانقاذها من الضربات والضغوط التي تمارسها تلك الانظمة والاوضاع الاقليمية المعادية .

ان هذا الطرح يخلط بين أمور عديدة خلطا عشوائيا ليخلص من مواجهة الصعوبات على اختلافها . عن طريق الهروب الى ما يسمى بالارض التي يقف الفلسطينيون عليها تكون لهم : ولا يشاركهم فيها أحد .

القسم الاول من هذه الحجة يطمح لان يخرج الكفاح المسلح من مأزقه . ولكن كيف ؟ ببساطة ، التخلي عن الكفاح المسلح من اجل اخراجه من المأزق الذي أصبح فيه وذلك حين يتحول البحث في الخروج من المأزق عن طريق القبول بكيان او دولة تعطى مقابل شروط مذلة عديدة ، على رأسها ، التخلي عن الكفاح المسلح . والقسم الثاني من تلك الحجة يربط الخروج من المأزق الذي يحيط بالكفاح المسلح ، بضرورة وجود أرض يقف الفلسطينيون عليها ، ولكن ، مرة أخرى ، يجبهنا السؤال ما هي تلك الارض المقترحة وما هي شروط الوصول اليها ، والكيفية التي ستمنح فيها ؟ وهنا لا يتكلف المتحدثون بمثل هذا المنطق عناء تقديم اجابات عن تلك الاسئلة ، والاثبات فعلا ، ان تلك الصيغة هي الطريق « لتصعيد » الكفاح المسلح و« تحرير » ارادة الثورة والجماهير الفلسطينية . الحديث عن المأزق الذي أصبح فيه الكفاح المسلح ، يتطلب البحث عن الاسباب والنواقص الحقيقية التي ادت اليه ، وليس الحكم على ما آلت اليه حالة الكفاح المسلح من خلال ذكر سبب احادي الجانب — عدم وجود أرض تقف عليها الثورة وتكون لها — كان موجودا قبل وقوع الكفاح المسلح في مأزقه الراهن . ان هذا السبب كان موجودا يوم انفجرت الثورة المسلحة ، وشهد أعظم انتصاراتها ، ولم يمنع ، رغم انه يشكل عاملا سلبيا ، من تقدم الثورة الى مرحلة راقية دبت ذعرا شديدا في قلوب الامبرياليين والصهيونيين والعملاء . ولا يبالغ المرء حين يقول ان الاخطاء والنواقص كفيلة بانزال اقسى الضربات بالثورة المسلحة سواء كانت تعيش ظروفا كالذي تعيشه جماهيرنا وثورتنا الفلسطينية او كانت تعيش على ارض وطنها . ويكفي ان نتذكر ان ثمة ثورات عديدة ، وفي فلسطين بالذات قبل ١٩٤٨ ، واجهت نكسات وضربات ، ودخلت في مآزق، ربما أشد مما عرفته ثورتنا الراهنة ، رغم ان تلك الثورات كانت تقف على ارض وطنها. لهذا فان الحديث عن المأزق الذي أصبح فيه الكفاح المسلح ، يتطلب البحث عن النواقص والاسباب الحقيقية التي أدت اليه ، ثم العمل بأعلى درجات الهمة و النشاط والشجاعة ، من خلال خط صحيح في كل المجالات يتلافى الاخطاء والنواقص، ويوفر الشروط الضرورية لتحطيم ذلك المأزق . لا الوقوع بمأزق آخر اشد هولا ينهي الكفاح المسلح من حيث أتى ، ولا يساعد على انهاض الثورة العربية الشرط الضروري لتحرير ارادة الثورة الفلسطينية والجماهير الفلسطينية والعربية فوق الارض العربية .

قد يبدو من هذه المناقشة ان من غير الممكن وجـود الثورة الفلسطينيـة فوق أرض فلسطينية ، او ان هذه مسألة مرفوضة اصلا . هل هذا صحيح ؟ لا ، ان الشيء المرفوض هو الدولة الفلسطينية والتسوية المقترحة . بينما ثمة امكانية ، بل يجب ان تتحقق تلك الامكانية وتكون هدفا مرحليا ، لايجاد أرض محررة بقـوة سلاح الثورة والجماهير ، ومن خلال المعارك والانتصارات ، تقف عليها الثورة الفلسطينية ، شريطة ان تكون قادرة على فرض ارادتها والاستمرار في الكفاح المسلح لتحرير كل فلسطين . أي أن نكون فوق تلك الارض ونحن فوق ارادة اسرائيل والامبريالية والقوى العربية المضادة للثورة ، وعندئذ تقام السلطة الثورية لا علـى شكل صيغة لحـل القضية الفلسطينية وانهاء الكفاح المسلح . وانما على شكل تنظيم القواعد المحررة وتعبئتها . ولكن توفر هذا الوضع لا يمكن أن يتحقق الا اذا تحقق معه ، او قبله ، انتصار حقيقي للثورة العربية في احدى الاقطار المجاورة ، على الاقل ، فضلا عن تحرير الاردن ، حتى يكون بالامكان أيجاد قاعدة خلفية للمناطق المحررة ترفدها بكل اسباب الحماية والدعم والمشاركة ، وتؤمنها من الوقوع تحت وصاية احد بسبب ما يمكن ان تحتاجه تلك المناطق من مساعدات ودعم .

عندما يتحقق مثل هذا الوضع لا يعود من المهم الشكل الذي قد تتخذه السلطة الثورية ، لان ذلك يتقرر وفقا لمصلحة الثورة والظروف المعطاة . اذ قد يأخذ شكل حكومة فلسطين الديمقراطية المؤقتة لكل فلسطين ، شريطة استمرار القتال ، او قد يأخذ شكل السلطة الثورة للوحدة الوطنية ، او الجبهة الوطنية . ولكن في كل الاحوال يجب ان تكون تلك السلطة ، او الحكومة ، الممثل الوحيد لكل فلسطين .

هنا ، لا بد من التأكيد على ان جوهر القضية في معالجة الصراع مع العدو الصهيوني — الامبريالي ، يتركز في نقطة حاسمة هي توفر القوة المسلحة الذاتية للثورة الفلسطينية والجماهير الفلسطينية ، وللثورة العربية والجماهير العربية تلك القوة القادرة على حماية القضية الفلسطينية من التصفية ، والقادرة على مواجهة الامبريالية والصهيونية . وبدون ذلك فان أي خط سياسي سواء كان متخاذلا يستعطي قطعة ارض يقيم عليها كيانا ، او كان رافضا لكل الحلول الاستسلامية ، وعلى رأسها مشاريع الدولة الفلسطينية المقترحة ، لا يمكن ان يغيرا من واقع سيطرة العدو على الارض الفلسطينية وتحقيق أطماعه في الوطن العربي . سواء عن طريق العدوان والغزو ، او عن طريق التسويات والتغلغل السياسي والاقتصادي والثقافي . رغم ان الموقف الثاني لا يحمل ما يحمله الاول من الاضرار على مستقبل القضية برمتها .

ولهذا فان النقطة الاساسية التي يجب ان ينصب عليها تفكيرنا ومشاريعنا وجهودنا ، هي بحث كيف يمكن بناء هذه القوة للثورة والجماهير ، وحشد أوسع الاوساط الشعبية فلسطينيا وعربيا في جبهة نضال حقيقي ، من اجل الخروج من المأزق الذي حشر فيـه الكفاح المسلح وانقاذ القضية الفلسطينية والثورة الفلسطينية والثورة العربية من هجمة امبريالية امريكية — صهيونية شرسة لا يمكن ان توقف الا بقوة السلاح .

واذا طرحنا القضية على شكل أشد وضوحا نقول : ان الصعوبات التي تواجه الثورة الفلسطينية والمخاطر التي تواجه الوطن العربي بأسره ، لا يمكن ان تواجه مـن خلال المساومة والمناورة ما دمنا ممزقين ضعفاء ولا يمكن أن تواجه من خلال رفض سلبي يرفض ، في الوقت نفسـه ، تبني خط سياسي وتنظيمـي وعسكـري وجماهـيري يستهدف بناء القوة المسلحة والجبهة العريضة ، والجماهير المنظمة المقاتلة .

لهذا يجب ان يصحب الرفض الاستمرار في القتال ، المواظبة على بناء القوة القادرة على حماية الثورة ، حماية القضية الفلسطينية ، وعلى مقارعة الامبريالية والصهيونية . تلكم

هي اللغة الوحيدة التي تعطي الحلول الصحيحة لكل مأزق ، وتعيد تقسيم الخريطة في الوطن العربي وفلسطين وفقاً لاهداف الثورة العربية والثورة الفلسطينية .

ومن هنا ، لا بد لنا من ان ندرك القانون الذي يحكم الصراع في هذا العالم ، سواء الذي يتخذ شكل الصراع الطبقي ، او شكل الصراع الوطني والقومي . انه قانون القـوة الذاتية لكل طرف من طرفي الصراع . ولكن هذا القانون يعمل بالتفاعل مع قوانين اخرى كما ان له سمة تقول انه اذا كانت النتيجة المباشرة لكل صراع تتوقف على مدى القوة التي يتمتع بها كل طرف في اللحظة الراهنة ، فان النتيجة النهائية لكل صراع لا تتوقف على مدى القوة التي يتمتع بها كل طرف في اللحظة الراهنة ، وانما على مدى القوة التي يمكن ان يوفرها التطور الموضوعي لكل طرف جنبا الى جنب مع مدى القوة التي يمكن ان يوفرها كل طرف ذاتيا خلال المسيرة الطويلة لعملية الصراع . اما مسألة توفر قوة كل جانب فتحكمها جملة من القوانين التي تختلف بالنسبة لكل جانب . فالقوانين التي تطبقها الامبريالية والصهيونية في بناء قوتها الذاتية تختلف عن القوانين التي تطبقها الشعوب الضعيفة المتخلفة في بناء قوتها الذاتية . ولهذا علينا ان نعرف القوانين العامة ونكتشف القوانين الخاصة بنا ، من اجل معرفة الطريق الذي نبني فيه قوتنا القادرة على النجاح في الصراع ضد الاعداء .

ان المجال هنا ضيق للتوسع حول هذه النقطة ولكن يمكن القول باختصار شديد ان هذه القوانين تشمل صحة الاستراتيجية والتكتيك السياسيين والعسكريين ، وصحة الخط التنظيمي واسلوب عمله وكذلك بالنسبة لبناء القوات المسلحـة ، والتنظيم الجماهيري والجبهة المتحدة ، وتشمل المنهج وتقاليد النضال والعقلية التي تحكم مواجهـة مختلف القضايا الخ . . ولكن لكي يتمكن شعب متخلف من تطبيق تلك القوانين لا بد له من التمركز حول عدالة قضيته لان عدالة القضية تشكل عاملا حاسما في صراع الشعوب المتخلفة ضد الامبريالية . انها لا تشكل عاملا حـاسما في الصراع السياسي في المجال العالمـي فحسب ، وانما ايضا ، في مجالات التعبئـة الفكرية والسياسية والعمـل التنظيمي والعسكري ، اي في مجالات تحقيق بناء قوة الثورة والجماهير .

حقا ان عدالة القضية لوحدها لا تكفي ، فهنالك الاستراتيجية والتكتيك وتنظيم الطليعة القائدة الخ ، ولكن التفريط في عدالة القضية والمساومة عليها يعنيان ضياع كل شيء ، تماما كما ان التمسك بعدالة القضية دون تحويل تلك العدالة الى قوة مادية من خلال وضع الاستراتيجية والتكتيك الصحيحين سياسيا وعسكريا ، ووضع خط تنظيمي صحيح للطليعة وللجبهة وللجماهير والقوات المسلحة ، مع التطبيق الصحيح ، لا يؤدي عمليا الى نتائج تختلف عن نتائج التفريط والمساومة الاستسلاميـة . لذا ، فنحن مطالبون بتكريس عدالة قضيتنا والتشديد عليها من جهة ، ومطالبون بالعمل ، بصورة صحيحة ، من أجل توفير شروط الصمود والاستمرار والانتصار لثورتنا وجماهيرنا .

ان مسألة التمسك بعدالة القضية الفلسطينية ، وبأهداف الثورة الفلسطينية مسألة لا تقبل نقاشا داخل الثورة الفلسطينية ، وكذلك مسألة الاستمرار في الكفاح المسلح حتى التحرير الكامل لفلسطين ، واقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطيـة على فلسطـين بأسرها . وهذه قضية واضحة بالنسبة لكل المنظمات ، خاصة ، بالنسبة لحركة فتح — القوة الرئيسية من بين منظمات المقاومة .

لقد بدأت حركة فتح الثورة الفلسطينية في الفاتح من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ ، تحت عهد قطع للشعب وللثوار ، وسقط على أساسه الشهداء ، الا وهو عدم القاء السلاح حتى التحرير الكامل ، وعدم المساومة على عدالة القضية الفلسطينية ، وقد عبر عن هذا الوعد ايضا بشعار « ثورة حتى النصر » . ولهذا فان فتح منطقية جدا مع نفسها

واهدافها وأمينة لشهدائها ومصيبة من الناحية الواقعية والثورية حين تكتب عن مشاريع الدولة الفلسطينية والتسويات السياسية : « ومثل هذه المشاريع هي مشروع الدولة الفلسطينية في الضفة والقطاع ... ان مثل هذا المشروع الوهمي يقصد به خلق انشقاق بين صفوف الشعب الفلسطيني .. فهناك من يؤيده ؛ ومن يعارضه . كما يوهم الشعب الاردني بأن الفلسطينيين يريدون الانفصال واقامة دولة لهم ، وهذا ما يشجع دعاة الاقليمية في الضفة الشرقية .. كما ان مثل هذا المشروع ان نفذ فسوف يخلق كيانا هزيلا غير قادر على حماية نفسه .. كما يجعلنا نتنازل عن الارض المحتلة قديما ، ويكرس بشكل شرعي وجود اسرائيل وتكون سابقة خطيرة في قبول العرب لمنطق التجزئة ، وخلق مزيد من الكيانات الضعيفة في المنطقة العربية التي لا تمتلك مقومات الحياة والوجود»(١) .

او حين تكتب : « ان شعار الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية والقطاع هو شعار يقصد به تمييع القضية الفلسطينية وتشويه نضالنا التحرري ، ومحاولة سحب شعار الثورة الذي اعلنته عن اقامة دولة فلسطينية ديمقراطية ... » ... « وان هدف الثورة هو ازالة اسرائيل بكيانها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي واقامة دولة فلسطين الديمقراطية ، على كافة الاراضي الفلسطينية ولكن الشعار المرفوع حول الضفة والقطاع يهدف الى بلقنة القضية الفلسطينية ، لخلق دولة على جزء من فلسطين ، وتمزيق وحدة الضفتين ، ووحدة شعبيهما وخلق دويلات صغيرة في المنطقة العربية ، وهذا مما يضرب النضال الثوري التحرري في المنطقة العربية ، ويصفي قضية فلسطين ، ويمزق الوحدة القومية للامة العربية ، ويجمد الفاعلية الثورية التحررية في المنطقة العربية . ان هذا الشعار تعبير عن مؤامرة صهيونية امريكية ، تهدف الى الحفاظ على وجود اسرائيل واقامة منطقة عازلة تستخدم ممرا لدولة الاحتلال الصهيوني ، كي تنفذ الى الاقطار العربية سياسيا واقتصاديا . ولن تغيب عن الثورة الفلسطينية مثل هذه المؤامرة ، وان كان هناك من ينادي بها في الداخل وهؤلاء هم دعاة السياسة الانهزامية في الضفة والقطاع »(٢) .

وكانت حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ، قد طرحت مسألة تقرير مصير فلسطين طرحا مبدئيا قاطعا ، لا يترك مجالا لأي تأويل او تلاعب **أيا كان مصدره** ، اذ كتبت تقول :

« ان الشعب العربي الفلسطيني يمتلك وحده الحق في تقرير مصير فلسطين على صورة واحدة فقط ، وهي أن يسلمها للاحفاد كما تسلمها من الاجداد ، اي بدون كيان صهيوني، بدون وجود صهيوني عليها ، او على جزء من اجزائها .

« اما السبب الذي لا يعطي حتى للشعب العربي الفلسطيني الحق بالاقرار بوجود صهيوني في وطنه ، فهو لان فلسطين هي ليست ملكية خاصة بجيل من اجيال الشعب العربي الفلسطيني ، او بجيل من اجيال الامة العربية . انها ملك كل الاجيال ، وكل جيل يرثها لفترة من الزمان ليسلمها للجيل الذي يخلفه غير مجزأة ولا رازحة تحت كيان استيطاني استعماري اجنبي .

« ومن هنا على جميع اخوتنا العرب ، وعلى الفلسطينيين كذلك ، ان يدركوا هذه الحقيقة ، وهي ان ما من احد يمتلك حق تقرير مصير فلسطين الا على صورة واحدة ، وهي ازالة كيان دولة اسرائيل، واعادة فلسطين حرة موحدة جزءا من الوطن العربي»(٣) .

---

١ — **المقاومة الفلسطينية والنظام الاردني** — مركز الابحاث — ص ٣١٥ .

٢ — **المصدر السابق** ، ص ٣٢٢ .

٣ — كراسة « قرار مجلس الامن ومشروع روجرز — خطة تآمرية على حقوق شعب فلسطين » ص ٦ ، ٧ .

كيف روت "اسرائيل" قصة الكرامة للعالم

جويس قاضي

ان الاقاصيص الشعبية التي يتناقلها أي جيل عن الجيل الذي سبقه غالبا ما تعبر عن الطريقة التي كان يفكر بها الناس ويتصرفون ويحسون خلال فترات سابقة من تطورهم الحضاري، وهي باستمرار ترضي الحاجات المشتركة لهؤلاء الناس في التوق الى الامان والحب والاحساس بالقدرة على تسيير امورهم الذاتية . وتقاليد البلاد التي تنهل منها هذه الاقاصيص موضوعاتها الاساسية هي كذلك من الامور العامة . ومجموعة الاقاصيص الشعبية « الاسرائيلية » التي جلبها المهاجرون اليهود معهم من مواطنهم الاصلية الى فلسطين خالية بالطبع من أية سمات اسرائيلية قومية كتصوير الحياة في الريف والعادات والطقوس أو أي سرد لحوادث الماضي السحيق، ولكن هذه الاقاصيص تحمل معها بعض الخصائص كالدهاء والمكر على الصعيدين الشخصي والتجاري والتقتير والحذر والابتعاد عن الآخرين الذين قد لا يشاطرونهم طرائقهم في الحياة .

وفي العام ١٩٦٨ جرت محاولة لنشر قصة انتصار اسرائيلي تقوم على أساس موضوع حقيقي حدث بالفعل . وهي تضم تقريبا كل خصائص القصة الشعبية : التركيز الظاهر على موضوع معين والمبالغة والشخصيات التقليدية الثابتة التي باتت مألوفة — ابطال يمثلون الخير يقارعون آخرين يمثلون الشر، وفي النهاية تكون الغلبة للخير، بالطبع . وخلال الايام الثلاثة التي أعقبت غارة الجيش الاسرائيلي على قرية الكرامة الاردنية العربية قامت صحيفة « جروسالم بوست » الاسرائيلية ومجلتا « جويش كرونيكل » و« جويش اوبزرفر » الصهيونيتان الصادرتان في لندن بتقديم عناصر هذه القصة الى الراي العام في الغرب . وقد كان بالامكان ان تنال هذه القصة الشهرة ذاتها التي نالتها قصة اسرائيل « الضعيفة » و« المحاصرة » التي صمدت في ١٩٦٧ في وجه « الخطر العربي الداهم »، ولكنها اخفقت في ذلك . وقبل أن نبحث في فشل هذه القصة في أن تصبح رائعة دعائية وقصة اسرائيلية شعبية مترسخة، سنعالج القصة نفسها من زاوية أدبية بحتة .

الموضوع : الهجوم دفاعا عن النفس

لا يختلف موضوع قصة الكرامة عن المواضيع التي تقوم عليها غالبية الاقاصيص الشعبية المماثلة، فهي تدور حول صراع، في فترة زمنية معينة، بين الخير والشر . وبشكل مختصر، موضوع قصتنا هو ان على اسرائيل دفاعا عن نفسها أن تضع حدا لـ «ارهاب فتح الوحشي» بعملية حربية هجومية وذلك بعد أن « استنفدت كافة الطرق لحماية المدنيين الاسرائيليين » . وتأييدا لمزاعم الدفاع عن النفس تكهنت المخابرات العسكرية الاسرائيلية، التي تمثل هنا دور المنجم، بأن فتح ستقوم بموجة جديدة من عمليات الارهاب . وهذا ما دفع المسؤولين الاسرائيليين الى وصف « عقوبة » تدمير القاعدة وقتل بعض الفدائيين واسر البعض الاخر بأنها عبارة عن « ضربة — ضرورية — مدوية

على المفاصل » مقابل « عمليات القتل — الوحشية — التي يقوم بهـا المغيرون . »
وعلى أمل كسب الرأي العام العالمي حاول رواة قصة الكرامة جعـل شعـوب الدول الغربية تعتقد ان « اسرائيل ، في دفاعها عن نفسها ، لم تقم بما من شأنـه ان يعتبـر انتهاكا لشرعة الامم المتحدة » . وقد ساهم ابا ايبان ، وزير خارجية اسرائيل ، بهـذه الحملة عندما قال:« ان على الدول المحبة للسلام ان لا تأسف لضربة وجهت الى عصابات من القتلة ينتهكون القانون الدولي وابسط قواعد السلوك الانساني في الوقت الـذي يعتمدون فيه الى اضعاف فرص السلام في الشرق الاوسط . » ولكن أيبان هنا نسي ، او تناسى كم مرة انتهكت فيها اسرائيل القانون الدولي منذ ١٩٤٨ . ولما كـان العامل الديني غالبا ما يجعل الاقاصيص الشعبية اكثر جذبا لانتباه هواة مثل هذه القصص فقد ادخل مثل هذا العامل في قصة الكرامة ، ذلك عندما أكد الحاخام الاكبر للجيش الاسرائيلي بأن الهجوم كان بمثابة عقوبة من السماء ، فقد « استشهد الحاخام الاكبر العميد شلومو جورين . . . باصحاح توراتي حول الدفاع عن النفس كوصية لها الاسبقية على غيرها . »

العقدة : انتصار عسكري خاطف

ومع أن « جروسالم بوست » نشرت في اليوم التالي لهذه الغارة التي جرت في ٢١ اذار ١٩٦٨ خمس مقالات حولها تبقى عقدة القصة الحيوية لذلك الانتصار المزعوم تفتقد جملة من الحقائق قامت الصحيفة نفسها فيما بعد بتغطيتها وكذلك فعل عدد مـن المراسلين الاجانب في « اسرائيل » والاردن . وهناك أيضا جملة من التناقضات البارزة التـي اضعفت من تماسك القصة . مثلا ، يركز الموضوع على الصراع بـين الاسرائيليـين والفدائيين ويعتبران تدخل الاردنيين كان فقط بسبب عدم قدرتهم على ضبط الفدائيين ، مع ان سرد أنباء العملية يؤكد بأن الصراع الذي هو العقدةاشتركت بهالقوات الاردنية مع الفدائيين ضد القوات الاسرائيلية . وسنحاول ان نكشف السبب المحتمل لذلك عنـد حديثنا عن « الشخصيات » . وكما في القصص الشعبية التقليدية ليس هناك تركيز كبير على المكان — وادي الاردن المحاذي للبحر الميت ، أما الزمان فكان بين السادسة صباحا والسادسة مساء . وفي هجوم كان بمثابة « سمة جديدة لاستراتيجية قوات الدفاع » عبرت المدرعات نهر الأردن فياتجاهات ثلاثة عند انبلاج الفجر . وكان على المجموعة التي دخلت الكرامة ان تدمر القاعدة وتقتل او تأسر اكبر عدد ممكن من الفدائيين . اما المجموعتان الاخريان ، واحدة في الشمال والثانية في الجنوب . فقد كان لديهما اوامر بسد اي منفذ للهرب من منطقة الهجوم والحؤول دون وصول اية تعزيزات ممكنة . ومع ان عدد رجال المقاومة قدر ما بين ٢٠٠ و٥٠٠ عنصر ، ذكر مصدر غربي واحد هـو وكالة « يونايتدبرس انترناشيونال — ي ب ا — » في « جروسالم بوست » أن عدد القوات التي دخلت الكرامة كان يبلغ ٢٥٠ جنديا وعدد القوات التي دخلت المناطق الجنوبية ١٧٠ جنديا . ولم يرد أيضا أي ذكر للعدد الحقيقي للدبابات والعربات المدرعة والطائرات التي اشتركت في الهجوم ، وكأن في ذلك محاولة لتجنب اعطاء الغارة حجمها الحقيقي .

وليس هناك أي وصف تفصيلي للهجوم على الكرامة سوى الذي وضعه ثلاثة مراسلين لمجلة « بمحنيه » العسكرية الاسرائيلية ولاذاعة القوات المسلحـة الاسرائيلية « جالي تساهل » . فقد ذكر هؤلاء بعد أن القت طائرات الهليكوبتر بالمنشورات التي تتضمن تعليمات حول الطريقة التي يجب ان يسلكها الاهالي قامت الدبابات والعربات نصـف المجنزرة بدخول الكرامة في السابعة صباحا ، كما قام الجنود بتفتيش البيوت بيتا بيتا وتبادلوا اطلاق النار مع عناصر فتح ، وجمعوا اولئك الذين استسلموا ، ثم عـادوا على اعقابهم بعد أن أتموا عملية « التكنيس » في التاسعة صباحا .

واقل ما قيل في وصف « نجاحهم » بأنه كان انتصارا وبأن ما قام به الجنود الاسرائيليون

كان مثالا للحركية والفعالية في حين وصف رجال المقاومة بأنهم في منتهى الضعف وعدم الفعالية والغباء مقابل الجنود الذين اتصفوا بالمهارة والانسانية وبـ « التقيد بأوامر مشددة لديهم بعدم المساس بالمدنيين » . ويقول تقرير آخر ان بعض الفدائيين المتمرسين اظهروا مقاومة صلبة « لم تنته الا بعد أن قتلوا او جرحوا » . ويضيف هذا التقرير ان الكرامة كانت « كخلية النحل ملأى بالاستحكامات وخنادق الاتصال كما انها كانت على اتم استعداد لمواجهة الاسرائيليين » . ولكن اسرائيل جاليلي ، الوزير الاسرائيلي لشؤون الاعلام ناقض ذلك في اليوم التالي عندما نفى وجود تعزيزات خاصة من جانب الفدائيين في الكرامة . في الوقت نفسه كانت القوات الاسرائيلية « تطهر » « أوكار المخربين » في القطاع الجنوبي من غور الصافي وغور فيفه ودحل حيث واجهتها بعض المقاومة وقتل ٢٥ جنديا اردنيا وعنصرا من القوات غير النظامية . وقد اشتركت الطائرات الاسرائيلية ايضا منذ السادسة والربع صباحا حيث بدأت بقصف الاهداف الارضية ومواقع فرقة المدفعية الاردنية المتمركزة في المنطقة . وعند الساعة ١٦ و٥٥ دقيقة بدأت رحلة العودة عندما « اتمت جميع الوحدات ضرب الاهداف المحددة لها . وانتهى الانسحاب التام عند الغسق . » والانتصار التقليدي الذي عادة ما تنتهي به عقدة الاقاصيص الشعبية كان على الشكل التالي : مقتل ١٥٠ فدائيا واسر عدد منهم لم يكشف النقاب عنه . اما الانباء الاولية عن الخسائر الاسرائيلية فذكرت ان ٢١ قتلوا و٧٠ جرحوا « اصابات معظمهم طفيفة » ، وخسر الاردن ٣٠ دبابة (ارتفع الرقم فيما بعد الى ٤٥) اثنتان منها وهما في حالة سليمة ، ولكن لم تعطب سوى ست عربات مدرعة لاسرائيل . وقد سارت العمليات « وفق خطة موضوعة ودام القتال طوال الفترة المحددة له . » وانهى الجنرالات هذا الفصل من انتصاراتهم بأن أعلنوا أن « قوة » فتح « اصيبت بضربة خطيرة » وان العملية كانت بمثابة « نكسة خطيرة » للحركة .

الشخصيات : أبيض واسود

ان افضل ما يمثل التناقض بين الخير والشر في قصة الكرامة هو شخصياتها . فقد كان المواطنون الاسرائيليون يعانون من قلق معين ، فهب الجيش الباسل لنجدتهم . ونفذت عملية خطط لها بكل دراية وقامت الاستخبارات بابلاغ الجنود كل « ما سيلاقونه بالضبط » . واعتبر ايضا انه لم يكن هناك اية نقطة ضعف في قوة الجيش العسكرية ، فكان الجنود يصيبون اهدافهم اصابات مباشرة ، ويستولون على القرى بكل بساطة ، ويمشطون البيوت بيتا بيتا ويتجنبون بكل ترفع اخلاقي الجنود الاردنيين « المحايدين » حتى جنى هؤلاء على أنفسهم . وقد أطاع الجنود الاسرائيليون أيضا الاوامر التي لديهم بعدم المساس بالمدنيين ، فلم يقتل غير « المخربين » . وتطويقا لمشكلة التمييز بين المدنيين ورجال المقاومة اتبع الاسرائيليون قاعدة « موحدة » وهي ان الفدائيين عادة ما يرتدون زيا مموها وموحدا . وعندما كان الجنود الاشداء يعثرون على رجال في الخنادق المقامة في الساحات العامة بزي مدني كانوا يعتبرونهم فدائيين على زعم انهتم العثور على حقائب في القاعدة « موضبة على عجل » وهي تحوي ازياء مموهة. ربما كانت الحاسة السادسة المدهشة للجيش هي التي كانت تجعلهم يعرفون اصحاب هذه الحقائب الذين ساعدوا الجيش بكل ترو بتقديمهم له مثل هذه البينات الملموسة عن انتمائهم للحركة . وقد انتهت صورة الجنود الاسرائيليين المتلئين حيوية بنجاحهم الباهر في اتمام المهمة الموكولة اليهم في « الدفاع عن أمن الدولة بكل بسالة وفعالية وتفان » . وبمقدار ما كان فرسان اسرائيل رجالا طيبين كان رجال العدو ، المقاتلون الفلسطينيون ، اشرارا ، اذ غالبا ما تصور الدعاوة الاسرائيلية « العرب » كعدو يفوق اسرائيل عدة وعددا . ولكن لما كانت الاقاصيص الشعبية تقتصر على عدد قليل من العناصر اعتبرت هذه القصة العدو مجسدا

في الفدائيين الفلسطينيين دون سواهم من العرب ، ولكن بعد اسبوعين من الغارة على الكرامة أعاد مناحيم بيجن ، الوزير الاسرائيلي ، الغزاة الى اصولهم « العربية » عندما وصفهم كـ « عصابات مسلحة تجندهم وتدربهم الدول العربية العاجزة عن الهجوم » على اسرائيل .

ومع أن الدعاوة الاسرائيلية لم تحاول ابراز الهوية القومية لـ « المخربين » الفلسطينيين الا أنها تتحدث عنهم كمعتدين على الاطفال وعلى المزارعين . وتقيدا بالايجاز الضروري للقصص الشعبية لم يتحدث الاسرائيليون في حملتهم الدعائية بتاتا عن الخلفية التي يستند الفدائيون اليها في قيامهم بأعمال التخريب ، كذلك لم يرد أي ذكر في هذه الحملةللاعتداءات الاسرائيلية واحتلال الاراضي والقرى العربية وابعاد الفلسطينيين الذين يقاومون الاحتلال ، وأيضا طرد مليون فلسطيني عربي أمام المهاجرين اليهود القادمين الى فلسطين . والخلفية التاريخية الوحيدة التي اهتمت بها القصة هي ان هناك اناسا بريئين يقتلهم « المخربون » بوحشية ، ولكنها اغفلت عمدا ان الكيبوتزات التي يقطن فيها سائقو الجرارات والاطفال اقيمت على حدود المناطق المحتلة كمواقع عسكرية متقدمة وان عددا كبيرا من سكان الكيبوتزات هم جنود اسرائيليون مدربون تدريبا خاصا . ويتحدث الاسرائيليون ايضا عن « المخربين » كفوضويين يتحدون سلطة ملك البلاد التي ينطلقون منها في هجماتهم . ويعتبر الاسرائيليون ان انطلاق الفدائيين من الاردن يرجع الى عدم قدرتهم على كسب تأييد جماهير الضفة الغربية ؛ علما بأنهم يعملون من الاردن لحماية العائلات العربية في الاراضي المحتلة من سياسة الحكومة الاسرائيلية في العقاب الجماعي الشديد الذي لا يقره القانون الدولي . ويزعم الاسرائيليون ايضا بأن الفدائيين يبتزون المساعدات المالية ويقبضون الرشاوي ، ولكنهم لا يشيرون الى من يدفع الرشاوي .

ويظهر الفدائيون أيضا بأنهم يعانون من الفوضى التنظيمية داخل صفوفهم . فالاعضاء يجندون قسرا ، ومصير الذين كانوا يأبون الانضمام لفتح الاقامة في سجن الكرامة الذي كان يزدحم بأولئك الذين لا يدينون بالولاء لها . اما أعضاء فتح فيوصفون بأنهم حفنة من المرتزقة يلهثون « وراء المال » . وقال « خبير اسرائيلي موثوق » ، لم يذكر اسمه بالطبع، لجويش اوبزرفر ان « ٩٩ بالمئة من افراد فتح مرتزقة وانتهازيون ، يقبضون حسب نوعية ما ينجزونه في كل عملية يقومون بها بمعدل ١٠ الى ١٠٠ دينار كل عملية . » ويرحب المجرمون السابقون بهذه العمليات التي غالبا ما كانت تؤدي بهم الى السجون الاسرائيلية التي كانت مريحة « بالنسبة للسجون التي عانوا من قسوتها . » وقام اثنان زعم أنهما من عناصر فتح بالتحدث ببذاءة عن الحركة ، زاعمين ان قادة فتح أثروا من وراء الحركة ، وان ابا عمار وابا علي وغيرهما فروا قبل وصول القوات الاسرائيلية ، وانه بود الكثيرين ان يتركوا فتح لعدم ايمانهم بها ولكنهم يخشون أن ينفذ فيهم حكم الاعدام كالجواسيس .

ويظهر الفدائيون ايضا كمجموعة من العتاة حتى بالنسبة لشعبهم هم. وتورد القصة مثلا تفصيليا صارخا حول هذه الصفة . فقد عثر على فدائي جريح مختبىء مع « جبناء » اخرين في ملجأ ويداه ورجلاه مقيدة وفمه مكمم بالقماش لاخماد صوت انينه لكي لا يتسبب ذلك في كشف مواقع رفاقه . وقد قيدت يداه ورجلاه لمنعه من الهرب والاستسلام .

ويفتقد « واضعو الالغام » هؤلاء المهارة التي يتحلى بها المقاتلون . فقد قتل كل من حاول أن يحمي نفسه ضد هجمة الدفاع عن النفس التي قام بها الجيش الاسرائيلي «الباسل» . وقد وجهت انتقادات عنيفة لعملياتهم ضد المستوطنات الاسرائيلية ، ووصفوا بضعف الخبرة الفنية والتدريب وبأنهم يلقون القنابل دون نزع مساميرها ، وبوضع القنابل الموقوتة في أطراف المستعمرات بدلا من المراكز الهامة ، وما الى ذلك .

ومن جهة اخرى، ليس هناك تركيز على صورة الجيش والنظام في الاردن . فقد أعلن الاسرائيليون ان الاردنيين « خرقوا تعهدات صريحة بكبح جماح الارهابيين » وفقا لاتفاقية وقف اطلاق النار بعد حرب ١٩٦٧ ، اي قبل تسعة اشهر من معركة الكرامة . ومع هذا فانهم ما يزالون يزعمون انهم يحاولون تجنب أية مواجهة مع قوات حسين . وليس هناك مجال للتأكيد ما اذا كانت سياسة الحكومة الاسرائيلية نفسها غير واضحة او أنهم كانوا يحاولون استغلال السياستين ، ولكن الحكومة الاردنية ظهرت من الجهة الاولى ، وكأنها غير حاسمة وضعيفة ومتأرجحة ، ومن الجهة الاخرى ، انتهازية ماكرة ومخادعة . ويظهر ملك الاردن في أحد الروايات وكأنه يستخدم الفدائيين لكسب شخصي كزعيم البلد العربي الوحيد الذي بدأ يستعيد كبرياءه بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ . ففي حين يتستر هو باتفاقية وقف أطلاق النار سمح للفدائيين باقامة قاعدة لهم في بلاده وسمح لجنوده بتغطية الفدائيين اثناء قيامهم بعملياتهم . وتصوره رواية اخرى كحاكم لا حول له ولا قوة ولا سيطرة على بلده وانه ملك برضى الفدائيين فقط مما جعله غير قادر على الالتزام بوقف اطلاق النار .

ولم تخل القصة من تبريرات للخسائر في المعدات والارواح التي مني بها الاسرائيليون . وقد عزا الاسرائيليون ذلك للدور الذي لعبه الجيش الاردني وذلك في محاولة منهم لطمس قدرة الفدائيين على ايقاع ابسط الخسائر بهم . ومعظم الصور التي اعطيت عن الاردنيين كانت حسب اقوال المراسلين العسكريين الاسرائيليين كما يلي : « لم يبد الاردنيون اية مقاومة صلبة بل فضلوا التراجع بأسرع ما يمكن تاركين وراءهم عشرات الدبابات المعطوبة والمدافع المدمرة . وفي أكثر الاحيان كانوا يتركون هذه المعدات وهي في حالة سليمة . » اما المشاق القاسية التي واجهها الاسرائيليون في الجنوب فلم تكن بسبب مقاومة الفدائيين بل بسبب الارض الرملية والوديان العميقة .

الاسلوب : الجراد الغاضب

ان الاسلوب الذي عرضت به قصة الكرامة هو الخاصية الوحيدة التي لم تكن لتنسجم مع خصائص القصة الشعبية . فرغم المرونة التفسيرية التي بدأت تتميز بها الصحافة المعاصرة ، فان أسلوب القصة الشعبية الموزون والذي تكثر فيه المحادثات لا يصلح بعد كمادة صحفية ناجحة . ومع هذا فقد اعطيت القصة بريقا خاصا من خلال تعابير مثل « وانتزعت الكرامة من بين فكي كماشة الجيش الاردني » ، و« النفاثات الخاطفة كانت تئز في الجبهة الشرقية » ، وكانت طائرات الهليوكبتر تمر فوق نهر الاردن « اسرابا اسرابا كالجراد الغاضب » .

شيء من الحقيقة

لقد اخفقت هذه القصة بكل سحرها الشعبي في أن يتقبلها الرأي العام في الغرب لسببين رئيسيين : فقد اثار الهجوم الواسع النطاق رد فعل سلبي لدى الرأي العام ، كما ان الحوادث التي أعقبت الغارة اثبتت زيف الانتصار . واعربت دول اجنبية كثيرة عن امتعاضها لكون الغارة الاسرائيلية اكبر بكثير من الاسباب التي دعت لذلك ، كما أن الهجوم خلق رأيا عاما ضد اسرائيل ، وافضل تعبير عن ذلك شجب مجلس الامن الدولي للعملية بعد يومين من وقوعها ، حتى أن آرثر جولد برج ، المندوب الاميركي ، لم يستطع الا ان يصف العملية بأنها « غير متناسبة جدا » والا ان يعرب عن « اسفه الشديد لها » . وكل هذا الاستنكار جعل رواة القصة الاسرائيلية يقفون في قفص الاتهام . ولكن جروسالم بوست نشرت الى جانب تغطيتها لمناقشات مجلس الامن مقتطفات من الصحف العالمية ، كلها باستثناء واحدة ، تدين العرب اكثر من الاسرائيليين ، كما أن جميع المقتطفات من الصحف العبرية كانت تبرر العملية بل وتؤيدها .

وقد أدت المناقشات المضادة التي عرضها الاسرائيليون الى عمل دعائي مشوش وضبابي. وكان أول هجوم على مجلس الامن ، زعموا فيه أن خمسة من اعضائه « يصوتون دائما الى جانب العرب كرها باسرائيل » . وكالتاجر اليهودي في العديد من القصص الشعبية، فان اسرائيل « تقف وحيدة ليس لديها سوى ذكائها » تجابه به الاخرين . وزعم الاسرائيليون ايضا ان ما قاموا به كان مشروعا ما دام الاردنيون كانوا البادئين بخرق وقف اطلاق النار . وقد ركزت الصحيفة ، رغم التناقض في كلامها ، على مسؤولية حسين في تطبيق وقف اطلاق النار لا فرق ان كان يؤيد الفدائيين او ان زمام سيطرته عليهم قد فلت من بين يديه . والاكثر احتمالا ان الجيش كان يعتقد بأن حسين فقد سيطرته على الفدائيين لان المزاعم كلها كانت تؤكد ان الغارة كانت تهدف فقط الى تدمير قاعدة الفدائيين، فهذا كان الاسلوب الوحيد المقبول به سياسيا . فلو اعترفت اسرائيل بأن هجومها كان موجها ضد القوات الاردنية في وقت اعلن فيه حسين عدم مسؤوليته عن اعمال الفدائيين ، سيدرك العالم مباشرة ان اسرائيل لم تهاجم الكرامة في اذار ١٩٦٨ فحسب، ولكنها ايضا هي التي بدأت بالعدوان في ١٩٦٧ . وباظهارهم لحسين كبطل فدائي يحاولون التقليل من الاحترام الذي يكنه له الغرب لانه اكثر الزعماء العرب ميلا الى الغرب .

وكان التناقض الذي تميز به الاسرائيليون في وصفهم للفدائيين الفلسطينيين هو العمل الدعاوي الوحيد الذي فاق ازدواجيتهم في تصوير حسين أمام الغرب. فغالبا ما يصورون الفدائيين وكأنهم عبارة عن عصابات عاجزة وغير محترفة ، ويأبون ان يعترفوا امام العالم بقدرة الفلسطينيين المشردين على تجميع انفسهم في حركة تحرير فعالة ومتفانية. ولكنهم لم يجدوا ما يبررون به حجم الغارة على الكرامة سوى بتصوير الفدائيين كخطر حقيقي عليهم . لذا ، فتصوير الفدائيين ايضا يتأرجح بين كونهم مجرد ازعاج بسيط وبين كونهم مجموعة من الرجال الاشداء الذين يهددون بتدمير اسرائيل ولن يحول دون ذلك سوى القيام بغارة كبيرة تستخدم فيها الدبابات وطائرات الهليوكبتر والقاذفات النفاثة . واذا لم يكن حسين والفدائيون قد نجحا في كشف هذه الازدواجية والتناقض في تبرير الغارة لجعل الرأي العام الغربي يرفض قبولها ، فان الحوادث التي اعقبت الغارة وحقيقة الاوضاع التي نجمت عن ذلك كان من شأنها ان تدفن «قصة الكرامة» في مقبرة الاقاصيص الشعبية ، فقد استأنف الفدائيون عملياتهم ضد اسرائيل بعد ثلاثة ايام من الغارة بقوة جعلت الاسرائيليين يكررون هجومهم على الاردن في الثامن من نيسان . وقد تسبب فشل محاولة في وقف عمليات الفدائيين ومقتل ٢٥ اسرائيليا وخسارة معدات حربية بما في ذلك ست عربات مدرعة وطائرة بالاضافة الى موجة الاستنكار العالمية ، في حدوث بلبلة في الداخل ، الامر الذي من الطبيعي ان يحدث في « بلد ديموقراطي كل شيء فيه معرض للانتقاد » كما زعم ابا ايبان عندما كان في امستردام في الاسبوع التالي . وكذلك فان مناقشات الكنيست التي جرت في ٢٥ اذار والتي المحت اليها « جروسالم بوست » في احدى مقالاتها وركزت فيها على اتفاق الرأي بين اعضاء الكنيست ، في حين نشرتها « جويش أوبزرفر » و« جويش كرونيكل » بشكل انتقادي اكثر ، تظهر ان عددا من اعضاء الكنيست اصيبوا بخيبة بالنسبة لتخطيط العملية وتنفيذها . وحتى ان بعض الاعضاء قالوا بأن اسرائيل كانت تحمي حسين سياسيا واقتصاديا . واعرب اخرون عن امتعاضهم بأن الانتصار النفسي الذي حققه العرب قد يكون له انعكاسات سيئة على اسرائيل ، كما اعربوا عن انزعاجهم بأن الجيش الاسرائيلي « الذي لا يقهر » تخلى هذه المرة عن ضرباته المفاجئة التي اشتهر به وذلك بانذاره المدنيين والجيش الاردني بأنه سيوجه لهم ضربة لا مفر منها ، وقالوا ان هذا الانذار قد تسبب في خسائر اسرائيلية لا لزوم لها ، وكان على اية حال عملا خاطئا بما ان الرأي العام قد انتقد العملية .

وافضل دليل على زيف « الانتصار » الاسرائيلي في الكرامة ، اي النقطة الحاسمة التي تخرب كل ما تقوم عليه القصة الشعبية ، هو الدافع للهجوم على حركة المقاومة . فما ان انتشرت قصة معركة الكرامة في العالم العربي حتى تسارع الفلسطينيون الى الانضواء تحت لواء حركة المقاومة ، وبدل ان تقصم الغارة ظهر فتح ، كما زعمت اسرائيل ، كان لها تأثير عكسي برفع معنويات حركة المقاومة ككل . وتعتبر الكرامة الان نقطة تحول بالنسبة للفدائيين لان اعتراف العرب والعالم بهم بدأ منذ ذلك الوقت يتخذ شكلا اكثر وضوحا من السابق . ومنذ ذلك الوقت أيضا اصبح العمل الفدائي يعتبر حركة وطنية شعبية تقاتل من اجل تحرير بلادها فلسطين .

ندوة العدد :
تقييم دور الحركات الوطنية العربية في دعم حركة المقاومة الفلسطينية

د. خليل احمد خليل :	الحزب التقدمي الاشتراكي
غسان شرارة :	المستقلون المساندون للعمل الفدائي
سهيل الطويلة :	الحزب الشيوعي اللبناني
رغيد الصلح :	حزب البعث العربي الاشتراكي (العراق)
نزيه حمزة :	حزب العمل الاشتراكي العربي

شؤون فلسطينية:* نريد في هذه الندوة أن نطرح قضية واحدة للبحث والنقاش ، وهي : تقييم دور الحركات الوطنية العربية في دعم حركة المقاومة الفلسطينية ، وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ . والذي يدفعنا لاثارة الحوار حول هذه القضية ، هو التركيز الدائم على ان احدى نقاط الضعف الاساسية في استراتيجية حركة المقاومة الفلسطينية انما تنبع من عدم فهمها للارتباط النضالي الوثيق بين القضية الفلسطينية والقضية العربية ، او لعدم وضع هذا الفهم موضع التنفيذ العملي بالنسبة للذين استوعبوا هذه القضية في وقت مبكر .

ولكننا نعتقد ان طرح القضية بهذا الشكل ، هو جانب واحد من الموضوع فقط . الجانب الاخر ، هو أن الحركات الوطنية العربية نفسها ، لم تفهم الامكانات الثورية التي ينطوي عليها بروز العمل الفدائي ، ولم تحاول ان تستفيد من الظروف الموضوعية التي أوجدها، ومن المناخ الثوري الذي ولده باتجاه تعميق وتطوير نضال الحركة الشعبية ، أولا باتجاه خلق ظروف جديدة في كل بلد عربي تكون ردا على الهزيمة . وثانيا باتجاه خلق تيار شعبي منظم يلعب دورا فعالا في دعم وحماية حركة المقاومة حين تتعرض لاي عملية تصفية .

رضيت فصائل الحركة الوطنية العربية ان يقتصر دورها على تقديم الدعم المالي والدعاوي ، منسجمة في ذلك مع ما طلبته منها فصائل المقاومة ، ولم تضغط لفرض اي منهج آخر يعمق هذه الصلة . ومن هنا فانها تتحمل في رأينا مسؤولية اساسية تجاه الوضع الذي وصلت اليه حركة المقاومة الان . وهدفنا من هذا النقاش أمران : أ — ان يطرح كل فصيل تقييمه للعلاقات في المرحلة السابقة . ٢ — ان يقدم اقتراحاته حول نمط وافق العلاقات المطلوبة في المرحلة المقبلة .

* أدار الندوة مندوب عن اسرة تحرير « شؤون فلسطينية » واجريت في ١٩٧١/١١/٢٣ وقد غاب عن هذه الندوة ، لاسباب طارئة ، ممثل حزب البعث العربي الاشتراكي (سوريا) اذ حالت ظروفه العملية دون حضوره ، وذلك بعد أن تم الاتفاق معه ورتب موضوع اشتراكه في الندوة .

سهيل الطويلة : يحظى هذا الموضوع بأهمية كبيرة في الوقت الراهن ، اذ بدأت تطرحه للبحث كل فصائل حركة التحرر العربية ، بما فيها فصائل المقاومة الفلسطينية . واذا كانت المقاومة الفلسطينية قد أعطت الكثير ، الا ان هناك نقاط ضعف واضحة تشوب بعض مواقفها ، وخاصة في اطار العلاقات مع فصائل حركة التحرر العربية ، وأي بحث في هذا الموضوع لا بد ان ينطلق من تحديد مكانة المقاومة الفلسطينية داخل حركة التحرر العربية .

منطلقات للتقييم

اعتقد انه من المسلم به ان المقاومة الفلسطينية تشكل احدى فصائل هذه الحركة ، وبالتالي فان العلاقة بينهما علاقة عضوية ، طابعها التعاون والدعم المتبادل . وهذا لا ينفي بالطبع ان تكون هناك تناقضات بين حركة المقاومة والفصائل الاخرى في حركة التحرر العربية ، لكن هذه التناقضات مهما كانت تبقى تناقضات ثانوية ، وأي محاولة لتضخيم هذه التناقضات الثانوية تكون مخالفة بالاساس لمصلحة حركة المقاومة ، وحركة التحرر العربية ككل .

ولا يكفي ونحن بصدد تقييم العلاقة التي يجب ان تربط بين حركة المقاومة وفصائل التحرر العربية ، ان ننطلق من كون حركة المقاومة فصيلا لا يتجزأ من هذه الفصائل ، بل يجب ان نحدد خصوصية حركة المقاومة . هذه الخصوصية التي تنطلق من كون القضية الفلسطينية قضية محورية لحركة التحرر العربية ، شكلت عامل تجمع قومي للشعوب العربية ، كما تنطلق من المكان الذي تحتله اسرائيل ، في تاريخ النضال التحرري العربي، باعتبار ان اسرائيل طارئة ككيان صهيوني مصطنع ، وكجسم غريب أقامته الامبريالية العالمية ، بالتواطؤ مع الرجعية العربية ، بهدف فصل مشرق الوطن عن مغربه ، والحيلولة دون وحدة الشعوب العربية . كذلك باعتبار ان الدولة الصهيونية قامت على حساب حقوق الشعب العربي الفلسطيني .

وهناك ناحية أخرى بالنسبة للطابع الخاص الذي يرتديه النضال الوطني التحرري للشعب الفلسطيني ، هو كون هذا الشعب أصبح مضطرا لان ينطلق في نضاله الوطني التحرري ، ليس من الارض الفلسطينية ، انما ايضا من أراضي بلدان عربية اخرى ، وهذا يعطي ميزة خاصة للعلاقة بين حركة المقاومة ، وحركة التحرر العربية .

هذه المكانة الخاصة لحركة المقاومة ، لا تعني بالضرورة انها تشكل طليعة حركة التحرر العربية ، وذلك لان المعيار الاساسي لتحديد طليعية حركة ثورية ما ، ينطلق اساسا من الطبيعة الطبقية لهذه الحركة ومن المهمات التي تطرح امامها ، وحركة المقاومة الفلسطينية ، التي تضم في صفوفها عمالا ، وفئات بورجوازية صغيرة تشكل سوادها الاعظم ، وعناصر من البورجوازية الكبيرة ، هذا الواقع بتركيبه وبالمهمات التي تواجهه، يجعل الطابع القومي هو الغالب في مهمات ونضال هذه الحركة ، وبالتالي لا يمكن لحركة المقاومة الفلسطينية ، ان تشكل طليعة لحركة التحرر العربية ، التي تجاوزت بعض فصائلها النضال القومي ، وأصبحت تواجه مهمات على صعيد التحرر الاجتماعي . ولا يكفي حسب منطلقات العلم الثوري اعتماد الكفاح المسلح كأسلوب في النضال لتحديد طليعية قوة ثورية معينة ، اذ يمكن لاي قوة ثورية ، طليعية كانت ام غير طليعية ، ان تلجأ لاسلوب الكفاح المسلح .

وهنا لا بد من الاشارة الى قضية خاطئة اخرى ، كانت باستمرار ، سببا في قيام علاقات غير صحيحة بين حركة المقاومة الفلسطينية، والفصائل الاخرى في حركة التحرر العربية، هذه القضية ، هي الانطلاق من التفريق بين الكفاح المسلح وبين العمل السياسي بشكل

عام ، لتقييم علاقة الفصائل العربية مع المقاومة - وتقييم دعمها وأهمية هذا الدعم . وفي هذا النطاق تدخل قضية الموقف من قرار مجلس الامن .

اعتقد ان الحكم على مدى دعم فصيلة من فصائل حركة التحرر العربية للمقاومة الفلسطينية ، انطلاقا فقط من موقفها من قرار مجلس الامن ، ليس بالمنطلق الصحيح . فبعض القوى الرجعية تتخذ موقف الرفض من قرار مجلس الامن . ثم لا بد من القول انه اذا كان من حق المقاومة الفلسطينية عدم قبول قرار مجلس الامن ، لانه لا يطرح المهمة الاستراتيجية التي تطرحها حركة المقاومة ، اي مهمة تحرير كامل الارض المحتلة ، فان ذلك لا يعطي الحق للمقاومة ، أو لاي فصيل من فصائل حركة التحرر العربية التي رفضت قرار مجلس الامن ، ان تدين مواقف الفصائل الاخرى التي وافقت عليه، ووافقت على تنفيذه ، كمهمة مرحلية ، انطلاقا من الظروف الراهنة التي وصلت اليها حركة التحرر العربية بعد نكسة حزيران ، ومن اطار ميزان القوى الراهن ، وانطلاقا مما نص عليه هذا القرار من ضرورة انسحاب اسرائيل من كل الاراضي العربية المحتلة .
اعتقد ان بحث هذه الامور يمهد السبيل أمام اقامة علاقات طبيعية وسليمة بين حركة المقاومة وفصائل الحركة العربية التحررية ، تنطلق من تحليل علمي دقيق ، لدور حركة المقاومة ، ودور الفصائل العربية ، وأيضا للمواقف والمهمات التي تواجهها كل من هذه الفصائل .

تقييم العلاقات السابقة

اذا استعرضنا بنظرة سريعة تاريخ الفترة السابقة للعلاقات ، فيمكن القول بأن حركة التحرر العربية بمجملها أعطت أشياء كثيرة لحركة المقاومة الفلسطينية ، على أكثر من صعيد ، مالي وعسكري وعالمي ، كما دعمت المقاومة في مواجهة هجمات الرجعية . واذا كانت الرجعية الاردنية ، استطاعت لاسباب كثيرة أن تنزل ضربات شديدة بالمقاومة الفلسطينية ، فلا بد ان نذكر بالمقابل انتفاضة نيسان في لبنان حيث استطاعت حركة التحرر العربية أن تحمي المقاومة من المؤامرات والمخططات الرجعية والاستعمارية .
ولكن لا بد من الاشارة الى ان بعض فصائل حركة التحرر العربية ، اذا كانت قد دعمت وساندت المقاومة في كثير من المواقف والميادين ، فهي أيضا قد أضرت بالمقاومة الفلسطينية في مواقف كثيرة ، حين نقلت سلبياتها الى داخل حركة المقاومة ، ممثلة بالصراعات والخلافات الجانبية ، التي كان حريا بحركة التحرر العربية ، والمقاومة الفلسطينية بخاصة ، ان تتخطاها . ولا بد كذلك من الاشارة الى مواقف بعض الفئات اليسارية المتطرفة التي شجعت طرح مهمات أمام المقاومة تتجاوز بكثير دور المقاومة وامكاناتها ، وبالغت بالتناقضات الثانوية القائمة ، مما أدى الى صراعات جانبية ، لم يستفد منها الا العدو الرئيسي . وليس بالاستطاعة هنا ، أن تعفى المقاومة الفلسطينية من المسؤولية التي تتحملها في هذه المواقف ، التي تركت تأثيرا سلبيا مريرا ، على مجمل أوضاع المقاومة ، وعلى صراعها مع الرجعية العربية ، وبشكل خاص في أيلول ١٩٧٠ .

تقييم مواقف الانظمة

واذا انتقلنا الى الحديث عن دور الانظمة التقدمية العربية ، فيمكن القول انها مارست دورا مهما في دعم المقاومة . ولكن لا بد هنا من الاشارة الى انها بدورها اخذت بمواقف اضرت بالمقاومة . فقد ترددت في اسداء الدعم الحازم لها في مواجهة الرجعية العربية ، وقامت بمحاولات لاحتوائها لم يكن لها ما يبررها . على أنه لا يجوز الانطلاق من هذه السلبيات للمساواة بين الانظمة التقدمية والانظمة الرجعية في موقفها من المقاومة ، باعتبار انها جميعا مارست محاولات الاحتواء ، لان الموقف من الانظمة السياسية يجب ان ينطلق من التحليل العلمي لطبيعتها ودورها . وبالتالي فان موقف المقاومة من الانظمة

التقدمية ، يجب ان ينطلق من كون هذه الانظمة حليفا طبيعيا لها في مواجهة العدو المشترك ، الذي يضم الصهيونية والامبريالية ، كما يضم الرجعية أيضا .

دور الاحزاب الشيوعية

اما الحركة الشيوعية العربية ، بوصفها فصيلة اساسية من فصائل حركة التحرر العربية ، فقد ساهمت بدورها في دعم المقاومة الفلسطينية . ولكن ينبغي القول ان ما قدمته في هذا المجال يبقى دون ما كان بامكانها أن تقدمه ، وهذا ما اعترفت به الحركة الشيوعية العربية نفسها . وبالنسبة للحزب الشيوعي اللبناني ، فان مؤتمره الثاني ، الذي انتقد فيه مواقفه السابقة من القضية القومية ، ومن القضية الفلسطينية بشكل خاص ، ارسى أسس مواقفه المبدئية الجديدة المبنية على مبادىء الماركسية اللينينية . وانطلاقا من هذه السياسة أقام الحزب الشيوعي اللبناني علاقات متعددة ومفيدة مع فصائل المقاومة الفلسطينية ، كما ساهم مساهمة فعالة في دعم وحماية المقاومة في لبنان ، وفي الانتقاد البناء لسياسة منظمات المقاومة ومواقفها . كذلك ساهم حزبنا مساهمة مباشرة في النضال الفلسطيني المسلح ، سواء في صفوف منظمات المقاومة ، او في صفوف الحرس الشعبي ومنظمة قوات الانصار . ولا بد من التأكيد مجددا على أنه ما زال بامكان الحركة الشيوعية العربية ، أن تعطي الكثير من المساهمة في نضال الشعب العربي الفلسطيني ، ومجمل حركة التحرر العربية .

مسؤولية حركة المقاومة

وهكذا نرى بأن قضية الجوانب السلبية والخاطئة في علاقة حركة التحرر العربية بالمقاومة الفلسطينية ، لا تؤخذ من جانب واحد . فالمسؤولية مشتركة بينها وبين حركة المقاومة ، ولا تقل مسؤولية المقاومة عن مسؤولية الفصائل الاخرى، باعتبار ان القضية، هي قضيتها بالاساس . وما من شك في أن المقاومة ، رغم الدور الكبير الذي لعبته في اطار حركة التحرر العربية بعد نكسة حزيران، الا أنه كان بامكانها ان تمارس دورا أكبر، وما زال بامكانها أن تتخطى أزمتها لتمارس هذا الدور ، اذا امتلكت نظرة صحيحة لموقعها ومكانها في حركة التحرر العربية . وأهم ما يواجهها في هذا المجال اقامة علاقات صحيحة بين فصائلها ، توحد صفوفها في جبهة واحدة ، حول برنامج سياسي وعسكري مشترك ، يحدد بوضوح علاقة المقاومة بفصائل حركة التحرر العربية في كل بلد ، ليس انطلاقا من المقاومة الفلسطينية فقط ، بل بالانطلاق أيضا من مصلحة الحركة الوطنية في البلد المعين نفسه ، لان المصلحتين هما في النهاية مصلحة واحدة ، مصلحة فصيلتين من حركة التحرر العربية .

رغيد الصلح : اعتقد ان حركة المقاومة مرت بصورة عامة ، بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى هي مرحلة التأسيس : في هذه المرحلة جوبهت حركة المقاومة من قبل معظم الحركات الثورية العربية بحملات تشكيك وصلت بخطورتها الى حد الاتهام بالعمالة ، والسعي لتوريط الانظمة في حرب خاسرة .

المرحلة الثانية هي مرحلة النهوض الثوري : دخلتها المقاومة بعد حرب حزيران ، وكسبت فيها تأييد الجماهير لمنهجها في الحرب الشعبية كطريق لتحقيق هدف التحرير . في هذه المرحلة ، كان الطابع العام لعلاقة الاحزاب الثورية العربية بحركة المقاومة ، هو طابع الاستفادة منها ، ومن الاجواء التي خلقتها ، بشكل أعتقد أنه طفيلي . والى جانب ذلك كانت هناك نزعة تميل الى التقليل من أهمية حركة المقاومة في الصراع مع العدو .

اما في المرحلة الثالثة التي نشهدها اليوم ، وهي مرحلة الانتكاس ، فنجد ان معظم

الاحزاب الثورية العربية تتجه الى التخلي عن المقاومة . وعن النضالات اللازمة لحماية العمل الفدائي ، وتوفير ظروف الانطلاق والعمل له .

والقاسم المشترك لموقف الاحزاب من حركة المقاومة في كامة هذه المراحل . هو في رأيي . اعتبار المقاومة . شيئا آخر غير الحركات والاحزاب الثورية . وهذا الامر يتصل بنظرة هذه الاحزاب الى القضية الفلسطينية ، وبتحديد أهميتها بين القضايا العربية المعاصرة . فهي تعتبر القضية الفلسطينية قضية قطر عربي أو شعب عربي معين ، أي انها لم تحتل مكانتها تماما كمحور أساسي لقضايا الثورة العربية المعاصرة .

وقد لعبت المقاومة دورا سلبيا أدى الى وقوع الحركات الثورية العربية في هذه النظرة الخاطئة ، بسبب سلبيتها تجاه الصراع الايديولوجي . وافتقارها الى النظرية الثورية . كذلك فان قطرية حركة المقاومة ولدت قطريات مضادة، أدت الى تمسك الجماهير العربية بالمشاكل القطرية . وهذا أدى بدوره الى نوع من الانحسار الجماهيري عـــن حركة المقاومة ، لم يلبث ان انعكس على مواقف الاحزاب والحركات الثورية . كما ان التشتت والتفتت داخل حركة المقاومة ، أدى الى أن تقف بعض الاحزاب منها موقفا سلبيا .

المطلوب للمستقبل

هذا بالنسبة للمراحل السابقة ، اما بالنسبة للمرحلة المقبلة . فانني اعتقد ان هناك تحالفا ضمنيا بين فريقين من الناس : فريق موجود داخـــل حركة المقاومة ، لا ينظـر بارتياح الى التفاعل الممكن أن يقوم بين حركة المقاومة والاحزاب الثورية العربية خشية التأثر بأفكارها ومبادئها اليسارية . وفريق آخر موجود داخل الاحزاب الثورية العربية. يخشى أسلوب الكفاح الشعبي المسلح، فيحاول وضع العراقيل امام المقاومة باستمرار . هذان الفريقان . هما في نظري فريق واحد ، يعمل بتنسيق غــير منظور ، لاضعاف التحالف المطلوب بين المقاومة والاحزاب الثورية ، لا بد وان يواجـــه بتحالف مضاد . اطاره العام جبهة شعبية على المستويين القومي والقطري ، وهدفه الاساسي تحرير كامل الاراضي العربية المحتلة . وأسلوبه الكفاح الشعبي المسلح ، الذي لا ينتقص من دور الجيوش النظامية في المعركة .

وهنا من الضروري التشديد على الالتزام باستراتيجية قومية في المجابهة مع العدو . تأخذ بعين الاعتبار التفاوت في التطور السياسي والاجتماعي بين الاقطار العربية .

بهذه الطريقة أعتقد اننا نستطيع ، ليس فقط اخراج حركة المقاومة من المأزق التاريخي الذي تواجهه ، وانما نستطيع أيضا تجديد الاحزاب والحركات الثورية العربية نفسها . وتجديد صلتها بالجماهير .

د. **خليل أحمد خليل** : ردا على المسألة المطروحة ، كيف تعاملت القوى العربية التقدمية مع المقاومة . سأوجز الاجابة في أربعة موضوعات أساسية .

في الموضوعة الاولى سأتناول مدلول وطبيعة العلاقة . وهي تعني من حيث التحديد . المشاركة والتبادل . وهذه المشاركة ترتكز الى معطيات أساسية . منها أولا البنيان المؤاتي أو غير المؤاتي لنمو العلاقة ، وثانيا العلاقة في التفاعل والتضاد بين الاطراف . ان العلاقة كمشاركة متبادلة . او متعاكسة أحيانا . تفترض بطبيعتهـــا وحدة العمل ووحدة النظر الى هذا العمل المطلوب . ولذا فان مدلول العلاقة يرتكز على معطيات ملموسة . هذه المعطيات الملموسة تستلزم أولا . المعرفة المشتركـــة او المتبادلة بين الاطراف التي تريد أن تبني علاقة فيما بينها . ولكننا نجد ان هذه الاطراف كانت غالبا ما تجهل بعضها بعضا ، هذا الجهل المشترك كان لا يؤدي فحسب الى مواقف متناقضة

ومتعاكسة مسبقة، بل كان أيضا يرتكز الى كون هذه الاطراف ذات بنى مختلفة ومتعددة. وهذه البنى كان بعضها مؤاتيا ، وكان بعضها الآخر غير مؤات لنمو العلاقات بين أطراف المقاومة الفلسطينية من جهة ، وبين الاطراف الاخرى من جهة ثانية . اذا العلاقة بين المقاومة وبين القوى التقدمية العربية لا يمكن تحديدها بشكل صحيح الا اذا قبلناها من مواجهتين أساسيتين : الاولى مواجهة التفاعل ، والثانية مواجهة التضاد او الصراع .

الموضوعة الثانية : كيف تعاملت القوى العربية التقدمية مع المقاومة ؟ يجب أن نحدد أولا هذه الاطراف ، وأصنفها في ثلاثة : الانظمة العربية التقدمية وأحزابها الحاكمة ، الاحزاب السياسية اليسارية العربية ، المعرضة في نفس الوقت لخطر ترسيم نضالها ، والطرف الثالث الذي أشدد عليه واعتبره مهما جداً ، هو المنظمات الشعبية .

هذه الاطراف الثلاثة لها بنى مختلفة ومعقدة ، وأطراف المقاومة كذلك لها بنى مختلفة ، وآفاق متناقضة أحيانا . وهنا يصعب علينا أن نقارن مقارنة علمية صحيحة تخلص الى تحديد طبيعة هذه العلاقات بين الاطراف المعنية والمذكورة آنفا . الا اننا نرى بوجه عام ان القوى العربية التقدمية كانت ولا تزال تمر بظروف التخلف اليساري ، فهي لم تكن ناضجة من حيث نموها كحركات يسارية أساسية ، ولهذا فان ظروف تخلفها اليساري كان لا بد ان تنعكس على علاقتها مع المقاومة .

وهنا أسمح لنفسي ببعض التفصيل . نلاحظ أولا نشوء علاقات ثنائية بين بعض أطراف المقاومة وبين بعض الاحزاب . هذه العلاقة الثنائية قد تبدو تفاعلية، ولكنها على مستوى تعدد اطراف المقاومة اتخذت طابع القضاء والتعاكس ، ولهذا أخرج بأن طبيعة العلاقة بين القوى العربية التقدمية وحركة المقاومة كانت تحمل طابع الانعكاس السلبي .

والميزة الثانية لهذه العلاقة ، أنها اخذت طابع الفئوية او العلاقة التخريبية ، من خلال اهمال المنظمات لاقامة علاقات مع أطراف عربية عديدة ، سواء من أحزاب او من دول ، أو من منظمات شعبية .

هذه العوامل التي أوجزتها كثيرا اتخذت طابع أزمة العلاقة المتبادلة بين المقاومة وبين القوى العربية التقدمية .

الموضوعة الثالثة : تتناول المستقبل ، من خلال التأكيد على وجوب التطوير الكامل للمقاومة وللقوى العربية التقدمية ، وهذا يستوجب الامور التالية :

أ ــ التطوير الذاتي والموضوعي لكل الاطراف المعنية : اذ بدون هذا التطوير الذاتي والموضوعي لكل الاطراف المعنية ، لا يمكن ان تنجز عملها ، خاصــة في ظروف التخلف اليساري التي تمر بها. وهذا يعني أن التطوير الذاتي والموضوعي سوف يسمح للاطراف الاكثر نضالية وثورية ، ان تبرز في الممارسة بوحدة قيادية ، حتى تتمكن من التعاون الايجابي الفعال مع المقاومة . وما يصح على القوى التقدمية يصح أيضا على المقاومة العربية الفلسطينية .

ب ــ الممارسة المتكاملة عربيا واميا للعمل الثوري في البلاد العربية : وهي تشمل الاحزاب العربية التقدمية الحاكمة كلها . اما الاحزاب اليسارية غير الحاكمة ، فان ممارستها المتكاملة للعمل الثوري سوف تضمن لها الانتصار اذا كانت جادة في ذلك . اما اذا سقطت في الترسيم النضالي ، او فيما يسمى بالتبعية ، فهي محكوم عليهـــا بالسقوط . وكذلك فان الاحزاب العربية التقدمية والمقاومة لا تزال قاصرة في علاقاتها مع المنظمات العربية الشعبية ، وقاصرة بالتالي عن أخذ أبعادها الطبقية والاجتماعية ، الامر الذي يعرضها لمخاطر مصيرية . لذلك أقول ان الممارسة المتكاملة عربيا هي شرط

اساسي للعمل الثوري ، واقول ان الممارسة المتكاملة كذلك أمميا شرط اساسي للعمل الثوري ، اذ ان التناقض بين النضال القومي والنضال الاممي ، تناقض غير صحيح ، كما اثبتت ذلك كل تجارب الشعوب الثورية في العالم حتى الآن .

جـ ــ تثبيت المقاومة واليسار العربي كاتجاه ثوري لا يقهر ، باعتبار ان الكفاح العربي المسلح ، في المقاومة وفي كل الاطراف اليسارية الاخرى ، اداة اساسية للبديل الثوري الاشتراكي ، في اتجاه التقدم والتحرر والوحدة الديمقراطية العربية . وتثبيت المقاومة واليسار العربي كاتجاه ثوري لا يقهر يعني ان نحمي انفسنا بالنضال المشترك من ضمن الصراعات ، ويجب ان نتقبل بالصراع ، لانه بدون صراع لا يكون هناك تفاعل .

د ــ وجوب تكوين جيش ثوري سري مـن المناضلين الفلسطينيين والعرب ، ومـن المتطوعين الامميين : وهذه فكرة درجت عليها شعوب كثيرة منها الشعب الفيتنامي . وهذه الفكرة ضمانة للانطلاقة الجديدة ، ونعتبرها مؤسسة تسمح لكل القوى الوطنية-المحلية والقومية والعالمية ، ان تتفاعل وان تقوم بنضالات مشتركة .

اما الموضوعة الرابعة والاخيرة ، وهي امتداد للموضوعة الثالثة ، فتتناول دولية وعالمية الكفاح العربي التحرري الفلسطيني ، فما لم ترتفع قضيتنا الى مستوى عالمي فاننا بدون شك محكومون بعدم الانتصار لسنوات كثيرة ، اننا نريد ان نمتد دوليا ، ولكن فقط عبر أصوات الامم المتحدة . اما التعاون الفعلي مع المنظومـة الاشتراكية ، ومع الصين الشعبية ، ومع بلدان كل الشعوب المكافحة في العالم ، فهذا نكتفي به رسميا في البلاد العربية ، عبر الاتصالات التي تقوم بها بعض السفارات ، في هذا البلد او ذاك ، من حين لآخر .

المقاومة والانظمة

نزيه حمزه : أثرت الانظمة العربية بشكل ملموس على علاقات حركة المقاومة ، سواء مع الانظمة نفسها ، او مع فصائل حركة التحرر العربية . فبعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، لم يبق في الميدان سوى حركة المقاومة بأسلوب عملها الشعبي، فاتجهت الانظمة لدعمها بالمال والسلاح ، كتغطية لهزيمتها . وقد تعمق هذا الدعم بحيث انتزع استقلالية فصائل حركة المقاومة ، واصبح معظمها تابعا وخاضعا للانظمة بشكل او بآخر .

في مرحلة الدعم هذه حققت حركة المقاومة نوعا من التطور السريع ، او من الانتفاخ السريع ، لان هذا التطور لم يكن يسير بشكل تدريجي موضوعي ، بل بشكل قفزات سريعة ، غير موضوعية وغير طبيعية ، حتى اصبحت حركة المقاومة تشعر وهي في أوج نموها بأنها المسير لحركة التحرر العربية ، وانها تشكل فعلا البديل لهذه الحركة .

اما في فترة القبول بقرار مجلس الامن ومشروع روجرز ، فقد تلخص موقف الانظمة بأن من حقها ان تقبل قرار مجلس الامن ، وان من حق المقاومة ان ترفضه . ولكـن هذا الموقف غير الممكن ، أخذ يعمق تناقضا لصالح حركة المقاومة ، مما دفع الانظمة لان تبدأ بالخشية من نمو حركة المقاومة ، ومن الدعم الجماهيري الملتف حولها . فبدأت تظهـر شعارات « الفدائيون الشرفاء » و« الفدائيون غير الشرفاء » . وفي الواقع لم يكن هناك فدائيون شرفاء وفدائيون غير شرفاء ، انما كان هناك ضمن حركة المقاومة وضع فكري وايديولوجي ، عكس نفسه على بعض الفصائل ، في حالة جدل وحوار باتجاه تقدمي وتطوري ، دون ان يصل في اي مرحلة من المراحل الى حد التصادم العسكري ، بينما كانت الانظمة تحاول تكريس انطباع بأن هناك انقساما ، وان هذا الانقسام سيؤدي الى عملية تصادم .

في هذه المرحلة بالذات طرحت قضية الوحدة الوطنية ضمن حركة المقاومة . ونظـرا

لطبيعة نمو فصائل حركة المقاومة . وبعض التناقضات الجزئية البسيطة بينها ، كان لا بد من الاتفاق على قضايا تمثل الحدود والشروط الرئيسية لموضوعة الوحدة الوطنية. ولكن اللغط في الكلام ، والاشاعات التي كانت تثار حول الوحـــدة الوطنية ، لم يكن المقصود منها أن تساهم فعلا في دفع حركة المقاومة لتحقيق الوحدة الوطنية ، بقدر ما كان القصد منه التخلص من بعض الفصائل او بعض القيادات في حركة المقاومة ، التي كانت تنظر الى حد ما ، بمنظار أيديولوجي بعيد المدى . وهذا الواقع دفع حركة المقاومة لارتكاب مجموعة كبيرة من الاخطاء ، التي ادت في النهاية الى تراجعات من جانبها . لقد كان دور الانظمة العربية . دور محاولات الاحتواء لحركة المقاومـــة . وفي ظروف الحرب الشعبية تنمو الحاجة الى التحالفات ، لكن التحالفات التي تنشأ على صعيد حرب شعبية تقودها البورجوازية الصغيرة ، في تطلعاتها وافكارها وايديولوجيتها ، لا يمكن ان نكون تحالفات سليمة ، لان تذبذب البورجوازية الصغيرة ، وعدم رؤيتها للواقع بشكل صحيح ، يضعف حركة الكفاح المسلح ويؤخرها سنين الى الوراء . فموضوع علاقة حركة المقاومة مع الانظمة العربية ، لا يعني انه كان على حركة المقاومة ان تواجه هذه الانظمة باعتبارها انظمة تسعى لاحتوائها ، ولكن كان على حركة المقاومة ان تعي هذا الواقع ، وان تحدد علاقتها به بشكل استقلالي ، وطبيعي ان تبني استراتيجيتها وتكتيكها بعيداً عن اي تدخل من قبل الانظمة العربية .

المقاومة وحركة التحرر العربية

على صعيد علاقة حركة المقاومة مع حركة التحرر العربية ، نجد ان هذه العلاقة كان يصاحبها نوع من الاستعلاء. لقد كانت الاحزاب العربية في حالة ضعف وتخلف واضحين ، عندما استطاعت الفصائل ، او القيادات البورجوازية الصغيرة ، ان تشن نوعا مـــن الكفاح المسلح ضد اسرائيل والامبريالية ، فأخذت تنظر الى الاحزاب العربية من أعلى ، وهذا ما جعلها تتعثر في حالة التعاون معها .

بالمقابل كان موقف الحركات والاحزاب الشعبية العربيـــة موقف اللاهث وراء حركة المقاومة ، باعتبار ان حركة المقاومة هي أسلوب من أعلى اساليب النضال ، أسلوب الكفاح المسلح . وشكلت حركة المقاومة بالفعل طليعة في الكفاح المسلح ، ولكنها لم تشكل طليعة في التوجه النظري ، وطليعة في الفهم الايديولوجي ، والالتزام بايديولوجية الطبقة العاملة .

وعندما رأت الاحزاب العربية ان الجماهير تمنح المقاومة كل عواطفها وتأييدها ، شعرت هذه الاحزاب انها متخلفة جدا ، مما دفعها ، للتدليل على وطنيتها واخلاصها ، لان تلحق نفسها بأي فصيل من فصائل حركة المقاومة ، أو أن تتعامل مع حركة المقاومة ككل . وفي هذه المرحلة تكرست بالفعل ، نظرة استعلاء حـــركة المقاومة على حركة التحرر العربية .

لم يكن هناك تعاون او تفاعل حقيقي بين حركة المقاومة والاحزاب العربية ، اذ اقتصر دعمها على الدعم المالي والاعلامي . والحقيقة ان حركة المقاومة ، مع كل ما رافقها من اخطاء ، شكلت وما زالت تشكل طاقة ثورية مهمة في الوطن العربي . وعلى صعيد العالم فان جميع حركات التحرر تلتفت بأنظارها اليها ، وتضع آمال التحرر في نهج الكفاح المسلح الذي تقوم به . وهذه الظاهرة كانت حرية بأن تدفع الاحزاب العربية لتولي اهتماما أكبر لحركة المقاومة ، وأن تعطيها كل ما عندها ، ليغفر لها ذلك بعض أخطائها . ولكن الحقيقة ، ان معظم أخطاء حركة المقاومة تعود بشكل مباشر الى ضعف وهزال الاحزاب العربية .

مهمات الحركة الوطنية

ان حركة المقاومة تمر حاليا في مرحلة صعبة ، تحتم على الاحزاب العربية ان تساعد حركة المقاومة مساعدة فعالة ، وان لا تقف منها موقف الهادىء او الناقد اللامبالي ، بل موقف النقد العلمي الصحيح . اذ ان مرحلة الانحسار التي تعيشها المقاومة تطول بشكل او بآخر حركة التحرر العربية وجميع احزابها ، وضرب حركة المقاومة ، وأي فشل يلحق بها ، سيؤثر بشكل أكيد على الاحزاب الثورية والوطنية في المنطقة العربية .

ان تصورنا للمرحلة الحالية والمستقبل ان تسير جميع فصائل حركة المقاومة لتأكيد الوحدة الوطنية على أسس سليمة ، كذلك بالنسبة للاحزاب العربية واللبنانية بشكل خاص . ان هناك حدا أدنى لالتقاء جميع الاحزاب اليسارية والثورية والوطنية في برنامج مرحلي ، لمواجهة جميع تطورات المستقبل . ان المرحلة الحالية مرحلة صعبة ، يجب ان تساهم الاحزاب وفصائل حركة المقاومة الى حد بعيد في بلورة جميع قضاياها النظرية والاستراتيجية والتكتيكية آخذين بعين الاعتبار ان ليس هناك ما يفصل بين حركة المقاومة بجميع فصائلها ، وبين الاحزاب اليسارية ، وان القضية واضحة .

حزبنا والجبهة الوطنية

اما نحن كحزب . فاننا نسعى بكل ما لنا من امكانات — مع اننا ما زلنا في مراحلنا الاولى من عملية البناء والتأسيس الحزبي — في سبيل السير بشكل متوافق على طريق ايجاد الجبهة الوطنية . ولا نقول أن الجبهة الوطنية يمكن أن تتحقق في مدى زمني قريب ، ولكن يجب أن يكون هناك عمل متواصل لايجادها ، جبهة على أساس الواقع اللبناني ، وجبهة على اساس الواقع العربي ، لان التجمعات التي يمكن أن تشكل الجبهة الوطنية ، ليس باستطاعتها ان تقف منفردة في مواجهة القوى المعادية بسبب شراستها وقوتها ومخططاتها .

اننا نؤكد بالفعل على دور الاحزاب الثورية والوطنية ، ونؤكد على أن تبادر هي ، الى الاتصال بحركة المقاومة ، لا أن تنتظر من حركة المقاومة أن تنتقدها وأن تسألها الغفران عن أخطائها السابقة . وعندما تنبه الاحزاب اليسارية حركة المقاومة على أخطائها من موقع المشاركة الفعالة والثقة المتبادلة ، ستقبل هذا بكل رغبة وبكل سرور . ولكن اذا كانت قضية الاتصال بحركة المقاومة تتم بشكل فوقي . فيجب على الاحزاب اليسارية أن تكف عن ذلك .

غسان شراره : قبل عام ١٩٦٥ . العام الذي شهد ميلاد حركة التحرر الوطني الفلسطيني « فتح » ، وحركة المقاومة بشكل عام ، كان هناك ولا يزال تياران داخل حركة التحرر الوطني العربية . تيار يهمل الخصائص الوطنية المحلية والقطرية اهمالا كاملا ، ويرى في الحديث عن هذه الخصائص توجها معاديا للوحدة العربية ، هذا التيار هو الذي عرف بالتيار القومي العربي . اما التيار الآخر فهو التيار اليساري الذي لم يكن يرى في الثورة أي صلة عضوية بين ما هو خصائص محلية ، وما هو خصائص مشتركة ، تشكل نقطة مركزية لكل حركة النضال العربي الوحدوي . وقد حدث داخل هذين التيارين تطور هام، فالاحزاب القومية أصبحت أكثر اقترابا من الفهم الموضوعي للخصائص المحلية والقطرية، كما ان الاحزاب اليسارية حصل في داخلها نفس النوع من التطور باتجاه ادراك الخصائص العامة والمشتركة .

نشوء المقاومة الفلسطينية

ان حركة المقاومة الفلسطينية انعكاس لهذا الصراع بين هذين التيارين . فعندما تشكلت حركة فتح عام ١٩٦٥ ، كان وراء تشكيلها نقطتان مهمتان : الاولى : شعور فصيلة

فلسطينية ، ان المسيرة العربية باهتمامها بالخط القومي العريض ، قد اهملت القضية الاساسية ، وهي القضية الفلسطينية . والثانية : ان انخراط الشباب الفلسطيني في النضال العربي جعل الشباب الفلسطيني ، يتوزع على نضالات قطرية وقومية ، ليست بالتحديد هي المهمة التي يجب ان تكون موكولة اليه ، وهي مهمة الانكباب على تنظيم الشعب الفلسطيني . لقد نشأت احزاب تقدمية لبنانية وسورية وعراقية ، ولكن لم ينشأ حزب تقدمي فلسطيني ، فقاد ذلك الى ظهور تيار يقول بضرورة مغـــادرة المناضلين الفلسطينيين احزابهم العربية ، وتشكيل حركة تحرير وطني فلسطيني على غرار النموذج الجزائري ، او النموذج الفيتنامي ، وأن تصبح هذه الحركة ، الصوت الفلسطيني الموجه للامة العربية من أجل ان تعي خطر اسرائيل ، ومن اجل أن تعي أيضا أهمية فتح الملف الفلسطيني الذي أخذ الزمن يهدد بنسيانه ، وبتكريس الواقع الاسرائيلي .

لقد كان رد الفعل العربي الاول على هذه الحركة التي نمت بسرية ، ومن عناصر من مختلف الاحزاب والحركات العربية ، هو تكوين منظمة التحرير الفلسطينية . كان الهدف منها في ذلك التاريخ قطع الطريق على هذا الشعور النامي في الوسط الفلسطيني ، ولكن هذا التيار أصبح بالرغم من ذلك ، ومنذ أن انطلق ، جزءا هاما من حركة التحرر العربي، ولم يعد بالامكان التحدث عربيا عن فلسطين بمعزل عن الفلسطينيين ، ولم يعد تحرير فلسطين شعارا للعرب، ينتظر الفلسطينيون تحقيقه على أيدي العرب، وانما بمشاركتهم هم ، أو بلعب دور أساسي من قبلهم في هذا المجال .

الاخطاء متبادلة

مع الزمن ... أصبح للمقاومة الفلسطينية أخطاؤها . ولكن هناك بالمقابل أخطاء كبيرة للحركات العربية . فهي لم تلعب دور الطليعة بالنسبة للثورة الفلسطينية . واذا قلنا نحن أن الثورة الفلسطينية ليست هي الطليعة ، فهذه الاحـــزاب أيضا لم تلعب دور الطليعة . وبالعكس ، لعبت دور قاطع الطريق ، فهي مثلا ، أقامت منظمات فلسطينية باسم قومية المقاومة ، وكانت النتيجة أنها أورثت المقاومة التفتت والتشرذم ، دون أن تتمكن من جعل المقاومة الفلسطينية قومية .

اما الحركات العربية التي تحولت من المنطق القومي الى المنطق الماركسي اللينيني ، فقد وقعت في عقدة القيادة ، لمن تكون القيادة في الثورة الفلسطينية ؟ فلم تستطع أن تتبين ان مسألة لمن القيادة ، ليست قرارا تتخذه مجموعة وتقول : بما انني ماركسية لينينية ، وبما أنني أمثل الطليعة النظرية ، فحكما وحتما ، يجب أن أكون الطليعة القائدة للمقاومة الفلسطينية . كان لهذا الموقف تأثير سلبي من ناحيتين : أولا : حـــرم حركة المقاومة الفلسطينية ، وفتح بالذات ، من دخول العناصر الثورية اليساريـــة اليها ، لتلعب هذا الدور داخل اطارها . ثانيا : طرح منافسة لفتح على القيادة بأسلوب غير ماركسي . وكان باستطاعة العناصر اليسارية لو سلكت هـــذا الطريق أن تطور داخـــل الثورة الفلسطينية أكثر مما فعلت من خلال مواقفها .

ان واقع حركة المقاومة أصبح يطرح بجد قضية الوحدة الوطنية ، ويدفع باتجاه شكل للجبهة الوطنية على الطريقة الفيتنامية ، ولكن بعد حل عقدة القيـــادة ، وهذه تقتضي مساهمة القوى اليسارية ، كما تقتضي تعزيز الروح الديمقراطية .

على الصعيد العربي المقابل ، لا يجوز ، ولا يمكن الحديث عن مساندة لثورة فلسطين دون بت مسألة أساسية هي مسألة الجبهة الوطنية في كل بلد عربي . وهنا يجب أن نلاحظ ان الاحزاب العربية التي شعرت بعد عام ١٩٦٧ انها فقدت دورها القيادي ، حاولت ان تجد في المقاومة الفلسطينية ، بابها للعودة الى الدور الذي كانت تلعبه في

السابق . تحركت مع المقاومة لدعمها الدعم الكامل والشامل ، ولكنها لم تستطع ان تستفيد من هذه الفرصة التي قدمتها المقاومة لتستعيد شعبيتها وثوريتها ، وهنا يبرز الدور السلبي للاحزاب العربية ، بمعنى انها لم تلعب الدور المطلوب منها .
هناك أيضا دور سلبي آخر ، تمثل في ضرب الانظمة للمقاومة ، كما حصل في الاردن ، وعدم وقوف معظم الحركات التحررية العربية ، الموقف الحاسم من هذه القضية .

ثم هناك القصة القديمة لموقف التقدميين العرب تجاه التقدميين في العالم من القضية الفلسطينية ، فحركة التقدم العربي لم تستطع حتى الان ان تنقل كامل الوعي للحق الفلسطيني الى المجتمع الدولي التقدمي ، فبقيت المواقف التقدمية على الصعيد الدولي ، تتراوح بين حركة تقدمية واخرى ، مستندة الى موقف تبريري ، يؤيد المقاومة وحقها في القتال من جهة ، ويغفل واقع القضية الفلسطينية ككل من جهة أخرى .

لقد أردت أن أعدد هذه السلبيات في حركة التحرر العربية ، لانني لم أسمع من الاخوان أي حديث عنها ، وربما كان وضعي كحزبي سابق يسمح لي ان اتحدث في هذه القضايا أكثر مما يتحدث بها الاخرون ، بدوافع الانضباط ، الذي أقدره .

الدعم لاستراتيجية المقاومة

الجانب الآخر من الموضوع المطروح : ما هي علاقة حركة التحرر العربي بالمقاومة الفلسطينية ؟ هل هي علاقة دعم مادي ومعنوي واعلامي ، ام انها دعم للخط الذي اتخذته الثورة الفلسطينية ، وهو خط الكفاح المسلح ؟ هل هو دعم من اجل انجاح استراتيجية الثورة الفلسطينية ، ام هو دعم من أجل تحويل استراتيجيتها الى استراتيجية أخرى ؟

هنا تبرز خصوصية القضية الفلسطينية كوطن احتل لتنتزع عروبته وليس احتلالا عاديا فقط . وهذه الخصوصية جعلت من القضية الفلسطينية أكبر محرك للنضال في البلاد العربية كلها ضد الامبريالية . وأخشى ما اخشاه ان يكون هناك عدم تقدير من قبل الحركة الوطنية العربية ، لمدى القوة الثورية التي تنطوي عليها فكرة تحرير فلسطين ، في تحريك النضال العربي ضد الامبريالية والنفوذ الاستعماري . فما دامت القضية الفلسطينية ، محركا فاعلا للجماهير العربية ، فمن الممكن توجيه كل ذلك ، نحو الوجهة الصحيحة ، التي تدعو الجماهير للنضال ضد النفوذ الامبريالي والاستعماري ، من مدخل التعبئة اللازمة ، لمحاربة الصهيونية واسترداد فلسطين .
ولا ينطبق هذا على البلاد العربية فقط ، فنحن نرى مثلا أن الحركة الوطنية في ايران أصبحت تتعاطف مع الثورة الايرانية ، وقبل فترة قصيرة نشرت مجلة « الازمنة الحديثة » مرافعة لاحد المناضلين الايرانيين امام المحكمة، يقول فيها بوضوح، أن القضية الاساسية في المرحلة الحالية ، انه لا صراع ضد الامبريالية في المنطقة ككل دون الاشتراك في الصراع الفلسطيني والعربي ضد الوجود الاسرائيلي .

استنتج من ذلك كله أن الدعم الحقيقي للمقاومة الفلسطينية ، هو دعم استراتيجيتها . وأي دعم لغير استراتيجيتها هو محاولة لاحتوائها . وانني أستغرب كيف نسمح لانفسنا أن نقول بأن الثورة الفلسطينية جزء من حركة التحرر العربي ، ثم نطلب منها أن تتبع حركة التحرر العربي ، وهي في وضعها الراهن . بينما لا نقول بأن الثورة الفلسطينية ، وهي الجزء الملتهب ، والاكثر ثورية ، وانفتاحا على الجماهير ، هو الذي يجب ان يعكس نفسه على حركة التحرر العربي . ففي هذه المرحلة يجب ان يسير الكل على خطى الاكثر ثورية وليس العكس .

ان القول بأن الثورة الفلسطينية هي طليعة الثورة العربية ، لا يعني أنها هي التي يجب

ان تحرر هذا البلد أو ذاك، لان الثورة الفلسطينية لا يمكن أن تكون بديلا عن أي حركة وطنية عربية ، ولكنها تستطيع اذا توحدت وتابعت خطها الثوري الاساسي ان تنعكس كعنصر موحد ، كعنصر دافع للنضال وللوحدة الوطنية لكل بلد من البلاد العربية .

شؤون فلسطينية : نرجو ان تسمحوا لنا بالنيابة عن أسرة التحرير ان نتدخل في الحوار . ونرجو أن تسمحوا لنا ان نحاول دفع الامور الى منطقة اكثر تحديدا ، لان معظم الحديث الذي دار حتى الان انحصر ضمن المواقف المبدئية والعامة .

نريد أولا أن نعلق على ما قاله الاخ « سهيل الطويلة » ، اذ يستنتج من حديثه أن وضع حركة المقاومة وطبيعتها ، هي المسؤولة عن نمط العلاقات التي قامت بينها وبين فصائل حركة التحرر العربية ، وفي اعتقادنا ان السبب الحقيقي وراء ذلك يعود الى اسباب أخرى ، بالنسبة للحركة الشيوعية العربية ، يمكن أن نحددها بما يلي :

١ ـ ان الموقف المؤيد لقرار مجلس الامن ، والدعوة لاقامة دولة على جزء من الارض ، وتكميل النضال لتحرير الجزء الآخر على غرار النموذج الكوري والفيتنامي*، هو امتداد طبيعي لموقف الاحزاب الشيوعية العربية المعروف من القضية الفلسطينية .

٢ ـ تولد عن هذا الموقف العام ايضا رفض للعمل الفدائي في البداية ، واعتباره « مغامرة بورجوازية صغيرة » حسب تعبير السلفيتي الشهير . وتولد عنه أيضا « التأخر » في المساهمة في الكفاح المسلح من خلال منظمة الانصار . وموضوع التأخر هنا يحتاج الى تحديد ، فالموضوع ليس تأخرا يحمل معنى الخطأ التنظيمي فقط ، كما يوحي بذلك مشروع الموضوعات المقدمة الى المؤتمر الثالث للحزب ، بل انه تأخر يحمل معنى الخطأ السياسي .

لقد كانت الحركات الشيوعية على الصعيد العالمي ، سباقة دائما لحمل السلاح ، عندما يكون الوطن مهددا بالاحتلال ، بينما نجد في المنطقة العربية ، وبعد حزيران بشكل خاص، ان الاحزاب الشيوعية ترددت كثيرا ، قبل ان تقدم على موقف صحيح من خلال منظمة الانصار . ولو ان الاحزاب الشيوعية كانت مبادرة الى مثل هذا الموقف ، لاستطاعت ان تسهم في احداث نقلة واسعة في صورة النضال الفلسطيني ، وخاصة على الصعيد الدولي ، بما تستطيع أن تدخله من تغيير على موقف الحركة الشيوعية العالمية من القضية الفلسطينية ، بحكم العلاقات الوثيقة معها . وقد أثر هذا التردد بدون شك على موقف المقاومة من الحركة الشيوعية العربية .

هذه العوامل ، هي التي حددت في اعتقادنا نمط العلاقة التي قامت بين الاحزاب الشيوعية العربية وبين حركة المقاومة . دون ان يعني ذلك تجاهلا للنقاط التي تحدث عنها الاخ « سهيل » ، اشارته لمستوى النضج الايديولوجي ، الذي قال انه يلعب دورا رئيسيا في تحديد الجهة القائدة . ولكننا نطلب ان امكن جوابا على هذه النقاط .

سهيل الطويلة : ورد في كل الملاحظات ، ان كافة الاطراف ، من المقاومة الفلسطينية الى فصائل حركة التحرر العربية ، بما فيها الاحزاب الشيوعية ، تتحمل قدرا لا بأس به من المسؤولية ، وبالتالي لا نستطيع تحميل طرف لوحده كل المسؤولية في هذا الموضوع . لكن يبقى ان الطرف المباشر يتحمل المسؤولية عن مواقفه بالدرجة الأولى . ومن هنا اشرت الى المسؤولية الخاصة للمقاومة بالنسبة لمواقفها .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، لا أعتقد اطلاقا ان الموقف السلبي الذي وقفته بعض

---

* حسب ما ورد في كلمة للسيد جورج حاوي ، في مهرجان أقيم ببيروت في ذكرى استقلال كوريا الديموقراطية .

فئات المقاومة من الاحزاب الشيوعية العربية - ناجم فقط عن المواقف السابقة لهذه الاحزاب من القضية الفلسطينية . اذ لا بد من الاعتراف أيضا ، بأن الكثير من هذه المواقف السلبية ينطلق من نظرة عدائية في بعض الاحيان ، ومن نظرة غير صحيحة في أحيان أخرى . واذا ذهبنا في التحليل للنهاية ، نجد وراء هـذه المواقف ايضا ، مواقع طبقية . وعندما اشرت الى طبيعة حركة المقاومة الفلسطينية ، وكونها حركة تحرر وطني فقط ، لم يكن هذا بمعنى تحميلها المسؤولية ، من هذا المنطلق ، لان هذا واقع موضوعي، لا تتحمل هي مسؤوليته ، اذ لا تستطيع ان تكون غير ذلك . انما كان التأكيد على طبيعة حركة المقاومة ، كحركة تحرر وطني ، وصولا الى فهم أوضح لمكانها داخل حركة التحرر العربية ، وبالتالي للمهمات المطروحة امامها ، حتى لا نعطيها مهمات اكبر مما تستطيع تحملها ، وتعود بالضرر عليها .

وفيما يتعلق بمواقف الاحزاب الشيوعية العربية من القضية الفلسطينية ، اسمحوا لي أن أتكلم عن الحزب الشيوعي اللبناني ، الذي أمثله هنا . لقد اعترف الحزب الشيوعي اللبناني بكل جرأة بمواقفه الخاطئة في مؤتمره الثاني (١٩٦٨) ، واثبت في مجمل عمله السياسي على مدى ما يزيد عن ثلاث سنوات ، ان اعادة النظر المبدئية هذه لم تكن مجرد عمل دعائي ، انما كانت موقفا اساسيا مبدئيا من مواقف الحزب وخطته السياسية . وقد تجلى موقف الحزب هذا . بدعم المقاومة الفلسطينية ، بما في ذلك الكفاح المسلح . ومن الضروري الاشارة هنا الى نقطة اعتبرها هامة جدا ، وهي أن هناك بعض فئات تنظر الى مجمل مواقف الاحزاب الشيوعية العربية من القضايا القومية ، على انها كلها مواقف خاطئة ، وهذا غير صحيح .

اما الموقف من قرار مجلس الامن والقول بانه امتـداد للموقف السابق مـن القضية الفلسطينية فهو قول خاطىء لعدة اسباب . أولا : هناك قوى كانت في الماضي تأخذ موقفا متناقضا مع موقفنا من القضية الفلسطينية . وبالرغم من ذلك اخذت بعد حرب حزيران موقف تأييد قرار مجلس الامن . ثانيا : اتخذ الحزب الشيوعي اللبناني موقف تأييد قرار مجلس الامن في نفس الوقت الذي اعاد فيه النظر بموقفه من القضية الفلسطينية. ولذلك فان الموقف من قرار مجلس الامن ينطلق من تقدير للمرحلة الراهنة التي تجتازها حركة التحرر العربية ، ولا يعني اطلاقا التخلي عن النظـرة الاساسية للقضية الفلسطينية ، وبالتالي النظرة للكيان الصهيوني القائم في اسرائيل . وضرورة القضاء عى هذا الكيان ، والعمل ليتمكن الشعب العربي الفلسطيني من تقرير مصيره بنفسه على ارضه .

وهنا من الممكن أن أعطي مثلا للمقارنة : الاحزاب الشيوعية العربية لم تطرح قضية « اسرائيل » كمهمة آنية ، ولكن هذا لا يعني تخليا عن المهمة الاستراتيجية البعيدة ، تماما كما يطرح الحزب الشيوعي قضية الثورة الوطنية الديمقراطية ، في البلد الذي يواجه ثورة وطنية ديمقراطية ، دون ان يعني ذلك تخليه عن مطالب المراحل الابعد . لذلك فان الموقف من قضية محددة تتعلق بالنضال التحرري للشعب الفلسطيني ، المتصل بالقضية الفلسطينية الكثيرة التعقيد ، لا يصح أخذه منطلقا للحكم على مجمل موقف حزب او قوة ثورية من هذه القضية . مثلا كان مقياس الاخلاص في السابق للقضية الفلسطينية، هو القول برمي اليهود في البحر ، وهذا موقف ثبت خطأه .

غسان شراره (مقاطعا) : في الواقع ، ان العرب لم يأخذوا بهذا الموقف مطلقا . وعندما أقول العرب أقصد الحركة الوطنية ولا اقصد المسؤولين . ومنذ المؤتمر السوري الاول انخذ قرار يدعو الى دولة فلسطينية مستقلة يتعايش فيهـا المحمديون والمسيحيـون والموسويون . ولم يدع ابدا حتى في ذلك التاريخ الى رمي اليهود في البحر . وفي عـام

١٩٤٧ كان الرد العربي على مشروع قرار التقسيم قريبا بنصه مما تطرحه فتح الان ، اي دولة ديمقراطية علمانية . حركة القوميين العرب والتي لم تكن تميز بين الصهيوني وبين اليهودي ، لم يرد في أي وثيقة من وثائقها انه يجب التخلص من اليهود .

هذا الموقف في حقيقته يعود للاعلام الصهيوني اكثر من غيره ، وخاصة عندما زعم ان الشقيري قال برميهم في البحر ، وأي مراجعة ودراسة لهذه القضية تثبت ان الفكر الوطني والقومي العربي لم يقل برمي اليهود في البحر . الكتاب الوحيد الذي صدر ليثبت وجود هذا المعنى هو كتاب صادق جلال العظم « دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية » وحتى يثبت ان العرب لم يكونوا تقدميين رجع الى مؤلفات وابحاث، ربما لا يوجد مثقف عربي قرأها ، وجعل من اسماء اصحابها ممثلين للفكر القومي العربي ، بينما اهمل الحركات المسؤولة الاساسية : الناصرية ، الشيوعية ، البعث ، حركة القوميين العرب ، البرلمانات ، المؤتمرات الوطنية .

سهيل الطويلة : أوافق بالفعل على ان قضية رمي اليهود بالبحر لم تكن الطابع المميز لموقف حركة التحرر العربية . وكان قصدي من اثارة هذا الموضوع التنبيه لقضية معينة، لاننا اذا لم نأخذ موقفا نقديا جديا من هذه الاتجاهات نسيء بشدة للحركة الوطنية . الان اصبحنا ندين هذا الموقف تماما ، ولكن هذه الادانة ، وخاصة لجذور الموضوع الفكرية ، لم تكن واضحة بشكل كاف في السابق .

انتقل الى ما اثير حول موقف الاحزاب الشيوعية من العمل الفدائي . اعتقد انه من الظلم الكبير اتخاذ موقف « السلفيتي » على انه كان موقف الاحزاب الشيوعية العربية، والقول بالتالي ان الحركة الشيوعية العربية ظهرت وكأنها لم تدعم العمل الفدائي في البدء . نستطيع القول ان الاحزاب الشيوعية دعمت المقاومة الفلسطينية منذ البداية ، لكن اسباب الدعم لم تكن هي نفسها منذ البداية . فقد تطورت اسباب الدعم هذه ، كما تطورت بالطبع نظرة الاحزاب الشيوعية للمقاومة وعلاقتها بها . وبالرغم من ذلك فهذا لا يمكن أن يبرر بعض المواقف العامة والخاصة للمقاومة من الاحزاب الشيوعية ، وبالتحديد من قوات الانصار .

اما القضية الاخرى ، وهي موقف الاحزاب الشيوعية من الدولة الفلسطينية . فهنا ايضا ، لا اعتقد اطلاقا ، ان الاحزاب الشيوعية ، طرحت قضية الدولة الفلسطينية . الذي أعتقده ان الاحزاب الشيوعية ، خاصة الحزب الشيوعي اللبناني ، طرح موقفا مبدئيا ، هو دعم النضال التحرري للشعب العربي الفلسطيني في سبيل تقرير مصيره فوق أرض وطنه ، أما كيفية تحديد هذا الشكل من أشكال تقرير المصير ، فهي بالدرجة الاولى قضية الشعب العربي الفلسطيني نفسه .

شؤون فلسطينية : نريد ان نتوجه بملاحظات أخرى تتعلق بأحزاب الاردن القومية ذات الامتداد التنظيمي داخل حركة المقاومة ، وذات الصلات الوثيقة بفروع أخرى للحزب في موقع السلطة . فالحزب الحاكم في العراق مثلا ، شكل جبهة التحرير العربية كامتداد له . ولكن الجبهة لم تستطع ان تلعب دورا مبادرا في قيادة العمل الفلسطيني يتناسب مع تراثها وامكانياتها ، لا على صعيد الطرح الفكري الذي قدمته ، ولا على صعيد المبادرة الزمنية ، اذ تأخر تشكيل جبهة التحرير العربية حتى عام ١٩٦٩ .

رغيد الصلح : التقرير السياسي لحزب البعث عن استراتيجية الكفاح المسلح ، يبين ايمان الحزب بهذا الاسلوب في النضال لتحرير فلسطين منذ تأسيسه . ففي نهاية الخمسينات قامت محاولة داخل الحزب لانشاء تنظيم فدائي ، وبالفعل تشكلت نواة هذا التنظيم وقامت ببعض العمليات الاستطلاعية في الاراضي المحتلة . وأدى تسلم الحزب للحكم في

سوريا الى تسهيل انطلاق العمل الفدائي . وعندما انطلق العمل الفدائي في عام ١٩٦٥ قدم الحزب الدعم النضالي للمقاومة في مواقف متعددة ، منها مثلا عندما استشهد المناضل « جلال كعوش » في لبنان ، اذ تبنى الحزب القضية على جميع المستويات . ومع نمو ونهوض حركة المقاومة وجد الحزب أشكالا وأنماطا متعددة لدعمها ورفدها بالامكانات البشرية والنضالية والمادية ، بل حتى في المشاركة بالكفاح المسلح .

وتجدر الاشارة أنه عندما وجد الحزب صعوبة في ممارسة تأثيره داخل حركة المقاومة من خلال العمل داخل المنظمات الموجودة ، وعندما تعذر على بعض الرفاق الجمع بين ممارستهم للكفاح المسلح والحفاظ على صلتهم بالحزب ، عند ذلك قرر الحزب انشاء منظمة فدائية تتسع جبهويا لنضال الرفاق الحزبيين . ومنذ ذلك الوقت شارك في جميع الخطوات التي قامت بها الفصائل المسلحة . وكان المقصود من تشكيل جبهة التحرير العربية ، التأثير والتفاعل مع حركة المقاومة .

شؤون فلسطينية : هناك ملاحظات نود ابداءها حول حزب العمل الاشتراكي العربي . فهذا الحزب حسب تحليل الاوساط السياسية العربية ، هو « واقعيا » امتداد تنظيمي عربي ، لفصيل فدائي فلسطيني هو « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » ، هدفه أن يوجد دعما جماهيريا عربيا لحركة المقاومة . ان تشكيل الحزب بهذه الطريقة ، يعكس منهجا « تنظيميا » في فهم قضية تأسيس الحزب ، كما يعكس فهما فوقيا ومغلوطا في كيفية بناء علاقة التلاحم النضالي مع الحركة الوطنية العربية .

ان المطلوب لدعم النضال الفلسطيني ، نمو ثوري في الحركة الوطنية العربية ، وانسجام استراتيجي بينها وبين حركة المقاومة ، يمكن ان يتطور بالتدريج الى اشكال أرقى . أما اقدام فصيل فدائي على تشكيل حزب عربي جديد ، فان هذا سيفرض على الحزب عقلية المنافسة والسعي لتمييز نفسه باستمرار عن بقية الاحزاب العربية ، لتبرير وجوده ، فيساعد بذلك في انقسام الحركة الوطنية العربية ، بدل أن يساعد في توحيد جهودها . والانطباع السائد حتى الان ان الحزب لم يستطع أن يكون لنفسه شخصية مستقلة ، فبقيت الجبهة الشعبية المحور الاساسي في العمل ، ويلعب الحزب ازاءها دور التابع ، بينما العكس هو الصورة الطبيعية .

أما على صعيد مواقفه السياسية ، فلم يخرج الحزب حتى الان عن اطار دعم وتبني الجبهة الشعبية ، ولم يقم بنسج تحالفات تتعدى اطار الجبهة ، كما لم يقم بطرح أي تحليل مميز في الساحة العربية .

نزيه حمزه : في الواقع ان حزب العمل الاشتراكي العربي لم يكن بالحزب الفوقي كما ذكر ، فهو امتداد لحركة القوميين العرب التي كانت بورجوازية في منطلقاتها ، واصبحت تسير باتجاه التطور والالتزام بالفكر الماركسي اللينيني . ان فكرة الحزب ليست امتدادا للجبهة ، بل هي مستمدة من الحوار الذي بدأ داخل قواعد وقيادات الحركة في السابق ، وقادت نحو الالتزام بالفكر الماركسي اللينيني . وبروز الجبهة الشعبية يعود للظروف الموضوعية والذاتية التي رافقت الواقع العربي ، وحركة النضال العربية ، بعد عام ١٩٦٧ ، حيث تبلورت ضرورة النضال والكفاح المسلح ضد اسرائيل والامبريالية ، واقتضى ذلك تركيز الجهود حول نشاط الجبهة الشعبية ، وتركت فكرة الحزب الى وقت لاحق حتى تكون الظروف ملائمة أكثر لعملية التأسيس التي بدأت بشكل جدي عام ١٩٦٨ ، حين تولت بعض القيادات السابقة في الحركة عملية بناء الحزب .

وهنا أريد ان اوضح بأن الحزب لم يلجأ لتأسيس حزب آخر يضاف الى مجموعة الاحزاب العربية والاحزاب الشيوعية . ولكن يساهم في بناء وتأسيس عمل منظم ومهيأ على

أسس ماركسية لينينية : للعمل على تكوين حزب شيوعي عربي مستقبلا ، وذلك بالتفاعل مع الاحزاب الشيوعية العربية . هذا يعني ان حزب العمل الاشتراكي العربي لا يعترف في المرحلة الحاضرة بأن الاحزاب القائمة تشكل فعلا أحزاب الطبقة العاملة ، ولكن تصور حزب العمل ان هذه الاحزاب يجب ان تشكل بمجملها الحزب الشيوعي العربي الواحد .

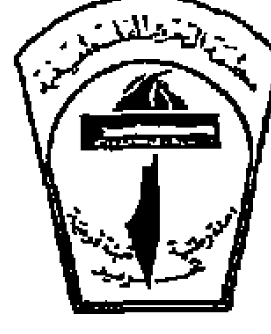
اما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فتعتبر فرعا من فروع حزب العمل الاشتراكي العربي وليس العكس ، ومواقف حزب العمل منسجمة في معظمها مع مواقف الجبهة الشعبية ، لان قيادة الجبهة ممثلة في القيادة المركزية لحزب العمل .

واريد أن أعلق على ما جاء في كلمة الاخ غسان شراره حول الجبهة الوطنية بالنسبة للمقاومة الفلسطينية . فالفصائل اليسارية لم يكن لديها عقدة قيادة حسب تعبيره ، ولكن هذه الفصائل طرحت برنامجا واضحا وبشروط واضحة ، وكان الاتصال مع بقية الفصائل يتم على أساسها وليس على أساس توزيع المناصب . ويجب أن نعترف أن هناك تناقضات وان كانت جزئية، حول التصور لمعسكر الخصم، حول ماهية المرحلة الحاضرة، حول طبيعة القتال في المرحلة الحالية ، حول طبيعة الرجعية العربية ، حول طبيعة التعامل مع الانظمة المجاورة لفلسطين . كل هذه الامور بالفعل كانت تشكل عقبة أساسية في وجه تحقيق الوحدة الوطنية . ولذلك لم نكن في يوم من الايام نعتبر ان الخلافات حول توزيع المناصب ، بل حول القضايا التي ذكرتها .

غسان شراره (مقاطعا) : أنا لم أستعمل تعبير « عقدة سياسية » للحديث عن موقع تنظيم محدد ، بل للاشارة الى قضية سياسية ، لمن تكون قيادة حركة المقاومة ؟ هل للطبقة العاملة وحزبها أم لا ؟ هل الوضع ناضج ليقبل قيادة الطبقة العاملة حاليا ام لا ؟ وفي اعتقادي ان الموضوع الذي طرحته الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية — قبل ان ينفصلا الى جناحين — كمبرر لقيام فصيل فدائي جديد ، هو طرح قضية قيادة حركة التحرر الوطني . لقد غيرت طبيعة الممارسة كثيرا، من نظرة الجبهة الديمقراطية والجبهة الشعبية لهذا الموضوع ، واصبحت هذه النظرة الان أكثر نضجا . وفي الحركة الثورية الفلسطينية الآن ، يسارية واقعية ، وديمقراطية سياسية ، سوف تسهل حل مشكلة : لمن تكون قيادة هذه المرحلة ؟.

نزيه حمزه : لم يكن في ذهن الجبهة الشعبية ان الطبقة العاملة يجب ان تقود حركة المقاومة مباشرة ، لان هذا خطأ طبعا ، ولانها تعتبر أنه من الممكن في المرحلة الحالية ان تلتزم الفصائل الاخرى ببرنامج محدد . وعن طريق النضال والالتزام بهذا البرنامج ، تصل الطبقة العاملة فيما بعد ، الى قيادة حركة المقاومة ، وقيادة الكفاح الشعبي المسلح .

RESEARCH CENTER
PALESTINE LIBERATION ORGANIZATION
BEIRUT - LEBANON
P. O. Box 1691



مركز الأبحاث
منظمة التحرير الفلسطينية
بيروت - لبنان
ص. ب ١٦٩١

شارع كولومباني المتفرع من شارع السادات - بناية د. راجي نصر - رأس بيروت - هاتف ٢٩٦٨٠٣ - برقياً : مرابحاث
COLOMBANI ST. OFF SADAT ST., DR. RAJI NASR BLDG. RAS BEIRUT, TEL. 296803 CABLES : MARABHATH

كتاب " تهويد فلسطين "
سلسلة كتب فلسطينية رقم ٣٧ - مركز الابحاث

قلما قدم مركز الابحاث منذ انشائه في شباط (فبراير) ١٩٦٥ ، لقرائه وللمهتمين بالقضية الفلسطينية ، دراسات وابحاث مترجمة . ولما كان تقديم المواد المعربة لا يقع ضمن الخط العام الذى انتهجه المركز ، فلا بد ان ندرك اهمية الكتاب الذى يختاره للترجمة ، مهتما بضرورة اطلاع الرأى العام العربي عليه . وقد سبق له ان أصدر معرّبا ، الكتاب الخاص بالقضية الفلسطينية الذى اصدرته مجلة الازمنة الحديثة في باريس ، والذى اثار ضجة عالمية .

واليوم يصدر مركز الابحاث كتابا جديدا معربا ، أثار زوبعة اعلامية في الغرب لانه كسر طوق الحصار الاعلامي الاسرائيلي وطرح الكثير من الحقائق والوقائع التي طالما جهدت الصهيونية لاخفائها عن الغربيين . هذا الكتاب هو تهويد فلسطين من اعداد وتحرير الدكتور ابراهيم ابو لغد وترجمة الدكتور اسعد رزوق . وقد تصدرت الكتاب مقدمة المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي ، ومقدمة اخرى للدكتور ابو لغد ، أكدا اهمية هذا الكتاب في مجال الصراع الصهيوني ، وطرح الحقائق حوله وتصحيح التصورات الخاطئة عن المشكلة الاساسية وعن الحقوق الفلسطينية .

تندرج موضوعات الكتاب في اربعة عناوين ، اوضح القسم الاول الرؤيا في الفكر الصهيوني وشرح الاطماع ومقاصد الحركة الصهيونية ، كما بين وسائلها لتحقيق هذه المآرب ، موضحا في القسم ذاته العلاقة العضوية بين الصهيونية والامبريالية الغربية .

اما القسمان الثاني والثالث فهما اهم اجزاء الكتاب ، ركز الثاني حول حركيات استلاب الارض عبر تعبيره عن الوضع الاجتماعي في فلسطين المحتلة ومساوئ نظام الملكية ، الامر الذى أدى لتمركز الارض في ايدى التجار والغائبين ، كما بين بتحليل ديموغرافي تطور مراحل تحويل فلسطين من شعب واحد يضم فئة يهودية قليلة ، مندمجة كليا فيه ، الى مواطنين من مهاجرين غربيين ، واحلال مجتمع مكان آخر ولغة محل ثانية ، وتحويل السكان الاصليين الى مهاجرين وشرح ما جرى ويجرى من عداء للعرب واستعمال للعنف ، والارهاب لاجبارهم على ترك ارضهم .

ويعرض القسم الثالث للمقاومة العربية تحت الانتداب البريطاني وتحليل السياسة البريطانية ازاء الانتفاضات العربية ولجان التحقيق ، مع تركيز خاص عن ثورة ١٩٣٦ يعتبر من افضل ما كتب عنها وعن آثارها ويتطرق القسم الرابع والاخير تتمة لجوانب الموضوع للصراع العربي الاسرائيلي ويركز بصورة خاصة على القدس وتطورات وضعها السياسي المتغير .

كتاب " تهويد فلسطين " هو مجموعة من اثنتي عشرة مقالة ، كتبها اكاديميون غربيون مشهورون ، يوضحون حقيقة الصراع في الوطن العربي . وقد حصر موضوعه بمشكلة فلسطين ذاتها باعتبار ان الصراع العربي الاسرائيلي هو مشكلة متفرعة عن المشكلة الاصلية : حقوق الشعب الفلسطيني .

اختار مركز الابحاث اصدار هذا الكتاب بمناسبة ذكرى تأسيسه السابعة ، تبيانا لاهميته وضرورة اقتنائه من كافة المهتمين بالقضية والباحثين فيها ورجال الاعلام والمسؤولين .

يقع الكتاب في ~~٣٠٠~~ ٤٦٢ صفحة من القطع الكبير وثمنه ٨ ليرات لبنانية

مواقف النواب الاميركيين من مسألة تقديم المساعدات للفلسطينيين والاسلحة لاسرائيل

جانيس ج. تيري

(١) تقديم المساعدات للفلسطينيين

في صيف ١٩٤٨ وافقت الدول الاعضاء في الامم المتحدة على تقديم مساعدات فورية للاجئين الفلسطينيين الذين طردهم الصهيونيون من بيوتهم عندما قامت دولة اسرائيل والذين كانوا يعيشون في حالة من البؤس والشقاء في مخيمات اقيمت لهم في لبنان وسورية والاردن وقطاع غزة . وكاحدى الدول الاعضاء المؤسسة للامم المتحدة تبرعت الولايات المتحدة الاميركية بتقديم المساعدات للاجئين الفلسطينيين مع انها ، كغيرها من الدول الغربية الاخرى ، كانت تعتبر أن مثل هذه المساعدات ليست سوى اجراء مؤقت لتقديم عون فوري . وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ وافقت الجمعية العامة للامم المتحدة على قرار رقم ١٩٤ (III) الذي يدعو الى التعويض على الفلسطينيين أو السماح لهم بالعودة الى بلادهم ، ولما لم ينفذ هذا القرار ، اضطرت الامم المتحدة الى الاستمرار في تقديم المساعدات ، ومنذ ذلك الحين والجمعية العامة تعيد التأكيد في دوراتها السنوية على القرار ١٩٤ الذي لم يعرف سبيله الى حيز التنفيذ بعد .

وبطلب من ف.د. روزفلت ، رئيسة الوفد الاميركي الى الامم المتحدة ، آنذاك ، تم انشاء وكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين (انربر) لتتولى الاشراف على توزيع المساعدات المخصصة للفلسطينيين(١). وفي هذا الوقت ، طلب الرئيس ترومان الى الكونجرس الحادي والثمانين منحه صلاحية تقديم تبرع خاص لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين . وقد وافق الكونجرس في آذار (مارس) ١٩٤٩ ، رغم ما ساور أعضاءه من شعور بالريبة وعدم الثقة ، على تقديم مبلغ ١٦ مليون دولار لمساعدة الفلسطينيين . واثناء مناقشة هذا الموضوع ، كان توم كونالي ، السناتور الديمقراطي عن ولاية تكساس ، يشير الى اللاجئين بقوله : « الذين يسمون لاجئين فلسطينيين » ، وكان هذا يعكس الشعور السائد لدى اعضاء الكونجرس بالنسبة للفلسطينيين الذين كان معظم النواب الاميركيين يشيرون اليهم بتسميتهم : « اللاجئون العرب » . وفي وقت لاحق ، وافقت الجمعية العامة على مشروع قرار بتقديم مبلغ ٣٢ مليون دولار لمساعدة الفلسطينيين يغطى بشكل تبرعات تقدمها ٢٤ دولة ، لكن الامم المتحدة لم تتلق سوى مبلغ ٢٥ مليون دولار(٢). وبسبب رفض الغرب والصهيونيين الاعتراف بحقوق الفلسطينيين اضطرت الامم المتحدة الى مواصلة تقديم مساعداتها للاجئين على أساس سنوي . وفي ١٩٤٩ تأسست وكالة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (انروا) للاشراف على توزيع الاموال التي كانت تشكل الحد الادنى لحاجات اللاجئين . وقد استمر التأييد الاميركي لهذا البرنامج رغم المحاولات التي كان يبذلها النواب

الاميركيون بين الفينة والاخرى لتخفيض كمية هذه المساعدات أو لايجاد حلول بديلة لمسألة اللاجئين . وفي البداية كان عدد من النواب يعتقدون بأن تقديم المساعدات للاجئين ضروري لاسباب انسانية ولتأكيد عدم تحويل اللاجئين الى مؤيدين للاتحاد السوفياتي(٣).

وفي ١٩٥١ ناقش الكونجرس موضوع مساهمة الولايات المتحدة في برنامج مساعدات اللاجئين(٤). وفي هذا الوقت كانت الولايات المتحدة قد تبرعت بما يزيد على ٤٠ مليون دولار لضمان استمرار تنفيذ برنامج الانروا ، ولكن معظم هذه المساعدات والمساعدات التي قدمت فيما بعد ، كان بشكل مواد غذائية فائضة ، وليس نقدا . وقد اعتمد قانون المساعدات الخارجية للعام ١٩٥١ مبلغ ١٧٥ مليون دولار كمساعدات تقدم الى افريقية والشرق الاوسط ، على ان تخصص هذه الاموال للتنمية وان تغطي البرامج التي لا يشملها قانون المساعدات الصادر في ١٩٤٨ . وقد خصص للانروا من هذا المبلغ ٥٠ مليون دولار ، ولكن اضيفت مادة خاصة بتقديم مبلغ مماثل (٥٠ مليون دولار) لاسرائيل . وقد جرى نقاش طويل حول هذه الاعتمادات في مجلسي الشيوخ والنواب . واثناء النقاش اقترح جون كينيدي ، الذي اصبح رئيسا للولايات المتحدة فيما بعد ، ان تخصص هذه الاموال لاعادة اسكان اللاجئين في « اسرائيل » ، لكن جاكوب جافيتس ، النائب الجمهوري عن ولاية نيويورك ، وابراهام ريبيكوف ، النائب الديمقراطي عن ولاية كونيكتيكت ، اعلنا معارضتهما لهذا الاقتراح . وبدلا من ذلك ، اعلن هذان النائبان ، اللذان اصبحا عضوين في مجلس الشيوخ فيما بعد ، تأييدهما القوي لاسرائيل على اعتبار انه من المستحيل ان تتحمل اسرائيل داخل حدودها هذا العدد الكبير من الاعداء المحتملين. ومن جهة أخرى ، أثارت كتلة النواب الديمقراطيين الجنوبيين بزعامة هارولد كولي (النائب الجمهوري ، من كارولينا الشمالية ، ١٩٣٤ ــ ١٩٦٦) ، قضية المساعدات الاميركية غير العادلة في الشرق الاوسط . فأشار كولي الى ان كلفة اعادة اللاجئين العرب قدرت بقيمة ٢٠٠ دولار للشخص الواحد ، مقابل ٢٨٠٠ دولار لاعادة اسكان كل لاجىء يهودي ، و ٦٠٠ دولار لاسكان كل شخص من عائلات المزارعين في الولايات المتحدة(٥). واضاف النائب فوريز من اوهايو ان معدل المساعدات الاميركية للعرب بلغت ١٫٩٠ دولار للشخص الواحد مقابل ٥٢٫٥٠ دولار لكل اسرائيلي . وقد رد ولتر جود ، النائب الجمهوري عن مينيسوتا والمعروف بتأييده لاسرائيل ، بأن على الولايات المتحدة ان تقدم مساعدات لاسرائيل توازن مساعداتها للعرب وذلك لان لاسرائيل جيشا ممتازا ، كما انها اظهرت صداقتها للغرب ، وللولايات المتحدة بشكل خاص . وكذلك صرح جوزيف ماكورماك ، النائب الديمقراطي من ماستشوستس الذي اصبح رئيسا لمجلس النواب ، ان على الكونجرس ان « يدرك ان اسرائيل هي الدولة الوحيدة في الشرق الادنى التي نستطيع الاعتماد عليها ، علما اننا لا نستطيع الاعتماد على غيرها »(٦). وقد رد النواب الجنوبيون بأنه اذا بقيت مسألة اللاجئين دون حل ، فان ذلك يمهد السبيل لتغلغل الشيوعية في العالم العربي ، وخاصة بين اللاجئين الفلسطينيين . وعلى أي حال ، لم يكن لهذه المناقشة أهمية كبيرة ، اذ أن معظم النواب كانوا في الحقيقة يميلون الى الاعتقاد بأن اسرائيل هي الحليف الوحيد المستقر الذي يمكن الاعتماد عليه في الشرق الاوسط .

ان تأييد اسرائيل في الكونجرس ، لا فرق ان كان الدافع له الالتزام العاطفي بالصهيونية أو الرغبة في المحافظة على اسرائيل كحليف عسكري يحمي المصالح الغربية في الشرق الاوسط ، غير مرتبط بأي ولاء حزبي . فأقوى مؤيدي اسرائيل والمخلصين لها هم من الساحل الشرقي ، وخاصة من نيويورك التي توجد فيها اكبر نسبة من الاصوات اليهودية ، وعلى أي حال ، فان لاسرائيل مؤيدين جمهوريين من أمثال ولتر جود واين

موريس اللذين ينظران لاسرائيل كموقع متقدم للدفاع عن المصالــح الاميركية في وجه « الخطر الشيوعي » ، وكذلك فقد ظهر خلال حملـــة الرئاسة في ١٩٥٢ أن السناتور الجمهوري روبرت تافت ، من اوهايو ، مؤيد قوي لاسرائيل . وجميع مرشحي الرئاسة الذين فازوا في الانتخابات بما في ذلــك ايزنهاور ، عبروا في النهاية عن تأييدهم لاسرائيل وقد كان هذا هو المنوال نفسه الذي سار عليه مرشحو الرئاسة فيما بعد .

وفي ١٩٥٣ ، عندما طرح موضوع استمرار المساعدة الاميركية للاجئين للمناقشة من جديد ، وافــق مجلس النواب على تشكيل لجنة فرعية برئـــاسة لورنس سميث من ويسكونسن ووينستن براوتي من فيرمونت ، للتحقق من احوال اللاجئين وللبحث عن امكانية ايجـــاد حل دائم لهذه المسألة(٧). ولقـــد أوصى التقرير الذي وضعته لجنـــة سميث ــ براوتي بأن لا تطالب الولايات المتحدة باعادة اللاجئين الى اسرائيل في الظروف الراهنة أو ضمن حدود اسرائيل للعام ١٩٤٨ . واكد التقرير بأن قضية اللاجئين مرتبطة جدا بقضية تحقيــق سلام دائم في الشرق الاوسط يقضي بأن تعترف الــدول العربية باسرائيل . وكذلك توصلت لجنة فرعية شكلها مجلس الشيوخ لدراسة قضية اللاجئين الى نتائج مماثلة . كما أن لجنة فرعية تابعة لمجلس النواب تسمى لجنة هايزـــاوهاراـــ تشيرش ، شكلت في ١٩٥٨ ، اعادت تأكيد هذه التوصيات وحثت على توطين اللاجئين في الدول العربية . وعلى اي حال ، وافق الكونجرس في ١٩٥٣ على اعتماد امـــوال جديدة للانروا رغم الشكوك التي اثيرت حول طبيعة المساعدات الاميركية وعدم احتمال التوصل الى قرار بالنسبة للنزاع في الشرق الاوسط .

وقد ظهــر بأن النواب الاميركيين يميلون الى ايجاد حلــول تقضي بتوطين اللاجئين في الدول العربية دون أن يخطر ببالهم امكانية احداث تغيير في دولة اسرائيل . وحدث أن عددا قليلا من النواب طالبوا باعادة توطين اللاجئين في « اسرائيـــل » نفسها ، ولكن ضمن تسوية شاملة تقضي باعتراف الدول العربية باسرائيل . وفي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ عندما ازداد استقطاب الشرق الاوسط بين الولايات المتحدة والاتحـــاد السوفياتي ، أصبح النواب الاميركيون اكثر تأييدا لاسرائيل التي صاروا يصورونها الحليف الوحيد الذي يمكن الاعتمـــاد عليه في الشرق الاوسط . فكتبوا كثيرا من الافتتاحيات والمقالات المؤيدة لاسرائيـــل في **نيويــورك تايمز وواشنطن بوست** ، كما يظهــر من **سجـــلات الكونجرس**(٨). وكان ابراهام ملتر وامانويل سيللر(٩)، اللذان كانا عضوين في اكثر من **منظمة صهيونية** ، **يقودان** الحملة من أجل مواصلة التأييد الاميركي لاسرائيل . وكانا ينتقدان وزارة الخارجية الاميركية «لسياستها المؤيدة للعرب» في حين يحثان الكونجرس على ممارسة الضغط لتوطين اللاجئين في الدول العربية . ونـــال مشروع جونستون قسطا وافرا من الدعاية كبرنامج لتطوير الاراضي المروية حديثا والمنتجة زراعيا والتي يمكن توطين اللاجئين فيها . وقد اعرب النواب عن أملهم بأن الاراضي المروية حديثا في الدول العربية قد تدفع باللاجئين الى قبول التوطين خارج اسرائيل . وبشكل عـــام ، لم يأخذ النواب رغبات اللاجئين بعين الاعتبار ، وبدلا من ذلك انحوا باللائمة على الدول العربية لرفضها توطين اللاجئين على اراضيها .

وبظهور زعامة عبد الناصر وتزايد الصداقة العربية السوفياتية في العالم العربي اصبح النواب الاميركيون يرون في اسرائيل افضل حليف في المنطقة . واعربوا عن اعتقادهم ان اللاجئين كانوا بمثابة مخلب قط « لمطامـــع عبد الناصر السياسية والتوسعية » . وحث جافيتس الحكومة الاميركية على المطالبة بتوطين اللاجئين على اساس مشروع جونستون(١٠). واعلن هيوبرت همفري (المرشح الديمقراطـــي للرئاسة في ١٩٧٠) ونائب الرئيس جونسون ، تأييده لجافيتس ، وحذا حذوه عدد من النواب . وخـــلال

السنتين التاليتين واصل النواب دعوتهم لتوطين اللاجئين في العالم العربي ، ففي ١٩٥٩ اقترح جافيتس بأن تتخذ الولايات المتحدة المبادرة في تأمين ايجاد حل للنزاع العربي — الاسرائيلي وذلك بارغام الدول العربية على تحمل مسؤولياتها بالنسبة للاجئين ، وان تحث اسرائيل على اعادة عدد معين . ويقضي هذا المشروع بزيادة المساعدات المقدمة للدول العربية لاغراض التنمية ، ولكنه في الوقت نفسه يقترح زيادة المساعدات العسكرية الاميركية لاسرائيل بصفتها حليف يمكن الاعتماد عليه . وفي هذا الصدد لاحظ جافيتس بأنه « ... منذ حوادث لبنان (١٩٥٨) بدأنا ندرك أهمية اسرائيل الدقيقة بالنسبة لنا كمرساة يمكن الاعتماد عليها من قبل العالم الحر في الامور الاستراتيجية والعسكرية في الشرق الاوسط والبحر الابيض المتوسط(١١)» . وكان ملتر من نيويورك قد لاحظ في وقت سابق بأنه لا يمكن التفكير باعادة توطين اللاجئين في اسرائيل(١٢) . وبسبب الشكوك التي اظهرها النواب حول استمرار تقديم المساعدات للانروا ، ألحق قانون بمساعدة الثلاثة والعشرين مليون دولار في ١٩٦٠—١٩٦١ يقضي بأن لا تزيد المساعدة الاميركية عن ٧٠ بالمئة من مجموع ما تقدمه جميع الدول الاخرى(١٣) ، ولا تزال هذه المادة سارية المفعول .

وبعد فوز كيندي بالرئاسة أجرت الحكومة تقييما لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط بقصد تحسين وضعها بالنسبة للانظمة القومية في العالم العربي ، وخاصة نظام عبدالناصر . ونتج عن ذلك تبادل الرسائل بين كيندي وعبدالناصر . وفي ١١ أيار (مايو) ١٩٦١ قدم كيندي بعض المقترحات المعتدلة التي تهدف الى تحسين سياسة الولايات المتحدة ، وفي تلك الرسالة اشار الى التعويض واعادة دمج اللاجئين دون أي ذكر لتوطينهم في الدول العربية ، الامر الذي فتح عليه نيران النقد من داخل الكونجرس ، خاصة من النواب الموالين للصهيونية الذين باتوا يخشون من قيام ادارة كيندي باتخاذ خطوات من اجل الضغط لاعادة اللاجئين الى بلادهم . وقال جافيتس ان اسرائيل تستطيع استيعاب ما يتراوح بين ٥٠ و ١٠٠ الف لاجيء ، ولكن اكثر من ذلك سيسبب خطرا على أمنها مما يتناقض مع المصالح الاميركية العليا(١٤) . وكرر الاقتراح بتوطين اللاجئين في الدول العربية واضاف الى ذلك ، الاقتراح بتقديم التعويضات عما خسروه ، على أن ينهي العرب مقاطعتهم لاسرائيل . وأنهى اقتراحه بقوله انها « لغلطة كبيرة »(١٥) ان نسمح للعرب بأن يفكروا يوما بأن الولايات المتحدة تؤيد عودة اللاجئين الى « اسرائيل » . واعرب السناتور كيتنج عن تأييده لاقتراح جافيتس واضاف بأن الاتفاقية يجب ان تشمل فتح قناة السويس في وجه الملاحة الاسرائيلية .

ونتيجة لتزايد النشاط الصهيوني والتغييرات التي طرأت على مواقف الرئاسة من الشرق الاوسط ، شهد الكونجرس مناقشة حامية لمشروع قانون المساعدات في ١٩٦١ . وقد ايد فيليب هارت ، النائب الديمقراطي من ميتشجن ، استمرار تقديم المساعدات للانروا واثنى عليها كذلك ، مع انها كانت عرضة للانتقاد من قبل بعض النواب الذين اتهموها بالتحيز لصالح الفلسطينيين والعرب(١٦) . ولكن ما أن جاء العام ١٩٦٣ حتى بات هارت يدعو الى حل على اساس اعتراف العرب باسرائيل . ومن جديد مارس النواب ضغطا من أجل توطين اللاجئين ، واظهروا اهتمامهم بمسألة استمرار المساعدات التي لم تكن لتنتهي بشكل سريع ، وقد زادت خشيتهم بعدم امكانية ايجاد حل للنزاع . وقد اعرب النواب عن خشيتهم « من ان يستخدم الزعماء العرب ، وخاصة عبدالناصر ، الفلسطينيين لتحقيق مآربهم الشخصية » ، وكانوا يشعرون بأن ذلك من شأنه ان يعرقل السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، لذلك فان الحل الوحيد هو توطين اللاجئين . واذا رفضت الدول العربية ذلك فما على الولايات المتحدة الا ان ترغمها على قبول هذا الاقتراح .

واعرب النواب ايضا عن اعتقادهم بأن افضل حل لقضية اللاجئين يكون ضمن اطار اتفاقية سلام عامة تقضي بالاعتراف بكيان اسرائيل(١٧).
وخلال هذه الفترة ، كان السناتور وليم فولبرايت ، رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الاميركي ، هو الصوت الوحيد الذي اتخذ موقفا منفصلا عن هذا الخط. فقد قام بجولة في الشرق الاوسط في ١٩٦٠ ، وعندما كان في فلسطين المحتلة اقترح ان تسمح اسرائيل باعادة قسم من اللاجئين ، كما طلب تشكيل لجنة محايدة من الخبراء لدرس اوضاع اللاجئين لتقديم حلول لمشكلتهم الدائمة(١٨). وكان عبدالناصر وسياسته عرضة للانتقاد مرارا لان معظم النواب كانوا ينظرون اليه كديكتاتور تسيره الشيوعية الدوليـــة . وكان الرأي السائد بأن مصر ، اذا كـــان يجب ان تحصـــل على مساعدات اميركية ، يجب ان تحصل على أدنى حد من المساعدات . وفي ١٩٦٥ اعرب النواب عن شعورهم بأن عبدالناصر يؤيد الفدائيين ويحرضهم على شن الهجمات على اسرائيل . حتى ان بعض النواب أعربوا عن اعتقادهم بانه لو ابعد عبدالناصر لتوقفت هجمات الفدائيين ، فلم يتصوروا امكانية قيام عمل فلسطيني مستقل خارج نفوذ عبدالناصر . وكانوا يعتبرون احمد الشقيري ، رئيس منظمة التحرير الفلسطينيـــة ، « العوبة بيد عبدالناصر » . وأكد جيمس روزفلت ، النائب الديمقراطي من كاليفورنيه ، بأن توطين اللاجئين كفيل بتخفيف التوتر المتصاعد باستمرار على طول الحدود . ومع انه اعترف بأن الدول العربية ستقاوم اية محاولة في هذا السبيل ، اقترح بأنـــه يجب ابلاغهم بأن عليهم أن يقبلوا بذلـــك . وفي هذا الصدد اشار الى ان مساعـــدات الولايات المتحدة للانروا تعادل ٧٠ بالمئة من ميزانية المنظمة الدولية(١٩). وعلى أي حال ، فانه لم يذكر بأن الدول العربية في ١٩٦٢ قدمت ما يعادل ٣٨ مليون دولار كمساعدة مباشرة(٢٠) أو أن تبرعات الولايات المتحدة لم تكن هامة اذا ما قورنت بالتبرعات المقدمة من الدول التي لها دخل اجمالي عام أقل وسكان أقل كذلك . وأيد عدد آخر من النواب اقتراحات روزفلت بأن على الانروا ان تركز جهودها في مجالات الاسكان والتدريب المهني وتأمين اعمـــال للاجئين بدلا من الاغاثة . وقد تركزت وجهة النظر هذه على القول بما ان العرب في اسرائيل يعيشون حياة حسنة ، ليس هناك من سبب يدفع عبدالناصر واعوانه لاستخدام اللاجئين لمآربهم السياسية(٢١)، ولكن يجب ، بدلا عن ذلك ، ان يركز على دمجهم في الدول العربية . وكان النواب يصورون اللاجئين بأنهم سلاح سياسي آخر بيد الدول العربية لاستخدامه ضد اسرائيل ، متغاضين عن ان اللاجئين انفسهم رفضوا توطينهم خارج بلادهم .

واقترح ليونارد فاربشتين ، النائب الديمقراطي عن نيويورك ، ايجاد حـــل عن طريق تخفيف المساعدات الاميركية للانروا بشكل محدد ومستمر . وبعد جولة قام بها فاربشتين في الارض المحتلة ، وليس في الدول العربيـــة ، أعرب عن اعتقاده بأن مثل هـــذا الحل ممكن تماما ، واقترح خطة لتلحق بمشروع قانون المساعدات للعام ١٩٦٦ تقضي بتخفيض المساعدات الاميركية للانروا بمعدل خمسة بالمئة لمدة عشرين سنة . وتعتمد وجهة نظر فاربشتين على المقولة التي تفترض ان الولايات المتحـــدة تستطيع تقريب حـــل مسألة اللاجئين بقطعها المساعدات عنهم(٢٢). ولم تتم الموافقة على اقتراح فاربشتين مع ان الكونجرس أقر تخفيض المساعدات بقيمة ١٠٠ الف دولار في ١٩٦٦ ، اذ اعتمد مبلغ ٢٢ مليون و ٢٠٠ ألف دولار فقط(٢٣).

وقد طرح موضوع استمرار المساعدة الاميركية للفلسطينيين على بساط البحث من جديد في ١٩٦٧ عندما كشف بأن عددا من اللاجئين المسجلين في سجلات الانروا فدائيون . وقد أكد السناتور ادوارد كينيدي هذه الانباء بعد جولة قام بها في المنطقة . وطالب النواب بعدم

تقديم أية مساعدات للاجئين الذين يصبحـــون فدائيين ، كمـــا رفضوا طلب لورنس ميتشلمور ، المفوض العام للانروا ، بزيادة التبرعات الاميركية للانروا لتستخدم للسكن والمأوى(٢٤). وطالب فاريشتين الامم المتحدة بتجديد سجلاتها وباصدار بطاقات اعاشة جديدة للفلسطينيين . وفي وقت لاحق من ١٩٦٧ عندما بدأت الاحداث تتصاعد في المنطقة أثير موضوع مساعدات اللاجئين نظرا للنشاط الذي يقوم به جيش التحرير الفلسطيني . وقبل حرب ١٩٦٧ حث جافيتس وغيره الحكومة الاميركية تجنب خطر فيتنام ثانية في الشرق الاوسط بالتحقق من استخدام اموال الامم المتحدة من قبل الفدائيين . وقد لاقى هذا الموقف ، بالاضافة الى دعاة الصهيونية التقليديين ، تأييدا من السناتور بيرسي من الينوي ، والسناتور واين مورس من اوريجون ، والنائب هيكن لوبر من ايوا(٢٥).

لقد كانت وجهات النظر التي يطرحها النواب اثناء مناقشات الكونجرس قبل حرب ١٩٦٧ في معظمها مؤيدة لوجهة النظر الاسرائيلية . وكان العرب يوصمون بأنهم معتدون ، اما الاتحاد السوفياتي فكان يتهم بتأييد العدوان بشكل يلائم أهدافه . وقد لاحظ النواب ان تأييد اسرائيل أمر حيوي بالنسبة للمصالح الاميركية في الشرق الاوسط ، واتهمت الانروا بأنها فشلت في تأدية مهمتها ، واعتبر النواب ان عدم اندماج اللاجئين في الدول العربية يعود الى كفاحهم المتواصل ضد اسرائيل(٢٦). وفي ١٥ يونيو ١٩٦٧ تم الاعلان عن النتائج التي كانت احدى لجان مجلس النواب الاميركي قد توصلت اليها خلال جولة قامت بها في الشرق الاوسط في نوفمبر ١٩٦٦ . وقد طالب التقرير بالامور التالية : (١) وقف اطلاق النار ، (٢) اعتراف الدول العربية باسرائيل بضمان مـــن الدول الكبرى ، (٣) توطين اللاجئين مع الحد من شحن الاسلحة الى المنطقة ، (٤) القيام بمشاريع تنمية جديدة(٢٧). ومن جهة أخرى ، كان السناتور جور من تنيسي والذي هزم في انتخابات ١٩٧٠ ، قد قدم ، في معرض تأييده للفلسطينيين ، تفاصيل عن برامج الانروا ولفت النظر الى حالة اللاجئين البائسة (٢٨). واكد ان المساعدات التي تقدمها الولايات المتحدة للفلسطينيين تبلغ ١٧ دولارا في السنة للفرد اي ٤ سنتات كل يوم ، كما اكد التحليـــل العميق الذي عرضه بأن المشكلة أبعد كثيرا من أن تكون اقتصادية فحسب ، وأعرب جور عن شعوره بأنه لا يكفي ان ترفض اسرائيل اعادة اللاجئين ما لم يحل النزاع بكامله ، ولفت النظر كذلك الى أن المشكلة ازدادت تعقيدا باللاجئين الجدد الذين نزحوا عن الضفة الغربية للاردن بسبب حرب ١٩٦٧ . وحث جور اسرائيل على ان تظهر نوعا من التسامح باعادة هؤلاء اللاجئين الجدد وبذلك تظهر عزمها على ايجاد حل وسط يمكن ان يؤدي الى تسوية دائمة للنزاع . وانتهى جور الى مناشدة الحكومة الاميركية زيادة مساعدتها للانروا . وأعلن وليم فولبرايت الذي يرئس لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ والتي كان جور عضوا فيها ، موافقته على ذلك . ومع ذلك ، فقـــد كان الكونجرس يتجاهل آراء هذين الرجلين بالنسبة لقضية اللاجئين . وبسبب مثل هذه المناقشات يمكن الملاحظة بأن المساعدات الاميركية للانروا بقيت ثابتة نسبيا خلال فترة السنوات العشرين . ولم تكن مثل هذه المبالغ تكفي لاكثر من التخفيف من التضخم او من تزايد عدد اللاجئين . وعلى سبيل المثال ، اعتمد الكونجرس في ١٩٦٩ مبلغ ٢٢ مليون و٢٠٠ الف دولار مقابل ٢٢ مليون و٥٥٠ ألف دولار في ١٩٦٦(٢٩). وفي اوغسطس كان النواب لا يزالون يتذمرون من « استخدام الزعماء العرب للاجئـــين » . وطالب مايك مانسفيلد ، زعيم الاغلبيـــة الديمقراطية ، بالحل القديم ، اي توطين الفلسطينيين في الدول العربية ، او كبديل لذلك، توطينهم في الولايات المتحدة او اي مكان آخر(٣٠). وهكذا ، استمر النواب ، باستثناء البعض منهم ، بتبني ما ظنوه العلاج الناجع للتسوية : لقد رفضوا الاعتراف بحقائق الوضع التي أظهرت بأن الفلسطينيين لا يمكن أن يقبلوا التوطين في الدول العربية، ولكن

يريدون حقوقهم في بلادهم . ولا يمكن تغيير هذه الآراء الى العكس مهما زاد الضغط الاميركي .
ومنذ حرب ١٩٦٧ استمر النقد الموجه الى المساعدة الاميركية للانروا وكان يتزعم ذلك جافيتس ، وسكوت من بنسلفانيا ، ووالتر مونداال من مينيسوتا ، ورييبيكوف ، ونواب نيويورك في مجلس النواب . وبالمقابل كان السناتور هاتفيلد ، الجمهوري من اوريجون ، وجورج آيكن ، الجمهوري من فيرمونت وعضو لجنة العلاقات الخارجية ، يوجهان الاسئلة ويبديان المعارضة أحيانا . وطالب هاتفيلد باتباع سياسة اميركية اكثر توازنا في الشرق الاوسط وبمزيد من العطف على اللاجئين . ولكن فولبرايت ظل من اشد المتحمسين لاحداث تغيير في السياسة الاميركية في الشرق الاوسط . وفي ٢٤ آب ١٩٧٠ القى خطابا مطولا أمام مجلس الشيوخ بعنوان « خرافات قديمة وحقائق جديدة : الشرق الاوسط » ، وبالنسبة لموضوع اللاجئين لاحظ « ان التزام الدول العربية بقبولهم والمساعدة في توطينهم — كما فعلوا ذلك جزئيا — يجب أن يكون مصحوبا بعون مالي اسرائيلي سخي للتعويض عن الخسائر التي مني بها هؤلاء اللاجئون ولتسهيل توطينهم ، ولن تجد اسرائيل صعوبة كبيرة في تأمين هذه المبالغ نظرا للمساعدات التي ستحصل عليها من الدول الصديقة ، او نتيجة للتخلص من اعباء التكاليف العسكرية التي ستصبح ممكنة اذا ما تحقق السلام ، وعلى اي حال يجب على اسرائيل أن تقبل بذلك كالتزام أخلاقي اساسي »(٣١) . ومع أن موقف فولبرايت ، كان بكل تأكيد بعيدا عما يطلبه الفلسطينيون ، ولم يطالب باعادة اللاجئين الى بيوتهم ، الا انه كان عرضة للانتقاد من قبل النواب الاميركيين والصحف الاميركية التي اتهمته بالتحيز للعرب .
ونظرا لعدم انتهاء النزاع العربي — الاسرائيلي، ورفض اعادة او توطين اللاجئين، هناك حاجة واضحة لتنفيذ برامج الانروا . لذلك فان مناقشات الكونجرس للمحافظة على استمرار المساعدة او محاولتهم فرض حلول بديلة امر يتكرر كل سنة . ومن مايو ١٩٥٠ حتى ٣١ ديسمبر ١٩٧٠ بلغت قيمة المساعدات الاميركية للفلسطينيين ٤٧٧٩٤٣٠٦٩ دولارا ، اي أعلى نسبة من أية دولة أخرى ، تليها في ذلك بريطانيه التي بلغت تبرعاتها ١١٤٠٢٤٠٠٤ دولارات، وعلى اي حال ، لا تعتبر المساعدات الاميركية هامة جدا ، اذا ما نظر اليها على أساس الدخل الفردي . فهناك دول صغرى نسبيا من الناحية السكانية مثل كنده والسويد ساهمت بما يزيد عن ٢٥ و ١٣ مليون دولار لكل منهما(٣٢) . ولا شك فان معارضة الكونجرس القوية لاستمرار المساعدة الاميركية للانروا مع ما يرافق ذلك من رغبة اعضاء الكونجرس الصهيونيين لاستثناء قضية اللاجئين من التسوية النهائية في الشرق الاوسط ساهم في كمية المساعدات الاميركية ونوعيتها . وخلال فترة النزاع ، كان هناك نفر من أعضاء الكونجرس يقومون بشكل منظم ومستمر ومنسق في توجيه الانتقادات لبرامج الانروا وحث الدول العربية على توطين اللاجئين . كما ان عددا آخر من الاعضاء اعربوا عن تأييدهم لاسرائيل ورفضهما اعادة اللاجئين خوفا من التوسع السوفياتي . وطبعا اثبت هذا التأييد انه غير مثمر . فعدم منح الفلسطينيين حقوقهم ، ساهم ، في الحقيقة ، وبشكل مباشر في تزايد الوجود السوفياتي في الشرق الاوسط ، الامر نفسه الذي كان يريد اعضاء الكونجرس تجنبه من خلال تأييدهم لاسرائيل .

(٢) الاسلحة لاسرائيل

في حين كانت الولايات المتحدة تقدم لوكالة الاغاثة بعض المساعدات من ١٩٤٨ — ١٩٧٠ ، كانت في الوقت نفسه تعطي لاسرائيل كميات من المساعدات أكثر أهمية على شكل أسلحة يدفع ثمنها او تقدم كهبات ، لتستخدم ضد الفلسطينيين او الدول العربية او الاثنين معا . وهذا الامر ليس مثارا للدهشة اذا ما علمنا ان هناك

درجة عالية من الارتباط ما بين هؤلاء النواب الذيـن يدعون باستمرار الـى تخفيض المساعدات للفلسطينيين او توطينهم خارج فلسطين واولئك الذيـن يدعون الى زيادة العون العسكري الاميركي لاسرائيل . وكذلك فان أولئك النواب الذين يحبذون سياسة اميركية اكثر اعتدالا في الشرق الاوسط ، في الوقت الذي يعبرون فيه عن تعاطفهم مـع اللاجئين ، يميلون الى الشك ، او على الاقل ، الى الحذر ، فيما يتعلق بفعالية المزيد من المساعدات العسكرية الاميركية لاسرائيل .

في العام ١٩٤٧ ، ووفقا لقانون الحياد الاميركي للعام ١٩٣٩ وقانون التصديـر للعام ١٩٤٠ ، فرضت الولايات المتحدة حظرا على بيع الاسلحة الى الشرق الاوسط ، وذلك لمنع تسابق في التسلح في الشرق الاوسط او لاضفاء مزيد من الثقة على الحياد الاميركي في المنطقة(٢٣). ورغم ذلك فان تهريب الاسلحة الاميركية الى اسرائيل بعد الحرب العربية ـ الاسرائيلية كان نشطا كما كان الامر كذلك قبل تلك الحرب . فقـد كان التعاطف الحكومي والشعبي الاميركي مع اسرائيل أمرا واضحا جدا في ذلك الوقت . وبعد قيام اسرائيل في ١٩٤٨ بدأت في البحث عن مصدر يمكن الاعتماد عليه في شؤون التسلح . فأجرى الزعماء الاسرائيليون اتصالات مع الولايات المتحدة لعقد صفقة اسلحة في العام ١٩٥٠ ، وفي الوقت نفسه اجروا اتصالات مماثلة مع بريطانيه وفرنسه . وكان موقف ادارة ترومان متذبذبا لان الحكومة الاميركية كانت تريد الاحتفاظ بصداقة الدول العربية وبمساندة اسرائيل في الوقت نفسه . اما النواب في هذا الوقت فكانوا يطالبون بوقف جميع المساعدات العسكرية للدول العربية وبتزويد اسرائيل بالاسلحـة . فأدى ضغط النواب هؤلاء مع ما رافق ذلك من سياسة اميركية بتأييد وجود اسرائيل فـي الشرق الاوسط الى اصدار البيان الثلاثي في العام ١٩٥٠ ، من قبل الولايات المتحدة وبريطانيه وفرنسه، وكان هذا البيان يقوم على مبدأ المساواة بين طرفي النزاع في الشرق الاوسط ، اي ايجاد نوع من التوازن بين القوة العسكرية للدول العربية مجتمعة والقوة العسكرية الاسرائيلية . بالاضافة الى اعتراف هذه الدول وتأييدها لحق اسرائيل في البقاء . وعمليا كان ذلك يعني ان التوازن العسكري يجب ان يكون لصالح اسرائيل ، ففي الوقت الذي كان فيه هذا « التوازن » المزعوم مهددا ، تسارع احدى هذه الدول او اكثر من واحدة الى اعادته الى حالته الطبيعية . وهكذا فان المطلب الاسرائيلي الدائم هو ان تسلح الدول العربية ، خاصة بعد صعود عبدالناصر كأكبر خطر على اسرائيـل ، كان دائما يقلب التوازن العسكري ، وهكذا فان اسرائيل بحاجة دائمة الى مزيد من الاسلحة المتطورة . وقد هلل النواب ، وخاصة الصهيونيون منهم ، للبيان الثلاثي ولكنهم طلبوا مزيدا مـن الاثبات للدعم الاميركي . وصوروا اسرائيل على انهـا موقع متقدم في وجـه التوسع السوفياتي في الشرق الاوسط ، واثنى جافيتس على فعاليـة الجيش الاسرائيلي الذي بامكانه ان يصبح « جزءا من خط قوي للدفاع شرقي المتوسط »(٢٤). وقد تكرر ذلك في السنوات اللاحقة ، على لسان جافيتس وسيللرز وغيرهما من النواب الصهيونيين . وكانت الدعوات لتسليح اسرائيل ترتكز على مقولة ان اسرائيل هي نقطة دفاع عن العالم الحر في الشرق الاوسط وان لها جيشا ممتازا يمكن الاعتماد عليـه ، لذلك يجب تزويدهـا بالاسلحة وفقا لقانون الامن المشترك(٢٥).

وبعد انتخابات ١٩٥٢ صرح جون فوستر دالس ، وزير الخارجيـة الاميركية الجديد آنذاك بأن على الولايات المتحدة ان تقدم الى دول الشرق الاوسط كميات محددة مـن المعونات العسكرية « للمساهمة في حفظ أمنها الداخلي وللمساعـدة في تشجيع خطط السلام بين اسرائيل والدول العربية ولاقامة منظمة دفاعية اقليمية »(٢٦). وكانت هذه السياسة التي تجسدت في حلف بغداد تفترض أن الاتحـاد السوفياتي يشكـل اكبر خطر على وجود الدول العربية ، وكان دالس يعتقد انه اذا ما اصبحت جميـع دول

الشرق الاوسط ، بما في ذلك اسرائيل ، قوية ، تزول الشكوك فيما بينها وتصبح قادرة على التوصل الى اتفاقية سلام مرضية فيما بينها ، وتتجاهل وجهــة النظر هذه السبب الرئيسي للنزاع العربي ـــ الاسرائيلي المتمثل بفقدان الفلسطينيين لوطنهم ، كما انهـــا أخطــأت التقدير عما يعتبره العرب عدوهم الرئيسي : وهو اسرائيل وليس الاتحـــاد السوفياتي . ولكن حلف بغداد ، كحلف شمالي الاطلسي وحلف جنوب شرق آسيه ، كان يهدف الى تطويق الاتحاد السوفياتي بدول مؤيدة للغرب ، وعلى أية حال فان عددا من الحكومات العربية وخاصة الحكومات القومية الاصلاحية كنظام عبدالناصر رات في حلف بغداد مظهرا من مظاهر الاستعمار الجديد . وهكذا فقد شطر حلف بغداد الدول العربية الى محورين : الحكومات المحافظة كحكومة العراق التي قبلت الحلف ، وتلك الحكومات القومية الاصلاحية التي رفضته . وفي الحقيقــة ، فقد تسبب الحلف في حدوث قلاقل سياسية في الاردن حيث كان الملك قد وجد نفسه معلقا بين رغبته في الانضمام للحلف وبين معارضة الشعب له ، كما ادى الحلف اخيرا الى اسقاط الحكم في العراق .

وفي الولايات المتحدة أعرب عدد من النواب عن معارضتهم للحلف على اعتبار انه يشكل خطرا على اسرائيل ، وقد بعث النواب بعدد من الرسائل تؤكد ولاء اسرائيل للغرب(٣٧) . وكان مؤيدو اسرائيل يفضلون الاعتماد الكلي على اسرائيل لوقف التوسع السوفياتي في المنطقة ، ويشكون في فائدة تزويد أية دولة عربية بالاسلحة . وفي العـــام ١٩٥٥ طالب جافيتس بعقد معاهدة دفاع مشتركة بين اسرائيل والولايات المتحدة ، وقد تكرر هذا الطلب في مناسبات مختلفة خلال السنوات الخمس عشرة التالية(٣٨) . كما ان هيوبرت همفري أعلن تأييده لذلك وحتى انه طالب بتوقيف جميع المساعدات العسكـــرية للدول العربية حتى تسير نحو تسوية سلمية مع اسرائيل(٣٩) . وفي حزيران (يونيو) ١٩٥٥ كشف بأن اسرائيل كانت قـــد طالبت بمثل هذه الترتيبات الـــدفاعية في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ . ولكن ادارة ايزنهاور التي شعرت بالمازق نفسه الذي واجهته ادارة ترومان في الشرق الاوسط ، أجلت اتخاذ قرار في هذا الشأن ، وذلك بسبب عودة بن جوريون المتحمس الى الحكم والغارة الاسرائيلية التي وقعت على قطاع غزة في شباط (فبراير) ١٩٥٥ . ومن جهة أخرى ، فان الغارة على قطاع غزة التي كشفت بوضوح عن عدوانية اسرائيل ، كانت السبب وراء صفقة الاسلحة السوفياتية المشهورة الى مصر . وهذا ما زاد من خشية النواب واعطى وزنا اكبر لادعاء اسرائيل بأنها بحاجة لمزيد من الاسلحة لحفظ التوازن العسكري ضد الدول العربية .

واعلن السناتور كيفوفر ، أحد الطامحين لرئاسة الجمهورية ، تأييده الشديد هو وغيره من النواب لوجهة النظر الاسرائيلية ودعا علنا لتزويد اسرائيل بالاسلحـــة(٤٠) ، وذلك بتأييد من السيدة فـ . د . روزفلت ، وولتر روثر ، رئيس اتحاد العمال الاميركيين ومؤتمر منظمات الصناعة الاميركية ، والرئيس السابق ترومان(٤١) . وفي نوفمبر زار ابا ايبان الولايات المتحدة حاملا قائمة بالاسلحة التي تحتاجها اسرائيل ، بشروط دفع مخففة . وهكذا وجدت الادارة نفسها في مأزق ، فهي من ناحية تريد الاحتفاظ بتأييد الدول العربية كوسيلة لوقف التوسع السوفياتي ، ومن جهة أخرى ، تدرك ان لاسرائيل أقوى جيش يمكن الاعتماد عليه في الشرق الاوسط . وفي شتاء ١٩٥٦ ، الذي جـــاء مع السنـــة الانتخابية ، لم تكن ادارة ايزنهاور قد اتخذت بعد قرارا بشأن بيع الاسلحة لاسرائيل . وكان المرشحان الديمقراطيان للرئاسة ، كيفوفر وستيفنسون ، يؤيدان بيع الاسلحـــة لاسرائيل . وقام ابا ايبان في شباط (فبراير) بزيارة جديدة لدالس في محاولة للحصول منه على قرار . ثم ارسل ٨٦ نائبا ديمقراطيا رسالة الى الادارة يطالبون فيهـــا ببيع الاسلحة لاسرائيل . ومن بين الموقعين على الرسالة : كيتنج من نيويورك ، وسكوت من بنسلفانيه ، وروزفلت من كاليفورنيه ، ومارتا جريفتس وشارلز ديجز من ميشيجان(٤٢) .

وخلال هذه الفترة اعلنت الادارة انها عقدت صفقة لبيـــع الدبابات، للمملكة العربيـــة السعودية . وقد اعرب النواب عن معارضتهم الشديدة لذلـــك ، وطالبوا بالتحقيق في الصفقة مع السعودية واتهموا وزارة الخارجية بالتحيز الى جانب العرب وطالبوا ببيع الاسلحة لاسرائيل(٤٢) . وفعلا ، تم ايقاف شحن الدبابات وهـــي في الاحواض في شباط ١٩٥٦ نتيجة للضغط الصهيوني الى حد كبير . وساعدت صفقة الاسلحة هذه في تكثيف معارضة النواب لبيع الاسلحة للدول العربية واظهرت مدى التأييد الذي تتمتع بـــه اسرائيل في الكونجرس . وعلى اي حال ، اصبح من المعروف الان ان الولايات المتحدة كانت تزود اسرائيل بالاسلحة عن طريق المانيه الغربية ، ولكن مـــع احتفاظ الولايات المتحدة بموقف حيادي علني وذلك لتجنب اية ردود فعل من جانب الحكومات العربية ضد الولايات المتحدة او المصالح الاميركية الخاصـــة في الشرق الاوسط . وقد كشفت انباء اتفاقية الاسلحة الالمانية الغربية مع اسرائيل في كانون الاول (ديسمبـــر) ١٩٥٧(٤٤) . فتسبب ذلك في قطع عدد من الدول العربية علاقاتها الديبلوماسية مع المانيه الغربية .

لقد خف التوتر بعد العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦ وانسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي المصرية . وتميزت الفترة التي تلت العدوان بتجنب جميع الاطراف لاي نوع من انواع النزاع العسكري المكشوف . ولم تخف مطالبة النواب بارسال مزيد من الاسلحة لاسرائيل الا عندما تأكد هؤلاء من قدرات اسرائيل التي ظهرت في انتصاراتها في عدوان ١٩٥٦ . وفي السنة التي تلت العدوان قام السناتور اليندر من لويزيانا بزيارة للشرق الاوسط وعاد بتحذير خطير للكونجرس ، فقد صرح بقوله : « تركت المنطقة وانا مقتنع بشيء واحد وهو انه من المستحيل ايجاد دولة اسرائيلية ذات اكتفاء ذاتي »(٤٥) . واقترح ان تعود اسرائيل الى خطوط تقسيم ١٩٤٧ وتحويل المهاجرين اليهود الجدد الـــى الدول العربية ، ثم اعرب اليندر عن شعوره بأنه من المستحيل ان تستمر الولايات المتحدة الى ما لا نهاية في تقديم الاسلحة الى الدول العربية واسرائيل اذ انهما يقفان علـــى طرفي نقيض . والاسلحة لاسرائيل ستؤدي الى ابعاد العرب ولكن فرض حظر على الاسلحة سوف يكون مجالا للمعارضة من جميع الاطراف المعنية . وكـــان السناتور دوجلاس والسناتور همفري هما اللذان تزعما حملة المعارضة لآراء اليندر .

ولقد أثير موضوع تزويد اسرائيل بالاسلحة في الكونجرس مباشرة بعـــد انتخاب كيندي رئيسا ، فقد كشف في ١٩٦٠ بأن اسرائيل كانت تتلقى ، ما سمي بكميات « متواضعة » من الاسلحة الاميركية . وقد اضطر المسؤولون في وزارتي الخارجية والدفاع الاعلان عن ذلك بعدما عرضت الحكومة الاسرائيلية معدات اميركية في العرض العسكري الذي أقيم في « يوم استقلال » اسرائيل(٤٦) .

وفي ١٩٦٢ حدث ما يمكن تسميته تحول كبير في السياسة الاميركية ، وذلك عندما وافقت حكومة كيندي على تزويد اسرائيل بصواريخ هوك ارض ـــ جو ، وجـــاء ذلك تتويجا للمحادثات التي اجرتها جولدا مئير ، وزيرة خارجية اسرائيل ، مع دين رسك . واعرب جافيتس عن ارتياحه للقرار اثناء جولة قام بها في اسرائيل حيث اشـــار الى ان صفقة الهوك ليست سوى البداية « لاعادة تقييم واشنطن لاحتياجات اسرائيل الدفاعية » . وقد جدد جافيتس دعوته لعقد معاهدة دفاع مشترك بين اسرائيل والولايات المتحدة وذلك بعد انتهاء زيارته لاسرائيل ، وطالب بالتقليل من جميع انواع المساعدات للجمهورية العربية المتحدة وفي الوقت نفسه زيادة بيع الاسلحة لاسرائيل على اساس ان « اسرائيل هي حليف فعال يمكن للعالم الحر ان يعتمد عليه في الشرق الاوسط ـــ وهي احد الحلفاء القلائل هناك . وليس الامر كذلك بالنسبة لـــ ج. ع. م. »(٤٧) . وأعاد كيتنج التأكيد على آراء جافيتس وذلك باعتباره اسرائيل مصلحة اميركية رئيسية كما هو الحال بالنسبة

لبرلين . وطالب الاثنان ، كيتنج وجافيتس ، الرئيس كيندي باعادة تأكيد الوعود الاميركية بتأييد اسرائيل . وقد أيدهم في ذلك اعضاء آخرون في مجلس الشيوخ مثل باستور ، من رود ايلند ، وكيس ، من نيوجيرسي ، وجروينج ، من ألاسكا ، والذي زار الشرق الاوسط في ١٩٦٢ وهاجم عبدالناصر كثيرا . واشترك في النقاش ايضا اعضاء آخرون في مجلس الشيوخ من امثال سكوت وموريس وهمفري ، فقد اعربوا عن اهتمامهم بحشد الاسلحة في الشرق الاوسط ولكنهم حاولوا الدفاع عن سياسة الادارة في حفظ نوع مــن الحياد السطحي على الاقل . وطالب همفري الذي كان يعبر عن وجهة نظر الادارة بوقف بيع المزيد من الاسلحة الى المنطقة ، وحث على قيام تعاون بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في الشرق الاوسط ، كما شجع الامم المتحدة على تقديم مبادرة سلمية مقبولة . ولاثبات ادعاءات الحكومة بعدم الانحياز وصف همفري عبدالناصر بأنه زعيم « متفان وكفؤ وذكي »(٤٨). وتميزت هذه الفترة بمحاولة ادارة كيندي تحسين علاقتها بعبدالناصر الذي ظهر كزعيم يقود العالم العربي ويبني حكما مستقرا . ورغم ذلك ، واصلت ادارة كيندي ، في الوقت نفسه ، تزويد اسرائيل بالاسلحة ولم تتوان على الاطلاق في تأييد حق اسرائيل في البقاء . ولكن رغم هذا الالتزام الرسمي الواضح في تأييد اسرائيل ، اعتبر بعض النواب الصهيونيين المتحمسين محاولة تحسين العلاقات مع عبدالناصر وغيره من الزعماء العرب تهديدا لاسرائيل . وهذا هو السبب الذي دفع جافيتس وغيره لانتقاد سياسة كيندي في الشرق الاوسط بشدة .

وبازدياد التوتر في الشرق الاوسط خلال العامين ١٩٦٥ و١٩٦٦ دعا الكونجرس من جديد الى تخفيض المساعدات للدول العربيــة وزيادة الاسلحة لاسرائيــل ، واقر اعضاء الكونجرس بأنه يجب وضع شروط معينة لعبدالناصر قبل تسلمه اية مساعدة اميركية ، ومن هذه الشروط : (١) عدم وجود اسلحة نووية في مصر ، والسماح للولايات المتحدة بالتفتيش للتأكـد من عدم حدوث اية انتهاكــات لذلك . (٢) وقف انتــاج الصواريخ والسماح للولايات المتحدة بالتفتيش . (٣) تجميد عدد الجيش المصري(٤٩) . ومن الواضح ان هذه الشروط تعتبر انتقاصا من سيادة ج. ع. م. ، الامر الذي دفع عبدالناصر الى رفضها . والجدير بالملاحظة في هذا المجال هو انه في الوقت الذي طرحت فيــه هذه الشروط كان الاسرائيليون يبنون مفاعلهم الذري في ديمونه ورفضوا الاشتراك في التوقيع على معاهدة حظر انتشار الاسلحة النووية . ولم يحدث ان طالب أي نائب بتطبيق مثل هذه الشروط او القيام بالاشراف على النشاطات الاسرائيلية في هذا الصدد . ففي مجلس النواب دعا روزفلت الى زيادة بيع الاسلحة لاسرائيل بأسعار مخفضة ، وأيده في ذلك فاريشتين وغيره.وفي ١٩٦٦ قامت الولايات المتحدة ببيع اسرائيل دبابات من طراز باتون ومقاتلات نفاثة بشروط بيع مخففة . وقد أدت هذه الصفقة الى زيادة التوتر في العلاقات المهتزة بين الولايــات المتحدة و ج. ع. م. وكــانت هذه الصفقة قد عقدت في فبراير ١٩٦٦ ، وقد قدم تقرير الى لجنتي التسلح والاعتمادات عن الصفقة ، ولكن ليس الى لجنة العلاقات الخارجية . وقد بررت وزارة الدفاع هذه الحيلــة بأن الصفقة عقدت للكسب المادي لذلك لم تشمل اية مساعدات خارجية(٥٠). وعلى اي حال يظهر بأن هذا التكتيك قد اتبع لتجنب اية اسئلة محرجة يمكن ان يوجههــا اعضاء لجنة الشــؤون الخارجية ، وخاصة فولبرايت ، وبدرجة أقل، جور ، اللذين كانا ينتقدان التورط الاميركي في حشد الاسلحة المستمر في الشرق الاوسط ، وكذلك فان البحث في اية صفقة اسلحة يمكن ان يثير موضوع التورط الاميركي في فيتنام ، وهو موضوع كانت وزارة الدفــاع تحاول دائما تجنب بحثه قدر الامكان . وبعد عقد صفقة الاسلحة الاميركية ــ الاسرائيلية في ١٩٦٦ ، طلبت اسرائيل مزيدا من الاسلحة بحجة اعادة توازن القــوى الذي كان الزعماء الاسرائيليون يعتقدون انه مال لصالح مصر نتيجة لتزودها بالاسلحةالسوفياتية .

والح هؤلاء الزعماء بهذا الطلب بعد تزويد الاردن بـــ ٣٦ قاذفة قنابل اميركية من طراز (ف ـــ ١٠٤)(٥١). واكدت هذه الصفقة بشكل خاص رغبة السلطات في المحافظة على تأييد الحكومات العربية الموالية للغرب والتي لن تستخدم هذه الاسلحة ضد اسرائيل ، ولكنها يمكن أن تخفف من التعاون مع الاتحاد السوفياتي المتزايد أو من تزايد انتشار الحكومات الاشتراكية الوطنية في العالم العربي نفسه .

وفي الاشهر التي سبقت حرب ١٩٦٧ اعــرب معظم النواب عن تعاطفهم العلني مـــع اسرائيل وطالبوا بتأييد اميركي تام لها . وقد نددوا وثاروا لسحب الامم المتحدة قواتها من الشرق الاوسط ، ولكنهم أعربوا عن ارتياحهم لبيان الرئيس جونسون في ٢٣ أيـــار (مايو) حول السياسة الاميركية في المنطقة . وفي هذا البيان ، اعاد جونسون تأكيـــد التأييد الاميركي لاسرائيل ، وكذلك عدم اعتراف الولايـــات المتحدة بالعدوان أو بتغيير الحدود نتيجة لذلك ، وايضا تأييد اميركا جعل مضيق تيران ممرا مائيا دوليا . وتـــرى الحكومة الاميركية ، وفقا لهذا البيان ، ان اغلاق المضيق يعتبر عملا عدائيا للسلام في المنطقة(٥٢). وجدير بالذكر ان الشيء الوحيد الذي كسبته اسرائيل نتيجة لحرب ١٩٥٦ كان السماح لسفنها بالعبور في مضيق تيران . وقـــد صرح زعماؤها بأن اي اغلاق للمضيق سيكون سببا كافيا للحرب . وعلى أي حال لم تعترف مصر والـــدول العربية الاخرى بأن المضيق ممر دولي اذ ان اسرائيـــل نجحت في استخدامه نتيجة للعدوان ، الامر الذي لم يقروه . لذلك يمكن اعتبار بيـــان جونسون اعترافا علنيا بالتزام اميركة بتأييد اسرائيل ، وان لفت النظر الى ان الولايات المتحدة لا تعترف أو تقبل بأية تغييرات في الوضع الحالي أو في الحدود القائمة نتيجة لاي نزاع مسلح يمكن أن يقع . وانه لامر يدعو للسخرية ، اذا ما علمنا انه يمكن استخدام بيان ٢٣ مايـــو المعارض للتوســـع الاقليمي ضد اسرائيل في فترة ما بعد الحرب ، مع انه في الاساس وضع لحماية المصالح الاسرائيلية . وقد أصدر واحـــد واربعون من اعضاء مجلسي الشيوخ والنواب بيانـــا مشتركا تأييدا لموقف جونسون ، ومن بين الموقعين على هذا البيان : موندال ، وموسكي المرشح لنيابة الرئاسة في انتخابات ١٩٦٨ ، وهـــارت ، وبروك من ماستشوستس ، وروبرت كيندي(٥٣). لذلـــك فان التأييد بالنسبة لهـــذا الموضوع لم يرتبط بالـــولاءات الحزبية ، وكان قويا جدا بين النواب الذين يمثلون الولايات الشرقية الصناعية الكثيفة بالسكان .

ومباشرة بعد الانتصار الاسرائيلي في حرب ١٩٦٧ طلبت اسرائيل مزيدا من الاسلحـــة الاميركية لتعوض ما خسرته في الحـــرب ولتعيد توازن التسلح الـــذي اعتقدت انه مال لصالح مصر نتيجة لتزودها بالاسلحة السوفياتية . وبسبب هذه الحرب فرضت الولايات المتحدة حظرا على ارسال الاسلحة الى الشرق الاوسط ، وزادت مسألة تأمين مزيد من الاسلحة لاسرائيل تعقيدا بسبب اعلان ديجول قبيل الحرب بأن فرنسة لن تبيع اسلحة للدول التي تكون البادئة في اشعال نار الحرب . ولما كانت اسرائيل هي البادئة في حرب ١٩٦٧ اعتبرها ديجول دولة معتدية ورفض ارسال مزيد من الاسلحة لها . وخلق ذلك مشكلة صعبة لاسرائيل نظرا لان فرنسه كانت المصدر الاساسي لتزويدها بالاسلحـــة والمعدات العسكرية ، خاصة الطائرات .

وفي الوقت نفسه ، واجه واضعو السياسة في اميركه اعادة تحالف بعض النواب بسبب المعارضة المتزايـــدة لحرب فيتنـــام . وبسبب الوضع في فيتنام بدأ المـــزيد من النواب يتساءلون عن فعالية استمرار بيع الاسلحة أو تقديم المعونات الى « مناطق الخطر » في العالم . وقد تردد النواب الذين يمكن تسميتهم « حمائم » في تأييد عقد مزيد من الصفقات العسكرية مع الدول المشتركة في نزاع دولي وذلك خوفا من أن تؤدي مثل هذه الصفقات

الى مزيد من التورط الاميركي كما هو حاصل في فيتنام . وعلى اي حال ، فان عددا من هؤلاء « الحمائم » من الصهيونيين المعروفين منذ زمن طويل ، وأخصهم بالذكر جافيتس ، جوبهوا بمأزق ، فهم ، من جهة ، يطالبون بتخفيف التغلغل الاميركي في جنوب شرق آسيه ، ومن جهة اخرى ، يؤيدون زيادة التورط الاميركي في الشرق الاوسط تأييدا لاسرائيل . وحاولت ادارة جونسون عدم تجاهل هذه العواطف باعلانها ان الخفض في ميزانية التسلح سيؤثر على اسرائيل وعلى اعتمادات حرب فيتنام كذلك . وبهذه الطريقة ، حاولت الادارة الحفاظ على تأييد سياستها في فيتنام عن طريق التهديد بخفض المساعدات لاسرائيل . وقد واجه النواب هذه السياسة — ليس بالقول ان الولايات المتحدة لا تستطيع التورط عسكريا في الشرق الاوسط — ولكن بالتأكيد ان هناك اقنية بديلة يمكن من خلالها تزويد اسرائيل بالاسلحة الاميركية . فقد صرح ستيوارت سيمنجتون بأنه في الوقت الذي يؤيد فيه الغاء مبلغ الـ ٣٨٣ مليون دولار القابل للتجديد والذي خفضته وزارة الدفاع للاسلحة ، يرى ان مثل هذا الالغاء لا يشكل خطرا على بيع الاسلحة لاسرائيل نظرا لوجود عدد من البرامج البديلة التي يمكن بواسطتها تزويد اسرائيل بالاسلحة . وتشمل هذه البرامج قانون المساعدات الخارجية بشكل عام ، وبشكل خاص للبند ٥٠٧ الذي يسمح بصرف ما قيمته ٤٧٥ مليون دولار من مستودعات وزارة الدفاع . وباستطاعة الرئيس ايضا تقديم مبلغ يتراوح بين ٢٥٠ مليون دولار و ٣٠٠ مليون دولار لاية دولة تشترك في الدفاع عن المصالح الاستراتيجية الاميركية وفقا للبند ٥١٠ من قانون المساعدات الخارجية . ولما كانت اعتمادات اسرائيل جيدة فبامكانها الحصول على قروض طويلة الاجل وبفوائد منخفضة من المصرف الدولي أو غيره من المنظمات(٥٤).

وبعد نقاش طويل وافق مجلس الشيوخ على الغاء مبلغ وزارة الدفاع المدور ، وقد فسر هذا القرار بأنه انتصار لـ « الحمائم » بالنسبة لفيتنام . والجدير بالملاحظة ان عددا من « الحمائم » بالنسبة لفيتنام كانوا « صقورا » بالنسبة للشرق الاوسط . وكانوا فقط يؤيدون تخفيض الاموال الاميركية لفيتنام بعد تأكدهم من ان الاسلحة الاميركية ستستمر في التدفق على اسرائيل من خلال اقنية اخرى . ومن خلال سير هذه المناقشات اصبح واضحا تماما ان عددا من النواب بدأوا يتساءلون بجدية حول السياسة الاميركية بالنسبة للتسلح ، وكانت هذه التساؤلات موجهة بشكل محدد تجاه السياسة الاميركية في جنوب شرق آسية ، ولكنها كانت موجهة ايضا نحو السياسة المماثلة في الشرق الاوسط ، رغم ان ذلك كان بدرجة أقل . وقد حدد السناتور الجمهوري جون تاور المعنى الحقيقي لصفقات التسلح عندما تحدث عن صفقات الاسلحة الاميركية مع الدول المختلفة في العالم . لاحظ تاور : « ... ان سياسة التسلح هي اداة في يد السياسة الخارجية ، وأن برامج بيع الاسلحة هي انعكاس دقيق للاتفاق الذي يتم على اعلى مستويات السلطة . ولا تستجيب وزارة الدفاع بشكل مستقل لطلبات شراء الاسلحة من دول الشرق الاوسط وآسية واميركة اللاتينية وافريقية وغيرها من الدول النامية . فهذه الطلبات تخضع لمراجعة ونقاش دقيقين داخل السلطة التنفيذية . وعادة ما تبذل جهود جدية لخفضها كما ونوعا ، كما يتم البحث عن مصادر بديلة غير اميركية لاسباب تتعلق بالسياسة الخارجية ، ويتم البيع فقط بعد التأكد أن الاعتبارات المتعلقة بميزان المدفوعات بالاضافة الى المصالح الاميركية لا يمكن ان تؤمن بطريقة اخرى»(٥٥). وما يدعو للسخرية هو أن تاور كان يردد ما كان العرب يقولونه عندما تعقد اميركة صفقة اسلحة جديدة مع اسرائيل . وفي الحقيقة، لا يمكن التمييز ما بين السياسة الخارجية العامة وبيع أو اهداء الاسلحة للدول الاخرى . فالواحدة هي مجرد انعكاس للاخرى .

يمكن الملاحظة بأن المساعدات العسكرية وصفقات التسلح الاميركية لاسرائيل في ازدياد بعد ١٩٦٧ ، فالولايات المتحدة هي المصدر الرئيسي للاسلحة الى اسرائيل ، ففي آب (اوغسطس) ١٩٦٧ طلبت اسرائيل ما تزيد قيمته عن ١٥٠ مليون دولار من الطائرات خـاصة من طراز « فانتوم » التي تكلـف الواحدة منها مـا بين ٣ـ٤ مليون دولار ، و « سكاي هوك » التي تكلف الواحدة منها مليون دولار(٥٦). وقد رحب عدد من النواب بهذه الطلبات ، كما طالب هؤلاء بالافراج عن الاسلحة التي قد دفع ثمنها لكنها لم تسلم بسبب الحظر على الاسلحة . وزارت جولدا مئير الولايات المتحدة في أيلول (سبتمبر) على أمل الاسراع في رفع الحظر عن الاسلحة . وبموجب اتفاقية التسلح للعام ١٩٦٦ والتي وسعت في ١٩٦٨ وافقت الحكومة الاميركية على تزويد اسرائيل بطائرات سكاي هوك . وفي كـانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ اعلنت الادارة قرارها بتزويد اسرائيـل بخمسين طـائرة فانتوم التي تعتبر اكثر القاذفات المقاتلة الاميركية تطـورا ، على ان تسلم أول ١٦ طائرة في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ وبعد ذلـك يتم تسليم ٤ طائرات كل شهر . وبشكل عام أيد الكونجرس هـذا القرار ، فقط فولبرايت عبر عـن شكوكه بالنسبة لـه . ومن ١٩٤٨ الـى ١٩٦٧ زودت الولايـات المتحـدة اسرائيـل بمـا تتراوح قيمته بين ٢ و٣ مليار دولار من المعدات العسكرية(٥٧).

وبعد مباشرة حكومة نيكسون أعمالها تلقت طلبات من اسرائيل للحصول على مزيد من الاسلحة، رافقها رسائل من اعضاء الكونجرس تحث على قبول بيع الاسلحة لاسرائيل، وكان عدد من هؤلاء النواب يعتبرون « حمائم » بالنسبة لقضية فيتنام . وفي حزيران (يونيو) ١٩٧٠ وقـع سبعة اعضاء في مجلس الشيوخ ، بينهم مـاك جفرن ، أحـد الديمقراطيين الطامحين الى الرئاسة ، وهيوز وجوديل وكرانستون وهارت وايجلتون ويونج ، على رسالة مفتوحة موجهة الى نيكسون تحثه على بيع الاسلحة لاسرائيل . والمحت الرسالـة الى مواجهة في الشرق الاوسط كالتي حدثت اثنـاء أزمة الصواريخ الكوبية ، وذلك نتيجة للتواجد السوفياتي المتزايد في المنطقة(٥٨).

وفي ١٩٧١ عـرض على الكونجرس مشروع قـرار لتأكيد التأييد العسكري الاميركي لاسرائيل . وقد وافق مجلس النواب على تعديل جاكسون، الذي قدمه هنري جاكسون من واشنطن ومنح الرئيس بموجبه صلاحية مفتوحة لتحويل معدات عسكرية لاسرائيل دون أي تحديد للتكاليف الاجمالية . وهذا ، اذا ، شبيه بقرار تونكين الـذي ادى الى التورط العسكري الاميركي في فيتنام . وفي الحقيقة اعطـي للرئيس « كارت بلانش » ليتصرف كما يرى مناسبا بالنسبة لاي نزاع محتمل في الشرق الاوسط(٥٩). وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٠ ناقش مجلس الشيوخ قرارات الرئيس المحددة في هذا الصدد . واقترح السناتور جون وليامز من ديلاوير ادخال تعديل على مشروع قانون الاعتمادات الدفاعية يقضي بتقييد صلاحية الرئيس في مسألة ارسال قوات اميركية الى اسرائيل ، كما حدث في كمبودية ، الا بعد موافقـة الكونجرس . وقد ايد تشيرش ، عضو لجنة العلاقات الخارجية هذا التعديل ، كما أيده هاتفيلد ومانسفيلد وفولبرايت ، ولكنه هزم بنسبة ٦٠ الى ٢٠ صوتا في مجلس الشيوخ(٦٠).

وقد ظهر المزيد من الدعم الاميركي لاسرائيل من خلال طلب نيكسون تقديم مساعـدات اقتصادية وعسكرية الى الدول المستقلة . وقد خصص اكبر مبلـغ وهو ٥٠٠ مليون دولار الى اسرائيل(٦١). وقد اعرب عدد من « الحمائم » بالنسبة لقضية فيتنام مثـل جافيتس وبيرسي عن تأييدهم لتقديم مزيد من الاسلحة لاسرائيل . ورفضوا أي تخفيض في التغلغل العسكري الاميركي المباشر في الشرق الاوسط . وهكذا فان الولايات المتحدة في أقل من عشرين سنة انتقلت من موقع الزعم بعدم التدخل العلني في النزاع العربي ـ

الاسرائيلي الى أكبر مصدر للاسلحة الى اسرائيل . وقد أعرب الكونجرس بشكل عام عن ارتياحه لهذا التحـــول في السياسة العامة ، رغم ان ذلك كان جزءا لا يتجـــزأ من مواقف الادارة والنواب منذ ١٩٤٨ ، كما رأى معظمهم أن هذا التحول يخدم المصالح الاميركية العليا .

خاتمة

يكشف البحث في مواقف اعضاء الكونجرس من قضايا الشرق الاوسط درجة عالية من الارتباط بين اولئك الذين ينتقدون برامج الانروا والمساعدات الاميركية لها ، والذين في الوقت نفسه تبنوا موقفا صهيونيا متشددا بالدعوة الى زيادة المساعـــدات العسكرية الاميركية لاسرائيل . وينطلق هـــذا الموقف من ادراك هؤلاء النواب ان بقـــاء الشعب الفلسطيني يعرقل ، بـــل يمنع كليا ، اي حل للنزاع العربي ـــ الاسرائيلي قـــائم على الوجود الدائم لاسرائيل كدولة صهيونية بحتة. لذلك يريدون زوال الفلسطينيين كجماعة محددة قائمة بذاتهـــا . فما دام هناك مخيمـــات للاجئين الفلسطينيين يعيشون فيها في البؤس والشقاء فان قضية الفلسطينيين ستعرض كل سنة امام الجمعية العامة للامم المتحدة وامام الكونجرس كذلك . وهذا من شأنه ان يبقي موضوع الفلسطينيين ومـــا يجب القيام به تجاههم حيا في اذهان الجميع . ويعرب النواب الموالون للصهيونية بأنه اذا ما دمج الفلسطينيون في أي مجتمع آخر عندئذ لا يعود أمام اسرائيـــل ما تخشاه من عودتهم مع ما يرافق ذلك من اضطراب يخلقونه لدورة الحياة في اسرائيل . وكذلـــك يشعرون ان احتمال قبول الدول العربية بحقيقة وجود اسرائيل سيزداد باطراد . وفي الوقت نفسه ، يعرب هؤلاء النواب عن رغبتهم في بقاء اسرائيل قوية قـــدر الامكان من خلال المساعدات والدعم العسكري الاميركي . ونتج عن هـــذا الصراع الفلسطيني ـــ الصهيوني قيام بعض النواب الموالين للصهيونية من أمثال جافيتس وريبيكوف وسيللرز وهمفري وجود بالبحث عن افضل الوسائل لتقليص المساعدات الاميركية للانروا . فهم يريدون ازالة الفلسطينيين كعنصر اساسي في النزاع وفي الوقت نفسه زيادة الـــدعم العسكري الاميركي لاسرائيل . وكثيرا ما يؤكدون على قيمة عقد معاهدة عسكرية ما بين الولايات المتحدة واسرائيل لضمان بقاء هذه الاخيرة .

ويمكن للمراقب ان يشعر ان النواب الذين يدعون لهذه الآراء يتكلمون بصوت مسموع ويربطهم تنظيم متماسك . كما انهم يعرضون آراءهم لزملائهـــم النواب ، الذين ليس لمعظمهم معرفة أو مصلحة مباشرة في الشرق الاوسط ، بكل ذكـــاء وتحمس ، وبسبب النزر اليسير من المعرفة العامـــة بطبيعة الصراع الفلسطيني ـــ الصهيوني أو العداوة العربية ـــ الاسرائيلية وبنجاح الكتل النيابية الموالية للصهيونية بالاعلان عن ارائها ، كان موقف الكونجرس اكثر ما يميل الى تبني وجهة النظر الصهيونية . وبشكل عام تدعو هذه النظرة باستمرار الى توطين اللاجئين في الدول العربية . ويعتقد النواب انه يمكن بطريقة أو بأخرى ارغـــام اللاجئين على الاستيطان وذلـــك عن طريق تأمين أعمـــال أو أراض أو مستوى معيشة افضل لهم خارج المخيمات . ولما لم تنجح محاولات توطين الفلسطينيين اصبح النواب يضعون اللوم في ذلك على الزعماء العرب الذين يتهمونهم باستخدام الفلسطينيين لتحقيق مكاسب شخصية . ولا شك ان بعض الزعماء العرب فعلوا ذلك ، ولكن مشكلـــة الشعب الفلسطيني اعقد كثيرا مما يحلو لبعض النواب ان يتصورها . وعلى أي حال ، ليس لدى الكونجرس أية معلومات كافية حـــول طبيعة الصراع الحقيقية . وحتى ان اولئك النواب من امثال فولبرايت وجور الذين اعربوا عن تعاطفهم مع اللاجئين على اساس انساني لم يؤكدوا على المظالم التي يعيشها اللاجئون أو الاماني التي يريدون تحقيقها . كما ان الكونجرس لم يستفد كثيرا من المعلومات التي

كان يحصل عليها بين الحين والاخر . ومن جهة اخرى ، كانت وجهات النظر الاسرائيلية حول القضية الفلسطينية تعرض باستمرار وبشكل مطول امام الكونجرس الامر الذي جعل مناقشات الكونجرس ترتكز حول امكانيات توطين اللاجئين . وفي بعض الاحيان ، يحث النواب اسرائيل على قبول اعادة قسم من اللاجئين أو التعويض عليهم ، ولكن حتى هذه الآراء كانت عرضة للتنديد من قبل النواب الموالين للصهيونية ، والذين كانوا على استعداد لاخذ هذه الامكانيات بعين الاعتبار فقط ضمن تسوية سلمية شاملة .

وهكذا نرى ان اكثر من خطة قد وضعت ومولت واهمها مشروع جونستون الذي يستند الى الاعتقاد بأن زيادة الارض العربية المستثمرة ستفسح المجال امـــام توطين اللاجئين بسهولة . وما يبعث على السخرية هو أن اسرائيل كـــانت تعارض بعض هذه الخطط والمشاريع على اساس انها يمكن ان تحد من المساعدات المالية أو الثروات التي يمكن ان تتلقاها هي . وهذا هام لانه يتعلق بقضية توزيع المياه . ثم ان اسرائيل تخشى دائما ان تستفيد الدول العربية من بعض هذه المشاريع وتقوم بالتالي باستخدام ذلـــك ضد اسرائيل ، واقترح عدد اخر من النواب تعليم اللاجئين او تنفيذ غير ذلك من البرامـــج الاصلاحية وذلك لتنمية مهارات اللاجئين لكي يتمكنوا من العمل في الدول العربية ، ولما فشلت جميع هذه المشاريع في تحقيق التوطين المأمول ، اقترح السماح للاجئين ، بـــل وتشجيعهم ، على الاقامة خارج الشرق الاوسط . وقد تلقى النواب هذا الاقتراح بكل فتور خاصة عندما حددت الولايات المتحدة كالبلد الذي يمكن أن يستوطن فيه اللاجئون الفلسطينيون . وفي فترات معينة اقترح أن تحاول الولايات المتحدة فرض التوطين عـــن طريق التهديد بقطع جميع المساعدات المالية. وعلى اي حال ، ليس لمثل هذه المقترحات اية قيمة عملية اذا كانت الولايات المتحدة راغبة في المحافظـــة على علاقاتها بالـــدول العربية وخاصة الحكم الملكي الاردني الموالي للغرب والذي يشكل الفلسطينيون غالبية شعبه ، وكذلك تفتقد هذه المقترحات القيمة الانسانية المطلوبة .

ولهذه الاسباب مجتمعة استقر رأي الكونجرس على ان الرد الضروري رغم انه غـــير مرغوب فيه هو استمرار المساعدة السنوية . وعلى اي حال ، حاولوا تخفيض هـــذا المبلغ قدر الامكان ، كما ارادوا دائما ان يتأكدوا بأن الفلسطينيين لا يتعاطون السياسة، فأية اشارة بأن الفلسطينيين ينضمون للمنظمات الفدائية أو الاحزاب السياسية كـــافية لاثارة الصيحات العالية المطالبة بوقف المساعدات أو بالتحقيق في جدوى الاموال التي تصرف للانروا .

وفي الكونجرس كتلة من النواب الموالين للصهيونية يشعرون بالتزام نحو اسرائيل من خلال روابط دينية أو ثقافية ، ومن الواضح انهم يعارضون اية سياسة اميركية يمكن ان لا تكون لصالح اسرائيل ، ويحاولون في أية مناسبة العمـــل لعقد تحالف اميركيـــ اسرائيلي . ويتخذ تأييدهم شكلا عاطفيـــا ، ولكن في حين يعبرون عن هذا التأييد بتعابير عاطفية ، يؤكدون ان مساندة اسرائيل تخدم المصالح الاميركية العليا . وكـــان النواب الموالون الصهيونية يدركون جيدا ان مجرد التأييد العاطفي لليهود ، خاصة في اعقاب المجازر التي حدثت في اوروبة تحت الحكم النازي ، ليس كافيا للمحافظة على التأييـــد النيابي أو الحكومي لاقامة دولة صهيونية في قلب الوطن العربي . وبدلا من ذلك ، كان التأييد الاميركي لاسرائيل يستند الى حقائق سياسية واقتصادية براجماتية . لذلـــك كانوا يؤكدون على ان اسرائيل قلعة يمكن الاعتماد عليها للمحافظة على المصالح الغربية والاميركية ، وعندمـــا كانت الحرب الباردة في اوجهـــا اثناء عهد ايزنهاور كان ينظـــر لاسرائيل باستمرار كرادع في وجه التوسع السوفياتي في الشرق الاوسط ، الامر الذي يوجب الاهتمام بالمحافظة على قوة جيشها وفعاليته .

وفي البدء كانت هنالك كتلة صغيرة من النواب الجنوبيين الذين كانوا يعتقدون بضرورة المحافظة على التحالفات الاميركية في العالم العربي . كما كانوا يؤكدون بأن تأييد اسرائيل سيبعد العرب عن اميركة ويضطرهم الى التقرب من الاتحاد السوفياتي . ولما فشلت المحاولات ، كحلف بغداد ، لوضع الدول العربية في الفلك الغربي ولما اصبح ينظر للحياد كسياسة سلبية معادية للغرب ، اعاد هؤلاء النواب النظر في مواقفهم . واخيرا اصبحوا من دعاة تقوية اسرائيل وتجهيزها عسكريا ، فمثل هذه الدولة يمكن ان تدافع عن المصالح الاميركية في الشرق الاوسط ، وكان الكونجرس ايضا يعمل لمنع انتشار نفوذ الحكومات الاشتراكية العربية التي غالبا ما كانت تؤمم الشركات الاميركية او تتبع سياسات تعتبر حجر عثرة في وجه المصالح الاقتصادية الاميركية .

وكانت مواقف النواب معادية جدا لعبد الناصر الذي كان يعتبر اكبر داعية ضد الامبريالية الاميركية ولايجاد انظمة عربية اشتراكية محايدة . وللوقوف في وجه اي توسع ناصري في العالم العربي زودت اسرائيل والحكومات العربية الموالية للغرب بمزيد من الاسلحة الاميركية . أي ، انه في حين كان ينظر الى القومية العربية ، كما كان يجسدها عبدالناصر بشكل خاص . على انها تهديد للمصالح الاميركية ، كانت الصهيونية تعتبر وثيقة الصلة بالمصالح الغربية . وهكذا فان التأييد الاميركي لاسرائيل كان ، على الاقل ، مدفوعا بالرغبة في المحافظة على النفوذ الغربي في الشرق الاوسط وكذلك للوقوف في وجه انتشار الانظمة العربية المستقلة استقلالا حقيقيا .

وبشكل سريع ، يجدر ان نذكر ان عددا من اعضاء مجلسي الشيوخ والنواب الذين كانوا يغالون في عدائهم للعرب كانوا ينتخبون مرة تلو الاخرى . وهذه المدة الطويلة تسمح لهم بأن يصبحوا اعضاء في اللجان النيابية او تفسح الطريق أمامهم لتسلم مناصب حكومية عالية . ومن ابرز النواب الموالين للصهيونية سيللرز وجافيتس وهمفري .

واخيرا ، يجدر ان نذكر ان ادارة جونسون ونيكسون بعده كانت تحاول اتباع سياسة ربط المصالح الاميركية في فيتنام بالمصالح الاميركية في الشرق الاوسط ، وذلك في محاولة لتنفيس المعارضة البرلمانية لمزيد من التورط العسكري والمالي الاميركي في فييتنام بالاشارة الى ان مثل هذه المقترحات بتخفيض الاعتمادات المالية يمكن ان تؤثر كذلك على كمية المساعدات التي تتلقاها اسرائيل . وقد نجح هذا التكتيك الى حد ما . ولمواجهته ، حاول عدد من النواب ، حتى « الحمائم » بالنسبة لفيتنام ، ايجاد اقنية بديلة لمد اسرائيل بالمساعدات العسكرية الاميركية . وهذا في الحقيقة يعني انه في حين اصبح عدد من النواب مقتنعين بأن التورط الاميركي في فيتنام هو ضد المصالح الاميركية العليا ، اصبح هؤلاء كذلك مقتنعين بل وملتزمين بمقولة ان استمرار بقاء اسرائيل هو لخدمة المصالح الاميركية العليا . وهذا ما يفسر كون الولايات المتحدة بعد ١٩٦٧ اكبر مصدر للاسلحة الى اسرائيل . ولم يقدم اي مشروع قرار للحد من اي تدخل عسكري اميركي مباشر في المستقبل لصالح اسرائيل . وهكذا يبقى الباب مفتوحا — كما كان في جنوب شرق آسية — لتورط اميركي عسكري مباشر في الشرق الاوسط .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول نشاطات الامم المتحدة لمساعدة اللاجئين الفلسطينيين ، انظر ، مايكل ي. جنسن ، **الولايات المتحدة والشعب الفلسطيني** ، (بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٠) ، وكتاب جون هـ. ديفيز ، **السلام المراوغ** ، (لندن ، جون ميوراي ، ١٩٦٩) — وكتاب فريد ج. خوري ، **المأزق العربي — الاسرائيلي** ، (سيراكيوز ، مطبعة جامعة سيراكيوز ، ١٩٦٨) .

(٢) **الكتاب السنوي للامم المتحدة** ، ١٩٤٩ .

(٣) الولايات المتحدة ، **سجلات الكونجرس** ، مجلس النواب ، فرانسيس بولتون (جمهوري

من ولاية اوهايو) ، ١٩ ايار (مايو) ١٩٥٢ ، مجلس النواب ١٧ آب (اوغسطس) ١٩٥١ ،

(٤) **المصدر نفسه** ، مجلس النواب ، ١٧ آب ١٩٥١ .

(٥) **المصدر نفسه** .

(٦) **المصدر نفسه** ، ١٠٢٦٩ .

(٧) **نيويورك تايمز** ، ١٤ شباط (فبراير) ١٩٥٤ .

(٨) لمزيد من التفاصيل الاحصائية حول تحيز هذه الصحف ، انظر مقالة ، جانيس تيري ، (النزاع العربي–الاسرائيلي : تحليل لمحتويات ثلاث صحف اميركية ، كل اربع سنوات ، ١٩٤٨–١٩٦٨ ،) من كتاب ، **العالم العربي : من القومية الى الثورة** (ايفانستون ، مطبعـة جامعـة مدينه الدولية ، ١٩٧١) .

(٩) يشغل سيللر الذي يبلغ ٨٣ سنة من العمر منصب رئيس اللجنة القضائية في مجلس النواب الاميركي . وقد عرف عن مؤسسته القضائية بأن تمارس القضاء من بابين ، وذلك لان لها بابين ، الاول مكتوب عليه اسم سيللر ، والاخر بدونه ، وذلك لجذب الزبائن الذين لهم قضايا فيدرالية ، **باراید** ، ٧ اذار ١٩٧١ .

(١٠) الولايات المتحدة ، **سجـلات الكونجرس** ، مجلس الشيوخ ، ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٥٧ ، ولمزيد من التفاصيل حول مشروع جونستون الذي تبنته ادارة ايزنهاور والذي نتـج عنه مشاريـع مضادة قدمتها اسرائيل والاردن، انظر : جورجيانا ج. ستيفنز ، **تقسيم مياه نهر الاردن** (ستانفورد ، مؤسسة هوفر ، ١٩٦٥) .

(١١) **المصدر نفسه**، ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، ١٣٠١١.

(١٢) **المصدر نفسه** ، مجلس النواب ، ١٠ مايو ١٩٥٩ .

(١٣) **الكتاب السنوي للامم المتحدة** ، ١٩٦٠ .

(١٤) الولايات المتحدة ، **سجـلات الكونجرس** ، مجلس الشيوخ ، ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، ١٣٠١٧ .

(١٥) **المصدر نفسه** .

(١٦) **المصدر نفسـه** ، ١٧ اغسطـس ١٩٦١ ، ١٦١٨٥ .

(١٧) **المصدر نفسه** ، مجلس النواب ، ١٧ و ٢٢ أوغسطس ١٩٦١ ، و ٢٨ اذار ١٩٦٣ .

(١٨) **نيويورك تايمز** ، ١٨ مايو ١٩٦٠ .

(١٩) الولايات المتحدة ، **سجـلات الكونجرس** ، مجلس النواب ، ٢٤ آب ١٩٦٥ ، ٢١٦٢٠ .

(٢٠) **نيويورك تايمز** ، ١٩ آب ١٩٩٢ .

(٢١) الولايات المتحدة ، **سجلات الكونجـرس** ، مجلس النواب ، ٢٤ آب ١٩٦٥ ، ٢١٦٢٢ .

(٢٢) **المصدر نفسه** ، ٢٥ آب ١٩٦٥ ، ٢١٨٥٨ .

(٢٣) **الكتاب السنوي للامم المتحدة** ، ١٩٦٦ .

(٢٤) الولايات المتحدة ، **سجـلات الكونجرس** ، ٩ و ٢٠ شباط ١٩٦٧ .

(٢٦) **المصدر نفسه** ، مجلس النواب ، ٥ يونيو ١٩٦٧ .

(٢٧) **المصدر نفسه** ، مجلس النواب ، ١٥ يونيو ١٩٦٧ ، ١٦٠٩٧ .

(٢٨) **المصدر نفسه** ، مجلس الشيوخ ، ١٢ يوليو ١٩٦٧ ، ١٨٥٠١ .

(٢٩) انظر الكتب السنوية الصادرة عن الامـم المتحدة خلال هذه السنوات .

(٣٠) الولايات المتحدة ، **سجـلات الكونجرس** ، مجلس الشيوخ ، ١٠ اكتوبر ١٩٦٧ .

(٣١) **المصدر نفسه** ، ٢٤ آب ١٩٧٠ ، ١٤٠٥٣ . وكان ريبيكوف هو الذي تزعم حملة الاسئلة التي وجهت الى فولبرايت خلال القائه خطابه . وهناك عدد من الجمعيات مثل : اللجنة الاميركية من اجل العدالة في الشرق الاوسط ، في بولدر بكولورادو، تنشر بشكل دوري معلومات حول مواقف اعضـاء الكونجرس بالنسبـة للشرق الاوسط . وهـذه المنشورات ذات فائدة خـاصة لتجميع احـدث المعلومات بالنسبة لبيانات النواب عن الشـرق الاوسط .

(٣٢) **تقرير المفوض العام للانروا** ، تموز ١٩٦٩ — ٣١ يونيو ١٩٧٠ ، ملحق رقم ١٣ (أ/٨٠١٣) ، ص ص ٨٩–٩٢ .

(٣٣) أحمد رفعت الكاشف ، **الولايات المتحـدة والتسلح العربي الاسرائيلي** ، مركـز الابحاث في م. ت. ف.، بيروت ١٩٦٩ ، ولمزيد من التفاصيل حول المساعدات العسكرية للشرق الاوسط بشكل عام ، انظر : ج. سي. هورفيتز ، **السياسة في الشرق الاوسط : البعد العسكري** ، (نيويورك ، برايجر ، ١٩٦٩) .

(٣٤) **نيويورك تايمز** تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٥١/٢٦ .

(٣٥) **المصدر نفسه** ، ١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢.

(٣٦) **المصدر نفسه** ، ٦ أيـار (مايو) ١٩٥٣ .

(٣٧) **المصدر نفسه** ، ٧ آذار (مارس) ١٩٥٤ .

(٣٨) **المصدر نفسه** ، ١٧ آيار (مايو) ١٩٥٥ .
(٣٩) **المصدر نفسه** ، ١٩ حزيران (يونيو) ١٩٥٥.
(٤٠) الولايات المتحدة ، **تقارير الكونجرس** ، مجلس الشيوخ ، ١ شباط (فبراير) ١٩٥٦ .
(٤١) **نيويورك تايمز** ، ٢٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٦ .
(٤٢) **المصدر نفسه** ، ٧ شباط (فبراير) ١٩٥٦ .
(٤٣) **المصدر نفسه** ، ٢٠ آيار (مايو) ١٩٥٦ .
(٤٤) **المصدر نفسه** ، ٢٥ ديسمبر ١٩٥٧ ، وصحيفة **كريستيان سينس مونتور** ، ١٤ يوليو ١٩٦٦ .
(٤٥) الولايات المتحدة ، **تقارير الكونجرس** ، مجلس الشيوخ ، ٧ فبراير ١٩٥٧ ، ١٧١٦ .
(٤٦) **نيويورك تايمز** ، ٢٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٢ .
(٤٧) الولايات المتحدة ، **تقارير الكونجرس** ، مجلس الشيوخ ، ٣٠ ابريل ١٩٦٣ ، ٧٣٣٩ .
(٤٨) **المصدر نفسه** .
(٤٩) **المصدر نفسه** ، مجلس النواب ، ١٠ اغسطس ١٩٦٥ .
(٥٠) **نيويورك تايمز** ، ٢١ مايو ١٩٦٦ .
(٥١) **المصدر نفسه** ، ١٩ يوليو ١٩٦٧ .
(٥٢) **نيويورك تايمز** ، ٢٤ مايو ١٩٦٧ ، الولايات المتحدة ، **تقرير الكونجرس** ، ٢٤ مايو ١٩٦٧ .
(٥٣) الولايات المتحدة ، **تقرير الكونجرس** ، ٢٥ مايو ١٩٦٧ .
(٥٤) **المصدر نفسه** ، ٣١ يوليو ١٩٦٧ .
(٥٥) **المصدر نفسه** ، مجلس الشيوخ ، ٩ نيسان (ابريل) ١٩٦٧ ، ٢٢٠٩١ .
(٥٦) **نيويورك تايمز** ، ٧ آب (اغسطس) ١٩٦٩ .
(٥٧) **كريستيان سينس مونتور** ، ٣١ يناير و ٧ فبراير ١٩٧٠ .
(٥٨) **نيويورك تايمز** ، ٢ يونيو ١٩٧٠ .
(٥٩) الولايات المتحدة ، **تقارير الكونجرس** ، ٢٨ و ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠ .
(٦٠) **المصدر نفسه** ، ١٥ ديسمبر ١٩٧٠ ، **تايمز** (اللندنية) ، ٥ فبراير ١٩٧١ .
(٦١) الولايات المتحدة ، **تقرير الكونجرس** ، ١٨ نوفمبر ١٩٧٠ .

الريف الفلسطيني قبل الحرب العالمية الاولى

نبيل بدران

شهدت الدولة العثمانية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر تحولا اقتصاديا كبيرا مهد الطريق للتحولات السياسية المهمة التي حصلت قبل الحرب العالمية الاولى مباشرة . حدثت هذه التحولات الاقتصادية نتيجة تطبيق التنظيمات الادارية والمالية الجديدة وتحت ضغط القوى الاوروبية المستقوية على « الرجل المريض » . وكان تفاعل هذه العوامل قويا في جنوب سوريا « فلسطين » لوضعها الجغرافي — الاقتصادي والديني — السياسي . اتجهت الاطماع اليها لوضعها الاستراتيجي وللغلاف الديني القادر على احتواء هذه الاطماع . وسيقتصر البحث الحالي على تحليل المجتمع الفلاحي وتطوره تحت ضغط العوامل السالفة الذكر . وسنسعى الى مناقشة عدة نقاط : لماذا كانت فلسطين قليلة السكان نسبيا ؟ لماذا كان قسم كبير من سهول وسواحل فلسطين غير مستغل زراعيا ؟ هل كانت كفاءة الفلاح الفلسطيني بدائية كما تصورها المزاعم الصهيونية ؟ هل نمت الزراعة اليهودية — الصهيونية باستقلال تام عن الزراعة العربية غير محتاجة لتقنية الفلاح معتمدة فقط على العلم الزراعي الحديث ؟ ولن يطرح الجواب على هذه الاسئلة مستقلا عن تطور العلاقات الاجتماعية في المجتمع الريفي الفلسطيني . بل سيكون الجواب دراسة مقتضبة ولكن شاملة لوضع وتطور العلاقات الاجتماعية في الريف الفلسطيني ووضع المجتمع الريفي عامة ، اذ نريد لهذه الدراسة المساهمة في تحليل الاسباب التاريخية لبعض جوانب مسلك الفرد العربي الفلسطيني .

جغرافية فلسطين : يقع القطر الفلسطيني على حافة الصحراء العربية ، فهو قسم من الشريط الزراعي السوري الضيق والخاضع لمناخ البحر الابيض المتوسط والممتد من غزة جنوبا حتى الاسكندرونه شمالا . وفي حال اضافة المناطق القاحلة العديمة او قليلة المياه الى الصحراء الاصلية نجد ان هذه تصل الى مشارف غزة والخليل وعمان واربد . بل وصلت الصحراء بمفهومها الحضاري وقبل الاستقرار السياسي الى مشارف نهر الاردن وتخطته في عدة اماكن . وتعتمد فلسطين في صمودها امام زحف الصحراء على السلسلة الجبلية الغربية لنهر الاردن والتي تحتوي اهم مدن فلسطين واقدمها صمودا . كما تعتمد وبشكل أقل على هضبات الجليل وقممه . ونتيجة لمناخ البحر الابيض المتوسط يشمل موسم الامطار اكثر من نصف مساحة فلسطين والذي يصل معدله في اعالي جبال نابلس والجليل نحو ٨٠٠ مم في السنة ، بينما يصل متوسط كمية المطر السنوية في جميع مناطق المطر حوالي ٥١٨ مم . تساهم الامطار الغزيرة مع المياه المتفجرة والجارية في ينابيع وأنهر في ارواء سهول فلسطين الثلاثة ١) السهل الساحلي ويمتد من الناقورة شمالا حتى رفح جنوبا ، يضيق في اماكن ويتسع في اماكن اخرى ، يفصله الكرمل ورأس حيفا الى قسمين : القسم الجنوبي ويسمى الساحل الفلسطيني والقسم الشمالي ويسمى سهل عكا ، ٢) غور الاردن يبدأ في منخفض الحولة ليصل الى البحر الميت ، ٣) ويفصل سهل مرج بن عامر والسهول الصغيرة الاخرى مثل سهل البطوف جبال

الجليل عن جبال نابلس وتسهل هذه السهول حركة الاتصال بين الاغوار وشرق الاردن والساحل . ونتيجة للمنحدرات القوية ونتيجة لكثافة الامطار في بعض الاشهر ، تجري كميات هائلة من المياه في الوديان العديدة وتولد في حال اهمال الزراعة وتصريف المياه مستنقعات في السهول . وشهدت فلسطين في العصور الاخيرة حين تراجعت الزراعة نتيجة عدم استتباب الامن مستنقعات كبيرة شملت منطقة الحولة وبيسان وسهل عكا والسهل الفلسطيني خصوصا بين صرفند شمالا وعرسوف جنوبيا . ويساهم الشريط الرملي الساحلي والمرتفع في كثير من الاحيان في حصر المياه الوافدة من الجبال وكذلك مياه الينابيع العديدة المتواجدة على الساحل وهكذا نشأت المستنقعات الشاسعة .

يلعب المناخ دورا اساسيا في توجيه الزراعة ، حيث يؤثر عليها ويفرض على الفلاح طريقة عمل خاصة . واهم عوامل المناخ هي المطر ودرجة الحرارة والرياح والتبخر وبشكل أقل رطوبة الجو . يبلغ متوسط الامطار السنوية في فلسطين حوالي ٥١٨ مم يهطل ٨٧ في المائة منها بين شهري كانون الاول ونيسان ، اي انه ضمن الشروط العادية تبلغ كمية الامطار الهاطلة خلال نمو القمح ٤٥١ مم(١) . ويميز الفلاحون ثلاث موجات من المطر : المطر الباكر في شهر تشرين الثاني ، المطر الشديد خلال اشهر كانون الاول وكانون الثاني وشباط والمطر المتأخر في اواخر نيسان(٢) .

تقع فلسطين عموما في محيط مناخ البحر الابيض الذي يمتاز بالاعتدال ، لكن التضاريس الطبيعية القوية تخلق تفاوتا في الحرارة : يبدأ الحر باكرا في الاغوار ثم في السهول الثلاثة المذكورة اعلاه واخيرا في المناطق الجبلية وما تحتويه من سهول داخلية . ولا تعرف سوريا الساحلية عامة وفلسطين خاصة الا فصلين فبعد فصل الامطار يأتي مباشرة فصل الحر . فنتيجة لارتفاع درجة الحرارة وتحت تأثير انخفاض الرطوبة ومجيء الرياح الشرقية ترتفع نسبة تبخر الارض . وتحدث هذه الظاهرة على الاخص في اوائل الربيع ، وتزيد الرياح الخمسينية من سرعة التبخر . وبسبب ارتفاع نسبة الرياح الغربية خلال شهري حزيران وتموز ترتفع الرطوبة ، مما يساعد على هطول الندى وهذا يساعد في ري المزروعات الصيفية .

وقبل الانتهاء من هذا العرض السريع للجغرافية الطبيعية لفلسطين يستحسن ذكر الغابات وقد كانت حتى منتصف القرن الماضي تغطي مساحات شاسعة وبقي قسم وفير منها حتى الحرب العالمية الاولى . يظهر من خارطة صندوق استكشاف فلسطين (Palestine Exploration Fund) وجود مناطق شاسعة من الغابات في الجليل وفي المنطقة الممتدة بين جبل الكرمل وجبال نابلس وفي سهل طولكرم واشتهرت المنطقة بصنع الفحم وسميت قريتان نسبة الى هذه الصفة وهما « ام الفحم » و « فحمه » . وتقع القريتان في المنطقة الشعراوية الممتدة في كل من قضاءي طولكرم وجنين . وسميت هذه المنطقة « الشعراوية نسبة الى (الشعراء) وهي الارض او الروضة الكثيرة الشجر »(٣) . وفي الماضي كانت تمتد غابة كثيفة من عرسوف — سيدنا علي حتى عكا . وحتى عام ١٩٠٩ كان يوجد بقايا من غابة السنديان هذه ، وقضي على القسم الاكبر منها خلال الحرب العالمية الاولى(٤) . ولكن قبل النمو السريع للمدن كانت مساحة الغابات في المنطقة الممتدة من الجليل الاعلى حتى مستوى جنين ١٣،٤ في المائة من مساحة المنطقة(٥) . استهلك نمو المدن بما اوجده من حركة بناء وتدفئة كميات كبيرة من الخشب والحطب والفحم واستهلك بناء سكة الحديد وتسييرها كميات اخرى .

الجغرافية الانسانية لفلسطين قبل التنظيمات الجديدة : عاشت سوريا قبل تحقيق التنظيمات الجديدة ، والتي صدرت في الحقبة ما بين ١٨٥٢ و١٨٧٦ ، مثل باقي اقطار السلطنة العثمانية في شبه حكم ذاتي ، مرجعه ضعف السلطنة المركزية ومقابل ذلك

سيطرة نفوذ الولاة . ودخل هؤلاء بدورهم في حروب محلية سعيا وراء توسيع منطقة نفوذ الواحد منهم على حساب الاخر . ولذا تميزت تلك الحقبة بصراع دائم بين الولاة تتخلله تحالفات فيما بينهم او مع العشائر القروية او القبائل البدوية ضد اطراف اخرى من ولاة او زعامات محلية او بدوية . وانعـدم الامن اثر ذلـك . وساهمت الـدولة العثمانية بدورها في زرع الفوضى بضعفها وبامتناعها عن بناء شبكة مواصلات توفر الحركية لقوات الجند . وانعزلت المناطق عن بعضها ونشأت تجمعات سكانية منفصلة، تقف بينها الجبال الوعرة والمستنقعات الكثيفة . ويحدثنا الرحالة تومسون(٦) وقد زار فلسطين مرتين (عام ١٨٣٥ و١٨٥٩) عن خطورة التجول في كثير من ربوع فلسطين . اذ كان السـفر بواسطة الدواب يأخذ وقتا طويلا . وكما ذكر سابقـا اعتمد الولاة في خلافاتهم الدامية على العشائر القروية وخصوصا على القبائل البدوية المتعاظم شأنها لمرور طريق الحج في أراضيها وصعب على الدولة العثمانية اخضاعها والقيام بجردات ضدها لمحاذير فشلها . فقد ينتقم البدو من قافلة الحج فيهتز اثر ذلك كرسي الوالي بل عرش السلطان(٧) . وكانت قبيلة الروالة وخصوصا بني صخر اخطر القبائل السورية . عمدت الدولة العثمانية الى دفع الخوة الى هذه القبائل مما شجعها على ابراز سطوتها، وحتى الى تقوية نفوذها من خلال ربط العشائر الصغيرة بها . وكان من جراء سطوتها هذه اكتساحها لسهول فلسطين وهضبات الجليل . فهرب الفلاحون الى الجبال حيث تتوفر الحماية الطبيعية والجماعية . ويتأكد لنا هذا الوضع من خلال القاء نظرة على خريطة بعثة صندوق استكشاف فلسطين التي وضعت بين ١٨٧٢ و ١٨٧٨ ، اذ نرى ان سهول فلسطين وخاصة المنطقة الممتدة بين يافا وغزة لا تحضن الا عددا قليلا جدا من القرى ، بينما تقع معظم القرى في أعالي او منحنيات الجبال والهضبات . ويؤكد ذلك احد اعضاء البعثة « تتواجد معظم قرى فلسطين في المنطقة الجبلية »(٨) . ويصف غرانت نمط بناء القرى الجبلية لاضافة مزيد من المقدرة الدفاعية بقوله « شيدت البيوت في القرى الصغيرة بمحاذاة بعضها بعضا ، كأبنية المدينة وتبدو القرية هكذا وكأنها قسم مشطور عـن المدينة »(٩) . وفي كثير من الاحيان كان بيت شيخ القرية يعلو البيوت الاخرى ويستعمل كبرج للمراقبة ، لينذر الحارس الفلاحين العاملين في الحقول المجاورة في حال حدوث اي طارىء .

بعد استتباب الامن خلال الحقبة الاولى من عهد ابراهيم باشا نزح قسم من الفلاحين الى السهول واعادوا تشييد قراهم السابقة . ولكن بعـد خروج ابراهيم باشا وانتشار الفوضى مجددا في سوريا والتي ساهمت في اشعال نارها الحـروب القيسية اليمنية ترك هؤلاء الفلاحون قراهم في السهول وصعدوا الى المرتفعات . ويقـدم الرحـالة تومسون امثلة على ذلـك . فقريتا العفولة والفولة في مرج بن عامر والتي شاهدهما مزدهرتين حوالي عام ١٨٣٥ اصبحتا عام ١٨٥٩ خرابا . وكذلك شاهد في حالة خراب كامل قرية المقيبلة وفي شبه خراب قرية حكمه وتقعان قرب جنين جهة المرج . وكانت مدينة بيسان قرية صغيرة تحتوي على حوالي الف نسمة(١٠) . عانى الفلاحون الذين بقوا في السهول وضعا سيئا : وجب عليهم دفع الخوة الى البدو وتحمـل في نفس الوقت غطرستهم التي وقفت حائلا دون تحذير احد منهم لعبثه بالمزروعات . فحتى عام ١٨٧٨ كانت طبريا تدفع خوة لاحد شيوخ بني صخر . وكانت قرية الجاعونة في الجليل الاعلى تدفع خوة الى الوحش شيخ عرب الزنغرية(١١) . واما بدو الروالة فكانوا يجتاحون حوران ويضطهدون فلاحي قرية جب يوسف في الجليل الاعلى وبيت جن ويفنيل في الجليل الادنى(١٢)، بل كانت مدينة الناصرة نفسها معرضة لغزوات البدو . يذكر القنصل فين عن غزوة بدوية على الناصرة والقرى المجـاورة ، ان مجمل ما خسرته من حيوانـات وعلف ومتاع بلغ حوالي ٢٠٠ الف قرش(١٣) .

عاشت فلسطين ترونا في هذا الوضع المتدهور . واثر اخلاء السهول من الفلاحين دخلت بعض القبائل واستوطنت هناك تستغلها كمراع مع توجه قليل شطر الزراعة . هكذا جاء عرب ابو كشك وقطنوا نهر العوجا واستولى عرب الحوارث وعرب النفيعات على المنطقة الممتدة بين القيصرية ونهر الفالق في السهل الساحلي الفلسطيني . واستوطنت عشائر اخرى في سهل مرج بن عامر وسهول الجليل الادنى . وكانت عشائر مرج بن عامر تقطع بدورها المرتفعات المنخفضة الفاصلة جبل الكرمل عن جبال نابلس للانتقال الى الساحل الفلسطيني الجنوبي وكان بعضها مثل عرب التركمان يصل حتى القيصرية(١٤). وشعرت هذه العشائر شبه البدوية في مناخ الفوضى بحرية الحركة ، باسطة سلطتها على المنطقة ، فارضة الخوة على المارة او معرضة اياهم للسلب ، بل للموت . وكان على قسم من هذه العشائر شبه البدوية بدورها دفع خوة لقبائل شرق الاردن خصوصا لبني صخر . بينما دخل قسم آخر في تحالف مع القبائل القوية وما يترتب عن ذلك من تضامن في الحروب والغزوات القبلية .

نتج عن الاضطهاد الدائم من قبل القبائل البدوية للفلاحين سكان المناطق المتاخمة للصحراء تحول قسم كبير من هؤلاء الى حياة البداوة ، اي انهم تركوا الزراعة ارتباطا بالرعي وما يتطلب ذلك من تنقل . ويساهم هذا الوضع في سرعة التنقل والهرب من وجه بدو الصحراء . تقلصت اثر ذلك الارض الزراعية لصالح الرعي(١٥). ولما كان الرعي وما يرافقه من عمل زراعي هامشي لا يستطيعان اعالة كثافة سكانية معينة ، تقلص عدد السكان حسب معادلة التوازن بين الانتاج والسكان في المجتمعات المعزولة . وتتحقق هذه المعادلة من خلال سوء التغذية وهبوط المستوى الصحي نتيجة هبوط مستوى الوضع السكني .

ان القاء اي نظرة الى جغرافية التوزع السكاني في ذلك الوقت كما نشاهده على خارطة صندوق استكشاف فلسطين يوحي بالصورتين الاساسيتين الاتيتين : الصورة الاولى التي ذكرت سابقا انتشار القرى الصغيرة والكبيرة على المرتفعات المشرفة على السهول او على منحدراتها المحصنة جغرافيا . اما الصورة الثانية فهي تجمع الاماكن المأهولة حول مدن كبيرة نسبيا ويتواجد القسم الجبلي منها مثل القدس ونابلس والخليل ضمن او على حافة سهول داخلية تمثل هذه المدن قطبا للقرى المحيطة بها . ويربط هذه المدن وكذلك المدن الساحلية طرق بدائية لا تكاد تصلح حتى للدواب والجمال، مملوءة بالحجارة لتساعد الحيوانات على تسلق الجبال . واحتوت المنطقة الجبلية الخصبة الممتدة من منطقة نابلس حتى بيت لحم على قسم كبير من القرى الفلسطينية . لكن صعوبة الاتصال بين المناطق الجبلية فرض العزلة على كثير من التجمعات القروية .

كان تعداد المدن الفلسطينية القطبية في أواسط القرن الماضي محدودا . وكان قسم منها مثل نابلس وخصوصا الخليل مدنا زراعية يملك سكانها اراضي زراعية . في عام ١٨٥١ كان تعداد سكان القدس اكبر المدن الفلسطينية ٢٣٥٠٠ شخص(١٦). لذا كانت امكانية تسويق المنتجات الزراعية محدودة جدا ، تنحصر في المنتجات غير المعرضة للتلف كبعض انواع الحبوب مثل القمح والشعير والسمسم ، والزيت والصابون والزبيب والبطيخ . ولم يكن يتوافر سوق واسع لتسويق المنتجات الطازجة مثل الخضار والفاكهة . ومع انه حصل تبادل اقتصادي مع بدو الصحراء لكنه كان هامشيا لا يؤثر على مجمل الوضع الاقتصادي . في اطار هذه الظروف اتسم طابع الاقتصاد بالاكتفاء الذاتي ، يتجسد في انتاج محدود يمليه الجو المناخي للمنطقة الذي لا يتطلب تجهيزا منزليا وانتاجيا عاليا ، عكس جو الصقيع والمطر الدائم الذي يحث على توسيع دائرة الانتاج وما ينتج عنه من شبه تقسيم للعمل .

المجتمع الريفي قبل التنظيمات الجديدة :

سبق لكاتب المقالة أن بحث في كتاب « التعليم والتحديث »(١٧) بتوسع عن الاقطاع التقليدي اي الذي كان شائعاً حتى العقد الرابع من القرن الماضي . جمع هذا الاقطاع بين وظيفة جمع الضريبة من الفلاحين وواجب تزويد الدولة بفرق من المقاتلين المحليين . لم يشرف الوالي مباشرة على ارجاء ولايته بل ترك الامر لزعماء المجموعات المحلية اشرف كل واحد منهم على عدة قرى . وتنبع زعامتهم من ترؤسهم لاقوى العائلات في المنطقة والتي ترتبط معها العائلات او « الحمائل » الاخرى في وحدة الدفاع الذاتي كما ذكر سابقا . ونشأت هذه الوحدة لكون أراضي القرية مشاعا تتطلب تفاهما عاليا بين حلقات المجتمع القروي الضيق . وكانت الزعامة وراثية ارتباطا بنفوذ الحمولة الناقذة ، ولذا تطور الاقطاع الى تسلط من قبل هذه العائلات على الفلاحين ، وتخلى أفراد الحمولة المتزعمة عن العمل الزراعي المباشر ، تاركين على عاتق الفلاحين زراعة الارض وحمل وزر ضريبة العشر . ولما كان « الاقطاعجي » يحصل على نسبة معينة من العشر سعى الى ضبط عملية التحصيل مستعينا اولا بقوة حمولته ومستعينا ثانيا بشروط الحماية الذاتية الموجبة للتفاهم مع العائلة الحاكمة . فاعتمد على تحصيل العشر من القرية على شيخ القرية ، الذي اعتمد بدوره على « مجلس الاختيارية » لتحديد نسب دفع العشر ، ويتلاءم هذا الانتداب مع طريقة حكم القرية اذ ان مجلس الاختيارية برئاسة الشيخ يحكم جميع جوانب حياة القرية(١٨)، وذلك اعتمادا على الشريعة القروية التي هي خلاصة عدة شرائع منها الاسلامية والعشائرية والقروية القديمة(١٩). ويشرف مجلس الاختيارية على توزيع ارض المشاع وتوزيع اعباء الفدية وتحديد عدد المقاتلين في العمليات القتالية المحلية او الخاصة بالوالي وتوزيعهم ، ويحل المجلس المشاكل الداخلية ، ويحسم الشيخ بدوره المشاكل الفردية داخل القرية ، بل وصلت شهرة بعضهم الى حل مشاكل السكان في المناطق الاخرى . وهكذا نجد ان الحكم الذاتي لم يتحقق فقط في اطار الولاية والناحية بل تعداه الى القرية والعشيرة البدوية وشبه البدوية ، ولكن لا يعني هذا الحكم الذاتي استقلالا تاما بل كما اتضح لنا سابقا توجد ارتباطات ادارية وذاتية تدفع الى تمسك القرى ببعضها في اطار الناحية .

بسبب انعدام المواصلات كما ذكر سابقا وجو الفوضى الذي خيم قرونا على ربوع السلطنة العثمانية خصوصا في المناطق المتاخمة للبادية ، انعزلت التجمعات القروية عن بعضها ، وحكمت نفسها ذاتيا وعاشت على الاكتفاء الذاتي . وفي نفس الوقت تقلص عدد السكان نتيجة زحف الصحراء وغمرها لاقسام اضافية من المنطقة الحضرية ، فتحول سكان هذه المناطق الهامشية الى رعاة مع عدم التخلي تماما عن ممارسة الزراعة . وزحفت افخاذ من العشائر البدوية لتحتل السهول المنخفضة جاعلة منها مراعي لمواشيها . هرب الفلاحون الى الجبال حيث للانتاجية والانتاج حدود خصوصا في جو الارهاب العام . واستطاع آخرون التجمع في المنطقة الممتدة من غزة الى اللد حيث تتواجد عدة مدن قادرة مع تجمعهم القروي على توفير الحماية .

كانت دائرة زراعة القرية محدودة لضرورة العودة مساء الى القرية ووصولها بسرعة حال حدوث غزوة . وداخل هذه الدائرة زرع الفلاح ما يحتاج اليه من انواع الخضار والحبوب والاشجار المثمرة ولكن ضمن المعطيات المناخية والمائية ، واهمها انتساب فلسطين الى منطقة المناخ الجاف ـ البحر المتوسطية فلذا وجب على الزراعة التقليدية اخذ المعطيات البيومناخية بعين الاعتبار . زرع الفلاح جميع اصناف الخضار والاشجار المثمرة في الاراضي المروية ، فكانت بساتين القدس ونابلس والخليل ويافا واللد والرملة

وغزة وعكا مغناة للرحالة ، مثال ذلك وصف تومسون للمنطقة الشاملة للد والرملة معجبا بتعدد انواع الاشجار المثمرة وازدهار الارض(٢٠).

ولم تتوفر المياه في كـل مكان ، ولذا وجب على الفلاح الاعتماد علـى امطار الشتاء الموسمية . أحسن الفلاح استخدام معطيات المناخ والتربة احسن استخدام . فأدرك اهمية زراعة شجر الزيتون والعنب والتين وكذلك زراعة اصناف الحبوب حسب دورة معينة . ومما فاجأ الخبراء الاجانب الذين كتبوا عن زراعة الفلاح الفلسطيني والسوري عامة مقدرته على الزراعة في الصيف حيث يعم الجفاف(٢١). ادرك الفلاح مـن خلال خبرته وتراثه الفلاحي وجوب تنظيم نشاطه الزراعي بشكل يساعده على الاستفادة القصوى من المناخ (الامطار ، الرياح ، الندى ، حرارة الشمس . . .) ، فجاءت حراثته للارض تحفظ الرطوبة الداخلية للتربة ليستطيع النبت النمو والصمـود امام حـدة الشمس ، وخصوصا حفاظ رطوبة التربة للزراعة الصيفية .

قابل الاوروبي محراث الفلاح الفلسطيني بالسخرية معتقدا بتخلف تقنية الفلاح ، ولكن بعد التدقيق والمراقبة ادرك ملاءمة حجم المحراث ومعطيات المناخ والارض(٢٢). وخشي الفلاح من حرارة الشمس التي قد تجفف الارض بعد سقوط المطر ، فسعى الى حفظ الرطوبة واستغلال هذه الحرارة في نفس الوقت لقتل النباتات الطفيلية والاستفادة منها كسماد طبيعي . ونشط الفلاح خلال فصل الشتاء في تكرار حراثة الارض كتمهيد لزراعة الاصناف الصيفية ، ويهدف هذا التكرار في الحراثة لادخال اكبر كمية من المياه في جوف الارض وذلك لرفع درجة رطوبة الارض ، لتستطيع ارواء النباتات حتى شهر أيلول اي حتى موعد حصاد السمسم ، آخر محاصيل الصيف . لقـد كان الفلاح يدرك اهمية الحفاظ على دورة زراعية تحفظ للتربة خصوبتها وبل ترفع درجة الخصوبة نتيجة اختلاف المزروعات واختلاف استهلاكها للمواد الكيماوية ، ومن جهة اخرى تجعـل العوامل المناخية سريعة التغير الفلاح متنبها للظروف الجديدة يستغلهـا دون تباطؤ لمصلحته ، كما يسعى بجد الى محاربة الحشائش المضرة النابتة مع المزروعات .

اذا القينا نظرة على نشاط الفلاح خلال السنة نجده حافلا بالاعمال المتعددة ، ونكتفي هنا بذكر جدول للاعمال الحقلية(٢٣):

الحراثة التمهيدية	تشرين الثاني ـــ كانون الاول
حراثة وزرع البذار الشتوية	كانون الاول ـــ كانون الثاني
الحراثة التمهيدية الاولى للبذار الصيفية	شباط
الحراثة التمهيدية الثانية للبذار الصيفية	آذار
زرع الحمص	آذار
اقتلاع الاعشاب المضرة ونكش الارض بين النباتات الشتوية	آذار ـــ نيسان
زرع الذرة	نيسان
الحراثة التمهيدية الثالثة للسمسم	نيسان
زرع السمسم	أيار
قلع العشب ونكش الارض امام البذور الصيفية	أيار
حصاد الشعير	حزيران
قلع الفول	حزيران
حصاد الحلبة	حزيران
حصاد القمح	حزيران ـــ تموز
حصاد الحمص	حزيران ـــ تموز
درس القمح والشعير والفول والحمص والحلبة	حزيران حتى أيلول

حصاد الذرة	آب
حصاد السمسم	أيلول
درس الذرة والسمسم	أيلول ـــ تشرين الاول
تذرية وغربلة القمح	تموز حتى تشرين الاول

لا نستطيع تعميم هذا النشاط على جميع المناطق الزراعية ولكن يتضح من هذا الجدول العمل الدائم للفلاح وعائلتـــه المصغرة والذي يشمـــل ايضـــا زراعـــة الخضراوات والاعتناء بالاشجار وقطف ثمارها والاعتناء بالمنزل وتحويل الانتاج الزراعي الى مواد غذائية . لا يستطيع الفلاح تحقيق هذه الاعباء فرديا ، بل تتطلب جهدا جماعيا لسرعة انجازها او انعكاسا لجماعية بعض ادوات الانتاج. وتلعب اليد العاملة النسائية والاولاد دورا رئيسيا في تحمل الاعباء التي لا تتطلب قوة بدنية ، ولكـــن يتطلب قسم منها خبرة وخصوصا مقدرة على الاحتمال والصبر .

ولان المحراث العربي ـــ الفلسطيني لا يحتاج الى قوة ضاغطة قوية ، كانت الحيوانات التقليدية من عجل وثور وحمار وجمل وبغل تقوم بهذه الوظيفة وجميعها قانعة برواسب الحقول واعشاب الطبيعة كغذاء(٢٤) ، فلا يحتاج الفلاح الى مخازن للعلف . ومن جهة اخرى تجري عمليات درس القمح وتخزينه في الصيف وفي العراء وفي وسط الحقول او بالقرب منها فلا يحتاج الى بناء مخازن او استعمال ادوات معقدة لاتمام هذه العمليات . كما لا تفسح المسالك الجبلية لسير العربات فتستعمل الدواب والجمال . وهكذا نجد ان تجهيزات الفلاح كما قلنا سابقا محدودة تحد بدورها من دائرة التبادل السلعي .

بالرغم من وطأة الاقطاع التقليدي وارتفاع الاعباء الضريبية احيانا نتيجة طمع الولاة وشيوخ النواحي واحتياجهم الدائم للمال لتمويل حروبهم الخاصة ، لم يشعـــر الفلاح بالغبن الكبير لكون العشر عينيا ، يقطع من انتاجه . لكن الغبن الاكبر كان يلحقه من الغزوات والسرقات ، التي كانت تسبب له فقدان الانتاج السنوي او فقدان حيواناته ، الركيزة الاساسية لانتاجه الحقلي .

ولا بد من الكلام عن تعلق القرويين بمزارات الانبياء والاولياء . كانت هذه المزارات شائعة بشكل قوي جدا . تكاد لا تخلو أية قرية أو ناحيـــة من مزار . اخذت بعض المزارات شكل اشجـــار سنديان قديمة يفترض جلوس او سكن الولي بقربها(٢٥) . كما أخذ قسم آخر من هذه المزارات شكل احجار او ينابيع . ويخص قسم كبير من هذه المزارات الانبياء القدامى . بل كان الاحتفال بهؤلاء الانبياء من أهم الاعياد في المجتمعات الفلاحية الواسعة ومثال ذلك عيد النبي روبين وعيد النبي موسى . كان الفلاح يحتاج الى شفيع يساعده على تحمل مظالم الحياة واضطهاد الحكام وفي نفس الوقت ليساعده على تدارك الكوارث المناخية ونيل محصول وفير ، اذ تخضع الزراعة في المناطق شبه الجافة الى عدة عوامل . فانحسار المطر او قلته او غزارته في غير وقته تهدد جميعها المحصول ، كما تهدد الرياح الخمسينية بدورها المحصول في حال مجيئها باكرا او في حال اطالة مدة بقائها ، وكذلك تسيء الى النباتات الرياح الشرقية الحارة(٢٦) . ويعبر الفلاح عن شكره للموسم الجيد بالاحتفالات الطويلة قـــرب المزارات المهمة . وتمثل هـــذه الاحتفالات ترفيها له ومعظمها يأتي بعد حصاد المزروعات الشتوية اي في الصيف . كان تدين الفلاح بدائيا نسبيا ومرتبطا بالقدرية والخرافية .

وقبل الانتهاء من وصف حياة الفلاح قبل التطور الراسمالي يجدر بالذكر هنا الحقيقة التالية : بالرغم من تمسك الفلاح بتقاليد انتاجية يرجع تاريخها الى العهود القديمة الا ان زراعته تطورت في كثير من الجوانب عن المستوى الزراعي الموجود في التوراة . واكبر

مثال على ذلك معرفة الفلاح بأنواع خضار لم تعرفها أرض فلسطين في العصور القديمة، ومن هذه الخضار(٢٧) البامية والباذنجان والبندورة والفليفلة والخيار والسبانخ والملوخية ، ولقد دخلت فلسطين والمشرق العربي مع الفتوحات الاسلامية .

التنظيمات الجديدة واثرها على العلاقات الاجتماعية : بدأ الاصلاح الاداري(٢٨) في الدولة العثمانية عام ١٨٣١ حين ألغي الاقطاع السياسي والمالي القديم واعلنت في عام ١٨٣٩ الجندية الاجبارية تكملة لالغاء الاقطاع القديم الذي انيط به سابقا تقديم الرجال المسلحين للوالي ، وكان قد سبق ذلك الغاء فرق الانكشارية عام ١٨٢٦ . فتح هذا التطور امام الدولة العثمانية امكانية بناء الجيش الحديث ، والذي كان بدوره مبعثا اساسيا لتطوير الوضع المالي والتعليمي انعكاسا للاحتياجات المالية والكفاءات العلمية. وتحققت الادارة المحلية عن طريق قوانين ١٨٥٢ ، ١٨٥٨ ، ١٨٦٤ ، حين طورت وحددت ادارة الولايات وانشئت النواحي والبلديات وانشىء تمثيل محلي وعام . سعي قبل عام ١٨٥٦ الى تحقيق بعض الاصلاحات المالية ، فجاءت هامشية يضاف الى ذلك أن تطبيقها تعذر بسبب حرب القرم . بعد هذا التاريخ صدرت القوانين المالية الجديدة والتي جاءت اكثر جذرية بسبب ارتفاع الديون الخارجية نتيجة اعباء الحرب وضغط الدول الاوروبية وايضا بسبب الطموح لبناء الجيش الحديث ، وسعي الى تطبيق هذه القوانين بكل نشاط وحزم .

كانت الضرائب المباشرة(٢٩) كالتالي : أ) الويركو والمسقفات (ضريبة على الملك) ، ب) الاعشار (ضريبة على الانتاج الزراعي ومنها الاشجار المثمرة) ، ج) الاغنام (ضريبة على الاغنام والجمال المعدة للنقل ، د) التمتع (ضريبة على الانتاج الحرفي وفي قطاع الخدمات) ، هـ) الكروسة او العمالة المكلفة (ضريبة بناء او صيانة الطرق او العمل ثلاثة ايام في السنة في هذا القطاع) ، و) المعارف (ضريبة تضاف على الويركو) . لم تأت التعديلات الضرائبية الجديدة ثورة حقيقية في المجال المالـي لاعتماد ركائزها على الانماط الضرائبية السابقة مع بعض التعديلات . فعوضا عن جمع الضريبة خصوصا الاعشار عن طريق « الاقطاعجي » اصبح يجمع عن طريق الملتزم الرأسمالي . وتحولت الضريبة من اقتسام عيني للمحصول الى تقدير نقدي للمحصول ، ويجري تسديدها على هذا الاساس . ومع اقصاء الزعامة التقليدية كوسيط مع الدولـة ، والتي وجب عليها جمع الضريبة العينية ، اصبح الان ضروريا تحديد ملكيـة الارض فرديا لمحاسبة المالك ضرائبيا . وهكذا ادخل امر فرز وتسجيل الملكية (الطابو) . واستفادت الـدولة من طرق تلزيم الضريبة للحصول مسبقا على قيمة الضريبة من خلال مزاد علني يرسى على المتقدم بأعلى عرض .

دخلت العلاقات الاجتماعية نتيجة التنظيمات الادارية والمالية وما رافقها من خضوع لارادة الدول الاوروبية وارتفاع معدل الفساد الوظيفي ، في مرحلة جديدة ، مرحلة التطور الرأسمالي — التجاري . وشجعت الدولة العثمانية انتساب أولاد العائلات الوجيهة من مدينية وريفية الى المـدارس الرشيدية (العسكرية) والى المعارف والمدارس العليا للانتظام بعد ذلك في السلك العسكري والاداري . واستفادت هذه الوجاهة من تسجيل الاراضي ، فسجلت أملاكا كبيرة باسمها بسبب جهل الفلاح وخوفه من الطابو كوسيلة لمعرفة عدد اولاده وطلب الذكور منهم الى الجندية . لقد كانت حرب القرم مجزرة فتكت بأبناء الفلاحين ، كما كانت الدولة ترسل المجندين الى البقاع البعيدة مثل اليمن فينقطع اتصالهم مع الاهل ويعيش هؤلاء في الشك من امكانيـة عودة اولادهم . لم يكن هذا الوضع فقط عبئا عاطفيا على الفلاح بل أيضا خسارة مادية لفقدانه مرحليا أو دائمـا لقوى انتاجية .

اعتمد الملتزم في تحصيله للضريبة على قوة الجند ، الذيـــن كانوا يجدون في الحملات التاديبية وسيلة للانتفاع من الفلاح والقرية(٣٠). كانت العلاقة في كثير من الاحيان بين الملتزم وبين المسؤولين الاداريين اكثر من علاقة رسمية ، كانت ايضا علاقة مصلحية مستمدة من عنصر القرابة وعنصر الصداقة واهم من ذلك كله من عنصر النفع المشترك. سعى الملتزم بجميع الوسائل الى تحقيق الربح الوفير من خلال رفع قيمة التخمين وتحقيق هذا التخمين باكرا اذ قد يحرق الحر الشديد قسما من المحصول ، وتحميل الفلاحين تكاليف هذا التخمين وتكاليف الوكلاء المحليين . واستمال الملتزم اليه في كثير من الاحيان شيوخ القرى والحمائل وخصوصا المخاتير المعينين من قبل الـــدولة ، كي يصمتوا عن اعماله وينالوا حصتهم من الربح ومن الاراضي الاتية من تجريد الفلاح لملكيته اثر العجز الضريبي(٣١). كان الالتزام للرأسماليين وسيلة لتجريد الفلاح من ارضه باسم العجز عن دفع الضريبة . وسعيا وراء زيادة الربح تضامن رأسماليو المدن في تقديم عروض الالتزام المنخفضة مقاومين دخول الغرباء المزاد العلني . انخفض مع الوقت دخل الدولة بينما ارتفع دخل الرأسماليين (الافندية)(٣٢). وامام تراكم الضريبة وثقلها المالي وتحكم الملتزم بالفلاحين عن طريق الجند ، باع قسم من هؤلاء اراضيهم لتجار المدن مفضلين العمل بالمشاركة ويتعهد المالك الجديد بدفع الضريبة . ليس من السهل على الفلاح بيع ارضه ، اساس مركزه الاجتماعي ومأمنه الاقتصادي لكن لم يكن امامه الخيار اذ كان سيفقدها عبر ثقل الديون . لم يتدخل في البدء المالك المديني في شؤون الزراعة مستفيدا مـــن اقراضه للفلاحين ورفع حصته مع الوقت وكذلك من ارتفاع سعر المحاصيل بعد توسع المدن وفتح باب التصدير في أواخر القرن الماضي . وبدأ المالك يهتم بالزراعة مع زيادة الطلب الخارجي على انتاج الحمضيات وتطلب مثل هذه الزراعة استثمارات مرتفعة .

وكان هناك سبب آخر لبيع الاراضي للرأسماليين ، فحسب القانون لا تسجل الاراضي جماعيا بل يجب فرزها وتسجيلها فرديا . كانت عمليات الفرز والتسجيل تكلف مبلغا عاليا يفوق امكانيات قسم من الفلاحين . فكان الرأسمالي يعـــرض استعداده لشراء الحيزة كلها او قسم منها وتحمل تكاليف الفرز والتسجيل(٣٣). وتمسك بعض الفلاحين بأراضيهم وسعوا الى دفع الضريبة بجميع الوسائل ومنها قطع الاشجار خصوصا شجر الزيتون وبيعه في المدن ، بعدما ارتفع الطلب عليه نتيجة الحركة العمرانية الكبيرة في المدن خصوصا في القدس ويافا وحيفا ونتيجة استعمالـــه المتزايد في صنع التذكارات الدينية وبذلك يكون الفلاح استهلك رأسماله للاحتفاظ بأرضه . وساهمت ضريبة العشر بدورها في قطع اشجار الزيتون والامتناع عن زرع المزيد منها ، فانخفضت اثر ذلك مساحة الاراضي المزروعة زيتونا(٣٤).

وخولت القوانين الجائرة الدولة سلب الارض من الفلاحين خصوصا من البدو . فكانت تبيع بالمزاد العلني ارض كل عشيرة تقاعست عن دفـــع الضريبة . واستحصل بهذه الطريقة عدد من رأسماليي صفد على مساحات مـــن الاراضي . هكذا خسر العـــرب السواعيد أرضهم قرب بحيرة الحولة(٣٥)، واجبروا على الرحيل . وقبل ذلك خسرت العشائر القاطنة في مرج بن عامر اراضيها . ذكر مرارا احصاء اوهاغن(٣٦) الموضح اتساع الاقطاع الرأسمالي في سوريا الشمالية ، ذاكرا أن ٢٠ الى ٣٠ في المائة فقط من أرض سوريا الشمالية بقيت حتى عام ١٩٠٧ بيد الفلاحين وتتفاوت هذه النسبة من مكان الى آخر . ففي شرق الاردن بقي ١٥ في المائة بيد الفلاحين بينما بقي في الجليل ٢٠ في المائة وفي المنطقة الجبلية (نابلس ـــ القدس ـــ الخليل) ٥٠ في المائة . يتضح لنا أن الاقطاع الحديث نما بشكل كبير في المناطق التي كانت مهددة مباشرة من قبل البدو او يقطنها اشباه البدو مثل شرق الاردن وحوران والجولان وسهول الجليـــل والسهل

الساحلي الفلسطيني ، اي في المناطق التي سجلت الاراضي بأسماء زعماء العشائر او التي طردت منها كما ذكر سابقا . اضافة الى هذا الاقطاع الحديث استولى السلطان عبدالحميد على مساحات كبيرة من الاراضي بلغت جميعها حوالي مليون فدان موزعة بين وادي الاردن والحولة وفي الخليل وغزة(٣٧).

ولم ينج شراء الاراضي من قبل الرأسماليين الفلاح من تراكم الديون ، بل لازمته تلك الديون بسبب انخفاض حصته ، اذ كان يحصل الفلاح مثلا لدى عائلة سرسق الاقطاعية على حوالي خمس الانتاج يضاف الى ذلك الضرائب غير الزراعية(٣٨)، فلا يبقى له الا النزر اليسير الذي لا يكاد يكفي لاعالته في سني الخيرات فكيف يمكن لهذا الدخل ان يعيله في سني الجفاف وان يواجه به تكاليف الأعباء الاجتماعية . ويتحدث كتاب «ولاية بيروت» عن ان اكثر اغنياء نابلس تقريبا «يقرضون اموالهم سنويا بفائض يتراوح بين (٦٠ و ٧٠ في المائة) »(٣٩). وظهرت نتيجة تراكم الديون والفقر المتزايد ظاهرة هجرة الفلاحين المعوزين الى المدن النامية(٤٠)، وفضل قسم آخر الهجرة الى امريكا . وسعى قسم من فلاحي الجبال الاستفادة من اختلاف مواعيد الحصاد للعمل في السهول ، كما ترك قسم آخر على عاتق اخوتهم في القرية الاعتناء بالاملاك العائلية وقصدوا هم شرق الاردن للعمل في اراضي شيوخ القبائل(٤١)، خصوصا في منطقة عمان لدى شيوخ بني صخر(٤٢). اضافة الى الاعباء الضريبية الشديدة الوطء كان على الفلاحين تحمل عبث موظفي الدولة ونهمهم الشديد . في ظل فقدان العدالة بسبب الرشوة وجدوا في الدولة وموظفيها عدوا لهم يحصل على الضريبة لتمويل عمليات سلب اضافية . وتهربا من مجابهة موظفي الدولة سعى الفلاحون الى اخفاء المشاكل والخلافات الداخلية وحلها بالطرق التقليدية ، فابقى المجتمع الفلاحي على المحاكم التقليدية الممثلة بالمجالس الاختيارية تحت شعار « حساب القرايا مش مثل حساب السراي » . نستخلص من هذا الوضع تمسك المجموعات الفلاحية بنظامها العشائري بالرغم من اضمحلال شطر من اساسه المادي ، يساعدها هذا النظام العشائري — القروي على تحقيق حد ادنى من الامن في محيطه كما يساهم في تحديد العلاقات مع التجمعات المجاورة . ومن الجدير ذكره هنا أن المشاع لم يضمحل تماما ، اذ بالرغم من تسجيل الارض باسم شيخ الحمولة او العشيرة بقيت الارض تستغل على طريقة المشاع التقليدي ولكن في نطاق اضيق من قبل . ففي السابق كان المشاع على نطاق القرية كلها واصبح حاليا في نطاق العائلات الرئيسية في القرية . كما بقي المشاع ردحا من الزمن في الاراضي المنتقلة الى وجهاء ورأسماليي المدن . لكن اختفى المشاع في الاراضي التي سجلت باسم العائلات الصغيرة .

بدأت العزلة الجغرافية تتلاشى تدريجيا توازيا مع بناء شبكة المواصلات الحديثة . افتتحت اول طريق عربات في فلسطين عام ١٨٦٦ وهي طريق يافا القدس(٤٣). وفي عام ١٨٧٩ جرى توسيعها وفي بعض المناطق اعادة تخطيطها . وبعد عام ١٨٨٦ اثر ترؤس مدحت باشا الحكومة في اسطنبول(٤٤) جرى نشاط واسع في انشاء الطرق ، فافتتحت في عامي ١٨٨٩ و ١٨٩٠ الطرق الاتية: القدس — بيت لحم — الخليل ، والقدس — اريحا، والقدس — عين كارم وبعد ذلك انشئت طريق يافا — نابلس ويافا — غزة ، وكذلك طريق حيفا — طبريا وحيفا — الناصرة . وبدأ السير على الخط الحديدي يافا — القدس عام ١٨٩٢ وحيفا — درعا عام ١٩٠٨ والخط الاخير فرع من الخط الحجازي(٤٥). واخذ التعامل بين القرى والمدن القريبة والبعيدة يزداد وخصوصا ان الطلب على المنتجات الزراعية ارتفع اثر نمو المدن(٤٦) نتيجة نمو المؤسسات الرسمية والتبشيرية وارتفاع عدد السواح وازدياد عدد موظفي الدولة ومجيء المستوطنين الاجانب من الالمان واليهود ، وعموما نتيجة ارتفاع الدخل في المدن . وحث نمو المدن وازدياد الاعمال نتيجة

الارتفاع الكبير في حركة التجارة الخارجية ووجود المؤسسات التعليمية والطبية القرويين على الانتقال اليها للعمل . ومع نمو الاسواق الداخلية جرى توسع في زراعة الخضروات كما ازداد الطلب على المنتجات القروية من زراعية مصنعة او حرفية، كما تصاعد الطلب في القرى على المنتجات المدينية والمنتجات المستوردة . وجلب الوضع الاقتصادي الجديد تحسنا في وضع الفلاحين المالكين والقاطنين في جوار المدن النامية،لكن الاستفادة الكبرى جاءت لصالح الرأسمالية التي استغلت الفلاح وزاد ثراؤها من جراء ارتفاع اسعار الاراضي في المدن وفي فلسطين عامة ، فاحتكرت التراكم الرأسمالي على حساب فقر طبقة الفلاحين .

واظهرت الدول الاوروبية اهتماما بالانتاج الزراعي الفلسطيني ، فصدرت فلسطين القمح وخصوصا شعير غزة وبئر السبع لجودته في صناعة البيرة(٤٧). كما بدأ يظهر اهتمام بريطانيا الواسع بانتاج الحمضيات ، فتوسعت اثر ذلك هذه الزراعة لتشمل مساحات كبيرة من منطقة يافا . ولا بد من التنويه هنا ان هذه الزراعة قديمة في يافا : بلغ عدد البساتين في اواخر العقد الثامن من القرن الماضي حوالي ٤٠٠ بستان مساحتهسا ٣٦٨ هكتارا(٤٨). استهلك قسم من الانتاج محليا وصدر الباقي الى مصر وقدر تومسون الربح من زراعة الحمضيات في الستينات من القرن الماضي بحوالي عشرة في المائة مـــن رأس المال(٤٩). ارتفع ثمن تصدير البرتقال من ميناء يافا من ٢٦٦٥ الف جنيه استرليني عام ١٨٨٥ الى ٢٩٧٤٧ الفا عام ١٩١٣ (٥٠)، وشجع نجاح تصدير بعض المنتجات الزراعية الملاك الكبار على ادخال الالات الحديثة ، مثل المضخات الالية العاملة على الكاز بدلا من المضخات الهوائية ، واصبح تعدادها بالالاف عام ١٩٠٧(٥١). كما استعمل الملاك انكبار المحراث الآلي لزراعة الاراضي البور وجرى استئجار قسم منها من المستعمرات الاوروبية . وأكدت هذه الظاهرة مقدرة الرأسمالية العربية النامية على استعمال الآلة الحديثة ، وتحمل تكاليفها الباهظة . ولم يكن الفلاح محافظا لدرجة انكار ما تراه عيناه من فوائد الطرق الزراعية الحديثة ، غير ان افتقاره الى رأس المال وقف حجر عثرة امام طموحه .

دخل المجتمع الفلسطيني قبل الحرب العالمية الاولى في مرحلة جديدة ، تتمثل في بزوغ عصر الرأسمالية وما تعنيه من تراكم لرأس المال وحركية استثماره . وجاء هذا التراكم اثر تطورات ادارية ومالية واقتصادية غيرت العلاقات المادية واعطت المجال لفئات عديدة أهمها الوجاهة التقليدية المتطورة وفئة التجار لاستحواذ هذا التراكم على حساب افقار الفلاحين والحرفيين التقليديين الذين فقدوا اسواقهم لمزاحمة السلع المستوردة لانتاجهم . بدأت الجماهير الفلاحية تنظر بنقمة الى طبقة « الافندية » ترى فيها السلطة المتحكمة بأرزاقهم وذلك من خلال سيطرتها على الادارة الرسمية بطريق مباشر وغير مباشر اي عن طريق الرشوة . وبدأت التجمعات الفلاحية تتخلى عن عزلتها وتتقبل السلع وادوات الانتاج الحديثة وكذلك وسائل النقل الحديثة . واتسع مجال ارتباطها القومي . وأسهم تطور الملكية في تحررها من الاقليمية المحدودة ، لكن الارتباط العشائري ظل فاعلا يتمم واجبه في الحفاظ النسبي على الامن .

لم يحقق التطور الرأسمالي هذا تغييرا جذريا في البناء الاقتصادي ، أنجز فقط تصعيدا في التناقض الطبقي نتيجة تعديل نمط الملكية والتي جاءت لصالح اثرياء قطاع الخدمات . فشل الفلاح في ايجاد تنظيم جماعي جديد يحافظ على حقوق الافراد فظل مرتبطا بالنمط العائلي ـــ السياسي القديم والمعرض في نفس الوقت للتفسخ بسبب نمو الملكية الفردية والمصلحة الخاصة . لكن هذا النمط التقليدي وجد مبررات لبقائه مثل المواظبة على وظيفته كوسيط بين الفرد والسلطة ، واستمد قسما من استمراريته من بقـــاء النمط

الانتاجي القروي التقليدي المبني على السلطة الابوية المطلقة ، فظلت في اطار هذا النشاط الاقتصادي — الاجتماعي القيم والضوابط التقليدية سارية المفعول . ولم يجد الفرد في تجديد مؤسسات الدولة العثمانية قيما جديدة تحثه على بلورة مفهوم جديد للعمل الجماعي وللمصلحة العامة الاساس السليم لتحقيق رفاهيته الشخصيته وتلمس فيها نفس العداء لحقوقه فأبقى على عدائه لها .

الفلاح العربي والاستيطان الاوروبي : يذكر سيمبسون في تقريره(٥٢) قول احد الخبراء : ان الحراثة العربية ليست اقل مستوى عن انماط اخرى من الحراثة بل تفوقها احيانا ، لكن مشكلتها تكمن في بطء سرعتها . ويؤكد سيمبسون بدوره ان الفلاح العربي ذكي ونشيط وكفؤ في عمله ، قادر في حال توفر رأس المال وفي حال اطلاعه على الطرق الزراعية الحديثة على اعطاء احسن النتائج . وبالرغم من صدور هذه الشهادة عام ١٩٢٩ الا انها تتحدث عن الطريقة التقليدية للحراثة والتي حاولنا وصفها باقتضاب . ولم يكن من مصلحة الصهيونية الاعتراف بكفاءة الفلاح لانها بموقفها هذا قد تشجع حكومة الانتداب على تحسين حالته المادية ، وتحرره من الديون ، فلا يتخلى عن أرضه وقد استرجع قسما منها بشرائها من الاقطاعيين خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها مباشرة ، اذ ان الفلاح لا يبيع ارضه بكل سهولة خلافا للاقطاعي خصوصا التاجر الذي لا تربطه بالارض اي رابطة فينظر اليها بمنظار الصفقة . ادركت الصهيونية اكثر من غيرها كفاءة الفلاح وقد استعانت به لاعمار مستعمراتها . كما ان ازدهار المستعمرات الالمانية بني على تمازج الزراعة الفلاحية مع التربية الحديثة للحيوانات اضافة الى تحسين التجهيزات الاولية (الطرق ، الري . . .) . سعى الالمان قبل اليهود الى ادخال المحراث الاوروبي لرفع انتاجية الارض لكنهم فشلوا لاختلاف المناخ والتربة(٥٣).

اعتمد ازدهار القسم الاكبر من المستعمرات الصهيونية على سواعد الفلاحين العرب ، الذين عملوا في البيارات او ساهموا في زراعة الاراضي . اراد المستعمرون اليهود بعد فترة من بدء استيطانهم الزراعي التحرر من العامل العربي بزراعة العنب في المستعمرات التي مولها روتشيلد ، لكن التجربة فشلت لصعوبة التصريف في الخارج وارتفاع معدل الاعتماد على المنتجات الزراعية العربية . كان على الفلاح العربي تعليم المهاجر اليهودي طريقة زراعة الخضار والزراعات الشتوية والاعتناء بالبرتقال وزراعة البطيخ. كان اليهودي المهاجر يفتقر الى قوة الاحتمال نسبة للعمل الحقلي(٥٤)، اذ جاء معظم المستعمرين من المناطق المدينية ومارسوا مهنا غريبة عن الزراعة . واما القسم الاكبر من خريجي مدرستي الزراعة اليهوديتين في فلسطين فقد فضلوا العمل في المدن او الهجرة الى الخارج . لقد طلب رسميا من الفلاحين في كثير من الاحيان تعليم المهاجرين الجدد العمل الزراعي(٥٥). ولم يمارس الصهاينة الزراعة الصيفية لعدم وجود النساء والاولاد القادرين على جني المحصول بسرعة(٥٦). لقد كان تعداد العمال العرب في المستعمرات القديمة يفوق تعداد المستعمرين اليهود(٥٧). وبقي الصهاينة حتى الحرب العالمية الاولى يعتمدون على الخضار العربية .

وقد قبل الفلاحون العرب على مضض بيع الرأسماليين للاراضي الى الجمعيات اليهودية — الاوروبية وذلك عن طريق يهود عثمانيين . وكان هؤلاء الرأسماليون قد حصلوا على هذه الاراضي بالظلم والاستبداد وبنظر الفلاحين ، يعني كل بيع الى مجموعة اوروبية تقييدا او منعا لعملهم في الارض . لكن اعتماد المستعمرين على الفلاحين وزيادة دخل هؤلاء جعلهم يسكتون مؤقتا عن الوضع. على ان رفضهم وتذمرهم الشديدين ظهرا اكثر ضد الصندوق القومي اليهودي الذي نص نظامه الداخلي على رفض اليد العاملة العربية . بدأ الفلاح يدرك مطامع الصهيونية ويستوعب خطرها على مستقبله . وشمل

هذا التذمر قسما كبيرا من فلاحي فلسطين لاستعداد اعداد متزايدة منهم النزوح الى السهول لزراعة الارض هناك بعد استتباب الامن ، كما ازداد الطلب علـى الاراضي الزراعية اثر الزيادة السكانية الملموسة ، التي شهدتها فلسطين بعد عام ١٨٨٠ ، ولم تتوفر هذه الاراضي في المنطقة الجبلية بسبب استغلال جميع الاراضي الممكنة .

---

١ — W. Pinner, *Wheat Culture in Palestine,* Tel Aviv, 1930, p. 29.

٢ — G. Dalman, *Arbeit und Sitte in Palaestina,* 2nd. ed., Guterloh, 1964, 1/1, p. 175.

٣ — مصطفى مراد الدباغ : **بلادنا فلسطين** ، الجزء الثالث ، القسم الثاني « في الديار النابلسية » (٢) ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٠ .

٤ — دالمان ، **المصدر السابق** ، الجزء الاول ، القسم الاول ، ص ٧٥ .

٥ — Anderlind, *Zeitschrift des deutschen Palaestina,* (Z D P V) Vereins, 1885, p. 113.

٦ — W. M. Thomson, *The Land and the Book,* 2nd. ed., London, 1911.
طبعة جديدة ومراجعة من قبل Julian Grande

٧ — A. K. Rafeq, *The Province of Damascus, (1723-1783),* Beirut, 1970, p. 258.

٨ — C. T. Wilson, *Peasant Life in the Holy Land,* London, 1906, p. 57.

٩ — E. Grant, *The People of Palestine,* 2nd. ed., Philadelphia, London, 1921, p. 43.

١٠ — تومسون ، **المصدر السابق** ، ص ٤٥٢ — ٤٥٨ .

١١ — T. Ashkenazi, *Les Tribus Semi-Nomade de la Palestine du Nord,* Paris, 1938, p. 23-24.

١٢ — **نفس المصدر** ، ص ٦ — ٨ .

١٣ — J. Finn, *Stirring Times,* London, 1878, p. 22.
عن كتاب : A. Bonne, *Palaestina Land und Wirtschaft,* Leipzig, 1932, p. 145.

١٤ — اشكنازي ، **المصدر السابق** ، ص ٦ .

١٥ — H. Auhagen, *Beitrage zur Kenntnis der Landesnatur und der Landwirtschaft* Syriens, Berlin, 1907, p. 46.

١٦ — L. Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel,* Leipzig, 1903, p. 295.

١٧ — نبيل ايوب بدران : **التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني** ، الجزء الاول ، عهد الانتداب ، مركز الابحاث — سلسلة دراسات رقم ٦٣ — بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٤ — ٣٣ .

١٨ — Mrs. E. A. Finn, *Palestine Peasantry : Notes on their Clans Warefare, Religion, and Laws,* 2nd. ed., London, 1923, p. 20.

١٩ — حسب فن ، **المصدر السابق** ، كان في منطقة الخليل شريعة خاصة اسمها « شريعة الخليل » ، مما يؤكد قدم علاقة السكان بمقام الخليل والعيش بجواره .

٢٠ — تومسون ، **المصدر السابق** ، ص ٥٢٣ .

٢١ — اوهاغن ، **المصدر السابق** ، ص ٥٢ .

٢٢ — دالمان ، **المصدر السابق** ، الجزء الثاني ، ص ١٨٠ .

٢٣ — دالمان ، **المصدر السابق** ، الجزء الثالث ، ص ٦ ، عن كتاب
Elzari - Valconi, *The Fellach's Farm,* Tel-Aviv, 1930, p. 18 and 83.
بالرغم من تحدث الجدول عن العمل الفلاحي في احدى قرى مرج بن عامر وفي العقد الثالث من القرن الحالي ، الا انه يصور الزراعة التقليدية .

٢٤ — بينر ، **المصدر السابق** ، ص ٥٦ .

٢٥ — باور ، **المصدر السابق** ، ص ١٨٩ . وكذلك كتاب
T. Canaan, *Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine,* London, 1927.

٢٦ — دالمان ، **المصدر السابق** ، الجزء الاول ، القسم الثاني ، ص ٣٢٥ .

٢٧ — **نفس المصدر** ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٩ .

٢٨ — A. Bonné, *State and Economics in the Middle East*, London, 1948.

٢٩ — عارف العارف : **تاريخ غزة** ، القدس ١٩٤٣ ، ص ١٩١ .

٣٠ — رفيق التميمي ومحمد بهجت ، **ولاية بيروت** ، ١ — القسم الجنوبي ، بيروت ١٢٢٥ هـ — ١٩١٤ م ، ص ١٠٥ ، ويؤكد الكاتبان ان جشع وقسوة نفر الجندرمة ازدادا بعد الاصلاح الدستوري .

٣١ — ولسون ، **المصدر السابق** ، ص ٢٩٣ .

٣٢ — اوهاغن ، **المصدر السابق** ، ص ٥٢ .

٣٣ — **نفس المصدر** ، ص ٣٤ .

٣٤ — تومسون ، **المصدر السابق** ، ص ٢١٥ وتعليق غراندي في حاشية الصفحة .

٣٥ — اشكنازي ، **المصدر السابق** ، ص ١٣ .

٣٦ — اوهاغن ، **المصدر السابق** ، ص ٥٢ .

٣٧ — A. Ruppin, *Der Aufban des Landes Israel*, Berlin, 1919, p. 117.

٣٨ — A. A. Boddy, *Days in Galilee*, London, 1900, p. 31.

٣٩ — التميمي وبهجت : **المصدر السابق** ، ص ١٠٥ .

٤٠ — ولسون ، **المصدر السابق** ، ص ٥ .

٤١ — غرانت ، **المصدر السابق** ، ص ٢٢١ ، وولسون ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

٤٢ — L. Oliphant, *The Land of Gilead*, Edingburgh, Blackwood, 1880, p. 270.

٤٣ — باور ، **المصدر السابق** ، ص ٢٩٦ و٣٠٢ .

٤٤ — G. Schumacher, *Population List of the Livâ of 'Akka, in Palestine*, Exploration Fund Quarterly (P.E.F.Q), 1887, p. 169.

٤٥ — H. Fischer, *Wirtschaftsgeographie von Syrien*, (ZDPR), 1919, p. 20.

٤٦ — A. Ruppin, *Syrien als Wirtschaftsgebiet*, Jaffa, Berlin, 1916, p. 186.
وبدران ، **المصدر السابق** ، ص ٤١ .

٤٧ — عارف العارف ، **المصدر السابق** ، ص ٢٨٨ ، وصل التصدير في احدى السنين الى ٦٠ الف طن .

٤٨ — Anderlind: (Z D P V) 1888, p. 88.

٤٩ — تومسون ، **المصدر السابق** ، ص ٥١٧ .

٥٠ — S. Tolkowsky, *The Gateway of Palestine, A History of Jaffa*, London, 1924, p. 184.

٥١ — اوهاغن ، **المصدر السابق** ، ص ٦٨ . ويذكر تومسون ، **المصدر السابق** ، ص ٥١٥ ، ان بعض الملاك العرب أراد منذ الستينات ادخال المضخات الالية ولكن فشلت التجربة لعدم توفر الكفاءة الفنية القادرة على صيانة الالات .

٥٢ — H. P. Simpson, *Report on Immigration, Land Settlement and Development*, London, 1930, p. 66.

٥٣ — دالمان ، **المصدر السابق** ، الجزء الثاني ، ص ١٨٦ .

٥٤ — **المصدر السابق** ، ص ٥٦ . A. Ruppin, *Der Aufbau des Landes Israel*,

٥٥ — K. Navratzki, *Die Judische Kolonisation Palaestinas*, Munchen, 1914, p. 150.

٥٦ — روبين ، **المصدر السابق** ، ص ٢١ .

٥٧ — **نفس المصدر** ، ص ٥١ .

المعلم العربي والتعليم في الارض المحتلة

الدكتور شاكر مصطفى

الذين لا يزالون يذكرون من قصص الطفولة مغامرات روبنسون كروزو يذكرون دون شك المفاجأة التي أصابت الرجل حين فتح عينيه في بعض مغامراته فاذا هو بين شعب من العمالقة يتفحصون هذا المخلوق الصغير الغريب . كل شجاعته وما عرف لنفسه من الطول والعرض أنهار فجأة أمام القدم الضخمة التي تزحم قدما اخرى على طول جسده الممدد على الارض . رعب عينيه وهما تصعدان على الارجل القائمة من حوله كالاعمدة المنتصبة في ميدان مكتظ لم يكن يعد له سوى خفقة قلبه من العجز والشلل ... عاد فجأة صغيرا جدا . أصغر بكثير مما كان يخطر بباله ان يكون واضعف بكثير من ان يأتي برد فعل — اي رد فعل ! ان تذكرتم ، اذن فهذا حال الجماعة العربية في فلسطين التي نامت ليل ١٥ مايس ١٩٤٨ اكثرية وفي بلادها ولها المواطنة الكاملة . ثم صحت صباح ذلك الليل على المفاجأة الصاعقة فاذا ارضها التي دفنت فيها عشرين قرنا من الاجداد قد سحبت من تحتها واذا هي اقلية مشلولة مطوقة ثم اذا تسلط اجنبي صهيوني يتعملق حولها في كل الافاق ويتكاثر بسرعة لا تعرفها كل قوانين الديموغرافيا والجغرافية البشرية .

مأساة اللاجئين التي نعرف حول فلسطين ، لها وجهها الاخر ضمن فلسطين نفسها حتى الان . وهذا الوجه كثيرا ما ننساه . المأساة لم تكن على جانب واحد ولكن كانت على الجانبين خارج الحدود وداخل الحدود — ان الرواية لم تتم فصولا ! واذا عاش مليون من اللاجئين العذاب اللاانساني منذ ثلاث وعشرين سنة خارج وطنهم فان ربع مليون اخر منهم (أضحوا الان ٣٦٠ الفا) قد عانوا العذاب اللاانساني نفسه على اشكال اخرى تحت احتلال العدو .

بعض أشكال ذلك العذاب مصادرة الاراضي العربية وغصبها من أصحابها . فمجموع ما اغتصبته اسرائيل من الاراضي حتى نهاية ١٩٦٩ وعيون اهله تنظر : مليون وربع مليون دونم من ارض الزراعة . وبعض أشكال ذلك العذاب الحكم العسكري المباشر الذي طبق منذ سنة ١٩٤٨ في المناطق الثلاث التي يتجمع فيها العرب الجليل والمثلث والنقب وأقل حدود هذا الحكم المنع من مغادرة المنزل من غياب الشمس حتى الشروق ، ومنع مغادرة القرية الا بتصريح ، ومنع التجمع . ومع ان الحكم العسكري الغي قانونا سنة ١٩٦٦ الا أنه لا يزال ساري المفعول ضد كل من تتوجس السلطات من حركته اي خيفة . انه يجمد فورا او ينفى ان لم يرافق ذلك نسف منزله. وبعض اشكال ذلك العذاب ايضا عملية الحريات ومن حقوق الانسان الاولى وتعمد التمييز الطائفي والعنصري والاهمال المعمد في توفير الخدمات العامة وتفاوت الاجور والحقوق بين العمال العرب واليهود . هذا والجماعة العربية دون قيادة لان قياداتها هاجرت كلها دون برنامج للغد لانها كانت وما تزال الى الان — دون غد . وبعض اشكال ذلك العذاب ايضا عملية التعليم : معلموها وطلابها والمناهج والتخطيط التهويدي الكامن وراء كل ذلك .

ان البحث في امر المعلم العربي والتعليم في الارض المحتلة لا يمكن في الواقع ان يفهم الا في اطار هذه الخلفية من العذابات المختلفة وعلى ضوئها . ان سياسة اسرائيل الصهيونية مع اولئك العرب الذين تشبثوا بالارض والوطن لا يغادرونهما، هي خطة متكاملة الحلقات وان تكن ملوية الوجوه. ومن أي الدروب أتيتها وجدت أنها تنتهي في نقطتين : تهويد الارض المحتلة بمحو كل ما يشير

الى الوجود العربي فيها ، واحلال الوجود اليهودي بالمقابل محله . وسلب الانسان العربي في فلسطين — وخارج فلسطين ايضا — أي قدرة او تفكير في رفض الامر الواقع ، هو نوع من عملية الشلل المنظم بمختلف الوسائل . واذا كانت اسرائيل عن طريق ثلاث حروب سنة ٤٨ وسنة ٥٦ وسنة ٦٧ وعن طريق تأييد دولي لم يعرف العالم له شبيها من قبل قد استطاعت في الظاهر ، أن تفرض على الانظمة العربية المجاورة لها نوعا من الاعتراف الواقعي بوجودها في فلسطين فانها كانت بالطبع أقدر على فرض نفسها وسياستها على البقية الباقية من عرب فلسطين الذين وقعوا تحت احتلالها .

وقد حققت اسرائيل ذلك في الواقع ، عن طريق تلك الدوائر الخاصة التي انشئت منذ الايام الاولى في معظم وزاراتها واداراتها تحت اسم : « ادارة الشؤون العربية » . « هذه الادارات تطورت بسرعة مذهلة حتى أصبحت مع الزمن جهازا خاصا ذا مصالح سياسية واقتصادية واجتماعية ... وأضحى له ممثلون في جميع المؤسسات وخاصة في الصحافة . اما قوائم عملائه فهم عصبة من المحرضين المعروفين بأسم (خبراء الشؤون العربية) يعملون فيه مع بعض العرب مقابل الرفاه المادي والجاه وملء الجيوب . ويأتي في رأس القائمة مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية يمسك بيده معظم المفاتيح . أما المفاتيح الاخرى التي تدير هذا الجهاز المتخصص ، فشبكة من المنظمات المتعاونة يشترك فيها الجيش عن طريق الحكم العسكري وحزب المباي عن طريق أجهزته السياسية المختلفة والنواب العرب التابعين له ، كما تشترك دوائر المخابرات وخاصة منها دائرة « الشين بيت » دائرة الامن الداخلي ومقاومة التجسس ودائرة التحقق . وتشترك الى هذا وذاك الدائرة العربية في اتحاد العمال (الهستدروت) ». ان شئت فانظر تفصيل ذلك لدى الاستاذ صبري جريس في كتابه « العرب في اسرائيل ». (نشر مركز الابحاث في م. ت. ف.). هذا الجهاز هو الذي يسلب الارضين ويقف وراء الحكم العسكري وينظم لا القوائم الانتخابية للعرب او تصاريح العمل ولكن حتى مباريات كرة القدم عن طريق الهستدروت ونشر شعر الغزل عن طريق صحيفة المرصاد ، وهي تصدر عن المابام .

ويشكل التعليم احد الركائز الاساسية لنشاط هذا الجهاز وتطبيق عمليتي التهويد والشلل على العرب الذين فوجئوا في اللحظات الاولى لانشاء اسرائيل على حالة من الاستسلام المشلول فاستغل الجهاز « اياه » وضعهم هذا أوسع استغلال . ولعلنا نستطيع ان نعرض الموضوع في اربعة مظاهر على اساس الاقانيم الاربعة التي تتمثل بها العملية التعليمية — التربوية : المعلم والتلميذ والمدرسة ومناهج الدراسة . ثم نحاول في نقطة خامسة أخرى تقصي ملامح السياسة الصهيونية التعليمية من خلال كل اولئك .

ونسجل منذ البدء ملاحظتين اساسيتين : الاولى : ان هذه المحاولة تتناول بالدراسة عرب الارض المحتلة قبل سنة ١٩٦٧ فقط . الثانية : ان هؤلاء العرب كانوا اول ايام اسرائيل أقل قليلا من ٢٠٠ الف (وان سجلتهم الاحصاءات الرسمية الاسرائيلية ١٥٨ ألفا) ثم تزايد الرقم الاحصائي الرسمي فبلغ ١٨٨٤٨ الفا سنة ١٩٥٤ ثم ٢٠٩ آلاف سنة ١٩٥٧ ثم ٢٣٤ ألفا سنة ١٩٦٠ ثم ٢٦٨٤٤ سنة ١٩٦٣ ثم ٢٩٣ الفا سنة ١٩٦٥ ثم ٣٢٩ الفا سنة ١٩٦٧ ثم بلغ في نهاية سنة ١٩٧٠ حسب الارقام الاخيرة : ٣٥٨٤٧ الفا .

المعلم

حرب مايس سنة ١٩٤٨ لم تغير المجتمع العربي في فلسطين ديمغرافيا فقط فتمسخه بغتة الى السدس ولكنها غيرته اجتماعيا كذلك، فمعظم الذين هاجروا كانوا من سكان المدن بينما كان معظم الباقين من سكان الريف في الجليل والمثلث ومن البدو في النقب وهذا الوضع لم يحرم هؤلاء فقط من القيادات السياسية والفكرية ولكن حرمهم ايضا من القوى التعليمية التي كانت مراكزها الاساسية في المدن كما حرمهم الاتصال بهذه المدن التي تحولت فجأة الى مدن عدوة مغلقة بالاحتلال المفاجىء لها من قبل القوى والجموع الغريبة . وكانت المشكلة الاساسية التي واجهت هؤلاء العرب في نهاية صيف سنة ١٩٤٨ عند بدء العام الدراسي هو البحث عن معلم لمدرسة القرية . معظم المتعلمين ومنهم المربون كانوا قد هاجروا بينما وجدت القوى الصهيونية في هذه المجموعة الصيد السهل المستسلم .

ونقص القوى التعليمية « المؤهلة » « الاكاديمية »

الذي استهل به التعليم العربي في الارض المحتلة مسيرته سنة ١٩٤٨ ما يزال الى اليوم قائما . المعلم هو النقص الاساسي هناك : عددا من جهة وكفاية من جهة اخرى . وقد باتت هذه المشكلة مفضوحة للدرجة التي لم تجد حتى النشرات الاعلامية الاسرائيلية مناصا من الاعتراف بها[1] كما ان الباحثين الصهيونيين المتعصبين امثال بنتوتش لم يستطيعوا بدورهم تجاهلها[2]. ولعل الارقام الواردة في آخر المقال تكشف جانبا منها :

١) ان مجموع المعلمين في التعليم الابتدائي العربي في الارض المحتلة يتوزع كما في الجدول رقم (١).
٢) ويتوزع هؤلاء المعلمون من حيث الجنس كما في الجدول رقم (٢) . ٣) ويتوزع هؤلاء المعلمون من حيث العمر كما يتضح من الجدول رقم (٣) .
٤) ويتوزع هؤلاء المعلمون حسب الطوائف كما في الجدول رقم (٤) . ٥) ويتوزع هؤلاء حسب درجة الكفاية والخبرة في التدريس كما في الجدول رقم (٥) . ٦) والجدول رقم (٦) يكشف بعض الارقام والنسب في عدد المعلمين العرب واليهود .

ونستطيع ان نسجل من خلال هذه الارقام الاحصائية عددا من الملاحظات الهامة :

الاولى : ان عدد المعلمين العرب (وفيهم بعض اليهود المهاجرين من البلاد العربية) يبلغ ١٨٣٠ معلما فقط لـ ٣١٢٤٥٠٠ مواطن سنة ١٩٦٦ — ٦٧ وكان الرقم قبل سنتين فقط ينقص عن ذلك مائتي معلم بينما عدد المعلمين اليهود في الفترة نفسها هو (٣٤٠٢٥) معلما ثم (٣٩١٤٨) معلما لمليوني ساكن . وهذا يعني ان ثمة خمسة معلمين لكل الف من السكان العرب مقابل ٢٠ معلما تقريبا لكل الف مستوطن يهودي . ومع ان العرب يشكلون ١١،٥٪ من مجموع السكان في الارض المحتلة فان نسبة المعلمين منهم الى مجموع المعلمين قد هبطت الى ٤،٥ ٪ .

الثانية : ان نسبة غير المؤهلين من معلمي العرب ظل بعد عشرين سنة من قيام اسرائيل يبلغ نصف المعلمين عامة وقد كان الرقم قبل ذلك بسنتين يبلغ ٥٥،٢ ٪ ذلك ان السلطات الاسرائيلية ما اهتمت منذ الايام الاولى بسد صفوف المدارس العربية بالمؤهلين وتهيئة المزيد منهم ، لم تستخدم من الجامعيين (الذين تحسبهم على الجامعة المؤهلة) سوى عدد محدود جدا ١٥ او ٢٦ من اصل ١٦٢١ و١٨٣٠ معلما على التوالي .

الثالثة : ان المعلمين العرب السابقين لقيام الدولة الاسرائيلية يمكن ان تعرف اعدادهم من خلال الجدولين ٣ و٥ .

وهذا يعني بصورة عامة انه لم يبق من الجهاز التعليمي العربي في فلسطين سنة النكبة سوى حوالي ٢٥٠ — ٢٧٥ معلما فقط ولم يكن هؤلاء بالطبع يكفون حاجة المدارس العربية الموجودة ولا حاجة التوسع الذي توسعته تلك المدارس سنة بعد سنة . وقد عمدت السلطات الاسرائيلية الى سد هذا النقص باعداد من خريجي المدارس الثانوية وطلابها ومن المتعلمين غير المؤهلين الذين لا ينتخبون على اساس الكفاية والتفوق بل على اسس مستنكرة وعجيبة كاقرار الحكم العسكري ووزارة الدفاع تعيينهم او محسوبيتهم على بعض العناصر المتعاونة المعروفة او قرابتهم العائلية . واستمر الوضع على هذا الشكل ثماني سنوات دون اي محاولة جدية لحل المشكلة الى ان فتحت السلطات الاسرائيلية في سنة ١٩٥٦ دار المعلمين العرب في يافا . وهي دار اعدت لتدريب المعلمين والمعلمات ومعلمات رياض الاطفال في المدارس الابتدائية العربية خلال ثلاث سنوات بعد الثانوية لكن هذه الدار ظلت سنوات لا تستوعب اكثر من ٥٠ الى ٦٠ طالبا . والجدول رقم (٨) يعطي فكرة عن اعداد الطلاب في هذه الدار مقارنة بما يقابلها لاعداد المعلمين اليهود .

ونلاحظ في الجدول رقم (٨)[3]: **اولا** : ان رقم الطلاب العرب ارتفع ما بين السنة الدراسية ١٩٦٦ — ١٩٦٧ وبين السنة التالية لها من ٢٠٨ طلاب الى ٣١٦ بزيادة ٥٢٪ وما ذلك الا لان المخطط الصهيوني رأى ان يهيىء سلفا زيادة من المعلمين العرب يستخدمهم في المناطق التي احتلها مجددا سنة ١٩٦٧ . **ثانيا** : ان رقم الطلاب اليهود تراجع ما بين ١٩٦٧ — ٦٨ وسنة ٦٩ والسبب في ذلك توجه الشباب للحرب ضد العرب والسبب نفسه هو الذي جعل رقم الطالبات يبلغ ٥٢٢٨ من اصل ٥٩٩٤ اي ٧٦،٨٪ . **ثالثا** : ان السلطات الاسرائيلية تهيىء لكل الف من المواطنين العرب في احسن الاحوال وحسب ارقام سنة ٦٧ وسنة ٦٨

معلما واحدا بينما تهيىء للسكان اليهود ٢٠٢٥ معلمين لكل الف منهم .

وقد يبدو ان فتح دار المعلمين العربية في يافا كان عملا ايجابيا من السلطات الصهيونية ولكن الواقع العملي يكشف ان هذه الخطوة انما كانت في اطار التخطيط الصهيوني العام وهدفها : — ١) انتاج من يخدم الخطط الصهيونيـــة في ميدان التربيـــة والتعليم من العرب انفسهم ليكون تقبلها اسهل واسرع على المجموعة العربية . ٢) قطع الطريق على اي شكوى قد تصدر من العرب بأنهم اهملوا والحيلولة دون اعطاء المبررات لاي تمرد بينهـــم وابنائهم مربوطين بعجلة السلطات الاسرائيليـــة باقامة جسور من المتعلمين العرب بينهم وبين تلك السلطات . ٣ — التحكم في توجيه المجموعة العربية تحسبا من الانفجار الديمغرافي الذي تدل عليـــه مؤشرات الزيادة في السكان والغاء اي دور يمكن ان تلعبه تلك الزيادة في المستقبل لتهديد كيـــان اسرائيل . فمدرسة المعلمين ليست في الواقـــع سوى مدرسة « تأنيس » و« تطبيـــع » للشباب العربي تمسح نتوءاته وتخدر مقاومته وعوامـــل « التسطيح » التي تمارسها الصهيونية لسحق الانسان العربي في الارض المحتلة هـــي في دار المعلمين عملية منهجية منظمة غـــرضـها الاساسي الوصول الى آلات تعليمية طيعة فان لم تنجح هذه السياسة كمرحلة اولى فان المرحلة الثانية بعد التخرج جاهزة بما فيهـــا مـــن سياســـة الاذلال والتجويع ثم التهجير الاضطراري والدليل الاساسي على ذلك كله تحكيه الارقام نفسها .

ان عدد المتخرجين من هذه الدار قد بلغ في مدى عشر سنوات منذ سنة ٥٩/٦٠ حتى ٦٨/٦٩ قرابة ١١٠٠ معلم مؤهل فاذا اضفنـــا اليهم المعلمين المؤهلين قبل النكبة وهم حوالي ٢٥٠ — ٢٧٥ كان مجموع من يجب توفرهم في التعليم الابتدائي العربي من المؤهلين هو بين ١٣٥٠ — ١٣٧٥ معلما ولكن الاحصاء يعطينا رقما آخر في الجدول رقم (١) هو ٨٨٩ معلما مؤهلا فقط وهذا يعني هنا ان حوالي ٤٦٠ — ٤٨٥ معلما مؤهلا قد ضاعوا بين فترة التخرج والخدمة التعليمية الفعلية بمعدل ٤٦ الى ٤٨ معلما كل سنة . ولا حاجة لان نفتش عن مصير هؤلاء الذين يشكلون ٤٣٪ من متخرجي الدار و٥٢٪ من المؤهلين العاملين . لقد ابعدوا عن التعليم في عملية ما بعد التخرج التي تبدأ بالاذلال وتنتهـــي بالتهجير الاضطراري ، او احيانا بالنفي .

وخريج دار المعلمين عاجز مبدئيا عن العمل خارج نطاق التعليم . فاذا اجتاز المصاعب التي توضـع في وجهه للفوز بالتعيين والتي يشترك في تفحصه فيها الحاكم العسكري وعميل المخابرات وانصار حزب الماباي وحصل على اذن الهستدروت ، دخل عند ذلك دوامة الرعب والارهاب التي تمارسـها ضده اجهزة وزارة التربية والتعليم وتسهم فيها كذلك الادارة العربية لنقابة المعلمين اليهود. سيف الحرمان من الرزق والعيش هو اول الاسلحة المسلطة قبل التعيين وبعده ثم يتدرج الضغط الى التحقيق من قبل السلطات عند كل ريبة واثبات الوجود في مخفر الشرطة كل يوم والاقامة والاستغناء عـــن الخدمات تعسفيا والاقامة الجبرية في المنزل منذ مغيب الشمس حتى الشروق . ثـم السجـــن الاحتياطي او النفي الى بلد آخر في فلسطين او خارج فلسطين والشعار الاساسي في كل تلـــك المراحل « لا تفكر في غير خدمتنا » يغتفر للعامل في التعليم كل شيء حتى العجز المسلكي ما دام يرضي السلطات ويخدمها أما التفكر السياسي خـــارج الاطار الصهيوني فهو الجريمة الكبرى .

واذا كان هذا حال المعلمين المختصين الذين تعدهم السلطات في دار المعلمين بعد مراحل من التدقيق فما حال المعلمين غير المختصين ؟ وما حال حملة الشهادة الثانوية او ما دونها ممن يصنفون كغير مؤهلين درجة أأ ودرجة أ ودرجة ب ؟

من الصعب الحصول على أرقام الذين سرحوا منهم او استبدل بهم غيرهم ثم استبدل بهؤلاء آخرون . ولكن خضوعهم للشروط نفسهـــا وعدم تمرسهـــم السابق بعملية التطويع القسري في دار المعلمين تجعل اعداد المسرحين منهم على مر السنوات عدة آلاف وتجعل نسبة المغضوب عليهم سنويا كبيرة تصل حتى ٥٥ — ٦٠ / من المجموع ومن يبقى منهم في التعليم رغم ذلك كله يبقى حيث كان دون أمل في تغيير وضعه لان مـــن خطوط السياسة الصهيونية عدم تمكين هؤلاء بدورهم من الحصول على شهادات تعليمية اختصاصية او الظفر بأي تحسين في الوضع المعيشـــي . ويمكن ان نلاحظ التخطيط الصهيوني المتعمد لابقاء المدارس العربية في مستوى منخفض دون معلمين مختصين من مراقبة

عدد المتخرجين من دور المعلمين العربية واليهودية.

فقد تخرج من المعلمين اليهود خلال عشر سنوات ١٩٥٩ — ١٩٦٨ ما ينيف على ١٧٣٠٠ منهم ١٦٠٠ (٦٣ — ٦٤) و٢٠٠٠ (٦٤ — ٦٥) و٢٣٠٠ (٦٥ — ٦٦) و٢٠٠٠ (٦٦ — ٦٧) و٢٥٠٠ (٦٧ — ٦٨) و٢٤٠٠ (٦٨ — ١٩٦٩) . أي بمعدل ٨،٦ معلم لكل الف نسمة بينما تخرج من العرب واستخدم في الفترة نفسها (١١٠٠ متخرج — ٤٦٠ مسرحا) = ٦٤٠ معلما مؤهلا اي بمعدل ٢،١ معلم لكل ألف من السكان في المتوسط .

ويضاف الى هذا الوضع العام أمور اخرى تشكل الاطار الرهيب للوضع المعيشي بالنسبة لاي مثقف عربي .

١) ان شروط العمل التي تحكم العمال العرب تحكم بدورها المعلمين منهم من تسجيل وتصاريح عمل ورضى سلطات ، وفي النهاية اجور متدنية عن أجور اليهود . ان المعلمين هناك معتبرون من العمال . وجوابا على سؤال اثير في الكنيست بتاريخ ١٩٥٢/١/٢٨ اعترف وزير التربية والتعليم بأن المعلم اليهودي العازب ، حامل شهادة الدراسة الثانوية وشهادة دار المعلمين يقبض ٦٩ ليرة اسرائيلية في الشهر (كانت الليرة تعادل الجنيه الاسترليني) في حين ان المعلم العربي الذي يحمل الكفايات نفسها مع الخبرة يتقاضى فقط ٤١ ليرة في الشهر اي بنقص يعادل ٤٢،٨٪ عن زميله . ويتقاضى المعلم اليهودي العازب حامل شهادة الصف الثامن الثانوي ٥٩ ليرة في الشهر في حين يتقاضى مثيله العربي ٣٦،٥٠ ليرة . وما يزال هذا التمييز العنصري الفاضح قائما بالنسبة نفسها الى اليوم رغم محاولة الهستدروت احتواء العمال العرب واستغلال اصواتهم الانتخابية وكثرتهم العددية. ولنلاحظ ان عدد العمال العرب في الخدمات الصحية والتربوية والاجتماعية والدينية والقضائية لا يشكل الا نسبة ضئيلة جدا من مجموعهم فقد تركت السلطات اليهودية لهم الاعمال الصعبة من قطع حجار وبناء طرق وزراعة وتحريج ويمكن ان ناخذ فكرة عن هذا الوضع في الاحصاء التالي : في سنة ١٩٥٤ كانت نسبة العاملين في التربية والصحة وغيرها من العرب ٤،١ ٪ ثم ارتفعت سنة ١٩٥٨ الى ٥،٩ ٪ ثم عادت فانخفضت سنة ١٩٦٢ الى ٣،٥ ٪ ثم ارتفعت سنة ١٩٦٥ الى ٤،٢ ٪ . بينما نسبة العمال العرب المستخدمين في الزراعة والتحريج وصيد السمك في هذه السنوات نفسها كانت بالترتيب : ٥٩،٩٪ ، ٤١،٩ ٪ ، ٥٣،١ ٪ ، ٥٨،٣ ٪ . ونجد بالمقابل ان نسبة العمال اليهود في الخدمات التربوية والصحية وغيرها تبلغ في الفترات ذاتها ما يلي : — بالترتيب ١٠،٣ ٪ ، ١٤،٥ ٪ ، ١٥ ٪ ، ١٨،٣ ٪ اما نسبتهم في الاعمال الزراعية والتحريج والصيد فهي : ١٤،٧ ٪ ، ١٥،٧ ٪ ، ١٢،٤ ٪، ١١،٢ ٪ .

٢) يتبع هذا ان فرص العمل ، في الوظائف العامة او الخاصة للعربي محدودة جدا وهم عمليا محرومون من دخول القطاع الوظيفي وهو موقف سلبي انما تتعمده السلطات بالطبع ضد المثقفين العرب ، ضمن مخطط الاذلال والتجويع وتوفير اليد العاملة غير الخبيرة للصناعة اليهودية . ولو اخذنا احصاء وسطا لموظفي الدولة فيما بين فترة انشائها سنة ٤٨ وسنة ١٩٧١ لوجدنا ان من بين ٤٨،٧٩٢ موظفا حكوميا في سنة ١٩٦١ كان الموظفون العرب لا يزيدون عن ٥٠٠ فقط ، وفي المناطق العربية بالذات ، اي انهم لا يشكلون سوى ١ ٪ تقريبا من مجموع الموظفين في حين ان السكان العرب يبلغون ١١ ٪ من مجموع سكان الدولة حسب كتاب الاحصاء السنوي لاسرائيل سنة ١٩٦٣(٤) وهكذا فلا سبيل لان يجد المتعلم العربي، في غير مجال التعليم فرصة للعمل .

٣) ويتصل بهذا ايضا سلسلة اخرى من المحرمات والقيود فالمناطق غير العربية مغلقة على المعلمين العرب وعلى تلاميذهم فهم محرومون من رؤية وطنهم او الحركة فيه الا بتصاريح رسمية محرمون من اي نشاط حتى الرياضي منه او الاجتماعي او الفكري الا ان نظمت ملعب الكرة الادارة العربية في الهستدروت او رعت المهرجان الشعري نقابة المعلمين اليهود او نظمت لجان الغاء المهور حلقات حزب المباي ، او نشرت الشكوى صحيفة (المرصاد) او (اليوم) او كتبت نص المحاضرة احيانا دوائر لجنة الدعاية المركزية في الهستدروت. والمعلم العربي الى هذا وذاك معزول عن ثقافة أمته العربية عزلة قاسية فهو محروم ان يفهم تاريخه العربي ويدرسه كما شاء كعماد قومي، محروم ان يفهم دينه (الاسلامي او المسيحي)

ويدرس نصوصه كما يجب لها من الدراسة كركن روحي ، محروم من ممارسة ادبه ولغته . حتى اللغة فان التلاميذ العرب يتخرجون الان وهم لا يجيدون اقامة جملة سليمة فيها بينما يعتبرون من العيب ان يسقط احدهم باللغة العبرية . وحتى الشعر المقاوم فان له حدوده التي يجب ان تظل في اطار الرمز واللغة العربية لا يجاوزهما : ذات مرة سنة ١٩٦٠ قام الادبــاء العرب في الارض المحتلة بمحاولة لها معناها : فقد انتهزوا فرصة وجود الكاتب اليهودي بنيامين تموز معهم في احدى المناسبات الادبية ، وهو الذي يقدم نفسه صديقا للعرب فعقدوا معه حلفا شفويا يجعل مــن بيته منتدى للقاء الشعر يدعون اليه من يشاؤون . وكانت التجربة محزنة . فقد ابدى اعجابه بقصيدة ألقاها معلم عربي شاعر يصف تدمير الصهيونيين لقرية سنة ١٩٤٨ فترجم القصيدة للعبرية ونشرها، وقدم المعلم العربي على الفــور للمحاكمة بتهمة العداء للدولة . واقيل طبعا من عمله التعليمي . ولم ينبر اي كاتب يهودي للدفاع عنه حتى ولا « تموز »(٥).

التلاميــذ

الارقام البكماء ليس اكثر منها بلاغة وصدق تعبير . ولعله من الضروري ان نقــدم بعض الاحصاءات الاساسية قبل ان نسجل اي ملاحظة حول تربية النشء العربي في الارض المحتلة .

(١) عدد من كانوا في سن ٥ — ١٤ مــن العرب واليهود في الفترة المتوسطة بين سنتي ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٩ مقارنا بعدد من كانوا فعلا في رياض الاطفال والدراسة الابتدائية(٦).

من خلال الجداول الاحصائية (من رقــم ٩ — ١٤)(٨) نستطيع ان نكشف استراتيجية التجهيل « المتعمد » في المخطط الصهيوني ونكتفي في هذا السبيل ببعض الملاحظات :

١) بالرغم من وجود قانون التعليم الالزامي للصغار فان السلطات الاسرائيليــة لا تهتم اي اهتمــام بتطبيقه في المناطق العربية . وقد نجم عن ذلك ان ما يتراوح بين ربع وثلث الاطفال في سن المدرسة لا يرونها . وهذه النسبة التي استمرت واضحة بين سنتي ١٩٥٠/١٩٦٠ تقلصت نتيجة الشكوى المتزايدة والضغط السياسي من الكتلة العربية لا سيما في فترات الانتخابات وتحول الرقم بالتدريج الى ما بين الربع والخمس . والرقم الاخر المسجل لاحصاء ٦٦/٦٧ يسجل مع ذلك بقاء حوالي ١٦٪ من الاطفال دون فرصة التعليم ولعلنا ننبه هنا الى ملاحظتين : — **الاولى** مساهمة المدارس الخاصة غير الحكومية في امتصاص اكثر من ١٥٪ مــن الاطفال في اعمار المدرسة من الشارع (١٣٫٨ الفا من اصل ٨٩ الفا) . **الثانية** ما قد يكون في الرقم الحكومي (٨٥ ٪) من جانب دعائي يقصد الى قطع دابر الشكوى العربية بعد أن افتضحت خطة الاهمال والتجهيل .

٢) ان الجدول رقم (١٤) الذي يعطي هذه النسب يعطي هو نفسه نسبة اخرى اكثر تعبيرا هي ان من يدخل الدراسة الثانوية مــن الفتيان العرب لا يجاوز في أعلى الارقام الاخيرة لسنة ١٩٦٧/٦٦ حوالي ٢٢٧٫٨ في الالف . اي اكثر قليلا من الخمس اما الاخماس الاربعــة الاخرى فتعود عمالا في الحقول والمصانع . وكانت النسبة من قبل (وحسب الجدول نفسه سنة ١٩٦١ — ١٩٦٢) لا تزيد عن ١٧ ٪ ويبقى ٨٣ ٪ من التلاميذ طعاما لحاجات المحراث والالة .

٣) ونجد في الجدول رقم (٩) تعبيرا آخر عن عملية التجهيل مقارنة بما يوفره اليهود لابنائهم من علم فالارقام في ذلك الجدول اخذت في الفترة المتوسطة من حياة اسرائيل بين سنتــي ٥٥ — ١٩٥٦ ، ٦٣ — ١٩٦٤ من جهة وفي الفترة المتوسطة من حياة الطلاب بين الدراستين الابتدائية والثانوية ومقارنة النسب في الجدول كافية لتكشف أنه : بينما كان ٦٠ ٪ من فتيان العرب خارج المدرسة في سنة ٥٥/٥٦ لم يكن امثالهم من اليهود في اعمارهم يجاوزون ٨٫٢٦ ٪ وبالرغم من ان النسبة تحسنت بعد سنوات فانا نجــد خارج اســوار المدرسة في سنة ٦٠/٦١ ما يعادل ٤٣٫٥ ٪ مــن الشباب العرب يقابلهم ٢٫٥ ٪ فقط من اليهود وفي سنة ٦٣/٦٤ يزداد الشباب اليهود قليلا الى ٦٫١ ٪ ولكن العرب يظلون ٤٠ ٪ .

٤) ونستطيع من خلال الجدول رقم (١٠) مع بعض الارقام الاضافية ان نتبين عملية « طرد » العربي من المدرسة من خلال مراقبة المسيرة لدفعة واحدة من التلاميذ خلال الدراسة الابتدائية والثانوية خاصة . ففي سنة ١٩٤٩/٤٨ دخل الصف الاول الابتدائي ٢٠١٢ تلميذا وقد وصل هؤلاء الدراسة

الثانوية فلم يدخلها منهم سنة ٥٦ـ٥٧ سوى ٣٠٥ طلاب فقط . وقد نجح من هؤلاء في الشهادة الثانوية ٥٢ طالبا فقط في سنة ١٩٥٩ ـ ٦٠ ثم كان في الجامعة كلها تلك السنة ١١٥ طالبا عربيا وفي دار المعلمين ١١٧ طالبا . وفي سنة ٥١/٥٢ دخل الابتدائي ٥٦٩٢ فلم يدخل منهم سنة ٥٩/٦٠ الى الثانوي سوى ٤٥٧ ونجح منهم في الثانوية ٧٦ فقط سنة ٦٢/٦٣ وكان في الجامعة فقط ١٥٢ طالبا وفي دار المعلمين قريب من ذلك . وفي سنة ٥٦/٥٧ دخل الابتدائي ٤٣٢٦ تلميذا فلم يدخل منهم سنة ٦٤/٦٥ في الصف التاسع الثانوي سوى ٧٣٢ فقط ونجح في الثانوية في سنة ٦٧/٦٨ ما عدده ٨٢ فقط . ومجموع من كانوا في الجامعات حوالي ٢٤٠ طالبا فقط واما من دار المعلمين فكان المجموع ٣١٦ طالبا.

ولعله من الضروري ان نلح على هذه النقطة بعض الالحاح ايضا ونراقب عملية « الطرد » للطالب العربي في شكلها الاحصائي الموضوعي . وانا لنستطيع ذلك من خلال الجداول رقم (١٥ـ١٩) المستخلصة من بحث علمي نشره الاستاذ صالح عبدالله سرية في مجلة الجامعة المستنصرية ١٩٧٠ معتمدا على المجموعات الاحصائية السنوية لاسرائيل ما بين سنتي ١٩٥٨ و١٩٦٨ . فلو راقبنا تحرك الدفعات المتتالية للطلبة العرب دفعة دفعة خلال مرحلة الدراسة الابتدائية يتبين لنا الفرق بين اعدادهم سنة الدخول للمدرسة الابتدائية واعدادهم في السنة الثامنة سنة الدخول للثانوي كما في الجدول رقم (١٥) الذي جرى تنظيمه على اساس النسبة المئوية لعدد كل من الطلبة العرب واليهود سنة دخول المدرسة(٩). (مع ملاحظة ان الزيادة الموجودة لدى اليهود فوق النسبة المئوية ناجمة عن اولاد المهاجرين الجدد) .

اما في المدارس الثانوية فان عملية « الطرد » تكشف بشكل اكثر وضوحا وقسوة لا سيما حين نقارن عدد الطلبة العرب واليهود فيها والجدول رقم (١٦) اولا يكشف نسبة عدد الطلاب العرب الى اليهود في الدراسة الثانوية خلال عشر سنوات . والجدول رقم (١٧) ثانيا يكشف النسبة المقارنة بين عدد الطلاب من العرب واليهود في انتقالهم من مرحلة التعليم الابتدائي الى الثانوي .

فنسبة عدد الطلاب في الصف التاسع (الثانوي) الى عدد الطلاب الموجودين في السنة السابقة في الصف الثامن الابتدائي، هي كما في الجدول رقم(١٧). والجدول رقم (١٨) ثالثا يكشف النسبة المئوية بين عدد من دخل الصف التاسع الثانوي وبين من وصل الصف الثاني عشر بعد ثلاث سنوات

وقد تبدو النسبة اليهودية منخفضة في هذا الجدول ولكنا يجب أن نلاحظ مع زيادتها الواضحة والدائمة على النسبة العربية انما تظهر منخفضة بسبب تحول ثلث الطلاب اليهود الى المدارس المهنية المختلفة في هذه المرحلة التعليمية وهي مدارس وانواع من التعليم غير متاحة للطالب العربي . وهذا يعني أن الفرق في النسبة بين الطلاب العرب واليهود الذين يتمون الدراسة الثانوية هي أكبر بكثير مما يكشفه الجدول وتزيد بصورة عامة حوالي ٢٥٪ .

ويكفي بعد هذا كله أن تكشف الجداول المتتالية أن ثلثي الطلاب العرب الذين ينهون الدراسة الابتدائية محرومون من الدراسة الثانوية .

٥) فاذا انتقلنا الى التعليم الجامعي كانت الارقام اكثر فضيحة ورهبة : الجامعة الاساسية التي ينتسب اليها الطلبة العرب في اسرائيل هي الجامعة العبرية في القدس ولا يكاد يوجد عربي في غيرها من مثل جامعة تل أبيب أو معهد وايزمن في روحوبوت او التخنيون في حيفا وجامعة باراىلان والمعهد الصحراوي في بئر السبع . وعدد هؤلاء الطلاب العرب في الجامعة العبرية كان كما في الجدول رقم (١٩) .

فاذا غضضنا النظر عن رفض قبول الطلاب العرب في الكليات العلمية واجبارهم على توجيه دراستهم الجامعية الى النواحي النظرية والادبية والدراسات الشرقية فان فضيحة الارقام تكفي : لا يصل التعليم العالي من ٣٥٠ الف انسان سوى ٢٥٠ فردا فقط اي أقل من ثلثي الواحد في المائة . وتتضح معالم الصورة خاصة في الجدول التالي الذي يتصل بالتعليم العالي والتمييز العنصري الفاضح فيه : ففي سنة ٦٦/٦٧ كان طلاب الجامعات اليهود ٢١٧٥٦ طالبا منهم ٣٧٩١ في الهندسة و ٣٦٢٤ في العلوم . وفي سنة ٦٧/٦٨ كان طلاب الجامعات اليهود ٢٥٥٤١ طالبا منهم ٤٢٧٢ في الهندسة و٤٢٠٩ في العلوم والرياضيات . وفي سنة ٦٨/٦٩ كان طلاب الجامعات اليهود ٢٩٢٠٥ طلاب منهم ٤٦٢٦ في الهندسة و٤٦١١ في

العلوم والرياضيات . أما الطلاب الجامعيون العرب في هذه الفترات نفسها فكانوا بالترتيب ٢٨٣،٢٧١،٢٥٠ طالبا فقط كثرتهم الكبرى في العلوم الانسانية والادبية والحقوقية مع العلم بأن العرب يشكلون الان ١٢٪ من سكان فلسطين المحتلة . وفي سنة ٧١/٧٠ قبل في الجامعات اليهودية ٢٩٥٠٠ طالب وارتفع رقم الطلاب العرب مقابلهم كثيرا جدا اذ قبل منهم ٤٠٠ .

المدرسة

كما كانت القوى الاكاديمية والمؤهلة تنقص المجموعة العربية في ميدان التعليم يوم النكبةكذلك كانت تنقصها الوسائل المادية : المدارس والتجهيزات اللازمة فيها . ذلك ان الجهاز التعليمي كان قد أصيب بأضرار جسيمة خلال اضطرابات ٤٨/٤٧ ولما كان معظم العرب الباقين في فلسطين قرويين فان مدارسهم ، كانت في الاصل مباني قروية سيئة البناء وقد استمر التعليم فيها بعد ذلك سنوات بعد سنوات . وفي سنة ١٩٦٣ كتب الاستاذ صبري جريس في كتابه (العرب في اسرائيل) يقول « .. وحالة المدرسة العربية محزنة للغاية والقسم الاكبر من مبانيها لا يصلح لرسالة المدرسة فانها ابنية قديمة متصدعة تحوي غرفا ضيقة ومظلمة وتنقصها المنافع الصحية والساحات والملاعب المدرسية، وأثاثها هزيل وضئيل »(١٠). وبناء المدرسة العربية هو مشكلة التعليم العربي ذلك ان القانون يعفي وزارة التربية والتعليم من توفير الابنية والملاعب والاثاث للمدارس فتلك المهمة منوطة في المستعمرات اليهودية كلها بادارة المستعمرة وانما توفرها لهم مع الابنية الاخرى الوكالة اليهودية نفسها ويشرف على تأمين الحاجات التالية بعد ذلك المجلس المحلي مجلس البلدية للمستعمرة أو البلدة الذي هو صلة الوصل مع السلطات الحكومية فيما يتعلق بجميع الخدمات التربوية والصحية والاجتماعية .

وقد استغلت الدوائر الصهيونية التعليمية هذه الناحية لابقاء القرى العربية في وضعها البدائي التعليمي دون مدارس او خدمات تعليمية أخرى وبالرغم من أن القانون يفرض على الدولة تقديم المساعدة العضوية لتوفير حاجات التعليم الا ان الادارة العربية في وزارة التربية والتعليم تختبىء وراء نص قانوني اخر لا يسمح بتقديم هذه المساعدة الا للقرى التي تتوفر فيها المجالس المحلية او البلديات ، ولما كان تشكيل هذه المجالس منوطا بدوره بوزارة الداخلية وكانت سياسة هذه الوزارة مرتبطة الارتباط الصميمي بالمخططات الصهيونية فقد كان على القرى العربية اذن أن تنتظر . وهكذا لم يطبق حتى سنة ٦٣ نظام المجالس المحلية والبلديات الا في ٤٣٪ من القرى العربية التي يعيش فيها ٦١٪ من المواطنين العرب . شكلت فقط ١١ سلطة محلية ما بين سنتي ١٩٥٠ — ١٩٥٣ ثم تسعة مجالس محلية ما بين سنة ١٩٥٣ — ١٩٥٩ ثم عشرة مجالس محلية أخرى ما بين سنة ١٩٥٩—١٩٦٢ وظل الحرمان الاضطراري من كافة الخدمات (التربوية والاجتماعية والصحية والعمرانية) نصيب ٥٧٪ من القرى العربية التي يأهلها ٣٨٪ من المجموعة العربية . ويبين مدى الظلم في هذه النقطة اذا عرفنا أن ٢،٥٪ فقط من المستعمرات اليهودية تنقصها المجالس المحلية ولا يسكن هذهالمستعمرات سوى ٤٣٪ من السكان . كما يتبين الظلموالاهمال في ذلك ان عرفنا أن أول قرية عربية وصلها الكهرباء في عهد اسرائيل هي قرية الطيبة وكان ذلك سنة ١٩٥٥ ثم وصل الكهرباء سنة ١٩٦١ الى خمس قرى ثم لم يصل حتى سنة ١٩٦٥ الا الى سبع قرى اخرى . وقد اعترف الكتيب الدعائي الذي نشرته وزارة الخارجية الاسرائيلية عن العرب في اسرائيل بنقص الابنية المدرسية وانه كان من الاسباب المعوقة لتطور التعليم بين العرب(١١).

ويمكن أن نقول الان أن المدارس الابتدائية قد فتحت في جميع القرى العربية حتى البعيد منها بحيث أنه في السنة الدراسية ٦٢/٦١ وجدت في ١٣٥ قرية عربية ومختلطة ١٦٧ مدرسة عربية وروضة أطفال وبالرغم من أن هذه المدارس هي في الواقع مراكز للتحرير من الامية بالنسبة للاطفال وليس أكثر فان الفضل في هذا التقدم لا يعود الى سلطات اسرائيل وحدها ولكن يعود ايضا الى شبكة اخرى متشعبة من المؤسسات التبشيرية والطائفية المسيحية خاصة، ومع ان هذه المدارس تتلقى المساعدة المادية القليلة من وزارة التربية والتعليم الا انها تقوم بمهمتها مستندة الى قوى مادية مستقلة ومعظمها خارج اسرائيل. وكثيرا ما كانت المعارك الانتخابية والخلافات

البرلمانية التي تستهدف اجتذاب الاصوات العربية في الانتخابات سببا في اثارة موضوع المدارس وغيرها من نواقص التربية والتعليم عند العرب وكانت السبب في تخصيص بعض المخصصات المالية في ميزانية الوزارة لهذا الغرض . وهكذا خصصت مثلا منذ سنة ١٩٥٩ ولمدة خمس سنوات متوالية ثلاثة ملايين ليرة اسرائيلية تقريبا لتطوير المدارس العربية « ... ولسنا ندري مقدار ما استغل من هذا المبلغ ويجدر بنا أن نذكر ان هذا المبلغ يشكل قسما ضئيلا جدا من ميزانية وزارة التربية والتعليم التي ترقى الى عشرات الملايين من الليرات الاسرائيلية ... » وقد لجأت الحكومة بدل بناء المدارس الى استئجار غرف في أماكن متفرقة متباعدة ومعظمها غير صالح للتدريس وكدست التلاميذ في الكثير منها تكديسا(١٢).

على أن التوسع في المدارس الابتدائية لم يقابله توسع مماثل في المدارس الثانوية . وقد كان في اسرائيل سنة ٦٣/١٩٦٢ عشر مدارس ثانوية عربية يتعلم فيها جميعا ١٤٢٥ طالبا عربيا مقابل ١٣٢ مدرسة يهودية تضم ٤١٤٢٥ طالبا يهوديا . وانظر ان شئت الاحصاء في الجدول رقم (٢٠) .

وانظر كذلك الجدول رقم (٢١) حول عدد المدارس للعرب واليهود في السنوات ذاتها (من ثانوية وابتدائية).

على ان يبقى في البال ان خمس عدد المدارس العربية هو من مدارس التعليم الخاص الاهلي(١٣).

ويتضح مما يلي(١٤) عدد الصفوف الابتدائية والثانوية وكثافتها بالمقارنة ما بين العرب واليهود في سنة ١٩٦٩/٦٨ : عدد صفوف المدارس العربية ٢٠٣٢ منها ١٢٧٨ صفا يتراوح طلابها بين ٣٠ـ٤٥ طالبا . عدد صفوف المدارس اليهودية ٢١٦١١ منها ٩٧٣٢ صفا يتراوح طلابها بين ٣٠ـ٤٥ طالبا . عدد الصفوف العربية الابتدائية ١٨٨٨ والثانوية ١٤٤ . عدد الصفوف اليهودية الابتدائية ١٣٥٨٢ والثانوية ٤٤٢٩+ ١٨٨٢ .

اما مجموع المدارس الابتدائية العربية فيبلغ في السنة نفسها ٢٣٦ مدرسة بينما لا تزيد المدارس الثانوية وما بعد الابتدائية عن ٣٦ وهذا يعني أن لكل ١٦٠٠ ساكن عربي مدرسة ابتدائية واحدة . ولكل ١٠ الاف عربي مدرسة واحدة بعد المرحلة الابتدائية بينما لكل ٤٠٠ يهودي مدرسة ولكل ١٢ الف عربي مكان واحد في الجامعة بينما لكل ٨٣ يهوديا فقط مكان .

ولو انتقلنا الى مجالات التعليم الاخرى لوجدنا الصورة نفسها تتكرر « ففي سنة ٦٤/٦٣ كان لدى العرب مدرستان لاولاد العمال يتعلم فيهما ١٠٥ طلاب مقابل ١٤٠ مدرسة كهذه لدى اليهود تعلم فيها ٥١٣٨ طالبا وأربع مدارس مهنية عربية فيها ١٦٦ طالبا مقابل ١٣٨ مدرسة مهنية يهودية فيها ٢١١١١ طالبا يهوديا . ومدرسة زراعية واحدة فيها ٥١ طالبا عربيا مقابل ٤١ مدرسة زراعية يهودية فيها ٧٣٠٩ طلاب يهود » . ودار واحدة للمعلمين فيها ١٠٤ طلاب مقابل ٤٢ دارا لليهود فيها ٧٥٧٥ طالبا(١٥).

ويمكن أن نلحق بمشكلة المدرسة مشاكل الادوات والاثاث ووسائل الايضاح والكتب المدرسية والمختبرات والخرائط . والكتاب الاعلاميون الصهيونيون يعترفون بهما اعترافا كاملا . ويقر (بنتويتش) الباحث التربوي الصهيوني ان كثيرا من مدارس القرى العربية لا تحوي سوى بعض المقاعد القديمة دون اي معدات تعليمية(١٦) واليهودي الامريكي راندولف براهام يذكر بدوره أن بعض مدارس العرب لا يزال على اثاثها ومعداتها التي كانت عليها أيام الانتداب البريطاني(١٧). على اننا يمكن ان نرى صورة حية عن هذا النقص في كلمة مواطن عربي عاش تلك المشكلة في أرضها وكتب عنها بالعبرية أيضا قبل أن يكتب بالعربية . قال في صدد الكتب المدرسية « ... ان المدارس العربية تعاني نقصا ملموسا في كتب التدريس بحيث أن المعلمين والطلبة يضطرون الى استعمال الكتب القديمة أو نسخ مادة التعليم من كتب يصعب الحصول عليها . ورغم أن تحسينا طرأ على هذا الوضع في المدارس الرئيسية الا أن حالة النقص في الكتب في المدارس الثانوية لا تزال قائمة . والمكتبة العربية في الدولة فقيرة جدا ليس في الكتب الدراسية فحسب بل في كتب المطالعة والثقافة العامة . وحتى نيسان سنة ١٩٦٤ ظهر في اسرائيل ٢٧٠ كتابا باللغة العربية منها ٦٤ كتابا الفه كتاب مقيمون في اسرائيل عرب ويهود و٢٠٦ كتب نشرت اولا في الدول العربية واعيد طبعها في اسرائيل . وثمة نقص

اخر ذريع في الخرائط وفي وسائل الايضاح فـي المختبرات ...»(١٨). ويضيف الكاتب في مكان اخر قوله « ان الحكومة (الاسرائيلية) هي المسؤولة عن النقص الذريع في كتب التدريس في المدارس العربية لاطول فترة مستمرة وليس في اسرائيل نقص في القوى اللازمة لتأليف كتب تدريس باللغة العربية سواء كان المؤلفون من بين العرب المقيمين في اسرائيل ام من بين اليهود الذين هاجروا اليها من البلاد العربية . ولو أن هذه القوة كانت منعدمة لامكن ترجمة بعض الكتب المقررة في المدارس اليهودية أو ترجمة كتب غيرها من اللغات الاجنبية أو اعادة طبع كتب تدريس عربية صادرة عن البلاد العربية المجاورة بدون اذن كما فعلت الهستدروت حين طبعت القصص العربية . وقد أشارت لجنة التربية والتعليم والثقافة التابعة للكنيست الى حالة النقص في كتب التدريس في المدارس العربية في تقريرها (المجلد ٣٣ من وقائع الكنيست صفحة ١٠٥٨ بتاريخ ١٩٦٢/١/٢٤) وطالبت وزارة التربية والتعليم ببذل اقصى الجهد للتغلب على هذا النقص . والى حالة النقص في الكتب المدرسية عزت اللجنة تأخر التعليم بين العرب المقيمين في اسرائيل»(١٩). لكن السلطات الصهيونية كانت وما تزال واقعة من هذه المشكلة في حيص بيص فهي ترفض كتب عهد الانتداب كما ترفض بالطبع الكتب المدرسية التي تدرس في البلاد العربية المجاورة ويقول قائلها ، وهو مدير التعليم العربي (اليهودي) « يجب أن ننتج نحن كتبنا »(٢٠) ولكنها حتى الان لم تبذل أي جهد لانتاج الكتب المدرسية العربية التي تلائم الصهيونية!

مناهج الدراسة

ليس من غرضنا ولا في امكاننا هنا دراسة المناهج الدراسية المطبقة على عرب فلسطين ولكنا نورد الملاحظات الاساسية حول هذه المناهج وطرق تطبيقها لكشف الاستراتيجية الصهيونية في التعليم العربي من ورائها . واذا انتخبنا من المناهج مواد اللغة العربية والدين والتاريخ باعتبارها المواد القومية — الروحية فماذا نجد ؟

اللغة العربية : هي في النصوص القانونية لغة رسمية ولكنها في الواقع ليست كذلك الا في بعض الاوراق الرسمية ولا يراها المواطن العربي الا حين يصله انذار الجابي بدفع الضريبة . « واذا كانت نسبة مئوية كبيرة من خريجي المدارس العربية الابتدائية يقراون ويكتبون العربية بصعوبة رغم انهم رضعوا لبان العروبة » فان معنى ذلك وسببه واضحان في منهج التعليم نفسه الذي يرمي الى تهويد الفكر العربي الناشيء « وتتجلى هذه النية المبيتة في برنامج تعليم اللغتين العربية والعبرية ففي الوقت الذي يتضمن منهاج تعليم اللغة العربية فترة واحدة فقط بالنسبة لاهداف تعليم اللغة العربية نجد أن منهاج اللغة العبرية يتضمن ثلاث فترات عن اهدافه ويتضمن في الفترة الاخيرة (ان اللغة العبرية تدرس وفقا لمنهاج ثابت متصل في المدارس العربية من الفصل الرابع الابتدائي) وتتجه النية الى التوصية بتعليمها ابتداء من الصف الاول الابتدائي واحيانا من رياض الاطفال . وذلك عن طريق الاناشيد والالعاب والاعياد وقد اجاز واضع البرنامج امكانية تعليم العبرية في ظروف معينة بحيث تحل محل اللغة العربية ». وبينما تستوى ساعات اللغتين في المرحلة بعد الابتدائية يجد الطالب العربي نفسه تحت التوجيه المركز وأمام ضغط الحاجة العملية أو الثقافية مضطرا للعناية بالعبرية بل وبالانكليزية اكثر بكثير من عنايته بالعربية التي لا يبدو انه قد يفيد منها كثيرا في المستقبل وينقطع بهذا الشكل سبب اساسي من اسباب ارتباطه بقوميته وأهله. « وقد حذفت من البرامج التعليمية في المدارس العربية مجموعة كبيرة من القصائد العربية الشهيرة والانتاج العربي الذي كان لقاح عقول الشعراء والكتاب العرب المشهورين في التاريخ وحل محلها قطع ادبية مبتذلة ضعيفة لكتاب مغمورين .. » مما يزيد في سعة الهوة بين المثقف الناشيء والتراث الثقافي القومي(٢١).

حتى اللغات الاخرى في المدرسة العربية يتلقى الطالب العربي فيها دروسا دون المستوى المطلوب مما يؤدي بالكثيرين الى السقوط في امتحانات الشهادة الثانوية او الى العجز عن متابعة الدراسة الجامعية .

الدين : ليس من هدف اليهود بالطبع تحويل المسلم أو المسيحي الى يهودي ولو حاولوا ذلك لما استطاعوه لاسباب كثيرة ولكنهم في الوقت الذي يحاولون فيه تثبيت مفاهيم اليهودية في نفوس

العرب يحاولون ايضا الغاء كل ما يمكن ان تحمله الديانتان الاسلامية والمسيحية من ادانة لليهود : وهكذا نجد مثلا أن تعليم التوراة الزامي في المدارس الثانوية العربية . في حين ان الديانتين الاسلامية والمسيحية لا تدرسان مطلقا ولا تدرس كذلك بعض السور من القرآن الكريم في المدارس الابتدائية العربية . وكذلك حرمت وزارة التربية والتعليم تدريس سورة (الممتحنة) من القرآن الكريم في مدارس اليهود لان الآيتين الثامنة والتاسعة منها حوتا الحث على الجهاد ضد الذين قاتلوا المسلمين في دينهم واخرجوهم من ديارهم او ساعدوا على اخراجهم . « ويلاحظ أن الايات القرآنية والاحاديث المختارة للتربية الدينية تتركز في الجانب الاخلاقي والتهذيبي وتتجاوز الايات المتعلقة بنظم الحكم والمجتمع أو تتعلق بالجهاد او بواجب المسلمين ضد الاخطار»(٢٢). والغرض من كل ذلك محو كل مستند روحي قد ترتكز اليه فكرة ثورية بالمقاومة .

التاريخ : وفي هذه المادة ينكشف بوضوح الموقف الصهيوني الذي « يستهدف بلبلة الاجيال العربية الناشئة في اسرائيل عن طريق تزييف تاريخ الشعوب العربية وتمثيله وكأنه سلسلة من الانقلابات وعمليات القتل والخصومات والسلب والنهب بشكل رمى الى انتقاص المكاسب والانتصارات العربية خلال الاجيال مقابل تعظيم التاريخ اليهودي وتوسيعه وصبغه بألوان كأنها قطع الورد ... » ونظرة عابرة الى برامج التعليم الرسمية التي وضعتها وزارة التربية والتعليم والثقافة ترينا هذه الاهداف، فقد خصصت عشر ساعات لدروس تاريخ العبرانيين في الصف الخامس الابتدائي مقابل خمس ساعات لدراسة شبه الجزيرة العربية وخصص للتاريخ الاسلامي في الصف السادس ٣٦ حصة من بين ٦٤ حصة للتاريخ العربي كله من أوله حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ، مع الاشارة الى الطبيب اليهودي موسى بن ميمون الذي عاش في عصر صلاح الدين وابن جبيروت الشاعر اليهودي الاندلسي . ولا يدرس التاريخ العربي في الصف السابع الابتدائي مطلقا في حين ان سدس السنة الدراسية مكرس للعلاقات القائمة بين الجاليات اليهودية في الخارج وارض اسرائيل . وان عشر حصص قد خصصت للصف الثامن والاخير في المدارس الابتدائية العربية لدراسة التاريخ العربي ابتداء من القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا مقابل ثلاثين حصة لدراسة تاريخ اسرائيل . ويلاحظ اذن أن الطالب العربي لا يعرف شيئا عن تاريخ العروبة من اوائل القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر . ومن برامج التعليم في الصف الثامن تأزم العلاقات الطائفية في سوريا ولبنان والخصومة بين الدروز والموارنة (والمسلمين) في سنة ١٨٦٠ . وليس الوضع بالنسبة لتعليم التاريخ العربي في الصفوف الثانوية العربية بأحسن حالة منه في الصفوف الابتدائية . فخلال السنوات الثانوية الاربع في هذه المدارس خصصت للتاريخ العربي ٣٢ حصة فقط وحذف منه تاريخ الفتح العربي للاندلس والمدنية العربية التي أضاءت تلك البلاد خلال الحكم العربي الذي امتد الى ٨٠٠ سنة فيها ومقابل ذلك شملت دراسة التاريخ اليهودي هنا ٣٨٤ حصة وأدهى من ذلك كله الاسئلة المقدمة للتلاميذ في امتحان الدراسة الثانوية العامة . فبينما تبدو الاسئلة المتعلقة باليهود قراضة واسعة، متناهية في الجدية ومن ورائها الخط السياسي الرسمي لحكومة اسرائيل ، تكون الاسئلة المتعلقة بالتاريخ العربي مجرد فوازير تبرز فيها الحركات المبتذلة والخصومات على انواعها في العالم العربي . وتعير اهتماما كبيرا لدور الانحطاط في التاريخ العربي . وتتعامى عن جميع الزعماء الذين ابرزوا شخصية الامة العربية خلال الاجيال ضمن ذلك ان لا يسأل الطالب في هذه الامتحانات عن النبي محمد (ص) ابدا ولا عن الخليفة هارون الرشيد ولا عن الخليفة معاوية ولا عن صلاح الدين وهم من أعظم الرجال في تاريخ الشعوب العربية(٢٣).

ويتركز التزييف التاريخي الجغرافي خاصة في كل ما يتعلق بفلسطين من الارض وما حولها . فكل الخطوط في المناهج والتدريس موضوعة لايهام الطالب العربي أن فلسطين ارض يهودية منذ القدم وذلك باستبدال كافة اسماء الاماكن والانهار واعطائها اسماء عبرية وباظهار العلاقة التاريخية بين الاماكن في فلسطين وبين اليهود والمقابل اظهار العرب في فلسطين وكأنهم احدى فصائل الغزاة الكثيرين الذين مروا على فلسطين ابتداء من الرومان ومرورا بالاتراك حتى الانجليز وهم لا

يهيئون بذلك الجو النفسي للطالب العربي كي يتقبل الاحتلال ولكنهم يهدئون الى ايهامه ـ كالطالب اليهودي بأن الاقسام الاخرى من اسرائيل الكبرى لا تزال بيد العرب « المغتصبين الغزاة » وفي معرض الرد على غولدمان قال احد الصهاينة : « ماذا يريد العرب منا بعد ؟ أيريدون اكثر من ان يرقص الشعب اليهودي طربا في الشوارع عندما قسمت الامم المتحدة بلاده عام ١٩٤٧ واعطت قسما منها للفلسطينيين العرب ؟ »(٢٤). ولعل المشكلة الاساسية التي تعاني منها المناهج في المدرسة العربية بالارض المحتلة هي عدم الاستقرار والتغير المستمر فيها ولعل هذا نتيجة مشتركة لثلاثة عوامل : الاهمال من جهة وتوخي التجريبية فيها ورصد النتائج من جهة اخرى بجانب الرغبة في زرع القلق المستمر وعدم التكامل في شخصية الناشىء العربي والمعلم العربي على السواء .

والواقع انه لم توضع حتى الان ورغم مرور ٢٣ سنة على الاحتلال مناهج مدرسية كاملة للمدرسة العربية ولا مناهج ثابتة ويتكرر التغير بين حين وآخر في برامج التدريس الثانوي خاصة ويظهر زيادة في البلبلة قبيل امتحانات الشهادة الثانوية والتعديلات المتكررة لهذه المناهج تهدف دوما الى زيادة تلاؤمها وخدمتها لاهداف الدولة الصهيونية ومحو ما قد يعارض ذلك .

أسس وأهداف السياسة التعليمية الصهيونية

ماذا وصلنا اخيرا الى هذه الاسس والاهداف لماذا نجد ؟ ان (اوري لوبراني) مستشار رئاسة الحكومة الاسرائيلية للشؤون العربية وهو المفتاح الاول لكل ما يتعلق بالعرب في الارض المحتلة قد كفانا مؤونة البحث عن النوايا الصهيونية والتخمين بشأنها حين قال « ... لو لم يكن ثمة عرب (في الارض المحتلة) لكان الوضع خيرا وأبقى . ولو ان العرب بقوا حمالي حطب (وسقائين) فربما كان أسهل لنا أن نتحكم فيهم . لكن ثمة أمورا لا تخضع للرغائب . (ما كل ما يتمنى المرء يدركه) ولا مناص من ذلك وعملنا انما يتطلب منا كتابة نص المشورة واحاطة المسؤولين علما بطريقة معالجة القضايا »(٢٥). والكلمة لا تحتاج الى تعليق و« القضايا » المطلوب « معالجتها » انما تعني كما هو واضح المشاكل الناجمة عن وجود كائنات حية غير يهودية تتنفس على ارض فلسطين ومعالجتها تعني بيان الطرق والوسائل لتسطيح هذه الكائنات وكف ما قد تحمل من خطر على الكيان اليهودي .

وتستند النظرة الصهيونية الى عرب الارض المحتلة الى خلفيتين فكريتين اساسيتين كلاهما سلبي ويضرب جذورا عميقة من الحقد والهجومية : ـ **أولاهما** : نظرة الاحتقار للعرب وللاسلام ومن ورائه للمسيحية والسيد المسيح ايضا والافكار السائدة تربط بين الاسلام والقومية العربية في مفهوم واحد . فاذا كان العرب من « الغوييم » « الاميين » المحتقرين (ولعلهم أسوأ الغوييم بسبب رفضهم اليهود) فان الاسلام ، كما قال اسرائيل كارلباخ رئيس التحرير السابق لجريدة معاريف في هذه الجريدة « الاسلام عدو كل تفكير مثمر وكل زمام مبادرة طيب القلب وكل فكرة منتجة . انه ما قدم قط اي صنيع (حسن) في الماضي ولن يقدم اي جميل في المستقبل . انه الظلام . انه الرجعية انه السجن لخمسمائة مليون انسان ... »(٢٦). **ثانيتهما** : نظرة الصهيونية للاقلية العربية لديها على انها تمثل المجموعة الضخمة من العرب في العالم وتحمل اوزارها وعلى أنها الاقلية ـ الاكثرية بما يشد ازرها من مائة مليون عربي مجاورين مقابل الاكثرية ـ الاقلية الذين هم اليهود المطوقين بهذه الملايين المائة . ان جانبا كبيرا من تكثيف القوى وحشدها في اسرائيل انما سببه التخوف الدائم من هذه الاكثرية العددية ذات العمق الاستراتيجي البعيد وينعكس هذا التخوف بنتائجه على تلك الاقلية وفي مناقشة في الكنيست للاحكام العسكرية المفروضة على العرب سنة ١٩٦٣ صرح بن غوريون بأن « الكثيرين من افراد الاقلية العربية المقيمة في اسرائيل لا يرون أنفسهم اقلية بل انهم يرون اليهود كأقلية . وافكار هؤلاء العرب ترتكز الى اساس ان الاكثرية اليهودية هي بالفعل اقلية تحيط بها من وراء الحدود عشرات الملايين من ابناء الشعوب التي تنتمي اليها الاقلية العربية في اسرائيل ... » ان هذه المعادلة الحرجية بين الفزع ونزعة التهويد بفلسطين هي التي تحكم العملية الاسرائيلية كلها وتحكم بين ما تحكم عملية التعليم سواء بجانبها السلبي للعرب او بجانبها الايجابي لليهود . ولنلاحظ ان النظرة الرسمية لهذه الاقلية

لا تعتبرها مواطنين ولكن « غرباء » . وحين اجاب مردخاي شابيرا وزير الداخلية عن بعض الاسئلة في مناقشة قانون الجنسية في الكنيست ذكر « الحقوق المهمة التي تكرمت بها على عرب الارض المحتلة حين منحت دولة اسرائيل رعويتها الاسرائيلية التلقائية لـ ٦٣ ألفا من الغرباء الذين سجلوا في سجلاتها بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٩٤٨ ... » وما هؤلاء «الغرباء» سوى بقية عرب فلسطين الذين ولدوا وولد آباؤهم والاجداد عشرين قرنا او تزيد في فلسطين قبل قيام اسرائيل وقد سجلوا انفسهم — وأحكام الحرب سنة ١٩٤٨ ما تزال قائمة — فوق أرضهم القومية(٢٧). وعلى ضوء هاتين الخلفيتين فان الاهداف التي تضعها الصهيونية الاسرائيلية لتعليم العرب قد تكون واضحة ويمكن ان نتبين فيها ثلاثة خطوط رئيسية :

١) ابقاء العرب في الارض المحتلة قاصرين اجتماعيا وممزقين سياسيا ودينيا وعاجزين اقتصاديا وجعلهم افرادا او مجموعات سلبية لا كتلة ايجابية واحدة امام المجتمع اليهودي النامي المسيطر وفي خدمة أموره الدنيا . وتكوين خلفية فكرية لديهم من التسليم بالواقع وبحق اليهود وتفوقهم وظفرهم النهائي ان لم يكن الالهي .

٢) السيطرة على القوى النامية في المجموعة العربية وما قد ينشأ فيها من قيادات وقطع العلاقات القومية كلها بالتاريخ العربي واللغة والدين (ان أمكن) والارض والقوم وربط الولاء بالمقابل باسرائيل لتبقى القيادات — ان ظهرت — دون جذور او بيئة فكرية او اجتماعية مواتية .

٣) الاحتياط لمخاطر التفجر السكاني الذي تتميز به هذه المجموعة التي زادت الى الضعف زيادة طبيعية منذ قيام اسرائيل ، وهذا التفجر السكاني قد تكون له مخاطره ان التقى داخليا مع افكار قومية عربية او قوة اقتصادية او التقى خارجيا مع قوى العالم العربي . واذا كانت المجموعة العربية الان غير هامة ديمغرافيا (عشر السكان) فان صلتها القومية قد تجعلها في المستقبل هامة جدا وهنا يكمن الخطر ويجب حفظ التوازن ما بين عوامل التفتح الفكري والقوة المادية والديمغرافية المتزايدة في هذه المجموعة . وما بين أهداف اسرائيل في الاستقرار النهائي في المنطقة واقامة الدولة اليهودية الخالصة وتشييد الحضارة العبرية التي « تعيد الشعب اليهودي من جديد شعبا مختارا منيرا الطريق أمام العالم كله »(٢٨). اما الخطط والطرائق الى تحقيق تلك الاهداف فتقوم على استراتيجية ذات ثلاث شعب متعاونة فيما بينها :

الاولى : عملية التجهيل المنظم للجماعة العربية الواسعة ذات المؤشر الديمغرافي الخطر وذلك بالحفاظ على مستواها الاجتماعي القائم وزيادة التمزق السياسي والضياع القومي وهذه العملية تبدأ بسجن العرب الاضطراري في اطار الريف وجعل المدن — وهي يهودية كلها — محرمة وعدوة وتنتهي بالمقاطعة الثقافية والقسرية لما وراء الحدود . وتستند بين هذا وذاك الى تحييد الكتلة العربية فلا تكون بؤرة للثوريين والى تشجيع الانقطاع المدرسي الواسع واقلال المدارس وتصعيب الدراسة والى الالحاح في طرح القضية الفلسطينية والنزاع مع العرب لا على انها قضية ارض حقوق وانسان ولكن على أنها نزاع ديني وتعصب اسلامي . ولما كان اليهود لا يرغبون في تهويد المسلم والمسيحي فعداء العرب لهم اذن لا مبرر له سوى الحقد الاعمى .

الثانية : عملية الافقار الاقتصادي ومنع العلم من ان يكون وسيلة للتطور في مستوى المعيشة والفكر فاذا تحولت الكتلة العربية عمالا (زراعيين او صناعيين) حلت حاجة المصانع اليهودية للايدي العاملة وتفرغ اليهود للامور العليا وسهل اقتناص ما بقي من الارض الفلسطينية بيد العرب . وسهلت في الوقت نفسه السيطرة على المجموعة العربية . ولعل من الامور ذات المغزى الا يكون في ثلث مليون عربي بعد ربع قرن من الحكم الصهيوني سوى ٣٥ محاميا و٤٠ طبيبا و٢٥ مهندسا .

الثالثة : عملية « الحصار الثقافي » للطلائع العربية الناشئة فان المتحولتين الخطرتين اللتين تمثلهما عوامل التفتح الاجبارية من جهة والزيادة الديمغرافية من جهة اخرى يجب ان تقابلهما لالغاء دورهما الايجابي الخطر عملية « تعقيم » مزدوجة الخطة فيها القطيعة مع العروبة من جهة ، وفيها وجهها الاخر المتمم وهو الولاء الخالص لاسرائيل . وتلعب المدرسة العربية في هذا النطاق الدور الاول في مرحلة النشأة بينما تحل موارد الرزق محلها في المراحل التالية والانسان العربي في

الحالين تحت رحمة مقص التشذيب والتقليم .

وبالرغم من ان هذه العملية اشبه بتنقية الصبير من الشوك او بقتل الافعوان ذي الرؤوس السبعة فان اسرائيل تتابعها بدأب عجيب منظم ومن حدودها الواضحة فك الشباب العربي عن كل ارتباط قومي، واضعافهم لا في لغتهم الام فقط ولكن في اللغات الاجنبية كلها الا العبرية فلهم ان يغرفوا منها ما شاءوا والتحكم في الاقنية القائمة بينهم وبين وسائل النشر سواء في وصولهم اليها او وصولها اليهم. ولما كانت هذه الاستراتيجية المتعددة الاسس مشتبكة الحدود ايضا فيما بينها فان الوسائل والمداخل التطبيقية والخطط التكتيكية في اطارها هي كذلك ، مشتبكة الحدود متداخلة بقدر ما هي متعاونة وغالبا ما تخدم الوسيلة الواحدة أكثر من خطة ضاربة عدة عصافير لا عصفورين فقط بحجر . وهذه الوسائل والمداخل التطبيقية تكشف الكثير من جوانبها والحدود خلال الصفحات الماضية ولعلنا نستطيع في النقاط التالية أن نحمل بعض ملامحها ومن الممكن دوما ان يضاف الى هذه الملامح الكثير :

١) التحكم في ادارة التعليم العربي ووضعها بيد قوى متعددة مسيطرة . فالحاكم العسكري له فيها بقدر ما للادارة العربية للهستدروت، والمخابرات العسكرية تأمر فيها بقدر ما تأمر الادارة العربية في وزارة التربية ومستشار رئيس الحكومة ينظم بقدر ما تنظم اجهزة الاحزاب وبجانب هذه القوى الست تأتي القوى الصغيرة الاخرى من محلية وعائلية لتدس انفها . وليس من شأن تعدد القوى ان يضع هذا التعليم ضمن اطار كامل من الرقابة الدقيقة فقط ولكن من شأنه ايضا ان يؤدي الى الاضطراب وتعطيل التطور في الجهاز التعليمي وهذا بدوره ايضا هدف مطلوب .

وتلتقي جميع هذه القوى في تأثيراتها حول مركز واحد هو آلة التعليم نفسها : المعلم ، فهي تسيطر عليه السيطرة الكاملة تعليما في دار المعلمين او تعيينا بعد التخرج (او دون تخرج) او توجيها خلال العمل او استمرار رزق على توالي السنين فأنجح المعلمين عندئذ هو من وصل نقطة السلبية المطلقة واللامبالاة وانسحاق الشخصية وانجح منه من اثبت بالتعاون مع السلطات انه تجاوز نفسيا وعمليا حاجز الوازع القومي الى الطرف الاخر العدو.

٢) تمزيق الجماعة العربية الى طوائف وخلق الاحقاد والفرق والحساسيات بينها والتمييز بينها في المعاملة التربوية او على الاصح التمييز في معاملتها بما لا يتعارض مع الاهداف الصهيونية العامة . ليس هناك من « عرب » في فلسطين . هناك في عرف اليهود مسلمون (ويقصد بهم السنيون خاصة) ومسيحيون ودروز وآخرون وعلى هذا الاساس يجري التعامل مع الجماعة العربية (انظر مثلا الجدولين رقم ٤ و١٢) وما التمييز التربوي التعليمي سوى جزء من السياسة الاسرائيلية العامة لتفكيك المجموعة العربية .

واذا كان عدد من العوامل قد جعل التدخل الاسرائيلي في شؤون الطائفة المسيحية اقل ما يمكن بسبب المراكز الروحية والسياسية التي تحميها وتغذيها خارج اسرائيل ، فان الطائفة الاسلامية بالعكس هي التي تتوجه اليها أقسى النقمة . ومع أنها تشكل الاكثرية في المجموعة العربية الا ان « ... هذه الطائفة تقاسي اكثر من اي طائفة اخرى في اسرائيل »(٢٩) وتنهب أوقافها وتتدخل السلطات اليهودية في تسيير امورها الشرعية وتعيين قضاتها وتحديد مناهج التربية الدينية والتاريخية في مدارسها ... وتنتقم بها من كل العرب الموجودين خارج الحدود .

ويقابل هذا الموقف موقف التمييز الذي تتفنه السلطات الاسرائيلية من الطائفة الدرزية(٣٠) ومع ان الدروز عرب خلص ويشكلون احدى الفرق الاسلامية المعروفة فان تلك السلطات تصر على ان تجعل منهم مجموعة قومية مميزة، فالناطقون الرسميون باسم الحكومة والصحافة العبرية والموجهون السياسيون والناس يتحدثون هناك عن « القرى العربية والقرى الدرزية كمجموعتين منفصلتين وتقوم حملة دعاية في اسرائيل وخارجها لتمثل الدروز كشعب غريب منفصل له لغة مشتركة مع اليهود ومصالح مشتركة وتعايش مشترك في منطقتين متجاورتين ووحدة مصير » وقد اعترفت اسرائيل بهم كطائفة دينية مستقلة من الاديان الاخرى(٣١). وحين سئل وزير الداخلية في الكنيست عن تسجيل القومية الدرزية على بطاقات الهوية الخاصة بأبناء هذه الطائفة أجاب بأنه أقر هذا الامر تجاوبا مع طلب رؤساء الدروز في اسرائيل(٣٢).

على أن هذا النفاق الصهيوني للدروز الذي لم يحم

أرضهم من أن تنهبها السلطات الاسرائيلية كغيرها من الاراضي العربية سواء بسواء لم يعد عليهم ، الا بأقل المنافع من الناحية التعليمية والتمييز انما استخدم وعلى نطاق واسع لبلبلة المدرسة العربية وتزييف التعليم العربي كله . حتى لقد ظهرت مثلا كراسة أعدت لتكون « كتاب قراءة خاص بالطلبة الدروز في الصفوف العليا من المدارس الابتدائية». وحين افتتحت في حيفا مدرسة ثانوية مهنية للعرب في سبتمبر سنة ١٩٧٠ قيل أنها للشباب العمالي العربي والدرزي ... ولكنها لا تعلم سوى يوم واحد في الاسبوع(٣٣). وتقدم بعض المنح الدراسية الجامعية ولكن للطلاب الدروز(٣٤) . ويكتب كاتب يهودي مقالا يفخر فيه بتقدم التعليم بين ابنـاء الطائفة الدرزية(٣٥) وارتفاع رقم الطلاب ما بين سنة ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ وسنة ٦٧/٦٨ من ٩٨١ طالبا الى ٨٠١٩ وارتفاع نسبة الفتيات في هذا الرقم من ١٠٫٢٪ الى ٤٦٪ وارتفاع عدد المعلمين الدروز من ٦ الى ١٦٠ وعدد المديرين من ٢ الى ١٣ الا ان هذا لم يمنع كاتبا آخر من ان يعترف بالواقع فقانون التعليم الالزامي غير مطبق والمستوى المنخفض في المدارس الابتدائية الدرزية يشكل عتبة خطرة أمام الشباب الدرزي في الدراسة الثانوية ونسبة خريجي الثانوي من الدروز هي اكثر نسبة منخفضة في الدولة وليس هناك من مراكز كافية للتعليم الثانوي(٣٦).. الخ.

وواضح من هذا انه لا الطائفة المغضوب عليها ولا المرضي عنها قد حظيتا بأي عناية تعليمية وان المقصود من التمزيق الطائفي هو زيادة السيطرة الحكومية واضعاف الجماعة العربية امام تلك السيطرة واذا كانت الطائفة المسيحية على المستوى نفسه من الاهمال الحكومي فانها تعنى بشؤونها التعليمية الخاصة عن طريق الارساليات الاجنبية ويكشف الاحصاء (الجدول رقم ١٢) ان ثلاثة ارباع التعليم الخاص غير الرسمي هو في القطاع المسيحي للمسيحيين اما في الحكومي فيمشي بجانب التعليم الدرزي وعلى المستوى نفسه .

٣) عدم توفير الوسيلة التعليمية اللازمة ابتداء من المعلم المؤهل وانتهاء بوسيلة الايضاح مرورا ببناء المدرسة والكتاب المدرسي العربي . ولا يعود الامر الى الاهمال ولكن الى تخطيط مدروس المقدمات والنتائج .

وتستطيع الشكوى في اسرائيل ان تصل مع الامواج الانتخابية وزحام المزايدة في السوق الى الكنيست وقد وصلت الشكاوى العربية بالفعل حتى لجنة التربية والتعليم في الكنيست أكثر من مرة وكتبت هذه اللجنة في تقريرها أكثر من مرة أيضا مثل هذه الجملة « من واجب وزارة التربية والتعليم ان تبذل الجهد الخاص والعميق لتقدم المساعدة لرفع مستوى التعليم العربي والدرزي الى درجة مقبولة »(٣٧) بعد أن شهدت هبوط ذلك المستوى الهبوط الفاضح ولكن التوصية شيء والممسكين بمفاتيح السياسة والتنفيذ شيء آخر والانقطاع المتعمد بين الطرفين لا سبيل لاجتيازه لانه مرتبط بمصالح « الدولة » العليا .

٤) عملية التصفية المنظمة للتلاميذ قبل المدرسة واثناءها وبعدها في سلسلة متصلة من التطويق والتشذيب: فربع الاطفال الذين يبلغون سن المدرسة محكومون ان يبقوا أميين (كانت النسبة من قبل الثلث) والذين يتاح لهم دخولها تفتح لهم كل سبل الهرب منها . فاذا الخط البياني لتناقصهم هابط بشكل عمودي فلا ينتهي الصف الثامن ابتدائي الا وقد وصله ما بين عشر الى سدس من دخل الصف الاول ثم لا يدخل المرحلة الثانوية الا ثلث المتخرجين من الابتدائي فاذا انهوها لم ينل الشهادة الثانوية منهم الا ١٥ ٪ فقط وقد هبطت النسبة احيانا الى ٦ ٪ فقط وان ارتفعت اخيرا الى حوالي ٢٠ ٪ ثم لا يدخل الجامعة من هؤلاء الا حوالي الربع . عملية تصفية متصلة قوامها عدم تطبيق قانون التعليم الالزامي وتشجيع الهرب المدرسي ، مقابل التشدد القاسي في الامتحانات وفي تضييق أماكن وشروط القبول لحلقات الدراسة بعد الابتدائية .

وقد دلت الاحصاءات على ان معدل الراسبين من الطلبة العرب في امتحان الشهادة الثانوية العامة يبلغ عبر عدد من السنين اكثر من ٨٥ ٪ وقد اعترف وزير التربية والتعليم مرة امام الكنيست بتاريخ ٦٣/٣/٢٧ بالنسبة المئوية التالية لنجاح الطلبة العرب : في سنة ٥٨/٥٧ كانت النسبة المئوية ٨٫٦ ٪ . وفي سنة ٥٩/٥٨ كانت النسبة المئوية ٦٫٧ ٪ . في سنة ٦٠/٥٩ كانت النسبة المئوية ٩٫٥ ٪ . في سنة ٦١/٦٠ كانت النسبة المئوية ١٣٫١ ٪ . في سنة ٦٢/٦١ كانت النسبة المئوية ١٠٫٣ ٪(٣٨).

وتظهر هذه النتيجة بشكلها الفاجع عند مقارنة النسبة المئوية للخريجين العرب من المدارس الثانوية منسوبة الى مجموع الخريجين . والجدول رقم (٢٢) يبين هذه النسبة خلال عشر سنوات(٣٩). وبدلا من ان تعمد السلطات الى تلافي هذه النسبة جذريا بزيادة العناية بالتعليم العربي عمدت بالعكس الى منع القبول للامتحان الا للمتفوقين من الطلبة العرب(٤٠). ولكي يتكشف اثر هذه الخطط يكفي القاء نظرة على الجدول رقم (٢٣) لحاملي شهادة الدراسة الثانوية من العرب واليهود(٤١). ونجد النتائج نفسها في التعليمين المهني والزراعي فان نسبة الطلاب العرب فيهما الى اليهود اعتبارا من سنة ١٩٦٢ السنة التي وجد فيها هذان النوعان من التعليم بالنسبة للعرب هي كما في الجدول رقم (٢٤) . واما هذه النتائج بالارقام فهي كما في الجدول رقم (٢٥) .

اما النسبة المئوية للطلاب العرب في الجامعات فهي النسبة المخجلة . انهم دوما أقل من ١ ٪ من عدد الطلاب اليهود : في سنة ١٩٦٠ — ٦١ كانوا ٧١، بالمائة وفي سنة ٩٦٥ — ٦٦ كانوا ٩٦، بالمائة وفي سنة ٩٦٦ — ٦٧ كانوا ٩٨، بالمائة .

وليس لمثل هذه النتائج سوى تفسير واحد هو انها سياسة مخططة لتحطيم الطالب العربي وحرمانه بالوسائل المختلفة من الطموح الى تجاوز واقعه عن طريق العلم . وحتى الذين ينجحون اخيرا في سباق قفز الحواجز هذا مضطرون آخر الامر للتسليم بالامر الواقع حين يصطدمون بشروط تحرم عليهم الالتحاق بدراسات معينة علمية او هندسية وتبقيهم في اطار الدراسات الشرقية والنظرية ، تلك خاتمة المطاف الطويل ! فان تخرج الطالب بعد ذلك كله وما يزال به رمق من عنفوان قومي او حاول ان يتمرد على كل تلك القوالب التي صيغ من خلالها يكون الحكم العسكري كفيلا به وبأن يحمله على الجادة بما يملك من وسائل الترغيب والترهيب والا فالطريق السوي ممدود امامه من الاقامة الجبرية الى السجن الى المنفى الداخلي ثم الى النفي خارج البلاد ، ان لم يسبق هو نفسه هذا الطريق الجهنمي الطويل فيتعجل الرحيل عن اسرائيل !

ه) تفتيت المواطن العربي من الداخل وتسطيح كل النتوءات الجارحة التي يحملها من بيئته الخاصة باستخدام المادة العلمية نفسها وسيلة للتشويه الفكري والضياع القومي والاسقاط العملي في الحياة . واكثر ما تستخدم في هذا السبيل المواد القومية ، اسس القومية العربية ذاتها من لغة ودين وتاريخ مشوه هي التي تستخدم كمواد سلبية ضد الشعور القومي العربي وتوضع بالمقابل المواد القومية الصهيونية اتطاب جاذبة ايجابية . وتلعب الهزائم العربية الحالية دورها الكبير بين هاتين المتحولتين لينتهي الشاب العربي الى اليأس ان لم يصل الى العمالة .

وقد استطاعت السلطات الصهيونية ان تسوق هذه السياسة بألف خيط وألف طريق الى نتيجتها الطبيعية : الحفاظ لدى عرب فلسطين على مستوى من التعليم هو اكثر المستويات انخفاضا ليس بالنسبة الى التعليم اليهودي في اسرائيل فحسب ولكن بالنسبة للتعليم في جميع دول الشرق الاوسط الان وبالنسبة للتعليم في فلسطين ابان الانتداب ...(٤٢).

والدعوى الاعلامية التي تسوقها اسرائيل مدللة بأرقام التزايد التربوي لدى العرب في الارض المحتلة على تحسن احوالهم التعليمية تحسنا لم يكونوا ليعرفوه لولا الرعاية الاسرائيلية ، هذه الدعوى يكفي لكشف زيفها مقارنة الاوضاع التعليمية لبقايا النكبة في اسرائيل بأرقام الثورة التعليمية الواضحة في الدول العربية المجاورة في المنطقة كلها وخاصة الارقام في الكويت وسوريا ومصر ثم لبنان والعراق والاردن والسعودية . بعض هذه الارقام كأرقام الناجحين بالشهادة الثانوية في الكويت وسوريا ومصر تزيد مع حفظ جميع النسب ، عشر مرات عن أرقام المنكوبين بالاحتلال الصهيوني، وعدد طلاب الجامعات فيسوريا ومصر ، مع الاحتفاظ دوما بالنسب يبلغ ١٢ ضعفا عن اعداد الجامعيين العرب في اسرائيل . جامعة الكويت ، بنت الامس والتي تستند الى اساس سكاني يقارب العدد السكاني العربي في الارض المحتلة تحوي الان ستة أضعاف الجامعيين في تلك الارض.

ان قوى التغيير والتطور في الارض المحتلة كانت اقل جدا من القوى التي تعمل ضدها ولهذا لا يؤدي التعليم العربي هناك ثماره المرجوة كغذاء للثورة والتمرد والتشبث بالارض .

على ان اجراسنا هناك ليست كلها مختنقة .

الرفض هناك ليست مجرد كلمة ولكنه الخبز اليومي للكثيرين . والكفاح ضد عوامل « التسطح » يطلع بين ما يطلع الازهار الوحشية المتمردة التي اصبحنا نعرفها باسم ادب المقاومة . ان الانتماء هناك ليس وجهة نظر والالتزام بالقضية القومية ليس رأيسا للمناقشة ولكنه واقع تاريخي معاش ، هو السجن والجوع والقتل واذا كان اطفالنا هناك هم ضحايا العنصرية الشوفينيــة الصهيونيــة والعسكــرية الحاقدة فالمعلمون هم الاوتاد الغارقة في الارض تمسك الارض ان تزول او تتغير معالمها الى الابد .

هم القابضون على العروبة — أرأيت كيف يكون القابض على دينه فيآخر الزمانكالقابضعلى الجمر؟

ومصير الطفل العربي هناك هو النموذج المصغر لمصير كل طفل عربي مع هذا الغزو الصهيوني بكل مكان . واذا كان القتال قدرهم المقدور هناك فهو كذلك قدرنا المقدور هنا ايضا ولو كرهنا « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » وفي معركة المصير التي تدور الان لا غالب هناك ومغلوبولكن هناك فقط موجود وفان.

الجدول رقم (١)

	١٩٦٤—١٩٦٥	١٩٦٦—١٩٦٧
حاملو شهادات جامعية	١٥	٢٦
حاملو أهلية تعليم	٧١١	٨٨٦
غير مؤهلين مرحلة أ أ	٣٠	٦٦
غير مؤهلين مرحلة أ	٤٥١	٤٥٩
غير مؤهلين مرحلة ب	٤١٣	٣٧٦
غير معروف الكفاية	١	١٤
المجموع	١٦٢١	١٨٣٠
نسبة غير المؤهلين الى المجموع	٥٥٫٢٪	٤٩٫٦٪

الجدول رقم (٢)

	٦٤—١٩٦٥	١٩٦٦—١٩٦٧
المعلمون الرجال	١١٠٦	١٢٧٣
المعلمات	٥١٥	٥٥٧

الجدول رقم (٣)

	٦٤—١٩٦٥	١٩٦٦—١٩٦٧
من عمر١٨حتى عمر٢٩	٩٨٧	١٠٢٢
من عمر ٣٠ حتى ٣٩	٤٠٤	٥٥٠
من عمر ٤٠ حتى ٤٩	١٤٣	١٦٥
من عمر ٥٠ حتى ٥٩	٦٤	٧٠
من ٦٠ فما فوق مع غير المحددي الاعمار	٢٣	٢٣
معدل الاعمار	٢٨٫٢	٢٨٫٩

الجدول رقم (٤)

مسلمون (يقصد بهم سنيون)	٨١٩	٩٣٢
مسيحيون	٦١٢	٦٨٧
دروز	١٠٦	١٢٨
يهود	٥٦	٥٩
آخرون	٢٨	٢٤

الجدول رقم (٥)

ذوو الخبرة حتى أربع سنوات	٥٥٢	٥٨٤
ذوو الخبرة ما بين ٥ الى ٩ سنوات	٤٣٣	٥٠٥
ذوو الخبرة ما بين ١٠ الى ١٤ سنة	٣٣٩	٣٤٣
ذوو الخبرة ما بين ١٥ الى ١٩ سنة	٢٢٢	٢٨٢
ذوو الخبرة اكثر من ٢٠ سنة	٧٥	١٢٥
غير معروفي الخبرة	—	١١
معدل سنوات التدريس للمعلم	٨٫٠	٨٫٢

الجدول رقم (٦)

	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦
مجموع عدد المعلمين في اسرائيل	٢٢٨٩٢	٢٤٨٢٦	٢٦١٧٢	٢٧٩٧٢	٣٠٢٦٥	٣١٧٤٢	٣٣١٤٦	٣٥٦٥٥	٣٨٣٨١	٤٠٩٧٨
المعلمون العرب منهم	١٢٠١	١٣٨٨	١٤٤٩	١٨٤١	١٦٩٨	١٧٧٦	١٨٤١	١٦٣٠	؟	١٨٣٠
النسبة المئوية	٥٫٢٪	٥٫٦٪	٥٫٥٪	٥٫٨٪	٥٫٦٪	٥٫٦٪	٥٫٦٪	٤٫٩٪	—	٤٫٥٪

الجدول رقم (٧)

	٦٤ـ١٩٦٥	٦٦ـ١٩٦٧
مجموع من يتجاوز عمره ٤٠ سنة من المعلمين يبلغ	٢٣٠	٢٥٨
ومجموع من تتراوح خبرته بين ١٥ الى ١٩ سنة يبلغ	٢٢٢	٢٨٢
ومن تزيد خبرته على ٢٠ سنة يبلغ	٧٥	١٢٥

الجدول رقم (٨)

	٥٧/٥٦	٦٢/٦١	٦٧/٦٦	٦٨/٦٧	٦٩/٦٨	بنات
مجموع طلاب دار المعلمين العرب	٤٢	١١٧	٢٠٨	٣١٦	٣٦٨	منهم ١٩٥
مجموع طلاب دار المعلمين اليهودية	٢٦٠٠	٢٨٥٣	٧٤٦٦	٧٥٠٢	٥٩٦٤	منهم ٥٢٢٨

الجدول رقم (٩)

	عدد الفتيان في سن ٥ـ١٤		عدد الطلبة في المدارس الابتدائية ورياض الاطفال		النسبة المئوية	
السنة المدرسية	يهود	عرب	يهود	عرب	يهود	عرب
١٩٥٥ ــ ٥٦	٣١٦٠٠٩	٥٣٥٠٤	٢٨٨٨٧٦	٢٣٥٧٥	٩١،٤	٤٤،١
١٩٥٦ ــ ٥٧	٣٥١٥٧٨	٥٥٦٧٠	٣٢٥٩٤١	٢٦٥٣٨	٩٢،٧	٤٧،٦
١٩٥٧ ــ ٥٨	٣٩٠٠٨٤	٥٧٦٠٠	٣٥٩١٤٤	٢٨٢٦٩	٩٢،١	٤٩،١
١٩٥٨ ــ ٥٩	٤١٢٠٩٢	٥٩٠٠٠	٣٩٤٨٣٠	٣٠٣٩٣	٩٠،٨	٥١،٥
١٩٥٩ ــ ٦٠	٤٣٠٣٠٩	٦١٥٨٣	٤١٦١٩١	٣٢٦٦٤	٩٦،٥	٥٣،٠
١٩٦٠ ــ ٦١	٤٤٤٣٨٣	٦٣٢١٦	٤٣٣٣٤٣	٣٥٧٥٥	٩٧،٥	٥٦،٥
١٩٦١ ــ ٦٢	٤٥٥٤٢٠	٦٤٨٧١	٤٣٦٦٠٢	٣٩٢٧٥	٩٥،٧	٦٠،٥
١٩٦٢ ــ ٦٣	٤٧٤٦٣٤	٧٠٦٩٦	٤٤٥٦٩٩	٤٢٤٧٣	٩٣،٩	٦٠،١
١٩٦٣ ــ ٦٤	٤٨٩٢١٨	٧٥٧١٦	٤٥٩٨٠٤	٤٦٠٦٨	٩٣،٩	٦٠،٨

الجدول رقم (١٠) : عدد الطلاب العرب في السنوات المختلفة للدراسة وفي عـــدد من السنوات المختارة التالية :

الصفوف	٤٩/٤٨	٥٢/٥١	٥٧/٥٦	٦١/٦٠	٦٧/٦٦	٦٨/٦٧	١٩٦٩/١٩٦٨
الاول	٢٠١٢	٥٦٩٢	٤٣٢٦	٦٤٩٦	٩٣٣٩	٩٧٩٤	١١،٠٩٨
الثـــاني	١٣٤٦	٥٢٥٥	٣١٨١	٦١٤٣	٨٩٠٤	٩٢٦٩	٩٦٨٠
الثالث	١١٧٩	٤٢٣٦	٣٣٩٥	٥٣٤٠	٧٧٩٦	٨٧٥١	٩٠٩٧
الرابـــع	٩٥٩	٢٣٤٠	٣٧١٥	٤٩٥٧	٧٠٨٢	٧٦٣١	٨٥٠٢
الخامس	٦٠٨	١٨٨٧	٣٤٢٩	٣٦٧٨	٦٢٢٤	٦٨٨١	٧٤٤٥
السادس	٣٧٥	١٤٢٩	٣١٦٧	٢٦٣٦	٥٦١٤	٥٩٧٠	٦٥٣٥
الســـابع	٢٣١	٩٣٩	٢٠٣٨	٢٤٦٥	٤٤٩١	٥٠٩٧	٥٤١٤
الثامن	٥٦	٦٠٠	١٤٨٨	٢١١٣	٣٤٥٩	٣٨٢٤	٤٣٢٢
التاســـع	١٤	٢٥٦	٣٠٥	٥٦٢	٩٧٣	١٢٦٣	١٦٥٥
العاشـــر	—	١٥٤	٢٢٠	٣٥٢	٦٦٦	٨٠٢	١٠١١
الحادي عشر	—	١٨	١٧٢	١٩٠	٣٩٨	٢٥٩	٦٢٨
الثاني عشر	—	—	١٥٦	١٧٣	٢٤٣	٣١٥	٤٢٩
المجموع :	٦٧٨٠	٢٢٩٠٦	٢٥٦٣٤	٣٥٢٢٢	٥٥٥٨٩	٦٠٤٦٢	٦٦٢٤٢ [٧]

الجدول رقم (١١) : توزيع الطلاب بين التعليم الحكومي والتعليم الخاص غير الرسمي (ومعظمه ديني)

	٤٩/٤٨	٥٢/٥١	٥٧/٥٦	٦١/٦٠	٦٧/٦٦	٦٨/٦٧	٦٩/٦٨
في التعليم الخاص	٣٧١٢	٧٢٧٩	٩٤٣٨	١١٠٤٧	١٣٦٥٨	١٢٢٠٤	١٣٨٢٣
في التعليم الحكومي	٧٥٠١	٢٧١٤١	٢٩٢٤٤	٤٠٧٦٨	٦٣٨٦٢	٦٩٧٠٥	٧٥٧٨٠
المجموع	١١٢١٣	٣٤٤٢٠	٣٨٦٨٢	٥١٨١٥	٧٧٥٢٠	٨٢٩٠٩	٨٩٦٠٣

الجدول رقم (١٢) : توزيع التلاميذ العرب حسب الدين والطائفة في التعليمين الحكومي والخاص

	٤٩/٤٨	٥٢/٥١	٥٧/٥٦	٦١/٦٠	٦٧/٦٦	٦٨/٦٧	٦٩/٦٨
في التعليم الخاص							
مسلمون	—	٧١٢	١٢٥٨	١٨٩٠	٣٣٧١	٢٢٢١	٣٦٩٤
مسيحيون	—	٥٣٢٦	٦٦٤٢	٧٦٩٥	٩٤٥٢	٩٤٠٧	٩٥٧١
دروز	—	٦٠	١٦٩	٢١٢	١٣٧	١١٢	٨٥
آخرون	—	١١٨١	١٣٦٩	١٢٥٠	٦٩٨	٤٦٤	٤٧٣
في التعليم الحكومي							
مسلمون	٣٧٥٤	٢٠٠٥٨	٢٠٧٥١	٣٠٠٣٠	٤٩٠٢٢	٥٣٨٧٨	٥٨٩٩٥
مسيحيون	٢٧٥٣	٤٣٥٤	٤٩٨٥	٦٠١٤	٧٣٥٥	٧٨٠٧	٨٢١٨
دروز	٩٨١	٢٧٢٢	٣٥٠٦	٣٧١١	٧٤٦٤	٨٠١٩	٨٥٦٥
آخرون	١٣	٧	٢	١٣	٢١	١	٢

الجدول رقم (١٣) : عدد التلاميذ العرب في مراحل التعليم المختلفة سنة ١٩٦٩/٦٨

	في التعليم الخاص	في التعليم الحكومي	المجموع
في رياض الاطفال	٢٦٩٥	٩٥٣٨	١٢٢٣٣
في التعليم الابتدائي	٨٦٦٣	٦٢١٥١	٧٠٨١٤
في التعليم الثانوي	٢٤٦٥	٣٧٢٣	٦١٨٨
في دار المعلمين	—	٣٦٨	٣٦٨

الجدول رقم (١٤) : نسبة التلاميذ العرب الى عدد الاطفال العرب (بالالف) :

اولا : من ٦ الى ١٢ سنة

في ١٩٦٢/١٩٦١	٨٠٤،١	لكل ألف من أولاد السكان غير اليهود
في ١٩٦٤/١٩٦٣	٨٠٣،١	» » »
في ١٩٦٧/١٩٦٦	٨٤٤،١	» » »

ثانيا : من ١٤ الى ١٧ سنة

الباقون في المرحلة الابتدائية في ٦٢/٦١	٧١،٦	» » »
٦٤/٦٣	٧٥،٤	» » »
٦٧/٦٦	٧٥،٩	» » »

الذين انتقلوا الى المرحلة الثانوية	في ٦٢/٦١	١٠١،٨	» » »
	في ٦٤/٦٣	١١٣،٦	» » »
	في ٦٧/٦٦	١٥١،٩	لكل ألف من أولاد السكان غير اليهود
	في ٦٨/٦٧	١٦٥،٣	» » »
	في ٦٩/٦٨	١٩٤،٨	» » »
المجموع من هذا العمر	في ٦٢/٦١	١٧٢،٤	لكل الف من الاولاد غير اليهود
	في ٦٤/٦٣	١٨٩،٠	» »
	في ٦٧/٦٦	٢٢٧،٨	» »

الجدول رقم (١٥)

دفعة	٥٨—٥١	٥٩—٥٢	٦٠—٥٢	٦١—٥٤	٦٢—٥٥	٦٢—٥٦	٦٤—٥٧	٦٥—٥٨	٦٨—٥٩
بقي من العرب	٪٣٢،١	٣٩،٦	٤٩،٩	٥٦،٦	٥٩،٥	٥٤،٨	٤٢،٣	٥٦،١	٥٥،٦
بقي من اليهود	٪٧٧،٥	٨٥،٩	٩١،٤	١٠١،٦	١٠٢،٥	٩٧،٩	٩٨،٥	١٠١	١٠٥،٤

الجدول رقم (١٦)

٥٧	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	١٩٦٦
٪٥،٣	٪٤،٥	٪٣،٧	٪٣،٥	٪٣،٢	٪٣،٤	٪٣،١	٪٣،٩	٪٣	٪٣،٣

الجدول رقم (١٧)

	٥٧—٥٦	٥٨—٥٧	٥٩—٥٨	٦٠—٥٩	٦١—٦٠	٦٢—٦١	٦٣—٦٢	٦٤—٦٣	٦٥—٦٤	٦٦—٦٥
من العرب	٪٢٨،٩	٢١،٦	٢٧	٢٩،٧	٣١،٧	٤٠،٧	٣٠،٥	٣٠،٩	٢٩،٤	٣٢،٤
من اليهود	٪٧٤،١	٧٠،٢	٧٤،٨	٧٤،٢	٧٤،٩	٧٣،١	٧٤،٨	٧٥،٩	٧٧،٦	٨٢،٢

الجدول رقم (١٨)

	٥٨—٥٥	٥٩—٥٦	٦٠—٥٧	٦١—٥٨	٦٢—٥٩	٦٣—٦٠	٦٤—٦١	٦٥—٦٢	١٩٦٦—٦٣
من العرب	٤٣،٩	٤٠	٤٠،١	٤٠،٥	٤١	٣٩،٥	٣٨،٤	٣٠،٦	٤٢،٢
من اليهود	٥٦،٦	٥٢،٨	٤٨،٩	٥٠،١	٤٥،٨	٤٤،٢	٤٧،٨	٥٠،٤	٥١،٤

الجدول رقم (١٩)

٥٢—٥١	٥٤—٥٣	٥٩—٥٨	٦٠—٥٩	٦١—٦٠	٦٢—٦١	٦٣—٦٢	٦٤—٦٣	٦٥—٦٤	٦٦—٦٥	١٩٦٧—٦٦
١٠	١٧	٢٣	٥٧	٧٥	٧٧	١٣٥	٢١٠	٢٠٨	٢٥٠	

الجدول رقم (٢٠)

في المرحلة الثانوية :	٩٥٧	٩٥٨	٩٥٩	٩٦٠	٩٦١	٩٦٢	٩٦٣	٩٦٤	٩٦٥	٩٦٦
عدد الطلاب اليهود	١٦٧٢٨	٢٠٣٥٠	٢٤٥٦٥	٣٠٠١٥	٣٦٥٣٨	٤٠٤٢٥	٤٢٢٩٦	٤٦٦٦١	٤٩٦٢٨	٥٣٥٧٧
عدد الطلاب العرب	٩٤٥	٨٨٤	٩٦٨	١٠٨٦	١٢٤١	١٤٢٥	١٣٤٠	١٤٠٥	١٥٥٨	١٨٤٦

الجدول رقم (٢١)

مدارس اليهود	٣٨٧٢	٣٩٨١	٤١٥٩	٤٢٢٨	٤٣٤٥	٤٤٧٢	٤٦٣٢	٤٧٧٠	٤٩٨٠	٥١٨١
مدارس العرب	٢٣٥	٢٥٤	٢٦٧	٢٩٦	٣١٧	٣٢٧	٣٣٠	٣٣٠	٣٥٣	٣٦٢

الجدول رقم (٢٢)

١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧
٪٢٬٢	٪١٬٢	٪١٬٩	٪٢٬٦	٪١٬٧	٪١٬٣	٪١٬١	٪١٬٣	٪١٬٧	٪١٬٣	٪١٬٢

الجدول رقم (٢٣)

	السكان		الناجحون بالشهادة الثانوية	
السنة الدراسية	عدد اليهود	عدد العرب	من اليهود	من العرب
١٩٥٥/٥٤	١٢٥٢٦٠٩	١٩١٨٠٠	٢٥٢٠	٣٨
١٩٥٦/٥٥	١٥٩٠٥٠٠	١٩٨٥٥٦	٢٧٢٣	٩٦
١٩٥٧/٥٦	١٦٦٧٤٤٥	٢٠٤٩٣٥	٢٩٠٤	٧٧
١٩٥٨/٥٧	١٧٦٢٧٤١	٢١٣٢١٣	٢٦٩٨	٦٠
١٩٥٩/٥٨	١٨١٠١٤٨	٢٢١٥٢٤	٢٢٦٤	٢٨
١٩٦٠/٥٩	١٨٥٨٨٤١	٢٢٩٨٤٤	٢٦٧٥	٥٣
١٩٦١/٦٠	١٩١١١٨٩	٢٣٩١٦٩	٢٤٦٤	٩٤
١٩٦٢/٦١	١٩٣٢٣٥٧	٢٤٧١٣٤	٤٣٥٦	٧٥
١٩٦٣/٦٢	٢٠٦٨٨٨٣	٢٦٢٩١٩	٥٧٠٢	٧٦
١٩٦٤/٦٣	٢١٥٥٦٠٠	٢٧٤٥٠٠	٧١٧٣	٨٢
١٩٦٥/٦٤	٢٢٣٩٢٠٠	٢٨٦٤٠٠	٨٤١٨	١١٧
١٩٦٦/٦٥	٢٢٩٩١٠٠	٢٩٩٣٠٠	٨٠٤٣	١٣٩
١٩٦٧/٦٦	٢٣٤٤٩٠٠	٣١٢٥٠٠	١٠٥٨٨	١٤٤

الجدول رقم (٢٤)

١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧
٪ ٠٬٩	٪ ٠٬٧	٪ ٠٬٨	٪ ٠٬٨	٪ ١	٪ ٠٬٩

الجدول رقم (٢٥)

عدد الطلاب العرب	٢٤٠	٢٢٠	٢٨٠	٣١٠	٤٣٤	٤٦٦
عدد الطلاب اليهود	٢٥٦١٥	٢٨١٩٨	٣٢٢٧٠	٣٧٨٠٣	٤٢٢٩٦	٤٧٣٥٢

١ ــ Ministry of Foreign Affairs (Israel), *The Arabs in Israel*, Jerusalem, 1958, p. 74.

٢ ــ J. S. Bentwich, *Education in Israel*, Routledge and Kegan Paul, London, 1965, p. 174.

٣ ــ الاحصاءات في هذا القسم من البحث مأخوذة من كتاب الاحصاء الاسرائيلي :
Statistical Abstract of Israel, No. 20, 1969. Central Bureau of Statistics, Jerusalem, 1969, p. 555-557.

ومن بحث للدكتور صالح عبدالله سرية بعنوان « التمييز في مجال التعليم بين العرب واليهود في اسرائيل » ، في مجلة **الجامعة المستنصرية** (بغداد) ١٩٧٠ ، العدد الاول .

٤ — كتاب **الاحصاء الاسرائيلي** للسنة ١٩٦٣ ، ص ٥٤٠ و٦٢٩ .

٥ — غسان كنفاني ، **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨ — ١٩٦٦** (دار الاداب) بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢٦ .

٦ — صبري جريس ، **العرب في اسرائيل** (مركز الابحاث في م. ت. ف.) بيروت ، ١٩٦٧ ، الجزء الثاني ، ص ١١٦ .

٧ — نلفت النظر الى الفارق الكبير بين هذا الرقم وبين الرقم الاخر الموجود في الجدول رقم (١٢). والرقمان من الاحصاءات الرسمية .

٨ — جميع هذه الاحصاءات من كتاب **الاحصاء الاسرائيلي** ، آنف الذكر ، للسنة ١٩٦٩ ، ص ٥٥٧ — ٥٦٣ .

٩ — ان الجدول رقم(١٥) والجداول الثلاثة التالية له تقدم على اساس حساب النسب المئوية ، وضعت بالاستناد الى الارقام الاحصائية المنشورة في كتاب **الاحصاء الاسرائيلي** ما بين ١٩٥٨ و١٩٦٨ .

١٠ — صبري جريس، **المصدر السابق**، ص ١١٨.

١١ — انظر المرجع المذكور في الحاشية رقم ١ .

١٢ — صبري جريس ، **المصدر السابق** ، ص ١١٩ ، وحبيب تهوجي ، **مذكرة مقدمة الى الندوة العالمية الثانية لفلسطين في الكويت** (شباط ١٩٧١) .

١٣ — هذه الاحصاءات مأخوذة من كتاب **الاحصاء الاسرائيلي** للسنة ١٩٦٣ ، ص ٦٢٧ — ٦٣٤ . وللسنوات ما بين ١٩٥٨ و١٩٦٧ .

١٤ — **المصدر السابق** ، السنة ١٩٦٩ .

١٥ — صبري جريس، **المصدر السابق**، ص ١٢٢.

١٦ — بنتوتش ، **المصدر السابق** ، ص ١٧٢ — ١٧٧ .

١٧ — Randolf L. Braham, *Israel: A Modern Education System*, Washington, 1966, p. 91.

١٨ — صبري جريس، **المصدر السابق**، ص ١١٨ .

١٩ — **المصدر نفسه** ، ص ١٢٣ — ١٢٦ .

٢٠ — بنتوتش ، **المصدر السابق** ، ص ١١٧ .

٢١ — صبري جريس ، **المصدر السابق** ، ص ١٢٥ — ١٢٨ .

٢٢ — حبيب تهوجي ، **المصدر السابق** ، ص ١٢.

٢٣ — صبري جريس ، **المصدر السابق** ، ص ١٢٥ — ١٢٧ .

٢٤ — حبيب تهوجي ، **المصدر السابق** ، ص ١١.

٢٥ — **هآرتس** ، ١٩٦١/٤/٤ .

٢٦ — **معاريف** ، ١٩٥٥/١٠/٧ .

٢٧ — صبري جريس ، **المصدر السابق** ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .

٢٨ — هذا ما يكرره بن جوريون في مناسبات عديدة وبصيغ متشابهة تقريبا .

٢٩ — صبري جريس، **المصدر السابق**، ص١٠٧ .

٣٠ — كان عدد الدروز في العام ١٩٤٩ : ١٤٥٠٠ وبلغ عددهم في ١٩٦٨ : ٣٣٢٥٠ .

٣١ — **مجموعة قوانين الكنيست** ، مجلد ٩٥ في ١٩٥٧/٩/٢١ ، ص ١٢٨٠ .

٣٢ — **محاضر الكنيست** ، مجلد ٣٥ في ١٢/١٩/ ١٩٦٢ ، ص ٥٢٧ .

٣٣ — **دافار** ١٩٧٠/٩/٧٠ .

٣٤ — **دافار** ، ١٩٧٠/١/٩ .

٣٥ — **هآرتس** ، ١٩٧٠/٨/١٤ .

٣٦ — **هآرتس** ، ١٩٧٠/٩/٤ .

٣٧ — صبري جريس ، **المصدر السابق**، ص١٢٠.

٣٨ — **محاضر الكنيست** ، مجلد ٢٦ سنة ١٩٦٣ ، ص ١٩٦٨ .

٣٩ — الجدول رقم (٣٢) بالنسب المئوية محسوب من واقع الارقام الاحصائية المنشورة في كتب **الاحصاء الاسرائيلي** ما بين ١٩٥٨ و١٩٦٨ .

٤٠ — حبيب تهوجي ، **المصدر السابق** ، ص ١٠.

٤١ — كتب **الاحصاء الاسرائيلي** ، ص ١٩٥٦ الى ١٩٦٤ .

٤٢ — **المصدر نفسه** ، ما بين ١٩٦٣ و١٩٦٨ .

٤٣ — صبري جريس، **المصدر السابق**، ص ١١٥.

مراجعات

Khalid Kishtainy, **Palestine in Perspective**
(Beirut: P.L.O., Research Center, 1971).

ان كتاب خالد القشطيني من الكتب التي كان من الضرورة أن تكتب ، ليس الان فقط ، بل ومنذ عشرين سنة ، خاصة وانه مزود بايضاحات عن الخلفية الجغرافيـة والعمرانيـة والاجتماعيـة والاقتصادية لفلسطين التي بدأت تؤول الى الزوال بشكل سريع . وقبل البدء في استعراض الكتاب لا بد من الاشارة الى ان قسما كبيرا من المواد التي جمعها قشطيني في هذا الكتاب متوافرة في كتب اخرى ، ولكن بشكل نتف في تلك الكتب التي هي موضع اهتمام الباحثين والاخصائيين . وكذلك لا بد من الاعتراف ان مجرد جمع هذه المادة ورسم صورة متوازنة منها لتاريخ فلسطين وتطورها عمل يستحق الثناء والتقدير ، علمـا بأن هناك جهودا ، في المقابل ، تبذل عن سابق تصميم لتشويه ، ان لم يكن محو ، صورة فلسطين الحقيقية . من هنا ارى انه ، رغم البحث والتدقيق والعناء الذي بذله المؤلف في وضع الكتاب ، من المؤسف حقا وجود أخطاء في تقديم المادة يمكـن ان تستخدم كحجة يتمسك بها جميع اولئك الذين لا يعجبهم الكتاب . ففي طبع كتاب من هذا النوع ، حيث الدقة هي أهم ما يرمي اليـه المؤلف الذي يهدف الى تصحيح أخطاء الاخرين ، مـن المؤسف وجود مثل هذا الاهمال في تصحيح الطباعة وفي الهفوات الصغيرة التي تصرف القارىء عن الاهتمام بتتبع تسلسل الاراء المطروحة . ولو ظهر مثل هذا الكتاب ، الذي يعرض مثل هذه الصورة غير المتعارف عليها لتسلسل الاحداث في فلسطين ، قبل سنة أو سنتين لكانت مثل هذه الضعفات تافهة . وما اقصد به هو ان هذه الصورة غير مألوفة للقراء العاديين الذين كانوا غارقـين تحت وابل مـن المعلومات الخاطئة ، التي كان بعضها مضللا عن غير قصد في حين كان البعض الاخر يخدم اهدافا دعائية .

ولكن ، ولحسن الحظ ، تغير الوضع الان . فالقارىء الذي يبغي في الحقيقـة معرفة صورة فلسطين ما قبل ١٩٤٨ ، وما هو التبرير الذي قدمه الصهيونيون لتعاملهم معها كمنطقة للاستعمـار ، وما هي الحيل والذرائع التي استخدمت للتغلب على تردد أولئك (اليهود والامميين) الذين كانوا يعارضون هذه المبادرة ، وما هي العوامل التي مكنت الصهيونيين من مثل هذا النجاح الباهر ، يجد أمامه فيضا من الكتابات الجديدة . ففي كل شهر تظهر كتب جديدة لمؤلفين نجحوا في الحصول على معلومات جديدة — او على معلومات كانت مخفية او متغافل عنها — لها تأثير كبـير على موضوعات هامة حديثة . وهنا تجدر الاشارة الى ان بين أولئك الذين يعملون على اعادة التمحيص في خلفية المسألة الفلسطينية عدد مـن الكتـاب الاسرائيليين الذين من المتوقع ان تساعد تحليلاتهم لدوافع واطماع الصهيونيين الاوائل على اضعاف هيمنة اسرائيل على الفكر الغربي. ومن ابرز هؤلاء عاموس الـون مؤلف كتاب « الاسرائيليـون : مؤسسـون وابناء » الذي يعالج بموضوعية نادرة المعضلة التي تواجه اسرائيل التي اقيمت على حساب عرب فلسطين . وهذا الكتاب يكمل في كثير من المواضع كتاب خالد قشطيني ، اذ ان المؤلف، كاسرائيلي ، يشير اعتمادا على بينات من الداخل الى عدد من المغالطات في الفكر الصهيوني يكشفها قشطيني من الخارج .

ان كتاب « عمران فلسطين » الذي نحـن بصدد مراجعته هو محاولة لخرق جدار الميثولوجيا التي غلفت القضية الفلسطينية منـذ زمن طويـل ، وللوصول الى حقيقة شعب فلسطين وتاريخها الذي كان له اعظم الاثر في تطور التاريخ الانساني . ولتحقيق ذلك ، يصف المؤلف الحضارة التي وجدها

العبرانيون الاكثر تخلفا عندما تسللوا الى بلاد كنعان حوالي نهاية الالف الثاني ق. م. وبعد ذلك يتحدث عن قيام الممالك اليهودية وسقوطها وكذلك حكم الاغريق والرومان حتى الفتح العربي في القرن السابع الميلادي . وهنا يلاحظ المؤلف نقطة هامة وهي انه بعد قيام الحكم العربي « لمدة تقارب الخمسمئة سنة ظلت القدس بعيدة تماما عن اي نوع من الكوارث السياسية او العسكرية ، كما لم تتعرض لاي تدمير او حريق او نهب كالذي تعرضت له في الفترات السابقة خاصة في ظل الحكم اليهودي . » ويضيف بأن فترة الهدوء هذه لم تنته الا في زمن الفتوحات الصليبية في العام ١٠٩٩ عندما احتفل الغزاة الجدد ، لمناسبة استيلائهم على القدس، بذبح قسم كبير من سكانها. وهذه الحقائق التي غالبا ما تكون موضع تحريف على يد المؤرخين اليهود والمسيحيين الغربيين ، تشكل النقطة المركزية لوجهة نظر المؤلف ، وهي انه اذا لم تعد فلسطين في بداية القرن العشرين الارض الاسطورية للبن والعسل ، فان مسؤولية ذلك لا تقع على عرب فلسطين ، بل على الغزاة الاجانب الذين تعاقبوا على حكم البلاد واساءوا استخدام مقدراتها او دمروها . أضف الى ذلك ، يقول المؤلف وبشكل مقنع ، انه في حين كانت معظم ثروات البلاد مشتتة ، فان الاسطورة الصهيونية التي تقول بأن الصهيونيين الاوائل وجدوا فلسطين بلادا قاحلة هي كذلك وجهة نظر خاوية . ومن الطريف ان افضل المراجع التي يستخدمها لتدعيم هذا الراي هو كتاب السير موسس مونتيفيوري الذي قام في العام ١٨٣٩ بجولة في فلسطين بقصد الحصول على اراض للتنمية الزراعية على يد المستوطنين اليهود . ويقول السير موسس عن الجليل الشرقي : « يوجد كروم زيتون يزيد عمرها على خمسة آلاف سنة على ما اعتقد ، وكروم عنب ، ومراع وآبار ومياه وافرة وصحية ، وكذلك شجر التين والجوز واللوز والتوت ، الخ ، وحقول غنية بالقمح والشعير والعدس . » ويضيف السير موسس انه وجماعته « بين صفد وطبريه عبروا في منطقة جميلة يتخللها منحدر طويل يلتوي بين التلال المنطاة بأشجار التين والزيتون والرمان » ، كما انهم رأوا ان المنطقة المحيطة بالجاعونه « رائعة حقا وفي افضل مستوى زراعي . » وقد اثنى على مهارة المزارعين ، ولاحظ كثرة قطعانهم ودواجنهم وخلص الى القول : « انني لم أر أي بلد غنية وجميلة كهذه » . اعتقد ان هذا يكفي بالنسبة لخرافة الصحراء التي جعلها الصهيونيون تزهر .

ومن الجدير بالملاحظة ان نرى عددا من الاسرائيليين في الوقت الحاضر يعبرون بصراحة عن آراء مماثلة تناقض الاسطورة التي نجح الصهيونيون في غرسها في العالم الخارجي . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، هناك عاموس الون الذي يقول في كتابه المشار اليه آنفا : « هناك شعور مزعج بالذنب ، ولو بشكل محدود ، بين بعض الاسرائيليين بأن افضل الاراضي التي يقيمون عليها كانت ملكا للعرب الذين ارغموا بطريقة أو بأخرى على النزوح عنها . » وقد حدثت في المجال الثقافي عملية مماثلة لهذه نوعا ما . واعتقد ان كثيرا من الاسرائيليين يشاطرون خالد تشطيني ملاحظته بأن « المهاجرين اقتبسوا كثيرا من الفنون الشعبية العربية ، بما في ذلك الرقص والزخرفة ... لخلق ما يسمونه في هذه الايام الفن الاسرائيلي . » اما في مجال العمران فالامر مختلف، ولسوء الحظ ، اذ ان القدس الجديدة التي باشر الاسرائيليون في بنائها هي ، بكل بشاعتها ، من خلقهم .

وبالنسبة للسؤال الاخير الذي يطرحه الاستاذ التشطيني حول ما اذا كان من الممكن ان تتعرض فلسطين للدمار والخراب كالذي رافق الغزوة الاسرائيلية الاولى ، اعتقد ان الوقت لم يحن بعد للاجابة عليه . ولكن المرء ، في هذا المجال ، سرعان ما يتذكر قول آحاد هاعام ، المفكر اليهودي المشهور بأن « الخطأ الذي ينجح يبقى خطأ . »

مايكل ادامز

A. C. Forrest, **The Unholy Land**
(Toronto: McClelland and Stewart Ltd., 1971)
Frank H. Epp, **Whose Land is Palestine ?**
(Michigan: William B. Eerdmans Publishing Co., 1970)

من المفيد دراسة ومقارنة مثـل هذين الكتابين لسببين . فهما يمثلان اولا الاتجاهات الجديدة التي بدأت تظهر في مواقف الكنائس البروتستانتية من قضية فلسطين . ويعبران ثانيا عن بوادر تفسخ جدار الجهل الذي أقامته وسائل الدعاية الصهيونية وأحاطت به الرأي العام في المجتمعات الغربية . ولقد ارتأينا اجراء هذه المقارنة للكتابين استنادا الى اربعة مفاهيم تتناول طريقة البحث ، والغرض من الكتابين ، وميزات الكتاب ، واخيرا تعريف الكاتبين لقضية فلسطين والحل الذي يرتئيانه لها.

١) طريقة البحث : يعتمد كل من الكاتبين طريقة مختلفة في تجميع المواد واسلوب التحليل. فالدكتور أب يلجأ الى اسلوب التحليل التاريخي ولهذا فهو يكثر من الاعتماد على المراجع ويحاول جاهدا ان يضفي على كتابته طابع دقة التحليل التاريخي . بينما يعتمد الدكتور فورست المقابلات والتجـربة الشخصية اساسا لتجميع مادة الكتاب حتى وانه يغفل في كثير من الاحيان عن ذكر مصادر الجمل التي يستعين بها بين الحين والاخر . ويصح القول ان هذا الاختلاف في طريقة البحث قد جعل كلا من الكتابين يصلح لجمهور مختلف من القراء . فكتاب **الارض غير المقدسة** يستميل القارىء العادي المفتقر الى الكثير مـــن المعلومات عن الوضع في الشرق الاوسط والذي يفضل ان يستخلص له الكاتب بعد سرد لبعض المواقف والحوادث الاتجاهات والنتائج الناجمة عن الوضع القائم . واما كتاب **لمن ارض فلسطين ؟** فيغلب عليه الطابع الاكاديمي الجاف واهتمام الكاتب بسرد الوقائع اكثر من اهتمامه بالتحليل .

٢) الغرض من الكتاب : يعرف أب غرضه من كتابة **لمن ارض فلسطين ؟** بأنه محاولة تنوير مسيحيي شمال اميركه الذين يعانون في فهمهم لقضية الشرق الاوسط من خطأين : اولهما عدم وضوح البعد التاريخي للقضية وثانيهما النظرة الدينية الضيقة . ولهذا نرى أب يحاول أن يستعرض تاريخ فلسطين منذ بدء الحضارة فيها ، اي انه يستعرض حقبة الخمسة آلاف سنة الاخيرة من تاريخ فلسطين . وهو يسعى في مجال استعراضه لاحداث هذه الحقبة التاريخية ان يتفهم المكانة التي خصت بها الديانات الثلاث ـــ اليهودية والمسيحية والاسلام ـــ فلسطين ، ويهدف أب من ذلك الى تحرير قرائه من المفاهيم الخاطئة العالقـــة بأذهانهـــم بسبب تفسيرهم الحرفي للكتب المقدسة وجهلهم بالحضارات الاخرى التي ازدهرت على ارض فلسطين .

ويوضح فورست في مقدمة **الارض غير المقدسة** هدفه بأنه المساهمة في عملية فهم القضايا المعقدة المتعلقة بالنزاع العربي ـــ الاسرائيلي . وذلك من أجل الوصول الى خطوات ايجابية تؤمن اولا عدم وقوع حرب اخرى وتضع ثانيا حدا لمآسي اللاجئين الفلسطينيين وتطمئن ثالثا الشعب اليهودي على مستقبله . ولقد ضمن فورست كتابه خلاصة ما رآه وسمعه خلال زياراته المتعـددة منذ حرب حزيران ١٩٦٧ الى منطقة الشرق الاوسط . واعتبر الكاتب مهمة ايصال وتعريف الرأي العام بالمعلومات التي حصل عليها واجبـــا يحتمه عليه ضميـــره الانساني . فوسائل الاعلام الغربية برأيه ومن ضمنها الجرائد الدينية قد خانت جمهورها وجعلت منه ضحية لدعاية ماهرة . ويضيف ان رجال الدين خاصة قد شاركوا في لعبة التغطية هـــذه امـــا برضوخهم للتهديدات الصهيونيـــة او بسماحهـــم للصهيونيين بالتلاعب بهم واغرائهم ، كما يحدث حين قبولهم للرحلات المجانية لاسرائيل . وهذا ما يفسر اندفاع البعض منهم ومغالاتهم فـــي تأييد اسرائيل . ويعطي فورست مثالا على ذلك ما قاله الدكتور روي اكهاردت ، استاذ الدين ومن اتباع الكنيسة المثودية ، أن مصانع الاسلحة الاسرائيلية هي أصبح مكان اليوم لاعطاء الشهادة المسيحية .

٣) ميزات الكتاب : يتميز كتاب أب بالرغم عن عدم ورود معلومات جديدة او غـــير معروفة فيه بأنه محاولة جدية لاعطاء تفسير ديني لقضية فلسطين وبقالب جديد . فهو باظهـــاره العامل الديني لا يقتصر في معالجته على مجرد عرض وجهة نظـــر

ديانة واحدة . بل يتعداه الى وجهات الاديان الثلاثة التي مرت على أرض فلسطين . وهذا ما افتقرت اليه سابقا الكتب التي عالجت الموضوع من هذه الزاوية . والميزة الثانية للكتاب تظهر في الفصل الاخير حيث ينتقل أب من مرحلة السرد الى مرحلة التحليل ويقدم بعض الاراء الجديدة والجريئة . فهو يبحث مثلا في امكانية مساهمة مسيحيي الغرب بايجاد حل لمشكلة الشرق الاوسط فيعدد المزايا والعقبات التي تقف اما لتشجيع مثل هذه المساهمة او الحؤول دونها . ويعدد بالاضافة المفاهيم التي يجب على مسيحيي الغرب أن يتخلصوا منها والمفاهيم التي عليهم أن يكتسبوها حتى يمكن لهم القيام بدور الوسيط . ولقد نجح أب عند ابدائه هذه الاراء في التخلص من عقد التكبر والاستعلاء والتهرب التي كثيرا ما كانت تشوب كتابات الغربيين الذين حاولوا معالجة مواقف مجتمعاتهم من قضية فلسطين .

اما كتاب فورست فيمتاز على كتاب أب بأسلوبه المبسط وايلائه الوضع الحالي اهتماما اكبر . والكاتب جريء في معالجته للمواضيع التي يتناولها ولا يتوانى في اصدار حكم قاطع على اللاانسانية التي تتصف بها سياسة اسرائيل في الاراضي المحتلة وفي معاملتها للاقلية العربية في اسرائيل . ويمكن اعتبار الكتاب سجلا فاضحا لشاهد عيان يفند فيه مزاعم اسرائيل الاعلامية ويفضح عدوانيتها وعنصريتها .

٤) تعريف القضية الفلسطينية والحل الذي يتبناه كل من المؤلفين : يعرف فورست قضية فلسطين على انها نتاج محاولة حل المشكلة اليهودية من خلال اقامة دولة يهودية واقتراح تقسيم فلسطين . ويضيف فورست ان هذه المحاولة بخلقها عن عمد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين واقامة دولة عنصرية وعدوانية جعلت اية امكانية لحل القضية رهنا ، في الامد القريب ، على تطبيق قرار ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، وفي الامد البعيد ، على تخلي اسرائيل عن صهيونيتها . ويرى فورست ان الطغمة الحاكمة في اسرائيل لن تقدم على هذه الخطوات . كما ويعتقد انه من المحتمل ان يساهم الشباب الاسرائيلي ، الذي أصبح اكثر اقتناعا بعدالة قضية الفلسطينيين ، مع الشباب العربي في حمل دولة اسرائيل على القبول بحل عادل للقضية .

ويختلف أب في تعريفه لقضية فلسطين عن فورست فيعتبر انها نتاج صراع ما بين شعبين، الفلسطينيون العرب واليهود ، على أرض جغرافية واحدة . وان شعوب الغرب في محاولتها التعويض عن اضطهادها لهم ، عادت فعبرت عن شعورها المعادي للسامية باضطهادها العرب وتسهيل خلق دولة يهودية . ويرى أب أن الحل الوحيد للقضية يكمن في اعطاء الفلسطينيين حق العودة الى ديارهم وتوفير ضمانات كافية لليهود القاطنين فلسطين حاليا وجعل الدول الكبرى تكف عن التدخل في شؤون الشرق الاوسط .

ان كتابي **الارض غير المقدسة** و **لمن ارض فلسطين** يمثلان بوادر الرفض التي بدأت تظهر بين رجال الدين في امريكة الشمالية لنظرة مجتمعاتهم التقليدية حيال الوضع في الشرق الاوسط . وليس من المستغرب أن يثير الكتابان وخاصة كتاب الدكتور فورست ضجة كبيرة حين صدورهما في كندا وذلك للمكانة الخاصة التي ما زال يتمتع بها رجال الدين في المجتمع . ولقد عملت الدوائر الصهيونية على التخفيف من تاثير كتاب فورست بأن وجهت ضغوطا الى اكبر شركة كندية للتوزيع ونجحت في سحب الكتاب من الكثير من المكتبات في ارجاء البلاد . بيد ان هذه الحملة باءت بالفشل حين تنبهت لها مجموعة من شباب الجالية العربية في لندن انتاريو وعملت بمساندة الاتحاد الكندي العربي على اثارة الموضوع علانية وتوجيه الاحتجاج الى الدوائر الرسمية والهيئات الشعبية والتظاهر ضد هذا التحيز السافر . ونجحت هذه المجموعة في كسب الرأي العام الكندي الذي سارع بدوره الى المكتبات يطلب منها نسخا من الكتاب . وبقي كتاب **الارض غير المقدسة** ولعدة اشهر على قائمة احسن المبيعات .

هاني احمد فارس

J. L. Talmon, **Israel Among the Nations,**
(London: Weidenfeld and Nicholson, 1970).

ان الكتاب الذي نستعرضه الان ليس الا عبارة عن مجموعة من ٣ مقالات مطولة ، كان المؤلف — وهو استاذ للتاريخ الحديث في الجامعة العبرية بالقدس — قد كتبها في اوقات متفاوتة ، ثم جمعت ونشرت على شكل كتاب واحد . ولكن على الرغم من ذلك فمجموعة المقالات هذه تعبر عن راي المؤلف ونظرته الاساسية الى ثلاثة من المواضيع الرئيسية الهامة : اليهودية والصهيونية واسرائيل .

وقبل ان نتطرق الى معالجة كل من تلك المقالات على حدة ، لا بد لنا ان نشير الى ان الانطباع الذي يخرج المرء به بعد قراءة هذه المادة هو ان المؤلف لا يختلف كثيرا عن تلك المدرسة من المؤرخين التي خلقتها الجامعة العبرية بالقدس وان نظرة المؤلف الى التاريخ اليهودي خاصة لا تختلف كثيرا عن نظرة المنتمين الى تلك المدرسة . وهي المدرسة التي توجه اللوم الى كل من الاشتراكية والراسمالية واحيانا اليهود انفسهم ، على حد سواء . معتبرة كلا منهم مسؤولا عن المصاعب التي حدثت لليهود خلال القرنين الماضيين . هذا في نفس الوقت الذي تصل به الى نتيجة مفادها ان ظهور الصهيونية كان ضرورة حتمية ، لتعود وتهمس بصوت خافت ان الحركة الصهيونية ارتكبت بعض الاخطاء — وخاصة بحق العرب — اثناء مسيرتها ولتعلن في نفس الوقت عن تشاؤمها وامتعاضها من عدم قدرة العرب على « تفهم » الحركة الصهيونية . بينما كل هذا مرفق بمحاولات لاعادة النظر في تاريخ اليهود ، بصورة تكاد تصل احيانا الى محاولات اعادة كتابته من جديد .

ففي المقالة الاولى التي يحتوي عليها الكتاب ، وتحت عنوان « الثورة والثورة المضادة » يسردد المؤلف القول ان العناصر اليمينية كانت تعتبر اليهود من المؤيدين لليسار الاشتراكي مبدية كرهها لهم ، بينما العناصر اليسارية تعتبرهم في صف الطرف المضاد وتبدي هي الاخرى بغضا لهم . ومن هنا ينتقل المؤلف الى القول ان اليهود اشتركوا بأعداد كبيرة نسبيا في ثورات في ١٨٤٨ في اوروبا ، وان هذه الواقعة سببت ارتكاب المجازر بحقهم فيما بعد . كذلك يرى المؤلف ان نشاط اللاساميين في اوروبا ، الذين اصبحوا يعتبرون اليهودي رمزا للخبث ، زاد من سوء وضع اليهود في اوروبا يومها (راجع الصفحات ١٣ و ٢١ و ٢٨ و ٤٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٤) .

وبعد تلك المقدمة ينتقل المؤلف ليحدثنا عن الحركة الصهيونية وعرضها على شكل « نماذج من الوعي الذاتي اليهودي » بصورة توحي — كما ذكرنا — ان ظهور تلك الحركة كان حتميا ولكن الغريب في الامر ان المؤلف ، لسبب ما ، وبعد ان يحدثنا قليلا عن هرتسل ، دون ان ياتي بجديد ، يركز اهتمامه كليا على موشي هس وبصورة يشعر بها القارىء ان الرجل هو مثاله الاعلى . والغريب في الامر ان المؤلف يكاد لا يتعرض لاي من آباء الصهيونية ومفكريها عدا الشخصين المذكورين — لا اولائك الذين عاصروهم والذين لا يقلون اهمية عنهم في كثير من الاحوال ولا اولائك الذين ظهروا بعدهم ، رغم اهميتهم .

اما في مقالته الثالثة والاخيرة — وهي زمنيا احدث مقالة في الكتاب — فيعالج المؤلف وضع اسرائيل وموقفها من العرب بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . وفي هذه المقالة بالذات تبرز روح تلك المدرسة من المؤرخين التي تحدثنا عنها ، واذا كان المرء — مثلا — لا يستطيع الا ان يوافق المؤلف عندما يقارن الموقف الصهيوني المرن من تطورات القضية الفلسطينية على اختلاف مراحلها وقدرته ، نسبيا ، على التصدي للازمات مقابل الموقف العربي المتزمت ، الذي لم يكن في اغلب الاحوال على مستوى الاحداث ، فانه في نفس الوقت لا يستطيع الا ان يخالف المؤلف في حديثه عن الحركة الصهيونية ، الديمقراطية التحررية ، التي « اضطرت » للتعاون مع الاستعمار في سبيل تحقيق اهدافها (راجع ص ١٣٢ ، ١٤٧) . ومرة اخرى ورغم تحليل واقعي لحالة اليهود في دول شرق اوروبا وفي روسيا القيصرية (ص ١٣٧ ، ١٣٨) وللمراحل والتطورات التي سبقت اقامة اسرائيل (ص ١٥٤) وعلاقة كل ذلك بالمجتمع

الاسرائيلي (ص ١٦١) فيما بعد ، لا يستطيع المرء الا ان يستغرب عرض المؤلف لقضية اللاجئين الفلسطينيين وكأنها شر لا بد منه ، وان التاريخ عرف في الماضي حالات اشد قسوة من هذه الحالة (ص ١٥٧) .

وبالاضافة الى ما ذكرناه تبقى هناك ملاحظتان حول بعض اراء المؤلف التي تظهر غريبة عندما تصدر من شخص مثله . واولى هذه الملاحظات هي مقارنة جابوتينسكي بنهرو وتشبيهه له (ص ١٣٣) ، بصورة يحار معها المرء ويكاد يعتقد انه غير قادر على فهم حقيقة ما يريد المؤلف قوله . فالقارىء يكاد لا يجد اي شبه بين نهرو ، كما عرفناه ، وبين الاب الروحي لليمين الصهيوني، الذي وان كان يظهر احيانا انه يتمتع « بنبل » الارستقراطيين « وعطفهم » ، فانه يبقى ذلك الشخص الذي تبنى حركات صهيونية كانت ولا تزال قريبة جدا من الفاشية ، بل انه زودها بكثير من تراثها الفكري . اما الملاحظة الثانية فهي آراء المؤلف حول تلك الطباع التي تكونت على حد تعبيره بين اليهود والاسرائيليين ضد الحرب وحب قتل الغير (ص ١٥٩) ، والمرء لا يستطيع الا ان يستغرب ذلك ، خصوصا وان المؤلف ولا شك مطلع على تلك الروح العسكرية المسيطرة على الكيان الاسرائيلي وعلى وجود فرق خاصة في الجيش الاسرائيلي تحولت مع مرور الزمن الى جماعة من القتلة مهمتها الفتك بالعرب وعلى الاخص عرب الدول المجاورة . كذلك لا بد ان يكون المؤلف على اطلاع حسن على تلك الروح التي كانت تشن بها العمليات الانتقامية الاسرائيلية ضد الدول العربية ، وعلى اوصاف ونفسيات الجنود والضباط الذين كانوا يشتركون بها .

ان قراء الانكليزية ، من خلال الكتاب المذكور ، يستطيعون الاطلاع على عدة نواح من تفكير تلك المدرسة من المؤرخين التي تحدثنا عنها ، والتي لا يزال معظم انتاجها حتى الان بالعبرية .

صبري جريس

Jon Kimche, **Can Israel Contain the Palestine Revolution ?** Conflict Studies No. 13. (London: The Institute for Conflict Studies, June, 1971)

صدرت مؤخرا دراسة للكاتب الصهيوني جون كمشي ، الذي يحاول الظهور بمظهر المستقل عن الحركة الصهيونية منذ اقالته من رئاسة تحرير مجلة « الجويش اوبزرفر » واصداره مجلة « ذي نيو ميدل ايست » بعنوان « هل تستطيع اسرائيل احتواء الثورة الفلسطينية ؟ » وهذه الدراسة هي واحدة من سلسلة من الدراسات التي تصدر عن معهد انشىء حديثا في لندن بادارة بريان كروزييه باسم « معهد دراسات الصراع » . وتأتي اهمية هذه الدراسة في هذا الوقت بالذات لانها تتفق مع الخط العام الذي بدأ الاعلام المعادي للثورة الفلسطينية انتهاجه منذ احداث ايلول ١٩٧٠ في الاردن والذييحاول ان يبين للرأي العام بأن الثورة الفلسطينية قد انتهت . تأتي هذه الدراسة لتضيف على هذه الحملات المضادة للثورة القول بأن الثورة فشلت في عملها العسكري ضد اسرائيل ايضا . من هنا تنبع اهمية التصدي للحجج الواردة في هذه الدراسة .

تستند دراسة كمشي على فرضيتين أساسيتين ، الاولى ان الثورة الفلسطينية قد اثبتت فشلها في نشاطها العسكري ضد اسرائيل حتى الان وانها « لن تمثل في المستقبل تهديدا حاسما ضد أمن اسرائيل رغم انها ستستطيع في كل الاوقات ان تحدث قدرا معينا من الاذى والتخريب » . اما الفرضية الثانية فتكمل الاولى وتقول ان الثورة الفلسطينية قد فشلت سياسيا لان نظرتها الى مستقبل الدولة الفلسطينية تقترب من وجهة النظر الاسرائيلية اكثر مما تقترب من وجهة نظر اغلبية السكان العرب في الضفة الغربية لان « الفدائيين واسرائيل مما يصرون على ان لا مكان « لدولة ثالثة » بين المتوسط والحدود العراقية » .

بعد وضع القارىء أمام هذا الطريق المسدود الذي رسمه لواقع الثورة الفلسطينية ومستقبلها ، يصل كمشي الى المرحلة الاخرى من مراحل الاعلام المضاد فيقول ان المخرج الوحيد هو حين «يقرر الفلسطينيون سياسة اخرى واقعية لا تقوم على ضرورة التدمير المسبق للدولة الاسرائيلية وحين يقرر الاسرائيليون ما اذا كانوا يحبذون قيام دولة او « وجود » فلسطيني في جزء من فلسطين » . هذا ما يريد ان يقوله كمشي ومن ينطق باسمهم ويدعو الى مخططاتهم : ان الثورة الفلسطينية قد فشلت عسكريا وسياسيا وان الحل يكمن في وجود دولة عميلة على جزء من فلسطين او بالواقع في اعتراف اسرائيل « بوجود » فلسطيني فقط هو بالطبع ، حسب التسلسل المنطقي للبدائل التي وضعها كمشي امام الاسرائيليين ، اقل حتى من دولة عميلة في جزء من فلسطين .

لنناقش الان الشواهد والحجج التي جعلت كمشي يصل الى هذه الفرضيات وجعلته يقول « ان كل الشواهد هي ضد قدرة الفدائيين على احراز نصر عسكري او على التأثير في الوصول الى تسوية سلمية انطلاقا من وضعهم العسكري » .

يتحدث كمشي اولا عن عدد الخسائر التي اوقعها الفدائيون بالاسرائيليين من ١٢ حزيران ١٩٦٧ حتى ١ آذار ١٩٧١ فيقول انها بلغت ٣٠٣ قتلى (١٨٣ عسكريا و١٢٠ مدنيا) و١٥٧٤ جرحى (٨٥٨ عسكريا و٧١٦ مدنيا) وقال انه استقصى هذه المعلومات من ملف اسرائيلي رسمي خاص اعدته سلطات الجيش والاحتلال لوزير الدفاع . ويحاول كمشي أن يخرج من هذه الارقام بنتيجة تثبت عدم فعالية العمل الفدائي عسكريا . لكن تقريرا آخر نشرته مجلة معراخوت في عددها رقم ٢٠٤ الصادر بتاريخ كانون الثاني ١٩٧٠ من اعداد الجنرال رانيف السكرتير العسكري لوزير الدفاع الاسرائيلي، يقول ان الخسائر الاسرائيلية نتيجة العمل الفدائي حتى اوائل عام ١٩٧٠ (اي اقل بخمسة عشر شهرا من الفترة التي اشار اليها كمشي) فقط بلغت ٣٠٢ قتلى (٢٨٨ عسكريا و١٤ مدنيا) و٨٦١ جرحى (٨٣٣ عسكريا و٢٨ مدنيا) . اذا كان كلام جون كمشي صحيحا فهذا يعني ان الاسرائيليين خسروا قتيلا واحدا فقط طيلة خمسة عشر شهرا (من اوائل عام ١٩٧٠ وحتى آذار ١٩٧١ .) سأكتفي بهذا القدر لاثبات سخف الارقام التي اعتمدها كمشي مع التأكيد على ان ارقام رانيف بدورها غير صحيحة ولا تقارب الحقيقة ابدا . لكن ما قصدت اليه هو اظهار التناقض بين مرجعين يقولان انهما استقيا معلوماتهما من المصدر ذاته اي مكتب وزير الدفاع الاسرائيلي . هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فان ارقام الخسائر ، على اهميتها ، ليست كل شيء وليست المقياس الوحيد للفعالية القتالية للثورة الفلسطينية فهناك الاثر المعنوي والاثر الاقتصادي والاثر السياسي للعمل المسلح . بالاضافة الى ذلك ، فان الثورة الفلسطينية لم تضع في تصورها انها ستقضي على الجيش الاسرائيلي خلال فترة قصيرة من الزمن لانها تؤمن بأن هدفها هو تحطيم قوة هذا الجيش وتقويض المؤسسات السياسية والاقتصادية التي تسنده وتدعمه عبر كفاح شعبي مسلح طويل الامد .

اما الدليل الثاني الذي يطرحه كمشي لاثبات فشل الثورة الفلسطينية ، فهو ان الثورة فشلت في جعل السكان العرب في المناطق المحتلة يؤيدونها ويعملون معها وان هناك « عدم رغبة متزايدة بين الفلسطينيين لمساعدة الفدائيين بملء ارادتهم » بل واكثر من ذلك « ان هناك نقمة عميقة في اوساط المثقفين الشباب بسبب رفض قيادة حركة المقاومة اقامة دولة فلسطينية عربية في الضفة » وان هناك بالتالي « شعورا عاما بفقدان الامل يعبر عن نفسه بصراحة بأن سياسة الفدائيين لن تؤدي ابدا الى هزيمة اسرائيل . » افضل رد على المغالطة الاولى المتعلقة بموقف السكان العرب من المقاومة هو موقف جماهير غزة من الثورة ومن

الاحتلال الاسرائيلي . لقد كانت اجراءات اسرائيل الارهابية في القطاع والتي توجت بعمليات التفريغ افضل دليل على التفاف الجماهير العربية الفلسطينية من حول الثورة ودليل على جماهيرية الثورة واصالتها . فقد فشلت كل الاجراءات الاسرائيلية القمعية وكذلك كل محاولات الترغيب في عزل المقاومة عن الجماهير فلم تجد سلطات الاحتلال من سبيل غير تشتيت الجماهير نفسها علها بذلك تستطيع فك اللحمة الثورية فيما بينها واضعاف مقاومتها وتجريدها من سلاحها . ان هذا الوضع وفي قطاع غزة بالذات ، والذي قال عنه بعض العرب ممن اعتبروا انفسهم مفكرين استراتيجيين انه ساقط استراتيجيا ، ان هذا الوضع الثوري في قطاع محاط بالصحراء والبحر والمستعمرات الاسرائيلية ومحصور في شريط ساحلي ضيق ، ان استمرار هذا الوضع رغم النكسات التي اصابت الثورة في الاردن في ايلول وما بعد ايلول ، لاكبر دليل على ان الثورة لم تنهزم وان جذوتها لم تنطفىء ، وان قدرتها على الحاق الاذى وانهاك العدو الاسرائيلي لم تضعف بل انها تزداد . ومن ناحية ثانية ، فان تزايد العمليات الفدائية داخل الارض المحتلة منذ العام ١٩٤٨ ، تزايدها بعد ايلول بالذات لدليل آخر على قوة الثورة واستمراريتها . لا نريد بذلك القول بأن الثورة هي في احلى ايامها بل نقول ان الثورة، رغم ما اصابها من ضربات قاتلة في كثير من الاحيان، لم تنشل ولم تتوقف . المغالطة الثانية في كلام كمشي والتي تقول بأن الشباب المثقف يؤيد قيام الدولة الفلسطينية العميلة ، تدحضها الوقائع . لم يورد كمشي اي اثبات ليدلل على صحة هذا الكلام ولم يقل كيف وصل الى هذا الاستنتاج . ان من تحرك ولا يزال يتحرك في الضفة الغربية من اجل قيام هذه الدويلة العميلة ، كان الطاقم السياسي التقليدي الذي ارتبط تاريخيا بسلطات الانتداب البريطاني ثم بالنظام الاردني ، ثم تعاون مع سلطات الاحتلال الاسرائيلي . وقد ثبت بأن هذا الطاقم لم يستطع ان يستقطب الجماهير الفلسطينية وان كل تحركاته تتم تحت حراب سلطات الاحتلال وفي حمايتها وبتنسيق كامل معها. ومن ناحية اخرى فقد ثبت من خلال آلاف المعتقلين من ابناء الشعب الفلسطيني ومن خلال مئات بل آلاف الشهداء ، ان الشباب الفلسطيني المثقف داخل الارض المحتلة وخارجها يقف مع الثورة ويلتف حولها وحول اهدافها وبرامجها . اما القول بأن هناك شعورا عاما بأن المقاومة لن تؤدي ابدا الى هزيمة اسرائيل اذا استمرت ، اي المقاومة ، في سياستها الحالية ، فنقول لا نعرف كذلك كيف وصل اليه جون كمشي الكاتب الشهير . ان هذا القول ينطلق من المعزونة الاسرائيلية التي ما برحت تتردد منذ حزيران ١٩٦٧ وتقول بأن اسرائيل لا تقهر . والجواب على ذلك هو ان الشعوب التي تناضل من اجل قضاياها العادلة هي التي لا تقهر وهي التي ستتغلب على القوى المعادية لامانيها وحقها في تقرير مصيرها طال الزمن او قصر ومثال فيتنام ماثل امامنا .

ويصل جون كمشي في نهاية دراسته الى ما يريد في الاصل قوله والتبشير به ألا وهو الدعوة الى « وجود فلسطيني » ما بموافقة اسرائيل ومساعدتها وبالتالي بحمايتها ولهذا نراه يقول بأن الحل الوحيد الدائم للنزاع بين اسرائيل والثورة الفلسطينية يجب ان ينطلق من «الادراك بأن النجاح العسكري الذي حققه الاسرائيليون حتى الان يعطيهم فرصة نادرة للتقدم باتجاه هذا الهدف» الذي يقوم على التعايش المستقل لكن المقبول من الطرفين والذي يأمل كمشي ان يأخذ شكل « دولة فلسطينية مرتبطة فدراليا مع اسرائيل وليس مع الاردن » . وهكذا يتضح القصد الحقيقي من وراء كل الحجج التي أوردها كمشي : انها حجج طرحت للوصول بالقارىء الى القبول بفكرة « فلسطينستان » في الضفة الغربية . وهي فكرة رفضتها الثورة الفلسطينية ولا تزال ولا علاقة حاسمة بين رفض الفكرة ومستوى قوة او فاعلية الثورة اي ان الثورة حتى لو وصلت الى ادنى درجات الضعف ، فان ذلك لا يعني بأنها ستقبل بدولة عميلة وتتنازل عن تحرير الارض الفلسطينية بكاملها . كان كمشي وغيره من الكتاب الصهيونيين يرفضون في البدء الاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني ولما بدأ الشعب الفلسطيني ثورته المسلحة ، بدأ كمشي وبعض الكتاب الصهيونيين الذين يحاولون الظهور بمظهر موضوعي يعترفون بهذا الشعب وبحقه في « الوجود » ولكنهم ارادوا في الواقع من وراء هذا الاعتراف اجهاض ثورته والسيطرة عليه عن طريق اقامة كيان ذليل تابع لاسرائيل .

ابراهيم العابد

Nasser Aruri, The Palestinian Resistance to Israeli Occupation (Wilmette, Ill: The Medina University Press International, 1970).

ان كتاب الاستاذ عروري كتاب متماسك حسن البناء وهو عبارة عن مجموعة مقالات تغطي مواضيع متعددة كلها تتناول بالبحث احدى أصعب المشاكل السياسية في العالم اليوم — مشكلة فلسطين . والمقالات من وضع علماء عرب ليبراليين تشربوا علوم السياسة الاميركية واعتنقوا نظمها وتمثلوا افكارها . وقد تضمن هذا الكتاب كذلك مقالات لاصدقاء القضية الفلسطينية (غير العرب) مثل آنيا فرانكوس الصحفية الفرنسية الثورية اليهودية المولد .

ان الدكتور عروري نفسه هو احد الراديكاليين العرب المتأمركين وهو رئيس جمعية خريجي الجامعات الاميركية العرب . ويتحدث الاستاذ عروري في مقدمة كتابه عن العلاقة بين الصهيونية والاستعمار والرجعية العربية . ويوضح بشكل جلي سيطرة الامبريالية على الوضع في الشرق الاوسط ولكنه يتجنب استعمال كلمة الامبريالية بشكل صريح .

وهو يوضح كذلك دور اسرائيل كمركز توزيع للبضائع الرأسمالية في العالم الثالث ويؤيد الثورة الفلسطينية . ولكن الدكتور عروري يعاني من مصيبة التعجرف الاكاديمي عندما يصر على ان « تحالف كل القوى الوطنية » يجب ان « يقاد من قبل الحرفيين والمتعلمين الذين ليس لهم مصالح مكتسبة من الوضع الراهن » . ويجدر القول بأن هؤلاء «الحرفيين والمتعلمين» هم ابناء الارستقراطيين الفلسطينيين ، اي موظفي حكومة الانتداب الفلسطينيين « المتأنكلزين » ، وسلالة المبشرين — وهؤلاء جميعا طبقة خانت الجماهير الفلسطينية ولكنها الان — عندما ثار المضطهدون — تحاول الاستيلاء على قيادة حركة المقاومة لكي تستخدمها كأداة لاسترجاع امتيازاتها المفقودة . ويخشى بعض الكتاب أن هؤلاء « الحرفيين والمتعلمين » قد استحكموا في حركة المقاومة بشكل يصعب معه ازاحتهم عنها ، ان البرهان على ذلك غير قطعي ولكنني أورد هنا مشهدين : الاول انني لم أجد ضمن المقاتلين الذين قابلتهم في جبال عجلون في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٧٠ أحدا من نسل هذه الطبقة ، والثاني أنني رأيت أولئك الطفيليين في مكاتب المنظمات يتزاحمون في كل مكان كذكور النحل ويتباهون بسيارات المرسيدس وأجواء حياتها .

ولعل ما يلفت النظر في مقدمة كتاب عروري أنه يتجاهل فيها اشارة فرانكوس الى « التحالف التكتيكي» الذي تشكل في المؤتمر الوطني الفلسطيني (ايلول ١٩٦٩) « بين اليمينيين في المقاومة وبعض المستقلين الذين يمثلون البرجوازية الوطنية » (ص ٤٧) . أي ان عروري وشركاه يتقبلون ضمنيا خرافة « الوحدة الوطنية » ولا يناهضون اسسها باعتبار وجود صراع طبقي من جهة والحاجة لتنظيم حزب طليعي من جهة اخرى .

ومن نفس نقطة الانطلاق السابقة (اي الوحدة الوطنية) ، فان الاستاذ الطيباوي يثبت « التآمر الانكليزي — الصهيوني » ضد الفلسطينيين . ويظهر للعيان المخطط الذي قدمه هربرت صموئيل في عام ١٩١٥ الى الوزارة البريطانية والذي أوصى فيه تحويل فلسطين الى محمية بريطانية تستوعب الاستيطان اليهودي. وكذلك ان المبعوث البريطاني، السير اريك دروموند قد استخدم للاتصال مع برانديس قاضي المحكمة العليا الاميركية الصهيوني بغية اقناع الرئيس الاميركي ويلسون على الموافقة على المخطط البريطاني — الصهيوني لاعتراض تدويل فلسطين في فترة ما بعد الحرب . ويبين الطيباوي كذلك كيف خدع وايزمان الوجهاء العرب — وكان حينذاك رئيس البعثة الصهيونية — بانكار أي رغبة بأن « يسيطر الصهاينة على المراكز العليا السياسية والتنظيمية » (ص ١٤٠) وكيف سمحت الحكومة البريطانية للصهاينة بانتداب ممثلين لهم في مؤتمر السلام ومنعت نفس الامتياز عن الفلسطينيين الذين شكلوا ٩٠٪ من السكان . وفي نفس السياق التاريخي يري الاستاذ وينز من جامعة ماكيل كيف نفرت الجماهير العربية من طبقة « الافندية » الحكام ، أولئك الحكام الذين « انكمشوا رعبا خوف العنف من الجماهير » وطالبوا بانهاء الاضراب العام عام ١٩٣٦ «خشية» جرفهم في تيار العنف الكاسح الى ما لا تعرف عقباه (ص ٣١) .

وفي القسم التالي من المقالات ، تبين برباره الاسود في نظريـــة « الفلاحين المتوسطين » ان هؤلاء هم المادة الثورية في البلدان المتخلفة وتقرر ان هذه النظرية تطبق على سكان المخيمات وعلى العرب الاسرائيليين ، اذ ان لهم « جذورا في الارض » وتماسا مع المراكز السكنية وقطع أرض صغيرة وحياة بسيطة للغاية. اما بالنسبة لسكان المخيمات « اللاجئين » فانها تقول ان من أتى منهم من مناطق ريفية كان متحـــررا من تحكم طبقـــة « الذوات الدخيلين » وان « نمطهم المعيشي » زودهم بقابلية الحركة اللازمة وكذلك الثقافة وتبادتهم الخاصة بهـــم .

وتقتفي فرانكوس خطى بربازه وتؤكد حقيقة اسرائيل الاستعمارية وتقارن الطبقة الحاكمة في اسرائيل مع حكام افريقيا الجنوبية ولكن بدون قاعدة اوروبية او اميركية (أي الاستعمار الاسرائيلي والافريقي) ولكن بسيطرة وطنية مفرطة علـــى الاسرائيليين وباعتقادهم بخرافة « المستوطنين الابطال » الذين لهم تعال عرقي وانهم يحاولون اعـــادة تجميع السكان الاصليين في جيوب معزولة (ص ٣٤) . وبسبب هذه السياسة القمعية والمنفرة وكذلك ظهور حركة العالم الثالث وآمالها من جهة والتوسع الصهيوني من جهة أخرى ، فان لثورة « الفلاحين المتوسطين » فعلا راديكاليا على الشرق الاوسط وتعبئة جماهيره . اضف الى ذلك ان الثورة ، تبعا لعنبتاوي هي منتوج جانبي «للازاحة الجماعية» ولانكار حقوق الفلسطينيين في « كيان سياسي منظم » له أماني سياسية . فان نجحت الثورة فعليهـــا — حسب رأي الاستاذ اسماعيل — ان تطور من استراتيجيتها الثورية وان تتضمن مخططا عسكريا وقاعدة آمنة وان تهيىء الشعب لنضال طويل وما ينتج عنه من تحمل مسؤولية السلطة . ولكن تحليل اسماعيل يعيبه موقفه الفكري حين يصرح بأن « ايجاد استراتيجية موضوعية هو اهم من ايجاد كادر من الافراد المدربين لترجمة هذه الاستراتيجية الى عمل قابل للتنفيذ علـــى المستوى التكتيكي والفردي » . وهو كذلك يؤكد أهمية « الرأي العام العالمي » من وجهة نظر المقاومـــة ان « قدمت المقاومة هدفها للعالم بطريقة مقبولة » (ص ٨٧). ان الاختلاف الوحيد الظاهري بين كاتبي المقالات هو عندما يحاجج عنبتاوي ان سلسلة التصريحات من قبل البريطانيين وعصبة الامم وهيئة الامم تنكر على الفلسطينيين كيانهم ، بينما يرى ماليسون ان « بنود الوقاية » في وعد بلفور وفي النقطة الثانية عشرة للرئيس ويلسون وكذلك في الفقرة الثانية والعشرين من اتفاقية عصبة الامم والفقرة الثانية من مرسوم الانتداب والفقرة ٨٠ من لائحة الامم المتحدة وفي تصريح منح الاستقلال للشعوب والبلدان المستعمرة، كلها تعترف بوضوح بحق الفلسطينيين بتقريـــر المصير . وبكلمات أخرى فان الصهيونية وممارسيها وحدهم ، حسب راي ماليسون ، مسؤولون عن عدم الاعتراف بالفلسطينيين كشعب ذو وطن .

لذا فان حقهم بالثورة يجب ان يعتبر مشروعا . ويؤكد ماليسون انـــه يجب اعتبار الفدائيـــين «الغوريلاز» كمحاربين شرعيين تحميهم اتفاقيـــة أسرى الحرب واتفاقية المدنيين . اذ ان لهم كحركة مقاومة قادة معروفين وعلامات مميزة ويحملـــون السلاح علنا ويتبعون « قواعد وعادات الحرب » (ص ٦٩) .

وهنالك ثلاثة مقالات أخرى كتبها الشوفاني وجبارة والملاخ . فالشوفاني يركز على اهمية نفور المتعلمين العرب وكيف كفوا عن الاعتقاد بامكانية التعايش بين العرب واليهود (ص ٧٧) . أما جبـــارة فقد تتبع باعتناء تبدل وجه المنظمات الصهيونية البارزة في امريكا وكيف يتجنبون بمناورات قانونية بارعة دفع الضرائب على البلايين من الدولارات التي يجمعونها ويرسلونها الى اسرائيل . ويقدر الملاخ تكاليف حرب حزيران (يونية) ونتائجهـــا ويؤكد ان امريكا تمارس « خداع النفس » بخصوص مصالحها القومية « عندما تدعم الموقف الاسرائيلي » (ص ١٦١) .

ان اكثر المقالات انعاشا واثارة هي مقالة بلاطة التي تبحث في الفن العربي الثوري ومقالة نخلـــة التي تدرس الشعر السياسي الذي كتبه العرب في اسرائيل . ويوضح كـــل من بلاطة ونخلة ان الفن والشعر قد ركزا على التفرقة ضد الاقلية العربية في اسرائيل . ويرد نخلة ازدهار شعر المقاومة الى ثلاثـــة اسباب : غياب المتعلمـــين التقليديين ، والحكم العسكري الاسرائيلي للمناطق العربية ، وتدمير العديد من القرى العربية من قبل الجيش الاسرائيلي وارغام سكانها على الهجرة الى قرى اخرى ضمن اسرائيل .

الدكتور جورج حجار

Larry Collins and Dominique Lapierre, O Jérusalem (Paris: Robert Laffont, 1971).

« ان نسيتك يا اورشليم تنس يميني » بهذه العبارة من المزمور ١٣٧ (نشيد ابناء اسرائيل المسبيين) يفتتح المؤلفان كتابهما الاخير الذي يدور موضوعه حول « صراع عام ١٩٤٨ من اجل مدينة القدس » . والمؤلفان : صحفيان فرنسي وامريكي سبق ان حازا على شهرة واسعة بعد ظهور كتابهما « هل تحترق باريس ؟ » حول تحرير باريس عام ١٩٤٤ ، الذي حمل الى الشاشة السينمائية ، مما يجعل نفس المصير محتملا بالنسبة للكتاب الجديد . والكتاب : هو عبارة عن ٦٠٠ صفحة هي خلاصة — على حد تعبير المؤلفين « ٢٥٠،٠٠٠ كيلومتر من المسافات المقطوعة في الشرق الاوسط ، واوروبا وامريكا + ٢٠٠٠ مقابلة + ٦٠٠٠ صفحة من الوثائق + جهود ٢٠ بحاثة + ٥٠٠ كيلوغرام من الوثائق السرية » . وهذا الحجم لم يمنع الكتاب من ان يحتل رأس قائمة الكتب الاكثر مبيعا في فرنسا خلال أكثر من ١٥ أسبوعا ، وما زال كذلك حتى كتابة هذه الاسطر . والاسلوب: قصصي لا يأخذ بعين الاعتبار قطعا الدقة التاريخية ، بقدر تركيزه على بعض الجوانب (الهامة منها والثانوية) التي تشوق القارىء الاوروبي العادي وتثير عواطفه .

الموضوع كما يلخصه المؤلفان هو « قصة مدينة اصبحت رمز صراع بين اخوة . هي قصة القائد العربي عبدالقادر (الحسيني) ، تدوة فدائيي الحاضر ، الذي نزل من الجبال لمحاصرة المدينة المقدسة . هي قصة ١٠٠ الف يهودي محاصرين في المدينة ومهددين بالموت جوعا وعطشا تحت وابل القنابل العربية ... هي قصة مئات الهاربين من معسكرات النازية الذين ضحوا بحياتهم من اجل الحصول على حق الدخول الى ارض الميعاد . هي قصة البدو النبلاء في الجيش العربي آتين لانقاذ المسجد الاقصى ... هي قصة الجنود البريطانيين الذين أتوا لاحلال السلام فتبنوا عواطف الطرفين وانضموا لاحدهما او للاخر ... هي قصة جولدا مئير متخفية بلباس امرأة عربية لتقابل سرا الملك عبدالله في محاولة اخيرة لانقاذ السلام الخ.. » (الغلاف) .

الكلمات نفسها في هذه التقدمة كافية للايحاء بمخطط الكتاب : محاولة ذكية من المؤلفين لتفادي الطرح الاحادي الجانب ، وذلك برواية الاحداث في معسكر كل طرف ، والايحاء بالتالي « بموضوعية» العرض . وفي الوقت نفسه ، لم يتمكنا من اخفاء عطفهما على الجانب الصهيوني وتفهمهما لمنطلقاته واعماله ، رغم تفادي التعرض مباشرة للجانب العربي ، اللهم الا من خلال طريقة العرض والتركيز على جانب معين (كوحشية بعض العمليات مثلا) .

الكتاب اذا ليس من نوع الكتب الصهيونية التقليدية التي تتغافل وجهة النظر الفلسطينية ، وتصور الغزو الصهيوني في اجمل الاثواب . (هناك مثلا وصف مطول لمجزرة دير ياسين [ص ٢٨٥ — ٢٩٦] وادانة واضحة لها من خلال حديث ممثل الصليب الاحمر جاك دو رينييه) . وهو ليس بالطبع تسجيلا مجردا للاحداث (فموتف ومشاعر المؤلفين تجاه « التجربة الصهيونية » واضحة في كل سطر منه) . وانما هو مجهود منهما للتعرض لجوانب مختلفة من الحقبة التي تلت قرار التقسيم ، مجهود تتحكم فيه بالطبع الحدود الايديولوجية التي يدوران فيها ، والتي لا تسمح لهما بتقييم تلك الاحداث بشكل موضوعي علمي . ولكنه مجهود يحتاج الى اهتمام اكثر من ادانة عابرة ، والقول بأنهما صهيونيان وكفى الله المؤمنين شر التحليل .

الصورة العامة التي تفرضها قراءة الكتاب على القارىء العادي بالامكان تلخيصها كالتالي : في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ صوتت اغلبية الجمعية العمومية للامم المتحدة الى جانب قرار التقسيم ، وذلك بفعل الضغوط الامريكية على دول العالم الثالث (ص ٢٦) . ورغم ذلك ، فالقرار اكثر المشاريع حكمة (ص ١٠٤) واقربها الى حل التناقض القائم على ارض فلسطين بين شعبين ، اليهود* والعرب، لكل منهما الحق في العيش عليها

---

* مفهوم الكاتبين اليميني يجعلهما يستعملان لفظ اليهود حيث يتحتم علميا استعمال لفظ الصهيونيين في معظم الاحوال . سنحافظ على تعابيرهما في التلخيص ، وعلى القارىء ان يقدر متى تصح اللفظة ومتى يجب استبدالها .

(ص ٩) . فاليهود عاشوا منذ القدم في فلسطين ولم تنقطع صلتهم بها او وجودهم فيها علـى مر القرون رغم تناوب الشعوب الاخرى في احتلالها من الاشوريين الى الفرس والرومان والعرب والاتراك واليوم البريطانيين (ص ٩) . رفض العرب قرار التقسيم لتعصب قادتهم من امين الحسيني الى عبدالقادر وفوزي القطب الذين كانت لهم صلات وثيقة ورحلات عدة الى المانيا النازية (ص ٥٩ + ١٠٧ + ٣٤٧) بالاضافة الى لاسامية الحكـام العرب وعدم فهمهم لاهداف وقيم الحركة الصهيونية (ص ٣٠٨) . وعلى ضوء هذا الرفض قـام الفلسطينيون بمقاومتهم وقتالهم ضد اليهود بمحاصرة احياء القدس اليهودية وقطع طرق التموين عليها وبعمليات هجوم وسطو على القوافل والمستعمرات. كانت شجاعتهم فائقة وبالذات كان عبدالقادر مثال المناضل الشجاع والذكي (ص ٢٧٤) الذي توفرت لديه امكانيات القيادة والتنسيق في جو كانت تتحكم فيه الفوضى واللامركزية وعدم التخطيط وانعدام العلم العسكري (ص ١٤٧ والكثير غيرها) . دافع اليهود عن أنفسهم بذكاء وتخطيط ، ورغم تضحياتهم وصعوبة الحيـاة في القدس آنذاك ، نجحوا في ذلك ، وتوجت عملياتهم الدفاعية بمقتل عبدالقادر في معركة القسطل في مطلع نيسان ١٩٤٨ ، الذي ادى الى انحلال المعسكر الفلسطيني وفقدان القيادة المركزية وانتهاء مرحلة المقاومة الداخلية عمليا (ص ٢٧٦) .

كل ذلك ادى الـى التدخـل العـربي الرسمي الذي تبلور بعد مغادرة البريطانيين لفلسطـين باعلان الحرب . كانت التناقضات تنخر المعسكر العربي والمواقف العلنية الحماسية تناقض المواقف الحقيقية المساومة والمثل على ذلك موقف الملك عبدالله ورياض الصلح (٣٠٩ وما يليها) . كان الجيش الاردني هو القوة الرئيسية التي تواجه اليهود ، الا ان جون جلوب كان قد حدد له دورا في اطار مشروع التقسيم ، وذلك بتحديد رقعة عمله في القسم العربي من خارطة التقسيم وعدم تعدي القسم اليهودي اطلاقا (ص ٣٢٩) وذلك بهدف ضم هذا القسم الى المملكة الاردنية ومنع ظهور دولة يسيطر عليها المفتـي (١٠٠ + ٢٠٧ + ٣٦٠ + ٤٥٤) . ورغم ذلك فقد اضطرت بعض قطاعات الجيش الاردني التدخل في القدس ومنع سقوط المدينة القديمة في أيدي الهاغانا (نهاية الكتاب) .

ويروي الكتاب بالتفصيل العمليـات العسكرية والمذابح والنهب التي رافقتها مـن قبل كل من الطرفين . فوحشية الارغون في دير ياسين (٢٨٨ وما يليها) يقابلها « وحشية العرب » في عملية الشيخ جراح ضد قافلة هداسـا (٢٩٧ — ٣٠٦) والهجوم على قوافل التموين في باب الواد (٢٣٤) والنبي دانيال (٢٤٢ — ٢٥٠) وغيرها . ونهب القطمون بعد احتلالها من قبل الصهاينة (٣٢٦) يقابله « السطو المستمر للقرويين العرب » على المستعمرات كاحتلال كفار عتسيون (٣٨٤) . الوحشية كانت اذا ، بنظر المؤلفين ، من الجانبين رغم ان هنـاك تحديدا في الوحشية الصهيونية بالارغون والشترن اكثر من الهاغانا والبالماخ (١١٨) ، وتعميما في الوحشية العربية وخاصة لغياب القيادة التي بامكانها الحد من ردود الفعل.

خلال كل هذه الفتـرة كان البريطانيون يقفون سياسيا الى جانب العرب (١٥٤ + ٢١٠) وضد التقسيم ، الا ان قادتهم المحليين كانوا منقسمين بين محايدين ومناصرين لمعسكر او لاخر ، وجنودهم في الغالب كان الامر لا يعنيهم فهم يبيعون السلاح للطرفين ويخونون كلا منهما ، ولا يسعون الا الى تفادي التضحية بأرواحهم في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل . ولكن الوثائق تظهر ان العديد من المواقع الاستراتيجية سلمت للصهاينة تسليما مـن قبل البريطانيين حين مغادرتهم لها (٧٨ + ٢١٦) . وينتهي الكتاب بفصل عنوانه « جدار في المدينة » هذا الجدار الذي فصل نصفيها خلال عشرين عاما حتى دخول القوات الاسرائيلية الى المدينة القديمة عام ١٩٦٧ (ص ٥٨٩) ، الذي واجهـه عرب القدس « بعداء مغلق » وظهر على اثـر ذلك « الفدائيون على حدود فلسطين المحتلة ، وعادت القنابل الارهابية كما في عام ١٩٤٨ لتشوه شوارع المدينة وتريق الدماء في ساحة سوق وفي مقهى جامعة وفي دكان عامـر بالزبائن ليلة السبت » (٥٨٩) .

وينهي المؤلفان كتابهما بهذه الكلمات : « لقد زالت الجدران والاسلاك الشائكة التي جزأت المدينة ، ولكن الحدود ما زالت قائمة في قلوب السكان . ولئلا تصبح صلاة الشعب اليهودي : (ان نسيتك

يا اورشليم ..) صرخة يرددها شعب سامي آخر، على العرب ، واليهود ان يزيلوا قبل كل شيء هذه الحدود ... »

هذه هي الصورة التي يقدمها كتاب لابيير وكولينز عن معارك ١٩٤٨ في اطار قصصي مشوق . ليس هناك شك بأنها كثيرة الشبه بالصورة الصهيونية، وبالذات الصورة التي يقدمها ما يسمى باليسار الصهيوني (المابام) حول حق شعبين على ارض واحدة، وضرورة التآخي وازالة الحقد والكراهية(!) الخ. والكاتبان يسترسلان مرارا في وصف زوجين او عائلة صهيونية قبل مقتلهم بفعل انفجار او عملية عسكرية عربية بشكل يثير عاطفة القارىء الغربي. ورغم انهما حاولا احيانا ان يفعلا نفس الشيء بالنسبة للعرب الا ان مجهودهما بدا غير طبيعي وذلك لعدم تفهمهما لعادات واجواء الحياة العربية، بينما يظهر الصهاينة في عاداتهم غربيين وبالتالي قريبين منهما ومن القراء . وقد ورد في سياق الرواية مرة تشبيه بين الصهاينة والامريكيين من جهة والعرب والهنود الحمر من جهة اخرى ، وهذه الصورة تفرض نفسها فرضا في اكثر من مناسبة . الجديد في كتاب كهذا هو ان الهنود الحمر المحليين لا يكتفون هذه المرة بالصراخ واداء رقصات الانتقام، وانما لهم حياتهم وتقاليدهم ومطالبهم. الكتاب يأتي اذا على نمط افلام الكاوبوي الجديدة التي تصور حياة الهنود بشكل أكثر اتزانا من الافلام الاولى، في الوقت التي توحي ضمنيا بأن التاريخ لن يرجع الى الوراء .

يبقى ان الصفحات المخصصة للجانب العربي (وخاصة صفحات المقاومة الفلسطينية بقيادة عبد القادر الحسيني ، وصفحات وصف مجزرة دير ياسين) ستترك بعض الاثر على القراء الذين لم يسمعوا قط من قبل عن هذه الجوانب .

داود تلحمي

Menahem Mayer, **Les entreprises en Israël. Combattre, survivre et croître.** (Paris: Fayard - Mame, 1971).

يندرج هذا الكتاب الذي يريد ان يعطي القارىء العادي انطباعا عاما بالموضوعية والوصف المجرد الدقيق للواقع الاقتصادي الاسرائيلي ، تحت خط الكتب الاسرائيلية المألوفة التي تهدف الى ابراز صورة « المعجزة » الاسرائيلية واحاطتها بهالة من التقديس والتضخيم رغم عدم تعرض المؤلف إلى القضايا السياسية بشكل مباشر . ان هذا الاسلوب المبطن الذي يعتمد ظاهريا على « الوقائع » و« الحقائق » و« الارقام » دون أن يقع في فخ الجدل ودون ان يجر نفسه الى مواقف سياسية واضحة هو أسلوب دعائي اكثر فعالية من غيره من الاساليب وذلك بالضبط لانه مبطن ومتستر .

ان هذا الكتاب لا يريد ، كما يقول مؤلفه مناحيم ماير ، سوى تصوير الواقع الاقتصادي دون البحث عن أصول وجذور وابعاد هذا الواقع . او بالاصح أنه يريد أن يبحث في ما يسمى ، باللغة الاقتصادية الشائعة هذه الايام ، في ما معناه تنظيم وادارة وتسيير المؤسسات الاقتصادية . والسؤال الذي يطرحه المؤلف على القارىء موهما اياه بانه سيجيب عليه هو التالي : لماذا يعمل هذا التنظيم للشؤون والاعمال الاقتصادية في اسرائيل بهذا الشكل وليس بشكل آخر ؟ اي بكلمة أخرى : لماذا يسير اقتصاد اسرائيل كما يسير عليه الان ؟ وقد ينتظر القارىء من خلال هذا الطرح للمشكلة محاولة تفسيرية وتحليلية للاقتصاد الاسرائيلي بكل ابعاده واعماقه ومضاعفاته . الا اننا لا نجد شيئا من هذا القبيل فالكتاب لا يعدو كونه كتابا مدرسيا مبسطا الى ابعد حدود التبسيط . ولعل نظرة سريعة وشاملة الى محتويات هذا الكتاب كافية لتعطينا فكرة واضحة عن مراميه الدعائية الاكيدة.

يبدأ هذا الكتاب بعـــرض واف لوضع اسرائيل الجغـــرافي والتاريخـــي والسيـــاسي والقانونـــي والاجتماعي وذلك كما تحب الاوساط الصهيونية ان تصوره اي بدون تناقضات او صراعـــات . فالمجتمع الاسرائيلي هو مجتمع « متعدد الاصول »، يمتاز « بغياب نسبي للطبقات الاجتماعية بمفهومها التقليدي » (ص ٣٣) وبسهولة الانتقال من طبقة الى أخرى . ومقياس الانتساب الى طبقة ما هو تدم المواطن الاسرائيلي . الا انه يبدو ان هناك حقيقة اساسية قد نسيها او تناساها المؤلف وهي وجود طبقات اكيدة في اسرائيل من الصعب على المنتمي اليها ان ينتقل « بسهولة » الى غيرها . ذلك انه من الصعب جدا على اليهودي الشرقي القادم من اليمن او من المغرب ان ينتقل الى طبقة اليهود الغربيين . كما ان المؤلف يصر على القول ان التناقض بين هذه الطبقات لا وجود لـــه وان الاضرابات « نادرة الوجود » . كل شيء يراد له ان يظهر على ما يرام : فالامور في اسرائيل على احسن ما يمكن ان تكون : هدوء اجتماعي ورخاء وازدهار الخ ...

ثم يتكلم الكاتب في سياق حديثه عن موقع اسرائيل الجغرافي عن نقطتين : مساحة البلد الصغيرة ونمو السكان السريع (بفعل تشجيع الهجرة) اولا . وندرة المياه ثانيا . وعن هذه النقطة الثانية يقول مناحيم ماير : « يخشى في المستقبل النقص في الموارد المائية اذا لم تتخذ اجراءات في الوقت المناسب » (ص ٢٣٠) ولا يوضح ما هي طبيعة هذه الاجراءات : أهي تحلية مياه البحـــر ام استغلال مياه الليطاني التي قال عنها الاسرائيليون مرارا عديدة بأنها تذهب هدرا ؟!

بعد هذا العرض السريع لوضع اسرائيل يدخل الكاتب في صلب الموضوع فيتحدث عـــن الخطوط العريضة التي توجه الاقتصاد الاسرائيلي كالهجرة والاستقرار واستثمار الموارد الطبيعية والبشرية الى اقصى حد والنمو الاقتصادي وعـــن ميزان المدفوعات . والجدير بالملاحظة ان الهجرة تعتبر من المقدسات التي لا يمكن المساس بها مهما كان الوضع الاقتصادي سيئا ومهما كانت البطـــالة متفشية . فالهجـــرة مبدأ أساسي مـــن مبادىء السياسة الاسرائيلية لا يمكن ان تحيد عنه قيد شعرة . وهذا كله لا يمكن تفسيره ، كما يقول الكاتب بأنه « فعل ايمان » بل فعل توسع تخطط له اسرائيل على المدى الطويل .

ثم يتعرض المؤلف لدراسة بنية الاقتصاد الاسرائيلي وكيف تقوم على ثلاث ركائز اساسيـــة وهي : القطاع العام ، القطاع التعاوني ، والقطاع الموجه من الدولة . ونحن نعتقد انه من غير المفيد التوقف عند هذه الامور خاصة وان المؤلف قد تعرض لها بشكل سطحي وعرضي نستطيع ان نجده في اية منشورات سياحية اعلامية او حتى مدرسية . وكذلك هو الامر عندما يتحدث عن مختلف قطاعات الاقتصاد كالزراعة والصناعة والبناء والتجـــارة والمصارف . ولعل ما يلفت الانتباه في كل هذا هو « هذه المثالية » التي يريد الكاتب أن يقنعنا بأنها هي التي تحرك الجهود الاقتصادية بمقدار ما يحركها الربح والمردودية . ونستطيع ان نتساءل هنا : أي مثالية يعني ؟ أهي عملية بناء اسرائيل ام عملية تشريـــد الشعب الفلسطيني وافقـــار واستنزاف المنطقة العربية بأكملها عن طريق بناء اسرائيل الذي هو مشروع استعماري بالدرجة الاولى ؟ ولعلنا لا نغالي اذا قلنا أن الخط الذي يسير عليه مؤلف هذا الكتاب يتشابه تشابهـــا مدهشا مع الخـــط الدعائي الذي كان ينتهجـــه المستعمرون الاوائل حين كانوا يتكلمون عن «مثالية» الرواد الاولين الذين كانوا يحملون التمدن الى الشعوب « المتوحشة » و« البدائية » كما انه بتشديده على « الفعالية » و« التقدم » فانما يتبنى كلية المفاهيم الاقتصادية السائدة فـــي البلدان الاستعمارية .

بعد هذا ينتقل المؤلف الى الكلام عن كيفية التصنيع واختيار المنتوجات ومصادر التموين بالمواد الخام ونسبة الانتاجية وتحسين النوعية كما أنه يتكلم عن السوق الداخلية والخارجية مع اشارته ، طبعا ، الى المقاطعة العربية وضرر هذا الاجراء على كلا الجانبين ، وتحويل معظم الانتاج الصناعي والزراعي الى السوق الاميركية والاوروبية وهذا بشكل اضطراري اذ ان جل ما تطمع اليه اسرائيل هو الاسواق العربية المجاورة التي « هي بأمس الحاجة الى مثل هذه المصنوعات » وهنا يعترف المؤلف ، ولو مرغما ، بفعالية المقاطعة العربية اذ ان البضائع الاسرائيلية بتحولها الى الاسواق البعيدة عنها تزيد كلفتها بسبب أجور النقل فتصبح

عاجزة عن منافسة البضائع الاخرى من حيث الاسعار . وكل هذا لكي يشير الى ضرورة الانفتاح والصلح مع العالم العربي واهمية هذا بالنسبة الى نموها الاقتصادي .

ولا تغيب السياسة المالية الاسرائيلية عن باله فيفرد فصلا كاملا يتحدث فيه عن التمويل وتوظيف الاموال واستثمارها وعن المراقبة والمحاسبة وسياسة الارباح والضرائب بالنسبة للشركات وللافراد مشيرا الى ان اسرائيل تعتمد اعتمادا متزايدا على المساعدات الخارجية لتأمين استمرارها وأنها بين استقلالها الاقتصادي وبين تقدمها اختارت الثاني اذ « ليس هناك خوف من الشركات الكبيرة التي توظف أموالها في البلاد او من الدول الاجنبية التي تمد اسرائيل بالمساعدة » . وهذا يفسر لنا الشيء الكثير ويوضح العلاقة العضوية بين اسرائيل والرأسمالية العالمية .

وقبل أن يصل مناحيم ماير الى استنتاجاته ، يخصص فصلا لليد العاملة في اسرائيل وعن أوضاعها وظروف عملها وأجورها والضمانات المؤمنة لها وعن حقها في الاضراب وعن حلول العقول الالكترونية محلها في بعض المجالات ، وما الى ذلك من مسائل وأمور مغرقة في العمومية تتحول في معظم الاحيان الى بيان شديد التفاؤل يعدد فيه الكاتب « المنجزات » و« النجاحات » الخ ... أكثر مما هو تحليل دقيق وموضوعي للواقع الاقتصادي الاسرائيلي . الا ان كل هذا ، في رأينا ، ليس سوى ذريعة يتوسلها مناحيم ماير للوصول الى استنتاجات سياسية واضحة ومكشوفة . ان هذه الكمية الهائلة من «المعلومات» التي يسوقها الينا تجد لها مصبا في الايديولوجية الرسمية للدولة الصهيونية ، هذه الايديولوجية التي تؤمن غطاء اعلاميا ودعائيا لهذه الدولة في سياستها من اجل « الصراع ، والبقاء ، والنمو ».

ما هي استنتاجات الكاتب ؟ لعل تساؤلنا هذا في غير محله فالاستنتاجات ليست في الحقيقة سوى تبريرات طالما سمعناها من أبواق الدعاية الاسرائيلية . فهو يؤكد ان مصير اسرائيل مرتبط بالدرجة الاولى بنتيجة الحرب وان اي انكسار عسكري يعرض وجود دولة اسرائيل ذاتها للفناء. ويستطرد قائلا أن هذا الاحتمال ليس واردا على الاطلاق . ثم يسوق لنا احتمالين :

الاحتمال الاول : استمرار حرب الاستنزاف (تجدر الاشارة هنا الى ان هذا الكتاب قد كتب قبل وقف اطلاق النار) وما ينتج عنها من تعاظم في ميزانية الدفاع ، ومن « دمج متزايد لاقتصاد الاراضي المحتلة » في اقتصاد اسرائيل . ويعلق الكاتب على هذا الاحتمال بقوله ان هذا الدمج يفيد العرب كما يفيد اسرائيل . و«يدعم» مزاعمه بالتأكيد على ان هناك جهودا كبيرة لتنمية الاراضي المحتلة تجلت حسب زعمه في تدني نسبة البطالة وزيادة الدخل الوطني الصافي وزيادة الانتاج الزراعي . ولا يكتفي مناحيم ماير بسوق هذه الاكاذيب بل يذهب الى حد القول بكل وقاحة « ان احتمال استثمار الاراضي المحتلة من جانب اسرائيل ليس واردا على الاطلاق » !... اما **الاحتمال الثاني** الذي يتمثل بحل سياسي للصراع يقود الى اقامة علاقات طبيعية مع الدول المجاورة ، فهو « مغر » اكثر من الاول . اذ انه سيؤدي الى تخفيض ميزانية الدفاع واقامة مصالح مشتركة بين العرب واسرائيل كما انه سيؤدي الى زيادة تنمية الدول العربية . وفي هذا المجال « يمكن لاسرائيل ان تلعب دورا مهما » . ولا نعتقد ان مضمون هذا الكلام يحتاج الى تعليق فهو يكاد يكون تكرارا مملا لما تعلنه اسرائيل ، عبر وسائلها الاعلامية في كل يوم وفي كل مناسبة .

واخيرا فان هذا الكتاب لا يعدو كونه ، كما سبق وقلنا ، منشورا دعائيا موجها الى جمهور واسع من الرأي العام اللامبالي واللامتطلب والذي تغريه الاثارة اكثر مما تجذبه الموضوعية . واكثر من هذا فالكتاب موجه الى « مبتدئين » هذا ان لم نقل الى تلامذة مدارس . يكفي للدلالة على هذا أن نعرف أن الكاتب قد ألحق بكتابه جزءا صغيرا يتضمن عدة اسئلة بشكل ألغاز أو كلمات متقاطعة الغرض منها « امتحان » القارىء والتأكد من انه قد « استوعب » المعلومات التي قدمت اليه جيدا . اننا اذا اعتبرنا الكتاب موجها الى مثل هذا الجمهور فلا شك أنه كتاب ناجح . وما عدا هذا فهو منشور آني يفقد قيمته بمرور المناسبة التي نشر فيها . والاحداث التي نعيشها الان والتي تمر بها اسرائيل تعطي تكذيبا واضحا لمعظم ادعاءاته ومقولاته .

الياس أنيس نجم

ابراهيم العابد ، **مدخل الى الاستراتيجية الاسرائيلية** (مركز الابحاث التابع لـــ م. ت. ف. ، بيروت ، ١٩٧١) .

يظهر من عنوان الكتاب ومن تمهيد الدكتور انيس صايغ مدير مركز الابحاث الذي أصدر الكتاب ، ان المؤلف اراد من دراسته ان تكون مدخلا لبحث الموضوع ، وتشجيعا لمعالجته بدراسات أخرى . وهذا بدوره يشجع على تقديم بعض الملحوظات ، ويشعر ان المؤلف سيتقبلها برحابة صدر .

يبدأ المؤلف في اعطاء تعريف سريع للاستراتيجية : « لان الاستراتيجية هي فن استخدام مجموعة الوسائل السياسية والعسكرية لخدمة الاهداف الرئيسية لبلد معين في مرحلة زمنية محددة ، وفي ظل حوار الارادات التي تستخدم القوة لحل خلافاتها » . ويضع في الهامش المصدر الذي استقى منه هذا التعريف وهو الجنرال اندريه بوفر : « مدخل الى الاستراتيجية العسكرية » ، ولا ادري ان كان المقصود كتاب بوفر « مدخل الى الاستراتيجية » — نشر نابر ونابر ١٩٦٥ . فاذا كان المصدر هذا الكتاب ، فان التعريف المذكور لم يرد في صفحة ٢٨ ، كما انه لا يلتقي بدقة مع مختلف التعريفات التي اعطاها بوفر للاستراتيجية في ذلك الكتاب . حقا ان هذه النقطة ليست بذات أهمية جوهرية — أهميتها شكلية — للوقوف عندها طويلا . ولكن الاهم هو مراجعة التعريف نفسه الذي هو قطعا ليس بجامع مانع ، فضلا عن اغفاله لمجموعة من الملحوظات حول الاستراتيجية كان بوفر قد شدد عليها .

واذا كان هذا النقد لا يتسع لمناقشة التعريف مناقشة مستفيضة ، فيكفي الاشارة الى انه قيد الاستراتيجية باستخدام مجموعة الوسائل السياسية والعسكرية متخطيا الجوانب الاقتصادية والتنظيمية ، كما اغفل ملاحظة ان تعريف الاستراتيجية يتطلب تحديد المجال الذي تتناوله الاستراتيجية المحددة ، فهنالك الاستراتيجية السياسية ، وهنالك الاستراتيجية العسكرية ، وهنالك الاستراتيجية الاقتصادية ، وهنالك الاستراتيجية الكلية ، كما انه لم يشر الى علاقة الاستراتيجية بالهدف السياسي . ومن هنا ادى ذلك التعريف المطاطي الهلامي الى هلامية منككة رافقت بحث الاخ ابراهيم العابد مما جعله يفتقر الى التسلسل المتماسك في شرح موضوع الاستراتيجية الاسرائيلية ، وحوله الى حشد من التصريحات تختلط في فصوله الاهداف بالاستراتيجية ، وتمحي الحدود بين الاستراتيجية الكلية وبين الاستراتيجية العسكرية وبين الاستراتيجية الدبلوماسية ، وبين الاستراتيجية السياسية .

لكي أكون اكثر تحديدا ، ولكي أكون اكثر اقناعا بالنسبة للاستاذ ابراهيم العابد ، فسوف استند الى بوفر ما دام هو منطلق التعريف — رغم انني اعتبر مفاهيم بوفر في كتابه « مدخل الى الاستراتيجية » تعكس فكر الاستعمار الجديد ، وبعيدة عن التحديد العلمي الدقيق ، ولكنها تحمل في ثناياها بعضا من المنهاجية في البحث ، خاصة ، من ناحية رؤية بعض سمات الاستراتيجية وتقسيم الهرم الاستراتيجي . ولهذا لا بأس من الاستشهاد ببوفر مؤقتا في هذه الملحوظات .

يعرف بوفر الاستراتيجية بانها « فن ديالكتيك ارادتين متعارضتين تستخدمان القوة لحل نزاعهما » ص ٣٤ . ولكن بوفر يدرك ان التعريف العام غير كاف ، ولهذا فهو يقول ان هنالك هرما للاشكال الاستراتيجية المتنوعة وان كانت مترابطة لا بد من تحديدها بدقة اذا اريد لها ان تعمل بتناغم من اجل تحقيق الهدف الكلي نفسه : « تقف على رأس الهرم الاستراتيجية الكلية Total Strategy ، وهي تحت الاشراف المباشر للحكومة — أي السلطة السياسية . وان مهمة الاستراتيجية الكلية تحديد كيف تقاد الحرب الكلية . ان مهمتها وضع هدف كل نوع خاص في هرم الاستراتيجية ، مع تحديد الاسلوب الذي تدغم وتنسق فيه كل الفروع — السياسية والاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية » ص ٣٠ . ويقول « وسيكون لكل مجال رئيسي من مجال النشاطية استراتيجيته الخاصة المميزة » ، ص ٣١ .

واذا ترجمنا هذه الموضوعات الى كلمات أبسط ، فسنجد فكرة بوفر تقول ان هنالك استراتيجية كلية تشمل كل المجالات ، وهنالك استراتيجية لكل مجال رئيسي — استراتيجية دبلوماسية ، واخرى سياسية ، وأخرى عسكرية ، وأخرى اقتصادية الخ.. وتقع كلها ضمن الهرم الكبير للاستراتيجية

الذي تقف على رأسه الاستراتيجية الكلية . ليس هذا فحسب ، وانما هنالك ايضا ، استراتيجية كلية لكل مجال وتحتها استراتيجيات ادنى لمختلف فروعه الرئيسية ، فمثلا هنالك استراتيجية عسكرية كلية ، وهنالك استراتيجية للعمليات ، واخرى للتسلح واللوجستيقا الخ ..

الان ، اذا كانت الاستراتيجية تتناول النشاطات ككل ، واذا كانت لكل نشاطية رئيسية استراتيجيتها ، فكيف عالج الاخ ابراهيم العابد موضوع الاستراتيجية الاسرائيلية؟ انه لم يحدد الاستراتيجية التي سيعالجها هل هي الاستراتيجية الكلية ، ام الاستراتيجية العسكرية ، ام السياسية ؟ ام سيعالجها جميعا بلا خطوط فاصلة بينها — اي على شكل حديث عن الاستراتيجية فحسب ؟ ولكن يبدو انه اراد التركيز على الاستراتيجية العسكرية ، وهذا موضوع ولا شك قائم بذاته ، الا انه هنا ايضا لم يتناول الاستراتيجية العسكرية تناولا منهاجيا ، فلم تميز فصول دراسته بين الاستراتيجية العسكرية الكلية وبين استراتيجية العمليات ، وبين الخطط الاستراتيجية ، وبين المفاهيم او المرتكزات الاستراتيجية الخ بل قدمتها جميعا دفعة واحدة مختلطة بعضها ببعض ، وقد ركزت تلك الدراسة ، بصورة خاصة ، على المرتكزات في الاستراتيجية الاسرائيلية ، واذا تذكرنا تعريفه للاستراتيجية فسنجد انه خلو من التلميح الى شيء اسمه المرتكزات ، — رغم ان تعريف الاستراتيجية يجب ان يشمل وجود مفاهيم ومرتكزات — وانه يشدد على « فن استخدام مجموعة الوسائل السياسية والعسكرية » في حين لم تتطرق الدراسة الى تلك المجموعة من الوسائل . وحصرت نفسها في عرض منطلقات الاستراتيجية الاسرائيلية ومفاهيمها ، وهذا يعني ان الدراسة تناولت احدى الجوانب فقط وليس ما اعلنت عن بحثه وتقديم مدخل اليه .

لم تفتقر تلك الدراسة الى عدم الدقة من ناحية تناول الموضوع فحسب ، وانما افتقرت ايضا الى عدم الدقة ، في كثير من الاحيان ، من ناحية المحتوى .

يؤكد المؤلف عن « ان اية مقاربة لموضوع الاستراتيجية الاسرائيلية لا بد وان تبدأ بتحديد الاهداف التي تعتبرها اسرائيل حيوية واساسية لبقائها وتطورها » (ص ٩) . حقا ان الحديث عن أية استراتيجية يتطلب ان يبدأ بتحديد الهدف الذي توضع تلك الاستراتيجية من اجل تحقيقه . فما هو الهدف العام للاستراتيجية الاسرائيلية ؟ انه « الحصول على قبول عربي ملزم وشامل بالوجود الاسرائيلي على الارض العربية ... » (ص ٩). هنا يمكن مناقشة هذا الطرح من زاويتين : **اولا** : هل الهدف العام للاستراتيجية الاسرائيلية الحصول على قبول عربي بوجودها ؟ ام هدفها العام او الكلي هو المحافظة على وجودها واستمراره وتوسيعه وضمان اخضاعه للشعوب العربية ولعب دور استعماري في المنطقة كلها . وهذه مسألة يجب ان تفرض سواء قبل العرب او لم يقبلوا وما القبول العربي بوجود اسرائيل الا **احدى الوسائل** لتحقيق الهدف السياسي — اي ان ما سماه الاستاذ العابد بالهدف العام ان هو **الا** جزء من الاستراتيجية وليس الهدف العام للاستراتيجية ؟ **ثانيا** : ان استخدام كلمة هدف هنا لم تحدد المقصود بكلمة هدف هل هدف بمعنى غاية Aim ام هدف بمعنى Target ؟ لان المعنى الاول يحدد الغاية التي يراد من الاستراتيجية تحقيقها بينما يهدف المعنى الثاني الى تحديد الاهداف Targets التي يؤدي تحقيقها الى تحقيق الهدف بمعنى Target. اي هنالك الهدف الكلي ثم هنالك أهداف استراتيجية وهذه تختلف عن الهدف الكلي الذي توضع الاستراتيجية لتحقيقه .

ولنتابع الموضوع ، « وفي سبيل تحقيق هذا الهدف العام تضع اسرائيل ستة أهداف امامها ، كلها في مستوى واحد من الاهمية والاولوية » (ص ٩) ، وهذه الاهداف ، باختصار ، هي : (١) زيادة عدد السكان ، (٢) تحقيق تقدم اقتصادي ، (٣) تقليص الفوارق الاجتماعية ، (٤) تشجيع الاستيطان في القرى والمدن القليلة السكان ، (٥) التمسك بخطوط وقف اطلاق النار الحالية وتعزيز التحصينات عليها، (٦) تقوية الجيش الاسرائيلي .

يلاحظ ، بلا عناء ، ان ما سمي بالهدف العام لا يختلف عن هذه « الاهداف » الستة ويمكن اضافته لها بدل اعتبارها اهدافا لتحقيقه ، ثم اعتبار تلك الاهداف السبعة — بعد اضافة القبول العربي — أهداف الاستراتيجية الكلية التي تقوم لتحقيق الهدف

الكلي الذي هو المحافظة على وجود اسرائيل واستمراره وتوسيعه وضمان اخضاعه للشعوب العربية ولعب دور استعماري في المنطقة كلها . ومن هنا يمكن اعتبار تلك الاهداف السبعة بمعنى Targets او ننتقل بعبارات اخرى **الوسائل الرئيسية** التي تشكل الخطوط العريضة لعمل الاستراتيجية الاسرائيلية اي انها اجزاء الاستراتيجية الكلية وليست اهدافا بحد ذاتها ، فمثلا تقوية الجيش ليس هدفا بحد ذاته وانما هو هدف استراتيجي يؤدي تحقيقه الى المساهمة في تحقيق الهدف الكلي . ولكنه يتحول الى الهدف الذي وضعته الاستراتيجية الكلية ـ القيادة السياسية ـ للقوات المسلحة من اجل وضع استراتيجية عسكرية لتحقيقه فهو احدى وسائل الاستراتيجية الكلية وهو الهدف الذي تضعه الاستراتيجية العسكرية نصب عينيها وتسلمه لفروع التعبئة والتسليح والتدريب تحت اشراف قيادة الجيش ووزارة الدفاع .

من هنا نلحظ الخلط والتسيب اللذين اصيب بهما البحث حين اختلطت الاهداف بالاستراتيجية واختلطت الاستراتيجية الكلية بالاستراتيجية الاخرى . ولم يميز بين الهدف السياسي وبين الاهداف بمعنى Targets . كما يلحظ من تلك الملحوظات ان دراسة الاستراتيجية بروح هذا النقد تعني ضرورة تناول الاستراتيجية تناولا منهاجيا دقيقا جدا ، وضرورة نقل الباحث او الباحثين الى ارض شاسعة تتطلب تصنيفا ودراسة اكثر تعمقا وتفصيلا .

عندما ينتقل الاستاذ العابد الى الفصل الثاني « مرتكزات الاستراتيجية الاسرائيلية » ، يعاني من النواقص السابقة نفسها ، الا انه يقدم مسألتي الامن الاسرائيلي والحدود الامنة ، بروح نقدية نفاذة ، وبمناقشة ايجابية تكشفان ديناميكية المفهوم الاسرائيلي لهاتين المسألتين اللتين اسماهما الركيزتين الاساسيتين في التفكير الاستراتيجي الاسرائيلي . ولكن هذه الروح النقدية والمناقشة الايجابية تعودان لتغرقا في استعراض سلبي عند مناقشة ما يسمى بالمحرمات بالنسبة للاستراتيجية الاسرائيلية .

ثمة ملحوظة اخرى حول مسألة المرتكزات في التفكير الاستراتيجي الاسرائيلي ، وهي هل مسألتا الامن والحدود الامنة هما المرتكزان الاساسيان الوحيدان ام هنالك مرتكزات اخرى مثلا ضمان التفوق العسكري والتقني ؟ ومن هنا فان المؤلف لم يحاول ان يحصر تحت هذا الفصل المرتكزات الاساسية للتفكير الاستراتيجي الاسرائيلي . ويبدو لي هنا انه لم يوفق في اقامة الانسجام بين ضخامة عناوين فصول بحثه وبين المادة المقدمة تحت كل عنوان .

اما الفصل الثالث الذي يتناول « الردع والهجوم المسبق في الاستراتيجية الاسرائيلية » فينطلق من استشهاد سحب من كتاب « المقاومة الفلسطينية في وجه اميركة واسرائيل » للاستاذ هشام الشرابي الذي يقول ان استراتيجية اسرائيل تقوم « على مبدأ الاستعداد التام ، على اساس نظرية القوة الكاملة ، وهذه السياسة قائمة على الاعتقاد بأن المطمح الاول والاخير لعدوها هو العمل على تحطيمها ، وان ما يحول بين العدو وبين تحقيق هذا المطمح هو ادراكه مناعتها التي لا تقهر من جهة ، وادراكه ضعفه وتعرضه لخطرها من جهة ثانية » .

ان هذا المنطلق في تحديد الاستراتيجية الاسرائيلية، يقلب الحقيقة رأسا على عقب . ويقع في فخ التسويغ الاسرائيلي والامبريالي للاستراتيجية الاسرائيلية . ان سياسة اسرائيل « قائمة على الاعتقاد بأن المطمح الاول والاخير لعدوها هو العمل لتحطيمها » بدلا من القول انها قائمة على مطمح اول واخير وهو تحطيم عدوها واخضاعه كليا . اظن ان هنالك فرقا بين الاستعداد واستخدام القوة « دفاعا » ضد عدو يريد تحطيمك ، وبين الاستعداد واستخدام القوة لتحقيق اهدافك العدوانية وتحطيم عدوك . فمثلا هل نستطيع القول ان الاستراتيجية الامريكية في فيتنام « قائمة على الاعتقاد بأن المطمح الاول والاخير لعدوها هو العمل على تحطيمها » ـ من الذي يطرح القضية على هذه الصورة ؟ في الواقع لا اريد الوقوف كثيرا عند هذه النقطة لانها محرجة فعلا بالنسبة للاستاذين هشام شرابي وابراهيم العابد .

ثم يسمي الاستاذ ابراهيم العابد استراتيجية اسرائيل باستراتيجية الردع والدفاع الذي يتضمن القيام بهجوم مضاد مسبق . هنا ، ايضا ، تولد خطأ آخر نتيجة منطلق هشام شرابي فهو من ناحية صبغ على الاستراتيجية صفة الدفاعية التي تهاجم

ردا على هجوم محتمل قبل وقوعه . وهو من ناحية ثانية استخدم تعبير استراتيجية الردع والدفاع الهجومي الذي اعلنت الولايات المتحدة الامريكية عن تبنيه منذ الستينات مقابل استراتيجية التصعيد التي تبناها دالاس ، والخطأ هنا ان المقارنة غير واردة لان استراتيجية « الردع » لها تحديد خاص ضمن التوازن الاستراتيجي النووي ، ولا تنطبق على الوضع القائم بين العرب واسرائيل . لان اسرائيل تتبنى استراتيجية التصعيد والحرب الكلية ، او قل استراتيجية « الدفع حتى الحد الاقصى » — كلاوسيفتس ، وليس استراتيجية الردع من خلالتأكيد البقاءبعد الضربة — النووية — الاولى ، والتي تدخل ضمنها استراتيجية « الرد المرن » — ماكسويل تيلور . او بكلمات اخرى ان استراتيجية اسرائيل العسكرية تدخل ضمن عائلة الاستراتيجية المباشرة في حين تدخل استراتيجية « الردع » ضمن عائلة الاستراتيجية غير المباشرة . (راجع بوفير — «مدخل الى الاستراتيجية» ص ٧٤). ولكن قد يرد ماذا تقول بتصريحات القادة الاسرائيليين مثلا اسحق رابين « ان ما نحاول تحقيقه هو احراز القوة العسكرية الضرورية لردع محاولات تجديد الاشتباكات على نطاق محدود او واسع » — (ص ٤٤) ؟ يستطيع القادة الاسرائيليون ان يخلعوا ما شاءوا من الاسماء على استراتيجيتهم، ويستطيعون ان يطلوها بما شاءوا من الاصباغ . ولكن الباحث الحصيف عليه ان يحدد الاستراتيجية من خلال الوقائع الملموسة ، وينزع عنها اصباغ التمويه . ان نقطة الانطلاق ليست ما يعلن من تصريحات الا بقدر ما تتفق مع الحقيقة الملموسة التي هي نقطة الانطلاق ومعيار الحكم .

تبقى حول هذه النقطة مسألة عمليات الانتقام المحدودة وسياسة التهديد الخ وهذه يجب ان ينظر اليها كجزء من استراتيجية التصعيد حتى الحد الاقصى ، وهي تعمل ضمن الفترات الواقعة بين كل حرب كلية واخرى ، تحت استراتيجية « نقل الحرب الى ارض العدو وتحطيم اكبر قدر من حشوده العسكرية في اقصر وقت ممكن» (ص٤٨) وهنا لا بد من الاستشهاد برد الاستاذ العابد نفسه حين يناقش مسألة « حق » اسرائيل بالقيام بهجوم مضاد مسبق وذلك من اجل تفادي وقوع اسرائيل ضحية لهجوم عربي شامل ومفاجىء . فيقول « واضح ما يحمله هذا الكلام من خداع ، ذلك انه ، من خلال التجارب الماضية لا يبدو ان من الممكن للعرب ان يشنوا هجوما شاملا ومفاجئا ذلك ان طبيعة النظم العربية والعلاقات فيما بينها وسبل عملها مع بعضها بعضا ، اذا وضعنا جانبا الاعتبارات الاخرى يجعل من امكانية قيامهم بهجوم مفاجىء صفرا . وهذا يعني ان اسرائيل تقول ذلك كذريعة لتبرر هجومها المسبق » — ص ٤٨ . ويلاحظ من هذه الفقرة ان الاستاذ العابد عاد فعدل من تحليله السابق واقترب اكثر من الرؤية الواضحة لجوهر الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية . وهذا ما يجعل النقد صعبا عند دراسة كتاب يفتقر الى الفكر والتحليل المتماسكين لانه يبدأ من مقدمات تتناقض معها نتائجه او يبدأ من نتائج يتناقض معها تحليل المقدمات .

واخيرا ، لا بد من الاشادة بالجهد الذي بذله الاستاذ العابد في جمع تصريحات القادة الاسرائيليين حول الجيش الاسرائيلي ودور مختلف اسلحته ، مما يشكل مادة جيدة يمكن الافادة منها في اجراء دراسة عسكرية تتناول استراتيجية العمليات للجيش الاسرائيلي في اية حرب قادمة كما ان المادة التي قدمها حول « الاستراتيجية الاسرائيلية والسلاح النووي » والاستراتيجية الاسرائيلية لمواجهة الثورة الفلسطينية ، يمكن الافادة منها جدا اذا ما حللت تحليلا نقديا عسكريا وسياسيا ، وانصب التفكير على ايجاد المضادات المناسبة .

م. ش.

ELEMENTS: Revue trimestrielle du comité international de la gauche au Moyen-Orient.

ابان نهوض حركة المقاومة في ١٩٦٩ شكل اليسار الاسرائيلي والصهيوني العالمي « اللجنة العالمية لليسار العامل من اجل السلام في الشرق الاوسط» واصدر بباريس مجلة ناطقة باسم هذه اللجنة : « عناصر » وهدفها التصدي لتعاطف اليسار الاوربي والعالمي مع فكرة الكفاح الثوري المسلح كطريق اساسي لحل النزاع الصهيوني العربي ثوريا .
— وقد هنأ جولدمان بأسم الصهيونية العالمية أسرة المجلة على اصدارها . كما ان كلارا هالتر رئيسة تحرير المجلة صديقة شخصية للجنرال موشي دايان. منذ العدد الاول اعلنت المجلة ان مبرر وجودها هو ربط الحوار المباشر بين الاسرائيليين والفلسطينيين على صفحاتها اولا ثم على ارض فلسطين بعد ذلك لتحقيق السلام بين « القوميتين الاسرائيلية والفلسطينية » . كما اعلنت ان برنامجها ، الذي هو برنامج اللجنة الناطقة باسمها ، هو الحل السلمي ، لان الحل السلمي في الشرق الاوسط هو ، كما تقول مقالات المجلة ، الحل الثوري الممكن الوحيد لانه يفتح الطريق امام الصراع الاجتماعي ، اما الكفاح المسلح فهو حل رجعي ومضاد للثورة لانه يؤجج الصراعات القومية في الشرق الاوسط ويؤخر بالتالي موعد الثورة الاجتماعية . تلك كانت وما زالت استراتيجية المجلة التي تعبر عنها في كل عدد من اعدادها الثمانية . وقد حرصت على ان تنشر في كل عدد مشاركة طوعية من احد اعضاء المقاومة او ترجمة « منتحة » لهذا او ذاك من قادتها . وقد نشرت في عددها الاخير تصريحا نسبته لابو اياد فحواه ان المقاومة لا تعارض الحل السلمي. وقد كذبت فتح ان يكون ابو اياد قد اعطى مثل هذا التصريح . لاطلاع القارىء العربي على مضمون وتكتيك ومنطق هذه المجلة راينا من المفيد استعراض اخر عدد منها .

تقول افتتاحية العدد السابع من المجلة : « برهنت احداث الشرق الاوسط الاخيرة صواب نظريتنا : التفاوض مع الاسرائيليين لتمكين الفلسطينيين من حقوقهم الوطنية » . وسنرى بعد قليل ماهية هذه « الحقوق الوطنية » ! وتجد المجلة الجراة لتكتب: « لقد ساندتنا القوى التقدمية في اسرائيل والعالم العربي » . بالطبع القوى « التقدمية » العربية التي ساندتها هي من نوع الجعبري وابو شلباية وغيرهم من المتعاونين مع الاحتلال في الارض المحتلة . اما القوى « التقدمية » الاسرائيلية فهي المابام . اما المتسببين فانها تدين بشدة خط هذه المجلة ، ولهذا اعتبرت المجلة المتسببين بانها « متطرفة ومعادية لاسرائيل » ويسار كاريكاتوري لانها تؤمن باستراتيجية النضال الثوري المسلح وتحرض ضد الحل السلمي الذي يراد منه المحافظة على الاوضاع الراهنة في المنطقة .

تقول الافتتاحية ان « لقاء القوى الثورية في الشرق الاوسط » اي العرب الذين هم « انصار الحوار مع اسرائيل وخصوم الكفاح المسلح » و « القوى الثورية في اسرائيل » اي المابام هو التمهيد الصحيح لانهاء النزاع العربي الاسرائيلي. وتؤكد بان « المجلة دعمت ولا تزال البحث عن تسوية سلمية للنزاع » . فما الذي تقترحه من اجل هذا السلام ؟ هذا ما يجيب عنه مقال مارك هالتر : « السلام في الشرق الاوسط : محاولات جديدة » . يقول هالتر : « لقد برهنا دائما على ان السلام بين الاسرائيليين والفلسطينيين من جهة وبين الاسرائيليين والعرب من جهة اخرى ممكن ». ويضيف : « مع الاسف اصبح السلام بين الاسرائيليين والفلسطينيين صعبا نظرا لرفض كل من الطرفين الاعتراف بالحقوق القومية للاخر . لكن الرفض اكثر تصلبا من جهة الطرف الفلسطيني » . وهكذا فالفلسطينيون هم الذين يتحملون القسط الاوفر من المسؤولية نظرا لتصلبهم ! ويزعم المقال « ان الخيار المطروح هو بين سلم تفرضه القوى الكبرى وسلم ديموقراطي حقيقي يكون نتيجة لارادة شعوب المنطقة » . اي لارادة دولها .

هناك فكرة ثابتة في جميع اعداد المجلة هي الالحاح على الفصل بين الفلسطينيين والعرب . وقد اعتبرت المجلة ، كما اعتبر ذلك بعض نقاد المقاومة العرب ، ان تسلسل بعض العناصر العربية « المتطرفة » الى صفوف المقاومة هو المسؤول عن عدم نمو العناصر المعتدلة والواقعية فيها .والحل السلمي الذي تقترحه المجلة يكون على مرحلتين :

التفاهم الاسرائيلي الفلسطيني اولا ثم التفاهم الاسرائيلي العربي ثانيا . واذا كان حل النزاع الفلسطيني الاسرائيلي قد اصبح صعبا بسبب « تصلب » الطرف الفلسطيني ، فما هي افاق حل تاريخي لهذا النزاع ؟ يجيب على ذلك نعوم شومسكي استاذ علم اللغة بمعهد التيكنولوجيا بكامبريدج ، وعضو اللجنة اياها ، في مقاله : «منظور راديكالي لحل النزاع العربي الاسرائيلي». وهو يبدأ بتكذيب عنوانه قائلا : « في الحقيقة ليس في مقالي شيء من الراديكالية . وانما سأحاول ان اكون واقعيا وانسانيا » . ويستعرض عناصر التفوق العسكري والتيكنولوجي الاسرائيلي بالقياس الى الجيوش العربية لكنه يضيف استنتاجا : « ورغم هذا التفوق فاسرائيل على حد قول الكاتب الاسرائيلي تالمون تستطيع ان تكون الظافرة وتستطيع ان تبقى الظافرة الى اخر رمق من حياتها . لكن هذا التهديم الذاتي ، هو الانتحار . فبعد كل انتصار نجد انفسنا محاصرين بمتاعب جديدة ... كما ان هوة الحقد المتبادل ستتعمق وتتسع . والرغبة في اخذ الثأر ستبلغ ذروتها » . ويضيف شومسكي بان « اسرائيل باستراتيجية تصعيد الحرب تتبع فعلا استراتيجية انتحارية . لانها تستطيع ان تكسب كل نزاع الا النزاع الاخير » . والذي يضحك هو الذي يضحك اخيرا كما يقول المثل الفرنسي . ولهذا ليس من مصلحة دولة اسرائيل ان تتصلب ولا تعتمد على تفوقها الراهن الذي قد لا يدوم طويلا. وانما من مصلحتها التاريخية ان تقبل بحل سلمي يحفظ حقها في الوجود المستقل . ويقول شومسكي بان احتفاظ اسرائيل بالاراضي العربية المحتلة يشكل خطرا عليها . لانه : « كيف تستطيع الديموقراطية الاسرائيلية — الضمانة الاولى والجوهرية لدعم الرأي العام الغربي لاسرائيل — ان تبقى سليمة مع تواجد مليون عربي تحت الاحتلال ، لا يستطيعون الحصول على المواطنة الاسرائيلية الكاملة لان الحكومة مصرة على الاحتفاظ باليهود كاغلبية لسكان اسرائيل » . ويضيف : « توصف اسرائيل عادة بانها الساعد الايمن للامبريالية الغربية . هذا الوصف ليس صحيحا الان . لكنه اذا استمر الوضع الراهن فانه سيصبح صحيحا في المستقبل . وعندئذ تتعرض اسرائيل لخطر خسران تعاطف اليسار الغربي معها » . ولهذا فمنطق الاشياء يفرض على اسرائيل ان تقبل بالحل السلمي . نفس هذا المنطق لكن لاسباب مختلفة يفرض على الفلسطينيين والعرب قبول الحل السلمي ايضا . ويدعم شومسكي زعمه بالحجج التالية : « ان مصر هي الاخرى تتبع سياسة فاشلة . لان التفوق الاسرائيلي — الذي اعتبره في اول مقاله مؤقتا واصبح الان ابديا — لن يترك لها فرصة توجيه ضربة ظافرة للجيش الاسرائيلي » . ويلتفت اخيرا للمقاومة لينصحها : « المشاريع الراهنة للمقاومة لا حظ لها من النجاح . لان اسرائيل ليست الجزائر ولا يمكن قتل جميع سكانها ولا ان يرحلوا من تلقاء انفسهم » . ان هذا العرض لاستراتيجية المقاومة مغرض . فالمقاومة لم تقل يوما ولم تفكر بأنه يجب قتل كل سكان اسرائيل او اجبارهم على الرحيل ! اذن ، يقول شومسكي : « ان طرفي النزاع الاسرائيلي — الفلسطيني العربي باصرارهما على النضال في سبيل الاستقلال القومي يخسران هذا الاستقلال بالذات بالوقوع تحت نفوذ الدول الكبرى » . والبديل الذي يقترحه بكل راحة ضمير هو وقوع الامة العربية تحت نفوذ اسرائيل المتفوقة عسكريا وتكنولوجيا واقتصاديا !

يأسف شومسكي الى ان مبلغ ٢٥ بليون دولار انفق من ١٩٤٧ على السلاح بدلا من انفاقه على مقاومة التخلف ، كما لو كانت القوى الامبريالية ودولة اسرائيل يهمها جديا ان توظف هذا المبلغ او حتى جزء منه لمقاومة التخلف . ولم يسأل شومسكي نفسه : لماذا لم توظف مبالغ مماثلة لمقاومة التخلف في امريكا اللاتينية مثلا التي تبلغ فيها نسبة الامية ٦٥٪ من السكان ، واكثر من نصف سكانها مصابون بامراض سوء التغذية ؟

لفتة اخرى للفلسطينيين ، يقول شومسكي : « صحيح ان الفلسطينيين ضحايا ظلم تاريخي . لكننا نعترف بكل نزاهة (كذا) بان هذا الظلم لا يمكن رفعه ابدا . لان كل اصلاح له يبدو مستحيلا في نظر الحقائق الراهنة » . يتناسى شومسكي ان الحقائق الراهنة ليست ابدية . وان ميزان القوى يتغير بارادة القوى الثورية في المستقبل . وينسى انه هو نفسه يعرف ذلك تماما عندما كتب : « ان اسرائيل تستطيع ان

تكسب كل نزاع الا النزاع الاخير » . الى مـاذا يريد ان يصل شومسكي من وراء هذا التخويف بحقائق الاوضاع الراهنة ؟ الى دعوة الفلسطينيين الى التخلي عن فكرة وممارسة الكفاح المسلح — هذه الفكرة التي هي بيت القصيد في المقال وفي جميع مقالات المجلة وجميع اعدادها — يقـول شومسكي : « على الفلسطينيين ان يحافظـوا على وجودهم . لان مواصلة الكفاح المسلح ضد اسرائيل هي استراتيجية انتحارية بالنسبة اليهم. وكصديق (يا لـه من صديـق !) لا انصحهـم بالانتحار » . ويضيف بانه : « حتى اذا استطاعت المقاومة ان تجعل من الاردن « هانوي عربية » فليس من حق هذا الاردن الثوري ان يصدر الثورة الى الاراضي المحتلة . لانه ليـس من حقه ان يفرض « السعادة » على الشعب الاسرائيلـي الملتف وراء حكومته » . ٥٦٪ من سكان اسرائيل على حد زعم المجلة يعتبـرون ان مصر ترفـض السلام الحقيقي حتى لو اعيدت اليها الاراضي المحتلة ! يستنتج الكاتب اخيرا ان الكفاح المسلح يقود الى نتيجتين « حتميتين » : امـا القضـاء الكامل على الفلسطينيين كمجموعة بشرية وامـا التهديد الجدي لوجود اسرائيل «كدولة مستقلة». وهذا يعني امكانية اندلاع حرب نووية تجعل مصير الانسانية على كف عفريت !

فمـا هو المخـرج الذي يقترحه هذا التحليـل الانهزامي ؟ « الحل الوحيد — الواقعيوالانساني والتاريخي — هو تكوين دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة . هذا الحل الـذي فكرت فيـه بعض العناصر الاسرائيلية وتبنته مؤخرا بعـض العناصر في الحكومة الامريكية نفسها » . لكـن امام هذا الحل الذي يقترح شومسكي ان تفرضه القوى الكبرى تقوم بعض العقبات التي يبدو انه لا يجهلها . ولهذا فانه رغم ايمانه العميق بجدوى هذا الحل الا انه — في حال استحالة تحقيقه — يقدم « منظورا راديكاليا اكثر جراة : « دولـة فدرالية اسرائيلية فلسطينية تحافظ فيها كل قومية على استقلالها الاجتماعي والثقافي والقومي ولكنها تصبح وحدة اقتصادية » . اي دولة تحافظ فيهـا اسرائيل على « نقاوة » يهودية الدولة الاسرائيلية وتجد فيها سوقا هامـا لشراء اليـد العاملـة الفلسطينية الرخيصة وبيع المنتوجات الاسرائيلية!

وعلى نفس الطبل لكن باعواد أخرى يضرب البير ميمي الكاتب الصهيوني الفرنسي في مقالـه : « من اجل اعتراف صريح بالواقـع القومي » . يستنكـر ميمي « الاشتراكي » موقـف بعـض الاشتراكيين الفرنسيين « الذين وقعوا في نـدوة الكويت التصريح الجنوني الذي يطالب بازالـة دولة اسرائيل » . ويتساءل في مرارة : « هـل هذا الموقف وليد قناعة ؟ ام هو محض تكتيك ؟ » ويجيب : « انه على كل حال تكتيك احمق بـل اجرامي » . وبعد تفلسف طويل وفارغ حـول المسألة القومية « التي كان ماركـس يحتقرهـا بشدة » على حد قوله ، وبعد البرهنة علـى ان الامم باقية الى دهر الداهرين وان الطبقات لـن تزول كما « تنبأ » ماركس ، وان المسألة القومية لا يمكن ان تحل اشتراكيا وامميا ، بعد كل هذه الدوشة القومية يتفرغ ميمي لشجب دعم اليسار الفرنسي للمقاومة الفلسطينية على اعتبار انهـا حركة تحرر اجتماعي . يأسف ميمي لهذا الدعم ويدحض « أوهام » اليسار الفرنسي والعالمـي الذي رأى في المقاومة الفلسطينية والثورة العربية الاشتراكية املا لحل النزاع التاريخي القائم في الشرق الاوسط . ينكر ميمي بشـدة ان تكـون المقاومة حركة تحرر اجتماعي ومن ثم يستنكر تأييد اليسار العالمي لها . المقاومة في نظر ميمي حركة قومية بحتة رغم ان فيها على حد اعترافه « بعض العناصر المتقدمة اجتماعيا» . لكن البير ميمي يقول لليسار العالمي الذي يرفض تأييد الصهيونية : « ان الصهيونية هي الاخرى — واكثر في نظـره بما لا يقاس من المقاومة — حركة اشتراكية تهدف الى اعادة البناء الاجتماعي لثقافة شعـب » . ويعطي بن اهارون زعيم الهستدروت دعما لهذه الموضوعة الكاذبة في نفس العدد بقوله : « ان اسرائيل يمكن ان يقال عنها بانها اشتراكية لان كل الثروات الطبيعية وجميع الاراضي مؤممـة ، و ٦٠٪ من الصناعة ووسائل الانتاج مؤممة كذلك. والبورجوازيـة لا تمثـل الا بين ١٠ و ١٥٪ من مجموع السكان » . كما لو كانت الاشتراكية هي مجرد تأميم وسائل الانتاج والتبادل. وليست ازالة الاستغلال وازالة المراتب وازالة البضاعةوبالتالي زوال استغلال طبقة لاخرى وقومية لاخـرى . فالاشتراكية هي على حـد قول مـاركس « رد الانسان الى نفسه » .

يحبذ ميمي على المدى البعيد « البعيد جداً » شرقا اوسطيا اشتراكيا متعدد القوميات او حتى بدون قوميات . اما في الحاضر فانه يقترح وباي حرارة ! « لاجتناب اراقة الدماء .. والدمار » « حلا سلميا ، ولو مؤقتا ، هو حل مرغوب فيه بل لا بديل له » . وينتقد ميمي بشدة كل الذين — عربا كانوا او اجانب — يرفضون الحل السلمي كما يقترحه قرار مجلس الامن او حتى بما هو ادنى من قرار مجلس الامن . وينعت هؤلاء « المتطرفين » بانهم « لا يبحثون بدعوتهم لحل ثوري وسيلته الاساسية الكفاح المسلح الا على العوبة بعيدة ، على حل لعجزهم امام مشاكلهم الراهنة » . هكذا يستخلص البير ميمي الصهيوني بان اعداء الحل السلمي وانصار الكفاح المسلح هم طوباويون خطرون . اما « الثوريون » حقا فهم الذين يقبلون بقرار مجلس الامن وحتى بما هو ادنى في سبيل « تجنب اراقة الدماء وتدمير شعب اسرائيل الذي تألم على مر القرون » !

من هذه النتيجة ينطلق جويدو فوبيني في مقاله : « دور اليسار في نزاع الشرق الاوسط » ، مقدما الحل السلمي على انه الوسيلة الوحيدة لاسترداد الشعب الفلسطيني لحقوقه . يقول فوبيني : « ان قبول مصر واسرائيل لمشروع روجرز شكل انعطافة نوعية وتاريخية في تطور الوضع السياسي في الشرق العربي » . لان كل مشاكل هذا الشرق لا يمكن ان تجد حلها الا في مناخ سلمي بين جميع دول المنطقة . « اذا كان احتلال اسرائيل من طرف العرب سيكون قضاء مبرما على امل وامكانية ميلاد دولة ديموقراطية علمانية يتعايش فيها العرب واليهود .. فان اعادة وحدة فلسطين تحت الاحتلال الاسرائيلي هو الامكانية الوحيدة التي ستمكن الفلسطينيين من احتلال فلسطين من الداخل لا بالكفاح المسلح بل بالتعاون الوثيق مع الاسرائيليين للعيش معا بسلام » . وعلى هذا النحو يكون اليسار الصهيوني دياني اكثر من ديان نفسه الذي عرض بهذا الصدد على الفلسطينيين عروضا اقل صفاقة !

قلنا ان احد الاهتمامات الثابتة لهذه المجلة الصهيونية هي البحث الدائم على احدى الوسائل لشد اليسار العالمي لدعم الدولة الاسرائيلية .

ويتجلى هذا الاهتمام في مقال هايدمان : « اليسار الالماني واسرائيل » . والكاتب هو عضو اللجنة اياها بمدينة فرانكفورت . يتألم هايدمان لضعف اهتمام اليسار الالماني باسرائيل . ويحاول ان يقدم اسبابا موضوعية لهذه « الظاهرة الخطيرة » ويحاول ان يقدم لها علاجا : « تاريخ الامس ، غرف الغاز لم تعد حاضرة في ذاكرة الشباب الالماني . ان هذا محزن . ولكنه امر واقع . ان العنصرية في افريقيا السوداء وقصف القرى الفيتنامية ومصير اللاجئين الفلسطينيين والاختناق الذاتي الذي يسببه نمط الحياة الراسمالية هي الاحزان الحاضرة في وعي الشباب الالماني .ولهذا فعلينا ان نقوم بعمل صبور لكي نجعل الشباب الالماني يهتم من جديد باسرائيل . يجب ان نقول للشباب اليساري الالماني ان تضحية الانسانية التي ما زال اليسار الالماني يدافع عنها لا يمكن التفكير فيها بدون المضمون الرائع الذي اعطته لها اليهودية . ان الفصل بين اليهودية واليسار العالمي يمكن ان يجر عواقب رهيبة عليهما معا . يجب ان لا يتخلى اليسار لحظة واحدة عن حق اسرائيل في الوجود . لان استشهاد ملايين اليهود وعزم المجموعة اليهودية في فلسطين هما اللذان جعلا من دولة اسرائيل حقيقة واقعة » .

تحتاج هذه المجلة لتزكية مثل هذه الافكار المغرقة في الرجعية ، لاقلام واصوات عربية تشارك طائعة في هذا الحوار المشبوه . وهي في كل عدد تجد اكثر من قلم وصوت عربي من داخل وخارج الاراضي المحتلة واحيانا من بعض المسؤولين في حركة المقاومة ذاتها . اما في هذا العدد فنجد زيادة عن رسائل التشجيع « نداء لقادة المقاومة الفلسطينية » وجهه محمد ابو شلباية احد محرري مجلة « القدس » في الارض المحتلة . يطالبهم فيه « باسم الوطنية والشهداء بان يشتركوا في مفاوضات السلام القادمة حتى لا يتركوا لاخرين فرصة وحق تمثيل شعبنا الفلسطيني » . وقد كانت حجة بعض الذين اشتركوا كتابة وتصريحا من العرب في هذه المجلة انهم لا يقرأون الفرنسية ولم يطلعوا على مضمونها . فهل تبقى لهم بعد اليوم حجة ؟

العفيف الاخضر

فلسطين في خمسة مؤتمرات

مراسلو شؤون فلسطينية :
شحادة موسى سعيد حمود
حاتم الحسيني مي صايغ جبجي
زينة ابو شديد

حلقة الاحصاءات الثقافية في البلاد العربية (في الخرطوم)

قامت « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » في الفترة الاخيرة بنشاط واضح في المجال الثقافي ، والعمل على توحيد مظاهر هامة في الثقافة العربية انطلاقا من ان الوحدة الثقافية والفكرية ركيزة أساسية في الوحدة القومية . فقد دعت المنظمة في الاشهر الاخيرة من عام ٧١ الى « حلقة دراسية للخدمات المكتبية والتوثيق والمخطوطات العربية » في دمشق ، والى « حلقة دراسية حول العناصر المشتركة في المأثورات الشعبية في الوطن العربي» في القاهرة (وقد نشرت شؤون فلسطينية في العدد الماضي تغطية لهما) واخيرا ، وبالتعاون مع «اللجنة الوطنية لليونسكو السودانية» دعت المنظمة الى الحلقة موضوع الحديث، اي «حلقة الاحصاءات الثقافية في البلاد العربية » التي عقدت في الخرطوم بين ١٨ — ٢٧ من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١.

ادرجت قضية الاحصاء الفلسطيني الى جدول اعمال الحلقة بعد أن اضيفت اليه ، في الجلسة الاولى ، مذكرة خاصة حول الاحصاء الفلسطيني أعدها مركز الابحاث وحملها مندوب عنه في وفد منظمة التحرير الفلسطينية الى الحلقة . ولقد ركزت المذكرة على ثلاث نقاط اساسية : ١ — اهمية وضرورة الاحصاء الفلسطيني الشامل على مختلف الاصعدة . ٢ — ملاحظات حول واقع الاحصاءات العربية وخلوها من المعلومات الكافية عن الفلسطينيين . ٣ — المؤشرات العامة التي نريد ابرازها في الاحصاءات العربية فيما يتعلق بالفلسطينيين في الدول العربية . وطالبت المذكرة ان تقوم الحكومات العربية والجامعة العربية بواجبها في هذا المجال . وشكلت هذه المذكرة وما طرحه وفد فلسطين محور النقاش الذي جرى حول الموضوع والذي تأكدت بنتيجته عدة امور : أ — يتحتم من الناحية الوطنية والقومية الحفاظ على الشخصية الفلسطينية ، وتوفير كل ما من شأنه ابراز الكيان الفلسطيني ، كرد على الادعاءات الاسرائيلية بأن ليس هناك شعب فلسطيني ، وكرد على المحاولات المشبوهة لطمس الشخصية الفلسطينية . ب — من الضروري على الصعيد الذاتي للثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني توفر الاحصاءات السكانية الفلسطينية لان اية خطة كلية او جزئية لا بد ان تستند الى معلومات رقمية عن عدد الفلسطينيين وتوزعاتهم المهنية والجغرافية ، والواجب القومي يدعو الدول العربية الى تجاوز بعض الاعتبارات السياسية والقيام باحصاء الفلسطينيين سواء من كان يحمل منهم بطاقة خاصة باللاجئين او من يحمل — لسبب او لآخر — جنسية اخرى . ج — منذ قيام منظمة التحرير اصبح للفلسطينيين كيان سياسي معترف به بالاضافة الى كيانهم الوطني ، كما أن لهم مؤسسات ثقافية قائمة من اذاعة وصحافة ومؤسسات للتأليف والنشر ، وفرق فنية ورياضية وغيرها . ولذا فلا بد في عملية الاحصاء الثقافي من معرفة هذه المؤسسات ومدى تلبيتها لحاجات الفلسطينيين ، ومعرفة مدى توفر الخدمات الثقافية العربية في مخيماتهم خاصة. وفي ضوء ذلك صدرت عن الحلقة التوصية التالية :

« ١ — تناشد الحلقة الدول العربية باجراء احصاء

للفلسطينيين المقيمين بها وفقـا لتعريف المواطن الفلسطيني كما ورد في الميثاق الوطني الفلسطيني (المادة ٦: الفلسطينيون هم المواطنون العرب الذين كانوا يقيمون اقامة عادية في فلسطين حتى عام ١٩٤٧ سواء من اخرج منها او بقي فيها ، وكل من ولد لاب فلسطيني بعد هذا التاريخ داخل فلسطين او خارجها هو فلسطيني) . اذ أن الاحصاء السكاني يعتبر ركيزة لاي احصاء او تخطيط ثقافي ، وان نتولى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلـوم عرض هذه التوصية على مجلس جامعة الـدول العربية لاصدار قرار بها .

٢ ـ تتولى المنظمة العربية للتربية والثقافـة والعلوم مهمة القيام بجمع بيانـات الاحصـاءات التربوية والثقافية الخاصة بالفلسطينيين متعاونة في ذلك مع حكومات الدول العربية والامانة العامة لجامعة الدول العربية ومكاتب منظمة التحريـر الفلسطينية ومراكز البحوث الاخرى والعمل على اصدارها ونشرها » .

ان التوصية جيدة بحد ذاتها ولكنها تظل توصية، ولذا ينبغي على الجهات المقتنعة فعـلا بأهميـة هذا الموضوع ، والخدمات الاساسية التي يوفرها لنضال الشعب الفلسطيني ، وارسائه علـى اسس علمية ، ان تبادر للقيام بسلسلة اتصالات واجراءات لوضعه موضع التنفيذ . ومن المؤكـد ان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية تتحمل العبء الاساسي في هذا الموضوع . كمـا ان مسئولية اساسية في هذا المجال تقع علـى عاتق مراكز الابحاث الفلسطينية وعلـى عـاتق مكاتبنا ومؤسساتنا ومختلف تنظيماتنا ، خاصة وهي معنية اكثر من غيرها بمعرفة القطاعات التي تتعامل معها ، ولديها الامكانيات البشرية التي باستطاعتها ان تسهم في العملية .

وناقشت الحلقة عددا من القضايا المتعلقة بأمور الثقافة والتخطيط والاحصاء الثقافي وغيرها . ولا شك ان هذه القضـايا والتوصيات التي صدرت بصددها هي قضايا هامة ، ان على الصعيـد القطري او القومي ، وان كانت العبرة في التنفيذ. فالاحصاء الثقافي موضوع جديد بالنسبة لمعظـم الدول العربية ، وهو موضوع هام لان الاحصاء عموما هو الاسلوب العلمي الذي يترجم الواقع الى ارقام ملموسة ، ولان الاحصاء الثقافي هو الوسيلة الرقمية التي تقيس مدى توفـر الخدمات الثقافية ومدى استفادة الجماهير منها ، والتي تـدرس البرامج او المواد التي تقدم عبر المؤسسـات الثقافية المختلفة ، ورأي الجماهير بها ، ومن ثم الوقوف على قيمة وفاعلية هذه الخدمات والبرامج وملاءمتها لحاجات الجماهير وتلبية لمطالبهـا ورغباتها . ولقد أبرز النقاش الذي دار في الحلقة عددا من النقاط الهامة مثل : ١ ـ الفصل بـين الاحصاءات الثقافية والاحصاءات التربوية ، على الرغم من كون المدرسة مؤسسة ثقافية ، وحصر الاحصاءات الثقافية في البرامج او المواد الفكرية والفنية التي تنمي وعي المواطن وفهمه في تعامله مع بيئته المادية والاجتماعية ، هذه المواد التي تنقل عبر مؤسسات ثقافية كالمكتبـات والاذاعـة والصحافة والسينما وغيرها ، واعتبار المـادة الثقافية (وليس المؤسسة او الوسيلة الثقافية) هي وحدة القياس في عملية الاحصاء ، اذ ليس يكفي ان نعرف عدد دور السينما بقدر ما يهـم ان نقف على البرنامج او المادة التي يقدمها الكتاب او الفيلم . ٢ ـ ربط التخطيط الثقافي بالتخطيط في المجالات الاخرى في المجتمع ، لان التنمية الحقة هي التي تدفع المجتمع بكل جوانب الحياة فيه الى الامام ، والتي تنطلق وتهدف الى رفع مستـوى الانسان بالدرجة الاولى . ٣ ـ التوازن بين الريف والمدينة عند وضع اية خطة ثقافية ، اذ من الواضح ان المجتمع العربي يشهد ظاهرة تركز سكاني يرافقها تركز للوسائل الثقافية في المدن مما يجعل الريف مهملا ومعطل الامكانيات الى حد بعيد.

٤ ـ توحيد التعاريف والتصنيفات ووضع الاستمارة الاحصائية الموحدة على المستوى العربي « بحيث يمكن عمل الاحصاءات الثقافية المقارنة ، التي تحدد مواقع المجتمعات العربية على خريطة التطـور الثقافي ، وتكشف عن المناطق التي تحتاج الـى مزيد من الجهد للوصول بها الى التطور المنشود».

الا ان هناك بعض الملاحظات حول حلقة الخرطوم. لا نريد هنا ان نتعرض لتنظيم الحلقة او الوقت الطويل الذي قضاه الاعضاء دون اي عمل ، فتلك امور ثانوية قياسا بجوهر اعمال الحلقة . غـير ان هناك ملاحظتين لا بد من ذكرهمـا . تتعلـق الملاحظة الاولى بدراسـة،طرحت في جدول الاعمال، بعنوان « الاحصاءات الثقافية والتخطيط » ومعدة

بتكليف من المنظمة العربية . فقد قررت اللجنة التي ناقشت الدراسة استبعادها من اعمال الحلقة لبعدها عن موضوع الاحصاء الثقافي واحتوائها اراء غريبة من الناحيتين العلمية والقومية . فهي تتحدث عن الانفجار السكاني في الوطن العربي ، وتدعو للهجرة كحل للمشكلة ، وذلك ليس صحيحا بالطبع ، اذ ان مناطق عربية كثيرة تعاني من عكس ذلك ، والتبشير بالهجرة دعوة غريبة بدون شك في وقت تسعى الدول العربية لاعادة ابنائها الذين اضطرتهم ظروف المعيشة للاغتراب ، ناهيك عن ضرورة الوقوف بوجه المحاولات الساعية لتفريغ الوطن العربي من خيرة كفاءاته . الا ان الانتقاد لا يوجه الى كاتب الدراسة بقدر ما يوجه الى الجهة التي كلفته بها وربما لم تراجعها قبل عرضها على الحلقة . والملاحظة الثانية تتعلق بالمساهمة في الحلقة سواء من حيث عدد الدول المشتركة ، وهي اقلية — السودان ، مصر ، ليبيا ، العراق، الكويت ، الاردن ، فلسطين ، سوريا — او من حيث مستوى الوفود وفعاليتها ، باستثناء الوفد المصري الذي ضم عددا من الاخصائيين . ان ذلك يعكس اما عدم الاهتمام ، او قلة الكفاءات ، وكلاهما يستدعي التوقف والملاحظة ، خصوصا ومجتمعنا بحاجة الى رعاية وتنمية كل وجه من اوجه حياته ، والوجه الثقافي تحديدا ، لانه يتعلق بالانسان العربي ، اساس التنمية واساس النهضة .

شحادة موسى

المؤتمر الخامس لمنظمة تضامن الشعوب الافريقية الاسيوية (في القاهرة)

عقد في القاهرة بين العاشر والثالث عشر من كانون الثاني ١٩٧٢ المؤتمر الخامس لمنظمة تضامن الشعوب الافرو — اسيوية . لعل بعض الملاحظات والانطباعات حول هذا المؤتمر تغني عن تقديم تقرير مفصل شامل يعدد الوفود ويستعرض الجلسات واللجان ويلخص القرارات والتوصيات، خاصة اذا كانت الملاحظات والانطباعات ذات طابع نقدي يهدف الى الخروج بالمقترحات التي تمكن العمل الفلسطيني من تحقيق الاستفادة الفعلية والكاملة من مثل هذه المؤتمرات .

١ — مثلت الوفود التي حضرت المؤتمر القوى المناهضة للامبريالية في بلادها ، وكانت حشدا كبيرا جدا (٨٧ وفدا ، ٥٦ منها عضوا عاملا و٣١ مراقبا ، حوالي ٣٧٧ عضوا) . وكونهما قوى ، منظمات افريقية وأسيوية ومنظمات اقليمية ودولية ومن الدول الاشتراكية ، مناهضة للامبريالية وغالبها يخوض النضال الفعلي في هذا الاتجاه ، فانها ، بشكل طبيعي ، حملت معها قضاياها الى المؤتمر وعملت على أن تجد لها حيزا في قراراته وكواليسه . وفي حشد من هذا النوع تكثر القضايا والمعضلات ولا يعود ممكنا التركيز عليها وعلى تفاصيلها ، من هنا فانه لا مناص أمام الوفود التي تريد ان تلعب دورا فاعلا ومؤثرا يسهل لها اجتذاب بقية الوفود الى قضاياها ، من أن تكون على المام واسع بحقيقة المعضلات التي تجتاح العالم الثالث . بالنسبة لكل وفد فان قضيته تقف على رأس سلم الاولويات ، وهذا أمر طبيعي ، لذلك فان الشرط الاساسي للحصول على تأييد عميق ومستمر لقضية من القضايا ، هو أن يكون صاحب القضية على وعي حقيقي بمشكلات الاخرين . لا شك في أن هذا الشرط صعب ومعقد، ولكن لا مفر من تحقيقه .

٢ — لم يكن صعبا على الوفد الفلسطيني مثلا (وفد اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير) أن يحصل في قرارات اللجان المختصة (خاصة لجنة الشرق الاوسط ، لجنة الاستعمار الجديد واللجنة الاقتصادية) وكذلك في البيان العام على قسط كبير من شجب العدوان الاسرائيلي وادانة التعاون الامبريالي — الصهيوني ، ومن تأييد لقضية التحرر والكفاح المسلح وحتى تقرير المصير ، ذلك لان كافة الوفود المشتركة مناهضة بطبيعتها

وتوجيهاتها للامبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة ولكافة تعبيراتها وحلفائها . ولكن هذه القرارات ، على قيمتها في مثل هذه المؤتمرات ، تبقى دون أثر عملي مباشر في غياب التفاعل الديناميكي والمستمر مع القوى التي صوتت على قبولها .

٣ — كان يمكن للوفد الفلسطيني مثلا ان يبرز بقوة وفعالية لو أنه حدد موقفا واضحا وجريئا عند بحث قضية الاعتراف ببنغلاديش (حين طرحت بحدة من قبل وفد دكا ووفد الهند في اللجنة المختصة بشأن التطورات في شبه القارة الهندية) ، مع العلم ان الوفد الفلسطيني كان الوحيد بين الوفود العربية الذي يمثل ثورة غير مقيدة بمواقف الدول ورسمياتها ودبلوماسياتها ، ولكن الوفد الفلسطيني آثر ان يتقيد باطار الحرص على ارضاء كافة الاطراف وعدم اثارة الباكستان ، وقعد متفرجا في اللجنة المذكورة . وفي اجتماعات ثنائية مع وفد الاتحاد السوفييتي ابدى المندوب السوفييتي استغرابه لموقف الوفد الفلسطيني ، وان كان رئيس الوفد الهندي (كريشنا مينون) قد أشار ، في الاجتماعات الثنائية ايضا ، الى تفهمه للموقف الفلسطيني ، الا أنه من المؤكد كان سيظهر ارتياحا وتفهما أكثر لو أن الوفد الفلسطيني حدد موقفا صريحا وجريئا بتأييد بنغلاديش والاعتراف بها .

٤ — وكذلك ، ونتيجة للاطار الضعيف الذي وضع الوفد الفلسطيني نفسه في داخله ، لم يستطع الوفد ان يستبعد من القرار (٢) حول العدوان الاسرائيلي على الشعوب العربية (لجنة الشرق الاوسط) الفقرة التي نصت على التالي : « وان منظمة تضامن الشعوب الافريقية الاسيوية لتؤيد جهود الدول العربية الرامية الى ايجاد تسوية لازمة الشرق الاوسط على اساس تنفيذ قرار مجلس الامن الصادر في ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٧ بكافة بنوده . كما ترحب المنظمة بالمقترحات البناءة التي تقدمت بها جمهورية مصر العربية وعدد من الدول العربية الاخرى بهدف البحث عن وسائل سياسية لايجاد تسوية سياسية للصراع ، وهي المقترحات التي ايدتها غالبية دول العالم والمجتمع الدولي » .

٥ — هذا لا يعني ان الوفد الفلسطيني كان ضعيفا في تركيبه (على العكس كان الوفد مؤلفا من عناصر على مستوى جيد) ، ولكن المشكلة تركزت اساسا في الاطار الذي اسر الوفد نفسه في داخله ، وفي غياب المواقف المدروسة والمعدة سلفا لمثل هذا المؤتمر . وتجدر الاشارة الى ان مركز الابحاث كان المدعو الوحيد (كمراقب) من مؤسسات ومنظمات العمل الفلسطيني .

٦ — لم يكن المؤتمر الخامس لمنظمة تضامن الشعوب الافريقية الاسيوية مؤتمرا قويا بشكل عام . الا ان حضور مثل هذه المؤتمرات أمر على درجة كبيرة من الاهمية والضرورة وخاصة بالنسبة لحركة المقاومة الفلسطينية ، اذ يمكنها في مثل هذه المجالات ، عبر المواقف السليمة والعلمية والتحركات الذكية الهادفة ، ان تخرق جدار الحصار على صوتها ومواقفها وان تفند الادعاءات والتشويهات التي تحاول القوى المعادية زرعها ضدها في كل مجال . على ان ذلك يصبح مجديا في ظل تحقيق الشروط التالية : أ — الاطلاع الواسع والمتخصص على معضلات ومشاكل القوى التي تحضر مثل تلك المؤتمرات . ب — التسلح بالجرأة الثورية في تحديد المواقف ، دون الخوف من الاعتبارات الدبلوماسية . ج — انتقاء الوفد على اساس طبيعة المؤتمرات او الندوات ، وليس على اي اساس آخر ، د — التمكن من متابعة القضايا والمواقف التي تطرح وتحدد على امتداد الفترة التي تفصل انعقاد مؤتمر عن آخر ، اذ ان عدم الاستمرار بالاتصال الملتزم والواعي يفقد القرارات قيمتها العملية وتظل شعارات دون فعل جدي .

الدكتور سعيد حمود

المؤتمر السنوي الرابع لجمعية الخريجين العرب (في بوسطن)

عقدت جمعية الخريجين العرب الامريكية مؤتمرها السنوي الرابع في مدينة بوسطن وذلك من ٢٩ الى ٣١ اكتوبر ١٩٧١. وكان موضوع المؤتمر « العرب: مراحل التطور الحديث وفرص الاختيار في المستقبل » . وقد بحث هذا الموضوع من جميع الاوجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية في حلقات دراسية استمرت ثلاثة ايام وقدم خلالها مجموعة من رجال الفكر والثقافة العرب دراسات علمية تحاول معالجة الواقع العربي . وحضر المؤتمر ، بجانب عدد كبير من الاساتذة العرب المقيمين بأمريكا ، عدد من المفكرين المشهورين ومنهم المستشرق جاك بيرك احد اشهر اساتذة التاريخ الاسلامي في فرنسا ، والدكتور لويس عوض المحرر الادبي للاهرام، وصبري جريس الباحث في مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، وفواز طرابلسي المحرر في مجلة الحرية ، وارك رولو المحرر في اللوموند الفرنسية ، والسيد عبدالله الطريقي الخبير بشؤون النفط ، والدكتوران صادق جلال العظم وحنا ميخائيل منباحثي مركز الابحاثفي منظمة التحرير الفلسطينية ومن أسرة تحرير مجلة شؤون فلسطينية .

وجمعية الخريجين العرب منظمة حديثة قامت بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، كمحاولة من المثقفين والمفكرين العرب في المهجر او « المنفى » للمشاركة في الدفاع عن قضيتهم العربية والمساهمة في نضال شعبهم ضد الاحتلال الاسرائيلي والاستعمار الغربي . وبدأت الجمعية بمجموعة صغيرة من الاساتذة العرب واتسعت خلال ثلاث سنوات لتشمل ما يزيد عن اربعمئة عضو يمثلون قطاعات مختلفة منها الاساتذة والاطباء والمهندسون والعلماء العرب في المهجر .

وأنتجت الجمعية خلال فترة قصيرة عددا من الكتب والنشرات العلمية التي تحاول الدفاع عن قضية فلسطين والقضايا العربية المعاصرة ، منها : كتاب **المواجهة العربية الاسرائيلية** ، للدكتور ابراهيم ابو لغد ، **والمقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الاسرائيلي** ، للدكتور نصير عاروري ، **والعالم العربي : من القومية الى الثورة** ، لعابدين جباره ، **والحرب غير المقدسة : الصراع على فلسطين** لديفيد وين ، **والعرب الامريكان** لايلين هاكوبيان ، **والحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٦٧** لالياس ساموع . كما أصدرت الجمعية عددا من النشرات الاعلامية منها **الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين** ، **واحتلال اسرائيلي للاراضي العربية عام ١٩٦٧** . كما قامت الجمعية بنشاط واسع لمواجهة الدعاية الصهيونية من خلال برامج المحاضرات والندوات التي اشترك فيها الاساتذة العرب ، ومن خلال المؤتمر السنوي .

وعالجت ندوات المؤتمر الرابع المواضيع التالية : « الحضارة العربية والنقد » ، « قوى التغير الاجتماعي » ، « العرب المحتلون (في اسرائيل)» ، « اقتصاديات الاستعمار » ، « الخليج العربي » ، « البحث العلمي العربي » ، « الوحدة ، التفرقة، والانقسام في العالم العربي » . ودار النقاش في هذه الندوات في جو من النقد الحاد للواقع العربي والفشل العربي في مواجهة التحدي الاستعماري — الصهيوني . كما تميز جو الندوات والمؤتمر عامة بالجدية القاتمة الكئيبة التي تعكس واقع انحسار حركة المقاومة الفلسطينية وتراجعها السريع امام الهجمة الاستعمارية والتحرك العربي الرسمي للقبول بالحل السلمي وتصفية المقاومة الفلسطينية . وذلك بعكس المؤتمرات السابقة حيث كان الجو العام يعكس التأييد العلني والمبتهج بالمقاومة الفلسطينية وما حققته من انتصارات وتقدم في العالم العربي .

وفي مجال الندوات ذكر المستشرق جاك بيرك ان العالم العربي يواجه معارك عديدة ومتشابكة هي معارك الاستقلال ، البناء الاقتصادي ، العدالة الاجتماعية ، والنهضة الحضارية . وذكر ان العرب فشلوا في كثير من هذه المعارك وخاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين . وفشل العرب في تحقيق التحرر الحقيقي ومعالجة مشكلة فلسطين ولم يتعلموا من هزائم الماضي . وذكر ان العرب فشلوا في خلق توازن بين « الهام الماضي » و« تطلعات المستقبل » . واكد ان هناك ثلاثة شروط للتقييم الموضوعي وفحص الاخطاء واكتشاف الطاقات الحقيقية وهي : ١) العلاقة بين أسلوب معين لواقع محلي واسلوب القضايا الدولية ،

٢) العلاقة بين المنجزات الجزئية في حقل معين والقوى الشاملة التي تتحكم في المجتمع كله ،
٣) العلاقة بين انطلاق قوى أساسية وعلمانية ونقدها وتقييمها . واكد انه لا بد للعرب من النهوض من واقعهم الحالي ومواجهة عالم الغد بالقيم العربية الدائمة .

وفي ندوة « النقد الثقافي » وضع الدكتور جارسلاف ستتكافك الفكر العربي تحت نقد صارم شديد . فذكر ان هناك تكرارا مملا في الفكر العربي الحديث وهو تكرار الايجابية والمعرفة السطحية . فالمفكر العربي الدارس في الغرب حاول ادخال افكار واساليب ومعايير جديدة على الادب العربي، وبذلك وضع المثقفون اطارا من « الايجابية » و« البناء » وظنوا ان النتائج ستأتي تلقائيا . وهكذا تحول التمرد الى تفاؤل فارغ مفتعل وفقد الاحساس بالواقع والنضال . واما لويس عوض فذكر ان الاحوال الموضوعية صالحة للنقاش الثقافي الحقيقي في العالم العربي الان وان هذا الحوار الثقافي يجري الان خاصة بعد حرب ١٩٦٧ . واكد ان المثقفين في مصر ادركوا ان المواجهة مع اسرائيل ليست عسكرية فقط وانما حضارية . وبذلك يجب تقوية اسس الدولة الحديثة في مصر واقامة حوار ثقافي مع العالم ايضا . وذكر ان مصر تمر بمرحلة تقييم شامل لكل معتقداتها وطرق حياتها التقليدية واكد ان اضطراب المثقفين المصريين دليل على ذلك . وذكر انه سنرى اذا ما كان هذا الاضطراب سيتحول الى فكر وعمل موضوعي وايجابي . وان ذلك يتوقف ايضا على ايجاد حل عادل لقضيتنا الحالكة .

وفي ندوة الاقتصاد الاستعماري ذكر الدكتور نعيم شربيني أنه رغم محاولات التصنيع فالعالم العربي لا يزال منطقة مواد خام معظمها للاستخراج والتصدير . وذكر ان « التخلف التكنولوجي » هو السبب في ذلك ، فاستعمار العالم العربي جاء نتيجة لتفوق بريطانيا التكنولوجي . وذكر ان الاستعمار لا تزال له جذور قوية في النظام العربي الاقتصادي وان لامريكا فائضا مستمرا من تجارتها مع العرب يساوي ربع فائضها التجاري كله .

وفي ندوة الخليج العربي ذكر فواز طرابلسي ان هناك مؤامرة صمت تحيط بكفاح شعب ظفار ، وان نضال شعب ظفار المسلح خلال سبعة أعوام قابلته بعض الحكومات العربية بالكراهية وبعضها بعدم الاكتراث . وذكر ان لبريطانيا قواعد عسكرية في الصالحية ومسيرة وان هناك ٨٠٠ ضابط بريطاني مع جيوش امارات الخليج . وذكر ان الكفاح المسلح قد تطور من نضال ضد سلطان مسقط الى ثورة شاملة تتطلع لتحرير الخليج العربي بأكمله . وان تغيرا جذريا قد حدث في النظام الاجتماعي والاقتصادي ومن مظاهره تحرير المرأة والتعليم وزوال النظم والقيم القبلية . واكد ان قوتين استعماريتين تتصارعان للسيطرة على الخليج : بريطانيا من خلال اتحادات الامارات العربية وامريكا من خلال السعودية وايران . وكلاهما يطمع في اقامة انظمة تابعة لحماية مصالحه الاقتصادية والاستراتيجية . واكد ان ثورة ظفار هي المخرج الوحيد لشعب الخليج ليحقق الاستقلال من كل اوجه التحكم الاجنبي ، والوحدة الوطنية الحقيقية ، والسيطرة على موارده الاقتصادية (البترول) ، والتقدم الاجتماعي .

وفي الندوات الاخرى الهامة تحدث السيد صبري جريس عن سياسة الاحتلال الاسرائيلي واثرها على عرب فلسطين وشرح صمود العرب في اسرائيل ومقاومتهم لهذا الاحتلال . وتحدثت السيدة رنده الفتال في ندوة اخرى عن دور المرأة العربية في معركة التحرر وذكرت ان المرأة العربية لا تزال تعيش محرومة من حقوقها السياسية والاجتماعية. وان حركة التحرر لا بد ان تساهم في تحرير المرأة العربية ايضا . كما اشترك بعض زعماء السود الامريكان وقادة اليسار الامريكي في ندوة « تضامن مع فلسطين » واكدوا تضامنهم مع نضال شعب فلسطين من اجل التحرر وان هذا النضال هو جزء من النضال العالمي ضد الاستعمار والعنصرية . ومن المشتركين كورتلاند كوكس من زعماء السود ، وبول بوتيل من الحزب الاشتراكي والانسة كاثي تاكني من لجنة التضامن مع فلسطين . واقيمت ندوة مفتوحة حول المقاومة الفلسطينية اشترك فيها الاخ ابو عمر والاخت جيهان ودار النقاش حول الازمة التي تمر بها المقاومة والطريقة للخروج منها وكيفية مواجهة التحدي الاستعماري خاصة في الاردن والمنطقة العربية عامة .

واما الكلمة الرئيسية في المؤتمر فالقاها الدكتور صادق جلال العظم في حفل العشاء . وكانت نقدا

لاذعا للمقاومة الفلسطينية قدمه العظم في جو غريب مليء بالتناقضات ، وامام جمهور معظمه من الامريكان والعرب الذين حضروا الحفل للترفيه والاستماع لمقطوعات على البيانو بعد الحفل . وتأثر بالنقد الحاد مجموعة صغيرة من العاملين لدعم المقاومة الفلسطينية ، بعضهم وجد النقد جزءا من عملية الهجوم والطعن في الثورة الفلسطينية ولذلك لم يتقبل أسلوب العظم في تقديم الافكار . جاء تحليل العظم قاسيا وعنيفا ، خاصة في فترة تواجه فيها المقاومة التصفية الجسدية العسكرية. فذكر ان المقاومة وقيادتها كانت تحمل كل أوجه التفكير والحياة العربية التي قادت الى هزيمة حزيران ١٩٦٧ . وان الهزيمة امام الهجمة في الاردن في سبتمبر ١٩٧٠ تؤكد هذا الواقع . وذكر ان المقاومة هزمت لان قيادتها كانت من نفس النوع الذي قاد العالم العربي خلال العشرين عاما الماضية — القيادة البورجوازية الصغيرة شبه العسكرية . وذكر ان المقاومة خلقت على المستوى الفلسطيني نفس أساليب النضال والفكر والعمل الذي وجد بين العرب قبل هزيمة عام ١٩٦٧ . وشبه المقاومة بالبعث والناصرية ، وذكر انها كانت للفلسطينيين كالناصرية للعرب . وعدد عيوب المقاومة وذكر منها التفكير العسكري الضيق والمقاييس العددية التي قاست بها المقاومة قوتها. وذكر ان المقاومة فشلت في خلق العلاقة الثورية الحقيقية بين الجماهير وبين الحركة الثورية ، ولم تقدم البرامج المحددة الواضحة لتغير المفاهيم المحافظة لدى الجماهير التي كانت في صالح الطبقات الحاكمة والقوى المضادة للثورة .

وقد يكون الكثير من تحليل العظم صحيحا ، ولكن النقد بهذا الاسلوب ومن خلال منابر الحفلات في وقت تواجه المقاومة معركة البقاء يتحول الى أداة للقضاء على المقاومة لا حمايتها . فالنقد بهذا الشكل يساعد على خلق روح اليأس ويساهم في دفع المزيد من الجماهير بعيدا عن المقاومة ، كما انه يمد القوى المضادة للثورة بالذخيرة لتبرهن على ان المقاومة كانت منحرفة من الاساس . ان تحليل ونقد العظم مطلوب ولكن ضمن اطار الجلسات الموضوعية بين الملتزمين بالثورة والتي ينتج عنها فكر موحد وعمل ايجابي لحماية المقاومة والدفاع عنها . ولقد عبر عن هذا الرأي احد اصدقاء الثورة الفلسطينية ، اقبال احمد ، بعد استماعه لخطاب العظم . كما ظهر شعور قوي بين عدد من الحاضرين بأن العظم ، وبعض مسؤولي الجمعية ، قد غالى في اظهار الاخطاء لدرجة تشويه حقيقة الدور التاريخي للمقاومة الفلسطينية . فذكر البعض ان المقاومة منذ عام ١٩٦٥ طرحت استراتيجية جديدة تخالف تماما استراتيجية الانظمة العربية . وهي استراتيجية حرب التحرير الشعبية التي تعتمد أساسا على الجماهير المسلحة والمنظمة . وبذلك يغالي العظم عندما يضع « الفتحاوية » (كما يسميها) مع « الناصرية » و« البعثية » . لان الحقيقة التاريخية ان الطليعة الفلسطينية نفذت استراتيجية حرب التحرير الشعبية وبالتالي اصطدمت عام ١٩٧٠ ، وقبلها ، بالانظمة العربية في معارك دموية . ومن الواضح تاريخيا ان المقاومة الفلسطينية تختلف عن الناصرية من حيث أنها طرحت مفهوم تعبئة الجماهير وتنظيمها وتسليحها فعليا عن طريق مواجهة العدو الصهيوني . كما ان العظم يغالي حينما يحمل المقاومة الفلسطينية ، فوق ما تحمله ، مسؤولية تقديم البرامج للجماهير العربية وربطها بالثورة . فهذه ايضا مسؤولية الحركات العربية الثورية ومسؤولية المثقفين والملتزمين بالثورة . فالتقصير في هذا المجال ليس من جانب المقاومة فقط وانما من جانب الحركات والمنظمات العربية والمثقفين الثوريين أمثال العظم ايضا .

من الواضح ان المقاومة الفلسطينية ، كبؤرة ثورية ، لا تزال موجودة في الساحة العربية ولم تنته والصراع بينها وبين القوى المضادة للثورة يدور يوميا بأشكال مختلفة . وهذا يعني ان دور المثقفين ليس تأبين الثورة او نعيها ، وانما العمل على كشف وفضح القوى المضادة للثورة ومهاجمتها بكل الوسائل العلمية وذلك لمساعدة المقاومة في معركتها من اجل البقاء . فعلى الاقلام الملتزمة بالثورة ان تساهم في عملية حماية المقاومة في هذه المرحلة امام هجمة العدو الخارجي ، بجانب المساهمة في عملية التصحيح والبناء الثوري السليم داخل المقاومة .

اما قرارات الجمعية فكانت عامة حول موضوع الواقع العربي . فأكدت القرارات أنه لا بد من تغيير الاطر الاجتماعية والاقتصادية في الواقع

العربي وذلك عن طريق تعبئة الشعب العربي للعمل الثوري الجذري . وناشدت القرارات الشعب العربي باستلام زمام مصيره بنفسه وتعبئة قواه من اجل « المحافظة على بقائه الوطني » وتحقيق اهدافه من اجل « الحرية والكرامة الانسانية » . ولم تتطرق القرارات الى موضوع المقاومة الفلسطينية ودورها في العملية . وهذا يعكس تأثر المثقفين العرب بالاحداث الاخيرة واعتقادهم ان التغيير الجذري في العالم العربي هو الطريق لتحرير فلسطين وهذه عودة الى نظرة الاحزاب العربية التقدمية بعد هزيمة عام ١٩٤٨ . مما لا شك فيه أن تغيير الاطر العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية هو الطريق لمواجهة الهجمة الاستعمارية الصهيونية . ولكن السؤال المطروح هو كيف تغير هذه الاطر ؟ وكيف تعبأ قوى الشعب ؟ المقاومة طرحت شعار حرب التحرير الوطنية وذلك بتلاحم كل القوى الوطنية من اجل تعبئة الجماهير وتسليحها ومن خلال الكفاح المسلح خلق الانسان العربي الجديد والاطر والانظمة العربية الجديدة .

كما انتخبت الجمعية العامة لجنة تنفيذية جديدة . وبقي أن تستطيع الجمعية ان تساهم بشكل فعلي وعملي في « تعبئة كل قواها وقوى العرب في امريكا من اجل دعم نضال الشعب العربي في تحقيق أهدافه من اجل الحرية والكرامة الانسانية » كما اعلنت قرارات المؤتمر . فهذا هو التحدي الذي يواجه ، ليس فقط جمعية الخريجين العرب ، وانما معظم المنظمات والاحزاب العربية التي تعلن عن قرارات هامة — كيفية نقل القرارات من حبر على ورق الى عمل ثوري منتج يستطيع خلق قوى سياسية جديدة لتحمي الثورة الفلسطينية وتدعمها.

الدكتور حاتم الحسيني

المؤتمر الثامن للادباء العرب (في دمشق)

يرى الشاعر والكاتب المسرحي الالماني برخت انه بدون خلق أنماط ادبية جديدة وادخال تجديدات شكلية على الانماط الموجودة بالفعل لا يمكن للادب أن يقدم موضوعات جديدة او وجهات نظر جديدة، الى الفئات الجديدة من الجمهور .

ولا يمكن والحالة هذه الحديث عن أدب محايد ، فالاديب جزء من هذه الجماهير يعيش أحزانها وأفراحها فيكتشف لها واقعها ويجسد امانيها ويستشرف مستقبل تطلعاتها . وحين تدفقت من على منبر جامعة دمشق عشرات القصائد في مهرجان الشعر العاشر ، استطاعت اسماء جديدة أن تلمع ، بل ظهرت بكل ثقة ، لانها اكثر اتصالا بالواقع وبقضايا الناس والحياة ، في حين ان بعض الاسماء الكبيرة قد سجلت خلوتا واضحا . وقد علق البعض ان الجمهور كان جمهورا سياسيا . وأقول لقد كان اهتمام الجمهور منصبا على مضمون ما كان يستمع اليه ، والى ماذا يريد كل شاعر ان يقول ، ولم يعد ثمة مجال لفصل الذات عن المضمون، ولا العام عن الخاص. ان الجمهور يريد من الشعر رؤية حقيقية تشق امامه الطريق في معركة الوجود والمصير المفروض عليه .

لقد كان شعار المؤتمر الثامن للادباء العرب « دور الاديب العربي في معركة المصير » . أما المواضيع التي بحثها المؤتمر فقد شملت: الحرية والالتزام ، التراث والمعاصرة ، الاداء والتعبير ، مشكلات التنظيم ، مطالب الاديب المهنية ، التشريعات وواقع الاديب ، العلاقات بين الاتحادات ، ثم الدفاع عن ادباء الارض المحتلة . وسنقتصر في عرضنا على موضوعين : الاول ، الدفاع عن ادباء الارض المحتلة . اما الثاني ، فهو الاداء والتعبير الفني في معركة المصير وسنخص بعرضنا بحث الاستاذ محمد دكروب من وفد لبنان لشموله ووضوحه ، اذ لا تسمح لنا هذه العجالة بالحديث عن كافة الابحاث .

ولكن قبل بدء الحديث عن التقرير المقدم من

وقد اتحاد كتاب فلسطين « الدفاع عن ادباء الارض المحتلة » ، اود الحديث عن ملاحظات أبداها الادباء حول هذا الموضوع (في ملحق الموقف الادبي) ، منها ملاحظة أبداها الاستاذ سليم بركات « ما يدهش فعلا هو موضوع الدفاع عن ادباء الارض المحتلة .. اذ كيف يجوز الفصل بين شعب وبين ادبائه ، وماذا يعني الدفاع عن ادباء الارض المحتلة بينما تتأتى الحقيقة من الدفاع عن شعب كامل ، اخشى ان يتحول المؤتمر الى منشورات سرية على جدران اسرائيل على طريقة نزار قباني او ان يتحول الى خطب حماسية من جديد تردد وتستنكر » . ويقول الاستاذ زهير غانم « اعتقد ان على المؤتمر الثامن للادباء العرب ان يناقش فكرة الدفاع على اي أديب مضطهد في العالم لا عن ادباء الارض المحتلة فعلا » . وأرد على هاتين الملحوظتين بملاحظة ثالثة للاستاذ اسكندر لوقا : « ليس الدفاع عن أدباء الارض المحتلة بمسالة محلية بحتة وأرى ان يلجأ المؤتمر الى تدعيم صلاته باتحادات الدول الاجنبية الصديقة .. ذلك ان المسالة بالنسبة الينا تنبع من احساسنا بكون هؤلاء الادباء جزء منا لا يتجزأ ومع يقيني بأهمية نقل تصورنا عن واقع هؤلاء الادباء في السجن الكبير المسمى اسرائيل الى الرأي العام العالمي الا أنه ينبغي لنا نقل هذا الرأي العام من نقطة التأثر الى نقطة البدء بالتحرك ليس دفاعا عنهم كادباء فحسب وانما كمواطنين عرب يعيشون في ظل تسلط استعماري هدفه تذويب الشخصية العربية في الارض المحتلة » .

وقد تضمن تقرير « الدفاع عن ادباء الارض المحتلة » عدة نقاط هامة اولا : ان الدفاع عن هؤلاء الادباء لا يعني أشخاصهم وانما يعني ادبهم قبل كل شيء .. وليس أدبهم سوى رافد صغير من روافد النهر الكبير للادب العربي المعاصر ، وهو الى ذلك رافد جد صغير ايضا من روافد الادب العالمي المندرج تحت لواء الواقعية الاشتراكية .. وفي تقييم الدور الفعال الذي يتمتع به أدب الارض المحتلة يؤكد البحث ان نماذج هذا الادب قد تميزت بالوضوح والصراحة والشجاعة واحترام الكلمة ، الامر الذي حدا بالنقاد أن يجمعوا على أنه أدب صادق . ولكن هذا الصدق لم يكن ليصدر عن أدب غير ملتزم . أن ادباء الارض المحتلة هم من المثقفين الثوريين . ولكن ذلك هو الذي جعلهم هدف الاضطهاد الاول في الارض المحتلة . وان انقطاع الصلة بينهم وبين اخوانهم من ادباء الاقطار العربية الاخرى لاقسى على نفوسهم من التعذيب والاضطهاد. ويتساءل البحث « ما الذي يمكن ان نفعله في معرض الدفاع عن أدباء الارض المحتلة ؟ » ويجيب بكل وضوح « لا نستطيع مع الاسف عمل الكثير عن طريق الحملات العالمية ، وقد لا يكون من العملي تقديم أية معونات شخصية لهم كأفراد ». ثم ينتهي بعد ذلك الى القول ليس سوى أن نعينهم أولا على حمل الراية التي يحملونها داخل الارض المحتلة ثم أن نعمل هنا ثانيا على حمل نفس الراية في الوطن العربي خارج الارض المحتلة .. وان الامرين كليهما ليتمان معا عن طريق التعريف على النسيج الحقيقي الذي صنعت منه تلك الراية . وهو فهم روح العصر والتفاعل معها تفاعلا تاما .

اما البحث الثاني فهو الاداء والتعبير الفني في معركة المصير . ويؤكد البحث على ضرورة نظرتنا

١ ــ الى الاشكال والانواع والاساليب وما اصطلح على تسميته الاداء والتعبير الفني من خلال الدور الذي تؤديه أو يمكن لها أن تؤديه في معركة المصير العربي .

٢ ــ مسألة التفاعل والتواصل بين الادب والثورة، ذلك التفاعل المتبادل بين النتاج الادبي والقوى الاساسية البشرية للثورة . وهذا التفاعل بدوره بحاجة الى رفع المستوى الثقافي للجماهير من جهة ثم ضرورة ان يمتلك النتاج الادبي امكانية الوصول في مرحلتنا هذه الى الذين يقرأون ويطالعون الادب. ان دخول الادب الى وعي الجماهير هو بالضبط ما نفهمه من اسهام الادب في حركة التاريخ . ليس تاريخ الادب فقط بل تاريخ حركة تقدم الشعب نحو الحرية .

٣ ــ ان دراستنا لاشكال الاداء والتعبير الفني في الادب العربي ومدى قدرتها على الاسهام في معركة المصير ، يجب أن تتم من دراسة النتاج الادبي نفسه وبالتحديد من خلال نتاج الادب العربي في السنوات العشر الاخيرة ، لان هذا الادب قد أحدث ثورة في مختلف الاساليب الفنية والاشكال والمضامين وذلك كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالتغييرات والاحداث العنيفة التي هزت المنطقة .

٤ ــ الشكل او التعبير الفني الذي ينهض حاجزا بين العمل الادبي وبين وعي الجمهور له بسبب

من الغموض او التعقيد او الاغراق في الرمز محكوم عليه في مرحلتنا هذه أن لا يتمكن من اداء دوره في معركة المصير .

٥ — الادب الاصيل هو اكتشاف ما لم يعرفه الجمهور من قبل وما هو اصيل اذا لم يتح الان له الوصول الى الجمهور بسبب غرابته وغموضه وتعقيده فانه يبقى لنا أصيلا له دوره في عملية تطور الحركة الادبية ، وسيصل حتما الى الجمهور عندما تتاح له القدرة الثقافية على استيعاب هذا الجديد . ان هذه الحقيقة لا تعني ولا يمكن لها أن تعني ان هناك تعارضا او تنافيا مطلقا بين المعاصرة والحداثة والغرابة في الاداء والتعبير الفني وبين امكانية الوصول الى جمهور القراء العريض في مرحلتنا الحالية . ثم يخلص الى نتيجة وهي ان الفنان الاصيل يستطيع ان يوازن بين المعاصرة وبين ضرورة الوصول الى الجماهير خصوصا اذا انطلق اصلا من موقف الايمان بضرورة هذا الايصال وضرورة ان يؤدي العمل الفني دوره في المعركة الشرسة التي تجابهنا الان جميعا على مختلف الاصعدة الوطنية والفكرية معا .

٦ — دور الناقد هو تحديد الخصائص والميزات الادائية والتعبيرية والبنائية لهذا الادب واستخلاص القوانين الداخلية لحركة تطوره وتكونهذه القيم التشكيلية والتركيبية ثم ايصالها الى القراء وتعويدهم على رؤية المفاتيح الجديدة للعمل الفني الجديد .

٧ — لا شك أن الموجة التجديدية التي تقيم العالم والتي تختلط فيها الفوضى بالخزعبلات تمارس تأثيرا كبيرا في أذهان معظم الكتاب والفنانين عندنا . وهذا أحد وجوه الغموض والتعقيد والاغراق في الرمز واليأس والانسحاق والاجواء الكابوسية المأساوية .. اما الاساس في ذلك فنابع من ضرورات وأحداث موضوعية تجد تفسيرها في أوضاعنا العربية المأساوية على مدى الستينات .

٨ — الادب يوحي ولا يخطط ، ولكننا لا نسكت عن ايحاء موجة الادب الاجتماعي الغاضب بأن الطريق مسدود .

٩ — ان الوعي بجوهر معركة المصير ، والوعي الضروري كذلك بحركة المجتمع وعلاقاته صارت من البديهيات التي تجابه الكاتب أي كاتب في عصرنا، وظهرت تلك الاعمال التي تتميز « بفكر فني » . ويخلص الكاتب الى أن الادب لا يبقى عند حد معين .

فأدب الخمسينات قد عبر عن مرحلة الصمود والانتصارات رغم أنه اهمل التخلف الروحي والثقافي والاجتماعي للجماهير . وأدب الستينات تحدث عن الكبوات والتخلف الروحي والثقافي وظاهرات القمع والارهاب . ولذلك فانه يتطلع الى تباشير مرحلة جديدة نابعة من ضرورات الحياة وحركة الادب وضرورات معركة المصير بالدرجة الاولى . أدب مقاوم حقيقي يملك امكانية الوصول الى الجماهير والتأثير الفاعل داخل وعيها .. يكون هو التجلي الفني لصوتها ولقدراتها الخارقة الفاعلة والفائقة الغنى .

هذا وفي حديثنا عن المؤتمر لا بد من الاشارة الى مشروع القانون الذي احيل الى مجلس الشعب السوري والذي يقوم اتحاد الادباء بموجبه بدوره في اجازة نشر المؤلفات الادبية ، ويصبح من حقه تفريغ بعض الكتاب لصالحه لمدة سنة قابلة للتمديد مقابل انتاج فكري يقوم به الكاتب على ان يظل له الحق في تقاضي مرتبه كاملا وعلى أن يتقاضى مكافأة مالية مقابل الانتاج الفكري الذي يقدمه . وخصص للاتحاد اعانة سنوية في ميزانية وزارة الثقافة وخصصت له قطعة أرض مناسبة لاقامة بناء للاتحاد كما خصص مبلغ مائة الف ليرة سورية نواة لرأسمال جمعية سكنية لاعضاء الاتحاد .

مي صايغ جبجي

المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي اللبناني (في بيروت)

شكل المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي اللبناني الذي انعقد من ٧ الى ٩ كانون الثاني في بيروت ، تجمعا ضخما للاحزاب الشيوعية والتقدمية في أوروبا وآسيا والعالم العربي ، فقد التقى فيه الاتحاد الاشتراكي والبعث السوري والعراقي الى جانب الاحزاب الشيوعية العربية وفصائل المقاومة الفلسطينية ، وذلك بدعوة من تنظيم سياسي عربي ليس في الحكم .

على صعيد البرنامج شدد الحزب الشيوعي اللبناني على ضرورة العمل في الريف اللبناني حيث لا يزال انتشاره ضعيفا . فقدم دراسة عن وضع المزارعين وعلاقات الانتاج في الريف . وشدد على ضرورة العمل في أوساط المزارعين المتوسطين والفقراء والعمال الزراعيين . ان معظم عناصر الحزب من المستخدمين والطلاب والمثقفين ، ولا تزال نسبة التعبئة بين العمال والفلاحين أقل نسبيا . فقد طالبت منظمات بوضع خطة زمنية متكاملة في هذه الميادين ، تجنبا للقفزات والنشاط الظرفي . ولعل ابرز نقطة تغير في مسيرة الحزب تحوله الى حزب جماهيري والدخول في اللعبة البرلمانية ، بما يتطلب ذلك من خوض معارك الانتخابات النيابية ، وايصال ممثلين شيوعيين الى المجلس النيابي . وهو يعتبر ان وجود ممثلين له في المجلس يشكل وسيلة ضغط على النظام لتحقيق المزيد من التراجعات لصالح الحركة الشعبية ، وسيمهد للثورة الديمقراطية الوطنية. ان احدى مخاطر هذا التحول هو ان ينصب مجهود معظم اعضاء الحزب الى العمل الانتخابي السطحي ، ويتفوق على العمل الثوري الطويل المدى والشاق مع القواعد الشعبية .

علقت الوفود العربية أهمية كبرى على كون مؤتمر الحزب الشيوعي اللبناني مناسبة التقى فيها معظم القوى الشيوعية والتقدمية العربية . فدعت الوفود العربية في مداخلاتها الى توحيد القوى التقدمية والشيوعية العربية في هذه المرحلة التي تشهد تراجعا في حركة التحرر العربية أمام الهجمة الامبريالية الصهيونية .

قدم الحزب الشيوعي اللبناني في تقرير اللجنة المركزية تحليلا للوضع السياسي العربي ولنشاط الحزب في هذا الميدان خلال السنوات الثلاث الماضية . وقد حدد التناقض الرئيسي في المنطقة على انه « بين الاستعمار والصهيونية والرجعية من جهة وبين حركة التحرر العربية من جهة أخرى » وطالب القوى التقدمية العربية باتخاذ « موقف واضح وصريح ضد المستعمرين ولا سيما المستعمرين الاميركيين ، اسياد اسرائيل وشركائها في العدوان على البلدان العربية » ، ثم دعا الى « تدعيم التحالف مع البلدان الاشتراكية وفي طليعتها الاتحاد السوفياتي » . ودعا الى « وحدة القوى الوطنية والتقدمية المعادية للاستعمار والصهيونية والرجعية في كل بلد عربي ، وعلى الصعيد العربي العام » . ثم توقف الحزب مطولا عند الانظمة التقدمية العربية ، والقضايا المرتبطة بالوحدة العربية ، فقيم ايجابيا « خطها العام المعادي للامبريالية » وشدد على انها « لا تزال هدفا رئيسيا للعدوان الاستعماري الاسرائيلي » . ثم انتقل البرنامج السياسي للحزب الى نواقص هذه الانظمة ، وأهمها : « انفراد ممثلي البرجوازية الصغيرة في السلطة وطبيعتها المزدوجة » ، « فالهجمة الامبريالية الشرسة واستمرار الاحتلال الاسرائيلي اوجدت الامكانيات لانتعاش الاجنحة اليمينية داخل البرجوازية الصغيرة ، وانتهاز سياسة مساومة مع المستعمرين وتقديم التنازلات لهم » . ودعا اخيرا التقرير الى « عزل الاتجاهات اليمينية في الانظمة التقدمية والنضال من أجل اطلاق الحريات الديمقراطية للجماهير الكادحة . » وبعد ان اتخذ موقفا مبدئيا مؤيدا للوحدة العربية لانها « تعبر عن تطلعات جميع الفئات الشعبية الطامحة للتقدم الاجتماعي والاقتصادي » ، رحب الحزب الشيوعي بقيام الاتحاد الثلاثي . لكنه ابدى تحفظات حول المواقف المعادية للديمقراطية التي اتخذتها الاجنحة اليمينية في الاتحاد ، ودعا الاتحاد « ليكون قاعدة لتجمع كافة القوى الوطنية العربية في المعركة ضد الاستعمار والعدوان » .

قبل أن نأتي الى موقف الحزب من حركة المقاومة لدينا ملاحظتين حول موقف الحزب وتحليله للوضع العربي والانظمة التقدمية . اولا حدد الحزب التناقض الرئيسي على انه بين حركة التحرر العربية من جهة والامبريالية والرجعية والصهيونية من جهة اخرى . واذا استثنينا الشجب الشديد

للامبريالية الاميركية والرجعية والصهيونية ، لم يرد لا في المؤتمر ولا في البرنامج اي تحليل لطبيعة السيطرة الامبريالية على المنطقة العربية عامة وفي لبنان خاصة ، ولعلاقتها مـع الرجعية ، وهذا بالرغم من تأكيد الحزب الشيوعي على انهما يشكلان مع الصهيونية العدو الاساسي ، وهم في تناقض رئيسي مع حـركة التحرر العربية . فكيف يمكـن محاربة عدو لا يعرف بشكل عام ؟

ثانيا حول طبيعة الانظمة التقدمية . يعترض بعض المحللين التقدميين على وصف هذه الانظمة بأنهـا تمثل سلطة البرجوازيـة الصغيرة وبالاخص في مصر . اذ لا يشكل وجود بعض الافراد ذوي المنشأ البرجوازي الصغير في الاجهـزة التنفيذية للدولة تمثيلا فعليا لطبقة واسعة وغير متجانسة (من صغار الرأسماليين الى الحرفيين وصغار التجار والفلاحين) ، ويتخذ قطاع واسع منها موقفـا رادكاليا تجاه النظام القائم . ويقول هؤلاء المحللون ان الانظمة التقدمية تمثل بشكل عام تحالفا بين البرجوازية البيرقراطية (غالبا من منشأ عسكري) والبرجوازية الريفية الجديدة الصاعدة، ورأسماليي القطاع الخاص . وان الطرف البيرقراطي في التحالف لا يزال مهيمنا ويحاول الاستناد في صراعه مع الاجنحة الاخرى علـى القاعدة الواسعـة للبرجوازية الصغيرة والفئات العليا من الطبقة العاملة .

اما بالنسبة لحركة المقاومة الفلسطينية ، رأى الحزب الشيوعي اللبناني فيها « جزءا من حـركة التحرر العربية » . واكد الحزب على ان موقفه من المقاومة « ظل ثابتا منذ قيامها ، ولم يتأثر بحركة المد والجزر حول المقاومة » ، لكنه « اكد بجرأة على المسؤولية التي يتحملها الشيوعيون في عدم تأديتهم منذ البداية دورا اكثر ايجابية في هذه الحركة » . انطلاقا من هذا الموقف نظر الحزب الى اخطاء المقاومة « سواء تلك الاخطاء البنيوية الناشئة من تركيبها البرجوازي الصغير ، أو تفشي ظاهرة العداء للشيوعية بين بعض فصائلها ، او وقوعها في الاغراءات المادية للرجعية العربية ، ام تلك الممارسات الخاطئة الستراتيجية والتكتيكية ». ثم عارض الحـزب المواقف الانتهازية اليمينيـة و« اليسارية » في هذه الحركة والتي تلتقي على الفصل بينها وبين حركة التحرر العربية « سواء بتفريغها من المحتوى التقدمي والمعادي للاستعمار ام بمحاولة تحميلها اكثـر من طاقتها واظهارها كطليعة لحركة التحرر العربية وأحيانا كبديل عن هذه الحركة ، وليس كجزء منها . » وانتقد الحزب الشيوعي « التقديرات الخاطئة لقادة المقاومة في لبنان وموقفها بالانجرار وراء شلل « اليسار » المغامر والاتكال عليه واتخاذه بديلا عـن الحركة التقدمية الحقيقية ذات الوجود الفعلي » . لكن رغم هذه النواقص ، شدد الحزب على الجوهر التقدمي والمعادي للاستعمـار الذي تمثله حركة المقاومة ودعا الى وحدة فصائلها . وربما يعبـر التصفيق الحار للمقاومة ، الذي كان يتكرر بشدة كلما جاء الكلام حول تأييد المقاومة ، عن تضامن الشيوعيين العميق مع المقاومة في هذه المرحلة .

لدينا بعض الملاحظات حول موقف الحزب الشيوعي من المقاومة : يرى الحـزب ان اخطاء المقاومة ناشئة من تركيبها الطبقي البرجوازي الصغير . نلاحظ في هذه المرحلة ان معظم الانتقادات التي تطلقها فصائل حركة التحرر العربية على بعضها بعضا ، وخاصة الفصائل الاكثر يسارية يقتصر على اتهامهـا بالبرجوازيـة الصغيـرة ، دون البت بالتفاصيل . ان هذا الاتهام بالبرجوازية الصغيرة، وان كان صحيحا ، يصبـح شبيها بالاتهامـات الاخلاقية ، عندما يفتقر الى مضمون تحليلي .

أدان الحزب الشيوعي بعض الممارسات الخاطئة التكتيكية والستراتيجية لحـركة المقاومة دون ان يحدد مضمونها . نجد هنا ايضا تقصيرا في التحليل. ثم تطرق الحزب الى « القضيـة الرئيسية التي تواجه حركة التحرر العربية في الظروف الراهنة ، قضية النضال لتصفية آثار عدوان الخامس مـن حزيران ١٩٦٧ » الذي كان « هدفه الاساسي ضرب حركة التحرر الوطني العربية وتصفية المكتسبات التي حققتها الانظمة التقدمية ، وضرب الصداقة العربية السوفياتية » . ورفض الحزب موضوعة بعض قوى حركة التحرر العربية « التي ارادت ان تشق الحركة على اساس الموقف من قرار مجلس الامن او الحل السياسي ، معه او ضده » . واكدت اللجنـة المركزية للحزب الشيوعـي « ان تصفية آثار العدوان كمهمة اساسية في المرحلة الراهنة لا يتناقض كشعار مع النضال من اجـل استرجاع حقـوق الشعب العـربي الفلسطيني

القومية » . وهذه المهمة اي « تصفية آثار العدوان » ، تتطلب قبل كل شيء « تعزيز القدرة القتالية للدول العربية التقدمية ، والتنسيق فيما بينها ، وتجنيد الجماهير وتنظيمها وحشدها في المعركة ، ودعم المقاومة الفلسطينية والتنسيق معها . » وشدد الحزب على ضرورة « انتهاج سياسة حازمة معادية للاستعمار والاستعمار الاميركي خاصة ، وضرب مواقعه الاقتصادية والسياسية في المنطقة » .

اما بالنسبة لمشروع روجرز الذي اعقبته مجازر أيلول ووفاة الرئيس عبدالناصر ، فقد «بادر الحزب الى فضح أهداف المشروع الاستعماري والنوايا الخبيثة للاستعمار الاميركي من وراء طرحه » . لكن الحزب حذر في نفس الوقت من خطورة تحويل المعركة ضد مشروع روجرز الى معركة بين فصائل حركة التحرر العربية « وبالتالي المساعدة على تنفيذ أهداف المشروع الاستعماري الاساسية » . ورأى الحزب ان نتيجة الانقسام الذي وقع داخل حركة التحرر العربية نجحت الهجمة الامبريالية في توجيه ضربات الى حركة التحرر العربية ، كانت أولها مجازر أيلول في الاردن ، ثم مجازر السودان. ودعا الحزب الى النضال بجميع الوسائل لوقف هذه الضربات . وأدرك ان المرحلة القادمة في حركة التحرر العربية ستكون خطرة ، لذا دعا كل الفصائل في هذه الحركة مهما كان بينها من تناقضات ثانوية الى ان تركز نشاطها ضد عدو واحد هو الاستعمار والصهيونية والرجعية .

وفضح الحزب اتجاهين هما « المساومة مع اميركا ورفع شعار قومية المعركة بمحتوى رجعي » ، كما فضح « الاتجاه اليساري المغامر الذي يدعو الى اصطناع المعركة داخل حركة التحرر العربية بين قوى طبقية لها مصلحة في التحالف اي بين البرجوازية الصغيرة والطبقة العاملة » .

واخيرا دعت اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي اللبناني « كافة القوى التقدمية العربية المتمثلة في المؤتمر الى ندوة مفتوحة لبحث قضايا التعاون وايجاد برنامج عمل مشترك لمواجهة الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية ، من أجل استعادة الاراضي العربية المحتلة ، ومن اجل نصرة نضال الشعب العربي الفلسطيني » ، وذلك تمهيدا لوحدة حركة التحرر العربية على اساس برنامج عمل موحد . وقد لبى هذه الدعوة جميع الوفود العربية المشاركة في المؤتمر : الاحزاب الشيوعية العربية، البعثان العراقي والسوري ، الاتحاد الاشتراكي في مصر وسوريا ، الحزب الديمقراطي الكردستاني، جميع فصائل حركة المقاومة ، الحزب التقدمي الاشتراكي في لبنان واتحاد نقابات عمال فلسطين ، والجبهة القومية في اليمن .

زينة ابو شديد

ست رسائل اعلامية من الخارج

الرسالة الاولى : من طالب يونس

الرأي العام العالمي والمجابهة العربية الصهيونية منذ ١٩٦٧

سنحاول في هذا التقرير ملاحظة التحولات الاساسية في الرأي العام العالمي فيما يتعلق بالمجابهة العربية الاسرائيلية منذ عدوان حزيران وسنعطي اهتماما خاصا للتحولات في كل من المملكة المتحدة وفرنسة والولايات المتحدة . ومن المهم قبل تناول ذلك ان نحاول ابراز الصورة العامة لدى الفرد الغربي العادي عن العرب والاسرائيليين : ان الغالبية العظمى من الاميركيين مثلا عديمة الاكتراث الى درجة مدهشة بالعرب وتراثهم . ان غالبية الاميركيين لا يعرفون سوى القليل عن الشرق الاوسط ، والذين يبدون اهتماما بذلك منحازون عاطفيا الى اسرائيل . يقول سفير اميركي سابق في عاصمة عربية كبيرة « ليس بامكاننا ان نفعل شيئا حيال هذا التحيز . انه الاحراج الكبير للسياسة الرسمية في الشرق الاوسط »(١). اما اذا كانت الحكومة الاميركية محرجة فعلا نتيجة لهذا التحيز ، فان ذلك أمر اخر ، ما يهمنا هنا هو الشكل المادي الذي يعبر به هذا التحيز عن ذاته . ان الاميركي العادي لا يكتفي باعلان مشاعره الودية نحو اسرائيل ولكنه « يستجيب سلبيا للصورة التي في ذهنه من العرب كسكان صحراء متخلفين ، وبرابرة قساة »(٢). ولقد قوي هذا التصور من خلال الصورة الرومانسية التي دأبت شركات الافلام الغربية على اظهار العربي بها « كشيخ بدوي فاتن يرتدي ثيابا فضفاضة وكوفية مزركشة وهو يجوب الصحراء الامنة »(٣). وحسبما يقول احد الكتاب الغربيين فان هذه الصورة المبهمة عن العرب تنغرس في شعور الفرد الاوروبي اثناء سنوات الدراسة . « كنا نميل الى الخلط بين الاتراك والعرب ، وبين العرب والمسلمين . لقد نظرنا الى الحروب الصليبية على انها ببساطة هجمات ضد العالم العربي . وفيما بعد اصبحت الامبراطورية العثمانية بالنسبة لنا جزءا من العالم العربي ذاته. وبالنسبة للاوروبي العادي ان العثمانيين والسلاجقة جميعهم عرب »(٤). ان الصورة البادية هنا بعيدة عن اية مواربة . ولقد تجاوز احد الكتاب الاوروبيين الحدود الى درجة كبيرة ليبرهن ان العربي (او الفلسطيني العربي) هو ذلك الرجل الذي يحتفظ بعدة زوجات والذي « يعتقد بأن المرأة مجرد جسد ويأكل القطط والفئران »(٥).

ان محاولة تعديل مثل هذه الصور تصطدم بحقيقة ناجمة عن ان لدى العرب خلفية ثقافية ولغوية

---

١ — Don Cordtz, *But what Do We Do About the Arabs ?* M. P. Khadduri (editor), The Arab-Israeli Impasse. R. B. Luce, INC. Washington 1968. p. 125.

٢ — المصدر السابق .

٣ — راجع ميشال سليمان : **العرب والغرب . فجوة في التفاهم** . منشورة في «مقالات في الرأي العام الاميركي والمسألة الفلسطينية» صادرة عن مركز الابحاث ، بيروت ، شباط ١٩٦٩ . ص ١٥ — ١٦ .

٤ — الاب جان كوربون : **الرأي العام الغربي والازمة الفلسطينية** . جمعية الخامس من حزيران ، بيروت ، شباط ١٩٦٩ . ص ١٠—١١

٥ — راجع خالد قشطيني : **الحكم غيابيا** . مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٤٥ .

ليست مألوفة ابدا لدى الاوروبي والاميركي . وهذا من شأنه ان يشكل عائقا مانعا في وجه محاولة رأب الصدع العادي في التفاهم بين العرب والغرب. هناك تهمة شائعة ان اللغة العربية ، بالرغم من جمالها الفريد ، تساهم في « غموض فكري عام »، وتؤكد اكثر من اللازم على الاهمية السيكولوجيــة للرموز اللغوية وذلك « علــى حساب المعنــى، والمبالغة »(٦). وصفة المبالغة اللغوية العربية هذه غريبة تماما عن العقل الغربي(٧).

وتستغل المحافل المؤيدة لاسرائيــل التصريحات الرسمية للزعماء العرب عن الجهاد ضد اسرائيل بصورة اوتوماتيكية وتقدم للقارىء الاوروبي العادي على انها تهديدات شريرة من جانب العرب لابادة اليهود . وبهذا الشكل يوضع الحاجز اللغوي في خدمة رجال العلاقات العامة الاسرائيليين وتنغرس في ذهن المواطن الغربي العادي عتبة جدية في وجه تفهم القضية العربية . وفي البداية كان للقضية الاسرائيلية ميزة اخرى حقيقية ولها اثرها وان كان من الصعب البرهنة عليها . وتمكن رؤية ذلك في الشعور اللاواعي للاوروبي العادي والذي يجعله يحس بالولاء لاسرائيل وبهذا المعنى فان اسرائيل تمثل الصورة الذاتية غير اليهودية التي يحملهــا الاوروبي عن نفسه . انــه يرى في اسرائيــل و« انجازاتها » تأكيدا لذاته وطاقاته ، يرى فيها شيئا اوربيا يعتز به . اما العامل الاهم والذي يقرر الى حد كبير نتيجة حرب العلاقات العامة في الغرب بين القضية العربية والاسرائيلية فهو وجود منظمات يهودية قوية تنشط بالنيابة عن اسرائيل ، وغياب اية منظمات فعالة تدعو للقضية العربية وتؤثر جديا في الرأي العام الغربي. وتخدم المنظمات الصهيونية في الغرب اسرائيل كذلك باللعب على عدم قدرة الغربي العادي على التمييز بين ما هو يهودي وما هو صهيوني او اسرائيلي . فالمنظمة الصهيونية العالمية ، على سبيل المثال ، تعتبر نفسها كيانا يمثل « يهود المنفــى » الذين يتمثل عملهم الرئيسي في تشجيع وتقديم كل مساعدة ممكنة للمهاجرين كي « يعودوا الى صهيون »(٩). ومثل هذا الارتباك يقدم ميزة قوية للصهيونيين ولاسرائيل. وحيث ان « الدولة الصهيونية » تعرض دائما على انها « الدولة اليهودية » الاسطورية فان مطلب اسرائيل بالدعوة الى يهودية عالمية يكتسب سلاحا جديدا . بكلام آخر ، ان انتقاد سياسة اسرائيل هو انتقاد للسياسة اليهودية ، واي انتقاد كهذا يمكن ان يعزى دوما الى الكراهية الموجهة ضد اليهود او الى اللاسامية . وكما يقول الاستاذ ماكس بلوف فان اي شيء يبدأ كانتقاد ضد اسرائيل « لا يمكن الا ان ينتهي على انه حملة ضد التأثير اليهودي في الحياة العامة . والمسافة من هنا الى قصة اللاسامية المعتادة ليست سوى خطوة صغيرة ومع ذلك فان بعضهم لن يفعل ذلك حفاظا على مكانتهم»(١٠). وفي تقريره عما يعتبره موقفا رسميا قويا مؤيدا للعرب في فرنسة ، ذكر مراسل الجويش كرونيكل في باريس « ان اليهود الفرنسيين قلقون من الوضع وهناك خوف من ان تتحول المعارضة للصهيونية الى عداء للسامية . وهناك علامات تشير الى ان هذا قد بدأ فعلا »(١١). وعندما وجه وزير داخلية بولندي سابق هو ميشيسلو موزار ، انتقادا قويا ضد قبول اسرائيل لتعويضات المانية الغربية ، اوردت الجويش كورنيكل الخبر تحت عنوان « خطاب لاسامي حاد » يتضمن « تعابير قاسية ولاسامية ضد اسرائيل »(١٢).

وفي الوقت الذي تكون المنظمات الصهيونية جاهزة لاظهار اي انتقاد لسياسات اسرائيل على انه

---

٦ — انظر ميشال سليمان ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

٧ — المصدر السابق .

٨ — المصدر السابق .

٩ — من الجهة الاخــرى فان المجلس الاميركي لليهودية منظمة لا صهيونية تحارب لحماية القيم اليهودية من الصهيونية .

١٠ — Max Beloff *Jewish Chronicle*, November 21, 1969, p. 7.

١١ — راجع الجويش كرونيكــل ٥ كانون الاول ١٩٦٩ ، ص ٧ .

١٢ — جاء في خطاب موزار « انه لوضع لا يصدق ان يقوم هتلر يوم الامس بدفع كمية من الدولارات عن الجرائم التي ارتكبت في الحرب العالميــة الثانية ضد اليهود في عدد من الدول الاوروبية ، وخاصة في بولندة حيث أبيــد ثلاثة ملايــين يهودي » . الجويش كرونيكــل ، ٦ حزيران ١٩٦٩ .

تعبير عن لاسامية غير اليهود ، فان غياب محافل عربية فعالة في الغرب يشكل فرصة ثمينة للكتاب المؤيدين لاسرائيل او للمعلقين الصهيونيين لكي يطعنوا القضية العربية الى اقصى مدى . ففي اعلان تلفزيوني تجاري لتقديم دعاية لنوع من البسكويت قام الممثل بتمثيل دوره بلكنة يهودية . « ولكن سرعان ما ارتؤي انه لتجنب اية اساءة الى اليهود يجب ان يتكلم الممثل بلكنة اسكتلندية او عامية او بأي لكنة اخرى ما عدا اللكنة اليهودية »(١٣). وفي المقابل قام بري همفريز في برنامجه التلفزيوني الكوميدي بالهزء من العرب ووصفهم « بالكلاب المجنونة » ، كما اضحك ديفيد فروست مستمعيه بنكتة تقول « قامت القوات الجوية المصرية اليوم بالطيران ولم تلاق اية مقاومة ، تبين فيما بعد ان نصف القاهرة كان دمارا »(١٤). وفي الايفننج ستاندرد بتاريخ ١٨ شباط ١٩٧٠ حث اللورد اران الاسرائيليين كي يقذفوا « بأولاد الزنا المصريين » ويلقوهم في منخفض قطاره .

ان النظرة العامة ، العقلية والعاطفية ، لدى الفرد الغربي العادي اصبحت متكيفة بحيث اصبحت النكات السخيفة والتعليقات اللاذعة على حساب العرب تمر دون ان تثير ذرة من السخط . ولم تساعد حرب حزيران وما تلاها على احداث اي تغيير جدي في هذه النظرة الاساسية للامور . فالعاطفة القوية نحو بقاء اسرائيل بقيت على ما هي عليه من قوة . بل ان حرب حزيران قدمت في الواقع مثالا جيدا على تحيز الانسان الغربي لصالح اسرائيل . ففي بريطانيه مثلا عندما قدمت الصحافة والتلفزيون البريطانية عرضا لحرب حزيران « كما تراها اسرائيل » فان الصوت الوحيد الذي احتج على ذلك كان صوت العرب العاملين في البرنامج العربي في الاذاعة البريطانية ، الذين اثاروا المسالة في وجه المدراء وهددوا بالاضراب(١٥). وعندما قدم بريان ماجي برنامجا تلفزيونيا محاولا تقييم رد فعل العرب على الهزيمة

والطريقة التي رأوا من خلالها مستقبلهم المباشر فان رد الفعل كان يختلف تماما. اذ حتى قبل انتهاء البرنامج كانت تلفونات محطة التلفزيون قد شغلت بالمخابرات تحتج على التلفزيون لعرضه وجهة النظر العربية . ووصلت اكوام من الرسائل فيما بعد ، واستلم مدراء الشركة شكاوى شخصية ، وكان هناك عودة الى البرنامج في مجلس العموم . هذا ، مع انه في الاسبوع السابق كانت هناك « عشرات البرامج الادبية التي تتضمن وجهة النظر الاسرائيلية، ولكن بدون اكياس من رسائل الاحتجاج وبدون انتقاد في البرلمان » . ان الحادث ، كما يقول بريان ماجي ، يوضح بشكل قوي « الاعراض الايجابي حتى عن الاستماع الى القضية العربية »، و« يبدو ان الكثير من الناس لا يعرف مجرد ان للعرب قضية ، ناهيك عن ماهيتها »(١٦).

واذا نظرنا الى حرب حزيران من خلال نتائجها نرى انها كانت بشكل ما ، اداة مساعدة ليس في تغيير المواقف الغربية الاساسية المذكورة سابقا ولكن في اثارة جو جديد من الراي العام ، تقوده اقليات شجاعة ومطلعة ، يتحدى الخرافات الصهيونية الاساسية . وقد ظهر ابرز هذه الاقليات ، قياسا بفاعليتها ، في المملكة المتحدة . ومن المهم ان نلاحظ هنا ان المحفل المؤيد للعرب في بريطانية يشتمل على أكثر من جماعة او منظمة . واهم هذه الجماعات مجلس تنمية التفاهم العربي البريطاني المعروف باسم « كابو » والذي يضم حوالي ألف عضو بما فيهم اعضاء في البرلمان وبعض المفكرين. ولدى المجلس مركز استعلامات يؤمن الاتصال بخبراء في مسالة المجابهة العربية — الاسرائيلية . ومع ان المجلس يعمل بميزانية محدودة ، الا انه لا يقبل المساعدات من الحكومات العربية . ولذا فان نشاط المجلس محكوم بوضعه المالي المتأرجح ومن ثم عجزه عن اصدار نشرات منتظمة عن الشرق الاوسط من نوع الجويش كرونيكل واسرائيل اليوم او النيوميدل ايست .

وهناك منظمة اخرى هي مجلس الشرق الاوسط في حزب العمال . ورغم ان هذه المنظمة بقيت في مرحلة جنينية مدة طويلة « فهي تحوز على تأييد حوالي خمسين عضوا في البرلمان ، ليس بينهم

١٣ — F. R. Mackenzie: The Listener, 19 March, 1970.

١٤ — المصدر السابق .

١٥ — راجع خالد تشطيني ، المصدر السابق ، ص ٦٢ .

١٦ — Brian Magee: The Listner, 19 March, 1970.

واحد ذو مركز عال »(١٧). ويعود تشكيل المجلس بالدرجة الاولى الى الجهود البارزة التي بذلهـا كريستوفر مايهيو الذي كان عليه ان يتحمل الحملات السياسية الظالمة في اكثر من مناسبة على حساب مواقفه الموضوعية فيما يختص بالمجابهة في الشرق الاوسط . وبالاضافة الى مايهيو يضم المجلس عددا من اعضاء البرلمان امثال : دنجل فوت وديكنز ورايان وجود وولز وجريفتز وهوجز وجاكسون(١٨). وفي حين لا يوجد في هذه المجموعة سوى عضو واحد في مجلس البلاط هو السير دنجل فوت فان الاصدقاء العماليين لاسرائيل لديهم في المقابل على الاقـل سبعة من اعضاء مجلس البلاط . والواقع ان حزب العمال يعتبر مؤيدا قويا لاسرائيل وذلك بسبب العلاقـات التقليديـة بين حركة العمال البريطانية وحزب العمل الاسرائيلي والهستدروت، ولقد تدعم هذا الاتجاه بقوة بفعل وجود الاعضاء اليهود في البرلمان والمؤيدين كلهم لاسرائيل . ومن شأن هذه الصورة الاجمالية ان تؤمن تأييدا عماليا شاملا بنسبـة « خمسة الى واحـد » لصالح اسرائيل(١٩).

كذلك فان لتأييد اعضاء حزب الاحرار لاسرائيل تاريخا قديما . فقد كان لويد جورج الذي لعب دورا حيويا في التحضير لوعد بلفور قـد تحول الـى الصهيونية على يد حاييم وايزمن . وقدم اللورد صموئيل ، مـن حزب الاحرار ، تأييدا حماسيا لانشاء دولة اسرائيل . وتأييد قادة الحزب امثال جو جريموند وجيرمي ثورب لاسرائيل احد عوامل الشعبية الواسعة التي يلقاها حزب الاحرار في اوساط اليهود(٢٠). ولكن بينما تستمر مؤسسة حزب الاحرار على خطها في تأييدها لاسرائيل نشأت حركة جديدة هي « الاحرار الشبان » بين اعضاء الحزب العاديين ، وبدأت ، من خلال مسالة الشرق الاوسط تتحدى الاتجاه التقليدي السائد في الحزب. واظهر « الاحرار الشبان » في مؤتمرهم السنوي ، الذي عقد في نيسان (ابريل) ١٩٧٠ ، قبولهم بمطلب الشعب الفلسطيني في اقامة دولة علمانية. كما ان قوتهم قد تعرضت للاختبار في الجمعيـة الوطنية السنوية للحزب التي عقدت في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ حين طرح على الجمعية وجهة نظر من اجل ايجاد دولة ثنائية القومية في فلسطين، ومنيت بفشل ذريع(٢١). وينعكس ميزان القوة بين الاحرار المؤيدين للعرب والمؤيدين لاسرائيل من خلال قوة اصدقاء كل من الطرفين في الحزب . ففي حين نجد بين اصدقاء اسرائيل امثال جيرمي ثورب وعدد من قادة الحزب فان اصدقاء العرب لم يستطيعوا الحصول الا على تأييد عدد محدود من الاحـرار الشبان وعدد قليل من المرشحين الى البرلمان(٢٢). اما في حزب المحافظين فالصورة متشابهة ايضا . فمع انه قيل الكثير حول الدور الهام الذي تلعبه المصالح التجارية ضمن حزب المحافظين لم تقـم مجموعة تجارية قوية واحدة في الحزب تنادي من اجل تعاون افضل مع العرب او الى موقف اكثر صراحة فيما يتعلق مثلا بسياسة اسرائيل في الاراضي العربية المحتلة . ان هناك اعتبارين وثيقي الصلة بهذا الموقف العام ، يحدد الاول منهما وبشكـل لاشعوري على الارجح موقف المحافظين من المجابهة العربية — الاسرائيلية : **الاعتبار الاول** هو العدوان الانجليزي — الفرنسي — الاسرائيلي على مصر في عام ١٩٥٦ واثره الكبير على تكتل اعضاء حزب المحافظين اجمالا والاعضاء المحافظين في البرلمان بشكل خاص وراء محاولة حكومة المحافظين تصوير نظام الرئيس عبدالناصر على انه ديكتاتوري فاشي لا يهدد المصالح البريطانيـة في الشرق الاوسط فحسب وانما يهـدد كذلك السلام فـي العالم بأسره(٢٣). اما اليوم وعلى ضوء ما تكشف ، فيبدو ان حزب المحافظين لم يحاول فعلا التخلص

١٧ — F. R. Mackenzie, Op. cit.

١٨ — Paul Rose, *Labor Party Arab Lobby*, The Jewish Chronicle, 21 January, 1969.

١٩ — Paul Rose: The So-Called Jewish Lobby in Parliement. The Jewish Chronicle, 29 May, 1970.

٢٠ — راجع الجويش كرونيكل ، ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٠ .

٢١ — راجع الجويش كرونيكل ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٧٠ .

٢٢ — المصدر السابق .

٢٣ — للوقوف على وصف ممتع لحادثة السويس وتشعباتها راجع :
Anthony Nutting's, *No End of a Lesson. The Story of Suez.* Constable 1967. See also Erskine Childers *The Road to Suez.* Mac Gibbon & Kee.

راجع ايضا : ارسكين تشايلدرز : الطريق الى السويس .

من الاثار السيئة لصدمة السويس والقيام باعادة تقييم جدية لمواقفه بصدد السياسات العربية الداخلية ولا بصدد الصراع العربي — الاسرائيلي.

اما **الاعتبار الثاني** فهو تلك الخرافة التي تقول ان حزب المحافظين بسبب التزامه تجاه المصالح البريطانية (استثماراتها النفطية وغير النفطية في العالم العربي) هو بالضرورة اكثر عطفا من حزب العمال على القضية العربية . ويرتكز هذا الافتراض الى وجود او امكان وجود محفل للنفط ضمن حزب المحافظين . ان هذا افتراض خاطىء لان وجود محفل للنفط مؤيد للعرب في مجلس العموم سيكون محكوما الى درجة كبيرة بالمقاييس التالية : أ — ان جميع الدول العربية المنتجة وغير المنتجة للنفط يمكن ان تشكل جبهة موحدة في وجه شركات النفط . ب — ان باستطاعة الدول العربية المنتجة للنفط استغلال ثرواتها الخاصة مع الحفاظ على قدرة اسعارها على المنافسة . جـ — ان باستطاعة الدول العربية المنتجة للنفط فك قبضة الشركات عن السوق العالمية(٢٤). وبما ان هذه الشروط ليست متوافرة في هذه المرحلة فمن الاسلم ان نستنتج انه لن يكون بمقدور محفل مؤيد للعرب في حزب المحافظين وشركات النفط القيام بدعاية سياسية ملتزمة(٢٥). وعلى العموم فان البناء التنظيمي التقليدي للحزب ميال لدعم النظم العربية المعادية للناصرية بينما تميل حكومات المحافظين لدعم السلطات الاردنية ضد الفلسطينيين في مساعيهم لتقرير مصيرهم . اما الافراد في حزب المحافظين مثل انتوني نتنج وايان جيلمور او دنيس والترز الذين قرروا اتخاذ موقف عاطف على العرب وموقف اكثر استقامة تجاه المجابهة العربية — الاسرائيلية فقد وجدوا انفسهم عبارة عن اقلية صغيرة في وجه جدار متحجر من عدم مبالاة حزب المحافظين . ولقد نظر الى دعوتهم من اجل دراسة اكثر موضوعية للصراع العربي — الاسرائيلي من خلال كونهم مصنفين كأصدقاء العرب في حزب المحافظين وهذا الامر ينسجم مع صيغة بريان ماجي التالية : « يمكن اعتبارك شخصا محايدا فقط اذا أيدت الخط الاسرائيلي تأييدا مطلقا. اما اذا نظرت الى طرفي القضية فأنت مؤيد للعرب »(٢٦).

٢٤ — راجع ماكينزي ، المصدر السابق .

٢٥ — المصدر السابق .

٢٦ — بريان ماجي ، المصدر السابق .

اما الموقف الرسمي للحكومة البريطانية فقد ظل مؤيدا لقرار الامم المتحدة الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ والذي جاء نتيجة لمبادرة بريطانية . وباستثناء تأييدها للقرار كانت المملكة المتحدة اقل الدول الاربع الكبرى فاعليـة . كذلك اضافت التصريحات الرسمية للوزراء البريطانيين علامات استفهام كبيرة حول الموقف الحقيقي للمملكة المتحدة تجاه النزاع . وبالرغم من استخفاف اسرائيل بقرار الامم المتحدة واستمرارها في احتلال الاراضي العربية فان بيتر شور كان مستعدا ان يعلن على الملأ ان « حكومة العمال لن تفعل شيئا يهدد وضع اسرائيل او يضعف من قدرتها على مقاومة العدوان »(٢٧). وحول موقف المملكة المتحدة من خطة اسرائيل لتغيير وضع القدس قال ريج فريسون ، وهو سكرتير في البرلمان ووزير الاسكان والحكومة المحلية ، ان الحكومة البريطانية لا تريد العودة الى قدس مجزأة . ولا تعترف بسيادة الاردن على أي جزء منها »(٢٨). ورغم ان هذه المواقف من شأنها ان تثير المخاوف المشروعة لدى العرب ، فانها لا تعدو كونها تعبيرا عن التناقضات البريطانية — الاميركية .

وفيما يتعلق بالموقف الفرنسي الرسمي حول الشرق الاوسط فان ذلك كان موضوعا تناوله عدد من المقالات . ان السياسة الخارجية الفرنسية في المنطقة لم تتغير حتى بعد ذهاب الرئيس ديغول (نتيجة لهزيمته في الاستفتاء الوطني الذي اجري في ٢٧ نيسان ١٩٦٩) . ولقد سارعت الادارة الفرنسية الجديدة للتأكيد على عنصر الاستمرار هذا في سياسة فرنسة في الشرق الاوسط . وفي ٦ أيار ١٩٦٩ سلم السفير الفرنسي في القاهرة ، فرانسوا بوكس ، رسالة بهذا المعنى من وزير الخارجية الفرنسي ميشال دوبريه الى وزير الخارجية المصري محمود رياض . كما اعطيت

٢٧ — الجويش كرونيكل ، ٢٠ شباط ١٩٧٠ .

٢٨ — الجويش كرونيكل ، ٩ كانون الثاني ١٩٧٠ . يمكن الوقوف على موقف حزب العمال فيما يختص باحتلال اسرائيل للاراضي العربية من خلال قراره الذي صيغ بلهجة معتدلة (الصادر عن مؤتمر الحزب في أيلول ١٩٧٠) والذي جاء فيه « عدم استحسان ضم الاراضي عن طريق الحرب . » التايمز ٢٨ أيلول ١٩٧٠.

تأكيدات مماثلة لكل من لبنان والاردن[٢٩]. ومن الصعب تحديد الدافع الحقيقي الذي يكمن وراء السياسة الفرنسية في الشرق الاوسط . فالبعض يعتقد ان الموقف الفرنسي هذا ناتج عن اعتبارات تجارية متعلقة بمطامح فرنسه في ان تؤمن لنفسها حصة كبيرة في سوق البترول العربي المربح[٣٠]. والبعض الاخر يؤكد ان فرنسه ترى نفسها القوة الرئيسية في حوض المتوسط ومن ثم فمن الطبيعي بالنسبة لها ان تعمل بجهد من اجل مصالحها خاصة وهي ترى دورها يهتز تماما بفعل التدخلات الاميركية والروسية[٣١]. ومن المهم في هذا المجال ان نتذكر تأثير الرئيس ديغول على رسم هذه السياسة الذي يمكن ان نجد بداياته في عام ١٩٦٢ عندما قرر ديغول منح الجزائر استقلالها ، في وجه كل المعارضة . وقد اكتسب ديغول بهذا القرار رغم خطورته وبعد اثره « احترام الجزائريين وباقي العالم العربي »[٣٢]. وبدا ان ذلك ايذان ببدء تحول سياسة فرنسه تجاه الصراع العربي — الاسرائيلي في السنوات اللاحقة . وقد أدى قرار اسرائيل بالهجوم في ٥ حزيران ١٩٦٧ خلافا لنصيحة الحكومة الفرنسية[٣٣] الى اتخاذ فرنسه لقرار بايقاف تسليم طائرات الميراج التي يقال ان اسرائيل دفعت ثمنها . بينما ادى هجوم اسرائيل على مطار بيروت (في ٢٨ كانون الاول ١٩٦٨) الى حظر فرنسي فوري على شحن الاسلحة وقطع الغيار الى اسرائيل[٣٤].

ويتساوى في الاهمية في هذا المجال ايضا ، المدى الذي استطاعت الحكومة الفرنسية ان تصله في اقناع الجمهور الفرنسي ذي العقلية الفردية بالحكمة من سياستها في الشرق الاوسط . وبرغم جهودها فهناك دلائل تشير الى ان مجموعات منظمة واقليات صاخبة في فرنسه كانت على استعداد لاعلان انتقادها العنيف للسياسة الرسمية في الشرق الاوسط . ولقد كان هذا الانتقاد قويا لدرجة جعلت وزير الاعلام الفرنسي ، جويل لوتول ، يعترف في الفترة التي أعقبت قرار الحكومة الفرنسية بحظر شحن الاسلحة وقطع الغيار الى اسرائيل ، وبالتحديد في ٨ كانون الثاني (يناير) « بأن تأثير اسرائيل يحس في دوائر مقربة من وسائل الاعلام »[٣٥]. واحدثت هذه العبارة ردود فعل قوية فكتبت الفيجارو في ٩ كانون الثاني تقول « ان هذه التلميحات غير مقبولة وليس من حقنا فقط بل من واجبنا ان نسأل عما يقصد بهما » . وقرر الصحافيون الفرنسيون ، اظهارا لاحتجاجهم ، مقاطعة المؤتمر الصحفي الذي كان مقررا ان يعقد بعد اجتماع الوزارة في الخامس عشر من كانون الثاني ١٩٦٩[٣٦]. وردت صحيفة الانترناشونال هيرالد تريبيون في ١٣ كانون الثاني ٦٩ ان الحكومة الفرنسية كانت تواجه معارضة قوية داخل الجمعية الوطنية الفرنسية . واشارت الصحيفة الى ان الجمهوريين المستقلين الحلفاء الرئيسيين للديغوليين في البرلمان قد اتهموا الرئيس ديغول باللجوء الى كثير من الحيل السياسية « على حساب دولة تقاتل من اجل حياتها » . واتهم الرئيس فوق ذلك باستغلال الاكثرية الحكومية والرأي العام للوصول الى قرار خاص يتجاهل الضرورات التي يتطلبها عالم بارد وقاس وذلك لصبغ الواقع السياسي بقيم انسانية[٣٧]. وتدعم هذا الهجوم بالقرار الذي اتخذته لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الفرنسي في الخامس عشر من كانون الثاني ١٩٦٩ والذي يدعو الحكومة الى رفع الحظر الذي فرضته في الاونة الاخيرة .

والصوت الوحيد الذي ارتفع في هذه المناسبة والذي يؤيد سياسة الحكومة في الشرق الاوسط بطريقة غير مباشرة كان صوت الحركة الفرنسية المناوئة للعنصرية المعادية للعرب ، والتي نشرت بيانا في صحيفة لوموند في السابع عشر من كانون الثاني ١٩٦٩ يحتج على العنصرية المعادية للعرب والتي اوجدها ونماها اعضاء يعملون في وسائل الاعلام .

---

٢٩ — راجع التقرير والسجل العربي ١ — ٥ أيار (مايو) ١٩٦٩ . ص ١٩٤ .

٣٠ — راجع مثلا MEED ٢١ كانون الاول ١٩٦٧.

٣١ — راجع مثلا الجارديان ٨ تشرين الاول ١٩٧٠.

٣٢ — راجع MEED المصدر السابق .

٣٣ — Eric Rouleau : "French Policy in the Middle East" The World Today, May 1968.

٣٤ — راجع التقرير والسجل العربي ١ — ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩ ص ٢٠ .

٣٥ — المصدر السابق .

٣٦ — المصدر السابق .

٣٧ — المصدر السابق .

وأشار البيان الى « المعلومات المبتسرة والخاطئة والمتحيزة فيما يتعلق بأحداث الشرق الاوسط ، والتفسير الخاطيء لنضال الفلسطينيين واهدافهم، والخلط المتعمد بين ما هو يهودي وما هو صهيوني، وما هو عربي وما هو مسلم ، وبين اليهود الاسرائيليين ويهود العالم وبين الفلسطينيين العرب والعرب ككل »(٣٨).

وتستحق لوموند ذاتها ملاحظة خاصة بسبب موقفها الشجاع وغير المتحيز حول الصراع . فهذه الصحيفة التي وصفها ايبان بأنها « اكثر النشرات اثارة »(٣٩) ظلت ، الى حد كبير ، النشرة الفرنسية البارزة الوحيدة التي تبنت موقفا موضوعيا في تقاريرها وتحليلاتها للاحداث المتعلقة بالمجابهة العربية الاسرائيلية . ويشكل « عمود الاراء الحرة » في اللوموند اهمية خاصة في القاء الضوء على المسألة الفلسطينية وحركة المقاومة حيث ظهرت في هذا العمود مقالات كثيرة حول فلسطين والفلسطينيين. ففي السابع من شباط ١٩٦٩ قال فيليب دي سانت روبرت في مقالة بعنوان « ارهاب او مقاومة » بأن محاولة اسرائيل اثارة العالم ضد الارهاب العربي كانت « محاولة غريبة تقوم بها دولة قامت على أسس ثيوقراطية جعلتها غير مقبولة من جانب المسيحيين والمسلمين في فلسطين ، ولم تنجح الا من خلال الارهاب الذي تستنكره الان والذي ارتكبته عصابة الارجون وشترن » . واضاف الكاتب : « لن يكون هناك سلام ما لم يحدث تغيير في داخل اسرائيل »(٤٠).

ومن بين الجماعات المنظمة التي تعطف بشكل كبير على القضية العربية في فرنسه الحزب الشيوعي الفرنسي (يأتي في المرتبة الثانية من حيث القوة ، بعد الحزب الشيوعي الايطالي ، بين الاحزاب الشيوعية في اوروبة الغربية)(٤١) الذي يدين اسرائيل بالعدوان والاحتلال والتنكر للحقوق الانسانية ، ويميل الى تأييد سياسة الحزب الديجولي في الشرق الاوسط. اما الحزب الاشتراكي المتحد ، الجديد ، بزعامة الان روكارد الذي ترشح في انتخابات رئاسة الجمهورية (في اول حزيران ١٩٦٩) وحاز على ٣،٦٥ بالمئة من الاصوات ، فانه اكثر صراحة من الحزب الشيوعي في موقفه تجاه الشرق الاوسط . وهناك مجموعة ألان كريفين ، العصبة الشيوعية ، التي حصلت على واحد بالمئة من الاصوات . وكريفين هذا المعادي للصهيونية وابن طبيب اسنان يهودي ، يقف على يسار الشيوعيين في تأييده لحق الفلسطينيين بتقرير مصيرهم . وبين هؤلاء العصبة الشيوعية «ب. س. ي » التي « تنطق باسم حوالي خمسة بالمئة من الناخبين الفرنسيين » اي ما يزيد على مليون صوت بينهم عدد كبير من المفكرين او الذين يعتبرون كذلك وبعضهم من اصل يهودي(٤٢). وبالمقابل فان الاصوات الانتخابية لليهود لا تشكل اكثر من واحد بالمئة من مجموع الاصوات الانتخابية(٤٣).

ان الصورة التي ظهر عليها الرأي العام الفرنسي (في حزيران ١٩٦٧) تشير الى ان الرأي العام على الصعيد الرسمي وفي قسم معين من الاوساط الشعبية والذي يعطف على القضية العربية ومستعد لانتقاد اسرائيل وتأييد الاجراءات التي بحق اعمالها ، هو في الوقت ذاته ملتزم بصورة اساسية تجاه « حق اسرائيل صهيونية في الوجود كدولة »(٤٤).

وفي الولايات المتحدة حيث يمكن للقرارات المتعلقة

---

٣٨ — راجع التقرير والسجل العربي ١٦ — ٣١ كانون الثاني ١٩٦٩ ، ص ٤٧ .

٣٩ — الجويش كرونيكل ١٤ حزيران ١٩٦٨ .

٤٠ — See Free Palestine, Vol. 1, No. 9, February 1969, p. 5.

٤١ — في الانتخابات الوطنية الاخيرة حصل الحزب الشيوعي الايطالي على ١٦٧ مقعدا من اصل ٦٣٠ مقعدا في مجلس النواب وعلى ٧٦ مقعدا من أصل ٣١٥ مقعدا في مجلس الشيوخ . واذا ترجمنا ذلك الى اصوات انتخابية نجد انه يمثل ٢٦،٩٥ بالمئة من مجموع الاصوات . وفي فرنسه يحتل الحزب الشيوعي ٣٤ مقعدا (من اصل ٤٨٧) و١٨ مقعدا (من اصل ٢٨٣) في الجمعية الوطنية ومجلس الشيوخ على التوالي . ويعادل هذا ٢١،٥ بالمئة من المجموع . راجع مجلة التايم ٨ شباط ١٩٧١ .

٤٢ — راجع الجويش كرونيكل ٦ حزيران ١٩٦٩ .

٤٣ — المصدر السابق .

٤٤ — يمكن استكشاف الموقف الغامض الذي تبناه عدد كبير من الماركسيين الفرنسيين من خلال مطالعة مقابلة سارتر مع ارتورو شوارتز . أعيد نشر المقابلة في طبعة والتر لاكير : *The Israel - Arab Reader*, Penguin 1970, p. 546.

بالنزاع العربي — الاسرائيلي ان تشكل ضررا للاحزاب المعنية فان القضية العربية رغم مرور الزمن لم يتسن لها ان تجتذب ضميرا حزبيا كبيرا حيا واحدا . وسنتعرض الان للقوة والتأثير اللذين تتمتع بهما الجالية اليهودية الاميركية(٤٥). ان الاعتبارات الرئيسية التي تكمن وراء تأييد الولايات المتحدة الرسمي لاسرائيل ، انما هي مرتبطة باعتبارات استراتيجية واضحة . ان ما تعتبره الدول العربية أمرا غير مشجع هو التأييد الاميركي الثابت لاسرائيل حتى عندما ترتكب الاخيرة خطأ واضحا للعيان . ففي ٣١ كانون الاول ١٩٦٨ ادان مجلس الامن الغارة الاسرائيلية على مطار بيروت وكانت الولايات المتحدة من بين الموافقين على الادانة ولكن قبل ان تمضي اربع وعشرين ساعة على ذلك كانت حكومة الولايات المتحدة قد قررت ان تهب لنجدة اسرائيل ، اذ وقف ممثل الولايات المتحدة في الامم المتحدة ، ج. ر. ويجنز ليدافع عن اسرائيل ضد « اطلاق التعبيرات الكاسحة والتشهيرات القاسية والتهجمات الطائشة » التي يشنها عليها اعضاء آخرون في الامم المتحدة . واختتم ويجنز خطابه بتلاوة جملة قالها ابراهام لنكولن وهو يذكر مجلسا حائرا بأن بلاده تلتصق بأصدقائها عندما يكونون على حق ولكنها تبتعد عنهم عندما يخطئون(٤٦). وفي السادس من كانون الثاني ١٩٦٩ ذهب ستة عشر شيخا اميركيا الى أبعد مما ذهبت اليه السياسة الرسمية الاميركية حين اعلنوا عن ادانتهم لقرار مجلس الامن (الذي أعلنه في ٣١ كانون الاول ١٩٦٨ حول الغارة الاسرائيلية على مطار بيروت) . وقد عجز القرار ، حسب رأي هؤلاء الشيوخ ، عن ذكر اي شيء عن « التهديد المباشر التي تشكله الغارات العربية المتواصلة على كيان اسرائيل » . وفي التاسع من كانون الثاني علم ان ٦٦ عضوا في الكونجرس الاميركي قد وقعوا وثيقة مماثلة(٤٧). وحاول مجلس الامن بعد الغارة التي قامت بها اسرائيل على منطقة السلط (في ٢٦ آذار ١٩٦٩) ان يتخذ قرارا اجماعيا بلوم اسرائيل ولكنه فشل في الحصول على موافقة الولايات المتحدة . اما القرار الذي يستنكر الخسارة في ارواح المدنيين واتلاف الممتلكات ، الذي عرضته زامبيه والسنجال وباكستان ، فقد استطاع فقط ان يحصل على امتناع الولايات المتحدة عن التصويت(٤٨).

ان الحزبين السياسيين الرئيسيين في الولايات المتحدة ملتزمان نحو اسرائيل بدون تحفظ . فخلال انتخابات الرئاسة التي جرت عام ١٩٦٨ وعد الحزب الجمهوري في بيانه الرسمي حول سياسته المقترحة تجاه الشرق الاوسط ان يؤمن للقوات الاسرائيلية ما يجعلها قادرة على الاحتفاظ بقوة تكفي لحمايتها وللابقاء على السلام في المنطقة . ولذا فان الولايات المتحدة ستمد اسرائيل بالمساعدة المناسبة ، مثل المقاتلات التي تفوق سرعتها سرعة الصوت اللازمة لتحقيق هذه الاهداف(٤٩). وتعهد الحزب الديمقراطي بأنه « ما دامت اسرائيل مهددة من قبل جيران مجهزين بالاسلحة ومعادين لها ، فاننا سوف نساعدها بالمعدات العسكرية الضرورية اللازمة لدفاعها بما في ذلك احدث انواع المقاتلات الحربية »(٥٠).

ان هذا التحيز السياسي ينعكس بصدق في الصحافة الاميركية . ولم يستطع دعاة القضية العربية لا في عام ١٩٦٧ ولا فيما بعد ان يجدوا المنابر المناسبة(٥١). ويبدو تحيز الصحافة الاميركية واضحا في الدراسة التي أعدها ميشال سليمان عن وسائل الاعلام الاميركية وحرب حزيران . قام

---

٤٥ — ان اعادة انتخاب جون ليندزاي كعمدة لمدينة نيويورك في اوائل شهر تشرين الثاني ١٩٦٩ ، يمثل جانبا طفيفا من تأثير الجمعية اليهودية الاميركية . لمزيد من التفاصيل حول الانتخاب راجع : الجويش كرونيكل ٣١ تشرين الاول و٧ تشرين الثاني ١٩٦٩ .

٤٦ — راجع التقرير والسجل العربي ١٦ — ٣١ كانون الاول ١٩٦٨ ص ٤٢٣ .

٤٧ — المصدر السابق ١ — ١٥ كانون الثاني .

٤٨ — اتخذ القرار باغلبية ١١ صوتا مقابل لا شيء وامتناع الولايات المتحدة وبريطانية عن التصويت . (المصدر السابق ١ — ١٥ نيسان ١٩٦٩ ص ١٥٣) .

٤٩ — ليلى قاضي : عرض للعلاقات الاميركية — الاسرائيلية . مركز الابحاث ، بيروت ، شباط ١٩٦٩ ص ٢٤٩ .

٥٠ — المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

٥١ — راجع خالد تشطيني ، المصدر السابق ، ص ٥٠ — ٥١ .

الباحث ، الذي اتخذ من حرب الايام الستة ميدانا لدراسة ردود فعل الصحافة الاميركية تجاه الشرق الاوسط ، بتحليل المادة التي غطت الازمة في سبع صحف اميركية رئيسية هي : النيويورك تايمز ، لايف ، نيوز اند ويرلد ريبورت ، النيشن ، نيو ريبلك ، نيوزويك ، تايم . ووجد ان ما لا يقل عن ٣٦،١ بالمئة من مجموع الاخبار التي كانت تدور حول الازمة في شهري ايار وحزيران ١٩٦٧ كانت مؤيدة لاسرائيل ، و٣٢،٨ بالمئة منها مؤيد للولايات المتحدة ، و٢٤،٣ بالمئة منها مؤيد للامم المتحدة و٨،٠ بالمئة فقط مؤيد للعرب(٥٢). وكشفت الدراسة ايضا ان هناك اجماعا على اظهار الرئيس عبدالناصر انه الشخص « الذي يجسد كل الكراهية والسوء » ، وكذلك عن ميل قوي للومه « على كل المصاعب في الشرق الاوسط »(٥٣).

ومن خلال الادلة المتوفرة لا يبدو ان مرور خمس سنوات قد أدى الى تغيير جدي في هذا الوضع . ويمكن اختيار مثالين عشوائيين لتبرير هذا الحكم : بعد مرور عام على حرب حزيران اجرى معهد جالوب دراسة في الولايات المتحدة حول النزاع العربي — الاسرائيلي . وكشفت الدراسة (اجريت في ٢٤ تموز ١٩٦٨) ان حوالي ٤١ بالمئة من جميع الذين قوبلوا اقروا بأنه ليس لديهم اية فكرة عن اصل حرب حزيران(٥٤). اما المثل الثاني فيتعلق برد فعل الصحافة الاميركية على مبادرة « السلام » الاميركية في النصف الثاني من عام ١٩٦٩ . وقد وجدت احدى الصحف « اتلانتا » (في جورجيا) ان الولايات المتحدة قد تخلت عن سياستها العادلة في الشرق الاوسط وان مصالح الولايات المتحدة تتطلب بأن « تفاوض اسرائيل من مركز قوة وليس من موقف الضعيف »(٥٥). واعتبرت صحيفة اخرى « ريتشموند نيوز » (في فرجينيا) المقترحات الاميركية المتعلقة بتسوية مع الاردن « مؤيدة للعرب لدرجة انها قد تكون كتبت في عمان »(٥٦). ودعت صحيفة ثالثة « سان جوزيه ميركوري » (في كاليفورنيا) الى « تأييد مفتوح وفعال لاسرائيل » بدلا من الحياد الذي لن يفعل اكثر من تأجيل « الازعاج المحتم » للولايات المتحدة . وفي حين اعتبرت النيويورك تايمز هذه المقترحات على انها « عمل غير متوازن في الشرق الاوسط » ، حذرت « جاتانوجا نيوز » (في تنيسي) من ان افضل طريقة لخدمة المصالح الاميركية في المنطقة تكمن في تجنب حرب اخرى ، والطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك تتمثل في مساعدة « اسرائيل في الحفاظ على تفوقها العسكري »(٥٧). فهل تشكل هذه المواقف انعكاسا لظاهرة التحيز تلك التي يصفها السفير الاميركي المذكور سابقا بأنها « احراج كبير للسياسة الرسمية في الشرق الاوسط ؟ »(٥٨) ام ان هناك عوامل اخرى يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ؟ الى اي مدى نجحت القضية العربية ، عبر استخدام علاقات عامة فعالة ، في الوصول الى عقل الفرد الغربي العادي ؟ او بكلام آخر ، الى اي مدى يتحمل الفشل العربي في الوصول الى العقل الغربي ، مسئولية هذا التحيز ؟

من المهم ان نذكر اولا ان الدول العربية لم تصل فعلا في مجال العلاقات العامة الى المستوى الاسرائيلي في استعمال واستخدام المواد . ويجب ذكر ذلك على الرغم من ان القضية الفلسطينية كان عليها ان تناضل ضد العواطف المتحجرة لدرجة لا تصدق عند الفرد الاوروبي تجاه اليهود .

ان السفارة الاسرائيلية التي « تعتبر اجمالا افضل السفارات ادارة وعملا في واشنطن » تؤمن فيضا لا ينقطع من مواد القراءة . فبعد كل حادث مهم ترسل ورقة تفسر الموقف الاسرائيلي « بالبريد الى ما يتراوح بين ١٠ — ١٢ الف اميركي يحتلون مراكز عاليه . وتتضمن لائحة العناوين التيترسل اليها مثل هذه الاوراق رجال اعمال وتوابا في الكونجرس وموظفين حكوميين وقادة يهودا » . وتصدر السفارة بانتظام كراسات تتناول ٣٢ موضوعا من الزراعة الي علم الاثار ، ونشرة

٥٢ — ميشال سليمان : وسائل الاعلام وحرب حزيران ، في مقالات في الرأي العام الاميركي والمشكلة الفلسطينية . مركز الابحاث ، بيروت، شباط ١٩٦٩ ، ص ٩٢ .

٥٣ — *Ibid.*, p. 96.

٥٤ — راجع خالد تشطيني ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

٥٥ — راجع الجويش كرونيكل ٩ كانون الثاني ١٩٧٠ .

٥٦ — المصدر السابق .

٥٧ — المصدر السابق .

٥٨ — See Don Cordtz, op. cit.

اخبارية بعنوان « أرض التوراة » و « حتى كتبا هزلية للاطفال » . كما تقدم رحلات مجانية الى اسرائيل الى موظفين وقادة عماليين وقادة تدامى وصحفيين . « وفي العامين الماضيين تدم الاسرائيليون رحلات اسبوعية الى اسرائيل ، غطوا جميع نفقاتها ، الى بعض حكام الولايات ومنهم جون فولب حاكم ماساشوستس الذي اصبح الان وزيرا للنقل وجيمس رودس حاكم اوهايو وكلور كيرك الابن حاكم فلوريدا »(٥٩). وتكاد كل المنظمات اليهودية تكون متعاطفة مع اسرائيل . فاللجنة اليهودية الاميركية التي يبلغ عدد اعضائها الرسميين ٤٣ الفا تضم بين صفوفها عددا كبيرا من الصهيونيين على الرغم انها تهتم بشكل اساسي بحالة اليهود وامنهم في العالم كله وعلى الرغم كذلك من انها تدعي انها ليست صهيونية . اما لجنة الشؤون العامة الاميركية — الاسرائيلية فهي الاكثر صراحة في دعمها لاسرائيل . ونائب رئيسها اي ل. كسينن معروف لدى اعضاء الكونجرس بانه داعية اسرائيلي . وتكمن قوة اللجنة « في تأثيرها السياسي على ٥،٨ مليون يهودي في الولايات المتحدة »(٦٠). وعلى صعيد انتخابي فان اصواتهم حاسمة في اربع ولايات هي نيويورك وبنسلفانيا وايلنوي وكاليفورنيا . وبالاضافة الى ذلك فان التبرعات « التي يقدمها اليهود للحملات الانتخابية حيوية جدا للمرشحين لانتخابات الكونجرس والولايات والانتخابات المحلية وكذلك انتخابات الرئاسة » . وكذلك تساعد النشاطات اليهودية في تنظيم الحملات وكتابة الخطب وتقديم الصورة المناسبة للمرشح في التلفزيون وايضا في رسم الاستراتيجية الانتخابية . وتترجم هذه الجهود عادة الى مطالب قوية بمنح الدعم لاسرائيل . وقد كان احد الامثلة الهامة على ذلك هو « اضافة ستة مشاريع لاسرائيل الى برنامج المساعدة الخارجية نتيجة للضغط الذي مارسته في الكواليس لجنة كينن ومنظمة هداسا — المنظمة النسائية الصهيونية في اميركا — والحاخامون الارثذكسيون والجماعات اليهودية » . ويستخدم المحفل الصهيوني في اميركا « مجموعة متكاملة من الوسائل التي تتراوح من معرفة استخدام الصحافة الاميركية الى الحد الاقصى الى الضغط السياسي من خلال الكونجرس الى التبادل السري للمعلومات العسكرية » . وعندما سئل مسئول في وزارة الخارجية ان يقيم المحفل الصهيوني في الولايات المتحدة اجاب بقوله « انهم واضحون ومنظمون وميالون جدا الى العلاقات العامة واذكياء » . ويبدو ان الصهيونيين الاميركيين « قد حازوا في كل هذه الظروف على قلوب الشعب الاميركي واصوات الكونجرس وحازوا عموما ؛ لكن ليس دائما ، على عقل الرئيس بغض النظر عمن يكون »(٦١).

وبالطبع ، فان العرب لا يجدون قضيتهم تقابل بالموضوعية التي تستحقها . وبالرغم من العطف الديني نحو « اللاجئين العرب » والعطف على القضية الفلسطينية في اوساط المناضلين السود وبعض التساؤلات حول السياسة الاميركية في الشرق الاوسط في اوساط مناضلي اليسار الجديد فان هذه الجماعات محدودة وليست متماسكة لدرجة تمكنها من ممارسة تأثير ملموس على سياسة الحكومة . ان محفل النفط الاميركي والذي تقدر استثماراته بحوالي ١،٦ بليون دولار يمارس ضغطا يكاد لا يذكر في الامور السياسية الفعلية . ولقد اثيرت عاصفة من الاحتجاج عندما اذيعت كلمة عن الاحتجاج السري بين الرئيس نيكسون وديفد روكفلر ، رئيس تشيس مانهاتن بنك ، في البيت الابيض حيث كان الاخير يقدم تقريرا (في التاسع من كانون الاول ١٩٦٩) للرئيس نيكسون عن مقابلته مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر . وارسلت مئات الرسائل الى روكفلر كما تلقى عددا كبيرا من المخابرات الهاتفية «وهوجم في الكونجرس» وهدد اصحاب الودائع باقفال حساباتهم وبعضهم فعل . وكان الضغط قويا مما جعل روكفلر يتحول ويوافق على ان « المفاوضات المباشرة بين اسرائيل والدول العربية — مطلب اساسي للاسرائيليين »(٦٢). اما السفارات العربية في واشنطن فتتسم اجمالا بنقص في مستوى موظفيها وتعاني الى حد ما من المشكلة الناجمة عن عدم

---

٥٩ — Robert H. Phelps: Mideast Lobbies active in U. S. The New York Times, 6th, April, 1970.

٦٠ — المصدر نفسه .

٦١ — المصدر نفسه .

٦٢ — المصدر نفسه .

قدرتها على الفهم والتعامل مع العقل الاميركي والطريقة التي يفكر بها الاميركيون .

ذكرت فتح في احدى اذاعاتها (في ١١ كانون الثاني ١٩٦٩) ان الدعاية الصهيونية تعمل وحيدة في ميدان الرأي العام بينما لم يقدم الاعلان العربي في الخارج الشيء الكثير ولم يعط اثرا ملموسا . وتوصل هذا التصريح الاذاعي الى الاستنتاج بان المادة المتوفرة عن القضية العربية لم تطرح رغم ضخامتها وذلك لان السفارات العربية تفتقر الى الاهتمام الجدي او لعدم وجود خطة موضوعية لمواجهة التضليل الذي تمارسه الدعاية الصهيونية(٦٣). ويرى خالد القشطيني ان « عدم تجربة العرب في الاعلام ومعرفتهم المحدودة في الامور العسكرية ترك الرقيب دون اختيار سوى ان يعمل قلمه الاحمر بامان كما يشاء»(٦٤).

ومن المهم فعلا ان لا نقلل من اهمية وحجم شعور الكثيرين من الاوروبيين بالولاء لاسرائيل. فبعد مضي شهرين فقط على الغارة الاسرائيلية المدمرة على مطار بيروت نشرت الجويش كرونيكل نتائج استقصاء لمعهد جالوب بين ان « عدد البريطانيين الذين يقفون الى جانب اسرائيل يساوي خمسة اضعاف اولئك الذين يقفون الى جانب مصر(٦٥). وهذه علامة على ان الامر عندما يتعلق بغالبية الغربيين فان المواقف الكامنة لديها لا زالت على حالها . وبحسب بريان ماجي فان « العامين اللذين اعقبا حرب الايام الستة قد شهدا عطفا على المهزومين كما ان قضيتهم الواضحة قد حركت المشاعر قليلا باتجاه العرب » . وعلى كل فان هذا مجرد « استجابة لما هو قائم على السطح » اما « المواقف الكامنة تحت ذلك فلا زالت وحيدة الاتجاه»(٦٦).

---

٦٣ ــ التقرير والسجل العربي ١ ــ ١٥ كانون الثاني ١٩٦٩ ، ص ١٩ .

٦٤ ــ خالد القشطيني ، المصدر السابق ، ص ٦٢ .

٦٥ ــ الجويش كرونيكل ٢١ آذار ١٩٦٩ .

٦٦ ــ Brian Magee, op. cit.

الرسالة الثانية : من داود تلحمي

نظرة سريعة حول مواقف الرأي العام الفرنسي تجاه المسألة الفلسطينية

سنحاول في هذا المقال ابراز العناصر الرئيسية التي تتحكم في مواقف المجتمع الفرنسي بمجمله بقصد اعطاء صورة شاملة ــ ولو تقريبية ــ لردود فعله تجاه وقائع وتطورات المسألة الفلسطينية . ورغم ما في ذلك من تجن على الواقع الاجتماعي المتعدد المصالح والتيارات ، فهو المدخل الذي لا بد منه لتفادي التشويه الذي قد يلحق بالصورة خلال التفصيل ، اذا أسهب في

شرح احد جوانبها مثلا على حساب جوانب اخرى (وسنأتي على التفصيل في رسالات اخرى لاحقة).

العناصر المتحكمة في مواقف الرأي العام الفرنسي

ليس من السهل تحديد الخطوط الرئيسية التي تحكم ردود فعل مجتمع متطور ومعقد كالمجتمع الفرنسي . الا اننا سنحاول ابراز بعض الخطوط التي لها تأثير مباشر على مواقف الفرنسيين تجاه قضايا التحرر بشكل عام والقضايا العربية بشكل اخص .

هناك قبل كل شيء عاملان رئيسيان (ومتناقضان) لا بد من التركيز عليهما : اولهما ، الطبيعة المحافظة (اي المعارضة للتغييرات الجذرية محليا غير المنفتحة عالميا على قضايا التحرر والثورة) لغالبية الشعب الفرنسي ، وبكلمات أدق ،سيطرة الايديولوجية الحاكمة (من خلال وسائل الاعلام والاتصال اي الصحافة والراديو والتلفزيون والسينما مثلا) على قطاعات واسعة من المجتمع الفرنسي . وهذا شأن كافة المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، بشكل متفاوت طبعا ، حيث استفادت الطبقات الحاكمة من خبرتها الطويلة في الحكم ، فتوصلت الى مستوى عال في التحكم بوسائل التأثير والتسيير الجماعي (التي تصل احيانا الى مستوى التخدير) ، وهذا ما يفسر الى حد بعيد مدى التجاوب الذي وجدته « القضية » الصهيونية في هذه البلدان حتى في اوساطالطبقات والاقليات المضطهدة (بفتح الهاء) .

والعامل الثاني المتناقض ، هو وجود تيارات وتقاليد ذات جذور تاريخية تعمل بدورها على تغيير المجتمع وتتفهم بالتالي بشكل اكبر مشاكل العالم المقهور والثائر . وذلك يعود للتجارب الثورية المتلاحقة والنضالات الجماهيرية المستمرة التي تخوضها القطاعات الطليعية من الشعب الفرنسي منذ اكثر من قرنين ضد انواع الظلم والاستغلال، ابتداء من ثورة ١٧٨٩ ضد الملكية والاقطاع ومرورا بانتفاضات القرن التاسع عشر (وخاصة انتفاضة كومونة باريس العمالية عام ١٨٧١) وحتى انتفاضة ايار ١٩٦٨ . وهذان العاملان الرئيسيان تغذيهما أو تحد من فعاليتهما عناصر أخرى اكثر تحديدا وارتباطا بالقضية الفلسطينية . ومن هذه العناصر المسألة اليهودية وتطوراتها خلال الحرب العالمية الاخيرة ، ومنها ايضا آثار حرب التحرير الجزائرية التي خلفت ردود فعل عنصرية لا يمكن اهمال دورها في تحديد المواقف .

المسألة اليهودية : جذور المسألة اليهودية بعيدة تاريخيا وعميقة اجتماعيا خاصة في اوروبا ، حيث اتخذت ردود الفعل تجاهها وجها خاصا عرف بالعداء للسامية . ولا مجال هنا للخوض في جذور هذه المشكلة الصعبة (ونكتفي بالاشارة الى محاولة البلجيكي ابراهام ليون بتفسيرها في دراسته حول « المفهوم المادي للمسألة اليهودية ») . فالمهم بالنسبة لنا استخلاص العلاقة بين ظواهر هذه المسألة ومواقف الاوروبي (والفرنسي بالذات) تجاه قضية فلسطين . وهنا ايضا تبرز ظاهرتان متناقضتان تتوزعان المجتمع الفرنسي بشكل خاص: الاولى هي ترسخ العواطف المعادية لليهود عند نسبة لا يستهان بها من الفرنسيين ، والثانية هي عقدة الذنب التي نشأت عند هؤلاء بعد المجازر النازية التي ذهب ضحيتها الملايين من الاوروبيين اليهود . وكلتا الظاهرتين ، كما سنرى ، لا تغذيان الا التيار المؤيد للصهيونية .

فبالنسبة للعواطف العدائية تجاه اليهود (العداء للسامية) ، فان كانت منتشرة علانية قبل الحرب العالمية الثانية ، ولها انبياؤها وصحفها وتأثيرها على مجرى الاحداث (كما جرى مثلا في محاكمة دريفوس ، الضابط الفرنسي اليهودي الذي الصقت به تجنيا تهمة الخيانة وذلك في اواخر القرن التاسع عشر) ، فهي اليوم عار لا يصرح به اصحابه الا نادرا . ورغم ذلك ، فقد اظهرت استفتاءات مؤسسات الاحصاء الفرنسية الحديثة ان اكثر من ٢٠ بالمئة من السكان « تتوفر لديهم ظواهر العداء للسامية بشكل مكثف » ، على حد تعبير رولان سادون مدير المؤسسة الفرنسية للرأي العام . وفي احدى هذه الاستفتاءات لهذه المؤسسة طرحت على العينة المختارة اسئلة عدة منها :

— هل تعتبر الفرنسي اليهودي الاصل فرنسيا كغيره من الفرنسيين ام لا ؟ وكانت نسب الاجابات المئوية كالتالي : ٦٠/ نعم ١٩/ لا ٢١/ بدون رأي .

— هل تعتبر نفسك معاديا للسامية (اي مناهضا بشكل مبدئي لليهود) ؟ وان اجبت بالنفي ، فما هو شعورك تجاه معارفك اليهود بشكل عام ؟ وكانت الاجابات بالنسب التالية : لا ساميون

معلنون : ٩٪ . ينفــرون من اليهود : ١٠٪ . ليس لديهم شعور محدد : ٨١٪ .

— هل ترضى بان يكون كــل من هؤلاء يهوديا ؟ وكانت اجــابات النفي بالنسب المئوية التالية : رئيس الجمهورية : ٥٠٪ . نائبك في البرلمان : ٣٣٪ . مدير عملك : ٢٢٪ . طبيبك : ١٦٪ .

— هل تجد بأن هناك الكثير من اليهود في مجــالات العمل التالية ؟ اجابات التأكيد جاءت كالتالي : في التجارة : ٨١٪ . المعاملات المالية : ٥٨٪ . السياسة : ٣١٪ .

— في عام ١٩٤٨ ، اسس اليهود دولة اسرائيل، هل تعتقد ان وجود هذه الدولة شيء ايجابي او سلبي بالنسبة لليهود ولغــير اليهود ؟ وكــانت الاجابات كالتالي : بالنسبة لليهود : ايجابي ٧٥، سلبي ٢ ، بلا رأي ٢٣ . لغير اليهود : ايجابي ٤٧ ، سلبي ١٠ ، بلا رأي ٤٣ .

يظهر من هذا الاستفتاء (الذي أجري بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بقليل) ان هناك حوالي ٢٠ بالمئة من الفرنسيين يعلنون عن عدائهم لليهود كيهود ، بينما يتردد نصفهم تقريبا في اعتبارهم مواطنــين كغيرهم في كل المجالات . ويلاحظ ايضا ان الذين يعتبرون وجود اسرائيـــل سلبيا لغــير اليهود (والمقصود غالبا العرب) لم يكن عددهم في ذلك الحين يتعدى ١٠ بالمئة . اي ان معظم المعادين للسامية (ان لم يكن جميعهم ، فهذا ما لا يظهره الاستفتاء) كانوا من انصار وجود دولة اسرائيل. وهذا ليس مستغربا على الاطلاق وانما في صميــم منطقهم ، اذ انهــم يودون التخلص من اتبــاع اليهودية من ابناء وطنهم ، بينما يعمل الصهاينة على استجلاب هؤلاء الى أرض فلسطين: المنطلقان مختلفان ظــاهريا ولكنهمــا يلتقيــان في الهــدف والجوهر ، اذ يعتبران كلاهما اليهودية عنصرا، ويرغبان في نفس الوقت نقل اليهود من اوروبا .

عقدة الذنب : احدثت المجازر النازية اثناء الحرب العالمية الثانية ضد المواطنين الاوروبيين اليهود الاصل ، صدمة عنيفــة في اوساط اليساريــين والمسيحيين ، الذين شعروا وكأنهــم — بحكــم مواقفهم السابقة او على الاقل عدم اكتراثهم — مسؤولون ادبيا عنها . وشعروا بأن المسؤولية لا تقع على النازيين بمفردهم ، لانهم لا يعدون كونهم ظاهرة اجتماعية وسياسية لوضع تاريخي محدد ، فالمسؤولية اذا مسؤوليــة جمــاعية : مسؤولية مباشرة بالنسبة لادعياء اللاسامية ومسؤولية غير مباشرة لمن لم يتنبهوا لخطورة هــذه الظاهرة . ومن هنا نشأ مــا سمي بعقــدة الذنــب عنــد الاوروبيين ، عقدة يصعب فهمها بالنسبة لشعب كالشعب العربي لم يعانها ، لانه بريء من الجرم.

ولا بد من التأكيد هنا على الاستغلال الوقح الذي امتهنه الصهاينة لدماء ضحايا النازية ، وعلــى الفوائد التي جنوها من وراء المتاجرة بها . فبينما كان الضحايا اليهود مواطنين بولونيين او سوفيات او المان الخ ... وكانوا من بين عشرات الملايين الذين دفعوا ثمن الحرب التي اشعلتها النازية ، ابتاعت الصهيونية ارواحهم وراحت تتاجر بهــا سياسيا وماديا . وقد نجحت في مجهوداتها لحد بعيد . ولا نبالغ ان قلنا ان العطف على الحركة الصهيونية وعلى مشروع انشاء دولة اسرائيل ما كان ليتبلور لو لم تحدث هذه المجازر : وبعبــارة وجيزة ، نستطيــع ان نقــول ان هتلر والنازيين عموما قدموا للحركة الصهيونية أجل الخدمات اذ حققوا لها تبريرها الجوهري امام الرأي العــام العالمي .

في نفس الاستفتاء الذي تحدثنا عنه اعلاه ، طرحت المؤسســة الفرنسية للرأي العام السؤال التالي على العينة الممثلة للشعب الفرنسي : هل تعتبر قتل ملايين اليهود على ايدي النازيين: ١ — جريمة بشعة . ٢ — احدى بشائع الحرب مثل غيرها . ٣ — عملية مفيدة في نهاية الامر . وكانت النسبة المئوية : ٧٧٪ ، ١٩٪ و ١٪ بينما امتنع ٣٪ عن التعبير عن رأيهم .

وكانت قد وجهت قبل هذا الاستفسار سؤالا اخر عن عدد اليهود الذين قتلوا في هذه الفتــرة . فأجاب ٢ بالمئة انهم عدة الاف ، و ٩ بالمئة انهم مئات الاف ، و ٢٢ بالمئة بين مليون ومليونين و ٣٨ بالمئة بين خمسة وستة ملايين و ١٠ بالمئة اكثــر من عشرة ملايين بينما امتنع ١٩ بالمئة عن الاجابة. والاجابات تظهر ان حوالي ثلثي الفرنسيين (٦٢٪ بالضبط) لا يعلمون مــا هو العــدد المعلن عنــه لضحايا النازية من اليهود ، بينما يجمعون تقريبا على ادانة هذه المجازر بشكل خاص . وشبــه الاجماع هذا يفسر الى حد بعيد سطوة الدعايــة

الصهيونية منذ ذلك الحين وحتى حرب ١٩٦٧ على مجموع الرأي العام الذي لم يكن يفرق بين المسألة الفلسطينية والمسألة اليهودية ، ويرى في النضال العربي ضد اسرائيل تجديدا لمآسي يهود اوروبا .

العنصرية ضد العرب : في استفتاء أجرته الشركة الفرنسية للدراسات الاحصائية « سوفريس » ونشرته مجلة « لو نوفيل اوبسرفاتور » الاسبوعية في عددها الصادر في ١٩٦٧/١١/١ ، وجه السؤال التالي لعينة من سكان باريس الذكور العاملين : ما هو شعورك العام تجاه : اليهود ، السود ، العرب ؟ فاظهرت الاجابات ان هناك ٣٤ بالمئة عنصريون ضد اليهود مقابل ٥٢ بالمئة ضد السود و ٦٥ بالمئة ضد العرب . كما اظهرت ، ردا على استفسارات اخرى النسب التالية :

— ليسوا عنصريين ضد اليهود او ضد العرب : ٣٤٪ . — عنصريون ضد اليهود اكثر من عنصريتهم ضد العرب : ٣٪ . — عنصريون ضد العرب اكثر من عنصريتهم ضد اليهود : ٤٤٪ . — عنصريون ضد العرب واليهود سواء : ٢٠٪ .

وحسب الانتماء الديني لعناصر العينة ، جاءت النسب كما يلي :

	المجموع	الكاثوليك	غير الكاثوليك
ضد اليهود	٣٤	٤٠	١٩
ضد السود	٥٢	٥٨	٣٣
ضد العرب	٦٥	٧٣	٤٣

ورغم الاختلاف البسيط بين ارقام هذا الاحصاء والارقام التي تحدثنا عنها في الاحصاء السابق (وذلك يعود لاختلاف العينتين) الا انهما يظهران، وسيما الثاني منهما ، حقيقة مهمة بالنسبة للرأي العام الفرنسي : وهي ان العنصرية ضد العرب تفوق بكثير العنصرية ضد اليهود (والنسب تكاد تكون مضاعفة) . كما تظهر ان الكاثوليك اشد عنصرية (بنسب تكاد هي ايضا تكون مضاعفة) من الطوائف الاخرى (أي البروتستانت بشكل رئيسي) . وكل ذلك يعود لاسباب تاريخية . ولا شك ان حرب التحرير الجزائرية وانتصار الشعب الجزائري فيها قد لعبت في هذا المجال دورا هاما. فرغم ان اغلبية الفرنسيين في اوائل الستينات (قبل الاستقلال الجزائري) كانوا معارضين للحرب الاستعمارية وقابلين بفكرة « الانفصال » : الا ان هزيمة الامبراطورية الفرنسية في معركة وضعت فيها كل ثقلها العسكري والسياسي والادبي تركت في نفسية الفرنسي المتشبع بالايديولوجية الشوفينية السائدة ، اثرا عميقا (لا يقارن بالاثر الذي تركته معركة ديان بيان فو وهزيمة الجيش الفرنسي في الهند الصينية عام ١٩٥٤) . وذلك ان الفرنسيين عاشوا خلال سبع سنوات ونيف هذه الحرب بشكل مباشر ، اذ القى الجيش الفرنسي بكل ثقله واشرك المجندين الشباب من جهة ، بينما وسع المناضلون الجزائريون حربهم الى فرنسا حيث يقيم مئات الالاف من العمال من ابناء وطنهم .

وان كانت فرنسا تعتبر في ذلك الحين الاراضي المحتلة في افريقيا مثلا مستعمرات ، الا ان الجزائر كانت معتبرة جزءا من فرنسا نفسها تسري عليها مبدئيا نفس القوانين . وهذه الـ « مبدئيا » طبعا ذات اهمية قصوى ، اذ ان الحكم الفرنسي اكتفى في الواقع بدمج خيرات الجزائر ولم يعط الجنسية الفرنسية مثلا الا للمستوطنين الاوروبيين وليهود الجزائر (بحكم قرار كريميو في عام ١٨٧٠). وهذه التفرقة العنصرية الى جانب الاستغلال الاقتصادي البشع الذي كان يمارسه المستوطنون لعبت دورا اساسيا في تفجير ثورة الشعب الجزائري وفي « انفصال المقاطعات الجزائرية عن الوطن الام » .

والى جانب هذا الماضي القريب ، هناك واقع ما زال يعيشه الفرنسيون وهو وجود حوالي مليون عامل جزائري وبعض المغاربة والتونسيين يقدمون باسعار منخفضة قوة عملهم للمجتمع الرأسمالي الفرنسي . وهؤلاء « المهاجرون » (كما يدعون) يمتهنون في اغلب الاحيان الاعمال الشاقة والمعتبرة اعمالا دنيا (كالبناء وتعبيد الطرق) . ويعيشون مقابل ذلك في مساكن بائسة وكئيبة لا تختلف كثيرا عن مخيمات لاجئينا، وتسمى مدن التنك . وهم لذلك يعتبرون في أسفل « السلم الاجتماعي » ، ويشكلون في الواقع المجموعة المضطهدة والمستغلة (بفتح الغين) اكثر من غيرها داخل هذا المجتمع .

وهذا الواقع الاجتماعي الى جانب تغذية النعرات العنصرية التي تقوم بها الصحافة ووسائل الاعلام

الفاشية واليمينية (التي تجد مجالا حرا هنا بعد ان اصبحت اللاسامية عارا) ، كل هذا يديم الشعور العنصري ضد الجزائريين (ومن خلالهم ضد العرب بشكل عام) ويجعله من أهم الامراض الاجتماعية والاخلاقية التي يعاني منها المجتمع الفرنسي .

فلا غرابة اذا بأن تظهر التيارات المحافظة واليمينية ابان عدوان حزيران ١٩٦٧ ، حماسها الجنوني في تأييد اسرائيل التي بدت لها « كأمير الانتقام » الذي اقتص من العرب لما ارتكبوه ضد الامبراطورية الفرنسية . ولا غرابة بان يرفع معظم اللاساميين اصواتهم تضامنا مع « قلعة الغرب » في الشرق الاوسط : فقد ظهرت كراهيتهم للعرب اقوى من كراهيتهم لليهود (رغم ما ذاقه هؤلاء على ايديهم اثناء الاحتلال النازي) .

تطور المواقف بعد حرب ١٩٦٧

بعد استعراض العناصر الرئيسية التي تتحكم في مواقف الفرنسي تجاه المسألة الفلسطينية ، نأتي الى الاستفتاءات التي أجرتها المؤسسات الفرنسية سيما بعد عدوان ١٩٦٧ . ومن الضروري ان نؤكد هنا على ان هذه الاستفتاءات لا تعدو كونها أداة سهلة لابراز الصورة الشاملة ، ولا تشكل باي حال من الاحوال احصائيات علمية دقيقة وكاملة. فبالاضافة الى صعوبة اختيار عينة ممثلة فعلا للمجموع ، هناك صعوبات أخرى تقف حائلا دون دقة الاحصاء (ونكتفي هنا بالاشارة الى طريقة طرح السؤال ، الذي يؤثر كثيرا على نوعية الجواب). وان كنا سنرى ، خلال استعراضنا للاستفتاءات الحديثة ، اهمية صيغة الاستجواب ، الا اننا نستطيع ان نؤكد — من خلال دراسة الاستفتاءات المتعلقة بالوضع الداخلي الفرنسي — جدية اختيار العينة وتمثيلها للشعب الفرنسي ككل ، نظرا لتطور علمي الاحصاء والاجتماع .

سنبدأ بسلسلة استفتاءات أجرتها المؤسسة الفرنسية للرأي العام ما بين حزيران ١٩٦٧ وكانون الثاني ١٩٧٠ ونشرتها مجلة باري ماتش الصادرة بتاريخ ١٩٧٠/١/٢٤ . الاستفتاء الاول جرى ابان الحرب والاخير بعد الازمة التي نشبت من جراء تسفير البوارج الحربية الفرنسية الصنع لاسرائيل ، بينما اجري الثاني في نهاية صيف ١٩٦٧ والثالث بعد ضربة مطار بيروت وقرار حظر شحن الاسلحة الذي اتخذه ديجول .

والسؤال كان بالتحديد : في الصراع الحالي بين اسرائيل والدول العربية، الى اين تتجه عواطفك، الى اسرائيل ، الى الدول العربية ، لا لاحد من الطرفين ؟ وكانت النسب المئوية للاجابات كالتالي:

	حزيران ١٩٦٧	ايلول ١٩٦٧	كانون٢ ١٩٦٩	كانون ٢ ١٩٧٠
الى اسرائيل	٥٦	٦٨	٣٥	٣٣
الى الدول العربية	٢	٦	٧	٦
لا لاحد من الطرفين	٢٨	١٦	٣٩	٤٣
بدون رأي	١٤	١٠	١٩	١٨
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

وقبل ان نحاول استخلاص الدروس من هذه الارقام ، لا بد من الاشارة الى اللبس الذي ينشأ من اسلوب طرح السؤال : فمقابل اسرائيل لا ذكر مثلا للشعب الفلسطيني ولا لدولة عربية محددة ، وانما للدول العربية ككل ، وفي ذهن الفرنسي تمر صور دول مختلفة التطور ومتفاوتة التمثيل الشعبي والنضالي ، فالعطف الذي قد يكنه لدولة ما او لمجموعة دول يبطله مثلا نفوره من دولة او دول اخرى ، هذا اذا لم نتكلم عن المقاومة الفلسطينية التي تثير في مخيلة الكثير من الفرنسيين ذكريات مقاومتهم للنازية منذ ربع قرن . ولا شك ان ذلك يفسر ضآلة نسبة المتعاطفين مع « الدول العربية» والتطور البسيط لهذه النسبة خلال الاعوام الثلاثة الماضية ، في نفس الوقت الذي فقدت فيه اسرائيل عطف ثلث الشعب الفرنسي . (من ٦٨ بالمئة في ايلول ١٩٦٧ الى ٣٣ بالمئة في كانون الثاني ١٩٧٠) . وان عنى هذا الاستفتاء شيئا فهو يعني على الاقل ان تطور الاحداث خلال الاعوام الاخيرة (وسيما بروز الشخصية النضالية الفلسطينية) استطاع في اسوأ الاحتمالات ان يحيد اكثر من ثلثي الرأي العام الفرنسي .

وفي الواقع ، اكتسبت الثورة الفلسطينية بالذات عطفا واسعا ، سيما في اوساط الجيل الناشيء . وفي اي حال ، فالمجال ما زال مفتوحا لكسب العناصر المحايدة حاليا ، طالما نجحت التطورات الاخيرة في احداث الخطوة الاهم ، وهي كسر طوق الدعاية الصهيونية والتزوير الاسرائيلي للتاريخ . وفي استفتاء اخر أجرته الشركة الفرنسية

للدراسات الاحصائية بين ١٦ و ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٠ ونشرته جريدة « لو فيجارو » الصادرة في ١٩٧٠/١/٢٩ ، ظهرت آراء الفرنسيين حول صفقة الاسلحة الفرنسية مع ليبيا كالتالي :

— ضد بيع الاسلحة لاية دولة في الشرق الاوسط ٥٥٪ .
— مع بيع الاسلحة لكل الدول بدون تفرقة ٢٩٪ .
— مع بيع السلاح لاسرائيل وحدها ٣٪ .
— مع بيع السلاح للعرب وحدهم ١٪ .
— مع بيع الاسلحة للعرب ، على شرط ان يسالموا اسرائيل ٣٪ .
— بدون رأي ٩٪ .

وفي الاجابة على سؤال حول السياسة الفرنسية الحالية في الشرق الاوسط ، ظهرت النسب كالتالي : مؤيدون ١٧٪ . معارضون ٤٩٪ . بدون رأي ٣٤٪ .

وردا على استفسار حول الدول الثلاث التي تشكل خطرا على فرنسا في السنوات العشر المقبلة ، ذكر المجيبون الدول التالية (بترتيب النسب) : الصين ٥٩٪ . الدول العربية ٣٩٪ . الاتحاد السوفياتي ٣٢٪ . المانيا ٢٨٪ . اليابان ٢٤٪ . الولايات المتحدة ٧٪ .

وفي استفتاء اخر أجرته نفس المؤسسة في نفس الفترة (كانون الثاني ١٩٧٠) بين سكان جنوب فرنسا وقراء الجرائد الاقليمية في تولوز وبوردو ومونبلييه ومرسيليا بالضبط — جاءت النسب في موضوع صفقة الطائرات الليبية كالتالي : مع الصفقة ١٣٪ . ضد الصفقة ٦٠٪ . بدون رأي ٢٧ ٪ .

وفي نفس الاستفتاء ، وحول حظر شحن الاسلحة لاسرائيل : ضد رفع الحظر ٤٤٪ . مع رفع الحظر ٣٦٪ . بدون رأي ٢٠٪ .

وعبر قراء صحف الجنوب عن رأيهم في حل «مشكلة الشرق الاوسط » بالاساليب التالية :

— باتفاق مباشر بين اسرائيل والدول العربية ٤٦٪ .
— من طريق الدول الكبرى ٣٠٪ .
— عن طريق الامم المتحدة ١١٪ .
— بانتصار عسكري لاحد الفريقين ٨٪ .

واهمية هذه الاجابات بالنسبة لدراستنا جزئية ، ذلك لانها لا تدل على وجود تيارات واضحة في الرأي العام (مما يفسر بعض التناقضات) ، علاوة على تنوع الاسئلة وطرق طرحها . وقد اثبتناها هنا لتكون فقط نقطة انطلاق لتحليل مفصل .

من هذه الارقام نستطيع ان نستخلص النقاط التالية : ١ — التيار المؤيد لاسرائيل انخفض بنسبة كبيرة ، وهو يتأرجح اليوم حول ثلث الرأي العام . ٢ — العطف على الدول العربية بمجملها في تطور بطيء ، وفي الغالب هذا التطور أهم واضخم بالنسبة للعطف على الثورة الفلسطينية . ٣ — المؤيدون لسياسة الحكومة الفرنسية في الشرق الاوسط (١٧٪) يشكلون ثلث المعارضين تقريبا (٤٩٪) . وهذا يعود غالبا لتناقض موقف الحكومة نفسها ، الذي لا يحكمه برأي الكثيرين اي اعتبار مبدئي وانما الى حد بعيد اعتبارات مصلحية (كبيع شحنة الطائرات لليبيا التي لم تلق استحسانا عند غالبية الشعب الفرنسي ٦٠٪) وكون ٣٦٪ فقط من الفرنسيين مع اعادة شحن الاسلحة لاسرائيل ، يظهر عدم ارتباط الموقف تجاه سياسة الحكومة بالموقف تجاه قضية فلسطين نفسها . ٤ — الخوف من « الخطر » العربي (٣٩٪) والذي يعود غالبا لما ذكرناه عن العنصرية ضد العرب ، يتحكم في مواقف الفرنسيين بشكل اكبر من عطفهم على اسرائيل نفسها . ٥ — بشكل عام ، ورغم ان « قضية الشرق الاوسط » (كما تسمى) تثير اهتمام الفرنسيين اكثر من قضايا عالمية أخرى (نظرا للتداخل القديم بين التاريخ الفرنسي والتاريخ العربي من جهة وللمشكلة اليهودية من جهة أخرى) الا ان تفاصيل هذه القضية غير معلومة الا لقلة من المطلعين . واحكام الفرنسي العادي لا تعدو كونها ردة فعل سريعة تتحكم فيها قضايا عديدة (وأغلبها داخلية) .

وفي ختام هذه النظرة السريعة للتحول الذي جرى في الاعوام القليلة الماضية في مواقف الراي العام الفرنسي ، لا بد من التاكيد على ان هذا التحول قابل للتعميق اذا توفرت بعض الشروط ، اهمها تطور النضال الفلسطيني والعربي عامة واتضاح مواقفه السياسية واهدافه المرحلية والبعيدة (فيما يتعلق مثلا بمستقبل يهود الارض المحتلة) ، ثم بناء علاقات ديناميكية فعالة مع الاوساط المتقدمة في المجتمع الفرنسي . وسنأتي في رسالة اخرى على دراسة لهذه الاوساط ولعامة القوى السياسية الفرنسية ومواقفها .

الرسالة الثالثة : من نعيم وبشارة خضر

كسب الرأي العام البلجيكي

من المعروف عادة ان بلجيكا احدى معاقل الصهيونية . ومن المعروف ان الرأي العام البلجيكي يدعم اجمالا قيام الدولة الصهيونية في فلسطين . وبالفعل فالجالية اليهودية قوية اقتصاديا في بلجيكا ولها نفوذ لا بأس به في الاوساط السياسية والصحفية . أضف على ذلك ان الجالية اليهودية لها صحفها ووسائل اعلام خاصة بها تمولها وتوزعها مجانا في اكثر الاحيان . فهناك ما يسمى : « مركز الابحاث والاعلام للشرق الاوسط » الذي يشرف عليه ويموله الصهاينة والذي يصدر مجلة توزع مجانا على المئات من المثقفين خصوصا المدرسين واساتذة الجامعات . وهو الذي وزع على الصحف مؤخرا ترجمة لرسالة زعم ان السادات كتبها للمصور عام ١٩٥٣ يمتدح فيها هتلر ويعتبره الرئيس الزعيم الخالد لالمانيا . وهناك « مركز الدراسات اليهودية العليا » الذي يصدر كل عام عدة كتب وكراسات . وهناك صحيفة « لاتريبين سيونيست » التي تنشر الدعاية الصهيونية وتطالب بدعم اسرائيل المادي والمعنوي في كل صفحة من صفحاتها وحتى في كل سطر من سطورها .

وهناك ايضا المنظمات اليهودية . وهي في اجمالها نشيطة جدا . مثل جبهة الطلاب اليهود العلمانيين. واتحاد الطلبة اليهود التقدميين . واتحاد الطلبة الاسرائيليين ونادي الطلبة اليهود . وتعمل كلها بالتعاون والتفاهم مع السفارة الاسرائيلية . واما الصحف البلجيكية عامة فهي تدعم الفلسطينيين عادة عندما ينشب نزاع بينهم وبين الدول العربية. ولكنها تنحاز في اكثر الاحيان لاسرائيل في كل ما يتعلق بتحرير فلسطين واقامة الدولة الديموقراطية . ونستثني منها طبعا وسائل الاعلام اليسارية التي تدعم عادة وجهة النظر الفلسطينية. ولكن دعمها فتر في الاونة الاخيرة شأنها في ذلك شأن اليسار الاوروبي عامة الذي تعود ان يدعم حركات التحرر عندما تكون قوية ثم يتناساها او يهملها عندما تتعرض للازمات والصعوبات . واذا استثنينا بعض الصحف المحلية الصغيرة يجوز القول بأن الصحيفة البلجيكية الوحيدة التي تدعم المواقف الاسرائيلية هي صحيفة لوسوار . واكثر مقالاتها خطرا ما يكتبه لها مراسلها من الارض المحتلة نيكتور سيجيلمان .

ولا بد من ذكر الدعم السياسي والمعنوي الذي تغدقه على اسرائيل بعض الشخصيات السياسية المعروفة . ونذكر منها « هوجاردي » وهو عضو في مجلس الشيوخ البلجيكي و« سيمونيه » وهو عضو في مجلس البرلمان ورئيس مجلس ادارة جامعة بروكسل الحرة ورئيس بلدية انديرليخت في بروكسل . وقد تم انتخاب كل منهما من جديد في الانتخابات الاخيرة التي تمت في بلجيكا في ٧ نوفمبر الماضي . وكان السيد هوجاردي قد بعث اثناء الحملة الانتخابية برسالة خاصة الى كل اليهود القاطنين فيبلجيكا يشرح لهم دعمه اللامشروط لهم ولاسرائيل ويطلب منهم دعمه في الانتخابات ويعدهم بأن يظل عند حسن ظنهم في الدفاع عن اسرائيل والدعاية لاسرائيل على كل المستويات . وقد أحرز الصهاينة نجاحا اخر في الانتخابات الاخيرة اذ تم انتخاب جان جول في منطقة لييج وهو يهودي وصهيوني معروف تبعثه السفارة الاسرائيلية للدفاع عن وجهات نظرها وشرح مواقف حكومتها في محاضرات عامة . وقد تم انتخابه ولاول مرة نائبا عن حزب اتحاد الفرنكوفون وهو حزب جديد حقق نصرا باهرا في الانتخابات الاخيرة . نكتفي بذكر هؤلاء مع العلم ان هناك العشرات لا بل المئات من الصهاينة او الداعمين للصهيونية في الاوساط السياسية والاقتصادية وحتى في المنظمات. فرابطة حقوق الانسان البلجيكية مثلا لم تتخذ حتى الان اي موقف واضح بخصوص ما تقترفه سلطات الاحتلال في فلسطين المحتلة خصوصا في غزة وذلك بسبب ما يمارسه عليها من ضغوط بعض اصدقاء اسرائيل او بعض الصهاينة ونذكر منهم ارونشتاين احد كبار مسؤوليها واحد اعضاء مكتبها الاداري .

ولن اتكلم عن نشاطات السفارات العربية في مجال الاعلام لعدة اسباب . اولا لان هذه النشاطات تكاد تكون معدومة . وثانيا لان كل سفارة تعمل للدعاية لبلدها . وذلك أمر طبيعي لاختلاف وجهات النظر بين الدول العربية والذي

ينعكس في نشاطات سفاراتها . ولكن لا بد من الاعتراف بالجهود التي يبذلها ضابط الاتصال في الجامعة العربية . وهي جهود موفقة وناجحة لكنها محدودة . وهي محدودة اولا بسبب عدم وجود ميزانية مستقلة ومهمة للاعلام . وثانيا لان مجلس السفراء العرب هو الذي يقرر في النهاية ويمول المشاريع التي يتقدم بها ضابط الاتصال . وهل من السهل ان يتفق السفراء العرب على موضوع مثل موضوع المقاومة الفلسطينية وخصوصا اذا مـــا تطرقت النشرة الى علاقات المقاومة مع بعض الدول العربية ؟ الا انه لا بد من الاعتراف بأن ضابـــط الاتصال قد بذل في مجال الاعـــلام في السنوات الماضية ورغم كل ما تعرض له من صعوبات جهودا جبارة .

وهناك لجان المناصرة . وهي كثيرة بالرغم من قلة المنتمين اليها . هناك لجنتان في بروكسل . لجنة فلسطين — بروكسل ولجنـــة مناصرة فلسطـــين والشعوب العربية ولهذه الاخيرة عدة فروع في مدن عديدة من بلجيكا . وهناك لجنة المناصرة في جامعة لوفان . وقد لعبت في الماضي دورا رئيسيا في الاوساط الطلابية في جامعة لوفان . وكان انشط العاملين فيها من الطلبة الفلسطينيين او العرب . ولكنها تفككت وضعفت في المدة الاخيرة . وهناك ايضا عدة لجان اخرى في المنطقة الفلمنكية او في مدينة لييج لا مجال لذكرها بالتفصيل . ولكن لا بد من ذكر قيام لجان مسيحية اهميتها انها تستطيع التغلغل في اوساط جديدة لا تستطيع اللجان الاخرى الوصول اليها . وقد تام وفد عن اللجان المسيحية في الصيف الماضي بزيارة للشرق الاوسط بالتعاون مع رابطة الخامس من حزيران في بيروت واجرى اتصالات بكل حركات المقاومة .

وكل هذه اللجان نشيطة وتصدر النشرات والبيانات وتبيع الكتب واللافتـــات والصور عـــن القضية الفلسطينية . وتبيع كذلك ادبيات حركة المقاومة ومنظمة التحرير والجبهات ومركز الابحاث . وتقيم المحاضرات وتعرض الافـــلام وتعقد المؤتمـــرات الصحفية . ولكنها لا تزال ضعيفة ولا اعتقد انها ستقوى في المستقبل . وذلك اولا لانعدام وجود اي تنسيق بين هذه اللجان المختلفة . فكل منها تعمل على حدة . وقد تم عام ١٩٦٩ اقامة لجنة وطنية مهمتها تنسيق النشاط والاعلام . ولكـــن هذه اللجنة تفككت ولم يبق منهـــا الا اسمها . وكل المحاولات التي بذلت حتى الان لتوحيد هذه اللجان باءت بالفشل. السبب عدم وجود مسؤول فلسطيني قريب منها مؤهل من قبل منظمة التحرير للضغط عليها . ثم ان هناك خلافات شخصية بين المسؤولين عن هذه اللجان لانتمائهم الى احـــزاب سياسية مختلفة او لجناحين مختلفين من حزب واحد قديم انشق . الا ان هناك محاولة جديدة جدية بالتعاون مع ممثل اللجنة المركزية في باريس لتوحيد الجهود. ونشاطات هذه اللجان محدودة لان اتصالها يقتصر على بعض فئات الطلبة (اليسارية المتطرفة منها بشكل خاص) او العمال (خصوصا العمال العرب من شمال افريقيا) . كما ان انعدام المساعدات المالية لا يسمح لها باصدار نشرات جدية تستحق ان يقرأها المثقفون والعاملون في المجالات الصحفية والسياسية وذلك لانها تظل دعائية وسطحية . وما يضعف فعاليتها هي انها تصدر عدة نشرات صغيرة . ولو تكاتفت لاصدار نشرة واحدة جدية عميقة ذات مستوى عال لحققت المزيد من الاهداف الاعلامية التي تعجز عن تحقيقها الان . وهذا يعود ايضا الى انعدام التنسيق والى كون كل لجنة تدعم منظمة فلسطينية معينة . ونكون بذلك قد نقلنا خلافات المقاومة الى الساحة الاوروبية . وهذا في نظرنا خطأ فاحش .

واما الطلبة الفلسطينيون فيبذلون جهودا جبارة في مجال الاعلام والتعاون مع اللجان واتحـــادات الطلاب . الا ان محاولاتهم تظل فردية اولا لقلـــة عددهم : فمجموع الطلبة الفلسطينيين في بلجيكا لا يزيد على ١٥ طالبا الاكثرية الساحقة منهم لا تتقن اللغة الفرنسية وتنقصها المعلومات والاطلاع الوافي عن تاريخ القضية الفلسطينية وملابساتها وطريقة عرضها على المستمع الغربي . وقد تم تشكيل اتحاد لطلبة فلسطين منذ عامين . ولكنه ظل ضعيفا ومنقسما على نفسه لاسباب لا مجال لذكرها هنا . ولذا ظلت كل المحاولات من ناحية الطلبة الفلسطينيين فردية .

الا ان هناك شخصيات عديدة وفي كل المجالات تدعم المقاومة الفلسطينية وتعمل على الدفاع عنها وخصوصا في الاوساط اليسارية والجـــامعية . ونذكر هنا بعض هؤلاء : الاستاذ مارسيل ليبمان وهو استاذ في جامعة بروكسل الحرة ومحرر مجلة

« مي » التقدمية (وهو يهودي ومن الد أعداء الصهيونية) والسيد ناثان فاينشتوك وهو محرر في مجلة « لا جوش » التروتسكية ومحام مشهور ومعيد في جامعة بروكسل الحرة . وقد نشر كتابا منفصلا « الصهيونية ضد اسرائيل » حطم فيه كل النظريات الصهيونية وكتابا آخر قيما عن «الحركات الثورية في العالم العربي » ومن المؤسف ان تكون مجلة شؤون فلسطينية قد نشرت نقدا للكتاب الاول خصوصا وان الاخطاء اذا ما صحت هذه التسمية لا تساوي ١ ٪ مما جاء في هذا الكتاب القيم الذي وجه الى الصهيونية طعنات في الصميم . ويكفي القول بأن ناثان فاينشتوك لا يدع مناسبة تفوت الا ويدعم المقاومة الفلسطينية مما أكسبه عداء الاوساط الصهيونية التي تخشاه وتخاف لسانه واطلاعه . وهناك أيضا الاستاذ جان سالمون رئيس معهد الحقوق الدولية في جامعة بروكسل وعضو المكتب الاداري في اتحاد القانونيين الديموقراطيين وايزابيل بلوم من مجلس السلام الدولي ومدام بيرسون والصحفي ويلي ستراوزن والاستاذ في جامعة لوفان فرانسوا هوتارت وكثيرون غيرهم . وكل من هذه الشخصيات يعمل وحده او لا يعمل . ولكنهم يرغبون كلهم في العمل من أجل القضية الفلسطينية . ولكن في أي مجال ؟ يقومون بالمحاضرات عندما يجدون من يعد لها . ويكتبون المقالات عندما يجدون من ينشرها . ولكن ينقصهم من يكون حلقة الاتصال فيما بينهم . ولذا هناك اقتراح لاصدار مجلة عن القضية الفلسطينية تصدر كل شهرين يشرف على تحريرها عشرة من هؤلاء الشخصيات الجامعية وغيرهم من الشخصيات السياسية وتوزع مجانا في الاوساط المثقفة او السياسية ويباع قسم من اعدادها . ولكن بقيت هناك مشكلة التمويل . فهم مستعدون تغطية قسم من التكاليف . ولكن من يمول القسم الباقي ؟ فقد سبق للاستاذ ليبمان ان أصدر مثل هذه المجلة منذ سنتين بمساعدة من السفراء العرب . ولكن العدد الثاني لم يصدر أبدا . وتبذل الجهود حاليا لايجاد جهات تمول مثل هذه المجلة التي ستملأ فراغا في الاعلام الفلسطيني هنا على أن تحافظ المجلة على استقلالها عن السفارات العربية وتبقى على اتصال وثيق ومستمر بالمقاومة الفلسطينية وحدها وتحاول فقط فضح الصهيونية واهدافها وتكذيب ما تروجه هنا من معلومات وتشرح وجهة نظر المقاومة الفلسطينية ككل دون الدخول في نقاشات جانبية لها أهميتها في الشرق الاوسط ولكنها تضر القضية اذا ما توغلنا فيها لدى وامام الرأي العام الغربي .

ونورد الان بعض النشاطات التي قامت بها لجان المناصرة أو أصدقاء المقاومة الفلسطينية في بلجيكا كمثال على المساعي الاعلامية في بلجيكا .

اجتمع بعض الشخصيات من أصدقاء الثورة الفلسطينية في شهر اوكتوبر الماضي لاتخاذ موقف من مؤتمر « العدالة والسلام في الشرق الاوسط » الذي كان من المقرر ان يعقد في مدينة بولونيا . وقد حضر هذا الاجتماع مبعوث فرنسي من باريس لاقناع الوفد البلجيكي الذي اشترك في مؤتمر نصرة الشعوب العربية الذي انعقد في القاهرة في شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٩ للاشتراك في مؤتمر بولونيا . الا ان الوفد البلجيكي رفض التعاون في اعداد هذا المؤتمر والاشتراك فيه اذا لم يدع اليه ممثلون عن المقاومة الفلسطينية . وبعثت رسالة بهذا المعنى الى السيد فانتي الايطالي المسؤول عن الاعداد لهذا المؤتمر يستنكر فيها اعضاء الوفد البلجيكي عدم وجود فلسطينيين عن المقاومة بينما ستوجه الدعوة الى اسرائيليين والى يهود من الولايات المتحدة . وقرر الوفد البلجيكي مقاطعة المؤتمر والاجتماعات التحضيرية له .

قامت لجنة مناصرة فلسطين والشعوب العربية بتنظيم عدة محاضرات حول موضوع « نحن عائدون من الاردن » و« المقاومة مستمرة » على أثر عودة بعض المسؤولين في اللجنة من جولة في الشرق الاوسط . وشرحوا صمود الثورة الفلسطينية وتكلموا عن الوضع في الشرق الاوسط . وقامت لجنة فلسطين في بروكسل باعداد اجتماع اعلامي بمناسبة بدء شهر رمضان دعت اليه عددا من العمال العرب المغاربة . وقد أصدرت هذه اللجنة الاخيرة نشرتها الشهرية « بالسطين ان لوت » التي تصدرها بالفرنسية والعربية . كما أصدرت اللجنة الاولى نشرتها الشهرية « سوليداريتيه بالستين » .

يقوم السيد لالمان وهو محام مشهور ميوله صهيونية باعداد رحلة الى اسرائيل يشترك فيها المحامون البلجيك الشباب وبأسعار مخفضة . وقد كتب السيد سالمون عن اتحاد القانونيين الديموقراطيين

رسالة بعثها الى السيد لالمان يطالب بالغاء هذه الرحلة مستندا بذلك الى حجج قانونية والى العدوان الاسرائيلي واحتلال الاراضي العربية . وهناك جهود ستبذل لتوعية بعض المشتركين بهذه الرحلة اما لاقناعهم بعدم الاشتراك او على الاقل للفت انتباههم الى بعض الوثائق التاريخية المهمة لئلا يقعوا في فخ الدعاية الصهيونية .

قامت لجنة مناصرة فلسطين والشعوب العربية بتنظيم محاضرة عامة في ١٩٧١/١٢/٣ حضرها ما يزيد عن ٢٠٠ شخص وتكلم فيها نقابيون ثلاثة عن العلاقة بين نضالهم النقابي والثورة الفلسطينية . وكان بين المتكلمين مسؤول نقابي بلجيكي مشهور ومسؤول نقابي فرنسي ومسؤول نقابي ايطالي .

تم ارسال كتاب الى رابطة حقوق الانسان فرع جامعة لوفان لشرح اوضاع الفلسطينيين في الاراضي المحتلة وطلب اتخاذ موقف واضح من خرق الصهاينة المفضوح والمستمر للاتفاقيات الدولية وحقوق الانسان . وقد طلب من الرابطة تجميع الوثائق حول هذا الوضع وحتى ايفاد ممثلين عنها الى البلدان العربية في الشرق الاوسط لاعداد تقرير واف تقوم بنشره لتوعية الرأي العام البلجيكي . وقد رد رئيس الرابطة ووعد بأن يعرض هذا المشروع في الاجتماع المقبل للرابطة على المكتب الاداري .

نشرت صحيفة لا ليبر بلجيك التي تمثل وجهة نظر الحزب المسيحي المحافظ مقابلة صحفية أجرتها مع البطريرك مكسيموس الخامس . وندد البطريرك بالاحتلال الصهيوني وأدان خصوصا محاولة اسرائيل لتهويد القدس وترحيل سكانها العرب . وتساءل اذا ما كان يحق للصهيونية ان تحتل اراضي شعب اخر لا لشيء الا لانها الاقوى. واضاف ان العرب واليهود كانوا يعيشون في سلام وتفاهم قبل قيام اسرائيل وان العداء ولد بولادتها. وتساءل كيف نطالب الشعب الفلسطيني ان ينسى ويصفح وقد طرد من أرضه ووطنه ؟ كما وجه نداء الى الرأي العام المسيحي من أجل حماية القدس . وردت السفارة الاسرائيلية على البطريرك ردا سخيفا . فتصدى لها سفير لبنان يفند بحذاقة ما قدمته من أدلة .

وتقوم حاليا الاوساط المناصرة للثورة الفلسطينية بأرسال البرقيات الى الرئيس السادات تطلب منه اطلاق سراح المناضلين الفلسطينيين الذين نفذوا حكم الاعدام بوصفي التل . والجدير بالذكر ان الصحافة البلجيكية لم تدن ما قام به الفلسطينيون الذين اغتالوا رئيس الوزراء الاردني ولكنها قالت أن ذلك يوجه الاضواء من جديد على الشعب الفلسطيني الذي ظنه الكثيرون قد انتهى بانتهاء المقاومة في الاردن .

والجدير بالذكر ان الرأي العام البلجيكي يميل كل يوم اكثر الى دعم الشعب الفلسطيني في نضاله وذلك بالرغم من كل ما تبذله الجهات الصهيونية من جهود . يرفض البلجيكي عادة دعم الدول العربية في نضالها ضد اسرائيل . ولكنه لا يتردد في دعم قضية الشعب الفلسطيني والاعتراف بحقوقه كاملة . وهذه فرصة يجب الا نفوتها . ولذا يجب تنسيق الجهود ومضاعفتها من أجل اعلام فلسطيني مركز وجدي لكسب الرأي العام هنا. فكل الظروف الان في صالحنا . هذه فرصة ذهبية يجب الا نفوتها .

الرســـالة الرابعـــة : من الدكتور ادوار سعيد

اليســـار الاميركـــي والقضيـــــة الفلسطينيـــة

سأحاول أن أعرض وضع الحركات التي تهتم بشكل جدي بالوضع في الشرق الاوسط من زاوية يسارية بحتة . وأول ما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال هو أن الحركة المعادية للحرب في فييتنام تعتبر القوة اليسارية الرئيسيـــة في الولايـــات المتحدة ، ولكن منذ محاكمات مؤامرة شيكاجو(١) في ١٩٦٩ ـ عندما حالت دون خوض جونسون لمعركة الرئاسة من جديد ـ واليسار الاميركي يعيش في حالة من التشتت والارتباك ، ولمحاكمات شيكاجو هذه أهمية خاصة في التاريخ السياسي الاميركي لان الدولة ، بموجب قـــانون التآمر ومحـــاولة التحريض على الشعب ، ذلك القانون المطاط ، قدمت للمحاكمة آنذاك عناصر يمثلون مختلف أجنحة اليسار(٢)، كما أن هذه المحاكمات أخمدت وبشكل قاطع صوت تنظيمات مختلفة مثـــل منظمـــات السود(٣)، وجمعية الطلبة الديمقراطيين، وحركات الشباب ومنها حركة الهيبيين الدوليـــة وروبـــن وهوفمان ودعاة السلم والمنظمات الراديكالية او الفوضوية . ومنذ ذلك الوقت ، أي حوالي نهاية ١٩٦٩ وبداية ١٩٧٠ شهد اليسار ظاهرة التشرذم الى فصائل متنافسة فيما بينها ، فمثـــلا انشقت جمعية الطلبة الديمقراطيين الى ثلاث او أربـــع منظمات ، وفي داخل كل منها أجنحة متصارعة يدعو كل منها الى هذا البرنامج أو ذاك ، وآخر مـــا تعرض له اليسار هو محاكمات بريجان او تهمة بريجان التي وجه بموجبها مذكرات اتهام الـــى سبعـــة اشخـــــاص ـ قسيســـين وثـــلاث راهبات ، وعالم فيزياء ، واقبال احمد ، استاذ العلوم السياسية الراديكالي الذي يعبر عن وجهة نظر امية ثالثة والذي كان يقيم في شيكاجو . وكل ذلك يعني ان الادارة ركزت جهودها علـــى تحطيم اليسار المنظم من خلال محاكمات شيكاجو في ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ ، وهم الان يركزون على بقايـــا الحركات الراديكالية المعادية للحرب والتي لا تتركز الان فحسب في نفوس الناس وفي الكنيســـة . وبالاضافة لذلك ، فان ملاحقتهم لآخر عالم سياسي

---

١ ـ في الحقيقة لم تكن مؤامرة بالمعنى المتعارف عليه بل محاولة قامت بها الحكومة لجعل قانون التآمر مطاطا جدا ، والطريف عن الاشخـــاص الثمانية الذين حـــوكموا هو انهم لم يكونـــوا يعرفون بعضهم بعضا ، فكل ما كانت تريـــده الحكومة هو ان يكون لدى هؤلاء النية ذاتهـــا لتوجه لهم تهمة التآمر المشترك ، كما أنها كانت محاولة من السلطـــة لاخمـــاد صوت العناصر الانشقاقية في المجتمـــع بطـــرق « قانونية » ، فجميع المتهمين ينتمون الى منظمات كالفهـــود السود وجمعية الطلاب الديمقراطيين ومنظمات اليسار الجديد .

٢ ـ المشكلة في اليسار الاميركي هي ان غالبيته من اليهود الذين غالبا ما يعربون عن قلقهم عما يمكن ان يحدث « لاخوانهم » في اسرائيل ، ولما كـــانت الصحافـــة تحـــاول أن تصور الثورة الفلسطينية وكأنه ليس لها اي بعد اجتماعي ، اعتقد انه من الضروري بالنسبة لنا ان نصور الثورة كجزء من ثورة عربية شاملة ، وفي الوقت نفسه محاولة لايجاد مستقبـــل أفضل يشمل اليهود كذلك ، وهنا لا بد من الاشارة الى انه لا يكفي الحـــديث عن الدولـــة الديمقراطيـــة العلمانية العتيدة في فلسطين بل يجب توضيح كيفية اقامة هذه الدولة ، ومحتواها الاجتماعي والاقتصادي ، وذلك لنزع اسطورة القاء اليهود في البحر من عقول اليساريين وغيرهم .

٣ ـ تركز اليسار بين السود خـــلال السنتين الماضيتين في الفهود السود ، ولكن لم يبق من هؤلاء سوى اسمهم بعد ان تعرضوا لحملـــة عنيفة من الاعتقالات والقتل ، وهناك ايضـــا التروتسكيون الذين نجح اليهود ومكتب التحقيقات الفيدرالي في التسلـــل الى صفوفهم ، ولكن مؤخرا حاول اعضاء سابقون من الفهود السود اعادة تنظيم صفوفهم ، ولكنهم يواجهون ليس مشكلـــة رجال الامن فقط بـــل ايضا مشكلـــة المخدرات ، وقد حدث ان الشرطة استجوبتهم وضايقتهم عند عودتهـــم من زيارة قاموا بهـــا للشرق الاوسط .

راديكالي بارز يمثل وجهة نظر العالم الثالث ، أي اقبال أحمد ، هي جزء من عملية التركيز هذه . والمؤامرة كما أخرجوها سخيفة وحتى ان «نيويورك تايمز» وصفتها بأنها عبارة عن رواية من مخيلة أحدهم ، ربما كان هوفر ، فهي تربط ما بين الكنيسة ودعاة السلم والكويكرز واقبال الذي يعتبر صديقا للعرب ، وله عدة كتابات عن المسألة العربية — اليهودية ككاتب ثوري يمثل وجهة نظر العالم الثالث . وقضية الاخوين بريجسان ، المتهمين الرئيسيين ، ليست سوى تعبير عن جو الكبت الرهيب الذي تعيشه اميركا حيث يوجد عدد لا يحصى من المواطنين والمقيمين الذين تخضع مكالماتهم الهاتفية ورسائلهم للمراقبة على يد أشخاص منتشرين في جميع أرجاء البلاد ، واعني بذلك ان المخابرات العسكرية لوحدها تقوم بمراقبة مئتي الف او ثلاثمئة الف شخص ، وكذلك يفعل مكتب التحقيقات الفيدرالي والبحرية وربما دوائر حكومية اخرى . وما دام أجنيو وميتشل يعملان معا في خط واحد ، فليس هناك مجال تقريبا لاي شخص ليزوغ من وجه الرقابة او يبتعد عن الخوف، فكل مواطن معرض للتوقيف والاستجواب، وما حدث للاميركيين الذين زاروا الشرق الاوسط في العام الفائت، ومنهم بعض السود الراديكاليين، من استجوابات وتحقيقات ومعاملة قاسية على يد رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي او الشرطة هو خير دليل على ذلك . وفي الولايات المتحدة ايضا حركة طالبية ولكنها في حالة خمود أيضا ، وحتى ليس هناك ما يمكن تسميته حركة طالبية — فكما قلت فان جمعية الطلاب الديمقراطيين انشقت على نفسها ، كما ان عددا كبيرا من الطلاب يتركون الجامعة الى ... وأمور كهذه . ولكن هذا يجب ان لا يعني انعدام النشاط السياسي ، وذلك لان مثل هذا النشاط يتركز الان بشكل فعال في أيدي قلة من المنظمات التروتسكية(٤) التي لها تأثير على السياسة الخارجية الاميركية ، ومن هذه المنظمات حزب العمال الاشتراكي وغيره .

وبالاضافة لكل ما تقدم ، فان عامة المواطنين في اميركه غير آمنين ، من الناحية الاقتصادية(٥) أيضا ، فمعدل البطالة في ارتفاع — فهو يزيد عن الستة بالمئة التي يقولون عنها ، والناتج القومي الاجمالي في انخفاض ، والخدمات العامة ، كالبريد والهاتف والكهرباء وما الى ذلك ، تشهد انهيارا شاملا في جميع انحاء البلاد . لذا ، على المرء ان يكون مدركا لكل هذه الامور عندما يتعرض لمناقشة مختلف نواحي أزمة الشرق الاوسط وتاثيرها على الوضع الداخلي في اميركه .

وعند بدء مناقشتنا لهذا الموضوع لا بد من الاشارة الى ان الاشهر الستة الاولى من العام ١٩٧٠ في اميركه شهدت حملة واسعة النطاق لصالح اسرائيل اشترك فيها البنتاجون بقصد التوصل الى ايجاد تعاون عسكري اوثق مما بين الولايات المتحدة واسرائيل ، وفي اواخر آب (اغسطس) اقترح السناتور فولبرايت عقد معاهدة امن متبادل بين الولايات المتحدة واسرائيل بهدف وقف تحويل اسرائيل الخفي قاعدة متقدمة للعدوان العسكري الاميركي في الشرق الاوسط ، وقد كان ذلك سببا لشن حملة عليه اشترك فيها المسؤولون العسكريون والحكوميون وكل من هو اسرائيلي او يخضع لنفوذها ويؤيد سياستها . وكذلك فقد وصف اقبال أحمد رحلة نيكسون في دول حوض البحر الابيض المتوسط في تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٧٠ بأنها محاولة لخلق حلف متوسطي على غرار حلف شمال الاطلسي تكون اسرائيل الشريك الشرقي الرئيسي فيه مع اليونان واسبانيه والبرتجال وايران لتطويق الاتحاد السوفياتي من الشمال ، واستراتيجية جنوبية لتطويق الوجود السوفياتي في سوريه ومصر عن طريق ايران في الشرق واسرائيل في الوسط والمغرب في الجنوب . ويقتضي جزء من هذه الخطة بابقاء يوجسلافيه على الحياد ، وينص جزء آخر على قانون المساعدات العسكرية الخارجية التي

---

٤ — ان التروتسكيين هم الفصيل الرئيسي في اليسار الاميركي الذي كان يقف دائما الى جانب الفلسطينيين ، وذلك لادراكهم ان الثورة الفلسطينية تناضل لتحقيق مبادىء تتوافق وايديولوجيتهم ، وتأييدهم هذا للفلسطينيين افقدهم كثيرا من التأييد في اميركة .

٥ — لم يتمكن اليسار في اميركة من التصدي للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي يتعرض لها المجتمع الاميركي كما انه ليس هناك اي تعاون حقيقي بين الفئات اليسارية والحركة العمالية .

تبلغ ١٩٠٥ مليار دولار والذي أقره الكونجرس في آب ١٩٧٠ مع ترك الباب مفتوحا لمنح اسرائيل ما تريده من المعونات . وبالفعل اعلنوا انهم سيمنحون اسرائيل حوالي نصف مليار دولار هذا العام ونصف مليار اخرى في العام القادم ، ولكن وكما لاحظ بعض الشيوخ ، القصد من ذلك هو ان المعونات يمكن ان تتخطى ذلك كثيرا ، ولا شك ان هذا لامر خطير . وبالاضافة الى ذلك ، ظهرت مقالة في « نيويورك تايمز » كتبها بنيامين وست في اوائل اكتوبر ١٩٧٠ كشف فيها انه كان هناك نوع من التفاهم الاميركي الاسرائيلي بالتدخل في الاردن خلال حوادث الاردن في ايلول ١٩٧٠ وذلك مع موافقة ضمنية من السفارة الاردنية في واشنطن ، وذكر أحد مراسلي الصحيفة ان طائرات فانتوم الاسرائيلية حلقت بالفعل فوق الحدود الاردنية ـ السورية ، ولكنه لم يتحدث عما كانت تفعله هناك . وخلال خريف ١٩٧٠ عندما كانت حركة المقاومة الفلسطينية في أوجها شهدت الولايات المتحدة سيلا من المحاضرين على رأسهم جولدا مئير وابا ايبان ودايان واسحق رابين الذي كان يجوب البلاد عرضا وطولا في سلسلة من المحاضرات في النوادي والجامعات وحملات جمع التبرعات امتدت من ايلول حتى كانون الاول ، وكذلك شلومو افنيري واوري الميري وسكرتيرة اوري افنيري(٦) التي جاءت الى بيروت وقابلت عددا من قادة المقاومة ، وايضا اوجوري ديفيز ، داعية السلام الاسرائيلي الراديكالي ، وغيره من الجنرالات والكولونيلات ، واعضاء الكنيست ، ودافيد فكري من المسؤولين الاسرائيليين في الضفة الغربية المحتلة ، كل ذلك لاعادة الثقة باسرائيل خاصة بعد أن بدأ الليبراليون الاميركيون من امثال تشومبسكي(٧) يتحدثون عن الحيف الذي لحق بالفلسطينيين ، مما سبب الذعر في قلوب القادة الاسرائيليين وجعلهم يهرعون الى الولايات المتحدة بهذا الشكل . وهذا كله كان يهدف الى ربط الولايات المتحدة بالمصالح الاميركية على جميع المستويات ، ومحاولة كسب اي تأييد ممكن لاسرائيل واضعاف اي تعاطف نحو الفلسطينيين . مضافا الى ذلك ، هناك الموقف المعادي لما يسمى باليسار المعادي للشيوعية الذي يهيمن على الحياة الفكرية في اميركه بشكل عام وفي نيويورك وبوسطن على وجه التحديد ، وحملتهم على التحالف الذي قام بين الفلسطينيين والفئات التي تنتمي الى العالم الثالث مثل السود والبورتوريكيين والهنود ، ووصفهم لهذا التحالف بأنه ليس معاديا للصهيونية بل معاديا للسامية ، وعلى سبيل المثال ، كتب سيمور مارتن ليبسج ، الاستاذ المشهور في هارفرد ، مقالة مطولة في « نيويورك تايمز ماجزين » بعنوان « اشتراكية الاغبياء » ، فهم يسمونها معاداة اليسار الجديد للصهيونية في حين انها في الحقيقة معاداة اليمين للسامية ، والمقالة عبارة

٦ ـ تدعى دانا زرهان ، تحمل جنسية مزدوجة اميركية واسرائيلية ، فاتنة ، القت سلسلة من المحاضرات في اماكن مختلفة من اميركة طوال شهري نوفمبر وديسمبر ، وقد استمعت اليها تلقي اربع محاضرات في يوم واحد في نيويورك . وتعرف عن نفسها ، كما يفعل افنيري ، بأنها اسرائيلية ولكنها قومية فلسطينية . وتحدثت عن زيارة قامت بها للمنطقة في ربيع ١٩٧٠ كصحفية اميركية حيث قابلت قادة المقاومة وزارت قواعد الفدائيين ومخيمات الفلسطينيين. وقالت انها قابلت نفرا من الجبهة الديمقراطية وصفتهم بأنهم سذجون فهم يعتقدون ، على حد زعمها ، ان الصهيوني عبارة عن يهودي مضلل (بفتح اللام) ، ولا يدركون ان الصهيونية تجسدت في مجتمع قائم وراسخ .

٧ ـ تشومبسكي هو أحد اليساريين الحقيقيين الذي يتمسك ببيان ٦ أيار الذي اصدرته القيادة الموحدة للفدائيين وتطالب فيه باقامة دولة ديمقراطية في فلسطين عن طريق تحطيم المؤسسات السياسيّة والعسكرية والاجتماعية والمدنية والثقافية في اسرائيل ، ويعلق تشومبسكي على ذلك برفض اقامة دولة عن طريق تهديم دولة اخرى ، مع انه كان يجب عليه ان يفهم ما تقوله الجبهة الشعبية عن تحطيم هذه المؤسسات كما فهمه لينين من تحطيم الدولة البورجوازية لاقامة دولة تقدمية ثورية على انقاضها . ويعتبر تشومبسكي ايضا ان حركة المقاومة اصبحت حركة قومية واتخذ النزاع شكل صراع فلسطيني ـ يهودي ، وهذه هي ايضا الصورة السائدة في اميركة عن حركة المقاومة .

عن هجوم على كل من تربطه علاقة سياسية بالكفاح الفلسطيني في الشرق الاوسط ، وهذا بالطبع ينال قسطا وافرا من الدعاية والاهتمام ، وهناك ايضا النشاط الذي تقوم به رابطة الدفاع اليهودية ضد المؤسسات السوفياتية والديبلوماسيين السوفيات من أجل السماح لليهود في الاتحاد السوفياتي بالهجرة الى اسرائيل . واعتقد ان لهذا كله علاقة بشكل او بآخر باقامة دولة فلسطينية في الشرق الاوسط او في الاراضي المحتلة . وفي ١٦ اوكتوبر ظهرت مقالة كتبها هدريك سميث من واشنطن كشف فيها النقاب عن قيام وزارة الخارجية الاميركية ببحث جدي لاقامة دولة فلسطينية تكون عمليا تحت سيطرة اسرائيل بطريقة او بأخرى ، وستضم هذه الدولة عددا من المستعمرات الاسرائيلية في الداخل او على طول نهر الاردن ، كما سيتم الاتصال ببعض الشخصيات العربية مثل عزيز شحاده والجعبري وغيرهما ، وكذلك تم الانتهاء من وضع خطة لاقامة جامعة عربية في الضفة الغربية للاردن ، وسيجري احصاء للسكان واستفتاء وغير ذلك من الامور الاجرائية . وقد تم وضع هذه الخطة لدولة في الضفة الغربية في ندوة عقدت في واشنطن ، واشترك بها عدد من المهتمين بشؤون الشرق الاوسط ومنهم فلابينز وفلارهي ، وكانت باشراف معهد الشرق الاوسط الذي تشرف عليه وزارة الخارجية ويرئسه كار بيكارن . وفي الوقت نفسه اصدرت مؤسسة راند(٨) والشرق الاوسط كتابا أعده دون بيريتز حول « الكيان الفلسطيني » من الناحية التاريخية . وهناك العديد من الاشخاص والجمعيات التي ما تزال تدرس وضع المنطقة والعلاقات الاسرائيلية العربية ، ومنهم جماعة الكويكرز فيشر وبولنغ ، وقد تركزت جميع هذه الدراسات على عدم قدرة العرب والفلسطينيين وغيرهم قبول خطة انسانية ، وعلى عدم وجود مقاومة في الضفة الغربية ، عسكرية او حتى سياسية . واكثر من يركز على ذلك هو اسحق رابين الذي يكرر في خطاباته دائما ان الوضع هادىء في الضفة الغربية ويستطيع المرء ان يقول ما يريد . وعندما يسأله أحد عن غزة ، يقول انهم يقتلون بعضهم بعضا هناك ، انهم لا يهاجمون الاسرائيليين ، وهكذا فغزة التي تعتبر المكان الوحيد الذي توجد فيه شرارة حقيقية للمقاومة ، يعتبرونها في الولايات المتحدة مكانا يقتتل فيه العرب فيما بينهم .

وبالمقابل نرى ان نشاط المنظمات العربية في اميركة يؤدي الى اسوأ النتائج نظرا لكثرة هذه المنظمات وعدم التنسيق فيما بينها ومحاولتها القيام بأمور غير واقعية أو غير قابلة للتطبيق ، فلو أخذنا مكتب الاعلام العربي(٩)، نرى انهم يركزون سياستهم على ان الولايات المتحدة صديق ممكن يجب كسبه لجانبنا ، مع انه من السهل معرفة ان الولايات المتحدة ليست صديقا ممكنا بل انها في الحقيقة عدو لنا ، ولكن هدف المكتب هو كسب المتدينين الى جانب قضيتنا وكذلك اعضاء الكونجرس رغم عدم وجود امكانات مالية لديهم للقيام بذلك . واعتقد انه لا يمكن القيام بذلك الا اذا ارتكز على اسس صحيحة وسليمة ، ولذا فاننا نرى نشاط المكتب يتأرجح وغير مركز على نقطة محددة . وهناك ايضا منظمة التحرير الفلسطينية التي لها برامجها الخاصة ، ولا ادري ان كان ذلك بالتنسيق مع مكتب الاعلام العربي ،

---

٨ — راند عبارة عن هيئة مقرها في كاليفورنية وتعمل لصالح الحكومة الاتحادية. وقد اصدرت عدة دراسات ، ومنها « الراديكالية العربية »، كتبها شخص لبناني يقول فيها ان الراديكالية العربية كانت على المستوى الثقافي فقط ولم تكن ابدا عملية أو قادرة على التصدي للمشاكل. كما تقوم راند باعداد خطط دراسية لكافة فصائل حركة المقاومة ، ويعمل معها عدد من الاسرائيليين ، مثل شلومو افنيري ، وجنرال اسرائيلي اسمه بيليسف صاحب النظرية التي تقول ان العنف ضروري للشخصية العربية ، وما علينا سوى احتواء ذلك العنف وجعله غير عملي وبذلك يصبح العرب اناسا طيبين . ومن ابرز العاملين معها دون بيريتز اليهودي ، الذي يعتبر الموجه الرئيسي لها .

٩ — على مركز الابحاث في م.ت.ف. وغيره من المنظمات الفلسطينية التركيز على تقديم المعلومات التي لا تزال غير معروفة على صعيد الراي العام في اميركة ، فاذا اثرنا وعد بلفور يثيرون بالمقابل قصة الستة ملايين يهودي الذين ابادتهم النازية ، لذا يجب اثارة مواضيع الساعة مع ربطها بالنفط والاسلحة والصناعة.

ولكن المشكلة بالنسبة للمنظمة هي عدم وضـــوح الجهة التي تنطق باسمها، فعندما تتحدث المنظمات والصحف الراديكالية عن الشرق الاوسط تتحدث عن فتح او الجبهتين الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين ، ولكن ليس منظمة التحرير ، فلا أحد يعرف من تمثل — ربما هي فريق كباقي الفرقاء . وعلى الصعيد الطلابي ، فان الطلاب العرب في الولايات المتحدة ينقسمون الى مجموعتين او ثلاث مجموعات بالاضافة الى الاخوان المسلمين ، ذلك التكتل القديم المحافظ ، وهناك ايضا الفريـــق التقدمي الذي يؤيد الفلسطينيـــين ، والمشكلـــة الرئيسية لهذا الفريق هي وصول معلومات قليلة له ، والمشاحنات التي تقع بين فصائل المقاومة . وبشكل عام ، فالمشكلة بالنسبة لهؤلاء الطلاب هي عدم تحديدهم لما يريدون ، فغالبا ما يطرحون شعارات عائمة دون التوجه الى العمل المنظم والجدي . ورغم وجود حوالي عشرة الاف طالب عربي ، فان نشاط الطلاب العرب غير ظاهـــر ومؤثر ، كالطلاب الايرانيين مثلا الذين لا يتجاوزون الالف ، فهم اكثر تنظيما واكثر بروزا في بعض المناطق .

الرسالة الخامسة : من سهير أحمد السكري

النشاط الصهيوني بين اليهود الامريكيين

تستهدف الحركة الصهيونية ، من يوم خروجها الى الوجـــود رسميا في مؤتمر « بـــال » المنعقد ١٨٩٧ ، أمرين هامين : تسخير كـــل المجتمعات اليهودية في جميع أنحاء العالم لخدمة اغراضها عن وعي ومن غير وعي ، وتأمين تعاون غير اليهود معها خدمة للاغراض نفسها ، سواء عن وعي أو غير وعي أيضا . وأغراض الصهيونية نابعة من مبادئها ، وأهم مبادئها أن اليهود لا يشكلـــون طائفة دينية او مجموعة حضارية فقط ، بل هـــم قومية مستقلة حرمت من أرضها منذ هدم الرومان الهيكل الثاني ، ولكنها عاشت في «المنفى» محتفظة بكل خصائصها القومية عدا الارض وبمجرد توفر الارض تسترجع كل تلك الخصائص وتستكملها . ومثل هذا المبدأ يقتضي محاربة اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها بكـــل قوة وتنمية شعورهم بالانفصال عنها ، ولذلك جاء في برنامج « بال » للمنظمة الصهيونية العالمية الموضوع عام ١٨٩٧ أن الصهيونية تستهدف « تقوية وتغذيـــة الاحساس والوعي القومي اليهودي » . بيد ان الصهيونية لم توقف نشاطها هذا بعد ان تحقـــق حلمها بتوفير الارض لليهود لدى خلق الكيـــان الاسرائيلي في جزء من أرض فلسطين عام ١٩٤٨، بل عمدت ، على العكس من ذلك ، الى زيادته وتصعيده بحجة حماية ذلـــك الكيان من تهديـــد العرب . ولذلك فلا غرابة في ان يقرر برنامـــج القدس الصادر عن المنظمة الصهيونية العالمية بعد حوالي عشرين عامـــا من خلق اسرائيـــل ، ان الصهيونية تستهدف « وحدة الشعب اليهـــودي وتأمين مكان الصدارة لاسرائيل في حياة اليهـــود » وكذلك « حفظ ذاتية الشعب اليهودي عن طريق تغذية التعليم اليهودي والعبري فضلا عن حفـــظ القيم الروحية والحضارية اليهودية » .

والنشاط الصهيوني الموجه الى غير اليهود ، ولا سيما الجانب السياسي معروف في عمومياته ان لم يكن في تفاصيله ، وقد خبرته البلاد العربية بالذات وعانت من نتائجه كثيرا . ولكن النشاط الصهيوني

الموجه الى اليهود أنفسهم أقل ظهورا . ولذلك فان هذا البحث سينصب على ذلك الجانب من النشاط، وهو على أشده في الولايات المتحدة التي تمثل منذ زمن طويل اكبر نصير ومعين لاسرائيل ، والتي يعتبر يهودها اكبر وأغنى وأقوى فئة في العالم .

وقد يرى البعض أنه ليس ثمة حاجة الى نشاط صهيوني ليكون اليهود صهاينة ، او بعبارة أخرى ان كل اليهود صهاينة، ولذلك فان اي نشاط يهودي مهما كان هو نشاط صهيوني ، فلا يمكن التمييز بين الاثنين . الا ان في هـذا الرأي شيئا مـن التبسيط لواقع الامـور . اذ صحيح أن العقيدة الصهيونية تمثل جزءا لا يتجزأ من الديانةاليهودية، وان اليهود كانوا دائما يعزلون انفسهم اكثر من غيرهم من الاقليات الى حـدود تضيق او تتسع حسب الزمان والمكان ، بيد أن هذين الامرين — وأحدهما ديني والاخر اجتماعي — ما كان ليكون لهما كل ذلك الاثر من جمع كلمة يهود العالـم وتسخيرهم لخدمة اغراض ذات منطويات سياسية عميقة الجذور ، لولا التنظيمات الصهيونية التي تغلغلت على مدى الايام الى كل نواحي حيـاة المجتمعات اليهودية ، من دينية وثقافية واجتماعية وسياسية ومالية ، بحيث اصبح من الصعب على أي يهودي ، مهما بلغ من استقلاله الفكري ، أن يتخلص من ربقتها .

وأنا اؤكد على تعبـير « المنطويـات السياسية العميقة الجـذور » للصهيونية لاوضح أن الاخذ بمبدأ كالصهيونية يستهدف قطع صلة فئة معينة بالمجتمعات التي تعيش بين ظهرانيها ليس بالامـر الهين حتى في البلاد التي تمارس الحرية الفكرية والسياسية ، ناهيك عن البلاد التي لا تمارسها ، لما يثيره من شكوك في ولاء تلك الفئة ويضعه من عراقيل في طريق مساعيها للمساواة التامة مع بقية افراد المجتمع . وقد فطن لذلك بعض قادة اليهود بالنسبة الى الصهيونية ، كما لا يزال هناك من رجالهم من يعارضها ، الا ان الصهيونية حاربتهم بكل ما لديها من وسائل سعيا الى كتم اصواتهم وشل حركتهم بنفس الشراسة التي حاربت بهـا معارضيها من غير اليهود . وقد نجحت في حربها تلك الى حد كبير ، لانها لم تتورع عن استخدام أية وسيلة من الوسائل لتحقيق أهدافها ، وذلك على أساس أن « الغاية تبرر الواسطة » . وقد كانت بارعة جدا في استخدام تلك الوسائل ، فلكل وسيلة زمانها ومكانها وهدفها ، كما ان المنهج الذي اتبعته كان منهجا كليا يقوم على اساس سد جميع « الثغرات » وعدم ترك شيء للظروف . ونتيجة لذلك نجد ان برنامجها « المتعدد الوجوه » يتحكم الان في اليهود من المهد الى اللحد ، دون وعي منهم في الكثير من الحالات . وهدف هـذا البحث هو أن يشرح بايجاز بعض مظاهر ذلـك البرنامج واهدافه ووسائله وطرق تنفيذه ، لما فيها من فـائدة للقارىء العربي ، اذ لا يمكن مقاومة شيء دون فهم حقيقته .

الذاتية اليهودية

قلنا أن أهم غايات البرنامج الصهيوني منذ عـام ١٨٩٧ هو تنمية الوعي القومي اليهودي بين يهود « المنفى » توطئـة لانشاء « الـوطن القـومي اليهودي » . والمنطق يقضي ، بعـد نشوء هذا « الوطن القومي اليهودي » في صورة «اسرائيل»، بأن يرحل من تكون لديه هذا « الوعي القومي » الى اسرائيل ، وان يترك يهود « المنفى » وولاؤهم القومي للبـلاد التي يعيشون فيهـا . ولكـن الصهيونية، كدأبها دائما ، تريد أن تمسك بالعصا من طرفيها . فهي تعـرف جيدا أنه لولا يهـود « المنفى » ، ولا سيما في الولايات المتحدة ، لمـا امكن لاسرائيل البقاء طويلا ، وهي تحرص لذلك على ابقاء جذوة « الشخصية القومية اليهودية » متقدة في صدور كل اليهود . بيد انها تعلم أن في السبيل الذي تسلكه لبلوغ هذا الهدف شيئا من الوعورة ، لاصطدامه في كل بلد بالولاء القومي له، وهي لذلك تؤثر أن تطلق عليه تسمية مأمونة هي « الذاتية اليهودية » ، وهي تعني بها أية رابطة، مهما بلغ من ضعفها ، تربط صاحبها باليهود . واسلوب الصهيونية هو الضغط على كل من لـه رابطة باليهود — حتى لو كان ملحدا لا يعرف شيئا عن الديانة اليهودية او حضارة اليهود وتاريخهم— كي يعترف بهذه «الذاتية اليهودية» ، فيبدو المطلب هينا ، ولا يعترض عليه أحد . ولكن ما يخفى على الكثيرين هو أن هذه « الذاتية اليهودية » تعني في قاموس الصهيونية « اليهودية » الصرفة ، وان « اليهودية » تعني « الصهيونيـة » و « الولاء لاسرائيل » ، وللثقافة « العبرية » ولتاريخ اليهود

من أوله الى اخره ، وأن أساليب الصهيونية في التمويه والتعمية لا تترك مجالا للتمييز بين هذه الامور وفصلها بعضها عن بعض . وبذلك يختلط الامر عليهم جميعا ويفقدون قدرتهم على التفكير ويصبحون أدوات تسخرها الصهيونية لخدمة اغراضها كيفما تشاء .

ومما لا شك فيه ان يهود الولايات المتحدة ، بحكم وجودهم في بيئة أغلبيتها غير يهودية ، يتعرضون لضغط تغيرات الحياة والاراء والافكار والعقائد والمبادىء الجديدة التي تنشأ في كل مجتمع متطور نام ، كما أنهم يشاركون في صياغتها . كذلك مما لا شك فيه أن مثل تلك الاراء والمبادىء ، حتى التي يشارك اليهود في صياغتها ، قد تؤدي اذا دفعت الى نتيجتها المنطقية الى التشكيك في القيم التقليدية ، ومنها القيم التقليدية اليهودية ، ومن ثمة الى اضعاف « الذاتية اليهودية » . وهذا الامر ملحوظ بصفة خاصة بين الشباب ، ولا سيما بين شباب هذا الجيل في الولايات المتحدة الذي يتصف اكثر من أي جيل سابق بروح الثورة على كل ما هو تقليدي في الحياة الامريكية .

غير أن الصهاينة ، كما ذكرنا ، لا يتركون شيئا للظروف . ولذلك نجدهم قد تنبهوا لهذا الامر وحاولوا التغلب عليه بعدة وسائل : اما بالنقد والتجريح والتماس نقاط الضعف في المواقف الجديدة ، او محاولة اضفاء تفسير جديد على « الذاتية » و « القيم » اليهودية يكون اكثر ملاءمة لذوق شباب هذا الجيل ، أو بالتسلل الى جماعات الشباب ودفعهم بالتدريج الى تأييد والتزام المواقف التي تخدم اغراض الصهيونية . والمنهج الذي يتبعونه للوصول الى ذلك الهدف متعدد الجوانب أيضا : فمن جوانبه دراسة « ميدان المعركة » . مثال ذلك أن « مجلس الاتحادات وصناديق الرعاية اليهودية » انشأ في عام ١٩٧١ « هيئة عمل » خاصة مؤلفة من قادة المجتمع والباحثين والعاملين الاجتماعيين ورجال الدين ، كلفت بزيارة ٣٥ مدينة في الولايات المتحدة لالتماس آراء المجتمعات اليهودية في هذا الموضوع بغية ايجاد الطرق اللازمة لتنمية الشعور بالذاتية اليهودية و « الالتزام اليهودي » . ومن جوانبه القيام بتجارب متفرقة ، تشمل الشباب وطلبة المدارس بوجه خاص ، للاهتداء الى أحسن الطرق لزيادة الاحساس بالذاتية اليهودية ، وهي تجارب تبدأ على نطاق محدود في أول الامر ، ثم تعمم بالتدريج اذا ثبت نجاحها . من ذلك أن الاتحاد اليهودي في دي موان بولاية أيوا قام بتجربة تنطوي على تهيئة الفرصة لواحد وعشرين من طلبة المدارس الثانوية والكليات من أجل أن يعيشوا حياة يهودية مكثفة في أحسن معسكرات الطلبة الصيفية اليهودية في الولايات المتحدة ، كما أرسل بعضهم الى اسرائيل ، ثم أعلن في الشتاء الماضي « أن التجربة نجحت ، وان اولئك الطلاب عادوا منها » ، على حد قول أحد موظفي الاتحاد ، « بالتزام اكبر تجاه اسرائيل وتجاه اليهود ... وبشعور بالمسؤولية لاعلام أقرانهم بتجاربهم واحساساتهم ، وبرغبة في المزيد من الدراسة والعمل والتأكيد على ذاتيتهم » .

والمؤسسات الصهيونية تسارع الى استغلال اية خطوة او حركة يقوم بها افراد او جماعات يفهم منها تأكيد الذاتية اليهودية ، فتنشر اخبارها على أوسع نطاق مهما كانت الخطوة او الحركة محدودة او فاشلة . من ذلك الضجة التي اثارتها حول طالب عمره خمس عشرة سنة من كليفلند قام في الصيف الماضي بحركة لحمل زملائه على التغيب عن المدارس اثناء الاعياد الكبرى اليهودية والمشاركة في الطقوس الدينية بدلا من ذلك ، اذ بالرغم من ان حركته فشلت ولم يشارك فيها سوى ١٠ في المائة من ابناء اليهود في المنطقة التي يعيش فيها ، فقد نشرت اخبارها على نطاق واسع لغرضين : بالنسبة الى المجتمع اليهودي ، اظهار الطالب بمظهر البطل الصغير الذي يناضل وحيدا من اجل هدف يؤمن به (تأكيد الذاتية اليهودية) تشجيعا لغيره من الاحداث على الاقتداء به ، وبالنسبة الى المجتمع غير اليهودي في اظهار المجتمع اليهودي بمظهر غير المكترث للشعائر اليهودية ورفع صفة التعصب عنه (بالرغم من أن هذا المجتمع ان لم يستجب للطالب في هذه الحالة لسبب ما ، فان هناك عشرات من الحالات التي تعرف الصهيونية كيف تدفعه الى الاستجابة لها اذا شاءت) .

ومما يدل على أهمية موضوع الذاتية اليهودية بالنسبة الى الصهاينة ان اتحاد المؤسسات الخيرية اليهودية اجرى دراسة استغرقت ثلاث سنوات

لمشكلة « اليهودي اللامنتمي » ، أي اليهودي الذي لا يشارك في أغلبية النشاطات ومظاهر الحياة اليهودية فلا يكون يهوديا الا بالاسم في أغلب الاحوال . ولا شك أن لهذا اليهودي نظراء يعدون بالملايين بين ابناء الطوائف الدينية الاخرى، لا يفكر أحد في أن وضعهم مشكلة تحتاج الى دراسات وحلول . ولكن الصهاينة لا يرون في اليهودية ديانة (الا عندما يخدم ذلك أغراضهم لدى غير اليهود) بل قومية ، وهم على أرجح الظنون لا يبالون ان كان مثل هذا اليهودي مؤمنا باليهودية كدين أو غير مؤمن ، وكل ما يريدونه منه أن يشارك في الحياة اليهودية بالمقدار الكافي الذي يثبت **انتماءه القومي** لها ، والا عدته خائنا لقوميته . ونذكر اخيرا في هذا المجال ان تلك الدراسة اسفرت عن سلسلة من البرامج تتضمن طرقا جديدة مبتكرة لرد امثال هؤلاء اليهود الى حظيرة اليهودية ، من بينها الاعلانات في الصحف ، والضغط عليهم عن طريق الاصدقاء ، والحملات التي تستهدف اشراكهم بصورة ما في المؤسسات اليهودية وفي البرامج الثقافية التي تشرف عليها معابد اليهود ، واقامة الحفلات لهم لتشجيعهم على الانتماء واثارة شعور الكبرياء والفخر بتراثهم اليهودي ، الخ .

المدارس النهارية اليهودية

ان نظام التعليم العام المجاني الابتدائي والثانوي هو الذي اعتمدت الولايات المتحدة عليه تقليديا في صبغ ابناء المهاجرين الذين وفدوا على امريكا على مدى السنين بالصبغة الامريكية ومن ثم خلق المواطن الامريكي واشرابه بروح الولاء للقيم الامريكية ولطراز الحياة الامريكي . ولما كانت الولايات المتحدة دولة « علمانية » في اساسها ، بمعنى أن الدين فيها مفصول عن الدولة ، فان نظام التعليم العام فيها علماني في اساسه أيضا . اما التعليم الديني فهو في العادة متروك للاسرة ولما يسمى « مدارس الاحد » التي تصرف عليها اسر الطلاب التي تريد ذلك التعليم لابنائها فضلا عن المؤسسات الخاصة ولا دخل للحكومة فيها . وكانت هناك بعض الطوائف الدينية ، وأهمها الكاثوليكية ، التي ترفض التعليم العلماني جملة وتشجع ابناءها على دخول مدارسها الطائفية الخاصة حيث يتلقون ، الى جانب الدراسة الدينية ، دراسة علمية لا تتناقض مع مفاهيمها الدينية . ولكن امثال هذه المدارس أخذت تعاني في السنوات الاخيرة صعوبات مالية شديدة جعلتها تلتمس معونة الحكومة لبرامجها العلمية غير الدينية ، غير انها لقيت ولا تزال تلقى معارضة شديدة من الذين ينادون بالفصل التام بين الدين والدولة ، وعلى رأسهم المنظمات اليهودية ، ولا سيما تلك ذات الصبغة الصهيونية . والسبب في ذلك ان التعليم « العلماني » يخدم مصلحة اليهود والصهاينة عن طريق اضعاف الروابط الدينية لدى المسيحيين . اما فيما يتعلق باليهود أنفسهم ، فان المؤسسات الصهيونية كانت مطمئنة الى وقت قريب الى عدم وجود خطر عليهم نظرا الى الدور الذي تلعبه الاسرة اليهودية في تنمية « الذاتية اليهودية » لدى أبنائها ، والى وجود العديد من المؤسسات القوية المتنوعة التي تحتضنهم بعد ذلك ولا تترك لهم مجالا لقطع روابطهم باليهودية ، هذا بالاضافة الى وجود ما يسمى بمدارس بعد الظهر فضلا عن مدارس الاحد ، التي لم تعان صعوبات مالية لان اليهود كانوا دائما اكثر استعدادا للتبرع لمؤسساتهم واقدر على جمع التبرعات من غيرهم .

وكان اليهود الارثوذكس ، الذين يمثلون اقلية في المجتمع اليهودي الامريكي ، الوحيدين تقريبا الذين يريدون مدارس طائفية خاصة للتعليم الديني والمدني معا تسمى المدارس النهارية . بيد أن الزمن يتغير . اذ يظهر أن المدارس الحكومية « العلمانية » الطابع قد فعلت فعلها في اليهود أيضا فأضعفت روابطهم بطائفتهم ، كما أنه ثبت أن مدارس بعد الظهر قد فقدت صلتها بالجيل الجديد من اليهود ، فأخذوا يجدونها مملة وأخذوا ينصرفون عنها . ولما كان الشعور بالذاتية اليهودية شرطا لازما ينبغي توفره توطئة للالتزام بالصهيونية واسرائيل ، فقد شعرت المؤسسات الصهيونية بالخطر ، وأخذت تعد العدة لتلافيه . فنجد ، أولا ، انها لم تستطع التخلي عن تاريخها الطويل في محاربة المعونة الحكومية للمدارس الطائفية الخاصة ، فاستمرت في المجاهرة بمعارضتها لمثل تلك المعونة ، ولكنها أخذت تعمل على تشجيع المدارس النهارية اليهودية عن طريق غير مباشر ، وذلك بعدم الوقوف في طريق اليهود الارثوذكس في المطالبة بالمعونة الحكومية لها ، وتشجيعهم على

المضي في فتحها وزيادة عددها وتقويتها ، وتشجيع اليهود الاخرين على التبرع لها . كذلك نجد ان عدد المـدارس النهارية التي يديرهـا اليهود المحافظون قد ازداد ايضا . وقد ذكرت نشـرة « ج.ت.ا. كومينتي ريبورت » في عددها الصادر في ١٠ سبتمبر ١٩٧١ أن مجموع ما يديره اليهود الارثونكس من تلك المدارس في ٣٢ ولاية مـن الولايات المتحدة بلغ ٣٩٠ مدرسة يؤمها ٨٠،٠٠٠ طالب . أما اليهود المحافظون فانهم يديرون ٣٥ مدرسة ابتدائية واربع مدارس ثانوية بلغ عـدد طلابها حوالي ٦٠٠٠ طالـب . وأما اليهـود الاصلاحيون فهم في اخر الركب ، اذ لم تكن لديهم سوى مدرسة واحدة في العام الماضي ، وقـد أضافوا اليها مدرسة اخرى هذه السنة .

ومما يدل على أهمية هذه المدارس بالنسبة الى اغراض الصهيونية أن الدكتور واينبرجر ، أحد اساتذة كلية الولاية بسان دييجو ، كتب تحليلا عنها في الكتاب السنوي ليهود امريكا لعام ١٩٧١ قال فيه ان « نموها الدراماتيكي في السنـوات الاخيرة ... انما هو تعبير عن حركة اجتماعيـة جديدة في حياة يهود امريكا ، يتجسد فيها نضال جزء كبير منهم في سبيل تكوين « ذاتية » متميزة ذات معنى غير مبنية على محاكاة الاغلبية بـل تستمد وحيها من التراث الزاخر للتقاليد الدينية اليهودية » . وأضاف قائلا « انه أجرى دراسة لتلك المدارس خلص منها الى وجود اختلافـات هامة بين اليهود الذين درسوا فيها وبين الذين اقتصروا على الالتحاق بمـدارس بعد الظهـر وأمثالها ، من حيث أن خريجي المدارس النهارية يفوقون الاخرين كثـيرا بمعلوماتهم عن الثقافـة اليهودية ، وأن نسبة الذين يتزوجون من غـير اليهود قليلة جدا بينهم ، في حـين انهم يمثلون النسبة الكبرى من بين يهود امريكا الذين قـرروا الاستيطان في اسرائيل ، وانه لا « هوة تفصـل بينهم وبين جيل أبائهم من حيـث نسبة الذيـن يحضرون منهـم الصلوات والمناسبات الـدينية الاخرى » . ومن هذا التحليـل وامثاله يتضح الغرض الحقيقي من وراء تشجيع افتتاح المدارس النهارية اليهودية : وهو تقوية الذاتية اليهودية بشكل يمنع خريجيها من الاندماج اليسير بالمجتمع الامريكي الاكبر ، فلا تبقى سوى خطوة قصـيرة بينهم وبين اعتناق مبادىء الصهيونية السياسية واعتبار اسرائيل المكان الوحيد في العالم الـذي يستطيع اليهودي فيه أن يجـد راحته النفسية ويسلم من الشكوك في « ذاتيته » .

معسكرات الاحداث والشباب والبرامج الصيفية

المدارس النهارية اليهودية هي وسيلـة واحـدة فقط من وسائل تنمية الشخصية اليهودية وتهيئتها لتقبل الافكار الصهيونية . ومن الوسائل الاخرى ، الموجهـة للاحـداث والشباب خـاصة ، هـي « المعسكرات الصيفية » . وهنا ايضا نجد ان اليهود يأخذون وسيلـة ما من المجتمع الـذي يعيشون فيه ولكنهم يحيدون بها عن هدفها لخدمة أغراضهم الخاصة . ذلك أن المعسكرات الصيفية للشباب والاحداث شائعة في الولايات المتحـدة بوصفها وسيلة تشجعهم على صرف اوقات عطلهم الصيفية بصورة بناءة وعلى تعلم مختلف الالعـاب الرياضية فضلا عن الحرف والصناعات وغير ذلك من ضروب الفن والمعرفة . ويدير تلك المعسكرات جمعيات ومؤسسات خاصة . وبالرغم من أن الكثير من هذه الجمعيات والمؤسسات طائفية او دينية ، فان ذلك لا يعني أن ما يتعلمه الملتحق بهـا ذو طابع ديني أو أن الالتحاق بها يقتصر على ابنـاء الطائفة التي تنتمي اليها ادارة المعسكر . أمـا اليهود ، فان معسكراتهم تكاد تقتصر على اليهود وحدهم ، وقد وجهوا التعليم فيها الى تنميـة الاعتزاز بالذاتية اليهودية ، ثم مضوا به تحت تأثير المؤسسات الصهيونية شوطا أبعد ، فوجهوه نحو تنمية الولاء الى « القومية » اليهودية متمثلة في اسرائيل .

وقد انتشرت هذه المعسكرات في ارجاء الولايـات المتحدة ، بحيث اصبحت ، على حد قول أحـد القادة اليهود ، « صناعة » كبرى تنطوي علـى انفاق ملايين الدولارات . وفي أواخر يناير ١٩٧١، انعقد في مدينـة ليبرتي بنيوجرسي مؤتمر عـن المعسكرات الصيفية اليهودية ضم ٧٥ مدير معسكر من المعسكرات التابعة لمنظمات اليهود الدينيـة وهيئاتهم التعليمية والجماعات الصهيونية والمراكز والاتحادات اليهودية . وقد درس المؤتمر حـالة تلك المعسكرات ، واقترح ادخال تغييرات بعيـدة المدى في برامجها وخدماتها والتأكيد على اهميتها للتربية اليهودية . كذلك أنشأ مجلس الرعـاية

اليهودية القومي في اوائل شهر يونيو ١٩٧١ لجنة قومية مهمتها « ايجاد الطرق اللازمة لتعزيز قدرة المعسكرات اليهودية على تطبيق البرامج الرامية الى تحقيق أهداف الذاتية اليهودية للمجتمع اليهودي وعلى تلبية الحاجات اليهودية الصرفة ».

برامج الدراسات اليهودية في المدارس والجامعات

ومن اساليب الصهاينة المبتكرة التشجيع على ادخال ما يسمى برامج الدراسات اليهودية في جامعات الولايات المتحدة ، واستخدامها ستارا لبث مبادئهم . وعلينا ، قبل أن نمضي في بحث طبيعة هذه الدراسات، ان نميز بينها وبين الدراسات التقليدية المالوفة في جامعات اوروبا وامريكا والتي تسمى Judaica Studies او Judaica (ولنسمها نحن « البحوث اليهودية ») ، وذلك لان هذه الاخيرة تؤكد على دراسة اللغة العبرانية وتاريخ اليهود وتراثهم من وجهة نظر علمية نقدية بحتة لا علاقة لها بالسياسة ولا بأوضاع واحوال اليهود المعاصرين ولا اسرائيل . أما الاولى ، اي ما يسمى « الدراسات اليهودية » ، فهي مدفوعة بأغراض سياسية ولا تستهدف في الاغلب غير تنمية اعتزاز اليهود بالقومية اليهودية وفقا للمفهوم الصهيوني ، بما في ذلك الولاء لاسرائيل ، فضلا عن فرض احترام هذا النوع من « التزام » اليهودي على غير اليهود أو القضاء على اي اعتراض قد يكون لديهم على متطوياته او المقدمات أو الاسس التي يقوم عليها . ويمكن أخذ فكرة عن كيفية مزج الاغراض السياسية بالاغراض العلمية في هذه الدراسات اذا علمنا أن « البيت العبراني » في كلية اوبرلين بولاية اوهايو — وهو ناد للطلاب اليهود — قرر قبل ثلاث سنوات تنفيذ برنامج لحمل الكلية على ادخال الدراسات اليهودية والاعتراف بها . وقد نجح النادي في تحقيق الغاية فبدأت الكلية في سبتمبر ١٩٧٠ برنامجا دراسيا لتدريس اللغة العبرانية مدته سنتين . ولكن لم تمض مدة حتى تبرعت بعض الجهات اليهودية للبرنامج بمبالغ كبيرة لتنفق على ايفاد الطلاب للدراسة في اسرائيل . ولا ريب ان هذه البداية الصغيرة ستتوسع بالتدريج ، كما حدث في الجامعات الاخرى ، لتحول البرنامج من هدفه العلمي ، وهو دراسة اللغة العبرانية ، الى هدف سياسي صهيوني هو الدعاية لاسرائيل .

وهذا الهدف السياسي واضح في برنامج الدراسات الذي اعلنت جامعة واشنطن في سياتل افتتاحه ابتداء من دورة ربيع عام ١٩٧١ ، حيث نجد انه يتضمن ، تحت ستار بحث « القضايا اليهودية المعاصرة » ، دراسة مسائل اليهود السوفيات ، واندماج اليهود في الولايات المتحدة ، ودور المعابد اليهودية في حياة اليهود ، والتعليم اليهودي وما شابهها من مسائل لا يصعب تصور سهولة استغلالها للاغراض السياسية الصهيونية . وخلال العام الماضي ، انشئت او تقرر انشاء امثال هذه البرامج في جامعة لونج آيلند بولاية نيويورك ، وجامعة بتسبرج ، وفي جامعة لويز فيل ، وفي سان فرانسيسكو ستيت كوليج ، وفي جامعة كنساس ، وفي كلية دكنسن ، وفي جامعة ولاية نيويورك ، وفي سان خوسيه ستيت كوليج (حيث يؤلف نصف البرنامج دراسة « تطور اسرائيل الاقتصادي »!). وكذلك نجد أن عددا من المدارس الثانوية العامة في ١٤ مدينة تقع في ١٠ ولايات عمدت في السنة الدراسية ١٩٧٠ — ١٩٧١ الى ادخال تعليم اللغة العبرانية ضمن برامجها ، فاصبح مجموع المدارس الثانوية العامة التي تعلم هذه اللغة في الولايات المتحدة ٧٨ مدرسة في ٣٣ مدينة ، كما ازداد عدد طلاب المدارس الثانوية الذين يدرسونها من ٣٦٢٧ الى ٤٣٠٩ . وقد أعلن رئيس « جمعية الدراسات اليهودية » في اكتوبر الماضي وضع الخطط لانشاء هيئة استشارية للجامعات الامريكية والكندية التي تريد البدء في برامج الدراسات اليهودية ، وقال أن مشورة تلك الهيئة ستتاح للمدارس التي توجد فيها امثال هذه البرامج وتريد توسيعها .

المدارس والجامعات « الحرة »

انتشر في الولايات المتحدة ، في اعقاب ثورة الطلاب في السنوات الاخيرة ، مفهوم الدراسة او الجامعة «الحرة» التي هي على الاغلب جامعة مجانية لا مكان معين لها ولا مناهج مقررة ولا درجات ولا صنوف ولا امتحانات ، والتي يكون للطلاب الدور الاكبر في اختيار مدرسيها وتقرير ما يدرس فيها . وهي كثيرا ما تنعقد في جامعة مستقرة موجودة او تشكل جزءا منها فتكون بمثابة بديل لها يلجأ اليه الطلاب حين لا تكفيهم او ترضيهم المادة المقدمة في الجامعة المستقرة. وكان رواد افتتاح امثال هذه «الجامعات» دعاة اليسار الجديد والمتطرفون السود لاسباب

نابعة من طبيعة عقائدهم وأوضاعهم . وكعادة الصهاينة في استغلال أية وسيلة تتاح لهم من أجل خدمة أغراضهم ، نجد أنهم يسرعون الى الاستفادة من هذه الوسيلة الجديدة فيجعلون منها أداة لبث مبادئهم بين الشباب الجامعي اليهودي ، هادفين بذلك اساسا الى تحوير عقائد الثوريين منهم بمزجها باتجاهات صهيونية او صرفهم عنها تماما ان امكن وجعلهم صهاينة اقحاحا ، وكل ذلك تحت ستار « الدراسات اليهودية » الحرة .

ومن المؤسسات الصهيونية الكبرى التي أسهمت بنصيب وافر في العمل على تأسيس امثال هذه « الجامعات » هي مؤسسة هليل ، وقد اعلنت في اكتوبر الماضي انها كانت في نهاية السنة الدراسية ١٩٧٠ — ١٩٧١ ترعى امثال هذه « الجامعات » في اكثر من ٢٠ جامعة مستقرة ، وانها ستعمد في السنة الدراسية ١٩٧١ — ١٩٧٢ الى افتتاح اعداد جديدة منها في جامعات أخرى منها جامعة اوهايو ستيت ومعهد ماساتشوستس التكنولوجي (وهو من أكبر المعاهد التكنولوجية في الولايات المتحدة) وجامعات روتشستر واريزونا وكولورادو واشنطن واوكلاهوما وماريلاند .

ويتبين بعد دراسات هذه «الجامعات» عن المواضيع الثورية التي كانت تؤسس في الاصل من أجلها اذا القينا نظرة على البرنامج الذي يدرس في « الجامعة المفتوحة » المنظمة في اطار جامعة واشنطن ، فهو يشمل ما يلي : دراسات عن اسرائيل المعاصرة ، واسس الديانة اليهودية ، والذاتية اليهودية ، والهاسيدية (وهي حركة تصوفية يهودية تقليدية ينتعل اليهود اهتماما بها مقابل اهتمام بقية المجتمع الامريكي باليوجا والبوذية وغير ذلك من الديانات والمذاهب الشرقية) ، واللغة اليديشية واللغة العبرانية . كما أن « الجامعة الحرة » المقامة في اطار جامعة بوسطن تتيح دراسات عن مجزرة اليهود على يد النازية ، والصهيونية الراديكالية ، واليهود السوفيات و « الشعب المختار » ! هذا وقد قررت « الجامعة اليهودية الحرة » في فيلادلفيا في نوفمبر الماضي ان تفتتح « مدرسة ثانوية حرة » على سبيل تجربة ادخال مفاهيم تلك الجامعة اليهودية الحرة على صعيد الدراسة الثانوية .

اعداد القادة

لا شك ان البرامج التي ذكرناها وامثالها معتمدة في نجاحها على مجموعة من المنظمين والقادة المتحمسين الاكفاء الذين يعرفون كيف ينشئونها ويثيرون الاهتمام بها ويتحكمون فيها لكي تحقق الاغراض التي وجدت من أجلها . كما أن المؤسسات الصهيونية المستقرة نفسها تحتاج الى كوادر جديدة للحلول محل الكوادر القديمة وللسهر على بقاء المؤسسة وتنميتها واداء مهامها على الوجه الاكمل . ولذلك فان هناك دائما برامج لتدريب هؤلاء القادة ، ويمكن فهم طبيعتها العامة من برنامج افتتح في لوس انجيلوس في سبتمبر الماضي ، اذ سيدرب في اطار هذا البرنامج ٣٠٠ شاب يهودي لا خبرة سابقة لهم بأي برنامج يهودي ، ولا شك أن المقصود بذلك أن يكونوا مادة خاما يمكن تطويعهم على حسب رغبات المؤسسات الصهيونية . وقد اختير هؤلاء بناء على ترشيح أعضاء مجالس المؤسسات اليهودية القائمة ومديريها وموظفيها. أما برنامج التدريب فقد أعد بعناية ليوفق بين المتدرب ومجالات اهتمامه وبين حاجات المجتمع اليهودي الذي يخدمه ، وتتاح للمتدرب في النهاية فرصة الانضمام الى عضوية مجلس ادارة الهيئة التي يختار العمل لها . ويتألف برنامج التدريب من التعرف على المجتمع اليهودي في الولايات المتحدة ، ثم المشاركة في النشاطات على المستويات المحلية والقومية والدولية . ويقوم احد القادة المحليين البارزين باعطاء فكرة عامة عن اعمال مجلس الاتحاد اليهودي ، الذي يرعى البرنامج ، للمتدربين الذين يحضرون بعد ذلك اجتماعات مجلس الادارة ، ويقومون بجولات للوكالات المنتسبة ، الى تلك الهيئة حيث يتاح لهم « ان يعرفوا وظائفها وكيفية خدمتها للمجتمع اليهودي » من الداخل .

وعلى مستوى آخر ، نجد ان « المؤسسة القومية للثقافة اليهودية » تشرف على برنامج للمساعدة على تدريب الباحثين اليهود من بين الطلاب الذين يعدون أنفسهم لشهادة الدكتوراه لكي يتولوا بعد ذلك مناصب تعليمية في الكليات في مجال الدراسات اليهودية .

سد الثغرة بين الاجيال

انتشر في الولايات المتحدة في السنوات الاخيرة تعبير « الثغرة بين الاجيال » للدلالة على ثورة الشباب على مفاهيم الكبار وقيمهم وطراز معيشتهم البورجوازي . ولم يسلم شباب اليهود ، بوصفهم جزءا من المجتمع الامريكي العام ، من أعراض هذه

الظاهرة ، ولكن بينما نجد أن « الثغرة » في الشباب الامريكي من غير اليهود قد تركت على الاغلب لتسد نفسها بنفسها ، نرى أن المؤسسات الصهيونية لم تقف ساكنة امام هذه الظاهرة بل تصدت لها وحاولت مقاومتها أو مسايرتها مع تحين الفرصة لكي تسدها بحسب ما يتفق مع اغراضها. ويمكن تبين أساليب الصهيونية في معالجة هذه الظاهرة من الامثلة التالية : ففي يناير الماضي القى بيرس أبرامز ، أحد خبراء شئون المجتمع اليهودي ، محاضرة امام مؤتمر عقد برعاية احدى اللجان التابعة لاتحاد الجمعيات الخيرية اليهودية في نيويورك دعا فيها الى رفض « اسطورة » ابتعاد الشباب اليهودي عن مجتمع الكبار قائلا أن كل ما في الامر أن شباب اليهود يريدون التعاون مع الكبار حسب شروطهم هم لا وفقا لما يمليه عليهم الكبار . وأضاف ان اليهودية أيدت تاريخيا معظم ما يؤمن به شباب العصر من حق مخالفة الاغلبية والتاكيد على أهمية الفرد وقيمته والايمان بامكانية تحسين المجتمع ، ولذلك فان الامر لا يحتاج الى اكثر من تفهم الكبار لاساليب الشباب ومساعدتهم على تكوين القيادات اللازمة لتيسير التعاون بين الفئتين .

وكتب ليستر سبايرز، محرر احدى النشرات المحلية اليهودية ، قائلا ان على مجتمع الكبار أن يدرك أن الطلبة اليهود الثائرين او الحركيين ليسوا اعداء لهم . واضاف ان هؤلاء الطلبة الشباب يمثلون مستقبل اليهود ، فاذا فقدناهم فقدنا مستقبلنا . وأشار الى محتويات الصحف الراديكالية التي يحررها الطلبة اليهود ، فقال انها تناصر اسرائيل وتقاوم اللاسامية ، مما يدل على أن هؤلاء الطلبة لم يفقدوا صلتهم باليهود . ولكنهم يرفضون شوفينية الكبار التي تجعلهم لا يصرحون علنا بأن اسرائيل يمكن ان ترتكب خطأ أو أن المجتمع اليهودي المستقر يمكن أن يقصر عن التزام المثل العليا اليهودية .

واخيرا ، كتب جوداه جراوبارت أحد موظفي اللجنة اليهودية الامريكية (وهي من كبريات المؤسسات الصهيونية) ، مقالا في مجلة الجويش فرونتير الناطقة بلسان حركة العمل الصهيوني ، بدأه بعقد مقارنة بين الراديكاليين « العلمانيين » (ويعني بهم غير اليهود) وبين الراديكاليين اليهود ، فقال ان هناك فرقا اساسيا بين الفئتين ، هو أن الراديكاليين اليهود لا يجدون ضرورة تقتضي هدم المؤسسات القائمة (اليهودية) لانهم يرون ان انقاذها لا يزال ممكنا . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان قيادة المجتمع اليهودي المستقر لم تفقد الامل في الشباب بل هي على العكس من ذلك تشعر بفخر (أبوي) تجاه الشباب ، وذلك لانها اكتشفت ان الشباب لا ينتقدونها لالتزامها اليهودي بل لانهم يرون انها لا تفعل ما فيه الكفاية للوفاء بذلك الالتزام . وقال ان من أهم عوامل هذا التقارب بين الجيلين هو نمو الدعاية المضادة لاسرائيل من قبل العرب واليسار الجديد في الجامعات ، ووجود اسرائيل نفسه الذي خلق رابطة وثيقة بين صغار اليهود وكبارهم وفقرائهم واغنيائهم وبين الداخلين في حظيرة اليهودية والخارجين عنها .

الصحافة الطلابية اليهودية

ان أهم اداة استخدمتها الصهيونية للتسلل الى اوساط الطلاب الجامعيين وغير الجامعيين اليهود والسير بهم في الخط الصهيوني بالرغم مما قد يدعون خدمته من مبادىء أخرى هي الصحف والنشرات الطلابية . وفي ابريل الماضي كتب محررا نشرتين في هذا الموضوع ، هما بل نوناك محرر « رسبونس » و روبرت جولدمان محرر « جويش بوسطن » في مجلة « اليهودية المحافظة » التي يصدرها معهد اللاهوت اليهودي ومجمع الحاخامين ، مقالا عن الصحافة الطلابية تتبعا فيه نشوءها من عام ١٩٦٧ الى الوقت الحاضر الذي يزيد ما تصدره فيه من النشرات والصحف والمجلات عن الاربعين . ويلاحظ أن سنة ١٩٦٧ هي سنة حرب الايام الستة التي اتخذ اليسار الجديد في اعقابها موقفا مناهضا لاسرائيل، مما أدى بأتباع اليسار الجديد من اليهود الى الاصابة بخيبة أمل عادت بالكثير منهم الى حظيرة اليهودية والصهيونية تماما وجعل بعضهم يعيدون النظر في يساريتهم الجديدة فيقبلون منها اشياء ويرفضون اشياء اهمها موقفها من اسرائيل . واستغلت الصهيونية هذا الوضع فشجعت اصدار الصحف والمجلات الطلابية التي تتظاهر بالمبادىء الثورية اليسارية وانتقاد القيادات اليهودية المستقرة ، ولكنها تتخذ في الوقت نفسه موقفا مواليا لاسرائيل والمفاهيم الصهيونية واليهودية . وقد اعترف المحرران المذكوران بأن الصحافة الطلابية اليهودية تتلقى المعونة المالية من المؤسسات الصهيونية ، بالرغم من الانتقادات اللاذعة التي

توجهها تلك الصحافة الى تلك المؤسسات ومـا تمثله ، قائلين انه « يبدو انه لا شيء يفعله الطلاب يمكن أن يكدر صفو المؤسسات اليهودية المستقـرة طالما كان اولئك الطلاب يتصرفون بأية طريقة يمكن أن تسمى يهودية » !

ومن السهل أن ندرك لماذا لا يمكن تكدير صفو تلك المؤسسات اذا علمنا ضعف الصلة التي تربط تلـك الصحافة بالحركات الثورية من اي نوع ، وان كل همها ، فيما يبدو ، هو الانتصـار لاسرائيـل والصهيونية والدفاع عنها دفاع المستميت فضلا عن التشهير بالعرب والاساءة الى سمعتهم . وهـذه الصحف والمجلات قد انتشرت في عشرات الجامعات الامريكية ما بين كبيرة وصغيرة ، وقد بلغ عدد قرائها حوالي ١٠٠،٠٠٠ في يناير الماضي ، ولا ريب ان الكثير منهم غير اليهود . وفيما يلي قائمة بأهمها : « رسبونس » وتصدر في جامعة كولومبيا بنيويورك، « جويش بوسطن » وتصدر في بوسطن ، « جويش لبراشن جورنال » وتصدرهـا في نيويورك جماعـة « مشروع التحـرر اليهـودي » ، « جنسس ٢ » وتصدر في بوسطن ، « جويش رادكال » وتصـدر في سان فرانسيسكو ، « ها اوراه » وتصدر في لوس انجيلوس ، « فلايم » وتصدر في كلية مدينة نيويورك ، « داون » وتصدر في نيويورك ايضـا ، « جويش فري برس » وتصدر في جـامعة كولمبيـا بنيويورك ، « يونفرستي جويش نويس » وتصدر في أوستن بولاية تكساس ، « اكسودس » وتصـدر في سان فرانسيسكو ، « جويش اوربان غوريـلا » وتصدر في واشنطن ، « ذي سورس » وتصـدر في جامعة هارتفورد ، « اسيد » ويمثل اسمها الاحرف الاولى من عنوانها الطويل « تحليـل نقدي لمازق اسرائيل » وكانت تصدر في الاساس كملحق لجريدة جامعة واشنطن ثم استقلت عنها ، « اليانس » وهي اهـم نشرة موجهة للمـدارس الثانويـة ، وتصدرها في نيويورك هيئة اتحاد المدارس اليهودية العليا . هذا وقد أصدر فرع بوسطن للجنة اليهود الامريكية في نوفمبر الماضي العدد الاول من نشـرة اسمها « خلاصة الصحافة الطلابية اليهوديـة » ، المقصود بها أن تتضمن استعراضا عاما لاخبـار وآراء واهتمامات الطلاب اليهود كما يعبرون عنهـا في ٢٤ نشرة من نشراتهـم الطلابيـة والثورية في الولايات المتحدة وكندا . ويتألف العدد الاول من ٣٢ صفحة ، وهو يتناول آراء الطلبة اليهود في مسائل الشرق الاوسط ، واليهود السوفيات ، وفيتنام ، والحركات الطلابية ، ورابطة الدفاع اليهـودي ، والصهيونية ، واخبارهم العامة الاخرى . ويتضمن العدد وصفا لكل نشرة تلخص او تقتطف شيئا منها.

خاتمـة

هذا قليل من كثير من النشاطـات الصهيونيـة في الولايات المتحدة التي تستهـدف تسيير كـل يهود الولايات المتحدة ، صغارهم وكبارهم ، اغنياءهـم وفقراءهم ، رجال الاعمال منهم ومفكريهم وعلماءهم وفنانيهم ، في الخط الصهيوني . وهناك عشـرات الوسائل الاخرى التي تستخدمها الصهيونية في خدمة أغراضها والتي لم نشر اليها لضيق المجال والتي ولا شك ان القارىء قد قرأ او سمع عنها الشـيء الكثير . ومنها ما يربط اليهودي بالحركة الصهيونية واسرائيل رباطا وثيقا يصعب الانفصال عنه ، مثـل حملات جمع التبرعات ، ومنها ما يقصد به تذكيره على الدوام بيهوديته وباسرائيل مثل الاحتفـالات والمهرجانات ، ولا سيما بمناسبة عيد « استقلال » اسرائيل او الصلوات وحفلات التأبين التي تقام على ارواح ضحايا « الاضطهادات » التاريخية لليهود . وهناك عشرات المشاريع للتبادل الثقافي بين الولايات المتحدة واسرائيل، وهي تشمل اليهود وغير اليهود، من ذلـك ايفـاد الاساتذة او الطلبة الامريكيـين للتدريس والدراسة في معاهد اسرائيل نظير ايفـاد الاسـاتذة او الطلبة الاسرائيليين للتدريس والدراسة في الولايات المتحدة ، وتبـادل الفرق المسرحيـة والموسيقية وغـيرها ، وتبـادل التحـف الفنية ، والزيارات والجولات الدراسية والفنية الخ. ولذلك فليس من العجيب ان نجد يهود الولايات المتحـدة، مهما بلغ من اختلاف اذواقهم ومشاربهم ومؤهلاتهم العلمية ومبادئهم السياسية واحوالهم الاقتصاديـة والاجتماعية ، يهبون يدا واحدة للانتصار لاسرائيل والدفاع عنها كلما رأت الصهيونية ضرورة لذلـك ، ولا يستطيع التخلص من سيطرتها غير قلة من الذين يتمتعون بدرجة عاليـة من الاستقـلال الفكـري والاستقامة الاخلاقية . ثم ليس من العجيب أيضـا أن نجد أن أغلبية الامريكيين من غير اليهود تقـف اما حائرة او مسلوبة الارادة أمام هذه الظاهرة ، (هذا اذا كانت واعية بها على الاطلاق) ، فيكون ردة الفعل الوحيدة لدى الكثيرين منها هي اللامبالاة وعدم الاكتراث .

الرسالة السادسة : من ماجد نعمة

منظمة « ميثاق ابراهام » ظاهرة اليهودية المعادية للصهيونية

تعتبر منظمة « ميثاق ابراهام » التي أسسها في باريس سنة ١٩٥٨ امانويل ليفين ، أحد المتدينين اليهود الفرنسيين ، من أشهر وأهم المنظمات اليهودية المعادية للصهيونية ولدولة اسرائيل في اوروبا . ولقد تميزت هذه المنظمة الصغيرة (والتي انضمت اليها فيما بعد عدة منظمات صغيرة مشابهة نكتفي بذكر أهمها وهي « الحركة البلجيكية من اجل اللاعنف » التي أسسها ارنو هابرز المعروف بميوله واتجاهاته الصوفية) بعدائها الشديد للصهيونية وبتفنيدها المنتظم والمتواصل للدعاية الصهيونية التي تحاول ان تعطي غطاء دينيا لمسألة انشاء دولة اسرائيل وبمهاجمتها العنيفة لكل من يحاول استغلال الدين اليهودي لغايات سياسية أيا كان نوعها كما هي الحال مع دعاة الصهيونية الذين يسخرون الدين اليهودي والشعب اليهودي من اجل خدمة مصالح استعمارية واضحة في نهب الشعوب العربية وشعوب العالم الثالث المتخلفة . كما انها بالمقابل تنادي « بالعودة الى الينابيع » في محاولة جديدة لفهم الدين اليهودي على حقيقته التي يتعارض لا بل يتناقض ويتنافى تماما مع دولة اسرائيل التي « لم تتعلم شيئا من التاريخ ولم تستفد من دروسه الثمينة » . وعندما نعلم ان هذه الحركة تنادي ، متأثرة في ذلك بمعلم الهند الاكبر المهاتما غاندي ، باللاعنف على جميع المستويات ، فاننا ندرك بوضوح سبب عدائها ومحاربتها للصهيونية وصنيعتها اسرائيل اللتين تجسدان أفضل تجسيد النقيض الكامل لكل ما تحمله اليهودية من قيم ولكل ما ترنو اليه البشرية من « حقيقة وعدالة وسلام » . بالاضافة الى هذا ، وكنتيجة حتمية لنظرتها المثالية الغيبية الصوفية لواقع العلاقات السياسية في العالم ، فان هذه المنظمة تتخبط في متاهات روحانية قاتلة وفي فوضى فكرية رهيبة وفي غموض عقائدي مثير . وسنرى كيف أن هذه الامور مجتمعة ستنعكس نتائجها ومضاعفاتها على مجمل الخط السياسي غير المقصود لهذه المنظمة بمختلف فروعها فتعقده وتجعله يغرق في الغموض وعدم التماسك رغم جذريته وتطرفه الظاهرين . الا ان هذا لن يمنعنا من اعتبار هذه المنظمة كحليف أكيد للقضية العربية ، على الاقل في مجال العداء للصهيونية وتعريتها وفضحها واظهار تناقضاتها ومغالطاتها حتى ولو كان هذا من وجهة دينية بحت . ماذا كان حتى الان مجمل نشاط هذه المنظمة ؟ على ماذا تركزت ابحاثها واهتماماتها ؟ ما هو خطها العام وفكرها الديني والسياسي ؟ وما هو موقفها من قضية اغتصاب فلسطين ؟ سنحاول الاجابة على كل هذه التساؤلات وذلك بالرجوع الى عدة كتب ومنشورات اصدرتها هذه المنظمة (وهي كتاب « اليهودية ضد الصهيونية » لامانويل ليفين ، ونشرة « تصدق » Tsodek لسان حال « ميثاق ابراهام » في باريس . ونشرة : « فلننسحب من الحلف الاطلسي » في بلجيكا ، ونشرة : « اسرائيل الملكوتية ستنتصر » في بلجيكا ، ونشرة « فلنهدم بابل » في بلجيكا ، و« فتح ستنتصر » في بلجيكا ، وبعض الرسائل المرسلة الى مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت والمحفوظة في ملف خاص) . وسنركز في جوابنا على القضايا الاساسية التالية : ١ — بعض الاضواء التاريخية حول اليهودية والصهيونية والعلاقات بينهما . ٢ — المسيح هو لاجىء فلسطيني . ٣ — اسرائيل هي النقيض الكامل للدين اليهودي : انها الغاء له . ٤ — اسرائيل والقومية . ٥ — اراء حول بعض القضايا السياسية الراهنة .

اليهود والتاريخ : « لم تكن لليهود دولة حقيقية الا خلال فترة زمنية قصيرة نسبيا ... عندما لم يكن للشعب لا دولة ولا ارض ، في عهد موسى ، كان اسعد حالا بكثير » . (س. و. بارون ، تاريخ اسرائيل) . ان هذه الفكرة التي يحب امانويل ليفين ، المحرك الفكري « لميثاق ابراهام » ، ان يستشهد بها في كل مناسبة تكاد تشكل حجر الزاوية في رده على الصهيونية ودعاتها . « هل حاول اليهود أن يفهموا ؟ طبعا لا . انهم الشعب الذي لا يتعلم شيئا من التاريخ » . ولكي يدعم ليفين فكرته يلجأ الى عدة شواهد تاريخية يستنطقها محاولا التأكيد على أن السيف لا يخدم اسرائيل ابدا . ان سياسة القوة ستؤدي باسرائيل حتما الى نهاية أليمة . ثم يتساءل : « من سيلجأ الى السيف ؟ اذا نشأت بين اليهود صراعات داخلية فقد يكون لهم

بعض الامل في الخلاص . ولكن اذا ضربهم السيف من الخارج ، سيكون هذا نهاية اليهودية » ص ١٣ — اليهودية ضد الصهيونية) .

بعد هذه الادانة الصريحة لسياسة العنف التي اثبت التاريخ عقمها لا بل ضررها ، ينتقل ليفين الى الحقبة المعاصرة مسلطا الاضواء على حقيقة الصهيونية فيكتشف انها «قد ولدت في المانيا» وانها « انتاج » الماني . ولتوضيح هذه الحقيقة ، يلجأ الى منشور صدر سنة ١٩١١ بعنوان «الصهيونية» بقلم انجل مارغو كتب فيه ما يلي : « ان الصهيونية ، التي اسسها رجل نمساوي ويسيطر عليها حتى اليوم (١٩١١) الماني متأثر بوضوح بالفكرة العنصرية التي تحظى باحترام كبير في البلاد الالمانية » . ان هذه الحركة تخدم مصالح المانيا في الشرق عن طريق استعمال اليهود لمحاربة العرب الساميين لاضعاف شعوب المنطقة وجعلها غير قادرة على الصمود في وجه مصالحها الامبريالية .

بعد هذه الوقائع يصل امانويل ليفين الى الاستنتاج التالي : اننا بدعمنا اسرائيل نكون قد دعمنا عملا المانيا . ان هذا لا يعني اننا موالون لاسرائيل ولكن لالمانيا العنصرية النازية . ان الدفاع عن دولة اسرائيل هو في الواقع عمل معاد للسامية . هذا يعني تقوية الامبريالية الالمانية والجنس الاري في حقدها الغريزي ضد الجنس السامي . « ان المانيا اليوم تتابع عمل هتلر ولكن بفعالية اقوى لانها تقوم بذلك بصورة خبيثة واكثر ذكاء وباطنية » . « فلنقل لا لدولة اسرائيل ! لا لالمانيا ! لان دولة اسرائيل هي المانيا . ولا نستطيع ان نقول لا لالمانيا المدججة بالسلاح والمجرمة دون أن نقول لا لدولة اسرائيل ! » .

اسرائيل في الكتب المقدسة وفي الواقع: ان فلسطين « أرض اسرائيل » كانت تمثل ، حسب النصوص الدينية اليهودية التي يوردها بغزارة امانويل ليفين ، وطنا ممكنا ورمزيا . ان فكرة صهيون كانت ضرورية لمنع اندماج اليهود في الامم التي كانوا يعيشون في ظهرانيها . « ولكن بما ان تحقيق الصهيونية كان سيتم في نهاية الزمان ، عند مجيء المسيح ، وبما انه كان محرما الرجوع الى فلسطين باعداد وفيرة لاعادة غزوها بوسائل بشرية — اي بالمال والسلاح — فلم يكن يترتب على هذا أن يؤدي الى القومية والى انشاء دولة اسرائيل وبالتالي الى التسبب بحروب وصراعات لا حل ولا نهاية لها » .

وهنا لا بد من التساؤل : اذا كان تحقيق هذا مرهون بنهاية الزمان ، بمجيء المسيح المنتظر فكيف يمكن والحالة هذه للدولة اليهودية ان تولد في الوقت ذاته الذي ينتهي فيه التاريخ ؟ الحقيقة ، يقول ليفين ، هي أن الخلاص من الدولة والارض ، عجلة لا ترتد . وأن ارادة انشاء دولة بشرية في فلسطين تشكل تراجعا رهيبا الى الوراء ، او عقدة نفسية جماعية . أن تكون الصهيونية ظاهرة مرضية ، أو أن تكون جنونا فهذا ما بدأ يظهر لنا ويكشف عن قلة ذكاء كبيرة . انهم (الصهاينة) اكثر جنونا من النازيين ... « ان الشعب الذي ينتظم في دولة ذات سيادة يرتكب خطأ وكان صموئيل قد حذر الشعب اليهودي في ارتكابه هذا الخطأ اللاهوتي الذي سيجر عليه العبودية والحرب » .

ان الصهاينة لم يكتفوا فقط بالوقوع في مثل هذا الخطأ الفادح (انشاء دولة اسرائيل) بل فرضوا سيادتهم وحكمهم على شعب يرفضهم . ان هذا الظلم رهيب . انهم يطالبون الفلسطينيين بالقبول بدولة يهودية على ارضهم ذاتها . « ماذا كان سيقول الفرنسيون لو اراد اليهود اقامة دولة يهودية في احدى المقاطعات الفرنسية ؟ ومع ذلك فان عدد اليهود الذين تواجدوا في فرنسا كان دائما اكبر من عدد اليهود الذين تواجدوا في فلسطين نفسها . وحتى ابراهيم نفسه فانه كان غريبا عن أرض كنعان ، وهذا حسب ما جاء في التوراة نفسها ، هذه الارض التي غزاها يشوع بواسطة ما نسميه اليوم — ويجب الاعتراف بهذا — « عمليات ابادة جماعية » .

ان التاريخ يظهر لنا ان اصحاب فلسطين الاوائل كانوا من الشعوب الكنعانية التي ابيدت . وبالتالي فان اليهود لا يستطيعون ان يطالبوا بفلسطين الا بصفتهم غزاة ومستعمرين . على كل حال ، الم يفهم الصهاينة أن عهد يشوع قد ولى وان القرن التاسع عشر ، هو الاخر ، قد ولى الى غيرما رجعة ؟

بعد هذه الاشارات التاريخية يعود امانويل ليفين الى الصراع الحالي فلا يرى فيه صراعا بين اجناس وشعوب وأمم بل صراعا بين عالمين : عالم الفقراء المعدمين وعالم الاغنياء المترفين . وهو بالطبع يلتحق بصفوف الفقراء الذين سيأتي الخلاص على

يدهم . ومن هم ، في المرحلة الحالية الفقراء ؟ انهم اللاجئون الفلسطينيون . والمسيح المنتظر هو اليوم قد تجسد واصبح لاجئا فلسطينيا . وعلى المسيحيين واليهود ان يفهموا هذا « وان يتصالحوا ويتحدوا ويعيدوا تكوين شعب الله ، اسرائيل الروحية ، قلبا وروح الانسانية التي تسير في طريق الهلاك » . ان طريق الخلاص بالنسبة للانسانية جمعاء يمر عبر تبني قضية المغلوبين ، المقهورين ، الفقراء الذين هم اللاجئون الفلسطينيون .

وفي رأي منظمة « ميثاق ابراهام » أن العرب يرفضون الحوار مع الاسرائيليين كما يرفضون اقامة اية علاقات مع دولتهم ولكن هذا لا يمنعهم من اقامة أطيب العلاقات مع الشعب اليهودي كما كانت الحال في الماضي . اذ بأي حق يراد للشعب اليهودي ألا يمثل الا عبر دولة اسرائيل والمنظمات الرسمية التابعة لها، تلك المنظمات التي يحولها الرأسماليون اليهود ، الذين هم في معظمهم اميركيون ويقبضون على اقدارها ومصائرها . ثم لماذا لا يسمع لليهود الفقراء ، اولئك الذين لا مال ولا سلاح عندهم ولا يستغلون او يظلمون او يقتلون، بالكلام وبالتعبير عن آرائهم ؟ ان دولة اسرائيل قد حرمت هؤلاء من أدنى حقوقهم وتكاد تتجاهل حتى وجودهم تجاهلا مقصودا وتعمدا . اذن فمن ناحية اولى كان انشاء دولة اسرائيل وبالا وكارثة على قسم لا بأس به من اليهود الفقراء ومن ناحية اخرى ادى هذا الامر الى « خلع الله الازلي ، كما حدث في عهد صموئيل ، والى طرد وحرمان ملك الملوك من عرشه تماما كما طرد وحرم العرب من بيوتهم وأراضيهم . وانطلاقا من هذا الواقع فان الظلم اللاحق بالعرب يتطابق مع الظلم اللاحق بالله مما يضفي على هذا الظلم طابعا مطلقا وغير عادي » . وهكذا ، وانطلاقا من تحاليل وتعليلات محض دينية ، ترفض هذه المنظمة بلسان زعيمها الكيان الاسرائيلي بقوة وعنف . انها ترفض دولة اسرائيل — التي تعني سيادة البشر — لانها قد اختارت سيادة الله الازلي التي هي وحدها عادلة ويمكن ان تكون مصدر سعادة وسلام للانسانية « ان دولة اسرائيل ، **مثلها في هذا مثل كل دولة** ، تدعي السيادة لنفسها فتعارض سيادة الله وتنفيها ». ولذلك ، يقول امانويل ليفين ، « لا استطيع ان أؤكد ايماني بالله وباليهودية دون ان أقول لها : لا ! » .

وقد أدى هذا الموقف الجذري والمبداي من قضية انشاء دولة اسرائيل الى مواقف سياسية تلتقي مع بعض المواقف السياسية العربية من قضية وجود اسرائيل ذاتها . فردا على مقال نشر في مجلة « الشهادة المسيحية » كتبه جورج مونتارون المعروف بتأييده للقضية الفلسطينية وجاء فيه : « ان دولة اسرائيل معترف بها من قبل الدول الكبرى كما انها عضو في الامم المتحدة ، وهذا يعطيها الحق في الحياة ... ان لاسرائيل الحق في الاستقلال وفي السيادة الاقليمية » الا انها لا يجوز لها ضم الاراضي المحتلة حديثا ، يقول رئيس منظمة «ميثاق ابراهام» في رسالة جوابية طويلة ما مؤداه : انني لست من مؤيدي دولة اسرائيل . ولكنني لو كنت كذلك ، كالغالبية العظمى من الاسرائيليين ، لوافقت على ضم القدس والضفة الغربية وغزة الخ ... ذلك اننا اذا اعترفنا بحق اسرائيل في الوجود في القدس الجديدة فلماذا لا نعترف بوجودها ايضا في القدس العربية القديمة ؟... اننا اذا كنا من مؤيدي انشاء الدولة اليهودية ومن المعترفين بشرعيتها ، فعلينا والحالة هذه أن نعترف بكل حدودها « التوراتية ». ان حدود ١٩٤٨ قد مزقت وقطعت اوصال الدولة اليهودية « وكل صهيوني جدير بهذا الاسم ، لا يمكن ان يكتفي بها » . ان ما تسميه انت احتلالا وضما ، يسميه هو اعادة تأكيد سيادة الدولة اليهودية على اراضيها ، هذه السيادة التي اعترفت له بها في بعض الاراضي ورفضتها في البعض الاخر. واذا بقيت ، رغم كل هذا مصرا على تسمية العمليات العسكرية في سنة ١٩٦٧ غزوا واحتلالا، فعليك ايضا ان تسمي العمليات العسكرية التي جرت في ١٩٤٨ غزوا واحتلالا . اذا كنت ترفض سيطرة اسرائيل على اراضي ١٩٦٧ فليس هناك اي عذر في قبول سيطرتها على الاراضي التي احتلتها سنة ١٩٤٨ . ان اسرائيل لم تفعل في سنة ١٩٦٧ الا اعادة ما فعلته سنة ١٩٤٨ . واذا وافقنا على ١٩٤٨ فليس هناك اي سبب لعدم الموافقة على ١٩٦٧ . ان اولئك الذين مثلك ، يوافقون على عمليات ١٩٤٨ — او على الاقل يخضعون لامرها الواقع — لاننا الان في سنة ١٩٦٧ ، ثم يعارضون عمليات ١٩٦٧ ، ان هؤلاء سوف يوافقون — او على الاقل سيخضعون — في سنة ١٩٨٧ للامر الواقع الذي تم في سنة ١٩٦٧ . «كلا يا سيدي ان الاعتراف والتغاضي عن الظلم لانه اصبح امرا واقعا لا يتفق والعدالة التوراتية . على الظلم ان يعوض ويمحى.

ان دولة اسرائيل كانت تحمل في مبدأها كل المظالم وكل الجرائم التي نشهدها اليوم . لم يكن من الممكن ان تنشأ دون ان ترتكبها ولا ان تعيش دون ان تعيد ارتكابها ولا ان تنمو دون أن ترتكب جرائم جديدة غيرها . **يجب ادانة دولة اسرائيل في مبدأها وفي فكرتها ذاتها والا فسنكون شهودا ومتواطئين في عملية هدم وابادة العالم العربي — او الفلسطيني على الاقل »** .

ان كل تبرير لقيام دولة اسرائيل عن طريق اللجوء الى نصوص مستقاة من التوراة عملية يمكن أن تؤدي الى نتائج خطيرة وكوارث رهيبة تصيب الشعب اليهودي نفسه بالدرجة الاولى،والانسانية جمعاء بالدرجة الثانية . ان نفس النص التوراتي يسمح للصهيونية السياسية بامتلاك فلسطين من قبل اليهود وباغتصاب وابادة وذبح سكانها : (العدد : ٣٥ ، ٣٦) .

ان لينين يرى ان تفسيرات مثل كلام مونتارون ، وهي تفسيرات حرفية وتبسيطية، ومخالفة لكل التقاليد الدينية اليهودية ، تتيح للصهاينة كما للنازيين ارتكاب مجازرهم . ولماذا الصهاينة ايضا. أية علاقة لهم بمثل هذا التصرف ؟ وهنا يجيب ليفين : « ان التوراة تتحدث عن ابادة الشعب اليهودي في حالة العصيان والتمرد . والنازيون ، بلجوئهم الى تأويل التوراة تأويلا تبسيطيا وسطحيا، بامكانهم أن يبرروا كل فظائعهم في اشويتز وتربلينكا : انهم ينفذون ارادة الله الذي يعاقب شعبه على خيانته ، لقد قلت هذا وكتبته وسأظل أردده الى ما لا نهاية : ليست القنبلة الذرية هي التي ستودي بالانسانية الى حتفها وانما القراءة الخاطئة والتأويل التبسيطي السطحي لكلام الله.»

دولة اسرائيل ، ارادة الهية أم جهنمية ؟ بعد عملية التعرية الشاملة لحقيقة الدولة الاسرائيلية ولابعاد الفكر الصهيوني الذي يؤمن لها غطاء سياسيا ودينيا كثيفا ومموها ، يتابع زعيم هذه المنظمة حملته عليها فيركزها على ناحية معينة من الدعاية الصهيونية التي تحاول ان تدخل في روع اليهود ان « ولادة دولة يهودية هو علامة ذات أهمية غير عادية وهي تعطي لعصرنا بعدا توراتيا حقيقيا او انها علامة من الله . » ويتلخص رد امانويل ليفين على هذه الفكرة الخاطئة والمضللة كما يلي : ان علامة من الله تعني في التقليد التوراتي واليهودي معجزة ، عجيبة ، تدخلا خارقا للطبيعة كما حدث مثلا عند خروج الشعب اليهودي من مصر . وليست هذه هي الحال مع دولة اسرائيل ، التي انشئت بوسائل انسانية بحتة كغيرها من الدول : بالمال والديبلوماسية والعنف. والخلاص ، لا يمكن أن يأتي ، حسب ما جاء في التوراة ، « لا عن طريق القوس ولا السيف ولا المعارك ولا الاحصنة ولا الفرسان » . ان خلاص الشعب اليهودي الكامن في العودة الى صهيون هو حدث خارق العادة وملكوتي ولا يمكن ان يتحقق بوسائل دنيوية ولا يمكن أن يكون حدثا طبيعيا وتاريخيا : « العودة الى صهيون تتم في نهاية الزمان ، في نهاية التاريخ ، في نهاية هذا العالم » ولا يمكننا ان نكوّن فكرة عن هذه العودة الا اذا وضعنا انفسنا في « العالم الاخر ، العالم السماوي الروحي ، عالم ملكوت الله حيث لا يعود للقيم والتعابير التالية : مملكة قيصر — دولة — وطن — حدود — أرض — استقلال — سيادة وطنية الخ .. — أي معنى وأي قيمة وأي دلالة » . ولو طبقنا هذا التحديد على الواقع الاسرائيلي فماذا نرى ؟ . نرى أن دولة اسرائيل هي من « هذا العالم » وهذا كان ، على كل حال هدف مؤسسيها وبناتها : توطين الشعب اليهودي وجعله امة كسائر الامم . اما الصفة الدينية فلم تلصق بها ، عن خطأ ، الا لاحقا . ان الحركة الصهيونية هي ، كما يقول ليون تولستوي ، « أوروبية بعظمها وشحمها ولحمها » وقد ظنت هذه الحركة «ان قوة أوروبا تكمن في تكوينها ، أي في قوة مدافعها مع كل فظائع النزعة العسكرية التي ترافقها ، فقررت ان تلبس شيوخها ثيابا عسكرية وتضع في أيديهم البنادق . لقد أراد الصهاينة أن يخلقوا قوة عسكرية جديدة في الوقت الذي يثور فيه الناس المخلصون والصادقون والمفكرون في أوروبا واميركا على جنون وفظاعة هذه الهوة التي يسير نحوها الان (١٩٠٦) المجتمع المتوحش المسمى بالمتمدن ... ان كل الناس العاقلين يكافحون ويناضلون ضد الدولة المغلقة في الوقت الذي تريد فيه الصهيونية أن تحيي مثل هذه الدولة المغلقة البالية والمهترئة وتسمي هذا الطموح الى الوراء تقدما ! » .

وبعد هذا ، يأتي دعاة الصهيونية يتشدقون

ويتباهون « بأن دولة اسرائيل هي تحقيق لمعظم آمال الشعب اليهودي وتأكيد ساطع لمفاهيمه اللاهوتية » . لا ، ان الشعب اليهودي ، كما أوضح ايمانويل ليفين ، يرتكب خطأ مميتا اذا التزم بالفكر الصهيوني وأصبح خادما لمصلحة الدولة والحكم . ان الشعب اليهودي يمكن ان يربح الكثير من المال اذا ذاب في دولة اسرائيل التي تستمد قوتها من الرأسمال اليهودي الاميركي. الا أنه بذلك ينعزل داخل الحدود ويستتر ، ويبرر استعمال العنف والسلاح ويفقد بالتالي صفاته الشمولية الكلية والسلمية التي كانت سبب قوته الحقيقية ولا يعود له أي دور شريف يؤديه من أجل اسعاد البشرية : انه يفقد بذلك رسالته التاريخية.

القومية والصهيونية : ان نظرة هذه المنظمة اليهودية الى الحركة الصهيونية تتلخص في ان هذه الاخيرة تظهر كقومية عنصرية ذات اثر هدام على ثقافة الشعب الذي يتبناها . والصهيونية هي التي أدخلت القومية العنصرية الى اليهودية . أما بالنسبة لممثلي الدين اليهودي الحقيقيين ، فان اليهودية كانت قومية دينية وثقافية . اليهودي بالنسبة اليهم هو من يعيش حسب التوراة دون ان يرتبط بأرض معينة ولا بالشعب اليهودي بحد ذاته . لقد كانت التوراة هي العامل الموحد للشعب اليهودي لا الارض او الجنس ، كما يريد الصهاينة. على أن هذا لا يعني ان اليهودية تريد القضاء على الامم وانما على القوميات الشوفينية العدائية .

ان الانتماء الى الامة ، كما يقول بردياييف : يمثل درجة عالية ومتشعبة في حياة المجتمع . انه شكل تاريخي معقد . وهي ، ولا ريب تحدد بعلاقات الدم والسكن واللغة والارض وكذلك بالقدر التاريخي المشترك . ولكن لا شيء من هذا القبيل بالنسبة الى القومية التي هي مرض من أمراض الانتماء الى الامة . انها تتميز بالانكماش على الذات ونفي والغاء الاخرين ، والعداء للقوميات الاخرى والنظرة الاستعلائية اليها . انها رغبة شريرة في فرض الذات وأنانية ومحتقرة وحاقدة . انها احدى مصادر الحروب .

لهذه الاسباب كلها يرفض الدين اليهودي الحقيقي القبول بوجود القوميات والدول : لا بل انه يريد الغاءها . « لذلك فان منشئي الصهيونية ، أي منشئي قومية الدولة اليهودية قد أدوا خدمة شريرة للانسانية بخلقهم مصدرا جديدا للتوتر والتقاتل في الشرق الاوسط » . ولم يكن العالم بحاجة الى هذا ابدا . والصهاينة لم يكونوا غافلين عن مثل هذه الحقيقة بل كانوا يعلمون جيدا ما كانوا يفعلون فهذا نبيهم تيودور هرتزل يقول في كتابه « دولة اليهود » كلاما ذا دلالة عميقة : « يقولون لنا أن علينا أن نتجنب خلق اختلافات جديدة بين البشر وبأنه عوضا عن أن نخلق حدودا جديدة ، من الافضل الغاء القديمة . ان من تراودهم مثل هذه الاوهام هم ، كما يتراءى لي ، من الحالمين الجديرين بهذا الاسم اذ ان الاخوة الانسانية هي أقل من حلم جميل . ان وجود عدو ما هو وسيلة ثمينة بدونها لا يمكن ان تتكون الشخصيات الكبيرة . » ويعلق ليفين على هذه الكلمات التي لا لبس فيها ولا غموض فيقول : ان هذا من التفكير الالماني ولا يتصل البتة بالدين اليهودي المتطور . ان مشكلة السلام بالنسبة الى اسرائيل ليست في أن تنزع عنها صهيونتها وانما في أن تتخلى عن ألمانيتها .

النزعة الفوضوية ، والدين اليهودي ودولة اسرائيل : ان النزعة الفوضوية تدين كل أشكال الدولة ، في مبدئها وفي تطبيقها وقد برزت هذه النزعة وقويت في القرن التاسع عشر على يد مفكرين كبار مثل باكونين وغيرهم. وحتى ماركس نفسه فقد كان يتطلع في تصوره للمجتمع اللاطبقي الى زوال الدولة . وحتى الان رأينا ان امانويل ليفين قد ركز هجومه على « دولة » اسرائيل التي هي نموذج الدولة المستغلة ، القاهرة ، المستبدة ، الشريرة . وهنا يوسع هجومه ويعمقه بشكل مفصل ومبلور . أما مناسبة هذا الهجوم فكان مقالا لاحد الصهاينة اكتشف في الدولة انجازات انسانية . فالدولة في رأيه ليست ، بطبيعتها ، لا انسانية ، كما يقول الفوضويون . « ان كل الدول ليست بشريرة ودولة اسرائيل اكبر برهان على هذا . فلتتخذها كل الدول الاخرى كنموذج وسيسود السلام والاخوة في العالم ! » ثم يعطي هذا المثل كدليل على صحة ما يقول : « في احدى القرى الريفية في فلسطين ، التي تقطنها أغلبية عربية ، عين مختار مسلم . » وهذه الواقعة اثارت اعجاب هذا الصهيوني بانسانية وديمقراطية الدولة الاسرائيلية . وهنا تساءل ليفين قائلا : اذا

اخذنا بوجهة النظر هذه ، فان فرنسا تكون افضل بكثير اذ أن بامكان الاشخاص المتحدرين من اقليات دينية في هذا البلد الكاثوليكي ان يتولوا مناصب أهم بكثير من منصب المختار . فليس من النادر مثلا ان نرى يهودا يتولـــون منصب رئيس وزارة او وزير ويحكمون بذلك الاغلبية الكاثوليكية (ليون بلوم ، رينه ماير ، مندس فرانس الخ ...) ومع ذلك فاليهود في فرنسا يشكلون اقلية أقــل عددا من الاقلية التي يشكلها العرب في فلسطــين المحتلة . اننـا قد نستطيع ان نواجه امكانيـــة الاعجاب بدولة اسرائيل فقط عندما يترأسها او يحكمها عربي يوما ما . ان هذه القصة التــي اوردتها صحيفة اللوموند الفرنسية ليست سوى مجرد دعاية صهيونية تريد أن تقنعنا بفضائل دولة اسرائيل الانسانية .

يخطىء العرب ، كما تزعم الدعاية الصهيونية ، بعدم السعي الى التفاهم مع الاسرائيليين أي بعدم الاعتراف بشرعية اغتصاب اراضيهــم . فالاسرائيليون قد ارسلتهم العناية الالهية لتمديــن الشعوب العربية وتعليمها كيف تزرع اراضيها . باي طريقة ! على الطريقة الامريكية . وهنا يجيب رئيس منظمة « ميثاق ابراهام » بأن العرب هم الذين يستطيعون ان يعلموا الاسرائيليين : ان يعلموهم احترام الطبيعة وعدم انتهــاك الارض المقدسة بوسائل تقنية وعلمية حديثة جدا وعــدم تحويل الشرق الاوسط الى اميركا ثانية يكون فيها الربيع اخرس . « **فلندع العــرب يعيشون كما يطيب لهم** وعلى الاوروبيين الا يحاولـــوا فــرض اساطيرهم « التقدمية » على غيرهم » فلنــدع الانسان حرا في ان يعيش فقيرا اذا طاب له ذلك، اذ ان الغنى والحرية لا يتفقان دائما معا .

على اليهود الذين يدافعون عن دولة اسرائيــل وعما تمثله من « مثل وقيم » ان يذهبــوا الــى اسرائيل ويروا ويشاهدوا . فاذا ما اشتركوا في مظاهرة فوضوية ، أو اشتراكية فستنهال عليهم الضربات والقبضات والاقدام من كل جانب .«واذا رفضـــوا ان يقتلوا العرب عندما يؤمرون بذلــك فسيحاكمون ويدانون ويسجنون ويعدمون رميــا بالرصاص ... » عندما يسيء احــد المعاديــن للسامية الى أحد اليهود يعبأ الراي العــــام العالمي وتناشد اعلى الهيئات الدولية ويشرع في الزام العالم بأسره في حرب ضد البلــد الذي يتغاضى عن مثل هذا العمل . ولكن عندما يتعلق الامر بمقتل احد اليهود المعارضين لسياسة الدولة الاسرائيلية على يد البوليس الاسرائيلي نفسه فهذا ما يثير الاعجاب . ألا يعني هذا ان اسرائيل قد أصبحت دولة كبقية الدول وتخلصت من كل مركبات النقص عندها ؟

منذ الفي سنة واسرائيل تعيش حياة وطنية بدون دولة وبدون أرض فقد بلغت مرتبة شعب روحي وأمة حرة . لقد كانت اسرائيل تجسد الامــل الفوضوي الذي هو أمل ملكوتي . لقد كانت تقول لشعوب الارض : هوذا مثلي : لا حدود ولا دولة لي ومع ذلك فاني اعيش أفضل من كل الامــم الاخرى الخاضعة للملوك والامراء . لا نملك جيشا ولا شرطة ولا محاكم تستطيع أن تسجن وتعدم ومع ذلك فليس هناك شعب أكثر تعلقا بدستوره وشريعته منا . ان ما حققناه هو في متناول يدكم : «تخلصوا من ملوككم ومن امرائكم ومن قوادكم ، تخلوا من ملكية ارضكم ، انسفوا الحدود وتحركوا.» **الى ان جاءت الصهيونية فقضت على هذا الحلم الرائع .** فاليهودي الذي كان قبل الثورة الفرنسية يعيش بدون دولة أصبح اليوم مرتبطا بدولتين : اسرائيل وفرنسا . وبالفعل فالعديد من الشبان اليهــود أدوا خدمتهم العسكرية في اسرائيل بعد أن كانوا أدوها في فرنسا . « من الشعب الاكثر فوضوية في العالم ، صنع روتشيلــد بمساعــدة موظفيه الدينيين ومفكريه المأجورين الشعب الاكثر خضوعا والاكثر عبادة للدولة » . لقد كان القوميون في الماضي معادين للسامية لانهم لم يستطيعوا تحمــل فوضوية اسرائيل الحية . أما اليوم فقد أصبح نفس هؤلاء القوميين من أكبر المعجبين باسرائيل لانها « تشكل وسيلة اقل همجية في التخلص من اليهود من مخيمات الابادة . فلم يعودوا بحاجة الــى طردهم : انهم يغادرون من تلقاء انفسهــم بتأثير من الدعاية الصهيونية .

الصهيونية والنازية : ان أكثر ما يلفت النظر فـي الحركة الصهيونية هو العلاقة العضوية بينها وبين الحركة النازية . فليس هناك مجرد تأثر عابر بين الجلاد والضحية بل تواطؤ مخجل ، رغم كل المظاهر ، ذهب ضحيته الشعب اليهودي ومــا يزال . ان وجــه التشابــه الاول بين النازية

والصهيونية هو أن هذه الأخيرة تقتل الفكر وتدمر النفس وتحول الشباب اليهودي وتجعله شبيهاً بأعدائه النازيين أي بدون ضمير ولا شفقة ولا قلب . انها تجعلهم يعبدون دولة اسرائيل ويستعبدون بها : دولة اسرائيل فوق الجميع (هذا الشعار يذكرنا بالشعار النازي : ألمانيا فوق الجميع)وهي على صواب مهما فعلت ومنهـا يستمد اليهـود وجودهم .

ثم هناك العلاقة التاريخية التي نشأت بين زعماء الصهيونية وبين النازيين . ذلك أنه « حيثما كان يوجد يهود ، كان على رأسهم مسؤولون معتـرف بهم . وقد تعاون هؤلاء المسؤولون ، ما عدا بعض الاستثناءات النادرة ، بشكل من الاشكال ولسبب من الاسباب مع النازيين . والحقيقة هي أن الشعب اليهودي لو لم يكن منظما وبدون زعمـاء لسادت الفوضى والفقر ايضا الا ان عدد الضحايا ما كان وصل الى ستة ملايين » (حنه أرنت .. لونوفيل اوبسرفاتور — عدد ٩٩ — ١٠٠) وكان الصهاينة ، بنوع خاص ، أكثر من تعاون وتفاهم مع النازيين ، وبهذا الصدد تورد حنه ارنت هذه الرواية المذهلة : ما أن تولى **ايخمان** مسؤولياته حتى أمره رئيسه (فون ميلدنشتان) بقراءة كتاب هرتزل « دولة اليهود » . وقد ارتد ايخمان بعد قراءته لهذا الكتاب نهائيا الى الصهيونية . وقد بدأ منذ ذلك الحين بالتفكير بايجاد « حل سياسي » لقضية اليهود (يجب تمييز هذا الحل عن « الحل الجسدي » فالاول يعني طرد اليهود والثانـي ابادتهم) وبالتفتيش عن وسائل وطرق « لوضع شيء من الارض تحت أقدام اليهود » . ولهذه الغاية أخذ ايخمان بنشر الرسالة الصهيونية في الاوساط النازية ويعطي المحاضرات ويكتب المقالات النقدية الهجائية . وقد كانت أولى اتصالاته الشخصيـة مع مسؤولين يهود معروفين وصهيونيين منذ مـدة طويلة ، مرضية تماما . لقد كانت « مثاليـة » ايخمان ، كما تقول ارنت ، السبب في انجذابه الى « المسألة اليهودية » . فعلى عكس اليهود الذين كانوا يريدون الاندماج والذوبان في المجتمـع الالماني والذين كان ايخمان يكرههم دائما ، وعلى عكس اليهود الارثوذكس الذين كانوا يضجرونه ، فان هؤلاء الصهاينة ، كانوا مثله تماما ، اي « مثاليين » . المثالي ، كما يتصوره ايخمان ، هو انسان لا يعيش الا من أجل فكرته وهو مستعد ليضحي بكل شيء وبكل العالم من أجل هـــذه الفكرة . وكان الدكتور رودولف كاستنـــر اعظـم « مثالي » التقاه ايخمان بين اليهود . وقد جرت المفاوضات معه اثناء اقتلاع اليهود من هنجاريا . ولقد توصل هذان الرجلان الى اتفاق يسمح ايخمان بموجبه بذهاب بضعة الاف من اليهود الى فلسطين بطريقة « غير قانونية » وبالمقابل يجب ان يسود النظام والهدوء في المخيمات التي كان يجمع فيها مئات الالاف من اليهود قبل ارسالهم الى اوشويتز. اما بضعة الالاف من الناجين الذين اشير اليهم في الاتفاق فقد كانوا من اليهود البارزين ومن اعضاء منظمات الشباب الصهيونية ومن « أفضل المـواد البيولوجية » حسب تعبير ايخمان ذاته . واذا صدقناه ، يكون الدكتور كاستنر قد ضحى بأبنـاء دينه من أجل « فكرة » ... » (لـونوفيـل اوبسرفاتور عدد ٩٩ — ١٠٠) .

العرب والصهيونية : لقد أثبت التاريخ ان الاخوة والتعايش بين العرب واليهود أمران ممكنان في حين أن الاحداث الراهنة قد أثبتت ان دولـة عربية ودولة يهودية لا يمكن ان تتعايشا أبدا . وبهذا الصدد يقول امانويل ليفين : « بصفتـي يهوديا ، أستطيع ان اتفاهم مع أي عربي ، ولكن هذا غير ممكن اذا كنت اسرائيليا . اذا أردت اذن ان أقيم حوارا مع العرب علي أن أظل يهوديا ولا أصبح اسرائيليا ، اي أن أرفض دولـــة اسرائيل . ان ما يهمني هو أن يقبل العرب بـي ويتسامحوا لا بل ويرغبوا في وجودي في بلادهم ، وخاصة في فلسطين . ما يهمني هو أن يحق لي السكن في الارض المقدسة بسلام ودون القيـام بحرب . وقد لا يكون هذا صعب التحقيق في دولـة فلسطينية ، أما في الدولة الاسرائيلية فهذا محال. فالاسرائيلي هو عضو غريب في الجسم العربـي وعاجلا أم آجلا سيرفض ويرمى . أما اليهودي فهو ، على نقيض ذلك ، عنصر لا يمكن ان يستغني عنه العالم العربي لا بل ينادبه ويدعوه » . من هذا الواقع علينا ان نبني سياستنا وننطلق : اعادة اقامة العلاقات الاخوية بين العرب واليهود التي قطعت بسبب الصهاينة . اذا أراد اليهود أن يعيشوا بأخوة مع عرب فلسطين عليهم أن يكونوا يهودا فلسطينيين لا اسرائيليين اذ أن دولة اسرائيل

قد خطط لها في اوروبا وفي المانيا وليس في فلسطين . وهنا سبب حتمية موتها . والدولة الفلسطينية حتما لا يمكن أن تكون الا عربية اذ أن يهود فلسطين الاصليين لم يفكروا ابدا في انشاء دولة يهودية أو سيادة ما غير سيادة الله . اذ أن مثل هذا العمل كان في عرفهم « أمرا لا يطاق » وحشيا ولا تنتج عنه الا الكوارث والنكبات » .

وهنا يبرز امامنا تناقض في أقوال هذه المنظمة فمن جهة نراها تتكلم عن « كومونة » عربية — يهودية في فلسطين مع ما يتضمنه هذا من رفض للدولة اليهودية والدولة العربية على السواء ، ومن جهة أخرى تتكلم عن دولة فلسطينية لا يمكن أن تكون الا عربية . وعلى هذا يجيب امانويل ليفين : « في الواقع هناك صراع بين مثاليتي وبين نظرتي الواقعية الى الاشياء » أما بالنسبة الى الموقف من دولة اسرائيل فلا لزوم لتوضيحه اكثر من هذا. وبالنسبة لمسالة اقامة الدولة العربية فليس هذا، بالنسبة الى العرب ، الحل المثالي اذ ان كل دولة هي جهاز قمع واستغلال للانسان بواسطة الانسان لذلك ينبغي اقامة مجتمع بدون دولة تكون فيه الادارة اداة بيد الانسان وليس الانسان اداة في يدها كما هي الحال في الدولة . ولكن ليس هناك اي أمل في اقامة مثل هذا المجتمع في عالمنا الحديث الذي يتميز بالامبريالية والاستبداد الدولي . اذن يبقى الحل الواقعي الذي يفرض علينا الانطلاق من فلسطين عربية . ان دولة اسرائيل محكومة بالانهيار وقد بدأ هذا يحدث قبل حرب حزيران التي جاءت كردة فعل عنيفة لمنع هذا الانهيار ... الا ان على فلسطين العربية هذه أن تكون بالضرورة ذات رسالة عالمية ومتعددة الطوائف حتى يقبلها العالم . عليها أن تكون أكثر انفتاحا من بقية الدول العربية حتى تكون بالتالي افضل مكان للتجارب الامية والعالمية .

ان الصهاينة يعرفون جيدا في قرارة انفسهم انهم ليسوا اهلا للبقاء في فلسطين فهم « متغربون ومتأمركون » اكثر من اللزوم وسيغادرونها حتى بدون أن « يرميهم العرب في البحر » . لذلك فانهم يتصرفون مع العرب بطريقة استبدادية وعسكرية وغير سياسية . انهم لا يسعون لتأمين مستقبلهم في هذه البقعة من العالم الا عن طريق قوة السلاح التي لن تكون دائما الى جانبهم . انهم من بقايا مستعمري القرن التاسع عشر الذين سوف لا يكون مصيرهم مختلفا عن مصير فرنسيي الجزائر . ان هذا الواقع يفرض على كل انسان مخلص النضال ضد اسرائيل . وتعتقد هذه المنظمة ان النضال الاكثر فعالية ضد دولة اسرائيل وضد الصهيونية هو **النضال الايديولوجي** ، عن طريق نشر الحقيقة حول اصول الصهيونية الالمانية والاوروبية واظهار علاقاتها مع الامبريالية .

دور اسرائيل المشين ضد نضال العالم الثالث :

في عددها الصادر في كانون الثاني — نيسان ١٩٦٨، نشرت مجلة القارات الثلاث«تريكونتيننتال» ما مفاده أن الوحدات العسكرية لمكافحة حرب العصابات في كل من التشاد واثيوبيا تتلقى العون والتدريب من ضباط اسرائيليين . وهذا الخبر ، كما تقول منظمة « ميثاق ابراهام » يؤكد صحة نظريتها القائلة بأن دولة اسرائيل قد انشئت لتأمين الدفاع عن الحضارة الغربية التي نتج عنها اوشويتز وهيروشيما . وفلسطين هي الثالثة في هذه السلسلة من الفظائع . انها التكملة المنطقية لاوشويتز وهيروشيما . ودولة اسرائيل هي افضل تعبير عن هذه الحضارة الغربية التقنية التي اعطت للعالم منجزات « رائعة » ابتداء بغرف الغاز ومرورا بالقنبلة الذرية وانتهاء باسرائيل— النابالم . ان الشعوب الفقيرة في القارات الثلاث قد اعلنت الحرب على الدول الغنية، على العمالقة الصناعيين حتى تبقى على قيد الحياة من الابادة ، حتى لا تسحق بجزماتهم وآلاتهم كالحشرات . لذلك فان هذه الشعوب المظلومة ، الفقيرة تدرك وستدرك اكثر فاكثر الدور الذي تلعبه اسرائيل في الدفاع عن هذه الحضارة التقنية ... ان على كل ثوري أن يرى بوضوح ان اقصر طريق للثورة العالمية يمر عبر تدمير الدولة الصهيونية . ان الامبريالية لا تدمر الا اذا دمرت الدولةالاسرائيلية. الابقاء على دولة اسرائيل هو ابقاء على الرأسمالية والامبريالية والكولونيالية والتقنية والالة الغربية التي تسحق وتلغي الانسانية . ان مصير العالم يتقرر في الشرق الاوسط . والشعب الفلسطيني ذو رسالة « فدائية » فهو يتعذب بسبب خطايا العالم والله متجسد فيه ، الله معه. وهو سينتصر على الصهيونية والامبريالية بمساعدة كل ثوار العالم لانه الاضعف والافقر .

اضواء على مواقف هذه المنظمة (وفروعها) من بعض القضايا الراهنة : قبل أن نلقي نظرة نقدية وتقييمية لايديولوجية وأفكار هذه المنظمة لا بد لنا من التعرف عن الطريقة التي ترجمت فيها هذه المنطلقات المبدئية الى مواقف عملية واضحة اذ لا يكفي أن نطلع على رأي هذه المنظمة من تصفية وجود دولة اسرائيلية بل علينا أيضا ان نتعرف الى مواقفها الحسية من بعض الاحداث والقضايا الراهنة التي تتصل بقريب او بعيد بالمشكلة الفلسطينية . من اجل هذا سنلجأ الى المنشورات التي يصدرها فرع منظمة « ميثاق ابراهام » في ليبج بيلجيكا والى بعض المراسلات المتبادلة بين ارنو هامرز ، رئيس هذا الفرع ، ومركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت . (لا بد من الاشارة هنا الى ان الفرع البلجيكي لمنظمة « ميثاق ابراهام » كان في البدء حركة معادية للعنف أسست عام ١٩٥٦ ثم انضمت في شهر شباط ١٩٦٤ الى منظمة « ميثاق ابراهام » التي أسسها سنة ١٩٥٨ في باريس ايمانويل ليفين . وقد كان نشاطها موجها بصورة خاصة ضد اعادة تسليح المانيا اولا ، وضد اسرائيل كدولة ثانيا . وليس هناك اي اختلاف اساسي بين آراء ومواقف هذا الفرع وبين مواقف وآراء منظمة « ميثاق ابراهام » ، لذلك سنعتبرهما كمنظمة واحدة وهما كذلك في الواقع) .

الموقف من قضية تحرير فلسطين : أعلنت هذه المنظمة بوضوح انها ليست فقط ضد تصفية آثار العدوان الاسرائيلي ، بل هي « مع التصفية الكاملة وبكل الوسائل للجالية الصهيونية في فلسطين بمختلف اشكالها » . كما انها لا تؤمن بامكانية حل سلمي لهذه القضية . ومن المفيد هنا أن نورد بعض المقاطع من اجابات أرنو هامرز على الاسئلة التالية :

— **ما هو موقفكم من شعار اقامة دولة ديمقراطية في فلسطين ؟** « نحن فوضويون ، شيوعيون ، يهود ، مسيحيون . اذن نحن ضد وجود اي دولة . الا اننا نؤيد ، في المرحلة الحالية ، هدفكم » .

— **حل المسالة اليهودية ؟** « حمل اكبر عدد ممكن من الذين يقولون عن انفسهم انهم يهود الى الارتداد (بصدق ، طبعا) الى المسيح الذي هو ، اليوم ، لاجيء فلسطيني . أو بانتظار هذا الارتداد الى الاسلام (كما فعل شاباتاي ليفي في القرن السابع عشر) أو الى الماوية ... اما الاخرون فانهم يسيرون الى حتفهم » .

— **ما هي اهدافكم ؟** « ان اهدافنا هي بالاصل اهداف دينية . أننا نناضل من اجل الاسراع بانهاء هذا العالم ومن اجل مجيء مملكة الله الى الارض وعدالته (تصدق Tsodek) » .

— **هل عندكم اية اقتراحات لدعم الثورة الفلسطينية؟ ؟** ١ — دراسة عميقة لمسألة « من هو اليهودي ؟ » وللمسالة الاخرى المترتبة عنها أي « ما هي اسرائيل » وذلك بالاستناد الى الكتابات المسيحية المقدسة والتقليد اليهودي والمتصوف وكذلك الى النصوص الماركسية الاصلية « المسألة اليهودية » لكارل ماركس . ٢ — الادانة الواضحة لكل الدول أيا كانت القائمة على أسس دينية بما في ذلك الباكستان حتى لا يعود هناك مجال للشك بصدقكم فيما يتعلق بهدفكم . ٣ — ان تعوا أكثر أن الصهيونية السياسية هي قوة عالمية لها تشعبات في كل مكان وبالتالي فليس بالامكان الانتصار عليها الا بمهاجمتها في كل مكان وفي نفس الوقت .

— **هل هناك ما لا توافقون عليه في الثورة الفلسطينية ؟** « اننا نستنكر كلية وبشدة اقتراح الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين الهادف الى حل الصراع الفلسطيني—الصهيوني عن طريق انشاء دولة فدرالية او كونفدرالية على الطراز التشيكوسلوفاكي او اليوغوسلافي . اننا ضد كل دولة يهودية حتى ولو كانت بشكل جمهورية شعبية يهودية متحدة مع جمهوريات عربية شعبية . واننا مع النزع الكامل للطابع الغربي عن كافة الاراضي المقدسة » .

الموقف من عبد الناصر وحسين بعد مجازر أيلول : لقد كانت نظرة هذه المنظمة قاسية جدا الى الدور الذي لعبه عبد الناصر في الحركة الثورية العربية المعادية للاستعمار . فهي ترى فيه قائدا قاد الامة العربية الى الهزيمة كما انها تعتبره المسؤول غير المباشر عن مجازر ايلول بقبوله مشروع روجرز . أما عن الملك حسين فتقول المنظمة : « فليقتل ، فليشنق عاليا مع كل شلته . يجب الا يفلت من المبتة الشنيعة التي يستحقها عن جدارة . على

كل حال ، ان أيام جزار عمان معدودة » . ان الثورة ، كما يقول تشي غيفارا ، يجب ان تكون فعلا مغامرا ... لكي يخرج الناس من بؤسهم ، اذا ارادوا هذا حقا ، ليس هناك سوى وسيلة واحدة : أن تختنق الثورة كل شيء في النار والدم حتى تموت كل الحشرات التي تتغذى من عرق الاخرين !...

ويتميز خط هذه المنظمة ايضا بالتهجم العنيف على سياسة موسكو والكتلة الشرقية التي تسير في فلكها كما انه يتميز ، بالمقابل ، بتأييد قوي للماوية التي ترتبط بها المنظمة « بحلف غير معلن ولكنه واقع » .

العرب والهنود الحمر : تعليقا على اقوال احد اعضاء جبهة تحرير كويبك الذي اعلن ان قضية كويبك وقضية فلسطين هما قضية واحدة قالت هذه المنظمة : ان نضال الهنود الحمر وحده قد تمكن مقارنته بنضال الفلسطينيين ... ان سياسة اسرائيل ازاء العرب لا يمكن مقارنتها الا بتلك السياسة التي انتهجتها اميركاالشمالية في القرن الماضي ازاء الهنود الحمر . يجب الا ننسى ، خاصة في هذه الايام ، أن كويبك لا تخص لا الكنديين الانكليز ولا الكنديين الفرنسيين . وهكذا فان تضامننا مع الهنود الحمر يأتي قبل تضامننا مع الكنديين الفرنسيين، وتضامننا مع الفلسطينيين يأتي قبل الاثنين .

الباكستان ، اسرائيل العالم الاسلامي : تعتبر هذه المنظمة أن الباكستان «هذه الدولة الصهيونية الاسلامية » هي اكبر وصمة عار في جبين العالم الاسلامي اذ بأي حق يلوم المسلمون الغزاة الصهاينة لانشائهم دولة دينية في فلسطين ؟ اذا كان العرب منطقيين مع انفسهم ، عليهم اذن أن يدينوا هذه الدولة الدينية . ان تصفية اسرائيل تمر عبر تصفية الباكستان . والجدير بالذكر أن هذه المنظمة قد هاجمت منظمة التحرير الفلسطينية لاشتراكها في مؤتمر الدول الاسلامية في حين امتنعت عدة دول ، من بينها سوريا والعراق ، عن حضوره . وهنا لا بد من الاشارة الى ان الموقف العنيف من الباكستان ينبع من مصدرين اثنين : التضامن مع الهند المسالمة — وادانة كل دولة دينية .

نظرة تقييمية ونقدية شاملة

من الواضح تماما ان هذه المنظمة تريد ان تكون دينية فقط اي انها ترفض كل استغلال للدين من قبل السياسيين كما حدث بالنسبة للصهاينة الذين تاجروا بالقضية اليهودية وبآلام وعذابات الشعب اليهودي — وما زالوا يتاجرون — موهمين اياه بانهم يسيرون به الى الخلاص في حين انهم يقودونه الى مصير قاتم ومظلم . ان هذه المنظمة تقود حملة عنيفة ومركزة على الذين نصبوا انفسهم أوصياء على الشعب اليهودي باسم الدين اليهودي وهم منه براء . وتكمن أهميتها في انها فضحت وفندت ودحضت كل المزاعم « الدينية » التي تقول ان اسرائيل قد قامت عليها . ومن هذا المنظور تكون هذه المنظمة ، رغم تطرفها ونقائها الديني واندفاعها الذي يصل بها حد التهور ، قد أدت للقضية الفلسطينية خدمات جليلة عن طريق الابحاث العديدة والمنشورات المتنوعة التي اظهرت فيها بجلاء أن دولة اسرائيل لا علاقة لها البتة مع اسرائيل المنتظرة « التي ليست من هذا العالم » . انها بسحبها الغطاء الديني المزعوم عن دولة اسرائيل قد أظهرت هذه الاخيرة على حقيقتها ، اي دولة راسمالية ، استعمارية ، امبريالية ، عنصرية ... ومما يلفت النظر ايضا في ايديولوجية هذه المنظمة انها تتبنى المذهب الفوضوي الرافض لكل اشكال الدولة والذي برز في القرن التاسع عشر وتبلور على يد مفكرين كبار امثال باكونين وتولستوي وغيرهم يكن لهم زعماء هذه المنظمة (امانويل ليفين ، ارنوهامرز) احتراما خاصا وتقديرا عاليا . وكنتيجة منطقية لهذه النزعة الفوضوية نراها ترفض الدولة الاسرائيلية الصهيونية القمعية التي تجسد اقصى وأعلى درجات الدولة بمفهومها القمعي والقهري والتسلطي فهي ليست دولة كبقية الدول ، وانما خلاصة بشعة وفظيعة لكل اشكال الضغط والعنف والاضطهاد : انها الدولة النازية ولدت من جديد. ونحن رغم عدم موافقتنا على المنطلقات المبدئية التي أدت الى هذه النتائج ، الا أننا لا نستطيع الا أن نوافق على هذه النتائج بالذات . وهذا يؤكد لنا حقيقة أساسية وهي : من أي منظور نظرنا الى الدولة الاسرائيلية فلا بد الا ان نصل الى اكتشاف حقيقتها البشعة ودورها المشين المخزي في شد الانسانية الى الوراء .

ثم هناك تطرفها وجذريتها . فهي ترفض انصاف الحلــول او الحلــول الناقصة : تريد تصفيــة اسرائيل وتحرير فلسطين . بالنسبة اليها هناك حق وهناك باطل ولا منزلة بين المنزلتين . قضية الفلسطينيين هي الحق ودولة اسرائيل هي الباطل. الاختيار واضح ولا مجال للتردد . وهذه الجذرية وهذا « التطرف » في تأييد الحق يفسران لنا بعدها عن السياسة « وتذارتها » وتبنيها لمواقف سياسية يسميها « الواقعيون » مواقف طفولية ، مرضية ، مثالية . وأكثر من هذا ، فكثيرا ما نراها تأخــذ مواقف ضد اسرائيل اعنف بكثير من المواقــف العربية نفسها فتبدو وكأنها « عربية اكثر مــن العرب » وهذه المواقف المبدئية والمثالية تقودها أحيانا الى اصدار احكام ظالمة وخاطئة على بعض الاحداث وعلى بعض الحكام العرب كما حــدث بالنسبة لموقفها من عبد الناصر بعد مجــزرة ايلول الاسود ، اذ ادانته ادانة قاسية غير آخذة بعين الاعتبار تاريخــه النضالي ضد التخلــف والاستعمار .

واخيرا لا بد لنا من سؤال أخير وهو : أين نضع هذه المنظمة بين مجموع القوى العالمية المؤيدة للعرب في قضيتهم الاولى ؟ من الضروري هنــا القول ان هذه الحركة لا تشكل تيارا قويا داخــل الحركة اليهودية العالمية وبالتالي فان تأثيرها ما زال محدودا جدا . الا أن هذا لا يمنع كونهــا مؤيدة للحق العربي تأييدا واضحا وأكيدا رغــم صوفيتها وفوضويتها وتهورها وطفوليتها . وهي بظهورها كحركة دينية متطرفة تريد تطهير الديــن اليهودي من رواسبه وجعله دينا ثوريا تصب في التيار الديني العالمي المؤيد للثورة . وهذا التيار يشكل ظاهرة رائعة في النصف الثاني من القرن العشرين هذا ، فنحن نرى في ايران مثــلا أتقــى الشيوخ واطهرهم ينضمــون الى صفوف الثورة ويدينون حكم الظلم والطغيان والاستغلال . كذلك في اميركا اللاتينية حيث نرى الكهنة ينضمون بأعداد كبيرة الى صفوف الثورة يتبنون قيمها ويعملــون لتحقيق أهدافها . كذلك البوذيون في فيتنام وكذلك اخيرا اعضاء هذه المنظمة الذين رفضوا اسرائيل، رفضوا الهمجية والعنصرية والنازية والتحقــوا فكريا بصفوف الثورة الفلسطينية . كانوا ينتظرون المسيح فطال انتظارهم وعوضا عن أن يروه في دولة اسرائيل ، اكتشفوه في لاجيء فلسطيني .

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

مع نهايات عام ١٩٧١ ، وبدايات عام ١٩٧٢ ، بدأ العمل الفدائي الفلسطيني يواجه مسألة « التكيف » مع الظروف الجديدة التي فرضتهـا التطورات الاخيرة ، وفي مقدمتها : تطورات احداث الاردن التي قادت الى انتهاء الوجـود العلني لحركة المقاومة وخاصة بعد معارك جرش في تموز ١٩٧١، وفشل الوساطة المصرية ـ السعودية في ايجاد تفاهم جديد بين المقاومة والنظام الاردني ، ثم مقتل وصفي التل وما أدى اليه من قطع لاحتمالات اي حوار جديد ، واخيرا التطورات الدولية التي ادت على ضوء الموقف الامريكي ، كما حدده تقرير الرئيس نيكسون الى الكونجرس في ٩ شباط ١٩٧٢، الى التشدد الامريكي ـ الاسرائيلي تجاه ازمة الشرق الاوسط ، الذي عكس نفسه في تهديدات اسرائيلية بالحـرب ، أدت مباشرة الى ضغوط عربية على حركة المقاومة . ومسألة « التكيف » مع الظروف الجديدة ، تأخذ مع وضعية الانحسار التي تعيشها حركة المقاومـة بعض المظاهـر السلبية ، التي تنبع احيانـا من داخل حركـة المقاومة ، واحيانا من خارجها ، وهو ما سيبرز من خلال استعراض التطورات التي تمت في الفترة الواقعة بين ٩ ك١ ١٩٧١ و٣١ ك٢ ١٩٧٢ .

١ ـ العمل الفدائي ولبنان :

تابع العمل الفدائي نشاطه من الحدود اللبنانية (بالاضافة الى نشاطه داخل الاراضي المحتلة) بكثافة نسبية ، ولكن المواقف السياسية الاسرائيلية ضخمت هذا النشاط لتجد مبررا لتهديداتها ، ولجو الحرب الذي تريد فرضه على المنطقة انسجاما مع مواقف التشدد الامريكي . ففي الفترة المذكورة قام الفدائيون (حسب ما نشر في الصحف) بستة عشر هجوما واشتباكا مسلحا على المواقع الاسرائيلية ، استشهد فيها خمسة فدائيين وجرح فدائي واحد. وكان رد الفعل الاسرائيلي على هذا النشاط حادا للغاية ، عبر عن نفسه بثلاثة اشكال : بالتهيئة الصحفية التي ضخمت الاحداث كنوع من التمهيد للمواقف السياسية ، وبتصريحـات المسؤولـين الاسرائيليين التي وصلت الى حد الانذار ، واخيرا بالاعتداءات العسكرية المتلاحقة على جنوب لبنان وعلى قواعد الفدائيين .

فعلى صعيد التعبئة الصحفية : اذيع على لسان ناطق رسمي اسرائيلي في ٢٠ ك١ ان هناك «حشدا للفدائيين في جنوب شرق لبنان » ، وقالت صحيفة يديعوت احرونوت في نفس اليوم « ان اسرائيل ستحذر لبنان ليضبط نشاط الفدائيين في اراضيه »، ثم انتقلت الصحف الاسرائيلية من التحذير الى التهديد فقالت الجيروزالم بوست في ٧ ك٢ « اذا لم ينجح اللبنانيون والسوريون في ضبط العصابات العاملة من اراضيهم ستضطر اسرائيل للقيام بعمل مضاد » ، ثم اصبحت هذه النغمة اساسا للتعليقات في كافة الصحف الاسرائيلية . ففي ١٠ ك٢ نشرت ثلاث صحف في يوم واحد ، وبمشاركة الاذاعـة الاسرائيلية ، تعليقات تدور حـول نقطة واحدة « ازدياد الهجمات الفدائية من لبنان واحتمال رد فعل اسرائيلي » .

وعلى صعيد التهديدات والانذارات : أعلن حاييم بارليف رئيس الاركان الاسرائيلي في ٣٠ ك١ وفي آخر حديث صحفي له قبل ان يترك منصبه ان اسرائيل لا تميز بين اعمـال الفدائيين واعمال الحكومات العربية التي تقبلهم في اراضيها « وهكذا فاننا تصرفنا كما لو ان طلقات الفدائيين الاتية من الاردن او لبنان صادرة عن قوات اردنية او لبنانية نظامية » . وحين تولى ديفيد اليعازر رئيس الاركان

الاسرائيلي الجديد مهام عمله كان اول تصريح ادلى به بمثابة تحذير الى لبنان اذ قال في ١٤ ك٢ « ان استمرار نشاط الفدائيين يمكن ان يشكل كارثة بالنسبة الى القرى اللبنانية، وان الجيش الاسرائيلي لن يتردد في تصعيد عملياته اذا تبين ان ذلك ضروري». وكان رئيس الحكومة اللبناني صائب سلام، قد اعلن في نفس اليوم ان لبنان تلقى انذارا خطيا من اسرائيل عن طريق لجنة الهدنة المشتركة ، ويقول نص الانذار الاسرائيلي كما نشر في ١٧ ك٢ « انذار شديد . نطلب ان يتوقف النشاط الارهابي حاليا من لبنان باتجاه اسرائيل توقفا كاملا . اذا لم يحصل هذا فعلينا ان نقيم اقامة دائمة في المنطقة بشكل او بآخر ، وبالطبع فمن الممكن ان تكون نتائج ذلك حمل الناس على النزوح ، وهذا ما يتضارب مع رغبتنا » .

اما على صعيد الاعتداءات العسكرية : فقد تعرض جنوب لبنان ، كما تعرضت قواعد الفدائيين في المنطقة لعدد من الاعتداءات المتلاحقة ، كانت كلها مسبوقة بتعليقات صحفية او بتصريحات تهديد رسمية . ففي ٢٠ ك١ نشرت الصحف الاسرائيلية أن اسرائيل ستحذر لبنان ، بينما كانت قواتها العسكرية تشن هجوما على قرية بليدا في الجنوب، حيث تسللت قوة كوماندوس قدرت بحوالي ٦٠ جنديا الى القرية المذكورة ونسفت منزلين فيها . وفي ١٠ ك٢ شاركت الصحف والاذاعة بالتهديد ، ليعقب ذلك بعد ساعات ، وفي فجر ١١ ك٢ ، هجوم اسرائيلي اعتبر من أعنف الهجمات التي تعرض لها جنوب لبنان ، وتم الهجوم الاسرائيلي على محورين : المحور الاول في القطاع الاوسط حيث هوجمت بلدة بنت جبيل ونسف العدو فيها منزلين . والمحور الثاني في العرقوب حيث نسف العدو ثلاثة منازل في قرية كفرحمام . وارفق ذلك بقصف بالمدفعية لبلدة راشيا الفخار . وكانت النتائج الاجمالية لهذا الاعتداء : من الاسرائيليين مقتل جنديين وجرح واحد . ومن الفدائيين : استشهاد ثلاثة . ومن المدنيين : مقتل امرأة وجرح زوجها . كما نسف الاسرائيليون اثناء الهجوم خمسة بيوت للسكان . وتكرر نفس الموقف في ١٤ ك ٢ حين وجه « ديفيد اليعازر » تهديده ، فلم يكد هذا التهديد ينشر في الصحف ، حتى قامت اسرائيل وبعد اربع وعشرين ساعة من عدوانها الاخير بعدوان ثان على جنوب لبنان ، تغلغلت فيه قواتها الى مسافة عشرة كيلو مترات ، وهو اعمق تغلغل تم حتى الان ، وتركز الهجوم الجديد على بلدة « كفرا » واسفر عن نسف اربعة منازل وتصدع خمسة منازل أخرى ، بينما اصيبت امرأة مسنة بجراح . وقد كان تعليق الصحف الاسرائيلية على الاشتباكات التي تمت مع الفدائيين اثناء هذه الاعتداءات قولها « أثبت الفدائيون اثناء الهجوم الاسرائيلي روحا قتالية لم يكونوا يملكونها حتى الان » .

رد الفعل اللبناني

ولد الانذار الاسرائيلي الموجه الى لبنان ، والاعتداءات المتوالية التي رافقته ، احساسا واضحا بالخطر في الاوساط السياسية اللبنانية ، عبر عن نفسه بنشاط ديبلوماسي واسع مع السفراء الاجانب ، ومع الحكومات العربية ، ومع حركة المقاومة الفلسطينية .

ففي ١٣ ك٢ عقد اجتماع هام في القصر الجمهوري درس فيه الوضع على الحدود من كافة جوانبه . وعلى اثر هذا الاجتماع ابلغ لبنان الحكومات العربية والدول الكبرى والصديقة الوضع السيء على الحدود مع اسرائيل مشيرا الى ان كل الاحتمالات اصبحت واردة . ورافق هذا النشاط الدبيلوماسي بحث خاص ومطول مع حركة المقاومة الفلسطينية . فبعد العدوان الاسرائيلي الثالث اعلن رئيس الوزراء صائب سلام ان اجتماعا سيعقد قريبا بين الجيش والمقاومة لمعالجة الموقف على الحدود (١١ ك٢) . وقد سبقت هذا الاجتماع (العسكري) اجتماعات سياسية ، بين الرئيس سلام ووفد من المقاومة برئاسة السيد ياسر عرفات ، وقيل ان هذه الاجتماعات كانت عبارة عن جلسة مصارحة لبحث كل ما يهم العلاقات بين الطرفين ، وانها تمت في ضوء اعادة قراءة اتفاق القاهرة ، ومراجعة الاتفاقات المتممة له . وقالت المصادر الصحفية في بيروت نقلا عن الرئيس سلام « ان المسؤولين اللبنانيين لا ينوون اعادة النظر في اتفاق القاهرة ، ولكنهم يأملون ان لا يجدوا انفسهم مضطرين الى اعادة النظر في هذا الاتفاق ، لذلك يطلب من قيادة المقاومة ، وفق منطق المحبة والاخلاص ان تبذل كل جهودها لضبط الامور » وقالت المصادر الصحفية ايضا « ان عرفات وافق على وجوب تلافي الحوادث الفردية، ووعد بدرس وضع المنطقة في الجنوب ، ويأمل في

التوصل الى حل يجنب اهالي قرى الحدود الاعتداءات الاسرائيلية » . وبعد الاجتماع الاول سئل السيد عرفات اذا كان هناك خلل في تنفيذ اتفاق القاهرة ؟ فاجاب « ليس من خلل ، بعض التصرفات بين الحين والاخر ... والناس ليسوا ملائكة » . وفور انتهاء الاجتماع انتقل الرئيس سلام الى القصر الجمهوري حيث ابلغ رئيس الجمهورية نتائج اللقاء الاول مع المقاومة .

عقد اللقاء الثاني مع المقاومة في ١٤ ك٢ في وزارة الدفاع . وعرض فيه الجانب اللبناني (حسب المعلومات الصحفية) النقاط التالية : ١ — مراكز عمل الفدائيين التي لا تدخل في نطاق اتفاق القاهرة . ٢ — منع اطلاق الصواريخ من الاراضي اللبنانية . ٣ — عدم التواجد في مناطق آهلة بالسكان . ٤ — ايقاف النشاط العسكري مؤقتا . ٥ — بحث الجانب اللبناني مع المقاومة عدم التمركز في قواعد ثابتة حتى حيث يحق لهم التمركز. (كاقتراح فقط) .

وكانت نتائج الاجتماع (حسب المعلومات الصحفية أيضا) الاتفاق حول النقاط التالية : ١ — تحديد الممرات والطرق التي يسلكها الفدائيون لتنفيذ عملياتهم . ٢ — النقاط التي يحق لهم اطلاق الصواريخ منها . ٣ — تنفيذ اتفاق القاهرة تنفيذا كاملا .

وفور انتهاء هذا الاجتماع مع وفد المقاومة ، تابع الرئيس سلام اجتماعه مع قائد الجيش العماد غانم ، لبحث كيفية تنفيذ ما اتفق عليه ، ثم انتقل لاطلاع الرئيس فرنجية على النتائج .

ولم تقتصر هذه الاتصالات مع المقاومة على الجانب اللبناني فقط، بل ان لبنان استعان قدر ما يستطيع لتقوم جهات عربية بالبحث مع المقاومة في الموضوع نفسه لتثبيت ما اتفق عليه ، وبناء على ذلك جرى في ١٤ ك٢ اجتماع بين السيد ياسر عرفات والسيد عمر السقاف وزير الخارجية السعودي اثناء مروره ببيروت عائدا من باريس ، وتناول البحث في الاجتماع « نشاط الفدائيين في جنوب لبنان ، وضرورة تجنب الحاق الاذى بلبنان من دون ان يفيد المقاومة في شيء » . ثم اجتمع السقاف مع الرئيس فرنجية والرئيس صائب سلام وعرض عليهما نتائج اجتماعه مع عرفات وتفهم المقاومة لظروف لبنان ، واعرب عن اعتقاده ان لبنان لن يواجه اي متاعب على حدوده الجنوبية من جراء النشاط الفدائي » . وفي مساء اليوم نفسه اجرى عرفات اتصالا تلفونيا مع الرئيس سلام في ساعة متأخرة من الليل ابلغه فيها « ان كل شيء يسير حسب الاتفاق » .

ومن جهة اخرى قام الرئيس فرنجية في ١٥ ك٢ باجراء اتصال تلفوني مع الرئيس السوري حافظ الاسد ، تم على أثره ايفاد مسؤول سوري الى منطقة الحدود لابلاغ قوات الصاعقة « وجوب التقيد بالاتفاقات مع السلطة اللبنانية وضرورة الانضباط الكلي » ، وفي نفس اليوم زار وفد من الصاعقة السيد صائب سلام مؤكدا « تعاون المنظمة مع السلطة وتقيدها بالاتفاق الذي تم مع عرفات » .

واستمرت الاتصالات مع سوريا من خلال اجتماع بين عرفات والفريق حافظ الاسد لبحث الوضع على الحدود أدلى على أثره الضابط السياسي لقوات الصاعقة في جنوب لبنان بتصريح في ١٦ ك٢ قال فيه « ان الفدائيين قرروا التخفيف من نشاطهم ، وان من الحكمة الهدوء قليلا في الظروف الراهنة». وكان مصدر حكومي لبناني قد علق على الاتصالات العربية بالمقاومة قائلا « ان لبنان يعتمد على الضغوط التي ستمارسها الدول العربية التي لها تأثير على المنظمات الفدائية بحيث يتم الانضباط على الحدود وتزول كل ذريعة يمكن ان تتسلح بها اسرائيل لتنفيذ مخططاتها » . ولذلك تم الاتصال مع سوريا بشأن الصاعقة ، وتولى السقاف اقناع فتح ، وتولت جهات عربية اخرى اقناع الجبهة الشعبية .

ونتيجة لكل هذه الاتصالات والمباحثات اللبنانية — الفلسطينية — العربية ، ساد جو من الارتياح عبر عنه كمال ناصر الناطق الرسمي بلسان منظمة التحرير قائلا في ١٨ ك٢ ان لبنان ابدى حرصه على اتفاق القاهرة وان ما يجري هو « تشاور مع السلطات اللبنانية وفي الظروف الاستثنائية خاصة لمنع اسرائيل من استعمال نشاط الفدائيين مبررا لتحقيق اطماعها في جنوب لبنان » . وبالمقابل كان هناك جو ارتياح لبناني عبر عنه صائب سلام في نفس اليوم حين ابلغ رؤساء الكتل البرلمانية « ثقته بتجاوب المنظمات مع الحكومة، وان موقف المنظمات يستحق الشكر » .

وما يجب التوقف عنده هنا نقطتان : الاولى تتعلق

بالموقف العربي الرسمي الذي اتاحت له الظروف الخاصة التي تعيشها المقاومة حاليا ان يتخذ موقف ضغط فعال على المجريات اليومية للعمل الفدائي . والثانية تتعلق باقدام الحكومة اللبنانية على البحث الجدي في اتفاق القاهرة ، مما قد يكون له تأثير على طبيعة وضع المقاومة في لبنان مستقبلا . وذلك ينطبق على وضع المخيمات بالدرجة الاولى ، وطبيعة التواجد المسلح للمقاومة فيها ، بالاضافة الى المسؤولية اليومية عن قضايا الامن داخل المخيمات .

والجدير بالذكر ان اتفاق القاهرة كما نشرته جريدة « النهار » اللبنانية في حينه ، ينص على تواجد كامل للفدائيين في العرقوب ، وعلى نقاط مرور في القطاع الاوسط . كما ينص على ان السلاح في المخيمات ينظم باشراف قيادة الكفاح المسلح ، وهذا البند بالذات هو ما يمكن ان يخضع للنقاش في مناطق مثل القطاع الغربي والنبطية وبعلبك .

ويلاحظ بأن حركة المقاومة عالجت هذا الموضوع الحساس باطار ديبلوماسي فقط ، وابتعدت بشكل ملحوظ عن اي اطار جماهيري فلسطيني او لبناني في معالجته ، بينما كان تكتيكها في السابق عكس ذلك تماما . ويخشى ان يكون لمثل هذا الاسلوب في معالجة القضايا الحساسة ، نتائج غير مرضية في المستقبل ، اذ أن حركة المقاومة تحتاج الان اكثر من أي فترة مضت الى نسج تحالفات وثيقة مع الحركة الشعبية في لبنان ، لتحصن نفسها ضد سلسلة من الضغوط التي يتوقع ان تواجهها ضمن ظروفها الخاصة الحالية .

جانب اخر للوضع في لبنان

في الوقت الذي كانت فيه حركة المقاومة تبحث لبنانيا وعربيا الوضع الناشىء عن عملياتها العسكرية وعن التهديدات الاسرائيلية، كانت تعاني من ذيول حادث « مخفر النهر » الذي وقع في بيروت عشية عيد رأس السنة الميلادية ، والذي احدث ضجة كبيرة في الاوساط اللبنانية . وملخص الحادث ان شابا لبنانيا ينتمي لمنظمة الصاعقة كان معتقلا في المخفر المذكور بتهمة حيازة سلاح ، وقد توجه مسؤولون من الصاعقة للبحث مع مسؤول المخفر في أمر الافراج عنه ، ثم تطور الحادث الى اشتباك بين قوات من الصاعقة وقوات من الامن العام اللبناني ذهب ضحيتها قتيلان من رجال الامن اللبناني وقتيلان من الفدائيين ، الاول في الحادث نفسه ، والثاني بعد الحادث بأيام ، بالاضافة الى جريحين من رجال الامن اللبناني ايضا ، واوقف نتيجة للحادث حوالي ١٤ شخصا من الصاعقة . واتخذت السلطة اللبنانية موقفا متشددا رفضت فيه اي حوار مع قيادة الكفاح المسلح قبل تسليم جميع المطلوبين . وقد بادرت حركة المقاومة بالرغم من ذلك الى اتخاذ مواقف واضحة ، تسعى لتطويق الحادث وحصر نتائجه . فقامت فتح بالاتصال بالمسؤولين مؤكدة ان الحادث وليد ساعته وانها تستنكره ، واصدر كمال ناصر الناطق الرسمي بيانا اعلن فيه حزن حركة المقاومة على مقتل رجلي الامن واستنكارها لهذا العمل الفردي والحرص على استكمال التحقيق لادانة العناصر غير المنضبطة . كما قامت « اللجنة السياسية العليا » باصدار بيان شرحت فيه تفاصيل الحادث ، واعلنت اسفها وحزنها واصرارها على تطويقه ، والتعاون مع السلطة من أجل تعزيز روح الثقة . ومن جهة اخرى قام لبنان باتصالات خاصة مع سوريا للمساهمة في تطويق نتائج الحادث ، وقد تجاوب المسؤولون السوريون فورا وطلبوا من السيد زهير محسن مسؤول الصاعقة في لبنان ان يتوجه الى بيروت فورا . وفي ٦ ك ٢ استقبل الرئيس سلام في منزله وفدا من قيادة الصاعقة أكد له « أن الحادث كان ابن ساعته ، وانه تصرف فردي لا تقره المقاومة وتستنكره ، وان الصاعقة ترغب ان لا يترك الحادث اي تأثير على العلاقات بين سوريا ولبنان » . وفي ١١ ك ٢ طلب قاضي التحقيق العسكري الاعدام لاحد عشر متهما في الحادث ، بتهمة « مخطط رسمته عصابة مسلحة » . ويشكل نص الاتهام نوعا من عدم الاعتراف بالعمل الفدائي الفلسطيني يتناقض مع موافقة الحكومة على اتفاق القاهرة ، وهو ما درجت عليه منذ مدة اكثر من جهة قضائية في لبنان ، بحجة انها لم تتبلغ رسميا اي شيء من الحكومة حول اتفاقات خاصة بينها وبين الفدائيين .

٢ ـ نشاطات فلسطينية :

كانت القاهرة خلال هذه الفترة مسرحا لحدثين فلسطينيين من طبيعة خاصة ، يكشفان عن مظهر واضح من مظاهر عملية « التكيف » التي اشرنا

اليها . ففي ١١ ك ١ نشرت صحف بيروت انباء عن اجتماع في منزل السيد احمد الشقيري في القاهرة ترأسه نعيم عبد الهادي ، وضم اربعين شخصية فلسطينية ، بينهم اعضاء في المجلس الوطني ، واعضاء سابقون في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ، وحضرته شخصيات من الضفة الغربية والاردن والكويت ومصر . وصدر عن الاجتماع بيان يقول :

رأت « لجنة المتابعة لتحقيق الوحدة الوطنية » (وهي لجنة تشكلت عام ١٩٦٨ من شخصيات فلسطينية من غزة ، حاز بعضهم على عضوية المجلس الوطني الفلسطيني التاسع) دعوة نخبة من ذوي الفكر والرأي الفلسطيني . وقد اجتمعت هذه النخبة في لقاءات عدة في القاهرة وتدارست الاخطار المحيطة بالقضية الفلسطينية ، والاخطاء التي وقعت في ساحة التجربة الفلسطينية ، والمستوى المتدني الذي وصل اليه العمل الفلسطيني وانعزاله عن طاقات الشعب الفلسطيني وكفاياته ... ورأوا ما يلي : ١ – وجوب تصحيح مسيرة العمل الفلسطيني في نطاق منظمة التحرير الفلسطينية . ٢ – عقد مؤتمر وطني فلسطيني عام يقوم بدراسة القضية الفلسطينية من كل جوانبها السياسية والمالية والعسكرية والادارية ، ومتطلبات المرحلة الحاضرة للعمل الفلسطيني . ٣ – تشكيل لجنة من خمسة اعضاء (فاضل زيدان – فاروق الحسيني – سعيد العزه – عوده بطرس عوده – قاسم الريماوي) تكون مهمتها اجراء الاتصال بتجمعات الفلسطينيين لتبادل الرأي معهم وجمع مقترحاتهم في الموضوع . ٤ – العمل على تشكيل لجنة تحضيرية تمثل تلك التجمعات لبحث الاراء والمقترحات المتوافرة من كل تجمع ، واعداد مشروع جدول اعمال المؤتمر الوطني الفلسطيني العام وتوجيه الدعوة اليه . وتترك لهذه اللجنة مهمة الاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية قبل عقد المؤتمر الفلسطيني العام .

وفي اليوم التالي لانتشار هذه الانباء أدلى السيد أحمد الشقيري بتصريح نفى فيه أن يكون اجتماع عقد في منزله ، وانبثقت عنه لجنة من خمسة أعضاء ، كما نفى السيد الشقيري ان يكون قد عاد الى ممارسة النشاط السياسي .

ولكن بالرغم من هذا النفي ، وصل الى دمشق عضوان من أعضاء اللجنة المذكورة ، تحت ستار المشاركة في مؤتمر الادباء العرب بدمشق ،وأجريا اتصالات متعددة ، كان من بينها اتصال مع السيد خالد الفاهوم رئيس المجلس الوطني الذي طلب منهم عرض كل مقترحاتهم على اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير .

وقد نوقش أمر هذا الاجتماع في اوساط حركة المقاومة من زوايا عدة :

الزاوية الاولى : الاستغراب من أن يكون السيد الشقيري قد قرر العودة للعمل السياسي من خلال اسماء اللجنة التي اعلن عنها ، اذ انها لا تتمتع برصيد شعبي يؤهلها للمهمة التي انتدبت نفسها لها.
والزاوية الثانية : أن اغلب أعضاء اللجنةالمذكورة معروفون بصلتهم الوثيقة بالقاهرة ، فهل يكون تحركهم مدعوما من القاهرة ؟ وقد كانت اوساط حركة المقاومة ميالة الى الاعتقاد ان تحركهم ليس بالضرورة تحركا مدعوما رسميا من القاهرة .

والزاوية الثالثة: وهي الزاوية الهامة في الموضوع، وتتناول بالبحث دور « قاسم الريماوي » في هذا التحرك . اذ المعروف عن قاسم الريماوي ، أنه أحد رجال النظام الاردني البارزين ، ومن الاشخاص المقربين جدا الى وصفي التل . وكانت معلومات وصلت الى المقاومة تقول ان النظام الاردني قد انتدب الريماوي لمهمة خاصة هدفها ايجاد انقسام داخل منظمة التحرير الفلسطينية ، عن طريق الدعوة الى اجراء « اصلاح » في مسيرة العمل الفلسطيني ، ولذلك فان ظهوره في اجتماع القاهرة اثار الدهشة والاستغراب ، وألقى ظلالا كبيرة من الشك حول الهدف من هذا التحرك بالاساس .

ومع مضي الوقت لم تظهر أية نتائج عملية للاجتماع المذكور ، وكاد أن يغيب عن الذاكرة تماما ، لولا ان أعلن كمال ناصر في ٢٩ ك١ ان اللجنة التنفيذية ستستأنف سلسلة اجتماعاتها ، تتمة لاجتماعات سابقة ناقشت فيها نتائج الوساطة في جدة ، « وموضوع الانتخابات البلدية وسلسلة المشاريع المشبوهة التي يحاول العدو طرحها باسم الدولة الفلسطينية » ، وانها ستبحث في الاجتماعات المقبلة « اشراك عدد كبير من مفكري الشعب الفلسطيني والعربي وقياداته وقطاعاته الثورية والوطنية المخلصة للمساهمة معها في درس معالم

المرحلة وتقييمها ، واعادة النظر في القضايا التي يتوجب اعادة النظر فيها ، لتجديد الانطلاقةودفعها حتى النصر » . ولم يفهم تماما في حينه مغـزى هذا الكلام ، ولكنه اتضح تماما حين نشرت جريدة النهار في ٢١ ك ٢ ان اجتماعا سيعقد في القاهرة تحضره شخصيات من المقاومة (ابو عمار — ابو اياد — كمال ناصر) وشخصيات من الضفة الغربية (حكمت المصري — وليد الشكعة — موسى العلمي) وشخصيات مستقلة (عبد المجيد شومان — عبد المحسن قطان) . وارفقت صحيفة النهار معلوماتها بمقتطفات من تعميم داخلي لحركة فتح صادر في ١٥ ك٢ عن مكتب التعبئة والتنظيم ، ويتحدث عن اجتماع في القاهـرة تحضره حوالي ثلاثين شخصية فلسطينية ، ويشارك به أعضاء من قيادة فتح ، ومن اعضاء المجلس الثوري فيها . وذكرت النهار أن بعض المجتمعين « ينوون عرض فكـرة الحل الثالث الذي قد تدخل الامم المتحدة طرفـا فيه » أي اقامة وصاية على المناطق المحتلة لعدة سنوات يقـرر الفلسطينيـون بعدهـا مصيرهـم بالاستقلال او بالانضمام الى بلد عربي اخر .

وفور نشر هذا النبأ نفى السيد كمال ناصر « من القاهرة » ان مؤتمرا فلسطينيا قد عقد وقـال ان الدليل على أن هذه الانباء عارية عن الصحـة أن الشخصيات التي ذكر انها ستحضر الاجتمـاع ليست موجودة في القاهرة على الاطلاق ... وان اللجنة التنفيذية تقوم بمتابعة مسؤولياتها في ضوء قرارات المجلس الوطني ، بما في ذلك الاتصـال بكل قطاعات الشعب الفلسطيني. وهذه الاتصالات الدائمة لا تشكل تجاوزا على المؤسسات القائمة في منظمة التحرير ، الملتزمة بالميثاق الوطنـي . والواضح من كلام السيد كمال ناصر ، انـه لـم ينف نبأ الاجتماع ، ولكنه نفى ان يكون بعـض الاشخاص الذين ذكرت اسماؤهم قد تواجدوا في القاهرة ، اذ علم فيما بعد ان بعض المدعوين لم يتمكنوا او لم يرغبوا بالحضور ، بحيث اقتصر الاجتماع في النهاية على لقاء مصغر .

وقد أثار نبأ هذا الاجتماع — عكس نبأ الاجتمـاع السابق — اهتماما واسعا في اوساط حركة المقاومة لسببين : اولهما ورود اسماء قيادات اولى مـن حركة المقاومة مرشحة للاسهام فيه ، وثانيهمـا ، قبول هذه القيادات لاول مرة اجراء اتصالات خارج اطار منظمة التحرير مع الزعامـات التقليدية في المناطق المحتلة ، وفي وقت قررت فيه اسرائيل اجراء انتخابات بلدية في الضفة الغربية ، لا زال الموقف « الرسمي » لحركة المقاومـة منها حتى الان ، موقف الرفض والادانة . وتركز اهتمام اوسـاط المقاومة حول الخشية من أن تكون هذه الاتصالات فاتحة معالجة لموضوع الانتخابات « كأمر واقع » تقود بالرغم من النوايا الى مواقف سياسية من نوع جديد ، تمس جوهر بعض المواقف المبدئية .

والجدير بالذكر ان السيد ياسر عرفات كـان قد عقد ندوة مغلقة للشباب الفلسطيني في الجزائر في ٣ ك٢ ، ونشرت مقتطفات منها مجلة المجاهد الجزائرية ، لم ينف فيها نبأ هذه الاتصالات ، ولكنه ذكر انها كانت للتحذير ، وان هذا التحذير قد أثمر عن نتائج حسنة .

ومن الاحداث التي أثارت ضجة مماثلة في اوساط حركة المقاومة الفلسطينية ، المقابلة التي زعمت مجلة « اليمان » الفرنسية انها اجرتها مع السيد صلاح خلـف في ١٠ ك٢ ، والتي جـاء فيها أن المقاومة الفلسطينية « لم تعد تعارض الحل السلمي للنزاع شرط ان لا تقدم الدول العربية تنازلات ... ولكن ذلك لن يحل القضية الفلسطينية ، ولا يمكن حلها الا بفلسطين ديمقراطية » . ولكن حركة فتح سارعت في اليوم التالي الى نفي قصة المقابلة من الاساس قائلة ان موقف حركة فتح من القضايـا المطروحة في المجلة موقف واضح وصريح ، وان حركة فتح تؤكد أن شعار التحرير الكامل والدولة الديمقراطية ، شعار اسـتراتيجي واضـح ، لا يمكن التنازل عنه . ومن جهة اخرى ، نشرت انباء صحفية (النهار ١٤ ك١) تتحدث عن صراع داخل الجبهة الشعبية بين محورين يميني ويساري داخل القيادة المركزية للجبهة . وان مواضيع الصراع تـدور حـول قضايـا ١ — الوحـدة الـوطنية ٢ — العلاقات مع الانظمة العربية ٣ — الموقـف من النظام الاردني ٤ — العمليـات الخارجيـة وابرزها خطف الطائرات ٥ — الظاهرة العسكرية ٦ — مستقبل الجبهة . وقالت الانباء ان المحـور اليساري يطالب بالدعوة الى عقـد مؤتمر عـام للجبهة ، في حين يعرقل المحور اليميني عقد مثل هذا المؤتمر . وقد ردت لجنة الاعلام المركزية في الجبهة على النبأ ببيان رسمي ينفي قصة الصراع

من الأصل ويؤكد « أن مواقف الجبهة من كل المواضيع التي وردت في النبأ معلنة لجماهيرنا العربية والفلسطينية في تقرير الجبهة السياسي ومنشوراتها الاخرى ومجلتها المركزية (الهدف) . وأن هذه المواقف المعلنة حسمت كما تحسم كل القضايا التي تعرض وتناقش في صفوف الجبهة الشعبية قيادة وقاعدة ، بالطريق الديمقراطي الثوري ، ومن خلال عرض ومناقشة مختلف وجهات النظر داخل صفوف التنظيم ... » .

ومن المواقف السياسية التي حظيت باهتمام المراقبين رد فعل المنظمات والمؤسسات الفلسطينية على مطالب حركة الطلاب في مصر . اذ كانت الجبهة الشعبية قد اصدرت في ٢١ ك ٢ بيانا حيت فيه حركة الطلاب . بينما شارك اتحاد طلاب فلسطين (فرع لبنان) مع اتحادات عربية اخرى في اصدار بيان تأييد لحركة الطلاب في ٢٤ ك٢ ، كما شارك في اليوم التالي في التوقيع على بيان اخر ، وزع في مسيرة صامتة في الجامعة الامريكية. وكان السيد ياسر عرفات قد حضر في ٢١ ك٢ جانبا من اجتماع عقد بين وفد من طلاب مصر والسكرتير الاول للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي « سيد مرعي » .

٣ — حوادث العنف :

لم يكن مقتل وصفي التل الحادث الوحيد من نوعه ضد اركان النظام الاردني الذين اسهموا في تدبير وقيادة مجازر ايلول ١٩٧٠ وما تلاها من مجازر طوال عام ١٩٧١ . ففي ١٥ ك١ اطلق شاب النار على « زيد الرفاعي » سفير الاردن في لندن ، وهو في سيارته ، واصيب السفير بجروح نقل على أثرها الى المستشفى للعلاج . واعلنت « منظمة ايلول الاسود » في بيروت مسؤوليتها عن الحادث . وزيد الرفاعي أحد الاشخاص التسعة الذين كانوا في غرفة العمليات اثناء مجازر ايلول ١٩٧٠ . وفور الحادث اعرب وزير الخارجية البريطاني عن أسفه الشديد ، كما ابرقت الملكة اليزابيت الى الملك حسين قائلة « صدمت من انباء الاعتداء الغادر على سفيركم » ، وقامت المخابرات البريطانية بمضاعفة الحراسة على المسؤولين الاردنيين في لندن .

أما داخل الاردن فقد عقد مجلس الوزراء فورا اجتماعا استثنائيا لبحث ذيول الحادث . واسهم كل من عبد المنعم الرفاعي وبهجت التلهوني والملك حسين والأمير الحسن ووزارة الخارجية في استنكار الحادث ، واتهم ناطق اردني رسمي حركة فتح باغتيال وصفي التل ومحاولة اغتيال زيد الرفاعي (١٧ ك١) .

وفي مجرى التحقيق صدرت في لندن مذكرة توقيف بحق شاب جزائري غادر لندن الى باريس فور الحادث ، وقد اعتقل الشاب الجزائري في باريس يوم ٦ ك٢ ، وطلبت سلطات الامن البريطانية تسلمه للتحقيق معه ، وحتى الان لم يصدر اي شيء عن نتائج التحقيق .

وبعد حادث زيد الرفاعي بأربع وعشرين ساعة فقط، هز انفجار قوي مقر البعثة الاردنية في جنيف، وأسفر عن سقوط اربعة جرحى (ضابط سويسري — شرطيان — جريح لم تعرف هويته) ، واصدرت « حركة التحرر الوطني الاردني » في بيروت بيانا أعلنت فيه مسؤوليتها عن الحادث ، وقال البيان ان هذا العمل رد على « خيانة السلطة الحاكمة في الاردن ... وان الحركة تؤكد ان هذه العملية الرد الثوري لجماهير شعبنا على ضمانات السلطة الحاكمة في عمان » .

٤ — انطلاقة فتح والطرود المتفجرة :

في بداية عام ١٩٧٢ احتفلت حركة فتح بمضي سبع سنوات على انطلاقتها الاولى في عام ١٩٦٥ . وقد أجرى السيد ياسر عرفات بمناسبة هذه الذكرى، مقابلة صحفية مع جريدة « الجمهورية » القاهرية قال فيها « ان عام ١٩٧٢ هو عام التحديات الكبرى ، وانه ستكون امام الثورة الفلسطينية هذا العام معارك اساسية . وبدخول الثورة اليوم عامها الثامن تكون اطول ثورة فلسطينية وعربية مسلحة » . وفي مقابلة اخرى مع مجلة « روز اليوسف » قال عرفات « ان الفدائيين سيستعيدون مواقعهم في الاردن مهما كان الثمن » . بينما كتبت صحيفة فتح تقول ان امام الثورة الفلسطينية حاليا ثلاثة اهداف : ١ — اعادة الاردن كأهم قاعدة للمقاومة . ٢ — تأمين الوجود السياسي والعسكري للثورة في الارض المحتلة . ٣ — تحقيق وحدة اكبر بين المنظمات الفدائية .

وقد قامت فتح في ذكرى انطلاقتها بترتيب عملية « الطرود الملغومة » التي ارسلت بكميات كبيرة بالبريد من اوروبا ، الى عدد من المسؤولين السياسيين والعسكريين الاسرائيليين . واعلنت

اسرائيل لاول مرة عن اكتشاف هذه الرزم يوم ٢ ك٢ وحذرت الجمهور من فتح اي رزم مشتبه بها تأتيه من الخارج . وقد ملأت هذه الطرود مكاتب البريد في اسرائيل ، وفي ٩ ك٢ أعلن انه تم اكتشاف ما مجموعه ١٣ طردا ، انفجر منها حسب الرواية الاسرائيلية ثلاثة طرود فقط ، أدت الى اصابة مفتش شرطة وخبير متفجرات بجراح .

وقامت السلطات الاسرائيلية بتزويد المطارات ومكاتب البريد بآلات لكشف القنابل ، وتابعت تحذير السكان في الاذاعة اكثر من مرة ، من فتح الطرود المشتبه بها ، واجرت اتصالات مع الانتربول ومع السلطات النمساوية للتدقيق بالطرود قبل ارسالها بالبريد الى اسرائيل . وقد شكلت قصة الطرود المتفجرة مشكلة يومية على مدى اكثر من عشرة ايام للسلطات الاسرائيلية ، ونشرت جوا من الرعب والحذر في كل مكان .

وبالاضافة الى ذلك قامت فتح ايضا ، وكجزء من الاحتفال في ذكرى انطلاقتها بوضع قنابل موقوتة في بلدتي ناتانيا وكفار سابا شمالي تل ابيب ، أدى انفجارها يوم ٥ ك٢ الى جرح ٧ اشخاص . وقامت السلطات الاسرائيلية بوضع الحواجز على الطرقات واعتقال عدد كبير من السكان العرب ، قيل انه تم الاحتفاظ في النهاية بعشرة منهم فقط .

بلال الحسن

(٢) القضية الفلسطينية عربيا

مصر الان كلها تتحدث عن الحرب . ولم يبق مسؤول لم يؤكد ان الحرب هي الحل ، ولا غير الحرب سبيل . فهل ما جرى يعتبر تحولا ؟ واذا كان تحولا فماذا حدث ؟

ان ما جرى هو تحول فعلا . وهو تحول لان الاهتمام كان خلال سنة كاملة من آب ١٩٧٠ الى آب ١٩٧١ ينصب على التسوية السلمية ، ومن خلال : آ — الضغط الاميركي على دولة الاحتلال الصهيوني ب — ضغط الرأي العام الدولي . أما الان فان الاهتمام ينصب على الحديث عن الحسم والقتال . وهذا تحول كبير في الخط السياسي . واذا كان هنالك من نقد الى هذا التحول ، فيجب الا يكون مكابرة بانكار حدوثه ، بل يجب أن يتجه الى عدم تحقيق مستلزماته . فمثل هذا التحول السياسي يتطلب تحولا عميقا على مختلف الاصعدة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية . وما دامت هذه التحولات لم تتم ، فان كل المعنيين يحسون أن التحول — الذي حدث — هام ، بكل ما فيه من فانني اقول : ان ما حدث تحول ، وان كان تحولا ناقصا . فلا يكفي ان يكون هنالك قناعة بأنه ليس غير الحرب سبيل ، ولا يكفي أن يتخذ قرار الحرب، لان لهذا كله مقتضيات ومستلزمات لا بد منها . فاذا اتخذ القرار ، ولم تنجز متطلباته ، لم يأخذ التحول ابعاده الحقيقية . ومع هذا فان هذا التحول — الذي حدث — هام ، بكل ما فيه من نقائص . هام لانه عكس اتجاه السياسة ، في مصر ولهذا آثاره في الوطن العربي كله . وبعد أن كان اتجاه السياسة العربية اتجاه خنوع لسياسة الولايات المتحدة الاميركية وانجرار معها ، أصبح اتجاه تحفظ ازاءها ، وكشف لتآمرها ومشاركتها في العدوان . ان هذا التحول — اذا استمر — سيقود الى التحولات الاخرى حتما .

أما أسباب حدوث هذا التحول فهي في رأيي كثيرة، ولكنها تتلخص فيما يلي :

اولا : توافر قناعة شعبية عامة ، في مصر وسائر البلاد العربية انه ليس هنالك غير الحرب سبيل .

وهذه القناعة هي التي وقفت لمشروع روجرز وقفة صلبة ، ثم وقفت مع المقاومة وضد تصفيتها بأشكال مختلفة . ولقد ظلت هذه القناعة الشعبية ، منذ سنة ١٩٤٩ ، هي ضمانة عدم الانجرار مع تسوية استسلامية . ولو تزعزعت هذه القناعة لما وجدت بعض الانظمة ما يمنعها من توقيع صكوك الاستسلام ، ولكن هذه القناعة كانت تزداد كل يوم صلابة وعنفا ، وكانت لذلك تزيد العدو ، والانظمة المتداعية ارتباكا .

ثانيا : استمرار التعنت الاسرائيلي والاصرار على الاحتفاظ بالاراضي التي احتلت بعد سنة ١٩٦٧ . وكان استمرار التعنت هذا يحول دون التقدم في « مساعي السلام » . ولقد زاد الامر تعقيدا اصرار سلطات الاحتلال على المفاوضات المباشرة مع العرب ، وعلى الاعتراف بحدود آمنة معترف بها الخ . وكان هدف هذا التعنت المحافظة على الاراضي المحتلة ، والعمل في الوقت عينه من أجل تهيئة الاوضاع في البلاد العربية لقبول « استسلام نهائي » .

ثالثا : افتضاح الخداع الاميركي مرارا وتكرارا ، وافتضاح أمر الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة الاميركية . ولقد كانت الولايات المتحدة الاميركية تزعم بأنها تؤيد مساعي السلام ، وبأنها مستعدة للضغط في سبيل تحقيق « الخطوات المطلوبة » . وجاء سيسكو وروجرز الى المنطقة ومبعوثون اميركيون آخرون . ثم اعلن روجرز مشروعه ، وتجاوبت مصر . وهو ما لم يكن متوقعا في واشنطن وتل ابيب . ولذلك أخذت الولايات المتحدة الاميركية تتراجع عن مشروع روجرز ، وطرحت مشروع الحل الجزئي في محاولة للتراجع المنتظم ، ومن اجل انقاذ الوضع الآخذ في التدهور . ولم تتوقف الولايات المتحدة عند هذا ، بل استمرت في دعم دولة الاحتلال الصهيوني في كل المجالات: العسكرية والسياسية والاقتصادية . وكان هذا السلوك المرائي الوقح صفعة لسياسة التعاون مع الولايات المتحدة الاميركية ، واضطر حتى الحكام العملاء، مثل حكام الاردن ، ان يستنكروا سياستها .

رابعا : اقتناع الاتحاد السوفياتي ان الولايات المتحدة الاميركية تحاول « الاستفراد » بالمنطقة و« طبخ » الحلول الاميركية لها . وهذا الاقتناع كان لدفع الاتحاد السوفياتي في طريق العمل لاحباط المحاولات الاميركية الخبيثة ، كما أن سلوك دولة الاحتلال واستهتارها بالقرارات الدولية والهجمات التي شنتها الحركة الصهيونية العالمية على الاتحاد السوفياتي ، دفعت الاتحاد السوفياتي الى الاقتناع بأن الموقف يحتاج الى « رد » . كيف يكون الرد ؟ ما دامت المحاولات « السلمية » قد فشلت ، فليس هنالك غير المحاولات غير السلمية ، اي العسكرية. وتقود هذه القناعة الى زيادة المساعدات العسكرية من جهة ، والى قبول فكرة الحل الاخر ، الحل غير السلمي . ومثل هذا الموقف كان لا بد من ان يحدث أثره ، لا على مصر والوطن العربي فحسب، بل على أوساط واسعة من الرأي العام العالمي ، وخاصة الاحزاب الشيوعية ، الملتقية مع خط موسكو .

خامسا : تطور قوة مصر العسكرية ، من حيث المعدات والرجال والكفاءة . وكان لهذا التطور أثره في زيادة ثقة القيادة بنفسها ، وبقدرتها على أن ترد بحزم على محاولات العبور ، او محاولات الضرب في العمق ، المتوقعة من قوات الاحتلال ، في حالة عدم الخضوع . واليوم يتحدث الاسرائيليون عن الجيش المصري المرابط على القناة حديثهم عن قوة دفاعية جبارة ، وان كانوا يشككون بامكانياتها الهجومية .

سادسا : عجز كل مؤامرات القوى المضادة في الخارج ، وعجز كل عمليات قوات الاحتلال في الداخل عن سحق ارادة المقاومة عند الشعب الفلسطيني ، وعجز هذه القوى ، على الرغم من ضربتها الشرسة،عن أن تنهي المقاومة الفلسطينية. ولقد ظلت المقاومة الفلسطينية ، على الرغم من كل الضربات التي وجهت اليها ، صامدة في وجه كل الاعداء . وكان لا بد من ان يترك هذا الصمود، الذي أبداه الشعب الفلسطيني وابدته المقاومة الفلسطينية ، اثره في السياسة العربية والسياسة الدولية .

بدأ التحول ، كما ذكرنا ، في صيف ١٩٧١ ، وأخذ يتضح شيئا فشيئا . وحين زار الوفد الافريقي القاهرة ، في محاولة لايجاد مخرج لازمة « الشرق الاوسط » ، كان مستشار الرئيس السادات لشؤون الامن القومي يصرح « أنه ما من حل سلمي لان مصر ترفض صيغ الحلول المعروضة » لانها « تتناقض ... مع مشروع قرار مجلس الامن » .

ولم يلبث عبد القادر حاتم في اليوم التالي أن أدلى بتصريح أكثر خطورة جاء فيه : « ان هناك حملة اعلامية واسعة تديرها الدول الاستعمارية بقصد الايحاء بأن هنالك حلا سلميا وشيكا للصراع في الشرق الاوسط » . وأكد الدكتور حاتم : « أن كل المشروعات كاذبة ، وما يقال حولها يتميز بالمخادعة والمراوغة ، وانه ليس هنالك بديل للقتال ، لان اسرائيل ترفض الانسحاب » . وكان يمكن ألا تكون لهذا التصريح أهمية لولا ان مجلس الدفاع الوطني قد اجتمع في القاهرة ، بعد هذا التصريح . ومجلس الدفاع هذا هيئة استحدثت مؤخرا وتتلخص صلاحياتها « في تقرير سياسة الدفاع عن مصر ومستلزمات العمل لتحرير الارض المحتلة » (اليقظة العدد ٢٢١ – الكويت ١١/٨/١٩٧١) .

وبعد ذلك زاد الامر وضوحا ، عندما التقى أنور السادات برجال الاعلام – وهو أحد لقاءاته الرسمية والشعبية من اجل التعبئة . وقد كشف الرئيس السادات في هذا اللقاء عن « المساعي التي بذلتها مصر منذ حرب حزيران ١٩٦٧ الى الان من أجل تحقيق التسوية السلمية ... وعن الاتصالات مع الولايات المتحدة » . ثم أشار الى ان الوقائع اثبتت ، ان اسرائيل تساندها الولايات المتحدة : « ما زالت مصممة على مواصلة العدوان والتمسك بالاراضي العربية المحتلة وفرض الامر الواقع واستمرار تصعيد الموقف في المنطقة » . وبناء عليه فان السادات يرى انه « لم يعد هناك بديل للمعركة من اجل تحرير الارض المحتلة وتحقيق السلام القائم على العدل » . وذكر السادات ان هنالك « خطة اعلامية » توضع ، وان الهدف « بناء الدولة الحديثة عن طريق التكنولوجيا الحديثة ... » (النهار ٧١/١٢/٣) . كما انه أشار الى العلاقة بالولايات المتحدة قائلا : « دي الوقت تأكدت ليه كان عبد الناصر مش بيوثق بالاميركان . اميركا عايزه واحد لسانه زفر يتكلم عليها » . لقد وصل السادات اذن بعد سنة من المعاناة مع « الاميركان » الى ما وصل اليه عبد الناصر من قبل . أما بالنسبة للعلاقات مع السوفيات فقد أكد السادات ان العلاقات «أفضل من اي وقت مضى ومتينة جدا » . وكان السادات مصرا على ان الموقف يجب أن يحسم قبل نهاية ١٩٧١ ، لانه ان لم يحسم فسيبقى مجمدا حتى ١٩٧٤ لان رئيس اميركا الجديد « حيفضل قاعد سنتين يدرس لغاية ما يحدد سياسة جديدة يمشي عليها » . واضاف : « مش عايز تصبح قضيتنا زي قضية روديسيا كل سنة في سبتمبر بيلتقي ناس برثوها » . وحين تحدث عن المعركة قال : « ده قرار اتخذناه . المعركة قادمة ، هذا قرار لا بد من تنفيذه . أنا زرت الجبهة ومتأكد وواثق من قواتنا . واحنا بحثنا في كل شيء حتى في موضوع الذخيرة.حاسبين حساب حتى الرصاصة الواحدة. المعركة قادمة واذا كانت صحف بره بتقول كلام تاني خليها تقول . بكره لما حتبدى المعركة حتسكت. والمعركة زي ما انتو شايفين معركة مصر وانتو شايفين اوضاع الدول العربية . والتحرك الدولي لا يمنعنا ابدا من خوض المعركة » (النهار ٧١/١٢/٤) .

كانت الحرب في شبه القارة الهندية مشتعلة في هذا الوقت ، وكانت الجيوش الهندية تتقدم على باكستان الشرقية . وفي هذا الوقت كان محمود رياض وزير خارجية ج. م. ع. ينتقد بلهجة مهذبة الموقف الاميركي . وقد أشار الى أن « هناك تناقضا أساسيا بين تأكيدات الولايات المتحدة المتكررة بشأن تأييد قرار مجلس الامن وسياستها الواقعية الخاصة بتزويد اسرائيل بمساعدات عسكرية واقتصادية » . واضاف محمود رياض : « أن الالتزامات الاميركية كان يجب ان تجعل الولايات المتحدة تعارض سياسة اسرائيل التوسعية . وان الموقف الاميركي سمح لاسرائيل باستعمال قرار مجلس الامن كاداة للتهديد والابتزاز » (النهار ٧١/١٢/٤) .

وكان محمود رياض في هذا الوقت في الامم المتحدة، وكانت تصريحاته تختلف عن التصريحات في مصر. فمحمود رياض يؤكد ان مصر « ترغب في تجنب الحرب ... ان الحرب تعني القتل ... ونحن نريد ان نتجنب ذلك » . أما محمود فوزي فقد كان يصرح في هذا الوقت عينه : « أننا أمام حرب قائمة ، ولا أقول ستقوم ، لانها قائمة فعلا دفاعا عن الحقوق العربية وحقوق شعب فلسطين ... » . وكانت بعض صحف مصر تشير في هذا الوقت الى أن رئيس الاركان المصري اصدر قرارات عسكرية هامة « تؤدي الى التركيز على تطوير الوضع الاداري بالنسبة الى وحدات القوات المسلحة

وتحقق أقصى حد من التلاؤم بين الوضع المطلوب والامكانيات المتاحة » (النهار ٧١/١٢/٦) .

ولم تكن هذه « الازدواجية » غريبة ، لان مصر اليائسة من السلام ، كانت ما زالت تبحث عن « سرابه » في الامم المتحدة ، وكانت تحس بأن « المسعى السلمي » يجب ان يستمر في الوقت الذي يستمر فيه الاستعداد للقتال .

واستمر التحرك في الداخل ، ومنذ اجتماعات رؤساء الاركان العرب ومجلس الدفاع العربي معها ، بدأت لقاءات داخلية بين الرئيس السادات وقيادات المؤسسات السياسية والتنفيذية والمهنية، مهد لها باجتماعات على « أعلى مستويات العمل العسكري والسياسي والتنفيذي » . وقد التقى اضافة الى رجال الاعلام ، بأمانة اللجنة المركزية والمحافظين واعضاء الهيئة البرلمانية ، ومجلس الوزراء . وقد « حرص الرئيس على أن يضع صورة الموقف السياسي كاملة » ، كما « حرص على أن تكون اللقاءات لقاءات عمل ومصارحة بحيث صدرت عن اللقاءات قرارات تم ابلاغها للتنفيذ على الفور الى الجهات المختصة » (روز اليوسف ، العدد ٢٢٦٩ ، ١٩٧١/١٢/٦)

ونشر في هذا الوقت حديث انور السادات الى مجلة نيوزويك الذي يقول فيه : ان الولايات المتحدة « ضللته مرارا » (اللواء ، المحرر ٧١/١٢/٧) وروى كيف كانت الولايات المتحدة تمارس التضليل وتسعى الى انتزاع مزيد من التنازلات . فما كان من الولايات المتحدة الا ان اعلنت أنها لم تضلل احدا ، وحثت « مصر واسرائيل على استئناف المحادثات » (الحياة ٧١/١٢/٩) .

وهنالك وقائع ثلاث ، حصلت قبل نهاية كانون الاول (ديسمبر) وتستحق ان تذكر هنا :

الاولى : اجتماع رؤساء الاتحاد ٢٢ و٧١/١٢/٢٣. وقد أعلن فيما بعد ان الرؤساء درسوا خلال اجتماعاتهم في القاهرة « مشكلة العدوان الاسرائيلي على الامة العربية وخطوات ازالته ، وذلك على اساس المبدأين الآتيين : تحرير كل الاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل اثر عدوانها في الخامس من حزيران ، واحترام حقوق شعب فلسطين ودعم الثورة الفلسطينية وتأييدها » (النهار ، ٢٢ و ٢٤ و٧١/١٢/٢٥) .

الثانية : اجتماع المجلس الاعلى للقوات المسلحة . ويتكون هذا المجلس من وزير الحربية ونوابه ، ورئيس اركان الجيش وقادة القوات البرية والبحرية والجوية ومدير المخابرات الحربية . ومن صلاحيات هذا المجلس « البحث في المسائل الاستراتيجية العسكرية والموضوعات المتصلة بالامن القومي . وكان آخر اجتماع لهذا المجلس قد عقد يوم ١٩٧١/١١/٩ (الاهرام ٧١/١٢/٢١ والنهار ٧١/١٢/٢٢) .

الثالثة : اجتماع اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي مع مجلس الشعب ، بحضور الحكومة والرئيس السادات . وقد اصدرت اللجنة المركزية بعد الاجتماع بيانا هاما جاء فيه : ١ — « تأكيد القرار الذي اتخذته اللجنة المركزية في اجتماعها المؤرخ في الثامن من كانون الاول ، من انه لا سبيل الى تحرير الارض الا بالمعركة ، والمعركة حتى النصر ». ٢ — « ان الشعب العربي مطالب اليوم بأن يتخذ موقفا واضحا محددا ازاء موقف الولايات المتحدة ، والا تخدعه بعد الآنمناوراتها وتصريحات مسؤوليها. فالعبرة بالعمل ، وقد اثبتت الولايات المتحدة الاميركية ان عملها منذ عدوان ١٩٦٧ ، بل من قبل العدوان ، موجه ضد مصالح الشعب العربي » . ٣ — « تأييد الجهود الديبلوماسية التي بذلتها الحكومة (المصرية) طوال السنوات الماضية على الصعيد العالمي ، وفي وجه خاص في المرحلة الاخيرة ، والتي كان لها فضل انكشاف الموقف الاسرائيلي — الاميركي امام الرأي العام العالمي ، ودعوة الحكومة الى بذل هذه الجهود ». ٤ — « ان الجبهة الداخلية هي العامل الحاسم من بين عوامل النصر ... من هنا فان الواجب الاساسي ... هو العمل ليل نهار وفي اقصى سرعة ممكنة على تنظيم جبهتنا الداخلية وتعبئة جهود جماهيرنا الخلاقة تعبئة سليمة ، بحيث تصبح المعركة ، ولا شيء سوى المعركة ، شغلها الوحيد وسلوكها اليومي » (النهار ٧١/١٢/٢٩) .

كان العام يسير الى نهايته ، والناس ينتظرون قرار الحسم . كانت القلوب والابصار مشدودة الى القاهرة . والكل يريد ان يسمع كلمة عن قرار الحسم ، وعن المعركة . وفي هذه الاثناء اخذت الدوائر الامبريالية — الصهيونية تذيع اخبارا عن كميات كبيرة من الاسلحة السوفياتية التي

ارسلت الى مصر . وكان ان اصدرت مصر تكذيبا يؤكد ان الولايات المتحدة واسرائيل هما اللذان يروجان هذه الانباء من اجل تبرير تزويد اسرائيل بمزيد من الاسلحة ، (الحياة ٧٢/١/٥). وكان نيكسون قد اعلن ان قرارا جرى اتخاذه حول تزويد اسرائيل بطائرات الفانتوم ، لكنه رفض ان يحدد موعد تنفيذ هذا القرار . وما لبث روجرز ان صرح في مقابلة تلفزيونية قائلا : « وفي هذه الظروف فاننا نتوقع مواصلة تزويد اسرائيل بالاسلحة لنتأكد من عدم تحول الميزان » (النهار ٧٢/١/٥) .

وكانت مصر في هذا الوقت ما زالت منهمكة بتحركاتها الداخلية واتصالاتها العربية والخارجية . فقد سافر صادق الى ليبيا ، ثم ما لبث حاتم ان اتجه اليها . واجتمع محمود رياض، بعد القرار الاميركي، مع سفراء بريطانيا وسويسرا واسبانيا . وكان مقررا ان يزور محمود رياض الصين في ٧٢/١/٢١، بعد زيارته للكويت وابو ظبي ودبي ومسقط والبحرين وقطر .

وبدأت التكهنات حول الحرب المقبلة . قيل لقد اتخذ القرار السياسي ، ولم يبق الا تحديد زمان المعركة ومكانها . ولكن هل ستكون المعركة حربا شاملة ، أم حرب استنزاف ؟ واخذت التكهنات كل مأخذ ، وان كان هناك قطاع كبير من الرأي العام العربي لا يصدق ان الحرب قادمة . وكان هنالك من يرى ان السادات سيبدأ « هجوما ادنى من الحرب الشاملة ولكنه يتعدى في اتساعه وكثافته نطاق « حرب الاستنزاف » ... ويضيف اصحاب هذا الرأي « ان الرئيس السادات سيركز بصورة خاصة على عمليات انهاك داخل الاراضي المحتلة تقوم بها نخبة قوات الكوماندوس المصرية ، في حين يقوم سواد الجيش بالمرابطة بقوة وراء اسلحته الدفاعية الضخمة لصد هجمات الثأر الاسرائيلية » (الجديد العدد ٢٦٥ ، ١٩٧٢/١/٧) .

وقال الدكتور محمود فوزي رئيس الوزراء في زيارة له لاحدى القواعد العسكرية في هذا الوقت بعينه ان « ... حساباتنا جميعا قائمة على اساس النصر ولا بديل للنصر ... » واثنى على القوات المسلحة « على ما وصلت اليه من تنظيم واعداد وحسن اداء ... » واضاف : « وهو ما تفتقده الجبهة الداخلية في الوقت الحالي ، ولا نألو جهدا في معالجته ... » (الاهرام ٧٢/١/٧) . وكان مثل هذا الكلام الموزون من شيخ عاقل مجرب يزيد التساؤلات حول امكانية السير على طريق الحرب. ومع هذا فقد ظل الناس ، والعامة خاصة ، ينتظرون ان تقول مصر شيئا عن الحسم وعن قرار الحسم . ولم يطل بهم الانتظار . ذلك أن الرئيس السادات ألقى خطابا هاما يوم ١/١٣ . وكان أبرز ما في الخطاب قول السادات انه كان قد قرر خوض الحرب قبل نهاية سنة ١٩٧١ ، وكان كل شيء يسير على ما يرام خلال تشرين الثاني . وقبل ان تحين ساعة الصفر وقعت الحرب الهندية الباكستانية ، وتغير كل شيء . ومع ان حربا كالحرب الهندية ـ الباكستانية مبرر مقبول لعدم الاقدام على حرب ثانية ، فان خطاب الرئيس السادات أثار الكثير من الجدل . ذلك ان كثيرين تساءلوا : أيجوز ان نعلن أننا قررنا خوض الحرب في حالة اتخاذ القرار بذلك ؟ وتساءل آخرون : كيف يمكن ان تكون مصر مستعدة للحرب وعازمة عليها ، في الوقت الذي نجدها فيه تعلن على ألسنة مسؤوليها أنها ما زالت تستعد ، وان الجبهة الداخلية ما زالت بحاجة الى كثير من العمل .

وجاء بعد ذلك التغيير الوزاري ، والتغيير الذي حدث في الاتحاد الاشتراكي ، وقد لوحظ في هذا التغيير ما يلي : اولا : ان العناصر المحافظة والمعتدلة (محور فوزي ، عزيز صدقي ، سيد مرعي) هي التي تسلمت مقاليد الامور في البلاد ، رسميا وشعبيا . ثانيا : ان عودة هذه العناصر تطرح على بساط البحث اسلوب بناء الجبهة الداخلية بناء سليما متماسكا ومسألة الاتجاه نحو الحرب .

ونتيجة لهذا كله حدثت انتفاضة الطلاب . ولقد امتازت انتفاضة الطلاب بالميزات التالية : اولا : طرحت موضوع السياسة الداخلية والخارجية طرحا واعيا رزينا . ثانيا : اعطت لمطالبها وجها عربيا ، (تأييد المقاومة ، قطع العلاقات مع النظام العميل في الاردن ... الخ) . ثالثا : بدت منظمة ، تعرف ما تريد وما لا تريد ، وابتعدت عن الممارسات الطفولية والعشوائية ، وأظهرت قدرة في السيطرة على كل اعمالها وضبط عناصرها واكتشاف المندسين . كما أنها استخدمت التكتيكات المناسبة في تضييق جبهة الاعداء وتوسيع جبهة الاصدقاء ، وفي اكتساب عطف الجماهير . رابعا :

أخذت موقفا سلبيا ووطنيا من القضية الفلسطينية (رفض الحلول الاستسلامية ، رفض قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ ، تأييد المقاومة ، السماح للمواطنين المصريين بالانخراط في صفوفها) .

وكان هذا كله ما يعتبر تطويرا لموقف الطلبة في مصر . ذلك ان انتفاضتهم سنة ١٩٦٨ كانت اقرب الى العفوية ، وهي تجيء اليوم أكثر نضجا من حيث الخط ومن حيث الممارسة . وهذا ما يجعل هذه الانتفاضة اكثر اهمية . وقد تتحول الى حركة (الدستور ، العدد ٦٨ ، ٧٢/١/٣١ ، البلاغ ، العدد ٤ ، ٧٢/١/٣١) .

ومن الضروري متابعة التفاصيل عن هذه الحركة الرائدة . من الضروري مثلا دراسة مطالب الانتفاضة ، ومن الضروري تتبع اخبار مظاهراتها والاساليب التي اتبعت فيها ، كما أنه من الضروري معرفة مدى الانضباط الذي تحلى به المتظاهرون والمعتصمون كما أنه من الضروري معرفة الاساليب التي نقلوا بها قضيتهم الى الشعب والى المؤسسات الحكومية والشعبية . فمما هو جدير بالاهتمام والاحترام ان الطلاب نقلوا حركتهم الى الشارع . ومما هو جدير بالاهتمام أيضا ان الطلبة كانوا يتظاهرون ، ويطرحون شعاراتهم ، فاذا اندس بينهم غريب اكتشفوه فورا ، واخرجوه . وكان قادة المجموعات يوزعون الشعارات على المتظاهرين مكتوبة ، وخلال سيرهم . ومما هو جدير بالاهتمام أيضا ان المتظاهرين لم يرجموا مؤسسة ، ولم يقوموا بأي عمل يبرر قمعهم . ثم ان ما هو اكثر من هذا اثارة للاهتمام اتخاذ الطلاب موقفا وديا من رجال الشرطة والامن والجيش الذين يهاجمونهم ، والاصرار على الدخول في حوار ودي معهم لافهامهم اهداف الانتفاضة . ولقد برزت « العبقرية الجماهيرية » في مواقفهم ومجلاتهم ونشراتهم وجرأتهم . وقد لجأت السلطة الى المواجهة فدخلت الحرم الجامعي ، واحتجزت اكثر من الف من الطلاب اطلق معظمهم وما يزال بعض منهم معتقلا .

والان ، عند كتابة هذه السطور اواسط فبراير ، يقترب موعد افتتاح الجامعة ، كما ان موعد المؤتمر الطلابي الذي سيعقد يوم ٢/١٩ ، كما هو مقرر ، اصبح وشيكا ، والسلطة ليس امامها الا ان تصل الى اتفاق مع الطلاب ، وهذا يعني شيئا كثيرا . . . يعني انقلابا في خط النظام وخططه ، او ان تلجأ الى اغلاق الجامعات والى مزيد من الاجراءات . فماذا سيفعل الرئيس السادات ؟ لقد ذهب الى موسكو ويوغسلافيا ، ثم الى سورية وليبيا . ومثل هذه التحركات قد توحي بأنه جاد في قضية السير على طريق الحرب ، ولكن المشكلة الاساسية هي المشكلة الداخلية في مصر ، مشكلة قناعة الجماهير بأن الحكومة التي تحكمهم قادرة على أن تقودهم على طريق الحرب ، وبأن السياستين الداخلية والخارجية منسجمتان مع متطلبات قرار الحرب .

وتبقى نقطة القوة الكبرى في الوضع الجديد في مصر هي ان الجماهير المتفرجة وغير المبالية والخائفة والمكبوتة اخذت تحاول استعادة دورها في توجيه دفة الحكم وتقرير السياسة الوطنية .

ناجي علوش

(٣) القضية الفلسطينية دوليا

تركزت أهم التطورات الدولية المتعلقة بالنزاع العربي الاسرائيلي في الفترة الاخيرة حول الموقف الامريكي والاجراءات العملية التي نتجت عنه مؤخرا ، وحول مشروع القرار الافرو — اسيوي الذي تبنته الجمعية العامة لهيئة الامم بصدد مساعي التسوية السلمية ومهمة يارينغ في المنطقة ومواقف الاطراف المعنية مباشرة من القرار .
وسنبدأ بالموقف الامريكي .

يبدو أن الولايات المتحدة قد استنفدت اغراضها من عملية حلول وساطتها بين الجانبين العربي والاسرائيلي ، محل وساطة يارينغ وما تلا ذلك من خطوات لفرض الهيمنة الامريكية شبه التامة على « مجهودات السلام » في الشرق الاوسط . وهذا يعني ان السياسة الامريكية قد استنفدت اغراضها من طرح مشروع التسوية الجزئية (الذي احتل مركز الصدارة ، لعدة اشهر ، في التطورات الدولية المتعلقة بالنزاع في منطقتنا) وما رافقه من جدل مطول وعقيم ، ومماطلات مستمرة بأسم « الدبلوماسية الهادئة » و« تقريب وجهات النظر بين الطرفين العربي والاسرائيلي » ، هذا بالاضافة الى ما رافقه ايضا من زيارات كثيرة قام بها مسؤولون امريكيون كبار الى مصر واسرائيل (روجرز ، سيسكو ، ستيرنر ، اندرسون ، الخ..) ومشاريع وسطية امريكية تدعي محاولة التوفيق بين المطالب الاسرائيلية والمصرية ، بالنسبة لشروط اعادة فتح قناة السويس . وقد ظهرت بوادر هذا الواقع الجديد الى العلن قبل حلول موعد مناقشة قضية الشرق الاوسط في هيئة الامم بفترة قصيرة (أواخر شهر تشرين الثاني) عندما أعلنت الولايات المتحدة تجميد وساطتها بين الدول العربية واسرائيل . واذا لم يجهز هذا التجميد نهائيا على مشروع التسوية الجزئية فانه يكون قد وضعه على الرف حتى اشعار آخر . تكشفت ابعاد الموقف الامريكي عبر سلسلة من الاجراءات المتلاحقة تلخصت بعدم تأييد الولايات المتحدة لقرار الجمعية العامة لهيئة الامم الخاص بالشرق الاوسط، وبقرار الرئيس نيكسون تزويد اسرائيل بعدد جديد من طائرات الفانتوم والسكاي هوك ، وبعقد اتفاقية بين وزارة الدفاع الامريكية واسرائيل تمكن الاخيرة من انتاج المعدات العسكرية الامريكية محليا .
ويعني كل هذا ان الاشهر العديدة التي قضاها الجانب العربي في التعامل مع الوساطة الامريكية على أمل ان تؤدي الى تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ (عبر التسوية الجزئية او غيرها) قد ذهبت هدرا وهباء .

وجدير بالذكر هنا انه كان قد تم الاتفاق سرا حول صفقة الفانتوم اثناء زيارة غولدا مائير للولايات المتحدة في اوائل شهر كانون الاول حيث قابلت الرئيس نيكسون وكبار المسؤولين وطالبتهم بتحذير الاتحاد السوفياتي من التدخل على نطاق واسع في حال نشوب اي قتال في الشرق الاوسط . ولم تظهر « الثمار » الحقيقية للزيارة حتى الاسبوع الاول من كانون الثاني حين اكد وليم روجرز ، ان بلاده ستزود اسرائيل بمزيد من طائرات الفانتوم والسكاي هوك كي لا يتحول ميزان التسلح في المنطقة لمصلحة مصر . وذكر روجرز انه مع ان ميزان التسلح لم يتحول بعد لمصلحة مصر فان حكومته قررت تزويد اسرائيل بالطائرات منذ الان كي لا يتحول الميزان ضدها في المستقبل . (راجع الرسالة الملحقة التي بعثها مراسل « شؤون فلسطينية » في الولايات المتحدة حول الضغط الصهيوني — الاسرائيلي على الاجهزة الامريكية للحصول على الطائرات) . وفي منتصف الشهر نفسه أكدت الحكومة الامريكية ايضا أنها عقدت اتفاقية مع اسرائيل تمكن الاخيرة من انتاج معدات عسكرية « دفاعية » صممت في الولايات المتحدة .
ومن المتفق عليه بين المراقبين المطلعين ان هذه الاتفاقية ستمكن اسرائيل من تحقيق قدر كبير من الاكتفاء الذاتي في الانتاج الحربي ، كما انها ستقوم بتصدير المعدات الامريكية التي تنتجها محليا الى بلدان اخرى .

ومعروف أن امريكا لا تعقد مثل هذه الاتفاقيات الا مع البلدان الداخلة في أحلاف ومعاهدات دفاعية معها مثل دول الحلف الاطلسي واليابان وكوريا الجنوبية وايران . وتجدر الاشارة أيضا الى أن تكشف الموقف الامريكي على حقيقته في موضوع

الوساطة في الشرق الاوسط قد رافق تصاعد القلق الامريكي الواضح ، خاصة بعد الحرب الهندية الباكستانية ، من القوة البحرية السوفياتية المتعاظمة ، خاصة في المحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط . ففي مقابلة مع صحيفة « النيويورك تايمز » قال الرئيس السادات ، في منتصف شهر كانون الاول ، بأن مصر ستقدم تسهيلات بحرية للاتحاد السوفياتي بعد حلول التسوية السلمية المحتملة وانها ستحتفظ بالخبراء السوفيات في جيشها . وفي الاجتماع الذي تم بين رئيس الوزراء البريطاني والرئيس نيكسون اعرب الزعيمان الامبرياليان عن « قلقهما العميق » من استمرار الحشد البحري والجوي السوفياتي في حوض البحر الابيض المتوسط وفي مصر ، ومن انتشار النفوذ السوفياتي .

أما على الصعيد التنفيذي فقد عكس هذا القلق نفسه في مشروع الموازنة الامريكية الجديدة حيث افردت مخصصات ضخمة لتقوية البحرية الامريكية عن طريق بناء غواصات ومدمرات اضافية وحاملة طائرات جديدة ، وفي موقف امريكا المؤيد للوصول الى اتفاق مالي بين بريطانيا ومالطا للابقاء على القاعدة البحرية التي يستخدمها الحلف الاطلسي في الجزيرة ، يضاف الى ذلك الاتفاقية الجديدة مع اليونان حول استخدام الاسطول السادس لموانئه واقامة قواعد له هناك ، والاتفاقية مع البحرين حول القاعدة البحرية التي اخلتها بريطانيا مؤخرا بحيث يقوم الاسطول الامريكي في الشرق الاوسط باستخدامها . كل هذه الاعتبارات مضافة الى تسليح اسرائيل على النحو الذي ذكرنا ، تشير الى عزم امريكا انتهاج سياسة « قوية » في الشرق الاوسط والمحافظة على نفوذ عسكري كبير في المتوسط والخليج العربي .

اما على صعيد هيئة الامم فقد قامت بعثة « السلام الافريقية »بتقديم تقريرها عن النزاع العربي الاسرائيلي وامكانات تسويته سلميا الى يوثانت عشية بدء مناقشة قضية الشرق الاوسط في الجمعية العامة . وعلى أساس نتائج بعثة الرؤساء الافريقية قامت ١٨ دولة افرو — آسيوية (بالاتفاق مع مصر) بتقديم مشروع قرار حول تسوية النزاع في الشرق الاوسط الى الجمعية العامة ، وبعد ادخال عدد من التعديلات التي طالبت بها بعض دول اوروبا الغربية وافقت الجمعية على مشروع القرار في ١٤ كانون الاول ١٩٧١ . وتضمن القرار النقاط الرئيسية التالية :

(١) الدعوة الى تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بكل عناصره .

(٢) التعبير عن القلق الشديد بسبب استمرار احتلال اسرائيل للاراضي العربية مع التاكيد مجددا على رفض مبدأ الاستيلاء على الاراضي بالقوة .

(٣) التأكيد مجددا على أن اقامة السلام في الشرق الاوسط يتطلب انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة وانهاء كل حالات العداء بين الاطراف المعنية والاعتراف بحق كل دولة في المنطقة بالعيش في سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها .

(٤) التمني على الامين العام لهيئة الامم باتخاذ الاجراءات الضرورية لاحياء مهمة ممثله الخاص في الشرق الاوسط من أجل تسهيل الوصول الى اتفاق سلام .

(٥) تسجيل الارتياح حول جواب مصر الايجابي على مذكرة يارينغ المؤرخة في ٨ شباط ١٩٧١ .

(٦) الطلب من اسرائيل الرد بالايجاب على مذكرة يارينغ نفسها .

(٧) دعوة الاطراف في النزاع الى التعاون مع يارينغ من اجل ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة ، وتحقيق حل عادل لمشكلة اللاجئين وضمان السلامة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة من دول المنطقة .

(٨) الطلب الى الامين العام رفع تقرير الى مجلس الامن أو الجمعية العمومية حول التقدم الذي يحققه الوسيط الدولي في مجال وضع قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ والقرار الحالي موضع التنفيذ .

(٩) التمني على مجلس الامن ان يفكر ، اذا دعت الحاجة ، في اتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذ قراره وفقا لمواد ميثاق هيئة الامم المتحدة .

صوتت الى جانب القرار ٧٩ دولة وعارضته ٧ دول بينما امتنعت ٣٦ دولة عن التصويت . ومن الامور التي لفتت انتباه المراقبين امتناع كل من ليبيا وسوريا عن التصويت بالرغم عن كونهما اعضاء في الاتحاد الثلاثي وبالرغم عن ان مصر اعتبرت

القرار نصرا كبيرا لدبلوماسيتها في هيئة الامم وعلى الصعيد الدولي . كذلك امتنعت عن التصويت كل من السنغال وزايره (الكونغو كينشاسا سابقا) والولايات المتحدة والصين . جاء امتناع السنغال وزايره — بالرغم عن مشاركة رئيس كل من البلدين في بعثة السلام الافريقية — نتيجة اعتقادهما ان بنود مشروع القرار ، غير ممثلة بما فيه الكفاية لروح النتائج التي توصلت اليها لجنة رؤساء الدول الافريقية . أما مندوب الولايات المتحدة في هيئة الامم فقد اعلن أن سبب امتناع دولته عن تأييد القرار يعود الى رفضه من قبل اسرائيل . وجاء امتناع الصين انسجاما مع موقفها الاصلي في رفض قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ كأساس لتسوية النزاع العربي الاسرائيلي . وجدير بالذكر ايضا ان غالبية دول اوروبا الغربية وامريكا اللاتينية قد صوتت لصالح القرار . وكان ذلك منسجما مع موقف الدول الاوروبية الغربية المؤيدة لقرار مجلس الامن المذكور وما تفرع عنه من تفصيلات ومشاريع اجراءات عبر وساطة يارينغ واتصالاته ، ومع رغبتها في اعادة فتح قناة السويس واعادة « الهدوء والاستقرار » الى الشرق الاوسط .

مثل قرار الجمعية اقصى ما يمكن ان تحققه الدبلوماسية العربية من مكاسب — ضمن منطق الحل السياسي للنزاع طبعا — على صعيد هيئة الامم وصعيد كسب تأييد الرأي العام العالمي الرسمي الى جانب الموقف العربي الرسمي ايضا. الا ان الرفض الاسرائيلي لقرار الجمعية العامة والتأييد الامريكي لاسرائيل في موقفها يعنيان تجميد القرار الى أجل غير مسمى مما يضع الجانب العربي في موضع محرج ، اي موضع من يعتبر نفسه قد حقق انتصارا دبلوماسيا على الصعيد الدولي ولكنه غير قابل للتنفيذ او التطبيق ، مما سيجعل اي لجوء الى هيئة الامم في المستقبل مجرد عملية دوران في حلقة مفرغة وتهرب صريح من مواجهة حقيقة المجابهة مع اسرائيل والامبريالية وما تتطلبه من اجراءات جذرية لتبديل الواقع القائم على الارض العربية في الوقت الحاضر .وبعد صدور قرار الجمعية العامة وقيام اسرائيل بتفنيه علنا عمدت الولايات المتحدة بدورها الى تحويل الانظار عنه بواسطة العودة الى الكلام مجددا عن الوساطة الامريكية بين الطرفين العربي والاسرائيلي . ففي اواخر كانون الثاني صرح وليام روجرز بأن بلاده ستواصل القيام بدور مهم في الاتصالات الدبلوماسية الخاصة بالشرق الاوسط بالرغم عن بيانات الرئيس السادات حول قطع كل اتصال مصري مع واشنطن . كما اعرب عن استعداد بلاده لمواصلة القيام بدور الوسيط (بالاضافة الى وساطة يارينغ) اذا كان الطرفان راغبين في ذلك ، واكد بأن امريكا ستستمر في القيام بدور مهم في الجهود الدبلوماسية لتسوية ازمة الشرق الاوسط . وفي مناسبة اخرى استمر روجرز في تجاهل قرار الجمعية العامة لهيئة الامم وعمد الى تحويل الانظار عنه وتركيزها على دور الولايات المتحدة عن طريق الاعلان عن ان بلاده ستستمر في مساعيها للوصول الى تسوية جزئية حول قناة السويس وستحث كذلك كلا من الطرفين على استئناف محادثاتهما باشراف يارينغ للوصول الى تسوية نهائية . واستمرارا لهذا الخط اعلنت وزارة الخارجية الامريكية ان وليم روجرز بدأ مسعى جديدا لايجاد تسوية سلمية مؤقتة في الشرق الاوسط وانه قام بالاتصال بمحمود رياض وابا ايبان بغية احياء وساطة السلام الامريكية من جديد .

اما بالنسبة للوسيط الدولي يارينغ فقد قام باتصالات ديبلوماسية في هيئة الامم مع عدد من ممثلي الاطراف المعنية بالنزاع في الشرق الاوسط بما في ذلك الامين العام الجديد كورت فالدهايم تمهيدا لامكان استمرار مهمته على ضوء القرار الذي اتخذته الجمعية العامة . وتعزيزا لهذا التمهيد قام الوسيط الدولي بزيارة السنغال وموريتانيا حيث قابل الرئيسين سنغور وولد داده باعتبار انه كان لهما نشاط ملحوظ بالنسبة لمساعي دول منظمة الوحدة الافريقية للتوسط في موضوع تسوية النزاع العربي الاسرائيلي . كما ترددت انباء عن احتمال زيارة يارينغ للقاهرة والقدس في المستقبل القريب. وبهذه المناسبة كانت التصريحات الامريكية تميل الى التشكيك في أن يتمكن يارينغ من اقامة حوار مثمر بين الطرفين المعنيين على أساس مقترحات بعثة السلام الافريقية وقرار الجمعية العامة المذكور آنفا ، مع ان المصادر الامريكية تمنت له النجاح في مساعيه . وواضح ان حملة التشكيك هذه هي جزء من السياسة الامريكية الرامية الى تحويل

الانظار عن قرار هيئة الامم وتوجيهها نحو الكلام الذي يقال — بصورة غير جدية ابدا — حول احياء الوساطة الامريكية من جديد والعودة الى مشروع اجراء محادثات عربية اسرائيلية غير مباشرة فـي نيويورك تحت اشراف سيسكو او مسؤول اخـر كبير من وزارة الخارجية الامريكية ، وهو المشروع الذي كان قد أشار اليه الرئيس السادات في مقابلته مع مجلة « نيوزويك » الامريكية (٦ كانون الاول ١٩٧١) حيث ذكر انه طلب من الدكتور مراد غالب تمثيل مصر في هذه المحادثات . وعلى صعيد اخر لا بد من الاشارة ايضا الى التطورات الاخرى التي جرت في هيئة الامم بالنسبة للنـزاع في الشرق الاوسط :

(١) في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني ابلغ يو ثانت مجلس الامن الدولي بأنه لم يتمكن من ارسال بعثة دولية للتحقيق في اوضاع القدس كما طلب منه المجلس سابقا بسبب رفض اسرائيـل التعاون مع المنظمة الدولية في هذا الموضوع (راجع « شؤون فلسطينية » ، عدد ٥ ، ص ٢١٥) .

(٢) اتخذت اللجنة السياسية الخاصة في هيئة الامم في اوائل كانون الاول مجموعة قرارات جديدة تندد بأساليب اسرائيـل في التعامـل مع اللاجئـين الفلسطينيين . وافقت اللجنة ، بهذا الصدد ، على قرار يدعو اسرائيل الى عدم تدمير اية منـازل اضافية تابعة للاجئين او نقلهم من مخيماتهم ، كما وافقت على قرار آخر يعرب عن « قلقها العميق » لان حقوق الشعب الفلسطيني الاساسية والثابتة قد انكرت عليه كما منع من ممارسة حقه في تقرير المصير . واكد القرار ان ممارسة هذه الحقوق أمر ضروري لقيام سلام عادل ودائم فـي الشرق الاوسط . بالاضافة الى ذلك وافقت اللجنة على قرار آخر يلاحظ « بأسف عميـق » ان اعادة اللاجئين او التعويض عليهم لم يتحققا حتى الان، ثم ناشدت اللجنة كافة الدول التبرع بسخاء لوكالة الغوث .

(٣) في النصف الثاني مـن كانون الاول وافقت الجمعية العامة للامم المتحدة على مشروع قرار يدعو اسرائيل الى نقض الاجراءات التي اتخذتها في الاراضي العربية المحتلة والسماح لسكان هذه الاراضي الذين فروا او ابعـدوا بالعودة الـى منازلهم . وقد تضمن القرار تقرير اللجنة السياسية الخاصة المستند الى تقرير لجنة هيئة الامم الثلاثية التي عهد اليها التحقيق في الاجراءات الاسرائيلية التي تنتهك حقوق الانسان في الاراضي المحتلة . ودعا القرار اسرائيل الى الامتناع عن كل سياسة او اجراء يؤديان الى : (أ) ضم اي جزء مـن الاراضي العربية المحتلة . (ب) انشاء مستعمرات اسرائيلية في هذه الاراضي ونقل بعض سكانهـا المدنيين الى اراض محتلة أخرى . (ج) تدمير او نسف القرى او الاحيـاء او المنازل ومصـادرة الممتلكات او استملاكها . (د) اجلاء سكان الاراضي المحتلة او ابعادهم او نقلهم او طردهم . (هـ) انكار حقوق اللاجئين والمشردين في العودة الى ديارهم . (و) اساءة معاملة المعتقلين والسجناء او تعذيبهم . (ز) فرض العقوبات الجماعية .

كما اكد القرار ان كل الاجراءات التي اتخذتهـا اسرائيل للاستيطان في الاراضي المحتلة ، بما فيها القدس المحتلة ، باطلة كليا ولاغية المفعول . وحث القرار اسرائيل علـى الانصياع لمواثيـق جنيف بالنسبة لحماية المدنيين في زمن الحرب . كذلك طلب من اللجنة الدولية الثلاثيـة مواصلة عملهـا ، بالتشاور مع الصليب الاحمر الدولي ، لصيانة حقوق الانسان في الاراضي المحتلة .

اما بالنسبة للاتحاد السوفياتي فقد كان ارتياحه ظاهرا لانكشاف حقيقة السيناريـو الامريكي في موضوع الوساطة في النزاع العربي الاسرائيلي بعد قرار شحن طائرات الفانتوم لاسرائيل ، خاصة وان القيادة السوفياتية كانت قد وجهت نقدا شديدا ومتكررا ضد محاولات الولايات المتحدة الهيمنة على مساعي التسوية وتحويلها الى مسألة امريكية صرف ، كما وجهت النقد ايضا الى ميل الموقف العربي الرسمي نحو القبول بالوساطة والاعتماد على الوعود التي رافقتها . ومن الملفت للانتباه ان مصادر الاعلام السوفياتية ذكرت ما معناه ان قرار شحن طائرات الفانتوم لاسرائيل يشكل « نهاية المهزلة » ، اي مهزلة الوساطة الامريكية المنفردة وقبول الجانب العربي بها كل هـذه المدة ، ثم تجميدها ونسفها ، من قبل اصحابها ، بصورة مذلة اعطت اسرائيل كل ما تريد ولم تقدم للجانب العربي اي تنازل من قبل القوى العدوة مهما كان بسيطا . وبطبيعة الحال ندد الاتحاد السوفياتي بقرار شحن الفانتوم واعتبره تشجيعا لاسرائيل

كي تستمر في سياستها المتطرفة مما سيضر بقضية الحل السلمي ، على حد تعبير الطرف السوفياتي. كذلك هاجمت الاوساط الاعلامية السوفياتية الحكومة الامريكية على اساس انها لا تفكر بجد في حل عادل لازمة الشرق الاوسط لان همها الاول هو المحافظة على اسرائيل بصفتها أداة قادرة على الدفاع عن المصالح الامبريالية في المنطقة .

وعلى صعيد العلاقات العربية السوفياتية صرح السفير السوفياتي في مصر — في منتصف شهر كانون الاول — ان بلاده ستقف الى جانب مصر في تحقيق هدفها سواء عن طريق السلم او الحرب . وترك هذا التصريح أثرا دوليا مباشرا لانه تعدى ، على ما يبدو ، الحدود المرسومة للدعم السوفياتي لمصر كما هو متفاهم عليها ضمنا على الصعيد الدولي . لذلك قامت وزارة الخارجية الامريكية فورا باستيضاح الحكومة السوفياتية عن مغزى تصريح السفير وما اذا كان يعكس تبدلا في سياسة الاتحاد السوفياتي المعرونة حول موضوع الحرب والسلام في منطقتنا . وعلى اثر ذلك صرحت واشنطن بأن حكومة الاتحاد السوفياتي نفت نفيا باتا بأن يكون سفيرها في القاهرة قد تعهد لمصر بمدها بالمساعدات كاملة في حال تجدد الحرب مع اسرائيل . كما نفت الملاحظات التي نسبت الى سفيرها في القاهرة . وفي اوائل كانون الثاني صدر تحليل في صحيفة « البرافدا » هدفه تحديد الخطوط العريضة للسياسة السوفياتية ازاء الحل السياسي للنزاع في الشرق الاوسط وتتلخص هذه الخطوط بما يلي : (١) التشديد على السعي لاحلال السلام في المنطقة وتشجيع التسوية السياسية على اساس قرار مجلس الامن ٢٤٢ . (٢) تجريد النزاع من تأزمه الحاد في الوقت الحاضر . (٣) ربط الحالتين التاليتين وتطبيقهما معا : سحب القوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة وانهاء حالة الحرب في الوقت نفسه ، واقامة السلام بين الدول العربية واسرائيل . (٤) اتخاذ تدابير اجرائية معينة مثل : تحديد مواعيد سحب القوات الاسرائيلية وربط ذلك باقامة علاقات سلمية جديدة بين اسرائيل وجيرانها العرب ، توفير الضمانات اللازمة لامن حدود كل البلدان في المنطقة بما في ذلك ضمانات من جانب الدول الكبرى ومجلس الامن الدولي . واكد التحليل السوفياتي على أن أحد الشروط المهمة للنضال الناجح في سبيل تصفية العدوان الاسرائيلي هو تضامن ووحدة البلدان العربية ، لان لهذا الامر أهميته الخاصة في الظروف الحالية اذ تبني الامبريالية عملها على شق حركة التحرر الوطني العربية وتسعى لتستغل لمصالحها الخلافات القائمة بين البلدان العربية في صدد حل بعض المشاكل المطروحة . كما ندد التحليل برفض قادة اسرائيل ، في تصريحاتهم العلنية ، لفكرة الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة . واكد ان اسرائيل تحاول تبرير سياسة المماطلات التي تنتهجها بحجة الحصول على الحدود الامنة في حين انها تريد تغطية مطامعها التوسعية في الاراضي العربية المحتلة ورغبتها في تجميد الوضع القائم على حاله .

من جهة اخرى قام وفد سوفياتي « غير حكومي » برئاسة نائب مدير اتحاد الجمعيات السوفياتية للعلاقات الودية والثقافية بزيارة اسرائيل ، وهي اول زيارة من نوعها منذ قطع العلاقات بين البلدين في ١٩٦٧ . شارك الوفد في اجتماعات جمعية الصداقة السوفياتية — الاسرائيلية التي اشرف على تنظيمها الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) . وصرح رئيس الوفد ان بلاده تريد حل أزمة الشرق الاوسط عن طريق تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، كما اكد ان بلاده تسعى الى حل الازمة على اساس اخذ الحقوق الشرعية لكل شعوب المنطقة ، بما في ذلك الفلسطينيون والاسرائيليون ، بعين الاعتبار ، ولا يمكن ان يقوم مثل هذا الحل الا على اساس التسوية السياسية . وأعرب رئيس الوفد عن أمله في أن يؤدي اجتماع جمعية الصداقة السوفياتية — الاسرائيلية الى تدعيم العلاقات والتفاهم المشترك بين شعوب الاتحاد السوفياتي وشعب اسرائيل .

أما الصين فقد عبرت عن موقفها المؤيد للجانب العربي عن طريق رفضها المشاركة في محادثات الدول الاربع الكبرى (والمجمدة عمليا في الوقت الحاضر) ومن خلال الخطاب القوي الذي القاه ممثلها أمام الجمعية العامة اثناء مناقشة قضية الشرق الاوسط . شدد المندوب الصيني في كلامه على عدوانية اسرائيل والدور الامريكي والاستعماري في دعمها . كما ندد بهيئة الامم نفسها بسبب فشلها في ادانة العدوان التوسعي الاسرائيلي وعجزها

عن تقديم ما يلزم من العون للشعب الفلسطيني والشعوب العربية الاخرى في كفاحها ضد العدوان والاحتلال . كذلك ندد المندوب بالابتزاز الذي تمارسه الدول الكبرى ضد الشعوب العربية عن طريق نشر الفكرة القائلة بأن الاستمرار في الكفاح التحرري المسلح سيؤدي الى حرب عالمية مدمرة ، واعتبر هذا المنطق مجرد هراء لانه من حق هذه الشعوب حمل السلاح لمقاومة العدوان واستعادة أراضيها المفقودة وحقوقها الوطنية المهدورة . كذلك دعا المندوب الصيني جميع الحكومات الى ادانة الرجعية في الاردن بسبب قيامهـا بأعمال القمع الدموية ضـد الشعب الفلسطيني . كما طالب بانسحاب اسرائيل من جميع الاراضي العربية المحتلة وبضرورة استرداد الشعب الفلسطيني لوطنـه ولحقوقه في الوجود الوطني .

كان للحرب الهنديـة الباكستانية وقيام دولـة بنغلادش تأثيرات شبه مباشرة على أوضاع النزاع العربي الاسرائيلي . كان الانطباع الدولي الاهم الذي تركته الحرب هو ان النتيجة العملية لقيام الهند بعقد معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفياتي ومن ثم خوضها حرب منتصرة ضد الباكستـان (حليفة امريكا) هـي الحاق هزيمة بالسياسة الامريكية واستراتيجيتها في تلك البقعة من العالم . وقد أدى ذلك الى الاستنتاج الفوري بأن الولايات المتحدة سترد على التحدي عـن طريق انتهـاج سياسة « قوية » واكثر عدوانية في مناطق أخرى من العالم أهمها الشرق الاوسط ، خاصة وان معاهدة صداقة مشابهة تقـوم الان بين مصـر والاتحاد السوفياتي في مواجهة اسرائيل وامريكا. على هذا الاساس لا يبقى اي شك في ان نتائج الحرب الهندية الباكستانية كان لها تأثير في اسراع نيكسون بتزويد اسرائيـل بالطائـرات وباتخـاذ اجراءات اخرى لتقويتها عسكـريا بالرغم عـن الاعتراف الامريكي بعدم تحول ميزان التسلح عما كان عليه في الشرق الاوسط .

ومن تأثيرات الحرب الهندية الواضحة وضعها بعض الحكومات العربية (خاصة مصر) التي تعتبر نفسها صديقة تقليدية للدولتين المتحاربتين في موقع المحرج وغير القادر على التعبير عن موقف واضح في النزاع . الا انه يجوز لنا القول هنا ان الموقف الضمني لهذه الحكومات كان اكثر ميلا الى تأييد الباكستان ، بينما كان قطاع واسع من الرأي العام التقدمي العربي يميل الى تأييد قيام بنغلادش بسبب المجازر التي ارتكبها الجيش الباكستاني ضـد الشعب البنغالي . كذلك كان الانتصار الهندي مصدرا للاحراج بالنسبة لبعض الانظمة العربية لانه برهن على قدرة دولة من دول العالم الثالث المرتبطة بمعاهدة صداقة مع الاتحـاد السوفياتي خوض حرب ناجحة ضد دولة داخلة في نظام الاحلاف الامريكية ، ولانه برهن عن نجاعة اللجـوء الى الوسائل العسكرية لحل المشاكل المستعصية ، خاصة عندما يكون لهذه المشاكل صلـة مباشرة بقضايا اللاجئين والمبعدين بالقوة عن اوطانهم ، وعندما يأتي اللجوء الى القوة نتيجة لفشل كل محاولات استجداء الرأي العام العالمي وهيئة الامم والدول الكبرى لتقديم المساعدات الفعالة لحل المشكلات الوطنية المستعصية اياها . ومصدر آخر للاحراج العربي الرسمي ، على هذا الصعيد ، هو البرهنة الملموسة على انه باستطاعة دولة كبيرة من دول « معسكر عـدم الانحياز » ايجاد الطرق المناسبة ، ان هي ارادت ، لاخذ زمـام المبادرة العسكـرية والتحـرك السريع بحـرية وباستقلال نسبي بدون التسبب بوقوع حرب عالمية ثالثة وبدون الخضوع للابتزاز الذي يمارس حاليا باسم « تجنيب العالم كارثة نووية » . لا بد من الاشارة ايضا الى ان اسرائيل قد تذرعت بعجز هيئة الامم عن التدخل في مجرى الحرب الهندية ومنع تقسيم الباكستان لتدلل على تهافت ما يسمى « بالضمانات الدولية » لحدود الدول ، وللتصلب في موقفها من الاراضي العربية المحتلة ومسألة « الحدود الامنة والمعترف بها . » كذلك أشار الرئيس السادات الى اهمية الحرب مـن حيث تأثيرها في تبديل رأيه بالنسبة « لعام الحسم » في النزاع مع اسرائيل الذي كان مقررا ان يكون في نهاية ١٩٧١ .

صادق جلال العظم

ملحق

رسالة خاصة من الولايات المتحدة : الضغط للحصول على الفانتوم

في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ القى وليم روجرز، وزير الخارجية الاميركية، خطابا اعتبره الاسرائيليون بداية تباعد سياسي بين واشنطن وتل ابيب على اعتبار ان روجرز دعا فيه الى عقد اتفاقية موقتة وتسوية شاملة بين مصر واسرائيل والى السماح للفنيين المصريين بالعبور الى الضفة الشرقية لقناة السويس للاشراف على سير العمل فيها بعد اعادة فتحها . وقبل اسبوع من خطاب روجرز هذا قال احد المراقبين الاسرائيليين : « عندما نشعر بأن الولايات المتحدة تمارس ضغطا حقيقيا علينا سنعمد الى تألب اليهود في اميركه ضد سياسة واشنطن في الشرق الاوسط » (نيوزويك ، ١٨ اوكتوبر ١٩٧١ ، ص ٦٢) . وسرعان ما انتهى روجرز من خطابه حتى اعطت القدس الاشارة للبدء بهـذه الحملة ، وكذلك بدأ مؤتمـر رؤساء المنظمـات اليهودية الكبرى الخمس والعشرين في الولايات المتحدة المعروف بنفوذه القوي بشن حملة مماثلة ولكن بمفرده . وهنا لاحـظ احد المسؤولـين الاميركيين في واشنطن انه مـن خلال التجـارب السابقة « بتنا نتوقع تكرار حدوث النموذج نفسه : اولا يطلب زعماء اليهود في اميركه تحديد موعد لمقابلة الرئيس او وزير الخارجية . ثم نبدأ بتلقي سيل من الرسائل ، يرافقه سيل آخر من الخطابات في الكونجرس ، وبعد ذلك يبدأ عدد من الصحفيين بالصياح بملء حناجرهم » (المصدر نفسه ، ص ٦٤) . ولكن حدث خروج بسيط عن هذا الخط عندما قام ستة شيوخ ديمقراطيين وستة آخرين جمهوريين في ١٥ اكتوبر بتعميم مشروع قرار يدعو حكومة نيكسون لتزويد اسرائيل بطائرات فانتوم النفاثة ف — ٤ . والذين قاموا بذلك هم : من الديمقراطيين : ستيوارت سيمنجتون من ميسوري، هيرمان تالمادج ، من جيورجيه ، جيل ماكجي من وايومنج ، ادوار كيندي مـن ماستشوستس ، ابراهام ريبيكوف من كونيكتكت ، هنري جاكسون من واشنطن ، ومن الجمهوريين : هيو سكوت من بنسلفانيا ، جاكوب جافيتس من نيويورك ، ادوارد بروك من ماستشوستس ، روبرت دول من كنساس ، ادوارد جيرني من فلوريدا ، وتشارلز بيرسي من الينوي . وقد نجح هؤلاء في جمع تواقيع ٧٨ شيخا . وقد تلا ذلك تقديم مشروع مماثل الى مجلس النواب في ٢٧ اكتوبر ١٩٧١ وقعه ٢٥٠ من اصل ٤٣٥ نائبا . وفي ٢٣ نوفمبر جرت مقابلة عاصفة بين روجرز وثمانية مـن اعضاء مجلس الشيوخ هـم : بيرسي وبروك ودول وجافيتس وكيندي وماكجي وريبيكوف وسيمنجتون ، الذين جاؤوا ليعربوا لروجرز بأن « الرأي السائد لدى غالبية اعضاء الكونجرس هـو في وجوب تزويد اسرائيل بطائرات فانتوم فورا » — (جويش ويك (نيويورك) ، ٢ ديسمبر ١٩٧١ ، ص ٢٠) . وعلى حد قول الذين اشتركوا في هذه المقابلة ، اتهم روجرز اسرائيل بـ « التداعي » بسبب النزاع السياسي الداخلي الناجم عن الاعباء الدفاعيـة الباهظة ولاخفاقها في التوصل الى سلام مع الدول العربية . واتهم اسرائيل ايضـا بـ « العناد » و« التعنت » مؤيدا هذه الاتهامات بأقوال صدرت على لسان مئير وغيرها من الزعماء الاسرائيليين — (المصدر نفسه) . عندئذ رد الشيوخ على روجرز، و« فسر احدهم ملاحظات روجرز بأنها ليست سوى اتهام لاسرائيل بأنها تقوم بنسف مبادرته لاحلال السلام ، ليتسنى لها بذلك الاحتفاظ بالاراضي العربية المحتلة . » — (المصـدر نفسه) . وفي هذا اليوم بالذات وافق مجلس الشيوخ بأغلبية ٨٢ صوتا مقابل ١٤ علـى مشروع قانون بتزويد اسرائيل بمعدات حربية اضافية ، وبضمانات قيمتها ٥٠٠ مليون دولار نصفها لتغطية بيع المزيد مـن طائرات فانتوم . وهذا القانون الذي قدمه السناتور هنري جاكسون جاء علـى شكل تعديل لقانـون الاعتمادات الدفاعية رغم معارضة اربعة من اقوى

الشيوخ هم : زعيم الاغلبية الديمقراطية ، مايك مانسفيلد من مونتانا ، ورئيس لجنة العلاقات الخارجية ، وليم فولبرايت من اركنساس ، ورئيس لجنة الاعتمادات ، الن ايللندر من لويزيانا ، ورئيس لجنة القوات المسلحة ، جون ستنيس من مسيسيبي . وخلال المناقشة اثار ايللندر نقطة نظام وهي ان التعديل المطروح يجب ان لا يكون جزءا من مشروع قانون اعتمادات الدفاع ، بل مسألة تتعلق بلجنة العلاقات الخارجية . اما فولبرايت فقد اتهم جاكسون بعرقلة جهود الحكومة من اجل التوصل الى تسوية متفاوض عليها في الشرق الاوسط ، وبأن التعديل يهدف الى غل يد الرئيس ، ثم قال : « ليس لدي اي اعتراض على قيام المجلس بالرد على الرئيس اذا ما أحس أعضاؤه بأنهم على اطلاع كاف على كل ما يتعلق بالموضوع ، وان القيام بذلك هو للصالح العام .» (تير ايست ريبورت ، ١ ديسمبر ١٩٧١ ، ص ١٩١) .

وكما كشف المراقبون المطلعون كانت تل ابيب هي التي تحرك هذه الحملة وفي ذهنها الاهداف الثلاثة التالية : اولا ، يعتبر اقتراب انتخابات الرئاسة كتذكير في الوقت المناسب لحكومة نيكسون بأن لاسرائيل تأييدا كاسحا في الولايات المتحدة . ثانيا، عن طريق تحويل المسألة الى قضية سياسية محلية مشحونة عاطفيا ، تأمل اسرائيل ارغام روجرز على التراجع عن سياسته بالنسبة للشرق الاوسط التي يدعو فيها الى تحقيق تسوية سياسية منسجمة مع قرار مجلس الامن (٢٤٢) الصادر في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، وايضا على بيع وتقديم المقاتلات النفاثة لاسرائيل . ثالثا ، تحذير القاهرة بأن لا تتأمل استسلام اسرائيل للضغط الاميركي من اجل التوصل الى تسوية موقتة بهذه السرعة .
وما حدث هو أن موضوع الفانتوم والمساعدات العسكرية لاسرائيل احيل على لجنة مشتركة تتألف من مجلسي النواب والشيوخ ، حيث رفض تعديل جاكسون على اساس ان مجلس الشيوخ كان قد خصص مبلغ ٣٠٠ مليون دولار كاعتمادات عسكرية لاسرائيل . وفي محاولة اخيرة لجعل الولايات المتحدة تستأنف تقديم الفانتوم لاسرائيل قامت جولدا مئير بزيارة لواشنطن في ديسمبر لمقابلة ريتشارد نيكسون . ويظهر ان مهمتها قد نجحت ، فقد اتخذ قرار ارسال الفانتوم في اجتماع بين مئير ونيكسون « ولكن الرئيس كان يريد ابقاءه طي الكتمان لكي لا يتسبب بذلك في زيادة تدهور العلاقات بين واشنطن والدول العربية ، وخاصة مصر . ومن الجدير بالذكر انه منذ زيارة مئير للولايات المتحدة بدأت اسرائيل والزعماء اليهود في اميركة بمعالجة موضوع الفانتوم بكل هدوء . » (جويش ويك (نيويورك) ، ٦ يناير ١٩٧٢ ص ٨) . وفي مقابلة تلفزيونية في ٢ يناير ١٩٧٢ اكد نيكسون استئناف بيع الفانتوم وذلك عندما اعلن انه قرر « من الناحية المبدئية » (واشنطن بوست ، ٣ يناير ١٩٧٢ ، ص ٧ أ) بيع المزيد من الطائرات النفاثة لاسرائيل . ويقول المعلق الصحفي جاك اندرسون ان هنري كيسنجر هو الذي يقف وراء قرار واشنطن باستئناف تزويد اسرائيل بطائرات الفانتوم (واشنطن بوست ٧ يناير ١٩٧٢ ، ص ٢٣ ج) .

وهكذا نرى ان القرار ببيع اسرائيل طائرات الفانتوم تأثر بالضغوط التي قام بها اصدقاء اسرائيل في الولايات المتحدة ، واخيرا وليس آخرا بغياب اي تهديد عربي جدي للمصالح الاميركية في البلاد العربية في الوقت الذي كان الصهيونيون جادين لتحقيق أهدافهم ، مما أكد لواشنطن رأيها بضعف الارادة العربية وعدم قدرتها على ممارسة اكثر من ضغوط سياسية متقطعة على المصالح الاميركية في العالم العربي .

عودة ابو ردينة

(٤) السياسة الاسرائيلية

كان من الطبيعي مع اقتراب عام « الحسم » من نهايته ، ان يكون الشاغل الاساسي لدولة العدو في شهر ديسمبر ١٩٧١ السؤال الكبير : هل يفتح السادات فعلا النار ؟ وأي نوع من الحرب سوف تشن فيما لو نشب القتال ؟ كما كان من الطبيعي ، بعد أن تلفع عام الحسم بعباءة « الضباب » ومر من دون حسم ، أن يتحول السؤال الكبير الى سؤال أصغر حجما : ماذا بعد ؟ — هذا على صعيد الرأي العام . أما على الصعيد الرسمي ، فقد كانت الحكومة الاسرائيلية وموفدوهـا للولايـات المتحدة مشغولين ، فيما يتعلـق بموضوع الامـن والخارجية ، بمهمة اكثر جدية : الوصول مع الولايات المتحدة (بعد ان طرأ تغير أساسي على تقديرات هذه بالنسبة للموقف في المنطقة) الـى تصور مشترك لاحتمالات المرحلـة القادمة مـن المواجهة العربية — الاسرائيلية ، والاتفاق على خطة مشتركة ، ووضع الترتيبات المتعلقة بتنفيذ هذه الخطة . وشهدت اسرائيل ايضا في الفترة ما بين ديسمبر ٧١ ويناير ٧٢ تصاعدا في العمل الفدائي، وشن الجيش الاسرائيلي غارتين علـى الاراضي اللبنانية ، وقصفت طائراته قواعد للفدائيين في الارض السورية . هذا في نطاق الامن والخارجية. اما في النطاق الداخلي فقد ظلت اسرائيل مشغولة بالانهيارات التي حصلت في عدد مـن الشركات الحكومية الكبـيرة ، وبما تكشفت عنـه هـذه الانهيارات من فساد عـام متفش في اوسـاط اقتصادية وحكومية نافذة . ونشبت في اطار القوى السياسية أزمة في حركة جاحال رفعت فوق استمرار بقائها علامة استفهام كبيرة ، وتعـرض موشيه دايان ، وزير الدفاع القوي ، لحملة استثارت أنصاره في حزب العمل ودفعتهم للتكتل دفاعا عنه. وكان مصدر غبطة خاصة للمسؤولين الاسرائيليين تزايد الهجرة من الاتحاد السوفياتي بشكل لم يكن متوقعا على الاطلاق .

عـام « الحسم » في اسرائيـل : أبدت الصحف الاسرائيلية في الشهر الاخير من عام ١٩٧١ حيوية ملحوظة في مناقشة احتمالات تجدد القتال وعرض تقديرات المسؤولين السياسيـين والعسكـريين للموقف . كما ابدت حيوية ملحوظة في مناقشـة السياسـات التي أوصلت الامور الى حافة الحرب مع مصر . ان تغير معطيات الموقف الان يجعل من غير المجدي كثيرا عرض خلاصة موجزة للمناقشات التي دارت ، ولكن لعله يظل من المفيد ان نقدم هنا نماذج انتقائية تعكس بشكل عـام التقديـر الاسرائيلي للموقف ، كما كان سائدا في تلك الفترة. ونفضل هنا ، لاعتبارات عـديدة ، ان نعـرض النماذج مع الحد الادنى من ابداء الملاحظات ، وأول النماذج المختارة هو الجنرال حاييم بارليف — رئيس الاركان آنذاك . ففي خطاب ألقاه في تل أبيب قبل فترة وجيزة من نهاية العام تحدث بارليف (معريف ٢٠/١٢/٧١) عن توقعاته بالنسبة لموعد نشوب القتال وطبيعته ، وتقديراته للفروقات في الوضع بين تلك الفترة وفترة حرب الاستنزاف ، وهدف الجيش الاسرائيلي فيما لو نشب القتال ، وصورة المستقبل القريب . ونعرض فيما يلي بايجاز شديد جانبا مـن آراء بارليف : حول احتمالات نشوب القتال قال : « رغم انعـدام المنطـق في/وعبثية (اي حرب قد تشنها مصر) فان احتمال ان يقرر السادات استئناف القتال يظل قائما . ان احتمالات تجدد القتال او استمرار الهدوء في رأيي متساوية » . حول طبيعة القتال فيما لو نشب ذكر بارليف : « لا اتوقع هجمات شاملة بالصواريخ او الاسلحة الاخرى على أهداف في الجبهـة او المؤخرة » . حول الفروقات بين معطيات حرب الاستنزاف السابقة ومعطيات الفترة الراهنة عدد بارليف الفروقات التالية : « أولا — يشغل الان منصب رئيس الجمهورية في مصر أنور السادات وليس جمال عبدالناصر . ثانيا — ينصح الروس المصريين الان باستنفاد الجهود السياسية (بينما كانوا هم الذين دفعوهم في الماضي لشـن حـرب الاستنزاف) . ثالثا — ان الجيش الاسرائيلي اقوى الان بما لا يقاس عما كان عليه قبل ١٧ شهرا عندما تحقق وقف اطلاق النار . رابعا — ان الجبهة الشرقية قد تفككت والفدائيون في أسوأ حال » . ويستخلص بارليف من ذلك انه فيما لو نشب القتال مجددا فان اعادة فرض وقف اطلاق النار ستتم هذه المرة في مدى زمني اقصر مما تطلب الامـر بالنسبة للفترة السابقـة . حول هـدف الجيش

الاسرائيلي حدد بارليف له مهمتين : « أولا — منع العدو من احتلال اية رقعة ارض على اي خط من خطوط الجبهة . فانا واثق من انه ... لو احتل المصريون في حرب الاستنزاف اي موقع لكانت الحرب قد انتهت بشكل آخر ولما تحقق وقف اطلاق نار كالذي نشهده اليوم . ثانيا — تحقيق وقف اطلاق النار مجددا في اقصر وقت ممكن » . وحول صورة المستقبل القريب قال رئيس اركان الجيش الاسرائيلي السابق : « هناك ثلاث امكانيات ، واحدة نظرية ، واثنتان عمليتان. الامكانية النظرية هي الوصول الى اتفاقية سلام ... ولكن احتمال ذلك قريب من الصفر . الامكانية الثانية المتوقعة في المستقبل هي وضع كالوضع السائد الان ، بدون قتال . وهي امكانية معقولة لان أيا من الطرفين لا يرى ربحا واضحا في استئناف القتال . حتى الدولتان الكبريان ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، لا تريان اية فائدة من ذلك . وهناك امكانية ثالثة، هي ان يعمد المصريون الى استئناف القتال قريبا بعد أن ييأس رئيس مصر من الجهود السياسية » .

ولاستكمال الصورة ، نعرض نموذجا انتقائيا آخر يوضح هذه المرة الفروقات في رأي الاسرائيليين بين وضع اسرائيل عشية حرب حزيران ووضعها في ديسمبر ١٩٧١ عشية الحرب التي كان عام الحسم يعنيها . والنموذج الذي اخترناه هو البروفسور ييجال يادين، رئيس الاركان الاسرائيلي في حرب ١٩٤٨ ومستشار اشكول للشؤون العسكرية في حرب الـ ٦٧ وأحد المقربين من المراكز التي تحدد السياسات الامنية في اسرائيل . ففي مقابلة أجرتها معريف في ٧١/١٢/١٠ مع ييجال يادين ، طلب منه مراسل الصحيفة ان يجري مقارنة بين الوضع في ايار ١٩٦٧ وديسمبر ١٩٧١ . ونعرض من ردود يادين ، بايجاز شديد جدا ايضا، ما يلي : « (سؤال) اين تجد الشبه بين ايار ٦٧ وديسمبر ٧١ ، وما هو الذي تغير من النقيض للنقيض ؟ (جواب) لا مجال اطلاقا للمقارنة بين الفترتين ... (بين) كابوس تلك الايام في ايار ١٩٦٧ (وهذه الايام) ... ان اخطارا اساسية كانت تخيم على اسرائيل لم تعد قائمة الان . (سؤال) هل تقصد العمق الاستراتيجي الذي تمنحه الحدود الراهنة لنا ام التنامي الكبير في قوة الجيش الاسرائيلي ؟ (جواب) أقصد هذين ايضا، وسأعود الى الحديث عنهما فيما بعد . ولكن هناك ، عدا هذين ، شيئا اساسيا قد تغير . شيء يقصر اي وصف ، مهما كان مبالغا فيه ، عن الرقي الى اهميته . في ايار ١٩٦٧ لم يكن لنا وزير دفاع ... اليوم لنا . (وحدثت تغيرات في القيادة المصرية) ... ان موت ناصر هو عامل ذو اهمية كبرى لتفهم الفرق بين أيار ٦٧ وديسمبر ٧١ ... لقد كان ناصر قائدا ذا صفات كاريزماتية استثنائية، وكان الوحيد القادر على تحقيق تماسك في العالم العربي من الناحية العسكرية في اللحظات المصيرية. (سؤال) لنأخذ الكفة الاخرى في ميزان التغيرات ، ألا تعتقد ان خطر التدخل السوفياتي في الشرق الاوسط كعامل ضدنا قد تغير منذ أيار ١٩٦٧ ؟ (جواب) نعم ... ان خطر التدخل السوفياتي آنذاك كان قائما حقا ولكنه الان اتخذ صبغة أكثر جدية . ليس لدي أدنى شك في انه لو تدهور الوضع الى حرب مع المصريين فاننا سنتمكن من التغلب عليهم حتى لو تلقوا دعما روسيا اكبر ... ولكن يجب ألا نخدع انفسنا... ان الروس عامل يستطيع أن يسبب لنا صعوبات هائلة . ولكنني واثق انه بسبب من اعتبارات جغرافية وبسبب الخوف من مواجهة بين الدول العظمى لن ينشأ وضع نضطر فيه الى الوقوف في مواجهة الدب الروسي بكامل قوته » .

ان بارليف ذكر في الخطاب الذي اقتبسنا منه اعلاه انه كان يرى « احتمالات تجدد القتال او استمرار الهدوء متساوية » ، ولكن هل كان فعلا يعتقد ذلك ؟ ان من الامور اللافتة للنظر ان الصحف الاسرائيلية ، بنفس المقدار الذي كانت معنية فيه بابراز تقديرات المسؤولين الاسرائيليين لعوامل الموقف ، كانت معنية — ولفترة طويلة من شهر يناير ايضا — بابراز الانباء الواردة من واشنطن ، والقائلة بأن الدوائر الاميركية لا تتوقع نشوب قتال قريب في المنطقة . ونقدم فيما يلي نماذج من هذه المعلومات ظهرت كلها على الصفحة الاولى للصحف المعنية . ففي تاريخ ١٥—١٢—٧١ نشرت معريف رسالة من مراسلها في واشنطن ، شموئيل سيجف، فاتحتها كما يلي : « خلافا للتقديرات السائدة في اسرائيل ، لا تتوقع المصادر الاميركية هنا نشوب حرب في الشرق الاوسط في المستقبل القريب ... وبالمقابل تتوقع هذه المصادر تجدد الجهود الاميركية للوصول الى حل مرحلي في بداية السنة القادمة ».

وبتاريخ ٧١/١٢/٢٠ ، أي قبل عشرة أيام تقريبا من نهاية عام « الحسم » ، نشرت ذات الصحيفة رسالة من مراسل آخر لها في واشنطن فاتحتها كما يلي : « اخطرت الولايات المتحدة اسرائيل مجددا بأنها تلقت توضيحات موثوقة جدا بانه على الرغم من تهديدات الرئيس السادات ، فان مصر ما زالت ترغب في تجديد المفاوضات حول الحل المرحلي . ان اخطارات مماثلة قد ابلغت لاسرائيل في الماضي. ولكن الاخطار الراهن ، ربما ، يكتسب اهمية خاصة في ضوء التصريحات العلنية للسادات بأنه لم يعد يثق بقدرة الولايات المتحدة على ان تلعب دور الوسيط الشريف » : وفي اليوم التالي ، ٧١/١٢/٢١ ، ابرزت هآرتس على صفحتها الاولى رسالة من مراسلها هي ايضا في واشنطن يقول فيها : « ان الدبلوماسيين الاميركيين هنا لا يشعرون بالقلق تجاه الانباء الواردة عن تصاعد اتجاهات الحرب او الاستعدادات في العواصم العربية . ان الشعور السائد هنا هو ان كل هذه الضجة هي من أجل توليد انطباع معين ولن ينتج عنها اي عمل حربي فعلي » . وعادت صحيفة معريف في يوم ٢٣/١٢/ ٧١ ، اي قبل اسبوع واحد من انتهاء العام ، فنشرت رسالة اخرى من واشنطن تقول بأن الولايات المتحدة واثقة تماما بأن السادات ما زال راغبا بعد في « اعطاء السلام فرصة أخرى » .

واذن يمكن القول انه بالنسبة للوضع في اسرائيل عشية انتهاء عام الحسم كان الاسرائيليون يشعرون بالاسترخاء — استرخاء مستمد جزئيا من استهانتهم بالجانب العربي وغرورهم فيما يتعلق بقوتهم العسكرية ، ومستمد في جزئه الاخر من التأكيدات الواردة من واشنطن بأن شيئا ما فعليا لن يحدث. ولكن رئيسي الاركان السابقين ، في صدد تعدادهما للعوامل الداخلية في تركيب صورة الموقف في المنطقة ، قد أهملا في الحقيقة ذكر عامل يفوق في اهميته كل العوامل المطروحة من قبلهما وهو — التغير الاساسي في نظرة الولايات المتحدة الى دور اسرائيل في ميزان القوى العالمي في البحر المتوسط، وما ترتب عن هذا التغير من نتائج على صعيد العلاقات الاميركية — الاسرائيلية ومدى الدعم الاميركي العسكري والسياسي لاسرائيل .

العلاقات الاسرائيلية — الاميركية : شهد شهر نوفمبر من العام الماضي ، وهو الشهر السابق للفترة التي تحدث فيها رئيسا الاركان عن تقييمها للموقف في المنطقة ، تأزما في العلاقات الاميركية — الاسرائيلية ، اوصلها الى حضيض لم تبلغه من قبل منذ حرب حزيران عام ١٩٦٧ (راجع شؤون فلسطينية — العدد السابق) . وقد كان السبب في هذا التأزم تصلب اسرائيل تجاه الحل المرحلي الذي كانت الولايات المتحدة تتوسط لتحقيقه ، وتلكؤ هذه بالمقابل في الاستجابة لطلب اسرائيل بتزويدها بالمزيد من طائرات الفانتوم ، كنوع من الضغط المحسوب عليها . وقد بلغ هذا التأزم حدا جعل من الضروري سفر غولدا مئير الى واشنطن في اوائل ديسمبر لعقد لقاء قمة اميركي — اسرائيلي بينها وبين نكسون لبحث الموضوع . واثناء زيارة غولدا مئير لواشنطن ، وقعت الحرب الهندية — الباكستانية . وفجأة ، بعد ان « كنا نتحدث بأسف عن أزمة ثقة بين الولايات المتحدة واسرائيل ، ونحتج بمرارة على رفض الاميركيين استئناف تزويدنا بطائرات الفانتوم ، ونغضب من روجرز وتناطه الست » على حد تعبير دوق غولدشتاين في معريف ٧١/١/١٤ « صفا الافق ، نتحدث الان عن الفانتوم . نفترض ان الولايات المتحدة لن تضغط علينا. ماذا حدث ؟ ما الذي تغير ؟ ولماذا ؟ » . ان هذه الاسئلة كانت في الحقيقة موجهة الى يتسحق رابين ، سفير الولايات المتحدة في اسرائيل . وكان جواب السفير : « ان شقة الخلاف بيننا وبين الولايات المتحدة قد ضاقت — وهذا أمر هام ليس فقط بالنسبة للعلاقات المباشرة بين الولايات المتحدة واسرائيل ، وانما بالنسبة لما هو اكبر من ذلك — لما ينطوي عليه تحسن هذه العلاقات من انعكاسات واضحة على حرية الحركة السوفياتية والمصرية ضد اسرائيل » . ولدى الاستفسار عما يقصده رابين بكلامه عن حرية الحركة السوفياتية شرح السفير الامر بقوله : « ان حرية الحركة السوفياتية ، سواء من جهة دفع المصريين الى القيام بمبادرات عسكرية او من جهة الاشتراك السوفياتي الفعلي في مبادرة كهذه ، انما تتقرر من ناحية بناء على قدرة اسرائيل على الصمود في وجه مثل هذه المبادرات ، ومن ناحية اخرى ، فيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي ، بناء على مدى التطابق بين الولايات المتحدة واسرائيل . فكلما كان التطابق بين الولايات المتحدة واسرائيل اكبر ، كلما كبرت وتضخمت علامة الاستفهام في التفكير الروسي : هل

يستحق الامر التورط مع الولايات المتحدة. بسبب تزايد التدخل السوفياتي ؟ » وردا على سؤال فيما اذا كان حدث تغير ما في نظرة الولايات المتحدة الاساسية بالنسبة لمشكلة الشرق الاوسط ، اجاب رابين في نفس المقابلة أن نعم وان التحول حدث « نتيجة تراكب عاملين : اولا — استعداد امريكا الان لوضع سياسات الحفاظ على التوازن العسكري بين اسرائيل والدول العربية موضع التنفيذ بمعزل عن المشكلة السياسية . ثانيا — رؤية اوعى ... في الولايات المتحدة للاسباب والعقبات الحقيقية التي تحول دون التقدم لحل سياسي في المستقبل القريب... **هناك الان استعداد امريكي لقبول الحقيقة بان حل المشكلة في الشرق الاوسط يتطلب زمنا طويلا وان التقدم الى الحل يجب ان يتم بخطوات صغيرة وبطيئة »** . ماذا يعني هذا الكلام بلغة ابسط بعيدة عن الصياغة الدبلوماسية ؟ انه يعني ان الولايات المتحدة قد قررت الكف عن الضغوطات التي كانت تمارسها على اسرائيل لتحقيق الحل المرحلي ، وتدعيم اسرائيل عسكريا وباستمرار بحيث تبقى متفوقة عسكريا على العرب ، وردع الاتحاد السوفياتي عن التفكير في التدخل مباشرة لصالح العرب فيما لو نشبت حرب قادمة . وفي ضوء المعطيات الراهنة للموقفين العربي والاسرائيلي من التسوية السياسية يصبح معنى هذا الكلام ان الولايات المتحدة قد وافقت على تكريس الامر الواقع ، واعتبار اسرائيل منطقة مجابهة اميركية — سوفياتية ذات مشاكل غير قابلة للحل في المدى القريب . ولكن لماذا هذه الاستدارة المفاجئة من جانب الولايات المتحدة عن السعي النشيط نسبيا لمحاولة ايجاد حل سياسي للازمة ؟ ان صمود اسرائيل في وجه الضغوطات الاميركية عليها للتخلي قليلا عن تصلبها ، وانتخابات الرئاسة القادمة في الولايات المتحدة ، ووجود فريق قوي في البيت الابيض والبنتاغون يضغط على الرئيس الاميركي لدفعه لاعتبار اسرائيل حلقة استراتيجية في ترتيبات الدفاع الغربية في منطقة شرق البحر الابيض المتوسط والتصرف على هذا الاساس ، كلها لعبت دورا في هذا التحول . ولكن كل هذه العوامل كانت قائمة قبل ديسمبر ، فلماذا لم تفعل فعلها ؟ هنا يدخل دور الحرب الهندية الباكستانية في تفسير الموضوع.

ان الحرب الهندية — الباكستانية ، التي اعتبرت بمثابة انتصار روسي على الولايات المتحدة في جنوبي آسيا ، وما يمكن ان يستتبعه هذا الانتصار من تدعيم للنفوذ الروسي في شبه القارة الهندية والمحيط الهندي ، قد ولد قلقا عميقا في نفوس واضعي الاستراتيجية الاميركية على المستوى العالمي ، وجعلهم ينظرون الى تزايد النفوذ الروسي في مصر والبحر المتوسط بمنظار مختلف عن السابق ، كما جعلهم أقل استعدادا للمخاطرة بسياسات غير مضمونة النتائج فيما يتعلق بهدف تقليص النفوذ الروسي في المنطقة . فهناك من جهة اسرائيل ، التي تعرض نفسها قلعة للنفوذ الاستعماري في المنطقة وحاجزا في وجه الروس ، وهناك من جهة اخرى مصر ، التي تبدي استعدادا مترددا لاخراج الروس فيما لو تمت التسوية . فلماذا ترك القاعدة المضمونة ، والمراهنة على الجهة التي قد لا تكون تملك ، حسب اعتقادهم ، ارادتها اصلا ؟ — هذا فضلا عن الحاجة الى رد الهيبة الاميركية في منطقة قوة للولايات المتحدة ، وهي اسرائيل في وضعها الراهن . يقول رابين في المقابلة التي اقتبسنا منها اعلاه ، ردا على سؤال حول لماذا في ديسمبر ، ما يلي : « مع اقتراب عام ١٩٧١ من نهايته ، بسبب التطورات في منطقتنا **وخارجها ، على مستوى العلاقات بين الدول العظمى** ، اصبحت (عوامل معينة) مقررة اكثر في الاطارات التي تتخذ القرارات في الولايات المتحدة — وجاءت القرارات التي اتخذت على مستويات مختلفة ، اكثر ايجابية بالنسبة لاسرائيل » . وقد كان اكثر هذه القرارات دراماتيكية القرار بتزويد اسرائيل بالمزيد من طائرات الفانتوم والسكايهوك ، ولم يكن اقلها اهمية ما ذكره نكسون في تقريره عن السياسة الخارجية الاميركية الى الكونغرس في ٧٢/٢/٩ من ان « الجهود الرامية الى تحقيق تسوية شاملة عربية — اسرائيلية قد فقدت زخمها » وان «المعالجة المؤقتة اذا كان يرجى لها النجاح يجب ان تجد طريقة لاحراز تقدم حول النواحي العملية والجزئية للموقف من دون اثارة كل القضايا المثيرة للنزاع التي تعيق تسوية شاملة » . — وهو موقف يتطابق مع الموقف الاسرائيلي ، ويتناقض تناقضا جذريا مع الموقف المصري ، ويعني دفن المبادرة الاميركية للحل المرحلي ، الا اذا عادت مصر فتراجعت خطوات اخرى اكبر الى الوراء .

النشاط الفدائي والغارات الاسرائيلية : وشهد

الشهر الاخير من العام الماضي ومنتصف الشهر الاول من العام الحالي تزايدا في النشاط الفدائي ، سواء من قبل عناصر فدائية من الداخل ، او من قبل مجموعات متسللة من وراء الحدود . وقد كان اكثر هذه النشاطات دراماتيكية الطرود المتفجرة التي ارسلت من اوروبا الى عناوين مسؤولين كبار في دولة العدو . وقد انفجر واحد من هــذه الطرود بخبير في المتفجرات من ضباط الشرطة . وعددت صحيفة معريف (٧٢/١/١٢) احدى عشرة عملية فدائية قريبة من الحدود اللبنانية في الفترة بين ١٩٧١/١٢/١٠ و٧٢/١/٦ . وفي ليل ٧٢/١/١١ هاجم الجيش الاسرائيلي قريتي بنت جبيل في القطاع الاوسط من الجبهة اللبنانية وقرية حمام غــــرب الحرمون . ثم عاد فهاجم في ٧٢/١/١٤ قرية كفرا ، البعيدة ٩ كيلومترات عن الحدود . ووجهت اسرائيل الى لبنان انذارا تطلب منها فيه ان تعمل على ايقاف عمليات الفدائيين ايقافا تاما ، او يبقى الجيش الاسرائيلي في المنطقة بشكل دائم ، مضيفة انها تود ان تحذر السلطات اللبنانية ان مثــل هذا الاجراء سيؤدي الى هجرة الفلاحين من قراهم في الجنوب . وبعد ايام من هجوم الجيش على قرية كفرا قصفت الطائرات الاسرائيلية قواعــد الفدائيين في الاراضي السورية . وكان الهدف من هذه الغارات دفع السلطات اللبنانية الى تقييد حرية الفدائيين وتحذير سوريا من مساندتهم من جهة ، واختبار رد الفعل العربي والدولي من جهة اخرى . وقد سجل يوسف حريف في معريف ٧٢/١/٢٨ بارتياح ان رد الفعل الدولي تجاه الغارات على لبنان كان ادنى بكثير مما حدث سابقا، وان الغارة على سوريا مرت بصمت ، ليس فقط في العواصم الغربية ، وانما في موسكو ايضـــا . واستنتج من ذلك ان العالم قد بدأ يعتاد على سياسات اسرائيل بالنسبة للتعامل مع موضوع قواعد الفدائيين في الاراضي العربية .

الفساد والشركات المنهارة : وفيما كان أفــــق العلاقات الاميركية ــ الاسرائيلية يصفو ، وقرار استئناف ارسال الفانتوم لاسرائيل وانحســـــار الضغط السياسي عليها من طرف واشنطن يبعث في نفس رجل الشارع في دولة العدو شـــــعورا بالارتياح والاسترخاء في المجال الامني ــ الخارجي، كان الافق في المجال الداخلي يزداد تكدرا وعكرا ، ويصيب رجل الشارع بشعور هو مزيج من الدهشة والقلق والاشمئزاز ، نتيجة لاكتشافه مدى الفساد والاهمال الضارب بجذوره في المؤسسات الحاكمة الاسرائيلية ــ هذا الفساد والاهمال الذي كشفت عنه الانهيارات في العديد من المؤسسات الاقتصادية الحيوية التابعة للحكومة ، والطريقة التي عالجت بها المؤسسة الحاكمة في اسرائيل هذه الانهيارات . لقد تكلمنا في العدد الماضي من « شؤون فلسطينية » عن قضية شركة « نتيفي نفط » وما استثارته من زوابع في الحياة السياسية والعامة في اسرائيل . ان قضية « نتيفي نفط » لم تكن في الحقيقة هي القضية الوحيدة ، وانما كانت حلقة في سلسلة من القضايا والفضائح ، بدأت بالتفجر في اسرائيل منذ شهور عدة ، وما زالت الصحافة ووســـائل الاعلام والمنابر الرسمية مشغولة بها حتى لحظة كتابة هذه السطور . ولقد كانت اول هذه القضايا الكبيرة قضية انهيار شركة « اوتوكارز » لصناعة السيارات في اسرائيل ، التي اتضح ان انهيارها كلف الدولة خسائر تقدر بعشرات الملايين من الليرات الاسرائيلية . ثم تلتها قضية « نتيفي نفط » للتنقيب عن البترول في سيناء ، وكلفت خسائرها الدولة ايضا عشرات الملايين . ثم تلتها قضية شركـــــة « فاراد » لمشروعات تطوير مصادر المياه التي قدرت خسائرها باكثر من ٥٠ مليون ليرة اسرائيلية. وبعدها جاءت قضايا شركة « عراد » للصناعات الكيماوية التي بلغت خسائرها ١٥ مليون ليرة ، وشركة « تاهال » لمشروعات تطوير المناطق الزراعية التي قدرت خسائرها بعشرات الملايين . وكانت آخر قضية اقتصادية كبيرة تحمل طابع الفضيحة هي قضية انهيار بنك « اغودات يسرائيل » ، الذي اعطى اشكول الاذن باقامته في عام ١٩٦٥ لحزب اغودات يسرائيل مكافأة له على تأييده لاســتمرار الحكم العسكري . وقد كلف انهيار هذا البنــك الدولة اكثر من ٦ ملايين ليرة .

ان حدوث كل هذه الانهيارات ، وجميعها باستثناء البنك شركات حكومية وعامة ، في مدى زمني لا يتجاوز الثلاثة شهور قد أحدث هزة كبيرة في اوساط الرأي العام في دولة العدو . ولكن مصدر الهزة لم يكن فقط في مجرد واقع الانهيارات ، او ما كشفته التحقيقات عن وجود ســــوء في الادارة والتقدير ، وانما ايضا فيما تكشفت عنه التحقيقات من وجود سرقات وتلاعب بالاموال العامة ورشاو شملت عددا كبيرا من الموظفين المحتلين لمناصب

رفيعة في الادارات العامة والحكومية . وتحولت الهزة الى صدمة قوية عندما اتضح ان الحكومة ، بدلا من ان تترك التحقيقات تأخذ مجراها ، أخذت تلقي بثقلها وراء وضع حد لها ، او على الاقل تقليصها قدر الامكان . وهو تصرف جعل اصابع الاتهام تشير الى وزراء في الحكومة ذاتها ، وجعل قطاعات في الرأي العام الاسرائيلي تتحدث ، على حد تعبير عوزي بنزيمان في هآرتس ٧١/١٢/٨ ، عن وجود « مافيا قوية توزع الرشاوى ، وتستر الخلل والعيوب ، وتخلد التشويهات » ، وتسيطر على قطاعات هامة في جهاز الدولة .

وقد استغلت المعارضة اليمينية (جاحال) هذه الانهيارات وما تكشفت عنه من فضائح لمهاجمة القطاع الحكومي في الاقتصاد والمطالبة بتصفيته وتحويل امواله الى جهات غير حكومية . وفيما اعلن يوسف سابير ، من زعماء جاحال ، ان « شرش الفساد قائم في الاساس الايديولوجي للنظام الذي اظهر افلاسه » ، أصدرت كتلة جاحال في الكنيست بيانا يقول : « ان مظاهر الفساد التي تكشفت مؤخرا في ادارة الشؤون المالية والاقتصادية للدولة هي نتيجة لسياسات تسلط الحكومة على مصادر الاقراض وعلى معظم فروع الاقتصاد . . . ان كشف هذه المظاهر زعزع ثقة الجمهور بالدولة وأساء الى سمعتها في الخارج » . وقد كانت أهم المعارك السياسية التي دارت بين المعارضة بكافة اتجاهاتها من جهة ، والحكومة من جهة اخرى ، حول هذا الموضوع ، هي المعارك التي دارت في اللجنة الاقتصادية للكنيست وفي هيئة الكنيست بكاملها في ٧١/١٢/٢٩ حول « لفلفة » التحقيق في قضية اوتوكارز. ففي اللجنة الاقتصادية التابعة للكنيست، التي كانت تتقصى الحقائق ، قررت احزاب الائتلاف الحكومي ، بعد ان ادلى شاهد رئيسي امام اللجنة بشهادة تورط بعض الوزراء في القضية ، اغلاق باب الاستماع الى شهادات جديدة ، الامر الذي اثار ، ليس فقط ثائرة المعارضة، وانما أيضا ثائرة عضو المعراخ المنسق بين اعضاء الائتلاف الحكومي في اللجنة ، الذي استقال من مهمته واعلن ان « ايقاف التحقيق والكف عن الاستماع الى الشهود في هذه المرحلة المتقدمة . . . سيثير اجواء سلبية توحي بان هناك محاولة لكم الافواه وتمييع القضايا وحجب الحقائق عن الجمهور » . واغتنم اعضاء اللجنة المعارضين ، في الجلسة المعقودة بتاريخ ٧١/١٢/٢٧ ، فرصة غياب الكثير من اعضاء الائتلاف الحكومي عن الاجتماع ، ليطلبوا من الشخص الذي اوكلته المحكمة بتصفية اعمال اوتوكارز ، ان يطلعهم على القائمة التي وصفتها احدى الصحف بانها « أشهر قائمة في اسرائيل » — وهي القائمة المحتوية على اسماء الذين تلقوا رشاوي من اوتوكارز . وهنا حدث في اللجنة الاقتصادية ، على حد تعبير مراسل معريف في عدد ٧١/١٢/٢٨ ، شيء شبيه بالهزة الارضية : علا الصراخ من كل جانب ، وتبودلت الاتهامات ، وسادت الفوضى ، وغادر الشخص القاعة المعقودة فيها الجلسة رافضا الافصاح عن الاسماء . ولكن النقاشات الاعنف دارت بعد ذلك بيومين في الجلسة التي عقدتها الكنيست بكامل هيئتها لبحث موضوع تشكيل لجنة تحقيق برلمانية في القضية ، او على الاقل منح اللجنة الاقتصادية التي تتقصى الحقائق صفة « لجنة تحقيق » . وقد انتهت الجلسة بالطبع بنجاح الحكومة في احباط اقتراحات تشكيل لجان التحقيق بعد ان خاضت ، كما يقول مراسل معريف في عدد ٧١/١٢/٣٠ ، « معركة هائلة. . . استخدمت فيها كل سلطتها ، واستعملت جميع وسائل الضغط الممكنة لفرض الانضباط علىفرقاء الائتلاف الحكومي، مهددة كتلة المفدال تهديدا صريحا باستخلاص النتائج (فيما لو صوتت مع المعارضة) » .

جاحال والحملة ضد دايان : وفي نطاق الاحزاب شهدت الفترة المستعرضة هنا ازمة حادة في العلاقات بين حزبي حيروت والليبراليين ، اللذين تتكون منهما حركة جاحال اليمينية — أقوى كتل المعارضة في الكنيست الاسرائيلي . وقد كانت الازمة هذه المرة من الحدة بحيث انها رفعت علامة استفهام كبيرة فوق استمرار الحركة اصلا . وقد كان السبب المباشر في الازمة هو ان اتحاد الصهيونيين العالمي الذي ينتمي اليه الحزب الليبرالي عقد اتفاقا مع حزب المركز الحر المنشق عن حيروت في عام ١٩٦٥ والقائمة الرسمية المنشقة عن المباي في نفس العام لتشكيل كتلة موحدة في المؤتمر الصهيوني الذي انعقد في اسرائيل في الفترة ما بين ١٨ — ٢٨ يناير من هذا العام ، وذلك بدون علم او استشارة شريكه في حركة جاحال ، حزب حيروت . وقد استثارت هذه الخطوة غضب بيجن زعيم حركة حيروت ، الذي هاجم الليبراليين، واتهمهم بخرق اتفاقية تشكيل حركة جاحال ،

التي تحظر في بند من بنودها على أي من الشريكين « الارتباط بترتيبات سياسية او كتلة اخرى أيا كانت الا بموافقة الشريك الآخر » . واكثر من ذلك اتهمهم بالخداع ، ذاكرا ان احد زعمائهم كان يدير المفاوضات مع المركز الحر والقائمة الرسمية في ذات الوقت الذي كان يقترح فيه على ممثل حزب حيروت في ادارة الوكالة اليهودية البحث في تشكيل كتلة مشتركة من اتحاد الصهيونيين العالمي وتحالف حيروت — هتساهر في المؤتمر الصهيوني . وقد رد زعماء الليبراليين بانهم لم يخرقوا الاتفاق ، لان هذا الاتفاق يتعلق بالقوى السياسية داخل اسرائيل فقط ، وليس بالحركة الصهيونية العالمية . كما نفى دولتسين ، الشخص المتهم بالمخادعة ، ان يكون اقترح على ممثل حيروت البحث في تشكيل كتلة موحدة من تنظيمي الحزبين على المستوى العالمي في المؤتمر الصهيوني ، ذاكرا انه تكلم معه حول تعاون فقط . وقد اتفق زعماء الحزبين ، بعد اتهامات علنية متبادلة وتذكير كل من الفريقين للآخر بخطاياه السابقة ، على عقد اجتماع لمناقشة مصير كتلة جاحال ، على ضوء الازمة الراهنة . ويعتقد بعض المراقبين السياسيين ان هدف الليبراليين من استثارة حيروت ، هو الضغط عليه للاحتفاظ بنسبة تمثيل الليبراليين الحالية في قائمة المرشحين القادمة للكنيست الثامنة ، بينما يذهب البعض الآخر الى القول بان الليبراليين انما ارادوا من خطوتهم هذه تمهيد الطريق للضغط على حيروت كي يقبل بانضمام احزاب اخرى الى الحركة، للتخفيف من سيطرة حيروت على الحركة بحكم كونه الشريك الاكبر وزيادة وزن الحركة كمعارضة « رسمية » في الكنيست . ويذهب فريق صغير ثالث من المعلقين الى القول بان الليبراليين ، او الغالبية بينهم ، انما تستهدف الى الانفلات من حركة جاحال تمهيدا لعودة الليبراليين الى الحكومة . ومن المعروف داخل اسرائيل ان الليبراليين ، عندما انسحبت جاحال من حكومة التجمع الوطني في آب ١٩٧٠ ، لم يكونوا راضين عن الخطوة ، ولكنهم اضطروا للخضوع لها تحت ضغط الحيروتيين وكتلة « ايحود وتموره » داخل الحزب الليبرالي .

وفيما كانت جاحال تعيش ازمتها الكبيرة ، شهد حزب العمل الاسرائيلي الحاكم ازمة سريعة مصغرة بسبب من وزير الدفاع موشيه دايان . وقد كان سبب الازمة المباشر استفتاء نشرته « أوت » ، المجلة النظرية لحزب العمل ، حول من يرتئي المواطن الاسرائيلي ان يحل محل وزير الدفاع فيما لو استقال دايان من منصبه. لقد جاء نشر الاستفتاء في ذروة حملة تشنها مجلة « هعولام هزه » على وزير الدفاع ، وتشترك فيها بعض الصحف الاخرى بشكل مباشر او غير مباشر ، حول ما وصفته « هعولام هزه » بخرق وزير الدفاع للقانون ، و « سرقته » للآثار ، ومتاجرته بالمقتنيات الاثرية داخل اسرائيل وفي انحاء العالم — هذه التجارة التي جعلت المجلة تصفه بانه واحد من كبار تجار الاثريات في اسرائيل . وقد رأى انصار دايان في حزب العمل (مجموعة كتلة رافي سابقا) في نشر هذا الاستفتاء خطوة ذات دلالة ، وبادر احدهم ، مردخاي بن بورات، الى توجيه الاتهام لدوائر معينة في حزب العمل ، بالمشاركة في الحملة على دايان لاضعاف مركزه ، ذاكرا كمثل على نشاطات هذه الدوائر المعادية لدايان الاستفتاء في مجلة « أوت »، ونشر اعلانات لشركات تابعة للهستدروت في مجلة « هعولام هزه » ، وسكوت قيادة حزب العمل عن الحملة الموجهة ضد وزير الدفاع . وقد هدد بن بورات بتكوين كتلة داخل حزب العمل للدفاع عن دايان اذا لم تسارع قيادة الحزب الى اتخاذ الاجراءات المطلوبة . وتلافيا لاية ازمة حول الموضوع استدعت غولدا مئير رئيس تحرير مجلة « اوت » وابدت له تحفظها من نشر مادة كهذه ، وسارع سكرتير الهستدروت الى نفي اشتراك أي من مؤسسات الهستدروت في الحملة على دايان مصرحا بانه طلب من الشركات التي تنشر اعلانات في « هعولام هزه » اعادة النظر في سياستها الاعلانية ، واعلنت القيادة عن انها تضع ثقتها في دايان ، وانحلت الازمة .

الهجرة من الاتحاد السوفياتي : واخيرا ، موضوع الهجرة من الاتحاد السوفياتي التي وصفتها غولدا مئير بانها « معجزة السنة الكبرى » . لماذا معجزة ؟ لانه اتضح ان عدد المهاجرين من يهود الاتحاد السوفياتي في العام الماضي قد بلغ في نهاية السنة ١٤٠٠٠ الف مهاجر تقريبا . وفيما يدعي المسؤولون السوفياتيون بانهم لا يسمحون الا بهجرة « عدد محدود » من المسنين والاطفال والعجزة ، تؤكد الصحف الاسرائيلية ان المهاجرين من روسيا ينتمون الى كل الاعمار ، ومن كل طبقات المجتمع ، وموزعين على كل سلم المهن والوظائف والاعمال .

وتذكر صحيفة هآرتس في عدد ٢٠/١٢/٧١ ان ٤٠٪ من مجموع المهاجرين الروس هم خريجو جامعات ومعاهد عليا ، وان رئيس معهد التخنيون للهندسة التطبيقية في حيفا قد صرح بان المعهد استوعب ٦٠٠ مهندس . ان هناك ، بدون شك ، تحولا قد طرأ على سياسة الاتحاد السوفياتي فيما يتعلق بموضوع هجرة اليهود منه الى اسرائيل . ويكفي للدلالة على حدوث هذا التحول ان تذكر ان عدد المهاجرين من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل في العام الماضي فقط ، فاق مجموع المهاجرين منه خلال السنوات العشر الماضية . اذ بينما بلغ العدد في نهاية العام الماضي ١٤٠٠٠ مهاجر لعام ١٩٧١ كما ذكرنا اعلاه ، بلغ مجموع المهاجرين في السنوات ما بين ١٩٦١ — ١٩٧١ بالمقابل ١٠،٢٣٠ . ويتفق المرء مع مراسل معريف في موسكو (عدد ٥/١/٧١) في ان هجرة اليهود هذه من الاتحاد السوفياتي تمثل ظاهرة لا سابقة لها بالنسبة لهجرة الاقليات من الاتحاد السوفياتي . اذ ان هذه هي اول مرة يسمح فيها الاتحاد السوفياتي في تاريخه تحت النظام الشيوعي لمثل هذا العدد الكبير بالهجرة بطريقة منظمة وشرعية . لماذا هذا التحول في سياسة الاتحاد السوفياتي — موضوع يفضل المرء عدم الخوض فيه ، وينتظر من الاتحاد السوفياتي ، الصديق للعرب ، ان يتكلم .

أحمد خليفة

(٥) المناطق المحتلة

اتسمت الفترة الاخيرة في المناطق المحتلة بتشدد اسرائيل على التمسك في هذه المناطق ، بغرض تكريس الاحتلال وجعله يأخذ صفة الشرعية ولو على اجزاء معينة من المناطق المحتلة . ففي اعقاب التصريح المشهور لوزير الدفاع الذي ادلى به قبيل انتهاء « عام الحسم » اثناء الاحتفال بتخريج دورة قيادة واركان ، وقال فيه : « علينا ان نعتبر انفسنا في المناطق المحتلة كحكومة دائمة ، نقوم بالتخطيط والتنفيذ ، وان لا نترك باب الاختيارات مفتوحا ، لان اليوم الذي يمكن ان تستخدم فيه هذه الاختيارات لا يزال بعيدا » جاءت رئيسة الوزراء غولدا مئير لتعلن من فوق منصة الكنيست بعيد انتهاء « عام الحسم » ردا على استفسار قدم لها من قبل عضو الكنيست « أوري أفنيري » انها تمنح « تأييدها الكامل » لهذا التصريح . ومن الجدير بالذكر ان هذه هي المرة الاولى التي ينال فيها « تصريح ديان » تأييدا رسميا من قبل رئيسة الوزراء ، بعد أن واجه عند الادلاء به « تحفظا » من جانب الدوائر الحكومية و« استياء » من قبل اوساط وزارة الخارجية .

ان العوامل التي تكمن وراء تمسك اسرائيل وتشددها على الاحتفاظ بالمناطق المحتلة تمهيدا لضمها او ضم اجزاء منها « الى الابد » تعود الى اطماع اسرائيل التوسعية ، والوهن الذي أخذ يدب في حركة التحرر العربي ، والاهم من ذلك كله ، عدم تخطي حركة المقاومة الفلسطينية حتى الان لمرحلة الانحسار التي تمر بها .

ويتمثل نشاط اسرائيل من اجل تكريس تواجدها واحتلالها ، في ازالة معالم قديمة واقامة معالم جديدة في المناطق المحتلة ، واستغلال ثرواتها الطبيعية وتسخير الايدي العربية العاملة لصالح اقتصادها .

حركة الاستيطان : لم تنج اية منطقة محتلة من عملية الاستيطان الاسرائيلي . ففي هضبة الجولان، التي تحتل مكان الصدارة في النشاط الاستيطاني الاسرائيلي ، يجري العمل الان لاقامة مستوطنة جديدة على قمة جبل الشيخ ، تحمل اسم « نفيه اوتيف » ، وتقوم السلطات المسؤولة عن الاستيطان باعادة تأهيل مستوطنة « رمات شالوم » ، كما وتم استكمال بناء خزانين للمياه يقع الاول في جنوب الهضبة بالقرب من « ناحال جولان » ، والثاني بالقرب من الخزان القائم والذي شيد عام ١٩٦٦ في الشمال الغربي للقنيطرة بالقرب من مستوطنة « ماروم هجولان » ، بغرض انعاش الزراعة الصيفية والحيلولة دون وقوع فيضانات في المنطقة . ومن الجدير بالذكر ان الخزان الاول يشغل منطقة تصل مساحتها الى ٤٢٥ دونما ، ويتسع لـ ١،٢٠٠،٠٠٠ متر مكعب من الماء ، اما الخزانان الاخران فيشغلان منطقة تبلغ مساحتها ٤٢٥ دونما .

وفي غور الاردن لا تزال حمى الاستيطان على اشدها ، فبالرغم من انه تم انجاز الجزء الخاص من مشروع الون المتعلق بوادي الاردن ، حيث اقيمت هناك ٩ مستوطنات اسرائيلية على امتداد النهر ، وحل مستوطنون مدنيون في معظم المستوطنات ، قامت في الآونة الاخيرة شعبة تمهيد الاراضي التابعة للوكالة اليهودية ، بتمهيد الارض لاقامة مستوطنة مدنية جديدة في منطقة تقع الى الجنوب الغربي لمستوطنة « مسوآه » . كما وانهمكت السلطات المسؤولة بادخال الصناعة الخفيفة في مستوطنات الاغوار ، ففي مستوطنة « كاليا » يقوم المستوطنون بانتاج السلالم المعدنية لاستخدامها في قطف اثمار الحمضيات ، وفي مستوطنة « جلجال » يقوم المستوطنون بتركيب انابيب المياه لحساب مصنع في داخل اسرائيل . كما وتبذل السلطات المسؤولة قصارى جهدها لاحلال مستوطنين مدنيين محل مستوطني الناحال في بقية المستوطنات ، خاصة وان وادي الاردن يتمتع الان بهدوء أمني شبيه بالهدوء الذي يسود المستوطنات في السهل الساحلي الفلسطيني . ففي اعقاب مجزرتي عمان والاحراش ، تبدل الوضع في وادي الاردن رأسا على عقب ، حيث اخذت مستوطنات الاغوار تنعم بالهدوء والاستقرار (بعد ان كانت جميعها بمثابة ثكنات عسكرية تابعة لسلاح الناحال ، تواجه معارك يومية مع رجال المقاومة) الامر الذي مكن شركة « ايجد » للمواصلات من ربط مدينتي بيسان والقدس بطريق جديدة على امتداد

النهر . ويشبه وضع هذه المستوطنات من الناحية الامنية الوضع الامني لقرى الحدود الاسرائيلية على امتداد خطوط الهدنة مع الاردن قبل عام ١٩٦٧ .

وفي سيناء التي لم يشفع لها واقعها الصحراوي من شره الاستيطان الاسرائيلي ، حيث اقيمت هناك ثماني مستوطنات اسرائيلية ، بدأ الاستيطان الاسرائيلي ينشط حين اخذت شركة «سوليل بونيه» على كاهلها البدء عند مطلع هذا العام في اقامة ٩٠ وحدة سكنية كدفعة اولى في شرم الشيخ . وقد تم تسجيل اسماء ٢٠٠ عائلة من مناطق مختلفة في اسرائيل للاستيطان في شرم الشيخ علاوة على العائلات المدنية الموجودة هناك . وتأمل هذه العائلات ان تكون بمثابة الطلائع الاولى من المستوطنين ، لتحويل تلك المنطقة النائية الى مدينة تتسع لعشرين الف نسمة حسب البرنامج الاساسي. ومن الجدير بالذكر انه روعي ان يكون تخطيط هذه المباني ملائما ومنسجما مع المخطط الاساسي للمدينة .

فيما يتعلق بالمنطقة الشمالية من سيناء ، فقد حظيت المستوطنات القائمة هناك بزيارة وزير الدفاع موشيه ديان ، حين تفقد في النصف الثاني من شهر يناير مستوطنات « ناحال يام » و« ناحال سيناي » و« دكله » وتحدث مع المستوطنين حول امكانيات توسيع نشاطهم ، ومدهم بمستوطنين جدد . هذا ومن المقرر ان تضاف في العام الحالي الى المستوطنات القائمة في شمال سيناء بالقرب من رفح ما بين ٨ ـ ٩ مستوطنات جديدة كما جاء على لسان « يعقوب تسور » احد المسؤولين في الوكالة اليهودية . وبذلك يتعزز الاستيطان الاسرائيلي في صحراء سيناء ويصبح اذا ما تم ما وعد به «يعقوب تسور» شبيها بالاستيطان في هضبة الجولان التي يصر المسؤولون الاسرائيليون في تصريحاتهم بأنها « لن تعاد الى السوريين حتى ولو مقابل اتفاقية سلام » .

هنالك ثلاثة عوامل ـ بالاضافة الى العامل الاستراتيجي ـ منشطة لاستيطان سيناء (١) استغلال آبار البترول البرية منها والبحرية في منطقة ابو رودس على خليج السويس ، حيث تستخرج كميات تبلغ ٦ ملايين طن سنويا وتقدر بـ ٨٠ مليون دولار ، وهذه الكمية تكفي احتياجات اسرائيل من النفط (٢) العثور على كميات وافرة من المياه الجوفية وسط سيناء على عمق كبير . وحسب تقدير الخبراء « فانها ستغطي جزءا كبيرا من احتياجات القطاع والعريش لعشرات السنين » ويعكف المختصون الان على دراسة امكانية نقل هذه المياه الى القطاع (٣) الارباح التي تجنيها اسرائيل من السياحة في أماكن مختلفة من سيناء .

اجراءات لتكريس الاحتلال : نشطت اسرائيل في الاونة الاخيرة باتخاذ اجراءات ـ علاوة على النشاط الاستيطاني ـ بغرض تكريس احتلالها للمناطق العربية المحتلة ، تمهيدا لضمها او ضم اجزاء منها الى اسرائيل .

ففي هضبة الجولان بدأت سلطات الاحتلال بفرض قانون ضريبة الدخل على سكان الهضبة ، وقد رفض وجهاء المنطقة في بداية الامر هذا الاجراء لان « خطوة كهذه تعتبر بمثابة احلال القانون الاسرائيلي على الهضبة » الا أنهم سحبوا معارضتهم ، بعد اجتماعهم بقائد المنطقة الشمالية ، وعلى اثر تعهد السلطات الاسرائيلية « بأنهم سيحظون بكافة التسهيلات التي تمنح لسكان قرى الحدود الاسرائيلية » !

وفيما يتعلق بالضفة الغربية فان السلطات الاسرائيلية ما زالت ماضية في الاعداد لاجراء الانتخابات للمجالس البلدية والقروية بالرغم من اشتداد معارضة الانتخابات بين صفوف الزعامة التقليدية هناك ، فقد انضم في الاونة الاخيرة الى صفوف المعارضين للانتخابات رئيس واعضاء بلدية نابلس واقتفى أثرهم كل من رئيسي بلديتي جنين وطولكرم ، كما ان الشيخ محمد الجعبري رئيس بلدية الخليل المعروف بولائه للسلطات الاسرائيلية اعرب عن تخوفه من ان تؤدي الانتخابات الى « القطيعة بين الضفتين » .

ويمكن القول ان الانتخابات ناجمة بالاساس عن التناقض بين الاطراف الثلاثة ذات النفوذ في الضفة الغربية ، الاول الطرف الاسرائيلي وهو الاقوى والثاني الزعامة التقليدية ، والثالث النظام الاردني . فقد ارتأى الطرف الاسرائيلي منذ الاحتلال ان ينمي الزعامة التقليدية في الضفة التي كانت قد ترعرعت في احضان النظام الاردني ، وان يفسح المجال في نفس الوقت للنظام الاردني بأن يمارس ما تبقى له من نفوذ للوصول الى هدف واحد يتمثل في حصر ظل النفوذ الفدائي في المنطقة،

بغرض جعل الجماهير تقف مواقف تتسم باللامبالاة تجاه الاحداث بفضل غياب التنظيمات الشعبية ، ومن ثم يقدم على اجراءات لحسر ظل النفوذ الاردني ونفوذ بعض الزعماء التقليديين المتعاونين معه ، وتسيير الزعامة التقليدية الاخرى في خط يهدف الى تكريس الاحتلال ، ولذلك أقدم في المدة الاخيرة للاعداد لاجراء الانتخابات .

ان الوضع الذي تمر به الزعامة التقليدية وضع حرج ، فهي من ناحية تعارض اجراء الانتخابات لاسباب عدة من بينها انها لا تريد الدخول في منافسة هي في غنى عنها ، كما وانها لا تريد تعرية نفسها تماما وتقف مع المخطط الاسرائيلي بشكل علني ، ومن ناحية اخرى لا تملك الشجاعة والقدرة للتصدي للسلطات الاسرائيلية التي احتضنتها ونمتها ، ولذا فان معارضتها تتسم بالسلبية المطلقة . اما النظام الاردني فقد أعلن بواسطة وسائل اعلامه انه يقف في وجه الانتخابات خشية ان تؤدي هذه الخطوة الى الكيان الفلسطيني وبالتالي فصل وحدة الضفتين ، الا انه يبدو ان معارضته قد خفت في الآونة الاخيرة وذكرت بعض الانباء انه يسعى من وراء الستار لترشيح الموالين له في الانتخابات ، ولذا فان موقفه يتسم بالتذبذب، وفيما يتعلق بالطرف الاسرائيلي فانه يبدو انه مصر على تحقيق اجراءاته ، فقد استدعى الحكام العسكريون بعض وجهاء الضفة « وحذروهم من مغبة التحريض ضد اشتراك السكان في الانتخابات » كما واوضحوا « بأن جهاز الحكم العسكري لن يتوانى في اتخاذ التدابير ضد من يحاول عرقلة سير الانتخابات » . اما الطرف الآخر الذي استطاع الثالوث المسيطر في الضفة من حسر ظله هناك ، ألا وهو المقاومة الفلسطينية فانها تقف في وجه مهزلة الانتخابات لاسباب عدة نذكر اهمها كما جاء في بيان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية : ١ — « ان الاحتلال الصهيوني بدفعه الشعب الفلسطيني الى ممارسة الانتخابات البلدية المزعومة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، انما يهدف الى تحقيق مخططه الرامي الى فرض التعايش بين الشعب والاحتلال ، وكسب شرعية الاحتلال ، وبالتالي تكريس الاحتلال نهائيا في فلسطين المحتلة عام ١٩٦٧ » . ٢ — « لا شرعية في حالة الاحتلال الا للمقاومة ، اما اعمال سلطات الاحتلال واعمال المتعاونين مع الاحتلال فانها تقف في خط معاكس للمقاومة والشرعية » . كما وحذر البيان « الخونة والعملاء من تصعيد تعاونهم مع الاحتلال الى حد تسهيل مهمة اجراء الانتخابات البلدية » .

اما في قطاع غزة حيث لا زالت المحاولات الاسرائيلية العسكرية لتصفية المقاومة هناك على اشدها ، فان الاجراءات الاخيرة التي اتخذتها اسرائيل لتكريس احتلالها تتمثل في التالي :

١ — خلق زعامة تقليدية وتنميتها وعلى رأسها رشاد الشوا رئيس بلدية غزة الذي اخذ يقلد الزعامة التقليدية في الضفة الغربية في مواقفها (على النقيض من سلفه راغب العلمي) بالرغم من اختلاف الوضع في القطاع والضفة ، فمنذ مطلع هذا العام كان يحتل مع الجعبري مكانا بارزا في الحفل الذي أقامته السلطات الاسرائيلية بمناسبة تربع « دافيد اليعازار » رئاسة الاركان ، في الوقت الذي كانت فيه ثورة الجماهير في القطاع تتعرض لاشرس محاولة تصفية .

٢ — ربط مدينتي رفح وخانيونس بشبكة الكهرباء الاسرائيلية ، وبذلك يتم ربط مدن القطاع بهذه الشبكة بعد ان تم في الماضي ربط مدينتي غزة ودير البلح بها .

٣ — هنالك خطة لا تزال قيد الدرس لربط قطاع غزة بشبكة المياه الاسرائيلية ، ويعكف الخبراء في وزارة الزراعة على دراسة امكانية نقل المياه الجوفية التي اكتشفت مؤخرا في سيناء الى القطاع ، وربطه بشبكة المياه الاسرائيلية !

٤ — اعتزام شركة « لبيدوت » الاسرائيلية للتنقيب عن النفط ، البحث في المستقبل القريب عن البترول في ثلاثة أماكن في قطاع غزة تعتقد الشركة بامكانية اكتشاف النفط بها .

٥ — الشروع بتنفيذ « مرحلة الربيع » لتخفيف الكثافة السكانية في قطاع غزة ، استكمالا لخطة الهدم والتهجير والتشريد التي شرع بها في شهر تموز من العام الماضي ، والتي تم بها هدم حوالي الفي منزل وتشريد وتهجير حوالي ١٥ الف نسمة من سكان المخيمات . وبموجب « مرحلة الربيع » التي تأتي لاستكمال الخطة الانفة الذكر ، شرعت السلطات الاسرائيلية ببناء ضاحيتين بالقرب من رفح يشمل كل منهما ٦٠٠ وحدة سكنية ، كما تعتزم سلطات الاحتلال اقامة ضاحيتين اخريين ، الاولى

بالقرب من خانيونس وتتألف من ٢٥٠ وحدة سكنية، والثانية بالقرب من مخيم الشاطيء . وبمقتضى هذه الخطة سيتم تفريغ حوالي ١٦،٠٠٠ شخص من سكان المخيمات لاشغال المنازل الجديدة بغرض تخفيف الكثافة السكانية لتسهيل السيطرة على القطاع . ومن الجدير بالذكر ان هنالك من بين المهتمين في مشاكل القطاع ، لا يكتفي بتخفيف الكثافةالسكانية في المخيمات ، بل يرى ان الحل الانفضل يكمن في تخفيف الكثافة السكانية في القطاع برمته ، ويدعو الى « ايجاد وسائل لنقل جزء من سكان القطاع الى أماكن اخرى » اي الى الضفة الغربية والعريش . وهنالك طرف آخر يدعو الى ضرورة شطر القطاع الى شطرين سياسيا واداريا واقتصاديا بواسطة غرس مستوطنات في وسطه « الامر الذي يؤدي الى دمج القطاع باسرائيل » (هآرتس ٧١/١/٤) .

استغلال الايدي العربية العاملة : مثلما اقدمت اسرائيل على اتخاذ اجراءات لتكريس احتلالها للارض المحتلة ، وتسخير ثرواتها لخدمتها هي ، كذلك اقدمت على استغلال العامل العربي لصالح اقتصادها . وقبل التطرق الى وضع العمال العرب ، لا بد من الاشارة الى ان فكرة فتح باب العمل امام سكان المناطق المحتلة في اسرائيل كان يتنازعها تياران ، الاول يدعو الى فتح باب العمل تمشيا مع سياسة « الدمج الاقتصادي » التي ترسخ الاحتلال ويقف على رأسه وزير الدفاع موشيه ديان ، والثاني يدعو الى عدم السماح للعرب من سكان المناطق المحتلة بالعمل في اسرائيل « خشية تلويث العمل العبري » ويعارض سياسة « الدمج الاقتصادي » لتخوفه من ان يؤدي التكاثر الطبيعي لدى السكان العرب في نهاية الامر — اذا ما حدث تباطؤ في حركة الهجرة اليهودية — الى تحويل العرب من أقلية الى أكثرية ، ويقف على رأسه وزير المالية « بنحاس سبير » . وقد احتدم النقاش بين هذين التيارين في عام ١٩٦٨ الا ان الغلبة في نهاية المطاف كانت الى جانب التيار الاول .

ومن الجدير بالذكر انه كانت هنالك فرضية بقيت قائمة لمدة معينة بعد حرب حزيران تقول بأن المناطق المحتلة « ستشكل عبئا على الاقتصاد الاسرائيلي » الا ان هذه الفرضية انقلبت رأسا على عقب ، وحلت محلها حقيقة تقول بأن المناطق المحتلة عامل منعش للاقتصاد الاسرائيلي لاسباب عدة اهمها : ١ — استغلال اسرائيل لآبار البترول في سيناء ، وللثروات طبيعية اخرى . ٢ — فتح الباب امام المنتوجات الاسرائيلية في المناطق المحتلة . ٣ — تسخير الايدي العاملة العربية لخدمة الاقتصاد الاسرائيلي .

لم يفتح باب العمل في اسرائيل على مصراعيه أمام عمال المناطق المحتلة ، بسبب الصراع الذي دار بين جناحي سبير وديان ، الامر الذي دفع اللجنة الوزارية لشؤون المناطق المحتلة ايجاد حل وسط ، حين تررت في شهر آب عام ١٩٦٩ جعل الحد الاقصى للعمال العرب ٢٠ الفا، مع ان عدد العمال في تلك الفترة كان يناهز الـ ٢٧ الفا ، وفي شباط ١٩٧٠ ارتفع الحد الاقصى للعمال الى ٢٥ الفا ، وفي نهاية ١٩٧٠ وصل الى ٣٠ الفا ، وفي شهر آب ١٩٧١ قفز الى ٣٥ الفا ، اما في المدة الاخيرة فقد طرأ ارتفاع ملموس عليه ، فعندما استفسرت رئيسة الحكومة غولدا مئير اثناء اجتماعها بسكرتارية اللجنة الاقتصادية التابعة لكتلة « التجمع العمالي » عن عدد العمال العرب الذين يعملون في اسرائيل قيل لها : « بشكل رسمي ٤٢ الفا » .

ومن المعروف ان السلطات الاسرائيلية اشترطت عند تحديدها لعدد العمال العرب سلسلة من الاجراءات من بينها ، ان يتم تشغيل العمال العرب بواسطة « مكاتب العمل » التابعة للهستدروت ووفقا لقوانين العمل المعمول بها في اسرائيل ، وهذا يعني ان تتساوى معاشاتهم مع معاشات العمال اليهود ، وان يتم الدفع بواسطة مكتب العمل ، وان يأتي العمال العرب الى أماكن عملهم ويعودوا الى أماكن سكناهم برحلات منظمة .

للوهلة الاولى تبدو هذه الاجراءات بأنها تتسم بالانصاف ، الا انها تعتبر في الحقيقة عملية نهب منظمة للعمال العرب ، ذلك ان مكاتب العمل تقتطع حوالي ٤٠٪ من معاش العامل العربي على شكل ضرائب ، علاوة على اقتطاعها حوالي ١٠٪ مقابل رحلات السفر المنظمة . اي ان العامل العربي يتلقى من مكاتب العمل ٥٠٪ فقط من راتبه الاساسي او ما يعادل ٦٠٪ (اذا استثنينا تكاليف السفر) من معاش العامل اليهودي الذي تعود اليه الحسومات التي تقتطع من معاشه على شكل ايام

عطلة مدفوعة واجازات مرضية وعلاوات للاولاد وتعويضات وتقاعد ، بينما لا يعود شيء من هذه الامور الى العامل العربي ، بل تبقى في خزينة « مكاتب العمال » .

ولذا ، وهروبا من عملية النهب المنظمة ، يلجأ كثير من العمال العرب الى البحث عن عمل دون الالتجاء الى مكاتب العمل ، ومن هنا يتضح ان « آلافا » اخرى غير الـ ٤٢ الفا (الرقم الرسمي) تعمل داخل اسرائيل ، وقد ازداد عدد العمال « غير الرسميين » في الآونة الاخيرة على اثر الغاء الرحلات المنظمة .

يقوم العمال العرب بالاعمال التي تحتاج الى جهود شاقة مثل اعمال البناء وصناعة مواد البناء والانابيب والاسمنت ، وقد غدا فرع البناء يعتمد اساسا على العمال العرب اذ يشكلون في الوقت الحاضر حوالي ٦٠ ٪ من العاملين في هذا المضمار، ومن المتوقع ان تزداد نسبة العمال العرب في هذا الفرع عقب الغاء الرحلات المنظمة ، كما ويعمل قسم آخر في ميدان الزراعة في القرى اليهودية ، وتحتل العاملات العربيات مكانا بارزا في هذا الميدان ، ومن الجدير بالذكر ان هنالك فتيات تتراوح اعمارهن ما بين ١٣ — ١٥ عاما يعملن في الحقول الاسرائيلية الامر الذي يتنافى ويتناقض مع قوانين العمل الاسرائيلية ، وبالاضافة الى هذين الفرعين بدأ قسم من العمال العرب يعمل في مجال الصناعة الاسرائيلية ، ففي شركة « عسيس » على سبيل المثال ازداد عدد العمال العرب على عدد العمال اليهود (٣٥٠ من مجموع ٦٥٠) ومن الجدير بالذكر ان الفتيات العربيات يشكلن اكثرية في هذا المصنع ، وتتقاضى كل واحدة مقابل ٨ ساعات عمل ١٦ ليرة الا انها تحصل على ٨ ليرات فقط بعد اجراء الحسومات من قبل مكتب العمل .

هنالك ثلاث طرق امام العامل العربي للعمل في اسرائيل (١) بواسطة مكاتب العمل المنتشرة في المناطق المحتلة (٢) بواسطة المتعهدين العرب ، وهنا يتعرض العمال لنهب آخر من معاشاتهم من قبل المتعهد (٣) بواسطة المبادرة الفردية ، اي العمل دون الالتجاء الى مكتب العمل وبدون الحصول على تصاريح عمل ، مما يجعل هذه الفئة من العمال تعاني من وطأة الخوف من السلطات . وقد أدى هذا الوضع الى خلق نوع من « اسواق للعمال » تشبه الى حد كبير « اسواق النخاسة » كما جاء على لسان الصحفي الاسرائيلي « عامي شمير » . ففي بعض الاماكن « الاستراتيجية » خلق نوع من « اسواق العبيد العصرية » ، سوق يقع في الرملة بالقرب من البلدية ، وآخر يقع في حديقة في شارع « يافث » في يافا ، وثالث قرب « الساعة » في مدينة « بيتح تكفا » .

ما ثمن العامل العربي في هذه الاسواق ؟ يقول متعهد يهودي : «انهم في يافا مدللون — فهم يطلبون مبلغ ٢٠ — ٤٠ ليرة مقابل يوم عمل ، وحتى في هذه الاسعار ياتي اصحاب العمل ويأخذونهم . اما في الرملة ، فان الاسعار تأخذ في الهبوط وتتراوح ما بين ١٥ — ٢٠ ليرة ، بيد ان اكثرية هؤلاء هم عمال من غزة لا يساوون كثيرا » (ملحق هآرتس ١١/١١/٧١) .

ويصف « عامي شمير » سوق العمال في يافا بقوله : « يفتح سوق العمال الكائن في شارع « يافث » بيافا طيلة النهار ، وتعقد فيه الصفقات بشكل علني ، حيث يأتي متعهدون ، ومساعدو متعهدين ، ومواطنون عاديون يملكون بضاعة ويرغبون في نقلها او حديقة ويودون الاعتناء بها ، ويختارون لهم عاملا ، حسب الشكل ، وحسب العضلات ، وحسب السن ، ويشبه ذلك الى حد كبير اسواق النخاسة في كانو ، في القرن التاسع عشر » (ملحق هآرتس ٢٦/١١/٧١) .

لا تقتصر الاهانة على عملية « شراء » العمال العرب في هذه الاسواق بل تتعداها الى الحقول ، لتعيد الى الاذهان صورة « السادة والعبيد » في القرون الوسطى ، فكثيرا ما يحدث كما يقول « موشيه رنجل » مزارع من مستوطنة « مجشيميم » بالقرب من بيتح تكفا ان تقوم وحدات الرقابة التابعة لوزارة العمل بتعقب العمال العرب الذين لا يعملون عن طريق مكاتب العمل « انهم كانوا يأتون الى الحقول ، ويلقون القبض على العمال العرب ويشرعون بضربهم . كان العمال يهربون ، يطلقون سيقانهم للريح بشكل جنوني وسط الحقول ، ومن يلقى القبض عليه يتلقى نصيبه من الضرب ثم يزج داخل سيارة ، ويلقى به على بعد كيلومتر واحد من الحقول ، ويتلقى أمرا بالعودة الى بلدته على الاقدام ، التي تبعد في بعض الاحيان مسافة ٢٠ كم » .

وفي الوقت الذي تتعقب فيه وحدات المراقبة العمال العرب ، يتنافس المتعهدون اليهود للحصول على الايدي العربية العاملة ، وتصل هذه المنافسة الى حد « الخطف » عن طريق الاغراءات ، فكثيرا ما يحدث ان يأتي بعض المتعهدين الذيـــن يشتغلون لحساب متعهد يهودي آخر ، ويعرضون عليهم ٥ او ١٠ ليرات اضافة على المعاش الذي يتلقونه « وفي كثير من الاحيان لا يصمد الولاء للمتعهد الاول أمام اغراءات المتعهد الجديد » .

ولعل ما هو أكثر اهانة واشد خطورة ، الخطوة التي تعتزم القيام بها شركة اسرائيلية « لتصدير العمال » برئاسة « عكيفا سيغر » ، فقد استطاعت هذه الشركة الحصول على ثلاثة آلاف عامل عربي معظمهم من المناطق المحتلة « بغرض تصديرهم » الى اوروبا . ومن المعروف ان هذه الشركة تتعاون مع شركة سويسرية وشركتين فرنسيتين تقوم بصنع المصانع وتقدمها الى الشركات مع العمال ، وقد واجهت عملية تصدير العمال الفلسطينيين بعض الصعوبات بسبب « تخوف الدول الاوروبية من التنظيمات الفلسطينية ومن ردود الفعل في الدول العربية الا ان هذه الصعوبات قد ازيلت ، ويشترط على هؤلاء العمـــال ان يكونوا اصحاب مهنـــة ومزودين بتأشيرات دخول ، وان يتعهدوا بالعمل سنة واحدة على الاقل في البلدان التي سيرسلون اليها » (هعولام هزيه ٧١/١١/١٠) . وتعيد هذه الخطوة الى الاذهان صورة تجار الرقيق وهم يقومون بجلب الافريقيين الى اميركا عبر المحيط .

وقد بدأ بعض الاسرائيليين يتخوفون من التبعات الاجتماعية المترتبة على هذه الاوضاع ، ويصف «دان بابلي» ، وهو اقتصادي كان مقربا من جهاز الحكم العسكري هذه التبعات قائلا: «انها تنطوي على اهمية كبيرة ، ان واقع قيام العرب ببناء مستوطنات المهاجرين الجدد ، وبناء ضاحية « كريات اربع » في الخليل ، والاعتناء بحدائق مدينـــة سفيون ، وقيامهم بمعظم اعمال الخدمات ينطوي على خطورة شديدة . ان هذا الواقع يخلق فئة متدنية ... نوع من الرق العصري ... ولذا فهنالك معنى اخلاقي وستتضح خطورة ذلك بعد عشرين عاما ، خاصة عندما يقوم جيل جديد لم يكن في حرب الايام الستة ولم يجتز حرب ١٩٤٨ ولم يعش فتـــرة الكارثة . ان هذا الجيل سيجد صعوبة في تقبل وجود طبقة متدنية من السكان ، مميزة من الناحية الاثنية ، ومضطهدة في حقوقها . انهم لن يوافقوا على ضرورة ابقاء العرب حطابين وسقائي مـــاء لكونهم ارادوا ابادة اسرائيل في ايام غابرة » .

لا تقتصر خطورة حديث هذا الاقتصادي الاسرائيلي على كون العمال العرب يشكلون نوعا من الرق العصري فحسب ، بل ايضا على تصوره لمستقبل السكان في المناطق المحتلة ، نفس التصور الذي عبر عنه وزير الدفاع موشيه ديان قبيل انتهاء « عام الحسم » ، وايدته رئيسة الحكومة غولدا مئير بعيد « عام الحسم » « علينا ان نعتبر انفسنا في المناطق المحتلة كحكومة دائمة ، نقوم بالتخطيط والتنفيذ ..»

عبدالحفيظ محارب

رسالة من مجاهد قديم :
ذكريات عن القسّام

تلقت شؤون فلسطينية هذه الرسالة من السيد ابراهيم الشيخ خليل ، احد رفاق الشيخ عز الدين القسام ، الذي سبق لشؤون فلسطينية ان نشرت في عددها السابق دراسة عنه وعن ثورته الرائدة في تاريخ الكفاح الفلسطيني . وهي تتضمن ملاحظات وذكريات وتصويبات احب السيد ابراهيم لفت نظرنا اليها .

قرأت ما كتبه السيد عادل حسن غنيم عن ثورة الشيخ عز الدين القسام في العدد (٦) وكواحد من أبناء فلسطين فانني اشكر الاخ الكاتب على هذه اللفتة الكريمة الجادة وعلى جهوده في تقصي الكثير من الحقائق عن حقبة مشرفة من تاريخ شعبنا واعترف بأن الاخ عادل قد اولى هذا البحث القيم عناية فائقة واوفى الكثير من جوانبه . ولما كنت واحدا ممن كان لهم شرف العمل في صفوف الثورة وقد عاصرت أحداث تلك الحقبة جميعها مجاهدا في سبيل الله وذائدا عن حياض وطني الحبيب ومع ان هناك عدة نقاط في البحث تحتاج الى تصحيح فاني سأقتصر بحثي هذا على نقطتين هامتين : الانشقاق بين القائد الشهيد واخوانه في عام ١٩٢٩ ، والخلاف على جمع المال وبكل وسيلة كما جاء في البحث .

١ — لم يحدث انشقاق على الاطلاق بين القائد الشهيد واخوانه في عام ١٩٢٩ بل كان الوفاق على أتمه والانشقاق بمفهومه لم يحدث لا في حياة القائد الشهيد ولا بعد استشهاده ايضا والسبب بسيط جدا فان القائد الشهيد كان يدعو الى الجهاد على اساس ديني والجهاد في سبيل الله واستخلاص الوطن ودفع الظلم عن المواطنين ومفهوم الجهاد على اسس دينية لا يوجد به اشكالات ولا تعقيدات ايديولوجية او نفسية ولا أعماق ولا أبعاد وكل ما يتعلق بالجهاد محكوم بآيات قرآنية معروفة .

كان هناك شعار واحد تنطوي تحته كل مفاهيم الثورة (هذا جهاد ، نصر او استشهاد) والجهاد بالاصل فرض من فروض العقيدة الاسلامية ، وهو سهل الفهم والذي حدث بالفعل كان خلافا بسيطا على توقيت اعلان الثورة ففي اوائل عام ١٩٣٥ رأى القائد بأن المستعمر يراقب تحركات القساميين مراقبة دقيقة وكان القائد يتحسس بأن المستعمر سيعتقل النخبة الصالحة من اخوانه وافساد جميع مخططات الثورة قبل أن تظهر للمواطنين وكان رأيه الخروج الى الجبال والطواف بالقرى وحث المواطنين على شراء السلاح والاستعداد للثورة وكان رأي الاخ ابو ابراهيم وبعض الاخوان التريث في الخروج الى الجبال مسلحين بل الطواف بالقرى بدون سلاح وحث المواطنين على ما يلزم للثورة ولكن هذا الخلاف كان بسيطا جدا بحيث انه عندما حزم القائد أمره على الخروج الى الجبال كان يوجد في صندوق الجماعة مبلغ من المال قدره مائة جنيه فأخذه ابو ابراهيم من الصندوق وارسله الى القائد مع المرحوم الحاج علي الحلح من قريته يعبد وهذا دليل واضح على شكل الخلاف وبساطته .

٢ — اما موضوع جمع المال (بأية وسيلة) فلم يحدث أبدا اذ لم يكن الموضوع قد بحث بين القائد الشهيد واخوانه لا من بعيد ولا من قريب . والمال للثورة كان له مصدران مصدر الاشتراك

الشهري وكان جيدا والمصدر الثاني كان التبرع الطوعي والتبرع كان يجري على اسس العقيدة الاسلامية ويقع تحت حكم عدة آيات قرآنية كريمة « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون » « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

كان عدد كبير من اخوان القائد الشهيد بوضع مالي حسن وكان منهم المزارع الكبير والتاجر والمقاول وكانت أرباحهم وافية وكان العديد منهم يتبرعون بكل ما يملكون بعد سد حاجتهم اليومية واكثرهم أحياء يرزقون ولا اجد حاجة لذكر اسمائهم ، زد على ذلك ان بعض اخوان القائد الشهيد كانوا على صلات حسنة جدا مع بعض الاثرياء من المواطنين وكانوا يحصلون منهم على بعض المال طواعية وعن طيبة خاطر وعلى هذا لم يكن هناك حاجة الى جمع المال بالقوة او بكل وسيلة حتى بعد استشهاد القائد لم يحصل اي تعديل على وسيلة جمع المال الا بعد مدة وفي اواخر عام ١٩٣٨ حيث طبعت بطاقات عليها صورة مجاهد مسلح في دمشق بفئات مختلفة من النقد الفلسطيني وكانت تجيء طواعية ايضا وبهذه المناسبة سأروي هنا حادثة وانا شاهد عليها واحد عناصرها لتعلموا منها مدى استعداد المواطن الفلسطيني للبذل والتضحية بالمال والنفس وعناصر هذه الواقعة جميعهم احياء يرزقون .

كنت أنا شخصيا عنصرا في خلية عددها تسعة عناصر وذات يوم حضر مساعد قائد الخلية وطلب مني تبرعا محددا قيمته خمسة وسبعون قرشا فلسطينيا ودفعت المبلغ ولما كنت أنا اقدر منه على معرفة بيوت الرفاق طلب مني مرافقته للطواف على بيوت الرفاق واسم الرجل عارف ابراهيم مقيم في الاردن حاليا وفي الطريق قابلنا أحد الرفاق واسمه عبد القادر احمد عامل في سكة الحديد فطلب عارف منه المبلغ فقال عند عودتكما تجداننى في هذا المكان والمبلغ معي وفعلا وبعد عودتنا من المهمة وجدنا عبد القادر في نفس المكان ودفع المبلغ المطلوب الى الاخ عارف وتابعنا طريقنا وكان على بعد خطوات متجر بقالة لرجل من قرية البروة اسمه على ما أذكر ابو صالح وكان يعرفني فاستوقفني واستدعاني لداخل المتجر وبعد السلام قال لي الا تتقون الله فقلت بلى فقال والله يا ولدي ان عبد القادر يوم أمس اشترى من متجري كيس طحين بخمسة وسبعين قرشا واليوم وقبل ساعة احضر كيس الطحين وطلب مني شراءه وبعد الوزن كان الطحين يساوي ثمانية وستين قرشا دفعتها له وطلب مني استدانة سبعة غروش اخرى فدفعتها له وانا يا ولدي كما تعلمون ميسور الحال وبامكاني دفع عشرة جنيهات افتح يدك واستلم المبلغ ولكنني انكرت الواقعة وانكرت ان عبد القادر دفع تبرعا واستدرت لانادي على عبد القادر والذي كان لا يزال يقف مع رفيقي عارف ولكن الرجل توسل الي واقسم بأن عبد القادر لم يحدثه بهذه الواقعة ولكنه عرفها بفراسته واستنتاجاته الخاصة وكررت انا انكار الواقعة وانصرفت وفي الطريق اطلعت رفيقي على ما جرى مع صاحب المتجر فقال احسنت لانك أنكرت الواقعة ولكن هذا الرجل صالح وقد وضعناه منذ مدة تحت المراقبة وان كل المعلومات التي وصلت عنه الى الان تشير الى صلاحه وسنستفيد منه بعد ان نرفع مراقبتنا عنه هذه الواقعة بما فيها من معاني البذل والتضحية وغيرها من القرائن كفيلة بأن تدلل على تلك الروح في ذلك الوقت .

أما النقاط الثلاث التي ناقشها الكاتب في ختام بحثه فان بعضها يحتاج الى تعديل بسيط والباقي أصاب به الكاتب كبد الحقيقة وخدمة للتاريخ اكتب مشاهدتي الفعلية وان القول بأن القائد الشهيد قد اقتصر دعوته على العمال والفلاحين فربما كانت لمدى، علما بأن الاستعانة بالضباط المدربين كانت تحدث كثيرا وسأروي الواقعة التالية التي أنا من بعض شهودها .

عندما قرر الشيخ سلمان عبد القادر ابو حمام قائد منطقة الجليل في جنة خوض معركة كبيرة في قضاء عكا وتكون ذات أثر فعال طلب من السيد فارس سرحان استدعاء الضابط المتقاعد السيد احمد عجينه من عكا الى بيته في قرية الكابرة وحضر الشيخ سلمان الى القرية المذكورة واجتمع مع الضابط المذكور واطلعه على رغبته وطلب منه دراسة المنطقة الممتدة من قرية الكابرة الى قرية ترشيحه على الشارع العام واختيار المكان المناسب للمعركة وفعلا اخذ الضابط المذكور يتجول في المنطقة برفقة فارس سرحان وكامل القاضي تحت ستار ملاحظة اعمال وعمال السيد سرحان وقد

درس السيد عجينه المنطقة على الطبيعة دراسة وافية ورسم مخطط المعركة بدقة وناقشه مع الشيخ سلمان بحضور السادة المذكورين ووضع في المخطط المكان الذي سيكون متواجدا فيه لمراقبة المعركة وشرح اخطاءها فيما بعد وسلم المخطط لقائد المعركة ورتب القائد المعركة حسب المخطط ترتيبا ممتازا واضعا بحسابه جميع الاحتمالات واوعز الى السيد فارس سرحان بأن يرسل من عماله من يخبر البوليس في عكا بان قوة من الثوار موجودة في منطقة (كذا) وبالفعل تم ذلك وخرجت قوة من البوليس البريطاني واليهودي والعربي بقيادة الضابط حسن المكاوي مدير بوليس عكا ودارت المعركة في الصباح ولكن حسن المكاوي لم يستطع مجابهة القوة فاستنجد بقوات الجيش البريطاني وقبل الظهر حضرت قوات الجيش ودارت معركة طاحنة على مساحة عدة كيلومترات على الطريق الممتد من الكابرة الى ترشيحا وقد عرفت المعركة فيما بعد بمعركة ترشيحا . وكانت من اعنف المعارك التي حصلت في منطقة الجليل عام ١٩٣٦ حتى ان المستعمر الغاشم استمر يومين كاملين بعد المعركة يجمع جثث قتلاه من بين الصخور والاحراش. هذه المعركة كانت بحق هي بداية الثورة الملتهبة في جميع انحاء الجليل . واني واثق كل الثقة بأن العديد من اهالي قرية ترشيحا والذين ساقهم المستعمر بأعقاب البنادق ورؤوس الحراب الى ساحة المعركة لجمع قتلاه لا يزالون من الاحياء . وبعد انتهاء المعركة كان تقرير الضابط السيد عجينه بأنه لم يتوقع ان يكون سير المعركة بالشكل الذي جرت به وان التكتيك الذي اتبع تجاوز التكتيك الذي وضعه وبشكل اقوى واعم . واما عدد الذين جندتهم ثورة الشيخ القسام فأني اعلم ويعلم كذلك كثير من اخواني الاحياء بأن عددهم قد تجاوز المئات وانه باعتقادي يربو على الالاف . أما بالنسبة لتبعية القسام وارتباطاته بحزب معين فان الذي أعرفه معرفة حقيقية ويعرفه العديد من اخواني الاحياء امثال ابو ابراهيم الكبير والشيخ سلمان ابو همام ومحمد عبد القادر ابو الهيجاء وحسن شبلاق والحاج حسين حماده واحمد التوسبه والشيخ محمد الحنفي ومحمد علي دلول وغيرهم كثيرون بأن القائد الشهيد لم يكن له أي ارتباط حزبي مع اي حزب من الاحزاب وان ارتباطه الوحيد كان مع العقيدة الاسلامية وحدها وكان رحمه الله يستمد منها كل ما كان يدعو اليه واما الاسماء المذكورة في البحث وانا أجلهم جميعا فاني أعلم علم اليقين واخواني المذكورين اعلاه يعلمون بأن القائد الشهيد كان على صلات وثيقة معهم وبصورة خاصة من كان منهم يقيم في حيفا وكانوا جميعا على علم بأكثر تحركات القائد الشهيد واخوانه حتى ان اخوان القائد الشهيد بعد استشهاده لم يقطعوا صلاتهم بالاسماء المذكورة بل زادت صلاتهم عن ذي قبل وان سفارة الشيخ كامل القصاب بين حيفا والقدس كانت معلومة الى الكثير من الاخوان .

ابراهيم الشيخ خليل

الوثائق العربية

مجموعة لأهم الوثائق العربية السياسية ، من تصاريح وخطب ومقابلات وبيانات وبرامج حزبية وغيرها من الوثائق للدول والاحزاب والشخصيـــات السياسية العربية .

تصدر سنويا عن الجامعة الامريكية في بيروت منذ ١٩٦٣ .

ثمن المجموعة السنوية اربعون ليرة لبنانية او ما يعادلها .



مطبعة الغريب
بيروت

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): LL. 30 in Lebanon and the Arab World, LL. 50 ($ 16) in Asia, Africa and Europe; LL. 80 ($ 26) in the Americas and Australia; *Annual Subscription* (Surface mail): LL. 40 ($ 13) in countries outside the Arab World. *Address:* P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٢١/٢ ل.ل. في الوطن العربي او ما يعادلها